الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر -باتنة -

كلية الآداب واللغات.

قسم اللغة العربية وآدابها.

رقم التسجيل:

الرقم التسلسلي:

مرجعيات الهوية الثقافية الأندلسية

دراسة في التواصل الثقافي

خلال عصر ملوك الطوائف

(422هـ/1031م – 484هـ/1092م)

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الأندلسي.

إعداد الطالب:

✓ منصف شلي.

إشراف:

أ.د. الطيب بودربالة.

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د. محمد منصوري – جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. الطيب بودربالة – جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
د. عبد الله خنشالي – جامعة باتنة	عضوا مناقشا
أ.د. محمد العيد تاورتة – جامعة قسنطينة1	عضوا مناقشا
أ.د. فتحي بوخالفة – جامعة مسيلة	عضوا مناقشا
د. لمين بحري – جامعة بسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2013 د – 2014 م

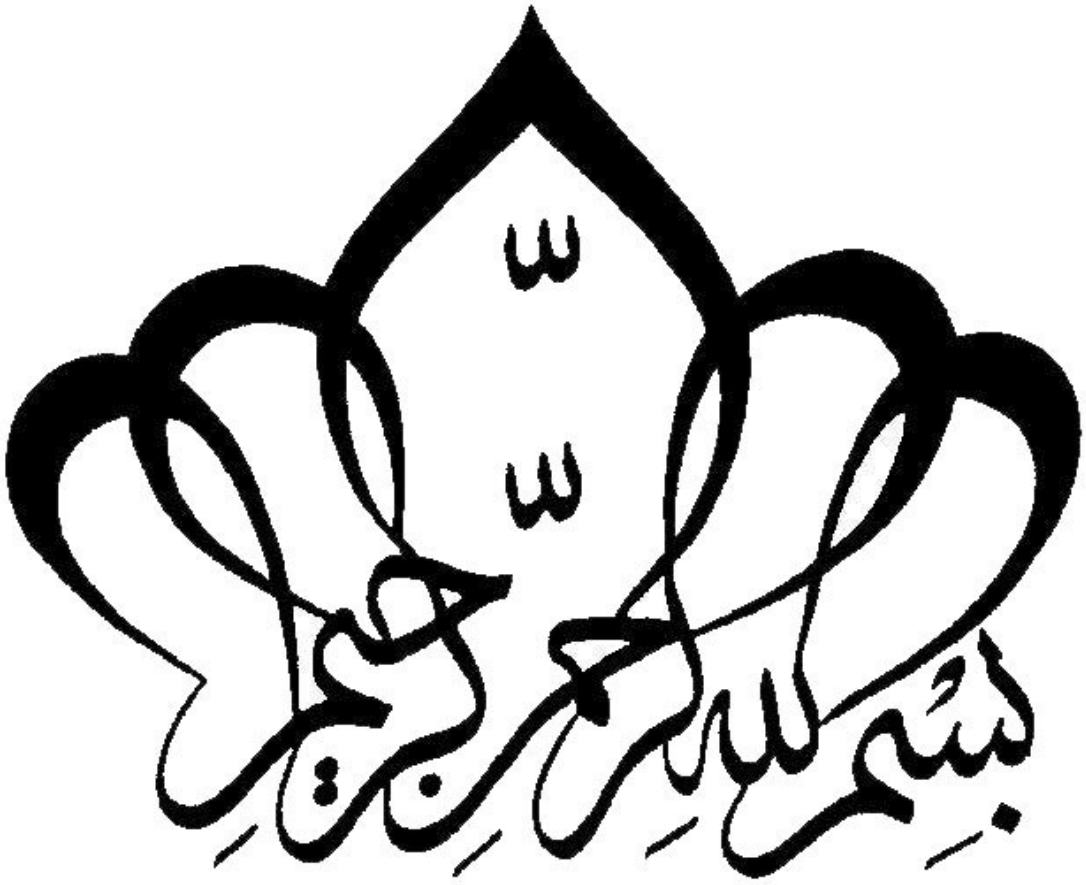
بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى والـدي -رحمه اللّٰه -الذي توفي قبل أن يرى هذا المولود العلمي يخرج إلى النور.

إلى جدّي وجدّتي -رحمهما اللّٰه -

إلى والدتي العزيزة أطال اللّٰه في عمرها.

إلى زوجتي الوفية التي كابدت معي عناء ومشقة هذا البحث، وإلى ولديّ عبد الودود وهاشم.

وإلى إخوتي وأخواتي.

أهدي هذا العمل علّني أكون قد وفّيت بعض ما عليّ من دين

‘‘إذا كانت الذاكرة انتقائية، والشعوب انتقائية في اختيارها لذكرياتها، فإن العرب والمسلمين قد اختاروا الأندلس، بصمت ودون اتفاق فيما بينهم، لتكون ذكرى حية في قلوبهم لا تموت.’’

سلمى الخضراء الجيوسي

‘‘... وبعد فإن المجد ما زال ينتظر كاتبا يحسن الحديث عن الأندلس’’

أحمد الطاهر مكي

‘‘...ترى هل سيدركنا هذا المجد ؟

الباحث

مقدمة:

يختلف الحديث في التراث، عن غيره من المواضيع الأخرى، فسمة الخصوصية والتميز هي ما يميز البحث العلمي المتعلق بالتراث الإسلامي على اختلاف حقوله المعرفية، وتخصصاته المتنوعة.

والحديث عن تراث الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس) بالذات يحمل من الذكرى الشجية ما لا يمكن وصفه، وإنني مدين لهذا الشعور الجارف الذي ما زال يجتاحني إلى الغرب الإسلامي، منذ كنت طالبا في الطور الأول من الدراسة الجامعية.

إن احتفالنا بالتراث الأندلسي كبير جدّا، يرتدُّ إلى فترات مبكرة من عمر البحث العلمي الذي حزناه، وحين لجّ الداعي وأزف وقت البحث والتنقيب وجدتني أستسلم لشعوري، وأستجيب لهذا الداعي، وكأنني مغامر يبحث وراء طالعه.

وكان واجبا عليّ أن أكمل المسيرة في التخصص نفسه، بعد أن أنهيت منذ سنوات خلت، رسالة الماجستير التي وُسمت " القضايا النقدية والبلاغية في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي".

وعليه فقد حاولنا إتمام هذا المشوار الأكاديمي، في هذا الفرع الزكي من فروع الأدب العربي القديم، فكان موضوع بحثنا المقدّم من أجل نيل دكتوراه العلوم بعنوان " مرجعيات الهويّة الثقافية الأندلسية، دراسة في التواصل الثقافي خلال عصر ملوك الطوائف" .

أما عن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع، فمنها الذاتية و منها الموضوعية، ويمكن إيجازها في النقاط الآتية:

1 - الحب الكبير الذي نوفّيه لفردوس المسلمين المفقود في أوربا.

2 - قلة الدراسات – على كثرتها –في التراث الأندلسي خاصة المتعلقة بحقبة الطوائف.

3 - إن التراث الأندلسي الذي ناهز ثمانية قرون كاملة، جدير باستكمال حلقة الدرس والبحث فيه، و إعمال الفكر، وإعادة النظر بعد النظر فيه، وخاصة في بعض الفترات التي تحتاج من الباحث الوقوف عندها طويلا وإبراز معالمها.

4 - توفر مكتبتي الخاصة على كثير من كتب التراث الأندلسي في مخلتف فروعه (أدب، نقد، فقه، حديث، أصول، قراءات، تاريخ ....وغيرها).

5 - إكمال المسيرة العلمية في التخصص نفسه الذي بدأناه في مرحلة الماجستير.

إننا بمحاولتنا البحث في موضوع التراث الأندلسي، والثقافة الأندلسية في هذا الإطار الزمني المحدّد، نكون قد وضعنا نصب أعيننا أهدافا سطّرناها بغية تحقيقها، يمكن أن نوجزها في مايلي:

1 - السموّ بالدراسات الثقافية الأندلسية، والبحث عن المرجعيات والثوابت المشكّلة لبينة الخطاب الثقافي الأندلسي.

2 - السّعي وراء إعادة بعث التراث الأندلسي وإحيائه وإعادة قراءته واستحضار نصوصه، وخاصة إذا وُظفت مناهج حديثة تفك منغلقاته ، و تسبر أغواره، وتكشف عن مكنونه وتجلي حقائقه ومضامينه القيمية التي تشكل جوهره بشكل عام.

3 - محاولة استبطان الحمولة الثقافية الأندلسية في عصر الطوائف (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) وهو أزهى عصر لهذه الثقافة رغم الاضطراب السياسي؛ وذلك لإبراز هذه المفارقة.

4 - إيمانا منا بالمحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وتحديد شخصيتها والمحافظة على ديمومتها، ارتأينا تقديم هذه الدراسة لعلّها تُسهم في الحفاظ على هذه الهوية.

5 - إن الثقافة الأندلسية عربية اللسان، روحها الإسلام، عاشها هذا القطر البعيد عن مركز العروبة والإسلام في المشرق، بكل مكوّناتها وأبعادها، و امتزاج الأعراق الذين شكّلوها وكوّنوها وحدّدوا معالمها. والتأصيل لهذه الهوية يمر حتما عبر التأصيل لثقافتها، ولأهمّ مكوّنات الإبداع فيها، و هذا أخص أهدافنا، وهو التأصيل للشخصية الثقافية الأندلسية.

وقد انطلق البحث من إشكالية أساسية هي: البحث في ثوابت ومرجعيات الثقافة الأندلسية، والتي تشكل ملمحا رئيسا للشخصية العلمية، حيث تتميّز عن غيرها.

وهذا الطرح يقودنا إلى طرح آخر، وهو شمولية أو كلية الظاهرة الثقافية الأندلسية، انطلاقا من مرجعياتها المختلفة وعوامل نهوضها الثابتة منها والمتحولة.

وقد سار هذا البحث وفق خطة رسمناها كالآتي:

أربعة أبواب بعد المقدمة و التمهيد؛ الباب الأول جاء بعنوان: الأندلس، جغرافيا وسياسيا، اجتماعيا واقتصاديا، وقد ضم ثلاثة فصول متممة لبعضها.

الفصل الأول تحدثنا فيه عن جغرافية الأندلس ودلالة الاسم، ثم التاريخ السياسي بدء من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى عصر الطوائف، وقد وقفنا مطولا عند الفتنة البربرية وأهم أسبابها.

الفصل الثاني عالجنا فيه انهيار الوحدة الأندلسية وقيام إمارات الطوائف، وقد حاولنا فيه توزيع هذه الإمارات على دوائر اسمية لتيسير البحث لا أكثر، ففي الدائرة العربية تبرز ممالك: بني عباد وبني هود وبني قاسم و بني حمّود، أما في الدائرة البربرية فقد تحدثنا عن مملكة بني زيري الصنهاجيين وبني الأفطس، وبني ذي النون، وسهلة بني رزين، أما عند الموالي فنجد دولة الجهاورة بقرطبة، والفتيان العامريين في دانية مجاهد و مبارك ومظفر ثم زهير وخيران.

هذا وقد ركزنا على الدول والممالك التي لها شأن في الحياة الثقافية، أما الدول الأخرى الصغيرة وما أكثرها فقد مررنا عليها سريعا، قبل أن نتناول مواقف الطبقة المثقفة من تحلل السلطة وانهيار الحكومة المركزية.

أما الفصل الثالث فقد خصصناه لمكونات الشعب الأندلسي والعناصر الإثنية التي تشكل منها قبل وبعد الفتح الإسلامي، وأثر ذلك في تشكيل الهوية الأندلسية، ثم تطرقنا إلى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

أما الباب الثاني فقد وسمناه :" الازدهار الثقافي في عصر الطوائف ،أسبابه وعوامله، حيث قسمناه إلى فصلين، الفصل الأول كان مخصصا للعوامل والأسباب التاريخية التي كانت

سببا في نهضة الأندلس في عصر الطوائف، مثل الإرث الثقافي العظيم لعصري الإمارة والخلافة، والعهد العامري، مع وصفنا للحياة العلمية إجمالا في هذه الفترة.

والفصل الثاني خصصناه للحديث عن العوامل الأخرى التي أدت إلى ازدهار عصر الطوائف ، منها الرحلات العلمية التي قام بها الأندلسيون إلى ربوع أقطار العالم الإسلامي طالبين العلم باحثين عن المعرفة، وعرّجنا على وسائط الثقافة الأندلسية مثل المساجد والمدارس والكتاتيب، ودرها في هذا التوهج الثقافي. وكذا المكتبات وهواة الكتب، دون أن ننسى الدور العظيم الذي لعبته المرأة الأندلسية في عملية التثقيف والتعليم.

وجاء الباب الثالث تتويجا للبابين السابقين، فقد خصصناه للحديث عن التواصل الثقافي بين الأندلس ومختلف الحواضر الإسلامية، وأثر ذلك كله في تشكيل الهوية الثقافية للأندلس. فمن حواضر المشرق ذكرنا الحجاز والقدس والعراق، وكيف تواصلت الأندلس وتفاعلت ثقافيا معها. ومن حواضر الغرب الإسلامي وهو عنوان الفصل الثاني لهذا الباب، ذكرنا مصر التي ألحقناها بفضاء الغرب الإسلامي وكذا حواضر المغرب الأقصى والجزائر (المغرب الأوسط) ، وإفريقية (تونس)، دون أن ننسى التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية.

وأفضينا أخيرا إلى الباب الرابع، حيث جعلناه مسك الختام وكان حاملا للعنوان الآتي: تعدد الحواضر الأندلسية ودور الأسر الحاكمة في الحركة العلمية، وقد تناولنا جملة من النقاط الأساسية التي سبقت الفصلين، منها دور الأسر الحاكمة ووزرائها وكتابها ومواليها في الحركة العلمية، مع تعدد الحواضر الذي خلق جيوبا ثقافية متعددة.

وكانت حواضر الموالي مثل حاضرة بني جهور في قرطبة، ومجاهد العامري في دانية، في طليعة الحواضر التي أسهمت في صنع الملحمة الثقافية لأندلس الطوائف، ثم تعقبها الحواضر العربية والمجد العلمي الهائل الذي خلّفته، مثل حواضر بني حمّود وبني عبّاد وبني صُمادح، وبني قاسم وبني طاهر.

أما الحواضر البربرية فكانت الرحيق المختوم لهذا الباب وذلك من خلال البصمة المتميّزة التي طبعتها في مجال العلوم والمعارف، من هذه الحواضر، حاضرة بني زيري في غرناطة، وبني ذي النون في طليطلة، وبني رزين في السهلة أو شنتمرية الشرق.

ثم أوجزنا بحثنا بجملة من النتائج ، كانت خاتمة بحثنا ، وقد ذيلنا بحثنا بثبت لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدناها في هذه الأطروحة.

و من أجل تحقيق الأهداف المرجوة من هذه الخطة ، ارتأينا اتخاذ منهج للدراسة ، يجمع بين التاريخي والوصفي؛ حيث نبحث في تاريخ الأعمال والأعلام، ونصف الظاهرة الثقافية بغية تحديد خصائصها واستجلاء مميّزاتها.

وما دام البحث تراثيا ، فمادته الأولى والأصلية هي المصادر، وهي قوامه وعماده، فلا يستقيم البحث التراثي دون العودة إلى مظانّ هذا التراث وأصوله الأولى.

ولصعوبة المادة التراثية لجأنا إلى المصادر المحققة ، وأهملنا غير المحققة ، إلا ما نذر ، بل وفاضلنا بين كثير من التحقيقات، إذ الأعمال والتحقيقات مختلفة باختلاف تكوين الباحثين أنفسهم وتوجهاتهم.

وإذا عرض لنا مصدران أحدهما مشرقي والآخر مغربي أو أندلسي، قدّمنا المصدر الأندلسي على المغربي، و المغربي على المشرقي، لقرب المكان ومعايشة الحدث لا أكثر، إلا إذا وقعت الأحداث في نطاق اختصاصها، هنا فقط نتجاوز هذه القاعدة.

وقد توزّعت مصادر البحث على دوائر مختلفة:

أ - <u>كتب التاريخ الخالصة:</u>

وهي عماد هذا البحث وخاصة في الفصل الأول منه، في الظروف السياسية والأحداث التاريخية التي أدّت إلى قيام دول الطوائف، وصراعاتها فيما بينها، حتى سقوطها، وبقيت هذه الكتب مصاحبة للبحث في كل مسيرته، من هذه الكتب:

البيان المغرب لابن عذاري المراكشي (ت بعد 712 هـ)، وخاصة الجزء الثالث منه، والملحق التاريخي مجهول المؤلف الذي نشره ليفي بروفنسال

ذيلا على هذا الجزء، وكذا كتاب لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام، إضافة إلى كتاب عبد الواحد المراكشي: المُعجب، وكتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول.

وفي بعض الأحداث اعتمدنا كتابي " تاريخ الأمم والملوك" للطبري، و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير، وغيرها من المؤلفات التاريخية.

ب - كتب التراجم والطبقات:

وهي المادة الأساسية لهذا البحث، وقد صاحبت هذا العمل من أوله إلى آخره، و في كل فصوله وأبوابه، وهي الركيزة والمعتمد لتخريج الرجال، والأعلام الذين شكّلوا البنية الثقافية لأندلس الطوائف، لعل أهمها في هذا الباب:

تاريخ ابن الفرضي 403هـ)، و"جذوة المقتبس" للحميدي 488هـ)، و"بغية الملتمس" للضبي 599هـ)، و"الصلة" لابن بشكوال 587هـ)

وكتاب "التكملة لكتاب الصلة" و "الحلة السيراء" لابن الأبار القضاعي البلنسي ()، و"قلائد العقيان في محاسن الأعيان" و"مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلح أهل الأندلس" للفتح بن خاقان، و غيرها من كتب التراجم والطبقات.

ج - كتب الأدب والأخبار العامة:

وهي كتب الأخبار الأدبية بما حوته من تاريخ وتراجم وأعلام، ومادة هائلة، وهي في الغالب موسوعات ضخمة، لعل أهمها:

"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، لابن بسام الشنتريني ()، وكتاب "نفح الطيب" للمقري التلمساني 1041هـ).

د - كتب الفهارس و الأسانيد:

وهي أشبه بالكشاكيل المعرفية التي حوت المؤلفين بمؤلفاتهم وطرق إسنادهم وانتقالها بين أهل العلم من الأجيال المختلفة، لعل أهمها:

"فهرسة" ابن خير الإشبيلي () فيما رواه عن شيوخه، و"المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي " لابن الأبار القضاعي.

هـ - الدواوين:

وهي دواوين الشعراء، وخاصة شعراء الطوائف، مثل ديوان ابن الحدّاد القيسي، وديوان ابن عمار، وديوان ابن اللبّانة وغيرهم.

أما عن الصعوبات التي اعترضت طريقنا في البحث فيمكن إيجازها فيمايلي:

- كثافة المادة و تشعبها، إذ لا يخفى على الباحث اللّقِن صعوبة النصوص التراثية في تخصص واحد، فما بالك بتخصصات شتىّ تناولناها في هذا الموضوع.
- كذلك طُرح إشكال منهجي، يتمثل في صعوبة التأطير الزمني للأعلام الذين عرضنا لهم وأعمالهم بالبحث والدرس، فالتاريخ حلقات متّصلة يصعب الفصل بينها، سوى في المسمّيات المتعلقة بالأعصر، وهذا من أجل تسهيل الدراسة وتيسير سُبل البحث لا أكثر. فقد واجهنا سيلا من الأعلام الذين وُلدوا وعاشوا دهرا طويلا في فترة الخلافة والعهد العامري، ولكنّهم أدركوا عهد الطوائف، وبالتالي فهم مخضرمون، فكان لزاما علينا إدخالهم في الإطار الزمني لهذه الدراسة، مثل ابن حزم الأندلسي 456هـ) وابن عبد البر النمري 463هـ) وغيرهما.

ومنهم من عاش طويلا في فترتي الخلافة والعهد العامري وزمن الفتنة، ولكنه أدرك عصر الطوائف يسيرا، مثل ابن شهيد 426هـ)، وأبي عمر الطلمنكي 429هـ)، ومكي بن أبي طالب القيسي 437هـ) وغيرهم.

ولكننا لم نُدخل في هذه الدائرة إلا من ثبتت مشاركته في الحياة العلمية في عصر الطوائف، وبانت آثار إسهاماته العلمية والفكرية على الأجيال اللاحقة التي عاشت عصر الطوائف أو معظمه أو بعضا منه.

والدائرة الثانية، حيث زمرة من الأعلام ولدت في نهاية عصر الطوائف، وعاشت ردحا من الزمن في عصر المرابطين، أو كل عصر المرابطين، و بالتالي فهم مخضرمون عاشوا عصري الطوائف والمرابطين.

مثل ابن رشد الجد 520هـ)، وأبو بكر بن العربي 538هـ)، و أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني 520هـ) وغيرهم، غير أننا كذلك أدخلنا في هذه الزمرة من ثبتت مشاركته العلمية، وإسهاماته المعرفية ثبوتا قطعيا في عصر الطوائف.

- صعوبة ضبط المادة وتداخل التخصصات، فقد تجد الرجل أديبا وشاعرا وفقيها ومحدثا وأصوليا وطبيبا وفيلسوفا ورياضيا، فضمن أي حقل يمكن أن يصنّف ؟

فإذا ذكرناه في التخصصات جميعا فإن الباحث يقع تحت طائلة التكرار، وهذا مشين في البحث العلمي، و نعترف بأننا وقعنا في إشكال كبير من هذه الناحية، ولكننا غلّبنا ما غلب على نتاج الأعلام، فأخضع كل عَلَم إلى دائرة التخصص المناسبة له حسب ما غلب على نتاجه.

ولا يخفى على أهل النظر من ذوي الاختصاص في البحث التراثي بعض التصحيفات التي تقع أو تعتري الأعلام، مثل تشابه الأسماء والكنى، واختلاف التواريخ (الميلاد، الوفاة) وهو ما يؤثر على

الإطار الزمني للدراسة، إذ العصور قريبة وقصيرة، فمثلا عصر الطوائف يشغل حوالي ستين سنة، وعصر المرابطين مثل ذلك أو أقل.

فاضطررنا في أحايين كثيرة إلى التحقيق في الأسماء التي وقع فيها اللَّبس، واعتراها التصحيف أو الشكّ، وذلك بالرجوع إلى أكثر من مصدر، وضبط هذه القضية ضبطا منهجيا، مراعين في ذلك الترتيب الزمني للمصادر، والمفاضلة بين الآراء وتحكيم رأينا في بعض الأحيان، مع تصحيح تواريخ الوفيات في كثير من المصادر والمراجع التي مرّت بنا.

ولا نزعم أننا حزنا قصب السبق في هذا المضمار، فعديد الدراسات قد أنجزت في تخصص الأدب الأندلسي و بالضبط في عصر الطوائف.سواء رسائل وأطروحات جامعية أو بحوث ودراسات مستقلة.

وننوه هنا بالدراسة المستفيضة التي تقدم بها الباحث سعد عبد الله البشري إلى قسم التاريخ بجامعة أم القرى في مكة المكرمة بعنوان "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف" والدراسة الثانية التي قدّمتها الباحثة سهى بعيون إلى كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت بعنوان" إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس في عصر الطوائف".

ولست أغالي في الحكم أو أشتطّ في التقدير إذا زعمت أو أقررت بعمق الدراسة الأولى، مقارنة مع الثانية، بالرغم من جديّة الدراسة الثانية وتميزها كذلك.

ولكن طابع التاريخانية يطغى على الرسالتين معا، فهما عبارة عن إحصاء لتاريخ العلوم والتخصصات المختلفة في عصر الطوائف.

كذلك وقوع الباحثين في أخطاء منهجية جسيمة، مثل اعتمادهما في كثير من فصول رسالتيهما على مصادر ومراجع حديثة في توثيق أحداث تاريخية

متعلقة بعصر الطوائف، وإهمالهما لبعض المصادر الأساسية التي تدخل في نطاق التخصص على أهميتها وتوفرها ! .

أضف إلى ذلك أن الباحثة سهى بعيون قد وقعت في بعض المغالطات الجغرافية في أسماء المدن التي نسبتها إلى غير موطنها الأصلي، فمثلا قد نسبت بعض المدن الجزائرية إلى المغرب، على الرغم من وضوح القضية حتى عند الجغرافيين القدامى.

ولا يعني ذلك أن نرمي الباحثين بلائمة تنقص من أقدارهم أو نعيب عليهم ما يحطّ من أمرهم.

وقد حاولنا في دراستنا هذه تجنب التاريخانية، وإن صاحبتنا طوال البحث، وقد اجتهدنا قدر المستطاع ، وهذا جهد المقلّ .

وإننا نستطيع أن نقرر أن الطريق لا يزال طويلا في هذا الموضوع الثقافي الشيق.

وأنوه في ختام هذا المسلك بالمجهودات الطيبة، والعطاءات العلمية والمعرفية السَّنيّة، والتصويبات والاستدراكات المنهجية السديدة التي أفادنيها أستاذي المشرف الدكتور الطيب بودربالة، طوال بحثي هذا، وقد كان كذلك من قبل معي في مرحلة الماجستير .

والله أسأل التوفيق والسّداد، فإن أصبنا فبتوفيق منه، وإن أخطأنا وقصّرنا فعزاؤنا في قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

والحمد لله أولا وآخرا

تمهيد:

الحديث عن الأندلس أو الفردوس المفقود حديث ذو شجون، ويحمل من الذكرى العزيزة على قلب كل امرئ مسلم ما لا يمكن أن يوصف؛ لأنه قطر إسلامي غادَرَنا إلى غير رجعة ذات يوم من عام (1492م) بعد أن احتضن الإسلام والعربية في عناق غير مفارق منذ سنة الفتح (92هـ -711م) إلى غاية السقوط الأخير، أي مدّة ثمانية قرون كاملة.

ولكن ورغم هول خاتمة هذا المصر الإسلامي من حيث الخسارة والفقدان، وعلى الرغم مماّ تخلّلَ تاريخه من اضطراب سياسي عميق ، تمثّل في تعاقب مختلف الدويلات عليه، و ألوان من الحكومات، والمنازعات والهزّات التي أصابت أعماقه ومسّت مختلف بنياته، سواء بين أبناء الملّة الواحدة أو بينهم و بين أبناء الملة الأخرى، فإن تاريخه الثقافي المشرق الوضّاء ليطغى على الجانب الأخر المظلم منه، بل إن هذا الأخير لا يكاد يذكر أمام الجانب الأوّل .

هذا ما دفع بأحد أئمة الاستشراق إلى القول :" إن البحر الأبيض المتوسط عندما أصبح بحيرة إسلامية لم يتحوّل في نفسه إلى بحيرة همجية، أو بحر مظلم ، كثيف الضباب ،لا تقوم عليه أية منارة تنير في قادم الأيام جوانبه وشواطئه "[1]

أما الأستاذة لوسي لوبيز بارالت (Luce Lopez Baralt) فلا تتحرج من إقرار تلك الحقيقة الساطعة في مقال لها بعنوان :" **التراث الإسلامي في الأدب الإسباني**" قائلة :"سيكون من غير الإنصاف أن لا نسلم أن إسبانيا الإسلامية كانت أعجوبة ثقافية حقيقية في سياق الوجود الأوروبي في العصر الوسيط، لقد كان العرب هم من أوصلوا الأندلس إلى قمم شاهقة من المعرفة العلمية والإنجاز الفني ،لم يبلغها أي بلد آخر في أوروبا خلال هذه الفترة، و هي فترة يمكن أن نطلق عليها " العصر الوسيط " أو " العصور المظلمة." بالنسبة للقارة، لكن ذلك لا يصدق بالتأكيد على شبه الجزيرة ."[2]

إذن فالثقافة هي عنوان هوية الأمم و الشعوب، والناطق الرسمي باسم الحضارات، هي باختصار كما قال أحد الباحثين:"إن الثقافة هي فلسفة حياة متفائلة."[3]

---

1 ليفي بروفنسال :الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة :الطاهر أحمد مكي، دار المعارف،القاهرة، ط 3 ،1994م، ص 99.

2 ترجمة: فخري صالح ،بحث ضمن كتاب "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس " تحرير:سلمى خضراء الجيوسي ،مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط2 ، 1999م، ج1، ص 744.

3 كمال الدين عيد: الثقافة رهان حضاري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 1، 2007، ص 112.

والثقافة هي ما يحتكم إليه كلّ باحث في تاريخ الأندلس و حضارته و ازدهاره، فثقافة هذا القطر تجبّ الحديث عن كل سوءاته وإخفاقاته واضطراباته، إنها بالفعل فلسفة حياة الأندلس .

ولكن الحديث عن ثقافة ثمانية قرون كاملة بكلّ مكوّناتها ومرجعياتها وأبعادها المختلفة، هي إسبانيا الإسلامية كما يسمّيها أحد الباحثين، ليس بالشيء الهيّن، فتاريخ البلاد الإسلامي بثقافته في سعة واختلاف من الفتح عام 92هـ، إلى نهاية عصر الولاة عام 138هـ، ثم ميلاد دولة بني أمية في الأندلس إلى غاية سقوطها عام 422هـ، ثم ميلاد دويلات متصارعة سياسيا وحتى عسكريا فيما بينها، أو بينها وبين بعض مسيحيي الشمال حتى سقوطها تقريبا في عام 488هـ ، فقيام دولة المرابطين ثم الموحدين، وأخيرا انحسار ملك المسلمين في غرناطة من خلال حكم بني نصر أو بني الأحمر، إلى غاية السقوط الأخير . ولهذا ارتأينا اختيار حقبة واحدة من الحكم الإسلامي في الأندلس، بغية دراسة أحوال الثقافة فيها و أهم سماتها و مرجعيات هويتها .

و هي حقبة الطوائف أو عصر ملوك الطوائف و الذي يمتد من سنة 422هـ إلى سنة 488هـ.

لقد انصبّ اهتمامنا في هذه الأطروحة على هذه الفترة السوداء من عمر الحكم الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية، وهو عصر "ملوك الطوائف " العصر الأكثر اضطرابا من الناحية السياسية، والأكثر إنتاجا وإبداعا من الناحية الثقافية، فوسمنا هذه الرسالة كالتالي (مرجعيات الهوية الثقافية الأندلسية، دراسة في التواصل الثقافي خلال عصر ملوك الطوائف).

لم يكن الفتح الإسلامي لإسبانيا مجرد احتلال عسكري، عبرت فيه الجيوش الإسلامية العدوة السفلى إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واستوطنتها ، بل كان حدثا حضاريا هامّا امتزجت فيه الحضارات السابقة التي تكلّست على أرض الجزيرة كالرومانية و القوطية مع حضارات جديدة لاحقة ،وهي الحضارة الإسلامية بمختلف مكوناتها ، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة متنوعة المشارب والأجناس ،روحها الإسلام و لسانها العربية مع وجود الاختلافات . هذه الحضارة كانت لها المكانة المتميزة ليس في التاريخ الإسلامي فحسب بل حتى في التاريخ الأوربي في العصر الوسيط فقد قامت في جنوبه الغربي و أثرت فيه.

" إن الفاتحين المسلمين عربا وبربرا تغلبوا على الإسبان، ولكن لم يتغلبوا عليهم بالسيف وحده بل كذلك تغلبوا بروحهم ، لغتهم ودينهم حتى دخل كثير منهم في الإسلام وتقمصوا النفسية العربية

ونسوا لغتهم اللاتينية وتعاليمهم النصرانية. وتعددت شكوى القسيسين من أن الإسبانيين ينسون دينهم ولغتهم ويقبلون على الإسلام ولغته.

ولعلّ من أسباب ذلك أن اللغة العربية كانت فضلا عن أنها لغة الفاتحين تزخر بالعلوم و المعارف التي افتقرت إليها لغتهم "[1]

وقد تلاقى في الأندلس جملة أمم متعددة الأعراق والمحاتد، متباينة الأصول والثقافات متغيرة الألسن، واستطاع الإسلام بتعاليمه ونظمه وتشريعاته أن يتغلغل في قلوبها جميعا أو على الأقل أن يفرض سلطانه عليها وبلسان عربي مبين كانت تلك الأمم المنصهرة في بوتقة واحدة تعبر عن حاجياتها المختلفة ومتطلبات عيشها.

يقول أحد الباحثين :"ومما لاشك فيه أنه عندما تتعدد الانتماءات العرقية والدينية، تتنوع الثقافات وتختلف الرؤى و التصورات"[2]

فالدين واللغة سبيلان مهمان في تشكيل شخصية موحدة وهوية متماسكة و إن بقيت الفوارق و الخصوصيات عند كل طبقة أو عند كل جنس أو شعب و هذا أمر طبيعي جدا.

ويمكن لنا أن نقول إن الأندلس قد اختزل شعوب وحضارات وبالتالي ثقافات أكثر من قارة، فمن العنصر الأوربي نجد كلا من السلتيين والأيبيريين واللاتين واليونان والقوط، ومن الآسيويين الفينيقيون واليهود وعرب شبه الجزيرة والشام، ومن إفريقيا البربر وكانوا مند زمن الفتح الأول الذي تم مع طارق بن زياد وبكثرة، وامتزجت كل هذه الأمشاج امتزاجا كبيرا وعلى نطاق واسع .

لقد كان امتزاج هذه الأعراق والأطياف البشرية المشكلة للمجتمع الأندلسي الجديد بعد الفتح، والاختلاف القائم بينها في ثقافتها الأصل، ومتطلبات الدين الجديد وأداته اللغوية العربية من أهم مقومات المادة التي تأسست عليها الثقافة الأندلسية .

لقد تكيفت كل المكونات الثقافية للحضارات السابقة التي ترسبت على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية (رومانية، وندالية، قوطية...) بكل دلالاتها المختلفة (دينية، فكرية، اجتماعية...) لتتاسب الوضع الجديد أو السياق المحدث آنذاك، وسنري في ثنايا فصول هذا البحث كيف تشكلت الثقافة الإسلامية الأندلسية وتميزت .

---

1 أحمد أمين:ظهر الإسلام، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2، 2007، ج3، ص12.

2 عبد الله إبراهيم موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت لبنان ط 2008 ج 1 ص 20.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه رغم هذه الاختلافات والتباينات الكبير في ثقافة الأصل وفي طرق العيش، وحتى المراتب الاجتماعية بين كل مكونات الشعب الأندلسي ، مع ما كان يحجبه - أي الشعب - في الضمير الجمعي وربما حتى في الضمير الفردي بأنها تنتمي كلها إلى دار الإسلام، أو تحت مظلته، أو أنها عناصر امتزجت بهذه الثقافة الوافدة الجديدة، أو أنها عناصر امتزجت بهذه الثقافة وهي في طريق تبنّيها والذوبان فيها ربما.

لقد كانت عملية التكوين الثقافي للأندلس عسيرة وسط هذا الخليط البشري، ورغم أن المخاض عسير والولادة في بدايتها كانت تبدو شبه مستحيلة، ولكن الجنين نشأ وصار إلى الوجود ناضجا مكتملا مؤثرا متأثرا، هكذا طلعت الثقافة الأندلسية كجزء من الثقافة العربية الإسلامية الساطعة تلك الفترة .

"وتدل المكونات عادة على ولادة / تكوّن / وتكوّن / وإنتاج، كما تعني مجموع الأشكال والعناصر التي تساهم في إنتاج شيء ما ،وطريقة تكون هذا الشيء."[1]

"وإذا كان النضج والتطور التاريخي والجمالي لكل شعب عامة، مشروطين بعناصر متعددة وكثيرة ذات طابع داخلي وخارجي، فإن من المشروعية أن يقود "المكوّن" إلى مصادر وطنية وأجنبية تولد ظواهر أدبية ونزعات فكرية."[2]

لقد نشأ هذا المكون ، أعني الثقافة الأندلسية " في زمن كانت فيه الثقافة الإسلامية تعيش حركة مد حضاري يؤدي في الغالب الأعم إلى تقوية التمركز حول الذات ، وتنمية الشعور بأن ما لديها هو المرجع الأوحد ، والعيار الذي تقوم على أساسه بقية الثقافات وتسبك المواقف منها بحيث تؤدي في الغالب الأعم إلى الاستغراب والرفض وربما السخرية."[3]

لقد توفرت كل الشروط والظروف المعرفية -والتي سنذكرها في حينها -التي مكنت الحضارة الأندلسية (الثقافة) من الانتقال من مرحلة التأسيس إلى مرحلة التفاعل مع كل الثقافات الوافدة مشرقا أو مغربا ، أو مع الشعوب التي أسست للشعب الأندلسي الجديد في تلك الفترة وما حملته معها من مكونات ثقافية في ثقافتها الأصل .

---

1 سعيد علوش : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي ، دار الكتاب اللبناني ،بيروت ، لبنان ط1 ـ 1987 ص13

2 المصدر نفسه،ص 14.

3 نور الهدى باديس : دراسات في الخطاب، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت، ط1، 2008، ص53.

هذا الانتقال الوجوبي كان سلسا حتى تستطيع تلك الثقافة أن تضمن بقاءها واستمرارها ، وفي نفس الوقت تصنع تميزها .

" وما يقال عن تنوع العناصر البشرية - التي ذكرت آنفا - التي سكنت الأندلس يقال أيضا عن التيارات الثقافية المتنوعة التي تكونت منها حضارتها فمن المعروف أن الحضارة الأندلسية - مثل كل الحضارات - لم تنشأ فجأة بل مرّت في أدوار مختلفة ،وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية تربطها بالوطن الإسلامي الأم .باعتبارها جزءا منه ، كما خضعت أيضا لمؤثرات بحكم البيئة التي نشأت فيها."[1]

وحتى المؤثرات الإسلامية لم تكن على شاكلة واحدة بحكم تعدد البيئات الاجتماعية والثقافية للبلاد الإسلامية فالتقليد الشامي الذي طغى على الحياة الاجتماعية و الثقافية وحتى الدينية (المذهبية) للأندلس في فترة الولاة والأمويين والذين ورثوه عن أجدادهم في الشام ،إلى بعض مؤثرات الحجاز والعراق ،وبرابرة شمال إفريقيا باعتبارهم النواة الأولى المشكلة لجيش طارق بن زياد الذي فتح الأندلس، ولكن تحت إمرة عربية مشرقية . بالإضافة إلى إسهامات السكان الأصليين واليهود وغيرهما، ومن ثم وجب فحص المكونات التي تشكلت منها الثقافة الأندلسية بغية تحديد رؤية واضحة لعناصر هذه الهوية الثقافية ومرجعياتها، ومنطلقاتها والأسس التي قامت عليها.

ونحن من جهتنا نعتقد تشابك كل التأثيرات السابقة (شعوبا ، وتيارات) والذي أدى في الغالب الأعم، بل وفي حكم المؤكد إلى مولد الحضارة الإسبانية الإسلامية \ العربية الأندلسية ، سواء من مجهودات المشارقة والأفارقة الشماليين، أو الدور الموازي الذي قام به السكان الأصليون ولو بدرجة أقل في هذا الجانب .

"كل هذا يبرهن لنا بقوة فائقة على أن الحضارة العربية الإسبانية ولدت في عمق تناسق سعيد من إضافات الكلاسيكية المشرقية، ومن عناصر جديدة مصدرها البلد نفسه وعلى الرغم من إطباق العبقرية العربية عليهم، كان بينهم من يزهو بماض مجيد وبتقاليد ثقافية شهدتها إسبانيا قبل مجيء الإسلام ."[2]

1 أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب و الأندلس ،مكتبة الأنجلو مصرية ،ط2، 1986. ص111.

2 ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا، ص41

تقول مدام دي ستايل (Madame De Stael): "إن الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحدة منها بالأخرى، ومن الخطأ الفاحش أن تبتعد أمة عن مصدر ضوء يمكن أن تستعيره، إن هناك أشياء شديدة الخصوصية يفترق بها شعب عن الآخر: المناخ ، الإطار الطبيعي، اللغة، نظام الحكم ،ثم على نحو خاص حركة التاريخ الخاصة لكل شعب، والتي تسهم أكثر من غيرها في إعطائه خصوصيته ."[1]

وبذلك فإننا نعتقد جازمين بأن الأندلس قد أخذ حظه كاملا من هذه الخصوصية وهذا التميز من الناحية الثقافية، وحتى من النواحي الأخرى .فالعناصر التي ذكرتها ـ مدام دي ستايل - وجعلتها أساسا في تميز شعب عن أخر أو أمة عن أخرى ، وبالتالي ثقافة عن أخرى، نراها جلية في شبه الجزيرة الأيبيرية، فمناخ البلاد متوسطي يختلف عن مناخ الأقطار الإسلامية الأخرى ومراكزها المتعددة (الحجاز ،العراق ، الشام، مصر ، وقليلا شمال إفريقيا ...)،الإطار الطبيعي ، وحتى للغة ،فقد ظلت العربية هي الأداة أو الوسيلة الرسمية لإسبانيا الإسلامية مع الحفاظ على بعض الخصوصيات المحلية ،وقد ذكرت كتب التاريخ كثيرا عما سمي بـ "عجمة أهل الأندلس " وهي عربية محلية خاصة بالأندلسيين .

أما نظام الحكم فيختلف اختلافا واضحا عن حكم الساسة المشارقة في بعض الأمور .ويكفي أن نقول أن الأندلس وحده عاش عصورا سياسية مختلفة ، وأنظمة تعاقبت على حكمه ،من عصر الولاة ،ثم عصر بني أمية هناك .والفتنة القرطبية التي أعقبته، فدويلات الطوائف ،مرورا بدولة المرابطين ثم الموحدين وأخيرا بنو نصر في غرناطة .هذه الألوان المختلفة من الحكومات التي سادت الأندلس ثمانية قرون كاملة من الزمن ، إن كانت إسلامية كلها وانطلاقها كان من مرجعية موحدة. ولكن بأساليب مختلفة وباختلافها اختلفت طوابعها الثقافية التي مثلت تمظهرات كل عصر وكل حقبة ،وتحت لون سياسي معين أخذت تتميز هذه الثقافة عن اللون السياسي الذي أعقب سلفه أو اللاحق له ،هذا بالنسبة للأندلس فقط. فما بالك مع الأقطار الأخرى داخل الثقافة الإطار الأم .وهي الثقافة العربية الإسلامية. "إن العلماء المحدثين يجعلون أكبر المؤثرات في تكوين الأمم دينها ولغتها ونظامها الاجتماعي والاقتصادي."[2] وهذه المؤثرات كانت تحكم المجتمع

1 نقلا عن ياسمين فيدوح : إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، دار صفحان للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2009، ص 55

2 أحمد أمين :ظهر الإسلام، ج3، ص 26.

الأندلسي إلى حد ما ،رغم الاضطربات السياسية التي هزت إسبانيا الإسلامية عبر تاريخها الطويل . وأمام هذا المتكون الجديد في أقصى الجنوب الغربي من أوروبا والذي واجه تحديات تمثلت في وجوده وكينونته كشعب موحد متجانس وبعرقيات متباينة وأفكار مختلفة فقد ظل هذا المكون ـ أي الشعب الأندلسي ـ يزحف رويدا رويدا في سبيل التأصيل لذاته الحقيقية وهي الهوية الثقافية والتي تميزه عن غيره من الذوات.

إن أداة الثقافة الأندلسية لم تكن سوى العربية التي تأثرت باحتكاكها باللهجات المحلية السائدة هناك كاللغة الرومانية (الإسبانية القديمة)، ومختلف اللغات واللهجات الأخرى للشعوب التي سكنت شبه الجزيرة .

"فاللغة العربية كلغة وثقافة انتشرت في الأندلس بانتشار الإسلام ،وبدرجة أوسع عن طريق الصلة بالعرب ، فالعربية رابطة بنظر الإسلام وهي اللسان، وساعد على انتشارها تفوق الثقافة العربية التي كانت بغنى مفرداتها وتراكيبها قادرة على التعبير عن أرق العواطف وأرفع الأفكار، وكان نظام الولاء سبيلا أخر لتعزيز العربية ،والموالي في الأندلس صاروا عربا بالولاء، وكانت لهم منزلة موازية للعرب مما لم يتحقق دائما في المشرق."[1]

وباختصار فإن الشعب الأندلسي بدأ عفويا يحس بأصالته الذاتية والواقعية في مطامحه السياسية ، وأشد من ذلك وأقوى من حياته الثقافية .[2]

إن الخصوصية التي تميزت بها الثقافة الأندلسية قد شكلت هوية هذا القطر الثقافية المستمدة من العروبة والإسلام ،هذا ما جعل علماء الأندلس وكتابه ومثقفيه ومختلف من أرخ لهذا القطر يمعنون في هذه الذاتية (الثقافية) ويتفرسون فيها ،ويرفعون من شأنها ،ويلبسونها هالة من التقديس مند أن بدأت ثقافة هذا القطر تختط لنفسها درب البروز والتميز بعد مائتي عام على الأقل من افتتاح الأندلس .

لقد عاش الأندلس ذلك التجاذب والتفاعل، ولا أقول الصراع مع المشرق الإسلامي. فأغناه ذلك وأكسبه وميزه ،فتكوين الذات أو الهوية الثقافية ناتج بالضرورة من التفاعل مع الآخر.

---

1 عبد العزيز الدوري : مقدمة لكتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، ج1، ص 24،23

2 بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا، ص19.

لقد أصبحت ثقافة الآخر بالنسبة للثقافة الأندلسية ،عنصرا لا يمكن إهماله والاستغناء عنه في بناء تصور فكري أو ثقافي خاص وهذه ـ ربما ـ هي أولى خطوات أو مراحل التلاقح أو التلاقي وبصيغة أوضح التفاعل بين الثقافات.

ليس من السهل التجرد من الأصول التي انبنت عليها الثقافة الأندلسية ، فحضور الآخر واستدعاؤه أكيد وأكثر من ضروري لمعرفة الذات الثقافية وتثبيت أركان الهوية ،ولم لا إذن تنمية هذا الأنا في بعض الأحيان وتضخيمه في أحايين أخرى ،فهذا الآخر/ الثقافي يعد مرآة للذات واختيارا لها ومقياسا وجوديا لاستمرارها.

"فمن الطبيعي أن تتباين أشكال التعبير في الثقافة السائدة بين هذه المنطقة وتلك فلا يمكن تصور مماثلة كاملة تجمع بين صيغ تعبير تؤدي وظائف محددة للجميع ،كما أن انبعاث الموروثات القديمة واللغات وبقايا العقائد والتقاليد واستمرارها أو تكيفها ، يقود لا محالة إلى تمايز في درجة التّعبير و أشكاله ."[1] وهذا ما نجده حاصلا في الأندلس .

"فلا جدال في أن الموضوعات كانت تختلف كثيرا أو قليلا، فالمشاكل العقلية و الوجدانية التي كانت تعرض لكتّاب الأندلس تغاير بعض المغايرة ما كان يعرض لأمثالهم في مصر و الشّام و فارس و العراق ."[2]

إن اتساع دار الإسلام و التي ضمّت بين أطرافها مراكز حضارية ، ضمّت جيوبا ثقافية متنوعة ، من العراق إلى الحجاز و الشّام و شمال إفريقيا ، و الأندلس . فظهرت الثقافات الإقليمية أو بيئات ثقافية تحمل طوابع محلية، متصلة مع الثقافة الأم | الإطار، و منفصلة عنها في الوقت ذاته.

كما أن شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) تحتلّ وصفا متميّزا بالنسبة لباقي الأقطار الإسلامية الأخرى " فقد كانت على التخوم بين دنيا المسلمين و دنيا المسيحيين ، و كان القطر الوحيد في البحر الأبيض المتوسط الذي بقي جبهة خلال ثمانية قرون ."[3]

هذا العامل الجغرافي كان له دور كبير في إعطاء هذا القطر وضعا مميزا و خصوصية ظهرت أثارها على النتاجات الثقافية و حتى على الناحية الدينية .

---

1 عبد إبراهيم: الموسوعة السردية، ج1، ص20.

2 زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة العصرية ،بيروت ، ط 2006م، ج1 ، ص9.

3 أوليفيا ريمي كونستبل : التجارة والتجارة في الأندلس، تعريب فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2002م، ص 35،34

وقد أكد ابن بسام هذه الحقيقة في ذخيرته بقوله :"على كونهم بهذا الإقليم ومصاقبتهم لطوائف الروم، وعلى أن بلادهم هي آخر الفتوح الإسلامية، و أقصى خطى المأثر العربية و ليس وراءهم و أمامهم إلا البحر المحيط و الروم والقوط."[1]

و سنرى في ثنايا هذا البحث كيف أثر هذا الوضع أو العامل على الثقافة كما ذكرنا و حتى على المذاهب الفكرية و الفقهية و مختلف التشريعات المتعلقة بها.

لقد بدأت الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس مع الفتح الإسلامي الشهير في الثامن والعشرين من رمضان لعام اثنين وتسعين للهجرة الموافق لـ 19 يوليو 711م. وهو بداية اللقاء المعروف بين قوات طارق بن زياد وقوات لذريق في السهل الواقع بين جبل رتين (Sira del Retin) وبحيرة الخندق (Lago de la janda) ومجرى نهر البرباط.

قاد هذا الفتى البربري المسلم والذي يسمى طارقا جيش المسلمين إلى الانتصار ،تحت إمرة وال الشمال الإفريقي موسى نصير، الذي كان في القيروان يتابع عن كثب أخبار طارق وجنده،كان ذلك في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وتحت إمرته كذلك.وما هي إلا أيام ،حتى دخلت شبه الجزيرة الأيبيرية في الإسلام ،أو على الأقل تعرفت على هذا الدين الجديد الوافد إليها من مهده في شبه الجزيرة العربية .إلا أن اكتساح الإسلام لكل الجزيرة والتي أصبحت تسمى عند المسلمين "بالأندلس" استغرق عقودا عديدة من الزمن وهذا شيء طبيعي.

تحدثنا كتب التاريخ والطبقات عن الفاتحين وعدد من دخلوا للعدوتين (المغرب والأندلس) من الصحابة والتابعين الذين رووا عن كبار الصحابة -رضوان الله عليهم - جعلهم عبد الملك بن حبيب الأندلسي عشرين تابعيا ممن دخل الأندلس وحدها للجهاد[2]، كما أن المصادر القديمة تحدثنا عن صحابي جليل اسمه المنير الإفريقي دخل الأندلس في زمن مبكر[3] .

ومنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة ،ومنهم حنش بن عبد الله الصنعاني يروي عن على بن أبي طالب وفضالة بن عبيد وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروي عن ابن عمر

---

1 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1997م، القسم:1 ج1، ص14

2 ابن عميرة الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس،تحقيق :روحية عبد الرحمن السويفي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط1، 1997، ص17

3 الحميدي : الروض المعطار في خبر الأقطار ،تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان ،بيروت، ط2، 1984، ص33

،ومن منهم زيد بن قاصد السكسكي المصري يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ،وموسى بن نصير صاحب إمرة الفتح يروي عن تميم الداري.[1]

ولم يكن حظ العدوة العليا -أي الأندلس -مثل حظ بلاد المغرب أو الشمال الإفريقي المصاقب لها ،حيث دخلها أزيد من تسعة وعشرين صحابيا ،فيهم من شهد بدرا. ومن الداخلين إلى المغرب من الصحابة عبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير...وغيرهما.[2] وكثير من التابعين كانوا على طبقتين: الطبقة الأولى: وفيها عشرة من كبار التابعين،كعبد الله بن زيد المعافري ،وأبي مسعود سعيد بن مسعود التجيبي وغيرهما.[3]

الطبقة الثانية: تضم أكثر من تسعة عشر تابعيا .[4]

وانطلاقا من حجم هؤلاء الداخلين للعدوتين (المغرب والأندلس) نتبين الدور الذي اضطلعوا به - بالإضافة إلى الجهاد - في تهيئة الأرضية للبذور الثقافية العربية والإسلامية الأولى في هذه البلاد. فالتماس الجغرافي بين المنطقتين واضح ، كما أن منطقة الشمال الإفريقي ظلت المعبر الوحيد للأندلسيين اتجاه المشرق ،إما للحج و طلب العلم أو حتى للتجارة والسياحة.

" لقد وجد شمال إفريقيا نفسه مدعوا منذ أن فتح العرب إسبانيا ، لكي يلعب دورا بالغ الأهمية في إعادة تعمير شبه الجزيرة بالسكان ،لأن العلاقات التاريخية بين البلدين خلال العصر الإسلامي تعود إلى أيام الإسلام الأولى ، وبدأت منذ نهاية القرن الأول للهجرة ،ولقد كان بربر المغرب هم الذين تولوا عملية الفتح أولا ، وتم ذلك لحساب المشرق الإسلامي."[5]

---

1 الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: :روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية ،بيروت،ط1، 1997م، ص14.

2 المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء افريقية وزهادهم ونسّاكهم ،تحقيق : بشير الكبوش، ومراجعة: محمد العروسي المطوي ،دار العرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م، ج1، ص60 وما بعدها.

3 المصدر نفسه، ص 99 وما بعدها.

4 المصدر نفسه، ص 119 وما بعدها.

5 بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا، ص17

إذن فمن الطبيعي أن يرتبط شمال إفريقيا و إسبانيا بعلاقات سياسية و صلات ثقافية،يقتضيها و ينميها بتجاورهما الجغرافي و بخاصة عندما أخذت العقيدة الدينية المشتركة توجه، وحتى تؤكد عند الجانبين بعض مطامحهما المشتركة .[1]

من المنطقي أن تستفيد الأندلس من ثقافة الداخلين و الفاتحين له و للمغرب قبله، بحكم المجاورة و ربط الصلة، و من المنطقي كذلك أن يساهم التابعون من أولي العلم في نشر المعارف وتعليم الشعب الجديد بالقديم، مبادئ الشريعة و قيم الدين الإسلامي الحنيف في أوساط البلاد المفتوحة أو حتى في طوالع الجيوش التي كانوا ضمن تعدادها.

و تاريخ الفتوحات الإسلامية منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يشهد بأن الجيوش الإسلامية التي فتحت المدائن و الأمصار المختلفة، كانت لا تخلو من معلمين و علماء من الصحابة رضوان الله عليهم و غيرهم، سواء أثناء أو عقب الفتح فالعلّة الأولى من عملية الفتح هي نشر الإسلام و تعليم أركان العقيدة ، و ما السيف إلا وسيلة قتالية لا غير.*

و قد ظلت هذه التقاليد متوارثة في الفتوحات التي تلت الفتوحات النبوية و حتى القرون الأولى من الإسلام ولا نظن بأن الأندلس يشذ عن هذه القاعدة "فقد لعب هؤلاء التابعون دورا جوهريا وهاما في إرساء الأصول الأولى لمعالم الثقافة الإسلامية ممثلة في أقوال علماء الصحابة مما يمكن أن يستنتج منه الدارس أن هؤلاء الأعلام أدخلوا الإرهاصات الجنينية للفكر التشريعي الذي ترعرع في المدينة المنورة. لكن هذه الشعلة التي أوقدت فتيلها جلة التابعين لم تتعهد بالرعاية والتمكين لظروف الاضطرابات والفوضى السياسية وعدم الاستقرار في بلاد حرب."[2]

إن الأمثلة السابقة التي ذكرناها - على قلتها - عن نوعية الفاتحين من الصحابة و التابعين و تابعي التابعين، و هي مبثوثة في مظان كتب التاريخ و الطبقات التي تناولت الفترة الأولى من الفتح

---

1 بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا، ص10.

* لدينا إشارة إلى معاهدة الصلح مع تدمير بعد الفتح بعامين (رجب 94هـ) . وهي تنص على حرمة الأنفس والأموال والكنائس مقابل دفع الجزية (شأن عهود الصلح التي حصلت في المشرق الإسلامي)، وربما حصل هذا مع دوقات في مدن أخرى ،انتقلوا في نواحيهم بعد مقتل لذريق كما تتحدث الروايات عن أراض فتحت صلحا،وأخرى فتحت عنوة.وتختلف نسبة كل صنف وتبين أن موسى بن نصير أقر أهل الصلح على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ينظر:مقدمة عبد العزيز الدوري لكتاب :الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي ،ج1، ص25 -26 .

2 عبد المجيد كمال: الفكر الأندلسي بين الطموح والانتكاسة (قراءة في الفعل السياسي والاجتماعي والاقتصادي بالأندلس خلا القرن الخامس الهجري)، مجموعة البحث المتعددة الاختصاصات، مطبعة أركاف، الدار البيضاء، ط1، 2008، ص104-105.

الإسلامي للأندلس تبطل مزاعم بعض الباحثين* الذين حاولوا نفي وجود حياة علمية أو ثقافية في شبه الجزيرة الأيبيرية خلال السنوات التي أعقبت الفتح فالعقل البشري معطاء و لم يثبت علميا أنه توقف عن الإنتاج فترة دون فترة .

لقد كان دخول شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) الإسلام في القرن الثامن الميلادي إيذانا ببدء حلول حضارة مكان حضارة، وأسلوب حياة مكان آخر فكل التغيرات التي شهدتها البشرية

---

* يقول الأستاذان خوان فيرني، وخوليو سامسو (Juan Vernet – Julio Samso) :

" لم يكن المسلمون الذين اجتاحوا إسبانيا رجال علم أو قوما مثقفين،فموجات الاجتياح الأولى تشكلت غالبا من شعوب البربر المعربين حديثا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مؤرخي تلك الفترة الإسبانية – العربية (وخاصة ابن القوطية) يقدمون لنا بعض النمادج العربية – أي الشخصيات – الرفيعة التي دخلت شبه الجزيرة الأيبيرية في القرن الثامن الميلادي كشخصيات ذات مستوى متدن "تطورات العلم العربي الأندلسي ترجمة :شكر الله الشالوحي ونقولا فارس بحث ضمن كتاب(موسوعة تاريخ العلوم العربية) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط2، 2005م، ج1، ص353.

ويقول المستشرق آنخل بالانثيا :" لا تكاد توجد آثار لأي لون من الحياة الفكرية في الأندلس خلال السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لإسبانيا على يد طارق وموسى ، بل إن الشعب الإسباني الذي دخل في طاعة المسلمين – نتيجة لهذا الفتح – لم يخلّف لنا آثارا تدل على حياته الفكرية طوال عصر الولاة (710م – 755م) . "تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة :حسين مؤنس،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة، ط2، 2008م، ص 15، و يقدم بالانثيا تعليلا لذلك بقوله :" ذلك أن الظروف التي أحاطت بعملية الفتح لم تكن مواتية لشؤون الدرس والفكر، فقد شغل الفاتحون بما وقع بين بعضهم وبعض من مخاصمات وحروب وثارت العداوات بين قبيلة وقبيلة،وبين البربر والعرب ،وبين القيسة واليمنية، وبين الشامية والمدنية، ثم إن الفاتحين – جميعا – كانوا من المحاربين، وهذا وحده يكفي لتعليل انصرافهم عن الآداب و شؤون الفكر" ويضيف قائلا :"ولم يكن أهل البلاد الذين دخلوا في الإسلام، وارتبطوا مع الفاتحين بروابط المصاهرة – في حاجة أول الأمر إلى شيء ذي بال من الثقافة الإسلامية ،لأن الدخول في الإسلام لم يكن يتطلب منهم إلا النطق بالشهادتين." المرجع السابق الصفحة نفسها .

أوَ نسي بالانثيا وهو الباحث أن كل داخل للإسلام يحتاج إلى تعلم أركان الدين وأصوله وبعض فرائضه وواجباته ، واللغة التي نزل بها وهي العربية، حتى يتمكن من الاندماج فيه اندماجا كليا وحتى يتمكن كذلك من تعلم آي القرآن الكريم، بعد نطقه بالشهادتين.هذا بالنسبة للداخلين الجدد أما بالنسبة للفاتحين المحاربين والذين نفى عنهم صفة العلم فالرد على هذا الرأي من خلال ما ذكرنا سابقا،وإن كنا نوافق بالانثيا في تعليله لبعض الأسباب التي ذكرها لعدم وجود آثار تدل على الحياة الفكرية طوال عصر الولاة، وذلك راجع للعملية العسيرة التي تلت الفتح مباشرة ،وذلك لانشغال الناس بعملية الاستيطان والتعمير ،كما أن الاستقرار كان شبه مفقود في العقود الأولى بعد الفتح.

وهاهو الأستاذ محمود مكي يخالف رأي بالانثيا وسابقيه متحدثا عن عصر الولاة (92 هـ - 138 هـ):"على الرغم من السلبيات الكثيرة لفترة حكم الولاة، وأهمية الفتن والحروب الأهلية التي نشبت بين الطوائف المختلفة،فإنها لا تخلو من إيجابيات مهمة أبرزها التقدم السريع للإسلام بين جماهير شعب شبه الجزيرة ومع الإسلام انتشرت اللغة العربية والتي اصبحت لغة الثقافة والحضارة، لا بالنسبة للمسلمين فحسب بل وللمسيحيين أيضا."

تاريخ الإسلام السياسي :بحث ضمن كتاب (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس) تحرير :سلمى خضراء الجيوسي ج1 : ص 262.

ومختلف الحضارات في الغالب، تجلب معها عادة التغيير والتجديد ، ولم لا الصدمات العنيفة التي تمس الأمم على مستوى أبنيتها العميقة ،وهو ما حصل في الأندلس بشكل فعال .

"ولا بد من أن حرية المعتقد التي نادي بها الفاتحون، قد راقت لأهالي الأقاليم المفتوحة ولاسيما للكثيرين الذين تعرضوا للملاحقة من قبل الحكم السابق (القوط الغربيين) جراء أخطائهم الأريوسية (ARRIANOS) أو بسب معتقداتهم الباطلة أو بخصوص أصولهم العرقية . أما أنباء الطبقات الميسورة من المستوطنين والوكلاء والخدم، أي الغالبية العظمى للأهالي،فيبدوا وأنهم شعروا بالسرور لدى تقوض سطوة نبلاء القوط الغربين وسلفهم."[1]

اختط الفاتحون الأوائل المساجد في سبيل نشر الدين الجديد ولم تكن المساجد يوما موجهة لأداء الفرائض فقط ، فقد كانت في التاريخ الإسلامي القروسطي منابر للعلم والمعرفة ،إذن فقد كانت هذه المنابر ـ أي بيوت الله ـ منطلق إشعاع الثقافة الأندلسية.

فهذا حنش بن عبد الله الصنعاني (100هـ) تابعي كبير ثقة ،كان في الكوفة مع على بن أبي طالب وغزا المغرب مع رويفع بن ثابت ،والأندلس مع موسى بن نصير ،وكان بسرقسطة وأسس جامعها[2] وهو أول من اختطّه [3].

أما موسى بن نصير فبعد عبوره العدوة إلى الأندلس قام ببناء مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء، وانتشرت المساجد فيما بعد في البيرة و قرطبة وسرقسطة[4]. هذه المساجد كانت النواة الأولى للمدارس الأندلسية، تلقّى فيها معظم السّكان احتياجاتهم من العلوم الدينية، وحتى علم الفلك (الهيئة) فقد كان ضروريا لتحديد اتجاه القبلة ، و معرفة مواقيت الصلاة. لقد ظلّت المساجد في الأندلس و حتى في أزمنة متأخرة، هي المكان المخصّص و ربما المفضّل لتلقي العلوم والمعارف، و خاصة الدينية منها.

---

1 (Framcisco – Javier –Simonet): ينظر بحث : مارغاريتا غوميز (MARGARITA LOPEZ – GOMEZ) بعنوان : المتعربون: نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس .ترجمة : أكرم ذالنون ، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، ج1، ص268 .

2 ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ،تحقيق :روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 -1997 ص 109 و ما بعدها.

3 الحميدي :جذوة المقتبس ،ص178

4 المصدر نفسه، ص304.

سارت الثقافة الأندلسية بخطى ثابتة وإن كانت وئيدة ، منذ بدايات الفتح الإسلامي، وكانت هذه الثقافة بالفعل مُحتاجة لبناء نفسها وتطويرها والسعي للتميّز بها .

" وليس من الضروري أن نشير إلى أن الثقافة الأندلسية عانت خلال هذه الفترة نفسها، من بعض الضعف، وهو أمر منطقي، لأنها بالكاد كانت قد تجاوزت سن التّكوين والنمو."[1]

هذا ورغم الاضطراب السياسي الذي ميّز الحياة الأندلسية منذ زمن الولاة وحتى في حكم بعض أمراء بني أمية، إلاّ آن قواعد الدولة الجديدة قد أرسيت، والأسس قد وضعت بعد جهد طويل، وسرعان ما استوعبت الحضارة الجديدة التي قامت هناك، الرّواسب الحضارية القديمة التي تكيفت بسرعة مع الوضع الجديد القائم هناك، وحلّت اللغة العربية تدريجيا محل اللغة المحلية الأيبيرية وسادت الآداب العربية ومختلف العلوم الإسلامية .

وحسب قول بن خلدون "المغلوب مولع بتقليد الغالب " أخذ السُكّان الأصليون لشبه الجزيرة يقلّدون جموع الداخلين من العرب و البربر في الزّي والعادات والتقاليد و بخاصة العربية بوعي أو بدون وعي.

وبعد عقود من الزمن ها هي شخصية الأندلس الإسلامية تنمو ويزداد نموّها ، وتظهر للعيان .

وأدّى شيوع التعليم في البلاد إلى تعلم أهل البلاد العربية ، وعزّز الأمرَ القرار الذي أصدره وأقره هشام الأوّل (172هـ -180 هـ / 788م - 796م) باعتماده العربية لغة التدريس في المعاهد النصرانية واليهودية، فظهرت طائفة المستعربين النصارى ممّن بقوا على دينهم ولكنهم يتحدّثون العربية . " وكان من الطبيعي أن يستمرّ اضمحلال الحضارة الأيبيرية مع استمرار ضعف المؤسسات التي كان من الممكن أن تضمن لها الاستمرار، بينما ترسّخت الحضارة العربية في البلاد مع استمرار صقلها و ردفها بالتأثيرات المشرقية المختلفة" .[2] وبما أنّ الحضارة العربية والعادات المشرقية كانت المتفوقة في الأندلس، كان من الطبيعي أن تؤخذ تلك العادات على أنهّا العادات المتفوقة التي تميز الذوق الرفيع عن غيره، ولذا قلّد ملوك الشّمال الأندلسيين في المأكل والملبس والشياب والتسليح، وتداولوا العملة القرطبية إلى جانب العملات الرّئيسية في تلك الفترة، و استمتعوا بالشعر والمرويات العربية ، واستمر هذا التأثير إلى مراحل متقدمة من تاريخ قشتالة بعد أن سقطت معظم الأراضي الأندلسية بأيدي ملوكها [3].

---

1 بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا، ص 24.

2 سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة، ص 255.

3 المصدر نفسه، ص256.

كان على الأندلس المتعطّشة للعلوم و المعارف، والمحتاجة إلى تأسيس ذاتها ثقافيا وإسنادها ، أن تستفيد من النهضة العلمية في المشرق . فقد توفرت لديها شروط التطور الحضاري، ولذا فهي آخذة بعد الفتح في التشيّؤ والتكون والبحث عن الذات ،فهي تسير على خطى المشرق الإسلامي قبل أن تتطور وتظهر فيها المعالم الأندلسية المتميزة.

" ولذلك وسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد لأهله ، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ، وإليه يلتفت الأندلسيون في تجارتهم ويرونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج." [1] فالمشرق العربي الإسلامي في نظر الأندلسيين ،هو مركز إشعاع حضاري بصفته مهبط الوحي وأرض الرسالات ،وكذلك بصفته مركز الخلافة الإسلامية منذ تأسيسها زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلا عجب أن تتأثر به مختلف الأقاليم والأقطار الإسلامية الأخرى،بصفتها تمثل التخوم التي تسير كالكواكب حول مركز واحد ،تحاول الاقتباس من إشعاعات المركز قبل أن تحدد ملامح هويتها وتختط دربا ثقافيا مستقلا حتى في ظل الثقافة الواحدة ،كما حصل مع الأندلس.

" لقد كان من دواعي الاتصال الثقافي بين الأندلس والمشرق،وما حمل للأندلس من مؤلفات مشرقية أن جعل الأندلس تختط نهضتها التأليفية متطورة عبر ظاهرة التأثر بالآثار المشرقية ومحاولة الملاءمة بين الآثار الغيرية والإنتاجات الذاتية، وظاهرة الابتكار الناشئ عن الشعور باستقلال الشخصية الأندلسية وبالثقة في القدرات الفردية ،وكانت بذلك هذه الآثار التأليفية بوجهيها تؤكد من جهة الروابط الحضارية المشتركة بين الآثار المشرقية والأندلسية، ومن جهة أخرى تؤكد قدرة الشخصية الأندلسية على الإبداع لمواجهة العواصف المتشككة فيها."[2]

تشكلت الثقافة الأندلسية (العربية ، الإسلامية) رغم تميزها وخصوصيتها بمظهرها الكلي العام ونضجت واكتهلت في دائرة دينية واحدة مع مثيلتها في المشرق الإسلامي ،فلا عجب أن نرى المكونات الثقافية والفكرية المتنوعة في هذه الدائرة الواحدة تتحد على صعيد الأبنية والركائز ،ونتفق على مستوى الرؤية والهدف على الرغم من توزعها في بيئات مختلفة.

---

1 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، ط8،ص 39

2 مصطفى الزباخ : فنون النثر الأدبي في الأندلس في ظل المرابطين ،الدار العلمية للكتاب ،الرباط ،ط1، 1987م، ص259 -260 .

بعد هذا الاحتكاك بين الأندلس والمشرق وكذلك شمال إفريقيا بدأت المؤلفات الأندلسية تترى بعد مائتي عام على ظهور الإسلام في الأندلس ،وتمكّن العربية من أهلها وبعد خطوات حثيثة للثقافة الأندلسية.

ولكن النتاج الأدبي (الشعري والنثري) بدأ مع السنوات الأولى بعد الفتح ،بل مع اليوم الأول من الفتح بالخطبة الشهيرة والأبيات التي قالها طارق بن زياد أثناء عبوره المضيق.

ولا نكاد نصل إلى القرن الثالث الهجري (الربع الثاني والثالث منه) حتى تطالعنا أسماء كبيرة في عالم الشعر والأدب ،والعلوم الدينية وحتى التطبيقية، من أصحاب التصانيف والمؤلفات الموسوعية .

فهذا عباس بن ناصح الجزيري (270هـ -884هـ) الذي وجهه فهذا عبد الرحمن الثاني (ابن الحكم) (206هـ-238هـ/822م-852م) إلى العراق في التماس الكتب القديمة فأتاه بكتاب (السند هند) وهو أول من أدخلها إلى الأندلس وعرف أهلها بها ونظر هو فيها. [1]

وكان شاعرا كبيرا .وكذلك عباس بن فرناس (الشاعر العالم) (273هـ/887م) أول من حاول الطيران في التاريخ.

إنه عصر مؤمن بن سعيد النحوي وسعيد بن جودي وابن عبد ربه الأندلسي (246هـ-328هـ)صاحب العقد الفريد، أما بقي بن مخلد (273هـ أو 276هـ) علامة الأندلس ومحدثها وفقيهها وشيخ صاحب العقد ، صاحب الرحلة الشهيرة إلى المشرق الذي روى فيها عن أعلام السنة هناك في زمنه كالإمام أحمد بن حنبل وابن أبي شيبة ،وهو أول من أدخل مصنفه إلى الأندلس ،كما روى عن جماعة أعلام يزيدون عن مائتين ،وقد رجع إلى الأندلس وملأها علما جمّا.[2]

هذا ومن الثابث وجود مكتبة ملكية في هذا القرن، أي مند إمارة محمد (852م-886م/238هـ-273هـ) تطورت فيما بعد في إمارة الحكم المستنصر (350هـ-366هـ/961م-976م) بل إن هذا الخليفة (محمد) نفسه كان من قراء الكتب الفلسفية والطبية.

ثم إن المؤلفات في هذه الفترة قد ظهرت تباعا ،فقد ألّف الأفشتين، محمد بن موسى ابن هاشم ، (ت 309 هـ) كتاب (طبقات الكتاب بالأندلس).[3]

---

1 ابن سعيد: المُغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، ج1، ص54.

2 الحميدي: الجذوة ،ص 17 -56 .

3 المصدر نفسه، ص 12 .

أما عثمان بن ربيعة ت 310هـ ،فقد صنع الصنيع نفسه حينما ألف كتاب (طبقات الشعراء بالأندلس) والقائمة تطول إذا أردنا استقصاء العلماء والأدباء والشعراء والكتاب وما ألفوا في الأندلس، خلال هذا القرن (الثالث الهجري). فقد أغنتنا عن ذكرها جميعا كتب الطبقات والتراجم التي تعرضت لذكرها وإحصائها.

ويمكن لنا أن نقول بأن هذا القرن في نظرنا بمثابة الفترة التأسيسية للثقافة الأندلسية والتي ستشع في القرن الموالي – أي الرابع الهجري – "فقد أخذ الوضع السياسي يتبدل منذ السنوات الأولى للقرن العاشر الميلادي ، أو الرابع الهجري إذا شئت، وسجل هذا القرن أوج ازدهار الحكم الأموي في إسبانيا واقترن باسم أمير عظيم، وهو عبد الرحمن الناصر، وترتبط فترة حكمه الطويلة في الحوليات والمدونات الإسلامية لمؤرخي شبه الجزيرة بالازدهار الرائع في كل مظاهر الفكر، وفي الوقت نفسه كانت فترة استقرار سياسي وسلام داخلي ليس لها شبيه حتى ذلك التاريخ ." [1]

والحقيقة أن هذا العصر – أي القرن الرابع الهجري – هو عصر الثقافة الأندلسية المشعة المزدهرة وبالإضافة إلى ذلك فقد اتضحت فيه الشخصية الثقافية (العلمية والفكرية) للأندلس، على أرضه كأبي على القالي (ت 356هـ)، والذي قدم الأندلس عام (330هـ) وأملى كتابه (الأمالي) في جامع قرطبة الشهير .

وربما يعود الفضل إلى أمراء وخلفاء أشربوا حب العلم والمعرفة وبذلوا لذلك كل غال ونفيس، ويكفي أن تذكر اسم الخليفة الناصر (350هـ) وابنه الحكم المستنصر (366هـ) هذا الأخير صاحب المكتبة القرطبية التي ضمت بين رفوفها أكثر من أربعمائة ألف مجلد.

هذا العصر،هو باختصار عصر النوابغ الأندلسية الكبيرة ففيه ظهر ابن مسرة القرطبي (ت 319هـ) صاحب أول مدرسة فكرية أندلسية وابن عبد ربه (328هـ) صاحب "العقد الفريد "والذي عاش القرنين معا وظهرت إبداعاته فيهما (القرن الثالث والرابع الهجريين). والشاعر يوسف بن هارون الرمادي (403هـ)والشريف الطليق (قريبا من 400هـ) وابن دراج القسطلي (421هـ)، والمؤرخ ابن الفرضي (403هـ) صاحب كتاب "تاريخ العلماء بالأندلس ".

ولكن بعد وفاة الحكم المستنصر سنة(366هـ) تشاء الأقدار أن يتقلد الحكم بعده ابنه هشام المؤيد .لقد كان خليفة صغير السن ضعيف الإرادة ،فكانت إمامته إيذانا بالسقوط الوشيك لشبه

1 بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص 4 .

الجزيرة الأيبيرية ، بعد أن أصبح أحد حجاب القصر وهو المنصور بن أبي عامر، الذي كان صاحب السلطة الفعلية فيه، إذ أصبح الخليفة لا يحمل من الخلافة إلا الاسم، وما انفك الحكم الأموي يتضعضع يوما بعد يوم، فقد ورث المنصور الحكم لابنيه.

وظهرت فتن كثيرة وخاصة من عام (399هـ إلى عام 422هـ) عرفت عند جمهور المؤرخين بالفتنة القرطبية ، إذ تقاتل أبناء البيت الأموي من أبناء العمومة على عرش الخلافة، ومن محاولات ردّ الخلافة إلى طرف وانتزاعها من الطرف الآخر كانت وحدة الأندلس تتلاشى بين أيدي الطّامحين للعرش.

" لقد كانت الفتنة البربرية حقيقة يمكن الحدس بوقوعها ، لدى من كان يرى ببصيرته عوامل الانفصال و التجزّؤ كامنة تحت سطح الظاهر الموحّد الذي سعى المنصور بن أبي عامر ليحتفظ به حين ذهب يستكثر من الجنسيات المختلفة في الجيش . وكان انقسام تلك الجنسيات، واستقلال الزعماء البارزين في كلّ منها مرهونا بزوال الحاكم القدير ، و لذلك ما كادت شؤون الدولة بعد المنصور تقع في حوزة حجّاب ضعفاء و خليفة مسلوب الإرادة ، حتى اشرأبّت الأعناق إلى الفتنة، وتباينت أهواء العناصر التي لم يدركها التمازج والانصهار، وعمّت الفوضى بلاد الأندلس ."[1]

لقد كانت هذه الفتنة نذير شؤم على شبه الجزيرة الأيبيرية،"وها قد انفجر الآن النظام الأندلسي القديم، المنسجم سياسيا، ذلك النظام الذي كانت ثقافته تثير الإعجاب ،انفجر بعدما عانى لسنين طويلة من حروب أهلية فظيعة سميت أحيانا " الحروب البربرية " أو سُّميت بطريقة بسيطة ومؤثرة بتسمية الفتنة "[2]

وبعد هذه الفتة انتهى حكم الأمويين، وقوض سلطانهم على جميع المستويات ،فتحطّم المركز وتلاشت الوحدة الجامعة ،وظهر الطامحون للعرش على مسرح الأحداث التي أعقبت سقوط الخلافة الأموية وإلى الأبد، ودخل الأندلس بعد هذا التاريخ (422هـ) في نفق سياسي مظلم،وانفرطت حبّات العقد الجامع، وتشتت الدولة إلى دويلات عرفت في التاريخ باسم

---

1 إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف و المرابطين) دار الثقافة بيروت، ط8، ص7.

2 ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ترجمة: عبد المجيد جحفة، ومصطفى جباري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص 23.

(دويلات الطوائف) أو عصر ملوك الطوائف، وأطلق عليه ابن بسام في ذخيرته "عصر الفتنة المبيرة"[1] أو"الفتنة المبيدة"[2]

في ذلك الحين كان أمر المسلمين في الأندلس قد وصل إلى درجة من الاضمحلال جعلت مصير الإسلام في شبه الجزيرة في الميزان ،فقد تقاسمت بلاد الأندلس جماعة من الواثبين بالسلطان المستبدين بنواحيهم ،كانوا في الأصل عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة بنواحيهم، فقدّمهم الناس للولاية حتى تنجلي غمرة الحرب الأهلية التي دارت رحاها بعد سقوط دولة العامريين سنة (400هـ - 1009م) ولكن الغمرة لم تنجل ،بل ازدادت الأحوال سوءًا لأن أولئك المستبدين بالنواحي، حوّلوا أنفسهم إلى سلاطين صغار لكل منهم بلاط وحشم وحاشية في ناحية ،وبعض هذه النواحي كانت ولايات واسعة مثل طليطلة و إشبيلية ،وبعضها الآخر كان لا يزيد على مدينة وحوزها مثل دانية (DANIA) أوالبونت أو سهلة بني رزين."[3]

لم تعرف الأندلس عصرا أشد تفككا و تمزقا من الناحية السياسية كعصر الطوائف، لقد صارت شبه الجزيرة المتحدة سياسيا في السابق عبارة عن كيانات متفرقة و ممالك أحيانا مجهرية، يستقوي بعضها على بعض عن طريق التحالفات التي أقامها بعضهم مع ملوك النصارى في الشمال.

ربما كان هذا العصر الذي يطلق عليه المؤرخون بـ"عصر ملوك الطوائف" هو عصر المفارقات العجيبة، فمن جهة انقسام البلاد إلى كيانات سياسية صغيرة وأحيانا مجهرية إن صح التعبير فالضعف قد دَبّ واستشرى في جسم هذه الدويلات الصغيرة بانهيار الوحدة السياسية ومن جهة أخرى هو عصر الثقافة الأندلسية المزدهرة كما ذكرنا في شتى فروعها وأبعادها، عصر النهضة الأدبية و الفكرية بأعلامها الكبار و التي ارتقت في سماء الإبداع بمساهمة فعالة من العامة والخاصة وأولي الأمر.

ورب ضارة نافعة -رغم ضررها الأليم -لأن يكون هذا الانقسام هو من أسباب الازدهار الفكري والعلمي لأنه أحدث نوعا من التنافس بين حكام الإمارات المتصارعة، وكان كذلك سببا في انتشار العلماء في البلاد الأندلسية هروبا من قرطبة بسبب الفتنة أو بحثا عن الرزق والأمن والاستقرار.

---

1 القسم الثاني/ ج1/ ص27.

2 المصدر نفسه، ق2 /ج1 /ص5ا .

3 حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس دار الرشاد، القاهرة ط 10، 2003م، ص 193.

وربما حاول أمراء الطوائف وبعض أسرهم الكبيرة بتشجيعهم للحركة الثقافية والإغداق على محركيها و صانعيها، أن يستقطبوا خيرة العلماء والأدباء و يضموهم إلى مجالسهم من أجل تحقيق شخصية علمية و ثقافية يستعيضون بها عن السلطة السياسية المفقودة (سياسيا، واقتصاديا وعسكريا) ضد موجات الاجتياح و الاسترداد المسيحي المتقدمة نحوهم في إصرار.

وربما تظافرت كل هذه العوامل في إحداث نوع من"الوثبة الثقافية ". يقف الراصد للمنعطفات والتحولات الكبرى في تاريخ الفكر قديمه وحديثه على حقيقة هامة مؤداها أن الانتكاسات التاريخية في حياة الأمم والشعوب ليست شرا مستطيرا على طول الخط بل قد تسفر عن إيجابيات بصدد الفكر وتطوره، إذ غالبا ما تفضي إلى استنفار النخبة المفكرة لاستقراء أسباب و علل تلك الانتكاسات التي تمتد جذورها في تراث الأمة و تفضي إلى استقصاء جذور الأزمة إلى البحث والحفر في التراث بغية "تأصيل الهوية " ومن ثم تكريس نتاج هذا البحث لخدمة قضية التنوير باعتبارها الخطوة الأولى نحو " التثوير " من أجل تجاوز الأزمة، أعني أن تلك تغدو "تحديا" يوجب " الاستجابة " حسب مفهوم "أرنولد توينبي" وغالبا ما تناط النخبة المفكرة بريادة هذه الاستجابة على الصعيد المعرفي [1] و يكفي الباحث الحصيف أن يلقي نظرة مجهودات وأعمال النخبة المفكرة لهذا العصر، و ما لعبته من دور فعال على جميع الأصعدة وخاصة المعرفية، في سبيل لم شمل المسلمين في شبه الجزيرة وإعادة رسكلة وتوحيد الصفوف.

فهذا الفقيه الباجي أبو سليمان الوليد بن خلف (474هـ/1081م) قد سعى سعيا حثيثا لدى أمراء الطوائف، من أجل الوحدة ونبذ الخلاف، وكان مهيبا مبجلا عندهم جميعا نظرا لرفعة شأنه وعلو كعبه ومكانته الكبيرة (العلمية والدينية).

أما معاصره ومناظره العلامة ابن حزم (456هـ/1064م) صاحب المؤلفات الموسوعية الضخمة والمتنوعة في مجالاتها واختصاصاتها، والتي لم يحاول من خلالها إلا إبراز الوجه الجميل للحضارة الإسلامية في الأندلس.أو لحضارة تأبى أن تفلس ثقافيا وقيميا كما أفلست سياسيا .يقول محمود إسماعيل في هذا الصدد :"ننبه إلى أن مصنفات ابن حزم كانت موجهة لخدمة هذا المشروع ،وفي عبارة مختصرة نرى أن مؤلفه (فضائل أهل الأندلس) يعكس -بوعي - مقاصده التي ركّزت على الأندلس وحسب ،وأن كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) استهدف -بوعي أيضا -

1 محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث :رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م، ص38، 39 .

إبراز تأثير الطائفية في الانشقاق والتشرذم السياسي وفي ذات الإطار يدخل مؤلفه عن (جمهرة أنساب العرب)حيث يعكس تأثير السخائم العنصرية فيما آل إليه مصير الأندلس من تشرذم سياسي وحزازات عصبية وعندنا أن اهتمامه بالعنصر العربي خصوصا يشي بموقفه الموالي للخلافة الأموية التي رأى فيها المخلص من التجزئة والفرقة وإعادة الأندلس إلى الوحدة .أما كتابه (طوق الحمامة) فيعبّر عن إحباطه لفشله في تحقيق هذا المشروع."[1]

لم يدخر الفقيه والأديب والمؤرخ ابن حزم ظاهرة القرن الخامس الهجري الثقافية ، جهدا في الترويج لمشروعه الإصلاحي ،و بذل في سبيله كلّ نفيس ، فلجأ إلى بعض أمراء الطوائف الذين توسّم فيهم الخير من أجل قطع دابر الفتنة ، لكنّه تعرض للطّرد و ربما للملاحقة و الاضطهاد من قبل هؤلاء الملوك ، و بعض فقهاء الأندلس ممّن كانوا يخالفون منهجه ، بل إنّه سجن و أحرقت كتبه .

ها هو يلجأ إلى أمير ميورقة فلم يجد ضالّته ، يرحل إلى بلاد خيران العامري أمير المريّة دون تحقيق ما يريد ، ورغم ذلك يتّصل بملوك بني عبّاد بإشبيلية للسّبب نفسه ، فيضطر إلى الخروج إلى البادية ليقضي بها بقية حياته مهموما مكلوما حتى لقي ربه عام (456هـ).

وإنه لمن الغريب أن تظهر في هذا القرن (الخامس الهجري) وتنمو كالطفيليات كتب التراجم والطبقات والتاريخ، بل إنّ عصر الطوائف هو عصر الموسوعات الكبيرة، فقد كان ظهورها بمثابة الوفاء للزمن الجميل الذي احتضنته قرطبة الغرّاء في القرون السابقة من الحكم الأموي، وبعض المدن الأخرى، تاريخ وضّاء جميل يأبى أن يزول .

إن عصر ملوك الطوائف هو عصر الثقافة الأندلسية الذي بلغت من النضج والاكتمال ما لا يمكن أن يوصف ، إنّه عصر الأعلام الكبار من الفقهاء، فبالإضافة إلى الباجي وابن حزم هناك المحدث والمفسر والأديب ابن عبد البرّ النمري (463هـ/1076م) ومن المؤرخين ابن حيّان القرطبي (377هـ-469هـ/987م-1076م)، والحميدي (ت488هـ/1095م) تلميذ ابن حزم،وصاعد الطليطلي (462هـ/1070م) صاحب كتاب"طبقات الأمم ".

وفي الجغرافيا أحمد بن عمر بن أنس العذري (478هـ/1085م) وعبد الله بن عبد العزيز البكري (487هـ/1094م) أشهر جغرافيي الأندلس على الإطلاق .

---

1 محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م، ص28.

أما القراءات والتفسير في الأندلس في زمن ملوك الطوائف فلا يمكننا إغفال أسماء الأعلام الكبيرة في هذا المجال كأبي عمرو الداني (444هـ/1052م) سيّد القراءات في عصره ، ومحمد بن شريح الرعيني (392هـ -476هـ/1002م -1084م) ومكّي بن أبي طالب القيسي (437هـ/1045م) ، وعبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن الغسّال (ت 487هـ/1094م) .

أما في عالَم الشعر والأدب والنقد واللغّة، فيعز على هذا المدخل الصّغير استيعاب العشرات من الأعلام، كابن زيدون (463هـ/1071م)، وابن عمّار (477هـ/1084م)، وابن اللبّانة (507هـ/1113م) وابن الحدّاد القيسي الوادي آشي (480هـ/1087م)، وابن عبدون (529هـ/1135م) .

أما الأعلم الشنتمري (410هـ -476هـ/1019م -1083م)، وابن سيده (458هـ/1066م) فأنجبُ لغويي شبه الجزيرة الأيبيرية على الإطلاق .

ومن أعلام الفلك، والطب، والفلسفة، والعلوم التجريبية، أبو عثمان سعيد بن البغونش الفليسوف والرياضي (ت 444هـ/1052م)، والكرماني (458هـ/1066م)وابن وافد الطليطلي (460هـ/1067م) وابن زهر الطبيب الشهير (525هـ/1131م) وابن الرزقالة ألمع فلكيي الأندلس (493هـ/1110م).

هؤلاء الذين ذكرنا من العلماء والأدباء والأطباء والفلكين، الذين عاشوا أو أدركوا على الأقل عصر ملوك الطوائف، كانوا هم من صنع ملحمة الثقافة الأندلسية في عصرها الزاهر المورق والذي أثمر -أي العصر -نتيجة هذه المواهب المتفتحة والأذهان المتفتقة والخيالات السامية ،وُرودا ورياحين أسهمت بها الأندلس الإسلامية في عملية بناء الحضارة الإنسانية في العصر الوسيط.

فوجب علينا إذن من خلال هذا البحث أن نقف عند هذه الثقافة وفي هذا العصر من خلال البحث عن خصائصها ومميزاتها ومرجعياتها التي شكلتها وأعطتها خصوصية مميزة.

الباب الأول: الأندلس جغرافيا، تاريخيا وسياسيا، اجتماعيا واقتصاديا

الفصل الأول: الجغرافيا والتاريخ السياسي.

المبحث الأول: الجغرافيا ودلالة الاسم.

المبحث الثاني: التاريخ السياسي:

الفصل الثاني: الأندلس: تفكك الوحدة وقيام ممالك الطوائف:

المبحث الأول: عصر الطوائف.

المبحث الثاني: ممالك الطوائف:

المبحث الثالث: مواقف العلماء والفقهاء والشعراء من تصدع الأندلس السياسي في عصر الطوائف.

الفصل الثالث: الشعب الأندلسي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

المبحث الأول: الاختلاط السكاني وأثره في تشكيل الهوية.

المبحث الثاني: مظاهر الحياة الاقتصادية

المبحث الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية.

الفصل الأول: الجغرافيا والتاريخ السياسي.

المبحث الأول: الجغرافيا ودلالة الاسم.

المبحث الثاني: التاريخ السياسي:

أ - الفتح الإسلامي وعصر الولاة:

ب - حكم الأمويين في الأندلس حتى انتفاء رسم الخلافة:

ج - أسباب الفتنة القرطبية (البربرية) وانهيار الخلافة:

- سبب عرقي (إثني):
- سبب جغرافي:
- أسباب اقتصادية واجتماعية:
- الديكتاتورية "العامرية ومحاولة التوريث"

I -الباب الأول: الأندلس جغرافيا، تاريخيا وسياسيا، اجتماعيا واقتصاديا:

I -1 -الفصل الأول: الجغرافيا والتاريخ السياسي:

I -1 -1 - المبحث الأول: الجغرافيا ودلالة الاسم:

المراد بالأندلس الإسلامية (إسبانيا والبرتغال)، أو شبه الجزيرة الأيبيرية التي كانت تحت الحكم الإسلامي ابتداء من سنة فتحها عام (92 هـ / 711م)، فقد كانت جل الأراضي هناك تحت حكم المسلمين -ماعدا بعض المناطق في شمال شبه الجزيرة – ثم تناقصت هذه الأراضي مع ظهور حروب الاسترداد المسيحية، والتي قلّصت من أراضي المسلمين هناك، حتى انحسر ملك الإسلام هناك في مملكة غرناطة الصغيرة والتي تقع في الجنوب الشرقي من إيبيريا، ومع سقوطها عام (888 هـ / 1492 م) زال حكم المسلمين هناك وإلى غير رجعة.

تقع شبه جزيرة إيبيريا* جنوبي غرب أوروبا، حيث تتصل بها فقط عن طريق سلسلة جبال البرانس، أما جوانبها المتبقية فتحيطها مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ولا يفصلها عن القارة الإفريقية إلا مضيق جبل طارق الذي يحده من الشمال والجنوب رأسا طريف وسبتة.

ولهذا سميت بشبه الجزيرة، لأن الماء يحيطها من جوانبها الثلاثة ما عدا الشمال.وقد وصفها أحد أقدم جغرافييها وهو أبو عبيد الله البكري (ت 487 هـ/1094م) بأنها مثلث الشكل[1] وأضاف الحميري (ت 866هـ/1461 م) بأنها تضيق من ناحية شرق الأندلس حتى يكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام ورأسه العريض نحو سبعة عشر يوما، وهذا الرأس هو أقصى نهاية المغرب في غاية انتهاء[2].

وأما هذه النسبة (الإيبيرية) فهي نسبة إلى أمة قديمة يقال لها (الأيبير –IBERE) كانت أقدم أمة عمرت تلك البلاد، ولم يعرف قبلها هناك أمة أخرى، وجميع الذين أوطنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد أمة الأيبير هذه[3].

---

* وحول جغرافية الأندلس ودلالة التسمية ينظر البحث الذي نشره الطاهر احمد مكي بعنوان "الأندلس تاريخ اسم وتطوره" والتعليقات المفيدة التي أعقبت مقاله من طرف الأستاذ محمود محمد شاكر ضمن كتاب "دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة"،دار المعارف،القاهرة، ط3، 1987م/1407 هـ،من ص9 إلى ص30./ وكتب الأستاذ عبد الرزاق أبو الصبر دراسة قيمة حول "تاريخ الغرب الإسلامي من خلال جغرافيات مشرقية مؤلفة قبل نهاية القرن الخامس للهجرة"،حيث عرض الباحث فيه كثيرا من المصادر القديمة والدراسات الحديثة التي كتبت حول جغرافية الأندلس والمغرب،دار الكتب العلمية،ط1 ، 2013 م/1434 هـ.

1 المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2 ، ص 382.

2 الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 32.

3 شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج1،ص 31.

والأيبيريون (LES IBERES) من اليونانية (IBERI) شعب مجهول الأصل والمصدر، عاصر في إسبانيا القديمة دول القلت (CELTES) والفينيقيين واليونان والرومان، وانتشر في إسبانيا كلها وجنوب فرنسا، فالأيبيريون على هذا الأساس هم أقدم أمم غربي أوروبا[1].

ويبدو أن تسمية إيبيريا كانت مرتبطة في هذه المنطقة بهِجرات العناصر الأيبيرية القديمة (IBEROS) إلى إسبانيا، وهي خليط من العناصر الحامية الليبية في شمال إفريقيا. وقد اختلط هؤلاء الأيبيريون في إسبانيا الكلتية أو السلتية (CELTOS) الأوروبية القادمة من الشمال، ومن هذا المزيج تكون الشعب الإسباني القديم (CELTIBROS) وسميت شبه الجزيرة باسمهم إيبيريا.[2]

وقد عرف الجغرافيون المسلمون القدماء هذه التسمية إيبيريا، فالبكري يحدثنا عن اسمها القديم بارية من وادي إبرة[3]. والأمر نفسه عند عبد المنعم الحميري الذي يقول : " وقيل إن اسمها إبارية".[4]

أما اسم الأندلس فقد أطلقه المسلمون الذين افتتحوها على المناطق التي استولوا عليها من شبه الجزيرة الإيبيرية، ويعتقد أن كلمة الأندلس تحريف لكلمة (فنداليسيا) المشتقة من (الفندال أو الفندالوس).

يقول المستشرق كولان:" وربما كانت صيغة (فنداليسيا، VANDALICI) تطلق على إقليم(بتيقا– BAETICA) القديم الذي احتله الفندال ما يقرب من عشرين سنة (411- 429 م) أو على ثغر (ترادكتا –TRADUCTA) الذي عبر منه الفندال إلى إفريقية ".[5]

أما شعب الفندال فهو قبيل من المتبربرين غزا شبه الجزيرة في القرن الخامس الميلادي، وانحدر إلى الجنوب تدفعه قبائل أخرى جِرمانية، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة، وهناك أقام زمنا طويلا، وسمي ذلك الطرف الجنوبي باسم (فاندالوسيا أو أندلوسيا)، وبهذا الاسم عرفه البربر الذين يقيمون على بحر الزقاق. وعندما وصل العرب قيل لهم إن هذه أرض (وندلس) وحرف (الواو)

---

1 كولان (G.S. colan): دائرة المعارف الإسلامية (مادة الأندلس)، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني. دار الكتاب المصري، ط1، 1980 ص .

2 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 26.

3 المسالك والممالك، ج2، ص 378.

4 الروض المعطار، ص 32.

5 دائرة المعارف الإسلامية، (مادة الأندلس) ج2، ص 18.

هو أداة تعريف في لهجة بربر طنجة، فعرّب الاسم إلى الأندلس، وبهذا الإسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربي.[1]

ويحدد شكيب أرسلان مكان الفندال أو الوندال بقوله : " وكانوا يسكنون بين نهر (الأودر – oder) ونهر (الفيستول –VISTULE) في شرق ألمانية. ويقال إنهم من أصل جرماني، ويقال إن بعضهم سلافي أو صقلبي كما تقول العرب ، وهؤلاء الفاندالس قد زحفوا من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا جبل طارق ، وذلك سنة (411) قبل المسيح، ومن هناك جازوا إلى إفريقية فلما عرفهم أهل إفريقية أطلقوا اسمهم على البلاد التي جاءوهم منها وسموا هذه البلاد بالأندلس[2].

كما عرفت هذه التسمية كذلك عند الجغرافيين المسلمين قديما، فالبكري يقول: " وسميت بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها[3]، كما تحدث قبله عميد الجغرافيين الأندلسيين عن ذلك أحمد الرازي القرطبي (344 هـ/955 م) فقال:" أول من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكره علماء عَجَمِها قوم يعرفون بالأندلش بالشين معجمة بهم سمي البلد ثم عُرّب.[4]

وحتى الإخباريون والمؤرخون ذكروا هذا القوم فالمقري التلمساني يحدثنا عنهم[5] كما تحدث عنه ابن عذاري المراكشي بقوله: "وقيل إن أول من نزل الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلِش (بشين معجمة)، فسميت بهم الأندلس (بالسين غير معجمة) وقيل أنهم كانوا مجوسا ..."[6].

ولا زال اللفظ في صورة إسبانية هي (إندلوثيا) يطلق اليوم على ثمانية محافظات صغيرة في الثلث الجنوبي شبه الجزيرة جنوبي الوادي الكبير حتى ألمرية، وغرناطة، وجيان، وقرطبة، ومالقة، وقادش، ووالبة وإشبيلية.[7]

---

1 حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 263.

2 الحلل السندسية ، ج1 ،ص 32، ويلاحظ أن شكيب أرسلان قد خالف المؤرخين إذ جعل تاريخ نزوحهم إلى شبه الجزيرة (411) قبل الميلاد بينما جعله غيره بعد الميلاد.

3 المسالك والممالك ، ج2 ،ص 378.

4 الحميري ، الروض المعطار، ص 33.

5 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 2004، ج1، ص 133.

6 البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2009، ج2، ص1.

7حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 263.

أما تسمية اسبانيا، فقد كان المراد به شبه الجزيرة الأيبيرية بوجه عام بما في ذلك الأراضي الإسلامية والمسيحية على السواء، فهناك إسبانيا الإسلامية أو الأندلس عند المسلمين ، وهناك إسبانيا المسيحية.

ويكاد يتفق المؤرخون على أن تسمية (HISPANIA) أو إسبانيا قد أطلقها الرومان على شبه الجزيرة في احتلالهم لها، ولكنهم اختلفوا في اشتقاق الكلمة، فمن قائل أنها مشتقة من (سفان saphan) يعني أرنب أو أرض الأرانب[1] . وفي تفسير آخر فإن اشتقاق الكلمة من (شافان) السامية ومعناها الأرنب وهو الحيوان المعروف لأن الفنيقيين وجدوه بكثرة هناك[2].

وقد تكون تسمية إسبانيا من لفظة (إزبانيا) وهي لفظة باسكية معناها الشاطئ[3] وفي تفسير آخر أنها – ربما – تكون مشتقة من (HESPERIA) أي نجمة الغرب أو أرض الغرب المتاخمة للمحيط.[4]

كما أن المصادر العربية القديمة -الجغرافية والتاريخية - قد عرفت هذه التسمية، فالحميري يذكر أن اسم الأندلس في اللغة اليونانية (إشبانيا) ويحاول أن يربط هذه التسمية باسم رجل ملكها في القديم كان اسمه (إشبان) وقيل سميت بإشبان نسبة إلى الذين سكنوها في الأول من الزمان[5] وهي الرؤية التي يشترك فيها مع البكري الجغرافي الأندلسي الذي سبقه إلى ذلك.[6]

وذكرها الشريف الإدريسي في رحلته بهذا الإسم – أي إشبانية - أكثر من مرة[7] .وكذلك المقري التلمساني الذي ذكر أن ملكها قديما اسمه إشبان بن طيطش،وباسمه سميت الأندلس إشبانية[8]

---

1 العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، هامش ص 21.

2 شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج1 ،هامش ص 35.

3 المصدر نفسه، ص35.

4 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ،هامش ص 21.

5 الحميري: الروض المعطار، ص 32.

6 المسالك والممالك، ج2، ص 378.

7 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1989م، ج2، الصفحات، 525، 536، 539، 726.

8 نفح الطيب، ج1 ،ص 134، وذكر محقق النفخ، إحسان عباس أن لفظة (Hispania) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبيرية، وبعضهم يرده إلى أصل فينيقي معناه ساحل الأرانب البرية ثم قيل إن ذلك نسبة إلى إشبان (sphan) وتحرفت الكلمة إلى أصبهان، ومن صيغ الاسم أيضا (Hispalia). وعرب إلى إشبيلية، ج1 هامش ص 134..وقد ذكر ابن عذاري المراكشي في تاريخه عن الإشبانية وهم قوم نزلوا شبه الجزيرة وتغلبوا على ساكنيها...ثم ظهر بإشبيلية إشبان، وكان رجلا ضعيفا حراثا، وزعم ابن عذاري أنه التقى بالخضر – عليه السلام – في حديث طويل./ البيان المغرب، ج2 ،ص2 .

ويبدو أن الحد الفاصل بين أوروبا وشبه الجزيرة هي سلسلة جبلية تسمى في اللغات الأجنبية (PYRINNYI) أو البرانس، التي تقف حاجزا من شبه الجزيرة إلى جنوبي فرنسا. فلا يعبر الناس إلا من ممرات شهيرة في هذه السلسلة الجبلية تسمى "بالأبواب" أو " البوابات "، أما في الجنوب فالأندلس مفصولة في الواقع بمضيق ضيق، وقد جعلها الرازي شيخ الجغرافيين الأندلسيين في الطرف الغربي (نهاية الإقليم الرابع)[1] .

وعادة ما تلحق الأندلس بالفضاء المغاربي منذ العصر الوسيط، فكلمة مغرب عند العلماء المسلمين قديما، هو تلك الأراضي الممتدة غربي مصر إلى المحيط الأطلسي بعد الفتح الإسلامي لهذه البلاد فهناك المغرب الإفريقي(شمال إفريقيا) وهناك المغرب الأندلسي (شبه الجزيرة).

ولهذا فإن كلمة مغاربة أطلقت حسبهم لتشمل السكان المسلمين القاطنين للعدوتين معا(العدوة العليا -الأندلس)(العدوة السفلى–شمال إفريقية). وعلى هذا الأساس فقد كانت مدينة الإسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والشرق، ولهذا عرفت باسم " باب المغرب"[2].

وقد صرح ابن عبد ربه الأندلسي (328 هـ) في مقدمة عقده عن سبب تأليفه قائلا:" ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه حظا من المنظوم والمنثور"[3] .

وكتب بعده ابن حزم الأندلسي (456هـ) يقول : "ثم بينت أنه وإن كان محبوبي في أقصى المعمور من المشرق وأنا في أقصى المعمور من المغرب، وهذا طول السكنى فليس بيني وبينه إلا مسافة يوم"[4]

وقال في أبياته الشهيرة التي خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعيَ الغرب[5]

وحينما أراد ابن بسام أن يشرح دوافع كتابته "ذخيرته" قال : " وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء، لانتباذي كان من شنترين قاصية الغرب".[6]

---

1 الحميري:الروض المعطار،ص 32.

2 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 12.

3 العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، دت، ج1، ص3، 4.

4 طوق الحمامة في الألفة والألاّف، ضمن مجموع رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2007 م1،ج1، ص239.

5 الحميدي: جذوة المقتبس، ص278.

6 الذخيرة، ق1، ج1، ص 19

أما المؤرخ عبد الواحد المراكشي فبقر بأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب بالأقصى وأم قراه ومعدن الفضائل منه.[1]

ويبدو أن الطابع الجغرافي لشبه الجزيرة؛ إحاطتها بمياه الأطلسي من جهة، ومياه البحر المتوسط من جهة أخرى، ووجود حواجز جبال البيرينيه التي تفصلها عن أوروبا جعلت منها منطقة حقيقة بأطماع القدماء من الفنيقيين واليونان والرومان والقوط، حيث كانت منطقة مفتوحة للمؤثرات الشرقية(عربية إسلامية). وقد ذُكرت الأندلس قديما عند المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب، منهم من انتسب إليها، ومنهم من لم ينتسب إليها وقادته الحاجة إلى زيارتها ووصفها، ومنهم من لم يزرها واستقى وصفه لها من عند آخرين، ومن هؤلاء: ابن خرداذبة (280 هـ) واليعقوبي (292 هـ) وابن الفقيه(ق 3هـ) وابن رسته(300 هـ) والإصطخري (322هـ -934 م) وابن حوقل النصيبي التاجر الموصلي(367 هـ) والمقدسي الفلسطيني (375 هـ/985 م) في "أحسن التقاسيم"، وأبو عبيد البكري الأندلسي، والمقري التلمساني ، مما يدل على قيمتها وأهميتها كقطر إسلامي له شأن في القرون التي خلت.

I -1 -2 -المبحث الثاني: التاريخ السياسي:

أ- الفتح الإسلامي وعصر الولاة:

كان الفتح الإسلامي للأندلس من أروع حلقات الفتوحات الإسلامية على الإطلاق فقيمته تكمن في تلك البقعة القاصية (جنوب غرب أوروبا) التي دخلها هذا الدين الجديد بعد أقل من قرن من ظهوره على مسرح الحياة الدينية في بلاد الحجاز التي تبعد عن شبه الجزيرة الأيبيرية بآلاف الأميال.

لم يكن من الممكن أن تصل قيم هذا الدين الوافد على الأندلس لولا همم الرجال الذين قاموا بنقله ونشره في تلك الربوع حتى استوى هناك على عرش الجزيرة لمدة ناهزت قرون كاملة.

ليس من مهمتنا أن نضطلع بسرد الحوادث التاريخية لزمن يفصلنا عنه قرون عديدة فقد تكفل ذوو الاختصاص من المؤرخين بنقله،والإعادة فيه هي من قبيل الاجترار، ولكن الإتيان منه بقدر ما يخدم بحثنا هو مثل السماد للأرض، فمما لاشك فيه،"أن التاريخ هو مستودع الأفكار،والاحتكام إليه يشكل معيارا أمينا يضع حدا للتصورات المتضاربة عند هذه الرؤية، والتاريخية لاتعني ترتيب

---

1 المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 2005م، ص 115.

الأحداث والوقائع في سجل متصل وحسب،بل إنها تعني مدى تأثير تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والملابسات السياسية أيضا في صياغة رؤية...كما تعني من جانب آخر تأثير هذين البعدين معا في تخليق وصياغة المنظور الثقافي"[1].

فارتباط التاريخ السياسي بالعملية الثقافية قطيعة لا تحتاج إلى دليل، وهذا ما أكده أحد الباحثين بقوله: " وإذا كانت الثقافة، أية ثقافة هي في جوهرها عملية سياسية فإن الثقافة العربية بالذات لم تكن في يوم من الأيام مستقلة ولا متعالية عن الصراعات السياسية والاجتماعية، بل لقد كانت باستمرار الساحة الرئيسية التي تجري فيها هذه الصراعات، إن الهيمنة الثقافية كانت النقطة الأولى وأحيانا الوحيدة، المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينية بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية أو تريد الحفاظ عليها"[2].

إن حركية التاريخ السياسي مرتبطة بالفعل الثقافي والموجهة له، أو الموجه لها بطريقة تبادلية ، وبالتالي فلا يمكن فصل التجربة السياسية عن مثيلتها الثقافية في التاريخ الفكري والثقافي البشري بشكل عام ، وبدرجة أخص التجربة الثقافية والسياسية العربية، وأخص منها التجربة الأندلسية المتميزة سياسيا وثقافيا، بما تحمله من خصوصيات على المستويين معًا.

فعلى أرض شبه جزيرة أيبيريا وتحت حكم دين واحد (الإسلام) تعاقبت ألوان وأطياف سياسية مختلفة (الولاة ، الأمويون ، الطرائف ، المرابطون، الموحدون، ملوك بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة).

ولكن التقسيم التقليدي للتاريخ إلى أعصر سياسية أو مراحل متنوعة بتنوع الحكومات ، وإن كان يبدو مريحا ومجديا من الناحية التعليمية، فإنه من الناحية المنطقية يبدو أمرا محالا، فلا شيء يبدأ أو ينتهي بشكل مطلق بدون مقدمات أو نتائج، رغم أن المقدمات هي نتائج سابقة والنتائج إنما هي مقدمات لاحقة، هكذا هي سيرورة التاريخ.

---

1 محمود إسماعيل: إشكالية المنهاج في دراسة التراث، ص 130.

2 محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9 ،2006 ، ص 6، 7.

" إن تجارب الشعوب وظروف معيشتها ليست واحدة ، مما ينشأ عنه اختلاف الثقافات، وبالتالي اختلاف المنظومات المرجعية التي تعتمدها هذه الشعوب، ذلك لأن الثقافة بمثابة الوعاء الذي يحوي العناصر المكونة للمنظومة المرجعية لمن ينتمون إليها."[1]

فتجارب الشعوب هي تلك التجارب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها تلك الشعوب، وبالتالي فالفصل بين الحياة السياسية لمرحلة تاريخية ما وبين الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية لتلك المرحلة لا يعطي نتائج على المستوى العلمي(على مستوى البحث)، وذلك لتداخل هذه العوامل جميعا وتظافرها من أجل تشكيل صور المجتمعات التي تتميز عن بعضها بخصائص تفردها عن غيرها، وهويّات تشكل جوهر وجودها كما تميزت على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.أو كما قال أحدهم:" وقديما كانت التغيرات الحضارية الكبرى التي تحدث هي الفيصل الأساس لتاريخ البشرية."[2]

أما تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية فقد تشكل من حضارات قامت على أرضه، ولكن أهمية تلك الحضارات تقاس بما تركته من آثار على تلك الأرض ، ولا تعتقد أن الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية في الأندلس قد أحدثت مثلما أحدثته الحضارة الإسلامية.

كان فتح المسلمين للأندلس من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملة الحنيفية كما يقول صاحب " الروض المعطار"[3].

فقد تم الفتح بدخول طارق بن زياد الأندلس سنة اثنتين وتسعين[4] للهجرة في الثامن والعشرين من رمضان الموافق للتاسع من شهر يوليو/ جوان 711 م. في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وتحت إمرته، وبرعاية والي القيروان في عهد الأمويين موسى بن نصير، ولكن قائد الفتح لم يكن سوى ذلك الفتى البربري المسلم المعروف في الحوليات التاريخية باسم " طارق بن زياد".

---

1 المصدر نفسه، ص 62.

2 ليو بولد تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة:إليودورو دي لابنيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1 ، 2005م ، ص 51.

3 الحميري، ص53.

4 أبو بكر بن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989 ص 22/ ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز للطباعة والنشر، بيروت، ط2 ،1987، ج3 ،ص 546 / عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص10.

" لقد أصبح البربر يؤلفون معظم الطاقة البشرية في الحملات (تلك)، وفتح إسبانيا ربما تعذر لولا هذا التعاظم في الطاقة البشرية."[1] وهكذا تم الفتح بعد معركة وادي لكة الشهيرة بين قوات طارق بن زياد وقوات حاكم القوط (لذريق)، والشيء المؤكد هنا هو " أن هذا النصر قد قضى على نظام المملكة القوطية المركزي. وإذا كانت قد ظهرت فيما بعد مقاومة، فإنها كانت مرتكزة فقط على أسس محلية أو إقليمية"[2] لم تكن الأندلس بعد فتحها سوى إقليما تابعا للسلطة المركزية للخلافة الأموية في دمشق والتي امتد حكمها من الأندلس والمغرب إلى بعض مناطق آسيا.

ومن سنة الفتح إلى سنة (138هـ / 756 م) وهي الفترة التي تسمى في حوليات التاريخ الأندلسي بـ " فترة الولاة " أو " حكم الولاة "تولى خلالها الحكم أكثر من عشرين واليا، بعضهم قد وليها أكثر من مرة مثل عبد الملك بن قطن الفهري، حتى وفاة آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة (138هـ). ويبدو أن البعد الشاسع لهذا الإقليم المفتوح عن مركز الخلافة لم يكن ليسمح بسيطرة الخليفة على ولاته، بل يمكن أن نقول إن ولاة الأندلس كانوا تابعين فعليا لحاكم القيروان ولكنهم تمتعوا بصلاحيات واسعة.

وأهم ما يميز هذه الحقبة هو كثرة الاضطرابات السياسية والصراعات القبلية والعرقية التي كانت تحكم يوميات الفاتحين، سواء بين العرب أنفسهم (قحطانية وعدنانية)، أو بينهم وبين البربر، مما كاد أن يعجل بسقوط الأندلس في عقود قليلة من فتحها لولا أن قيّض الله رجلا من الأسرة المروانية التي فقدت حكمها في المشرق أمام فلول العباسيين وهو عبد الرحمن بن معاوية الداخل الذي دخل الأندلس وطالب بعرش أجداده فأبى واليها آنذاك يوسف الفهري، ولم يكن هناك بد من اشتعال الحرب التي قامت في المصارة AL- MUSARA على ضفاف الوادي الكبير (El Gvada Alquivir) حول أسوار قرطبة، في التاسع من ذي الحجة سنة 138 هـ /14 أيار /مايو 756م) ، وعزم يوسف

---

1 مونتوغومري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية (مع فصل في الأدب) بقلم: بييركاكيا، ترجمة: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط2، 1988 ، ص25.

2 المصدر نفسه: ص29.

الفهري وصاحبه الصميل بن حاتم، ودخل عبد الرحمن قرطبة وأعلن نفسه أميرا عليها في السنة نفسها[1] .

ومنذ ذلك الحين أصبح للأسرة الأموية حكمها المستقل في الأندلس استكمالا بحكمها المنقطع في المشرق.

ب- حكم الأمويين (بنو مروان) في الأندلس حتى انتفاء رسم الخلافة:

خلق تقلّد عبد الرحمن الداخل الحكم في الأندلس وضعا جديدا لهذه البلاد، فبعد أن أعلن نفسه أميرا عليها في عام (138 هـ إلى 172 هـ /756 م -788م) حاول أن يوطد أركان حكمه، وفعلا كان له ذلك، ففي مدة اثنتين وثلاثين سنة أو أكثر بقليل وهي سني حكمه قضاها في كفاح مستمر مع العناصر والأحزاب المعارضة لإمارته، وحتى ضد دعاة العباسيين، وقد حرص هذا الأمير أن يجعل من قرطبة – مركز حكمه - مدينة زاهرة.

وبعد وفاته تقلد أبناؤه وأحفاده من بعده الحكم ، بدءًا من ابنه هشام الرضا الأول الذي حكم من عام (172هـ إلى 180هـ/788م – 796 م)، ثم الحكم الأول بن هشام (180هـ -206 هـ/796 - 822م) ثم عبد الرحمن الثاني الأوسط (206 هـ-238هـ / 822م – 852م) فابنه محمد (238 هـ - 273 هـ/852 م – 886م) فابنه المنذر (273 هـ-275 هـ /886 م – 888 م) فشقيقه عبد الله بن محمد الأول(275 هـ -300هـ / 888م -912 م).

حاول المروانيون في الأندلس خلال أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان إقامة بنى الدولة الأساسية وتوطيد أركان الإمارة، فقاموا بتأسيس المدن وعلاج مختلف الفتن التي كانت تنخر جسد الدولة بين مختلف أطياف الشعب أو على الحدود الشمالية ، ويمكن القول إن أمراء بني أمية قد وضعوا شروط وأسس الازدهار الحضاري (الفكري والاقتصادي والأدبي...) في ربوع شبه الجزيرة الأيبيرية.[2]

---

1 لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، أو كتاب تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 2006، ص2، يراجع كذلك:" أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها:" لمؤلف مجهول، تحقيق : إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص 141 وما بعدها.

2 حول سير أمراء الدولة الأموية في الأندلس وأعمالهم ينظر: / ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس/ مؤلف مجهول : كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس /ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 11 وما بعدها/ ابن حزم الأندلسي:ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، ملحق على مجموع الرسائل، ج1 ،ص 191 وما بعدها / ابن حيان القرطبي:المقتبس من أنباء أهل الأندلس،السفر الثالث

وبمجيء عبد الرحمن الناصر الثالث والذي حكم طويلا – حوالي خمسين سنة – من عام (300 هـ - 912 م) إلى عام (350 هـ - 961 م)، حيث يعد عهده أزهى عصور الحكم الإسلامي في الأندلس في نظر المؤرخين والباحثين قديما وحديثا وعلى اختلاف توجهاتهم. فقد عمل على تقوية دولته ماديا و أدبيا، وكما قال أحد الباحثين: "كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء أمراء بني أمية في الأندلس"[1].

واتخذ عبد الرحمن الناصر لنفسه لقب الخليفة في خطوة جريئة لم يتخذها أجداده في الأندلس من قبله وذلك في عام (317 هـ - 929 م) " ومن ثم أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في المغرب، والخلافة الأموية في بلاد الأندلس، وساعده في ذلك ضعف الخلافة العباسية وازدهار دولته، وارتفاع شانها في الداخل والخارج."[2]

كما اتخذ لقب" الناصر لدين اللّه" وهو بدعواه تلك لم يكن ليؤكد حقه الشامل في حكم المسلمين فحسب، بل استقلال حكام الأندلس عن أية سلطة سياسية إسلامية أخرى، ولم تكن هذه الخطوة الجريئة التي أقدم عليها عبد الرحمن الناصر موجهة للعباسيين* فقط خصومهم التاريخيين، بل كذلك في مواجهة الفاطميين العبيديين الذين بدأوا يكتسحون الساحة السياسية في شمال إفريقيا المجاورة لدولته مستندين في ذلك إلى مرجعيتهم الدينية والفكرية.

لم يكن اختيار عبد الرحمن الناصر كذلك للقب(الخليفة) اعتباطيا ودون النظر إلى الإنجازات التي حققها على الصعيد الحضاري، ووقف التحرشات المسيحية لدويلات الشمال الأندلسي، فقد

= ويضم الحوادث الواقعة بين سنتي (275-299 هـ/888-911 م)، تحقيق: محمود علي مكي،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية،الرياض، ط1، 2009/ الحميدي: جدوة المقتبس ص 15 وما بعدها./ الضبي: بغية الملتمس، ص 18 وما بعدها / ابن الأبار: الحلة السّيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر ، ط2، 1985، ج 1 / الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلدان، الرابع والخامس/ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص15 وما بعدها/ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ،ج2 ص 40 وما بعدها/ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق : نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3 ، 1980، الأجزاء (4، 5، 6)/ ابن الخطيب : أعمال الأعلام،من ص 7 إلى ص 59/المقري التلمساني: نفح الطيب، ج1 ،ص 327 وما بعدها .
بالإضافة إلى عديد المراجع والمصادر القديمة والحديثة.

1 حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الأندلس، بيروت، ط7، 1965م، ج3، ص 177.

2 المصدر نفسه، ص 176.

* زعم المقري أن الناصر إنما تلقب بلقب أمير المؤمنين، بعد أن بلغه مقتل الخليفة العباسي المقتدر من طرف مؤنس المظفر مولاه سنة (317 هـ)/ نفح الطيب، ج1 ،ص 353، ولكن الحقيقة أن سنة وفاة المقتدر كانت (320 هـ)/ ينظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك: ج5 ،ص 475/ابن الأثير : الكامل في التاريخ ،ج6 ،ص 220، 221.

قاد بنفسه حملتين لوقف غارات الشماليين إضافة لإرساله حملات أخرى، مثل حملته التي رد بها على إغارة الملك أردون الثاني(ORDONII)في سنة (304هـ - 916 م) وحملة أخرى في السنة الموالية لها، ثم حملته الشهيرة التي قاد فيها الجيوش بنفسه عام (308هـ - 920 م) والتي منيت فيها هذه الممالك الشمالية الصغيرة بهزائم نكراء.

" وقد شهدت سنوات ما بين (951م – 961 م) تعاظما في قوة عبد الرحمن ونفوذه، فقد كان ملك ليون وملكة نبرة وكونتات قشتالة وبرشلونة يعترفون بالولاء لعبد الرحمن وخلفائه وبهيمنتهم، ولم يكن هذا الاعتراف قضية شكلية محضة، بل يصحبه دفع جزية سنوية، وكان عدم الدفع يؤدي إلى غزوة تأديبية"[1].

وحتى قبل هذه السنوات وبالضبط في حوالي عام (931 م) أعلم القسم الأكبر من الإقليم الممتد من الجزائر حتى سجلماسة ولاءه لعبد الرحمن إثر تحقيقه عددا من الانتصارات[2].

كل هذه الحوادث جعلته حقيقا بأن يسمي نفسه خليفة للمسلمين، بالإضافة –طبعا - إلى الإنجازات الحضارية الكبرى التي قام بها في الأندلس.

ولسنا بحاجة إلى الاستفاضة في الحديث عن عبد الرحمن الناصر وفترة حكمه المزدهرة، فهي مبسوطة وبإسهاب في كتب التاريخ القديمة والحديثة التي تناولت هذه الحقبة، ولكننا نختم الحديث عنه بقول أحد المؤرخين المتحققين: " عبد الرحمن الثالث هو الشخصية الأكثر جاذبية وتألقا في تاريخ الأندلس الأموية، لا يختلف في ذلك عن جده الأعلى عبد الرحمن الأول واضع اللبنة الأولى للسيادة الأموية في تلك البقعة النائية، المزدحمة بالمتناقضات والمحاطة بصنوف الأخطار والتحديات. فكان هذا الأخير نموذجا متطورا يحاكي معاوية بن أبي سفيان صانع الدولة الأم، التي دفعت بالأسرة الأموية إلى واجهة الأحداث في مرحلة دقيقة من التاريخ الإسلامي."[3]

بعد وفاة عبد الرحمن الثالث، خلفه ابنه وولي عهده الحكم المنتصر بالله فجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه.[4] وكان يبلغ من العمر أثناء تقلده زمام الحكم زهاء خمسين عاما*،

---

1 مونتوغومري وات: في تاريخ اسبانيا الإسلامية. ص54، 55.

2 المصدر نفسه، ص 58.

3 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1986م، ص 277.

4 المقري: نفح الطيب، ج1ص 382.

* يقول الحميدي:" وله إذ ولي سبع وأربعون سنة" جذوة المقتبس، ص19/ الضبي: بغية الملتمس، ص21.

وغالبا ما أثنت كتب التاريخ على الحكم المستنصر فقد كان حكمه موفقا مزدهرا " وكانت قرطبة عاصمة الخلافة أنذاك كما وصفتها الشاعرة الساكسونية (هرستيا HROSWITHA) زينة الدنيا."[1]

وكان الحكم نفسه فقيها بالمذاهب، إماما في معرفة الأنساب، حافظا للتاريخ جماعا للكتب ، مميزا للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر وأوان، تجرد لذلك وتهمم به، فكأن فيه حجة وقدوة وأصلا يوقف عنده.[2]

وللحكم المستنصر أعمال جليلة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي للأندلس، إضافة إلى أياديه البيضاء على العلم والعلماء، ويذكر المؤرخون أنه بنى الزيادة بالمسجد الأعظم وزينه بالفسيفساء المجتلبة من قبل ملك القسطنطينية مع الصنّاع المحكمين لذلك... وورد عليه إرسال ملوك البلاد وجبابرة العباد، وألقت الأقطار إليه بالمقاليد... وإليه انتهت الأبّهَة والجلالة والعلم والأصالة والآثار الباقية والحسنات الراقية.[3]

وبعد وفاة الحكم المستنصر في (رمضان366 هـ / أكتوبر 976 م) ظهرت بوادر أزمة كان لها صداها العميق وتداعياتها على مستقبل الحكم الأموي في الأندلس، حيث خلفه ابنه هشام الثاني المؤيد، وبويع له بالخلافة يوم الاثنين لخمس خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة[4] وكان آنذاك في الحادية عشرة من عمره.

قلد هشام حجابته وزير أبيه الأخصّ أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي، وفي هذا اليوم أنهض الخليفة هشام محمد بن أبي عامر إلى خطة الوزارة، نقله إليها عن شرطته الوسطى.[5]

أثارت تولية الطفل هشام المؤيد الخلافة جموع الصقالبة حيث كان زعماؤهم على قدر كبير من الإخلاص للدولة، فقد كانوا عماد جيوشها(استكثر منهم عبد الرحمن الداخل وخلفاؤه من بعده الحرب العصيبة التي قامت بين القيسية واليمنية والبرابرة)، حيث إن تولية طفل في الحادية عشرة من عمره قد ينجر عنه عواقب وخيمة، فأرادوا أن يعدلوا عن هشام إلى عمه المغيرة أخي الحكم،

---

1 كولان: الأندلس، ص123.

2 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص41.

3 المصدر نفسه : ص42.

4 ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 15.

5 ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج2، ص254.

وبمؤامرة من الجانب المصحفي الذي أراد أن يبقي الوصاية تحت يده بخلافة هشام وبمساعدة رجاله وثقاته وعلى رأسهم بن أبي عامر الذي اضطلع بهذه المهمة، حيث عثر على المغيرة مخنوقا في بيته[1].

ولكنّ السحر انقلب على الساحر، حيث كان المصحفي قصير النظر مقارنة مع سميه بن أبي عامر الذي حاول أن يكسب شعبية عن طريق قيادة الجيوش لمحاربة نصارى مملكة ليون الذين أغاروا على ثغور المسلمين مستغلين موت الحكم المستنصر، ولم يكن من قبل يتولى قيادة الجيوش، فرجع المنصور بن أبي عامر إلى قرطبة مظفّرا بنصر سحيق تسبقه أخباره، فحاول أن يزاوج بين الانتصار العسكري والكسب السياسي.

وفي حديث طويل قبض ابن أبي عامر على المصحفي وأودعه السجن متهما إياه بتبديد أموال الدولة ، وأصبح هو الجاحب الفعلي وقد حجز على الخليفة الصغير، فلم يبق من الخلافة سوى الاسم(الخطبة وضرب السكة باسمه).[2]

دام حكم المنصور بن أبي عامر من عام (367 هـ-977م / إلى 392 هـ-1002 م)، وبوفاته تقلد ابنه عبد الملك سلطات أبيه بعد حصوله من الخليفة هشام الثاني على تفويض يمنحه سلطات مماثلة مثلما كانت لأبيه من قبل.[3]

تلقب عبد المالك بن أبي عامر بالمظفر وجرى في الغزو والسياسة على سنن أبيه ،وكانت أيامه أعيادا في الخصب والأمان دامت سبع سنين، إلى أن مات وثارت الفتن بعده.[4]

ثم تقلد الخلافة من بعده أخوه عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول فخلط وتسمَّى ولي العهد، ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، والذي تلقب بالمهدي. في جمادى الآخرة سنة (399هـ) فخلع هشاما المؤيد، وأسلمت الجيوش عبد الرحمان شنجول فقتل وصلب.[5] وبعد مقتل عبد الرحمن شنجول دخلت الأندلس في فوضى رهيبة كانت إيذانا بتقسيمها وتشتيتها، حيث انفرطت حبات العقد بعد ربع قرن من تاريخ 399هـ، فقد عرفت السنوات التي تلت هذا التاريخ باسم "الفتنة البربرية"

---

1 ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج2، ص 261.

2 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 59 وما بعدها.

3 مونتوغومري وات: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص96.

4 عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص29.

5 المصدر نفسه، ص30/ وانظر الحميدي: جذوة المقتبس، ص21/ المقري: نفح الطيب ،ج1 ،ص424 وما بعدها.

كانت هذه الفتنة والتي امتدت زهاء ربع قرن، من عام (399 هـ -1008هـ /إلى 422هـ -1031هـ) من أكثر الحقب مأساوية في التاريخ الأندلسي، فقد كانت مليئة بالهزات السياسية والاضطربات الاجتماعية، حيث كان الصراع بين العناصر المختلفة المشكّلة للتوليفة الشعبية الأندلسية، كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة، فقد خربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة.

يطلق عليها الأندلسيون اسم "البربرية" بسبب الدور الكبير والحاسم الذي قامت به العناصر البربرية في جيوش الخلافة.[1] فقد أضحت الخلافة الأموية في أواخر عهدها في حال يرثى لها، حيث جرت العادة في هذه الفترة على التطاول على الخلفاء وخلعهم وكان أكثرهم ممن لم تحمد سيرته سياسة وأخلاقا. فنمهم من كان يعين أكثر من مرة، ومنهم من حكم مدة أشهر فقط، ومنهم من لم يزد عن السنة إلا شهرا.[2] ويكفي للدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس.[3]

ففي فترة قصيرة من سنة (399هـ) إلى سنة (407هـ) تولى الخلافة خلالها محمد بن هشام المهدي بالله، فسليمان المستعين،فهشام المؤيد مرة أخرى، ثم سليمان للمرة الثانية حتى استطاع بنو حمّود البربر أن يتزعموا الخلافة، وأن يسيطروا على السلطة المركزية في قرطبة لفترة قصيرة.

يقول محمد عبد الله عنان: "ثم تطورت الأحداث بسرعة، وعاد بنو أمية فاستردّوا الخلافة، وحكموا في قرطبة عدة أعوام أخرى (من 414هـ إلى 422هـ) وتولى الخلافة منهم المرتضى، فالمستظهر، فالمستكفي بالله، فهشام المعتد بالله، وهو أخرهم، وبخلعه في أواخر سنة (422هـ) تختتم الدولة الأموية رياستها في الأندلس بصورة نهائية بعد أن دامت مند قيام عبد الرحمن الداخل في سنة (138هـ/ 756م)مائتين وأربعة وثمانين عاما."[4]

---

1 محمود علي مكي: تاريخ الإسلام السياسي، ضمن كتاب سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1 ،ص 97.

2 إبراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي (دراسة حضارية 29 هـ -478هـ) ص83.

3 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص274.

4 دولة الإسلام في الأندلس (العصر الثاني مند قيامها حتى الفتح المرابطي). مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997 م ص14 /حول الفتنة البربرية ينظر كل كتب المتعلقة بالتاريخ الأندلسي، المقوى:نفح الطيب،ج1، ص426 وما بعدها، / الحميدي: جدوة المقتبس، ص22 وما بعدها، / الضبي: بغية الملتمس، ص24 وما بعدها ، / ابن الخطيب: أعمال الأعمال ، ص109 وما بعدها، / عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص30 وما بعدها/ ابن عذراي المراكشي: البيان المغرب،ج؟

بعد هذه الفوضى العارمة التي عاشها الأندلس زمن الفتنة القرطبية، قرر مجلس الأعيان في قرطبة إلغاء الخلافة، وإقامة مجلس مصغر يدير شؤون الدولة واقتصرت سلطة هذا المجلس على قرطبة فقط، يقول ابن الخطيب في ذلك: " وأعمل الوزراء والمشيخة الرأي؛ فاتفقوا على خلع الشيخ وإبطال رسم الخلافة جملة لعدم الشاكلة، وعلى نفي المروانية وإجلائهم، وأنفذوا إلى هشام المعتز باللّه، وإلى أمية بالخروج عن قرطبة."[1] ويقول في موضع أخر: " ومشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية،ولا يكنفهم أحد،وكان القائم بإخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم أبا الحزم بن جَهْور."[2]

كانت أحداث الفتنة القرطبية أو البربرية تنذر بالكارثة التي ستحل على الأندلس، وقد فصّلت كتب التاريخ فيها، وتحدثت عن بشاعة التقتيل الذي حصل بين مختلف طوائف الشعب حكاما ومحكومين، حيث استعر القتل بينهم وكثر السلب والنهب، والهرج والمرج، وأتت هذه الفتنة على كل أخضر ويابس وقائم وحصيد، ومست حتى الصفوة الأخيار من العلماء والقضاة والأدباء وذوي النباهة. منهم ابن الفرضى (ت 403هـ) الذي قتل في هذه الفتنة، وكانت محنة القاضي يحي بن وافد اللّخمي (404هـ) مع البرابرة تقطع القلوب.[3] أم ابن أخته أبو عبد الملك القرطبي راشد بن إبراهيم (ت 404هـ -1013م) وكان من العلماء الكبار، وقد تولى خطة الرد أياما في الفتنة فقد خرج فارا من قرطبة يريد الجوف فذبح في الطريق.[4]

وأما أبو القاسم خلف بن سلمة بن سليمان بن خميس وقد روى وحدث وكان أحد العدول قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عام (403هـ)[5] وها هو الصخري خلف بن مروان وكان من أهل العلم والمعرفة و العفاف والصيانة، وقد قلده المهدي أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار الشورى بقرطبة، وقبله قد استقضاه المظفر عبد الملك بن أبي عامر بطليطلة، فعدل وعفّ وفارقهم مستعفيا فخلّف

---

1 أعمال الأعلام،ص139.

2 المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

3 القاضي النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، أو "تاريخ قضاة الأندلس"، مراجعة: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2006م، ص103

4 ابن بشكوال: الصلة،مراجعة: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2003 ،ص162 -163.

5 المصدر نفسه،ص 145.

فيهم سيرة محمودة،رغم ذلك لم تشفع له هذه السيرة فقد خرج من قرطبة فارًا من الفتنة فهلك ببلده سنة(401هـ)[1]

وذكر ابن بشكوال أنّ الفقيه الطليطلي أبا عمر أحمد بن سعيد بن كوثر الذي ولي أحكام طليطلة مع يعيش بن محمد ثم استثقله ودبر على قتله، حتى إن الداخل عليه ليقتله ألفه وهو يقرأ المصحف فشعر أنه يريد قتله فقال له: قد علمت الذي تريد فاصنع ما أمرت فقتله.وأشيع في الناس أنه مرض ومات، رحمه الله، وذكر ابن حيان أنه مات معتقلا بشنترين مسموما سنة (403هـ)[2]

ونختم حديثنا عن مأسي العلماء في عصر الفتنة، بقصة مؤثرة عن العالم والفقيه ابن أمينة الذي قدم قرطبة عام (393هـ) فحمل عنه علم كثير، فقد كان له خاصة مع القاضي ابن ذكوان فأغري به العامة فأضجعوه وذبحوه حين ثورة الأندلس بالبرابرة عند قيام المهدي... وقيل بل شدّخوا رأسه بالحجارة وأنه سألهم أن يمهلوه حتى يصلي ركعتين ففعلوا.[3]

هذه الأمثلة على قلتها تبين فظاعة هذه المحنة وما تركته من أثار سيئة على الصفوة فما بالك بالعامة، وقد فصّلت كتب التاريخ في هذه القضية، وما أهمل أو ما سكتت عنه أعظم.والمحظوظ من لم تدركه يد الردى فسجن فقط أو عذب، كابن حزم الذي سجن في عهد المستكفي بالله.*

والأكثر حظا منه ابن ذكوان قاضي الجماعة (ت 413هـ/ 1022م) الذي نفي في عهد المهدي**بن عبد الجبار المرواني أول ملوك الفتنة وأحقد الناس على ابن ذكوان بخاصة من العامرية.[4] أو الفقيه

---

1 ابن بشكوال: الصلة، (طبعة المكتبة العصرية)، ص 145.

2 المصدر نفسه،ص46.

3 المصدر نفسه،156.

*:هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، بويع له في قرطبة في الثامن من ذي القعدة سنة (414هـ/17 كانون الثاني1024م) وقد خلع ثم اغتيل بعد سنتين من ذلك./ ينظر أخباره ابن حزم: رسالة ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس. ملحق على مجموع الرسائل، ج1 ، ص202، 203 ./ الحميدي: جذوة المقتبس، ص28./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص437، 438.

**:مولده سنة (336هـ) قام بأمر الخلافة على هشام بن الحكم في جمادى الآخرة سنة (399هـ) فخلعه وتسمى بالمهدي، موقد الفتنة القرطبية، قتله العبيد في قرطبة،فكانت مدة ولايته مند أن قام إلى أن قتل ستة عشر شهرا./ ينظر أخبار عند ابن حزم:رسالة ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، ملحق على مجموع الرسائل،ج1 ، ص196، 197/الحميدي: جذوة المقتبس، ص22 / المقري: نفح الطيب،ج1 ، ص426 وغيرها من المصادر الأخرى.

4 القاضي النباهي: المرقبة العليا ،ص101.

يعيش بن محمد الذي حكم طليطلة أيام الفتنة فرغم ما عرف عنه من عدل وزهد وحسن تدبير فقد خلعه أهلها ومات منفيا سنة (418هـ-1027م).[1]

ولا يمكن لأي إنسان أن يتصور حجم هذه المأساة المدوية التي حلت بالأندلس، من خلال تهاوي السلطة المركزية في قرطبة، رمز الوحدة الجامعة،والخراب والدمار الذي أحدثته، فقد قوضت بنى وهدمت عمران، ويكفي القارئ أن يطلع على نصوص بعض المؤرخين حولها حتى يستشعرها.[2]

فقد تركت هذه الفتنة فراغا كبيرا، وغموضا أكبر في الحياة السياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية للعقود الموالية لها، وتردد صداها كثيرا عند الشعراء والأدباء فوصفوا خراب قرطبة والزهراء بعدما كانتا عامرتين، قال أحدهم:

ابك على قرطبة الزين فقد دهتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه ثم تقاضى جملة الدّين
كانت الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللّين
فانعكس الأمر فما أن ترى بها سرورا بين اثنين
فاغد ودعها وسر سالما إن كنت أزمعت على البين[3]

وقال أخر يشكو حال الراعي والرعية على حد سواء:

أضعتم الحزم في تدبير أمركمُ ستعلتمون معا عقبى البوار غدَا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكمُ بكيتم بدم أن دمتم بددَا
لكنّ سبْل العمى أعمت بصائركم فألبستكم ثيابا للبلى جُددا
يا أمة هتكت مستور سوءتها ما كل من ذل أعطى بالصَّغار يدَا
في سورة الحشر آيات مفصّلة في شأنكم أنزلت لم تعْدُكُم أحدَا
نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة تقضي عليكم بأن لا تفلحوا أبدَا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت جميعكم محنة لا تنقضي أبدا[4]

---

1 ابن شكوال: الصلة،ج2، ص 529.

2 أنظر مثلا : ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،ق1/ ج1 /ص35 وما بعدها/ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 31 وما بعدها./ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج3، من ص50 إلى ص119/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص109 وما بعدها./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج7، ص 248، 249، ومن ص284 إلى ص 290/المقري: نفح الطيب، ج1، ص427 وما بعدها.

3 ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب،ج3،ص110.

4 المصدر نفسه: ص110، 111.

ج - أسباب الفتنة القرطبية (البربرية) وانهيار الخلافة:

احتلت الفتنة القرطبية أو البربرية كما يحلو للأندلسيين تسميتها حيزا مهما في المدونات التاريخية القديمة - المتعلقة بالتاريخ الأندلسي -أو في الحوليات التاريخية الحديثة التي اهتمت بهذه المسألة، وسنحاول إيجاز أهم أسبابها لارتباطها المباشر بأحداث عصر ملوك الطوائف، فهي الدافع الرئيسي والمباشر لقيام هذه الممالك.

- سبب عرقي (اثني):

وهو أحد أهم الأسباب القوية والمؤثرة والدافعة إلى نشوء هذه الفتنة، فقد تصارعت هذه الفئات فيما بينها مرات وتحالفت مرات أخرى بدافع المصلحة، وقد يكون الصراع حتى داخل الفئة الواحدة.

وبدا أن بعض العناصر المؤلفة للتركيبة الأندلسية لم يدركها التمازج والانصهار، يقول أحد الباحثين:" وليس ثمة شك أن فقدان التلاحم البشري في المجتمع الأندلسي، الذي كان خليطا متنوع الهويات العرقية ومتناقض الانتماءات سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، أسهم في تفشيل النظام الأموي وتعثره منذ بداية تأسيس، حيث ظل العرب تلك الفئة المهيمنة على السلطة والمستأثرة بالامتيازات، وفي الوقت نفسه ظلت الفئات الأخرى تجتر ولاءها السطحي لهذا النظام. مقتربة منه أو متبعدة، حسب تقلب الأحوال، دونما شعور بالولاء الحقيقي أو ارتباط بالمصلحة المشتركة."[1]

وقد أشار المؤرخون إلى أقدم العصبيات في الأندلس، وهي العصبية العربية بين القيسية واليمنية[2] أو بين مختلف طوائف الشعب الأندلسي[3] وذلك منذ عصر الولاة، وكانت تخبو تارة وتخمد آخرين ولطالما تصارع العرب والبربر هناك وتصالحوا ،وتصارع البربر كذلك فيما بينهم (أندلسيون وطارؤون)* ، وهناك ثائرون من البربر على السلطة المركزية قبل عصر الفتنة ** أو حتى متمردون

---

1 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص347، 348.

2 ابن حيان: المقتبس (السفر الثالث)،ص112.

3 المصدر نفسه: ص110.

*:يقول مونتوغومري وات:" استقدم المنصور خلال صعوده إلى السلطة فرقا جديدة من البربر تختلف مواقفهم السياسية عن مواقف البربر الذين قدم بهم العهد في بلاد الأندلس، وكل هذه الوقائع كانت تشير إلى حدة الانقسامات السياسية./ " تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 98.

**:ثورات البربر في الأندلس في معظمها اجتماعية، اقتصادية، وقد تكون سياسية في بعض الأحيان فقط، وسنتحدث عن هذه النقطة في هذا الفصل (الأخلاط البشرية - البربر).

من فئة المستعربين (حركة القديسين الشهداء)* في القرن الثالث كذلك.هذه الانشقاقات والانقسامات بدأت إرهاصاتها قبل عقود طويلة من تاريخ الفتنة القرطبية، إضافة إلى مختلف التواليف البشرية الأخرى، مولّدون، يهود، صقالبة...

وربما خرج الصراع عن دائرة الإثنية وارتبط بمصالح الأفراد والأسر والجماعات، فقد استشرى الصراع على السلطة حتى بين أفراد الأسرة الأموية الواحدة، فخلال نيف وعشرين عاما، تقاذف الخلافة عدد من الطامحين إلى العرش وقتّلوا بعضهم بعضا**، وبالتالي فلا نستغرب إعادة البربر سليمان المستعين إلى الخلافة،[1] قبل أن تقوى شوكتهم وينصّبُون واليه على سبتة علي بن حمود مكانه . حيث زعم علي بن حمود أن هشام بن الحكم كتب له كتابا يستجديه من أسر البرابر والمستعين.[2]

وبالتالي فالسعي نحو المصالح وتضاربها مثل جانبا مهما، وشكل وقودا هاما نحو تأجيج الفتنة ، يقول أحد الباحثين في هذا الشأن:" لا يمكننا أن نفسر ظاهرة الانحلال هذه بطريقة مبسطة بوضعنا كل المسؤولية على عاتق البربر والعرب، بل يجب أن نضع القضية في إطار أندلسي واسع؛ لأن التناقضات والصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تميز الأندلس عامة ودون أدنى ميز عنصري."[3]

- سبب جغرافي:

تحدث عنه مونتوغومري وات في كتابه "في تاريخ إسبانيا الإسلامية" حيث قال: "كانت الحقيقة الجلية الأولى التي تسببت بالانهيار هي ما يسمى بالتشرذم، والتشرذم كان إقليميا وعرقيا معا، إذ أن من المرجح أن صعوبات في الموصلات ناتجة عن سلاسل جبال عديدة شجعت في مقاطعة الميل

---

* نستحدث عن هذه الحركة كذلك في هذا الفصل (الأخلاط البشرية - المستعربون).

** قيام هشام بن عبد الجبار الأموي على هشام المؤيد سنة (399هـ)، وحصار سليمان بن الحكم بن سليمان لهشام المؤيد في قرطبة./ ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج1 ،ص196

1 الحميدي:جذوة المقتبس، ص22، 23./ ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج1 ،ص197، 198.

2 ابن عذاري: البيان النغرب، ج3، ص116، 119 وما بعدها./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص128، 129./ وحول تصيير أمر الخلافة من هشام المؤيد إلى علي بن حمّود. ينظر ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1/ج1 /ص37، 38.

3 أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان ، المملكة المغربية،ط2، 1999م،ص ؟ وسنتحدث في المبحث الموالي لهذا المبحث مباشرة عن الأساس الذي قامت عليه دويلات الطوائف، هل هو أساس عرقي أم شيء أخر بالتفصيل.

لتصبح وحدة سياسية مستقلة والحكام المحليون كانوا يتمتعون بسلطات فعلية ولم يكن يكبح جماحهم إلا جهد كبير يبذله الحكم المركزي."[1]

ربما نوافق الباحث قليلا في هذا الرأي،ولكننا نخالفه في كثير منه، فمساحة شبه الجزيرة الأيبيرية(إسبانيا والبرتغال) لم تكن تساوي شيئا مما عرفه الحكم الإسلامي في المشرق في عهد الأمويين أجداد بني مروان في الأندلس،والعباسيين من بعدهم من حيث شساعة المساحة،ورغم ذلك بقي الحكم المركزي مسيطرا على الأمور تقريبا حتى في عز الانفلات.

- أسباب اقتصادية واجتماعية:

لا شك أن العامل الاقتصادي والعوامل المادية بشكل عام تلعب دورا أساسيا ومحوريا في الحياة البشرية، وتسهم بشكل فعال في تحديد المصير السياسي للحكم في أية دولة كانت عبر التاريخ.

لقد أغفل عديد المؤرخين ممن كتبوا عن الأندلس وبالضبط عن هذه الحقبة (الفتنة القرطبية) أهمية هذا الجانب في فهم حركية التاريخ وكان جل اهتمامهم منصبًّا على الحياة السياسية والدينية والحياة الاجتماعية.

خلفت هذه الفتنة وقبلها بقليل وضعا اقتصاديا مزريا وهشّا، إضافة إلى المآسي والآلام التي عاشها المجتمع الأندلسي بكل طوائفه، وقد لا حظنا تعاقب حكام وسقوط آخرين في فترة زمنية قصيرة، وكل حاكم يستنفذ ما فيه خزائنه من أموال في سبيل ترضيه أعوانه وجنوده ومرتزقته، ويعمل على تقويض طاقات وجهود خصمه، وتهديم بنيته، كل هذا كفيل بأن يجعل من الماديات هي اللاعب الرئيس في حقل الصراعات السياسية والعسكرية، يقول أحد الباحثين:"إن هذه الحالة السياسية الممزقة التي اتسمت بتتابع حكام أمويين وبربر وعرب. وتعدد انسحاب جيش منهزم ودخول آخر منتصر، حيث شاع التدمير والسلب وكل أعمال العنف وأصنافها، كان لها صدًى يتردد في جوانب المجتمع الأندلسي، ومن هنا لا نتوقع رفاهية للشعب كله، أو عدالة تسود الجميع أو ظلا ممدودا يطمئن إليه أهل الأندلس."[2]

---

1 ص 97.

2 خالد وزاني: الباجي وتأصيلاته الفقهية في المذهب المالكي، ص24.

وحول أسباب انعقاد مجلس شورى قرطبة وإلغاء رسم الخلافة يقول ابن الخطيب: " واتفق رأي الجماعة بقرطبة على محو رسم الخلافة الأموية لعدم الصلوح في أهل بيتها، وسوء الجوار، وفناء الأموال التي يرزق منها من يقهر به السلطان كوان الناس."[1]

وأضاف وات مونتوغومري في هذا الشأن من أسباب انهيار الخلافة عدم وجود طبقة وسطى راسخة الأساس ومهمته بالمحافظة على حكومة مركزية فعالة، فقد شكا ابن مناوٍ ومعه وجود العبيد عام (402هـ)، أي في عز الفتنة القرطبية حالهم وحال العامة حينما دخلوا على هشام المؤيد فقالوا له :" قد بلغ الأمر منتهاه ولا طاقة لنا بهؤلاء القوم والناس مختلفون منهم من يريد الصلح ومنهم من لا يريده وليس عندنا مال وقد أجحفنا رعيتنا في المغارم وسعرنا في غاية الغلاء والجند فقراء والثغر مضطرب والنصارى يريدون الوصول إلينا ومؤنتهم عظيمة علينا وما عندنا ما يقوم به." [2]

وقد نال البربر من محمد بن هشام بن عبد الجبار من سوئه الشيء الكثير، فقد نهبت دورهم ولم يسلم منها إلا ما أحال الليل دونه.[3]

ونهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسُبي نسائهم وباعوهن في دار البنات وقتلوا النساء الحوامل، وقتلوا سبعة عشر رجلا من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة.[4] وبلغ به الأمر أن نادى في الناس من أتى برأس بربري فله كذا، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه فلم يبق تاجر ولا جندي إلا عمل مجهوده في ذلك.[5]

فلا نعتقد في ظل هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتدهورة أن تجد السلطة المركزية وهي في غاية الضعف، السند القوى - من الطبقة المتوسطة - الذي يدعمها ويعضّدُ من شأنها.

ومما يلاحظ كذلك وضمن سياق العامل الاقتصادي والاجتماعي، تخلخل قيم المجتمع، فمع ازدياد الثراء في عهد عبد الرحمن الثالث، أصبح جمهور السكان الأعظم ماديا في نظرته إلى الأمور، إلى حدٍّ قلّ معه القادرون على تقديم التضحيات التي تتطلبها الوحدة، هذه النظرة المادية

---

1 أعمال الأعلام، ص147.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3 ،ص108، 109.

3 المصدر نفسه:ص81.

4 المصدر نفسه، الصفحة نفسها

5 المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

التي كانت للزعماء أو لمؤيديهم أو للفريقين معًا يرجَّح أنها كانت أحد العوامل التي أدت إلى الانهيار حسب رأي مونتوغومري وات.[1]

- الديكتاتورية "العامرية ومحاولة التوريث":

مند أن تقلّد المنصور بن أبي عامر مقاليد الحكم بطريق غير مباشر في سنة (367هـ/977م) رأى ككل حاكم مستبد أنه لا بدّ له أن يعتمد على جيش قوي يدين له بالولاء، فاعتمد على البربر وجعلهم عدة جيشه،" فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم."[2] وكان من أسباب اعتماده على البربر وهو العربي ذوا الأصول اليمنية لأنه لا يثق الجند الأندلسيين لولائهم للبيت الأموي.

ولا داعيَ للتذكير بغزوات ابن أبي عامر الاثنتين وخمسين على الممالك المسيحية الشمالية (مملكة بنرة، ومملكة ليون،وقومسية قشتالة)، فقد كان يعود من هذه الحملات كل عام بألاف كثيرة من الأسرى والسبايا.[3]

وتم للمنصور ما أراد من الاستقلال بالمُلك والاستبداد بالأمر[4] وما إقصاؤه لأقرب مقربيه ممن كان لهم الفضل في تعيينه في الحجابة (عثمان المصحفي) إلا دليلا على انتهازية الرجل، ويذكر المقرّي في النفح أنّ له باعا في الحزم والكيد والجلد ما جعل ابن حيّان يفرد له تأليفا خاصاً.[5]

وربما قد أعطى المنصور بسياسته تلك، الجرأة للطامعين إلى عرش الخلافة ممن كان الحكم يسكن في نفوسهم ولم يستطيعوا التصريح به فطوال سِني حكم الأمويين، وإن كثرت التمردات والثورات، ولكنّ أحدا لم يستطع الخروج على السلطة المركزية في قرطبة أو حتى

---

1 ـ في تاريخ إسبانيا الإسلامية: ص98.

2 المقري: نفح الطيب، ج1، ص397.

3 المصدر نفسه، ص400.

4 المصدر نفسه،ص397.

5 المصدر نفسه،ص400.

يجاهر بذلك، فلما جاء المنصور ألغى فاعلية هذه السلطة ، فلم يكن للخليفة هشام المؤيد من خلافته إلاّ الاسم (الدعاء على المنابر وضرب السكة).[1]

كان للخلافة أكثر من معنى فلطالما جمعت بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن جاء المنصور وأبناؤه من بعده، فانتزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الأموي هشام واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعي، ولا شك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالأندلس لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن شنجول* بن المنصور في الخلافة نفسها، وهو أمر خطير لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل.[2] لقد تلقت الخلافة أولى الضربات العنيفة على يد المنصور بن أبي عامر بعد أن استحوذ على حقيقة الملك وترك تاجه، وبالتالي فقد شهد الحكم السياسي في الأندلس ولأول مرة تأسيس دولة في قلب دولة، كانت إيذانا فيما بعد بظهور دويلات الطوائف.

لقد حمّل بعض المؤرخين أسباب تشتت الأندلس وضعفها للعامريين، لأنهم أضاعوا هيبة الخلافة التي كانت تمثل الوحدة السياسية للأندلسيين، ويرون أنهم جعلوها صورية وأفقدوها المكانة المقدسة في قلوب العامة.[3]

وعلى ذكر أسباب انهيار الخلافة، لا يفوتنا التذكير بطبقة لها من الفاعلية في تدعيم أركان الحكم أو تهاويه مالا يغفلنا عن ذكرها، وهي طبقة العلماء والفقهاء، فقد كانت على أهميتها مهمشة في تلك الفترة، فقد قتل لفيف من العلماء - كما ذكرنا سابقا - ولفيف آخر قد أصابه من ألوان النفي والسجن والتعذيب ما ينذر بسوء العاقبة.

---

1 المقري: نفح الطيب، ج1، ص397، 398.

* أول من دعا بالخلافة لنفسه في تاريخ الأندلس خارج الأسرة الأموية، فقد حاول تقلدها شكلا ومضمونا. راجع ذلك عند ابن عذاري: البيان المغرب،ج3،ص38 وما بعدها/ المقري: نفح الطيب، ج1،ص425، 426.

2 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس،ص118.

3 فوزي عناد القبوري العتيبي: فقهاء الأندلس والمشروع العامري، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع،الرياض،المملكة العربية السعودية، ط1، 2010،ص243.

وإذا اعتقدنا بنفاذ كلمة أهل العلم في الرعية وربطنا القضية بما عاشته هذه الطبقة في هذه الفتنة، أدركنا بأن الحكومة المركزية في قرطبة قد فقدت سندا قويا، لطالما استخدم في اكتساب الشرعية عند باقي الأطياف السياسية العربية والإسلامية في المشرق والمغرب على حدّ سواء.

وقد تكون هذه الأسباب والعوامل مجتمعة، هي سبب انهيار الخلافة الأندلسية، إذا أضفنا إليها ضعف أمراء بني أميّة في هذه الفترة فلم يكونوا كلهم في المستوى المطلوب والمعهود، كما كان أجدادهم، فلم تتوفر فيهم شروط الحاكمية والمقبولية لدى رعيتهم.*

* ذكر مونتوغومري وات من أسباب انهيار الخلافة، " الإخفاق في تكييف الأفكار الإسلامية مع مشاكل معاصرة" ، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص98. ولا نعتقد بصحة هذا الرأي، فباب الاجتهاد الفقهي والفكري لم ينقطع يوما عن بلاد الإسلام وعن البلاد الأندلسية بالذات، ورغم أن الأندلسيين مالكيون بالدرجة الأولى، ولكنهم اجتهدوا في هذا المذهب، ولهم إضافات توافق حاجيات العصر وخصوصيات القطر. أضف إلى ذلك أن الأندلس شهدت اضطرابات قبل انهيار الخلافة بوقت طويل - منذ عصر الولاة - ثم إنّ رجوع الخلافة الإسلامية هناك – بعد عصر الطوائف - زمن المرابطين والموحدين فيما بعد كفيل بأن يبطل رأي الأستاذ (وات).

الفصل الثاني: الأندلس: تفكك الوحدة وقيام ممالك الطوائف:

المبحث الأول: عصر الطوائف.

أ - كلمة عامة في عصر الطوائف:

ب - أساس قيام ممالك الطوائف (قضية العرقية والعصبية ؟؟):

المبحث الثاني: ممالك الطوائف:

أ - العرب:

- بنو عباد اللخميون في إشبيلية وقرطبة:
- بنو هود(الجذاميون)، أصحاب سرقسطة (الثغر الأعلى):
- بنو القاسم الفهريين (في البونت)
- بنو حمود (الحسنيون، العلويون)

ب - موالي بني أمية في الأندلس:

- دولة الجهاورة (بنو جهور) بقرطبة:

ج -البربر:

- بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة ومالقة.
- بنو الأفطس أصحاب مملكة بطليوس.
- مملكة بني ذي النون في طليطلة.
- مملكة بني رزين في السهلة.

د - الفتيان العامريون

- مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية.
- مبارك ومظفر العامريان وحكم بلنسية.
- الفتيان خيران وزهير العامريان وحكم ألمرية.

هـ - دويلات أخرى صغيرة.

المبحث الثالث: مواقف العلماء والفقهاء والشعراء من تصدع الأندلس السياسي في عصر الطوائف.

I -2 -الفصل الثاني: الأندلس: تفكك الوحدة وقيام ممالك الطوائف:

I -2 -1 - المبحث الأول: عصر الطوائف.

أ -كلمة عامة في عصر الطوائف:

انقطعت دولة بني أمية وحكمهم في الأندلس بخلع آخر أمرائهم هشام المعتد بالله عام (422هـ)، والذي لحق بابن هود المتغلب على مدينة لاردة، وسرقسطة، وإفراغة، وطرطوشتة وبقي هناك إلى أن مات في سنة (427هـ)... وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعدوة.[1] بعد أن دامت مائتي سنة وأربعة وثمانين سنة (284عام). رغم أن ابن عذاري قد حدّدها بدقّة فقال: " وقد ختمت دولة بني أمية بالأندلس فكان مبلغها مائتي سنة وثمانية وستين سنة وثلاثة وأربعين يوما."[2]

" كثيرون عاشوا نهاية الخلافة بوصفها كارثة سياسية ومأساة شخصية، انتهت الخلافة مثلما بدأت، في السياق الفردي والسياسي الذي أحاط بالتراجيديا التي أصابت بيت بني أمية، وكان لها صدى يرنّ كترتيلة تدعو إلى المنفى."[3] وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية، فإن أهلها تفرقوا فرقا وتغلب في كل جهة منها متغلب، كل متغلب منهم ما تغلب عليه وتقسموا ألقاب الخلافة.[4] وملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها، واستبدل كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر، فلم يذكر خليفة أموي ولا هاشمي بقطر من الأقطار الأندلسية.[5]

لقد دخلت شبه الجزيرة الأيبيرية عهدا جديدا من الانقسامات السياسية الحادة والتي أدت إلى ظهور ممالك صغيرة ومتعددة رغم أن الدين واحد عند الغالبية من السكان واللسان واحد تقريبا، ولكن الجسد ليس بواحد،مما جعله أشلاء ممزقة أنبأت عن سوء حاله وأنذرت عن سوء طالعه ومصيره المشؤوم.

1عبد الواحد المراكشي: المعجب.ص43، 44.

2 البيان المغرب:ج3، ص114.

3 ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص85.

4 عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص53.

5 المصدر نفسه، ص65.

يقول حسين مؤنس:" هكذا ظهر أمراء النواحي الذين نسميهم بملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكا ولا طوائف، وإنما هم كانوا عمّالا على النواحي* استبدّوا بالأمر كل في ناحيته، وهم لم يتخذوا ألقابا ملكية ولا سلطانية، وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتمد وناصر ومتوكل، كما قال الشاعر:

مما يزهدني في الأرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمدِ

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسدِ[2]

وقد لخص ابن الخطيب حال شبه الجزيرة وحال هؤلاء الملوك فقال:" وذهب أهل الأندلس من الانشقاق، والانشعاب والافتراق، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب، والخِطّة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العملات والأمصار، وجندوا الجنود وقدّموا القضاة وانتحلوا الألقاب.[3] وكثرت الفتنة وتمادت وانتزى كل أحد في موضعه واستبد رؤساء الأندلس وثوارها بما في أيديهم من البلاد والمعاقل وبغى بعضهم على بعض.[4]

وقد سمي عصرهم بعصر ملوك الطوائف ، وأطلق المؤرخون على هذه الفتنة اسم "الفتنة المبيرة"[5] لقد أصبح كل من هبّ ودبّ طامعا في الحكم والملك والرياسة، حتى الأدباء والشعراء، فهذا ابن عمار كما يقول عنه ابن بسام، كان يطلب سلطانا ينثر في يديه سِلكه، وملكا يخلع على عِطفه

---

* : يقول ابن خلدون في مقدمته حول نشأة الدول إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص:" بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلّص ظلما عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه، وما يستقر في نضابه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج..كما وقع بالدولة الأموية بالأندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا أولاتها في الأعمال وانقسمت دولا وملوكا أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم ". المقدمة، مراجعة: هيثم جمعة هلال، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 2007، ص324، ويلاحظ عن قول ابن خلدون أنه يعضد في معناه العام السبب الجغرافي لانهيار الخلافة والذي تحدثنا عنه سابقا.

1 معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص416.

2 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص144.

3المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

4 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص152.

5 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص155/ ابن بسام: الذخيرة، ق2/ج1/ص27، وسماها كذلك في موضع آخر من الكتاب بـ "الفتنة "الفتنة المبينة" ق1 /ج1 /ص 388.

ملكَه.[1] ولم يكن همّ الشعراء والأدباء من قبل سوء انتظار الأعطيات السّنية من قِبَل ممدُوحِيهم من الملوك والأمراء وأصحاب الوجاهة.

يشكل التاريخ معيارا أمينا لبرهنة الأحكام وكشف الصواب، كما يقول أحد الباحثين[2]. وبالتالي فالوقوف مع أهم المحطات التاريخية التي عاشها عصر الطوائف كفيل بأن يوضح مسار الأحداث السياسية، وكيف أثرت هذه الأحداث على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومن ثم الخروج بنتائج متعلقة بأهداف البحث.

يجد الباحث والمؤرخ لعصر الطوائف صعوبات جمّة في البحث في هذه الحقبة المضطربة من تاريخ الأندلس السياسي، وذلك للأسباب الآتية:

أولا:يشغل عصر الطوائف زهاء ستين سنة، وعلى ذلك فإن الإحاطة بأحداثه أمر عسير، وذلك لاضطراب الممالك وتغيّر حدود ومعالم الدول بشكل مستمر، فكلّما ظهرت دويلة أو توسعت إلا وزالت أخرى وتقلصت حدودها على طول الفترة الزمنية لعصر الطوائف فإذا كانت حدود الدويلات تخضع للتغيير المستمر، فالأحداث كذلك، ومن ثمّ فتتبع مسار هذه الأحداث ومنعطفاتها المهمة على وجه الدقة والتحديد أمر صعب المنال.

وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين المحققين في التاريخ الأندلسي:" إنه من بين أكثر عصور التاريخ الأندلسي تشعبا وأوفرها تباينا واضطرابا، لا تكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة، ولكل وحدة منها ظروفها وسيرتها الخاصة ، ومن ثمّ كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر وتنسيقها وربط حلقاتها واستخراج خواصّها، من أشق المهام التاريخية.[3]

ثانيا:اختلاف المؤرخين والباحثين في تحديد بداية ونهاية عصر ملوك الطوائف، ما يجعل من مهمة الباحث التخندق حول اتجاه محدد وقد كان لنا رأينا حول هذه النقطة.*

---

1 ابن بسام: الذخيرة، ق2/ج1/ص25

2 محمود إسماعيل: إشكالية المنهاج في دراسة التراث، ص132.

3 عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص4.

* بالنسبة لبداية عصر الطوائف فالتاريخ الدقيق الذي اعتمدناه هو عام (422 هـ) وهي السنة التي ألغيت فيها الخلافة الأموية في قرطبة ، وبداية تفكك الوحدة كما أوضحنا سابقا، إلا أن بعض الباحثين يجعلون لبداية عصر الطوائف تاريخا أبعد من ذلك ،فهو عند عبد الله عنان يبدأ مع سقوط الدولة العامرية، في نهاية المائة الرابعة، ذلك أن قيام الخلافة الأموية خلال الفترة القصيرة التي عاشتا في أعقاب الفتنة، لم يكن سوى حادثا محليا لم يتعد أثره الفعلي قرطبة وأرباضها/ " دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف) ص16.

=أما إبراهيم بيضون فيحدد بداية عصر الطوائف مع نشوب الفتنة القرطبية عام (399 هـ)/الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة،ص351. أما التاريخ الذي اعتمدناه، فهو إجماع المؤرخين المحققين والباحثين في الشأن الأندلسي مثل: حسين مؤنس، محمود مكي، إحسان عباس وغيرهم.

والأمر يزداد تعقيدا في تحديد تاريخ نهاية عصر الطوائف، فالأستاذان أحمد مختار العبادي وإبراهيم بيضون على التوالي في كتابيهما: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 287 / الدولة العربية في إسبانيا، ص351، يحددان تاريخ (448 هـ/ 1056م)، بداية عصر المرابطين ونهاية عصر الطوائف، وهو تاريخ غير دقيق لنهاية هذا العصر.

أما الباحثة سهى بعيون فقد جعلت من سنة (479 هـ / 1086م) سقفا لعصر الطوائف من خلال بحثها الموسوم "إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس عصر ملوك الطوائف (422هـ -479هـ)"، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2008م.

أما دواعي اعتماد الباحثة هذا التاريخ (479هـ) وهو تاريخ الجواز الأول ليوسف بن تاشفين زعيم المرابطين إلى الأندلس بعد احتلال طليطلة عام (478هـ)، وحصول موقعة الزلاقة / راجع كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول*،تحقيق:سهيل زكار،عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ،ص38/ مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ، تحقيق :ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، ط2، دت، ص69 وما بعدها.

ولكن حكم المرابطين لم يبدأ مع التاريخ الذي اختارته الباحثة، فبعد حصول النصر في معركة الزلاقة لم يلبث أن غادر زعيم المرابطين الأندلس بعد اجتماعه برؤساء الطوائف وتقديم النصح لهم./عبد الله بن بلقين: المذكرات ص72.

واستمر ملوك الطوائف في تسيير شؤون ممالكهم، وقام بعدها يوسف بن تاشين بجوار العدوة إلى الأندلس ثلاث مرات أخرى، سنة (481هـ) و(481هـ) و (483هـ) و(496هـ)./ مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، الصفحات، 66، 71 ،77 .

أما التاريخ الذي اختاره محمود مكي وهو (484هـ) نهاية لعصر الطوائف./ تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة). بحث ضمن كتاب سلمى الخضراء الجيوسي: "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج1،ص99. فهو اختيارنا كذلك في تحديد سقف الإطار الزمني لهذا البحث، ففي هذا التاريخ بدأ المرابطون يحكمون فعليا الأندلس، بعد الجواز الثالث لزعيمهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عام (383هـ) وفيه بدأ الأمير يوسف بعزل ملوك الطوائف، فبدأ بعزل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة وصاحب المذكرات، وبعد عام من عزل أمير غرناطة استولى على قرطبة وإشبيلية وعزل ابن عباد عام (484هـ)./عبد الله بن بلقين: المذكرات، ص110 وما بعدها. ثم استكمل عزل باقي الحكام فيما بعد، وفي رأينا أن سقوط أقوى ممالك الطوائف وبداية تقلد ولاة يوسف الحكم في الأندلس هو النهاية الفعلية لعصر الطوائف.

غيرأن سقوط آخر مملكة من مماليك الطوائف وهي سرقسطة (الثغر الأعلى) كان سنة (503هـ)/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص 175.

ورغم ذلك لم نشأ اعتماد هذا التاريخ نهاية لعصر الطوائف؛لأن حكم المرابطين قد بدأ فعليا في الأندلس قبل هذا التاريخ بنحو عشر سنين، أضف إلى ذلك أن أمير سرقسطة كان قد دخل في طاعة المرابطين ولذلك لم يشمله العزل، وكانت رؤية يوسف بن تاشفين نحوه ذكية في عدم عزله حتى يحميه الثغر الأعلى للأندلس من هجمات المسيحيين في الشمال، وحتى لا يعطيه الذريعة للتحالف مع النصارى ضده في سبيل حماية مملكته. وهو ما حصل فيما بعد عند آخر أمراء هذه المملكة (عماد الدولة عبد الملك بن أحمد بن المستعين بن هود) الذي تحالف مع الروم فأخرجه قومه واستدعوا عامل المرابطين فدخلنا في العاشر من ذي القعدة سنة (503هـ)/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص175.

أما الباحث سعد عبد الله البشري فقد قدم رسالة قيمة إلى قسم التاريخ/ جامعة أم القرى بمكة المكرمة بعنوان "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف" إذ جعل نهاية تاريخ عصر الطوائف سنة (488هـ/1095م) وهي السنة التي سقطت فيها مملكة بني الأفطس ببطليوس، حيث جعلها الباحث آخر مملكة من مماليك الطوائف، رغم إقراره بأن مملكة بني هود قد تأخر سقوطها حتى سنة (503هـ/1109م)

*أقر اسمه بعد بحث طويل محمود علي مكي واكتشف أنّ اسمه الكامل هو أبو العلاء محمد بن محمد بن سماك العاملي المالقي (توفي في أواخر القرن الثامن الهجري)./ فهرس كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس، (السفر الثالث) ص510، 517.

ثالثا: صعوبة استقصاء تاريخ وحودث أكثر من ست عشر دويلة مستقلة في كافة شؤونها الداخلية وعلاقتها الخارجية[1] وجعلها في نسيج واحد، وتوظيفها -أي الحوادث التاريخية – بما يخدم الاختصاص أمر بالغ الصعوبة.

ب -أساس قيام ممالك الطوائف (قضية العرقية والعصبية ؟؟):

وعلى هذا الأساس سنجمل القول حول تاريخ كبريات دويلات الطوائف، أما الدويلات والممالك الصغيرة جدا والتي لم تترك أثرا يذكر، فقلما تعرضنا لها في هذا المبحث المتعلق بالتاريخ السياسي لدويلات الطوائف.

ولكن قبل الحديث عن التاريخ السياسي لهذه الدويلات وجب أن نطرح سؤالا وجيها ظل صداه يتردد لدى الباحثين قديما وحديثا من المهتمين بالتاريخ الأندلسي، وبعصر الطوائف على وجه الخصوص حول مدى صلاحية المنهاج الإثني والعرقي في دراسة دويلات الطوائف، ومدى صلاحية هذا المنهاج في تقسيم الأسر الحاكمة إلى عربية وبربرية وصقلبية وموالي، وإن كنا سنعتمد هذا التقسيم في نهاية الإجابة عن هذه الإشكالية لتسهيل الدارسة لا غير.*

وكانت قضية العصبية في الأندلس قد طرحت من قِبل بعض المستشرقين المهتمين بالشأن الأندلسي مند منتصف القرن التاسع عشر.**

وأعيد طرحها عند بعض أقطاب الاستشراق في القرن العشرين من المتخصصين في الدراسات الأندلسية، حيث أكدها مونتوغومري وات حين جعل النزعة الإثنية والعرقية الأساس الذي قامت

---

1 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانية، ص351. ويقول محمود مكي عن عصر الطوائف: "ففيه انفرط عقد البلاد، وتوزعتها نحو ستين دويلة، تتفاوت فيما بينها صغرا وكبرا وقوة وضعفا./" تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)، ص99.

* اعتمد إحسان عباس هذا التقسيم دون الإشارة إلى الأساس الإثني أو العرقي لقيام هذه الدويلات./تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، من ص12إلى ص19. وكذلك إبراهيم بيضون الذي تحدث عن الأسر الكبيرة التي أنشأت ممالك الطوائف دون الإشارة إلى الإثنية والعرقية./ الدولة العربية في إسبانيا، من ص351 إلى ص373.

** طرحها المتشرق الهولندي رينهارت دوزي وناقشها مطولا في كتابه " تاريخ مسلمي إسبانيا"

REINHART DOZY (1820-1883): « Histoire Des Musulmanes D'espagne »

كما أعاد طرحها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في كتابه "تاريخ إسبانيا الإسلامية".

EVARISTE LEVI-PROVENÇAL (1894-1956): Histoir DE L'Espagne Musulmane, Paris, 1953, VOL3 ,PP, 167,188.

أما المستشرق الألماني – المجري جولد تسيهر فقد أثار قضية الشعوبية في شبه الجزيرة الأيبيرية من خلال بحث قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الثاني عشر، الذي عقد بمدينة روما في تشرين الأول/ أكتوبر1899م ، ومن ثم نشر في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية، بعنوان: "الشعوبية عند مسلمي الأندلس"

IGNAZ GOLDZIHER (1850-1921): « Die S'u Ubijja U Nter Den Muhammedanern In Spanien »

نقلا عن : عبد الواحد ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004 ،ص130.

عليه ممالك الطوائف قائلا: " إن الطوائف التي اشتق منها اسم ملوك الطوائف هي ثلاث فئات عنصرية: بربر وصقالبة وأندلسيون"[1]بل إنه جعل العصبية أحد أسباب انهيار الخلافة الأموية في الأندلس حينما قال: "كانت الحقيقة الجلية الأولى التي تسببت بالانهيار هي ما يسمى بالتشرذم. والتشرذم كان إقليميا وعرقيا معا."[2]

ولكن قضية العصبية والعرقية والطائفية أخذت منحى أنتروبولوجيا (اجتماعيا واقتصاديا) عند (بيير غيشار) في كتابه" البنيات الاجتماعية الشرقية والغربية في إسبانيا الإسلامية". ورغم ذلك فإنه أكد على وجود العصبية لدى أندلس القرن الحادي عشر أو عصر الطوائف.[3]

أما الباحثون العرب من المتخصصين في الحقل الأندلسي فقد أكدها -أي الإثنية والعرقية - غير واحد، منهم محمد عبد الله عنان الذي ذهب إلى أنه وبعد سقوط الخلافة واختفائها تركت في الميدان قوتين أخيرتين، وهما البربر والعصبية العربية وجها لوجه، واستطاع البربر بزعامة بني حمود، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن على المثلث الجنوبي في شبه الجزيرة الإسبانية، وأن يقيموا لهم ملكا وخلافة... وأسفر النضال بين هذه القوى الخصيمة بعد فوز البربر برياسة المناطق التي سبق ذكرها، عن فوز الأسر العربية بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية، واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمَرية لفترة قصيرة.[4]

أما سعد البشري فقد سلك المسلك نفسه حينما قسم الحكومات الطائفية على أساس إثني حيث يقول: " وبناء على اختلاف عناصر المجتمع الأندلسي، وتعدد طوائفه من عرب وبربر وصقالبة وغير ذلك، فقد كان لذلك أثره في اختلاف أجناس القيادات السياسية من مملكة لأخرى.[5]

أما إذا أردنا البحث في جذور هذه القضية في التراث العربي، وجدنا عبر الرحمن بن خلدون قد طرحها وناقشها واستفاض في شرحها في مقدمته الشهيرة، إذ جعلها عنوانا لأحد أبوابها: " في أن

---

1 في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص102.

2 المصدر نفسه،ص97.

3 Pierre Guichard: Structures Sociales « Orientales » Et « Occidentales » Dans L'espagne Musulmane, Paris,1977 , Pp314, 315,324.

4 دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)،ص14.

5 الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص68.

الملك و الدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية."[1] وفي باقي الأبواب التي تليه.[2] حينما أقر بأن الملك إنما يحصل بالتغلب والتغلب إنما يكون بالعصبية.[3]

ولكن العصبية انتفت عند أهل الأندلس حسب ابن خلدون، فأهل الأندلس في نسيان هذه العصبة وأثرها، لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب.[4] بل إن سقوط الدولة الأموية وقيام ممالك الطوائف هو فساد عصبية الأولى[5]حتى إن ملوك الطوائف قد استظهروا على أمرهم بالموالي والطرّاء على الأندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداءً بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب.[6]وللتوضيح أكثر فإن من أسباب انهزام ملوك الطوائف أمام المرابطين إنما هو لفقدان العصبية لديهم.[7] وعموما وعموما فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم.[8]

هذه النظرة الخلدونية وجدت صداها عند الباحثين المعاصرين فقد لخصها أحدهم قائلا:" إن أول مظهر يتجلى في الأندلس هو زوال العصبية القبلية شيئا فشيئا من المجتمع الأندلسي بعد سقوط الدولة الأموية، وأما قبل هذه الفترة فكانت النزعة القبلية قوية محتدمة بين الأجناس المختلفة متسببة للدولة في مصاعب جمة."[9]

ويذهب حسين مؤنس إلى الاتجاه ذاته في نفي العصبية عن قيام دويلات الطوائف حيث يقول: "فهؤلاء الملوك لم يكونوا يتزعمون طوائف من سكان الأندلس كما يظن البعض، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمها بنوعباد، أو طائفة بربرية يتزعمها المأمون بن زنون في طليطلة، ولا طليطلة

---

1 المقدمة: شرح وتعليق هيثم جمعة هلال، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2007، ص173.

2 المصدر نفسه، ص173 وما بعدها./ ناقش مصطفى الشكعة منهج ابن خلدون بشكل عام، ونظرته حول العصبية والعمران في بحث مستفيض ضمن كتابه "المغرب والأندلس، آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية." دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط1، 1987م،من ص225إلى ص 308

3 ابن خلدون: المقدمة، ص176.

4 المصدر نفسه، ص173.

5 المصدر نفسه، ص174.

6 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

7 المصدر نفسه، ص175.

8 المصدر نفسه، ص 185.

9 محمد مفتاح: مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي، مجلة عالم الفكر،الكويت ، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، 1981، 1981، ص172.

صقلبية في شرق الأندلس يتزعمها الصقالبة العامريون، إنما هم كانوا رؤساء النواحي استبد كل منهم بناحية وأراد أن يظهر بمظهر الأمير أو السلطان.[1]

وهي الرؤية التي تحدث عنها المستشرق هنري بيريس فرغم عنونته لأحد فصول كتابه بـ" الوسط العرقي" استعرض فيه مختلف الأطياف المكونة للشعب الأندلسي وبعض صراعاتها فيما بينها، إلا أننا نشعر – حسب بيريس – بأننا بإزاء فسيفساء شديدة التناسق في تكوينها، وبالكاد نلمح فيها بعض الإيقاعات المتنافرة، وهذه العناصر أخذت تمتزج تدريجيا، وتصبح كل يوم أقوى التحامًا[2]

فأندلس القرن الخامس الهجري حسب أمحمد بن عبود قد شهدت والقرن الذي قبله نوعا من التجانس الإثني، مكن هذا التجانس من تجاوز العصبيات التي كانت تحكمه في البداية، وخاصة في عصر الولاة وسنوات الحكم الأموي التي تلته مباشرة[3] كما أن النخبة المثقفة (العلماء والقضاة والفقهاء) المؤثرة في المجتمع والسلطة على حد سواء، كانت متنوعة في أصولها الإثنية، وشكلت جزءًا مهما، ولعبت دورا فاعلا في هذا الالتحام، بل وخففت إلى حد كبير من شرخ الانقسامات على -الأقل الإثنية والعصبية - رغم أن هذا العصر هو عصر الفتنة.

وإذا افترضنا قيام هذه الممالك على أسس طائفية، ما هو أساس هذا التقسيم هل هو الرعية أو الشعب،أم السلطة السياسية الحاكمة؟.

فهذه الدويلات مختلطة عرقيا فيما بينها، وربما فاقت مجموعات إثنية مجموعات أخرى في كثرتها، وربما كان الولاء العرقي أو السياسي لحاكم معين أو طبقة معينة هو ما يقرر سياسة الدولة الطائفية أو يصنع الولاء والتكتلات، أو حتى الجانب الاقتصادي الذي لعب دورا كبيرا في

---

1 معالم تاريخ المغرب والأندلس:ص416.

2 الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية ، ترجمة : الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط1، 1988م، ص 255.

ظهر كتاب (هنري بيريس- HENRI PERES) في طبعته الأولى في باريس عام (1937م)

la poésie andalouse en arabe classique au xi siècle des aspects généraux ses principaux thèmes et sa valeur documentaire.

بل إنه يندهش في كتاب آخر من الوحدة الثقافية في الأندلس والتحامها رغم التنوع الإثني.

Les éléments de l'Espagne musulmane et la langue arabe au XIème siècle

نقلا عن أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص 10 .

3 جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص 14.

عملية الاستيطان والتمركز بالنسبة لفئات الشعب المختلفة، أو حتى لين أو شدة الحكم السياسي الذي اختلف من دولة طائفية إلى أخرى، وهو ما سنراه فيما بعد.

حصل اتفاق بين جميع المؤرخين بشأن الإطار العام للدولة الطائفية(العربية، البربرية والصقلبية)، أما الخلافات فدارت حول إمكانية اعتبار دويلة طائفية معينة ضمن مجموعة معينة أو غيرها[1]، فالمنهاج الإثني لم يعد صالحا لتقسيم أندلس القرن الخامس إلى طوائف مختلفة حسب الباحث بن عبود، فالأندلسيون كانوا يعتبرون أنفسهم جزءا من مجتمع أندلسي واحد، ولعل ذلك من الأسباب الرئيسة التي تفسر لماذا لم يدم تقسيم الأندلس خلال مدة أطول مما كانت عليه.[2]

إذن فقضية العرقية والعصبية بوصفه أساسا لقيام ممالك الطوائف لا تبرره الشواهد التاريخية والنصوص التوثيقية المتعلقة بها، فقد حاز بعض الأفراد رتبا عالية وتقلدوا مناصب رفيعة في الدول الطائفية المختلفة (مستشارون وإداريون). فحينما بلغ ازدهار مدينة سرقسطة ذروته في عهد أحمد بن سليمان المقتدر(441 هـ - 474هـ / 1049 –1081م) الذي قام ببناء الجعفرية، كان أبو عمر بن (قوندي ساليو -GUNDISALVO)، وهو أحد المستعربين كبير وزرائه، وكان شاعرا جيدا وحاكما في الوقت نفسه.[3] وربما كان عدد المستعربين الكبير والهام في المدية هو ما جعل أحمد بن المقتدر من أن يعين هذا المستعرب أحد وزرائه.

ولأن الأمر بعيد عن العصبية فقد ظل سكان طليطلة (المستعربون) أوفياء للثقافة العربية حتى بعد أن سقطت المدينة سنة (1085م) في يد ألفونسو السادس فقد ظلوا محتفظين بطقوسهم القوطية (VISIGOTICO) على الرغم من سيادة الطقوس الرومانية التي انتشرت في باقي شبه الجزيرة الأيبيرية، بل ظل القساوسة يستعملون اللغة والكتابة العربية في الوثائق الرسمية والسجلات، بالإضافة إلى استخدام القانون العربي الذي كان ساري المفعول لديهم حتى بعد نهاية القرن الثالث عشر بفترة طويلة.[4]

---

1 أمحمد بن عبود: جوانب من الوقائع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص34.

2 المصدر نفسه ، ص 14.

3 ليوبولد تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص 301.

4 المصدر نفسه ، ص298، 299.

ويمكن أن نفسر هذا السلوك الممارس من طرف سكان طليطلة بعد زوال الحكم الإسلامي عنها بأنه تقليد لأجيال ترتب في ضوء إثنيات مختلفة وعاشت في تسامح للأجيال مختلفة، فكأنه نوع من الوفاء لذلك الزمن الجميل.

أما في غرناطة فقد كان اثنان من اليهود وزيرين متتاليين شاركا الملك في السلطة هما صموئيل بن نجر الله* متوفى عام (448هـ/ 1056، 1057)، وابنه خوسي وظل الوضع كذلك إلى سنة (459هـ /1066م) عندما شهدت الأندلس رد فعل إسلامي عنيف عرف بـ" بروجوم PROGROM ملك فيه هذا الوزير بالإضافة إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف يهودي.[1] وواضح من سياق الحوادث أن مقتل الوزير

---

* إسماعيل بن يوسف بن نغرلّه اليهودي من بيت مشهور في اليهود بغرناطة،آل أمره إلى أن استوزره باديس بن حبوس ملك غرناطة، فاستهزأ بالمسلمين وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها، فآل أمره إلى أن قتله صناهجة أصحاب الدولة بغير أمر الملك، ونهبوا دور اليهود وقتلوهم./"ابن سعيد :المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 114.ويقول عنه ابنه يوسف:"كان صغيرا لما قتل أبوه بغرناطة وصلب في نهر سنجل، فهرب إلى افريقية"./المصدر نفسه، ص115.

يقول محقق الذخيرة إحسان عباس: "ابن النغريلي الإسرائيلي، يكتب الاسم على أشكال لعل أصوبها ابن نغدالة أي " المدبر " ويطلق على اثنين مشهورين هما : صموئيل بن يوسف (إسماعيل أو إشموال بن يوسف) ويوسف ابنه، وقد كان إسماعيل عالما وَزَرَ لصاحب غرناطة، وخلف ابنه يوسف فأساء التصرف فيما يبدو فثار عليه الناس وقتلوه، ولكن ابن بسام ينسب أفعال الابن لأبيه ويتابعه ابن سعيد في المغرب"./ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1 م2 ص 761.وأخبارهما في المصدر نفسه، ق1 م2 ص766 وما بعدها.

أما محقق كتاب " المغرب في حلى المغرب" شوقي ضيف فقال معلقا على ترجمته:" اتخذ باديس بن حبوس وزيره كما في الترجمة وقرب منه ابنه يوسف الذي سيترجم له ابن سعيد وثارت صنهاجة وقتلت إسماعيل... ويلاحظ أن ابن الخطيب يجعل يوسف هو المقتول بخلاف ابن سعيد وابن خلدون وابن عذاري./ " ج2، هامش ص114.

أما محقق كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة" يوسف علي الطويل فيقول معلقا على حادثة مقتل يوسف بن إسماعيل بن نغرالة الإسرائيلي:" هنا يخلط ابن الخطيب بين إسماعيل بن النغرالة وبين ابنه يوسف، ولعل وفاته عام (459 هـ) وهو عام وفاة ابنه يوسف، كذلك شاركه في هذا الوهم النباهي في المرقبة العليا وابن خلدون في كتاب العبر" ./ابن الخطيب: الإحاطة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003 ، ج1، هامش ص 243.

يقول عباس الجرّاري:" إسماعيل بن النغريلة (واسمه الأصلي صموئيل ناغد) في ظل الدولة الزيرية، وفي بلاط حبوس الزيري بغرناطة، فقد قربه حبوس الذي جعله في غرناطة مسؤولا عن جباية الضرائب في إمارته، كما قربه ابنه بعده ، باديس بن حبوس الذي عينه وزيرا مكلفا حتى بشؤون الحرب"./ التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس، ضمن كتاب " الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح" ندوة الرباط (1)، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط1، 2003، ص 48./ ويراجع كذلك حول الوزير ابن نغرالة الأمير عبد الله بن بلقين: المذكرات، تحقيق: أمين توفيق الطيبي ،منشورات عكاظ، الرباط ، المغرب، الصفحات، 67 ، 68 ، 72 ، 73 ، 83 وما بعدها ،وفيه بعض التعليقات المفيدة للمحقق على الهوامش في آخر الكتاب، ص 212، 213. وحول اعتماد أمراء بني زيري على هذه العائلة اليهودية يقول المستشرق إيميليو غرسية غومس:" لقد التجأ أمراء بني زيري إلى هذه العائلة اليهودية لتتولى منصب الوزارة في دولتهم وسبب ذلك يكمن في أن أصحاب بلاط غرناطة لم يجدوا في أبناء قبيلتهم من البربر لبداوتهم من هو كفء لتسيير شؤون الدولة إداريا وماليا وتجنبوا الاستعانة بالأندلسيين لعدم ثقتهم فيهم"./مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، مكتبة وهبة، عابدين، مصر، ط1، 1974، ص 117.

1 ليوبولد تورّس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص 319.

لا يتعلق بالعرقية وإنما متعلق بالتعدي على حرمات الإسلام. أما الامتيازات التي حققها اليهود من خارج عائلة النغرالة أكثر من أن تحصى، فقد وصلوا إلى مناصب رفيعة على حد ما أحرزه إسحاق بن يعقوب الذي تولى شؤون الشرطة في غرناطة،[1] وأسرة بني حسداي* التي ولي أفرادها مناصب الكتابة في بلاط بني هود ملوك سرقسطة وكانوا على درجة عالية من الثقافة الأدبية العربية شعرا ونثرا.[2] وقد تولى كثير من المنتمين إلى هذين الطائفتين (اليهودية والمسيحية) أعلى المناصب في بلاطات ملوك الطوائف، نذكر منهم النصراني ششند ** (SISNADO) مستشار المعتمد بن عباد ملك إشبيلية[3].ثم التحق ببلاط فرناندو الأول ثم ألفونسو السادس[4].

وربما انتفت العرقية حتى قبل الطوائف المشاركة السياسية،فقد اعتلى أبناء الطوائف الأخرى أعلى مناصب الدولة وبدون أي ميز عنصري، في عهدي الإمارة والخلافة، نذكر منهم" قومس بن أنتيان" الذي ولي ديوان الرسائل في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي حكم بين سنتي (238هـ و373هـ) وربيع بن زيد واسمه المسيحي (RECEMUNDO) وهو مؤلف "التقويم الزراعي المعروف بالقرطبي (LE CALANDRIER DE CORDOVE) وسفير الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى بلاط ألمانيا "[5]

---

1 عباس الجراري : التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس، ص 48.

* منهم أبو الفضل بن يوسف بن حسداي الذي كان أبوه من بيت شرف اليهود، والذي كان له باع طويل في الأدب فتقلد مناصب رسمية في دولة ابن هود في سرقسطة" ./ابن بسام: الذخيرة، ق3/ م1 /ص457 وما بعدها

2 محمود علي مكي: التسامح الإسلامي "الأندلس نموذجا"، بحث ضمن ندوة "الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح"، ص 67.

** هناك دراسة مستفيضة للمستشرقين" غارسيا غومز" و "ميناندیز بيدال" بعنوان" الكونت المستعرب سيسندو دافيت وسياسة ألفونسو السادس مع ملوك الطوائف".

(RAMON MENENDEZ PIDAL AND E.GARCIA GOMEZ ; ALCONDE MOZARABE SISNANDO DAVIDIZ Y LA " POLITICA DE ALFONSO VI LOS TAIFAS AL- ANDALUS)

نقلا عن أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ص 36.

3 محمود علي مكي: التسامح الإسلامي "الأندلس نموذجا"، ص67.

4 أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص36.

5 محمود علي مكي: التسامح الإسلامي " الأندلس نموذجا"، ص 64، 65.

وفي زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر شكلت الأطياف المختلفة المشاركة في السلطة السياسية فسيفساء متميزة حينما جمع الخلافة في بلاطه وفي وقت واحد بين الطبيب العالم أبي الوليد محمد بن حسين المعروف بابن الكتاني والأسقف النصراني ربيع بن زيد والطبيب حسداي بن شبروط.[1]

وكان الأمير أو الخليفة فيما بعد، يقرر دائما ما تنتهي إليه الانتخابات التي تجري لاختيار كبار رجال الدين وبخاصة مطران طليطلة وأسقف قرطبة، ويستخدم هؤلاء الأحبار أنفسهم، إذا دعت المناسبة، في السفارات والمهمات السياسية السرية[2]، وتزخر كتب التاريخ بعديد الأمثلة على ذلك.

وربما كانت المصالح الشخصية مستحكمة في سلوكيات رؤساء الطوائف بعيدا عن الطائفية والنزعة العرقية* وإلا كيف نفسر تحالف المعتضد بن عباد العربي مع المأمون بن ذي النون البربري طمعا في عونه ونصرته على ابن هود العربي، حيث أسفرت المفاوضات بينهما عن اعتراف المأمون بالدعوة الهشامية التي احتضنها بن عباد ورفضها في البداية إسماعيل بن ذي النون، وأخذت البيعة لهشام المؤيد في طليطلة ودعي له على منابرها، بيد أن ابن عباد ما لبث أن شُغل بحروبه مع ابن الأفطُس، ولم ينل المأمون من عونه شيئا[3]، أو كيف نفسر تحالف ابن صمادح المسلم مع ابن النغريلة اليهودي وزير بن زيري في غرناطة ضد حاكمها الغرناطي باديس، على أن تُعطى ألمرية دولة لليهود، وغرناطة لابن صمادح[4].

---

1 ثريا لهي: التسامح الديني والعلاقات الإنسانية من خلال استقراء النصوص الأدبية شعرية ونثرية، بحث ضمن ندوة "الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح"، ص97.

2 ليفي برونسال:الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة:الطاهرأحمد مكي،دار العالم العربي،القاهرة،مصر،ط1، 2010، ص110.
وفي هذا الإطار يقول رجب محمد عبد الحليم:" لقد استعان أمراء بني أمية وخلفائهم ومن أتى من بعدهم من ملوك الطوائف بنصارى المعاهدين(المستعربين) في المناصب الإدارية والجيش ووظائف القصر والبلاط، بل إنهم استخدموهم كسفراء منذ عصر مبكر وعقب الفتح بحوالي عشرين عاما فقط... كذلك كانت سفارة عبد الرحمن الثاني والثالث والحكم المستنصر في شمال إسبانيا وبقية دول أوروبا تتكون من نصارى الأندلس المعاهدين،" العلاقات بين الأندلس الإسلامية وغسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت، ص 414.

* الأمثلة عديدة مثل اغتيال المعتضد لابنه بنفسه./ ابن بسام: الذخيرة، ق3م1 ص114 وما بعدها. أو صراع أحمد بن سليمان بن هود مع أخيه يوسف (حسام الدولة) على الملك./ المصدر نفسه، ص 423 وما بعدها.
ولا ننسى في بداية دويلات الطوائف صراع بني حمود فيما بينهم من أجل الحكم (علي بن حمود وأخوه القاسم بن حمود)، ثم قريبهما يحيى بن حمود حاكم مالقة./ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص124، 125./ ابن بسام : الذخيرة، ق1/م1/ص481 وما بعدها، وقد روى الأمير عبد الله بين بلقين تفاصيل المؤامرة التي تعرض لها باديس من طرف أحد أحفاده يدّير./ التبيان:(تحقيق الطيبي)، ص68 وما بعدها.
كذلك ذكر ابن الأثير صراع يحيى بن علي وحبسه ابني عمه محمدا والحسن ابني القاسم بن حمود بالجزيرة./الكامل ج7، ص289.

3 عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص99.

4 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص112، هوامش المحقق، ص 234./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3 ص266.

لقد عاصر أهم المؤرخين كابن حيان وابن حزم والأمير الغرناطي عبد الله بن بلقين صاحب المذكرات حقبة الطوائف، لكنهم لم يتحدثوا عن العصبية ولم يتعصبوا. بل إن التعاون في أحكام القضاء وفق أحكام الشريعة الإسلامية، يبذ كل خلاف بين ملوك الطوائف، وهذا ما لاحظناه في قصة الملحد المدعو عبد الله بن أحمد بن حاتم الأزدي الطليطلي، التي ساقها الونشريسي رواية عن القاضي ابن سهل حول هذا الشخص. وقد بلغ إلحاده وزندقته حدّ الاستخفاف بأحكام الدين الحنيف بدءا من إنكار القدر الذي يعد أحد أركان العقيدة الصحيحة، إلى قوله: لا يجب من الجنابة غسل، كما سفه بعض كبار الصحابة كعلي وعمر -رضي الله عنهما - وواصل هذا الملحد استخفافه بنبي الإسلام محمد – صلى الله عليه وسلم - وشهد على زندقته حوالي ستين شاهدا فتولى كِبْرَه والاحتساب عليه محمد بن لبيب المرابط على سبيل الحسبة، كان ذلك في طليطلة عام (457 هـ/1064–1065 م)[1] ، وثبت ذلك عند القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن أبي الحاشا. ففر الرجل من طليطلة إلى بطليوس حيث انضم إلى أميرها (المظفر أبي بكر) والذي عينه في ديوانه لقراءة الكتب عليه دون أن يعلم عن حقيقته شيئا، ولكن قاضي طليطلة وبمشاورة كبار الفقهاء هناك، وكانوا حينذاك أربعة (أحمد بن سعيد اللورنكي، وأبو جعفر بن مغيث الصدفي، وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن مسعود القيسي، وأبو المطرّف عبد الرحمن بن سلمة) فأجمعوا على وجوب قتله بعد الإعذار إليه، وسجل أبو زيد بذلك وأخذ به من قولهم وقضى به وحكم، وأرسلت نسخا متعددة من ذلك الحكم إلى دانية ومرسية وألمرية وغيرها[2].

وفي حديث طويل وصل الملحد ابن حاتم الطليطلي إلى قرطبة عام (464 هـ /1071م) وقد سمع به المحتسبة ، فقصدوا محله وألقوا القبض عليه، وكان من قبل قد تبرأ منه صاحب بطليوس بعد أن ورده حكم القضاء، فسجنه قاضي قرطبة محمد بن أحمد بقي الناظر، وتوفي هذا الأخير قبل تمام الحكم في هذا الملحد وتولى مكانه عبد الرحمن بن سوار، ونفذ فيه حكم الإعدام بحضور المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وقرطبة وطعن بالرمح عند جسر قرطبة الشهير[3].

---

1 المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ت، ج2، ص 328.

2 المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

3 المصدر نفسه ،ص 331.

وتشير قضية هذا الرجل إلى مدى تعاون القضاة في الأندلس في مختلف دويلات الطوائف التي كانت سائدة في ذلك الحين فعلى الرغم من الفرقة السياسية،كانت سلطة القضاة سائدة والتعاون بينهم مستمرا.[1]

ويرى بعض الباحثين أن غياب النزعة القبلية عن أندلس القرن الخامس الهجري، يرجع إلى غياب الثقافة السياسية القبلية،و ذلك لاضمحلال الأصل وهشاشة البنية القبلية، أو بلغة ابن خلدون " فساد العصبية".[2]

كما لا يخفى على الدارسين أن الأندلس في المائة الخامسة امتازت عن عدد من البلاد الإسلامية بما فيها المغرب بازدياد عدد الحواضر وازدهارها، وقد كان بعضها في قلب الحياة السياسية لهذا العصر كقرطبة وإشبيلية وطليطلة[3] فازدياد الحواضر الأندلسية وتطورها وازدهارها أدى تدريجيا إلى خفوت النزعة الطائفية شيئا فشيئا.

ويرى الباحث نفسه أن الجنس بوصفه سلطة جذب في أندلس القرن الخامس الهجري ، كان أكثر انفتاحا من القبيلة والقبلية، وأقل وفاء بالمطالب السياسية والفكرية للشعوبية[4].

وفي نظرة متزنة يحاول محمد جبرون عدم إهمال الجنس (العرق) كأحد القوى الفاعلة قائلا:" وعموما يمكن القول إن الانجذاب المُولّد للنزعة الطائفية في الأندلس تأرجح بين العناصر(السلط) الثلاثة، الجنس، العقيدة والموقف السياسي، وغالبا ما كان يُهمين على تشكيل الكيان الطائفي عنصر محدد، إلا أنه لا يلغي العناصر الأخرى"[5].

---

1 عبد الواحد ذنون طه: دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، ص168.

2 محمد جبرون: الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري (في تشكيل الهوية السياسية في المغرب وتكريس الفتنة في الأندلس)، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب، ط1 ، 2008، ص 81.

3 المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

4 المصدر نفسه: ص 193.

5 المصدر نفسه: ص 194.

ويبدو أن الباحث محمد جبرون متأثر بنزعة أستاذه أمحمد بن عبود ، من خلال الأفكار التي ضمنها أطروحته السالفة الذكر(الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري) حيث أطره الأستاذ أمحمد بن عبود؛ أما التأثير فيكمن في تغليب المنطق الاجتماعي والاقتصادي في الحكم على واقع الأندلس في القرن الخامس الهجري.

ومن الذين تابعوا المنهج ذاته، محمود إسماعيل حيث يقول:" شهدت الأندلس نوعا من التجانس الإثني بتأثير النشاط الاقتصادي المتعاظم./" إشكالية المنهاج في دراسة التراث، ص15.

من خلال عرض الشواهد السالفة، جاز لنا القول إن قضية العصبية والطائفية لم يعد لها ما يبررها، أو أن المنهاج الإثني لم يعد صالحا لتفسير أحداث القرن الخامس الهجري والاضطرابات السياسية التي شهدتها الأندلس في القرن الخامس الهجري ،أو أن المنهاج الإثني لم يعد صالحا لتفسير قيام ممالك الطوائف، وأن المصالح في تقاربها أو تعارضها هي المستحكمة لدى الطبقة السياسية في زمن الطوائف.

حتى إن نعرات التعصب التي كانت تظهر أحيانا لم تكن سوى استثناءات ونتؤات في تاريخ الأندلس[1] فقد تحدث هنري بيريس من دون الرجوع بالقضية إلى إطارها الواسع عن القرن الحادي عشر / الخامس الهجري، وبالضبط عن عصر الطوائف حينما أثار قضية العصبية عند ابن غرسية (أبو عامر)* معاتبا أحد الشعراء الأندلسيين** الذي رفض أن يمدح مجاهد العامري أمير دانية، لأن

=ومن الذين غلّبوا المنطق الاقتصادي والاجتماعي في استقراء الواقع الأندلسي الدكتور أحمد الطاهري في كتابه "عامة قرطبة في عصر الخلافة"، رغم أن الإطار الزمني للدراسة يسبق عصر الطوائف، لكنه يعد أحد إرهاصاته، حيث يقول: " من الطبيعي أن تسفر التطورات الاقتصادية السالفة الذكر عن انحلال المنظومة القبلية العربية، وتراجع أهمية النسب"./ منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، 1989، ص142.، ويقول في موضع آخر من الكتاب: " نخلص إلى أن انحلال البنى الطائفية والقبلية، أفضى إلى إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية على أساس طبقي، ومن تم تماسك عامة قرطبة - رغم تعدد انتماءاتها - " ص160.

ويقول :" من الطبيعي أن يسفر ازدهارها التجارة و الحرف، وتغيير الهياكل العقارية، عن بلورة منظومة اجتماعية جديدة" ص160

ويقول:" أفصحت الخلافات الأموية منذ قيامها عن مشروعها الهادف إلى استئصال جذور الخلاف والصراع" /المصدر نفسه ص 160.

1 إبراهيم القادري بوتشيش: محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس، بحث ضمن ندوة " الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح"ج1، ص73.

*" الكاتب أبو عامر أحمد بن غرسية، من عجائب دهره وغرائب عصره، إن كان نصابه في العجمية، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربية، وهو من أبناء نصارى البشكنس، سبي صغيرا، وأدبه مجاهد مولاه ملك الجزر ودانية، وكان بينه وبين أبي جعفر بن الجزار الشاعر صحبة أوجبت أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك ألمرية، ناقدا عليه ملازمة مدحه، وتركِه ملك بلاده..."/ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص406، 407.

** هذا الشاعر هو أبو جعفر بن الخراز كما ذكر صاحب الذخيرة، ابن بسام: ق3 /م2/ ص704 .ففي معرض حديثه عن أبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي أحد الذين ردوا على أبي عامر ابن غرسية هذا – نحاه الله وأبعده - وقد استقر بمدينة دانية، في كنف مجاهد، واقتصاره على مدح ابن صمادح التجيبي"

قال محقق الذخيرة إحسان عباس على هامش النص السابق:" وفي نص الأسكوريال الذي اعتمده عبد السلام هارون في نص رسالة ابن غرسية والردود عليها، ورد اسم ابن الحداد"./ ابن بسام: ق3 م2 ص704، ورسالة ابن غرسية هذه في مخاطبة ابن الخراز والتعصب على العرب مبثوثة في الذخيرة، وإن كانت مبتورة بحسب الردود عليها والتي تشير إلى أمور قد حذفت منها كما يقول المحقق./ الذخيرة :ق3/ ج2 /ص 705 وما بعدها.

وقد ذكر ابن سعيد في المغرب ابن الجزار وليس ابن الخراز./ج2، ص407، ولكن ابن الأبار وفي ترجمته لابنه سماه محمد بن أحمد بن محمد الأنصاري الأوسي من أهل سرقسطة وسكن بلنسية يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن الخراز./ التكملة لكتاب الصلة - تحقيق : عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995، ج1، ص345، رقم الترجمة(1222) ،أما في تحقيق جلال الأسيوطي على

هذا الأمير غير عربي[1]. والمقصود بأن الأمير غير عربي وهو صاحب الثقافة العربية والإسلامية، ولكن أصوله ترجع إلى طائفة الصقالبة.

بعد الحديث عن إشكالية " الأساس الذي قامت عليه ممالك الطوائف" ومحاولتنا الإسهام برأينا في النقاش الدائر حول هذه المسألة، وكان طبيعيا أن نناقش هذه القضية فالهوية السياسية هي جزء رئيس لفهم الهوية الثقافية، وذلك لارتباط السياسة بالثقافة على مر العصور وعند جميع الأمم.

وسنتحدث بإيجاز عن أهم الممالك ومن حكموها، ولا نستفيض حتى لا نخرج البحث عن دائرة اختصاصه كما نبّهنا إلى ذلك من قبل، وقد قسمناها إلى أربع فئات كما هو الشأن عند كثير من الباحثين المحدثين، وهذا من أجل تسهيل الدراسة فقط، وحتى لا نقع في فخّ التقسيم العرقي.

=تكملة ابن الأبار، فإن رقم ترجمة محمد بن أحمد بن محمد الأنصاري(1221./) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبع ضمن سلسلة ضمّت (الصلة لابن بشكوال، والتكملة لابن الأبار، وصلة الصلة لابن الزبير الغرناطي)، ط1، 2008، مج3،ج1، ص 289.

هذا وقد انبرى للرد على ابن غرسية مجموعة من الكتاب، منهم أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي./ ترجمته عند ابن سعيد في المغرب: ج2 ،ص 322، 323./ وابن بسام: الذخيرة: ق3/ج2/ص703.

والرسالة في الذخيرة، ق3،ج2، ص175 وما بعدها، وممن رد عليه أيضا أبو الطيب عبد المنعم القيرواني (ت 493 هـ)./ ترجمته عند ابن بشكوال: الصلة في تاريخ علماء الأندلس، ضبط وتعليق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 2003 م، ج2، ص 315.

ورسالته عند ابن بسام في الذخيرة، ق3 /ج2/ ص722 وما بعدها، وقد ذكره ابن بسام تحت اسم (القروي) وليس القيرواني كما هو الحال عند ابن بشكوال. أما حاجي خليفة فقد ذكر رسالته باسم " حديقة البلاغة ودوحة البراعة" وقال عنها:" رسالة في ذكر المآثر الغريبة ونشر المفاخر الإسلامية للفقيه أبي الطيب عبد المنعم بن منّ الله المعروف بابن غلبون المتوفى سنة (389هـ) رد فيه ما صنفه أبو عامر بن حرسنة(حرشنة) في تفضيل العجم على العرب./ كشف الظنون عن =أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت ، ج1، ص 644، 645. وما يلاحظ من كلام حاجي خليفة هو عدم الدقة في تحديد تاريخ وفاة أبي الطيب خلافا لما ذكره ابن بشكوال باعتباره أندلسيا ولقربه من عصر الطوائف، كذلك عدم ضبطه - أي حاجي خليفة - لاسم (أبو عامر ابن غرسية).

وممن رد كذلك على ابن غرسية، ابن عباس./ الذخيرة: ق3 ج2ص746 وما بعدها. وقد جمع الأستاذ جيمس مونرو(JT.MONROE) في كتاب واحد رسالة ابن غرسية والردود عليها في كتاب واحد بعنوان: "THE SHU'UBIYYA IN AL-ANDALUS" في كاليفورنيا عام(1970). وقد تحدث بيار غيشار (P.GNICHARD) مطولا عن مسألة الشعوبية، ورغم أنه لم ينكر وجودها على الصعيد الفكري والثقافي، ولكن النزعة الشعوبية حسبه لم ترق إلى طموح سياسي مصاغ في شكل برنامج خاص بالنسبة للأندلسيين.

STRUCTURES SOCIAL « ORIENTALES » ET « OCCIDENTALES » DANS L'ESPAGNE MUSULMANEM,P315.

1 الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية، ص257.

I -2 -2 - المبحث الثاني: ممالك الطوائف:

أ- العرب:

- بنو عباد اللخميون في إشبيلية وقرطبة:

أسرة بني عباد من أعظم البيوتات العربية التي دخلت الأندلس بعد افتتاحها ، وهم رهط من لخم* تفرقوا في أقطار الأندلس بعد دخولها فانحاز منهم إلى غربها أخوان اسماهما (نعيم وعطاف) فنزل أحدهما بقرية يقال لها: يومين** تناسل ولده بها مدة من الزمان ثم انتقل بعضهم منها إلى مدينة حمص وهي إشبيلية فتناسل بها ولده، وقصدوا لخدمة الملوك من بني أمية فصرفوهم في الأمور العلية فكثرت فيهم الوجاهة[1] وحينما تحدث ابن حزم عن دار لخم بالأندلس قال:" هي بشذونة والجزيرة وإشبيلية، ثم قال: ومنهم آل عباد".[2] وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم المستنصر بالله ودولة ابنه هاشم وحاجبه المنصور.[3]

بدأت جذور مملكة إشبيلية مبكرة منذ انهيار الدولة العامرية في نهاية المائة الرابعة ، وفي الوقت الذي كانت تضظرم فيه عاصمة الخلافة قرطبة بالفتن والانقلابات المتعاقبة ، كان قاضي إشبيلية إسماعيل بن عباد يعمل في هدوء وصمت على جمع خيوط الرياسة في يده وعلى الاستئثار بحكم المدينة العظيمة.[4]

أما نسبه الكامل فهو القاضي ابن عباد أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، وعطاف هو الداخل منهم بالأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري، وكان عطاف من أهل حمص من صمع

---

*حول نسب لخم راجع ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، رابع النسخة وضبط أعلامها: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2009م الصفحات، 424، 425، 477، 485.

** قال ابن بسام :" يومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية." الذخيرة : ق2/م1/ص14.

1 ابن عذاري: البيان المغرب،ج3،ص193.

2 جمهرة أنساب العرب، ،ص424.

3 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص193، 194/ ابن الخطيب:أعمال الأعلام ، ص152.

4 محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص32.

الشـام لخمي النسب صريحا.[1] وفي رواية أخرى أن بني عبـاد من ولد النعمان بن المندر بن ماء السمـاء.[2]*

وكـان مؤسس الدولة العبادية جدهم القـاضي محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمـي هذا قد قدمه أهـل إشبيلية مع صـاحبيه، وكـانوا جماعة منهم بنو أبي بكـر الزبيدي النحوي،وبنـو يرّيم** صنـائع ابن عباد وغيرهم.[3]وبنو العربي وغيرهم من نظرائهم راض بهم الأمور واستمال العامة حتى حصّل على ملك البلد وأورثها عقبه.[4]وقد قدّم أهل أشبيلية هؤلاء لـما ضاقوا ذرعا بحكم العلويين من بني حمود. اجتهد محمد بن إسماعيل في بناء دولته وتقوية كيانها وتوطيد أركانها ولو على حساب جيرانه من بني الأفطس وبني حمود، حتى إنه فقد ابنه الأكبر إسماعيل في هذه الحروب كما يقول صاحب المعجب.[5]

ثم أفضى الأمر إلى عباد ابنه سنة(433هـ/1041م)، وتسمى أولا بفخر الدولة ثم بالمعتضد[6] وقد عرف عنه الشدة والبأس وسفك الدماء، حتى وصفه ابن بسام بـ " قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية

---

1 ابن بسام: الذخيرة، ق2، ج1، ص14.

2 عنان: عصر الطوائف، ص33./ حول بني عباد كذلك ينظر المقري: نفح الطيب: ج1، ص438 وما بعدها.

* وحول نسبهم إلى النعمان بن المنذر يقول ابن اللبانة:

- من بني المنذر وهو انتساب ❖❖ زاد في فخره بنو عباد

- فتية لم تلد سواها المعـالي❖❖ والمعـالي قليلة الأولاد

حمدان حجاجي:ابن اللبانة الأندلسي، حياته وأدبه، منشورات ، نشرات الثقافات، الجزائر، 1998، ص69.

ويقول ابن اللبانة كذلك مادحا المعتمد مشيرا إلى انتسابهم إلى لخم...

تخصصت أحيانا بلخم ويعربِ ❖❖ وظاهرت أحيانا بغسان والأزد

المصدر نفسه، ص75.

ويقول في قصيدة يرثي فيها بني عباد:

- كم سال في الماء من دمع وكم حملت ❖❖ تلك القطـائع من قطعـات أكبـاد

- من لي بكم يـا بنـي مـاء السمـاء إذا❖❖ ماء السماء أبى سقيا حشا الصادي

ينظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص104.

** قال محقق الذخيرة : (بريم –إبريم -أبرم)./ق2م1 ص15وفي البيان المغرب (بنو مريم)./ ابن عذاري: ج3ص195./ وعند ابن الأثير (ابن بريم) الكامل ،ج7،ص287.

3 ابن بسام: الذخيرة، ق2/م1/ص15./ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص287.

4 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص195، 196.

5 عبد الواحد المراكشي: ص68.

6 ابن بسام : الذخيرة، ق2/م1/ص23، 24

المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد."[1] فقد حُمل عليه على مر الأيام، من باب فرط القسوة وتجاوز الحدود حكايات شنيعة لم يبت في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها.[2]

انخرط المعتضد في عدة حروب بدءا مع بني الأفطس أصحاب بطليوس وهم جيرانه من الشمال.[3] الذين سارعوا لإعانة أحمد بن يحي صاحب لبلة (غرب إشبيلية) عندما هاجمته قوات المعتضد ودارت بينهما وقائع وحروب استعان فيها بابن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة.[4]

انكسر ابن الأفطس في هذه المعركة قبل أن يعاود الكرة على خصمه ويستعيد نشوة النصر، وعظمت القطيعة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس، حتى عجز المظفر عن حربه ، وسن الله بينهما الهدنة في ربيع الأول من سنة(443هـ) بسعي من الشيخ ابن جهور أمير قرطبة. وبعد ذلك فرغ ابن عباد إلى حزب الأمراء الباقين بالغرب، فأتيح له من الظفر بهم، والاستيلاء على بلادهم ماهو معلوم.[5]

ثم اتجهت قواته نحو حرب الأمراء الأصاغر بالغرب، كابن يحيى صاحب لبلة، وابن هارون (سعيد بن هارون) صاحب إكشبونة (ت434 هـ)، وخلفه ابنه ومن يده أخذ المعتضد إكشبونة سنة (449هـ) وابن مزين(عيسى بن محمد) صاحب شلب حيث قتله المعتضد عام (445هـ) وانتزع مدينة شلب منه، والبكري صاحب شلطيش وأونبة، فقد أتيح له من الظفر عليهم ما حاز به أملاكهم وضمها جملة إلى عمله، ثم مد يده بعد إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء.[6]

وقد تمكن المعتضد من التغلب ودحر إمارات البربر فسار إلى ابن أبي قرة برندة وأسقط وأركش ومور وشذونة[7] كما تغلب على خصومه البربر من بني برزال الحاكمين بقرمونة شرق إشبيلية،

---

1 ابن بسام : الذخيرة، ق2/م1/ص24.

2 المصدر نفسه:ص25.

3 عنان : عصر الطوائف، ص35.

4 ابن عذاري: البيان المغرب ج3،ص202 وما بعدها./ ابن بسام : الذخيرة ،ق2م1 ، ص33،34./ عنان: عصر الطوائف، ص35 وما بعدها.

5 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص156.

6 ابن بسام: الذخيرة، ق/2/ج1/ ص36، وهامشها بعض التفسيرات المهمة للمحقق./ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص213 وما بعدها. بعدها.

7 البيان المغرب: ج3،ص214، 215.

وكان صاحبها محمد بن عبد الله البرزالي حليفه، فلما توفي عام (434هـ) خلفه ابنه عزيز الملقب بالمستظهر، الذي سلم المدينة إلى ابن عباد الذي خرب البلاد، وذلك سنة (459هـ/1067م).[1]

وعظم ملك بن عباد كما قال ابن الخطيب[2] حتى طالت يده، واتسع بلده، وكثر عديده وعدده إلى أن توفي سنة (461هـ)[3] وبعد موته خلفه على كرسي الحكم ابنه المعتمد، وكان يبلغ من العمر آنذاك في التولية ثلاثا وثلاثين عاما، وكان مع اشتغاله بالحرب كما يقول صاحب الذخيرة متمسكا من الأدب بسبب، وضاربا في العلم بسهم.[4] وكان أقل حدة من والده المعتضد، حسن السيرة، رفيقا بالرعية.[5]

سعى المعتمد إلى الاستيلاء على قرطبة بعد سماعه تحركات المأمون صاحب طليطلة وطمعه فيها، وذلك سنة(462هـ/1070م)، وتم للمعتمد ذلك للمعتمد ذلك، باستلائه على قرطبة، غير أن المأمون دبر خطة جريئة للاستيلاء عليها، وتمكن تابعه ابن عكاشة من دخولها وقتل سراج الدولة ابن المعتمد، حاكمها فدخلها المأمون سنة (767هـ/1074م) ولكنه لم يهنأ بذلك، فقد لحقه المرض فغادرها إلى طليطلة وتوفي بعد وصوله ن وسارع المعتمد إلى مهاجمة قرطبة واستطاع دخولها، وأخذ بثأر ابنه من ابن عكاشة.[6]

استطاع بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتد في قلب النصف الجنوبي من شبه الجزيرة، من غرب ولاية تدمير شرقا،حتى المحيط الأطلنطي، ومن ضفاف وادي يانة جنوبا حتى أرض الفرنتيرة. وكان المعتمد قد استطاع في الواقع في أواخر عهد الملك العاجز الضعيف القادر بن ذي النون، أن يستولي على معظم أراضي مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية، من المعدن شرقا حتى مدينة قونقة.[7] وكان المعتد بن عباد يتابع سياسة أبيه وجده في التوجس من البربر والقضاء على سلطانهم، وكان يخشى أن تغدو مملكة غرناطة البربرية، مهبطا للقبائل والقوات البربرية.[8]

---

1 المصدر نفسه، ص312/ عنان: دول الطوائف، ص47.

2 أعمال الأعلام، ص155.

3 ابن بسام :الذخيرة، ق2ج1،ص24، 25

4 المصدر نفسه:ص41.

5 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص157.

6 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص158، 159./ابن بسام: الذخيرة، ق2/ج1/ ص268 وما بعدها./ عنان: دول الطوائف، ص61.

7 عنان: دول الطوائف،ص 71.

8 المصدر نفسه، ص62.

فاستولى على جيان أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية عام (466هـ -1074م) ولم يبق من غرناطة سوى العاصمة وأرباضها.[1] فخشي أمير غرناطة عبد الله بن بلقين من نفوذ المعتمد فراسل ملك قشتالة ألفونسو السادس وعقد معه معاهدة تحالف مقابل دفع الجزية، هذا التحالف قد أعطى ما يشبه القوة المعنوية للأمير الغرناطي الذي هاجم ممتلكات ابن عباد، وربما ما شجعه على ذلك هو انتزاع المأمون بن ذي النون قرطبة من ابن عباد عام (467هـ).[2] فاتجه المعتمد بدوره إلى ألفونسو عن طريق وزيره الشاعر أبي بكر بن عمار فعقد معه حلفا على دفع خمسين ألف دينار، ويقضي هذا الحلف أن يتعاون ألفونسو والمعتمد على فتح غرناطة، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو وأن تكون المدينة للمعتمد.[3]

ونتيجة لهذه الاتفاقية،سرعان ما عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة لاسيما مرجها الشهير (LAVIGA)[4]

وخلاصة القول حول ما انتهى غليه ملك هذه الأسرة ما قاله عبد الواحد المراكشي في المعجب: "ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته والأيام تساعده والدهر على ما يريد يؤازره ويعاضده، إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله - أعني من المتغلبين - ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية وهي التي تعرف بتدمير.[5]

على أن هذا العصر الذهبي الذي عاشته مملكة إشبيلية وضواحيها في عهد بني عباد، لم يخل من أخطاء جسمية ارتكبتها الأسرة الحاكمة.

فسنوات حكم المعتضد بن عباد كانت مرعبة ومخيفة لكن من تسول له نفسه الخروج عن طاعته من الخصوم والأحباب على حد سواء، فقد كان - كما وصفه ابن حيان - شهاب الفتنة وصاحب الحوادث الشنيعة والوقائع المبيرة.[6] أضف إلى ذلك أن المعتضد كان يؤدي الجزية لفرناندو مالك

---

1 المصدر نفسه، ص63.

2 عنان: دول الطوائف، ص63.

3 عبد الله بن بلقين: المذكرات (تحقيق بروفنسال)، ص51، 53/عنان: دول الطوائف، ص 63.

4 عنان: دول الطوائف، ص63.

5 ص91.

6 ابن بسام: الذخيرة ، ق2/ ج1/ص24

قشتالة منذ سنة (455هـ/1063م)، وأنه كان يؤدي هذه الجزية بانتظام حتى وفاته في سنة (1065م)، ثم بعد ذلك إلى ولده سانشو ملك جليقية.[1] رغم أنه كان في غنى عنها، لأن مملكته في تلك الفترة كانت أقوى من ممالك الشمال.

وبعد وفاته سار ابنه المعتمد على الطريق نفسه في إعطاء الضريبة لألفونسو ملك قشتالة، حيث كان مبعوث ألفونسو يفِد كل سنة إلى بلاط المعتمد لأخذ الفدية، ولم يكن هذا الرسول سوى الفارس القشتالي الشهير"رودريغو ببيار" المعروف في المصادر العربية باسم"السيد القمبيطور".[2]حتى إن المعتمد بن عباد قد وجد من يهون عليه أمر دفع الجزية والإتاوات، ويتملق إليه، فهذا الشاعر حسان بن المصيصي* قال في أبيات يمدح بها المعتمد أوردها صاحب الذخيرة:

- ولم تطو دون المسلمين ذخيرة تهين كرام المنفسات لتكرمَا
- تحيل في فك الأسارى وإنما تعاقد كفّارا لتطلق مسلمَا
- وما كنت ممن شح بالمال والقنا فتكنز دينارا وتركز لهذما
-فترسله للصفر أصفر عسجدا وإن خالفوا أرسلت أبيض مخذما.[3]

وليت الأمر مقتصر على حسان بن المصيصي وحده، فهاهو شاعر آخر يقاسمه التوجه ذاته، وهو أبو بكر الداني (ابن اللبانة)، حيث يقول مادحا المعتمد:

---

1 عنان: دول الطوائف، ص72.

2 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

* ترجمته عند ابن بسام في الذخيرة، ق2/م1/ص433 وما بعدها، وعنه نقل ابن سعيد في المغرب ترجمة قصيرة وقال:" وكان هو وابن عمار وابن الملح في شلب أترابا متمازجين، فلما سمت الحال بابن عمار أنف ابن الملح من خدمته، ورضيها ابن المصيصي، فقربه من المعتمد بن عباد واستكتبه المأمون بن المعتمد لما ولاه أبوه مملكة قرطبة."/ج1 ص385،وله ترجمة عند العماد الأصفهاني الكاتب:خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، (ADERTAS- ADERICS)، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى ،الدار التونسية للنشر،1972،ج2، رقم الترجمة 45. وله ذكر في المصدر نفسه، ج3، ص588، 589."

3 ابن بسام: الذخيرة، ق2/م1/ص248

- في نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتتخدع
- تنيلهم نغما في طيها نقم سيضر بها من كان ينتفع
- وقلّ ما تسلمُ الأجسام من عرض وإذا توالى عليها الري والشّبع
- لا يخبط الناس عشوا عند مشكلة فأنت أدرى بما تأتي وما تدع.[1]

قال ابن بسام معلقا على أبيات ابن اللبانة:" وهذا مدح وعرور وشاهد زور، وملق معتفٍ سائل وخديعة طالب نائل، وهيهات."[2] ولا يخفى على أحد أن دور الجزية* (الضريبة) التي كان يؤديها المسلمون إلى المسيحيين، أدت إلى إضعاف دول الطوائف وإنهاكها اقتصاديا وسياسيا وحتى عسكريا، مما أدى إلى تحول مركز الثقل في شبه الجزيرة الأيبيرية من الجنوب المسلم إلى الشمال المسيحي منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

وظل الأمر كذلك إلى أن سقطت طليطلة عام (478 هـ/1085م) بعد حصار طويل من طرف قوات ألفونسو القشتالي، حينها سارع المعتمد التنازل عن بعض حصونه لألفونسو، فلم يزد هذا الأخير إلا عتوا وإصرارا، وجاء رسول الملك القشتالي لقبض الضريبة السنوية وكان يهوديا واسمه ابن شاليب فأسمع المعتمد ما يكره، فأمر المعتمد بقتله وأسر من وصل صحبته من النصارى.[3]

وذلك أن هذا اليهودي لما شاهد الفدية شكك في سبائك الذهب وفي أنها مزيفة، ورفض تسلمها على هذا النحو، وهدد باحتلاله لمملكة إشبيلية إن لم يحصل ذلك، فوقع القتل عليه وعلى رفقته من قبل المعتمد.[4] هنالك فقط أدرك المعتمد جسامة الأمر فقدر وبالاستشارة مع بعض إخوانه من ملوك الطوائف، الاستنجاد بإخوانه من العداوة السفلى (المرابطون) فكان لهم ذلك.

---

1 المصدر نفسه: ص249./ابن اللبانة: الديوان، ص94.

2 الذخيرة: ق2/م1/ ص249.

* وقد عبر عن ذلك أحد الذين دفعوا الفدية، وعايشوا الأحداث، الأمير عبد الله بن بلقين، بدقة حينما قال:" إذ كان مذهبه -أي ألفونسوألا ينازل معقلا، ولا يفسد أجناده على مدينة، لبعد مرامها ومن فيها من مخالفي ملته، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاما بعد عام، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدي، إلى أن تضعف وتلقي بيدها كما فعلت."/المذكرات (تحقيق بروفنسال)، ص69.

3 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص159.

4 عنان:دول الطوائف، ص73.

وأجاز يوسف بن تاشفين بجموع الجيوش في صدر سنة تسع وسبعين (479هـ) وهو الجواز الأول.[1] والتقوا مع إخوانهم هناك وساروا إلى لقاء جموع ألفونسو، وجرت أحداث معركة الزلاقة الشهيرة وكان النصر حليف المسلمين.[2]

وكان لمعركة الزلاقة نتائج بارزة، فقد كسرت شوكة الملك المتغطرس،وعززت روح المسلمين المعنوية هناك، ووحدت القطرين معا (المغرب والأندلس).[3] لقد تركت هذه المعركة تأثيرا عميقا على مسار الأحداث في الأندلس، في وقت بلغت فيه حافة النهاية، وعانت أسوأ الظروف على الصعد السياسية والاجتماعية.[4]

شاهد يوسف بن تاشفين تفرق كلمة ملوك الطوائف، فغادر الأندلس وهو عازم على العودة إليها، يقول أحد الشهود على تلك الأحداث: " وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجها لبقائنا في الجزيرة."[5]

وعبر يوسف إلى الأندلس مرة أخرى سنة (481هـ/1088م) للقضاء على نفوذ النصارى في حصن لييط.[6] وفي شوال سنة (483 هـ/ 1090م) عبر يوسف العدوة إلى الأندلس عازما على خلع ملوكها وتوحيد الصفوف[7]فاستولى على غرناطة، وعزل أميرها عبد الله بن بلقين صاحب المذكرات ونفاه ونفاه إلى المغرب.[8]

ودخل جموع المرابطين قرطبة عام(484هـ/1091م) وحاصروا إشبيلية يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة، وخرج المعتمد مدافعا عن مملكته، ذابا عن حرماته، وقد أظهر شجاعة كبيرة.[9]

---

1 ابن بسام: الذخيرة،ق2م1، ص254، 255./ عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص72، 73 / مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص38.

2 عبد الله بن بلقين:المذكرات (تحقيق بروفنسال) ص71./عبد الواحد المراكشي:المعجب،ص24 وما بعدها./مؤلف مجهول:الحلل الموشية،ص62./ابن الأثير:الكامل،ج8،ص141 وما بعدها./الحميري:الروض المعطار،من ص 287 إلى ص 292.

3 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص378.

4 المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

5 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص126.

6 المصدر نفسه: الصفحة نفسها./ مجهول: الحلل الموشية،ص66

7 عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص98./ مجهول: الحلل الموشية،ص71.

8 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)،ص 155 وما بعدها.

كبيرة.[1] غير أن جموع المرابطين كانت أقوى، فسقطت المملكة،واعتقل ابنه المعتد بالله، وقتل ابنه الأخر الراضي بالله غيلة وأخفي جسده.[2] ونفي المعتمد إلى المغرب[3] وبقي في أغمات إلى أن توفي توفي هناك وانتهى حكم بني عباد في الأندلس.

- بنو هود (الجذاميون)، أصحاب سرقسطة (الثغر الأعلى):

تعد مملكة سرقسطة من أقوى ممالك الطوائف وأقدمها استقلالا، وكانت تسمى قبل سقوط الخلافة الأموية بقرطبة (الثغر الأعلى)"LAMARCA- SUPERIOR"

" ويشمل الثغر الأعلى في الجغرافية الأندلسية، مدينة سرقسطة وأعمالها، تطيلة، ووشقة وبربشتر، ولاردة، وإفراغه، وطركونة، وطرطوشة، ويشمل المنطقة الواسعة الخصبة التي يخترقها نهر إيبرو (إيبره) من مصبه عند مدينة قلهرّة في ولاية نافار."[4]

وكان لاتساع رقعتها الجغرافية ووقوعها على التخوم بين الدويلات النصرانية، مما أكسبها أهمية كبرى لدى المسلمين والمسيحيين على حد سواء.فهي بين" قطلونية، ونافارا أو بنره من الشمال الغربي، وقشتالة من الجنوب والغرب."[5] هذا الموقع كما يضيف أحد الباحثين[6] قد أعطاها أهمية خاصة، سواء في السلم أو في الحرب، ولعل هذا الموقع أيضا كان من بواعث انفصالها عن السلطة المركزية، فضلا عما فرضه عليها من التزامات غير عادية لمواجهة التحديات المحيطة من كل جانب. ويمكن أن نقسم الحكم السياسي لهذه المملكة إلى فترتين:

الأولى: حكمتها أسرة عربية من بني تجيب مع بداية ما يسمى بالفتنة القرطبية، حيث سيطرت هذه الأسرة على سرقسطة، بقيادة المنذر بن يحيي (408هـ) الذي يعد مؤسس العهد الأول من دولة سرقسطة، وكان المنذر كما يذكر المؤرخون، رجلا من عرض الجند ترقى في القيادة آخر دولة

---

1 ابن بسام: الذخيرة، ق2/م1/ ص52، 53./ عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص99، 100

2 المراكشي: المعجب، ص101.

3 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)،ص171، 172

4 عنان:دول الطوائف، ص265.

5 المصدر نفسه،ص264.

6 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص360، 361.

ابن أبي عامر، وتناهى آمره في الفتنة إلى الإمارة.[1] واستمر حكم منذر بن يحيى التجيبي حتى سنة (412هـ/1022م) وخلفه ابنه يحيى بن منذر* (412هـ/1022م/427هـ -1036م)، ثم منذر الثاني بن يحيى (427هـ -1036م/430هـ -1039م)[2]وانتهى حكم أسرة بني تجيب العربية بانتهاء حكم منذر الثاني بعد أن قتل على يد رجل مارد من بني عمه كما يقول صاحب البيان المغرب.[3]

الثانية: وهي فترة بني هود، وقد استمر حكم هذه الأسرة حتى دخول المرابطين إلى الأندلس. ومؤسس هذه الدولة هو سليمان بن محمد بن هود الجذامي الملقب بالمستعين بالله[4] والذي حكم من من سنة (431هـ -1031م/438هـ -1046م) بعد مقتل منذر الثاني بن يحيى السالف ذكره، وينتمي المستعين بالله إلى قبيلة جذام اليمنية العريقة،"وقد شاركت هذه القبيلة في أحداث الأندلس، بدءا بالفتح ومرورا بعهد الولاة حتى قيام الدولة الأموية وسقوطها.[5]

وقبل وفاته - أي المستعين - كان قد قسم مملكته بين أبنائه الخمسة * فولى أحمد مدينة سرقسطة، وولى يوسف مدينة لإدارة، وولى محمدا قلعة أيوب، ووشقة لابنه لب، وتطيلة للمنذر[6] غير غير أن أحمد الملقب بالمقتدر استولى على أملاك إخوته ما عدا يوسف الملقب بحسام الدولة، هذه الفعلة جعلت أهل الثغر ينكرون عليه ذلك ويخلعون طاعته، ويتعاطفون مع أخيه يوسف.[7] مما دفع

---

1 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص175 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب،ج2،ص435./ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، من ص211إلى ، ص216.

* ذكره ابن سعيد في المغرب ،ج2،ص436.

2 محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)، ص104.

3 ابن عذاري: ج3، ص178.

4 المصدر نفسه: ص221./ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، ج2،ص436./ ابن الخطيب: أعمال الأعمال ، ص170.

5 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص362.

(*):تراجم بعض أبناء المستعين(المقتدر أحمد بن سليمان، والمؤتمن يوسف بن المقتدر)عند ابن سعيد في المغرب،ج2،ص236، 237،إضافة إلى تراجم بعض ملوكهم(المستعين أحمد بن المؤتمن، وابنه عماد الدولة عبد الملك بن المستعين،والمستنصر بن عماد الدولة)./المصدر نفسه،ص437، 438./وقد ذُكر بعضهم عند ابن الأبار : الحلة السيراء،وضع حواشيه وعلق عليه:علي إبراهيم محمود،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1، 2008،ص297 وما بعدها./وقد ذكر بعضهم عبد الله بن بلقين : التبيان(تحقيق الطيبي)،ص103، 104./ولهم ذكر عند ابن الأثير:الكامل في التاريخ،ج7،ص292/ج8،ص157.

6 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص222./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص171.

7 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص223./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص171.

هذا الأخير إلى الاستعانة بالنصارى على حساب أخيه وصنع أخوه المقتدر الصنيع نفسه، وهو ما يدل على الانحطاط الأخلاقي والإفلاس السياسي الذي وصلت إليه الأندلس آنذاك.

وسع المقتدر دولته حتى على حساب جيرانه، فاستولى على طرطوشة، ثم أخذ دانية من يد إقبال الدولة علي بن مجاهد سنة (468هـ/1076م). واستضاف عملها إلى ما بيده، فاتسعت خِطّته، وانفسحت عمالته، وتعدد جيشه.[1] وفي وقته وقعت مأساة بربشتر عام (456هـ) حيث استولى عليها النورمان بعد حصارهم لها، وكان الخطب في هذه المدينة المشؤومة كما يقول ابن عذاري أعظم من أن يوصف.[2] حيث وقعت فيها مآسي جليلة فقد زعموا أنه صار لأكبر رؤسائهم نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا كلهن. ومن أوقار الأمتعة من الحلي والكسوة والوطاء خمسمائة حمل. وأصيب في هذا القتل والسبي مائة ألف نسمة...وهلك من نساء بربشتر جملة يكثر عدها عند إفلاتّهن من العطش.[3]

وتمكن أحمد المقتدر بن هود من استرجاعها في السنة الموالية (457هـ)، وسعى لإصمات سوء القالة عنه[4] هذا النصر مكنه من كسب قلوب الرعية، " وشاع لابن هود صنيع في بلاد المسلمين لهذا الفتح الذي اتفق على يديه".[5]

وكسائر حال ملوك الطوائف كان أحمد المقتدر يدفع الجزية أو الضريبة لملوك النصارى، وجاءه رجل صالح واعظ له ، زاجر عن تلك العطية التي تمنح للنصارى، فقتله، واستمرّ في دفع الجزية، وتوفي المقتدر عام(475هـ) بعد علة أصابته ويقال ،أنه صار ينبح كما تنبح الكلاب بدعوة ذلك الرجل الصالح.[6]

وبعد وفاة المقتدر قسمت مملكته بين ابنيه يوسف المؤتمن، وأخيه المنذر، وجرت بينهما وقائع وأحقاد، واستعان كل منهما بالنصارى على أخيه، "ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام،

---

1 ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ص 171 .

2 البيان المغرب: ج3، ص226 وما بعدها.

3 ابن بسام: الذخيرة، ق3/م1/ص182.

4 المصدر نفسه:ص189، 190.

5 ابن عذاري: البيان المغرب،ج3،ص228.

6 المصدر نفسه:ص229.

إذ توفي في سنة (478هـ/1085م) وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه، فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها، ولده أحمد، وتلقب بالمستعين(الأصغر أو الثاني) ، وبقي الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمّه المنذر".[1]

وفي زمن المستعين الثاني قويت أطماع النصارى بعد أن استولوا على طليطلة، وتهاوت أغلب ممالك الطوائف في أيدي المرابطين، وفي هذه الفترة حاصر النصارى مدينة وشقة وكانت ثاني أكبر مدينة في المملكة بعد سرقسطة، وقد استصرخ المستعين (الثاني) بالمرابطين فبعثوا له بالمدد، ولكنّ الهزيمة كانت من نصيب المسلمين، فاستولى النصارى على وشقة، بعد أن يئس أهلها من النصر، وسلّموا لهم المدينة عام (489هـ/1095م).[2]

وعندما تم للمرابطين إسقاط عروش الطوائف، شعر المستعين بخطرهم فاستنجد بالسيد القمبيطور، إلا أنه ما لبث أن عاد فطلب عون المرابطين عام (496هـ/1102م)، وتصدى لجيوش ملك أرغونة ألفونسو المحارب "ALFONSOI ,EL BATALLADOR" قرب تطيلة يوم الاثنين أول رجب (503هـ/1110م) حيث سقط المستعين شهيدا في معركة بلنيترة "VALTIERRA" [3]

خلف المستعين الثاني ابنه أبو مروان عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سرقسطة واشترطوا عليه ألا يداخل الروم.[4] ولكن سرعان ما انقلبت الأوضاع على الملك الذي لم يعمّر في في الحكم طويلا، فأخرج أهل سرقسطة عماد الدولة، واستدعوا عامل المرابطين الذي دخلها عام (503هـ).[5]

---

1 عنان: دول الطوائف، ص286.

2 عنان: دول الطوائف، 288، 289./ محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)،ص105./ راجع هذه الحادثة كذلك عند ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص173.

3 سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص79./محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي، ص 105./ إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص366./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص175.

4 ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص175.

5 المصدر نفسهّ، الصفحة نفسها.

وهكذا ينتهي أمر هذه الأسرة " وهذه الدولة التي دامت حوالي قرن من الزمن على نحو لم تبلغه دولة أخرى، إذا ما أخذنا في الاعتبار العهد "التجيبي" الأول الذي سبق عهد بني هود الجذامين، الذين شغلوا دورا ربما كان الأكثر خطورة في تاريخ تلك الفترة."[1]

- **بنو القاسم الفهريين (في البونت):**

أسس مُلك هذه الأسرة نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري منذ بداية الفتنة إلى أن هلك سنة (421هـ).[2] وعبد الله بن قاسم الفهري هذا من زعماء البيوتات العربية في تلك المنطقة... وكان بنو قاسم* هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن** الفهري، الذي وُلي إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقي***، وذلك في أواخر سنة (114هـ/732م).[3] فنسب هذه العائلة يرجع إلى قريش، وهذا ما يفسر -ربما -لجوء عدد من الأمراء الأمويين زمن الفتنة القرطبية إلى مدينة البونت فهم من نسل واحد****، بل إنّ عبد الله نفسه كان من أنصار الخلافة الأموية يعترف بطاعتها ويدعو لها مع طائفة الفتيان العامريين.[4]

---

1 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص367.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص215/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص308.

* حينما ذكر ابن حزم " بيوتات البربر بالأندلس" ذكر من جملتهم بنو قاسم أصحاب البونت، وقال: وهو ينتمون فهريين بالحلف." جمهرة أنساب العرب، ص501.

** عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن جحوان بن عمرو بن حبيب بن شيبان بن محارب بن فهر الفهري، أمير الأندلس وليها سنة خمس عشرة ومائة بعد عبد الرحمن العكي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي الأمير بإفريقية، وقتل بالأندلس سنة خمس وعشرين ومائة./ الحميدي: جذوة المقتبس: ص254/ الضبي: بغية الملتمس، ص333/ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص220 ./مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص114 وما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص236.

*** عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، أمير الأندلس وليها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي صاحب إفريقية، وهو من التابعين يروي عن عبد الله بن معمر بن عبد العزيز، وعبد الله بن عياض، واستشهد في قتال الروم بالاندلس سنة (115هـ) وكان رجلا صالحا جميل السيرة في ولايته، كثير الغزو للروم..." ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص210./ الحميدي: جذوالمقتبس، ص242 -243./ الضبي: بغية الملتمس، ص318، 319.

3 المقري: نفح الطيب، ج1، ص236. وذكر ابن الفرضي أن وفاته كانت سنة (115هـ)، تاريخ علماء الأندلس، ص210. وتابعة الحمدي في الجذوة: ص242، 243.

**** مثلا: فقد كانت بلدة ألبونت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر وأخيه هشام ، يعيشان في كنف نظام الدولة وتحت رعايته، ومن ألبونت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريين للخلافة باسم المرتضى، وبعد مقتله لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم، ولبث في ألبونت حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة سنة (418هـ)./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص127 -145./ عنان: دول الطوائف، ص260، 261.

4 المصدر نفسه، ص260.

وبعد موت نظام الدولة خلفه ابنه محمد بن عبد الله بن قاسم الملقب بيمين الدولة (421 -434هـ).
تعرضت هذه الدولة الصغيرة لغارات السيد القمبيطور، ودفعت له الجزية، قيل عشرة آلاف دينار، وكان حاكمها آنذاك عبد الله بن محمد الفهري، حتى استولى عليها المرابطون عام (497هـ).[1]
وذكر ابن عذاري أن سقوطها كان عام (500هـ).[2]

- بنو حمود (الحسنيون، العلويون):

يسميهم بعض الباحثين بالعرب المبتربرين ، فهم من سلالة الأدارسة الحسنيين، الذين أقاموا أول دولة علوية بالمغرب الأقصى، غير أنهم بالرغم من نسبهم العربي الهاشمي، فقد عاشوا في كنف القبائل البربرية، وصاهروهم، " وتبربروا معهم" على حد قول ابن قتيبة.[3]
قال ابن غالب في " فرحة الأنفس" حول العرب الذين استوطنوا الأندلس"بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتثار ملك بني أمية"[4]

وحينما عرج ابن الأثير في تاريخه على ذكر ابتداء الدولة العلوية بالأندلس، وذكر علي بن حمود أول ملوكها قال:" مع اتفاق على صحة نسبه إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام."[5]
ويرجع أصل هذه الأسرة الحاكمة بالأندلس إلى رجلين من جند المستعين بالله أحد أمراء بني أمية زمن الفتنة القرطبية، من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب يُسمّيان: القاسم وعليّا ابني حمود*[6]

---

1 عنان: دول الطوائف،ص261، 262./ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص16/سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص80.

2 البيان المغرب:ج3، ص215.

3 محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)، ص102.

4 المقري: نفح الطيب، ج1 ، ص290./ ينظر نسبهم مفصلا عند ابن حزم في "جمهرة أنساب العرب" ص49 وما بعدها.

5 الكامل في التاريخ ،ج7، ص284./ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص43، 44.

* ينظر أخبارهما عند ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، من ص 49إلى 52./ ابن حزم: رسالة " ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس" ملحق على مجموع الرسائل ،ج1، ص ص199إلى 201 وص 204 وما بعدها./الجميدي: جذوة المقتبس،من ص 23 إلى 26، وبعض أخبار العائلة في المصدر نفسه، ص28 وما بعدها./ الضبي: بغية الملتمس، من ص 25 إلى ص29، ص 32 وما بعدها./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، من ص284إلى289./المقري:نفح الطيب،ج1 ،ص430 وما بعدها./وحول صراعات الحموديين فيما بينهم، ينظر: إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص243، 244./ ولهم تفصيل عند حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 3، من ص184 إلى ص 191، بالإضافة إلى المصادر والمراجع الأخرى المعتمدة في الهوامش.

6 الحميدي: جذوة المقتبس، ص23.

وإلى هذا النسب الهاشمي العريق، يشير ابن دراج القسطلي في رسالة بعثها إلى علي بن حمود، أوردها ابن بسام:" حسبك الله ، يا ابن رسول الله..."[1] وفي رسالة أخرى إلى أحد ولده منذر بن يحيى: " وأكرم بها أعراقا سرت إليك،"[2] يشير إلى النسب الهاشمي. أما علي بن حمود فهو أول ملوكهم بالأندلس، لقبه"الناصر لدين الله"، دخل قرطبة بعد مقتل المستعين، وبويع له فيها سنة (407هـ)، وبعد مقتله سنة (408هـ)[3] تولى أخوه القاسم من بعده، ولكن ابن أخيه يحيى بن علي ثار عليه بمالقة، ودخل قرطبة سنة (412هـ)، وتلقب بالمعتلي، وامتد سلطانه إلى الجزيرة الخضراء، لكن نفوذه لم يستمر بقرطبة، فقد قتل سنة (427هـ).[4]

فبويع إدريس بن علي ومن بعده حسن بن يحيى الذي بويع بالخلافة في مالقة، ولكنه توفي مسموما، وبعد صراع طويل ذكره المؤرخون، لعب فيه البربر دورا كبيرا في تصاعد الصراع بين بني حمود أنفسهم لاسيما قبيلة زناتة، كما طمح بنو عباد إلى الاستيلاء على مملكتهم حتى تمّ ذلك عام (446هـ) وبذلك زالت الدولة الحمودية في الجزيرة مثلما زالت من مالقة عام(449هـ/1057م).[5]

استطاع بنو حمود أن يسيطروا زهاء ثلث قرن، على المثلث الجنوبي في شبه الجزيرة الإسبانية وأن يقيموا لهم ملكا وخلافة آنا بقرطبة وإشبيلية، ثم بمالقة والجزيرة الخضراء.[6]

ولاشك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودي يعرف بصاحب البربر،وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول.[7]

ومن خلال استعراض الحكم الحمودي نلحظ كثافة الصراع والتهافت على السلطة، وأن صراعهم على السلطة كان يشمل السيطرة على ثلاث مدن وهي مالقة وسبتة والجزيرة الخضراء، ولم يتمكن أي منهم من إقامة دولة قوية صامدة في وجه التيارات المتصارعة، وبذلك زال ملكهم بسرعة

---

1 ابن بسام: الذخيرة، ق1 /م1/ ص64.

2 المصدر نفسه، ص65.

3 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص119./ عبد الواحد المراكشي: المعجب ،ص37.

4 ابن حزم: رسالة "ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس "ص204./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص124، 125، وص131 وما بعدها.

5 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، (عصر الطوائف والمرابطين)،ص16.

6 عنان: دول الطوائف، ص14.

7 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس،ص278.

وتلاشى نفوذهم بظهور زعماء أقوى منهم كبني عباد في إشبيلية الذين استولوا على الجزيرة الخضراء.[1]

وها هي قائمة بأسماء خلفاء بني حمود في مالقة منذ تاريخ (427هـ) أوردها أحد المؤرخين المعاصرين[2]:

- إدريس بن على بن حمود (المتأيد بالله) - 427هـ -431هـ.
- يحيى بن إدريس (القائم) - 431هـ - 431هـ.
- الحسن بن يحيى (المستنصر) -431هـ -434هـ.
- إدريس بن يحيى الثاني (العالي) -434هـ438.
- محمد بن إدريس (المهدي) -438هـ -444هـ.
- إدريس بن يحيى (الثالث) -444هـ.
- إدريس الثاني (مرة ثانية) -444هـ -446هـ.
- محمد بن إدريس (المستعلي) -446هـ -449هـ.

ب - موالي بني أمية في الأندلس:

- دولة الجهاورة (بنو جهور*) بقرطبة:

وتشمل إمارتهم مدنا أخرى منها جيّان وبياسة وأبدة[3] وحُكم هذه الأسرة العريقة في النسب والولاء للبيت الأموي، يبدأ مع اتفاق الجماعة بقرطبة على محو رسم الخلافة الأموية لعدم الصلوح في أهل بيتها، وخلع آخر خلفائها هشام (المعتد بالله)، وإسناد الأمور بالحضرة إلى شيخ الجماعة أبي الحزم بن جهور.[4]

يصطلح بعض المؤرخين على تسمية دولة بني جهور في قرطبة بـ "الجمهورية" انطلاقا من القرار الذي اتخذه مؤسس هذه "الدولة" أبو الحزم بن جهور، بعد إلغائه المنصب الخلافي، وجعل الأمر شورى بين

---

1 سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص 82.

2 إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص406.

*حول بني جهور وحكمهم في الأندلس ينظر المصادر والمراجع التالية: ابن حزم:" ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس"، ص203، 204./ الحميدي: جنوة المقتبس،ص29، 156./الضبي: بغية الملتمس،ص30 وما بعدها، ص221، 222./ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب،ج1 ،ص56، 57./ ابن شكوال: الصلة، ج1، ص121، 122./ عبد الواحد المراكشي: المعجب،الصفحات: 42، 44، 45، 55./ المقري: نفح الطيب، ج1، الصفحات، 302، 303، 439./ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص290، 291./ ابن الأبار: الحلة السّيراء، ص141 وما بعدها، ص189 وما بعدها.

3 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)،ص16.

4 ابن بسام : الذخيرة، ق1م2، ص602./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص139، 147./ ابن عذاري: البيان المغرب،ج3، ص186.

أهل الرأي في قرطبة الذين مثلوا برأيه الجماعة فيها، وذلك لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي في الأندلس.[1] وقد كان يسمي نفسه أمين الجماعة، وأسرة الجهاورة هذه من موالي بني أمية قديمو الولاء لهذه الأسرة، ونسبهم انطلاقا من أبي الحزم مؤسس الدولة كالتالي: أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر* بن أبي عبدة[2]

وكان جدهم الداخل إلى الأندلس، يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي، مولى عبد الملك بن مروان، دخل في كنف الطالعة البلجية.(بلج بن بشر القيشري).

وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل، ثم ولاه عبد الرحمن حجابته، ثم تولى القيادة في عهد ولده هشام،وتولى أبناؤه بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة تباعا في ظل أمراء بني أمية وخلفائهم ... حتى إنّ والد أبي الحزم بن جهور قد تولى الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر.[3]

أما المؤسس الفعلي لدولة الجهاورة (أبو الحزم بن جهور) فقد تقلّد عدة مناصب قبل أن يصبح وزير العلّي بن حمود، مؤسس الدولة الحمّودية، وقد نقم عليه واعتقله وصادر أمواله، ولما ثار أهل قرطبة بعد ذلك ببني حمود وأنصارهم من البربر، كان عميدهم في ذلك أبو الحزم بن جهور.[4]

بعد أن تقلّد أبو الحزم بن جهور الجماعة بقرطبة بعد عزل آخر خلفاء بني أمية، سار سيرة حسنة، "فأجاد السياسة... ومتى سئل قال: ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم... وكان من أشدّ الناس تواضعا وعفة وصلاحا... حافظا لكتاب الله قائما في سرّه وجهره، متقنا للتلاوة، متواضعا في رفعته، مشاركا لأهل بلده، يزور مرضاهم ويشهد جنائزهم.[5] وكان آمنا وادعا وقرطبة في أيامه حرما يأمن فيه كل خائف.[6] فرخت الأسعار وصاح الرخاء بالناس أن هلمّوا فلبوه من كل صقع

---

1 محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)، ص102./ ابن عذاري: البيان المغرب،ج3، ص186.

* كذلك الاسم عند الحميدي في الجذوة، ابن عبد الغافر، ص165، وكذلك عند ابن عذاري في البيان المغرب،ج3،ص185. وعند ابن سعيد في المغرب كذلك ، ج1،ص56، وكذلك الاسم عند ابن بشكوال في الصلة، ج1،ص121، بينما عند الضبي في البغية، (ابن عبد الغفار)، ص221.

2 عبد الواحد المراكشي: المعجب ، ص42.

3 عنان: دول الطوائف، ص21.

4 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5 ابن بسام: الذخيرة، ق1 م2، ص603.

6 عبد الواحد المراكشي: المعجب،ص 45.

فظهر **تزايد** الناس بقرطبة من أول تدبيره لها.[1] توفي أبو الحزم ليلة الجمعة السادس لمحرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة (435هـ).[2]

تعد حكومة أبي الحزم بن جهور في قرطبة نموذجا وضاءً ورائعا في التاريخ السياسي الإسلامي، إذ أنها قامت على حكم الجماعة، وتطبيق مبدأ نظام الشورى الإسلامي، فكانت من أنجح، بل لا نغالي أنها أنجح الحكومات التي قامت في الأندلس لو امتد بها عمر، وسارت على ذلك المنهج السياسي الإسلامي.[3]

خلف أبا الحزم بعد وفاته ابنه أبو الوليد، فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك إلى غاية وفاته في شوال عام (443هـ).[4]

كان عهد أبي الوليد مثل عهد أبيه أمنا ورخاء واستقرارا " فأصبح من العجب العجاب تكافُّ الناس في الأعم عن التظالم والتسافك، مما لم يتوفر وقت وجود الشرطة في قرطبة أيام الفتنة.[5] فلا فلا تكاد تسمع لشرارهم من معهود ذلك إلا الناذرة الفذة.[6]

قرب أبو الوليد إليه ذوي العلم والمعرفة كالمؤرخ الشهير ابن حيان وشاعر الأندلس ابن زيدون الذي اتخذه وزيرا له." ونوه به وأسنى خطته، وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته، وأوسع راتبه.[7] قبل أن تسوء العلاقة بينهما.[8]

توفي أبو الوليد عام (456هـ/1064م)، وقبل وفاته قد أدركته الشيخوخة فتخلى عن تدبير الأمور لابنيه عبد الرحمن وعبد الملك، فوزع سلطاته بينهما، وكان في ذلك أول مظاهر الاختلال، إذا تحول النظام الديموقراطي إلى ملك وراثي.[9]

---

1 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص187.

2 المصدر نفسه: الصفحة نفسها/ ابن بسام: الذخيرة، ق1 /م2/ ص604./ عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص45.

3 سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف،ص104.

4 عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص45.

5 ابن بسام: الذخيرة، ق1م1، ص605 وما بعدها ./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص148.

6 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص234.

7 ابن بسام: الذخيرة، ق1/م1/ ص338.

8 المصدر نفسه: ص421.

9 محمود مكي:تاريخ الأندلس السياسي، ص102.

وكان ابنه المذكور جار واعتدى، وصحِب الأرذال، وأهمل الأمور، وأظهر الفساد، وتعاطى ما أحجم عنه سلفه من الاستبداد فسمى نفسه بذي السيادتين المنصور بالله، الظافر بفضل الله.[1]

وخطب له علي المبذر بذلك ولم يكن أبوه ولا جده أطلقا في إمارتها اسم رياسة ولا انتقلا عن رسم الوزارة ولا قعدا بالمقصورة مصلى الخلفاء[2] متجاوزا بذلك سلطة الجماعة إلى السلطة الفردية.[3]

حاز عبد الرحمن على الإشراف والجباية، وحاز أخوه عبد الملك على النظر في الجند[4]،وسرعان ما انقلبت الأمور بين الإخوة واستبدّ عبد الملك بالسلطة وزجّ بأخيه إلى السجن ليقود منفردا الدولة، وكانت مصيبته أعظم حينما قتل الوزير المحنك ابن السقاء الذي كان يدير شؤون قرطبة في حكمة بالغة، بعد فتنة محبوكة نسجت خيوطها في إشبيلية من قبل حاكمها المعتضد بن عباد، موحيا إلى عبد الملك بأنّ ابن السقاء يريد الاستيلاء على السلطة فتخلى عن وزيره صاحب اليد البيضاء على حكمه المتعفن.

وفي عهد عبد الملك طمع المأمون صاحب طليطلة في الاستيلاء على قرطبة، فسار إليها بجيشه وحاصرها، فاستنجد عبد الملك بالمعتمد بعد وفاة والده المعتضد ، ففك المعتمد ذلك الحصار عن قرطبة ونودي بخلع آل جهور، وقبض على عبد الملك وأخيه عبد الرحمن ووالدهما المقعد الوليد بن جهور، ونفوا إلى جزيرة شلطيش.(SALTES).*[5]

---

1 ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص148، 149./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص232، 233.

2 ابن عذاري: البيان المغرب: ج3، ص233./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص149

3 إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، ص359.

4 ابن عذاري: البيان المغرب: ج3، ص256./ ابن بسام: الذخيرة، ق1م2 ، ص607.

* بالأندلس بالقرب مدينة لبلة، وهي جزيرة لا سور لها ولا حظيرة، انما هي بنيان متصل بعضه ببعض... ويحيط بجزيرة شلطيش البحر من كل ناحية... وطول الجزيرة نحو ميل وأزيد... ولها أرياف واسعة، وبها آبار عذبة وبساتين حسنة ولها مراع خصبة، وهي مرفأ للسفن وركاب البحر، وهي كثيرة السفن." الحميري: الروض المعطار، ص343، 344./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص542، والصفحات، 537، 545./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص85، 86، والصفحات58، 74."

5 راجع هذه الحوادث بتفصيلاتها عند ابن بسام: الدخيرة، ق1/م2/ ص607 وما بعدها./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص149 وما بعدها./ ابن عذاري: البيان المغرب ،ج3، ص255 وما بعدها./ محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي، ص102، 103./ إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص359، 360/ عنان : دول الطوائف، 26 وما بعدها.

وهكذا انتهت دولة بني جهور في قرطبة بعد أربعين عاما من قيامها عام (462هـ/1070م) قال ابن زيدون في بني جهور:

-لولا بنو جهور ما أشرقت بهم -غيد السوالف في أجيادها تلع
-قوم متى تحتفل في وصف سؤددهم -لا يأخذ الوصف إلا ما يدع
-أبو الوليد قد استوفى مناقبهم -فللتفاريق منها فيه مجتمع
-مهذب أخلصته أوليته -كالسيف بالغ في إخلاصه الصنع
-إن السيوف إذا ما خاب جوهرها - في أول الطبع لم يعلق بها الطبع[1]

ج- البربر

- بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة ومالقة:

وهم فرع من بني زيري حكام الدولة الزيرية في إفريقية على عهد الفاطميين.[2] ويعود نسب هذه الأسرة إلى قبيلة صنهاجة البربرية، وكانت هذه القبيلة متحالفة مع الفاطميين في قتالهم ضد الأمويين المتحالفين مع خصومهم التقليديين من قبائل زناتة.[3]

بيد أن نفوذهم الحقيقي في الأندلس كان في عهد المنصور بن أبي عامر* الذي استطاع أن يستميل قلوب أكثرهم، حيث كوّن منهم جيشا قويا يستعين به في غزواته وفي قهر أعدائه

---

1 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص233.

2 أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، 276.

3 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص262/ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص228./ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص238.

* قال الأمير عبد الله بن بلقين سليل أسرة بني زيدي في مذاكراته:" فاستجلب من رؤساء البربر -أي المنصور - وحماتها وأنجادها، من بلغه فروسيته وشدته... وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء... وكان من أدهاهم رأيا وأبعدهم همة زاوي بن زيري عمّنا، وبعده حبوس بن ماكسن ابن أخيه:" التبيان (تحقيق: الطيبي)، ص57، وتبعه ابن الخطيب في الأعمال بقوله: فتلقاهم المنصور بكل برّ، وترحيب... وكان ذرعه يتسع لهم في جميع ما يتسبطون عليه فيه من قول أو فعل"ص229. وتبعهما في الرأي ابن خلدون في العبر، ج6 ،وابن الأثير في الكامل، ج7، ص120. وهناك رواية تقول إنهم وفدوا على عبد الملك المظفر بن المنصور. قال ابن بسام في الذخيرة:" وانهمك في اصطناع البرابرة العدويين..ودعا القبائل منهم إلى الدخول إليه والخدمة له، وكان من أعظم من هاجر إليه منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي... وكان المنصور في أيامه قد التوى في الإذن له بالدخول إلى الأندلس حذرا من دهيه ومكره وبعد صيته في المغرب. ق4/م1/ص81.

وتبعه في هذا الرأي ابن عذاري في البيان المغرب:" فكتب شيخهم وأميرهم زاوي بن زيري بن مناد ومعه ابنا أخيه ماكسن (حباسة وحبوس) فأكرمهم بن أبي عامر المظفر وأنزلهم وكانوا في ذلك في أمر عظيم"ج3، ص263. ولكن ابن الخطيب في الإحاطة يقول:"

ومناوئيه، أي معارضيه، فأصبحوا يؤلفون أرستقراطية عسكرية مرهوبة الجانب.[1] يتزعمهم زاري بن زيري بن مناد الصنهاجي وبصحبته ابن اخيه ماكسن حباسة وحبوس.وبعد مقتل ابني المنصور المظفر وعبد الرحمن شنجول، ثارت الفتنة ولعب البربر دورا هاما فيها ووقفوا بجانب سليمان المستعين الذي دخل قرطبة بعساكر البربر في عام(403هـ)،حيث نجح في القضاء على خصمه المهدي، كوفئ البربر ودخلوا مع سليمان قرطبة وملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها.[2] عندئذ رأى سليمان المستعين أن يعمل على تفريق البربر في الكور والثغور،إرضاء لهم من جهة، وتفريقا لشملهم وإبعادا لهم عن قرطبة من جهة أخرى،فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيري بن مناد ولاية إلبيرة(غرناطة) وفرّق الباقي على مناطق أخرى.[3]

ويرى بعض الباحثين أن المجتمع الأندلسي لم يتمثل هذه القبيلة(بنو زيري) لسببين:

أولا: لحداثة قدومهم إلى الأندلس من جهة(مقارنة بإخوانهم البربر الآخرين الذين وصلوا مع الفتح فتعرّبوا،مثل:بنو ذو النون ملوك طليطلة، وبنو رزين الذين ملكوا السهلة، وبنو الأفطس ملوك بلطيوس).

ثانيا: الكراهية الشديدة التي يُكِنّها الأندلسيون لهم،بسبب دورهم في الفتنة القرطبية حتى سمّيت باسمهم "الفتنة البربرية"[4]

ويرى سليل أسرة بني زيري الأمير عبد الله بن بلقين أن سلاطين صنهاجة وبنو زيري لما رأوا اقتطاع كل أمير في بلد لنفسه...عزموا الرحيل عن الأندلس، والجواز إلى العدوة، وأنهم إنما بقوا بطلب من أهل إلبيرة الذين ألحّوا عليهم البقاء لوفرة الأموال والأنفس و العمارة مقابل الحماية.[5]

=فخاطب شيخ بيته يومئذ زاوي بن زيري ومعه أبناء أخيه، المظفر بن أبي عامر ليجوز إليه إلى الأندلس رغبة في الجهاد." ج1،ص238.
وهنا يبدو ابن الخطيب في (الإحاطة) رأيه مناقضا لرأيه الأول في (أعمال الأعلام)، وهو ما لم نجد له تفسيرا.
ويميل عبد الله عنان إلى رأي عبد الله بن بلقين في أن هذه الأسرة دخلت في وقت المنصور، باعتباره سليل هذه الأسرة وأحد أمرائها، وهو أدرى بشؤون أسرته. دول الطوائف،ص122. وهو التفسير المقنع، ورأينا كذلك يصب في الاتجاه نفسه.

1 محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي، ص101.

2 عبد الواحد المراكشي:المعجب،ص 32.

3 عنان: دولة الطوائف، ص123.

4 محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي، ص101.

5 التبيان: (تحقيق الطيبي)، ص 59.

وفي حوادث طويلة وبعد أن هزم زاوي جيش الخليفة المرتضى(409هـ)[1] ، لم يطمئن للنصر وخاف على قومه من أن تتكالب عليهم جموع الأندلسيين ونصحهم بالعودة إلى إفريقيا فرفض قومه الرحيل، فرحل هو وأسرته بذخائر كبيرة إلى القيروان، وبقيت جموع غفيرة من قومه يتزعمهم ابن أخيه حبوس بن ماكسن، والذي سعى إلى تعيينه فقيه غرناطة وقاضيها (ابن أبي زمنين)، على رأس غرناطة خلفا لعمّه.[2] وذكر ابن عذاري سفَرَ زاوي مع أهله وبقاء ابن أخيه حبوس بن ماكسن، وسكت عن كيفية أو طريقة التعيين.[3]

بعد سفر زاوي سنة (410هـ) وتقلّد الحكم من طرف حبوس في السنة نفسها، أو في السنة التي تليها (411هـ)، إلى لأن توفى سنة (428هـ)*، سار حبوس بن ماكسن بأجمل سيرة وأعدل طريقة، وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعَفّف عن كل شيء، وجمدت يده عن الحرام والأموال فأحبّه الناس، وأمنت معه السُبل ، وقلّ الفساد، وارتفع الجور[4] ، ثم ولي بعده ابنه باديس بن حبوس من عام(429هـ) إلى عام(467هـ)، كان باديس على ما فيه من القسوة وسفك الدماء حسن السياسة ، منصفا حتى من أقاربه.[5]

وعظم شأن اليهود في زمن حبوس وابنه باديس، من خلال أسرة كان رأسها إبراهيم بن نغرالة الذي كان كاتبا لأبي العباس كاتب حبوس،[6] إلا أن هذه المؤامرة فشلت.[7] بعد أن حاول هذا اليهودي تسليم الإمارة لابن صمادح** أمير ألمرية الذي انهزم أمام باديس.[8] إضافة إلى مطاعن هذا اليهودي الكثيرة على الإسلام، بعدها قامت ثورة أهل غرناطة على اليهود في مذبحة شهيرة، بعد قصيدة

---

1 التبيان: (تحقيق الطيبي)، ص61، 62./ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص106.

2 ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص267./ عنان: دول الطوائف، ص125 وما بعدها.

3 البيان المغرب: ج3، ص264. وقيل في قضية تعيينة آراء أخرى. ينظر عنان: دول الطوائف ، ص126.

* عند عبد الله بن بلقين في (التبيان) الوفاة عام (429هـ)./ص28.

4 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص64 وما بعدها.

5 ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص107.

6 عبد الله بن بلقين: التبيان، ص67.

7 المصدر نفسه: ص67 وما بعدها.

** زهير العامري أخو خيران مَلَكَ ألمرية من سنة 419 هـ إلى سنة 429هـ.

8 المصدر نفسه: ص70 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص107.

مؤثرة كتبها الفقيه الشاعر أبو إسحاق الإلبيري، كان ذلك عام (459هـ/1065م)[1] ومطلعها كالتالي:

- ألا قل لصنهاجة أجمعين ❖❖❖ بدور الزمان وأسد العرين[2]

وبعد وفاة باديس بن حبوس تولى الإمارة بعده حفيده عبد الله بن بلقين صاحب المذكرات وجرت بينه وبين عباد منازعات وحروب ومهادنات[3]، حتى إذا جرت معركة الزلاقة بعد عبور المرابطين، خلع يوسف بن تاشفين أمراء الطوائف وبدأ بأمير غرناطة عبد الله بن بلقين عام (484هـ) .والذي نقل أسيرا إلى أغمات حيث توفي هناك.

- بنو الأفطس: أصحاب مملكة بطليوس:

أصلهم من البربر، لكنهم انتسبوا إلى قبيلة تجيب العربية، فقد كان جدهم عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، أصله من قبائل مكناسة.[4] لكنه ولد أبوه بالأندلس و نشؤوا بها و تخلقوا بخلق أهلها، و انتسبوا إلى تجيب و شاكلهم الملك[5].قال ابن حيان:" و من النادر الغريب انتماؤه إلى تجيب، و بهذه النسبة مدحته الشعراء إلى آخر وقته، ومنهم ابن شرف القيرواني حيث يقول:

- يا ملكا أمست تجيب به تحسد قحطان عليها نزار
- لولاك لم تشرق معد بها جلّ أبو ذر فجلت غفار[6]

و كانت مملكة بطليوس واسعة " تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادي يانة غربا حتى المحيط الأطلنطي، و تشمل أراضي البرتغال كلها تقريبا حتى مدينة باجة

---

1 ابن عذاري: التبيان المغرب ، ج3،ص275، 276./ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1 ،ص243، 244. وذكر سابقا أن ابن الخطيب يخلط هنا بين إسماعيل بن النغرالة وبين ابنه يوسف.

2 نشرت هذه القصيدة كاملة عند ابن الخطيب في كتابه " أعمال الأعلام"، ص231 وما بعدها.

3 عبد الله بن بلقين: التبيان، ص106، 107.

4 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 182./ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 227./ ابن الأثير: الكامل: ج 7 ،ص 292.

5 ابن الأثير: الكامل: ج 7، ص 292.

6 ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 227.

في الجنوب، و كانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التي تشمل عدا العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، و يابرة، و إشبونة، و شنترين، و شنترة، و قُلمُرية و بازو، و غيرها."[1]

وواضح من سياق الحوادث التاريخية أن الحظ قد حالف عبد اللّه بن مسلمة (ابن الأفطس)، فقد كانت هذه المنطقة زمن الفتنة يحكمها الفتى سابور الفارسي، أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المنتصر، حيث كان ابن الأفطس يدبر له أمره و يخدم دولته، و يبدو أن هلاك سابور بعد أن خلف ولدين لم يبلغا الحلم قد شجع عبد اللّه بن مسلمة على ضبط الأمور و الاستيلاء على الحكم.[2] فملك غرب الأندلس كلها إلى أن توفي سنة (437هـ) و ولي بعده ولده المظفر، و قد امتاز بالشجاعة و الفروسية، و هو صاحب التفسير الكبير المسمى بـ " المظفري" في نحو خمسين مجلدة.[3]

وقد جرت بينه و بين المعتضد بن عباد حروب و خطوب و سجالات، كانت بعضها للمظفر كموقعة عام (439هـ/1047م)، و بعضها الآخر للمعتضد عام (442هـ/1050م) إلى أن تم الصلح بينهما عام (443هـ/1051م).[4] و في عهده سقطت مدينة قلمرية من الفتوح العامرية بعد حصار طويل من طرف ملك قشتالة فرناندو سنة (456هـ/1063م) في مأساة كبيرة ذكرها ابن الخطيب.[5]
وبعدها بفترة من الزمن توفي المظفر بن الأفطس عام (461 هـ/1068م) وقد وصفه ابن بسام بأنه أديب عصره غير مدافع ولا منازع[6]، ووصفه ابن عذاري بقوله : " وكان شاعرا أديبا وعالما لبيبا وبطلا شجاعا.[7]

---

1 عنان: دول الطوائف، ص81. و حول جغرافية بطليوس ينظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2 ،ص545./ الحميري: الروض المعطار، ص93./ و لها ذكر عند البكري: المسالك و الممالك، ج2، ص393./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص 88، 89./ و لها ذكر عند ابن سعيد في المغرب، ج1، ص360، وما بعدها .

2 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص183./ ابن بسام: الذخيرة، ق2/م2/ص640.

3 ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ص640./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص236 ./ أما ابن سعيد في المغرب فيقول عنه:"" وهو الذي صنف كتاب المظفري في الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد،ج1،ص364. وقال عنه المقري:" وله التأليف الفائق، المترجم بـ (التذكر المظفري) خمسون مجلدا اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وجنز وجميع علوم الأدب." ج4،ص466./ ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب ضبطه وشرحه: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - صيدا، بيروت، ط1، 2007، ص33."

4 عنان : دول الطوائف، ص84، 85.

5 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص184.

6 الذخيرة : ق 2/ 2/ص 640 / ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر ، بيروت ،1995، ج1، ج1، ص 317، 318.

7 البيان المغرب، ج3، ص 236.

خلف المظفر بعد موته ولديه (عمر ويحي)، ويبدو أن غواية الملك قد استهوت الأخوين، فحصل بينهما خلاف ونزاع كبيرين، فتعلق منهما يحي بولاية ابن ذنون، ومال أخوه عمر إلى تولي المعتمد لأخيه عمر الذي دخل بطليوس، وتلقب بالمتوكل.[1]

كان المتوكل ملكا عالي القدر، مشهور الفضل، مثلا في الجلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، فكانت مدينة بطليوس في مدته دار ادب وشعر ونحو وعلم،[2] وكان من بين وزرائه الكاتب والشاعر عبد المجيد بن عبدون، والوزير الكاتب أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي من بني القبرطونة والذي عقد له ابن بسام ترجمة مطولة في ذخيرته.[3]

قضى المتوكل سنتي حكمه خلف، وكان من سوء حظه أن تكون فترة حساسة من عمر الأندلس حيث تكالب الطاغية (أدخونش) بن فرذلنن على ملوك الطوائف وابتزهم بالضريبة فأعطوها مكرهين والمتوكل منهم، رغم أنفته عن ذلك، وبسقوط طليطلة في يد (ألفونسو) عام (479هـ)، استشعر المتوكل الخطر المحدق به، وبمملكته وسائر البلاد، فبعث الفقيه الأجل " أبو الوليد الباجي" إلى سائر الملوك يدعوهم إلى الوحدة و ليشعرهم الخطر فأبو ذلك[4]، فلم يكن له بدّ من أن يراسل إخوانه في العدوة السفلى، فبعث برسالة مؤثرة إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه لنجدة البلاد ،بعد أن وصلته رسالة ألفونسو يهدّده فيها. ذكرهما صاحب الحلل الموشية.[5]

توفي المتوكل في مأساة تراجيدية عام (488 هـ / 1095 م) إلى جانب ابنيه، وزالت دولة بني الأفطس.[6]

---

1 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 184/ ابن بسام: الذخيرة، ق2، ج2، ص 650./ عنان : دول الطوائف، ص 88.

2 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 185/ له ذكر طيب عند العماد الإصفهاني: خريدة القصر، ج3 ص 356 وما بعدها/ ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 227 وما بعدها.

3 ق2/ج2. من ص 753 إلى ص 773.

4 ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 228.

5 مؤلف مجهول، ص 33 وما بعدها.

6 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص 172 وما بعدها./ ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، ضبطه وشرحه: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - صيدا، بيروت، ط1، 2007، ص 36.

- **مملكة بني ذي النون في طليطلة:**

مملكة بني ذي النون من أقوى ممالك الطوائف، وترجع أهميتها إلى عاملين:

الأول : ضخامة رقعتها وكثرة أعمالها فهي" تمتد شرقي مملكة بطليوس، من قوريةوترجالة نحو الشمال الشرقي، حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق، جنوب غربي مملكة بني هودفي الثغر الأعلى، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجة متاخمة لقشتالة القديمة، وجنوبا بغرب حتى حدود مملكة قرطبة، عند مدينتي المعدن والمدور، وتتوسطها عاصمتها طليطلة[1]، أما العامل الثاني الذي أكسبها أهمية أخرى، فهو متاخمتها لحدود الممالك الإسبانية النصرانية، فلطالما عدت منذ تأسيسها، وقيام الدولة الإسلامية، وعرفت باسم الثغر الأوسط ومن التاريخ الرومي أن تأويل اسم " طليطلة" هو "أنت فارح"[2]وقيل معناه: فرح ساكنها[3] أما بنو ذو النون وأصحاب هذه المملكة فهم كما تذكر الحوليات التاريخية من قبيل البربر الذين كانوا يخدمون الدولة العامرية، وأن اسم جدهم، وهو الحامل لهذا الاسم، إنما هو زنون، فتصحف بطول المدة فصار ذو النون، وهو اسم شائع في قبائل البربر[4].

أما جدور هذه العائلة السياسية، فتمتد إلى فترة حكم الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن حيث كان جدهم الأعلى ذو النون بن سليمان حاكما أو واليا على حصن إقليش، ويبدو أنه نال هذا المنصب نظير خدمة أداها للأمير محمد، في حادثة ذكرها المؤرخون، لا تسع المجال لذكرها هنا[5]، ويتضح من سياق الحوادث التاريخية أن أبناءه قد تداولوا الولاية من بعده، وفي عهد المنصور

---

1 عنان : دول الطوائف، ص 95، وحول جغرافية المدينة وما قيل فيها، ينظر : البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 394/ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2 الصفحات، 536، 551، 552./ الحميري: الروض المعطار، ص 393 وما بعدها/ شكيب ارسلان: الحلل السندسية، ج1، ص 101 وما بعدها.

2 ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 8.

3 البكري : المسالك والممالك، ج2، ص 394.

4 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 276/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 176، 177/ ابن حزم: الجمهرة، ص 499، 500/ لهم ذكر عند المقري: نفح الطيب، ج1، 440، 441.

5 ابن بسام: الذخيرة، ق4 /م1/ص 95، وفي هذه النقطة يختلف المؤرخون ، فابن بسام يذكر عن جدهم المذكور في المتن، بأنه كان حاكما لإقليش وقدم خدمة للأمير محمد بن عبد الرحمن حينما عالج له خفي أعتل بعد دعوة الأمير من إحدى غزواته، وسار به إلى قرطبة فأكبر الأمير ضيعه... الدخيرة، ق 4 /م 1/ ص 142. وتبعه ابن سعيد في المغرب، ج2، ص 11. أما ابن عذاري فيقول:" ولم يكن لهؤلاء القوم نباهة قديما ولا ذكر إلا في دولة ابن أبي عامر" ص 177. ونحن نميل لرأي ابن بسام، لأنه الأقرب زمنيا إلى عصر الطوائف ممن ذكرنا من المؤرخين، كما أنه ينقل عن ابن حيان، شيخ المؤرخين الأندلسيين، الذي عاصر دويلات الطوائف، وكتب عنها وكان شاهد على أحداثها .

بن أبي عامر ظهر عبد الرحمن المضراس وابنه اسماعيل وخدما في ظل الدولة العامرية، " حتى أنهم تقدموا في دولته واشتهروا فكان منهم من يقود الجيوش، ويلي الأعمال والبلاد، وكان منهم في آخر أمد الجماعة وآل بكورة شنتي برية(Santaver)"[1]. فلما انقرضت الدولة العامرية لحق بالنفر وجمع إليه بني عمه، وخطب من سليمان المستعين ولاية إقليس فولاه إياه بعد قيام الفتنة، ثم استولى على قلعة قونكة بعد وفاة أميرها واضح العامري، إسماعيل فضبطها منتظر ابن عمه من يجتمع عليه الناس[2].

وفي وقت قيام الفتنة كان الوالي علي طليطلة وذواتها عبد الرحمن بن منيوة، فلما مات ورثه ابنه عبد الملك على عرش طليطلة، فأساء السيرة في الرعية، وكان أهل طليطلة لما يقول ابن عذارى:" على قديم الدهر أهل فتنة وقيام على الملوك". فلم يرضوا سيرة هذا الوريث وخلعوه، وولوا غيره ثم خلعوه، ثم رأوا أن يرسلوا إلى ابن ذي النون لشنت برية، فوجه إليهم ابنه اسماعيل، فاستولى على ملك طليطلة وبلادها فساس أهل مملكته السياسة الحسنة ورضوا عليها.[3]

وفي حوادث متشعبة ومتسارعة، وبعد الأحداث التي عصفت بقرطبة وانهيار السلطة المركزية، دفعت بإسماعيل الذي تلقب بالظافر إلى إعلان انفصاله عن قرطبة، حتى وصفه المؤرخ ابن حيان بأنه أول من استن سنة العصيان والشقاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن.[4] ورغم ذلك فقد كان حسن السياسة داهية، فقد ساس أهل مملكته سياسته استقاموا عليها، وكان لا يقطع أمر إلا بمشاورة كبير أهل طليطلة الفقيه أبس بكر الحديدي.[5]

فدام حكمه لطليطلة سنوات حتى كانت وفاته عام (1043/435)، فخلفه على حكمها ابنه يحي بن اسماعيل الذي تلقب بالمأمون، وقد اتبع سياسة أبيه في طليطلة، فساسهم السياسة الحسنة، واستطال حكمه ثلاثة وثلاثين عاما، نعمت فيها مملكته بالرخاء والأمن ، وقد اتسعت حتى ترامت شرقا إلى بلنسية.[6]

---

1 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 276.

2 ابن بسام : الذخيرة، ق 4/م1/ ص 142، 143./ عنان :دول الطوائف، ص 96.

3 البيان المغرب، ج3، ص 276، 277/ ابن بسام: الذخيرة، ق 4/م1/ص 142 وما بعدها./ابن الخطيب: أعمال الأعمال، ص 177.

4 ابن بسام: الدخيرة، ق 4 /م 1 /ص 143.

5 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 177.

6 عنان: دول الطوائف، ص 98.

ولكن فترة حكم المأمون تميزت بالصراع بينه وبين جاره ابن هود حاكم سرقسطة من جهة وبينه وبين ابن عباد من جهة أخرى، حتى إنه استعان بملك قشتالة (فرناندو الأول) في حربه على خصومه مقابل الإقرار بسيادته، ودفع الجزية له.[1]

توفي يحي بن دنون عام (467 هـ /1075)، ويقال إنه مات مسموما[2]فتولى الحكم من بعده حفيده وسميه يجي الملقب بالقادر، غير أن هذا الحفيد لم يكن في مستوى فكر وسياسة جده، الذي قسم وظائف الملك قبل وفاته، فجعل الأجناد إلى وزيره ابن الفرج، وأمور الرعايا والمشورة والرأي إلى الفقيه ابن الحديدي ليبلغن كل مبلغ في شد أزره، وتثبيت أمره، نظرا لثقته فيه، ولكن الحفيد يحي خلع الفقيه ابن الحديدي من منصبه، ومكن لخصومه ممن كانوا في السجن إبان حكم حده من قتله، فقتلوه سمة (468 هـ/ 1076 م).

ولكن خصوم الفقيه ابن الحديدي الذي تمكنوا من قتله وأغروا الأمير يحي القادر به لم يكونوا سوى خصوم جده المأمون من قبل، فقد سعوا بفعلتهم إلى تأليب عامة أهل طليطلة عليه،[3] فقد كان مقتل ابن الحديدي فاتحة بلاء كبير عليه.

فقد ثار عليه أبو بكر بن عبد العزيز، كما ضغط عليه ألفونسوا السادس ملك قشتالة، حيث كان يؤدي له جزية كبيرة، كما ضغط عليه ألفونسو السادس ملك قشتالة، حيث كان يؤدي له جزية كبيرة، كما كان جده المأمون من قبل، ولكن ألفونسو هذه المرة أخد يغالي ويشتط في مطالبة المالية، حتى إنه طلب من القادر أن يسلمه بعض حصونه القريبة من الحدود، وقد تسلمها بالفعل كحصن سرية وفتوريةوقنالس، حتى كادت خزائنه تنضب.

اضطر يحي القادر تحت هذه الضغوطات أن يهرب وأهله إلى أحد حصونه الشرقية، وهو حصن وبذة، عام (472هـ)، ومع الفراغ السياسي اضطر أهل طليطلة إلى طلب المتوكل ابن الأغطس صاحب بطليوس ليتولى أمر المملكة، فقبلها مكرها لما يعلم من مخاطرها، ولكنه أنضب خزائنها وكنوزها وكل ممتلكات الملك الغار القادر ابن ذي النون وحكمها لمدة عشرة أشهر،

---

1 المصدر نفسه، ص 98، 99.

2 عنان : دول الطوائف، ص104.

3 المصدر نفسه: ص107،108. ووتفاصيل الحادثة عند ابن بسام : الذخيرة، ق4/م1/ ص151 ، وما بعدها./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص179./ ابن عذاري: البيان المغرب،ج3،ص

واضطر لمغادرتها بعد حصارها من طرف ألفونسو وقواتـه فـي عام (472هـ/ أفريل 1080م)، فدخل القـادر مملكته تحت حمـاية جنـود ألفونسو بعد أن حـاول رعيته منعه من دخولهـا، وكـان ذلك عام (474هـ/1081م)[1]

وكان ألفونسو ملك قشتالة بعيد النظر في سياسته، فقد بقي لمدة طويلة يخرب ضياع طليطلة " وينسف مرافقها ،والجالية أهلها ثاياها ومضايقها، يأسر ويقتل، يحرق وتمثل، وسما السعر، وتفاقم الأمر، وأنكرت الموارد والمصادر. وبلغت القلوب الحناجر.[2]

هكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها، وفي خريف سنة (477هـ/1084م) حاصر ألفونسو المدينة وجد في حصارها لمدة تسعة أشهر كاملة، حتى اضطر عيان طليطلة لإرسال وفد عنهم لطلب الصلح مع ألفونسوا الذي رفض عن طريق وزيره المستعرب (ششند)، وشدد في الرفض، تحت ضغط العامة التي أضناها الجوع والحصار والضغوطات النفسية من آثار الحصار الطويل، اضطروا إلى تسليم المدينة مقابل شروط اتفق عليها ذكرها المؤرخون.[3]

وفي يوم الخامس والعشرون من مايو سنة(1085م/478هـ) دخل قشالة المدينة، واستبتع ذلك استيلاؤه على كل الأراضي والضياع المجاورة لها، أما ملكها القادر بن ذي النون فقد غادرها مع أهله وجماعة كبيرة من طبقته،[4] محملين بالأموال، قاصدا مدينة بلنسية، وضعا نفسه تحت حماية ملك قشتالة" واستقر بها حتى شهر رمضان من السنة نفسها، وقد تملك ابن عائشة قائد يوسف بن تاشفين مرسيه، فاستدعاه أهل بلنسية، وعرضوا عليه مدينتهم، فأقبل إليه نائبه بجيش من اللمتونيين، فكان في استقباله القاضي ابن جحاف والفقهاء وقدر جبوابه، ففر القادر حتى قبض عليه، وأتي به إلى القاضي ابن جحاف الذي أصدر حكما بقتله وتولى هذه المهمة فتى من بني الحديدي القتيل بطليطلة، وطيف برأسه.[5]

---

1 عنان: دول الطوائف، ص108، 109. وتفصيل ذلك عند ابن بسام في الذخيرة، ق4/م1/157 وما بعدها، وكذلك، ص161 وما بعدها .

2 ابن بسام: الذخيرة، ق4 /م1/ص 164.

3 عنان: دول الطوائف، ص112 وما بعدها، وفيه تفصيل للأحداث./ ابن بسام: الذخيرة، ق4/م1/ ص166 وما بعدها./ عبد الله ابن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص102، 103.

4 عنان: دول الطوائف، ص114، 115.

5 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص182.

وانتهى أمر هذه العائلة، لقد كانت لطايطلة مكانة خاصة وقصوى من الأندلس، فهي مركز الدائرة، ووسطة القلادة، تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الإضرار بها قاصيها ودانيها، وفي ذلك يقول بعض الشعراء* بعد سقوطها:

- حثوا مطاياكم أرض أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
- فالثوب بنسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسوب من الوسط[1]

- مملكة بني رزين في السهلة:

حكمت هذه الأسرة منطقة السهلة أو شنتمرية الشرق، وهي مدينة عظيمة في شرق الأندلس[2] والسهلة هي موسطة ما بين الثغر الأعلى والأدنى لقرطبة[3] وقال ابن سعيد: "هي بين مملكة بلنسية وجهات ثغر سرقسطة، وحضرتها مدينة شتمرية.[4]

وتعرف شنتمرية الشرق الإسبانية بمدينة (ALBARRACIN)، وهو تحريف لاسم بني رزين أمرائها أيام الطوائف، وتقع هذه المملكة في جنوبي الثغر الأعلى، وفي شمال شرق الثغر الأوسط، عند منابع نهر خالون، وسميت بشنتمرية الشرق تمييزا لها عن شنتمرية الغرب الواقعة على المحيط الأطلنطي، والتي تشغل مكانها اليوم مدينة (فارو) البرتغالية.[5] ولان السهلة متوسطة بين بلنسية وسرقسطة فقد عدها بعضهم من كور الثغر الأعلى، ولها مدن وحصون.[6]

---

* هو عبد الله بن فرج بن غزلون الطليطلي المعروف بابن الغشال ت 487هـ، حيث كان عافا بالتفسير، وكان شاعرا مفلقا سنيا وكان له مجلس حفيل يقرأ عليه فيه التفسير وكان يتكلم عليه وينص من حفظه أحاديث طثيرة وكان منقبضا متصاونا يلزم بيته، وكان قد استقضي بطلبيرة بعد أبي الوليد الوقشي./ ابن بشقوال: الصلة، ج1، ص239./ ذكره كذلك السيوطي في بغية الوعاة، تحت اسم (ابن الشعال). تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الفكر بيروت ، لبنان، ط1، 2005، ص529. وله ذكر عند المقري تحت اسم ابن العسال، ج4، ص135، وص21./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج6، ص101، 102.

1 ابن بسام: الذخيرة، ق2/م1/ص249، 250./ المقري: نفخ الطيب، ج4، ص352.

2 مؤلف مجهول: أخبار ملوك الطوائف بالأندلس.(نص مجهول مبتور الأول والأخر نشره بروفنسال ذيلا على كتاب البيان المغرب)، ج3، ص307.

3 ابن الأبار: الحلة السيراء، ص232.

4 المغرب، ج2، 427.

5 عنان: دول الطوائف، ص253./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج2، ص100.

6 أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص206.

وقد عرف بنو رزين باسم جدهم الأعلى رزين البرسني، أحد كبار رجال البربر الذاخلين إلى الأندلس في جيش طارق بن زياد، وهو ينتمي لقبيلة هوارة إحدى بطون قبيلة البرانس البربرية الكبرى كما يقول ابن حيان.[1] وحينما تعرض ابن حزم لبيوتات البربر بالأندلس ذكرني رزين أصحاب السهلة[2] وقال عنهم: لأن بني رزين من هوارة بلا شك[3] وقد أكد ابن الأبار هذا الانتماء.[4] وكذلك ابن الأثير حينما ذكر السهلة وملكها عبود بن رزين قال إن أصله بربري.[5]

وكان جدهم أبو محمد بن هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع، قد سما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله، والإمارة بجماعته أسوة بجاره إسماعيل بن دنون[6] فبويع بها سنة ثلاث وأربعمائة وكان من أكابر ناس الترف كان بارع الجمال حسن الخلق جميل العشيرة ظاهر المروءة لم ير في الأمراء أبهى منه منظرا[7] وظاهر من كلام ابن بسام أن هذا مع تعززه على المخلوع هشام لم يخرج عن طاعته[8] ولا وافق منذر وأصحابه على التمالؤ عليه، إلى أن ظفر سليمان بهشام المؤيد المخلوع آخر القوم بقرطبة، فسلك مسلكهم، ورضي منه بذلك سليمان وعقد له على ما في يده لعجزه عنه.[9]

وربما كان حياده من أهم عوامل دوام حكمه، إذ أنه لم يدخل في صراع، ولا تحالف ضد أي طرف كان، أضف إلى ذلك موقع بلاده البعيد عن متناول العدوان، إذا أضفنا إليها جودة أراضي مملكته " فليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته. لاتصال عمارتها"[10] عوامل كلها أسهمت في ديمومة حكمه، مضافا إليها كثرة جبايته، وفرط بخله، حتى كثر ماله، ونافس جاره بن ذنون في جمع المال وفي خلال البخل وفرط القسوة كما يقول ابن الخطيب.[11]

---

1 عنان: دول الطوائف، ص253.

2 جمهرة أسناب العرب، ص4990.

3 المصدر نفسه، ص500.

4 الحلة السيراء، ص232.

5 الكامل في التاريخ، ج7، ص293.

6 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص205./ ابن بسام: الذخيرة، ق3/م1/ص109.

7 ذيل البيان المغرب، ج3، ص308.

8 الذخيرة، ق3/ م1/ ص110.

9 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص205.

10 المصدر نفسه، ص206./ ابن الأبار: الحلة السيراء، ص233.

11 أعمال الأعلام، ص206./ ابن بسام: الذخيرة، ق3/م1/ص111

وقد توفي بعد ثلاثين عاما من الحكم في مملكته الصغيرة عام (436هـ/1045م) بعد عقود كلها مرت أمنا وأمانا واستقرارا في هذه الدويلة.

خلفه في الإمارة ابنه أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين جبر الدولة، ويسمي بذي الرياستين وكان في حياة أبيه يسمى حسام الدولة وقد حكم مملكته هذه مدة ستين عاما.

والظاهر أن شخصية ذي الرياستين لم تلق إجماع رأي عند من ذكروه بين مادح وناقد، فمعاصره المؤرخ ابن حيان يتحامل عليه بشدة، ويصفه بأقبح الأوصاف، وأبشع النعوت في نص شهير حيث يقول فيه:" وكان سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلا لا متجاهلا، وخاملا لا متخاملا، قليل النباهة، شديد الإعجاب بنفسهن بعيد الذهبة بآمره، زاريا على أهل عصره..."[1]
بينما أعجب به الفتح بن خاقان ومدحه وأثنى على دولته خيرا.[2] كما أثنى عليه ابن الأبارالقضاعي، الأبارالقضاعي، وأشاد بتواضعه قائلا: " وكانت له بخدة وصرامة وإقدام، قرب جنده من نفسه، وتحبب إليهم واختلط بهم، حتى كان لايمتاز منهم في مركب ولا ملبس[3] أما ابن عذاري فقد نقل قولين لابن بسام: الأول في ذكر بعض صفاته السلبية والثاني في وصف شاعريته، وبأنه كان شاعرا جيدا.[4] ، وكذلك صنع الصنيع نفسه صاحب المطرب حينما أثنى عليه وعلى أدبه.[5] وكذلك ابن العماد الأصبهاني".[6]

حكم ذو الرياستين عبد الملك بن هذيل واستطالت سني حكمه بعيدا عن الصراعات في زمنه، ولكنه كان يؤدي الضريبة إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة أسوة بإخوانه من ملوك الطوائف، ورغم أنه امتنع عن أدائها بعد معركة الزلاقة الشهيرة، لكنه عاد إلى دفعها بعدما أحس بخطر

---

1 ذيل البيان المغرب،ج3،ص309، 310.

2 قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين يوسف خربوش، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ص157 وما بعدها.

3 الحلة السيراء، ص235

4 البيان المغرب، ج3، ص184.

5 ابن دحية الكلبي، ص47.

6 خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج3، رقم222.

السيد القمبيطور ومرتزقته، حينما اقتربوا من سهلته، فسعى بنفسه لمسالمته. ودفع له في الحال عشرة آلاف دينار بصفته نائبا عن الملك.[1]

وفي أوخر حكمه وقد بلغ من الكبر عتيا. حاول صهره (زوج أخته) عبيد الله القائم بأعمال أذكون الواقعة شمال شرق العاصمة، اغتياله في خطة مدبرة، بعد أن دعاه لحفلة أقامها مع جماعته، منهم أبوعيسى بن لبون، حاكم مربطير، هذا الأخير الذي سلم له حصنه عام (486هـ/1092م) بعد تهديد من السيد القمبيطور ومرتزقته، فأدخله إلى سهلته وتحت حمايته.

وجرى الحفل، ولما اشتد الشرب بعبد الملك، وقع عليه صهره وجماعته فأثخنوه بالجراح فصاحت أخته وهي زوجة عبيد الله مدبر الاغتيال، فدخل العامة وجماعته، فلما استفاق بعد أيام من جرحاته، قضى حكمه في مدبري الاغتيال في خبر ذكره بعض المؤرخين.[2] وقد توفي عبد الملك في سنة (496هـ/1103م) بعد حكم طويل، ثم خلفه ابنه يحي الملقب بـ"حسام الدولة"، وقد شنع عليه المؤرخون وهزأوا به، وذكروا له صفات لا تناسب حاكم مملكة ولو صغيرة بحجم مملكته (السهلة)."

فقد كان مدمنا للحمر، مكثرا من الغثيان، ضعيف العقل، وبلغ من ضعفه وسفهه، أنه أهدى لأنفونسو ملك قشتالة هدايا جليلة من الحلي والحلل والخيل والبغال وتحف الملوك يعجز عنها الوصف، حتى أعجب ألفونسو بهديته، فكافأه عليها بقرد، فمازال يفخر بذلك القرد على سائر ملوك الطوائف، ولم يزل على سخفه وخذلانه حتى خلعه المرابطون عام (497هـ) بعد دخولهم المدينة، وبعد سنة واحدة من الحكم".[3]

---

1 دول الطوائف،ص256، 257.

2 ابن الأبار: الحلة السيراء، ص235، 236./عنان: دول الطوائف، ص258.

3 ذيل البيان المغرب، ج3، ص310، 311.

د - الفتيان العامريون:

- مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية:

تقع مملكة دانية في شرق الأندلس، وهي قاعدة بحرية كبيرة، ذات موقع حصين، ولها من الخصائص ما يميزها عن سائر المدن الأندلسية الأخرى، وقد ساعدت عوامل على بنائها، منها الاستقرار النسبي الذي عرفته مقارنة مع باقي دول الطوائف الأخرى، إذ انها بعيدة عن مطامع ساسة قشتالة التي كانت تهدد الممالك الأندلسية.

أما الجزائر الشرقية المعروفة باسم (جزر البليار)، فتتكون من أربع جزائر وهي:" منورقة، وميروقة وهي أكبرها، وبها مدينة ميروقة وهي عاصمة الجزائر كلها، ويابسة ،وفرمنيرا وهي أصغرها."[1]

بعد نشوب الفتنة وانهيار السلطة المركزية في العاصمة قرطبة، وقع شرق الأندلس كله من نصيب الفتيان العامريين، فخضعت مدينة دانية لسلطتهم مثل باقي القواعد الشرقية، فتولى حكمها إلى جانب الجزائر الشرقية الموقف أبي الحسن مجاهد العامري.[2]

كان هؤلاء الفتيان هم عدة جيش المنصور كلها ذكرنا سابقا." من الصقالبة أو من أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد والايطاليين والجلالقة وأهل البلقان وغيرهم".[3]

وكان مجاهد هذا من أشهر الفتيان العامريين أما اسمه كما ذكر ابن الآبار فهو أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري.[4] وقد اختلف بعض الشيء في أصله، مِن قائل أنه رومي

---

1 عنان: دول الطوائف، ص189. وحول جغرافية دانية والجزائر الشرقية ينظر المصادر الأتية: بالنسبة لدانية: لها ذكر عند البكري: المسالك والممالك،ج2،ص380./الحميري: الروض المعطار 231، 232./ الإدريسي: نزهة المشتاق،ج2،ص557، 558./شكيب أرسلان: الحلل السندسية،ج3،ص292 وما بعدها، وفيه أقوال موسعة للجغرافيين العرب حول دانية، وكذلك، المصدر نفسه ج1،ص110 ./ بالنسبة للجزائر الشرقية: ميورقة: لها ذكر عند البكري في المسالك والممالك ج2، ص382./ الحميري: الروض المعطار.567، 568./ الإدريسي: نزهة المشتاق،ج2،ص582./أرسلان: الحلل السندسية، ج1،ص51، ص209. ولها ذكر عنده في جزء ثاني من الكتاب في صفحات متفرقة./ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب،ج2،ص466./ منورقة: لها ذكر عند البكري في المسالك،ج2،ص380، 382./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص582، 584 والحميري: الروض المعطار،ص549./ابن سعيد: المغرب، ج2، ص469./ يابسة: الادريسي: نزهة المشتاق، ج2،ص582./ ابن سعيد: المغرب،ج2، ص470./ الحميري: الروض المعطار،ص616./ أرسلان: الحلل السندسية، ج1،ص147، 148.

2 ابن الاثير: الكامل، ج7،ص293.

3 عنان: دول الطوائف، ص188.

4 الحلة السيراء،ص241.

الأصل[1] أما الحميدي فقد أكد على انه من الموالي العامريين وأنه مولى عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر.[2] وقد أكد ذلك ابن بسام حينما قال:" إنه من غلمان بن أبي عامر."[3] وكذلك ابن عذاري بقوله:" وكان من فحول بن أبي عامر."[4]

وكان مجاهد قد تملك أولا الجزائر الشرقية بعد سقوط دولة بن أبي عامر، فلما صح عنده وقوعها خرج إلى دانية وضبطها وجميع أعمالها المنضافة إليها ونسمى بالموفق بالله.[5]

وصف مجاهد بأنه من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم وأهلها.[6] فقد كان يباين سائر ملوك الطوائف في زمانه بخلال من الفضل، من أشفها العلم والمعرفة، اللذان لم يكن في الأحرار ولا في الموالي أثبت قدما منه فيها.[7] أم معاصره المؤرخ ابن حيان فقد قال عنه:" كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن.[8] قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره.[9] إلا أنه قد يميل عن هذه الخلال في بعض الأحيان كما يذكر المؤرخون.[10]

وما يحسب له كذلك أنه غزا سردانية (الجزيرة) واقتحمها في مائة وعشرين مركبا حمل فيها ألف فارس ففتحها وضرب على بعض ملوكها جزية.[11] بعد أن غلب على أكثرها وافتتح معاقلها في سنة ست أو سبع وأربعمائة.[12]

---

1 عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص56.

2 جذوة المقتبس: ص320.

3 الذخيرة، ق3/م1/ ص22.

4 البيان المغرب، ج3، ص155.

5 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص155./ الحميدي: جذوة المقتبس، ص320.

6 الحميدي: الجذوة، ص320.

7 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص217، 218.

8 ابن بسام: الذخيرة، ق3/م3/ ص23.

9 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص218.

10 المصدر نفسه، ص218، 219.

11 المصدر نفسه، ص219.

12 الحمدي: الجدوة، ص320، وعن غزو سردينية من قبل مجاهد قال ابن الأثير في الكامل: " أنه غزاها في مائة وعشرين مركبا بين كبير وصغير، ومعه ألف فرس ففتحها في ربيع الأول سنة 446هـ" ج7، ص293. وهنا يقع اضطراب في التواريخ إذ كيف يعقل أن يفتح مجاهد سردينية في سنة المذكورة وقد توفي قبلها عام (436هـ، 1044م) وذكر الباحث سعد البشري نص ابن الأثير من دون التعليق عليه، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص97. والغريب في الأمر أن ابن الأثير ذكر وقائع فتح مجاهد العامري سردينية ضمن حوادث سنة (407هـ)، وهو التاريخ نفسه الذي ذكره الحميدي من قبل في الجذوة، وهو أندلسي ومعاصر لهذه الأحداث في القرن الخامس الهجري، ونحن نعتقد بأنه وقع خطأ أو تصحيف من قبل النساخ لنص ابن الأثير في الكامل.

فكان فتحه لها أول فتح إسلامي لهذه الجزيرة، بعد أن غزاها العرب لأول مرة سنة (711م) أيام موسى بن نصير.[1]

توفي الموفق بالله مجاهد العامري بدانية سنة ست وثلاثين وأربعمائة للهجرة (436هـ) وقد قام بالأمر بعده ولده علي بن مجاهد المسمى " إقبال الدولة" وقد كان أسر في إحدى غزوات والده في سردانية وسنه وقتذاك سبع سنين، إلى أن تهيأ فكاله سنة (423هـ) ووصل إلى جزيرة ميورقة، ثم إلى دانية، وهو فتى كاهل، فعرض عليه والده الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، وختنه على كبر سنه فأصابه مرض شديد.[2]

دخل علي (إقبال الدولة) في صراع مع أخيه الحسن، الذي لم يكن راضيا عن ولاية عهد أخيه فحاك له المؤامرات، مع المعتضد بن عباد وكان زوج أخته فيفباءت هذه المحاولة بالفشل، ثم في محاولة ثانية مع زوج أخته في بلسية عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وفشلت الثانية كذلك، حيث بقي هناك إلى أن توفي.[3] ومما يحسب لإقبال الدولة، أنه أنقد أهل مصر من مجاعة شديدة أصابتهم عام (446هـ)، فوجه إليهم مركبا مملوءا بالطعام، فعاد إليه المركب مملوءا مالا وذخيرة.[4]

وكانت نهاية حكم (إقبال الدولة) على يد جاره وصهره المقتدر بن هود بعد أن حاصر المقتدر دانية حصار طويلا، مسألة إقبال الدولة الأمان له ولأهله وولده، فوافق ابن هود، كان ذلك عام (468 هـ)*، ونقله إلى سرقسطة، وأقطعه إقطاعا يمونة و يقيم ويقيم أوده، حتى توفي هنا عام (474هـ/ 1082م).[5]

1

2

3

4

* يقول ابن الأثير:" ثم إن دانية وسائر بلاد بني مجاهد صارت إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود في شهر رمضان سنة (478 هـ)" الكامل، ج7، ص 293.

5 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 222./ عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص 103، 104، وانظر تفاصيل حصار ابن هود لدانية عند ابن بسام في الذخيرة، ق 4 م 1، ص 265 وما بعدها.

- مبارك ومظفر العامريان وحكم بلنسية*:

قال ابن بسام في الذخيرة أن مبارك ومظفر العامريين، قد توليا وكالة الساقية في بلنسية على عهد الوزير عبد الرحمن بن يسار الذي كان واليا عليها، ويظهر أن الفتنة التي أصابت الأندلس في بداية القران الخامس الهجري، قد كان لها تغيرات كثيرة من النواحي السياسية، فأصاب مبارك حكم بلنسية واشترك مع صديقه مظفر في حكمها، لا يتميز أحدهما عن الآخر في عظم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفراش ومركوب وآلة ولا ينفردان إلا في الحرم خاصة.[1]

ويبدو من كلام ابن بسام أن دولتهما كانت موئلا لمن أبق من العبيد، حيث نزع إليها كل شريد وطريد، وربما كانت سلطتها معضدة بالأموال وفاخر الأسلحة والآلات، والخيل المقربات، ونفائس الحلي والحلل، وهذا راجع لكثرة الجباية والخراج المفروض على رعيتهما، حتى تساقطت هذه الرعية وجلت أولا فأولا[2].

وجرت بين مبارك ومنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة قبل أن يستولي عليها بنو هود، بعد ما لاذ به لبيب الصقلبي العامري صاحب طرطوشة، وكانت الغلبة فيها لمبارك وجنده.[3]

توفي مبارك بعد أن سقط من صهوة جواده بعد تعثره في قنطرة خشبية قرب مملكته فمات في حينها ، فانتهبت العامة قصره وقتل مظفر وانتهت أيامهما.[4]

---

* حول جغرافية بلنسية ينظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2،ص556/الحميري، الروض المعطار، من ص 97 إلى ص 101/ شكيب أرسلان: الحلل السندسية،ج1 ص 109 وفي المصدر نفسه مفضلة، ج3 ص 44 وما بعدها، وفي الجزء نفسه، ص 211 وما بعدها.

1 ابن بسام، الدخيرة، ق 3 ، م1، ص 14، 15 ابن عذارى: البيان المغرب.ج3، ص 158 وما بعدها، وقد نقل حرفيا عن طريق صاحب الذخيرة/ ابن الخطيب : الإطاحة في أخبار غرناطة، ج3، ص 220.

2 الذخيرة، ق3، م1، ص15، 16.

3 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 226.

4 المصدر نفسه: ص 225/ابن عذاري: البيان المغرب، ج3 ، ص163، / ابن بسام: الذخيرة، ق3، م1، ص20.

- الفتيان خيران وزهير العامريان وحكم ألمرية:

كانا من أهم العامريان وأشهرهم بعد الدولة العامرية، وكان خيران مع الفتيان الصقالبة ممن ناصروا الخليفة هشام المؤيد وأرادوا تثبيت خلافته وإبعاد خصومه، ولكن كفة البربر الداخليين مع المستعين إلى قرطبة قد مالت لصالح هؤلاء -أي البرابرة – فانثروا – أي الفتيان إلى شرق الأندلس.[1]

سار خيران إلى أوريولة في شرق الأندلس فاستولى عليها ثم وثب منها على مدينة مرسية عاصمة تدمير فأخضعها لسلطانه عام (403 هـ)، وخرج منها بقواته إلى ثغر ألمرية، وكان عليها أفلح الصقلبي، فقتله خيران وولده، ثم استولى على المدينة عام (405 هـ/ 1014)[2] ومن ثم أصبحت ألمرية قاعدته الأساسية ومركز عدته وعديده.

أحسن خيران ضبط مدينة ألمرية وتحصين قصبتها، واتخذها قاعدة لسلطانه واستوسع فيما يليها من الأعمال، " كذلك أهتم خيران بالزيادة في جامع ألمرية وتوسعته، فأضاف في قبلته سنة 416 هـ زيادة اتسع لها الجامع"[3] واستعان في تسيير شؤون مملكته بوزيره أحمد بن عباس.

كان خيران محمود السيرة حسبما ذكره المؤرخون متواضعا، مقتصدا في سيرته وجرت بينه وبين من يجاوره من أمراء صنهاجة بكورة إلبيرة حروب، فلم يفلوا صرمة كما يقول ابن الخطيب[4]، توفي خيران عام (419 هـ) فقام بالأمر بعده الفتى زهير العامري نحوا من عشرة أعوام كما ذكر ابن عذاري[5].

حالف زهير حبوس بن ماكسن صاحب غرناطة، ودام ملكه إلى أن مات حبوس ، وولى ولده باديس فاستصغره زهير ونهض لأخذ غرناطة من يده وكانت الدائرة عليه، وقتل في المعركة[6] مع كل عساكره فلم يوجد زهير حيا ولا ميتا، وظفر بكاتب زهير ابن عباس فقتله شر قتلة لدوره في الفتنة والتحضير.[7]

---

1 ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 210.

2 عنان: دول الطوائف، ص 159/ ابن الخطيب: اعمال الأعلام ، ص 211.

3 السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية، دار النهضة العربية بيروت، ط1، 1969، ص 61.

4 أعمال الأعلام، ص 211، 212.

5 البيان المغرب، ج3، ص 166/ ابن سعيد يحدد تاريخ وفاته عام (418 هـ)، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 194.

6 ابن سعيد : المغرب، ج2، ص 194، 195.

7 عبد الله بن بلقين: التبيان (تحقيق الطيبي)، ص 70، 71./ ابن عذاري: البيان المغرب ، ج3، ص67.

ولما وصلت أخبار هزيمة زهير وجنوده إلى ألمرية، أسند أهل المدينة أمرهم إلى شيخهم أبي بكرين الرميمي فأحسن ضبطها إلى أن كاتبوا عبد العزيز بن أبي عامر بن بلنسية حيث دخل ألمرية وولى عليها صهره معن بن صمادح التجيبي.[1] الذي نقض عهد عبد العزيز بن أبي عامر ، وانثرى عليه فيها ودعا لنفسه سنة (433 هـ)،[2] وهنا يبدأ عهد ألمرية الذهبي مع حكم أشرة بني صمادح العربية السابق ذكرها.

بيد أن المدينة الثانية من حيث الأهمية عند العامريين (خيران وزهير) هي مرسية، فقد كان قائما على شؤونها واليها أبو بكر أحمد ابن اسحاق بم طاهر منذ حكم زهير العامري، حيث ضبطها وسار في اهلها سيرة حسنة، حتة وفاته عام (455هـ/ 1063 م) بعد أصابته بمرض الفالج وقد أعتل طويلا[3]،فخلفه في حكم مرسية ولده (أبو عبد الرحمن بن طاهر) وقد كانت مرسيةأنذاك تابعة لبلنسية أسما على الأقل، أو تدين بطاعتها، ولكن بعد وفاة عبد العزيز المنصور (452 هـ/ 1061م) صاحب بلنسية خلفه ابنه عبد الملك المظفر، وقد أكمل سيرة أبيه في إقرار آل طاهر الحكم على مرسية لعلو كعبهم في الآداب وقرض الشعر وحسن السيرة لدى العامة والخاصة.

ولكن بلنسية سقطت في أيدي القشتاليين بعد موقعة بطرنة عام(457هـ / 1065 م)، وبعد ارتحال القشتاليين عنها، دخلها المأمون بن ذي النون صهر عبد الملك (زوج ابنته) وضمها إلى أعماله في مملكة طليطلة[4]، هنا انتهز أبو عبد الرحمن بن طاهر الفرصة واستقل عن حكومة بلنسية واستمر واستمر حكمه فيها زهاء خمسة عشر عاما كانت كلها أمانا ورخاء واستقرار ولكن مع بروز أطماع ابن عباد وبإيعاز من وزيره ابن عمار الذي تحذوه رغبة جامحة في الاستقلال بحكمها، حاول اقتحامها، ورغم فشل المحاولة الأولى، فقد نجح في الثانية مع قائد جيش المعتمد ابن رشيق الذي حاصرها، فأرهق حصاره أهلها حتى سقطت عام (471 هـ / 1078 م).[5]

---

1 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 167/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 217.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص 167.

3 ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 236.

4 عنان: دول الطوائف، ص 177، 178.

5 المصدر نفسه، ص 180، 181. / ابن بسام : الدخيرة ، ق3/ م1/ ص 25، والصفحات التي بعدها وفيها ترجمة مطولة وأخبار وافية وافية عن أبي عبد الرحمن بن طاهر.

هـ - دويلات أخرى صغيرة:

ليست هذه هي ممالك الطوائف فقط التي ذكرنا، وإنما هناك ممالك ودويلات أخرى كثيرة لم تبلغ من القوة ما بلغت هذه الدويلات السالفة الذكر، ولم يكن لها أثر كبير يذكر على الساحة السياسية الأندلسية ، كدولة بني بزرال في قرمونة وإستجة والمدّور[1] ، أو دويلة بني يفرن في تاكرتا وعاصمتها رندة[2]أو دويلة بني دُمّر في مورور أو مورون[3] ،أو دويلة بني خزرون في أركش[4] أو بني يحي في لبلة[5] والبكري ومملكة ولبة وشلطيش[6] وشنتمرية الغرب وحكم بن هارون فيها[7] أو دويلة الحاجب عيسى بن محمد وإمارة شلب وباجة[8] ، وغيرها من الدويلات الأخرى[9].

وقد زالت هذه الدويلات من الخارطة السياسية الطائفية الأندلسية، ولم تصمد أمام الدويلات الطائفية الكبرى، كمملكة العبابدة في إشبيلية، أو بنو الأفطس في بطليوس ، أو بنو ذو النون في طليطلة، وغيرها.

ونحن نريد أن نستجلي مواقف الطبقة المثقفة ، المتمثلة في العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ممن كانت لهم كلمة مسموعة في الرعية والطبقة الحاكمة على حد سواء، من تصدع الوحدة السياسية للأندلس في القرن الخامس الهجري، ومن دخوله المرابطين التي أجلت هذه الممالك.

---

1 أخبارهم عند ، ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص267 وما بعدها/ ذيل البيان المغرب،ج3، 311، 312/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الصفحات، 366، 337، 338/ عنان دول الطوائف، ص 148 وما بعدها.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3 ، ص 270 وما بعدها/ ذيل البيان المغرب، ج3 ، الصفحات 312، 313، 314/ لهم ذكر عند ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص 239 / عنان دول الطوائف ، ص 152، 153.

3 بالإسبانية (MORO'N)، وأخبارهم عند ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 113، 214، 215، 268، 269/ ذيل البيان المغرب، ج3، ص 295، 296/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 239/ عنان : دول الطوائف، ص 114، 115.

4 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 272،271 / ذيل البيان المغرب. ج3، ص 294، 295/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الصفحات، 238، 239، 240 /عنان : دول الطوائف: ص 155، 156.

5 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، الصفحات 193، 209، 201، 211، 234، 240، 241 / ذيل البيان المغرب. ج3، ص 299، 300، 301/ 301/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 210 /عنان : دول الطوائف: ص 40 وما بعدها.

6 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، الصفحات 240، 241، 242 / ذيل البيان المغرب. ج3، ص 299./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ص 210 /ابن الأبار: الحلة السيراء، ص269 و ما بعدها./عنان : دول الطوائف: ص 43.

7 ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 182/ذيل البيان المغرب، ج3، ص 298، 299/ عنان، دول الطوائف، ص 43.

8 ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص192، 193./ذيل البيان المغرب،ج3،ص296، 297./ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 209./عنان:دول الطوائف،ص44.

9 ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 209، 210، بالإضافة إلى المصادر التاريخية الأخرى التي ذكرت هذه الدويلات.

I -2 -3 - المبحث الثالث: مواقف العلماء والفقهاء والشعراء من تصدع الأندلس:

عانت الرعية (في غالبها) من ضروب الاضطهاد السياسي، والقهر الاجتماعي من قبل ممالك الطوائف" وتعرضت لضروب من التنكيل والتعسف، ومن هذه الضريبة ومن غيرها من طرق الجباية ما يوفر للأمراء ما يسدون به الثغرات"[1] : أما هذه الثغرات فهي الضريبة التي كانوا يؤدونها لرؤساء الممالك المسيحية الشمالية، وخاصة مملكة قشتالة بزعامة ألفونسو السادس، وكذلك ما يوفر لهم الحياة الرغدة من بناء القصور واقتناء فاخر الثياب والأثاث وسائر ملذات الحياة الناعمة.

وهذا شيء طبيعي أن يكون كل على حساب الطبقات الوسطى" كل ذلك دفع ملوك الطوائف إلى فرض الزيادة في الضرائب كوسيلة لمواجهة الضغوط الخارجية أو على الأقل حصرها مؤقتا"[2]

كان ابن خلدون يعتقد أن الضرائب غير الشرعية كانت ميزة لا مفر منها لتطور الدولة، ويضيف مستنتجا أنه كلما كبرت السلالات، كلما تبنوا أنماطا جديدة من الرفاهية وتطلبوا المزيد من الثروة، ولذلك فإن الوالي يبتدع أنواعا جديدة من الضرائب يفرضها على التجارة ويفرض المكوس على الأسعار المحققة في الأسواق، وعلى أنواع البضائع المستوردة على أبواب المدينة، وفي الواقع ذكر ابن خلدون بوضوح أنّ ممالك الطوائف الأندلسية تمثل هذا النمط.[3] لقد كانت الدولة تشكل تشكل عبئا ثقيلا على كاهل المجتمع الأندلسي الذي خضع لضرائب ثقيلة ومتزايدة، وكان هذا الحمل أثقل على العامة منه على غيرها،[4] أما حال الملوك ورعيتهم بشكل عام فقد لخصها ابن بسام بسام قائلا :" فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة والرعية مهملة"[5] يستوي في ذلك كل الملوك بلا استثناء سواء أصحاب الممالك الكبيرة كإشبيلية وطليطلة وغرناطة وبطليوس، أو الممالك الصغيرة كسهلة بني رزين، أو قرمونة بني برزال وغيرهم.

---

1 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي،(عصر الطوائف والمرابطين)، ص 41.

2 أمحمد بن عبود: جوانب من الوقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص 21.

3 نقلا عن أوليفيار يمي كونستنبل، التجارة والتجار في الأندلس، ص 202، 203، وحول أنواع الضرائب يراجع المصدر نفسه، ص 43، 44، 97، 98.

4 أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص 21.

5 الذخيرة، ق2/ م1/ ص254.

وقد احتفظ ابن بسام في ذخيرته ببعض النصوص التي تشير إلى مدى حجم الضغوط التي عاشها ملوك الطوائف في سبيل تحصيل الضرائب من رعيتهم كرقعة المعتمد بن عباد التي خاطب فيها بعض قواد مملكته بحثهم فيها على تحصيل الضرائب، قائلا:" الحال مع العدو – قصمه الله - بينة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف، معروفة لا تفتقر إلى نعت ولا وصف، ومن لا يمكن مقواته ومخاشنته، فليس إلا مداراته وملاينته..."[1] وله في أخرى – أي المعتمد كتبت بأحد بيوت الإشراف – خوطب بها العمال ، في استعجال قبض تلك الأموال.[2]

حاول كثير من العلماء والفقهاء والأدباء، وأهل الفضل والتقوى نشدان الوحدة السياسية واجتماع كلمة المسلمين لدى هؤلاء، كحال الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي، الذي عاد إلى الأندلس بعد رحلته العلمية الشهيرة إلى العراق، فآلمه ما رآى من تمزق سياسي، فحاول ساعيا لدى ساستها وأمرائها" فرفع صوته بالإحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما انبص من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعا واعية، بل نفخ في عظام نخرة، كما يقول ابن بسام[3].

كما أن بعض العلماء من كرّس علمه لخدمة المشروع الوحدوي الأندلسي، وابن حزم خير مثال على ذلك،" حيث كان مشروعه حقيقة يستهدف تحقيق وحدة الأندلس التي تمزقت في عصر ملوك الطوائف وإعادة الخلافة الأموية التي وزر هو وأبوه من قبل لها، فكان مذهبه من ثَمّ بمثابة إيديولوجية توحيدية تستهدف أمراء الطوائف ومن دار في فلكهم من الفقهاء المالكية، هذا فضلا عن بعد إصلاحي اجتماعي فحواه إقرار العدالة التي انتهكت على يد الأمراء والفقهاء في آن"[4]. فإسهامات ابن حزم المعرفية إذن كانت خدمة لمشروع سياسي اقتصادي اجتماعي نهضوي استهدفت تحقيق وحدة الأندلس تحت راية أموية، وإصلاح ما أفسده الدهر بعد تشرذم الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وفي هذا الصدد كُرّس الفقه والتاريخ معا من لدن ابن حزم لتحقيق مشروعه

---

1 الذخيرة، ق2/ م1/ص 252.

2 المصدر نفسه، ص 252، 253.

3 الذخيرة : ق1/2/ص95 /ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 227.

4 محمود إسماعيل : إشكالية المنهاج في دراسته التراث، ص 21 ،22.

الطموح."[1] ولكن الفقيه باءت كل محاولاته بالفشل ومات زاهدا منتكسا في إحدى مدن الأندلس، بعد أن اعتزل كل شيء عام (456 هـ).

ولا طالما ثار العلماء والفقهاء أو حتى الأدباء والشعراء في وجوه ملوك الطوائف ناصحين لهم أو زاجرين، كما صنع أبو إسحاق الإلبيري مخاطبا باديس بن حبوس صاحب غرناطة وتنبيهه إلى سطوة اليهود على مفاصل الدولة، ونظم قصيدة في ذلك شهيرة[2] فكان من نتائج ذلك ثورة مسلمي غرناطة ضد اليهود ونفوذهم[3].

ولم تكن حظوظ الناصحين من أهل العلم والفهم متساوية، فكتب التاريخ تحدثنا عن أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني(392هـ -460 هـ) الذي حض المعتضد بن عباد على الجهاد بعد مأساة بربشتر عام (456 هـ)، فاستدرجه المعتضد إلى ملحده وقضى عليه.[4]

أما الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالسميسر فلطالما انتقد رؤساء الطوائف والمنتزين بأعمالها في أبيات شهيرة أوردها ابن بسام في الذخيرة[5] وقلل في الأمير عبد الله بغرناطة وقد رآه يحصن على نفسه:

- يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير[6]

وقد عرفت غرناطة بعلمائها وفقهائها وشعرائها،وشراسة دفاعهم عن مصالح المسلمين ، فقد عرف عن الفقيه والقاضي والمقرئ أحمد بن خلف بن عبد الملك الغساني القليعي(498هـ) بمعارضته لسلطات مملكة غرناطة، حتى إن باديس بن حبوس أمير غرناطة كان يتفرس فيه أن ملك دولته ينقرض على يديه[7] . ولما أجاز يوسف تاشفين إلى الأندلس لإنقاذها من السقوط في ثاني حركاته

---

1 محمود إسماعيل : إشكالية المنهاج في دراسته التراث، ص 16، 17.

2 ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص 231 وما بعدها.

3 المصدر نفسه ، ص 233.

4 ابن بسام الذخيرة، ق1/2/ص83 ، ورسائله وأشعاره في الحض على الجهاد في المصدر نفسه، ص 83 وما بعدها/ ابن سعيد: المغرب ، ج1، ص239، 240.

5 ابن بسام: الذخيرة ،ق1/2/ص 885.

6 المصدر نفسه، ص887/ المقري: نفح الطيب، ج3 ص 412.

7 ابن الخطيب: الإطاحة في أخبار غرناطة، ج1، ص 45.

قابله هذا الفقيه إضافة إلى عبد الله بن بلقين حفيد باديس المذكور، فلما رآى تعلق العامة به وقد كان مهابا سجنه في قصره، فانقطع للعبادة وتلاوة القرآن حتى ارتجت حجرات القصر، فخافت أم الأمير عبد الله على ولدها من دعواته فأطلق سراحه[1] وقد توطدت العلاقة بينه وبين يوسف أمير المرابطين منذ ذهابه في أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان أحد أعضائها وكان يرى في الأمير يوسف صلاحا وعدلا وحزما.[2]

كما توجهت وفود مؤلفة من قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة، ووزير إشبيلية أبي بكر بن زيدون إلى إفريقية ، وقابلوا يوسف بن تاشفين واستصرخوه لنجدة الأندلس فأجابهم إلى ما طلبوا.[3]

لقد كان الفقهاء يعتقدون أن سبب اضمحلال البلاد إنما هو انصراف الطوائف عن الدين وحدوده، فأملوا لهذا، أن تصلح الحال إذا استعانوا بالمرابطين... كما أن جمهور الناس قد ألحقوا في استقدام المرابطين[4]، حتى إن قلوب أهل الأندلس، قد أشربت حب يوسف وأصحابه كما يقول صاحب المعجب[5]، وخاصة بعد واقعة الزلاقة حيث أظهر أهل الأندلس التيمن بأمير المسلمين والتبرك به، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاد طعمه فيها[6] فاستصدر من الفقهاء فتوى بعدم صلاحية هؤلاء الأمراء، والملوك للحكم، وضرورة عزلهم، ولم يلبث الأندلس جمعيه أن دخل في دولة المرابطين.[7]

ولما دخل ابن تاشفين الأندلس هلل كثير من الشعراء لذلك، لأنه أخر سقوط أندلسهم ، ولأنه رفع المغارم التي وضعها ملوك طوائفهم على الرعية من قبل.

سواء من علماء المغرب أو الأندلس أو المشرق، فيوسف بن عيسى الملجوم أبو الحجاج العالم الفاسي قد أفتى ليوسف بوجوب الجهاد ضد ملوك الطوائف[8]، وحين ورود رسالة الاستغاثة من المعتمد بن

---

1 ابن الخطيب: الإطاحة في أخبار غرناطة، ج1ص 45 ،46.

2 محمد علي الصلابي، : تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2005، ص 122 ،123.

3 بالانيثا: تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 34.

4 المصدر نفسه ص 33.

5 المراكشي، ص 98.

6 المصدر نفسه، ص 96.

7 بالانيثا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 34/ مثال ذلك الكتاب الذي أرسله أبو بكر العربي المالكي إلى أبي حامد الغزالي يشرح فيه موقف ملوك الطوائف من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، فأيد أبو حامد جواز يوسف وضم الأندلس إلى مملكته.(فتوى الغزالي والطرطوشي عند ابن خلدون في العبر)،ص6.

8 أمحمد جبرون: الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري ، ص 187، 188.

عماد إلى يوسف بن تاشفين، انتشار يوسف الكاتب عبد الرحمن الذي كان في خدمته، فأشار عليه بالجواز مقابل حصوله على الجزيرة الخضراء[1].وكان رسول يوسف بن تاشفين إلى الخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر العربي الإمام المشهور.[2] والذي لم تعرف له مشاركة في العمل السياسي غير ما قام به والده في المشرق من دعاية للمرابطين وما حمل معه من توقيع من الخليفة العباسي ليوسف بن تاشفين، ورسالات والتعضيد له من الوزير أبي جهير[3] بل إن أبا بكر بن العربي قام بين يدي الخليفة العباسي بمرافعة قوية وهو يطلب التقليد[4]، وأنثى على المرابطين وعلى الأمير يوسف في تأليفه لعارضة الأحوذي في شرح سنن الترميذي، في رسالة نشرها صاحب الحلل الموشية[5]. كما خاطب يوسف بن تاشفين أقطاب الفكر الإسلامي أنداك من المشارقة كأبي حامد الغزالي أو من الأندلسيين الذين استوطنوا المشرق كأبي الطرطوشي.

---

1 عبد الله كنون: البنوغ المغربي في الأدب العرب، دار الثقافة، دت، ج1، ص 78.

2 المصدر نفسه: ص 61.

3 عز الدين موسى: الرحلات الأندلسية والتواصل الحضاري (ندوة: الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح)، ص 313، 314.

4 محمد جبرون: الفكر السياسي في المغرب الإسلامي والأندلس في القرن الخامس الهجري، ص 186.

5 مجهول : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ص 140.

حول نص رسالة ابن العربي إلى الخليفة العباسي والتي هي بعنوان " كتاب ابن العربي إلى المستظهر العباسي" من مخطوط" شواهد الخلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان"، وقد قامت الدكتورة عصمت دندش بنشر النص ودراسة المقال لها بعنوان:" دراسة حول رسائل ابن العربي" والتي تسمة رحلة ابن أبي بكر العربي" مجلة المناهل المغربية، ع9، السنة الرابعة، جوان 1977م، من ص 49إلى ص 191 / نقلا عن محمد جبرون: الفكر السياسي في المغرب والأندلس، هامش الصفحة 186.

أما رسالات التأييد والتعضيد التي حملها ابن العربي من الخليفة العباسي المستظهر والوزير ابن جهير وأبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي إلى الأمير يوسف بن تاشفين، فقد نشرت كذلك من طرف الأساتذة عصمت دندش، ملحقات لكتابها (دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988/1408م، ص 169 وما بعدها، ونشرت كذلك عند محمد يعلي ضمن الرسائل التي نشرها في سلسلة المصادر الأندلسية للمجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1966م، بعنوان" كتاب شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان" ص 273 وما بعدها، والإشارة هنا إليه ب" شواهد الجلة"، ونشرها كذلك الأستاذ سعيد أعراب في دراسته المستقلة عن القاضي أبي بكر بن العربي بعنوان:" معى القاضي أبي بكر العربي" دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/ 1987/ ينظر بحث الأستاذ عزالدين موسى: الرحلات الأندلسية والتواصل الحضاري، هامش الصفحتين: 303 ، 314، وفي حديث ابن خلدون في العبر عن رحلة ابن العربي إلى المشرق وطلب التأييد لأمير المرابطين وقع تحريف لإسم الخليفة العباسي.

فقد كانت هناك مراسلات بين الغزالي وبين الأمير يوسف، وفي إحداها أفتى الغزالي بشرعية سلطته وسانده، حتى قيل إنه كان ينوي السفر إليه[1] ما منعه إلا موت الأمير يوسف.

كما استكتب يوسف بن تاشفين بعد ذلك بعض من الكتاب والشعراء الذين كانوا محسوبين على بعض ملوك الطوائف، كأبي بكر بن القصيرة الذي كان وزيرا للمعتمد بن عباد في إشبيلية، كما تقلد الوزارة كذلك ليوسف بن تاشفين، وهو الذي أجاب عن كتاب الأذفونش(ألفونسو) إلى يوسف عند عبوره إلى الأندلس[2] وكتب له أيضا أديب الأندلس وشاعرها زمن الطوائف عبد المجيد بن عبدون باستدعاء منه له، وكان قد التحق بالأمير سير بن أبي بكر اللمتوني، وهو صاحي الرائية المشهورة في رثاء الملوك بني الأفطس في بطليوس.[3]

ولما دخل يوسف بن تاشفين الأندلس في عبوره الأخير، هش كثير من أهل شبه الجزيرة الأيبيرية ، لأنه أخر سقوط أندلسهم، وتلقاه الشعراء بالمدائح وكتبوا له بذلك فهذا أبو الحسن بن الجد قال في قصيدة يمدح بها الأمير يوسف:

- في كل يوم غريب فيه معتبر نلقاه أو يتلقانا به خبُر
- أرى الملوك أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقى ولا تذر...[4]

وكان من بين أسباب قبول أهل الأندلس للأمير يوسف إضافة أنه أخر سقوط أندلسهم، انه رفع المغارم التي وضعها ملوك الطوائف عليهم، وبعد الأذى الذي سببه هؤلاء الملوك برسومهم ومغارمهم

---

1 مصطفى بنسباع: إحراق كتاب الإحياء للغزالي وعلاقته بالصراع بين المرابطين والمتصوفة.(ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية - تيارات الفكر في المغرب والأندلس + الروافد والمعطيات) أفريل 1993، ص 361 .منشورات كلية الآداب، جامعة عبد الملك السيعدي ، تطوان، المغرب .

المستظهر حيث ذكر باسم المستنصر وهو تحريف واضح، /ج6 ص .

2 المراكشي: المعجب، ص 115./ عبد الله كنون: البنوغ المغربي: ج1 ،ص 78./آسية الهاشمي البلغيثي: ابن القصيرة (حياته وأدبه)، مطبعة الحرف المعتدل، تابريكت، سلا، المغرب، 1998، ص 28، 29.

3 عبد الله كنون: البنوغ المغربي: ج1، ص 79.

4 ابن بسام: الدخيرة، ق1/2 /256، 257/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 242.وعند العماد الأصفهاني في الفريدة بعض الكتابات التي وجهها إلى يوسف بن تاشفين مادحا إياه (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج3، ص 393 وما بعدها.

على رعيتهم صقر ابن خلدون حكم المرابطين(1069-1147 م) كعصر ذهبي أعيدت المكوس والضرائب إلى حدودها الشرعية[1].

وبعد أن انتظمت بلاد الأندلس في ملك يوسف، وانقرضت ملك الطوائف أجمع منها واستولى على العدوتين، وخاطب الخليفة المستظهر العباسي ببغداد في زمنه فعقد له على المغرب والأندلس وكتب له بذلك عهدا وأرسله إليه[2]، انتهت أيام ممالك الطوائف وأمرائها، بما لهم وما عليهم، ولأسباب ذكرها المؤرخون قديما، وأسهب الباحثون المعاصرون في شرحها وتحليلها*، واختلف وجهات النظر أحيانا بين الباحثين، ولكن التاريخ لم يشأ أن يطوي صفحة سجلت بأخرى من ذهب، وأرخت للحياة الثقافية والفكرية الأندلسية في عصر الطوائف، ولأمراء وملوك وإن عرفوا بالخلاف وضياع الوحدة السياسية للأندلس فقد حصل حولهم اتفاق بين الباحثين والدارسين حول دورهم في التأريخ لهذه الصفحة المنيرة المشرقة، بل كانوا هم صناع هذه الملحمة الثقافية.

---

1 أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص 202، 203.

2 القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ، ج5، ص 249.

* :هناك دراسة مستفيضة للباحث حمد بن صالح السحيباني بعنوان (الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، ملوك الطوائف في الأندلس نموذجا) صير ضمن سلسلة الدراسات التي تصدر عن المنتدى الإسلامي رقم (39).

الفصل الثالث: الشعب الأندلسي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

المبحث الأول: الاختلاط السكاني وأثره في تشكيل الهوية.

أ - قبل الفتح الإسلامي:

- الأيبيريون.
- الرومان.
- القوط الشرقيون والغربيون.

ب -بعد الفتح الإسلامي:

- البربر.
- العرب.
- المستعربون.
- اليهود.
- الصقالبة.
- الموالي.
- المولودون.

المبحث الثاني: مظاهر الحياة الاقتصادية

أ -الزراعة:

ب -الصناعة:

ج -التجارة:

المبحث الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية.

I -3 -الفصل الثالث: الشعب الأندلسي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

I -3 -1 - المبحث الأول: الاختلاط السكاني وأثره في تشكيل الهوية.

شكلت الأجناس المختلفة والمكونة للشعب الأندلسي، وكيفية انصهارها على الرغم من تنافرها، أو تباعدها عرقيا أو عقديا، مادة دسمة للبحث في هذا الموضوع فعلى الرغم من التعدد البين للأعراق التي استوطنت شبه الجزيرة الأيبيرية وتنوعها إلا أنها قد شكلت بنية موحدة، ولكن طبيعة القوى الديناميكية الحية والتي شكلت المجتمع الأندلسي صارت موضوع خلاف شديد نظرا لتنوع عناصر هذا المجتمع الإثنية وتعقيدها ولطبيعته – أي المجتمع الأندلسي – المتحركة والمتطورة من جهة أخرى كما يرى أحد الباحثين.[1]

لقد عرف المجتمع الأندلسي بالتعدد على مستويات الأجناس المتساكنة من العرب والبربر والروم، والمولدين والصقالبة، وعلى مستوى الأديان والعقائد كالإسلام واليهودية والمسيحية، وعلى مستوى اللغة كاللاتينية والعبرية والعربية الفصحى منها والعامية.[2]

ولكن من المؤكد أن الأندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم جزءا من مجتمع واحد يعيش على أرض واحدة، ويخضع لسلطة واحدة، وربما كان هذا الالتحام من أقوى الأسباب التي أخرت تقسيم الأندلس، حتى إذا أصبح كيانات صغيرة في عصر الطوائف، كان التقسيم – كما رأينا – سياسيا لا عرقيا، ثم لم يدم مع دخول المرابطين وسيادتهم على الأندلس، حيث عادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، فما هي هذه الأجناس التي تشكل منها المجتمع الأندلسي؟ وكيف تمت عملية الانصهار؟

---

(1): أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص 7.

(2): ثريا لهي: التسامح الديني والعلاقات الإنسانية ومظاهر التسامح، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات (ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ج1، ص 95.

يقول المستشرق هنري بيريس:" إن دراسة مختلف العناصر التي يتكون منها الشعب في إسبانيا الإسلامية (الأندلس) تجعلنا نشعر في بساطة، أننا بإزاء فسيفاء شديدة التناسق في تكوينها، وبالكاد نلمح فيها بعض الإيقاعات المتنافرة"[1].

ويمكن الحديث عن مختلف أطياف الشعب الأندلسي قبل الفتح الإسلامي وبعده على النحو الآتي:

أ- قبل الفتح الإسلامي:(الأيبريون -الرومان - القوط الشرقيون والغربيون):

- الأيبيريون.

يذهب عديد الباحثين إلى الأيبيريين* هم سكان شبه الجزيرة الأوائل، حيث سميت باسمهم الأيبيرية، وأمة الإيبر"Ibére" كانت أقدم أمة عمرت تلك البلاد، ولم يعرف قبلها هناك امة أخرى، وجميع الذين أوطنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد أمة الإيبير هذه،[2] ثم إن السليتين جاءوا من أوروبا الوسطى فاختلطوا بالأيبيريين، كما أن قرطاجنة أرسلت إلى أسبانيا مهاجرين كثيرين من أفريقيا، وقبل قرطجنة كان الفنيقيون قد عمروها.[3]

- الرومان

ثم إن طرأ على اسبانية جاليات يونانية نزلت في أقسامها الشرقية، وتلاها جاليات رومانية غلبت على جميعها، وفي أثناء ذلك دخلها العنصر السامي أيضا بمجيء عدد كبير من اليهود وبعد أن تلاقى فيها الأيبيريون والسليثون واللاتينيون واليونانيون من السلائل الأوروبية، والفينيقيون واليهود من السلائل الآسيوية، طرأت على إسبانية أمم جرمانية مثل السويف والالاينين والفندالس والقوط الذين ملكوها وكانوا الطبقة السائدة فيها عندما فتحها العرب[4].

---

(1): الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص 255.

*: هذه التسمية كذلك " الأيبيريون" عرفت في المصادر العربية، التاريخية والجغرافية وفي بعض كتب الأخبار الأدبية، على سبيل المثال: القلقشندي في صبح الأعشى حيث يقول:" قال مؤرخ الروم أول من سكنها بعد الطوفان قوم يقال لهم الأباريون ." ج5، ص228.

(2): شكيب أرسلان : الحلل السندسية، ج1، ص 31/ يعتبر كولان الأيبيريين شعب مجهول الأصل والمصدر عاصر في إسبانيا القديمة دول القلت(Celtes) والفينيقيين واليونان و الرومان وقد انتشر في إسبانيا كلها وجنوبي فرنسا، فالأيبيريون على هذا الحساب هم أقدم أمم غربي أوروبا" . مادة الأندلس (دائرة المعارف الإسلامية)، ج2ص 41.

(3): المصدر نفسه، هامش ص 25.

(4): شكيب أرسلان : الحلل السندسية، ج1، هامش الصفحتين 25، 26.

استمر الحكم الروماني في المغرب والأندلس (اسبانيا) قرونا عديدة، وفي أوائل القرن الخامس الميلادي، تعرضت الإمبراطورية الرومانية لهجرات جرمانية واسعة النطاق أتت من شواطئ بحر البلطيق وأراضي الرين والدانوب.

وينقسم هؤلاء الجرمان إلى مجموعتين رئيسيتين : اليوتوتون، والقوط، أما اليوتوتون فيشملون شعوب الفرنجة والألمان والوندال والبرجنديين واللومبارديين، وأما القوط فيشملون القوط الغربيين(visigodos) والقوط الشرقيين (ostrogodos)[1].

- القوط الشرقيون والغربيون.

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الفتح الإسلامي خاضعة لسلطان القوط الغربيين المعروفين بالمتبربرين والذين تقاسموا أراضي الإمبراطورية الرومانية فيما بينهم(مع أبناء عمومتهم من القوط الشرقيين) واستقروا في غالة ، المعروفة حاليا باسم فرنسا، وانقسموا إلى قسمين كبيرين:

فأما القوط الشرقيون فقد استقروا في إيطاليا، وكان على أيديهم زوال الدولة الرومانية في الغرب، إذ أنهم دخلوا روما بقيادة زعيمهم أدواكر سنة (476م)، وأما القوط الغربيون فقد مدوا سلطانهم في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث قامت بينهم وبين الفرنجة الحروب بحكمها بعد تغلبهم على من كان قد سبقهم إليها من شعوب المتبربرين من أمثال (السويف) و(الآلان) وغيرهم.

ساد القوط الغربيون شبه الجزيرة من أوائل القرن السادس الميلادي، واتخذوا طليطلة عاصمة لهم وأنشأوا مملكة يتولى أمرها القوط وحدهم، فكانوا يحكمون رعاياهم من اهل البلاد من الأيبيرين بالقوة والعنف، خاصة وقد كان القوط مسيحيين على المذهب (الأريوسي) الذي يقول بطبيعة واحدة للمسيح في حين أن رعاياهم كانوا على المذهب الكاثوليكي الذي يقول بالطبيعتين، وبين المذهبين من الخلاف ما بين دين ودين، نتيجة لذلك كان هناك عداء شديد بين

---

(1): أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 32. وعند حسين مؤنس" في أواخر القرن الرابع الميلادي حينما تمكن القوط الغربيون بقيادة الأريك أن يسيطروا على مصائر القسم الغربي من الدولة الرومانية"، فجر الأندلس، ص 15 أما مونتوغومري وات فقد حدد دخول القوط الغربيين إلى اسبانيا عام 414م/ في تاريخ إسبانيا الإسلامية ص 25.

القوط ورعاياهم .[1] إلى أن تغيرت الأوضاع فيما بينهم في حديث طويل لا يعنينا في هذا المقام، ومع الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا، تغيرت الخريطة الديموغرافية لهذه البلاد على نحو مفاجئ، وسريع وواسع بسبب حجم الوافدين والفاتحين وتباينهم.

ب- بعد الفتح الإسلامي:

- البربر:

استنفر طارق بن زياد جموع البربر لعبور المضيق، ونشر الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية وكانت جموع البربر في جيش طارق آنذاك اثنا عشر ألفا كما يذكر المؤرخون.[2]

كان طبيعيا أن تكون الأكثرية بين القادمين إلى الأندلس من البربر لإسلامهم المبكر، ولاشتراكهم في الفتوح منذ البداية وبعد ذلك لقرب الديار[3] ، رغم أنهم كانوا قبائل مختلفة وأحيانا متنافرة.

فلا شك أن نجاح حملة طارق بن زياد على الأندلس قد ساعد في انضمام كثير من المتطوعين من بربر العدو إلى جيش طارق، ولهذا نقد أكد أحد الباحثين على أهمية العنصر البربري بين سكان الأندلس، وفي أنهم أصبحوا يؤلفون معظم الطاقة البشرية في الحملات وفتح اسبانيا ربما تعذر لولا هذا التعاظم في الطاقة البشرية، ولهذا فمن الأصح الحديث عن توسع إسلامي لا توسع غربي[4]فقد جعل بروفنسال فتح الأندلس عمل بربري محض[5] بينما غالي دوزي في تعظيم صنيع

---

(1): حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص267، وحول هذه المسألة ينظر مؤنس في كتابه فجر الأندلس، من ص 15 إلى ص 39./ مونتوغومري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية من ص 25 إلى ص 28.أما في التراث العربي فقد ذكرت الشعوب التي عاشت =في شبه الجزيرة الإيبيريةقبل الإسلام، في غير ما مصدر وخاصة (أمة القوط) بل إن بعضهم كالقلقشندي يتحدث عن أسماء ملوكهم، ، ج5، ص203، 231/ المقري: نفح الطب، ج1 من ص 133إلى ص 139/ الحميري: الروض المعطار، ص 34.

(2): مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 98/ المقري: نفع الطيب: ج1، ص 239/ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص 546/ ابن الأثير : الكامل ، ج4، ص 119.

(3): مونتوغومري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 25.

(4): LEVI-Provençal , L'Espagne musulmane au 10 éme siècle, larose, paris, 1932,p,9

(5) Dozy, Rinhar &T ,histoire des musulmans d'Espagne , maison nuve, paris , 1952,T1,160 Espagne:

البربر و بأنهم كانوا الفاتحين الحقيقين للبلاد، أما موسى وأصحابه العرب فلم يعملوا أي شيء غير جني ثمار انتصار طارق الاثنا عشر ألف بربري على جيش القوط[1] .

وبعد الفتح مباشرة انطلقت موجة من الهجرة المكثفة نحو الأندلس، واستمر تيار الهجرة من المغرب نحو اسبانيا بشكل منتظم[2]. وقد كان الانتصار جيش طارق، والأخبار الخيالية التي انتشرت حول الغنائم، وخيرات المسلمين الكبيرة دور في مسارعة البربر إلى الجواز إلى الأندلس أفرادا وجماعات[3] قال المقري حول هذه المسألة: "وتسامع الناس من أهل العدوة بالفتح على طارق وسعة الغنائم ولكننا كباحثين لا نعتقد بالصحة المطلقة لهذا الرأي فإسلام البربر وإن كان حديثا مقارنة مع سنة فتح الأندلس، إلا أن حبهم للدين الجديد، ونشرت الإسلام والجهاد في سبيل الله هي المحرك الرئيس والحافز الأوحد للبربر نحو العبور ، أما خيرات الأندلس وغنائمها ما هي إلا محفزات فقط للعناصر البربرية المقالة، ويضيف أحد الباحثين:" أن هجرة البربر وخروجهم إلى الأندلس بعد ذلك كان مرتبطا بأوضاع الأندلس الداخلية، وبحاجة أمرائها وخلفائها إلى المزيد من المقاتلة"[4]

يرى مونتوغومري وات أن معظم البربر الذين استوطنوا الأندلس هم من الحضر لا من البدو، وقد انضم القسم الأكبر منهم على الأرجح إلى الطبقة العاملة في الريف في، في حين توجه عدد ضئيل نحو المدن وتعاطي مهنا وضيعة[5]. بينما حاول أحد الباحثين استقراء النصوص التاريخية المختلفة من أجل تحديد دورات الهجيرة البربرية إلى الأندلس فحدد تاريخ الدورة الأولى من الفتح حتى نهاية حكم الولاة تقريبا على مدى أربعة وأربعين سنة ، فهي التي وضعت قاعدة الاستيطان البربري بالأندلس، وهي أيضا الدورة التي تنذر الأخيار عنها وهذا ما يفسر غلبة الطابع الجماعي على الهجرات التي نتوفر على أخبار حولها[6]، ومن البربر الذين دخلوا جماعات وقبائل متكاملة إلى

---

(1) :provençal, l'Espagne musulmane au 10 éme siècle ,p,10

(2): محمد حقي: البربر في الأندلس (دراسة لمجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة، شركة النشر والتوزيع، المدارس ، الدار البيضاء، ط1، 1422 هـ ، 2001 م، ص 35.

(3): المقري: نفح الطيب، ج1 ، ص 259.

(4): عبد العزيز الدوري: مقدمة كتاب الضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1 ،ص 22.

(5):في تاريخ اسباني الإسلامية ، ص 63.

(6):محمد حقي: البربر في الأندلس، ص 33.

الأندلس في القرن الثاني للهجرة بنو ذو النون أصحاب جبال قونكة وطليطلة وبنو الأفطس أصحاب بطليوس زمن الطوائف.[1]

حصل تزاوج واختلاط كبير والعرب ، وحتى بين البربر وبعض العناصر الأخرى، " فقد تابع البربر العرب في الزواج سيدات وأميرات اسبانيا المسيحية، الشهير وحاكم إقليم شرطانية في عصر الولاة (في طليعة القرن الثاني الهجري) من أخت بلاي(pelayo) القوطي مرة، ومن مينين بنت أيوديس (eudes) دوق أقطانية (aquitania) مرة أخرى "[2] وهذا مايفسر– ربما – اندماج البربر بشكل سريع في المجتمع الجديد، وعدم انسياقهم وراء الأطروحات الخارجية (الخوارج) والفاطمية في شمال إفريقيا والتي انساق وراءها إخوانهم البربر في الجهة المقابلة وذل الأمر كذلك حتى نهاية القرن الرباع الهجري/ العاشر الميلادي، فقد حدث تدفق جموع أخرى من البربر كونوا عدة الجيش الأندلسي وخاصة من المنصور بن أبي عامر حيث جرى تجنيدهم من المغرب الأوسط والشرقي أو شمال إفريقيا بشكل عام .

وكان المنصور يهدف من وراء هذا الإجراء إلى أضعاف خطر العنصر العربي، وقد أشار إلى ذلك ابن عذاري المراكشي بقوله:" فقد أحمل بهم – أي البربر - أولئك الأعلام الأكابر - يعني العرب، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثروا من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا منهم الظهور"[3].

لعب البربر دورا كبيرا في العملية السياسية بالأندلس، وإن لم يتبوؤوا القيادات حتى زمن متأخر من الأندلس، ولكن كان لهم صدى كبير، فباستثناء ثورة عمر بن حفصون، المتمرد على السلطة المركزية[4] ،فقد كان لهم دور في سقوط قرطبة حتى سميت بهم الفتنة أما في زمن الطوائف، فقد امتلكت اسر بأكملها الحكم هناك، مثل أسرة بني زيري في غرناطة وأسرة بني ذو النون في

---

(1):سحر السيد عبد العزيز بن سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس(دراسة سياسية، أدبية، اجتماعية)، ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1995، ص 47.

(2):المصدر نفسه: ص 36، 37.

(3):البيان المغرب، ج2، ص 274.

(4):المصدر نفسه، ص 117 وما بعدها.

طليطلة، وبني الأفطس أصحاب بطليوس، وحتى أصحاب الإمارات الصفيرة من بني برزال في قرمونة وغيرهم.

وبموازاة مع الجانب السياسي، كانت إسهامات العنصر البربري من الناحية الثقافية كبيرة، وسنأتي على ذكر ذلك في الفصول اللاحقة.

- العرب:

بدأ الأندلس يستقبل أفواجا من العرب الخلص(قحطانيون وعدنانيون)، منذ عملية الفتح التي تمت عام (92 هـ)، علي بن طارق بن زياد، رغم أنه كان يقود جيشا معظمه من البربر فقد كان عدد العرب قليلا فيه، ثلاثمائة وألفان على الأكثر[1]. والمؤكد عند المؤرخين أنه بعد جولة طريف بن مالك الاستطلاعية، بعث موسى بن نصير مولاه طارقا في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من الموالي والبربر وليس فيهم عرب إلا قليلا[2] وبالرغم من أن عملية الفتح كانت بسواعد بربرية، ولكنها تمت تحت إمرة عربية، فالمؤرخ ابن القوطية يحدثنا عن ابني الملك غيطشة حينما أنحاشا بمن معهما إلى طارق وجيشه، سألاه هل أنت أمير نفسك؟ أم على رأسك أمير؟ قال لهم: بل على رأسي أمير وعلى الأمير أمير.[3] وكان قصده موسى بن نصير والوليد بن عبد الملك زفي سنة ثلاث وتسعين للهجرة دخل موسى بن نصير الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفا[4] بينهم أشراف من التابعين وأهل العلم.

ويفترض بعد انتهاء المرحلة الأولى، وسيرا على نهج الخلافة، أن يكون مجيء هؤلاء للاستقرار لا للغازات فحسب[5] وربما كانت الأحوال السياسية في المشرق سببا من أسباب هجرة العرب إلى الأندلس، فقد هاجر الكثيرون من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق وخرسان والشمال الإفريقي والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلاله عرش الخلافة نتيجة للخطوة التي وصلوا إليها، وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس

---

(1): عبد العزيز الدوري: مقدمة كتاب الحضارة العربية الإسلامية ، ج1 ،ص22.

(2):مجهول: أخبار مجموعة ، ص 97.

(3):تاريخ افتتاح الأندلس، ص 20.

(4):مجهول: أخبار مجموعة ، ص 97.

(5): عبد العزيز الدوري:مقدمة كتاب الحضارة العربية الإسلامية ، ج1 ،ص22.

بسبب ما تلا ذلك من أحداث[1]، ويبدو أن موجات الهجرة العربية كان لها أكثر من الأسباب التي ذكرنا، فقد هاجر بعضهم إلى الأندلس طلبا للرزق والتجارة فيما بعد ، بينما البعض قد استهوته الرحلة إلى الغرب الإسلامي. والمعلومات حول الهجرة العربية إلى الأندلس تغيب عنها التفصيلات والإحصاءات الدقيقة والوافية ماعدا في بعض الروايات*، مما يصعب مهمة الباحث في الكشف عن حجم الكتلة العربية، أو حتى لباقي الأطياف السكانية الأخرى، من أجل تكوين صورة حقيقية للتركيبة البشرية الأندلسية.

وبعد الفتح مباشرة والسنوات التي تلته حصلت عملية تزاوج ومصاهرة كبيرتين بين الجنسين العربي ونساء السكان الأصليين(الاسبانيات).

كان الجنس العربي من أهم الأجناس التي استوطنت الأندلس بعد الفتح الإسلامي، حيث لعب دورا كبيرا في تشكيل الهوية الأندلسية الجديدة، فكانت لهم – أي العرب - الصدارة في الجانب السياسي على طول تاريخ الأندلس منذ أن وطأت أقدامهم شبه الجزيرة الإيبيرية على الرغم من الصراعات القبلية (قيسية ويمنية) والتي عاشوها في عصر الولاة.

لقد حدث لعد ان أسلمت شبه الجزيرة، تعريبها على نطاق واسع، لأن العربية كلغة أساس لفهم الدين الجديد، وبالتالي فإن الحديث سيادة الجنس العربي وحيويته إنما كان ثقافيا ودينيا وليس عرقيا.

لقد انتشرت العربية – لغة وثقافة – في الأندلس بانتشار الإسلام، وبدرجة أوسع عن طريق الصلة بالعرب، فالعربية رابطة، بنظر الإسلام هي اللسان، وساعد على انتشارها تفوق الثقافة العربية الإسلامية، وسمو العربية التي كانت بغنى مفرداتها وتراكيبها قادرة على التعبير عن أرق العواطف وارق الأفكار"[2]

---

(1): حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 187.

*مثال ذلك خروج كلثوم بن عياض القشيري من الشام في سبعة وعشرين ألفا/ مجهول: أخبار مجهول ص 110 وقبله وكما ذكرنا خروج موسى إلى الأندلس في ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب / أخبار مجموعة : ص 101/ المقري: نفح الطيب، ج1، ص 269/ كذلك دخول العرب الطالعة الأولى مع بلج بن بشير القشيري في عشرة آلاف / ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 29.

(2):عبد العزيز الدوري: مقدمة كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ص 24.

ويؤكد أحد الباحثين أن النسب العربي بفضل حيويته وقوته حل محل النسب الأجنبي، أو أبعده، أو أدمجه اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا[1].

والحديث عن سيادة العربية في الأندلس بعد الفتح الإسلامي ينبغي أن يقودنا إلى نشاط المصاهرة التي قادت العرب إلى الزواج من اسبانيات، وقد شجع ذلك " أن الإسلام لم يمنع الزواج بالكتابية، ولذلك كانت عادة الزواج بالكتابية أمرا شائعا"[2].

ويمكن القول " إن ظاهرة التزاوج والمصاهرة بين الجنسين العربي والإسباني ظاهرة متميزة جعلت من عملية فتح الأندلس مدخلا لتعايش اجتماعي وحضاري مشترك أكثر منه غزوا عسكريا[3].

وحري بنا ألا ننسى – في تعليل نشاط المصاهرة بين الفاتحين وأهل البلاد – أن المسلمين دخلوا اسبانيا جيوشا منظمة، ولم يدخلوها دخول البرابرة أفواجا وقبائل بنسائها وأطفالها، ومن ثم لم يكن لهم بد من اتخاذ النساء من أهل البلاد، ومن ثم أصبح التزاوج من الجانبين أمر لا مفر منه[4]، وهو رأي يتفق حوله الباحثون ويخالفهم آخرون*

لقد توسع نشاط المصاهرة بين العرب والسكان الأصليين للبلاد (الإسبان) توسعا كبيرا ومورس بشكل كبير عند مختلف الطبقات العامة والخاصة ، حتى الأمراء والخلفاء، منذ زمن الفتح وحتى القرن الخامس الهجري.

---

(1) :. pierre guichard, structures sociales orientales et occidentalles dans l'Espagnemusulmanes , p137

(2):levi- provençal:histoir de l'espagne musulmane, t , 1,p132.

(3):ابراهيم القادري بوتشيش: محطات في تاريخ التسامح مع الأديان والشعوب ، (ندوة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح)، ص 77، 78.

(4):بالانيثا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 15.

*يختلف الباحثون حول هذهالنقطة، حيث يرى بعضهم أن الفاتحين إنما دخلوا الأندلس، جيوشا منظمة ولم يصحبوا نسائهم وذراريهم، منهم بالانثيا وخوليان ريبيرا، حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ../ محمود مكي ، التسامح الإسلامي: الأندلس نموذجا، (ندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح)، ص 62.=

=ويرى فريق آخر منهم الباحث والمستشرق غيشار(p . Guichard)، العكس من ذلك، حيث دخل الفاتحون رفقة نسائهم وذراريهم، ولكل فريق حججه وأدلته، وقد عرضت الباحثة سحر السيد عبد العزيز سالم لبعض هذه الآراء وناقشتها وحاولت التوفيق بينها/ الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط، ص 38 وما بعدها.

ونجد لذلك مثلا متميزا في زواج أيلة(egilon) أرملة لذريق، وتكنيها المصادر العربية بأم عاصم، من عبد العزيز بن موسى بن نصير[1] وتزوجت حفيدة الملك القوطي غيطشة في الشام من عيسى بن مزاحم وعرفت باسمها(سارة القوطية بنت المند)، وحتى أمراء قرطبة الأمويين ينحدرون من أمهات اسبانيات، ابتداءا من عبد الرحمن الداخل، فقد كانوا أبناء سيدات من شمال اسبانيا، أغلبهن من الباشكنس، أو الباسك في اللغة الإسبانية الحديثة[2] ، فهشام الرضا من أم ولد تدعى (جمال)، وأم الحكم الربضي تدعى (زخرف)، وأما الخليفة عبد الرحمن الناصر فحفيد أميرة مسيحية من الباسك تسمةإينجية (INGIA) وتطلق عليها المصادر الإسلامية إسم (در)، أما زوجة الحكم المستنصر فهي بشكسنية تسمى صبح(AURORA)، وقد لاحظ ابن حزم الأندلسي في وصفة لبعض خلفاء بني أمية بقوله:" وأما جماعة خلفاء بني مروان - رحمهم الله – فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم... فما منهم، إلا أشقر نزاعا إلى أمهاتهم، حتى قد صار ذلك منهم خلقة... فإني قد رأيتهم مرارا ودخلت عليهم فرأيتهم شقرا شهلا"[3]

هذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول بأن عرب الأندلس الذين كانوا يزهون فخرا في القرون الأولى، التي أعقبت الفتح بأصولهم العربية في شبه جزيرة العرب أو الشام، يتدفق عبر عروقهم غير قليل من الدم الإسباني.[4]

---

(1):أنخلبالانثيا: الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوروبي، ضمن كتاب: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ، حرر بعضها وترجم البعض الآخر: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر ، ط3، 1987، ص 173/ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 25./ مجهول : أخبار مجموعة ، ص 104.

(2):أنخل بالانثيا: الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوروبي، ص 174/ أما زواج سارة القوطية من عيسى بن مزاحم فقد ذكر في المصادر التاريخية الأندلسية: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 21.

(3):ابن حزم: طوق الحمامة (مجموعة الرسائل) ج1، ص 130، 131. وحول ما ذكرنا من زواج الأمراء فهو مبسوط في كتب التاريخ الأندلسي القديم منها والحديث مثال: ابن حزم: مجموع الرسائل، ج1، ص 91، 92، بالإضافة إلى كلام المحقق في هامشي الصفحتين/ بروفنسال: الحضارة العربية في اسبانيا ص 101، 102.

(4):بروفنسال: الحضارة العربية في اسبانيا ص 18.

وربما كان هذا التنوع العرقي في هذه التركيبة الاجتماعية تتمثل ذروته في الطبقة الحاكمة نفسها – كما لاحظنا –التي بدأت تضعف فيها الأرومة الشامية (العربية)، بسبب التزاوج المستمر مع الأجناس الأخرى.[1]

وبقي زواج العرب من الطبقة الحاكمة من الإسبانيات حتى القرنيين الرابع والخامس فالمنصور بن أبي عامر قد تزوج من ابنة شانجةغرسية(SANCHO GARCES ABARCA) ملك بنبلونة، التي عرفت في المصادر العربية باسم(عبدة) حيث أسلمت، وحسن إسلامها، وأنجبت منها ولده عبد الرحمن الملقب بشنجول أو (SANCHULO) تصغيرا لشانجة اسم جده.[2]

أما الغريب النادر فهو زواج المسيحين من المسلمات، فقد حصل ذلك في شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث يذكر بروفنسال أن امرأة مسلمة هي بنت أحفاد المنصور بن أبي عامر من ولده عبد الله بن منصور، تزوجت بمحض إرادتها من فارس مسيحي.[3]

وفي ظروف خاصة أقدم بعض حكام المسلمين في الأندلس من المولدين على تزويج بناتهم من ملوك وأمراء مسيحيين دون حرج، وينحصر هذا النوع من الزيجات في أسرة بني قسي المولدين أصحاب الثغر الأعلى[4]

وفي عصر الطوائف تزوج ألفونسو السادس ملك قشتالة من كنة المعتمد بن عباد (زائدة أو سيدة)، بعد أن نصرها وولدت له ابنه الوحيد سانشو(شانجة)، الذي قتل وهو يحارب المسلمين في معركة إقليش سنة (501 هـ)[5].

---

(1):محمود مكي مكي: تاريخ الأندلس السياسي، ص 198، 199.

(2):سحر السيد عبد العزيز بن سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط بالأندلس، ص 38.

(3):المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4):سحر السيد عبد العزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ص /37 " يرجع أصل بني قسي إلى جدهم (فرتون) "fortunius" وقد كان أميرا على بعض النواحي غرب نهر الإبرو حيث حيثالبشكنس، وبعد أن عهد موسى إلى طارق في السيرفو جبال كنتبرية، بدأ طار قد بمهاجمة الشكبنس، فلم بجد (فرتون) بدا من دخول في طاعة المسلمين واعتناق واعتناق الإسلام: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 164.

(5): سحر السيد عبد العزيز بن سالم : الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس ، ص 38/ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، ج4 (تحقيق : عبد الله محمد علي) ، ص 43، 44.

وتزدحم الكتب التاريخية وكتب الطبقات بعديد الأمثلة عن هذه الزيجات، أو عن نشاط المصاهرة بين الجنس العربي والسكان الأصليين من مختلف الطبقات ، وباقي الأجناس الأخرى.

إن التأثير العربي يتجاوز الظاهرة اللغوية نفسها ، ويمكن أن نلحظ كما لاحظ بروفنسال من قبل: مدى اتساع الإشعاع الحضاري الذي مارسته إسبانيا العربية (الأندلس) على اسبانيا المسيحية والبلاد المجاورة لها[1] ويؤكد بروفنسال في موضع آخر من الكتاب على قوة الغزو العربي الذي لا يقاوم، فقد قضى –حسبه – على رابطة البحر المتوسط عليها[2] ولم يكن يقصد الباحث سوى قوة التأثير الحضاري العربي بما جعله العرب منذ مجيئهم إلى الأندلس في طلائع الفتح الأولى من أنماط حياة آبائهم وأجدادهم والمحافظة على تقاليدهم، التي نموها وطورها وفق احتياجاتهم، ولا نبالغ إذا قلنا إن فترة الولاة (92 هـ - 138 م)، وهي التي أعقبت عملية الفتح مباشرة كانت فترة حاسمة في ترسيخ التقاليد العربية، فقد كان جميع الولاة عربا يتبعون السلطة المركزية في دمشق، وقد حاول هؤلاء الولاة بسلطاتهم أو بتعضيد من السلطة المركزية المحافظة على النظم والتقاليد العربية وتوطينها في البيئة الجديدة ولاحظنا في الحياة السياسية كيف تقلد الأمويون العرب الحكم في الأندلس بعد انتهاء عصر الولاة، ولقرون عديدة، أين وسمت الحياة في شبه الجزيرة الأيبيرية لطابع العروبة في الغالب، وتجدرت حتى ليصعب الفصل بين ما هو عربي وإسلامي لفتح الأندلس .

- **المستعربون:**

لم يدن كل سكان شبه الجزيرة الأيبيرية بالإسلام، فقد ظلت طائفة من المسيحيين الذين احتفظوا بدينهم واستعربوا وعاشوا لقرون عديدة في ظل الحكم الإسلامي للأندلس متمتعين بحقوقهم الدينية والاجتماعية، " أي ممارسة شعائرهم الدينية وإدارة شؤونهم الشخصية والخاصة حسب قوانينهم، والاحتفاظ بسلطاتهم والحفاظ على هويتهم الثقافية "[3]وفق ما تتطلبه أحكام

---

(1):ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة : الطاهر أحمد مكي، دار العالم العربي، القاهرة ، ، ط1، 2010 م/ 1431 هـ، ص 130.

(2):المصدر نفسه: ص 107.

(3): ميكائيل دي إيبالزا" mikel de epalza" : المستغربون : أقلية مسيحية مهمة في الأندلس ترجمة: يعقوب دواني ضمن كتاب " الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس". ج1، ص 242.

الشريعة الإسلامية باعتبارهم (ذميون)" أو في إطار المجتمع الإسلامي الذي شكل إطار لحياتهم ونشاطاتهم الاجتماعية بوصفهم أقلية دينية وسياسية"[1] ،أو في إطار حضاري يمكن وسمه بالعربي - الأندلسي، كان يوجد هؤلاء لزمن طويل[2].

لقد ذهب معظم المؤرخين، وبضمنهم سيمونيه، إلى أن المستعربين(molarabes) هم كل أولئك الهسبان القوط الغربيين الذين تمسكوا بدينهم النصراني وعاشوا جنبا إلى جنب مع المسلمين في الأندلس تحت الحكم الإسلامي، كما عد من المستغربين أيضا كل أولئك النصارى الذين مكثوا في الأراضي الواقعة تحت الحكم الإسلامي، منذ الأيام الأولى للفتح سواء كانوا قد استغربوا أو لم يستغربوا،[3] ولكنهم ورغم حفاظهم على دينهم الأصلي فقد استغربوا لسانا وأسلوب حياة[4]، لقد شكل هؤلاء المسيحيون غالبية السكان، وتمكن العديد منهم اعتنقوا الإسلام فيما بعد[5]، ثم أخذت أعدادهم تتناقص فيما بعد ورغم أن اسبانيا كانت بلادا مسيحية عند الفتح الإسلامي أوائل القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، غير أنه بحلول القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي أصبحت بلدا إسلاميا بأغلبية الساحقة لا تذكر المراجع المتوفرة عند المسيحين إلا بشكل مبعثر تماما[6].

أما حفاظهم على هذه الخصوصية الدينية فقد كان بشكل رسمي، فقد حصلت اتفاقيات بين ممثليهم من الأساقفة أو رؤساء طوائفهم أو مع بعض ملوكهم، والسلطات الإسلامية، وفق ما تتطلبه شروط الاستمرار في ممارسة الشعائر بالنسبة لكل شخص أو طائفة تحتفظ بديانتها القديمة والعيش في ظل الحكم الإسلامي ، وما يتطلبه ذلك من دفع الجزية والخضوع للسلطات مقابل الحصول على صفة " معاهد" أو " ذمي "، أي " المعاهدون " أو أهل الذمة" بالنسبة لطائفة

---

(1):المصدر نفسه، ص 239.

(2):رفاييل بالانثيا "rafael valencia" : أشبيلية الإسلامية: تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، ترجمة: مريم عبد الباقي، ضمن كتاب " الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" ج1 ص 220.

(3):مارغريتا لوبيرغوميز: المستعربون: نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 269.

(4):حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، ص 318.

(5):رفاييل بلانثيا: إشبيلية الإسلامية: تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، ص 220.

(6):ميكائيل دي إيبالزا: المستعربون: أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، ص 248.

بأكملها وقد أشرنا سابقا إلى إحدى المعاهدات التي تمت مع بداية الفتح الإسلامي (رجب 94 هـ) مع تدمير.

عاشت المستعربون محافظين على طقوسهم وأعرافهم في ظل مجتمع متنوع الأعراق وتحت حكم سلطة إسلامية تشهد الحوليات التاريخية العربية واللاتينية بتسامحها انطلاقا من المرجعية الدينية التي تحكمها.

لقد كان عهد عبد الرحمن الأوسط ، أفضل العهود الأموية في الأندلس تسامحا وانفتاحا، حيث أصاب المستعربين من إيجابياته، ما لم يسبق أن تمتعوا به في عهد سابق[1]، وربما كان هذا الأمير الأنسب لقيادة البلاد في تلك الحساسة من عمر الأندلس حيث تمكن من التقريب بين كل فئات المجتمع الأندلسي، وعمل على انصهار كل مكوناته على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم ونحلهم، ومن مظاهر هذا التعايش الاجتماعي القائم على قدم المساواة، امتزاج العرب بالمستغربين في كل الأماكن، ولعل تفحص خريطة إقامة المستعربين يدل على أنهم كانوا يحتلون مكانة اجتماعية متميزة ، حيث أقاموا في الحواضر الأندلسية الرئيسية مثل غرناطة وإشبيلية وبلنسية ومالقة وغيرها من المدن الهامة"[2] ،كما كانت جالية المستغربين كذلك كبيرة في القرى والأرياف حيث عاش السكان من المستعربين والمسلمين جنبا إلى جنب، وكانوا ملاكا صغارا، ذلك أن القوانين الإسلامية منحتهم الحق في تملك الأرض والتصرف بها كام تشاؤوا، في حين كان هذا الحق شديد التحديد بالنسبة للطبقات الاجتماعية الدنيا تحت حكم القوط الغربيين[3]، كما تظهر الزيجات المختلطة بين المسلمين والنصرانيات بكثرة، ولا سيما في قرطبة و طليطلة و تطيلة أو سقرقسطة[4].

وتبدو المحافظة على ديمومة هذه الأقلية المهمة في المجتمع الإسلامي نقطة محسوبة بدقة لدى السلطة المركزية في قرطبة، فقد " استعملت كمركز يدلل على الطابع التعددي لهذا المجتمع دينيا

---

(1):إبراهيم بيضون : الدولة العربية الإسبانية، ص 238.

(2):إبراهيم القادري بوتشيش: محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب، ص 75.

(3):مارغريتا لوبيز غوميز: المستعربون: نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 271.

(4): ميكائيل دي إيبالزا : المستعربون: أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، ص 258.

واجتماعيا، فالمسلمون يقدمون هذه التعددية كدليل على تسامح الإسلام وقدرته على تمثل هذه الديانات المختلفة وإعادة إفرازها في مشروع حضاري هو الثقافة الأندلسية الإسلامية."[1] وربما تشبه الأمويون بأسلافهم في دمشق، والإستفادة من المستعربين المسيحيين في حوارهم مع الدول المسيحية الأخرى، وهذا الجانب من السياسة الإسلامية ينطبق بشكل خاص على قرطبة حيث كان الأساقفة المسيحيون يقومون بدور السفراء والمترجمين حتى منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي[2] فقد أرسل الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث(الناصر) أسقف إشبيلية عباس بن المنذر سفير إلى بلاط راميرو الثاني " Ramiro" في أراغوان "Aragon".[3]

أول الأسقف ربيع بن زيد " Recemundo" الذي كان سفير للخليفة عبد الرحمن الناصر أيضا لدى ملك ألمانيا أو تو الأول، قبل أن يصبح أسقفا[4] ، وحتى قبل عصر الخلافن فقد كان المستعرب غومز بن أنطونيان "Gomez Fils D'antonien" الذي كان كاتبا عند عبد الرحمن الثاني وابنه محمد ونال شهرة أدبية واسعة.* " أو مثل أردباستو ابن ملك القوط الغربيين غيطشة، الذي يسميه المؤرخين العرب في القرن الثامن للميلاد قومس الأندلس "conde de al- andalus"، أو معاوية بن أبن لوبه ، قومس قرطبة أيام الحكم الثاني الذي يقدم أولئك المؤرخون لاسمه عادة بعبارة " السيد الحليم"[5]

وبقي المستعربون يتبوأون أرفع المناصب العليا في إدارة الدولة في الأندلس حتى القرن الخامس الهجري، مثل المستعرب " ششند" "Sisnado" مستشار المعتمد بن عباد ملك إشبيلية قبل أن يلتحق ببلاط فرناندو الأول ثم ألفونسو السادس كما أشرنا إلى ذلك سابقا، " وأبو عمر بن قوندیسالیو " Gundisalvo" وهو أحد المستعربين وكبير وزراء أحمد بن سليمان بن المقتدر بن هود(441 هـ- 474

---

(1): المصدر نفسه: ص 245.

(2):رفاييل بالانثيا: إشبيلية الإسلامية: تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، ص 220.

(3)المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4): مارغريتا لوبيز غوميز: المستعربون : نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 271.

*: له ذكر عند الخشني في كتابه" قضاة قرطبة" من ص 202 إلى ص 205، حيث قال عنه : " فلما نجم القومس بن انتيبان، وظهر فضل أدبه، وتولى الكتابة وأظطلع بالإثقال، وخاطب، ونبه ، وعارض في الأمور ص 203.، تحقيق: ياسر سلامة أبو طعمة، دار الصميعي للنشر والتوزيع ، الرياض، ط 1، 2009.

(5): المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

هـ/1049–1081)، وكان شاعر أجيدا وحاكما في الوقت نفسه[1] وحتى بعد سقوط طليطلة في يد ألفونسو عام (1085م) ظل المستعربون أوفياء للثقافة العربية (اللغة والكتابة العربية في الوثائق الرسمية والسجلات)[2] ،والأمثلة كثيرة ومتعددة حول هذه النقطة وقد أسهب المؤرخون في الحديث عنها.

وإذا جاز لنا قلنا بأن المستعربين أو المسيحيين الذين كانوا يحيون في إطار مجتمع عربي وإسلامي أو بصفة أشمل مجتمع أندلسي موحد، شكلوا قطعة مهمة في بنيته وبنائه من خلال أندماجهم السريع فيه، ولم لما الذوبان في نسيجه مع احتفاظهم بخصوصيتهم الدينية والثقافية.

وانعكس هذ الذوبان في النسيج الإجتماعي في مشاركة مسلمي الأندلس (إخوانهم)* المسيحيين في معظم احتفالاتهم الدينية**، وهي مشاركة روحية أفرزتها قرون عديدة من التعايش"[3].

وكثيرا ما ذكرت أعيادهم وأعياد غيرهم من الطوائف الأخرى وكان لها صدى عند شعراء الأندلس*** مما يدل على صدى درجة التعايش والانصهار بين طائفة المستعربين وباقي أطياف

---

(1): تورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص 301.

(2): المصدر نفسه : ص 298، 299.

* لم ترو كلمة إخوانهم في النص الأصلي للباحث بين قوسين،وإنما جعلناها بين قوسين لمخالفتنا وجهة نظر الباحث،فمفهوم الأخوة في الدين الإسلامي لا يعكس حقيقة الاستعمال لدى الباحث،قال تعالى : "**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**" . الحجرات 10

** ذكر بالانثيا: إشبيلية الإسلامية : تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، ص 220.، واجتهد الباحث نافع عبد الله في كتيب صغير قيم بعنوان (الأعياد والمهرجانات في الشعر الأندلسي) أن يجمع كل الأعياد التي أحتفل بها في الأندلس من قبل المسلمين والمسيحيين واليهود، كعيد الفصح وعيد النيروز وغيرهما/ دار الوسائل للطباعة للنشر، بيؤوت ، ط1، 2003م.

(3):ابراهيم القادري بوتشيش: محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب، ص 78، 79.

*** على سبيل المثال: الأبيات التي بعث بها ابن شهيد إلى الخليفة المستعين بالله يمدحه فيها ويهنئه بعيد النيروز:

- واتاك بالنيروز شوق حافز وتطلع للزور غب تطلع

الديوان : ص 43 / أبو الوليد اسماعيل الحميري: البديع في وصف الربيع، تحقيق هنري، بيرس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 1423 هـ/ 2002م، ص 35. وقال أبو بكر بن القوطية (367 هـ) وقد أهدى مطيب بهار إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة أبياتا ذكر في إحداها ثلاثة أعياد مختلفة:

- دمت للمهرجان والعيد والنيروز إلفا من الحوادث سالم.

الحميري:البديع في وصف الربيع،ص103،وله في المصدر نفسه،ص128،وقد أهدى ثلاث وردات ليلة المهرجان وكتب معها أبياتا منها:

- أتى في المهرجان فكان فوق البكير غرابة وهو المؤخر.

=وقد ذكر ابن عذاري المراكشي أن المنصور أبي عامر تم زفافه إلى أسماء بنت القائد غالب صاحب طليلة النيروز البيان المغرب، ج2، ص 267./ هذه الأمثلة التي قلتها تبين مدى التعايش بين مختلف الطوائف المشكلة للشعب الأندلسي.

المجتمع الأندلسي، فقد حفظت أشعار لابن شهيد الأندلس ذكر فيها القس والناقوس[1]، أما الشاعر بن الحداد القيسي، وهو من شعراء الطوائف وكان في بلاط ألمرية، قد ذكر أسماء كنائس وأدآش في شعره، وكان عاشقا لفتاة نصرانية من المستعربين حيث يذكر في شعره أنه زار الكنائس حبا لها وليس مودة في الصلبان، يقول:

- **عســاك بحق عيســاك ❖❖❖ مريحة قلبي الشاكي**
- **فإــن الحســن قــد ولا ❖❖❖ ك إحيائي وإهلاكي**
- **وأولعــني بصلبـــان ❖❖❖ ورهبـــان ونســـاك**
- **ولم آتي الكنائس عن ❖❖❖ هــوى فيهــن لــولاك**[2]

لعب المستعربون دورا كبيرا في المجتمع الأندلسي على المستوى الشعبي – على قلتهم – وعلى المستوى الرسمي، وحتى على المستوى الثقافي والفكري، وأخيرا على المستوى السياسي، وقد لخص دورهم أحد الباحثين قائلا:" يمكن القول إنه قد نشأت وطنية أندلسية هي من صنع فئة المستعربين الذين آلت إليهم مناصب إدارية وعسكرية."[3]

ففي بعض الحركات المتمردة التي قام بها بعض الشباب من المستعربين المتحمسين دينيا، والتي عرفت المصادر الغربية باسم (ثورة القديسين الشهداء)*، وكان القصد من وراء هذه الحركة

---

(1): ابن شهيد الأندلسي : الديوان ، جمع وتحقيق ،م حي الدين ديب، المكتبة العصري، صيدا ، 2002م/ 1422 هـ، ص 85.

(2): ابن الحداد القيسي: الديوان ، جمع وتحقيق: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1990 م، ص 241 والأبيات عند ابن بسام في الذخيرة، ق 2/1/ص 707 ، وله أبيات أخرى في التغزل بهذه الفتاة النصرانية وذكر بعض رموزهم الدينية، الديوان ، ص 256، و ص 306.

(3): محمد العربي المساري: كراسات أندلسية (مجموعة مقالات الباحثين جمعها وقدم لها الأستاذ المساري)، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، رقم 3، مطبعة النجاح الجديدة، الدر البيضاء، المغرب، ص 10.

* : تسمى " بحركة القديسين الشهداء" أو " ثورة المستعربين القديسين" في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (206 هـ - 238 هـ/ 822م - 852 م)، عهد الانفتاح والاستقرار والحرية الدينية، حيث بسطت الثقافة العربية ردائها على جميع مناحي الحياة العلمية والفكرية وأصبحت الطوائف الأخرى ومنها المستعربون واليهود يتخذونها في جميع مراسلاتهم ومكاتباتهم وفي آدابهم وجميع مناحي مناحي حياتهم ، هذا ما حز في نفوس بعض قساوستهم من الحاقدين المتعصبين وعلى رأسهم ألبارو القرطبي (ALVARO DE CORDOBA) أحد برجوازيي المستعربين الميسورين الذي ينحدر من أصل يهودي، وصديقه إيلوخيو(EULOGIO) المستعرب الذي ينحدر من أصل نبيل، حيث أججا الحمية الدينية لدى أفراد جالية المستعربين القرطبية ، المر الذي حدا العديد من المستعربين المشحوذين بجرعات التعصب الديني على المثول أمام قاضي المسليمن، والتهجم على الرسول والإسلام فحكم عليهم بالموت./ ماغريتا لوبيز غوميز: المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 274، ومن بين القديسين المنتحرين، فتاة مسلمة الأب غير أنها

إحراج السلطة الإسلامية الحاكمة ،و محاولة ضرب مصداقيتها في التعامل مع التنوع الإثني والديني، لم يوفق هذه الحركة إلا أسقف قرطبة المسيحي ريكافر(RECCAFRED) الذي ترأس مجلس قرطبة في عام (237 هـ/ 852 م)، والذي وضع حدا لثورات المستعربة، في عاصمة الخلافة الأموية[1].

ومن الأحداث ذات الدلالة في هذا الخصوص أن مسيحيي قرطبة اتهموا خوستيوجيس (HOSTEOGIS) أسقف مالقة في القرن الهجري الثالث التاسع الميلادي، بأنه وشتى إلى السلطات المالية الإسلامية بأسماء الفلاحين المسيحيين في أسقفيته لكي يتم تسجيل أسمائهم على كشوف دفع الجزي، وكان الراهب القرطبي (ساسنون) هو الذي وجه إليه الاتهام[2]، هذه النماذج على قلتها تبين مدى الوعي الذي تحمله الطبقة العليا من هذه الأقلية حول قضية الوحدة والاندماج، ومن ثم فإن استعرابهم لسانا وتفكيرا وأسلوب حياة كان له ما يبرزه على الأقل من الناحية الاجتماعية والفكرية، وبالفعل فقد كانت لهم مساهمة فعالة في الثقافة العربية، أو في النقل من وإلى هذه الثقافة.

والمصادر العربية تحدثنا عن الأسقف المستعرب دون خوان (DON JUAN) الذي ترجم الكتاب المقدس إلى العربية[3] أو مختلف التراجم التي قام بها المستعربون للعلوم العربية: رياضيات الخوارزمي، أو كتب الفلك مثل رسالة ما شاء اللّه في الأسطرلاب ، وهي تراجم مازالت محفوظة حتى اليوم.[4]

=تأثرت بأمها المسيحية، واسمها فلورا(FLORA)، والراهب برفكتو (PERFECTO)، وآخر اسمه اسحاق (ISAAC)./ حول هذه الحركة وأسماء أبطالها ينظر: LEVI Provençal histoire de l'Espagne musulmane ,v1 pp 225, 226, 227…235.

وقد كتب غير واحد حول هذه الحركات وثورات المستعربة من الغربيين أو من المؤرخين العرب.

أما فيما يخص الراهب ألبارو القرطبي فقد رفع عقيرته أكثر من مرة وله نص شهير حول فشو الغربية بين المستعربين واتخادها أداة للتعبير والنظم من قبلهم فقال متحسرا:" إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا... وهم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب انفسهم فنا وجمالا :" بالانثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، ص 543، 544.

(1): رفاييل بالانثيا: اشبيلية الإسلامية: تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، ص 220.

(2): ميكائيل دي ايبالزا: المستعربون : أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة، ص 245، 246.

(3):رفاييل بالانثيا: اشبيلية الإسلامية: تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، ص 220.

(4): مارغرينا لوبيز غوميز: المستعربون: نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 279.

- اليهود:

يعد اليهود من أقدم الطوائف أو الشعوب التي استوطنت إسبانيا، او شبه جزيرة أيبيريا. فالوجود اليهودي في أرض الأندلس قد سبق دخول الإسلام إليها، و حتى خروجهم من هناك قد تأخر إلى جانب المسلمين بعد سقوط غرناطة عام (1492م)، و بداية تعرضهم لضغوطات محاكم التفتيش بعد هذا التاريخ.

أما التحديد الدقيق لوجودهم في شبه الجزيرة فيرجع إلى العهد الذي أقام فيه الفينيقيون وكالاتهم التجارية على شواطئ الأطلنتيكي، حيث حملوا مثلهم مثل رفاقهم الذين هم من مملكة يهودا أو مملكة إسرائيل، بضائعه و معتقداتهم و حركيتهم و نشاطهم.[1] و من المحتمل أن يكون هذا الأمر قد استمر و تنامى خلال فترة الاستيطان الروماني، بل أيام سقوط البلاد تحت هيمنة القوط[2]. كان القوط مسيحيين على المذهب الأريوسي الذي يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح، في حين كان الشعب الأيبيري على المذهب الكاثوليكي الذي يقر بطبيعتين للمسيح[3]. و كان آخر ملوك القوط الأريين هو ليوفيجيلد(LIUVIGID) (568 -586م) و الذي خلفه ابنه ريكاريدو (RICAREDO) الذي غير الديانة الرسمية للقوط إلى الكاثوليكية[4]، و من هنا بدأ فصل جديد للتعامل مع اليهود؛ حيث أجبروا فيما بعد على اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد في عهد الملك ششبرت ( ) SISIBERTO (612-621م)، و بلغت حدة التضييق على اليهود في عهد الملك (إيرفيج) حيث أجبرهم جميعا على التنصر أو مبارحة البلاد في مدى عام. " و كان كثير من أعمال الحكم في المملكة يقدر في مجامع كنسية*، و السلطات الإكليركية المتأثرة طبعا باعتبارات تيولوجية،

---

(1): حاييم الزعفراني: يهود الأندلس و المغرب، ترجمة: أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ج1، ص29.

(2):المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3): محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)، ص57، 58.

(4): حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص21.

*من هذه المجامع التي أصدرت قرارات ضد اليهود، المجمع الطليطلي الثالث الذي قرر تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية، و كذلك مجمع طليطلة الرابع و مجمع طليطلة الثامن، و السادس ، و السابع عشر. ينظر حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص543. و قد فصل مؤنس في علاقة اليهود مع القوط قبل الفح الإسلامي، ينظر المصدر نفسه: الصفحات 26، 27، 30، 542، 543، 544.

كانت ترى في اليهود أعداء[1]. تحرك اليهود شرا من أجل تقويض دولة القوط و ذلك بالاتصال مع يهود الشمال الإفريقي، و نمي الأمر إلى (أخيكا)، حيث أصدر المجمع الطليطلي السادس قرار يجعل من اليهود رقيقا يوزع على المسيحيين[2] و كان قد صدر عن مجمع عام (693م) قرارا قاسيا جعل من المستحيل على اليهود عمليا تعاطي التجارة[3]، فكان أشد عليهم من القرارات السابقة باعتبارها عصب حياتهم.

هذا ما شجع يهود شبه الجزيرة الأيبيرية على العمل بشكل كثيف مع يهود شمال إفريقيا من أجل الإطاحة بنظام القوط، و لا شك أن يهود الشمال الإفريقي قد أخبروا نظراءهم في العدوة العليا عن سماحة الفاتحين المسلمين لإفريقية و المغرب معهم، و عن حجم مساحة الحرية للطائفة اليهودية في ممارسة طقوسهم و شعائرهم، مما شجعهم على تسهيل مهمة الفاتحين و لو بشيء قليل، و القبول بحكم الإسلام على حكم القوط.

" و يحكي المؤرخون العرب أن الفاتحين المسلمين كانوا كلما وجدوا طوائف يهودية في الأماكن المفتوحة، اتخذوا منهم حرسا لها، و ما كانوا يتركون من جندهم معهم إلا قلة قليلة، في حين يتقدمون إلى الأمام بالغالبية من جندهم للاستيلاء على بقية البلاد."[4]

لقد اعترف الإسلام منذ بداياته بارتباطاته الخاصة باليهودية و المسيحية ... فقد ظهرت عبارة (أهل الكتاب) مشيرة إلى اليهود و المسيحيين، و مؤكدة بوضوح صحة هاتين العقيدتين."[5]

منذ أن أصبحت شبه الجزيرة أرضا إسلامية، أصبح اليهود شأنهم شأن الطوائف الأخرى كالمسيحيين يخضعون لسلطان الإسلام، و لكنهم يتمتعون بحرية المعتقد و ممارسة طقوسهم و

---

(1):مونتوغومري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص27.

(2): حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص543.

(3):مونتوغومري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص27/ العبادي: في تاريخ المغرب و الأندلس، ص53.

(4):حاييم الزعفراني: يهود الأندلس و المغرب، ج1،ص30./تورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص313. و الإشارات التاريخية حول هذه القضية في أكثر من مصدر: المقري: نفح الطيب، ج1، ص263./ مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص100،ص102.

(5):ماريا روزا مينوكال: الأندلس الإسلامية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص62، 63.

خصوصياتهم تحت قانون "أهل الذمة" باعتبارهم طوائف معاهدة، " فكانت لهم بيعهم التي تقام فيها تواصلهم، و كانوا أحرارا في ذلك لا يعرض لهم المسلمون شيء."[1]

اختلط اليهود و اندمجوا مع مختلف العناصر المكونة للشعب الأندلسي، و قد كان للمصالح الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية دور في هذا الاختلاط، بل من المسلم به "استعراب اليهود منذ الفترة الباكرة من تاريخ الأندلس، فأخذوا لغة العرب و ملابسهم، و اندمجوا اندماجا عميقا في الحضارة الإسلامية."[2]

و يمثل التكافل اليهودي العربي في فترات كبيرة من عمر الأندلس الإسلامي أوثق عراه، و قد أوجدته المصالح المشتركة بين أتباع الديانتين، "حيث كان رجال الأعمال اليهود جزء متمما من اقتصاد الأندلس الداخلي، و هناك فتوى من القرن الحادي عشر تعالج شكوى من باعة جوالين يهود (و تتحدث خاصة عن سهولة وصولهم إلى النساء في البيوت لبيعهن البضائع)، و قد سلطت هذه الشكوى الضوء على القابلية الخاصة للتجار اليهود للتحرك خارج المجتمع الأندلسي حتى الدخول إلى القسم الخاص بسكن النساء."[3] مما يدل على حجم العلاقات بين الأندلسيين على اختلاف طوائفهم، و لعل قصة التاجر اليهودي و التي ذكرتها بعض المصادر الأندلسية ،حيث استأجر من مسلم ليحاول إنقاذ بناته اللواتي أسرت من قبل المسيحيين أثناء حصارهم لـ "بربستر - BARBASTRO - عام 1064م"، و على الرغم من المحاولة، حيث ذهب اليهودي إلى مالكهم المسيحي و استعطفه من أجل ردهن و عرض عليه أموالا كثيرة، فرفض و لكن هذه القصة تبين لنا عمق العلاقات بين الطرفين.[4]

و هذا ابن حزم الأندلسي فقيه الأندلس و عالمها، يجتمع في دكّانه بألمرية مع عالم يهودي اسمه إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، إلى جانب ثلة من علماء المسلمين حيث يعقدون بعض

---

(1):حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص546.

(2) LEVI-PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne musulmane, T1,p80,81

(3):أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة و التجار في الأندلس، ص114.

(4):القصة عند ابن بسام في الذخيرة، ق3/1/ ص186، 187.

مجالسهم العلمية و الأدبية و بعض المناظرات[1]. مما يدل على عمق الروابط بين الثقافتين الساميتين.

لقد أدرك يهود الأندلس أن التعايش و التفاعل الثقافي و التداخل الفكري، و التبادل المادي أمرا ممكن الحدوث، دون سيطرة أيديولوجية أو دينية، فالتباعدات السياسية و العقدية بينهم و بين أبناء الطوائف المشكلة للتوليفة البشرية الأندلسية، لم يمنع من حدوث تشابك و تضافر ثقافي و معرفي مع الثقافة الرسمية المتعالمة، و هي الثقافة العربية الإسلامية بما تحتويه من أشكال معرفية متعددة تفتقر إليها الثقافة العبرية التي كانت حبيسة البيع و دور العبادة اليهودية، ولا تخرج عن الطقوس الدينية و الترانيم و الصلوات المتوارثة من أسلافهم في المشرق منذ أزمنة بعيدة، و لهذا فإن إغراء الثقافة العربية المادي و الفكري و الأدبي أمر لا يقاوم. "لقد كتب مؤرخو اليهودية عن ازدهار الثقافة اليهودية في الأندلس بإسهاب شديد و عادة ما يقرن ذلك الازدهار بالعصر الذهبي لتلك الثقافة، و من وجوه عدة سار ازدهار الثقافة اليهودية جنبا إلى جنب مع مجد الثقافة العربية."[2] كان اليهود (الأندلسيون) إسبانا طوال ألف عام و كانت اللغة العربية لغتهم الأم."[3] لم يكن للثقافة اليهودية أن تحقق الازدهار و التطور إلا بلغة المكانة المرموقة –أي اللغة العربية - لغة الغالبية العظمى من الشعب الأندلسي حتى من غير العرب و من غير المسلمين، و لغة السلطة السياسية، و لغة الإنتاج المادي و الحضاري و الفكري المزدهر، حينما أدرك يهود الأندلس أن لا يشذوا عن القاعدة. "كانت اليهود جميعا يجعلون من الأندلسيين أبطال التاريخ اليهودي، يعرفون أنه تم إنقاذ العبرية من تهافتها بفضل الموهبة العالية ليهود الأندلس خلال قرون الحكم الأموي أولا، ثم خلال حكم الطوائف."[4]

وكان مما عزز الثقافة اليهودية في الأندلس، هو تلك البورجوازية اليهودية التي تبوأت رفيع الدرجات السياسية و المناصب المالية في الدولة الإسلامية الأندلسية، فقد أتيح لبعض أفرادها تلك

---

(1):ابن حزم: طوق الحمامة (مجموع الرسائل)، ج1، ص114.

(2):ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي)، ترجمة: صالح بن معيض الغامدي، دار الانتشار العربي، بيروت ، ط2، 2009م، ص224.

(3):المصدر نفسه: ص18.

(4):ماريا روزا مينوكال:الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص131.

المكانة السامية في الحياة السياسية، و كان هؤلاء الأفراد من البورجوازيين أهم من صنع الملحمة الثقافية ليهود الأندلس. فقد كان الطبيب و المستشار و الدبلوماسي حسداي بن بشروط (334هـ/945م -360هـ/970م) في مجلس الخليفة الناصر لدين الله،" و كان من نتائج هذه الرعاية التي أضفاها الناصر على حسداي أن بدأت الدراسات التلمودية في إسبانيا (الأندلس)، و لم تلبث هذه البلاد أن أصبحت مركز الدراسات العبرية، و كان من نتائج عناية حسداي بهذه الدراسات العبرية أن تحسن حال إخوانه في الدين، مما اتاح لليهود –فيما بعد - أن يقوموا بنصيب كبير في الثقافة الأندلسية."[1] فقد مثل حسداي بمجمل أنشطته فئة حاخامات البلاط من اليهود الأندلسيين و هذه الفئة ستصبح بروزا في عهد الطوائف.[2]

و كان لسقوط قرطبة عاصمة الخلافة نتائج كبيرة، من تشتت وحدة الأرض و السلطة السياسية إلى كيانات عديدة مستقلة، حصلت هجرة كثيفة من مختلف عناصر الشعب إلى باقي أقطار البلاد و كان من بين المهاجرين" العائلات اليهودية القديمة و (المبجلة) التي هاجرت قرطبة لتستقر في ممالك الطوائف."[3] كانت الجماعات اليهودية في هذا الوقت عنصرا هاما من المشهد الثقافي الذي كان في كامل تفتحه و ازدهاره. و قد حذا اليهود المثقفون و الأغنياء حذو العديد من القرطبيين الأثرياء، فغادروا العاصمة القديمة المنهارة، التي غدت خطيرة، هاجروها نحو الطوائف الجديدة، فوجد العديد منهم النفوذ الذي كانوا يتمتعون به في قرطبة[4].و رغم ذلك حافظت قرطبة على نفوذها الثقافي، فإن كانت مركز الفتيا و الفقه الإسلامي" فقد تأسست بها مدرسة للدراسات العبرية احتلت مركز الصدارة منذ القرن الخامس الهجري و ما بعده، و توسعت حتى صارت دار الإفتاء في الشريعة اليهودية داخل الأندلس و خارجه"[5].

---

(1):بالانثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص24.

(2):ريموند شايندلين: اليهود في إسبانيا المسلمة، ترجمة: مريم عبد الباقي، ضمن كتاب (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)، ج1، ص304.

(3):ماريا روزا مينوكال:الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص133.

(4):المصدر نفسه: ص38.

(5):عصمت عبد اللطيف دندش: دراسات أندلسية في السياسة و الاجتماع، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009م/ 1430هـ، ص110.

و كان من ألمع الشخصيات اليهودية في عهد الطوائف إسماعيل بن النغريلة المعروف بالعبرية باسم صموئيل ناغد (382هـ -383هـ/993م – 447هـ -448هـ/1055 -1506م) و كان من بلاط أمير غرناطة الزيري حبوس بن ماكسن، كما لعب دورا كبيرا في تأمين الولاية للأمير باديس، و كان شخصية محترمة في التاريخ الأندلسي بالنسبة لليهود." و هو لم يدعم الشعر العبري و الأبحاث التلمودية و حسب بل إنه كان هو نفسه من ألمع رجالات عصره في كلا الحقلين"[1].

أدى صموئيل ناغد الدور المنوط به سياسيا و ثقافيا كيهودي أندلسي استكمالا للمشروع الكبير الذي بدأه سابقوه في شبه الجزيرة الأيبيرية و على رأسهم حسداي بن إسحاق خادم عبد الرحمن الثالث و ابنه الحكم، الذي خلف مدرسة و تلاميذ استكملوا المسيرة، باعتباره أول من فتح لأهل الأندلس منهم باب علمهم من الفقه و التاريخ و غير ذلك و كانوا قبله يضطرون في فقه دينهم و سني تاريخهم و مواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد كما يقول صاعد.[2] فاتعشت الدراسات التلمودية حتى تفوقت على مدارس ما بين النهرين.[3]

و إذا ضربنا صفحا عن هذين الشخصيتين حسداي و ابن النغريلة؛ لشهرة الأول في البلاط القرطبي، و شهرة الثاني في البلاط الزيري، و ارتباط اسمه بثورة المسلمين ضد اليهود لاستهزائه ببعض المقدسات الدينية الإسلامية، و بتحفيز من الفقيه المسلم أبي إسحاق الألبيري حصل ما حصل. سمعنا عن يهودي آخر اسمه إسحاق بن قسطار خادم الموفق مجاهد العامري و ابنه إقبال الدولة، حيث كان هذا اليهودي مشاركا في علم المنطق مشرفا على آراء الفلاسفة، و قد توفي بطليطلة سنة (448هـ).[4] كما سمعنا عن يهودي آخر من البلاط الزيري في غرناطة و اسمه أبراهام، و عن أبراهام بن مهاجر بين بني عباد في إشبيلية."[5]

لقد استطاعت الشخصيات اليهودية المثقفة في الأندلس - وخاصة المرموقة منها - أن تتبني المؤسسات الثقافية والاجتماعية العربية، مما أسهم في تنوع النسيج الاجتماعي والثقافي والفكري،

---

(1): ريموند شايندلين: اليهود في إسبانيا المسلمة، ص304.

(2): صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق: حياة علوان، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1985م، ص 203، 204.

(3): روبرت هيليبراند: "زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، ص197.

(4): صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص204، 205.

(5): ريموند شايندلين: اليهود في إسبانيا المسلمة، ص304، 305.

ويكفي للدارس أن يطلع على سير وتراجم هذه الشخصيات حتى يستطيع أن يلحظ الثقافة العربية الكبيرة التي يمتلكونها ويزاوجونها مع الثقافة العبرية الأم، وفي أحيان كثيرة تكون اللغة العربية هي لغة الإبداع والتألق، لعل يهود الأندلس كانوا أشد انفتاحا على الثقافة العربية والإسلامية أكثر من نظرائهم الذين كانوا يعيشون في البيئات العربية المختلفة." لقد كان أساس الثقافة اليهودية الأندلسية الذي أتاح لها أن تتطور"

... هو فكرة أن الثقافة اليهودية الحقة والعقيدة اليهودية الحقة لم يكونا متنافيين مع مجموع الأنشطة العريقة أي مع الشعر العبري الجديد الحامل للتأثيرات العربية."[1]

وفي هذا الصدد نستطيع أن نتذكر الفيلسوف ابن جبرول (411/1021 - 462هـ/1070م)، والذي يسميه النصارى أفنبرول (AVENECEBROL)[2] والذي يسميه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحي، فقد قرأ كتب فلاسفة العرب وصقل ملكته بما فيها من الآراء والأفكار[3] وألف كتاب (ينبوع الحياة) بالعربية، وتأثر في تأليفه بمذهب ابن مسرة القرطبي.[4] كما نظم قصيدة عبرية صاغها في بحر الرجز العربي تتألف من أربعمائة بيت.[5] وله رسالتان باللغة العربية، الأولى (كتاب إصلاح الأخلاق)، وهي الأخلاق العلمية، والثانية بعنوان(مختار اللآلئ)، وهي مجموعة من حكم فلاسفة اليونان والمسلمين.[6]

أما باخيابنباقوذ (يحي بن يوسف بن باقوذا) والذي كان معاصرا لابن جبرول، وقد سماه الناس(توماس دكيمس - TOMES DE KEMPIS)، فقد ألف كتاب (الهداية إلى فرائض القلوب)

---

(1):ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص136.

(2): دي بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمةك محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، د ت ، ص299

(3):بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص551، وقد ذكره صاعد الطليطلي في طبقات الأمم وحدد تاريخ وفاته (450هـ) وقال عنه: " سليمان بن يحي المعروف بابن جبير من ساكني مدينة سرقسطة وكان مولعا بصناعة المنطق." ص205.

(4):بالانثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص552.

(5):المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(6):المصدر نفسه، ص553.

باللغة العربية، حيث كان لآراء الغزالي في الأخلاق والتصوف أثر ظاهر في هذا الكتاب."[1] بينما يرجع الأستاذ (دبور) تأثيره بإخوان الصفا.[2]

يمكن القول إن الطائفة اليهودية – في ذلك الوقت - المنتشرة في شتى البقاع، لم تستطع أن تنتج مثل ما أنتجته قرينتها الأندلسية، من الثقافية الفكرية المزيجة، والتي تنعكس فيها الطوابع العقلية لمختلف الحضارات والأفكار وعلى رأسها الثقافة العربية الإسلامية.

" لقد كان يهود القرن الحادي عشر (عصر الطوائف) والقرن الموالي، بتحضرهم وتجربتهم الفلسفية وتفوقهم الاجتماعي يمثلون النموذج الأمثل لأحلامهم الخاصة."[3]

أما الشاعرة قسمونة بنت إسماعيل اليهودي، فهي شاعرة أندلسية يهودية من غرناطة عاشت في القرن الخامس الهجري، وقد ذكرها المغري التلمساني، وذكرها بعض الأبيات الشعرية التي كتبتها بالعربية.[4] ويمضي التأثير العربي بعيدا في النحو العبري عند ابي الوليد مروان بن جناح المولود في قرطبة بين سنوات (985 و990م) والذي ألف كتابا بعنوان (التلقيح) والذي تضمن جزءين :اللمع والأصول، فهو مؤلف فيه من علم العربية الكثير، وخصوصا سيبويه الذي شكل قاعدة الكتاب ومبناهن وفيه أيضا من استعمال اللهجة الأندلسية المشتركة الكثير.[5]

---

(1):المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(2): تاريخ الفلسفة الإسلامية: ص299، ونحن نميل إلى رأي الأستاذ (دي بور)، فالغزالي توفي عام (505هـ)، حيث عاصر ابن بافوذا،لكن إخوان الصفا كانوا الأسبق زمنيا، كما أن رسائلهم دخلت الاندلس بوقت طويل قبل بروز أبي حامد الغزالي، وأول من أدخلها أبو الحكم عمرو بن أحمد المعروف بالكرماني من أهل قرطبة والمتوفى عام (458هـ)، يقول عنه ابن أبي أصيبعة: " ورحل إلى المشرق ... ثم رجع إلى الأندلس، استوطن مدينة سرقسطة من ثغرها، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا ولا نعلم أحد أدخلها إلى الأندلس قبله."عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا ن منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص484، 485.

(3):ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص130.

(4): نفح الطيب: ج3، ص530. وقد ذكرها المقري من دون الإشارة إلى سنة ميلادها أو وفاتها . وجعلها الأستاذ محمد المنتصر الرسيوني ضمن شاعرات عصر الطوائف، ذلك أن هذا العصر تميزا بازدهار الموشحات والشاعرة قسمونة كانت وشاحة./ الشعر النسوي في الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1978، ص104. وقد اتبع رأي الريسوني، الأستاذان يوسف فرحات ويوسف عيد في كتابهما (معجم الحضارة الأندلسية) في ترجمتها للشاعرة قسمونة./ دار الفكر العربي، بيروت،ط1، 2000م، ص101. وكذلك الأستاذ عبد الحكيم الوائلي الذي أكد على ذلك في ترجمته للشاعرة ضمن كتابه (موسعة شعراء الأندلس). دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ص274.

(5): أحمد سحلان: الحياة العامة في أندلس العصر الوسيط، ص189. ذكر صاعد الأندلسي في (طبقات الأمم) مروان بن جناح وقال: " من أهل العناية بصناعة الطب والمتوسع في علم لسان العرب واليهود، وله تأليف حسن في ترجمة الأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة في صناعة الطب والأوزان والمكاييل." ص204. أما أنفل بالانثيا فيقول عنه: " ألف ابن جناح (384هـ/995م -

وفي هذا المقام نستطيع ذكر تلاميذ حسداي بن بشروط مثل موسى بن حانوك ومدرسته، التي أنجبت أعلاما من الأدب كمناحيم بن شروق الطرطوشي، صاحب الكناشة[1] ودوناش بن لبرت (لبراط) صاحب (الأجوبة).[2] ذلك اليهودي المثقف القادم من الشرق (بغداد)...حيث كان أول من اقترح كتابة الأشعار عبرية وفقا لقواعد الشكل الشعري العربي.[3] ولا توجد إلا وسيلة وحيدة حسب دوناش ، لمنح العبرية حياة خارج المعبد ، هذه الوسيلة هي تزيين العبرية بالتطريزات العبرية.[4]

لقد وخق يهود الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على الاستمرار في المساهمة الثقافية بشكل عام، وعلى تغذية الثقافة العبرية ببعض القيم غير العبرية حتى ولو كانت معارضة لثقافتهم في بعض الأحيان،" فلطالما اعتبر الشعراء الأندلسيون العبريون في أعين أعقابهم أبطالا... فقد كانوا أول من أتاح للعبرية أن تخرج من جديد من المعابد اليهودية وتظل في نفس الآن لغة العبادة."[5] حتى إن لغة العبرية قبل هؤلاء كانت توصف باللغة المتحجرة للشعائر الدينية."[6] لقد انبثق شعر عبري جديد في عصر ممالك الطوائف " حيث غدت الحاجة ماسة إلى لغة شعرية أصيلة قادرة على إيواء قيم متعارضة وتغذيتها.[7] وكأنه محكوم على أندلس الطوائف أن تعيش كل محاولات التجديد والتجريب الثقافية لكل العناصر التي احتوتها.

441هـ/1050م) أهم كتبه المسمى (بالتنقيح) بلغة العرب... وإليه يرجع الفضل في نشوء علم النحو في اللغة العربية، وعرفه النصارى بسم يونا(يونس) ومر ينوس (MIRINOS) ." نازع الفكر الأندلسي، ص547.

(1):بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي،ص547./ أحمد شحلان: الحياة العامة في أندلس العصر الوسيط، ص190.

(2):بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي،ص547./ أحمد شحلان: الحياة العامة في أندلس العصر الوسيط، ص190.

(3):ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص88، 89.

(4):المصدر نفسه: ص89.

وحول التاليف النحوي العبري في الأندلس بذكر بالانثيا في كتابه (تاريخ الفكر الأندلسي) عالما آخر هو يهوذا بن داود وهو تلميذ مناحيم بن سروقا، ويسمى كذلك (أبو زكريا بن داود الفارسي المعروف بحيوج) والذي ألف كتابا في النحو العبري بلسان العرب ،ص547. ذكره الباحث أحمد شحلان وقال: " وهو صاحب الأفعال ذوات حروف اللين والأفعال ذوات المثلين" الحياة العامة في الأندلس العصر الوسيط، ص190 وجاء في بعض نصوص المقري التلمساني في نفح الطيب:" أن يهود الأندلس كانوا يشتغلون بالعربية"، ج3، ص525.

(5):ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص212.

(6):المصدر نفسه: ص130.

(7): المصدر نفسه : ص89.

" كان أهم ما أنجزه اليهود الأندلسيون الثقافية الأدبية التوفيقية التي جمعت بين الأفكار والأشكال الأدبية العربية والعبرية."[1] ظهرت هذه الثقافة المزيجة في أعمال طل من ذكرنا سابقا من علمائهم وأدبائهم وشعرائهم ومفكريهم، وستكون بشكل أوضح عند" موسى بن عزار المولود في غرناطة بين السنوات (1055م - 1060م)، في أعماله وإبداعاته، وخاصة في مؤلفة الموسوم بـ (المحاضر والمذاكرة)، حيث كان المقصود من تأليفه هو إظهار قدرة اليهود على خلق أدب عبري شبيه بالأدب الغربي.[2] وسنجدها لاحقا بشكل أوضح عند أعلام أخرين مثل: يهودا هاليفي (أبو الحسن اللاوي)، والفيلسوف ميمون بن موسى. حتى نسمي الشعر العبري لهذه الفترة ونتيجة للثقافة المزيجة التي نظم على ضوئها " بالشعر العبري المعرب"[3]

ولا ننسى في حديثنا عن نوابغ الفكر والأدب والثقافة العبرية في أندلس القرن الخامس الهجري عن أعلام أتوا من خارج الإطار الجغرافي الأيبيري، ولكم استوطنوا في الأندلس وساهموا في إبراز الذات الثقافية اليهودية، ويأتي في طليعتهم - إضافة إلى دوناش بن لبروت الذي ذكرنا - " المفكر الديني إسحاق الفاسي(ت 497هـ) والذي يعد حجة في الدراسات التلموذية، فقد استغرق شرحه للتلمود خمسين سنة كاملة، وبعد هجرته من قلعة بني حماد (الجزائر) استقر في فاس ثم انتقل إلى مدينة أليسانة*، حيث أسس مدرسة أصبحت من أهم مركز الدراسات التلموذية، وخلف عدة تلاميذ."[4]

أما الأعلام من الشعراء والأدباء والمفكرين المبرزين الذين تحولوا عن الديانة اليهودية إلى الديانات الأخرى كالإسلام والمسيحية، سواء عن قناعة وتبين أو نتيجة بظروف أخرى، فقد كانوا وسطاء بين عالمين، كأبي الفضل بن حسداي الذي ينحدر من نسل موسى عليه السلام، الذي أسلم وحسن

---

(1): ريموند شانيد لين: اليهود في أسبانيا المسلمة، ص306.

(2): أحمد شعلان: الحياة العامة في اندلس العصر الوسيط ، ص189.

(3):ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة، وثقافة التسامح، ص132.

*أليسانة (lucena) وإلبيرة(ilberis) ، من مدن الجنوب التي سكنها اليهود في أواخر العصر القوطي واستمر وجودهم فيها حتى بعد الفتح الإسلامي بقرون عديدة./ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص542، 543.

(4): إبراهيم القادري بوتشيش: محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب، ص 88.

إسلامه، وكان من أعلام عصر الطوائف. قال عنه ابن بسام: " وهو أحد من عني في هذا الإقليم بالنظر في أنواع التعاليم ، على مراتبها وتناول الفنون من طرقها واحكم على لسان العرب..."[1]

كما تحكي المصادر التاريخية كذلك عن يهودي آخر تحول إلى المسيحية وهو (بيير ألفونس) "فماضيه الأندلسي وتربيته اليهودية في العلوم والآداب العربية سيجعلان منه هذه المنطقة منبعا زاخرا للمعرفة والحكمة الفلسفية."[2]

والحديث عن اليهود الوسطاء بين الثقافات ينبغي ألا ينسينا ذكر نوع من المثقفين الذين لعبوا هذا الدور بامتياز عبر التاريخ وفي كل الثقافات المختلفة (العربية والعبرية، والقشتالية) ولعل استشعار علماء اليهود حاجة من لا يعرف العربية منهم أو من غيرهم وخاصة في البيئات غير الإسلامية الواقعة في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، وحتى خارجها ،كان من بين الحوافز التي دفعتهم إلى نقل مؤلفاتهم التي وضعت بالعربية إلى العبرية، ولم لا نقلها إلى اللغات الأخرى، وقد يكون الدافع أحيانا ماديا وفي هذه الحالة فإن الانتحال الثقافي قد يكون أمرا جائزا فقد نهى ابن عبدون الإشبيلي شاعر عصر الطوائف في رسالة له شهيرة عن بيع كتب العلم لليهود والنصارى إلا ما كان من شريعتهم، فإنهم يترجمون من العلوم وينسبونها إلى أهلهم و أساقفتهم وهي من تواليف المسلمين.[3] أم عن أشهر مترجمي هذا القرن من اليهود (إسحاق بن روبن) و (طوبيا بن موسى) اللذاين كانا ينقلان من العربية إلى العبرية.[4]

---

(1): الذخيرة: ق3/1/ص458، وفيه ترجمة مطولة عنه من ص 457 إلى 492. وله ذكر موسع كذلك عن صاعد الأندلسي في طبقات الأمم، ص 172 ، 205 ، 206. وعند الفتح بن خاقان في القلائد. من ص 170. وكذلك عند العماد الأصفهاني في الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج2، ص460 وما بعدها، رقم الترجمة (120)، وذكر كذلك عند الم المقري التلمساني في النفخ، ج1 ،ص640 وما بعدها، ج3، ص293، 294.

(2):ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص127، ويدى أحيانا (موسى السيفياريدي، وقد عمد بعد سن الأربعين في مدينة (هويسكا -HUESLA) الواقعة على بعد حوالي خمسين كلم غرب برشتر في مملكة أراغون من طرف ملكها ألفونس الأول وذلك في حوالي سنة (1106م) ن من مؤلفاته (قصص القساوسة) وعنوان الكتاب الأصلي باللاتينية (DISCIPLINA. CLERICALIS)وحرفيا بالفرنسية (PISCIPLINEDE CLERGIE)أو (تدريس الإكليورس). وله مؤلف آخر (PIALOGO CONTRA LOS JUDIOS)أول محاورة ضد اليهود)./ ينظر ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية ، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، من ص 117 إلى ص 127.

(3): ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة.

(4): حسن الوراكلي: ياقوتة الأندلس (دراسات في التراث الأندلسي)، دار الغرب الإسلامي. ط، 1994، ص33.

وعلى العموم فإن اليهود قد كان لهم دور فاعل في الحياة الثقافية الأندلسية في عصر الطوائف " فنجدهم على الخصوص وتجارا ووسطاء بين عالم الفرنج وإسبانيا المسلمة (الأندلس) ولكنهم أقاموا كذلك ثقافة يهودية أندلسية لامعة تمت إلى دراسات الحياة الثقافية أكثر مما تمت إلى الحياة الاجتماعية... وباعتبارهم من أصل وثقافة سامية كالعرب فقد ساعدوا على نشر التأثير المشرقي في الحضارة الإسلامية."[1]

- الصقالبة:

من أهم الطوائف التي شكلت المجتمع الأندلسي (الصقالبة)، وما حملته معها هذه الطائفة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، وحتى على الصعيد الثقافي.

" ويطلق لفظ الصقالبة على الرقيق الأوربيين الذين كان يشتريهم المسلمون في إسبانيا... وكان يئتي بهم من بلاد أوروبا الوسطى والجنوبية ومن شواطئ البحر الأسود، ومن كلابرولومبارديا، وغيرها، وكان من بينهم أيضا من تعود أصولهم إلى شمال شبه الجزيرة"[2] وكانت إسبانيا بخاصة مشهورة منذ القرن التاسع بصادراتها من الرقيق الأبيض الأوربي القادم من البلاد النصارى المعروفين بالسلافيين أو الصقالية... وربما كان الكثيرون منهم قد جاءوا أصلا من بلاد السلاف * ووسط أوربا بعد أن أسروا في الحروب الكارولبخية ضد ملحدي هذه البلاد، وحملوا بعد دلك بواسطة التجار الذين كانوا على ما يظهر من اليهود ، ليباعوا لمسلمي إسبانيا، ثم عم هذا الاسم على الأرقاء القادمين من أوربا النصرانية عن طريق الأسر في الحروب مع إمارات شمال إسبانيا أو خلال الغزوات التي كان يشنها قراصنة الأندلس في القرنين الميلاديين التاسع والعاشر على سواحل غالة الجنوبية وسواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط.[3]

---

(1):بيير غيشار (pierre gnichard) : التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين (من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر، دراسة شاملة)، ترجمة: مصطفى الرقي، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ص970.

(2):بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا (طبعة دار المعارف)، ص108./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص22.

*: يقول غيشار: " كان الجغرافيون العرب في العصر الوسيط يغتبرون بلاد السلاف قطرا واسعا يصل من أحد أطرافه - الطرف الغربي بالنسبة إلينا - ببلاد الفرنج، وهذه بدروها تتصل بمسلمي إسبانيا وصقلية، كما يصل من الطرف الأخر أي من الجنوب الشرقي، بالمشرق المسلم أي قزوين وخراسان، ولم تكن رؤية الجغرافيين هذه بعيدة عن الحقيقة، فكان الرقيق الأبيض يؤخد من الطرفين، ويسمى أفراده بالسلافيين مهما كان أصلهم. " التاريخ الاجتماعي لاسبانيا المسلمة نت الفتح إلى نهاية حكم الموحدين، ص976.

(3):بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين ص976.

يدخل الصقالبة في عموم الرقيق الذي كان يجلب إلى الأندلس الإسلامي بواسطة تجار متخصصين في هذا المجال، ولكنهم - أي الصقالبة - من الرقيق المفضل لدى المجتمع الإسلامي آنذاك أما تفضيلهم فراجع إلى قواتهم وصلابتهم، وشدة مراسهم في الحرب، وولائهم المطلق لمن ينتسبون إليه. فلطالما كانوا العدة الأولى والنواة الصلبة لجيش الخلافة الأندلسية التي استكثرت منهم، لعدم ثقتها بالجنس العربي لخصوماته القبلية الكثيرة، حتى إذا وصل الأمر إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر وجدناه يعتمد عليهم في جيشه، فبهم تمت فتوحاته في الممالك الشمالية، وبهم استعان على تحطيم الإطار العشائري الذي كان يحكم منظومة الجيش العربي.

وبمجيء القرن الخامس الهجري بلغوا من القوة والنفـود مـا لم يبلغوا قبله من القرون في الأندلس الإسلامي، " فكـان فـي قرطبة وحدها وفـي بعض الحلات خمسة عشر ألفـا أو يزيدون"[1] وبعد تهاوي سلطة قرطبة المركزية، وقيـام ممـالك الطوائف. ** استقل الصقـالبة بحكم المناطق الشرقية، وكانت لهم ممالك طبقت شهرتها الأفاق (دانية والجزائر الشرقية فـي عهد الفتيان العـامريين).

وكان من بين الصقالبة (طائفة الخصيان). وهم المعنيون بخدمة الحريم ، وخدمة البيوت من خاصة أهل الأندلس، بدءا من الطبقة الحاكمة وحاشيتها، وكبار الملاك والتجار ، وعليه القوم وكانت احتياجات القصور لخدماتهم تتطلب المزيد من هؤلاء وكذلك متطلبات الأرستقراطية لمثل هذه الأمور سببا من أسباب جلبهم وشرائهم، وعليه فإن دور هؤلاء في الدور والمنازل والقصور مرتبط بنوعية ومستوى الطبقة التي يخدمها، حسب المكانة الاجتماعية والسياسية " اعتنق السلاف (الصقالبة) الإسلام بسرعة فائقة، فقد كانوا يجلبون إلى إسبانيا (الأندلس) وهم صغار السن. فإنهم كانوا يتعلمون لغات البلاد ويصبحون أندلسيين إذا صح التعبير، وعلى الرغم من أنهم كانوا يفقدون كل صلة ببلادهم الأصلية، إلا أنهم كانوا يستطيعون أن يجلبوا معهم ، مهما كان شان ما جلبوه بسيطا، لا تقاليد ثقافية فحسب وإنما أيضا بعض الفنون الجديدة والمفردات

---

(1):بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د ت ،ص85.

** وقد جعل مونتوغومري وان في كتابه (في تاريخ إسبانيا الإسلامية) ، الصقالية ضمن طوائف رئيسة ثلاث في عصر ممالك الطوائف، ص102، وكتب عنهم كولان في دائرة المعارف الإسلامية (مادة الأندلس).ج2، ص91، 92

الخاصة ذات الصلة بها في الوقت نفسه."[1] وهذا ما سهل اندماجهم السريع في المجتمع الأندلسي، وكانت لهم مشاركة واسعة في نسج خيوط هويته، والمساهمة في بناء أسسه، فساهموا اجتماعيا وثقافيان وكذلك اقتصاديا، حيث كان لهم دور كبير في النهوض بهذا القطاع من خلال الزراعة وأعمال الفلاحة والاشتغال بالأرض.

حمل الصقالبة معهم – كشأن أي شعوب أو مجتمعات مهاجرة - أساليب عيشهم، وطرق حياتهم، وانماط تفكيرهم، ومارسوا أكبير الأثر في المجتمعات التي حلوا بها واحتكوا مع أهاليها، ولا شك أن التاثيرات التي مرستها هذه الطائفة كبيرة وفعالة من النواحي المختلفة وخاصة اجتماعيا وثقافيا، وهي نواحي حشاسة عند مختلف المجتمعات، مما كانت له آثار وانعكاسات على الشخصية الأندلسية، وعلى هذا الزحم البشري المتنوع، والتركيبة الفسفسائية المتعددة وقد ذكرنا في القسم السياسي و التاريخي لدويلات الطوائف أشهر الفتيان الفحول ممن أصبحوا أمراء وملوك في شرق الأندلس، مثل حيزان العامري الذي نال القيادة على الصقلب، والمشاركة في جماعة الفحول النائبين على الدولة.[2] وزهير العامري صاحب الآثار الجميلة بألميرية[3] وأبو الجيش مجاهد العامري، صاحب دانية والجزائر الشرقية، ذو الأخبار الفخمة والواقع الشهيرة.[4] وعلي بن مجاهد[5] والأميران مبارك ومظفر العامريان.[6]

- الموالي:

---

(1):بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس (تك قرقوط)، ص86.

(2): ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص210.

(3):المصدر نفسه: ص216.

(4):المصدر نفسه: ص217.

(5):المصدر نفسه: ص221.

(6):المصدر نفسه: ص222.

يضاف إلى كل الطوائف التي ذكرنا، طائفة مهمة جدا أو هي طائفة الموالي، فقد شكلت حجر الأساس في بناء مجتمع أندلسي غني بتنوعاته العرقية، ومتجانس اجتماعيا. وتراجع أهمية الموالي لما حققوه من تغير كبير في النسب العربي نظرا لولائهم للبيت العربي وخاصة الأموي، حيث قدموا معه إلى الشام منذ عملية الفتح الأولى لشبه الجزيرة الأيبيرية في أواخر القرن الأول الهجري، وعلى هذا الأساس فإن أولى طلائع الموالي في الأندلس كانوا" إما مشارقة أقبلوا إلى الأندلس، مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموي أو لأفراد منه، أو مغربيين دخلوا في ولاء بني أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب، وانتقلوا إلى الأندلس محتفظين بهذا الولاء، أو إسبانيا دخلوا في ولاء بني أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين، هم وأبنائهم بهذه العلاقة."[1]

لقد ادعى الموالى أنساب سادتهم العرب، بل إنهم كانوا يحسبون أنفسهم عربا ولا فرق، وكانوا يشرفون إذا انتسبوا إلى الأرومات العربية المختلفة وإلى مختلف القبائل والبطون والأفخاد، كأسد ومضر وغطفان وتميم وكلب وقضاعة ولخم وجذام، حتى شاركهم الإسبان هذه الفكرة والادعاء، لماله من مزايا في الانتساب إلى السلطة العربية الحاكمة أو ولاتها وقادة نواحيها وجيوشها.

" ولعل العرب كانوا أصلا لا يتجاوزون بضعة آلاف قبل زواجهم من النساء الوطنيات، وقد أنتج نظام الولاء هذا عددا لا يستهان به من النساء الذين ادعوا خطأ أو صوابا، أنهم من أصل عربي."[2] وسواء أصدقت هذه الأنساب أم لم تصدق، فإنها كانت عاملا أساسيا وفعالا في حياة أولئك الموالي، فهم جميعا يدينون ويتصرفون على أنهم عرب يمتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم.[3] ومن أشهر الموالي الإسبان، بنوبارون، بنوغومس، بنوغرسية، بنوقارله، بنومرتين، وغيرهم.[4]

---

(1): حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص444.

(2): كولان: دائرة المعارف الإسلامية (مادة الاندلس)، ص90.

(3): حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص317.

(4): حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص442.

وحتى البربر قد شاركوا أقرانهم في الدين والوطن في هذه الخلطة النسبية (الولاء)، حيث كان دخولهم إلى الأندلس في شكل قبائل وجماعات كبيرة أحيانا، فاتخذوا اللسان العربي والزي العربي وأسلوب الحياة العربية، وحتى النسب العربي، كي يجدوا مكانا لهم في البلاد الجديدة، وتحت ظل الحكم العربي للأندلس. وقد لاحظنا الأسر البربرية الكبيرة التي حكمت بعض الممالك في عصر الطوائف كانت ألقابها عربية أو مزيجا من الأصل البربري والعربي، كبني ذي النون في طليطلة[1] وبني الأفطس في بطيوس[2]

أما أشهر البيوت البربرية من الموالي، بيت الزجالي.[3] وكان من الموالي من اصله غير عزلي، كموالي الفرس وبلاد ما وراء النهرين، جاءوا في الطلائع الأولى من المسلمين الفاتحين ودخلوا في ولاء البيوت العربية في المشرق حتى عدوا عربا.*

وكان لموالي العرب دور كبير في توجيه الأحداث السياسية، وعلى الصعيد الاجتماعي والأهم على الصعيد الفكري والثقافي والديني. وقد احتفظت لنا مدونات التراجم والطبقات بأسماء العديد منهم. منذ فتح الأندلس وحتى عصر الطوائف، فلطلما تقلدوا أسمى المناصب وأعلى المراتب، وخاصة موالي بني أمية** فزياد بن أفلح مولى الناصر كان من وزراء الدولة العامرية وكبار رجالها، توفي سنة (368هـ).[4] وهاشم بن عبد العزيز الوزير أبو خالد كان خاصا بالأمير محمد بن عبد الرحمن، يؤثر بالعزارة.[5] أما الوزير أبو غالب تمام بن عامر الثقفي فكان أحد أجداده موالى

---

(1): ابن عذاري: البيان المغرب، ج3،ص276. ويقول ابن عذاري حول بني ذي النون: " ذكر أصحاب التاريخ أن بني ذي النون هم من قبيل البربر الذين كانوا يخدمون الدولة العامرية، وأن اسم جدهم وهو الحامل لهذا الاسم فتصحف بطول المدة فصار ذو النون..." المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2): ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص182، وفيهم يقول:" وكان جدهم المعروف بابن الأفطس من قبائل مكناسة ومن الغريب النادر انتماءه في تجيب وبهذه النسبة مدحته الشعراء." ويبدوا أن ابن الأفطس كان راضيا عن مديح الشعراء له بانتسابه إلى قبيلة تجيب العربية الكبيرة ولم ينههم عن ذلك.

(3): حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص447.

*وقد ذكروا عن الفقيه ابن حزم أن انتماءه في فارس./ ابن بسام : الذخيرة، ق1/1/ص170.

** إضافة إلى من ذكرنا في المتن هناك مثلا، الحاجب الوزير أبو الأصبغ، والوزير أبو وهب، والوزير جهور أبو الحزم وإسماعيل بن بدر (أبو بكر) وكلم وزراء وقواد من موالي الأمويين في أصولهم، ينظر أخبارهم على التوالي عند ابن الأبار في الحلة السيراء: ج1، ص232/ ج1:ص240، 241/ ج1، ص245، 246/ ج1، ص254.

(4): ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، ط2، 1985،ج1، ص278.

(5):المصدر نفسه: ص137.

لعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي وأم الحكم هي بنت أبي سفيان بن حرب أخت معاوية بن أبي سفيان، عرف بها ابنه ليشرفها، وقد دخل إلى الأندلس - جد الوزير – في كالعة ببج بن بشير.[1]

والوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد أبو عمر الذي قال عنه الرازي : إن جدهم مولى معاوية بن مروان بن الحكم.[2] وقد كان الفتى تليد مولى للحكم المستنصر بالله وصاحب خزانته[3] وهناك أحد العلماء واسمه بشري مولى للمستنصر كذلك وقد سمع بقرطبة سنة (380هـ)[4] وكان العلامة أبو بكر بن العربي مولى من أهل اشبيلية اسمه بشري كذلك[5] إن فكرة النسب والدم أو العرقية وهي قبيلة بالأساس، قد تطورت في إطار الدولة العربية/ الإسلامية، فأصبحت دينية لغوية بالأساس، في القرن الثالث الهجري وما تلاه في المشرق وحتى فيما بعد في الأندلس.[6] حتى إن موالي موالي الأندلس قد صاروا عربا لولاء، وكانت لهم منزلة موازية للعرب مما لم يتحقق دائما في المشرق.[7]

إن اندماج الموالي في المجتمع الأندلسي، وحضورهم على الصعيد الفكري والثقافي جاء " تتويجا للمسار الفكري لشريحة اجتماعية استطاعت تجاوز المعاناة النفسية والجسدية، ورفعت شعار التحي في وجه الدونية التي طبعت نظرة المجتمع إليها.[8]

- المولودون:

---

(1):ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس: ص143.

(2): المصدر نفسه: ص237، 238.

(3): ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراش، دار الفكر ، بيروت، 1995/ 1415هـ،ج1، ص190./ ابن حزم: جمهرة أسناب العرب، ص100.

(4): ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص183.

(5):المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6): عبد العزيز الدوري: مقدمة كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص23، 24.

(7):المصدر نفسه: ص24.

(8): عبد الإله بنمليح: حضور الموالي في المشهد الثقافي الأندلسي، نماذج من القرنين 5 -6هـ / 11 -12م ضمن كتاب (كراسات (كراسات أندلسية)، ص76، 77.

صادف دخول الفاتحين من المسلمين شبه الجزيرة الأيبيرية شعبا متعدد الأعراف و الأصول، فالأيبيريون و القوط و الرومان و اليهود ، و طبقة الرقيق أو العبيد المتنوع الأصول.

و لم يمض سوى زمن يسير حتى أدرك سكان شبه الجزيرة سماحة الدين الجديد من خلال نبل أخلاق الفاتحين، و حكمتهم في تسيير الأمور، و الرفق بأهل البلاد حتى بدأوا يدخلون في الإسلام أفواجا. فأطلق الفاتحون على من أسلم منهم "بالمسالمة –مفرده مسلم - أو الأسالمة–مفرده أسلمي - ثم أطلق على أولادهم الذين نشأوا على الإسلام اسم المولدين –مفرده مولد - و استمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس و تحول أهل المملكة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز"[1].

و كانت عملية المصاهرة و التي تمت على نطاق وواسع من أهم العوامل التي كونت طبقة المولدين، و كانت سببا في تعادل و تجانس الأجناس و تمازجها؛ حيث كان الزواج من النساء الأيبيريات على اختلاف أصولهن من أهم عوامل تشكيل ما يسمى بالمولدين،" و لا نود أن نقول إن النساء البربريات و اليهوديات لم يتدخلن أيضا في هذه الخلطة العرقية، و لكن أعدادهن في الحريم الإسباني الإسلامي لم تكن أبدا هي السائدة فيما يظهر"[2]. فإسهامات المرأة المسيحية بأعدادها الكثيرة في تكوين جنس لا يمكن أن عربيا ، ولا بربريا ، و لا صقلبيا ، ولا يهوديا ، أما الصفة الأكثر ملائمة له فهي أن ندعوه أندلسيا.[3]

كان المولدون يشكلون ظاهرة مميزة في الأندلس الإسلامي، و هذه الظاهرة هي من ألف بين وحدات و أجزاء المجتمع الأندلسي السائر في طريق التكون، عن طريق اختلاط الدماء و الأجناس و الأنساب، و كانوا هم عماد المجتمع و هم الأحق بإطلاق صفة الأندلسيين عليهم، لأنهم شكلوها و كونوها؛ حيث كانت الأمهات إسبانيات، بينما من جهة الآباء،فيمكن أن يكونوا عربا أو بربرا أو صقالبة أو غيرهم، "فطابع الأندلسية غلب عليهم فهم أندلسيون و حسب."[4] أما إذا تزوج أحدهم ابنة عربي من الأندلس، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية، أي أنها كانت في الحقيقة مولدة.[5]

---

(1) :حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص464، 465./ وينظر كولان: دائرة المعارف الإسلامية (مادة أندلس).

(2) : هنري بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص255.

(3) : المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) : حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص317.

(5): المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

لقد كان الزواج الممارس على نطاق واسع بين كل هذه الإثنيات المختلفة من أهم عوامل تشكيلها وتوحيدها، شعبيا أو رسميا، واستمرت عملية المصاهرة حتى القرن الخامس الهجري - عصر الطوائف - حتى يصعب في كثير من الأحيان في المجتمع الأندلسي خلال هذا القرن تحديد انتماء شخص معين إلى مجموعة طائفية سوى رده إلى أصوله الأولى، وهذا دليل على طابع الأندلسية الذي غلب على المجتمع.

فمن الأثار الإيجابية لهذا الزواج نبوغ عديد الأسر المولدة في كافة مناحي الحياة في الأندلس علمية وسياسية، وإسهامهم بذلك بدور كبير في دعائم الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت معبر من معابر تلك الحضارة إلى الغرب الأوربي.[1] ومن أمثلة ذلك أسرة الفقيه والأديب و اللغوي والنحوي والمؤرخ ابن القوطية صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس)[2] التي يجري فيها غير قليل من الدم العربي والدم الاسباني، فهو حفيد سارة القرطية ابنة المند ابن غيطشة، وإليها نسب، وهي زوجة عيسى بن مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز

كان ابن القوطية صاحب التصانيف المتنوعة[3] يحس بالدم الإسباني يتدفق عبر عروقه فقد احتفظ في أعماقه بشرف جنسه حيا[4] لقد روى لنا الأحداث التي أسهمت فيها أسرته ودورها في قضايا العامة، ولأن دم عنصرين يجري في عروقه، فقد خدم الاثنين في مدونته،[5] غير أن الاهتمام بالعلم والأدب ظل قويا في نطاق أسرة ابن القوطية، فقد سار ابنه المسمى عمر،* ويكنى أبا حفص، في

---

(1): سحر السيد عبد العزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ص50.

(2): ترجمته عند تلميذه ابن الفرضي وقد أورد نسبه كاملا وقال: " كان عالما بالنحو، حافظا للغة متقدما فيها على أهل عصره لا ينق غباره، ولا يلحق سأوه... وكان حافظا لأخبار الأندلس، مليا برواية سير أمرائها ، وأحوال فقهائها وشعرائها يملي ذلك عن ظهر قلب... وكانت كتب اللغة أكثرما تقرأ عليه، وتؤخذ عنه، توفي سنة (367هـ/977م)." تاريخ علماء الأندلس، ص354، 355، رقم (1318)

(3): ذكر ابن الفوضي من هذه المؤلفات، كتاب تصاريف الأفعال، وكتاب المقصور. / تاريخ علماء الأندلس، ص 355 وذكر ابن خير الإشبيلي في فهرسته مارواه عن شيوخه : كتاب الأفعال، وكتاب شرح صدر أدب الكتاب، وأخر بعنوان: مختصر في شرح صدر الأدب./ تحقيق: فرانشيكوكوديره، وخوليان ريبيرا، مكتبة الغانجي، القاهرة، ط3، 1417/1997هـ. الصفحات على التوالي:473 ، 500 .

(4): الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص42.

(5): المصدر نفسه: ص44، والمقصود بمدونته من طرف الباحث، هو كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس).

*ذكره ابن شكوال في الصلة وقال: " عمر بن محمد بن عمر بن عبد العزيز، يعرف بابن القوطية، ويكنى أبا حفص، روى عن أبيه وغيره، وكان أديبا شاعرا."/ضبط نصه وعلق عليه: جلال الأسيوطي،وصدر ضمن سلسلة تضم(الصلة لابن شكوال، والتكملة لابن الأبار،وصلة الصلة لابن الزبير)،دار الكتب العلمية،بيروت، ط1، 2008م، 1429هـ،م2/ج2/ص34، رقم الترجمة 860.

الطريق نفسه، فكان أديبا شاعرا، وروي عن أبيه وغيره، وكان من سلالته عبد الملك، ويكنى أبا الوليد **، ويعرف بابن قوطية أيضا.[1]

ومن أمثلة الأسر المؤيدة التي برزت في المجال الحضاري بالأندلس (بنو القبطرنة) *** وهم ثلاثة إخوة، من أصول مولدة، عملوا بالأدب، فاستوزرهم بنو الأفطس أصحاب بطليوس، وهؤلاء الإخوة الثلاثة هم: أبو بكر عبد العزيز، وأخواه أبو محمد طلحة، وأبو الحسن محمد والاسم الذي تسموا به، وهو (القبطرنة) إسباني الأصل.[2]

وقد وصفهم ابن بسام في الذخيرة فقال: " من اسرة أصالة، ،و بيت وجلالة، أخذوا العلم أولا عن آخر، ورَوَوْه كابرا عن كابر... وكانوا أعجوبة الأواخر والأوائل.[3]

وأشهر كذلك بنوا خطاب في الأندلس، وهم من أسرة مولدة، ومن أعرق بيوتات مرية وأشرفها، وينتسبون إلى جدهم الأول عبد الجبار بن خطاب بن مروان بن نذير الذي أصهر القمط القوطي تدمير بن عبدوس حاكم إقليم تدمير بشرق الأندلس بزواجه من أحدى بناته، وكان عبد الجبار هذا أحد كبار الجند الشاميين الذين نزلوا مع بلج القشيري في الأندلس.[4] وقد عرفت هذه الأسرة بثرائها الفاحش عبر تاريخها الطويل في الأندلس، وعرفت كذلك بجاهها في عصر ملوك الطوائف،

** قال عنه ابن شكوال: " عبد الملك بن سليمان بن عبد العزيز الأموي، يكنى أبا الوليد ويعرف بابن القوطية كان متصرفا في العلوم من الفقه والعربية والحساب، محسنا عقد الوثائق، بصيرا بعللها، رواية للأخبار حافظا للأدب، وروايته للعلوم واسعة، روى عن عمه أبي بكر... توفي سنة 429هـ)." المصدر نفسه، ص6، رقم الترجمة (878) وله ترجمة عند ابن الأبار في التكملة ج2، ص239، رقم الترجمة (673).

(1):المصدر نفسه،ص40.

*** : (أو القبطورنة أو القبطورنية)، ويرجح محمود مكي أن هذه التسمية مركبة من كلمتين هما: (cput) تعني رأس، و (torno) وتعني مستدير، ومعناها (ذو الرأس المستدير). / ينظر إحسان عباس في تحقيقه للذخيرة. ق2/2/ هلمش ص753.

(2) : سحر السيد عبد العزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ص50.

(3) : ق2/2/ص753، 754. أما أخبارهم وتراجيمهم مجتمعين أو متفرقين ففي المصادر الأنية: ابن بسام: الذخيرة. من ص753، وإلى ص773./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، من ص429، إلى ص 444، وفي ص 134 وما بعدها. ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب،ج1،ص367، 368./ ابن دحية: المطرب في أشعار أهل المغرب، ص161، 162.

ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج3، ص90. ابن الأبار: الحلة السراء (ط دار الكتب العلمية)، ص 230، 267./ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص298 وما بعدها./ العماد الأصفهاني: جريدة القصر وجريدة العصر،ج3،ص422 وما بعدها./ المقري التلمساني: نفح الطيب، ج1، ص634 وما بعدها./ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص...

(4) : سحر السيد عبد العزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ص52. وقد خصتهم الباحثة بدراسة مستقلة ومستفيضة بعنوان : " بنو خطاب بن عبد الجبار"

حين كان أبو عامر بن خطاب رئيس مرسية.[1] وكان بنوا خطاب كذلك من الأسر التي لها باع في العلوم و المعارف، واشتهروا بالفقه وخاصة في زمن المروانيين، وقد ذكرت كتب التراجم محمد بن خطاب المعروف بأبي جمرة وأبنيه خطاب وعميرة، وقد سمعوا ثلاثتهم المدونة من سحنون بالقيروان أثناء تأديتهم لفريضة الحج سنة (422هـ).[2]

ويمكن القول إن المولدين هم نتاج كل الأجناس التي ذكرنا وهم من اعطى الصبغة الذاتية للأندلس اجتماعيا وثقافيا وحضاريا، وشكلوا خصوصية قطرية أندلسية متميزة، " ويمكن الاستدلال على شيئ، من أهميتهم في المجتمع من كثرة ورود حرف الواو والنون إلحاقا بأسمائهم، مما يشير إلى نسب (الموبدون)، ونجد ذلك في أسماء شعراء مثل: ابن زيدون وابن عبدون وابن بدرون، والمتمرد ابن حفصون، وحتى المؤرخ المغربي اللاحق ابن خلدون."[3]

لقد تعايشت كل الأجناس المختلفة على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية، وانصهرت فيما بينها وتعايشت وكونت هذا الشعب الأندلسي الجديد والذي كان " في طريقه إلى التكون في ذلك العين، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت، وكانت لابد أن تلاقي صعوبات، وتتغلب على عوائق، وقد مرت الشعوب الأوروبية كلها في مثل هذه الأدوار، ولكن مؤرخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبدا ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه."[4] وكان من الطبيعي بعد عملية الانصهار والتكوين أن يحمل كل جنس عاداته وتقاليده وخاصيته، وبتفاعل كل هذه المشارب والأهواء تعددت مرجعيات المجتمع الأندلسي ككل من الناحيتين الاجتماعية والثقافية والفكرية نتيجة لتنوع وتعدد الخصائص المكونة له.

---

(1) : ابن الآبار: الحلة السيراء.(ط دار الكتب العلمية)، ص236.

(2) : ابن الآبار: التكملة، ج1، ص285، رقم الترجمة (978).

(3) : روبيرت هيلبراند: " زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، ص199.

(4) : حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص316.

I -3 -2 - المبحث الثاني: مظاهر الحياة الاقتصادية

عكست الحالة الاقتصادية والاجتماعية لأندلس القرن الخامس الهجري، وبالضبط في عصر الطوائف، الوضع السياسي المتدهور والمتناقض. وقد تباين الوضع الاقتصادي والاجتماعي من دولة طائفية إلى أخرى، متأرجحا بين القوة والضعف.

ونظرا الارتباط الجانبين (الاقتصادي والاجتماعي) وانعكاساتهما على الجوانب الأخرى (السياسية والثقافية)، ارتأينا أن نجمعها معا في باب واحد، وإن كان تقديمنا للجانب الاقتصادي لما له من تأثير مباشر على الحياة الاجتماعية.

" لقد أدت التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الأندلس إلى خلق عدد من التحولات[1] كان لها تأثير حاسم على البنية الفكرية للعقل الأندلسي في القرن الخامس الهجري." إذ الفكر هو محصلة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية متشابكة ومعقدة والفكر نفسه من نتائجها، ولكنه من خلال صيرورتها وتشابكها يغدو من أهم عواملها."[2] وهذا يعطينا أكثر من مبرر للحديث عن الجانبين.

يقول أحد الباحثين :" إن الأحوال الاقتصادية في تاريخ أي أمة من الأمم ذات دلالات حضارية مهمة"[3] أما أدونيس ففي كتابه (الثابت والمتحول) يحاول إبراز أهمية هذه الناحية قائلا: " إن المعرفة تداخلت مع الاقتصاد والسياسة إلى حد استحالة وضع فواصل بينهما"[4] ويؤكد أخر قائلا: " من المسلم به أن العوامل الاقتصادية قد لعبت دورا أساسيا في تطوير تاريخ الأندلس خلال فترة الطوائف[5] فالاتجاهات الاقتصادية قد كونت بعدا بالغ الأهمية في مجال التطورات التاريخية

---

(1) : بدرو شلميط: صورة تقريبية للإقتصاد الأندلسي، ص1054.

(2): عز الدين موسى: الرحلات الأندلسية والتواصل الحضاري، ص303.

(3) : إبراهيم بن عطية بن هلال السلمي: تاريخ مدينة طليطلة في العصرالإسلامي (دراسة تاريخية حضارية 29هـ - 478هـ) مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض. ط1، 2009، ص143.

(4) : نقلا عن محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث ،ص17.

(5) : أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص51.

العامة خلال حقبة دول الطوائف، ومن هذا المنطلق يجب دراستها بصفتها مكملا للأبعاد الاجتماعية والسياسية.[1]

أما مظاهر الحياة الاقتصادية فتتمثل فيما " قام به المسلمون والنصارى وغيرهم في الأندلس، بممارسة الوجوه الطبيعية للمعاش، وهي الفلاحة والصناعة والتجارة."[2] هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرها ابن خلدون ستكون محاور حديثنا عن الاقتصاد في عصر الطوائف.[3]

أ - الزراعة:

الزراعة من أقدم الحرف التي مارستها البشرية في تاريخها الطويل، فقد شكلت عصب الحياة وشرايين النجاة لمختلف الشعوب والأمم والحضارات عبر الأزمنة المختلفة

أما في الأندلس " فقد كان أهم قطاع في دول الطوائف، هو القطاع الزراعي، وكان النشاط في هذا المجال قويا، غير أن الإنتاج الزراعي كان يختلف كما وكيفا من دولة طائفية إلى أخرى، تبعا للاختلاف الظروف الجغرافية ودرجة الاستغلال ونمطه. "[4]

ويمكن القول إن عوامل ازدهار الزراعة في الأندلس عديدة منها التربة الخصبة، والمياه الوفيرة، والمناخ المناسب لهذا النشاط، بالإضافة إلى توفر الخبرة في مجال الزراعة وطرق الري.

لقد أنشر وصل العرب إلى شبه الجزيرة العربية الأيبرية بداية أعمق وأكبر تطو عرفته الزراعة في هذه البقعة التي كانت قد ألت إلى حالة من التخلف والكساد في السنين الأخيرة لحكم القوط الغربيين"[5] ولم يمض سوى وقت قصير حتى طور أولئك الوافدين (العرب) التقنيات الزراعية لسابقيهم من الهسبانيين الرومان والقوط الغربيين ، مضيفين بذلك إلى التراث الزراعي المحلي العميق الجذور معارف جديدة للزراعة التطبيقية في ميادين الأدوية والطب والنبات، معارف أحدث

---

(1) : المصدر نفسه: ص52.

(2) : خالد عبد الله الشريف: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها (دراسة سياسية اقتصادية)422هـ/892هـ. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 2009، ص198.

(3) : العبر ، ج1 ،ص....

(4) : بن عبود : جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص58.

(5) :إكسبراثيون غارثيا سانشيز (EXPIRACION GARCIA SANCHEZ): الزراعة في إسبانية المسلمة، ترجمة: أكرم ذو النون، النون، ضمن كتاب : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ص1367.

جمعها وتطبيقها ثروة زراعية عظيمة في بلاد الأندلس[1] ولا داعي للتذكير بخبرة الوافدين في المجال الزراعي. ابتداء من التجارب المحلية إلى التجارب والخبرات الإغريقية -البيزنطية وخاصة عند الشاميين ومنه فالإضافة النوعية حاصلة لا محالة في البلاد المفتوحة.

وكان لوفرة المياه في شبه الجزيرة بالغ الأثر في إطراء النشاط الفلاحي، فلا تكاد مدينة من مدن الأندلس كبيرة كانت أو صغيرة، أو بلدة متوسطة أو ضاحية أو ربضا ، تخلو من تدفق نهر أو أنهار جارية و ينابيع صافية ساعدت ازدهار الزراعة،و قد أعطت كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات عامة عديد الأمثلة على ذلك، ففي حديث الحمري عن مرسية (MURCIA) قال: " ومرسية على نهر كبير يسقي جميعها كنيل مصر."[2] وطليطلة (TOLADO) " ففيها بساتين محدقة وأنهار مخترقة.[3] والأمر سيّان في بلنسية ، فهي على نهر جار ينتفع به ويسقي المزارع وعليه بساتين وجنان.[4]

وأما شلب (SILVES) فقد كان لها جبل عظيم منيف كثير المسارح والمياه .[5] وهذه حال الجزيرة الجزيرة الخضراء (ALGECIRAS)كذلك فقد كان لديها أنهار عذبة[6] وها هي إلبيرة (ELVIRA) القريبة من غرناطة (ستة أميال) كانت بها انهار كثيرة[7] أما حاضرة غرناطة فقد صارت كذلك لطيب هوائها ودرور مائها.[8] وما أخصب أرض أرشدونة(ARCHIDONA) وهي

---

(1) : إكسبراثيون غارثيا سانشيز (EXPIRACION GARCIA SANCHEZ): الزراعة في إسبانية المسلمة، ج2، ص 1367.

(2) :الروض المعطار: ص539، وقد تحدث الإدريسي في نزهة المشتاق عن نهرمريسة.ج2. ص557، 561.

(3): المصدر نفسه: ص394. ويقول عنها البكري: " وأوفت هلى نهر تاجة" المسالك والممالك ، ج2،ص394 ويقول عنها الادريسي: " هي مدينة عظيمة القطر... وهي على ضفة النهر الكبير المسمى تاجة... ومع أخر القنطرة ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة." نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، ص551.

(4) :الحميري: الروض المعطار، ص97. الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص556.

(5) : الحميري: الروض المعطار، ص242، ولها ذكر عند الإدريسي في نزهة المشتاق، ج2، ص538، 543، 544، 548

(6) : الروض المعطار: ص223. لها ذكر عند البكري في المسالك، ج2، ص392. وعند الإدريسي في نزهة المشتاق، ج1، ص10، وج2، الصفحات، 527، 528، 536، 536، 539، 540، 570.

(7) : الحميري: الروض المعطار، ص28/ ذكر عند البكري في المسالك.ج2،ص386، ص386./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص566.

(8) : ابن الخطيب : الإحاطة، في أخبار غرناطة، ج1، ص14./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، الصفحات537، 564، 566، 567، 569، 570 ،572 ،581.

بقبيلتي قرطبة تسقي أرضها وتطرد في نواحيها عيون غزار وأنهار كبار.[1] وقد تحدث الجغرافيون والمؤرخون مطولا وأسهبوا في وصف قرطبة وما تحتويه من وفرة مياه الشرب، حيث بنى لها عبد الرحمن الأول القنوات.[2]

هذه بعض الموارد المائية لبعض المدن الأندلسية وقد تغافلنا عن كثير منها لعدم استيعاب الإحاطة بهذا الموضوع. ولا تقل البلدات الصغيرة التابعة للمدن المحورية الكبرى والمتوسطة في سعة مياهها وكثرة أنهارها عن المدن المركزية مثل أشكوني وهي من كورتدمير وقد اشتهرت بنهر استخدم للعمارة والسقي.[3] أو بلطش PLETAS، وهي من أقاليم سرقسطة، كان بها نهر يسقي مسافة عشرين ميلا.[4] أما غرناطة فقد كان يحيطها جبل الثلج شلير ويسمى بالاسبانية (SIRRA NIVADA) حيث كان ينساب منه ستة وثلاثون نهرا من قوهات الماء وتنجبس من سفوحه العيون.[5] وأخيرا وليس أخرا تذكر مدينة أندرش(ANDARAX) وهي من أعمال ألمرية،وقد مر عليها الشاعر أبو الحجاج ابن عتبة الإشبيلي وقال فيها:

- لله أندرش وقد حازت على حسن تتيه به على البلدان
-النهر منساب سرت خلجانه في الروض بين أزاهر الكتان
-فكأنما انسابت هناك أراقم قد عدن راجعة عن الثعبان[6]

لا شك أن لوفرة المياه في شبه الجزيرة الألبيرية دور كبير في تسهيل واطراد النشاط الفلاحي بشكل عام، ولكن هذه الوفرة لا تعني شيئا إذا لم تصاحبها أنظمة وطرق ري متطورة تساعد وتسهل عملية سقي مختلف المزروعات." فقد توافرت في معظم المدن الإسلامية مياه الري اللازمة للبساتين والحدائق، حيث تصبح الحياة النباتية بغير تلك المياه مستحيلة فيها، فقد كانت ترفع المياه

---

(1) : الحميري: الروض المعطار، ص25./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص537، 570.

(2) : روبرت هيلبنراند (ROBERT HELLENBRAND) : "زينة الدنيا" لها دكر عند البكري في المسالك، ج2،ص388، 389./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص359، ج2، الصفحات، 536 ،537، 545 ، 560 ، 561، من ص 569 إلى ص 575، ومن ص 579 ، 581. الحميري: الروض المعطار، من ص456إلى ص459.

(3) :الحميري: الروض المعطار، ص 60، 61.

(4) :المصدر نفسه: ص104.

(5) :ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص16./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، 564، 567، 569.

(6) : الحميري: الروض المعطار، ص42.

إلى بعض المدن من النهر المجاور لها بواسطة دواليب أو آلات هيدرولكية، بينما يستمد البعض الأخر مياهه من مجرى النواعير والقنوات أم الأماكن الخالية من المياه الجارية فتحصل على الماء من الآبار بواسطة الساقية."[1] هذا الأمر أكد عليه باحث آخربقوله:"وكانت معيشة الناس تقوم على الأراضي المزروعة بكثافة، تديم خصوبتها أنظمة ري متطورة. تعتمد على رافعات الماء والنواعر وهو نظام مستورد من الشام، والتقويم الشهري الذي وضعه(ريكمندRECCIMUND)*حتى عام (350هـ/961م) يسرد بتفصيل دقيق زراعة المحاصيل المختلفة وتربية المواشي من شهر لأخر. ويعرض صورة قيمة عن الإنجازات الكبيرة التي يحققها الأندلس في هذا المجال."[2]

ولكن وبنظرة موضوعية متفحصة ندرك بأن " إسبانيا (الأندلس) قد عرفت الري في عهدي الرومان والقوط الغربيين، غير أنه من المؤكد أن العرب قد حشنوا نظم الري وتوسعوا فيه على أساس خبراتهم في المشرق الخاصة بوسائل خزن المياه وتوزيعها."[3]

والنصوص والشواهد التاريخية تدعم هذا الطرح، وخاصة المصادر العربية التي تشير إلى مدى استفادة الأندلس الإسلامي من بعض أنظمة الري الموجودة في البلاد قبل دخول المسلمين إليها، ففي حديث الحميري عن مدينة بجانة (PECHINA) قال: "ويدخلها من النهر جدولان... وعليها بناء للأول صهريج إلى جانب العين مربع واسع... ويجتمع في أسفلها صهريج عظيم من بناء الأول أيضا."[4] وفي ذكره لقصبة مدينة جيان (JEAN)قال:" وفي داخلها عيون وينابيع مطردة، وفيها عين ثرة عذبة عليها قبو من بناء الأول."[5]

ولا تختلف مدينة المنكب (ALMUNCAR) عن مثيلتها السابقتين ففيها آثار للأول كثيرة وكانت لهم فيه مياه مجلوبة وآثار قنيها بها إلى اليوم.[6]

---

(1) : ليوبولدتورسبالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص208، 209.

* : سبق الحديث عن هذا المستعرب، ويعرف في مصادر العربية باسم (عريب بن سعيد). وقد كلن في البلاط الأموي في عصر الإمارة، حيث أهدى كتابه (تقويم قرطبة) لعام(961م) إلى الحكم الثاني وقد اعتنى به المتشرق (رينهارتدوزي) وصدر في طبعة جميلة على النحو الأتي : ARBIN SAID AL- QURTUBI, LE CALENDRIER DE CORDON DE L'ENNEE 961

(2) :محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي: ص192.

(3) :مونتوغومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ،ترجمة: حسين امين، مكتبة مدبولى، القاهرة،ط1، 1983، ص36.

(4) :الروض المعطار، ص79، 80./ لها ذكر عند الإدريسي في نزهة المشتاق، ج2، ص، 537 ،562 ،566.

(5) : الروض المعطار، ص183./ لها ذكر عند الإدريسي في نزهة المشتاق، ج2، ص، 537 ، 568، 569، 581.

(6) :الروض المعطار، ص548./ لها ذكر عند الإدريسي في نزهة المشتاق، ج2، ص، 537 ،564 ، 570.

كما تساءل صاحب الروض المعطار في معرض حديثة عن عدة مدن مثل: رندة (RANDA)[1] واونبة (HUELVA)[2] عن سر الماء المجلوب إليها من الخارج، والذي يبدو أنه من عمل الأوائل.

من خلال استعراضنا لهذه الأمثلة، يتبين لنا وجود زراعة أندلسية مزدهرة ومتنوعة وممارسة على نطاق واسع وبأنظمة ري موروثة محليا ومطورة من طرف المسلمين الوافدين، وخاصة من عرب المشرق إلى الأندلس، في بيئة صالحة للزراعة بطبيعتها، فقد وصفها الجغرافي البكري بأنها: " شامية في كيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها..."[3]

ويشير المستشرق ليوبولدتورس باللباس إلى وجود مدن قوية في شبه الجزيرة الألبيرية، وبها عدد كبير من الرجال الذين يستغلون الأرض الخصبة، كما كان بها كثير من المدن الصغيرة الطيبة وعددها ست وثلاثون كما يذكر الرازي.[4] أما الأعمال الفلاحية بشكل عام فقد كانت تمتهنها تمتهنها الطبقة المتوسطة، باعتبارها المحرك الفعال للإنتاج الاقتصادي عبر التاريخ؛" حيث كان المزارعون الواعون يستغلون كل شبر من الأراضي الزراعية وكان هذا – إي النشاط الزراعي - أمتن أساس لاقتصاد المدن."[5] كما امتهن النشاط الفلاحي العبيد" فقد كان نشاطهم موزع عبر العمل الزراعي ممثلا في تنقية الأرض وتقليبها وبذر البذور فيها، ثم حرثها وحصاد محصولها."[6] وقد وقد كان تشجيع الأمراء والخلفاء من بني أمية للزراعة من أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار، بل إنهم قد أقاموا بعض الحدائق التجريبية وجلبوا إليها كأنواع النباتات، كما حدا حدوهم ملوك الطوائف عقب تهاوي الخلافة،وظهور سياسة اللامركزية، ومحاولة كل مملكة الاستقلال بسياستها الداخلية والخارجية، والاستقلال باقتصادها، وتقويته لمجابهة الأخطار الداخلية(الصراع بين المماليك والدويلات) والأخطار الخارجية المتمثلة في أطماع ممالك الشمال المسيحية والإتاوات

---

(1) :الحميري:ص269.

(2) :المصدر نفسه،ص63.

(3) : المسالك والممالك: ج2،ص383، وقد نقل الحميري في الروض المعطار نص البكري في وصف الأندلس بحرفتهن ص32، 33.

(4) : المدن الاسبانية الإسلامية: ص121، 122

(5): المصدر نفسه:ص461.

(6) : عبد الاله بنمليح: الرق في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، دار الانشار العربي، بيروت، ط1، 2004م، ص20.

المفروضة عليهم خاصة من طرف حكام مملكة قشتالة، حيث كان الاقتصاد الزراعي من أهم مداخيل الدولة من حيث خراج الأرض ومختلف الضرائب المفروضة على كثير من المحاصيل.

لم يتأخر الحكام الجدد كذلك في عصر الطوائف في تقليد سابقتهم من أمراء وخلفاء بني أمية حيث " كثرت عندهم تلك الحدائق التجريبية في كل قصر من قصور الحكم الجديدة، كالصمادحية في مدينة ألمرية، وبستان الناعور (HUERTADE LA NORIA)وبستان الملك في طليطلة وكذلك تلك الأخرى، المعروفة أيضا ببستان الملك أو حديقة السلطان المعتمد في اشبيلية، وكان لكل واحد من تلك البساتين عالم في الفلاحة يشرف عليها."[1]

كذلك كان من المنطقي أن تتهيأ أيضا مجموعة من العوامل الاجتماعية والثقافية التي ساهمت بدورها في إحداث ذلك الانفجار الزراعي، مثل الاتصال بين الحضارات الذي يخلق عادة أذواقا و أنمطا جديدة.[2] وفي هذا الصدد ينبغي ذكر المدرسة الزراعية الأندلسية في عصر الطوائف، وهي المدرسة الأبرز في التاريخ الأندلسي من الفتح إلى السقوط، ما ساهمت به من أبحاث ورسائل ومدونات حول الزراعة بشكل عام، فبصمات ابن واقد وابن بصال وابن حجاج والطغنري في الأبحاث الزراعية معروفة ومشهورة وقد بقيت متداولة في الثقافية القروسطية الأوربية لقرون عديدة، ولنا عودة إليها في الفصل المخصص لذلك.

أماعن طبيعة المنتجات الزراعية الأندلسية فيعز علينا حصرها لغزراتها وتنوعها وتميزها من مدينة إلى أخرى، فبالإضافة إلى الحبوب اشتهرت زراعة الكروم والزيتون والتين والكمثري والتفاح والرمان والكرز واللوز والجوز ومختلف أنواع الحمضيات كالبرتقال والليمون والمشمش، والخضروات على اختلاف أنواعها، وفي بعض المنتجات الفلاحية الأخرى كالأرز والقطن،" كما نحن الموز والنخيل في المناطق الأدفأ جوا، وكان ثمةنباتات عديدة تستخدم في إضفاء النكهة واللون،مثل:الزعفران والكمون والكزبرة والحناء والوسمة والفوة."[3]

وقد اختصت بعض المدن الأندلسية بمنتجات معينة، فقد ذكر ابن سعيد عن مالقة أنها مما فضلت به ما حفها من شجر اللوز وشجر التين، إذ هوى بها طوفان لا تزال تحمل منه الركاب والسفن،

---

(1) : اكبيراثيون غارثيا سانشيز: الزراعة في اسبانيا المسلمة، ص1370.

(2) : المصدر نفسه، ص1371.

(3) : مونتوغومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص36، 37.

وهو مفضل على سائرتين الأندلس.[1] كما أن تينها يحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند فهو من أحسن التين طيبا وعذوبة.[2] وفي تينها قال أحد الشعراء المتأخرين زمنيا وهو القاضي المتحدث ابن حوط الله الأنصاري ت 612هـ:

- مالقة حييت يا تينها الفلك من أجلك يأتينها

- نهى طيبي عنك في علتي مالطيبي عن حياتي نها[3]

لقد فازت مالقة بوصفها نطقة زراعية منتجة بالمراكز الأولى، وتقدمت على كثير من مدن الأندلس في الميدان الزراعي، ذلك راجع إلى اهتمام أهلها وحكوماتهم بالزراعة اهتماما بالغا فالتنوا بأراضيهم وأنفقوا على إقطاعاتهم، مما كان له الفضل في تحسين الوضع الاقتصادي بشكل عام.[4]

أما سرقسطة (SARAGOSSE) فقد كانت أطيب البلدان بقعة وأكثرها ثمرة لكثرة الفواكه في بساتينهم، حتى لا يقوم ثمنها بمؤونة نقلها لرخصها فيتخذونها سرجينا يدمنون به أرضهم، وربما بيع فيها ونسق القارب من التفاح بما تداع به الأرطال اليسيرة في غيرها.[5]

وقد وصفت أريولة (ORIHUELA) بأن لها بساتين وجنان وفواكه كثيرة.[6] وقد تميزت بلاطة وهي بين أشبونةوشنترين بزراعة الحنطة حتى إن الكيل منها يعطي مائة كيل وربما زاد ونقص.[7]

واشتهرت بطروش (PEDROCHE) بشجر البلوط الذي فاق طعمه كل بلوط على وجه الأرض، حيث كان أهلها يعتنون بحفظه وخدمته فقد كان لهم غلة وغيات في سني الشدة والمجاعة،[8] أما إشبيلية (SIVILLA) فقد اشتهرت بالزيتون وكان جل تجارة أهلها يتجهزون به إلى المشرق والمغرب برا وبحرا، وهو مسافة أربعين ميلا كلها في ظل شجر الزيتون والتين[9] الأمر

---

(1) : المغرب في حلى المغرب: ج1، ص423.

(2) : الحميري: الروض المعطار، 517 ، 518.

(3) : المصدر نفسه، الصفحة نفسها

(4) : خالد عبد الله الشريف: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، ص200.

(5) : الحميري: الروض المعطار، ص317.

(6) : المصدر نفسه:ص 67.

(7) : المصدر نفسه:ص 103.

(8) :الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص580/ الحميري: الروض المعطار، ص93.

(9) :الحميري : الروض المعطار، ص59./ البكري: المسالك والممالك، ج2، ص391./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص 541.

نفسه نجده في المنتجات الزراعية لمدينة وادي آش (GNADIX) حيث كثرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون ووفرة مادة القطن .[1] واشتهرت وادي الحجارة (GNADALAJARA)بالزعفران كثرة وجوده حيث كان يتجهز به إلى سائر البلاد[2] كما كانت لطليطلة جنات يافعة وفواكه عديمة المثال .[3]

ولو أردنا استقصاء المنتجات الفلاحية الأندلسية وحصرها لما وسعتنا عشرات الصفحات، ولكن بقي أن نشير في هذا المقام إلى شغف الاندلسيين بالعمل الفلاحي ، هذا الشغف والاهتمام حتم عليهم إيجاد طرق لحفظ منتجاتهم الفلاحية سواء لضمان استهلاكها الجيد واستغلالها الجيد ، أو لتسويقها داخليا وخارجيا.

والظاهر أن الأندلسيين قد عرفوا منذ زمن بعيد (قبل الفتح الإسلامي) طرق تخزين البر، فقد ذكر الحميري قوما تاهوا بطركونة (TARRAGONE) وقد وجدوا بيوتا مملوءة قمحا وشعيرا من الأزمان السالفة قد اسود حبه وتغير لونه .[4] كما ذكر ابن بسام عن أهل طليطلة زمن دخول الأذفولش (ألفونسو) عليها أن البر على زعيمهم يمكن عندهم أكثر من خمسين سنة لا يؤثر فيه طوال القدم ولا يخاف عليه آفة العدم، ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر على تعذر بذرة .[5] كما ذكروا عن طليطلة كذلك أن حنطها لا تسوس على مر السنين[6]

ونظرا لأهمية هذا المحصول(الاستراتيجي) والمتمثل في القمح والشعير، فقد أولوه عناية كبيرة كبناء الطواحن والرحي على حوافي الأنهار وفي القرى، فالمصادر تحدثنا عن بعضها مثل نهر (فلوم) في غرناطة وكيف أن الأرحاء تطحن عليه.[7]

أما جنان (JENAN) فالأرحاء الطاحنة على أبواب المنازل.[1] وطلبيرة (TALVIRA DE REINA) فقد بنيت على جبل عظيم، يخرج من تحته عين خرارة، ويطحن على جريها عشرون

---

(1) : الحميري: الروض المعطار، ص604.

(2) :المصدر نفسه: ص606.

(3) :المصدر نفسه: ص394./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص553، 554.

(4) : الروض المعطار: ص392.

(5) : الذخيرة: ق4./1/ص164.

(6) : البكري: المسالك والممالك، ج2، ص394./ الحميري: الروض المعطار، 394.

(7) : الحميري: الروض المعطار، ص45.

رحى[2] وربما استفاد الاندلوسيين حول هذا الصنيع (أي الرحي) مما خلفه الأوائل فمن الغرائب بطركونة كما يذكر المؤرخون أرحاء نصبها الأول تطحن عند هبوب الريح وتسكن بسكونها.[3] ويلحق بالجانب الفلاحي تربية الحيوانات المختلفة مثل: الأبقار والأغنام والماعز، ومختلف أشكال الدواجن والطيور بالإضافة إلى الثروة السمكية الهائلة لطول سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية، يضاف إلى ذلك إنتاج الحليب والألبان ومشتقاتهما، وتربية النحل واشتيار العسل الذي اشتهر في كثير من المدن الأندلسية.

وكمثال على ذلك جبل الستارات بطليطلة والذي يحوي من الغنم والبقر الشيء الكثير الجلابون إلى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من أبقار وأغنامه إلى في غاية السمن ولا يوجد مهزولا البتة، ويضرب المثل في ذلك في جميع أقطار الأندلس.[4] وجيان حيث الأسعار رخيصة والحوم والسمك فيها يتميز بالوفرة.[5] ولطالما تدلى رجال قرمونة (CARMONA) على صفرة عظيمة هناك لاشتيار العسل واصطياد فراخ الطير.[6] وقد عرفت مدينة المنكب بأنها كثيرة مصايب السمك[7] واشتهرت سواحل شذونة بحوت التن (التونة).[8]

وعلى العموم يمكن القول إن النشاط الفلاحي الأندلسي في عصر الطوائف قد شهد أطرادا كبيرا باعتبار أساس اقتصاديات الدول الطائفية.

ب - الصناعة:

شكل النشاط الصناعي في الأندلس إحدى أهم الركائز الاقتصادية نظرا للممارسة الكثيرة والمتنوعة من طرف الأندلسيين، ومما ساعد على اتساع النشاط الصناعي في شبه الجزيرة الأيبيرية،

---

(1): الحميري: الروض المعطار، ص183.

(2) : الحميري: الروض المعطار، ص395.

(3) : المصدر نفسه: ص392.

(4) : المصدر نفسه: ص394.

(5) : المصدر نفسه: ص183.

(6) : المصدر نفسه: ص461.

(7) : المصدر نفسه: ص548.

(8): المصدر نفسه: ص339.

وفرة المواد الأولية ومختلف المعادن * بها مما أدى إلى النهوض بهذا القطاع، حتى إن الباحث ليعجب من بعض الصنائع التي عرفها الأندلسيون أنداك تعد في عصرنا من الصنائع الفاخرة.

أما المنتجات الصناعية فقد تنوعت وتميزت من مدينة إلى أخرى حسب خصوصية كل منها وغناها أو فقرها في المواد الأولية، فقد ذكر بعض الباحثين عن وجود أكثر من خمسين مصنعا للصوف بطليطلة وذلك راجع إلى توافر الثروة الحيوانية بهذه المدينة بالإضافة إلى صناعة الجلود ودباغتها.[1] ولم تكن طبيعة طليطلة وأحوالها بعيدة عن التأثيرات في صناعتها، فوفرة الحديد وحال الحرب المستمرة فيها ساعد على بروز صناعة الأسلحة.[2]

كما ازدهرت بالمدينة نفسها - أي طليطلة– صناعة الآلات الفلكية وآلات رصد النجوم وتحديد الأوقات والأمكنة، وخاصة الإسطرلاب، وقد ذكر ابن بسام عن ابن بسام عن ابي ذي النون حينما خرج من طليطلة خائفا مترقبا بعد دخول الأذخونش عليها قائلا: حدثني من رآه يومئد بتلك الحال وبيده إسطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل.[3]

وإذا ألقينا الضوء على الصناعة في ألمرية فإننا لا نزايد على وصف الجغرافيين الأندلسيين لها وهو الرازي بقوله:" وبها دار الصناعة وهي باب الشرق ومفتاح الرزق."[4] ولم تصبح بحق مدينة من مدن الأندلس الهامة وقاعدة من قواعده الرئيسة إلا في القرن الخامس الهجري في ظل حيزان وزهير العامريين، وأصبحت في عهد المعتصم بن صمادح حاضرة كبرى تنافس إشبيلية مقر مملكة المعتمد بن عباد.[5] وقد عرفت ألمرية ضروب من الصناعات، كصناعة الزجاج والمعادن والفخار، وصناعة الزيوت وصناعة النسيج، من صناعة الوشي والديباج على اختلاف أنواعه ومن صنعه الخز وجميع ما يعمل من الحرير، ما لم يبصر مثله في المشرق ولا في بلاد النصارى.[6] حيث كان بها -

---

* : مثال ذلك ماذكره البكري في المسالك حول خبرات الأندلس ومعادنها.ج2،ص383 وما بعدها.

(1) : إبراهيم بن عطية بن هلال السلمي، تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي، ص150، 151.

(2) : المصدر نفسه: ص152.

(3) : الذخيرة: ق1/4/ص167.

(4) : ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص193.

(5) : السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمرية قاعدة أسطول الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1969م، ص57.

(6) : ابن سعيد: المغرب، ج2، ص193 ، 194.

كما ذكروا - انسج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفسية والديباج الفاخر ألف نول، وللإستقلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية مثل ذلكن وللإصفهانية مثل ذلك.[1] وإلى جانب الحرير كانت تحاك بها أنسجة من الصرف والكتان كذلك.[2]

كما تميزت ألمرية بشهرة فائقة في صناعة الأحواض الرخامية والفوارات، واستمرت شهرتها في ذلك حتى عصر بني نصر[3] أما مرسية فقد وصفت بمعادنها الغزيرة المتصلة المادة كالفضة وغيرها، وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريفة حيث كان لأهلها حذف وتجويد بصناعتها لا يبلغهم فيها أحد.[4]

والظاهر أن صناعة النسيج والحرير قد اختصت به أكثر من مدينة، فمدينة بسطة*قد وصفت بأنها دار للصناعة وشجر التوت فيها كثير وعلى قدر ذلك غلة الحرير.[5] وأعظم المدن ممن ذكرنا في هذا هذا الاختصاص جيان، حيث كان لها أزيد من ثلاثة ألاف قرية كلها يربى فيها دود الحرير.[6] وقد أكد أكثر من باحث على دور قرطبة الاقتصادي وتحدثوا عن كونها تفخر بوجود ثلاثة عشر ألف منسجا فيها، وكانت أقمشتها الصوفية والحريرية والمقصبة فائقة الشهرة.[7] وبلغ من شهرة البلاد الأندلسية في صناعة النسيج أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيمتان جدا، أحداهما بسند والأخرى بوادي آش من غرناطة، في جوف كل واحد منهما حائك ينسج الثياب.[8]

---

(1): شكيب أرسلان: الحلل السندسية،ج1، ص202.

(2): :مريم قاسم طويل: مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح (443هـ - 484هـ/ 1051م -1091م) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص92.

(3) : السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمرية قاعدة أسطول الأندلس ، ص165.

(4):الحميري: الروض المعطار، ص539.

* : مدينة بالاندلس بالقرب من وادي آش من كورجيان، وهي متوسطة المقدار حسنة الوضع، عامرة أهلة حضينة ذات أسوار، لها تجارات وفعلة بضروب الصناعات وبينها وبين جيان ثلاث مراحل./ الروض المعطار، ص112، 113./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2،ص568.

(5) : المصدر نفسه: ص113.

(6) :المصدر نفسه: ص183./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2،ص569.

(7) :روبرتهيالنبراد: "زينة الدنيا" قرطبة القروسطية، مركزا ثقافيا عالميا، ص196.

(8) :شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1،ص190.

كما كان يصنع في مرسيه من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة، وآلات الصفر والحديد من السكاكين، والمقاص المذهبة، وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يهز العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها،[1] وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره.[2] وقد اختصت لاردة (LERIDA) من خلال نهرها المسمي بنهر (شيقر) حيث كان أهلها يلتقطون منه برادة الذهب الخالص.[3]

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الصناعة في الأندلس أن نعرج على صناعة لها ارتباط بالجانب الثقافي، ألا وهي صناعة الورق، فهي العمدة والمادة الأولى للحياة العلمية، حيث كانوا يعتمدون في إنتاجه على لحاء النباتات وأوراقها، فكما اشتهرت ألمرية بصناعة الورق، فقد فاقتها شاطبة في صناعته وحسن جودته، فقد ذكر الحميري أن الكاغد الذي يعمل بها لا نظير له بعمور الأرض يعم المشرق والمغرب.[4] وقد تبلغ بهذه الحرفة كثيرون منهم الشاعر بم صارة الشنتريني، فقد أخبر عنه صاحبي الذخيرة بانه تبلغ بالورقة وله منها جانب، ولها بصر ثاقب ، فانتعلها على كساد سوقها، وخلق طريقها، وفيها يقول:

- أما الورقة فهي أيكة حرفة أوراقها وثمارها الحرمان

- شبهت صاحبها بصاحب إبرة تكسو الغرة وجسمها عريان[5]

ومن بين الصناعات المهمة كذلك صناعة السفن التي ازدهرت في شبه الجزيرة الأيبيرية، وذلك لطول سواحلها وإحاطتها بمياه البحر المتوسط ومياه المحيط الأطلسي من جهاتها الثلاث ما عدا الجهة الشمالية، ولهذا فظهور المرافئ كان في شرقي البلاد وغربها وجنوبها، وقد ساهمت هذه الصناعة في تقوية الاقتصاد الأندلسي وذلك بنقل البضائع والأشخاص لأغراض المختلفة. فقد ذكروا عن شلطيش (SALTES) أنها كثيرة السفن وبها دار صناعة لإنشائها.[6] والأمر سيان

---

(1):المصدر نفسه: ص232 ، 233.

(2):المصدر نفسه: ص233.

(3): الحميري: الروض المعطار، ص507.

(4): المصدر نفسه: ص337.

(5) : ابن بسام: ق2/2/ ص835.

(6) : الحميري: الروض المعطار، ص344./ الإدريسي: نزهة المشتاق،ج2،ص542.

بالنسبة لشنتمرية (SANTAMARIADEALGARVE)حيث المراكب صادرة وواردة وبها دار صناعة الأساطيل.[1]

ودانية وصفت بكثرة السفن الواردة عليها الصادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنها دار إنشائه.[2] وقد بني قبلا الأمير عبد الرحمن بن محمد في الجزيرة الخضراء دار لصناعة الأساطيل.[3] بقيت كذلك حتى عصر الطوائف. وكانت بعض المدن قاعدة للمادة الأولية– أي الخشب - التي تصنع منها المراكب، فطرطوشة (TORTOSA) كانت تنتج المراكب الكبار من خشب جبالها حيث الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ.[4] أما ألميرية فقد ظلت تحتل المركز الأول بين قواعد الأسطول الأندلسي في عصر الطوائف لكثرة عدد سفنها ونشاط دار ضيعتها في الإنتاجن وخاصة في عصر المعتصم بن صمادج الذي حرص على إنشاء أسطول كبير يرابط في خليج حاضرتهن وكان كل غايته العناية بأسطوله.[5]

وها هو الشاعر بن الحداد القيسي(480هـ) يصف أصطول المعتصم بن صمادج في مقطوعة من خمسة أبيات:

- هام صرف الردى بهام الأعادي أن سمت نحوهم أجياد
- وتراءت بشرعها كعيون دأبها مثل خائفيها سهاد
- ذات هدب من المجاديف هاك كل من ارسلت عليه رماد
- وقمم فوقها من البيض نار كل من ارسلت عليه رماد
- ومن الحظ في يدي كل دمر ألف خصلها على البحر صاد[6]

وبالإضافة إلى صناعة السفن هناك صنائع كثيرة يصعب علينا ذكرها جميعها في هذا المقام، كبعض الصنائع المتعلقة بالمعادن المختلفة، كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد الزئبق والازورود والشب، والزئبق والزنجفور وغيرها من المعادن.

---

(1) : الروض المعطار: ص347./ نزهة المشتاق: ج2، ص543.

(2) :الروض المعطار: ص232./ نزهة المشتاق: ج2، ص557.

(3) :الروض المعطار: ص323.

(4) : المصدر نفسه: ص391.

(5) :السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمرية قاعدة الأسطول الأندلسي، ص49.

(6) :الديوان : جمع وتحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، ص187 وما بعدها.

ج - التجارة:

شهدت المدن الاندلسية نموا وتطورا سريعين حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حتى أصبحت مدنا متطورة بالمعنى الحديث مقارنة بتلك الفترة.

" وفي تكوين أي تجمع من التجمعات المدنية وتطوره تتداخل عدة عوامل جغرافية واقتصادية وتاريخية، بعضها دائم والبعض الأخر مؤقت ن وعندما تكون ظروف العوامل الثلاثة متوافقة تنشا مدينة مزدهرة ومزدحمة ومستمرة في حياة نشطة."[1]

فالعامل الجغرافي وقد ذكرناه سابقا وحاولنا تبيان أهمية الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة والعامل التاريخي وكيف شكلت الحضارات المتعاقبة على الأندلس نوعا من التمدن نتيجة لتراكم الخبرات، أما العامل الاقتصادي من خلال قطبيه الزراعي والصناعي باعتبارهما أساس أي اقتصاد عبر التاريخ ولكن تبقى التجارة - لما لها من أهمية قصوى -هي المفعل الأساسي لهذين القطبين، إضافة إلى أنها تلعب دورا موازيا للعملية الاقتصادية وهو الدور الثقافي، فالمبادلات الاقتصادية البينية التي كانت تتم بين مختلف الدول الطائفية، بالإضافة إلى المبادلات الخارجية سواء مع العالم الإسلامي (شمال إفريقيا - المشرق) أو مع الشمال المسيحي أو مناطق أخرى، ما هي في حقيقة الأمر إلا مبادلات معرفية وفكرية وثقافية كذلك.

" كان الأندلس نائيا دون شك، إلا أن مرور الناس والأفكار كان مؤمنا، ذلك أن شبه الجزيرة لم تكن قط دون اتصال مع العالم المشرقي."[2] ومع الأطراف الخارجية التي ذكرناها سابقا، ومن هنا تظهر أهمية التجارة في العملية الثقافية موازية لأهميتها الاقتصادية، وحتى التاريخ لا يمكن فهمه دون الإحاطة بالجانب التجاري.

«لقد أجمع الباحثون على أن فهم التاريخ الإسلامي واستيعابه وتنظيره لا يتم بمعزل عن فهم مفتاحين أساسيين هما : رصد حركة التجارة العالمية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. والإحاطة بتطور وضعية

---

(1) : تورس بالباس: المدن الأسبانيةالأسلامية، ص52.

(2) :أوليفياما ري كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص42.

الأرض الزراعية وأشكال ملكيتها وصيغ حيازتها وتطور هذه الأشكال والصيغ عبر حقب التاريخ الإسلامي."[1]

خيم الأندلس - كما سلفنا - إثنيات مختلفة وأعراقا متعددة كان مفروضا عليها أن تتعامل كلها فيما بينها، أوفيما بينها وبين العالم الخارجي" فقد كانت الأنشطة التجارية تتطلب ممارسة علاقات طيبة مع كل ما من شانه أن يقدم أعظم المنافع وأدنى الأثمان وأعلى الأرباح ويلبي مطالب السوق... ويعني هذا أن التجار كان معروفا عليهم أن يتعاملوا مع تجار آخرين من أصول إثنية مختلفة مع مدينتهم الطائفية أو أنحاء أندلسية أخرى أو المغرب."[2]

هذه العلاقات التجارية المتقاطعة بين الأندلس ومتعاملية كان نتائجها ظهور ما يسمى بـ" الثقافة المزيجة"* نتيجة تعدد اللفات والأعراق والديانات والميراث الثقافي سواء في التجارة الداخلية أو مع الأطراف الأخرى، ولكن حينما يتعلق الأمر بالعالم الإسلامي حتى ولو كانت المسافات بعيدة عن الأندلس والمبادلات تتم داخل الثقافة الواحدة والدين الواحد واللغة الواحدة، لكن هذا لم يمنع من الاحتكاك الثقافي والفكري والمذهبي داخل أطراف الثقافة الأم.

" من جهة أخرى يمكن اعتبار النشاط التجاري - من أحد الوجوه - وسيلة لتعميم الحضارة المادية، وهو تعميم يمكن أن نلمسه في مجالات عديدة ليس بأقلها شأنا تلك الخبرات الفنية المتصلة ببناء السفن والملاحة البحرية ولا شك لأن هذين الميدانين لهما ارتباط مباشر بأوجه النشاط التجاري."[3] وكان لسقوط الخلافة الأموية وظهور اللامركزية في الحكم والتسيير الأندلسي ممثلا في دويلات الطوائف دور كبير في دفع النشاط التجاري إلى الأمام وخاصة الدول الطائفية الواقعة على السواحل البحرية، فقد سارعت إلى بناء موانئ وتشييد مرافئ، دور لصناعة السفن من أجل تحقيق الاستقلالية التامة، إذ أن الموانئ هي المنفذ الأكثر سهولة نحو العالم الخارجي." فقد ذكر الرازي الجغرافي انه كان يؤم الموانئ الأندلسية المختلفة مراكب عديدة حاملة البضائع على

---

(1) :محمود إسماعيل: إشكالية المنهاج في دراسة التراث، ص96.

(2) : أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص40.

* : هذا المصطلح استعملته الباحثة أوليفيا ماري كونستبل في كتابها" التجارة والتجار في الأندلس" في حديثها عن هذه الفكرة، ص28.

(3) : مونتوغومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص32.

متنها، وناقلة بعيدا سلعا مشتراة من أسواق ألبيريا."[1] هذا ما قاله الرازي الذي كان قبل الطوائف قبل الطوائف، أما في عصر الطوائف فقد اشتهرت عدة مدن بهذا النشاط." فقد كانت ألمرية أول ميناء متوسطي لمسلمي إسبانيا، وقد وصفت من قبل جغرافي عربي** في القرن الحادي عشر كمفتاح لتجارة الأندلس."[2] والسبب فيها أصابته ألمرية من شهرة في هذا المجال يرجع إلى أنه كانت تصلها السفن من المشرق والأقطار الأوربية للتجارة البحرية منذ سقوط الخلافة الأموية وانتزاء خيران العامري ومن خلفه من ملوك الطوائف بها.[3] أم بالنسبة (VALENCIA)فقد غدت ميناء مهما في عصر حول الطوائف على ساحل المتوسط وصدرت كثيرا من منتجاتها الزراعية المختلفة، كما كان ميناؤها مركزا لعبور وتوقف سفنا ومراكب غرناطة التي انطلقت تجارتها إلى كل مكان على جانب البحر الأبيض المتوسط كغيرها من الموانئ الأندلسية ، الأمر الذي أسهم في ثراء المدينة، واستقرار أحوالها، وتطورها في مختلف المجالات.[4]

والظاهر أن ثمرات الخبرة العربية في الملاحة في المحيط الهندي قد جلبت إلى الأندلس، فقد هيمنوا على التجارة العظيمة القائمة بينر كلوة في شرق إفريقيا، ومضايق ملقا وما بعدها[5].

وكان العرب أول من جلب اللتينة الشراعية إلى البحر المتوسط. وميزة هذا النوع من السفن هي قدرته على الإبحار عكس اتجاه الريح، حيث اقتبس هذا النوع صناع السفن الأوربيون وطوره.[6]

أضف إلى ذلك أن ازدهار الملاحة التجارية عند العرب راجع إلى كونهم أول من أخترع البوصلة (إبرة الملاحين)، بعد أن ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن الصينيين أول من اخترعها[7].

ولم تكن المراكب تنتقل بالبضائع والأشخاص على الواجهات البحرية فحسب، وإنما حتى على الأنهار والوديان التي تجري في المدن وبينها، وقد رأينا كيف أن لكل مدينة أندلسية أكثر من نهر

---

(1) : نقلا عن أوليفيا ماري كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص55.

** : هذا الجغرافي الذي تقصده المستشرقة هو ابن غالب." نص أندلسي جديد" قطعة من كتاب "فرحة الأنفس".

(2) :نقلا عن المصدر نفسه: ص56.

(3) : السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمرية قاعدة الأسطول الإسلامي ، ص168.

(4) : خالد بن عبد الله الشريف: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، ص352.

(5):مونتوغومري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص 32.

(6):المصدر نفسه: ص 33.

(7):المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

دائم الجريان على أراضيها، قد ساعدت هذه الأنهار والوديان في عملية نقل البضائع والأشخاص، فقد ذكر الحميري عن مرسية أنها على ضفة النهر، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة، والمراكب تنتقل بها من موضع إلى موضع[1] وبلنسية حيث كانت السفن تدخل نهرها[2].وكان الوادي الكبير " gvolalquivir" في إشبيلية قد حمل الحجم الأعظم من السلع ولم تكن البضائع القادمة من أعلى النهر مرسلة لإشبيلية وحسب بل إلى أسواق البلاد[3]، ويذكر بعض الجغرافيين المسلمين عددا من الأنهار الأندلسية الصغيرة، بما فيها (إبروIbri) و(تاجوس–TAGU) و(ديور – DUERO) و(جديانا – GUADIANA) كشريانات تجارية، وكان كثير منها قابلا للملاحة بقوارب صغيرة ، وليس بسفن أو مراكب عريضة، ولكنها ظلت طرقا مهمة للوصول إلى الداخل.[4].

يشار إلى أن الأحداث السياسية المتدهورة في عصر الطوائف لم تعق تنقل الأشخاص والبضائع على مستوى المحاور الداخلية البينية، أو مع الشمال المسيحي في أغلب الأحيان رغم الحروب التي كانت تدور بين مختلف الدول الطائفية، أو بينها وبين ممالك الشمال المسيحي، فقد ظلت المبادلات الاقتصادية تتم في غالب الأحوال بصورة منتظمة، وكان من دواعي التنقل إضافة إلى الحاجات الاقتصادية، دواع معرفية أو سياحية أو بحثا عن الرخاء والاستقرار في بعض الأحيان وكثير من الأشخاص قد استهوتهم مدن غيرهم فاستقروا فيها." فقد سادت قلة في بعض الأحيان، وكثير من الأشخاص قد استهوتهم مدن غيرهم فاستقروا فيها " فقد سادت قلة الاكتراث بالحدود السياسية والعسكرية لدى التجار الذين استمروا في ذهابهم إلى الأسواق بعدد متزايد"[5].

وحتى الطرق كانت بين المسيحيين ومناطق المسلمين كانت آمنة أيضا، كما كان زمن سانشوا الرابع (SANCHO) صاحب ناخار، والمقتدر حاكم سرقسطة، حيث أتفقا سنة 1069 م على

---

(1):الروض المعطار: ص 593.

(2):المصدر نفسه : ص 97.

(3):أوليفيا ماري كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص 61.

(4):المصدرنفسه:هامش الصفحة 61.

(5):تورس بالباس: المدن الإسلامية، ص 125.

أنه يجب أن تبقى الطرق التي بين مملكتيهما آمنة وسالمة ، فلا إعاقة ولا أذى يصيب أيا من الناس الذين يرتحلون خلالها.[1]

وقد جذبت الأسواق الأندلسية التجار المسيحيين من شمال إسبانيا ومناطق أخرى من أوروبا، ورغم ذلك بقي الاقتصاد الأندلسي متوجها نحو عالم التجارة الإسلامية[2]وكان طريق "سانتياغو – SANTIAGO" قد بلغ شهرة كبيرة في عصر الطوائف في التجارة بين الأندلس الإسلامي والشمال المسيحي، رغم قلة البراهين على التجارة بين العالمين المتناقضين مع تسجيل وجود النقل التجاري، الديبلوماسي المنظم والبضائع المتنقلة بين الثغور[3] .

أما عن السلع والمواد المتاجر بها المحاصيل الزراعية المختلفة كالفواكه المتنوعة. والقطن والتوابل والسكر، وأنواع المنسوجات الحريرية والكتان وأنواع المعادن كالزئبق والذهب والفضة، وحتى الأسلحة، ومختلف المقتنيات الفاخرة التي تحتكرها الطبقة الميسورة.

فقد ذكروا عن إشبيلية أن القطن يجود بأرضها ويعم بلاد الأندلس، ويتجهز به التجار إلى أفريقية وسلجماسة وما والاها[4]، أما إلبيرة وهي من فحص غرناطة فخريرها ينتشر في البلاد ويعم الآفاق، وكتان هذا الفحص يربي جيده على كتان النيل ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين[5]وحصن (أبال) والذي يقع في شمال قرطبة وعلى مرحلة منها غني بمعدن الزئبق وفيه يعمل الزنجفور بهما إلى جميع أقطار الأرض[6]، وقد عرفت طليطلة بجودة زعفرانها الذي عم البلاد وكان وكان التجار يتجهزون به إلى الآفاق، وكذلك الصمغ السماوي (اليماني)[7] ، أما طرطوشة فإنها باب من أبواب البحر ومرفأ من مرافئه يحلها التجار من ناحية[8].

---

(1):أوليفيا ماري كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص 92.

(2):المصدر نفسه: ص 83.

(3):المصدر نفسه: ص 87، 91.

(4):الحميري: الروض المعطار، ص 59.

(5):المصدر نفسه: ص 46.

(6):المصدر نفسه: ص 6.

(7):المصدر نفسه: ص 394.

(8):المصدر نفسه: ص 391.

وأطيب القرمز قرمز الأندلس وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلة وشنونة وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق.[1]

يمكن القول بإن كل المدن الأندلسية هي فضاءات مختلفة لممارسة أنواع التجارات، وترويج البضائع، فإستجة (ECIJA) كما يذكر صاحب الروض المعطار ذات أسواق عامرة وفنادق جمة[2]، وبلنسية وقد كانت كثيرة التجارات وبها أسواق[3] وأريولة (ARIHUELA) وهي مذكور مذكور تدمير فيها رخاء شامل وأسواق وضياع.[4]

ولطالما كانت قرطبة (CORDOBA) قاعدة الأندلس وأم مدائنها، ومستقر خلافة الأمويين بها ، حيث كان تجارها مياسير وأحوالهم واسعة[5].لا يختلف الأمر عن يبورة (EVORA) فقد كانت عامرة بالناس ولها أسواق وقصبة والتجارات إليها داخلة وخارجة.[6] ووشقة (HUESCA)المدينة المتحضرة ذات المتاجر والأسواق العامرة والصنائع القائمة[7]، ومرسية كذلك[8] وشتى المدن والكور والكور الأندلسية.

كانت الأسواق الأندلسية تقام في الرحاب الواسعة، أو بجوار المساجد، وللمسجد دور استراتيجي في الحياة الإسلامية، فهو جامع بين الجانب الثقافي والديني وحتى الجانب الثقافي والديني وحتى الجانب السياسي، إذا ارتبط بالسلطة الحاكمة ومعارضيها، وكانت له أهمية كبرى في تنظيم حياة المسلمين، " وباعتبارها جاذبية المسجد الجامع لدى أغلب المواطنين، انتظمت الحياة التجارية حوله بصورة بارزة في الشوارع المجاورة المحفوفة بالدكاكين الصغيرة في القيصرية والفنادق ومخازن الغلال والأسواق، وكذلك انتظمت حول ذلك الجامع الرئيس الأماكن المؤقتة للتجار

---

(1):البكري: المسالك والممالك: ج2، ص 385.

(2):الحميري: الروض المعطار، ص 53.

(3):المصدر نفسه: ص 97.

(4):المصدر نفسه: ص 67.

(5):الحميري: الروض المعطار، ص 456.

(6):المصدر نفسه: ص 616.

(7):المصدر نفسه: ص 612.

(8):المصدر نفسه: ص 539.

المتواضعين بمضلاتهم وبمناضيد المنتقلة، كما كثر حوله الباعة المتجولون وهم يصيحون ببضاعتهم."[1]

ولا بد من هنا من الإشارة دور اليهود في النشاط التجاري في الأندلس في عهد ملوك الطوائف، فقد كانوا مسيطرين على تجارة بعض المواد النفسية كالذهب والفضة والأحجار الكريمة كما احتكروا تجارة العبيد حيث كان لهم فيها باع طويل، وقد ساعدتهم عدة عوامل على تجارة الرقيق كالاضطرابات السياسية التي تشهدها الأندلس في القرن الخامس الهجري حتى إن بعض الباحثين يجعل المغربية والأندلسية نقطة بارزة في تجارة الرقيق نظرا للموقع الجغرافي الذي يتوسط مجالين عرفا بتصدير الرقيق الأسود إفريقيا الغربية (بلاد السودان) والأبيض من أوروبا الوسطى (الصقالبة) مع تسجيل التفاوت الزمني للتجارتين[2] ففي أندلس القرن الخامس الهجري برز الرقيق الصقلبي وغلب على سواه من مصادر أخرى، حيث انتشروا في البلاد والإدارة والجيش والاقتصاد والبيوت[3].

ولا شك أن الجبهة الأندلسية قد تشكلت بامتياز وخاصة في القرن الخامس الهجري مصدرا هاما ورافدا من روافد الاسترقاق، بفعل الاضطرابات السياسية والحروب التي شهدها الأندلس خلال هذا القرن وخاصة ما يسمى بحروب الاسترداد المسيحية ، ومثال ذلك ما حصل في مأساة "بربسترBRABASTRO " عام (456 هـ) حينما دخلها النصارى فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذراري المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية.[4]

ولما استردت مدينة بربستر في العام الموالي سنة (457 هـ) من طرف المقتدر (أحمد بن هود) كانت النتائج عكسية كذلك ، حيث أقتحم المسلمون مدينة النصارى وسبوا جميع من كان

---

(1):تورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية ، ص 265.

(2):عبد الإله بن مليح: الرق في بلاد المغرب والأندلس، ص 23.

(3):المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

(4): الحميري: الروض المعطار، ص 90، وعند ابن عذاري:" خمسة آلاف جارية" البيان المغرب: ج3 ص 253. وذكر ابن بسام في الدخيرة " أنه صار لأكبر رؤسائهم في هذه الحادثة نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا كلهن" ق3/1/ص 182.كما ذكر ابن بسام عن ملكهم أنه لما أراد القفول إلى دياره تخير من الصبيان الأيفاع ...../ الذخيرة : ق3/1/ص185 .

فيها من عدالهم وأبنائهم[1].هذا في حادثتين فقط، فما بالك بقرن شهد انفلات خطير على الصعيدين السياسي والعسكري.

والحقيقة أن قضية الرق والعبيد كانت في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ زمن الفتح الإسلامي لها عام (92 هـ)، وحتى من قبل الفتح، فقد ظل الأندلس جبهة وثغرا من تغور المسلمين لقرون عديدة، وكان من الطبيعي أن يعرف مثل هذه الأمور.

وربما جلب الرقيق من خارج شبه الجزيرة، فقد ذكر بروفنسا أنه كان يؤتى بهم من بلاد أوروبا الوسطى والجنوبية ومن شواطئ البحر الأسود، ومن كلا بروميارديا وغيرها...، أما الخصيان وهم المعينون لخدمة الحريم، فكان التجار يأتون بهم لبيعهم في الأندلس وكان لهم صيادون ومعامل لخصائهم في جنوب فرنسا، وفي مدينة فردان منها بخاصة[2].

ويبدو من كلام المقدسي أن الأندلس كذلك كانت بها مناطق اشتهرت بعملية الخصي تمهيدا للبيع ففي حديثه عن الصقالبة قال: " وكانوا يحملون إلى الأندلس فيخصون ثم يخرجون إلى مصر"[3] واشتهرت مدينة بجانة أو إحدى قورها بهذه العملية حيث كان يشرف تجار يهود دأبهم هذه التجارة[4] .وكانت عملية الخصاء تتم في الغالب في سن مبكرة، قبل سن البلوغ في عمليات شاقة ومؤثرة ذكرها المقدسي في رحلته.[5]

وما يلاحظ على أن أغلب التجارات أنها كانت تتم بالبيع والشراء وأحيانا بالمقايضة، والظاهر من سياق النصوص والشواهد التاريخية، فإن لكل دولة طائفية حتى ولو كانت صغيرة – عملتها الخاصة بها، والتي سكتها حتى تحافظ على خصوصيتها وسيادتها واستقلالها.

فكانت المثاقيل العبادية نسبة إلى دويلة بني في إشبيلية، والمثاقيل الشرقية التي ضربت بشرق الأندلس، وكانت هذه الدنانير كما يبدوا ناقصة ومغشوشة[6]، وقد بدلت سكة بني جمهور في

---

(1):ابن بسام : الدخيرة ، ق3/1/ص 190.

(2):الحضارة العربية في اسبانيا ، (طبعة دار العالم الغربي)، ص 119، 120.

(3):أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق ، شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات، المؤسسة العربيةللدراسات والنشر، بيروت ، ط1، 2003 م، ص 224.

(4):المصدر نفسه: ص 225.

(5):المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

(6):الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب، عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، ج6، ص79، 162/ وج1، ص 389.

قرطبة بدخول سكة بني عباد بعد سيطرتهم على المدينة سنة (462 هـ/ 1069م)، وقد أورد ابن بسام إشارة إلى ضرب السكة في مملكة إشبيلية ومن المعتمد بن عباد" ....وكنت يوما بدار أبي بكر الفولاني المنجم، فاتفق أن دخل علينا عبد الجليل وفي كمه صلة المعتمد من ضرب السكة لديه، قيمتها ثلاثة آلاف درهم"[1].

وفي طليطلة سكت عملات بأسماء حكامها: الأولى منها باسم إسماعيل الظافر في عام (434 هـ - 1042م)[2] وقد ضربت السكة في مملكة بني الأفطس، فقد أورد ابن بسام نصا عن ابن شرف القيرواني الذي كتب قصيدته للمظفر من طليطلة فوصله بمائة مثقال من ضرب السكة لديه[3].

وذكر الونشريسي من جملة النقود في عصر الطوائف الدنانير القرمونية، نسبة إلى المدينة التي ضربت فيها (قرمونة–cormona) وكانت نسبة الذهب فيها نحو السبع ، ولها أجزاء منها الربع دينار[4]

وحتى بلنسية حيث غيرت السكة من ستة دنانير بمثقال إلى ثلاثة للمثقال[5]، ولما كانت الغلبة على مرسية في زمن أبي الجيش مجاهد عمل على ترجمة كتابة في اللغة لأبي الجيش مجاهد فرد الدنانير وأبى من ذلك.[6] ، أما النقود الذهبية والفضية القرطبية فقد كانت مقبولة للتداول في شمال أوروبا.[7] .

ولسنا بحاجة إلى الاستفاضة أكثر في الحديث عن العملات المختلفة لممالك الطوائف فيكفي الباحث أن يطلع على الكتب التاريخية حول ما كان يدفعه رؤساء هذه الممالك كبيرة كانت أم صغيرة –من ضرائب لملوك الشمال من النصارى، وخاصة ألفونسو السادس، حتى يدرك انه لكل دويلة طائفية عملتها الخاصة بها، وإنما أتينا على ذكر قضية السكة والعملات هنا حتى ندلل

---

(1):ابن بسام : الذخيرة، ق1/2/ص515.

(2):ابراهيم بن عطية الله بن هلال السلمي: تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي، ص 154.

(3):الذخيرة: ق2/2/ص 643.

(4):المعيار المعرب: ج10، ص 308.

(5):المصدر نفسه: ج6، ص 163، 164.

(6):شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج3، ص 300.

(7):روبرت هيلنبراند:" زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركز ا اتفاقيا عالميا، ص 196.

على صحة الاقتصاد والتجارة الأندلسية في الغالب الأعم يظهر المفهوم الإسلامي للمدينة في الغالب على تفاصيل حياتها الاقتصادية كما يقول المستشرق الاسباني (تورس بالباس)، ومن هذا المنطلق فإن الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية كانت تحت وصاية الدين الإسلامي، وضمانه عن طريق الحكام والهيئات القانونية لترسيخها والدفاع عنها أمام ملابسات الحياة السياسية وأعمال الذهب، ومن هنا فإن الشريعة الإسلامية التي تظهر في الحياة المادية للمدينة، هي العامل الأساس لحفظ النظام وديمومته واستمراره.[1]

وعلى هذا الأساس فالنشاط التجاري والاقتصادي بشكل عام كان تحت مراقبة الدولة (الدويلات المختلفة) بقانون شرعي يحكم المعاملات المختلفة وينظمها، ما يجعل الحياة الاقتصادية أكثر تنظيما، ولهذا فقد ظهر من الأشخاص من أنيطت به هذه المسؤولية في حفظ السوق وتنظيمه، وضبط الأسعار وما يحصل من مخالفات أثناء البيع والشراء،ومنه خطورة هذه الشخصية أكثر من ضروري باعتبارها تمثل السلطتين الشرعية والسياسية.

وهذا الشرطي سمي (صاحب السوق) في الأندلس أيام حكم الأمويين وفي فترة ملوك الطوائف وسمي فيما بعد بالمحتسب، حيث كان مراقبا للعادات والتقاليد الخاصة بالواجب العام كما كان في الوقت نفسه مراقبا ومحافظا على الأمانة التجارية في صفقات التجار وأصحاب المهن اليدوية، والتحقق من موازينهم ومقاييسهم ، ومعاقبته من يرتكب أعمال الغش منهم[2]، فلطالما وقع الغش والتدليس في البيع والشراء في كل المبيعات حتى البشر (العبيد والإماء)، فمن التجار من لا يردعه قانون ولا شرائع، فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن إبي محمد السقطي من حيل تجار العبيد والإماء وما يقع من التدليس حولهما من البائع على المشتري الشيء الكثير[3]

و في شتى الصنائع كذلك يقع الغش مثلما هو الحال عند الخياطين و الصباغين و الرفائين و الطرازين[4] حتى بلغت الجرأة ببعضهم في الغش فيما يمس المعاش البشري بشكل مباشر

---

(1): المدن الإسبانية الإسلامية: ص 13.

2نورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص11.

3السقطي: كتاب في آداب الحسبة، تحقيق: جورج كولان و ليفي بروفنسال، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة الأمنية، ط2، 2011، ص47 و ما بعدها.

4المصدر نفسه: ص62 و ما بعدها.

(المركبات و المعاجين و الأشربة)[1] أو ما يمس بصحة الناس كذلك كما هو الحال عند العطارين و الصيادلة.[2]

و كان البيع أحيانا بحضور أخصائيين، ففي عصر الطوائف أحضر أحد الباعة اثنين من البياطرة ليشهدوا على بيع بغلته، و أنها كانت سالمة من العيوب وقت البيع، وذلك لقطع الطريق على المشتري فيما ادعى عكس ذلك بعد إتمام الصفقة.[3]

و من خلال الاطلاع على كتب التاريخ الأندلسي المختلفة يظهر أن وظيفة المحتسب أو القائم بشؤون السوق قديمة في الأندلس ممارسة و تأليفا، حيث أن أقدم كتاب في الحسبة هو كتاب (أحكام السوق) للكاتب يحي بن عمر الأندلسي* (ت 289هـ/901م)، و كتب ابن عبدون و السقطي – السابق ذكره - على التوالي في إشبيلية و مالقة نحو رسالتين أو كتابين عن الحسبة تناولا فيهما شتى واجبات المحتسب بالتفصيل و ذلك في أواخر عصر الطوائف.

يبدو اقتصاد الأندلس من خلال مظاهره الثلاثة (الزراعة، الصناعة، التجارة) متينا و متنوعا و لكنه يختلف من مملكة لأخرى، فيقوى أو يضعف بحسب قوة أو ضعف هذه الدويلة أو تلك. و لكن قوة الاقتصاد أو ضعفه تكون أحيانا محكومة بعوامل أخرى خارجية (طبيعية أو سياسية) فبعض الحوليات التاريخية تحدثنا عن مجاعة أصابت مملكة بني الأفطس، حتى إن الجذب توالى بحضرته –أي ملكها - فجفت منابعها، واغبرت جوانبها، و غر الماء في غير روضة، و خاض اليأس بالناس أعظم خوضه، حتى أقلع المتوكل عن الشرب و اللهو و نزع ملابس الخيلاء.[4] و قد وصفت بنبلونة (PAMPLONA) بأنها بين جبال شامخة و شعاب غامضة قليلة الخيرات، أهلها جاعة فقراء.[5]

11السقطي: كتاب في آداب الحسبة ،ص44 و ما بعدها.

2المصدر نفسه: ص41 و ما بعدها.

3الونشريسي: المعيار المعرب،ج ص 50.

*يحي بن عمر بن يوسف بن معامر الكناني، و يكنى أبا زكرياء، رحل من الأندلس فسمع بإفريقية من سحنون و غيره، و سمع بمصر من يحي بن عبد الله بن بكير،و غيره، و كان فقيها حافظا للرأي، ثقة في روايته، ضابطل كتبه. سمع منه أهل الأندلس و أهل القيروان، و كانت الرحلة إليه في وقته./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص435./ الحميدي: جذوة المقتبس، ص341، 342./ الضبي: بغية الملتمس، ص440، 441.

(4):الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 137.

(5):الحميري: الروض المعطار، ص 104.

و هناك عوامل أخرى سياسية – و هي أهمها - قد أثرت على الاقتصاد الأندلسي في عصر الطوائف كالحروب الداخلية بين ممالك الطوائف، أو بينهم و بين الشمال المسيحي، فحينها دخل أدخونش (ألفونسو) على طليطلة أخد ينتسف مرافقها، حتى سما السعر، وتفاقم الأمر وانكسرت الموارد والمصادر وبلغت القلوب الحناجر[1]، وقبل ذلك وفي سنة (442 هـ) أوقع ابن عباد بابن الأفطس وحصل القتل الكثير يقول ابن حيان: أخبرني من أثق به أن بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق[2] حتى إنه وفي عبوره لبلد خصمه دمر عمارات واسعة، أفسد غلاتها ، وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة[3].

بل أمتد شأن هذين الأميرين يومئذ في الغي وتباريا في القطيعة حتى أفنيا العالمين[4]، وقد يكونالازدهار الاقتصادي لبعض الدويلات ملاذا آمنا لهجرة سكان الدويلات الأخرى إليها، مما يشكل عبئا إضافيا على اقتصاد الممالك المهاجر إليها، ففي قرطبة في عهد أبي الحزم بن جمهور رخت الأسعار، وصاخ الرخاء بالناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع، فظهر تزيد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها ملأو المساجد والأفنية وسمت أثمان الدور بها[5].

بقي أن نشير إلى شيء نتحدث عنه بشيء من الإضافة في الحياة الاجتماعية، وهو فداحة الضرائب التي كان يؤديها ملوك الطوائف مجتمعين إلى الممالك الشمالية المسيحية في " جاليسيا–جليقية) و(قشتالة وليون –leon) و(ونافار - navarre)و(أرغون –Aracon) و(كاتالونيا–catalonia)، قد ضاعف الضغط على المجتمع الأندلسي وبالتالي على اقتصاد ممالك الطوائف ، وكانت سببا في تحول مركز الثقل من الجنوب الإسلامية إلى الشمال المسيحي، ونختم حديثنا حول الاقتصاد الأندلسي بقول (بدروشلميطا–pedrochalmita): أنه إذا أردنا معرفة درجة غنى الأندلس وأهميتها، فيجب أن نتذكر أن اقتصادها قد قام على الاكتفاء الذاتي، وأن نموها قد دام ثلاثة قرون، لقد كانت الأندلس قادرة في سنة (400 هـ / 1009م) وحتى (75) سنة إضافية، على أن تدعم وتمول (دون إدارة منها) نمو مجموعة اجتماعية أخرى، طفيلية وأجنبية: هي الدول

---

(1):ابن بسام : الذخيرة، ق 4/4/ص 164.

(2):المصدر نفسه: ق1/1/ص 388.

(3):المصدر نفسه: ق2/1/ص 35.

(4):المصدر نفسه: ص 36.

(5):المصدر نفسه: ق1/2/ص 604.

النصرانية الشمالية، ومن الصعب تقديم دليل أفضل من ذلك لحقيقة الاقتصاد الأندلسي وأهميته منذ نشأته وحتى تولي المرابطين السلطة"[1]

I -3 -3 - المبحث الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية:

يستطيع الباحث في تاريخ الطوائف (السياسي والاقتصادي والاجتماعي) أن يدرك منذ الوهلة الأولى صور التناقض في مجتمع ممالك الطوائف، فمن حياة البدخ والترف والأبهة والقصور التي غزت كل الدويلات بدون استثناء، إلى حياة أخرى مناقضة لها، بئيسة يعيش أصحابها من الطبقات البسيطة والمعدومة الدخل، شتى أنواع الفقر ومظاهر الحرمان، يشكون من تسلط بعض أمرائهم، وإن كان الأمراء من ذوي الرحمة، فتبقى هذه الطبقات مثقلة بوطأة الضرائب* التي كانت تمس شتى أنواع الممتلكات وحتى البسيطة منها.

لقد عمق الاقتصاد الأندلسي هذه الصورة، وأحدث نوعا من التركيب الاجتماعي المتميز للأندلس، من خلال ظهور بعض المصطلحات في البيئة الأندلسية (الخاصة، العامة) حيث يشير الأول إلى الطبقة الحاكمة من الأسر الطائفية المختلفة، ومن العائلات المحيطة بها ذات النفوذ، وكبار الملاك والتجار من الطبقة الميسورة، حيث كان هؤلاء يؤيدون الطبقات الحاكمة من أجل حماية تجارتهم

---

(1):صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي (دراسة شاملة)، ص 1060.

*: من بين الضرائب المذكورة كما يذكر إحسان عباس: " ضريبة الرؤوس التي تسمى القطيع وتؤدى مشاهرة ، وضريبة على الأموال من الغنم والبقر والدواب والنحل، وقبالات على كل ما يباع في السواق". تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 40، وهذه الضرائب مرتبطة بضرائب ملوكهم وهي ثغرات فتوحها على أنفسهم، وأكبرها ثلاث " الضريبة السنوية التي يتقاضاها الأدفونس (ألفونسو السادس)، ثم الضريبة المفروضة لدفع مرتبات الجند، وترتفع كلما كانت الحروب والفتن دائرة بين الأمراء أنفسهم، والثغرة التالية ما يوفرونه من طرق الجباية لبناء القصور واقتناء فاخر الأثاث" – المصدر نفسه، ص 39.

إضافة إلى الضريبة المؤداة على خراج الأرض وكانت مفروضة على كل الفلاحين من الشعب الأندلسي بكل مكوناته، وقد وضع الأستاذ (بدروشلميطا) في بحثه القيم(صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي) كل أنواع الضرائب والمداخيل بمسمياتها ومصطلحاتها وطرق جبايتها، وحاول أن يجتهد في تقدير حجم تلك الضرائب بالأرقام، وقال " كان نظام الضرائب قائما على حصول الدولة على نسبة مئوية من الإنتاج"، ص 1045 ، " فالعشر الذي يدفع عينا) يؤدي للقابض أو العشار، ويجمع الخراج والطبل رجال العامل، نقد أبعد تقدير العبرة الذي يقوم به الفارض، وكان يجمع الجزية جاب مكلف بها أو شيخ الحي أو القومس، وأما الضرائب غير المباشرة فكان يقبضها المكاس أو المتقبل، ص 1064،أما الناتج الزراعي فكان يخضع للعشر، 10 بالمائة بالنسبة للأراضي البعل ونسبة 5 بالمائة بالنسبة للأراضي المروية." ص 1051 وتحدثت (أوليفيا ماري كونتيسل) في كتابها: (التجارة والتجار في الأندلس)، في فصل (الضرائب والمكوس) عن مختلف أنواع الضرائب في الأندلس، ،وبعض الأنواع التي اشتهرت بها في زمن الطوائف ، كما أشارت إلى بعض الدراسات التي تحدثت عن الضرائب في الأندلس في هومش بحثها/ ص 198، وما بعدها كما تحدث الأستاذ (أمحمد بن عبود) في كتابه (جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري) في أكثر من مرة عن الضرائب الأندلسية في عصر الطوائف.

وممتلكاتهم، مستفيدة منهم كذلك – أي السلطة -في دفع الضرائب لتعمير خزائنها وسد الثغرات المفتوحة عليها.

أما مصطلح العامة فيضم باقي أفراد المجتمع من فلاحين وعمال وعبيد وغيرهم، ومن هنا فلا نعتقد أن الحياة الاجتماعية كانت في مستوى واحد، سواء في الدويلات الواحدة، أو بين الدويلات المختلفة.

كثيرا ما تصور كتب التاريخ الأندلسي حياة الترف والرفاهية وذلك الجانب المشرق والوضاء من الحياة الاجتماعية التي عاشوها ملوك الطوائف، وذوو الجاه، وكبار الأغنياء والمغتربون من دوائر السلطة، حتى من بعض الأدباء والشعراء والفقهاء وأهل العلم، وفيهم قال ابن بسام " ولم تزل آفة الناس من خلقوا من صنفين منهم، هم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء، قلما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون، فقد خص الله تعالى هذه القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين، بما لا كفاية له ولا مخلص منه"[1]

وخص بعض العلماء قائلا: " فقد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم"[2]

فحين يتنافس الأمراء فيما بينهم في بناء القصور واتخاذ الأبهة وانتحال ضروب التفخيم، يرتفع من حولهم – في العادة - فئات كبار رجال الدولة لاتحاد المنفعة، وللاشتراك من طرق الكسب والجمع وفئة تجار الكماليات الذين تنفق سلعتهم - في مثل تلك الأحوال - بما يقدمونه من فاخر الأثاث والملبوسات المزخرفة والعطور والجواري.[3]

وكانت طبيعة حياة القصور وما يتعلق بها من اقتناء الجواري والغلمان والقيان، قد بلغت حد المنافسة وربما المغالاة في أثمان هن عند بعضهم ، وخاصة إذا كانت الجارية مثقفة متفننة في ضروب المعارف والفنون، وعلى قدر من الجمال، وكان أبو مروان عبد الملك بن روين ملك السهلة والملقب بحسام الدولة، أول من بالغ الثمن في شراء القينات في الأندلس، فقد اشترى جارية أبي عبد

---

(1):الدخيرة : ق3/1/ص 180.

(2):المصدر نفسه: ص 180، 181.

(3):إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف و المرابطين، ص 42، 43.

الله المتطيب ابن الكتاني بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها فأعطاه فيها ثلاثة ألاف دينار فملكها.[1]

ويبدو أن محمد بن الكتاني المتطيب هذا ، قد أشتهر بتجارة الإماء القيان في الأندلس في عصر الطوائف، حيث كان يعلمهن شتى أنواع الفنون والعلوم ، ومختلف المعارف إعدادا لبيعهن بأغلى الأثمان، وقد روي له في ذلك فصل من رقعة يصف فيها تعليمهن وتثقيفهن أوردها ابن بسام في الذخيرة.[2]

أما المعتضد بن عباد فله باع طويل في هذا المجال، فقد ساوى ملوك الطوائف وزاد عليهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه[3]، واتسع بلده وكثر عديدة وعدده[4] وكان على تجرده في إحكام التدبير لسلطانه، ذا كلف بالنساء، فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجناسهن فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه، قيل غنه خلف صنوفهن السريريات خاصة نعوا من سبعين جارية[5].

ولم يتحرج المعتضد في جلب قينة عبد الرحيم الوزير من قرطبة، لإثر وفاته، لما وصفت له بالحذق في صنعتها[6]. أما خصيمه المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس، ففي حربه معه – أي مع المعتضد – سنة (442 هـ) وحصار المعتضد له وقطعة الإمدادات عنه ، ورد رسوله - أي رسول المظفر –إلى قرطبة يلتمس لسيدة شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، فوجد له صبيين ملهيتين عند بعض التجار، نافيا بذلك الشماتة عن نفسه.[7]

إن فعلة المظفر هذه لتبين مدى التحاسد والغيرة والتباغض والتنافس التي كانت بين هؤلاء الملوك والأمراء ما لم يجعله الله بين الضرائر المترفات، والعشائر والمتغايرات كما قال لسان الدين بن

---

(1):ابن بسام: الدخيرة، ق1/3/ص 112. / ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 183.

(2):ق1/3/ص320.

(3):المصدر نفسه : ق1/2/ ص 16.

(4):المصدر نفسه :ص24.

(5):المصدر نفسه : ص 29.

(6):ابن بسام : الدخيرة ، ق1/2/ص36.

(7):المصدر نفسه : ص 35، 36.

الخطيب،[1] حتى نافسهم في هذا الأمر وزرائهم وكتابهم، فأبو بكر بن عبد العزيز (456 هـ) وزير بلنسية لبني ذي النون، قد أجتمع عنده من سعة المال، فخامة الحال، ونضرة الإقبال، وآلات الجلال، ما سار في البلاد وقصر عنه كثير من الأشكال والأضداد[2].

أما أحمد بن عباس كاتب زهير العامري، فقد جمع مالا عديدا ومتاعا يصعب حصره أو عده فلما استخرج درهم من عنده إلى في سبيل الشهوات، فأسمن جسمه، وهزل عرضه، وأشبع بطنه وزعموا أنه كان لديه خمسمائة من القيان.[3]

أما تشييد القصور والتفنن في تزيينها والمبالغة في تأثيثها، فقد أصبح إحدى العلامات المميزة لعصر الطوائف، عند ملوكهم ووزرائهم وأغنيائهم، وكثير من ميسوري الحال كلهم سواء، " ولم تملك إسبانيا الإسلامية (الأندلس) في تاريخها حدائق ومنتزهات ومنيات متعددة مثل ما ملكت في هذه الفترة"[4]. فالمصادر التاريخية تحدثنا عن أسماء قصور أنشأها المعتمد بن عباد وتغنى بها الشعراء أهمها : مجموعة القصر وتضم قصر المبارك وقصر الثريا والقصر الزاهي والقصر الوحيد، ونضيف إليهما قصر الزاهر وبعض قصور ريفية أخرى[5].

وقد وصف الفتح ابن خاقان في قطعة نثرية جميلة قصر الزاهر[6] وفي قطعة أخرى قصر الشراحيب[7]، ولطالما تغنى الشعراء طويلا بقصور بني عباد، ونظرة سريعة على دواوين شعراء كابن كابن اللبانة وعبد الجليل بن وهبون وابن حمديس الصقلي، وغيرهم من الشعراء، كافية لإلقاء الضوء على هذا الجانب.

---

(1):أعمال الأعلام: ص 244.

(2):ابن بسام : الدخيرة ، ق2/1/ص42.

(3):المصدر نفسه : ق1/2/ص 666، 667.

(4):تورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية ، ص 203.

(5):السيد عبد العزيز سالم: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ج2، ص 487. وأنظر تفصيل هذه القصور، في المصدر نفسه، ص 477 وما بعدها.

(6):قلائد العفيان: ص 94.

(7):المصدر نفسه: ص 112.

حتى أن المعتمد حينما نفاه المرابطون إلى أغمات تذكر أحد قصوره فقال أبياتا رقيقة أوردها الفتح في قلائده[1] وله أخرى يصف فيها القصر (الزاهر) وكان أسيرا كذلك بأغمات[2].

لم تحقق أي دولة طائفية الإزدهارالإقتصادي والرفاهية والاستقرار الاجتماعي كالذي حققته إشبيلية في عصر الطوائف، بل إن عهد العبابدة في إشبيلية (المعتضد وابنه المعتمد).

على الرغم من الحروب والمساجلات والمآسي التي حصلت في فترة حكميهما - يعد من أزهى العصور بالنسبة إلى بلاطات الملوك الأخرى، فقد وصف الفتح بن خاقان أيام المعتمد فقال " وكانت أيامه مواسم، وثغور برة بواسم، ولياليه كلها دررا ، فأصبح عصره أجمل عصر، وغدا مصره أحن مصر"[3] ووصفه أحد الباحثين المحدثين قائلا: " وعندما أعتلى عرش أبيه – أي المعتمد –تلألت النوار في صفحة الوادي الكبير، وفاضت بالموسيقى جوانب قصوره البيضاء القائمة في أنفاق زيتون (الشرق)"[4].

وإذا يممنا نحو مدينة طليطلة وأسرة بني ذي النون " فقد بلغت هذه الأسرة في البدخ والترف الغاية وأقام ملوكها القصور السامقة والآثار الجليلة الرائعة، ومن بينها القصر الذي بناه المأمون يحي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وقد تألق في بنائه وأنفق فيه مالا كثيرا، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطه من الزجاج البلوري، و أجرى الماء إلى أعلى قبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء يسيل من أعلاها والملك جالس بداخله لا يمسه منه شيء... ومن بين قصوره الأخرى قصر يعرف باسم (قصر الناعورة)[5] وقد تعجب ابن بسام من احد قصوره، ووصفه بالقصر العجيب في بنيانه[6]، ومع دخول ألفونسو طليطلة اكتسح بسائطها وبساتينها المخضرة، ودمر ساحاتها وأفنى جناتها ومنياته، ظهر لنا روعة تلك الرياض ولن نزايد على قول ابن بسام في وصفه لمجلس حضرة ابن السيد البطليوسي مع ابن ذي النون بطليطلة:

---

(1):ص : 93

(2):المصدر نفسه: ص 95.

(3):المصدر نفسه: ص 51، 52.

(4):إيميليوغارثيا غومس: الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة : حسين مؤنس، دار الرشاد، ط 4، 2008م، ص 36.

(5):السيد عبد العزيز سالم : بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، ج1، ص 532.

(6):الذخيرة: ق4/1/ص 894.

"وحضر مع ابن ذي النون بطليطلة بمجلس الناعورة، في في المنية المتناهية البهاء والإشراق المباهية لزوراء العراق التي تنفجر أبدا وتقطر ، وتكاد من النضارة تمطر..."[1]

أما المقتدر بن هود صاحب سرقسطة فكان له ما يسمى بـ " مجلس الذهب" وهو مجلس في دار السرور إحدى قصوره[2] التي كان يمكلها بين عديد أملاكه ، وقد صف ابن بسام سرقسطة أيام المستعين وقد دخلها ابن السيد البطليوسي فقال:" وهي زهرة الدنيا ، وفتنة المحيا ،و ومنتهى الوصف، وموقف السرور القصف.[3]

ولا يختلف الأمر عند الفتيان العامريين (مظفر ومبارك) فقد بلغا الغاية من اقتناء الأسلحة والآلات الملوكية ، والخيل والمغريات ونفيس الحلي والحلل ، وإشادة البناء للقصور ، واشتمل هذا الرأي على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما[4]، أما باديس بن حبوس صاحب غرناطة ومالقة فغير بعيد عنهما في هذا المجال، فقد عظمت جبايته، وضخم أمره ، وتعددت جيوشه.[5]

وقد اتفق المؤرخون جميعا ممن تعرضوا لحياة ملوك الطوائف على صور البذخ والترف التي عاشها هؤلاء، واستبدوا بها دون غيرهم من طبقات المجتمع، ويكفي القارئ اللبيب أن يستجلي كنه عبارة قالها الفتح ابن خاقان عن بني الأفطس:" وانتسبت لهم النعماء"[6]، حتى يعرف حجم البحبوحة التي التي كانوا فيها.

ويخرج من رحم الترف والنعيم حياة أخرى مصابقة لهما، وهي حياة اللهو والمجون، والتي شملت جميع الملوك على اختلافهم، فصاحب بطليوس– الذي ذكر سابقا - كان فتى المدام ومستفتي الندام، وأكثر من النعت للراح والوصف، وأثر الأفراح والقصف.[7] وروى له الفتح بن خاقان في ذلك

---

(1):الذخيرة ،ق 2/3/ص 894.

(2):المصدر نفسه: ق 1/3/ص 874.

(3):المصدر نفسه: ق 2/3/ص 895.

(4): ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص 22.

(5):المصدر نفسه: ص 230.

(6):مطمع الأنفس: ص 89.

(7):المصدر نفسه: ص 89، 90.

مغامرات في هذا الشأن، ويذكر ابن حيان المؤرخ عن ابن عباد حينما دخل على يحي بن حمود في إشبيلية في بداية عهد الطوائف، فوجده منغمس في شربه وكان عيد الأضحى، وقد أخذ منه الشراب مأخذا عظيما[1]، وذكروا عن المعتمد بن عباد في أكثر من مرة – على الرغم من ثقافته ورجاحته عقله وبراعته الأدبية – أنه كان يغشى مجالس الندماء والسكر، وله في ذلك قصص معروفة[2]

وقد وصف المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية بأنه " لبس فروته وأفنى دجاجه، مستبدا بمال ألفاه، لا يتجاوز شهواته ومآربه إلى قضاء حق في جهاد عدو أو سد ثغر أو معونة على بر... وأقتصر على قصر يبنيه وعلق يقتنيه، وميدان من اللذة يستولي عليه ويبرز فيه[3]، هذا دأبه وديدنه، وقد أكد على هذه الخلال الفتح بن خاقان حيث قال : " وكان يعمر أذنيه اللهو"[4].

ويكفي أي إنسان أن يطلع على الحوليات التي أرخت لهذا العصر، حتى يقف مشهودها إلى عظمة ما ينفقوه وكثرة ما يبذرون تبديرا يفوق حجم التصور أحيانا، فقد أدهش الأمر مؤرخ الطوائف ابن حيان نفسه، حيث كان شاهدا على حفل إعذار أقامه المأمون في طليطلة بمناسبة ختان حفيده يحي بن ذي النون سنة (455 هـ)، حيث حشر إليه أمراء البلاد وجملة الوزراء والقواد وقد أمر بالاستكثار من الطهاة والإتاف للقدور... وكثرت انواع الأطعمة من الإخباز والإدام المصنوعة بالطيوب الزكية، وأنواع الأطعمة بين حار وبارد وحلو وحامض، وجمعت في مطابخه أمم من ألنعام، جمع فيه بين المشاء والطيور والعوام، وتوالي إطعام أفواج الناس في ذلك الإعذار، مجلسا بعد آخر أياما متوالية، قال ابن حيان وقد شاهد هذا المجلس :" وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس، وأعزب ما قيد لحظي من بهي زخرفة الذي كاد يعبس عيني عن التوقي عنه.[5].

---

(1): ابن بسام: الدخيرة، ق1/1/316 وما بعدها.

(2):المصدر نفسه: ق 1/2/ص 431. وق1/2/ص383، 384،و ق1/2/ص47.

(3):المصدر نفسه: ق1/2/ص 371، 372.

(4):قلائد العيقان: ص 147.

(5): ابن بسام: الدخيرة، ق1/4/ص 126 وما بعدها إلى 137.

وأفرط المعتمد بن عباد في إنفاق المال وتضييعه ، فقد أمر ذات يوم بصناعة غزالين من ذهب، فصنعا معا من سبعمائة مثقال خالصة، فأهدى أحدهما إلى الرشيد ابنه وإلى السيدة العروس بنت ابن مجاهد ،وقال:

- بعثنا بالغزال إلـى الغـزال ❖❖ وبالشـمـس المنيـرة للهلال[1]

وقد مست عدوى الملوك هذه الطبقات الأخرى ، فالمصادر تحدثنا عن وقعة بطرنة عام (455 هـ) وهي قرية من اعمال بلنسية حينما هاجمها الفرنجة بشيء كبير وليس من أهلها إلا جاهل غر أو مترف مغتر، قد دخلوا بشهواتهم لا عهد لهم يومئذ بصريع إلا من كأس شمول، أو لحظات أو عين كحيل[2]، حتى إن أهل بطرنة من لين عيشهم قد خرجوا القتال عدوهم في لباس الحرير زينتهم حتى قال أحد الشعراء:

- لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ❖❖ حلل الحـريـر عليكـم ألـوانـا
- ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ❖❖ لو لم يكن ببطرنة ما كانا.[3]

وربما كان للطبيعة الأندلسية الفاتنة دور في ذلك، بالإضافة إلى خيراتها الجمة" فقد أستغل عرب اسبانيا (الأندلسيون) التنوع الكبير في المحاصيل الزراعية والمعادن في تكثير مباهج الحياة وتوفيرها للأغنياء على الأقل، بيد أنه حتى الطبقات الأفقر كان لها نصيب في الاستمتاع بأطيب العيش في إسبانيا الإسلامية (الأندلس)[4]

ولكن بالمقابل هناك صور أخرى لحياة الفقر وشظف العيش التي كانت تعيشها شريحة واسعة من السكان، تقاسي ظلم الملوك وتسلط حاشيتهم، فمن ثقل وطأة الحروب ، إلى ثقل وطأة الضرائب المفروضة عليهم من قبل حكامهم لترضية ملوك الممالك الشمالية المسيحية، أو لتلبية حاجاتهم الترفيهية المتزايدة، حتى قال أحدهم:" وهذا الجانب المترف القائم على شؤون القصور والحدائق هو الجانب الحضاري الذي تتوجه إليه أخيلتنا كلما تذكرنا مجد الأندلس في ذلك العصر، وهو الجانب الذي ينبسط ويتطاول حتى يحول بيننا وبين رؤية جوانب الضعف والتخلف في المظاهر الأخرى[5].

---

(1):المصدر نفسه: ق2/1/ص 521.

(2):المصدر نفسه : ق3/2/ص 854 وما بعدها.

(3):المصدر نفسه: ص 850.

(4):مونتوغومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص 37.

(5):إحسان عباس / : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين، ص 42.

الباب الثاني: الازدهار الثقافي في عصر الطوائف (الأسباب والعوامل):

الفصل الأول: أسباب وعوامل تاريخية:

المبحث الأول: إرث الإمارة والخلافة والعهد العامري:

المبحث الثاني: الحياة العلمية في الأندلس (عصر الإمارة والخلافة) إجمالا

الفصل الثاني: عوامل أخرى موضوعية

المبحث الأول: الرحلات العلمية:

المبحث الثاني: وسائط الثقافة الأندلسية و دورها في عملية التوهج الثقافي

الفصل الأول: أسباب وعوامل تاريخية:

المبحث الأول: إرث الإمارة والخلافة والعهد العامري:

أ - اهتمام الحكام بالعلوم والمعارف والحث عليها و تشجيع أهلها:

ب - شغف الأندلسيين بالعلم و ظهور أماكن العلم والتعليم

ج - الكتب والمكتبات والوراقة والوراقون و دورهم في تطور الحياة العلمية

المبحث الثاني: الحياة العلمية في الأندلس (عصر الإمارة والخلافة) إجمالا:

أ -الأدب واللغة:

- الأدب:

- اللغة:

ب -العلوم الدينية : (علوم القرآن - القراءات -التفسير -الحديث)

ج -التاريخ والجغرافية:

د - الفلسفة:

هـ - العلوم التجريبية(التطبيقية):

- الطب والصيدلية

- الفلك والرياضيات

الفصل الثاني: عوامل أخرى موضوعية

المبحث الأول: الرحلات العلمية:

المبحث الثاني: وسائط الثقافة الأندلسية و دورها في عملية التوهج الثقافي

أ - المساجد، المدارس، الكتاتيب، بيوت الأساتذة.

ب - المكتبات وهواة جمع الكتب.

ج - المرأة الأندلسية والتعليم في عصر الطوائف:

II - الباب الثاني: الازدهار الثقافي في عصر الطوائف (الأسباب والعوامل):

II -1 -الفصل الأول: أسباب وعوامل تاريخية:

II -1 -1 -المبحث الأول: إرث الإمارة والخلافة والعهد العامري:

لم تكن الثقافة الأندلسية لتصل إلى ما وصلت إليه من ازدهار و رقي و تفتح في عصر الطوائف، لولا استفادتها من الإرث المعرفي الضخم الذي خلفته عصور الإمارة والخلافة والعهد العامري، أو فترة الحجابة.

وحينما نتحدث عن هذه العصور بهذه التقسيمات فلا يعني ذلك انفصالها، فقد كان البيت الأموي منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية الداخل –و هو المؤسس الفعلي للدولة الأموية بالأندلس - إلى غاية سقوط حكم هذه الأسرة عام (422 هـ/1031م) هو عماد الدولة و عماد الحكم في الأندلس، و هو المسيطر على السلطة المركزية.

ولا يعني إعلان الخلافة من طرف عبد الرحمن الثالث (الناصر) سنة (316 هـ) سوى تعزيز لقوة هذا البيت في حكمه لشبه الجزيرة الأيبيرية، و إعطائه هالة من التقديس والشرعية أكثر، بعد أن ضعفت سلطة العباسيين في بغداد خصومهم التاريخيين.

وحتى بعد تقلد الخليفة الطفل، هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر، الحكم في سنة (366 هـ). كان اسم البيت الأموي ما يزال مرفرفا في سماء السلطة المركزية في قرطبة، فلم يشأ الحاجب المنصور بن أبي عامر أن يلغي هذا الرمز لما له من دور كبير في وحدة الأمة الإسلامية الجامعة رغم أن السلطة الفعلية كانت بيده.

إذن فهذه التقسيمات لا تعني سوى مراحل زمنية أرادها المؤرخون والباحثون من أجل تيسير الدراسة للحقبة المروانية في الأندلس، بما فيها حقبة أبناء المنصور بن أبي عامر (عبد الملك و عبد الرحمن) و خلفاء بني أمية في الفتنة القرطبية حتى عام (422 هـ).

سارت الثقافة الأندلسية بعد الفتح الإسلامي رويدا رويدا بعد البذور التي بذرها المثقفون والعلماء ممن أتوا في طلائع هذا الفتح، فقد كان منهم الصحابي و بعض التابعين و تابعي تابعيهم وبعض

حملة العلم، و كذلك بعض الجند الذين كانوا يحوزون على ثقافة واسعة، والماما ببعض فنون العلم، و خاصة العلوم الدينية و بعض العلوم اللغوية، و أفانين القول و ضروب الكلام.

وما لبثت الثقافة الأندلسية أن سارت في ضروب اليفاع وتقدمت سريعة فيما بعد، حتى تفتقت أكمامها في عهد المروانيين، وازدهرت أكثر في عهد ملوك الطوائف، حيث قال عنه المستشرق بالانثيا: " كان هذا الازدهار نتيجة لعوامل أخرى كثيرة، أهمها أن عصري الإمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة، تجمعت خلالها مواد وافرة، غزيرة في كل فروع الدراسات و اختمرت اختمارا طويلا."[1]

ولا شك أن كثيرا من العوامل قد ساعدت العلوم والمعارف على التطور والنمو في حقبة المروانيين، والتي ستلقي بظلالها على النمو المعرفي الذي اشتد عوده في حقبة الطوائف، و ستبقى تقليدا متوارثا في هذه الفترة و من هذه العوامل:

- اهتمام الحكام بالعلوم والمعارف و تشجيعها.
- ظهور المدارس والمساجد و حلقات العلم والتعليم.
- ظهور المكتبات على نطاق واسع.
- الرحلة بين المشرق و بلاد الأندلس.

أ - اهتمام الحكام بالعلوم والمعارف والحث عليها و تشجيع أهلها:

تقليد جليل أرساه خلفاء بني أمية في الأندلس و تبعهم كل من جاءوا من بعدهم، من حيث اهتمامهم بالعلوم والمعارف والآداب و سائر الفنون، و إكرامهم لأهلها و لمن انتسب إليها. و قد قال ابن حزم في هذا الصدد:" مع كثرة علمائها –أي الأندلس - و وفور أدبائها وجلالة ملوكها و محبتهم في العلم و أهله، يعظمون من عظمه علمه و يرفعون من رفعه أدبه."[2] وقد أكد الشقندي ذلك بعده في معرض

(1) تاريخ الفكر الأندلسي: ص28، 29.

(2) المقري: نفح الطيب، ج3، ص 157.

دفاعه عن الأندلس قائلا: "وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها و يرفعون أقدارهم و يصدرون عن آرائهم، و أنهم كانوا لا يقدمون وزيرا و لا مشاورا ما لم يكن عالما."[1]

وقد وقف المستشرق والفيلسوف جوزيف ماك كيب "Joseph Macabe" (1867 -) مبهورا إزاء هذا التقليد العظيم الذي أرساه الأمويون في الأندلس، فقال: "إن الملوك الذين أنشأوا مدنية الأندلس (من سنة 756 م إلى 961م) كانوا حماة كرماء و محبين أوفياء للعلم و أهله وكانوا أكثر الناس سخاء و جودا في مناصرة الشريعة والتعليم و هم أنفسهم في كثير من الأحيان لم يكونوا قاصرين في الأدب."[2] و يقول في موضع آخر:" و لم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء، و خاصة أصفياء و يولونهم أجلّ المناصب في الدولة والقصر."[3] ثم يختم كلامه قائلا حول هذه النقطة:" و لم يكن في الدنيا و لا هو كائن اليوم بلد يكرم فيه العلماء والأدباء بالجوائز العظمى مثل ما كان في الأندلس."[4]

وكان عبد الرحمن الداخل مؤسس الحكم الأموي في الأندلس هو مؤسس شرف هذا التقليد المتوارث، و أول من سنّ التشجيع على العلوم والمعارف و تعظيم أهلها بالأندلس. فقد وصفه ابن حزم الأندلسي قائلا:" كان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم."[5] و هي الصفة التي أكدها تلميذه الحميدي.[6] أما ابن عذاري فيقول عنه: "كان عبد الرحمن فصيحا بليغا حسن التوقيع جيّد الفصول، مطبوع الشعر."[7] فقد وضع النواة الأولى لهذه الثقافة بالأندلس من خلال بنائه للمسجد الجامع بقرطبة فقد "أنفق فيه ثمانين ألف دينار، و مات قبل تمامه" وبنى مساجد أخرى."[8]

---

(1)المقري: نفح الطيب، ج3، ص214.

(2) مدنية المسلمين في إسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط2، 1985، ص 44.

(3) المصدر نفسه: ص 86.

(4) المصدر نفسه: ص 80.

(5) رسالة ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس "ملحق بمجموع الرسائل، المجلد الأول، ص191.

(6)جذوة المقتبس: ص15، و الوصف نفسه أورده الضبي في بغية الملتمس، ص18.

(7) البيان المغرب: ج2، ص58.

(8) المقري: نفح الطيب، ج1،ص 329.

أما أشعاره فهي مبثوثة في كثير من المصادر الأندلسية[1]. وقد وصف من طرف بعض الباحثين المعاصرين بأنه الواضع الحقيقي للأسس الأولى للثقافة العظيمة التي أنتجتها إسبانيا المسلمة (الأندلس) وبأنه المؤسس الرفيع لهذه الثقافة.[2]

فمع وصول هذا الأمير الشاب المقدام، تأكدت صورة الحاكم المسلم الراعي للفنون، و ازدهرت الفنون بتشجيع من البلاط.[3] وستظل إنجازات عبد الرحمن الأول معروفة من خلا بنائه مسجد قرطبة الكبير، المعلم الفكري والحضاري، و منارة السلطة والنفوذ.[4] وكان ابنه وولي عهده هشام بن عبد الرحمن (ت 180هـ) إذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكرا لأمور الحرب ومواقف الأبطال.[5]

أما الحكم الربضي (206 هـ) -وعلى الرغم من قسوته في أمور الحكم والسلطان - فقد ذكر المؤرخون عنه بأنه كان " شاعرا باسلا، و أديبا مفتنا، خطيبا مفوها، و شاعرا مجوّدا، تحذر صولاته وتستندر أبياته."[6]

والوصف غير بعيد عن ابنه عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) (ت 238هـ) في الناحية العلمية. فقد كان مثقفا كبيرا و يخوض في جملة من العلوم المتنوعة والفنون المختلفة، حيث كان عالما بعلوم

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 59، 60. و حول شعره ينظر كذلك: ابن حزم: رسالة" ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس"، مجموع الرسائل، م1، ص191، 192./ مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 159./ الحميدي: الجذوة، ص16./ ابن الأبار: الحلة السيراء (تحيق مؤنس) ج1،ص 36 و ما بعدها. و عند الذهبي ترجمة له و لأولاده و أحفاده و قد أثنى عليهم في أكثر من موضع: سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، خرّج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، المجلد الثامن (بتحقيق: نعيم العرقسوسي، من ص 244 إلى ص 271).

(2) لوسي لوبيز بارالت "LUCE L'OPEZ BARALT" : التراث الإسلامي في الأدب الإسباني: ترجمة: فخري صالح، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ص 736.

(3) جيريلين دودز: فنون الأندلس، ترجمة: جاسر أبو صفية "ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ص863.

(4) المصدر نفسه: ص 864.

(5) المقري: نفح الطيب، ج1، ص334.

(6) ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق: مؤنس)،ج1،ص 43 و له شعر عنده، ص74 و ما بعدها./ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص39 و و له عنده شعر، ص44، 45 و كذلك: مجهول: أخبار مجموعة، ص 167، 168./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، الصفحات 71، 72، 79، 80 ./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص342 و ما بعدها.

الشريعة والفلسفة."[1] وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، و أطنب في ذكره في العلوم، و أنه كان يداخل كل ذي علم في فنّه."[2] ولا عجب في ذلك فقد عُني أبوه الحكم بتعليمه و تخريجه في العلوم الحديثة والقديمة."[3]

وقد اتفقت جل المصادر التي تناولت سيرته بأن الانطلاقة الفعلية للثقافة الأندلسية قد بدأت في عهده، وكان هو أحد المشجعين على الحركة العلمية والفكرية، حيث كان "مكرما لأصناف العلماء محسنا لهم، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحي بن يحي كثيرا و يشاوره"[4]. أما شاعريته و توقيعاته فقد سجلها المؤرخون.[5]

وبعد موت عبد الرحمن الأوسط، تقلد الحكم ابنه محمد بن عبد الرحمن (ت 273هـ). و قد كان كما وصفه ابن حزم: "محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث، عارفا حسن السيرة."[6] وأضاف ابن عذاري: عذاري: " كان الأمير محمد –رحمه الله - فصيحا بليغا عظيم الأناة."[7] و وصفه شيخ المحدثين بالأندلس، بقي بن مخلد، فقال: "ما كلمت أحدا من ملوك الدنيا أكمل عقلا و لا أبلغ فضلا من الأمير محمد."[8]

أما ابنه الأمير المنذر بن محمد (ت 275 هـ)، و رغم قصر مدة حكمه والتي لم تزد عن السنتين – خلا عدة شهور - فقد كان فضله على الحركة الثقافية والأدبية كبيرا، وكان يجزل العطاء

---

(1) المقري: النفح،ج1، ص347.

(2)ابن سعيد: المغرب، ج1، ص45.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4)المصدر نفسه: ص 46.

(5) ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1،ص113، حيث يقول عنه:" كان فصيحا مفوها، شاعرا مع سعة العلم و الحلم." الحلم." و أورد له شعرا في المصدر نفسه، ص114 و ما بعدها./ و حول شعره و بعض توقيعاته، ينظر كذلك: ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 46، 46./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص86، 92، 93./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص348، 349.

(6) رسالة ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس، ص192. و انظر كذلك حول صفاته العلمية و الأدبية: ابن سعيد: المغرب، ج1، ج1، ص52./ الحميدي: الجذوة، ص17./ الضبي: البغية، ص20./ ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس) ،ج1، ص119. و قد أورد له شعرا في الصفحة نفسها، و ص120.

(7)البيان المغرب: ج2، ص107.

(8)المصدر نفسه: ص109.

للشعراء، فينشدونه غازيا و راجعا. وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربه والعكّي و غيرهما.[1] وكان خليفته من بعده أخوه عبد الله بن محمد (ت 300هـ) كذلك أديبا شاعرا بليغا بصيرا باللغة والغريب و أيام العرب.[2]

وقد نقل ابن حيان المؤرخ عن الرازي قوله:" كانوا يعدون عبد الله من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس، و أمثلهم طريقة و أتمهم معرفة.[3] وكان متصرفا بلسان العرب بصيرا بلغاتها و أيامها، حافظا للغريب والأخبار. أخذ من الشعر بحظ وافر و له منه شعر ضاع جيد المذهب بديع المعنى.[4] و قد روى الحديث و طالع الرأي و أبصر العلم و تفقه و نظر في السنن، و حفظ القرآن و ثقف القراءة و قام بالكتاب.[5]

أما الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (ت 350هـ) و هو حفيد الأمير عبد الله، فله أكثر من ذكر حول ثقافته الجمة، و معارفه الوفيرة. فقد رفع أعمدة الثقافة الأندلسية بعد أن وضع أسسها أجداده، و خاصة عبد الرحمن الأوسط (الثاني).

" كان الناصر –على جانبه واستيلاء هيبته - يرتاح للشعر و ينبسط إلى أهله ويراجع من خاطبه به من خاصة."[6] وقد حفظت لنا المدونات التاريخية التي روت سيرته بعض آثاره الأدبية من شعر و توقيعات.[7] و بلغ من بديع شعره أن علق المقري التلمساني على إحدى مقطوعاته فقال: فما أدري أهذا شعره؟ أم تمثل به؟ فإن كان شعره فقد بلغ فيه غاية الإحسان، و إن كان تمثل به فقد استحقه بالتمثل في هذا المكان."[8] وكان خليفته من بعده ابنه الحكم المستنصر (366هـ)، الذي

---

(1)المصدر نفسه: ص120.

(2)ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1، ص120، و له شعر هناك، ص 121 و ما بعدها و له شعر عند المقري في نفح الطيب، ج1، ص 352، 354.

(3) المقتبس:(تحقيق مكي)، ص80.

(4)المقتبس:(تحقيق مكي): ص81.

(5) المصدر نفسه ،ص81 و كذلك ص84./ و حول صفاته العلمية كذلك ينظر ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 153.

(6) ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1، ص199.

(7)المصدر نفسه، ص 200./ابن سعيد: المغرب، ج1، ص183 و ما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج1، الصفحات 355، 356، 575.

(8) المقري: نفح الطيب، ج1، 575.

الذي أطنبت كتب التاريخ في ذكره، و أسهبت كتب الطبقات في وصفه، حتى ليصعب على الباحث أن يصنفه، أهو في زمرة الخلفاء؟ أم في طبقة العلماء؟

فقد كان "أمير المؤمنين هذا عالما بالمذاهب جماعا للعلوم، و لم يكن في بني أمية بالأندلس أعظم همة منه في مطالعة العلوم و لا أكثر معرفة منه بالعلماء، تجرّد لذلك و تميز به ونفعه الله بذلك و أورثه جنته."[1] لقد أحاط الحكم بالمعرفة إحاطة وافية و تمثلها تمثلا صحيحا، فقد كان طُلعة العقل والفكر، كثير الملاحظة والتدوين.

وقد وصفه ابن دحية بأنه صاحب الفتوحات العظيمة والمعرفة بالعلوم الحديثة والقديمة[2]. وكان كما ذكر عنه الخشني بأنه قد استحكمت بصيرته. سدده الله في حفظ العلوم و مطالعة الأخبار، و في معرفة النسب، و تقييد الآثار."[3] وكان لحبه و شغفه بالمعرفة سباقا إلى ميدانها. فأسهم في ازدهار الحركة العلمية في عصره إسهاما بارزا و لا نبالغ إذا اعتبرناه بجهوده العلمية رائدا للنهضة العلمية في عصر الخلافة.[4]

بل كان هو نفسه مشاركا فيها، إما بتعليق على الكتب والدواوين" والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، و قلما تجد له كتابا في خزانته إلا و له فيه قراءة و نظر من أي فن كان من فنون العلم يقرؤه، ويكتب فيه بخطه –إما في أوله أو في آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده و وفاته والتعريف به، و يذكر أنساب الرواة له ... صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين و أئمتهم، ينقلونه من خطه* و يحاضرون به".[5]

---

(1)الونشريسي: المعيار المعرب، ج2، ص 317.

(2) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص25.

(3)قضاة قرطبة، ص 73.

(4)سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، معهد البحوث العلمية و إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص 1997م/ 1417هـ، ص72.

*وردت إشارات كثيرة في المصادر تشير إلى خط الحكم المستنصر مما يدل على كثرة كتابته و تعليقاته مثلا: الحميدي في الجذوة حيث قال: "هذا ما رأيت بخط الحكم المستنصر، و خطه حجة عند أهل العلم عندنا. "ص 89./ و كذلك: ابن الفرضي: تاريخ العلم و الرواة بالأندلس، ص128./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص241، 250./ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (الهراس)، ج1، ص16، 17./ ج2، ص 170.

(5)ابن الأبار: الحلة السيراء، ص202.

والظاهر من سيرة الحكم المستنصر أن صبابته بالعلوم قد تعلقت بأنواعها لاسيما بالأخبار والمقالات كما يذكر ابن حزم.[1] فقد قيد هو نفسه كثيرا من أنساب أهل بلده، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أخمل ذكره قبل ولايته. و أن يصحح نسبتهم أهل المعرفة بذلك، و يؤلف من الكتب و يرد كل ذي نسب إلى نسبه.[2] و له التأليف المسمى" كتاب أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب"[3]

وبعد وفاة الحكم المستنصر تقلّد ابنه هشام المؤيد الخلافة من بعده، وكان طفلا. وكان المسيطر الفعلي على مفاصل الدولة و هياكلها الحاجب المنصور بن أبي عامر، حيث سار على نهج من سبقه من البيت الأموي فسمع الحديث و تميز في ذلك.[4] و طلب العلم والأدب و تمهّر.[5]

كما قرأ الأدب وقيّد اللغات على أبي علي البغدادي، و على أبي بكر بن القوطية. و قرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي، راوية النسائي، و غيره من رؤساء أهل المشرق، و برع بروعا أدناه.[6] وكان محبا للعلم مؤثرا للأدب، مفرطا في إكرام من ينتسب إليهما و يفد عليه متوسلا بهما، بحسب حظه منهما و طلبه لهما و مشاركته فيهما.[7] و قد حفظت له بعض الأشعار.[8]

ويروي صاحب النفح أنه قد خط بيده مصحفا كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به.[9] وكان له مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام

---

(1)رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء: مجموع الرسائل، ج1، ص 75.

(2)ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1، ص 202، 203.

(3)إسماعيل باشا البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، ج1، ص132. و حول سيرته العلمية إجمالا و الأوصاف التي ذكرت بشأنه في هذا المجال، إضافة إلى المصادر التي ذكرنا، ينظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص41./ المقري: نفح الطيب،ج1، ص 386. و ما بعدها./ صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1993م، ص87./ابن سعيد المغرب، ج1، ص 186، 187.

(4)الحميدي : جذوة المقتبس، ص 69.

(5)ابن سعيد : المغرب، ج2، ص 199.

(6)ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 257.

(7)الحميدي: الجذوة، ص 70. و انظر كذلك: ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1، ص 273.

(8)ابن الأبار: الحلة، ص 274./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 274، 275./ المقري: النفح، ج1، ص 400.

(9)المقري: النفح، ج1، ص 409.

بحضرته.[1] و حتى في زمن البربرية أوالقرطبية (399هـ/ 422هـ) كان غير واحد من خلفاء بني مروان أديبا أو شاعرا أو كاتبا أو جامعا لكل هذه الصفات، فقد ذكر ابن حزم الأندلسي عن سليمان بن الحكم (المستعين، ت 407هـ) أنه كان أديبا شاعرا.[2] وزاد المقري كان المستعين أديبا بليغا.[3]

وذكره ابن بسام في عبارة بليغة فقال: "كان سليمان ممن مدت له في الأدب غاية، كبا دونها أهل الأدب و رفعت له في الشعر راية، مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب."[4] و حفظت له بعض الأشعار التي تدل على جودة قريحته، منها أبيات شهيرة قالها معارضا لبعض أبيات الخليفة العباسي هارون الرشيد.[5]

وكان الخليفة عبد الرحمن بن هشام المستظهر (ت 414هـ) في غاية الأدب والبلاغة والفهم و رقة النفس.[6] وفيه يقول الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد: "كان المستظهر –رحمه الله – شاعرا مطبوعا، و يستعمل الصناعة فيجيد."[7]

من الطبيعي وبعد الأمثلة التي ذكرنا عن الأمراء والخلفاء، وكيف كانوا كلهم أو أغلبهم، من الشعراء والأدباء و من ذوي النباهة والعلم، ألا يشجعوا على حفز الملكات الأندلسية من ذوي العقول الراجحة المبدعة. و ممن انتسبوا إلى حقول الثقافة والمعرفة على التأليف والإبداع والإغداق عليهم، و تقريبهم و مشاورتهم والأخذ بآرائهم و نصائحهم مما يساعد على تقوية أواصر العلاقة بين المثقف والسلطة باعتبارهما فاعلين أساسيين في أي مجتمع أو حضارة على مدار التاريخ. و لنا أمثلة عديدة من أمراء و خلفاء الأندلس في ثلاثة قرون من عمر الأندلس الأموية، حينما كانت الأندلس و قرطبة

---

(1)الحميدي: الجذوة، ص70./ الضبي: البغية، ص 99./ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 199.

(2)ابن حزم: رسالة ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس، ص198./ الحميدي: الجذوة، ص 23.

(3) نفح الطيب، ج1، ص 430.

(4)الذخيرة: ق1/1/ ص46.

(5)المقري: نفح الطيب، ج1، ص430، 431./ ابن حزم: رسالة ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس، ص198./ الحميدي: الجذوة، ص24./ الضبي: البغية، ص 26، 27./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ ص47.

(6)ابن حزم: رسالة ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس، ص 202./ الحميدي : الجذوة، ص27./ الضبي: البغية، ص 29.

(7)ابن حزم: رسالة ذكر أوقات الأمراء و أيامهم بالأندلس، ص 202. و القول ذاته أورده عبد الواحد المراكشي في المعجب، ص 41./ و أورد له المقري بعضا من شعره في النفح، ج1، ص 489، 490.

بالذات كعبة القصاد، و موئل المريدين، فالوفود إليها تترا من مختلف الأجناس حاملين معهم أفكارهم و ملكاتهم و بتشجيع رسمي من أولي الأمر الذين أغدقوا عليهم المراتب السنية، و أجزلوا العطاء لكل من توسموا فيه قرابة مع العلم و صلة بالمعرفة.

وكان عهد عبد الرحمن الأوسط الانطلاقة الفعلية والمبادرة الأولى في ذلك فقد كان "هذا الأمير يطمح لأن تتقن قرطبة العلوم التجريبية كالطب والصيدلة والفلك... و كذلك الفلسفة والمنطق... ومن الجدير بالذكر أن عصره –الذي امتد لأكثر من ثلاثين عاما - شهد ما يمكن أن نطلق عليه انطلاقا اجتماعيا كبيرا، حيث شهدت قرطبة سيلا من التأثيرات المشرقية عامة والعراقية خاصة ساهمت في تطوير المستوى العلمي والاجتماعي والفني، ساعد على ذلك كون الأمير متبحرا في علوم الشريعة والفلسفة[1].

لقد اجتهد عبد الرحمن الأوسط في استجلاب كل مواد البناء الحضاري والفكري والثقافي و كل ما يمت بصلة للعلم والمعرفة. وكان اجتهاده و دأبه في ذلك أن يكون له و للأسرة الأموية في الأندلس ما يحاكي به قصور بني العباس في بغداد، و ما بلغته من مجد أدبي و فكري و حضاري، "فقد وجه عباس بن ناصح إلى العراق في التماس الكتب القديمة فأتاه بالسند هند* وغيره منها، و هو

---

(1)طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية نشأتها في المشرق –انتقالها إلى الأندلس - دعم الأندلسيين لها –تأثيرها على أروبا) دار الكتب العلمية، بيروت، ، ط1، 2004م/1424هـ، ج2، ص673.

*"الزيج سند هند، مزيج مركب من الفهلوية و السنسكريتية. و الزيج كلمة فارسية جمعها بالعربية زيجات ، و أبرزها زيج الشاه على نحو ما استمر وجوده من أيام كسرى الأول أنوشروان (531 -579م) و يزد جود الثالث (632 -651م). و زيج الأركند من سنة (117هـ/735م)، وزيج الأرقن من سنة (125هـ/742م). و لكن هذا النشاط تبناه العباسيون رسميا لما وصلت سفارة من السند إلى بغداد و إلى بلاط المنصور بالذات سنة 145هـ/771م أو 156هـ/773م. و لا تعرفنا المصادر القصد من هذه السفارة، و كل ما وصلنا هو أن عالما هنديا. كان عضوا في الوفد حمل معه مجموعة من نصوص فلكية هندية سدهانتا (Siddhanta) التي نقلها الفزاري إلى العربية بأمر من المنصور نفسه على ما يبدو ، والتي نشرت بعنوان معرب مستعار هو زيج السند هند ، وعلى أساس من هذا نفسه وسواه من المصادر الأخرى ...صنف الفزاري مجموعته الخاصة من الجداول الفلكية زيج السند هند الكبير الذي مزج فيه عناصر من مصادر هندية وفهلوية ويونانية فأخرج مجموعة نافعة ولو أنها متناقضة في داخلها ، من القوانين والجداول للتقديرات الفلكية." ديمتري غوتاس: الفكر اليوناني والثقافة العربية (حركة الترجمة اليونانية – العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر ق2 / م10/ 899 ترجمة : نقولا زيادة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 1 ، 2003 ، ص 194 ، 195 قال صاعد الطليطلي :" السند هند و تفسير السند هند باللغة الهندية الدهر الداهر" (مؤنس) ص 69 .

أول من أدخلها إلى الأندلس و عرّف أهلها بها و نظر هو فيها."[1] و رحل إلى بغداد سفيره و شاعره يحيى بن الحكم الغزال[2] وأدخل إلى الأندلس مذهب الشعراء المحدثين من أمثال أبو نواس و أبي العتاهية وأضرابهما من فحول شعراء الدولة العباسية.

كما رحب بقدوم المغني الكبير زرياب علي بن نافع، تلميذ إسحاق الموصلي، فركب بنفسه لتلقيه و بالغ في إكرامه و أقام عنده بخير حال.[3]

وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن من المبجلين الأوفياء للعلم والعلماء وقصته معروفة مع شيخ المحدثين الأندلسيين بقي بن مخلد (273هـ) الذي أدخل مصنف بن أبي شيبة إلى الأندلس بعد رحلته الطويلة إلى المشرق. فأنكر عليه جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف، واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوا من قراءته إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد فاستحضره وإياهم واستحضر الكتاب كله، وجعل يتصفحه جزءا جزءا إلى أن أتى على آخره، وقد ظنوا أنه موافقهم على الإنكار عليه، ثم قال لخازن الكتب، هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، ثم قال لبقي بن مخلد: انشر علمك و ارْوِ ما عندك من الحديث، واجلس للناس حتى ينتفعوا بك فنهاهم أن يتعرضوا له.[4]

وكان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة وبعدها أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأنزهها من الرذائل، و أجمعها لطبقات أهل الآداب والتعليم. فكانت كل نادرة تدور على الأفواه و تغلغل في الألسنة لا يستقر قرارها إلا في مجلس مذاكرته و لا يفك عويصها إلا بين يديه.[5] وقد عرف عنه أنه كان "يعظم أقدار أهل العلم و يعرف حقوقهم و يستدعيهم كثيرا إلى نفسه و يستفتيهم في أحكامه و يشاورهم فيما يطرقه من أحداث زمانه."[6]

---

(1)إبن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج1، ص 45.

(2) إبن دحية: المطرب، ص 130 وكذلك ص 131.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص 344.

(4)إبن سعيد: المغرب، ج1، ص 52./ الحميدي: الجذوة، ص17./ الضبي: البغية، ص20.

(5)ابن حيان: المقتبس، ص 82.

(6)المصدر نفسه: ص86.

أما الفتوى في زمانه فقد كانت تدور على مجموعة متكونة من تسعة فقهاء ذكرهم ابن حيان في تاريخه منهم إبراهيم بن قاسم بن هلال و محمد بن عبد السلام الخشني و محمد بن وضاح و غيرهم، ثم قال : و خلف هؤلاء المشيخة المؤدبين (المقدمين) في الفتوى بقرطبة و ذكر تسعة و عشرين فقيها آخرين: ابن الخراز و محمد بن عبد الملك بن أيمن.[1] وكان هذا الأمير يجالس محمد بن موسى بن حدير الزاهد وكان أديبا مفتنا مفوها بليغا[2] وكان المصلي في حلبة الشعراء في أيامه ابن عبد ربه صاحب "العقد الفريد"[3]و هذا دليل على حبه للعلم و تعطشه للمعرفة و إكرامه لمن ينتسب إليهما. و لا عجب في ذلك فقد كان هو نفسه متصرفا في جميع العلوم، بصيرا باللغة والغريب و أيام العرب و سير الخلفاء.[4] وكان يكلف بالشعر و يرتاح للثناء الجميل فيستدعي المديح من شعراء زمانه.[5]

ولم تبلغ الحركة العلمية ذروتها في عهد الخلافة/ القرن الرابع الهجري لو لم تجد التدعيم الكافي والتشجيع الوافي من قبل حكّام أُشربوا حب المعرفة" فقد كان عصر الخليفة الناصر، بداية مجيدة لعصر عظيم ازدهرت فيه العلوم والآداب، و انصرف العلماء إلى تحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى حقول المعرفة".[6]

وأما اهتمامه بالثقافة فيبدو في كثرة من شهده عصره من العلماء في كل فروع المعرفة[7] ، وكان الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي والرفاهية التي سادت المجتمع الأندلسي آنذاك عوامل أساسية أسهمت في تنمية الجانب المعرفي والتسريع في وتيرته و تدل الشواهد الكثيرة على تقدير

---

(1)ابن حيان: المقتبس ،ص43، 44.

(2) المصدر نفسه: ص 82.

(3)ابن حيان: المقتبس، ص97.

(4)المصدر نفسه: ص83.

(5)المصدر نفسه: ص92.

(6)سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص71.

(7)محمود مكي: تاريخ الأندلس السياسي (دراسة شاملة)، ص 89.

الخليفة عبد الرحمن الناصر لأهل العلم، فقد كان الفقيه أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية عند الناصر و ابنه الحكم.[1]

وروى المقري قصة جميلة بين الخليفة الناصر والفقيه أبي إبراهيم تدل على تواضع الحاكم وقال صاحب النفح معلقا عليها:" فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم، قدّس الله تلك الأرواح."[2]

وحتى الهدايا التي كان يتبادلها الناصر مع الملوك الآخرين من غير ملّته كانت لها علاقة بالعلم والمعرفة. و هذا دليل على هذا الاحتفاء الجميل بالمعارف و أهلها من قبل الخليفة، فقد ذكر المؤرخون أنه " قد وفدت عليه سنة ست وثلاثين و ثلاثمائة (336 هـ) رسل صاحب القسطنطينية وهديته*– و هو يومئذ قسطنطين -واحتفل الناصر لقدومهم في يوم مشهود."[3]

ربما أخذت قرطبة الغراء زخرفها وازينت بجهود الذين تعاقبوا على حكمها من بني أمية، حتى ارتبط اسمها بسني حكمهم، و ارتبط ازدهارها بالجهود التي بذلوها في حكمهم للأندلس، و ترسيخ المدنية الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا، " و لكن قرطبة الناصر تأخذ مكانها المميز

---

(1)المقري: نفح الطيب، ج1، ص 377.

(2) المصدر نفسه: ص 379.

*يبدو أن إمبراطور بيزنطة قد أرسل سفارتين، الأولى عام (336هـ/947 -348 م)، و الثانية في صيف (338هـ/949م). و قل ابن أبي أصبيعة: إن أرمانيوس الملك، ملك قسطنطينية، أرسل للخليفة الناصر في سنة (337هـ) هدايا لها قدر عظيم، فكان في جملة هديته كتاب ديسقوريدس، مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، و كان الكتاب مكتوبا بالإغريقي الذي هو اليوناني، و بعث معه كتاب هروسيس صاحب القصص، و هو تاريخ للروم عجيب."/ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 493، 494. و يبدو الخطأ واضحا في تسمية الإمبراطور البيزنطي أرمانيوس، فالذي أهدى الناصر هو إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع المعروف بيوروفيرو جنيت، أي لابس الأرجوان (944 أو 945 م/959م) و يبدو أن كتاب ديسقوريدس كان في أصول الطب (De Matiria Medica) و هو كتاب في طب النبات (أو كتاب الأدوية المفردة)، حيث كان ديسقوريدس عالما في النبات . و قد فصل ابن أبي أصيبعة في أقسام هذا الكتاب (انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص58، 59). أما الكتاب الآخر الذي أهداه الإمبراطور البيزنطي للناصر فهو تاريخ هدوشيوش باولوس أوروزيولس المعنون ب: كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين. « Historiorum Libri Septem Adversos Paganos »ينظر تفصيل ذلك إضافة إلى كتاب ابن أبي أصيبعة "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"./ حسين مؤنس تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط2، 1986،ج1، ص32 و ما بعدها./ جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي و أثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، دار الثقافة، بيروت، لبنان،دت، ص34 و ما بعدها./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص519 وما بعدها وص 23./ روبرت هيلبراند:"زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، ص197.

(3) المقري: نفح الطيب،ج1، ص 364.

كأعظم مدن ذلك العصر إلى جانب بغداد المدينة العباسية الشهيرة، والقسطنطينية كعاصمة البيزنطيين المتألقة حتى أنها نافست هذه الأخيرة اتساعا و اكتظاظا بالسكان."[1]

أما الحكم المستنصر فقد اعتمد " خطة فيما يتأتى له من نهضة علمية تمتد إلى أمور متشابكة منها إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية و نقل الكتب من الخارج و تشجيع الثقافات المختلفة من أدبية و دينية و فلسفية و دفع الملكات الأندلسية إلى جمع التراث الأندلسي قبل أن يتطاول عليه الزمن و يتحيفه النسيان."[2]

لقد أقام الحكم المستنصر للعلم والعلماء سوقا نافقة، جلبت إليها بضائعه من كل قطر.[3] فقد كانت له عناية بالعلوم و إيثار لأهلها.[4] و قد أفاء على العلم و نوّه بأهله و رغب الناس في طلبه. و وصلت عطاياه و صلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه و منهم أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر و أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي و غيرهما.[5] و له ألف صاحب الأغاني أنساب قومه بني أمية موشّحة بمناقبهم و أسماء رجالهم... و أرسله إلى قرطبة و أنفذ معه قصيدة حسنة من شعره يمدحه بها. و يذكر مجد قومه بني أمية و فخرهم على سائر قريش فجدد له عليه الصلة الجزيلة".[6]

وكان قد وجّه لأبي الفرج قبلا ألف دينار على أن يوجّه له نسخة من كتاب الأغاني و باسمه طرّز أبو علي القالي كتاب الأمالي و عليه وفد فأحمد وفادته.[7] وكان—كما وصف - مستجلبا للعلماء للعلماء و رواة الحديث من جميع الآفاق يشاهد مجالس العلماء و يسمع منهم و يروي عنهم.[8] و كما فعل مع الأصفهاني في شرائه لكتاب الأغاني، فعل كذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي

---

(1)إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص298.

(2)إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص 64.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص386.

(4)صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، (تحقيق مؤنس)، ص87.

(5)ابن الأبار: الحلة السيراء(تحقيق مؤنس)، ج1، ص201.

(6)المصدر نفسه: ص202.

(7)ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 186.

(8) ابن الأبار: الحلة، ج1، ص201.

في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم.[1] و ذكر الخشني* أنه ألف له كتابه " قضاة قرطبة " نزولا عند رغبته.[2] و كذا القاضي محمد بن أحمد بن يحي بن مفرج الذي جمع مسند حديث قاسم بن أصبغ للحكم المستنصر.[3] والف له محمد بن يوسف الوراق في مسالك إفريقية و ممالكها ديوانا ضخما و حروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة."[4]

و بلغ من صبابة الحكم المستنصر بالعلم و إكرامه و تبجيله للعلماء أنه أمر محمد بن أبي الحسين و أبا علي إسماعيل بن القاسم البغدادي وغيرهما بمقابلة كتاب العين للخليل بن أحمد مع نسخ كثيرة منها نسخة القاضي منذر بن سعيد البلوطي و ذلك في دار الملك بقصر قرطبة.[5] وكان الأسقف ربيع بن زيد مختصا بالمستنصر و له ألّف كتاب "تفضيل الأزمان و مصالح الأبدان".[6]

وفي ظل التسامح الذي أشاعه الحكم، استطاع الأندلسيون أن يدرسوا الفلسفة والمنطق، وكان كل من درسهما قبل عهد الحكم مذموما ملحدا خارجا عن الملة في نظر الناس.[7]

وكان الخليفة يحضر مجالسه ابن صلا اللّه القرطبي: أحمد بن عبد اللّه بن يوسف، المعروف بآرائه المعتزلية المنحرفة بسبب ما كانت تذهب إليه من تحكيم العقل في مسائل الشرع والعقيدة. كذلك كان الحكم يظلل بحمايته نفرا من الشافعيين تحوّلوا إلى مذهب الاعتزال وكان يحتفظ في مكتبته بنسخة من كتاب "الأم" للشافعي.[8]

---

(1)المقري: نفح الطيب، ج1، ص 386.

*قال عنه الذهبي:" محمد بن حارث الخشني القيرواني (ت 361هـ أو 371هـ) صاحب التواليف، استوطن قرطبة و تمكن من صاحبها المستنصر المرواني. قيل إنه صنف للمستنصر مائة ديوان."/ سير أعلام النبلاء، حققه و خرج أحاديثه: خيري سعيد، قدم له: سيد حسين العفاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ط 2008،ج12،ص 313، 314 رقم (3318).

(2)الخشني: قضاة قرطبة، ص 74.

(3)الحميدي: الجذوة، ص 37.

(4)ابن حزم: رسالة فضل الأندلس و ذكر رجالها."/مجموع الرسائل، م1/ج2/ص175./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص 163.

(5)الحميدي: الجذوة، ص46.

(6)إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، (عصر سيادة قرطبة)، ص68.

(7) المصدر نفسه: ص 72.

(8)بالانثيا: تاريخ الفكر الفارسي، ص26.

فعلى الرغم من اتخاذ المالكية مذهبا رسميا للخلافة، فقد سمح لبقية المذاهب الفقهية بالمشاركة في الحياة الدينية والسياسية. فالمؤرخ ابن الفرضي يذكر أسماء عديد من الفقهاء الشافعيين الذين مارسوا وظائف مختلفة في خطط الدولة.[1]

وربما كان هذا الانفتاح الفكري والحرية المذهبية والتعددية من شأنه أن يقوض احتكار الثقافة من طرف الفقهاء المالكيين*، و سيساهم في تراجع نفوذهم و سطوتهم على فكر وتوجهات

---

(1)أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عهد الخلافة، ص 192، 193.

*و تدعيما لهذه الفكرة يقول دومينيك إيرفوا "Dominique Urvoy": " طالما بقي الحكم المركزي قائما في الأندلس فإن طبقة العلماء بقيت متمركزة في قرطبة. فهناك و في المناطق القريبة كانت تدور الانقلابات الخطيرة ليس في مجال المذهب الرسمي فحسب بل و في مجال الاتجاهات نحو النهج الذاتي بل حتى الخروج على المذهب. و يصح هذا بخاصة في عهد الأمير محمد الأول (238 - 273هـ) و عهد الخليفة الحكم الثاني (المستنصر) الذين شعروا بضرورة تشجيع قيام مذاهب فقهية أخرى من أجل تخليص السلطة من ربقة التنظيم المالكي، بينما فضل السلاطين الآخرون الذين يمسكون بزمام الحكم الرسمي الارتكاز عل هذا المذهب"./ علماء الأندلس، ترجمة: مصطفى الرقي، ضمن كتاب: سلمى الخضراء الجيوسي، "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج2، ص 1183. و نحن إذ نتفق مع الأستاذ دومينيك إرفوا حول هذه النقطة بالذات و لكننا نختلف معه حول الحكم المستنصر فقد كانت شخصيته علمية أكثر منها سياسية، فتشجيعه للعلوم و المعارف و الاختصاصات المتنوعة كان معرفيا لا غير، و الدليل على صحة ما نقول. أن الونشريسي صاحب المعيار المعرب قد أورد كتابين للحكم المستنصر، في "الحض على التمسك بمذهب مالك و زجر من يخالفه" أحدهما إلى الوزير عيسى بن فطيس يحضه على الأخذ بمذهب مالك و إلزام الرعية بذلك."ج2، ص232، 233. و آخر في جواب لأبي إبراهيم، المصدر نفسه، ص233.

أما اعتناق المذهب الشافعي في هذه الحقبة المذكورة، فالأمثلة عديدة،حتى من البيت الحاكم نفسه.فعبد الله بن عبد الرحمن الناصر الخليفة وهو شقيق الخليفة الحكم المستنصر والذي قتله والده في حياته لاشتراكه في مؤامرة ضد أبيه أو لتعريضه بأبيه." كان فقيها شافعيا"/الحميدي:الجذوة، ص231./ الضبي: البغية، ص301./ابن سعيد :المغرب،ج1، ص187.

و كان ممن انتسب إلى مذهب الشافعي زمن الأمويين في الأندلس عدة لا تحصى منهم: أسلم بن عبد العزيز (310هـ)، و قد ولي قضاء الجماعة بالأندلس لعبد الرحمن الناصر. و قد سمع في رحلته إلى المشرق من الربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي. و كان يميل إلى مذهب الشافعي./ الحميدي: الجذوة، ص152، 153، رقم (322)./ ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ص 81، رقم (280)/ و قد ذكر ابن الفرضي وفاته علم (319) و أقرّ هذا لتاريخ الضبي في البغية، ص 204، 205، رقم (571).

و كان قاسم بن محمد بن سيار (ت 277هـ) يميل إلى مذهب الشافعي و قد سمع من جهابذة المذهب في رحلته إلى المشرق./ أبو عمرو بن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية، هذبه و رتبه واستدرك عليه: يحي بن شرف النووي، و بيض أصوله و نقحه: عبد الرحمن المزّي، تحقيق: محي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1992،1./ 1413هـ، ج2، ص667. و انظر كذلك: تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، دت،ج2، ص344، 345. و منهم كذلك: أبو القاسم القبسي (ت 360هـ) عبيد بن عمر بن أحمد بن محمد كان شافعي المذهب، و كان الحكم المستنصر يجله و يعظمه كثيرا./ ذيل طبقات الشافعية لابن الصلاح، ج2، ص803. و من الشافعيين كذلك أبو علي حسن بن سعد بن إدريس الكتامي من أهل قرطبة (332هـ) كان يذهب إلى النظر و ترك التقليد و يميل إلى قول محمد بن إدريس الشافعي./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص96، 97، رقم (341).

العامة.[1] و لا نعتقد أنه نسي ثورة الربض التي وقعت بتأثير فقهاء المالكية الأندلسيين في فترة حكم الحكم الربضي أحد أجداده، و لو أن الحكم المستنصر كان مسالما معاهدا بعيدا عن خطّ جدّه. و يمكن القول إن الأندلس لم تعرف في تاريخها الطويل من الفتح إلى السقوط، خليفة أو حاكما أو أميرا، كانت أياديه بيضاء على العلم والعلماء والأدباء والمثقفين والشعراء شأن الحكم المستنصر.

وكان للحاجب المنصور بن أبي عامر اليد الطولى في تشجيع الحركة الثقافية والعلمية والأدبية في زمنه، و إغداقه المثمر على الأدباء والشعراء بما فيه الكفاية والزيادة أمر غير مستتر قد ذكرته كتب التاريخ مطولا: يقول عنه الشقندي في رسالته في فضل الأندلس: " وقد قيل فيه من الأمداح وألف له من الكتب ما سمعت ولا علمت".[2]

وكان من سماحته مع أهل العلم أن يبسط رداءه لهم و حلمه مع انتقادات بعضهم معروف، فقد روى ابن الأبار القضاعي أن أبا محمد الباجي –وهو غير أبي الوليد الباجي - انتقد المنصور فكان حلمه و صبره كبيرين. و طلب منه رفع الغرامة عن ماله بإشبيلية فأمر بإسقاطها و وصله ببدرة دراهم كاملة و منديل كسوة تشاكله فيها خلعة تامة."[3]

وكان المنصور بن أبي عامر يشاور الفقهاء[4] و يعمل بآرائهم و يخضع في كثير من الأحيان لتوجيهاتهم و هذا دليل على تقديره لأهل العلم. "وكان أول أمره شغوفا بالفلسفة فأنكر عليه الفقهاء ذلك و استطاعوا أن يثيروا عليه غضب العامة، فرأى – وهو السياسي الكيس البعيد المطامح - أن يضحي بشغفه في سبيل غاياته. و أمر بإحراق كل ما كان في مكتبة القصر من كتب الفلسفة والفلك و غيرهما من العلوم التي لا يرضى عنها الفقهاء حتى يستعيد حب الناس له."[5]

---

(1)أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عهد الخلافة، ص 195.

(2)المقري: نفح الطيب، ج3، ص 189.

(3)ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1، ص 273، 274.

(4)ابن حزم: رسالة "نقط العروس"، ص86.

(5)بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص27./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص 221.

وله صنفت التصانيف وكُتبت عيون التواليف وأخرى أمر هو بتأليفها و هذا دليل آخر على محبته للعلم والمعرفة، فقد ألف ابن المشّاط عبد الرحمن بن محمد (397هـ) و بأمر من المنصور بن أبي عامر كتابه "الباهر في التاريخ"[1]. والف له الطبيب عبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم كتاب "الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء"[2]. وكان ابن المكوي الإشبيلي (ت 410هـ) الفقيه المالكي الذي انتهت إليه رياسة المذهب في ذلك الوقت قد جمع هو و أبو مروان المعيطي الفقيه كتابه (الاستيعاب في أقوال مالك - رحمه الله - أمرهما بالاجتماع على جمع ذلك و ترتيبه المنصور بن أبي عامر.[3]

أما أهل اللغة والأدب والشعر فقد بلغهم منه كل خير و أثرة، فابن العريف (ت 390هـ) مثلا حسين بن وليد بن نصر كان نحويا عالما بالعربية متقدما فيها استأدبه المنصور لبنيه و قربه من صحبته.[4]

وكان صاعد البغدادي اللغوي الكبير أثيرا عند المنصور بن أبي عامر من جلة جلسائه فقد "أراد المنصور أن يعفي به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية قبله"[5]. و لقد ظلت حياة صاعد طيلة طيلة أيام حكم المنصور حياة الشاعر المقدم والنديم المصطفى والعالم المقرب.[6] وكان صاعد يدرك يدرك أن نيل الحظوة عند المنصور مرهون بتأليف مصنف يتحدى به القالي و مؤلفه و تلامذته.[7]

---

(1)ابن بشكوال: الصلة (العصرية)، ص254، رقم (681). و ذكر ابن بشكوال كتابه باسم الباهر فقط. و ورد باسم (الباهر في التاريخ) عند البغدادي في إيضاح المكنون، ج1، ص163. و ورد عند المؤلف نفسه في كتابه: هدية العارفين و أسماء المؤلفين و آثار المصنفين، دار التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، ج1، ص 514. و قد ذكر البغدادي اسمه في كتابيه (ابن المشاطة).

(2)ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 493.

(3)محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، استخرج نصوصه، صفاء الدين عبد الرحمن و علي بن محمد العيدروس، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط11، 2003م/1424هـ، ج1، ص 424، 425، رقم (384).

(4)ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص100، رقم (356).

(5)ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ص9./ و ينظر كذلك عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 23 و ما بعدها.

(6)عبد الوهاب التازي سعود: صاعد البغدادي، حياته و آثاره، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغربية، ط 1993 /11413هـ، ص122.

(7)المصدر نفسه: ص73.

فألف له كتاب (الفصوص)[1]. وكان من شعراء المنصور المقربين والذين بلغوا عنده مكانة مرموقة،ابن دراج القسطلي (347هـ/ 4211هـ) و له مدائح فيه عرفت بالعامريات "فقد كانت عامرياته تأريخا لأمجاد الأسرة العامرية"[2] و لا شك أن شخصية المنصور كانت تمثل المحور الرئيس لعامريات الشاعر."[3]

ب - شغف الأندلسيين بالعلم و ظهور أماكن العلم والتعليم

عرف الأندلسيون بمحبتهم للعلم و شوقهم للمعرفة و ولوعهم بالثقافة و كل ما يمت بصلة للمعارف والفنون. و لا شك أن هذه الرغبة في المعرفة مشروطة بحصولها و اطرادها. و قد ذكرت المصادر الأندلسية ذلك و عددت صفات الأندلسيين في هذا المجال عموما. و منه قول المقري فيهم: " و أما حال الأندلس في فنون العلم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز ... والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه و يحال عليه، و ينبه قدره و ذكره عند الناس، و يكرم في جوار أو ابتياع حاجة و ما أشبه ذلك."[4]

وكل العلوم عندهم لها حظ و اعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لها حظا عظيما عند خواصهم.[5] ثم ثم أردف المقري قائلا:" و قراءة القرآن بالسبع و رواية الحديث عندهم رفيعة، و للفقه رونق و وجاهة

---

(1)الحميدي: الجذوة، ص 211، رقم (509). و قال الحميدي:" و مما ألف له كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي و كتابا آخر على مثال كتاب الخزرجي أبي السري سهل بن أبي غالب سماه" الهجفجف بن عذقان بن يثربي مع الخنوت بن مخرمة بن أنيف" و كتاب آخر في معناه سماه "كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء". و أضاف الحميدي:" و هو كتاب مليح جدا، و كان المنصور بن أبي عامر كبير الشغف بكتاب الجواس حتى رتب له من يخرجه أمامه في كل ليلة." و قال السيوطي: كان صاعد من متقدمي ندامى المنصور بن أبي عامر و نال منه دنيا عريضة، و كان المنصور قد أثابه على كتاب الفصوص خمسة آلاف دينار." بغية الوعاة، ص 494، 495، رقم (1302). أما كتاب الفصوص فيقع في ستة أجزاء وفقد حققه مؤخرا عبد الوهاب التازي سعود، وطبع بإشراف وزارة الأوقاف المغربية، 1413هـ/993 م

2وسام قباني: عامريات ابن دراج القسطلي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2011م، ص56.

(3)المصدر نفسه: ص 58.

(4)نفح الطيب : ج1، ص 220.

(5)المصدر نفسه: ص 221.

و لا مذهب لهم إلا مذهب مالك، و خواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يبحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم."[1]

والنحو عندهم في نهاية علوالطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب الخليل و سيبويه لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة[2] و قال في موضع آخر:" وكان أهل الأندلس في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة.[3] و ربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة و نظر فلم يحتج إلى ذلك، و يذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة.[4] و ختم قوله بعد أن ضرب أمثلة في هذه القضية: "و هذا و أشباهه يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم."[5] و بالغ ابن غالب في "فرحة الأنفس" في وصفهم فقال:" هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم و حبهم فيها و ضبطهم لها و روايتهم."[6]

كما كان الأندلسيون يجلون أهل العلم والمعرفة و يعظمونهم، يقول صاحب النفح:" وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ... و تعظيم العلماء والعمل بأقوالهم و إحضارهم في مجالسهم و استشارتهم."[7]

وحينما تعرض لموضوع الكتابة في الأندلس قال:" و هي على ضربين: أعلاهما: كاتب الرسائل، و له حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس.[8] و خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن.[9]

---

(1)نفح الطيب : ج1، ص 221.
(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(3) المصدر نفسه: ج4، ص140.
(4) المصدر نفسه: ص 141.
(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
(6) المصدر نفسه: ج3، ص151.
(7)نفح الطيب: ج1، ص 213.
(8) المصدر نفسه: ص 217.
(9) المصدر نفسه: ص 218.

ولهذا فالويل لمن خالف تلك المكانة السامية التي وضعها أهل الأندلس للعلماء و أصحاب المناصب التي تشرف أصحابها بالعلم، فقد ذكر المقري: "أن الرجم للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا في كل يوم."[1] و إنما ذكرنا في هذا المقام القضاة والولاة فاختصاصهما بالعلم قبل التولية أمر معلوم و إنما قصدناهما من هذا الجانب.

وبعد تعداد الصفات التي ذكرها المؤرخون حول شغف الأندلسيين بالعلم والمعرفة و كيف أن هذه المحبة والإرادة لهما دور كبير في النهوض بتطور المعارف والدفع بعجلتهما إلى الأمام في سبيل إشعاع حضاري قوي و فعال. وجب علينا أن نذكر وسائل التحصيل المعرفي لدى أهل الأندلس لأن هذه الوسائل ستستمر إلى عصر الطوائف بشكل أو بآخر وربما زيد عليها.

يقول المقري بعد أن ذكر ولع أهل الأندلس بالعلوم والآداب: " و مع ذلك فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة فهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا. فالعالم عندهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه و ينفق من عنده حتى يعلم."[2]

كانت المساجد في تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات[3]. لقد ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة فإن لم يكن المسجد فبيت الأستاذ نفسه[4]. فهم في هذه الحالة –أي الأساتذة - يلقون دروسهم حيثما اتفق، في حجرة البيت أو في ركن من المصنع أو في جانب من الحانوت أوالى جوار شجرة من البستان و غيرها من الأمكنة[5].

وعرفت البيوت كثيرا من المدارس يجري فيها على نحو ما يجري في المساجد و في عيادات الأطباء، حيث يلقى هؤلاء طلابهم يدرسون لهم الطب و كل ما يتصل به. ولا نقول شيئا عن المكتبات المنزوية

---

(1)نفح الطيب : ج1، ص 220.

(2)المصدر نفسه: ص221.

(3)أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 79.

(4)إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص38.

(5)خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية، و تأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط2، 1994، ص 109.

في بيوت الخاصة حيث يتدارسون الفلسفة ... و من الحق أن نقرر الرغبة القوية في تعليم الأدب و إجادته أفسحت الطريق واسعا و عريضا أمام المراكز التربوية لتبلغ قمة العظمة و أوج الازدهار.[1]

وكثيرا ما تحدثنا كتب التاريخ والتراجم عن عديد العلماء الذين كان يؤتى إليهم في منازلهم لطلب العلم كمثال على ذلك الفقيه المحدث أبو يحي زكرياء بن خطاب بن إسماعيل (337هـ) من أهل طليطلة، حيث كان الناس يرحلون إليه إلى طليطلة للسماع منه.[2]

وكان ابن النداف زكريا بن يحي بن سعيد يرحل إليه من كور الثغر للسماع منه.[3]

وربما كانت الرحلة عكسية حيث يكون الأستاذ أوالعالم هو من يذهب إلى مكان المتعلم أوالمتعلمين ليلقي دروسه و محاضراته. فقد كان ابن الحصار أحمد بن مضاء بن عبد الجبار، بصيرا بالعربية متفننا في باب الآداب. أدّب عن خاصة و عامة ثم صار إلى تأديب الوصفاء بالقصر[4]. أما محمد بن خطاب الأزدي (ت قبل 400 هـ) فقد عني بالعربية والآداب فاستقل بمعرفتها و تقدم في صناعتها. وكان يختلف إليه في العربية أولاد الأكابر وكان منحاشا إلى بني حذير و قفا عليهم في تعليم أبنائهم.[5]

إذن فالبيت كان مكانا مفضلا لتلقي العلم و ذلك لطبيعته الخاصة و حتى الأقضية بين الناس بما تتطلبه من استحضار أدلة على الحكم الشرعي كانت تتم أحيانا في بيت القاضي، فقد كان إبراهيم بن العباس القرشي القاضي يجلس يقضي في بيته بين الناس و خادمته تنسج في ناحية البيت.[6]

---

(1)خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية، و تأثيراتها الغربية ،ص 117.

(2)ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 128، رقم (444).

(3)المصدر نفسه: ص129، رقم (453).

(4)ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (الهراس)، ج1، ص 15، رقم (15).

(5)المصدر نفسه: ص303، رقم (1055).

(6)الخشني: قضاة قرطبة، ص165.

وكان بقرطبة على عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، يحي بن معمر حيث أتى إليه ليحكم في مسألة كان القاضي يريد أن يحكم فيها بقول ابن القاسم وكان عبد الملك بن أيمن يريد أن يحكم فيها برأي أشهب.[1]

وكان الفقيه محمد بن إبراهيم في مدينة طليطلة يلقي دروسه في بيته و حصل في إحدى المرات أن قصده المظفر عبد الملك بن أبي عامر وكان الشيخ قد لزم بيته يُسمع عليه فيه، فلما استأذن المظفر و علم بذلك الشيخ قال لمن حوله من طلبة العلم: لا تقوموا فامتثلوا لأمره.[2]

ولكن و رغم مكانة البيت المتميزة في طلب و نشره، فإن هالة التقديس مازالت محاطة بالمسجد، لشرف المحصّل و شرف مكان التحصيل. وكان "مسجد قرطبة بالذات هوالنواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التي أسست في تلك الفترة، والتي تتسع في العصور التالية حتى تكون في القرن العاشر أعظم جامعات إسبانيا بل أعظم جامعات أروبا.[3] و قد أسلفنا الذكر حول بناء جامع قرطبة في عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) وكيف أن الزيادات المتوالية عند بنيه و أحفاده من الأمراء حتى زمن المنصور بن أبي عامر الذي أضاف له الشيء الكثير.[4] فقد كان عدد من يخدم جامع قرطبة في دولة دولة ابن أبي عامر، و يتصرف فيه من أئمة و مقرئين و أمناء و مؤذنين و سدنة و موقدين و غيرهم من المتصرفين مائة و تسعة و خمسين شخصا.[5]

وقيل كان عدد القومة على المسجد الجامع زمن خلفاء بني أمية و في زمن ابن أبي عامر ثلاثمائة.[6]

وإذا حاولنا استحضار هذا الرقم جيدا مع سعة المسجد الجامع و صحونه، تخيلنا حجم العلماء والمتعلمين الذين كان المسجد فضاء للتعليم والتعلم والعبادة لهم. و أدركنا "الأهمية الرمزية للمسجد

---

(1)الخشني: قضاة قرطبة ،ص163.

(2)ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية)، ص 386، رقم (1054).

(3)أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص79.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص287.

(5)المصدر نفسه: ص 287، 288./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص549.

(6) المقري: نفح الطيب، ج1، ص 551.

الكبير في قرطبة في كونه مركزا فكريا لإسبانيا المسلمة (الأندلس)[1] هذا بالنسبة للمسجد الجامع فقط، أما المساجد الأخرى فقد بلغت على أيام عبد الرحمن الداخل أربعمائة و تسعين مسجدا، ثم زادت بعد ذلك بكثير حتى تناهت إلى ألف و تسعمائة مسجد في زمن المنصور بن أبي عامر كما يقول المؤرخ ابن حيان القرطبي.[2]

أما أرباض قرطبة فبلغت واحدا وعشرين ربضا، في كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله و لا يحتاجون إلى غيره، و بخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية، في كل واحدة منها منبر و فقيه مقلص تكون الفتيا في الأحكام والشرائع له.[3] حتى صارت قرطبة مدينة العلم و مقر السنة والجماعة[4] واليها كانت الرحلة في الشعر والشعراء، إذ كانت مركز الكرماء و معدن معدن العلماء ، لم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب*.[5]

من أفقها طلعت نجوم الأرض و أعلام العصر و فرسان النظم والنثر و بها أنشئت التآليف الرائقة، وصنفت التصانيف الفائقة، والسبب في تبريز القوم قديما و حديثا على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب[6]. صارت قرطبة بعد هذا مركز العلم و منار التقى و محل التعظيم والتقديم كما ذكر ذلك الشقندي في رسالته في الدفاع عن الأندلس.[7] فتنافس الناس في العلوم و كثر الحذاق في جميع الفنون[8] هذا ما دفع المشارقة

---

(1)جيريلين دودز: فنون الأندلس، ص 867.

(2)المقري: نفح الطيب، ج1 ، ص540.

(3)المصدر نفسه: ص458.

4المصدر نفسه: ص459.

*يقول جوزيف ماك كيب:" لم تكن هناك قرية، و إن كانت صغيرة جدا، داخل حدود المملكة قد حرمت من بركات التعليم. و كان التعليم عاما يتمتع به حتى أولاد أحقر الفلاحين، و على هذا نقول إنه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة و الكتابة."، مدنية المسلمين في إسبانيا، ص85.

(5) المصدر نفسه: ص461.

(6) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(7) المصدر نفسه:ج3، ص 214.

(8) المصدر نفسه: ص 157.

القادمين إلى الأندلس، تجذبهم إليه المراكز الثقافية في عواصم المقاطعات المختلفة التي امتدت شهرتها إلى ما وراء البحار.[1]

لم تكن قرطبة وحدها منارة العلم في الأندلس في عصور الإمارة والخلافة والحجابة، بل سارت المعارف إلى كل المدن الأندلسية و قراها و أريافها و أرباضها. و غدت المساجد والكتاتيب و بيوت العلماء والفقهاء والأساتذة حلقات لدروس العلم والمعرفة، فانتسبت الثقافة إلى كل المدن الاندلسية " و قامت في كل المدن مراكز للتعليم و لكن أيّا منها لم تستطع أبدا أن تنتزع من قرطبة الرئاسة التي انتهت إليها، و واصل مسجد قرطبة الجامع رسالته كمركز مرموق للدراسات التقليدية العالمية في إسبانيا (الأندلس) ، وكان هذا الجانب من رسالته في أوج عظمته، و قمة مجده، شيئا يستحق التأمل والمشاهدة.[2]

وإلى جانب المساجد كان الأندلسيون "يرسلون أبناءهم إلى الكتّاب الذي يسمونه المحضرة أوالحضّار أوالمسيد*، وعلل الدكتور محمد بنشريفة سبب تسمية الكتاب بالمحضرة لحضور التلاميذ إليه أو لكونهم يحضرهم و يهيئهم للتعليم المتوسط أوالعالي. و كلمة محضرة أوالحضار مازالت مستعملة إلى اليوم.[3]

وقد تتغير بعض الأماكن و تتحول من أماكن للتجارة إلى أماكن للعلم, فالمؤرخون يتحدثون عن قيام الحكم المستنصر بحبس حوانيت الشرابين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء[4]. و و عن تخصيصه جانبا من دار الملك يجلس فيه العلماء للتأليف** أوالترجمة أو مقارنة النسخ

---

(1) ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، (طبعة دار العالم العربي)، ص82.

(2)خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية و تأثيراتها الغربية، ص115.

*ما زال هذا المصطلح مستعملا إلى اليوم في العاصمة الجزائرية و ضواحيها للدلالة على المدرسة. و قد كتب الأستاذ عبد الواحد ذنون طه في كتابه "دراسات في حضارة الأندلس و تاريخها" فصلا صغيرا مفيدا بعنوان (وثائق استئجار المعلمين و المؤدبين في الأندلس) تعرض فيه لعديد الأمثلة حول هذه القضية، كما تحدث عن بعض الدراسات المفيدة حول قضية التربية و التعليم في الأندلس./ دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، من ص 69 إلى ص 75.

(3)عصمت عبد اللطيف دندش: دراسات أندلسية في السياسة و الاجتماع، ص41.

(4)ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 249.

**و كمثال على ذلك فقد ألف ابن مغيث يونس بن عبد الله قاضي الجماعة بقرطبة للمستنصر كتابا حول أشعار خلفاء بني أمية بالمشرق و الأندلس، بدار الملك المطلة على النهر./ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص147.

الوافدة.[1] وقد أنشأ الحكم في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل، و أمر أخاه (وزير المعارف) أن يسهل على جميع الناس اكتساب العلوم.[2]

ويذكر ابن عذاري المراكشي أنه أنشأ حوالي سبعة و عشرين مدرسة، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، و باقيها في كل ربض من أرباض المدينة.[3] ويذكر الأستاذ جوزيف ماك كيب:" أنهم كانوا يعتنون بالتعليم العالي و يعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي، فقد كان قرطبة ثمانمائة مدرسة. وكان التلاميذ يأتون من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها، وكانت للفقراء منهم دور إقامة اعدتها الحكومة مجانا لهم."[4] و يمكن القول إن الدروس يمكن أن تعطى في أي مكان و لكن المساجد كانت مكانها المعتاد، سواء لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم أو للدراسات العليا في المواد العربية، على حين ظلت البيوت بعامة مكانا لعلوم الأوائل أعني الفلسفة والرياضيات و ما يتصل بهما، أو لدروس الأساتذة الذين لا يودون أن يخرجوا على النظام الذي يفرضه تردد الناس على المساجد و يسهر على تنفيذه القائمون على شؤونها.[5]

وستبقى هذه التقاليد راسخة ممتدة إلى عصر الطوائف وكانت هذه إحدى الأسباب القوية للازدهار العلمي في زمن مملكة الطوائف.

ج -الكتب والمكتبات والوراقة والوراقون و دورهم في تطور الحياة العلمية:

يعد التأليف والانتخاب والترجمة والإبداع أحد الأمارات التي تدل على علو كعب المجتمعات المعرفي والفكري والحضاري. أما التأليف والمؤلفات والأعمال والوراقة والكتب والمكتبات فهي سمات فارقة بين الحضارة والبداوة والعلم والجهل. "وحتى في تصورنا للبيئة العلمية الأندلسية في ذلك العصر بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دؤوب للعلم والمعرفة."[6]

---

(1) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص 68.

(2)جوزيف ماك كيب: مدينة المسلمين في إسبانيا، ص 84.

(3)ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص240.

(4)جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، ص85.

(5)خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص 109.

(6) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، م2/2/ص102.

ونظرا لتنوع العلوم والفنون و كثرة الاختصاصات و تشعبها ، و تفرع العلوم والمعارف في عالم العصر الوسيط الإسلامي جرّ معه غزارة التأليف و ضخامة التأليف وهو ما تحقق بالفعل في الأندلس ابتداء من القرن الثاني والثالث، و ازداد التوهج في القرن الرابع، والقرون الموالية، و ها هو ابن حزم الأندلسي الفقيه يقول:" و ليعلم من قرأ كتابنا هذا أن منفعة هذه الكتب ليست في علم واحد فقط بل في كل علم."[1]

كان جمع الكتب و تكوين المكتبات معروفا بين أهل الأندلس، و قد غدا ضرورة أصيلة و هواية منتشرة. وكما ألفه الحكام والأمراء، فقد عرفه العلماء بل هو جزء ضروري من حياتهم لو صح لغيرهم الاستغناء عنه فلا يصح بالنسبة إليهم."[2]

وكانت قرطبة عاصمة الأندلس السياسية والفكرية والثقافية و منار العلم والعلماء مشهورة في ذلك، فقد وصفها المقري قائلا:" و هي أكثر بلاد الأندلس كتبا، و أهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة. حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله و ظفر به."[3] و قال عن هذه الفكرة المستشرق الفيلسوف جوزيف ماك كيب:" و لم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس يحوي خزائن الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة".[4]

إن كثرة التأليف و شيوع ظاهرة تملك الكتب و إ نشاء المكتبات دليل على الحس المعرفي والحضاري. و هي ظاهرة تدل على النضج المعرفي والثقافي الذي تميز به الأندلسيون بشكل عام. يقول إحسان عباس:" و تجد النشاط إلى جمع الكتب المصححة المحررة عاما بين المسلمين في

---

(1)التقريب لحد المنطق و المدخل إليه بالألفاظ العامية و الأمثلة الفقهية، تحقيق: عبد الحق بن ملا حقي التركماني، دراسة و تقديم: أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1،2007م/1428هـ، ص 322./ و ينظر مجموع الرسائل، م2/2/ص102.

(2)عبد الرحمن علي الحجي: الكتب و المكتبات في الأندلس، هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث (مجمع أبو ظبي)، الإمارات العربية المتحدة، 2007م، ص116، 117.

(3)المقري: نفح الطيب، ج1، ص462، 463.

(4)جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، ص80.

إسبانيا (الأندلس)، و لم تكن قرطبة وحدها مركزا للمكتبات الكثيرة و إن تميزت عما عداها في ذلك، بل كانت تلك المكتبات في المدن الأخرى مثل طليطلة و إشبيلية و في القرى الصغيرة أيضا."[1]

لقد ازدانت بيوت الأندلسيين بالكتب فاشتهرت كثير من المكتبات الخاصة للرجال والنساء، علماء و متعلمين، حتى إنه كان لبعضهم جماعة خاصة من الوراقين و غيرهم يقومون باستنساخ الكتب و خدمتها. فكان من البديهي أن تزين دار كل عالم (مهما كان ميدانه - بمكتبة فخمة قد تعتبر أثمن ما في بيته ينفع بها نفسه والآخرين.[2] و ربما كانت مجموعات الكتب تعد علامة على علوالمنزلة والصدارة في المجتمع.[3]

فإذا كانت بيوت عموم الناس، غير المشهورين بالعلم قد احتوت على الكتب في مكتبة صغرت أو كبرت، تعتني بانتقاء و اقتنائها، فكيف بهؤلاء العلماء.[4] وحتى السلاطين و أولي الأمر و غيرهم من علية القوم.

يعود الفضل إلى عبد الرحمن الثاني فهو صاحب الدور الأساسي في تشريق الثقافة العلمية... فهو أول من أدخل كتب الأزياج أي أول من أدخل الجداول الفلكية إلى الأندلس، كما أنه أول من أدخل إلى الأندلس كتب الفلسفة والموسيقى والطب و علم الفلك... ففي عصره أدخل عباس بن فرناس (887م) أو سميه عباس بن ناصح (884هـ) نسخة من جداول (السند هند) التي درج اعتبارها جداول الخوارزمي.[5]

كما هاجرت كتب المشارقة كثيرا إلى الأندلس عن طريق الوافدين أوالمرتحلين من طلبة العلم أو العلماء و حتى الحجاج والسياح والتجار. و لطالما كانت كتب التاريخ والتراجم والطبقات والفهارس، كفهرسة ابن خير الإشبيلي فيما رواه عن شيوخه معرضا لتلك الكتب التي هاجرت من

---

(1)إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، 39.

(2)عبد الرحمن علي الحجي: الكتب و المكتبات في الأندلس، ص115.

(3)روبرت هيلبراند:"زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، ص193.

(4) عبد الرحمن علي الحجي: الكتب و المكتبات في الأندلس، ص116.

(5) خوان خيرني و خوليو سامسو: تطورات العلم العربي في الأندلس، ص360.

المشرق إلى الأندلس، وكانت النواة الحقيقية الأولى– طبعا إضافة إلى كثير من إبداعات الأندلسيين في كل الاختصاصات - لتأسيس المكتبات في الأندلس. و يكفي أن نذكر أن أبا علي القالي في هجرته إلى الأندلس -عدا ما ألفه من كتب - فقد أدخل عدة كتب لفطاحل المشارقة من اللغويين والنحاة و كثيرا من دواوين الجاهليين.[1]

كان اهتمام أهل الأندلس بالكتب –حكاما و محكومين - أمرا شائعا و مألوفا، تحدثت عن ذلك كتب التاريخ بإسهاب "فقد كانت مكتبة القصر التي عني بها الناصر دليلا واضحا على الدرجة العالية التي بلغتها الثقافة الأندلسية في عصره، و قد تكونت منها و من مكتبتي الأميرين محمد والحكم مجموعة من الكتب العظيمة التي كانت موضع فخر الحكم المستنصر.[2]

وكانت مكتبة الحكم المستنصر قد بلغت من الشهرة حدا واسعا لسعتها و استيعابها من كل العلوم و شتى الفنون والمعارف. فقد كان الخليفة رجلا عالما ذواقة، يقرأ بعقل ناقد و بصيرة نافذة و ذهن متفتح "قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد و إنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها."[3] و قال بعض الباحثين إنها بلغت تسعمائة ألف كتاب خطي.[4]

وهاهو ابن حزم الأندلسي ينقل عن تليد الفتى الذي كان قائما على مكتبة المستنصر قائلا:" وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع و أربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط.[5] و لا عجب في ذلك فقد كان الحكم من أهل العلم فقد وصف بأنه كان جماعا للكتب.[6] للكتب.[6] حيث جمع منها ما لا يحد و لا يوصف كثرة و نفاسة.[7] و جمع من الكتب في أنواعها ما

---

(1) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص65.

(2)آنخل بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص24.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص 395.

(4) جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، ص 84.

(5)جمهرة أنساب العرب، ص 100.

(6)ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص41.

(7) المقري: نفح الطيب، ج1، ص 395.

ما لم يجمعه أحد من ملوك الأندلس قبله، و ذلك بإرساله فيها إلى الأقطار واشترائه لها بأغلى الأثمان ونفق عليه ذلك فحمل إليه.[1]

وكان يبذل في اقتنائها أغلى الأثمان." حتى غصت بها بيوته و ضاقت عنها خزائنه[2] فاستجلب من بغداد و مصر و غيرهما من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة.[3]

ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين والتهمّم بها[4] وجمع بداره بداره الحذاق في صناعة النسيج والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد فأوعى من ذلك كله.[5] وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف و رجال يوجههم إلى الآفاق عنها ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان، و من أهل المشرق والأندلس جماعة[6] ولم تكن المكتبة تضم مجموعة كتب الحكم وحدها، بل كانت في الواقع تضم المكتبات الخاصة لأفراد الأسرة – الأب، الإخوة، الأبناء -فكانت بذلك مكتبة ملكية بكل معنى الكلمة.[7]

كانت الأندلس بكل مدنها و قراها مكتبات خاصة و عامة، و خاصة قرطبة التي كانت قمة علمية شامخة بها آلاف الكتب والمخطوطات في كل التخصصات منها الكتب المترجمة. "و هكذا اجتمع في قرطبة علماء كثيرون، و مكتبة ضخمة و ملك عالم اجتمعوا في رقت واحد و هذا دليل على مدى الازدهار العلمي الذي تمتعت به الأندلس في القرن الرابع الهجري.[8]

وكان من بين العوامل المساعدة على شيوع المكتبات و ظاهرة اقتناء الكتب ظهور المعامل الخاصة بالورق. و قد اشتهرت بعض المدن بذلك مثل شاطبة و قد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول (الناحية

---

(1) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج1، ص 186.
(2)ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس)، ج1، ص200، 201.
(3) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص 87.
(4) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص201.
(5)المقري: نفح الطيب، ج1، ص386.
(6)ابن الأبار: الحلة السيراء((تحقيق مؤنس)، ج1، ص202.
(7)روبرت هلبراند:"زينة الدنيا" قرطبة القروسطية" مركزا ثقافيا عالميا، ص 193.
(8)أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب و الأندلس، ص227.

الاقتصادية). و من بين العوامل المساعدة على ذلك هو ظهور حرفة الوراقة في الأندلس و شيوعها على نطاق واسع والوراقة "هي الحرفة المتخصصة بإنتاج و توزيع الكتاب العربي".[1]

وقد عرفها ابن خلدون بقوله: "هي معاناة الانتساخ والتصحيح والتجليد و سائر الأمور المكتبية والدواوين."[2]

والظاهر من اسم هذه الحرفة "الوراقة" أنها مشتقة من الورق، و أطلقت كتب الأدب العربي على الطائفة التي تولت أمر هذه الصناعة اسم الوراقين.[3] وكانوا مختصين بهذه الحرفة والنسخ. و حتى النساء قد شاركن في هذه الحرفة وكان لهن دور كبير في هذه الصناعة "فقد كانت المدارس الإسلامية الأندلسية تستخدم عشرات النساخات النساء"[4] إلى جانب النساء اللائي كن يكسبن عيشهن من النسخ في سوق الكتب في قرطبة.[5]

وما لنا نذهب بعيدا و قد كان علامة الأندلس ابن حزم الأندلسي في تلك الفترة و قد تربى في حجورهن حيث قال:" و هن علمنني القرآن و رويني كثيرا من الأشعار و دربنني الخط.[6]

وقد حدثنا ابن بشكوال في صلته عند عديد الأسماء من النساء اللائي شاركن في الحياة الثقافية الأندلسية في هذه الفترة (خاصة فترة الخلافة) و بالضبط في الشق المتعلق بالنسخ والكتابة والخط، و كيف أن هذه المساهمة كانت فعالة إلى حد كبير وكان لها أكبر الأثر في تطور الثقافة الأندلسية في عصر الخلافة, و كيف أن هذا الصنيع سيبقى متبعا عند نساء الأندلس العالمات المثقفات الشاعرات الأديبات في عصر الطوائف كولادة بنت المستكفي بالله و نزهون القلاهية و غيرهما.

---

(1) أمين فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط1، 1997م/1418هـ، ج1، ص 36.

(2) المقدمة : ص

(3)أمين فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات، ج1، ص 147.

(4) روبرت هلبراند:"زينة الدنيا" قرطبة القروسطية" مركزا ثقافيا عالميا، ص 194.

(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(6)طوق الحمامة في الألفة و الألاف، عني به: إبراهيم أعرابي آغا، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، دت، ص96./ مجموع الرسائل، م1/ج1/ ص166.

فلبنى(ت 374 هـ) كانت للخليفة الحكم بن عبد الرحمن، وكانت حاذقة بالكتابة، مشاركة في العلم، وكانت عروضية خطّاطة جدا.[1] وكانت مزنة(358 هـ) كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، حاذقة من أخط النساء.[2]

وكانت عائشة القرطبية(ت 400 هـ) حسنة الحظ، تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعتني بالعلم، ولها خزانة كبيرة حسنة، لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدلها فهما وعلما.[3] ، وصفية بن عبد الله الريي(417 هـ) أديبة شاعرة موصوفة بحسن الحظ.[4]

وقد مارس مهنة الوراقة إلى جانب الوراقين المحترفين عدد كبير من العلماء والأدباء والمحدثين والمفسرين وعلماء اللغة.[5] ، كالقاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس(402 هـ/ 2011م) الذي كان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، ملبّس كله بالخضرة، قد ملأه بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها.[6] وكان حسن الحظ جيد الضبط جمع من الكتب في أنواع العلوم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس... وكان له ستة وراقين ينسخون له دائما، وكان قد رتّب لهم على ذلك راتبا معلوما، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه، وبالغ في ثمنه، فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه ورده إليه.[7]

وقد وصف العلامة الأندلسي المؤرخ ابن الفرضي(403 هـ) جمّاعا للكتب، فجمع منها أكثر مما جمعه أحد من عظماء البلد.[8]

---

(1) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ترجمة رقم(1532).

(2)المصدر نفسه: الصفحة نفسها، ترجمة رقم (1533).

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها، ترجمة رقم(1534)/ المقري: نفح الطيب، ج4، ص 290.

(4) ابن بشكوال: الصلة، ص 532، ترجمة رقم(1536).

(5) أمين فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط، وعلم المخطوطات، ج1، ص 147.

(6) القاضي النباهي: المرقبة العيا، ص 103.

(7)ابن بشكوال: الصلة، ص 256، 257. ترجمة رقم(685).

(8)المصدر نفسه: ص 214، ترجمة رقم(573).

وأخيرا وليس آخرا ابن ميمون(ت 400 هـ/ 1009 م) أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي الطليطلي وقد جمع من الكتب كثيرا في كل فن. وكانت جلّها بخط يده، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحا أمهات لا يدع فيها شبهة مهملة.[1]

ومن بين الظواهر المكتبية المتميزة في الأندلس، والتي كانت سببا في شيوع الثقافة بين الأندلسيين، وتعميم الفائدة على أوساط المتعلمين، ظاهرة " الوقف"، أي وقف المكتبات من بعض العلماء والمؤلفين على الأمة، ويبدو أن النزعة الدينية قد تدخلت في هذا الأمر بشكل كبير حيث" يدخل الوقف في باب الإحسان بمعناه الواسع، بحيث لا تقتصر الحسنة فقط على الزكاة والصدقات المنصوص عليها في أحكام الدين والتي يلتزم بها الإنسان المسلم، وإنما تتعدى ذلك إلى نطاق الصدقات الاختيارية التي يتبرع بها القادرون من الخيرين عن رضى وطيب خاطر، وتقربا وزلفى إلى الله عز وجل".[2]

ومن بين الأغراض التي وجه المحسنون والسلاطين والأمراء إليها اهتمامهم، وقف الكتب والمكتبات.[3]

وخاصة مع ظهور حركة التأليف والترجمة والنسخ والانتخاب والاختصار، فبعد أن كان هؤلاء يوقفون مقتنيات مكتباتهم من أجل تعميم الإفادة على جموع المسلمين، ومما زاد في انتشار ظاهرة الوقف بصفة عامة هو ترخيص الفقهاء بذلك، وكان المنع هو حكمهم الأول حول هذه الظاهرة لأسباب فصّلوا فيها ليس هنا موضعها حيث" بدأت تظهر" المكتبات الموقوفة على طلبة العلم أو على المساجد، وأخذت خزائن الوقفية في الانتشار في القرن الهجري.[4]

هذا مجمل النشاط المكتبي في عصري الإمارة، والخلافة، وقد رأينا كيف أن المكتبات كانت متنوعة، كمكتبات الخلفاء والأمراء والعلماء والمؤدبين، أما المكتبات العامة والتي تمثلت في المكتبات الوقفية التي أهداها المحسنون من أصحابها وجعلوها وقفا على أمة الإسلام كما رأينا

---

(1)ابن بشكوال: الصلةن ص 35، ترجمة رقم(37).

(2)أمين فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، ج2 ص 421.

(3)المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4)المصدر نفسه: ص 423.

مجمل هذا النشاط من المحترفين الورّاقين والكتّاب والنسّاخ والخطّاطين الذين كان لهم الفضل في انتشار الكتب، وتوسيع المقروئية وتفشيها بين أفراد المجتمع. وقد شاركت النساء الرجال في هذا العمل، فكان المجهود في ذلك مضاعفا، وكانت النتائج بارزة، والثمرة قد صارت ثمرتين، وأعطى كل ذلك في سبيل هذه الصناعة والحرفة توفر المادة الأولية، وانتشار صناعة الورق في كثير من المدن الأندلسية، مثل شاطبة وألمرية وغيرهما من المدن الأخرى، مما كان له أكبر الأثر على الحياة العلمية بشكل عام.

ولعل من الغريب أن كل المؤلفات التي وصلت إلينا عن صناعة الكتاب العربي المخطوط كتبت في بلاد المغرب والأندلس".[1] مما يدعم ما أوردناه من آراء حول هذه الحرفة أو الصناعة وتطورها في الأندلس.

وهذا ما يصعب من مهمتنا، ومن مهمة كل باحث يريد الفصل بين التخصصات ولدى كل عالم، إذ أن الأديب عندهم قد يكون فقيها ومحدثا ومؤرخا وفلكيا ورياضيا وطبيبا ولغويا وجغرافيا.

وعليه فإننا سنذكر كل عالم وما يغلب عليه من تخصص، وإذا ورد لواحد من أهل العلم أكثر من مؤلف في فرع من فروع المعرفة ذكرناه في كل التخصصات التي كتب فيها.

ولكننا سنذكر الأعلام فقط في التخصصات المختلفة، ونحيل على مصادر ترجماتهم وعلى كثير منهم ومن مؤلفاتهم في الهامش، حتى لا تخرج الدراسة عن إطارها الزمني المخصص لعصر الطوائف، وكان لنا أكثر من داع إلى ذكر أعلام عصور الإمارة والخلافة والحجابة. إضافة إلى دروهم في الحياة العلمية في عصر الطوائف، فقد كان كثير من أعلام هذه الفترة وخاصة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، والربع الأول من القرن الخامس، أساتذة لكثير من علماء وأدباء عصر الطوائف، حتى إن بعض نوابغ العلم والفكر والأدب الأندلسي في زمن الطوائف قد ولدوا في عصر الخلافة والفتنة القرطبية، كابن حزم الأندلسي الفقيه (384 هـ/ 994 م - 456 / 1064 م)، وابن عبد البر النمري(368 هـ/ 463 هـ) وأبي حفص عمر بن الحسن الهوزني(392 هـ/ 460 هـ)ن وابن زيدون(394 هـ/ 463)، وابن سيده الأندلسي(398 هـ / 458 م) وغيرهم من الأعلام.

---

(1)أمين فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ،ج1، ص 36.

II -1 -2 -المبحث الثاني: الحياة العلمية في الأندلس(عصر الإمارة والخلافة) إجمالا:

هيأت كل الأسباب التي ذكرناها آنفا، السبيل لقيام ثقافة إسلامية أندلسية متميزة، بدأت في النمو التدرجي مع دخول الفاتحين في نهاية القرن الأول الهجري.

وبعد مرور فترة زمنية ليست بالقصيرة، ولعوامل عديدة، حاولت الأندلس أن تنشئ ذاتها ثقافيا ومعرفيا، فأخذت تختط لنفسها دربا علميا ومسارا فكريا متميزا، رسمه أبناؤها الجدد سليلو الأمشاج البشرية المتنوعة، فوسمت هذه الثقافة منذ ذلك الحين بالثقافة الأندلسية، وطبعت بطابع الخصوصية القطرية.

" وكان انفصال إقليم الأندلس عن الخلافة، وتشكيل دولته المستقلة عام (756 م)، واندماج الأقوام المتنوعة مع بعضها وتحولها إلى جماعة من نوع جديد – شعب يوحده الوعي الذاتي والسياسي – كل ذلك هيأ الظروف لتكوين وتطوير ثقافة محلية فعلية وانطلاقة علمية."[1]

ومن هذا المنظور، فإن ثمة خصوصية نشأت في ظل الدولة الأموية، هي وحدة المزاج - إذا صح التعبير - بين المجتمع المتنوع والمنفتح على عدة تيارات دينية وثقافية، وبين الأمراء الذين استوعبوا حالة الأندلس، وتخلّوا عن رواسبهم القبلية، واندمجوا في دورهم حتى الإتقان دون أن يشذّ أحدهم عن القاعدة طيلة مرحلة الدولة التي استمرت فعليا حتى عهد المنصور بن أبي عامر[2] وشجّع على اتخاذ الأندلس محوريتها الحضارية إلى جانب بغداد والقسطنطنية، وغيرهما من الحواضر الشهيرة في ذلك الوقت.[3]

كان النشاط العلمي كثيفا في هذه الفترة، وكان الإنتاج العلمي غزيرا ومتنوعا، وفي شتى الاختصاصات، بفضل أعلام ونوابغ ظهروا في هذه الحقبة، وممكن أن نقول بكل اطمئنان - كما قال أحد الباحثين:" إن البذرة الأولى التي وضعها الأمويون نضجت فيما بعد في عهد الطوائف:"[4]

([1]) ك. بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس(الثلث الأول من القرن الحادي عشر)، ترجمة: نايف أبو كرم، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سوريا، ط1، 199، ص 12.

([2])إبراهيم بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس (دراسة في أدب السلطة)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دت، ص 95، 96.

([3])المصدر نفسه: ص 91.

([4]) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج3، ص 36.

وهو ما أكدّه الأستاذ آنخل بالانثيا حينما اعتبر أن عصري الإمارة والخلافة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فروع من فروع الدراسات واختمرت اختمارا طويلا."[1]

ومن خلال استقراءنا للنتاج الثقافي الأندلسي في هذه الحقبة، نجد أن هذا النتاج وفير ومتنوع، وبلغت التآليف والمدونات من الكثرة والتنوع والشمول بحيث يصعب حصرها في هذه الصفحات، ولكن الشيء المهم في هذه الثقافة" أنها كانت في ذلك الحين متداخلة مع الدين إن لم تكن مندمجة فيه، بحيث كان المكون الديني هو القاسم المعرفي المشترك بين كل المفكرين، حتى أولئك الذين كانوا روادا للمعرفة العقلانية كالفلسفة والرياضيات والطب."[2]

كان الشعر في الواقع أرقى الفنون وأعلاها شأنا في ذلك المجتمع، حيث الأمير شاعر بالفطرة أو الروح والوزير تمهّد له القافية للوصول إلى قلب الحاكم، قبل الوصول إلى عقله، وظيفته وأبرز مواهبه الشعر، وكذلك القاضي والقائد وصاحب الشرطة،بلغوا جميعا مراميهم عبر هذا الطريق.[3]

هذا في زمن الإمارة والخلافة" وكان أعظم عصر أدبي في الأندلس قد بدا في عهد الحجابة أي عندما كان المنصور وابنه المظفر يمسكان بزمام الأمور في عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد."[4]

وكان الشعر الغنائي هو اللون الأدبي الذي غلب على غيره في بلاط المنصور، وقد بلغ من غلبته أن أنشئ ديوان خاص للشعراء جعلوا فيه طبقات، وقدّرت جوائزهم على مراتبهم.[5]

أما أبرز الشعراء الذين كانوا طوال هذه الفترة (الإمارة، الخلافة، الحجابة)، فهم كالآتي: عباس بن ناصح الجزيري الثقفي (ت230 هـ).[6] عباس بن فرناس التاكرني (

([1]) تاريخ الفكر الأندلسي، ص 28.

([2]) محمد يعلي: ملامح من الحياة الفكرية الحضرية بالأندلس، مدينة إشبيلية في عهدنا المغربي، ص387.

([3]) إبراهيم بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس، ص 213.

([4])سلمى الخضراء الجيوسي: الشعر الأندلسي، العصر الذهبي: ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ص 488.

([5]) بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 27.

([6]) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص238، 239، رمق(881)./ابن سعيد: المغرب، ج1، ص324، 325./ السيوطي: بغية الوعاة، الوعاة، ص510.رقم(1348)./ عبد الحكيم الوائلي/ موسوعة شعراء الأندلس، ص203، 204/ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص41./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص341.

(ت274 هـ).[1] يحي بن حكم الغزال الجياني(156 هـ-250 هـ).[2] القلفاط محمد بن يحيى(ت302 هـ).[3] مؤمن بن سعيد(ت 267 هـ).[4] عبيديس الكاتب.[5] وسعيد بن سليمان بن جودي(284 هـ).[6] وغيرهم من الشعراء الذين عاشوا في فترة الإمارة.

أما الشعراء الذين عاشوا في فترة الإمارة والخلافة، أو في فترة الخلافة فقط، والعهد العامري، فكثيرون، منهم: ابن عبد ربه الأندلسي(ت 328 هـ) صاحب العقد الفريد.[7]

([1]) الحميدي: الجذوة، ص 286. رقم (731)./ الضبي: البغية، ص378. رقم(1247)/ السيوطي: بغية الوعاة، ص510 رقم(1346)./ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص333./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص41./ المقري: نفح الطيب:ج1، ص162/ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس ص 201، 202./ وكذلك في نفح الطيب، ج3، ص 374، 375.

([2])الحميدي: الجذوة، ص 338، 339. رقم (888)./ الضبي: البغية، ص 436، 437 . رقم(1468)/ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 57، 58./ ابن دحلية: المطرب، من ص 120 إلى ص 133./ المقري: نفح الطيب، ج، ص 254. وما بعدها./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 51./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 255 وما بعدها./ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 93./ وله ديوان شعر حققه وشرحه وقدّم له الدكتور رضوان الداية/ وقد قام الأستاذ، على غريب محمد الشنّاوي يجمع ديونها وشعره من جديد واستدرك على ما فات سابقيه، طبقا لآخر ما نشر من مخطوطات المقتبس، ونشره بعنوان (شعر يحي بن حكم الغزال) مكتبة الآداب، القاهرة، 2004.

([3]) ابن حيان: المقتبس: (تحقيق مكي)، ص 50، 103./ الحميدي: الجذوة، ص 87، رقم(165)/ الضبي: البغية ص 125. رقم(314) / ابن سعيد: المغرب، ج1، ص111./ السيوطي: بغية الوعاة، ص 227، رقم (492)./ يوسف فرحات ويوسف عيد/ معجم الحضارة الأندلسية، ص 47، 48./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 276.

([4]) الحميدي: الجذوة، ص319. رقم(826)./ الضبي: البغية، ص 441.رقم(1377)./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 50./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 323، 324./ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص 132، 133.

([5]) ابن حيان: المقتبس(تحقيق مكي).ص47، 98./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص69، 70./ عبد الحكيم الوائلي، موسوعة شعراء الأندلس. ص 225، 226./

([6])ابن حيان: المقتبس(تحقيق مكي). ص 75./ الحميدي: الجذوة، ص 201(466)/ الضبي: البغية، ص 266. رقم(795)./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 105، 106./ ابن الأبار: الحلة السيراء(علي محمود إبراهيم)، ص 90 وما بعدها./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 38./

([7]) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص41، رقم(118)/ الحميدي: الجذوة، ص89 وما بعدها، رقم(172)/ الضبي: البغية، ص 127 وما بعدها، رقم(327)/.ابن دحية: المطرب، ص133 وما بعدها./ياقوت الحموي: معجم الأدباء(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1999، ج2، ص142 وما بعدها./ وفي مواضع متفرقة عند المقري في نفح الطيب، ج7، ص79 وما بعدها./ ج3، الصفحات: 294، 295، 435، 438، 444، 447، 568 ج4، ص321./ السيوطي: بغية الوعاة، ص308، رقم(727/ ابن الساعي: الدر الثمين في أسماء المصنفين، تحقيق: أحمد شوقي بنين: محمد سعيد حنشي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009، ص283 وما بعدها./ يوسف فرحات، يوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية، ص19 وما بعدها.عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص204.وما بعدها./ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج2، ص312. وفي غيرها من المصادر.

وابن قلـزم أحمد بن إبراهيم.[1] ومقـدم بن معافى القبري.[2] وقـاسم بن عبـد الـواحد العجلـي.[3] وسعيـد بن عبد ربه الأديـب المتطبب.[4] وإسحـاق المنـادي.[5] وزيد بن ربيـع الحجـري.[6] وعفيـر بـن مسعـود.[7] ويـوسـف بنـارون الرمـادي (ت403هـ)[8] والشريـف الطليـق[9] وابن دراج القسطلـي (347هـ/ 421 هـ).[10]

.

([1]) ابن حيان: المقتبس(تحقيق مكي)، ص 101.

([2])المصدر نفسه، ص100./ الحميدي: الجذوة، ص321، 322، رقم(833)./ الضبي: البغية، ص415. رقم(1387)./ المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: علي عمر، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011 .م2/1/ ص 208./ عبد الحكيم الوائلي، موسوعة شعراء الأندلس، ص 315.وفي غيرها من المصادر، وكذلك المقري، نفح الطيب، ج3، ص 538.

([3])ابن حيّان: المقتبس(تحقيق مكي)، 101.

([4]) المصدر نفسه: ص102/ الحميدي: الجذوة، ص 362.رقم(949)/. الضبي: البغية، ص 459، 460. رقم(1542)./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 38./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 159، 160./ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 120، 121./ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم(تحقيق مؤنس)، ص 100./ ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ص 489 وما بعدها ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج4، ص 109، 110، رقم (310).

([5]) ابن حيان: المقتبس(تحقيق مكي)، ص 102./ المقري: نفح الطيب، ج4، ص 12.

([6])المصدر نفسه: ص103./ السيوطي: بغية الوعاة، ص462.رقم(1197).

([7])ابن حيان:المقتبس (مكي)، ص84، 104./ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص271.(1008)/ السيوطي:بغية الوعاة.ص 597.رقم(1643)

([8])الحميدي: الجذوة. ص 334. رقم (878)./ الضبي: البغية، ص 430. وما بعدها. رقم(1452)./ ابن سعيد: المغرب. ج1، ص 392 وما وما بعدها. ابن دحية: المطرب، ص19، 20./ المقري: النفح. ج4، ص 35 وما بعدها./ الحميدي: الجذوة، ص 334 وما بعدها./ ياقوت الحموي/ معجم الأدباء، ج7، ص280، 281./ ابن بشكوال: الصلة(طبعة دار الكتب العلمية)، ج2 ، ص273، 274. رقم(1505)./ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص 170 وما بعدها./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص21 وما بعدها، وكذلك في النفح، ج3، ص 364 وما بعدها، وج3، ص441، وج4، ص 74.

([9])الحميدي: الجذوة. ص 308. رقم(799)./الضبي: البغية، ص 403. وما بعدها.رقم(1343)./ابن سعيد: المغرب. ج1، ص 191، 192./ابن دحية: المطرب، ص72 وما بعدها./ المراكشي: المعجب، ص150، 151./ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص103./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ص463 وما بعدها./ بن الأبار:الحلة السيراء(تحقيق مؤنس) ج1 ،ص220 وما بعدها./المقري: نفح الطيب، ج3 ص388، 389، ص586، 587، 588./يوسف فرحات، يوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية ص26، 27، 48.

([10])الحميدي: الجذوة، ص97 وما بعدها رقم(186)./ الضبي: البغية، ص 136 وما بعدها رقم (342)/ ابن دحية: المطرب، ص 137، 138./ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 501، 502./ ابن بسّام: الذخيرة ق1/1/ ص 59 وما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص441./ج4، ص 87./ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص 217 وما بعدها./ عبد الحكيم الوائلي، موسوعة شعراء الأندلس، ص 124 وما بعدها./وقد طبع ديوان ابن دراج القسطلي بتحقيق الدكتور محمود مكي./ يوسف فرحات، يوسف عيد:معجم الحضارة الأندلسية، ص17، 18./ وقد أشرنا سابقا إلى الدراسة القيمة التي قدمتها الباحثة: وسام قباني بعنوان" عامريات ابن دراج القسطلي" طبعة وزارة الثقافة السورية 2011.

أ- الأدب واللغة:

- **الأدب:**

كان من بين الوافدين الفاتحين من المشارقة بعض الشعراء الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم وبعضا من شعرهم، كأبي الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي*، وأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي** وأبي المخشي عاصم بن زيد*** بعدهما وابنته حسانة التميمية****

ومن الطبيعي أن تتصف الحياة الأدبية بالتواضع لأنها بالكاد تخطو خطواتها الوئيدة، فالاستقرار منعدم، والفتح لم يستتم بعد، والدولة في طور النشأة والتكوين، هذا في فترة الولاة.

ولم يكن عبد الرحمن الداخل يؤسس للإمارة الأموية في الأندلس حتى ظهر الجيل الأول من شعراء وأدباء الأندلس" فقد سرى الشعر في شرايين الناس واخترق مساحة الشعر الواسعة، على نحو بات فيه المعبر الصادق عن أحداثه وتطوراته بصورة دقيقة وشاملة، وكان من الطبيعي... أن يحظى بذلك الاهتمام، وأن يقبل عليه الناس نظما وسماعا وتذوقا، دون أن يتخلف عن ذلك حكامهم لا سيما الأمويون منهم، الذين أسهموا في خلق تلك الأجواء، واحتضنوا تلك النهضة."[1]

- **اللغة:**

يعد علم اللغة ومتعلقاته كالنحو والصرف من العلوم الأولى التي اهتم بها الأندلسيون، فهي عماد القرآن الكريم وأداة مهمة لنشر الدين الجديد الذي جاء من أجله الفاتحون إلى شبه الجزيرة

---

* ترجمته عند الحميدي: الجذوة، ص 166، رقم(361)/ الضبي: البغية، ص 223، رقم 626)/ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 131، 132./ يوسف فرحات، ويوسف عيد معجم الحضارة الأندلسية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان ط1، 2000. ص 11./ عبد الحكيم الوائلي/ موسوعة شعراء الأندلس، دار أسامة، عمان، الأردن، 2000، ص 9، 10

** ترجمته عند الحميدي: الجذوة، ص 177، 178. رقم (402)./ الضبي: البغية، ص 237، 238، رقم (686)./ ابن الأبار: الحلة (علي إبراهيم محمود)، ص 43 وما بعدها./ يوسف عيد ويوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية، ص 11./ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص 33، 34، وقد ذكره باسم (أبو الحظار).

***ترجمته عند الحميدي: الجذوة، ص 363، رمق(953)./ الضبي: البغية، ص 461، رقم(1546)./ يوسف عيد./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 123، 124.

**** المقري: نفح الطيب، ج4، ص 167، 168./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 35./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 86، 87.

([1]) إبراهيم بيضون: الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس، ص215.

الأيبيرية، فاللغة العربية هي لغة التخاطب وعماد الدين ومرتكز الحضارة وعليه" فليس إلى الشك سبيل في أن أهل البلاد قد اهتموا بتعلم اللغة العربية، لغة الدولة والدين في الإسلام."[1]

وكان من أوائل الكتب اللغوية التي هاجرت بصحبتهم كتب الأصمعي والكسائي والفراء والرياشي وأبي حاتم وابن الأعرابي وكتابا" الفرش." الأمثال" في العروض للخليل بن أحمد وكتاب يعقوب بن السكّيت في إصلاح المنطق، ومؤلفات ابن قتيبة وأبي عبيد القاسم بن سلاّم".[2]

وكان محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس (225 هـ) قد رحل إلى المشرق ولقي أعلام اللغة والأخبار هناك، كأبي حاتم السحبستاني قد أدخل إلى الأندلس علما كثيرا من الشعر والغريب والخبر، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلّها.[3] وقاسم بن ثابت السرقسطي(ت 302 هـ) قد أدخل وأباه كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.[4]

وكانت هجرة أبي على القالي إلى الأندلس بمثابة القفزة النوعية في الدراسات اللغوية الأندلسية من خلال ما جلبه معه من كتب ودواوين شعرية، ومن خلال علمه الذي حواه صدره، إضافة إلى مدرسته التي انشأها في الأندلس من خلال تلامذته المباشرين، أوالجيل الثاني بعد تلامذته مباشرة، وكان من نتاجه العلمي في هذا التخصص" الأمالي" وكتاب "البارع" في اللغة، كتاب " الأمثال" كتاب " أفعل من كذا" كتاب تبويب لحن العامة لأبي حاتم السحبستاني، كتاب حلى الإنسان والخيل وشياتها ، كتاب الإبل ونتاجها.[5]

وكان تلميذ القالي أبو عثمان القزاز البربري(315 هـ/ 400 هـ - 927 م/ 1010 م) نحويا أديبا لغويا، من مؤلفاته، كتاب "الرد على صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي في مناكير كتابه في النوادر والغريب المسمى بالفصوص.[6]

([1]) بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 16.

([2]) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص 49.

([3])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 310، رقم(1152).

([4])المصدر نفسه: ص 283، 284، رقم(1062).

([5]) فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، ترجمة: محمود فهمي حجازي، ومراجعة: عرفة مصطفى سعيد عبد الرحيم، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم، إيران، مطبعة بهمن، قم ط2، 1403 هت/ 1983م.م2/8/ص 486 وما بعدها.

([6])المصدر نفسه: ص 292.

وكان تلميذ آخر للقالي واسمه ابن السيد الأندلسي*، أبو عبد الله محمد(382 هـ/ 992 م) نحويا نسابة لغويا، قد ألف كتاب(السماء والعالم في اللغة)، تذكره المصادر باسم" كتاب العالم"، وهو كتاب مرتب على الموضوعات، قيل إنه كان نحو مائة مجلد أو أربعين مجلّد بدأ فيه بالفلك، وختم بالذرة.[1]

ومن أبرز تلاميذ القالي، والذي أربى على من سبقه، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي(379 هـ) فقد قيد اللغة والأشعار عن أبي علي البغدادي، وكان واحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة[2] كما أخذ عن أبي عبد الله الرباحي[3] وكان كما وصفه الفتح بن خاقان:" إمام اللغة والإعراب، وكعبة الآداب، أوضح منها كل إبهام، وفضح دون الجهل بها محل الإفهام[4] ألّف في النحو كتابا سماه" الواضح" واختصر** كتاب " العين" اختصارا حسنا، وجمع في " الأبنية" وفي" لحن العامة" وفي" أخبار النحو بين" كتبا مشهورة".[5] وله كتاب" الرد على ابن مسره وأهل مقالته سماه" ستور الملحدين"[6]

---

* هو أبو عبد الله، أوأبو القاسم أحمد أو محمد بن أبان اللخمي القرطبي، أحد تلاميذ أبي علي القالي، كان نحويا، نسابة، لغويا، وولى أحكام الشرطة بقرطبة أيام الحكم الثاني المستنصر(350هـ/ 366 هـ - 961م/ 976م) ونقل في مؤلفه الرئيسي في اللغة عن أبي علي الفارسي(ت 377هـ/ 987م) وابن جني(ت 392 هـ/ 1001 م)، توفي سنة(382 هـ/ 992م)./ المصدر نفسه(سيزكين) الصفحة نفسها./ ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص 347، رقم (1287)./ الحميدي: الجذوة .ص 105، رقم (196)./ الضبي: البغية، ص 196. رقم(380).

([1]) فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م8/2/490، 491.

([2]) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 366. رقم(1357) وانظر ترجمته في المصادر الآتية: الحميدي: الجذوة، ص 42، وما بعدها، رقم(34)./ الضبي: البغية، ص 57.رقم(80)/ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 255، 256/ بغية الوعاة، ص 94، 95.رقم(136)/ ص 94، 95./ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ص 6، ص 618 وما بعدها./ فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م8/2/488 وما بعدها./ يوسف فرحات. يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 329، 330./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 143./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج9، ص 198، 199.

([3])السيوطي: بغية الوعاة، ص 94.

([4])مطمح النفس، ص 135.

** قال المقري: و" كان كتاب العين للخليل مختل القواعد، فامتعض له هذا الإمام، وصقل صدأه كما يصقل الحسام، وأبرزه في أجمل منزع، حتى قيل: هذا مما أبدع واخترع، وله كتاب في النحو يسمى(الواضح)... وبالجملة فهو في المغرب بمنزلة ابن دريد في المشرق" نفح الطيب: ج3،ص 476. وله أشعار عنده في ص 475.

([5])الحميدي: الجذوة، ص 42.

([6]) السيوطي: بغية الوعاة، ص 95.

وأهم ما أضافه الزبيدي في النحو، هو التأكيد في كتابه (الواضح) على أن النحو واللغة وحدة لا تتجزأ، وهذا ماجعله في كتابه يتحاشى الشواهد القديمة المألوفة، والتي أوردها العلماء الأوائل لاستنباط القواعد، بينما اتجه هوالى تيسير النحو بإعطاء الأمثلة من كلام التخاطب العادي.[1]

وكان منهج الزبيدي هو تقريب المعارف النحوية من الجمهور حيث فرّق بين نحوالعامة ومباحث المتخصصين.[2]

ونستطيع أن نؤكد شهرة هذا الكتاب وقبوله في أوساط المتعلمين والمتخصصين فيما بعد، وخاصة في عصر الطوائف، إذ جعله ابن حزم ضمن مقترحاته للبرنامج التحصيلي في علم النحو.[3]

كانت الثمرة المرجوة في هذا التخصص (علم اللغة والنحو) في أندلس عصر الطوائف في العصور التي تلته قد " أخذت أصولها من الإفليلي* والزبيدي، وامتدت فروعها عند ابن الطراوة تلميذ الأعلم، والسهيلي تلميذ ابن الطراوة".[4]

ومن أشهر اللغويين في هذه الفترة صاعد بن الحسن الربعي اللغوي أبوالعلاء(ت 917 هـ) والذي ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم في حدود الثمانين وثلاث مئة، أصله من الموصل، وكان عارفا باللغة والآداب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، وقد وفد على المنصور، وكان عنده أثيرا مكينا، وقد ألّف له كتابه" الفصوص" على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي، كما ألّف عدة كتب، أثرى بها الحياة الثقافية الأندلسية، وخاصة في شقّها اللغوي[5]

---

[1] محمد المختار ولد أباه: تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب، دار الكتب العلمية ، بيروت، ، ط2، 1429ه/2008م،ص28

([2]) المصدر نفسه:ص221

([3])ابن حزم: رسالة مراتب العلوم./ ضمن مجموع الرسائل.م28/2/2

*أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكرياء القرشي الزهري المعروف بالإفليلي (352ه/441ه) قال عنه ابن حيان:" قد بذ أهل زمانه بقرطبة في علم االلسان العربي، و الضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية و الإسلامية و المشاركة في بعض معانيها." ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/281 و ما بعها./ و انظر ترجمته عند: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج4، ص332 و ما بعدها./الحميدي: الجذوة، ص133. رقم (262)./ الضبي: البغية، ص181. رقم (485)./ ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ص84، 85. رقم(208)

([4]) محمد المختار ولد أباه: تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب، ص25.

([5]) الحميدي: الجذوة، ص211./ الضبي: البغية، ص277. رقم(852)./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ج1 ص421، و قد أشرنا سابقا إلى بعض مؤلفته، ومصادر ترجمته.

يشار إلى أن الحركة اللغوية والنحوية في الأندلس كانت نشطة في هذه الفترة (أي عصر الإمارة والخلافة، والحجابة، وما ظهور هؤلاء الأعلام الكبار، وغيرهم كثير ممن تزخر بذكرهم كتب التاريخ والتراجم إلا دليل على ظهور أو تشكل مدرسة أندلسية لغوية و نحوية متميزة، سيكون لها حضورها الفاعل والقوى على الساحة اللغوية العربية بشكل عام و ستكون لها بصماتها المتميزة من خلال الأعلام و أعمالها في العصور الموالية، بدءا من عصر الطوائف.

والجدير بالذكر في هذا المقام، أن الحركة اللغوية في الأندلس في هذه الفترة، لم يشارك فيها المتخصصون فقط، بل أسهم فيها علماء في مجالات أخرى مثل، عبد الملك بن حبيب بكتابه "إعراب القرآن" و كتاب " غريب الحديث"[1] و ابن القوطية المؤرخ بكاتبه "الأفعال"[2] و غيرهم كثير.

ب- العلوم الدينية (علوم القرآن - القراءات - التفسير - الحديث):

نالت العلوم الدينية بفروعها المختلفة نصيبا كبيرا من اهتمامات الأندلسيين في هذه الفترة، فأبدعوا فيها أيما إبداع ،و خلدوا من خلالها أسماءهم في سجل التأليف والإبداع ،و كونوا مدرسة متميزة المعالم ،وطيدة الأركان ، كانت مفخرة الغرب الإسلامي .

" من الطبيعي بعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس أن ينصرف الناس إلى البناء الحضاري و تحصيل العلوم والآداب، وكانت العلوم الدينية آنذاك هي قطب الرحى في النشاط العلمي،و مدار البحث والدرس، لارتباطها الشديد بالعقيدة التي يعتنقها الفاتحون والتي من أجلها تحملوا مشاق الفتح و نصب الجهاد في سبيل الله. "[3]

كانت العلوم الدينية موزعة على اختصاصات مختلفة ، كعلوم القرآن، والتفسير، والقراءات، إضافة إلى الحديث النبوي الشريف، حيث أظهر الأندلسيون في هذه الحقبة، براعة فائقة النظير تأليفا و شرحا ، وتعليقا على كل فروع العلوم الدينية. و بلغت تآليفهم من الكثرة بحيث يعز حصرها جميعا، و لا حتى شطرا منها، وحتى بالنسبة لدراسات متخصصة.

([1])فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي. م8/2/484.

([2]) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس. ص145.

([3]) سعد البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة ، ص35.

أما الأعلام المؤلفون من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمقرئين، الذين اضطلعوا بهذه المهمة فقد عجت بهم كتب التراجم، و فصلت في أسمائهم والقابهم و كناهم، و حددت تواريخ ميلادهم و وفياتهم، وذكرت مؤلفاتهم بإسهاب شديد.

وكثير من أعلام هذه الفترة – إن لم نقل كلهم – جمعوا بين أكثر من تخصص كالحديث والفقه مثلا، أو التفسير و علوم القرآن القراءات.

وكان بقي بن مخلد (201هـ/276هـ -889/816) من أعلام الفقهاء والمحدثين في عصر الإمارة، رحل إلى المشرق و جلب معه كتبا مختلفة منها: كتاب الفقه للشافعي، ومصنف بن أبي شبية * و تاريخ خليفة بن خياط، و كتابه في الطبقات، و سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي. وكان في رحلته " قد لقي مائتين و أربعة و ثمانين شيخا، وكانت له خاصة من الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – "[1] وكان من الحفاظ المحدثين، و أئمة الدين ... و كتب المصنفات الكبار والمنثور الكثير و بالغ في الجمع والرواية.[2] و له مسند روى فيه عن ألف و ثلاثمائة صاحب و نيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند و مصنف، و ما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ...

---

*إبن أبي شبيه ، عبد الله بن محمد القاضي أبي شبيه إبراهيم بن عثمان (ت235ه) الإمام العلم سيد الحفاظ و صاحب الكتب الكبار ، (السند) و (المنصف) و (التفسير) و هو من أقران أحمد بن حنبل ، و إسحاق بن راهويه و علي بن المديني في السن و المولد و الحفظ ، و يحي بن معين أسن منهم بسنوات ، و طلب العلم و هو صبي ، و أكبر شيخ له هو شريك بن عبد الله القاضي ، قال عنه الذهبي :" روى عنه بقي بن مخلد و محمد بن وضاح محدثا الأندلس. "

– سير أعلام النبلاء. (طبعة مؤسسة الرسالة) الجزء 11 ، حقق هذا الجزاء : صالح السمر خرج أحاديثه : شيعب الأرناؤوط، ص122./ ابن العماد :شذرات الذهب ،ج2، ص85

([1])المقري : نفح الطيب ،ج2،ص47. و كذلك المصدر نفسه ، ص519،518. وحول ترجمته و سيرته بشكل عام ينظر المصادر الآتية: الحميدي: الجذوة ، ص165.رقم (331)./ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص82و ما بعدها .رقم(283) ./ الضبي : البغية ، ص209 و ما بعدها، رقم (584)./ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية)، م، ج1، ص 108 و ما بعدها . رقم (284)./ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، قدم له الدكتور سيد حسن العفاني ، حققه و خرج أحادثه : خيري سعيد . المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، مصر ط 2008 ،ج 10 ،ص 615 وما بعدها رقم (2355) / الذهبي : مختصر العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها . اختصره و حققه و علق عليه و خرج آثاره : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي بيروت ، لبنان ، ط3 ،2010م/1431ه،ص168/ ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ص 46 و ما بعدها /رقم (2067) .

([2]) الحميدي : الجذوة،ص56

وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين .[1] وله تفسير شهير قال ابن حزم الأندلسي: " أقطع قطعا أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جرير و لا غيره .[2]

وكان الفقيه المحدث العالم عبد الملك بن حبيب (239هـ/853م) صاحب كتاب "الواضحة في الحديث" و "المسائل على أبواب الفقه" أبرز علماء تلك الفترة و من أصحاب المعارف الموسوعية و قد كتب "تفسير القرآن" و له "كتاب القارئ" و "الناسخ والمنسوخ" و "كتاب رغائب الحديث" و استدرك على قائمة كتبه في الفقه كتاب "الفرائض" كتاب "الربا" و كتاب "الحكم والعمل بالجوارح" و كتاب "تفسير الموطأ"[3]

وكان أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم القرطبي (259هـ) عالما محدثا من تصانيفه " ثمانية أبي زيد" و هي ثمانية كتب من سؤاله المدنيين.[4] و من الفقهاء المبرزين في هذه الفترة عبد الرحمن بن مروان القنازعي المحدث القرطبي المالكي (341هـ/ 413هـ - 1022م) له" تفسير الموطأ لمالك " و "كتاب الشروط" و "مختصر تفسير القرآن" لابن سلام.[5] و بلغ من كثرة فقهائهم أن ألف أحمد بن

([1]) المقري : النفح، ج2، ص519 قال ابن خير الإشبيلي أن مسنده بلغ نحو مائتي جزء ./ الفهرسة ص140

([2]) المقري : النفح، ج2، ص519 . وقال الذهبي : " بقي بن مخلد ، صاحب " التفسير " و " المسند" اللذين لا نظير لهما . " ج10، ص615. (سير أعلام النبلاء). و قال كذلك :" الحافظ شيخ الأندلس بقي بن مخلد القرطبي مصنف " المسند" و "التفسير"./ مختصر العلو للعلي العظيم،ص168.

و ذكر فؤاد سيزكين من مؤلفاته : "ذكر ما للصحابة من الحديث من العدد = (كتاب الأعداد)،"المنتقى من حديث بقي بن مخلد "."المسند" و منه اقتباسات في الإصابة لابن حجر." تاريخ التراث العربي، م1/1/296، 297

([3]) فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م8/2/ص484/ و ينظر كذلك : ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص221. و ما بعدها . رقم (816)./الحميدي: الجذوة، ص250، 251, رقم (628)./مطمح الأنفس، ص329، 330. رقم (1063)./ ابن سعيد: الغرب، ج2، ص96./ الفتح بن خاقان: الذهبي: سير أعلام النبلاء (طبعة المكتبة التوفيقية)ج10، ص89 و ما بعدها . رقم (1997)/ ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: الدكتور علي عمر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر،ط1، 1423/2003، ج2، ص8 و ما بعدها. رقم(325)./قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية. دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث . الإمارات العربية المتحدة، ط1 ،2002م /1423ه، ج2، ص783 و ما بعدها . رقم (726)/محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه و علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003. ج1، ص11، 112 رقم(147). يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص28، 29

([4]) عبد القادر البغدادي: إيضاح المكنون على ذيل كشف الظنون، ج1، ص45

([5])عبد القادر البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص516. و حول شرح الموطأ ينظر: فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/3/ ص134، 177. و حول ترجمته ينظر: الحميدي: الجذوة، ص246، 247 رقم(616)/الضبي: البغية، ص323. رقم(1042)./ابن سعيد: المغرب، ج1، ص166، 167.و غيرها من المصادر.

محمد بن عبد البر القرطبي (338هـ) كتابا في "أخبار فقهاء قرطبة "[1] و صنع الصنيع نفسه أبو عمر القرطبي(ت420هـ) أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مريول، حينما ألف كتابا مختصرا في "أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة "[2]

و من يطالع كتب الطبقات المختصة في الفقه المالكي، مثل: ترتيب المدارك للقاضي عياض، والديباج المذهب لابن فرحون، و شجرة النور الزكية لمخلوف، ليدرك كثرة الدراسات الفقهية، و خاصة ما تعلق منها بالمذهب المالكي، و كثرة الفقهاء، و كذلك الأعلام منهم، وما يجعل حصرهم هنا مستحيلا.

ونختم حديثنا في الفقه في هذه الفترة برجل بلغت تصانيفه حدا غير معقول، و هو أبوالمطرف القرطبي المحدث، قاضي الجماعة عبد الرحمن بن عيسى بن فطيس (348هـ/402هـ) . صاحب التصانيف الكثيرة منها: أسباب النزول، القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن في مائة جزء، أعلام النبوة و دلالات الرسالة في عشرة أجزاء، فضائل التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين في مائة و خمسين جزءا، كتاب الإخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين و من بعدهم من المخالفين في أربعين جزءا، الكلام على الإجازة والمناولة (عدة أجزاء)، مسند حديث محمد بن فطيس (خمسون جزءا)، مسند قاسم بن أصبغ العوالي في ستين جزءا و غير لك.[3]

و في مجال التفسير ، فقد ظهرت عيون التفاسير في هذه الفترة، فبالإضافة إلى تفسير بقي بن مخلد الذي ذكرنا، فقد ألف أبو موسى عبد الرحمن بن موسى الهواري القاضي بإستجة أيام عبد الرحمن بن الحكم في حدود سنة (228هـ) "تفسير القرآن "[4] وكان ابن أبي زمنين

([1]) عبد القادر البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص512./محمود سعيد ممدوح/ الاحتفال، ج2، 257، 258 رقم (73)./ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص148رقم(42)

([2])محمود سعيد : الاحتفال، ج2، ص20، 21. رقم (425). و انظر ترجمته عند ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص152. رقم(51)./ قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج1، ص234. رقم (976)./ ابن بشكوال: الصلة (الكتبة العصرية)، ص47 و ما بعدها. رقم (75). و في غيرها من المصادر.

([3]) عبد القادر البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص515./ و انظر ترجمته عند الضبي: البغية، ص309. رقم (976)./ ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية) ص255 و ما بعدها. رقم(685)./ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص421، 422. رقم (314)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص163/حاجي خليفة: كشف الظنون، ص1276./مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص152. رقم (295)./ قاسم سعيد: تراجم الفقهاء المالكية، ج2، ص656، 657. رقم(584)./ياسين بن خير الله العمري: منهج الثقات في تراجم القضاة. تحقيق: بدري محمد فهد، مراجعة ابتسام مرهون الصفار، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010، ص191.رقم(178).

([4]) عبد القادر البغدادي: هدية العارفين ، ج1، ص512 /المؤلف نفسه: إيضاح المكنون على ذيل كشف الظنون، ج1، ص310.

(324هـ/399هـ - 963م/1008م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى المري الإلبيري، مفسرا للقرآن الكريم، و له " مختصر تفسير يحي بن سلام"[1] وكان مر بنا "تفسير القرآن" لعبد الملك بن حبيب، و صنع معاصره عبد الله بن مطرف بن آمنة (340هـ) تفسيرا نسب إليه، فعرف باسم " تفسير ابن آمنة"[2] و غيرها من التفاسير ، و لعلمي القرآن والقراءات نصيب كبير من اجتهاد الأندلسيين في هذه الحقبة .فقد طالعنا سابقا عبد الملك بن حبيب بكتابي " القارئ" و "الناسخ والمنسوخ"، والف المقرئ الأندلسي، أبوالعباس أحمد بن علي (410هـ) كتاب "أحكام القرآن"[3] وكان أبوالعباس اللخمي (ت410هـ) أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج، رحل إلى المشرق، و أخد القراءات عن المشايخ هناك، ثم قعد بطليطله يقرئ الناس، والف كتابا في معاني القراءات"[4] وكان قبله إبراهيم بن محمد بن بازي المعروف بابن القزاز (ت 294هـ)، قرأ على عبد الصمد بن عبد الرحمن صاحب ورش، و سمع منه كتابه الذي جمعه في قراءة نافع و حمزة.[5]

وأورد حاجي خليفة في فرع (علم الشواذ من فروع القراءة). كتاب (شواهد الحكم) لمحمد بن موسى المعروف بالأفشتين القرطبي(307هـ).[6] و أحمد بن محمد بن أبي الحسن الجدلي أبوالقاسم

([1])فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/1/ص107، 108. و حول ترجمته بنظر: الحميدي: الجذوة،ص51. رقم(57)/الضبي: البغية، ص75، 76. رقم (160)/ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية)، ص383، 384. رقم(1049)./مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص150، 151. رقم(288)./ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص214و ما بعدها. رقم(492)./عبد القادر البغدادي: هدية العارفين ، ج2، ص58/ المؤلف نفسه: إيضاح المكنون، ج1، ص424./ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص156./عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج10، ص229، 230./ قاسم سعيد: تراجم الفقهاء المالكية ج3،ص1119.رقم (1113). يوسف فرحات . يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص16، 17

([2])عبد القادر البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص302./ ترجمة عند ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص189، رقم(695)

([3])البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص36.

([4]) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق، علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ، مصر، ط1، 1431/2010م.ج1 ،ص126.رقم(430)./الحميدي: الجذوة، ص125(242)/ الضبي: البغية، ص172. رقم(460) ./ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية) ص41و ما بعدها . رقم (60).

([5]) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص29. رقم (96). ترجمته عند الحميدي في الجذوة، ص131. رقم (258) و فيها وفاته سنة(173ه)، / الضبي: البغية، ص179، 180. رقم (481)./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص18. رقم (10).

([6]) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج2، ص1066./ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص316رقم (1173). و الاسم عنده(الأفشتين) و تاريخه وفاته (307ه)./ الحميدي: الجذوة، ص78. رقم (139) و الاسم عنده الأفشتين/ الضبي: البغية، ص109. رقم (268).

الأندلسي البجاني (ت404هـ).[1] و أبو بكر القرشي أحمد بن حيون (ت410هـ).[2] و عديد القراء المثبتين في كتب التراجم.[3] و برز في علم الحديث في هذه الفترة غير واحد. وكانت جهود محدثي الأندلس في هذه الفترة من أو كد الجهود. و يعتبر بقي بن مخلد(276هـ) و محمد بن وضاح* مؤسسا علم الحديث المحلي (بالأندلس)، فعندما قصدا سماع مشاهير علماء التراث في العراق لوقت طويل، استوعبوا طريقتهم في دراسة الرواية. وقد ساعدهم تحقيق سلسلة الإسنادات في تمييز الأحاديث " الصحيحة" من " الملفقة" التي لاقت رواجا في الأندلس. وقد استعانوا في تحقيق هذه الأهداف بالمصادر المرجعية التي تتضمن أخبار رواة الأحاديث، كسجل أخبار الرواة الذي جلبه محمد بن وضاح من رحلته إلى الشرق."[4] وكان بعدهما أبو عبد الله محمد عبد الملك بن أيمن بن فرج(330هـ) قد رحل إلى العراق و سمع من عبد الله بن أحمد بن حنبل، و حدث بالمشرق والأندلس و صنف السنن، وقد قيل في مصنفه: مصنف ابن أيمن رفيع احتوى من صحيح الحديث و غريبه على

([1]) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص145، رقم(499)./ ابن بشكوال الصلة (المكتبة العصرية): ص رقم39 (48).

([2]) المصدران السابقان على التوالي، ج1، ص147. رقم (505)./ ص39. رقم (50)

([3]) انظر مثلا: ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص120. رقم (411)/ص148 رقم (508)./ص192 , رقم(664)./ص225. رقم(774)/ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص156. رقم (553)./ص253. رقم (934)./ الصفحة نفسها. رقم (935)./ص384. رقم (1402) . ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية)، ص184. رقم(477)./ ص332. رقم (890)./ص399) رقم(1085)./ص397. رقم(1098).

*محمد وضاح بن بزيغ، أبو عبد الله (199ه/814 - 815 - 286ه) الإمام الحافظ، المحدث مع بقي بن مخلد، ارتحل إلى العراق و الشام و مصر و جمع فأوعى. و عدة الرجال الذين سمع منهم في الأمصار خمسة و سبعون و مائة رجل، و كان محمد بن وضاح عالما بالحديث، بصيرا بطرقه، متكلما على علله، قال عنه ابن الفرضي، بمحمد بن وضاح وبقي بن مخلد صارت الأندلس دار حديث" تاريخ علماء الأندلس،ص305، 306. رقم(1136./ الحميدي: الجذوة، ص 83، 84. رقم (152)./ الضبي: البغية، ص115، 116. رقم(291)./ الذهبي: سير أعلام النبلاء، (المكتبة التوفيقية)، ج1، ص17، 18. رقم(2437)/ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج2؟، ص194 و فيها وفاته(287ه) ذكره الفقيه أبو محمد بن حزم في حديث يتصل سنده بالنبي - صلى الله عليه وسلم -./ جمهرة أنساب العرب، ص5./ و ذكره ابن حزم كذلك في حديث يتصل سنده إلى عطاء بن يسار./ انظر: طوق الحمامة في الألفة و الألاف/ ضمن مجموع الرسائل/م1/1/ص269./ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص150، 255، 274./ابن فرحون : الديباج المذهب،ج2، ص163 و ما بعدها. رقم(449)./ مخلوف: شجرة النور الزكية: ج1، ص113، 114. رقم(154)/ و ذكره ابن سعيد عرضا في ترجمته ليحي بن يحي الليثي، وضمن تلاميذه، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص164./عمر رضا كحالة: ج12، ص94./فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي،م1/3/160/ قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص1221، و ما بعدها رقم(1232)./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2؟، ص450، 451: رقم(449).

([4])ك - بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص27

ما ليس في كثير من المصنفات.[1] و من أشهر المحدثين في هذه الحقبة ابن الأحمر (ت358هـ) أبو بكر محمد بن معاوية، محدث الأندلس و مسندها الثقة، و بعد أن قام برحلة إلى المشرق رجع إلى الأندلس و جلب إليها " السنن الكبير" للإمام النسائي، و حمل الناس عنه.[2]

وقد فصلت كتب التاريخ والحوليات والتراجم في أسماء محدثي فترة الإمارة والخلافة والعهد العامري** وكانوا من الكثرة. حتى صنفت التصانيف في طبقات علماء الحديث بالأندلس و أسماء الرجال و كناهم، ودرجاتهم في الحفظ، مثلما صنع أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي القرطبي(ت350هـ) حينما ألف كتابه" تاريخ المحدثين"[3] و يكفي أن نشير في هذا المقام إلى كتاب "طبقات المحدثين" لأبي القاسم مسلمة بن القاسم الأندلسي (353هـ)، وله ذيل عليه أيضا.[4] والقائمة تتسع لعديد المؤلفين ممن كتبوا في طبقات المحدثين و تاريخهم بالأندلس في القرون الثلاثة الأولى من عمر الأندلس الإسلامي.[5] وكان حرص الأندلسيين على سلامة المعتقد، و صحة الإيمان، والذب عن سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - من أهم العوامل التي دفعتهم إلى الاختصاص في الحديث النبوي و علومه، والتأليف في هذا الاختصاص، إضافة إلى تآليفهم في العقيدة الإسلامية السنية الصحيحة، و خير مثال على ذلك ما ألفه الفقيه المحدث الزاهد ابن أبي

---

[1])الضبي: البغية، ص97. رقم(197)./ الحميدي: الجذوة، ص61, رقم(98)./ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص332، 333. رقم(1230). و قال ابن فرحون: " ألف كتابا على سنن أبي داود"ج2، ص292. رقم(557)./ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص131، 132, رقم(226)./ابن العماد: شذرات الذهب، ج2، ص327، 328./ قاسم على بن سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص1136، 1137، رقم(1130) و في غيرها من المصادر.

([2])الذهبي : سير أعلام النبلاء.(طبعة المكتبة التوفيقية) ج12، ص242، 243. رقم (3247)./ رقم (142)/ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص347، 348. رقم(1289./الحميدي : الجذوة، ص79، 80. رقم (140)/الضبي: البغية، ص109، 110. رقم(271)./ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص46

**

([3])عبد القادر البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص217./ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص46، رقم(142)/ الحميدي: الجذوة، ص111، 112. رقم(214)/الضبي: البغية، ص155، 156. رقم(411)

([4]) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج2، ص1106./ابن فرحون: تاريخ علماء الأندلس، ص393، 394 رقم(1423)./ الحميدي: الجذوة، ص313. رقم(804)/ الضبي: البغية، / ص404. رقم(1349)

[5]) مثال ذلك ما ألفه المؤرخ ابن الفرضي(403ه) " الإعلام بأعلام الأندلس من العلماء المتقين و القراء و المحدثين المتقنين و الفقهاء النبباء و من قدمها من الظرفاء. البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص102و ألف عبد الملك بن طريف القرطبي(ت400ه)/ كتاب "الأفعال في رواة الأحاديث"

زمنين(399هـ) في رسالته "في عقيدة أهل السنة"[1] و منهم أبوالحسن نافع، ابن العباس بن جبير الجوهري القيسي، قدم الأندلس سنة (419هـ) والف كتاب " الاستبصار في الاعتقادات"[2] و حتى الكتب التي ألفت في الزهديات تدخل في جانب الاعتقادات مثل كتاب "الاستبصار في الزهد" لأبي عمرو أحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الإشبيلي (379هـ)[3] و كتاب التسلي عن الدنيا بتأميل خير الآخرة من الغنى "و كتاب" التسبيب والتسيير و كلاهما لابن الصفار(429 هـ)[4]

وألّف الفقيه المالكي الشهير ابن بطال البطليوسي المعروف بالمتلمس (ت404هـ) كتاب "أدب الهموم"[5] و آخر اسمه أبوالحسن يحي بن نجاح الأموي القرطبي (ت422هـ) كتاب " سبل الخيرات في المواعد والرقائق"[6]

ج - التاريخ والجغرافية:

غالبا ما يترادف علما التاريخ والجغرافيا عند الدراسين، قديما وحديثا، " فالصلة بينهما كانت وثيقة دائما، وكثير من المؤرخين العرب ضمنوا كتبهم معلومات جغرافية، وكثير من المؤلفات الجغرافية اشتملت على معلومات تاريخية وفيرة."[7]

وتزداد هذه الصلة ترابطا في التراث العربي وخاصة عند المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين" فالفاصل بين التاريخ والجغرافية عندهم كان غير واضح، وأنه ما من مؤرخ عندهم إلاّ يمكن اعتباره جغرافيا، وما من جغرافي إلا وهو مؤرخ في الوقت نفسه، وتلك من خصائص التاريخ والجغرافية عند الأندلسيين[8].

([1])فؤاد سيزكين : تاريخ التراث العربي، م1/1/ص 107، 108.

([2])البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص285.

([3])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([4])المصدر نفسه: ص287، 285.

([5])البغدادي: إيضاح المكنون، ج1ص51.

([6]) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج2، ص978.

([7])جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ص 8.

([8])حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 97.

وتبرز أهمية هذين العلمين في الأندلس في كثرة من اشتغلوا في حقل التأليف فيهما، في عصري الإمارة والخلافة، ومن المتعارف عليه أن أول مؤرخ للأندلس الإسلامية، هو عبد الملك بن حبيب(238 هـ/ 852م)، صاحب المؤلفات الكثيرة والمتنوعة، حيث لقبه الأندلسيون بعالم الأندلس.[1]

ساهم عبد الملك بن حبيب بنتاجه المتعدد الجوانب في تطوير علم التاريخ الأندلسي قدما فكان أحد الرواد الذين وسعوا الآفاق العلمية بين أوساط الأندلسيين[2].

ورغم ضياع كل مؤلفاته فقد بقي منها كتابه في التاريخ – وهو ما يعنينا هنا - وتوجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة البودلية بأكسفورد[3] ويعدّ كتابه هذا أقدم مؤلف لمؤرخ أندلسي عن تاريخ الأندلس وصل إلينا كاملا[4].

على أن أشهر من خدم التاريخ في هذه الفترة هي أسرة الرازي، وهي أسرة أنجبت ثلاثة من المؤرخين، أوّلهم : محمد بن موسى الرازي، مشرقي الأصل من مدينة الري، وقد وفد على الأندلس سنة(249هـ/ 864م)، وبعد أن استقر في مدينة قرطبة واشتغل بالتجارة، تفرّغ للعلم واختص بالتاريخ وألّف فيه، وخاصة التاريخ الأندلسي، وله كتاب الرايات"[5]

خلفه ابنه أحمد بن محمد (324هـ/ 374 هـ - 888م/ 936م) الذي لقب بالتاريخي، لكثرة اشتغاله بهذا العلم، وكثرة التأليف فيه، ومن أهم مؤلفاته: كتاب أخبار ملوك الأندلس، وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم، وكتاب في صفة قرطبة وخططها، ومنازل العظماء بها، وكتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس في خمسة مجلدات ضخمة.[6]

أما المؤرخ الثالث من أسرة الرازي عيسى بن أحمد بن محمد، ابن المؤرخ الثاني من هذه الأسرة، وحفيد الأول، ومن مؤلفاته (كتاب في تاريخ الأندلس) وثان عن (حجّاب الأندلس) وكلاهما

([1])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 222.

([2])ك. بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص 25.

([3])جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ص 30.

([4])فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، ج1/2/ص 248 وما بعدها.

([5])حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 29.

([6])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 45، رقم (137)/ الحميدي: الجذوة، ص 92 رقم(175)/ الضبي: البغية، ص 130، (رقم 330)/. وذكر ابن حزم بعض مؤلفاته في رسالته في فضل الأندلس / مجوع الرسائل م1/2/ص 172، 173 / .المقري: نفح الطيب، ج3، ص 160/ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال، ج2،ص 332، 333./ رقم(818)./ السيوطي: بغية الوعاة، ص 318، رقم (747)/ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 31/ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج 2، ص 156، 157.

مفقود[1] ويعد أحمد بن محمد الرازي: الثاني من هذه الأسرة، الأشهر على الإطلاق بين مؤرخي وجغرافيي الأندلس في عصري الإمارة والخلافة معا، ولا تكمن بصمته في ما خلّفه من كتب - رغم أن معظمها مفقود - وإنما في المدرسة التي شق طريقها، وفي كثرة التلاميذ الذين تتلمذوا عليه ومشوا على نهجه في هذا الفن، أو الأجيال اللاحقة من مؤرخي وجغرافيي الأندلس، وخاصة في عصر ملوك الطوائف، والذين اتبعوا نمط التأليف في هذا الاختصاص بأمانة تامة كما رسمه أحمد بن محمد التاريخي الكبير، وقليل منهم من شذّ عن هذه القاعدة.

إذن فقد رسم الرازي أسس مدرسة تاريخية/ جغرافية، واضحة المعالم متينة البنيان فلا يكاد يذكر هذا العلم في الأندلس، إلا مقرونا باسمه.

ويشير المستشرق الروسي كراتشكوفسكي إلى أن أحمد بن محمد الرازي أول من أدخل نمط الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس[2]، فقد وضع كتابا كبيرا في طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد العربية الستة التي نزلتها بعد الفتح.[3] فإن كتاب الرزاي مصدر هام لمعرفة الأحوال الجغرافية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث، أي عهد ازدهار خلافة قرطبة[4] ومن غير الممكن في هذا المقام ألا نذكر أستاذ المؤرخ والجغرافي أحمد بن محمد الرازي، وهو قاسم بن أصبغ البياني(244 هـ/ 340 هـ - 859 م / 951م) فقد كان صاحب فضل كبير في توجيه الناس إلى التأليف في التاريخ والجغرافية في الأندلس، إلى جانب دوره العظيم في تطور علوم الدين واللغة.[5]

([1])جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ص 30.

([2])تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 2، 1987، سحب جديد(2008)، ص 186.

([3])الحميدي: الجذوة، ص 92، ذكر ذلك الحميدي في الترجمة رقم(174) وليس في الترجمة (175)، وكان المترجم له في الأولى أحمد بن محمد التاريخي، وفي الثانية أحمد بن موسى الرازي، وهما شخص واحد، واتبعه الضبي في البغية، ص 130، بترجمتين كذلك وبالاسمين الذين ذكرناهما الحميدي على التوالي رقم (329) (330)، وقد أكد كراتشكوفسكي نسبة الكتاب المذكور لأحمد بن محمد المؤرخ الثاني في الأسرة./ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 183.

([4])كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 186.

([5])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 30، وحول ترجمته ينظر: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص 286 ، 287، رقم (1070)/ الحميدي: الجذوة، ص 297، 298/ رقم (769) / الضبي: البغية، ص 391، 392، رقم(1298)/ الذهبي: سير أعلام النبلاء، (طبعة المكتبة التوفيقية) ج10، ص 643، وما بعدها، رقم (2368)./ المقري: نفح الطيب: ج2، ص 47 وما بعدها / القاضي عياض: ترتيب المدارك ج 2، ص 685 وما بعدها، رقم 686./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 133، رقم 424/ مخلوف: شجرة النور الذكية، ج1، ص 132، 133، رقم(229)/ قاسم علي

وقد تحدث المؤرخون عن الدور العظيم الذي قام به قاسم بن أصبغ البياني إلى جانب آخرين في ترجمة تاريخ هيروشيش، وهو في اعتبارنا أهم ما أداه هذا العلامة الجليل من خدمات إلى الحركة العلمية في الأندلس، فإن هذه الترجمة وذيوعها بين الناس كانت نقطة البدء لعصر جديد من عصور التأريخ في الأندلس من ناحية، ونقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافي من ناحية أخرى.[1]

وقد عرفت هذه الفترة شخصية ممثلة في أبي عامر بن شهيد(ت392 هـ/ 1002م) حيث كان تلميذا لقاسم بن أصبغ البياني، ووهب بن مسرة، وكان خطيبا وشاعرا وصديقا للمنصور بن أبي عامر وقد كتب تاريخا كبيرا يقع في أكثر من مئة جزء، جعله على طريقة الحوليات، روى في أيامه الحوادث سنة سنة من عام أربعين للهجرة.... إلى أيامه[2] وكذلك كان ابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس"[3].

ومن كتب التاريخ في عصر الخلافة" الأخبار المجموعة " لمؤلف مجهول، لم تذكر الحوليات التاريخية اسمه" وتدور الفقرات التاريخية التي يتألف منها هذا الكتاب حول وقائع التاريخ الأندلسي من الفتح إلى خلافة الناصر"[4].

.

.

سعد، جمهرة الفقهاء المالكية، ج2، ص 939 وما بعدها، رقم 424./ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص 132، 133 ، رقم (299)/ قاسم علي سعد: جمهرة الفقهاء المالكية، ج2، ص 939، وما بعدها، رقم 908.

([1])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 32.

([2])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 244، يقول عنه ابن بشكوال: وله كتاب التاريخ الكبير في الأخبار على توالي السنين، بدأ به من الجماعة سنة أربعين، وانتهى إلى أخبار زمانه المنتظمة بوفاته - رحمه الله - وهو أزيد من مئة سفر". الصلة (المكتبة العصرية) ص 289، 290، رقم (762) وذكره كذلك حاجي خليفة في كشف الظنون، ج1، ص 281 / البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص 624، 625.

([3])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 355، وقد كتب عنه الأستاذ ك. بويكا كلاما طيبا في كتابه: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص 115 وما بعدها/ وراجع كذلك ترجمة ابن القوطية(ت 367 هـ) عند الذهبي في سير أعلام النبلاء(المكتبة التوثيقية) ج12، ص 354، رقم (3351) وقد أشرنا في الفصل الأول إلى مصادر ترجمته.

([4])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 235. وعنوان الكتاب كاملا هو" أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء إلى دخول عبد الرحمن بن معاوية:" فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/ 2/ ص 251. وقد قدّم المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا دراسة قيمة، وهي عبارة عن موازنة بين كتابي" تاريخ افتتاح الأندلس " لابن القوطية، وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول/ ضمن كتاب: الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، من ص 31، إلى ص 49.

وأحمد بن عبد البر(338 هـ/ 949م – 950 م) وقد ألفّ في أنساب العرب وفي تاريخ فقهاء الأندلس، واعتمد عليه أبوالوليد بن الفرضي في كتابه" تاريخ علماء الأندلس"[1]

ومن أبرز مؤرخي هذه الفترة كذلك صاحب كتاب " تاريخ الدولة العامرية" المؤرخ اللغوي الأندلسي أبوالوليد عبد الرحمن بن محمد بن معمر (ت 423 هـ)[2] وابن شبراق أو شبلاق أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي (ت 413 هـ) صاحب كتاب " الأخبار والغرائب"[3] والمؤرخ ابن المشاط عبد الرحمن بن محمد (ت 397 هـ) مؤلف كتاب" الباهر في التاريخ" والذي ألّفه للمنصور بن أبي عامر وقد ذكرنا ذلك سابقا.[4] ومعاصره أحمد بن موسى العرواي (ت 388 هـ) صاحب كتاب " تاريخ الأندلس.[5]

وألف في هذه الفترة أبوالقاسم مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن حاتم (ت 353 هـ/ 964 م) المؤرخ القرطبي كتابين في هذا الفن بعنوان" التاريخ الكبير" وآخر" ما روى الكبار عن الصغار"[6] ونختم حديثنا عن التاريخ في هذه الحقبة بالمؤرخ الكبير أبي الوليد ابن الفرضي(ت 403 403 هـ) صاحب كتاب " تاريخ علماء الأندلس".

تجدر الإشارة في هذا المقام إلى عديد الشخصيات العلمية التي كانت إسهاماتها في التاريخ حتى ولوكانوا من غير المتخصصين، كعريب بن سعد القرطبي(369 هـ/ 980) الطبيب من أصل نصراني، وقد أسلم آباؤه واستعربوا، وتلقى تعليما طبيا، ودخل في خدمة الدولة، واتخذه الحكم المستنصر كاتبا، وقد كتب مختصرا لتاريخ الطبري فيما يتصل بأخبار المشرق من سنة (289

([1])ك. بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص 151 وما بعدها./ الضبي: البغية، ص 77، 78 رقم (168).

([2])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية) ، ص 271، رقم(702)/ البغدادي: هدية العارفين ج1، ص 516/ بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص 140.

([3])البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص 515/ بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص 135 وما بعدها.

([4])ابن بشكوال: الصلة طبعة المكتبة العصرية، ص 254، رقم(681).

([5])حاجي خليفة: كشف الظنون: ج1، ص 286.

([6])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 219، رقم(574).

هـ/ إلى 319 هـ - 902/ 932 م) وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس... وقد وضع كذلك تقويما شبيها بتقويم ربيع بن زيد النصراني[1]

أما الجغرافية فقد شقت لنفسها طريقا إلى الأندلس متلازمة مع التاريخ، ولهذا فإن جلّ الجغرافيين الأندلسيين، هم مؤرخون، وقلّ من شذّ عن هذه القاعدة، وكانت الناحية الجغرافية الموجزة التي قدّم بها هروشيش لتاريخه وضعت قاعدة سار عليها كل مؤرخي الأندلس بعد ذلك وهي التقديم للتاريخ بالجغرافية، أي وصف الميدان قبل ذكر الحوادث[2].

وكان أحمد بن محمد الرازي أبا الجغرافية والتاريخ في آن واحد[3] فقد بدأ مؤلفه في تاريخ الأندلس بمقدمة جغرافية[4]، وكان أستاذه من قبله قاسم بن أصبغ البياني له فضل كبير في توجيه الناس إلى العناية بعلمي التاريخ والجغرافية والتأليف فيهما[5].

ومن أشهر الوافدين الأفارقة والمستوطنين الأندلس في هذه الفترة، والذين برزوا في علم الجغرافية، أبو عبد الله محمد بن يوسف الوراق (292 هـ/ 363 هـ -904م/ 973م)، من معاصري أحمد بن محمد الرازي والذي يعد في طليعة جغرافيي المغرب والأندلس.[6]

ويعتقد المستشرق كراتشكوفسكي أن الجغرافيا الإقليمية قد شقت لنفسها طريقا إلى المغرب (ومن ثم الأندلس، خلال القرن العاشر من خلال محمد بن يوسف الوراق(363هـ/973م) الذي عاش في القيروان وقرطبة، وأفرد لوصف المغرب كتابا يحمل العنوان المعهود لنا" المسالك والممالك" ولم

([1])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 243، 244. وانظر: بويكا: المصادر التاريخية العربية في الأندلس. ص 122 وما بعدها. وحول ترجمته ينظر : ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة(تحقيق الهراس)، ج4، ص 35، رقم(102) وفي غيرها من المصادر والمراجع.

([2])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 54.

([3])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1،ص 56.

([4])جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ص 38.

([5])المصدر نفسه: ص 32.

([6])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 73. وحول ترجمته ينظر المصادر الآتية: الحميدي: الجذوة، ص 86، (رقم 160)/ الضبي: البغية، ص 122.رقم (304) ومن مؤلفاته كما ذكر الحميدي وبعده الضبي: كتاب ضخم في" مسالك إفريقية وممالكها: ألفه للحكم المستنصر، وألف في أخبار ملوك إفريقية وحروبهم، والغالبين عليهم، كتبا جمّة وكذلك ألف أيضا في أخبار تيهرت، ووهران، وتنس، وسجلماسة، ونكور والبصرة هناك، وغيرها تواليف حسانا." ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة(طبعة دار الكتب العلمية، م4/ ج2/ ص 134.رقم (1721./ ابن حزم الأندلسي: رسالة فضل الأندلس مجموع الرسائل./م1/2/ص 175/ المقري: نفح الطيب، ج3، ص 123.

يصلنا هذا الكتاب ولكن البكري يدين له لا بعنوان كتابه فحسب، بل بمتقطفات عديدة كما يتضح ذلك من نقول عنه.[1] والمهم لدينا أن محمد بن يوسف الوراق أول من كتب في الغرب الإسلامي كتابا بعنوان (المسالك والممالك)، وهكذا نرى أن أول جغرافي أندلسي كان بلدانيا، في حين أن ثاني جغرافي كتب في الأندلس كان مسالكيا.[2]

ومن الجغرافيين الذين تركوا آثارا في هذه الحقبة يهودي من طرطوشة يسمى إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي*، ويسمى أيضا إبراهيم بن يوسف، وكتب بعضهم إبراهيم بن أحمد الذي كتب رسالة إلى الحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى ألمانيا أيام الإمبراطور أوتوالكبير على الأغلب، فهو يذكر البلدان ويصفها ويعدّد حاصلاتها وما يتاجر فيه أهلها، ثم يذكر الطرق ومسافاتها بالأميال[3]. وغيرها من التفاصيل المتعلقة بالأحوال السياسية والاجتماعية لتلك الشعوب.

وخلاصة القول إن إسهامات الأندلسيين في علمي التاريخ والجغرافية في الحقبة التي سبقت الطوائف كبيرة، فبفضل جهود الأعلام الذين ذكرنا، وضعت الأسس لهذين العلمين المتلازمين والمتفرعين من شجرة العلوم والمعارف الإنسانية عامة في الأندلس، وسنرى لاحقا أن أبرز مؤرخي وجغرافيي الطوائف مدينون لأعلام هذه الفترة في هذا الاختصاص، رغم أن أعلام هذا الفن في القرن الخامس الهجري كانوا أرسخ قدما وأكثر شهرة، كابن حيان، والعذري، والبكري، ولكن مؤلفاتهم قد ضمت نصوص وأقوال من سبقهم من المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين.

د - الفلسفة:

تأخر ظهور الفلسفة في الأندلس بسبب نفور الأندلسيين اتجاه كل ما هو فلسفي لتشبثهم بحرفية النص في عمومهم، ولأنهم مالكيون أيضا، ورغم نفور الأندلسيين من الفلسفة ومتعلقاتها كعلم الكلام إلا أن هناك دواع لظهورها، وأسبابا لمعرفة الأندلسيين بها، تحدث عنها أحد الباحثين منها: التصوف والزهد، اللذان حظيا بتوفر الوثائق في فترة مبكرة، والباطنية حيث نجد لها نماذج ابتداء

([1])تاريخ الأدب الجغرافي العربي: ص 186.

([2])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 186.

*قال محقق الروض المعطار، إحسان عباس:" هو عند العذري: إبراهيم بن يوسف، وعند القزويني إبراهيم بن أحمد، وهو إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي الإسرائيلي الذي كان يسفر في شؤون ملك الروم إلى الأندلس، وعنه ينقل العذري مباشرة، وعنه قيد البكري معلومات عن جغرافية بعض المناطق الأوربية وسكانها" – الروض المعطار – حاشية، ص 512.

(3)المصدر نفسه: ص 76 وما بعدها (بتصرف).

من سنة (272 هـ/ 851 م)، وعلم الكلام المعتزلي الذي كان يعرفه الطبيب القرطبي أبو بكر فرج بن سلام في أوائل القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي[1] ومن الأسباب المهمة في دخول الفلسفة إلى الأندلس كذلك، تلك الرحلات المنطلقة من الأندلس إلى المشرق، وخاصة إلى العراق، حيث كانت الفلسفة متقّدة ، وأعلامها مشهورين والمراكز العقلية هناك قد صقلت مواهب كثيرين من علماء المسلمين وأتباع الشريعة، فلا غرو أن يتأثر بهذه الحركية أبناء الأندلس ممن اتصلوا بهذه المراكز العقلية من خلال التلمذة المباشرة على أيدي أعلامها، وحتى الرحلات المعاكسة كتلك قام بها المشارقة، ممن حملوا هذا الفكر إلى البلاد الأندلسية.

وفي مراحل تاريخية متأخرة نشأت الفلسفة بمعناها الدقيق، وتأسست كحقل قائم بذاته بعد أن تأخرت قليلا في الوصول والتجذّر[2].

وممن اشتهروا بالفلسفة وعلم الكلام في هذه الفترة، خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الفضلة مشهور بالقدر لا يتستر به وكان يعلن بالاستطاعة[3]. ومنهم أبو بكر فرج بن سلام القرطبي قد التقى الجاحظ في رحلته إلى المشرق، ودخوله إلى العراق، وأخذ عنه جميع كتبه، ولا نستبعد أن يكون قد أخذ عنه مبادئ الاعتزال.[4]

وكان عبد الأعلى بن وهب القرطبي(261 هـ/ 874 م) قد طالع كتب المعتزلة ونظر في كلام المتكلمين، وكان ينسب إلى القدر، ويذهب إلى أن الأرواح تموت.[5]

ومثله يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة (315 هـ/ 927 م) بارعا في عدة معارف منها الأخبار والجدل، وكان معتزلي المذهب فمال إلى كتب الحجة، ومذهب المتكلمين.[6]

---

(1)ميغيل كروز هيرناندس "MIGUEL CRUZ HERNANDEZ": الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (دراسة شاملة)، ترجمة: رشيد الحور، ضمن كتاب سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ص 1089، 1090.

(2)ميغيل كروز هيرناندس "MIGUEL CRUZ HERNANDEZ": الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية ،ص 1090.

(3)ابن الفوضى: تاريخ علماء الأندلس، ص 120، (رقم 419).

(4)المصدر نفسه: ص 276، رقم(1037).

(5)المصدر نفسه، ص 228، رقم (837)/ الحميدي، الجذوة، ص 257، رقم (654)/ الضبي: البغية، ص 341، 342، رقم(1106).

(6)صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق حسين مؤنس) ص 87./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ص 438، 439، رقم(1580) /ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 482.

وكان الحكم المستنصر يحضر مجالسه ابن صلا الله القرطبي(أحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بآرائه المعتزلية المنحرفة[1].

غير أن أشهر فلاسفة الأندلس في هذه الفترة كان ابن مسرة القرطبي(270 هـ/ 319هـ/ 883م – 931) الذي أذاع بين مسلمي إسبانيا مبادئ المشبه بابنا ذوقليس (وهو مذهب أفلوطيني يقول بوجود مادة روحية) على الرغم من معارضة الفقهاء التي لم يكن منها مفر[2]يعد ابن مسرة أول مؤسس للفكر الأندلسي وقد أطلعه أبوه* عبد الله بن مسرة (توفي بمكة سنة 266 هـ/899م) على المذهبين الباطني والمعتزلي فضلا عن الروحانيات التي أخذها من المشرق[3]

وقد كوّن ابن مسرة** القرطبي مجموعة يسيرة من الأتباع في معتكفه الجديد، ويعرف أنه ألف كتأبين " التبصرة" وكاتب الحروف"[4]

تمكنت مدرسة ابن مسرة*** رغم الشدائد والمحن التي لقيتها، من الصمود، واستطاع ابن مسرة أن ينشر مبادئ فلسفته ورؤاه في تلامذته وبعض أتباعه، حتى ممن لم يتتلمذوا عليه بشكل مباشر وبقى أثر هذه المدرسة بعد وفاة مؤسسها بزمن طويل.

والظاهر أن المسريين" أتباع بن مسرة" قد كنت لهم مشاركة في الحياة الفقهية، فقد حاولوا تطبيق بعض مفاهيمهم الروحانية وأقيستهم العقلية في تفسير النصوص وتأويلها، وكان أثرهم واضحا وطويلا على طول الخط التاريخي للأندلس ، فالونشريسي وهو من المتأخرين عقد في معياره فضلا

([1])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 26، ترجمته عند ابن الفرضي في تاريخه حيث قال عنه: " كان رجلا حافظا للفقه ، عالما بالاختلاف، ذكيا بصيرا بالحجاج، حسن النظر، قائما بما يتقلد الكلام فيه، وكان ينسب إلى مذهب الاعتزال، توفي سنة(399 هـ) أو صدر(370 هـ) ، " ص 49، رقم(154).

([2])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 23.

*ترجمته عند ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، ص 179، 180، رقم(652).

([3])ميغيل كروز هيرناندیس: الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية (دراسة شاملة)، ص 1090.

**أما ابنه محمد وهو المعني هنا، فلقد ترجم له أكثر من واحد، مثلا: ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 323، 324، رقم(1204)/ الحميدي: الجذوة، ص 56، 57، رقم(83)/ الضبي: البغية، ص 76، رقم (163)./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج 10، ص 248.

([4])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

***يقول المستشرق آسين بلاثيوس " MIGUEL ASIN PALACIOS " إن مذهب ابن مسرة لم يكن مذهبا فلسفيا بقدر ما كان اتجاها دينيا سياسيا يرمي إلى مناقصة الفقهاء وسلطانهم المطلق في الأندلس يؤيدهم البيت الأموي، وما يسميه بالأرستقراطية العربية، وهو يصف المسربين بأنهم إسبان قوميون:" ينظر حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 647.

سماه" الرد على بدع أتباع ابن مسرة الأندلسي" وسمّاهم بالرافضة، وذلك لمخالفتهم الجماعة في قضية الحكمين اللذين ذكرهما الله في كتابه، وقضاء اليمين مع الشاهد، إذ لهم رؤية خاصة.[1]

خلّفت المدرسة المسرية أتباعا عديدين* ، وأعلاما مشهورين، كما جلبت خصوما كثرا** ، مما أثرى الساحة الفكرية الأندلسية، وكان من أبرز أتباعها أحمد بن فرج بن منتيل بن قيس، من أهل قرطبة يكنى أبا عمر، رحل إلى المشرق وسمع من الشعراني وغيره، وكان ينسب إلى اعتقاد ابن مسرة، توفي سنة (344)[2]

ومن أعلام هذه الفترة القاضي منذر بن سعيد البلوطي(ت 355 هـ)، حيث كان مذهبه في الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك التقليد، وكان كما وصف بصيرا بالجدل، منحرفا إلى مذهب أهل الكلام لهجا بالاحتجاج[3] رغم أن القاضي منذر بن سعيد كان سنيا، منافحا عن السنة، متقلّدا سيف السنة ضد الأهواء والبدع.

([1])المعيار المعرب: ج2، ص 333.

*جمع إحسان عباس بعضا من أتباع المسرية في كتابه" تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة" ص 35، 36.

**جمع أبو محمد عبد الله بن محمد بن ثابت الأموي القرطبي(ت399هـ/ 400 هـ) كتابا في الرد على محمد بن عبد الله بن مسرة أكثر فيه من الحديث والشواهد وهو كتاب كبير حفيل./ ابن بشكوال: الصلة(المكتبة العصرية، ص 211، رقم(566).

([2])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 43، 44، رقم (129).

([3])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 404، 405، رقم(1545)، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي، قاضي الجماعة بالأندلس في وقته، وهو شخصية محترمة ومرموقة في التاريخ الثقافي الأندلسي، في عصر الخلافة، من مؤلفاته" "الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله" وكتاب " الإبانة عن حقائق أصول الديانة" وله كتاب" احكام القرآن، وكتب أخرى مؤلفة في القرآن والسنة والورع ، والرد على الأهواء والبدع."

وحول ترجمته وبعض مؤلفاته ينظر المصادر الآتية: الحميدي: الجذوة، ص 315، 316 رقم (811) الضبي: البغية، ص 406، 407، رقم(1357)./ الخشني: قضاة قرطبة: ص 271، 272/ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص 500./ ابن حزم الأندلسي: مجموع الرسائل: م1،1/ ص 157، م2/1/ الصفحات: 179، 187، 223، 224، 239، 240./ ابن خير الإشبيلي، الفهرسة ص 54/ الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ص 112، ص 112 وما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص 372 وما بعدها./ القاضي النباهي: المرقبة العليا، ص 80 وما بعدها./ الحميري: الروض المعطار، ص 95، 436./ الذهبي: سير أعلام النبلاء (المكتبة التوفيقية) ج12، ص 319 وما بعدها. رقم (3325)./ السيوطي: بغية الوعاة. ص 723، 724. رقم(2023)/ ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ج7، ص 129، وما بعدها/ ابن الأثير: الكامل . ج7، ص 82./ البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، ج1، ص 7./ البغدادي: هدية العارفين، ج2 ، ص 472./ ابن خير الله اليعمري، منهج الثقات في تراجم القضاة، ص 239 وما بعدها. رقم(249) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج 13، ص 8، 9 يوسف فرحات، يوسف عيد: موسوعة الحضارة الأندلسية، ص 49، 50./ المقري: أزهار الرياض، م2/1/ ص 269 وما بعدها.

وكثير ممن نسب إلى الفلسفة والجدل وعلم الكلام أوالاعتزال، أو غيرها من المذاهب الفكرية الأخرى التي بدأت تعاليمها تسري في أوساط الأندلسيين في هذه الفترة، وستشكل هذه البذور الفكرية النواة الحقيقية لظهور الفلسفة بمعناها الدقيق في عصري الطوائف والمرابطين.

هـ - العلوم التجريبية(التطبيقية):

- **الطب والصيدلية:**

علم الطب من أفضل وأشرف العلوم، وأعظمها قدرا، وأجلّها وأكثرها منفعة، لأنه متعلق بحفظ صحة الأصحاء، والبحث في علة المعتلين، وما يسترعي نظر الباحث في تاريخ العلوم والثقافة في الأندلس، أن " علم الطب وما يلحق به من علوم أخرى كالصيدلة من أبرز العلوم التي حازت على اهتمام وعناية الأندلسيين، بل لا نغالي إذا قلنا إن الطب يأتي في مقدمة العلوم الطبيعية من حيث النشاط ووفرة الإنتاج العلمي في الأندلس".[1]

وقد" أطلق على من يشتغل بالطب في العصور الوسطى" حكيم" لأن الطب كان إذ ذاك من أبواب الحكمة أوالفلسفة، كان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعا مختلفة كالطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين وغيرهم".[2]

ويمكن القول إن الطب في الأندلس مدين لتلك التأثيرات المشرقية الوافدة إليه، والتي حملها بعض النصارى أوالمترجمين، " فقد اعتمدت قرطبة في نهضتها الطبية على كتب الطب المشرقية الواردة إليها من بغداد ومصر والقيروان، كما كان لرحلة الأندلسيين إلى بغداد لدراسة الطب والصيدلة، ورحلة الأطباء والصيادلة البغداديين إلى قرطبة لنشر معارفهم الطبية الأثر الكبير في ظهور تلك النهضة ونمو حركة التأليف الأندلسية في هذا المجال.[3]

ونستطيع أن نحدد منتصف القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد." دخول أولى التأثيرات التقنية والعلمية من المشرق إلى الأندلس، ويمكن التدليل على ذلك بأمثلة عديدة منها وصول الطبيب الجرّاني إلى قرطبة وانتقاله حال ذلك للعمل طبيبا خاص للسلطان عبد الرحمن الثاني".[4]

([1])سعد بن عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة، ص 322.

([2])حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي، ج3، ص 388.

([3])طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، ج2، ص 907.

([4])خوان فيرنيه (JUAN VERNET): العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الأندلس، ترجمة أكرم ذا النون، ضمن كتاب: سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ص 1299.

وبدوره حل علم الصيدلة المشرقي المتأثر بالنصوص الإغريقية واللاتينية والهندية محل المعارف الصيدلية الشعبية المتواضعة والعتيقة، والمنحدرة من الفترة الرومانية المتأخرة في بلاد الأندلس، وكان كتاب ديسقوريدس(MATIRIA MIDICA) الذي نقله إلى العربية إصطفان بن باسيل*، أحد أهم الكتب الوافدة إلى قرطبة."[1]

وقد ذكر صاعد الطليطلي أن" صناعة الطب لم يكن بالأندلس من استوعبها ولا من لحق بأحد من المتقدمين فيها، وإنما كان غرض أكثرهم من علم الطب قراءة الكنانش المؤلفة في فروعه فقط دون الكتب المصنفة في أصوله مثل كتاب أبقراط وجالينوس"[2] ثم يتابع صاعد كلامه قائلا: فأول من اشتهر بالطب في الأندلس أحمد بن إياس من أهل قرطبة وذوي الأصول والمكاسب الخطيرة بها كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان الناس قبلهم يعولون في الطب على قوم من النصارى"[3] وورد أيضا في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط رجل من أهل حرّان، كان يعرف في الأندلس ، بالحرّاني لم يبلغني اسمه كانت عنده مجربات حسان في الطب، واستقر بقرطبة وحاز الذكر فيها"[4]

ومن أقدم الأطباء الأندلسيين الذين عرفتهم الأندلس في هذه الفترة، الفقيه، المؤرخ، العلامة عبد الملك بن حبيب الإلبيري نزيل قرطبة(ت 238 هـ/ 853 م) وقد مرّ بنا ذكره ومصادر ترجمته، فقد ذكر له ابن فرحون كتابا بعنوان" الحسبة في الأمراض".[5]

وأشار فرانشيسكو فرانكو شانيت في مبحثه" تطور الطب في الأندلس" أن كتاب ابن حبيب" مختصر في الطب" هو عبارة عن تلخيص لعمل أكبر وأشمل بعنوان" كتاب طب العرب"[6] ونخلص من

---

*قال ابن أبي أصيبعة فقال: كان يقارب حنين بن إسحاق في النقل: إلا أن عبارة حنين أفصح وأحلى" عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 281، كما ذكر ابن أبي أصيبعة ترجمته لكتاب " الأدوية المفردة" لديسقوريدس./ المصدر نفسه، ص 493./ وذكره ابن النديم في الفهرست في المقالة السابعة، الفن الأول، (أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين)، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن المملكة المتحدة، ط 2009 م/ 1430 المجلة الثاني، ج1،ص 147.

([1])المصدر نفسه: ص 1300.

([2])طبقات الأمم:(تحقيق : حسين مؤنس)، ص 100.

([3])طبقات الأمم:(تحقيق : حسين مؤنس)، ص 100.

([4])المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

([5])الديباج المذهب: ج2، ص 12.

([6])نقلا عن: طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية، الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، ج2،ص 908..

من ذلك إلى أن كتاب " طب العرب" أو" مختصر في الطب" لعبد الملك بن حبيب ذو أهمية مؤكدة في دراسة الطب عند العرب والكشف عن بداياته، كما تتجلى أهميته أيضا في كونه أول تأليف أنجزه علماء الأندلس في هذا العلم.[1]

وكان ابنا يونس الحرّاني السالف الذكر من الولد أحمد وعمر قد مارسا مهنة الطب كذلك وقد رحلا إلى المشرق ودخلا بغداد، وقرآ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة* الصنعاني كتاب جالينوس، وتخصصا في عمل علل العين، وانصرفا إلى الأندلس سنة(351 هـ) في دولة المستنصر وألحقهما بخدمته في الطب وأسكنهما مدينة الزهراء، واستخلصهما لنفسه دون غيرهما من الأطباء في ذلك الزمان.[2]

ومثلهما الطبيب ابن ملوكة النصراني في أيام الأمير عبد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر، وكان يصنع بيده ويفصد العروق، وكان على باب داره ثلاثون كرسيا لقعود الناس.[3]

وكان جواد الطيب النصراني في أيام الأمير محمد، وله اللعوق المنسوب إلى جواد، وله دواء الراهب والشرابات والسفوفات، المنسوبة إليه.[4] وفي زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط كذلك

([1])طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية، الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، ج2، ص 908.

*ثابت بن قرة: أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن زكريا بن إبراهيم بن كرايا ابن مارينوس بن سالا مونوس، ولد سنة (221 هـ) وتوفي (288 هـ)، وله سبع وستون سنة، وكان صيرفيا بحرّان، استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلد الروم لأنه رآه فصيحا، وقيل إنه قرأ على محمد بن موسى فتعلّم في داره، فوجب حقه عليه فوصله بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين، من بين كتبه: رسالة في الحصى المتولد عن المثانة"، و" وجه المفاصل والنقرس" ورسالته في البياض الذي يظهر في البدن" وجوامعه لكتاب جالينوس في الأدوية المفردة" ورسالة في الجدري والحصبة./ ينظر ابن النديم، الفهرست، ج2/1/ص 227، وما بعدها/ وكان ابنه كذلك سنان بن ثابت، وكنيته أبو سعيد الحرّاني طبيبا مقدما، وأراده القاهر على الإسلام فهرب، ثم أسلم وخاف من القاهر فنهض إلى خراسان، وعاد وتوفي ببغداد مسلما سنة (331 هـ)/ ابن النديم: الفهرست ج2/1/313/. أما حفيده أبو الحسن ثابت بن سنان بن قرة فهو الذي قرأ عليه ابنا يونس، وكان طبيبا محذقا وتوفي في سنة 265 هـ) وكان له من الكتب، كتاب التاريخ من سنة خمس وتسعين ومائتين إلى حين وفاته/ ابن النديم: الفهرست، ج2/ 1/314/ ياقوت الحموي: معجم الأدباء: م3، ص 84، 85./ ابن أبي أصبيعة:عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الصفحات، 297،296،295،241،206، 301،298، 302، 307.

2 : ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص487./صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق حياة بوعلوان) ص191،190.

([3])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 486.

([4])المصدر نفسه، ص485.

عرف من الأطباء حمدين بن أبان.[1] وعمران بن أبي عمرو وكان طبيبا نبيلا خدم الأمير عبد الرحمن بالطب، وهو الطي ألف له "حب الأنيسون".[2]

ويبدو الإنتاج الطبي والصيدلاني وفيرا في عصري الإمارة والخلافة على حد سواء، ومساهمة الأطباء المسيحيين إلى جانب المسلمين كبيرة جدا، من خلال كثرة أطبائهم إضافة إلى من ذكرنا فإسحاق الطبيب كان في أيام الأمير عبد الله الأموي.[3] ويحيى بن إسحاق وكان طبيبا ذكيا عالما بصيرا بالعلاج صانعا بيده، وكان في صدر دولة الناصر، وكان يحيى قد أسلم وأما أبوه فقد كان نصرانيا، وله كتاب كبير في الطب[4]. وكان محمد بن فتح طملون مولى لعمران بن أبي عمروالسابق ذكره، قد برع في الطب براعة علا بها من كان في زمانه[5] وسليمان أبو بكر بن تاج كان في دولة الناصر، وقد خدمه بالطب، وكان طبيبا نبيلا، وعالج أمير المؤمنين الناصر من رمد عرض له من يومه بشيافه[6] وصنوه ابن أم البنين الذي سمي بالأعرف القرطبي ممن خدم أمير المؤمنين الناصر بصناعة الطب.[7]

ونختم حديثنا عن أطباء هذه الفترة بذكر طبيبين علمين كبيرين كانا لهما باع طويل في هذا التخصص وهما: أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل* وأبوالقاسم خلف بن عباس الزهراوي(404هـ / 936م - 1013) ويسمى في الحوليات(ABULCACIS) أما ابن جلجل فقد كان مولده سنة(332 هـ/ 943) وقد كان طبيبا فاضلا خبيرا بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة وكان في

([1])المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

([2])المصدر نفسه، ص 486.

([3])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 488.

[4] : المصدر نفسه: ص 488، 489/ قال عنه الحميدي: أديب فاضل غلب عليه الطب فبرع فيه، وذكر به، وله في ذلك كتب نافعة، يعتمد عليها." الجذوة، ص 377.رقم (882)./ الضبي: البغية، ص 434 رقم (1461)./ صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق حياة بوعلوان)، ص 187.

([5])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 486.

([6])المصدر نفسه: ص 489.

([7])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

*كان حيا سنة (377 هـ/ 987م) ومولده سنة(332 هـ / 943) راجع سيزكين: تاريخ التراث العربي. م4/ ص 512.

أيام هشام المؤيد بالله ، وخدمه بالطب وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة، من كتبه" التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين" وله كتاب في أخبار الأطباء بالأندلس.[1] المعروف بطبقات الأطباء.[2]

وتأليف هذا الكتاب كما يقول أحد الباحثين، يدل على أن الطب، وغيره من العلوم العملية، قد بلغ درجة كبيرة من التقدم خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بحيث أصبح من الضروري أن يؤرخ لأعلامه ومشاهيره.[3] وله كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ألفه سنة (372 هـ) بمدينة قرطبة.[4]

أما خلف بن عباس الزهرواي فقد كان طبيبا فاضلا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، ومن كتبه ." كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف" وهو أكبر تصانيفه وأشهرها ، وهو كتاب تام في معناه.[5]

ويسميه النصارى - أي الزهرواي - "ABULCASIS" أما كتابه " التصريف" فينقسم إلى قسم طبي وقسم صيدلاني، وقسم جراحي، وهذا القسم الأخير هو ما كتب في علم الجراحة مقرونا برسوم إيضاحية كثيرة للأدوات والآلات الجراحية... والزهراوي هو أول من أجرى عملية استئصال المثانة في النساء عن طريق المهبل، وأول من وصف الاستعداد الخاص في بعض الأبدان للنزيف، بعد أن شاهد عدة حوادث نزيف في عائلة واحدة عالجها بالكي، وكذلك هو أول من نجح في عملية شق القصبة الهوائية"TRACHIOMIO" وقد أجرى هذه العملية على خادمه.[6] وغيرها من العمليات الناجحة التي قام بها هذا الطبيب الشهير.

([1])المصدر نفسه: ص 493 وما بعدها./ وانظر ترجمته عند الحميدي: الجذوة، ص 197 رقم(452)/ الضبي: البغية، ص 258، رقم(767)/ صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق مؤنس) ص 103، 105.

([2])حاجي خليفة: كشف الظنون. ج2، ص 1096.

([3])طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية،ج2، ص 910.

([4])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 495./ راجع كذلك فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م4، ص 512. 512.

([5])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 501./ الحميدي: الجذوة، ص 184. ترجمة رقم (421) وقال إنه توفي بعد الأربعمائة./ الضبي: البغية، ص 246، رقم(715) ، وقد ذكره صاعد الأندلسي في طبقات الأمم (تحقيق: حياة بوعلوان) ص 171./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 147، 148.رقم(373).

([6])محمد عبد الرحمن مرحبا: الجماع في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2. 1988، ص 263.

هذا باختصار ويطول الشأن إذا أردنا استقصاء أطباء* وحكماء هذه الفترة، التي تعد من أخصب الفترات التي عاشتها الأندلس الإسلامية في هذا الفن أو الاختصاص.

- **الفلك والرياضيات:**

الرياضيات والفلك يسيران جنبا إلى جنب وكلاهما يحتاج للآخر، وكلاهما من العلوم التي برع فيها الأندلسيون وأجادوا فيها، وتركوا آثارا محمودة طيبة.

أما الرياضيات فإنها " تتضمن الحساب والهندسة وهما علمان اشتغل بهما الأندلسيون واحتاجوا إليهما، فالحساب احتاجوا إليه في ميدان الفرائض والضرائب وغيرهما من الميادين التي تستند في نشاطها إلى الأرقام الحسابية والهندسة، احتاجوا إليها في ميادين البناء والعمارة والري.[1]

أما علم الفلك فهو رصد لحركة النجوم والأفلاك والكواكب السيارة، وكان الغرض منه عند علماء المسلين في الأندلس هو تحديد اتجاه القبلة في المساجد التي شيدت، وتحديد مواقيت الصلاة وتعيين الأهلة، وشهر الصيام وموعد الإفطار وما إلى ذلك يقول الأستاذ آنخل بالانثيا:" كان تشدّد فقهاء الأندلس مانعا - أول الأمر -من نهوض العلوم الرياضية بما فيها الفلك، وكان الفقهاء يتجاوزون عن الحساب، ويبيحون الاشتغال به فيما يتعلق بالعمليات التطبيقية المتعلقة بقسم المواريث."[2]

أما فيما يخص الرياضيات فإننا لا نوافق الأستاذ بالانتثيا الرأي، لعدم ثبوت أي من الدلائل التاريخية على معاداة الأندلسيين وعلمائهم وفقهائهم لهذا العلم، أما علم الفلك فإن الأمر جرى على النحوالذي ذكر بالانثيا" فقد عبرت بهذا العلم في الأندلس فترات لم يكن يسمح للناس خلالها بأن يعرفوا منه إلا ما لا بد منه لتحديد اتجاه قبلات المساجد، وتعيين مواقيت الليل والنهار على مدار العام، لتعرف

---

*مثل الطبيب محمد بن تمليخ (أبو عبد الله) القرطبي (ت361 هـ/ 971م) صنف كتاب " الأشكال في علامات الأمراض وأعراضها"/ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 350، 351 .رقم(1301)/ صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق حسين مؤنس) ص 102/ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 491. ومنهم الطبيب سعيد بن إبراهيم بن عبد ربه(342 هـ / 953 م) ابن أخي صاحب العقد الفريد له كتاب تعاليق ومجربات في الطب، وأرجوزة مزدوجة دلت على تقدمه وتمكنه من هذا العلم وتحققه بآراء القدماء ابن أبي أصيبعة:عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 489 ، 490 . / صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 100/ وقد مرّ بنا سابقا سعيد بن إبراهيم بن عبد ربه في حديثنا عن الأدب في عصري الإمارة والخلافة. وغير ذلك من أطباء هذه الفترة، يراجع ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 482 وما بعدها.

([1])سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخافة، 356، 357.

([2])تاريخ الفكر الأندلسي، ص 501.

أوقات الصلاة والاستيثاق من مواعيد الأهلة فإذا تجاوز الإنسان هذه المطالب من العلم فقد غرر بنفسه".[1]

ورغم ذلك " يجب التأكيد أنه لم تكن أبدا للرياضيات في الأندلس الأهمية نفسها التي كانت للفلك"[2] ونستطيع تحديد البداية القوية والانطلاقة الفعلية لعلمي الرياضيات والفلك، بعهد عبد الرحمن الثاني(الأوسط)، الذي انفتحت العلوم في عصره، وعرفت انتعاشا وحيوية في كل تخصصاتها وقد تحدّثنا سابقا عن سيل التأثيرات الشرقية الوافدة إلى عاصمة الخلافة الأندلسية قرطبة ففي مجال "الرياضيات والفلك كان تأثير المدرسة البغدادية على الأندلس قويا، وقد وجدت الكتب المشرقية في هذا المجال سبيلها إلى قرطبة في وقت مبكر.[3]

وقد مرّ بنا آنفا دخول عباس بن ناصح الجزيري إلى الأندلس، بكتاب السند هند، وغيره من الكتب الأخرى.

ودخلت مجموعة من الكتب الأخرى في هذا المجال*، إضافة إلى زيج الخوارزمي محمد بن موسى البغدادي(236هـ/ 851م)، وكتاب الأصول الهندسية لأوقليدس، وكاتب المجسطي لبطليموس وهو أهمها، وهو كتاب في علم هيئة الفلك وحركات النجوم كما يقول صاعد الطليطلي.[4]

وقد وصلت هذه الكتب إلى قرطبة في وقت مبكر نسبيا من تاريخ الأندلس، أي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وفي هذه الفترة كانت مواكبة لقمة النهضة العلمية التي شهدتها بغداد على مستوى العلوم التطبيقية.[5]

([1])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([2])خوليو سامسو: العلوم الدقيقة في الأندلس، ترجمة: عمر الشيخ، مراجعة همام غصيب، ضمن كتاب : سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية ج2، ص 656.

([3])طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية .ج2، ص 656.

*راجع الكتب التي دخلت في هذا الفن من المشرق إلى قرطبة/ طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية، الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، ج2، ص 653 وما بعدها.

([4])طبقات الأمم(تحقيق حسين مؤنس)، ص 44، ويقول صاعد حول " كتاب المحسبطي"، الأرصاد التي قفلها بطليموس اليوناني القلودي في كتاب" المحبسطي"، فإنه أضطر إليها في تصحيح حركات الكواكب المتغيرة إذ لم يجد الأصحابه في ذلك أرصادا يثق، " المصدر نفسه، ص 30:" وقال:" وما أعلم أحدا بعده تعرض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمحسبطي ولا تعاطي معارضته" ص 43.

([5])طه عبد المقصود عبد الحميد أو عيبة: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، ج2، ص 652.

وكان من أبرز أعلام الأندلس في هذه الفترة في علمي الرياضيات والفلك، أحمد بن نصر المتوفى سنة (332 هـ/ 944م) والذي أشتهر أمره بكتابة عن " المساحة المجهولة".[1]

وكذلك مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن حاتم(293 هـ/ 353 هـ/ 904 م – 964 م) القرطبي وقد انصرف إلى دراسة الفلك والنجوم والكيمياء وعلم الغيب".[2]

وشاعت الدراسات الفلكية والرياضية، وكثر النشاط التأليفي فيهما، وقد ساعد على ذلك الجو العلمي الذي أشاعه حكام بني أمية وخاصة عبد الأوسط والخليفة عبد الرحمن الناصر، وابنه المستنصر، وكذلك في فترة الحجابة، " وبعد أن ازدهرت الدراسات الرياضية والفلكية أصبحت تدرس في الجوامع جنبا إلى جنب مع العلوم الدينية والأدبية واللغوية، فكانت قرطبة والكثير من مدن الأندلس تعج بالرياضيين والفلكيين الذين انصرفوا إلى تدريس تلك العلوم في جوامعها وبثها بين طلبة العلم".[3]

وكان رائد المدرسة الرياضية الفلكية في الأندلس أبا القاسم محمد بن مسلمة المجريطي (398 هـ/ 1007م)، وأعلم من كان في وقته وممن كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وله كتاب حسن في ثمار علم العدد وهو المعنى المعروف عندنا بالمعاملات، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج التباني وغيرها من المؤلفات العظيمة التي أنجزها هذا الرياضي الفلكي الكبير".[4] وسماه المستشرق الإسباني آنخل بالانثيا بـ: " إقليدس الأندلس"[5]

([1])الحميدي: الجذوة، ص 130، رقم(251)/ الضبي: البغية، ص 178، رقم(472)/ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 501.

([2])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 393 وما بعدها، رقم(1423)/ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 501.

([3])سعد البشري: الحياة العلمية، في عصر الخلافة في الأندلس، ص 358، 359.

([4])صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق: حياة بوعلوان)، ص 168، 169./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية) ص483، رقم (1374)/ وذكر صاحب الصلة اختلافا في تاريخ وفاته في تاريخ وفاته بين (395 هـ) و(399 هـ)/ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 482، 483./ البغدادي: هدية العارفين: ج2، ص 432./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج1، ص 833./ عمر رضا كحالة/ معجم المؤلفين، ج 12، ص 334.

([5])تاريخ الفكر الأندلسي: ص 502.

خلّف أبو مسلمة المجريطي مجموعة من الكتب المهمة في هذا الفن وفي غيره من العلوم الأخرى.[1]

والأهم من ذلك هي تلك المدرسة المهمة التي تركها المجريطي، من خلال أعلام التلاميذ الذين خلّفهم وكان تلميذه ابن السمح(426 هـ) أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي محققا لعلم الهندسة والعدد، متقدما في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وله تآليف حسان منها" كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس" ومنها كتاب " ثمار العدد" المعروف بالمعاملات" وكتاب" طبيعة العدد" وكتابه الكبير في الهندسة ومنها: كتابان في " الأسطرلاب"[2] ومن أعلام هذه الفترة كذلك، أبو القاسم أحمد بن محمد العدوي المعروف بالطنيزي، كان معلما لعلم الهندسة والعدد نافذا فيها وله كتاب حسن في المعاملات[3].

وخلاصة القول إن علماء الأندلس المتحققين بعلمي الرياضيات والفلك، وانطلاقا من الكتب والتأثيرات المشرقية الوافدة إليهم في هذا التخصص، قد تمكنوا من تكوين مدرسة أندلسية متميزة في هذا العلم، وكان فيها أعلام مميزون لهم إسهاماتهم المتميزة.

والقائمة تطول حول المتحققين بعلمي الرياضيات والفلك، وقد سرد أسماء بعضهم صاعد الأندلسي في طبقاته.[4] وغيره من المؤرخين وكتّاب الطبقات.

([1])من بين كتبه: - تعديل الكواكب من زيج التباني.

- رتبة الحكيم في الكيمياء، وذكره سيزكين باسم " رتبة الحكيم ومدخل التعليم"
- غاية الحكيم في السحر، وذكره سيزكين باسم " غاية الحكيم وحق النتيجتين بالتقديم"
- كتاب المعاملات وتمام علم العدد
- مفاخرة الأحجار في الكيمياء.
- الروضة في الصنعة الإلهية الكريمة المختومة.
- الأوزان في علم الميزان.
- كتاب في علم الأحجار وتدبيرها.
- مقالة في الكيمياء.
- رسالة في الطبائع. -روضة الحدائق ورياض الحقائق.

([2])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ص 483، 484/صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق حسين مؤنس)، ص 91.

([3])صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق حياة بوعلوان)، ص 168.

([4])المصدر نفسه: (تحقيق مؤنس)، ص 89 وما بعدها، وفي غيره من المصادر.

الفصل الثاني: عوامل أخرى موضوعية

-المبحث الأول: الرحلات العلمية:

- المبحث الثاني: وسائط الثقافة الأندلسية و دورها في عملية التوهج الثقافي

أ- المساجد، المدارس، الكتاتيب، بيوت الأساتذة.

ب- المكتبات وهواة جمع الكتب.

ج - المرأة الأندلسية والتعليم في عصر الطوائف:

II -2 - الفصل الثاني: عوامل أخرى موضوعية

II -2 -1 -المبحث الأول: الرحلات العلمية:

تعد الرحلة مكونا أساسيا من مكونات المعرفة الإنسانية بشكل عام، وكانت بالنسبة للأندلسيين عاملا أساسيا من عوامل تكوين الذات الثقافية الأندلسية، أما دوافعها ودواعيها فمتعددة، وحسبنا أنها مرتبطة برحلة الإنسان الكبيرة في الحياة الدنيا، قبل رحلته إلى الدار الأخرى، فهي جانب فطري متعلق بالحياة البشرية.

وقد تكون دوافع الرحالة دينية أو سياسية أو اقتصادية وسياحية، أو علمية تثقيفية وقد تجمع بين بعض هذه الدوافع، أو تجمعها كلّها.

وقد عدّت دار الإسلام شرّقت أو غرّبت واحدة، تظللها راية الإسلام، أما المسلمون فهم إخوة، كما حددته تعاليم الإسلام، وبالتالي فانتقال الفرد من قطر إلى آخر، إنما يتم بين إخوته وفي دياره حسب المفهوم الإسلامي فما يمنع انتقال الأفراد واحتكاكهم وتعاملهم مع بعضهم البعض، ما دامو إخوة يعتبرون أنفسهم في بلاد واحدة، ويتحدثون بلغة واحدة ويدينون بدين واحد، فلا عوائق تمنع الاتصال ولا حدود ولا غيرها.

كانت الأندلس جزءا من دار الإسلام، وهي قطر بعيد عن المركز، مركز الإسلام، ومهبط الوحي في مكة والمدينة، كما أنها بعيدة عن المراكز الحضرية الثقافية والمعرفية المشرقية، مثل بغداد، دمشق، القدس، وحتى عن بعض المراكز المغاربية، كالقيروان وتيهرت وفاس وتلمسان وغيرها.

فلم يكن بد للأندلسيين من زيارة هذه المراكز جميعا والتزود منها روحيا أو معرفيا، حيث الشيوخ وحلقات العلم، والمكتبات والمساجد منتشرة على نطاق واسع، فالحاجة ضرورة وأكيدة لتكوين مراكز ثقافية أندلسية، وشخصية ثقافية مستقلة عن المشرق، ولا يعني الاستقلال هنا الانفصال عن الثقافة الأم، إذ العقل واحد والدين واحد، والثقافة مشتركة، بقدر ما يعني الخصوصية الثقافية القطرية التي تميز الأندلس عموما عن المشرق، حسب رأي الأستاذ محمد عابد الجابري.[1]

([1])طرح الأستاذ محمد عابد الجابري قضية الخصوصية القطرية بالنسبة للثقافة المغاربية والأندلسية من خلال كتابه" تكوين العقل العربي": يراجع على سبيل المثال الصفحات: 13، 52، 62، 63، 334.

ويكفي الباحث أن يطلع على كتب التراجم والتاريخ الأندلسي، والتي كانت معرضا لرحلاتهم وهجراتهم، حتى إن الدارس ليعجب أحيانا من كثرة هذه التنقلات والحركية الدؤوبة التي تمتع بها الأندلسيون كثيرا دون سواهم، فهي أشبه ما يسمى في أيامنا بالسماء المفتوحة، وإن كانت رحلاتهم تتم عبر البر والبحر.

كان عصر الإمارة والخلافة من أكثر العصور الأندلسية هجرة ورحلات وتنقلات " وتذكر كتب السير أن ما لا يقل عن (226) أندلسيا في عهد الإمارة وحده قد ذهبوا إلى الشرق للدراسة، وكان أمراء الأندلس يكلّفون المشارقة فعلا بتصنيف كتب يرغبونها"[1]

وفي اعتقادنا أن الرقم أقل بكثير مما حصل من هجرات، وقد خلّد المقري التلمساني في الجزء الثاني من نفح الطيب، كثيرا من العلماء والأدباء والشعراء الذين هاجروا في تلك الفترة وبعدها. أو ارتحلوا إلى المشرق أو العكس.

فقاسم ابن أصبغ البياني قد رحل إلى المشرق سنة(274 هـ) في إمارة المنذر، ودخل مكة وسمع من علمائها، ثم دخل العراق، وزار الكوفة وبغداد ، ومصر، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير بعد أن لقي جهابذة العلم والمعرفة من كل لون وفرع، كالمبّرد وثعلب وأضرابهما في اللغة، وفي الحديث والفقه عبد الله بن أحمد بن حنبل، وجعفر بن محمد الطياليسي والقائمة تطول[2]، وكان أبو بكر فرج بن سلام قد رحل إلى المشرق ودخل العراق، فلقي عمرو بن بحر الجاحظ، وأخذ منه كتاب" البيان والتبيين"[3].

أما أبو حفص عمر بن عبد الملك بن سليمان(ت 356 هـ) فبعد أن درس بقرطبة على أعلامها يمم بوجهه شطر المشرق، فدخل العراق وسمع أعلامها المحدّثين وخاصة في بغداد والبصرة، ثم مصر وبعد ذلك دخل الأندلس فحدث وسمع منه الناس كثيرا.[4]

([1])بيير كاكيا"PIERRE CACHIA": الأدب الأندلسي: ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، ضمن كتاب سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ص 464.

([2])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 286، 287.

([3])المصدر نفسه: ص 276.

([4])المصدر نفسه: ص 259.

وكانت رحلة الغزل الشاعر إلى العراق معروفة، فقد أقام في رحلته تلك مدة طويلة يتجوّل في ديار المشرق قبل عودته إلى الأندلس[1]، ومثله الفقيه العتبي محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأموي القرطبي (ت 255هـ/ 869 م) صاحب كاتب" المستخرجة من الأسمعة مما ليس في المدونة" قد رحل إلى المشرق، وسمع من كثير من مشاهير العلماء، ثم عاد إلى وطنه بالأندلس وأصبح من كبار فقهاء المالكية[2] ويحدثنا ابن الفرضي عن فضل بن سلمة البجاني(ت 319 هـ) الذي رحل إلى القيروان وسمع الفقه من بعض شيوخها[3] وكذلك أبو عبد الله محمد بن علي الحسن بن أبي الحسين القرطبي(ت372هـ) قد أرتحل وسمع بيت المقدس.[4]

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم سيار القرطبي(ت327 هـ، أو 328 هـ) قد رحل من قرطبة سنة(294 هـ)، وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والإسكندرية، والقيروان، فسمع من مائة وستين رجلا[5]

هذه أمثلة يسيرة أوردناها في هذا المقام وهي تدل دلالة واضحة عن عمق الروابط بين الأندلس وباقي أطراف العالم الإسلامي، ومراكزه الحضارية مشرقا ومغربا، وهي تبين أهمية الرحلة في سبيل حصول النهضة العلمية والثقافية التي ستكفل للأندلس شخصيتها و استقلاليتها وخصوصيتها الثقافية واحتياجاتها المعرفية، فقد نقل المرتحلون من وإلى الأندلس طيلة أكثر من قرنين من الزمان منذ الفتح الإسلامي عام(92 هـ) مواد وفيرة من كتب وعلوم ومعارف مختلفة. كان ذلك من أهم الأسباب في حصول نهضتها.

([1])ابن دحية، المطرب، ص 130، 131.

([2])فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م3/1/ص 155.

([3])تاريخ علماء الأندلس، ص 277، 278.

([4])المقري: نفح الطيب، ج2، ص 57.

([5])المصدر نفسه: ص 62، 63.

II-2-2- المبحث الثاني: وسائط الثقافة الأندلسية و دورها في عملية التوهج الثقافي

ت- المساجد، المدارس، الكتاتيب، بيوت الأساتذة.

لا تتم فائدة الحديث عن النضج الثقافي لأي أمة، والرقي الفكري لأية حضارة، دون الحديث عن الوسائط الثقافية.

والوسائط هي المؤسسات العلمية والثقافية ومختلف الوسائل والأدوات الإجرائية التي يتوصل بها إلى المعرفة، وبها يتم الاكتساب الثقافي والتحصيل العلمي، وهي تتفاوت كثرة وقلة، كما ونوعا، من حضارة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، وحتى داخل القطر الواحد.

وقد شهدت الأمة الإسلامية عبر تاريخها الثقافي الطويل وحضارتها الزاهية التي توزعت على عدة مراكز إسلامية، وحواضر وأقطار، أنواعا من هذه الوسائط، ونظما مختلفة من التعليم وبرامجه، مثل المساجد و الكتاتيب والمدارس، و مختلف الأمكنة التي تتيح لطالب العلم أن يتلقى الدروس والمحاضرات في شتى فروع المعرفة. بكل سهولة و يسر.

والأندلس لم تكن تختلف عن باقي الأقطار الإسلامية الأخرى. و إنما كان لها ما يميزها في هذا الشأن.

وبادئ ذي بدء كان لزاما علينا أن نثير هذا الأمر انطلاقا من القضية التي طرحها المقري في نفحه حين قال:" ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة."[1]

وهي الفكرة المحورية التي بني عليها كثير من الباحثين تصورهم حول انعدام المدارس في الأندلس. وهذا أحدهم يقول:" مما يستوقف الدارسين لتاريخ الأندلس وحضارتها عدم وجود المدارس في ذلك القطر، رغم ما بلغه الأندلسيون من تفوق ورقي علمي، ولم تظهر المدارس في الأندلس إلا في عصور متأخرة، وبالذات إبان حكم بني الأحمر في غرناطة." [2]

والأدلة التي ذكرها المؤرخون والباحثون تناقض هذا الطرح وهذا التصور وسنذكرها بعد حين.

---

[1])نفح الطيب: ج1، ص220

[2])سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص253

والشيء الثابت والأكيد في تاريخ الثقافة الإسلامية من شرقها إلى غربها، هو أن المسجد هو القطب الحقيقي والأساسي، و المرتكز والمعتمد الذي انبثقت منه الإشعاعات الثقافية والخيوط المعرفية الأولى منذ عهد النبوة وخلافة الراشدين، وبقي كذلك، لا نقول إلى أزمنة متأخرة فحسب، بل حتى الوقت الحاضر، وخصوصا في بعض الأقطار.

والأندلس كوكب سيار في فلك العالم الإسلامي يدور حول القطب، ويتخذ مساره الخاص في هذه السيرورة، ورغم ذلك، فقد كان المسجد في شبه الجزيرة الأيبيرية، مؤسسة علمية لها وظيفة سامية في التثقيف والتعليم.

وكان المسجد الجامع في قرطبة هو البذرة الأولى للتعليم في الأندلس قاطبة، دون أن ننسى بقية المساجد الجوامع الكبرى في مختلف الحواضر الأندلسية في عصر الطوائف، مثل طليطلة و بطليوس وألمرية وإشبيلية ومرسية ودانية وغيرها.

هذه المساجد الجوامع فقط، دون احتساب بقية المساجد الأخرى الصغيرة والمتوسطة التي تعد بالآلاف، كلها كانت تؤدي وظيفة تعليمية، تثقيفية إلى جانب الرسالة الدينية.

وكان اهتمام الخلفاء والأمراء، ورؤساء الطوائف وولاتها بتأسيس المساجد وتوسعتها، وتشييدها عظيما، مما كان له الأثر الكبير في الدفع بحركة التربية والتعليم في الأندلس إلى المضي قدما في سبيل الرقي والتنوع والانفتاح و الازدهار.

وكان لابد من استثمار هذا التلاحم بين العبادة والمعرفة من أجل التأسيس لنظام علمي تثقيفي تربوي هادف، يجعل من الأندلس محط أنظار العالم كله.

ويمكن للباحث أن يتخيل آلاف المساجد المتوزعة في ربوع البلاد الأندلسية، وفي مختلف الحواضر والمدن والقرى، وكلها قد غشاها طلبة العلم والمعرفة، و كيف كانت حلقاتها منابر للعلم، ورياضا للثقافة، حيث الأساتذة والشيوخ يلقون دروسهم ومحاضراتهم، بين سواري المسجد، أو في ربوع المحاريب، أو متكئين على المنابر، وقد ينزوي شيخ أو أستاذ أو فقيه عند زاوية من زوايا المساجد، يعلم الطلبة الفقه أو الحديث أو اللغة أو التفسير أو الأصول أوغيرها.

فقد كان أبو بكر بن العربي يأخذ عنه طلبته الحديث والأصول والتفسير في جامع إشبيلية.[1] وكان يقرأ بالقراءات السبع على المقرئ أبي سليمان بن نجاح بمسجده بباب الجوز.[2]

و يحدثنا ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة" عن أبي سعيد مولى الحاجب جعفر وقد حدثهم بحيث في المسجد الجامع بقرطبة بسنده إلى أبي بكر المقرئ.[3]

وكثير هم العلماء الذين لا يأتي عليهم العد، ولا يتسع المقام حتى لذكر المشاهير منهم ممن كانوا يلقون دروسهم في مختلف المساجد الجوامع، أو المساجد الأخرى.

ومن الصعب تحديد نظام تقديم الدروس، و كيف يتم التناوب على الحلقات، و ما هي المدة الزمنية التي يستغرقها كل درس، و لكن لدينا معلومات عن ذلك.

فقد يؤدي الشيخ أو الأستاذ دروسه بانتظام في موضوع معين، أو تخصص معلوم فعبد الله بن سعيد الشنتجيالي (ت436هـ) بعد عودته من المشرق إلى الأندلس سنة(430هـ) وصل إلى قرطبة يوم الجمعة سنة (433هـ) فقرئ عليه مسند الإمام مسلم بن الحجاج الصحيح نحو جمعة بجامع قرطبة في موعدين طويلين حفيلين، كل يوم موعد غدوة وموعد عشية.[4]

وكان الأساتذة أحرارا في اختيار المكان الذي يدرسون فيه. يقيمون حيث يشاؤون ويدرس الواحد منهم ما يرى نفسه كفؤا للقيام به، ويعتقد أنه يجيده، وكان لبعضهم مقر ثابت، وآخرون لا يستقرون في مكان، فهم يلقون دروسهم في قرى مختلفة.[5]

فهذا الفقيه العلامة أبو محمد بن حزم الأندلسي حينما اعتزل الناس في لبلة " بث علمه فيمن ينتابه ببابديته تلك، من عامة المقتبسين منه، من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم، ويدارسهم، ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف"[6]

---

[1])ابن دحية: المطرب، ص196

[2])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3])مجموع الرسائل. م1/1/ص287.

[4])ابن بشكوال:الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 230. رقم (599).

[5])خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص101.

[6])المصدر نفسه: ص29.

وابن حزم نفسه قصد في مجموعة من الطلاب أحد أساتذته لتلقي أحد الدروس حيث قال:" كنت مجتازا في بعض الأيام بقرطبة من مقبرة باب عامر في لمة من الطلاب، وأصحاب الحديث، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري(410هـ). بالرصافة –أستاذي - رضى الله عنه.[1] ورغم أن أبا محمد بن حزم لم يحدد لنا مكان هذا المجلس، فإن العبارة توحي بأنه في المسجد أو في بيته.

وكان " الأساتذة يلقون دروسهم حيثما اتفق في حجرة من البيت، أو في ركن من المصنع، أو في جانب من الحانوت، أو إلى جوار شجرة في البستان، و غيرها من الأمكنة.[2]

يقول ابن حزم الأندلسي في كتابه" طوق الحمامة": " كنت يوما بالمرية قاعدا في دكان إسماعيل بن يوسف الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيرا بالفراسة محسنا لها وكنا في لمة."[3]

فقد دل كلام ابن حزم على تلك المجالس العلمية وتلك المحاورات والمناظرات التي تتم بين مختلف الطوائف، وفي مختلف الأمكنة. منها الدكاكين.

ولما رجع أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الضبي (ت458هـ) من رحلته المشرقية، وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم، فلما رأى تلك الكثرة، وماله عندهم من الأثرة قال:

- إني إذا حضرتني ألف محبرة ❖❖❖ يكتبن حدثني طورا وأخبرني
- نادت بفخري الأقلام معلنة ❖❖❖ هذي المفاخر لا قعبان من لبن.[4]

وذكر ابن بشكوال خبرا عن اجتماع ثمانين طالبا من أهل القيروان والأندلس، والمغاربة في بيت أبي الحسن القابسي يطلبون عنده العلم و يتذاكرونه في بيته.[5]

---

[1])مجموع الرسائل: م1/1/ص196

[2])خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص109

[3])طوق الحمامة (تحقيق مكي)، ص35./ وانظر مجموع الرسائل م1/1/ص114

[4])المقري: نفح الطيب، ج7، ص49. والبيتان عند الحميدي في الجذوة، ص252. و الضبي في البغية من ص330 مع اختلاف طفيف. طفيف.

[5])الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص143. والخبر أورده ابن بشكوال في ترجمته لتلميذه حاتم بن محمد الأطرابلسي (ت469هـ). ص141 وما بعدها رقم(355).

وكذلك القاضي الشهير والفقيه المبرز أبو الوليد بن رشد (الجد، ت520هـ). و قد نشر كتبه وتواليفه، ومسائله وتصانيفه. و كان الناس يلجؤون إليه، ويعولون في مهماتهم عليه.[1]

وقبله أحمد بن عفيف بن عبد الله بن مريوال (ت420هـ) الذي كان يعظ الناس بمسجده بحوانيت الريحاني بقرطبة، ويعلم القرآن فيه.[2]

إذن فالمسجد هو المكان المعتاد لتقديم الدروس والمحاضرات. فإن لم يكن المسجد، فبيت الأستاذ نفسه، أو في الحوانيت، أو في بعض الأمكنة المنزوية، أو الرياض النضرة، حسب اتفاق الأستاذ مع طلبته، أو حسب مكان الدرس المعتاد، وحتى حسب الطاقة المادية للشيخ أو الأستاذ أو المعلم، وحسب إمكاناته، بدءا من سعة البيت فعليها يتوقف عدد الطلبة.

وفي هذا الإطار يروي عبد الله بن سعيد بن أبي عون (من عصر الطوائف) خبرا عن شيخه أحمد بن سعيد كوثر الأنصاري(403هـ) قال: "كنت آتي إليه من قلعة رباح، وغيري من المشرق، وكنا نيفا على أربعين تلميذا، فكنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودجنبر ويناير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات، و الحيطان باللبود من كل حول ووسائد الصوف وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان مملوء فحما يأخذ دخانه كل من في المجلس، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا، وقد قدمت موائد عليها ثرائد لحوم الخرفان بالزيت العذب، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد، فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها، ويقدم بعد ذلك لونا واحدا، ونحن قد روينا من ذلك الطعام، فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة أشهر فكان ذلك منه كرما وجودا وفخرا لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة."[3]

---

[1])المقري: أزهار الرياض، ج3، ص60

[2])ابن بشكوال: الصلة، ص47. رقم (75)

[3])المصدر نفسه: ص46. رقم(71)

كما عرفت البيوت كثيرا من المدارس يجري التعليم فيها على نحو ما يجري في المساجد، وفي عيادات الأطباء، حيث يلتقي هؤلاء طلابهم، يدرّسون لهم الطب، وما يتصل به، ولن نقول شيئا عن المكتبات المنزوية في بيوت الخاصة حيث يتدارسون الفلسفة.[1]

ويمكن القول إن الدروس يمكن أن تعطى في أي مكان، ولكن المساجد مكانها المعتاد.[2]

وعرف الأندلسيون على نطاق واسع نوعا آخر من الأمكنة التي تتسع لطلبة العلم، ذلك هو الكتّاب أو المحضرة. " فبمحاذاة المساجد وحولها استحدث الأندلسيون أمكنة قصورها على تعليم الأطفال والصبيان خاصة.[3]

والمكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال، يتعلمون فيه مبادئ الدين الأولى، حيث يحفظون القرآن الكريم، ويتعلمون إتقانه وضبطه، وإقامة حروفه، وإن شئت قلت " الكتاب والمحضرة فضاء شعبي يعتني بتعليم الصغار انطلاقا من شعور ديني عام ينبثق من التعلق المتين والحب المكين لكتاب الله تعالى والرغبة في حفظه وتحصيله."[4] فالكتّاب والمحضرة اسمان لمسمى واحد تقريبا.[5]

ولهذا الفضاء العلمي أصل في اللغة العربية عندا أصحاب المعاجم فابن دريد في مادة (ك -ت -ب) يقول:" يقال رجل حسن الكِتبة والكتابة، والمُكتب: الذي يعلم الكتابة.[6] وأضاف الرازي: والكتاب عند العرب: العالم ومنه قوله تعالى:" **أعندهم الغيب فهم يكتبون**" الطور، الآية 14. والكُتّاب

---

[1])خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص117

[2])المصدر نفسه: ص109.

[3]) حسن الوراكلي: وهج وأرج، مراجعات في التراث الأندلسي، ص 171.

[4]) عبد الهادي حميتو: حياة الكتاب و أدبيات المحضرة (صور من عناية المغاربة بالكتاتيب والمدراس القرآنية)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، ، 1 1427هـ 2006م، 1، ص 9.

[5]) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[6])ابن دريد: جمهرة اللغة، علق عليه ووضع حواشيه وضبطه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ، 1، 2005م 1426هـ، 1، ص 245. مادة (ك -ت -ب).

بالضم والتشديد: (الكَتبة، والكُتاب أيضا والمكتب: واحد والجمع الكتاتيب والمكاتب.. والمُكتب بوزن المخرج الذي يعلم الكتابة، واستكتبه الشيء: يسأله أن يكتبه له.[1]

إذن فالكتاتيب أو الكتاب من الفضاءات الأساسية لتلقي العلوم الأولى في الأندلس، وهي المعبر الأول لكل طالب علم ومعرفة، ويمكن التأكيد على خطورة دورها في هذا المجال بأنها الوعاء الأساسي الذي عُمّمت المعرفة من خلاله. وانتشرت " القراءة والكتابة في البلاد الأندلسية لهذا العهد، بانتشار الكتاتيب في المدن والقرى، وقد قيل إنه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي فضلا عن غيره لا يعرف القراءة والكتابة.[2]

ولا يَتخيل الدارس أن هذه الكتاتيب* فضاء شعبي عام للتحفيظ والتعليم، فقد كانت هذه الأماكن محاطة بهالة من التقديس من العامة والخاصة، رؤساء ومرؤوسين، ولجلالتها فقد سهرت الدولة أنذاك على الاهتمام بها، ورعايتها وتنظيم شؤونها، ولم لا ضبط مناهجها، واختيار الأكفاء لها، لرعايتها و القيام على شؤون مرتاديها من الطلبة والتلاميذ.

والفضل في هذا يعزى للحكم المنتصر، الحاكم العالم، وقد ذكرنا هذا الأمر في الفصل الأول من البحث، فقد أنشأ الحكم الثاني سبعه وعشرين مدرسة منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة.[3]

إذن فالفعل الصريح لأمير الأندلس، واللفظ الواضح الذي لا لَبس فيه للمؤرخ ابن عذاري وهو كلمة (مدرسة) ،تجعلنا نقر بأن الأندلس قد عرفت نظام المدرسة أو المدارس، قبل المشرق، إذ يعزى بناء أول مدرسة في المشرق إلى نظام المُلك الذي بنى المدرسة النظامية في القرن الخامس الهجري، في حين

---

[1])الرازي: مختار الصحاح، اعتنى به: أيمن عبد الرزاق الشوا، دار الفيحاء، دار المنهل ناشرون، دمشق، سوريا، ، 1، 2010م/ 1431هـ، ص 383. مادة (ك - ت - ب).

[2])عبد الهادي حميتو: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، 1، ص 82.

* يقول ابن خلدون: " وأما أهل الأندلس فمذهبهم في تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأس منبع الدين والعلوم، جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والتراسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب"./ المقدمة: دراسة وتحقيق وتعليق:علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للنشر، القاهرة، مصر، ط6، 2012، ج3، ص1116.

[3])ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، ص240.

أن الحكم المستنصر قد توفي في سنة(366هـ). والشيء الأكيد أن بناءه لهذه المدارس قد تم في السنوات السابقة لهذا التاريخ.

والشيء الذي ذكره ابن عذاري المراكشي حول المدارس التي بناها الحكم يفند زعم كثير من الباحثين الذين اعتمدوا على قول المقري في انتفاء وجود مدارس تعين الأندلسيين على طلب العلم، مع العلم أنّ ابن عذاري أسبق زمنا من المقري، حيث توفي الأول بعد (712هـ) في حين توفي الثاني في (1041هـ).

قال ابن شخيص الشاعر في (المكتب) الذي بناه المستنصر للأطفال اليتامى لتعليم القرآن الكريم:

- وساحة المسجد الأعلى مكلله ❖❖❖ مكاتب لليتامى من نواحيها
- لو مُكنت سور القرآن من كلم ❖❖❖ نادتك يا خير تاليها وواعيها.[1]

أليست هذه المكاتب هي المدارس؟ بل هي في اعتقادنا - المدارس عينها، ولا نبالغ إذا قلنا إنها نوع من المدارس الخاصة، التي تدرس فنّا معنيا، ومقصورة على أعمار معينة، أو فئة معينة من الناس.

ويمكن لنا أن نقول إن حاكم الأندلس الذي أنشأ في العاصمة قرطبة وأرباضها سبعة وعشرين مدرسة، وكان مهوُوسا بالعلم وبناء المدارس والمساجد، حيث حبّس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء.[2]

وهذه الأحباس توضح الفرق بين البناء الأول والثاني، وقد أقام في حواضر أخرى، أو أمر ببناء هذه المدارس في مدن أخرى، أو اهتدى على نهجه بعض ولاة الأندلس، أو حكمها فيما بعد.

إذن فالمؤكد أن الكتاب من أقدم المؤسسات العلمية التي عرفتها مهنة التعليم.[3] وأن هذا الهدف الأسمى من إيجاد تلك الكتاتيب، هو تنشئة أولئك الصبيان تنشئة دينية قويمة، عن طريق البرنامج

---

[1]) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج2،ص240، 241.

[2])المصدر نفسه، ص249.

[3]) يوسف أحمد حواله: الحياة العلمية في إفريقية " المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، ج1، ص226.

الدراسي الذي يقدم فيها والقائم على إقرائهم لكتاب الله.[1] ولنا أن نتصور النظام الدقيق والصارم والمنهج لهذه الكتاتيب والمدارس، وهو ما يفسر تلك النجاعة المذهلة في تثقيف الشعب الأندلسي وتعليمه، وتهذيب ذوقه وتجويده.

وههنا مما ينبغي التنبيه عليه، وهو ثابت عن أصحاب البرامج التعليمية والمناهج التربوية " أن أي خطاب تربوي لا بدّ له كي يوصل فحواه، ويبلغ مغزاه، أن يعتمد نظاما تعليميا يمكنه من تحقيق غايته."[2]

واشتهر الأندلسيون بوضع تصور شامل ودقيق للبرامج التعليمية، والتربوية، ولهم في ذلك دأب وديدن عظيم، فقد وضع ابن حزم الفقيه، تصورا شاملا، وبرامجنا مفصلا اقترحه لتلقي العلم في الأندلس، خاصة بالنسبة للناشئة في رسالته "مراتب العلوم".[3]

ووجب التذكير في هذا المقام بالكتاب القيم صنفه العالم والفقيه القيرواني الشهير أبو الحسن القابسي (403هـ) بعنوان " المعلمين والمتعلمين"[4]

وإنما ذكرنا أبا الحسن القابسي هنا لأنه أستاذ لجيل كبير من الأندلسيين الذين تتلمذوا على يديه في القيروان، أو من القيروانيين والأفارقة (المغاربة) عموما الذين دخلوا إلى الأندلس كأبي عمران الفاسي، فلا نستبعد وصول هذه الرسالة إلى الأندلس، واستفادة الأندلسيين منها في مجال التعليم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن " تطور الأحوال وازدياد العمران بالحواضر الأندلسية قد احتضن تدخل الدولة في تنظيم التأديب ورعايته، ووضع الخطط لتمويله والإشراف عليه.[5] إذن فالمدارس قائمة ومنتشرة، والبرامج معدة ومفصلة، والدولة بإدارتها وإشرافها. والأساتذة بحضورهم، والشيوخ

---

[1]) يوسف أحمد حواله: الحياة العلمية في إفريقية ،ج1، ص227.

[2])عبد الهادي حميتو: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، ج1، ص78.

[3]) مجموع الرسائل: ج2/2/ص 61 - 90.

[4])ابن فرحون: الديباج المذهب،ج2، ص92، 93.

[5])عبد الهادي حميتو: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، ج1، ص78

بعلمهم، فما يمنع من قيام نهضة علمية مبرزة في الأندلس، وهذا ما جعل المستشرق خوليان ريبيرا يقول:" كان التعليم الابتدائي في إسبانيا الإسلامية، أكثر تنظيما من بقية العالم الإسلامي."[1]

وقد يتخذ العالم كتابا له خارج إشراف الدولة، فابن بشكوال يحدثنا عن إبراهيم بن مبشر الكندي(ت390هـ)، الذي اتخذ من دكان له على مقربة من جامع قرطبة كتّابا يقرئ الصغار وينقط المصاحف، ويعلم المبتدئين.[2] وأحمد بن خلف الأموي (399هـ) وقد كان معلم كُتاب وصاحب صلاة.[3]

وفي عصر الطوائف يطالعنا ابن فرحون المالكي (799هـ) في ترجمة القاضي أبي علي الصدفي، المعروف بابن سكّرة (452هـ/ 514هـ -1120م) السرقسطي، وكان إمام عصره في علم الحديث، وآخر أئمته في الأندلس، وبعد تطوافه الكبير في المشرق، ودراسته على كبار الأعلام هناك، عاد إلى الأندلس واستقر بمدرسة مرسية، ورحل إليه الناس، وقُلد القضاء بطلب أهل مرسية، فأجاد السيرة وأقام الحق.[4]

وكلمة " مدرسة مرسية" توحي بأن هذا النمط من الفضاءات التعليمية كان موجودا فعلا في الأندلس خلال تلك الفترة مع العلم أن أبا علي الصدفي قد رجع إلى الأندلس سنة (490هـ/ 1096م). وهو ما يؤكد وجود المدارس في شبه الجزيرة الأيبيرية في تلك الفترة، وهي صنائع غرّاء في مجال التعليم، وأنعم وفيره في ميدان الثقافة.

يضاف "إلى هذا الأماكن، مكانا آخران لم يكن القصد من بنائهما أن يعلم فيهما، ولكنها وبحكم طبيعة رسالتها الإحسانية والدينية. كان لهما إسهام في نشر العلم وتوعية رُوّادهما بنفعه، ذانك هما السقائف والرباطات."[5]

---

[1]) التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص35.

[2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص86، 87، ترجمة (193).

[3]) المصدر نفسه: ص75.ترجمة (158).

[4])ابن فرحون: الذيباج المذهب، ج2، ص288 وما بعدها، ترجمة(199).

[5] : حسن الوراكلي: وهج وأرج، مراجعات في التراث الأندلسي، ص178.

أما السقائف فقد كانت تقوم في الغالب بجوار المساجد الجوامع، وعلى أطرافها، فقد كانت تؤوي كل غريب ومسافر، أو عابر سبيل، أو طلبة العلم البعيدين عن دورهم وأهليهم، وقد كانت هذا الطائفة تنتفع بدروس ومحاضرات الشيوخ والفقهاء وأهل العلم، الذين يرتادون هذه السقائف بانتظام، حيث يقرئون الناس ويعلمونهم مسائل الدين، و أبواب الفقه والحديث وأركان العقيدة، وباقي العلوم الأخرى.

" وأما الرباطات، أو الأربطة، فهي مبان حصينة منيعة كانت تشيّد على السواحل والثغور والحدود لإيواء الذين يتولوْن الحراسة، والدفاع عن أراضي المسلمين، وكانت إلى ذلك تؤدي المسافرين وأبناء السبيل، وقد دعا اجتماع هؤلاء وأولئك في هذه الأربطة ، وهم في الأغلب أهل دين وفضل وصلاح، إلى عقد مجالس تعليم وإقراء ووعظ وإرشاد".[1]

وقد كانت الأندلس حصنا من حصون الإسلام، وإحدى قلاعه المنيعة وأعمدته الرفيعة وقد كانت حدودها وثغورها كلها رباطات منذ فتحها وحتى سقوطها. وهذا الحميدي يقول عن الأندلس:" وانتهاء آخر المعمور فيه... وهي ثغر من ثغور المسلمين بمجاورتهم الروم واتصال بلادهم ببلادهم."[2]

ووصف ابن بسام شبه الجزيرة الأيبيرية وأهلها قائلا:" على كونهم بهذا الإقليم، ومصاقبتهم لطوائف الروم، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الإسلامية، وأقصى خطى المآثر العربية، ليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط، والروم والقوط."[3]

ولنا أن نتخيل طول الحدود الأندلسية المتاخمة للممالك المسيحية في الشمال أو في الشرق، وحتى على المناطق الساحلية، فطول الحدود يفرض كثرة الرباطات.

ومن المعروف في تاريخ الإسلام أن المرابطين والمجاهدين على الثغور كانوا من أهل التقوى والصلاح والعارفين بالله. لا يخلو رباط من ذكر الله، ومن العلوم الفقهية ومن الحديث، ولم لا ، التذاكر في الأمور اللغوية والأدبية، وقد يختلي أحد المرابطين في مكان ما، فينظم شعرا يستحث به شجاعة إخوانه. أو يهيجُه الشوق ويستبد به الحنين، إلى أهله وداره ووطنه، فيكتب وينظم في ذلك.

---

[1]) حسن الوراكلي: وهج وأرج، مراجعات في التراث الأندلسي ،ص 178.

[2])الجذوة: ص14.

[3])الذخيرة: ق1/1/ص14.

ولا يتصور الباحث أن المرابطين على الثغور كانت أوقاتهم كلها جهادا، فالصّدامات مع الآخر كانت أحيانا فقط، وفي أوقات النزاع والحروب، أما على طول فترات السلم فالعلوم والمعارف هي الرفيق الوحيد لجلسات هؤلاء.

كما أن فقه الحرب والتشريعات الحربية نشأت في ظل الرباطات المقامة على التخوم. لأنهم يحتاجون إلى هذه القضايا، ويتعرضون إلى مثل هذه المواقف.وكان في المشرق الإمام الأوزاعي* وفي الشام بالضبط، وهو المشهور عنه تلك الفتاوى المتعلقة بالحرب، والتي أوردها الإمام الشافعي في كتابه " الأم" بعنوان " سير الإمام الأوزاعي".

وإذا أخذنا في الحسبان دخول مذهب الإمام الأوزاعي أولا إلى الأندلس رفقة الشاميين الداخلين إلى الأندلس، وبني مروان الذين كانوا يدينون بمذهبه قبل أن يتحولوا إلى مذهب الإمام مالك** أضف

---

*الأوزاعي (88هـ/ 157م) أبو عمرو الشامي الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو، كان إمام أهل الشام في عصره بلا مزاحمة ولا مخالفة، كان أهل الشام والمغرب على مذهبه قبل انتقالهم إلى مذهب مالك – رحمه الله - وهو من تابعي التابعين، روى عن كبار التابعين كعطاء بن أبي رباح وقتادة، ونافع مولى ابن عمر والزهري محمد بن المنكدر وغيرهم، وروى عنه جماعة من التابعين وشيوخه كقتادة والزهري، ويحيى بن أبي كثير وجماعات من أقرانهم، وكبار العلماء كسفيان ومالك وشعبة وابن المبارك وخلائق لا يحصون. وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته، وعلو مرتبته وكمال فضله، وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة تنسكه بالسنة، وبراعته في الفصاحة، وقيل: أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة أو نحوها، وقال آخرون: أفتى في ثمانين ألف مسألة./النووي:التهذيب، ج1، ص327 و ما بعدها (355).

**كان أهل الأندلس في بداية أمرهم على مذهب الإمام الأوزاعي قبل انتقالهم إلى مذهب الإمام مالك – رحمه الله - ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك، فقد فتحت الأندلس في زمن الأمويين الذين كانوا على مذهب الإمام الأوزاعي، إمام أهل الشام فأدخلوا هذا المذهب إلى الأندلس، وترسخ هناك مدة من الزمن. يقول الونشريسي في أهل الأندلس:" هذا مع أنهم لم يُعلم لهم تقليد ظاهر والتزام لمذهب، إلا ما كانوا عليه من مذهب الأوزاعي منذ فتحت إلى أن جاء المرتحلون منها إلى مالك والآخذون عنه ممن عد في الطبقة الأولى من أصحابه"./ المعيار المعرب، ج6، ص356. وانظر الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، ص113./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص230./ بلانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص17./ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج2، ص82./ وانظر كذلك المؤلف نفسه: ظهر الإسلام، ج3، ص26./ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص480./ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، الجيزة ، القاهرة، مصر، دت، ص433.
وقد دخل هذا المذهب إلى الأندلس عن طريق صعصعة بن سلام (ت 192هـ أو 180هـ) والذي يقول عنه ابن الفرضي: " يروي عن الأوزاعي وسعيد عبد العزيز ونظرائهما من الشاميين، وكانت الفتيا دائرة عليه بالأندلس أيام عبد الرحمن بن معاوية، وصدرا من أيام هشام بن عبد الرحمن، ووليَ الصلاة بقرطبة، وفي أيامه غرست الشجر في المسجد الجامع، وهو مذهب الأوزاعي والشاميين ويكرهه مالك وأصحابه." تاريخ علماء الأندلس، ص168، 169. رقم (610)، ويقول عنه الحميدي:" أندلسي فقيه من أصحاب الأوزاعي مات سنة اثنتين وتسعين ومائة، قدم مصر وروى عن الأوزاعي، ثم صار إلى الأندلس وكتب عنه هناك، و لم يزل بالأندلس

=إلى زمن هشام بن عبد الرحمن، وتوفي بها قريبا من ثمانين ومائة، و كان أول من أدخل الحديث إلى الأندلس." الجذوة، ص214. رقم (510)./ الضبي: البغية، ص281. رقم (853).

إلا أن كتب التاريخ والتراجم تذكر رجلا كانت وفاته قبل وفاة صعصعة بن سلام، هو أسد بن عبد الرحمن بن السبيىء (ت150هـ) وهو فقيه من إلبيرة يروي عن مكحول والأوزاعي ، قال أبو أسعد: ذكره الخشني يعني ابن حارث في كتابه، قال: وليَ قضاء البيرة في إمرة عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)، وكان حيا بعد سنة خمسين ومائة. " ابن الفرضى: تاريخ العلماء بالأندلس، ص71. رقم (239)./ الحميدي: الجذوة، ص152. رقم (320) حيث ذكره باسم (السائي)./ الضبي: البغية، ص203، 204. رقم (569).

ونحن نعتقد أن أسد بن عبد الرحمن بن السبيىء هو أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس وكان زهير بن مالك البلوي فقيها على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية، وكان عبد المالك بن حبيب السلمى يعذل زهيرا على انحرافه عن مذهب أهل المدينة، وتمسكه برأي الأوزاعي، فكان يقول له: حسدتني إذ انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد، وتوفي في صدر إمرة الأمير محمد بن عبد الرحمن. " ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ص131, رقم (456)./ الحميدي: الجذوة، ص 194، رقم (447)./ الالضبي: البغية، ص256. رقم (760). وقال عنه: " أندلسي فقيه كان يفتي بقول الأوزاعي مات قبل الخمسين ومائتين."

ومن أشهر رجال الأوزاعية في الأندلس في زمن بني مروان، عبد الملك بن الحسن المعروف بزونان (ت232هـ) وينتهي نسبة إلى رافع بن أبي رافع مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أهل قرطبة روى عن صعصعة بن سلام وكان مفتيا في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن وأيام عبد الرحمن بن الحكم. وكان يذهب أولا مذهب أبي عمرو الأوزاعي، ثم رجع إلى مذهب المدنيين./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص220. رقم (815)./ الحميدي: الجذوة، ص250. رقم (627)./ الضبي: البغية، ص328. رقم (1062). وقد أورد له الونشريسي فتوى في المعيار المعرب، ج6، ص220.

و من أشهر رجالات الأوزاعية في تلك الفترة القاضي المصعب بن عمران يشاور في شأنه صعصعة بن سلام وغيره، وقال فيه ابن عبد البر وقد ذكره: يكنى أبا محمد، شامي الأصل، دخل الأندلس، في أيام الأمير عبد الرحمن واستقضاه هشام، وكان يروي عن الأوزاعي وغيره، وكان لا يقلد مذهبا، ويقضي بما يراه صوابا. وكان خيّرا فاضلا."/ القاضي النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص61.

وشيء طبيعي أن يتخذ الأمويون في الأندلس مذهب الإمام الأوزاعي، وهو من البيئة الشامية أين كان أجدادهم يحكمون الدولة الإسلامية من عاصمة الخلافة دمشق، واتخذ الأمويون من البيئة الشامية، أسلوبا لحياتهم، ونظم معيشتهم ولهذا فقد اصطبغت فترة حكم بني أمية في مراحل حكمهم الأولى بما عرف عند الباحثين باسم " التقليد الشامي" ولا ننسى في هذا المجال تلك الطوالع الأولى من الجيوش الإسلامية التي دخلت الأندلس، مثل طالعه بلج بن بشير القشيري، التي ضمت آلاف الشاميين، وكلهم حمل التقليد الشامي إلى البيئة الأندلسية وفي هذا الإطار يقول حسين مؤنس: "إن الدولة الإسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجيئ طالعة بلج بن بشير فقد أصبح أهل الشام أصحابها وذوي المكانة العليا فيها. وهذا ما يعرف في تاريخ الأندلس بالتقليد الشامي، وقد أيد أمراء بني أمية هذه الشامية على طول تاريخهم حتى إن الأمير محمدا رفع الشاميين فوق غيرهم، وقرر لهم ذلك الامتياز الذي سيحافظون عليه حتى إمارة عبد الرحمن الناصر على الأقل. " فجر الأندلس، ص612.

وقد سبق قولنا أن فقه الإمام الأوزاعي متعلق بالتشريعات الحربية، وكانت الطوالع كلها بما فيها الشامية جنودا تؤلف جموع المسلمين الداخلين إلى الأندلس حتى إن قاضي المسلمين آنذاك يسمى "قاضي الجند" ولم يُقل له قاضي الجماعة – أي قاضي القضاة - وإن تسمية القاضي اليوم بقاضي الجماعة اسم محدث لم يكن في القديم كما يقول النبهاني في المرقبة ،ص 36 ، 37. وانظر حسين مؤنس فجر الأندلس، ص481.

ومن الطوابع الشامية التي احتفظ بها الشاميون والأمويون في الأندلس، غرس الأشجار في صحون المساجد، وهو مذهب الإمام الأوزاعي./ القاضي النبهاني: المرقبة العليا، ص66.كل ذلك كان جزءا من هوية الأندلسيين الاجتماعية والبيئية والثقافية، والحضارية بشكل عام.

=أما انقراض مذهب الإمام الأوزاعي وتلاشي صيت الأوزاعية، فقد اجتهد كثير من الباحثين وهذا أحدهم يقول:" ولسنا نملك من الأسباب والدواعي التي نعلل بها إخفاقها – أي الأوزاعية - في جلب الأتباع وصيانة المذهب إلا سوء التوزيع الجغرافي، إذ تفرق دعاتها في أماكن بعيدة عن طريق الحجيج إلى الأماكن المقدسة والحجاز، فضلا عن أن فقهاء الأوزاعية لم يتح لهم من دوافع الحماسة والغيرة المذهبية وأسباب المؤازرة السلطانية ما يسعفهم في الذّب عن المذهب والتكمين له." انظر قطب الريسوني في مقدمته لتحقيق كتاب نوازل سعيد بن بشتغيراللورقي، ص48 وهامشها.

وبعد اندثار مذهب الأوزاعي في الأندلس، حل محله مذهب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس الأصبحي حيث تقلد الأندلسيون هو المذهب السائد في شبه الجزيرة الأيبيرية حتى سقوطها عام (1492م).أما عن أسباب اعتناق الأندلسيين فقد ذكر المؤرخون والباحثون عدة أسباب سياسية واجتماعية وإقليمية وغيرها.

يقول الونشريسي في المعيار المعرب:" هذا مع أنهم لم يعلم لهم تقليد ظاهر والتزام لمذهب إلا ما كانوا عليه من مذهب الأوزاعي منذ فتحت إلى أن جاء المرتحلون منها إلى مالك والآخذون عنه ممن عد في الطبقة الأولى من أصحابه مثل زياد بن عبد الرحمن، والغازي بن قيس، وقرعوس بن العباس وأضرابهم فنشروا علمه وأشاعوا أمانته وفضله، فعرف حقه، ودرس مذهبه. "ج6، ص356 .

ويضيف الونشريسي أن هذا المذهب استقر بالأندلس على عهد هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس حينئذ جميع الناس بإلزامهم بمذهب مالك وصيّر القضاء والفتيا علية. " المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أما المقري فقد جعل دخول مذهب الإمام مالك في عهد الحكم بن هشام حيث قال: " ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل – وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين - انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا بل والمغرب، وذلك برأي الحكم واختياره، واختلفوا في السبب المقتضي لذلك، فذهب الجمهور إلى أن سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه، وجلالة قدره، فأعظموه كما قدمنا ذلك، وقيل: إن الإمام مالكاً سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصف له سيرته، فأعجبت مالكاً لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية، وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ، فقال الإمام مالك – رضي الله تعالى عنه – لذلك المخبر: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، أو كلاما هذا معناه، فنميت المسألة إلى ملك الأندلس، مع ما علم من جلالة مالك ودينه، فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي. " نفح الطيب، ج3، ص230. وقبل الونشريسي والمقري التلمساني أكد ابن القوطية في كتابه " تاريخ افتتاح الأندلس" أن الأمر وقع في زمن هشام./ ص 46. رغم أنه ذكر في موضع آخر من كتابه أنه في عهد عبد الرحمن بن معاوية الداخل، والد هشام حيث دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك، رحمه الله وبقراءة نافع بن أبي نعيم. ص41، وذكر صاحب " أخبار مجموعة" أن سيرة الأمير هشام بن عبد الرحمن هي التي ذكرت عند الإمام مالك – رحمه الله - فأثنى على صاحبها، ص160.

أما الناصر السلاوي صاحب كتاب " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" فقد ذكر أن مالكاً رحمه الله سألهم عن سيرة عبد الرحمن الداخل، ج1، ص114. رغم أنه في موضع آخر يؤكد أن مذهب مالك – رحمه الله – ظهر في زمن هشام بن عبد الرحمن على يد تلاميذ مالك المباشرين مثل شبطون وقرعوس بن العباس، وعيسى بن دينار ، وسعد بن أبي هند ، وغيرهم./المصدر نفسه، ص113، 114.

أما ابن خلدون فيقول في مقدمته إن عبد الملك بن حبيب قد رحل فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة. " (تحقيق علي عبد الواحد وافي) ، ج3، ص955، 956.

ويعطي ابن خلدون تعليلا آخر إقليميا واجتماعيا فيقول: " وأما مالك رحمه الله، فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره، إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خارج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك، وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته. " المقدمة (تحقيق علي عبد الواحد وافي)، ج3، ص954 ،ثم يضيف قائلا:" وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم

إلى ذلك تشابه الأوضاع والظروف بين القطرين (الشام بمحاذاة الروم البيزنطيين) و(الأندلس بمحاذاة ممالك الشمال المسيحيين)، اقتنعنا بصحة هذه الرؤى.

وكم من عالم أندلسي كبير شهدت له الرباطات والثغور بفضله وعلمه وزهده وتقواه، بل إن كثرا منهم قد استشهد على هذه التخوم، وأبو علي الصدفي العالم الكبير نفسه قد استشهد في موقعة في ثغور الأندلس سنة (514هـ) .[1]

ب - المكتبات وهواة جمع الكتب:

عرف الأندلسيون بعنايتهم الفائقة في جمع الكتب وتأليفها، وتصنيفها، وتصفيفها وحسن تجليدها، وتطريزها والمحافظة عليها، وذلك في مختلف الفنون وأنواعها، والعلوم وفروعها.وهو مظهر من مظاهر النشاط الثقافي والعلمي الذي شهدته الأندلس عصر الطوائف.

"ومن الطبيعي وقد شهدت الأندلس في هذا العصر أزهى عصورها العلمية. أن يكون الكتاب - وهو مصدر المعرفة – أرقى منزلة وأعظم مكانة في قلوب أهل العلم على اختلاف مشاربهم وميولهم الفكرية، فنال الكتاب كثيرا من الاهتمام والعناية".[2]

=يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب." / المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأي ابن خلدون في تعليله لأسباب دخول المذهب المالكي إلى المغرب والأندلس، وإن كنا نوافقه في رأيه الأول حول بعد العراق عن الأندلس، فهو ليس في طريق الحجيج، وكل من أراد التقديس، رغم أن طلب العلم في العراق من جانب الأندلسيين قد تم بعد فتح المسلمين للأندلس بزمن يسير، وقد لاحظنا في الفصل الأول من البحث أن عهد الإمارة وخاصة في سنوات حكم عبد الرحمن الأوسط (الثاني) قد شهد تواصلا ثقافيا كثيفا بين الأندلس والعراق، ولم يكن بعد المسافة بين المركزين بعائق يوما عن التواصل بينهما.

أما قضية البداوة والتي ذكرها بن خلدون محاولا عقد مشابهة بين البيئتين الحجازية والمغرب والأندلس، فيستحيل قبولها واعتمادها سببا رئيسا في رسوخ المذهب المالكي، والدليل أن البيئة الحجازية نفسها تخلت عن المذهب المالكي لصالح المذهب الحنبلي الذي نشأ في العراق على يد الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله - والشيء المؤكد أن السبب السياسي كان مهما جدا في تثبيت أركان المذهب المالكي في الأندلس على حساب المذاهب الأخرى، وخاصة المذهب الحنفي، المذهب الرسمي للدولة العباسية، خصوم الأمويين في الأندلس./ وحول أسباب انتشار المذهب المالكي في الأندلس ينظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص121 وما بعدها./ يوسف بن أحمد حوالة: الحياة العلمية في إفريقية، منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، ج1، ص293 وما بعدها./ وانظر مقدمه قطب الريسوني في تحقيقه لكتاب نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغير اللورقي ، ص 45 وما بعدها.

[1] ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص289.

[2] سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الطوائف، ص211.

وقد واكب ذلك كله انتشارُ – وعلى نطاق واسع – ظاهرة المكتبات وخزائن الكتب العامة والخاصة، وفي أزقة المدن وعلى جنبات الأرباض، وفي المساجد والكتاتيب، وعند وجهاء القوم وعليتهم، وسادتهم وكبرائهم، فضلا عن حكامهم.

إن ظاهرة اقتناء الكتب عن الأندلسيين، إنما تعبر عن الأهمية القصوى لهذه الشرائط الضرورية للتحصيل، بل إن البعض قد جعل من اقتناء الكتاب، واتخاذ المكاتب وسيلة احترام ووجاهة، ومن ضرورات الانتساب إلى الطبقة النبيلة التي تجمع إلى سعة المال، وأبّهة الحكم، ديباجة الثقافة وإشراقة المعرفة.

وكان لأهمية الكتاب نصيب من تعبيرات الفقيه ابن حزم الأندلسي في رسالته " مراتب العلوم" حيث قال: " التعب فيه، وإنفاق المال عليه، والاستكثار من الكتب، فلن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به، فإذ لا سبيل إلى ذلك. فالكتب نِعم الخازنة له إذا طلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد."[1]

أما جرجى زيدان فيقول حول هذا الظاهرة الحضارية:" وأصبح اقتناء الكتب من علامات الحضارة التي يتسابق إليه أصحاب الأموال، وطلاب الشهرة وإن كانوا من غير أهل العلم وإنما يتفاخرون باقتنائها ويبالغون في اقتناء خطّها، وتزيين جلودها وزخرفنها ويتنافسون في استخدام النسّاخ الماهرين في ذلك."[2] بل أصبح جمع الكتب والحصول عليها ميدانا للمنافسة، ليس فقط للدراية والرواية، بل وأيضا لإشباع الهواية.[3] وقد عرفت الحضارة الإسلامية بشكل عام، والأندلسية بشكل خاص هواة المكتبات وصرعى الكتب، وقد رويت في ذلك أحاديث وقصص عجيبة.

ومن ذلك ما رواه ابن سعيد عن رجل اسمه الحضرمي ، ويبدو أنه من المتأخرين قال :" أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا

---

[1])مجموع الرسائل: ج2/2/ ص77.

[2])تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط 1992م، ج2، ص455.

[3])عبد الرحمن علي الحجي: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص96.

يساوي، قال فأراني شخصا عليه لباس ورياسة، فدنوت منه وقلت: أعزك الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده، قال: فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها (لا تجعل) بها من أعيان البلدة وبقي فيها موضع يتسع لهذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال لي الحضرمي، فأرجعني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك، يعطى الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه"[1]

وفي هذا النص دلالة كافية على تلك المكانة السامية، والمرموقة، التي يكتسبها الشخص عندما يُحصل مكتبة عامرة، تحوي من الذخائر والنفائس، ما تجعل هذه الشخصية تتميز عن تلك، وكأن اقتناء الكتب، يعد من شارات الرئاسة والوجاهة عندهم.

وأكثر الأندلسيين اهتماما بالكِتاب هم القرطبيون، وقد ذكر المؤرخون في ذلك حكايات عجيبة وضربوا أمثلة مختلفة في اعتناء القرطبيين، بالكتاب والمكتبات، قال ابن سعيد في ذلك:" إن أهل قرطبة أشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة ،يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها، ليس إلا أن يقال عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به[2]

ولا يستغرب المرء في ذلك ، فقد كانت قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس في عهد الأمويين، ثم ظفر بها بنو جهور في عصر الفتنة، قبل أن تعود إلى دولة العبابيد الذين استولوا عليها إلى جانب إشبيلية فبقيت قرطبة عاصمة للفكر والثقافة هذه المدة ، وحتى فيما بعد وطبيعي أن تستجلب هذه الحاضرة إلى جانب أهل الرياسة والعلم أهل الأدب والفن ، ووجهاء القوم وكبار التجار وأصحاب الصنائع.

---

[1]) المغرب في حلى المغرب، ج1، ص ./ المقري : نفح الطيب، ج1، ص 463.

[2]) المقري : نفح الطيب، ج1، ص 462،463.

وقد اشتهرت قرطبة بمكتباتها الكبيرة، وبسوق كتبها الذي كان يقام، وكانت تعرض فيه الكنوز المعرفية الثمينة، وكان هذا السوق يستقطب محبي الكتب، وجامعي دفاترها، والباحثين عن دررها وقلائدها، من ذلك ما رواه المقري في النفح من حوار جرى بين العالمين أبي الوليد بن رشد، وأبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه:" إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية "[1].

ولا مندوحة هنا من ذكر كلمة الحجاري في قرطبة إنها كانت ينبوعا متفجر العلوم ودار صوب وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح، بها أنشئت التآليف الرائعة، وصنفت التصانيف الفائقة.[2] إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء، ولم تزل تملك الصدور منها والحقائب، ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب.[3]

هذا ما مكّن قرطبة من تبوؤ الصدارة العلمية والمعرفية في الأندلس باعتبارها عاصمة الكتاب الأندلسية، ومكتباتها من أغنى مكتبات الأندلس وأعظمها في تلك الفترة، وقد ذكرنا نماذج من ذلك في حديثنا عن الكتب والمكتبات في عصر الخلافة.

" هذا الرصيد العلمي الضخم الذي تملكه قرطبة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ستتوزعه، على إثر الفتنة المبيدة، صدر المائة الخامسة، ملوك الطوائف الذين استبدوا بأقطار الأندلس وحواضرها"[4]

وها هو صاعد الأندلسي يطالعنا بنص يقول فيه:" واضطرت الفتنة إلى بيع ما كان بقرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع، فبيع ذلك بأوكس ثمن وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس، ووجد في خلالها أعلاق من العلوم القديمة وكانت أفلتت من أيدي

---

[1]) النفح: ج1، ص155.

[2])المصدر نفسه: ص 461.

[3])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[4])حسن الوراكلي: ياقوتة الأندلس (دراسات في التراث الأندلسي).ص15.

الممتحنين بخزانة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر، وأظهر أيضا، كل من كان عنده من الرعية رغبة في شيء منها ما كان لديه منها"[1]

ولم تكن قرطبة وحدها مشهورة بذلك، فقد نافستها حواضر أخرى في هذه الخاصية، وخاصة بعد تفكك الدولة، وقيام ممالك الطوائف، كان لزاما على ملوك الحواضر وأمرائها أن يشغلوا الناس ويستجلبوهم، وخاصة من أهل العلم والمعرفة والأدب والدين، فتحولت كل الحواضر إلى قرطبات كثيرة، رغم أن " قرطبة أكثر بلاد الله كتبا"[2]

وقد عُرفت إشبيلية أنها أقوى الحواضر في عهد بني عباد، وأعلاها شأنا، وكانت المكتبات بها كالفطريات، يتبارى الناس وأهل العلم في أسواقها من أجل الظفر بكتاب نفيس أو مصنف قيم، يكون ذخرا معرفيا لمن اكتسبه، وهو وجه آخر من أوجه النشاط المعرفي في أندلس هذه الفترة.

وكانت حاضرة ألمرية كذلك قد اشتهرت بمكتباتها، وبطليوس، وطليطلة، ومرسية، وغيرها من الحواضر الأندلسية التي كانت بها" أغنى المكاتب وأعمرها وأوفرها مادة وأكثرها، يتبارى في الجمع والتنسيق الملوك والوزراء والكتّاب، دون العلماء والأدباء والأغنياء والسوقة، فالقسم الأكبر كان يتخذها للدراسة والمراجعة والتعليم والاستفادة، والقسم الآخر لتزيين البيوت بها والافتخار بإجادة خطها ونسق تصحيحها وبهرجة جلدها."[3]

وكثير هم العلماء الذين عجّت رفوف مكتباتهم بمختلف الكتب وفي أغلب التخصصات، فجمعوا أسفارا إلى أسفارهم، وتصانيف إلى تصانيف ابتاعوها، أو بذلوا النفيس في اقتنائها، أو أُهدُوها، وربما انتسوخها بأيديهم، فحمل عنهم ذلك حتى شهروا به، وآخرون قد شرهوا نشرها كثيرا للكتب والمكتبات والجمع والتقييد، حتى لم يذكروا في سيرهم إلا بذلك.

---

[1]) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص 88.

[2]) المقري: النفح، ج1، ص 155.

[3]) محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنبين، عبد القادر سعود، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ط1، 2013/ 1434 هـ ، ص 137.

فقد كان بكر بن الحسن بن عريب القيسي (ت 430 هـ) ويعرف بابن السمّاد من أهل قرطبة، ورَّاقا حسن الحظ وكتبَ علما كثيرا.[1] ومثله أبو القاسم خلف بن عبد الله بن سعيد بن عباس بن مدير الأنصاري (427 هـ - 495 هـ) الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة، حيث كان حسن الحظ، كثير الجمع والتقييد ، وكتب علما كثيرا بخطه ورواه.[2]

وصفوهما رئيس المحدثين بقرطبة، حسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني(420 هـ - 498 هـ)، فقد كان حسن الخظ، جيد الضبط، وصحّح من الكتب ما لم يصححه غيره من الحفاظ، كتبه حجة بالغة"[3]

ويذكر ابن الأبار القضاعي عن أبي عبيد البكري الأندلسي وكيف أن تواليفه قلائد في أجياد الأيام، وذكر عنه أنه كان يمسك كتبه في سباني الشرب وغيرها إكراما لها.[4]

ويحدثنا ابن الأبار عن محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي (ت 423 هـ) من أهل قرطبة وصاحب " التاريخ في الدولة العامرية" يكنى أبا الوليد، كان حافظا للغة مشاركا في الأدب، من أعلم الناس بالكتب وعللها وألهجهم بجمعها، وأفرزهم لخطوطها، وأنسبهم لها إلى ورّاقها، كان يقابل كتب محمد بن أبي عامر المنصور، وولده من بعده، مثقفا لخزائنهم الرفيعة مع تقييدهم لتاريخهم، وأوطن الجزائر الشرقية في كنف مجاهد العامري وولي الأحكام هناك إلى أن توفي بها.[5]

وهذا أحد الداخلين إلى الأندلس واسمه أبو بكر محمد بن علي بن الحسن بن علي التميمي الغوثي، أبو بكر بن البر، الذي قدم الأندلس عام ستين أو نحوه، كان متحققا بعلوم اللغة والأدب، جيدَ الخط، محكمَ الضبط، مقيدا مفيدا، أكثر من ضمّ الأصول، وعني بالبحث عنها حتى جمع منها، ما لم يجمعه أحد غيره.[6]

---

[1]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق : الهراس)، ج1، ص 177، رقم (577).

[2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 153 ، رقم (395).

[3]) المصدر نفسه: ص 130، 131 .رقم (330).

[4]) الحلة السيراء: (طبعة دار الكتب العلمية) ، ص 271.

[5])التكملة (تحقيق الهراس) ، ج1، ص 310 ، رقم(1089).

[6]) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، م1/8/ص 328، رقم (124).

ومن نصراء العلم وهواة الكتب في هذه الفترة ابن اللبّان (482 هـ) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الصنهاجي من أهل قرطبة، ومن أهل النباهة والمعرفة كامل الأدوات حسنُ الحظ[1].

ويحدثنا ابن الزبير عن رجل عالم فقيه من أهل إلبيرة واسمه عمر بن خلف بن محمد الهمداني، وكنيته أبو حفص، ويعرف بابن قبلال (ت 500 هـ) قد كتب المدونة بخطه وقرأها وأتقن قراءتها[2].

أما صرعى الكتب والجمع والتقييد من أهل مالقة، فلا يكاد يحصيهم جمع ولا عدّ، منهم محمد بن سليمان بن أحمد النفزي(437 هـ / 525 هـ) الذي عُمّر طويلا وروى كثيرا من كتب الأدب وغيرها، وكان كثير التطواف بمدن الأندلس وحواضرها، حتى إنه سكن مدة قرطبة وأقرأ بها، وعنه حُملت معظم كتب الأدب واللغات، لأنه كان محققا فيها ذاكرا لها وقد ذكر عنه تلميذة أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض قال: كان شيخا مسنا من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب.[3]

ويشير ابن بسام الأندلسي في مصنفه بعد أن أورد حكاية فقال: وجدتها في بعض تعاليق الفقيه أبي محمد بن حزم الشافعي بخطّه عن محمد بن الحسن المنحجي المعروف بابن الكتّاني المتطبب[4] وقد أكّد قائلا: وهكذا وجدت خبر هذه الأبيات بخط الفقيه أبي محمد المذكور[5]

وكان الفقيه أبو محمد بن حزم نفسه قد جمع من الكتب في علوم الحديث، والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا، وسمع سماعا جما.[6]

وفي شعره الذي قاله بعد أن أحرق له المعتضد بن عبّاد كتبه دلالة على عظم مكتبته وفي ذلك يقول:

- فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي❖❖❖ تضمنه القرطاس بل هو في صدري
- يسير معي حيث استقلت ركائبي ❖❖❖ ينزل إن أنزل ويدفن في قبري

---

[1]) ابن الزبير الغرناطي: صلة الصلة، ص 102، رقم(292).

[2]) المصدر نفسه: ص 193، رقم (560) .

[3]) ابن عسكر، ابن خميس: أعلام مالقة، ص 80، 81، رقم (5).

[4]) الذخيرة، ق 1/3/ص318.

[5]) المصدر نفسه، ص 319.

[6]) راجع ذلك في ترجمته عند ابن خلكان في وفيات الأعيان، ج2، ص 155 - 157.

- دعوني من إحراق رق وكاغد ❖❖❖ وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
- وإلا فعودوا في المكاتب بدأة❖❖❖ فكم دون ما تبغون لله من ستر[1]

وذكر الضبّي في ترجمة عبد الله بن حيان الأروشي(ت487 هـ) نزيل بلنسية، أنه كانت له همة في اقتناء الكتب وجمعها، ذكر ابن علقمة* في تاريخه أن ابن ذي النون صاحب بلنسية أخذ كتب الأروشي من داره وسيقت إلى قصره، وذلك مائة عدل وثلاث وأربعون عدلا من أعدال الحمالين، يقدر كل عدل منها بعشر أرباع، وقيل إنه كان قد أخفى منها نحو الثلث.[2]

كان جمع الكتب، وإنشاء المكتبات أمرا مألوفا عند العلماء وأهل الاختصاص"، إما بالنسخ أو بالاستكتاب أو بالشراء، وربما كانت بعطايا الأمراء والمثرين أو وقفهم"[3] والأمر سيان عند الملوك والرؤساء الذين اجتهدوا في تعزيز هذه المكتبات وبناء العمران اللائق لها، وروّجوا أسواقها في جميع ممالك الطوائف.

وأمام غواية العلم وأريحية المعرفة، منضافين إلى عطف الملوك في هذا الشأن، سيق أهل العلم إلى ذلك، ومضى كل ذي قريحة ولب إلى التحصيل، وأنشئت لهذه الكتب في مختلف الممالك والحواضر والمدن والأرباض، خزائن فاخرة، وصُرفت عليها أموال وافرة، وحبسوا عليها أوقافا زاخرة، وهو دلالة على المستوى الذي بلغت إليه الحضارة والثقافة الأندلسية من المقام الرفيع والدرجات العلى في عصر الطوائف، بالرغم من التشرذم السياسي.

فقد ذكرنا في ترجمة عبد الله بن حيان الأروشي، كيف أخذت كتبه من داره وسيقت إلى قصر ابن ذي النون صاحب بلنسية، وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية من هواة جمع الكتب كذلك، ومن كبار مقتنيها، وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله في ذلك همة عالية ، حيث

---

[1]) ابن بسام : الذخيرة ، ق 1/1/ ص 171.

* ابن علقمة (509 هـ) محمد بن الخلف بن الحسن أبو عبد الله، مؤرخ أندلسي من أهل بلنسية له تاريخ سماه (البيان الواضح في علم الملم الفادح).

[2]) بغية الملتمس، ص 298 ، رقم (920)

[3]) ابن الكتاني: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألّف في الكتب ، ص 166.

ألّف له الأعلم الشنتمري (476 هـ) أديب عصره، ولغوي زمانه،(شرح الأشعار الستة) و(شرح الحماسة) وألف غيره دواوين تصانيف لم تخرج للناس[1].

وفي حديث ابن عذاري المراكشي عن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، أنه كان من أهل العفاف والعلم، قصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب وألّفوا له تآليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صلتهم على ذلك بآلاف الدنانير، ومضى على ذلك طول عمره[2] وقال ابن حيان عنه" إنه جمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة "[3] وأكد ابن الخطيب هذه الصفات عنه حيث قال:" إنه جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن، ويشاركون في فنون من العلم، يجَملونه بها، ويشرفون دولته[4].

وكان ملك بطليوس، ابن الأفطس، محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة كثير الأدب جم المعرفة، محبا لأهل العلم، جماعة للكتب ذا خزانة عظيمة، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة.[5]

وكان جلّ ملوك الطوائف تقريبا على هذه الطريقة الحميدة في ما يتعلق بإنشاء المكتبات وجمع الكتب، اتبعهم في ذلك وزرائهم وكتّابهم، حتى بلغ بعضهم مبلغ لم يبلغه رؤسائهم.

مثال ذلك وزير زهير العامري، أحمد بن عباس، نقد رويت أخبار عن مكتبته العظيمة، وكان هو كذلك كاتبا حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، قوي المعرفة، شارعا في الفقه مشاركا في العلوم، جمّاعا للدفاتر، مقتنيا للجيد منها، مغاليا فيها، نفّاعا من خصه بشيء منها. لا يستخرج منه شيء للؤمه إلا في سبيلها، أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها، حتى جمع منها ما لم

---

[1]) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 203.

[2]) البيان المغرب، ج3 ، ص 156.

[3]) ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ص 23.

[4])أعمال الأعلام، ص 218.

[5]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص 317، 318./ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، لبنان، د ت، ص 725، 726 .

يكن مند ملك، حكى وراقه أنه حصّلها قبل مقتله بسنة، فبلغت المجلدات في التحصيل أربعمائة ألف، وأما الدفاتر المحزومة فلم يقف على عددها لكثرتها.[1]

ولما اقتيد أسيرا إلى باديس صاحب غرناطة، قال له أريد أن تتقدم إلى حفظ دفاتري فإنها أهم ما لديّ.[2] وقيل عنه كذلك: إنه بذّ الناس في وقته في أربعة أشياء ، المال، والبخل، والعجب، والكتابة، وأكدوا أن كتبه قد بلغت أربعمائة ألف مجلد.[3]

وكان الوزير أبو عيسى بن لبون من قواد المأمون بن ذي النون، واشتهر بالعلم وجمع الكتب اشتهاره بالشجاعة وكرم الأخلاق ، وخلّف شعرا رقيقا وقد أتى على وصف مكتبته، وعلى شديد كلفه بها:

- نفضت يدي من الدنيا وقلت لها ❖❖❖ إليك عنّي فما في الحق أغتبنُ
- من كسر بيتي لي روض ومِن كتبي❖❖❖ جليسُ صدق على الأسرار مؤتمنُ
- أدري به ما جرَى في الدهر من خَبر ❖❖❖ فعنده الحق مسطور ومختزنُ
- وما مُصابي سوى موتي ويدفنني ❖❖❖ قوم وما لهم علم بمن دفنوا[4].

وهكذا أسهم الملوك والرؤساء والوزراء والكبراء والعلماء، ونصراء الأدب وطلاب العلم وناشدو الشهرة في تفعيل الحركة الثقافية، وخلق الجو العلمي التنافسي، وإشاعة روح المعرفة بين أوساط الأندلسيين عن طريق المكتبات الملوكية والخاصة والعامة.

" وكانت هذه المكتبات في عرف من ألمعنا إليهم نبراسا تتجلى به الرموز، ومفتاحا تنكشف به الأسرار والكنوز."[5] وهذه إحدى الوسائط المهمة في الثقافة الأندلسية.

---

[1])ابن بسام: الذخيرة ، ق1/2/ص 664، 665.

[2]) المصدر نفسه: ص 667.

[3]) ابن سعيد المغرب، ج2، ص 205، 206./ فيليب دي طرازي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج2، ص 759.

[4])المقري: نفح الطيب، ج3، ص 597 ./ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين ج2، ص 742.

[5]) فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج1، ص 90.

ولا حجة لأهل العلم والأدب في ذلك فقد توفرت لديهم الوسائل المادية والأدبية فاتجهوا صوب الإبداع، وأكبّوا على التأليف، ولم يتركوا بابا من أبواب العلم إلا طرقوه، ولا جحرا من جحور المعرفة والتخصص، إلا ولوجه، يتساوى في ذلك خاصتهم وعامتهم، رفيعهم ، ووَضيعهم، فقيرهم وغنيهم، سادتهم وكبراؤهم.

وبتوالي السنين نفق سوق الكتاب، وظهر متخصصون فيه فآثروه على كل شأن، وسعوا إلى ذلك بكل سبيل، جمعا وتحصيلا واستنساخا واقتناءً،بذلوا في سبيل ذلك كل غال ونفيس، وراموا تحصيل الكتب وتطلبوها من كل حدب وصوب.

ولهذا فقد راجت تجارة الكتب، وظهر ورّاقون ومتخصصون في بيعها وشرائها، وعرفت الأندلس أسواقا كاملة في كبريات المدن والحواضر، مخصّصة لبيع الكتب، لها روادها ومحبوها، يتصيدون فيها ما يحتاجون، وقد يجدون فيها ما لا يخطر لهم في الحسبان.[1]

صار بيع الكتاب إذن من أنواع المتاجر ولهذا ظهرت أسوق الورّاقين وقد مر بنا حوار الرجلين الذين تزايدا في ثمن كتاب وقع في سوق قرطبة. وفي إشبيلية كذلك ، كان سوق الوراقين وفي غيرها من المدن الأخرى.

ويجب التنويه بدور سوق الوراقين والوراقة* عموما في هذا الإشعاع الثقافي الأندلسي رغم أن هذه الحرفة كانت عند وسائط بشرية مختلفة من أسباب المعايش العامة ومن أسباب درور الرزق عند فئة كثيرة.

فقد كان الحسن بن بكر بن عريب القيسي السّماد السابق ذكره، قد ذكره ابن بشكوال وألحق به صفة الورّاق.[2] ومثله عريب بن عبد الرحمن القيسي السرقسطي (513 هـ) قد استقر بمرسية من أهل العربية والآداب، حسن الوراقة.[3]

---

[1] حول أسواق الكتب في الأندلس، راجع فيليب دي طرازي، المصدر نفسه، ج3، ص910.

* عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا " في صناعة الورق/ تحقيق: علي عبد الواحد وافي ، ج2، ص 889 -891.

[2])الصلة (طبعة المكتبة العصرية) ص 126، رقم(311).

[3])ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص 293.

ومثلها أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن محمود الوراق الأندلسي، سمع بمكة وجاور هناك كثيرا، وكان حسن الخط، وقد كتب من صحيح البخاري غير ما نسخة هي بأيدي الناس، وكان أستاذا للباجيّ وغيره.[1]

ومارس مهنة الوراقة إلى جانب الورّاقين المحترفين عدد كبير من العلماء والأدباء والمحدثين والمفسرين وعلماء اللغة.[2] منهم الأديب الشاعر أبو محمد عبد الله بن سارة الشنتريني الذي تبلّغ بالوراقة وله منها جانب، وبها بصر ثاقب، فانتحلها على كساد سوقها، وخلو طريقها وفيها يقول:

- أما الوراقة فهي أيكة حرفة ❖❖❖ أوراقها وثمارها الحرمانُ.
- شبهت صاحبها بصاحب إبرة ❖❖❖ تكسو العراة وجسمها عريانُ.[3]

وكان أبو حفص الزهرواي، عمر بن عبيد الله بن يوسف (ت454 هـ) وراقا جمّاعا للكتب فقد جمع كتبا ورواها، وبالغ في ذلك، حتى قال عن نفسه: شددت في داري بالربض الغربي ثمانية أحمال من كتب لإخراجها إلى مكان غيره، ولم يتم لي العزم حتى انتهبها البربر.[4]

وصنوه عبد الله بن حيان بن فرجون الأنصاري (ت487 هـ) حيث كان ذا همة في اقتناء الكتب، فجمع من ذلك شيئا عظيما.[5]

وإذا كانت " الوراقة هي حرفة الوراق أو صناعة الورق".[6] فإنها لم تنحصر في صناعة الورق وحدها، بل تناولت الاشتغال بالورق، وبكل ما يتعلق به من كتابة ونسخ وضبط وتجليد وبيع كتب.[7]

---

[1]) ابن بشكوال:الصلة (طبعة دار الكتب العلمية) ،ج153/2/2 .رقم (1179)

[2]) أيمن فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط، وعلم المخطوطات: ج1، ص 147.

[3]) ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ص 835. والأبيات عند الفتح بن خاقان في القلائد، ص 811.

[4])ابن بشكوال: الصلة (العصرية) ،ص 320 وما بعدها، رقم (863).

[5]) ابن الزبير الغرناطي : صلة الصلة، ص 51، 52 ، وذكره ابن بشكوال في الصلة (المكتبة العصرية) باسم فرحون ، ص 240،رقم (635).

[6]) فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج3، ص 823.

[7]) المصدر نفسه: ص 826.

ويدخل في مجال المكتبات والكتب والوراقة، تجليد الكتب وتجويدها وحسن العناية بها، من حسن زخرفة الكتب، وجودة الخط، وضبطه، وإتقانه، حيث كان " المجلِّدون بدورهم يتقنون لدرجة الإبداع في تجليد المخطوطات وتزويقها، ورقش قماطرها بالديباج والفضة وسائر أنواع الزخارف، وكان كل ما ذكرناهم من مؤلفين ومترجمين وخطاطين ومجلدين فضلا عن التجار والوراقين وأهل الضبط والإتقان يتنافسون أفرادا وجماعات في تعزيز المكتبات وتنشيط القائمين عليها".[1]

وتدنو صناعة الكتب في الأندلس من غايتها، وتتحدد معالم هذه الصناعة وهذا الفن، من خلال بروز الخط الأندلسي المتميز، حيث حبّر العلماء والخطّاطون به صفحات الكتب وبياض المجلدات، وهي إشارة لافتة منذ القديم، انتبه لها أحد الجغرافيين الكبار من المشارقة، وهو المقدسي، صاحب الرحلة الشهيرة، حيث قال: " وأهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة خطوطهم*مدورة ."[2] ومنه فليس عجبا أن " كل المؤلفات التي وصلت إلينا عن صناعة الكتاب العربي المخطوط كتبت كلها في بلاد المغرب والأندلس".[3]

ولا نستبعد أن التعقيد الذي طرأ على حياة الأندلسيين المادية، قد ألهم لهم كتّابهم ووَرّاقيهم وخطّاطيهم ذوقا فنيا خالصا، ولعلّ الرُقي الذي أتيح للأندلسيين في حياتهم المادية والعقلية قد دفعهم إلى هذه الألوان من الخطوط والمبتكرات.

وإننا حريّون في هذا المقام أن نذكر أن الأندلسيين لم يلبثوا أن فرّقوا من نمط الكتابة الرتيبة، حيث تجد الكتاب والخطاطين المَهرة، يستبقون في تجويد أساليب الكتابة وأنواع الخطوط، حتى استقلوا بالخط الأندلسي المتميز الذي نسب إليهم، وإننا نعتقد جازمين أنّ هذا الخط جزء من هويتهم الثقافية.

---

[1])فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج1 ، ص 91.

* كتب ابن خلدون في مقدمته (طبعة علي عبد الواحد وافي)، فصلا بعنوان" فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية." ج2، ص 879 -888 ، ثم تحدث عن تعليم الخط بالأندلس والمغرب./ المصدر نفسه، ص 879.

[2]) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص221، 222.

[3])أيمن فؤاد السيد: الكتاب العربي المخطوط، وعلم المخطوطات: ج1 ، ص 36.

ونذكر في هذا المقام عدة علماء خطّاطين اشتهروا بجودة الخط، منهم أبو القاسم بن العربي (427 هـ / 508 هـ) الذي كان معتنيا بالآثار جامعا لها. كتبَ بخطه علما كثيرا ورواه.[1]

ويحدثنا الضبي في هذا الإطار عن المقرئ الكبير، سليمان بن أبي القاسم نجاح أبي داود(ت 496 هـ) الذي كتب بخط يده كتاب البخاري في عشرة أجزاء ، وكتاب مسلم في ستة أجزاء، وقرأهما معا على الباجي، وعلى أبي العباس العذري مرات، واحتفل في تقييدهما حتى صار كل واحد منهما أصلا يقتدى به[2].

ويحكى عن الإمام أبي عبد الله محمد الأزدي الحميدي الأندلسي، تلميذ ابن حزم أنه كان كثير الاجتهاد في نسخ الكتب، فلما ارتحل على مكة صار يستنسخ الكتب بالليل من شدة القيظ وهو جالس في إجّانة ماء يتبرد به[3]

وكان أبو علي الصدفي القاضي الشهير حسين بن محمد بن فيره، السرقسطي عالما حسن الحظ، جيد الضبط، كتب بيده علما كثيرا وقيّده.[4] وأبو عبد الله بن محمد إبراهيم ،ابن عبد السلام الطلطيلي الأنصاري(ت 455 هـ) مليح الحظ، حسن النقل .[5]

ولا أريد أن أتزيد هنا بسَوق أمثلة من ذلك كله، وإن كان يجب التنويه في هذا المقام بجهد النساء الخطّاطات العالمات، الورّاقات، الكُتبيّات، وقد ذكرهن المؤرخون طويلا وأثنوا عليهن، منهن ظونة بنت عبد العزيز بن موسى بن طاهر بن منّاع (437 هـ / 506 هـ) تكنى أم حبيب، وهي زوج أبي القاسم بن مدير، أخذت عن أبي بكر عمر بن البر، وكتبت تآليفه، وكات حسنة الحظ، فاضلة، ديّنة.[6]

---

[1])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية) .ص 154 ، رقم (399).

[2]) بغية الملتمس ، ص262.

[3]) المقري : نفح الطيب، ج 2، ص 114. / فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج3، ص 873.

[4]) المقري : أزهار الرياض: ج3، ص 151 ، 152.

[5]) السيوطي : بغية الوعاة ، ص 44، رقم(21).

[6]) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص 367 ، رقم(1065).

ومرّ بنا في موضع سابق من هذا البحث الحديث عن محمد بن الكتاني المتطبب، الذي كان منفقا لسوق قيانه يعلمهن الكتابة والإعراب.[1]

وفي رسالة لابن الكتاني المتطبب هذا يقول إنه دخل في ملكه أربع روميات، كن بالأمس جاهلات، وهن الآن، عالمات، حكيمات أديبات خطاطيات (خطاطات) تدل على ذلك -لمن جهلهن - الدواوين الكبار التي ظهرت بخطوطهن في معاني القرآن وغريبه، وغير ذلك من فنونه... وهن يتعاطين كل ما ينسخنه، ويضبطنه فهمًا لمعاينة، ولكثرة تكرارهن فيه.[2]

والأمثلة متعددة عن النساء الأندلسيات، الحرائر والإماء ممن اشتغلن بالكتابة والتآليف والعلم والمعرفة، واللائي كانت خطوطهن حجّة عند أهل العلم وفي إطار حديثنا عن الكتب والمكتبات، وتلك النهضة العلمية التي شهدتها الأندلس في عصر الطوائف، وجب أن نذكر بعض الأحداث التي وقعت خارج الأندلس، وكانت سببا في هذا الإشعاع الفكري والمعرفي، من ذلك ما عرف بـ" تشتت مكتبات القيروان إثر زحفة بني هلال، فإن مؤلفات الأفارقة كانت مطلوبة نافقة سواء بالأندلس وصقلية وبلاد المغرب أو المشرق.[3]

ومر بنا سابقا أن كتاب " زهر الآداب " لإبراهيم الحصري القيرواني (413 هـ) كان مبرمجا في دراسات الأندلسيين[4] وابن شرف القيرواني الذي كان ينوي إهداء أمير غرناطة كتابه "أبكار الأفكار" الذي ألّفه بإفريقية.[5]

وذكرنا قبلا في المبحث المتعلق بالتواصل الثقافي بين الأندلس وإفريقية (تونس) العديد من الأعلام الأفارقة الداخلين إلى الأندلس في هذه الفترة والهاربين من جحيم الزحفة الهلالية.

فإذا قدّرنا حجم السيولة المهاجرة ونوعية بعض المهاجرين، وما حملوه من مؤلفات تَبين لنا أهمية ما أدخلوه إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، وكيف أنهم أغنوا المكتبات الأندلسية في زمن الطوائف حيث

---

[1])ابن بسام: الذخيرة، ق1/3/ص 319.

[2]) المصدر نفسه : ص 320.

[3]) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج2، ص 551.

[4]) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيزي، ج2، ص 552. / ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 380.

[5]) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيزي، ج2 ، ص 552.

تعددت فيها الحواضر الإسلامية على التماس مع السواحل الأيبيرية، وفي هذا الإطار يقول أحد الباحثين:" ولا ننسى أن مخطوطات عربية كانت تصل أيضا إلى الأندلس من أقصى أرجاء العالم الإسلامي، وهذا في حد ذاته يشهد لصالح ألمعية الأوساط الأكاديمية في إسبانيا الإسلامية."[1]

هذه الحواضر الإسلامية المتوزعة على ربوع الفضاء الجغرافي الإسلامي كانت موردًا مهما، ومَعينا ثرّا للمكتبة الأندلسية بشكل عام، فإذا هاجر الأندلسيون إلى هذه الحواضر جلبوا ما أمكنهم حفظا واستنساخا ورواية ، وإذا دخل غير الأندلسيين قدموا بعلم جمّ ومحصول معرفي وفير، وأدخلوا من الكنوز ما يقدم النوعية الإضافية اللازمة والمفيدة إلى المكتبة الأندلسية.

ومثال ذلك ما ذكر عن حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم بن الطرابلسي(ت469 هـ) الذي دخل بلاد الأندلس بعلم جم، وكان ممن عني بتقييد العلم وضبطه، وكتب أكثر كتبه بخطه، وكان مليح الكتابة، وكانت كتبه في غاية الإتقان.[2]

والكرماني (ت458 هـ) الذي جلب معه رسائل إخوان الصفا بعد رحلته إلى المشرق، ولا نعلم أحدا أدخلها إلى الأندلس قبله.[3] وكان ابن الضابط الصفاقسي (442 هـ / 1050 م) أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود الصدفي، أول من أدخل إلى الأندلس غريب الحديث للخطابي.[4]

وأبو الفضل الدارمي البغدادي، كان أول من أدخل إلى الأندلس كتاب يتيمة الدهر للثعالبي.[5] وكان أبو بكر بن العربي الإشبيلي المعافري، بعد عودته إلى الأندلس سنة(493 هـ) قدم إلى إشبيلية بعلم كثير لم يدخل به أحد قبله، ممن كان له رحلة إلى المشرق[6] وأندلسي آخر كان في عصر الطوائف، وهو من أكبر فقهاء طليطلة ومحدثيها، واسمه أحمد بن مغيث الصدفي (459

---

[1]) تشارلز بيرينت(CHARLE BURNETT) : حركة الترجمة من العربية في القرون الوسطى في إسبانيا، ج 2، ص 1467.

[2]) ممدوح سعيد ممدوح: الاحتفال ، ج4، ص 391،390، رقم(2471)./ الضبي: البغية، ص 230، 231 .رقم (658)./ ابن بشكوال:الصلة (طبعة المكتبة العصرية) ص 141. وما بعدها رقم (355).

[3]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 484، 485.

[4]) ابن عبد الحي الكتاني: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألّف في الكتب، ص 146.

[5])ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ص 89.

[6])المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: ج3، ص 63.

هـ) قد جلب إلى الأندلس بعد عودته من المشرق كتبا صحاحا رويت عنه، وكان يحفظ صحيح البخاري ويعرف رجاله[1]

وقد يتهادى العلماء والأدباء الفقهاء والشعراء والفلاسفة والأطباء، الكتب فيما بينهم، وهذا الفعل والسلوك كان" يعد من الأحداث الأدبية والعلمية في آن معا إرسال المصنفات الجديدة من عالم إلى عالم، ومن بلد إلى بلد، وهو وجه آخر من المبادلات الثقافية "[2]

وقد تتم هذه الهدايا المعرفية والمبادلات الثقافية، فتعبر عن الحالة الجيدة للثقافة الأندلسية في عصر الطوائف، وربما ضمّت هذه المكتبات مؤلفات مترجمة وهو ما يزيد في غنى المكتبة الأندلسية وتنوعها، ويعد إحدى الروافد المعرفية والفكرية المهمة للثقافة الأندلسية في عصر الطوائف.

وفي ختام هذا المبحث نقول إننا تعمدنا تقسيم هذا المبحث إلى مسميات مختلفة (المكتبات ، الوراقة، الكتب) وغيرها، وهي في الحقيقة أشياء شتى تدخل في عموم التسمية، وكلها في اعتقادنا وسائط للثقافة، رعاها الأندلسيون حق رعايتها باعتبارها وسائل مهمة للتحصيل العلمي والمعرفي.

فقد كانت الحواضر الأندلسية تعجّ بمختلف المكتبات، وهي ظاهرة حضارية تعبر عن الحس الحضاري للأندلسيين، فضلا عن كونها من أساسيات نضجِ ورُقي الثقافة الأندلسية ، والفكر الأندلسي الخصيب في القرن الخامس الهجري.

وكانت المكتبات الأندلسية في عصر الطوائف العامة منها والخاصة، أقانيم يعتكف أمامها عشاق الكتب وهواة المكتبات، وقناديل يهتدي بنور ضيائها كل سالك لطريق المعرفة.

وكانت هذه المكتبات تستجيش البواعث الحية لطالب العلم الأندلسي، ولهذا كان أهل العلم كثيري الغشيان لها، ولأسواق الكتب والمكتبات، يترصدون كل بائع علهم يظفرون بنفسية من النفائس، تفيدهم في مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها.

---

[1]) ابن بشكوال:الصلة (طبعة المكتبة العصرية) .ص 66، 67 ، رقم (128).

[2])الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية في القرن الخامس في عهد بني زيري، ج2، ص 551.

والأندلسيون من أهل العلم كلهم، ليس فيهم عالم من العلماء إلا وله خزانة كتب عظيمة، حوت معارف جليلة يقصدها الطلاب من كل حدب وصوب، ومن كل حاضرة فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب في متناول القاصدين لها، الراغبين في تحصيل ما فيها، مبذولة في ذلك لهم، والصيانة مشتملة عليهم.

وقد تكون بعض هذه المكتبات داخلة في عموم الوقف، فيستفيد منها العامة، فتصبح ملكا للجميع، وظاهرة الوقف في الإسلام معروفة ومؤكدة.

وما دام سوق الكتاب رائجا والوراقة مزدهرة، فقد جوّدت هذه الصنائع بأيدي ورّاقين وخطاطين عملوا على زخرفة الكتب وتوشيتها.

وكانت المكتبات الأندلسية بما حوته من كنوز معرفية قد أوتيت حظا عظيما من الثقافة الأندلسية، شعرها ونثرها، علمها وفلسفتها، فشخصية الأندلسيين قد ظهرت في ثقافتهم، وثقافتهم هي المرآة العاكسة لهويتهم.

ونستطيع نحن الباحثين، أن نفهم ونقدر حجم الثقافة الأندلسية، وحجم الروافد والتيارات الداخلة إليها، من خلال التجوال في أروقة هذه الثقافة وتفحص معروضاتها، وذلك من خلال حجم المؤلفات الضخمة التي صنفها الأندلسيون، أو من خلال الوافدين إلى شبه الجزيرة وما حملوه معهم، وما أدخلوه من مؤلفات، اختلفت باختلاف منازعهم وأفكارهم ورؤاهم تجاه النفس والحياة، أو حتى من خلال الكتب المترجمة التي كان لها نصيب من المكتبة الأندلسية.

كل ذلك يجعلنا نفهم سر الثقافة الإسلامية المتجددة والمبدعة في أندلس الطوائف، هذه الثقافة التي عنوانها النبوغ والتميز، إنها ثقافة تتحدث إلى العقل وتحاور التفكير وتغازل القلب.

ج -المرأة الأندلسية والتعليم في عصر الطوائف:

لا يحسن الحديث عن التعلم في الأندلس دون الحديث عن التعليم بين النساء ودور المتعلمات منهن والمثقفات في الإسهام في تطور العلوم ورقي الثقافة الأندلسية في عصر الطوائف، فكم هن الأدبيات الشاعرات، والخطاطات الماهرات، والقارئات المجودات، والموسيقيات البارعات، ممن كنّ على قدر كبير من الثقافة، وحظ جليل من العلوم، والظرف والأدب، حيث يجد القارئ والباحث في آثارهن افتتانا في أنواع من العلوم كثيرة، ويعرف المدقق فضلهن من خلال ما كتب عنهن في كتب التراجم والتاريخ والطبقات.

وفي هذا الإطار يقول أحد الباحثين: " وبلغ تعليم المرأة حدّا واسعا من الانتشار يمكن أن نستنتجه مما ذكره ابن فياض في تاريخه (أخبار قرطبة) من أنه كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها."[1]

ولم تكن المرأة الأندلسية لتبلغ هذا القدر من الرفعة في طلب العلم والمعرفة، وقول الشعر، وحوك النظم، وتسطير النثر، لو لم تكن في مجتمع يعرف للمرأة قدرها، وللثقافة قيمتها، " فالأندلسيون لم يفرقوا في التعليم بين الرجل والمرأة، أو الصبي والصبية، بل رأوا من حسن التربية أن تفقه المرأة دينها، وتأخذ بشيء من الأدب، وفي عصر ملوك الطوائف لقيت المرأة عناية كبيرة، وكانت بعض النساء تقوم على تعليم بنات جنسها."[2]

وهذه الرتبة العلمية التي بلغتها المرأة الأندلسية في مجال التعليم جعلت ريبيرا يقول في شأنها: " وحينما بلغت المرأة المسلمة في إسبانيا قدرا عاليا من التعليم، والتقدير الرفيع، يمكن أن يقارن مع أكثر النساء تعليما بين الشعوب القديمة."[3]

---

[1])خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية، ص130.

[2])سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف ، ص259.

[3])التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية، ص131.

وفي هذا المقام تحدثنا المصادر عن مريم بنت أبي يعقوب الفصولي (كانت حية بعد سنة 400هـ/ 1009م) حيث كانت تعلم النساء وتعطيهن دروسا في الأدب مع الالتزام بالصون والعفاف وكانت بإشبيلية.[1]

وريحانة التي قرأت بألمرية القراءات كلها على المقرئ عثمان بن سعيد بن عثمان (444هـ/ 1052م) قال عنه الضبي: " أقرأ بمدينة ألمرية إحدى النساء الماهرات في القراءات وتدعى ريحانة: فقرأت عليه القرآن بها، وكانت تقصد خلف ستر فتقرأ ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف، فأتمت الأحرف السبعة عليه، وطلبت الإجازة فرفض ولكنه كتبها لها فيما بعد.[2]

وأشهر معلمات النساء العروضية، مولاة عبد الرحمن بن غلبون (ت 540هـ/ 1058م) من بلنسية، وكانت قد أخذت علومها من مولاها، فبرعت في النحو واللغة والعروض، حتى قال أبو داود سيلمان بن نجاح: أخذت عنها العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي القالي، والكامل للمبرد، وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا تنصهما حفظا وتتكلم عليهما، وكانت وفاتها بعد (443هـ).[3]

ولسنا بحاجة إلى التذكير بالشاعرات الكبيرات في عصر الطوائف مثل: ولادة بنت المستكفي بالله الشاعرة الشهيرة، ومهجة القرطبة بنت التياني، وغاية المنى جارية المعتصم بن صمادح، والغسانية البجانية وغيرهن من الشواعر، وسنذكرهن في الفصل الموالي من البحث.

وخلاصه القول، إن النهضة العلمية والأدبية التي شهدتها أندلس الطوائف، تشهد بصحة الثقافة الأندلسية، والتميز المعرفي للأندلس، ولكن هذا التطور المعرفي لم يكن ليبلغ ما بلغ إلا بوجود وسائط ثقافية أهلتها لذلك، ولعل أهم هذه الوسائط هي المساجد الجوامع، ومختلف المساجد

---

[1])الحميدي: جذوة المقتبس، ص372، 373. رقم (986)./ الضبي : البغية، ص474. رقم (1587)./ ابن بشكوال:الصلة (طبعة المكتبة العصرية). ص 533، 534. رقم (1540)./المقري: نفح الطيب، ج4. ص291./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص64، 65./ أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ط1، 1421هـ/2001م، ص376،363./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص303، 304.

[2])الضبي: بغية الملتمس، ص 476. رقم (1595) وكذلك، ص361.

[3])ابن الآبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج4، ص250، 251. رقم (699)./ المقري: نفح الطيب، ج4، ص171.

الأخرى. وقد كان المسجد في الإسلام دائما منار إشعاع ثقافي ومنطلق معرفة إلى جانب وظيفته الدينية، وكذلك ظل في الأندلس.

وإلى جانب المدارس كانت بيوت الشيوخ والعلماء دائما مجامع علمية، حيث يتحلق الطلبة حول معلمهم يسمعون للدروس التي تقدم في مختلف فروع المعرفة.

وقد يلقي الأستاذ دروسه في البستان أو دكانه أو إحدى الحوانيت وغيرها من الأمكنة، وإلى جانب ذلك كله ظهرت الكتاتيب لتعليم القرآن للصبيان، وتحفيظهم مبادئ العقيدة والشريعة، إلى جانب السقائف التي كانت بجوار المساجد حيث تُؤوي طلبة العلم وبعض الغرباء وأبناء السبيل، كما عرفت الأندلس نظام المدارس، حيث بنى المستنصر سبعة وعشرون مدرسة في ضواحي قرطبة، وظل هذا النظام ساريا فيما بعد، وقد رأينا القاضي ابن سكّرة بعد عودته إلى المشرق درّس في مدرسة في بلنسية، وإلى جانب ذلك كله ظهرت الرباطات المنتشرة على الثغور والتخوم والحدود، والتي أدت وظيفة تعليمية إلى جانب الجهاد.

الباب الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس ومختلف الأقطار الإسلامية، وأثره في تشكيل الهوية الثقافية للأندلس.

الفصل الأول: التواصل الثقافي الأندلسي/ المشرقي.

- ✓ **كلمة عامة في الرحلة**

المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس والحجاز.

المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والقدس.

المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والعراق.

الفصل الثاني: التواصل الثقافي الأندلسي/ وحواضر الغرب الإسلامي.

المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس ومصر.

المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والمغرب الأقصى.

المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والجزائر (المغرب الأوسط)

المبحث الرابع: التواصل الثقافي بين الأندلس وإفريقية (تونس).

المبحث الخامس: التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية.

الفصل الأول: التواصل الثقافي الأندلسي/ المشرقي.

- ✓ كلمة عامة في الرحلة

المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس والحجاز.

المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والقدس.

المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والعراق.

III- الباب الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس ومختلف الأقطار الإسلامية، أثره في تشكيل الهوية الثقافية للأندلس.

III -1- الفصل الأول: التواصل الثقافي الأندلسي/ المشرقي.

✓ كلمة عامة في الرحلة:

عرفت البشرية عبر تاريخها الطويل، الرحلة باعتبارها أداة فاعلة في سيرورة الحياة بشكل عام، وعنصرا مهما في تنشيط وتفعيل الحياة البشرية وديمومتها وحركيتها." فالرحلة حركة وسعي ونشاط.... والرحلة سلوك ملازم للإنسان، الذي دفعته الحاجة الاقتصادية، والرغبة في اكتشاف الكون المحيط به، والسيطرة على الطبيعة، إلى الحركة والانتقال من أرض إلى أرض ومن بيئة إلى أخرى، ومن ثمّ قد لعبت الرحلات أدوارا خطيرة في حياة الأمم والشعوب".[1] والإنسان عامة جاء إلى العالم بواسطة رحلة قد تطول وقد تقتصر، وتنتهي بنهاية ومن ثمّ فكل رحالة ينتهي بانتهاء طريقه.[2]

وعلى هذا الأساس فالرحلة " فتح بلداني وإسفار عن وجه الإنسان وعن أناه، وسفر إلى الهناك، ونحو الآخر، وهي لأجل ذلك بؤرة لتكوُّن الصور التي تتولد عن حزمة من الوعي متفاوتة المستويات[3]"

وقد عرفت البشرية الرحلة باعتبارها فعلا إنسانيا، في كل المراحل وبأشكال مختلفة، حاملة لتجارب وخبرات اختلط فيها اليومي بالمتخيل بتلوينات وإشارات دالة.[4]

والأمة العربية أمة رحالة بطبعها، يحكمها التنقل وكثرة الأسفار، كان ذلك جبلّة ركُبت في سجيتها، فصار من ميزاتها فعل الارتحال لأسباب متعددة، تعدّد احتياجات الإنسان، " فالرحلة العربية وهي فعل متخيل قديم ارتبط بالإنسان وبأحلامه، وبمجازفاته في سبيل البحث عن الذات

---

[1] :عثمان موافي: لون من أدب الرحلات(دراسة نقدية)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1973، ص 5.

[2] :عبد الرحيم مؤذن: الرحلة في الأدب المغربي،(النص، النوع، السياق)، مؤسسة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، ص 16.

[3] :أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية(الأنواع والخصائص)، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2008، ص 25.

[4] : شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي(التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل) رؤية للنشر والتوزيع، القـــاهرة، 2006، ص6.

عن الذات وعن مرآة الاكتشاف والتعلم، والارتماء نحو مطاردة الوحدة المفتقدة، والحفر عن المعرفة المادية والروحية.[1]

وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلة قريش في الشتاء والصيف.[2] وليس غريبا أن يسلك شعراء الجاهلية مسلكا واحدا تقريبا في كل قصائدهم، بدءا من الوقوف على الأطلال والتغزّل ووصف الرحلة والحديث عن الأغراض الأخرى، حتى صار هذا المنهج عند بعض نقاد العرب القدماء، ضربا من التقاليد الفنية الثابتة، التي لا ينبغي أن لا يحيد عنه الشاعر.[3] وهذا يدل على أهمية الرحلة ودلالتها القصوى عند الإنسان بشكل عام.

أمّا الإسلام (الدين والدولة) فقد اهتم بأمر الرحلة وتأمينها، فأضاف ثلاث رحلات جديدة إلى قائمة الرحلات التي تلبي حاجات الحياة وتنوعها، وتمثلت هذه الإضافة إلى رحلة الحج ورحلة طلب العلم ورحلة السياحة والتجوال.[4]

وقد جعل أحد الباحثين للسفر في تاريخ الرحلات العربية الإسلامية وجهتان: وجهة الدين، ووجهة الدنيا، وقد انتظمت هذه الرحلات في أنماط مختلفة: سياحية وعلمية وسفارية (دبلوماسية)، هذا بالنسبة للرحلات الدنيوية، أما الرحلات الدينية فقد كانت زيارية وصوفية وحجية أو حجازية.[5]

أمّا دوافع الرحلات فمختلفة بالنسبة لكافة المسلمين في مختلف الأقطار، وتبعا للأنماط المتعددة التي ذكرنا، فقد يكون الدافع سياحيا تجواليا، أو استطلاعيا أو اقتصاديا بالدرجة الأولى، أو دينيا أو تعليميا، وتبعا لذلك فقد تنوعت الهوية الثقافية والاجتماعية للمرتحلين، ما بين أدباء ومؤرخين وجغرافيين ولغويين وسفراء ودبلوماسيين.

---

[1] :المصدر نفسه، ص 499.

[2] :سورة قريش.

[3] : ينظر كلام ابن قتيبة الدينوري(276 هـ) حول عمود الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط1، 1966، ج1، ص 75.

([4])نواف عبد العزيز الحجمة: رحالة الغرب الإسلامي، وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري(12 -14 م) دار السويدي(أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة) الأهلية للنشر والتوزيع الأردن، ط1، 2008، ص 18.

([5])عبد الرحيم مؤذن: الرحلة في الأدب المغربي(النص، النوع، السياق) ص15.

وعليه فإذا كانت "الرحلة سفرا إلى الآخر" فإنها تقتضي تفاعلا بين الأنا والآخر يقوم على التفاهم حينا، والتوتر والخلاف حينا آخر".[1]

والتفاهم المقصود هنا؛ هو الاتفاق الحاصل بين الثقافة المتطابقة التي تستند إلى أطر مرجعية واحدة، تحدد ثوابتها و منطلقاتها وهويتها، وإن تعددت الأقطار، كما هو الحال في البلاد الإسلامية المتعددة الأمصار والبيئات.

أما التوتر والخلاف فإنه يدخل ضمن نطاق الآخر، المختلف عنا فكريا وحضاريا وروحيا، وإن حصل الاختلاف داخل الثقافة الواحدة، فقد يؤدي إلى بروز الخصوصية الثقافية أو الفكرية القطرية ، التي لا تلغى الانتماء إلى الأصل والجذر الثقافي والروحي الواحد، فأقطار الأمة الإسلامية متعددة، وكل قطر له سماته وملامحه وخصوصيته الثقافية، أضف إلى ذلك فإن تنوع المذاهب الفلسفية والفكرية، وتعدد المذاهب الفقهية، دليل على وجود هذا الاختلاف والاغتناء داخل الثقافة الواحدة.

فالرحلة نحو الآخر هي السبيل الأوحد لاكتشاف الذات وتقويتها وتنميتها وتثبيت وجودها حضاريا وفكريا وتحديد معالم هويتها ثقافيا.

لقد كانت الرحلة التي تمت بين أقطار الأمة الإسلامية، من خلال أفراد هذه الأمة سبيلا لاكتشاف أطراف العالم الإسلامي، الواسع الممتد جغرافيا، المتوحّد دينيا، والمتنوع عرقيا، وأحيانا كانت تقوم هذه الرحلات على نوع من الحس المعرفي، الاستكشافي، التزودي، وأحيانا السجالي بين المرتحل، والمرتحل إليه، فالمرتحل على هذا الأساس أحد طرفي المعادلة التي تشكل حلقة التواصل المعرفي، فهو متلق ومشارك في الوقت نفسه " في مرجعيته الدينية والفكرية والوجدانية، إنه خطاب الأنا نحوا لأنا"[2] أي من الذات الجزئية(الخصوصية القطرية) إلى الذات الكلية (وحدة أو شمولية الثقافة الإسلامية).

([1])أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية(الأنواع، الخصائص)، ص 60.

([2])عبد الرحيم مؤذن: الرحلة في الأدب المغربي (النص ، النوع، السياق) ص 157.

إن الرحلة تجيب على مجموعة من التساؤلات... كسؤال الهوية وحوار الحضارات، إجابة نجد لها مهادا في تاريخ الأندلس، بتنوعها العرقي والثقافي والديني، وما أفرزه من تعايش وتسامح، حاولت الرحلة....بلورته وإبراز بعضا منه[1]

وعليه فقد تمت الرحلات الأندلسية، من وإلى..في" وسط حافل بتقاطعات حيوية، فيها الديني والثقافي، والتاريخي والجغرافي والسياسي".[2]

فكيف كانت رحلات الأندلسيين من وإلى شبه الجزيرة الأيبيرية؟ ماهي أسسها ومنطلقاتها وما هو دورها في ازدهار العلوم والمعارف، والمساهمة في تكوين الذات الثقافية المتميزة، وخاصة في عصر شهد تمزقا سياسيا كبيرا ، وانقساما جغرافيا خطيرا، فهل يستطيع التوهج الثقافي وحرية تنقل الأفراد أن تضيء ما أظلمته السياسة؟

✓ الرحلات الأندلسية والتواصل الثقافي:

انتظمت الرحلات الأندلسية إلى مختلف الأقطار العربية والإسلامية، وحتى إلى بعض الأقطار الأخرى، الخارجة عن الحيّز الجغرافي الإسلامي، منذ أن تم فتح الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري، وقد كانت دوافع الأندلسيين مختلفة في هذه الرحلات، فمن الحج والتقديس وزيارة الأماكن التاريخية إلى طلب العلم والمعرفة، إلى السياحة والتجارة، وكذلك إلى الاستطلاع والسفارة والدبلوماسية، وقد يجمع بعض الرحالة بين أكثر من دافع، أو بين الدوافع كلها عند بعضهم، وقد يسافر بعضهم تحت ظرف من الظروف، أو بدافع معين، وقد تتغير الأهداف أو تتقاطع في رحلته.

وقد مارس الأندلسيون الرحلات على اختلاف أنمطاها " فقد كان الأندلسي بطبعه رحالة طلعة ذكيا يجب أن يرى بنفسه ويختبر بمشاهدته."[3]

فالرحلات المتنوعة كانت السمة البارزة لشعوب الغرب الإسلامي بشكل عام ونراها تزداد إشعاع وخصوبة في الأندلس بشكل خاص، وكانت للأندلس أسبابها الخاصة في ذلك، بدأت مع مسار

([1])أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية(الأنواع والخصائص)، ص 7.

([2])شعيب حليفي: الرحلة في الدب العربي، (التبخيس، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل) ص 22.

([3])حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ج1، ص 22.

الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا، فقد اتخذ الفاتحون طابع المرتحلين مع كل الديار التي كانوا يتوقفون عندها، انطلاقا من المشرق، ومرورا بمصر والبلدان المغاربية ككل، فالديار الأندلسية، أو العكس انطلاقا من الأندلس إلى المشرق.

فقد فرض البعد الجغرافي عن مشرق العلم والشمس على الأندلسيين الراغبين في الترقي في مراتب العلم، الرحلة إلى هناك رغبة في الحصول على جوزا سفر يحقق الأندلسي، بالإضافة إلى المكاسب المعرفية، مكاسب اجتماعية، لما سيجنيه الرحالة عند عودته إلى بلده من مكانة اجتماعية سواء في نظر السلطة أو في نظر العامة[1].

كانت الرحلة بين الأندلس والمشرق أو بقية الأقطار الأخرى من أهم العوامل التي أدت إلى بلورة الشخصية العلمية الأندلسية، وتقوية الذات الثقافية، ووسمها بسمات وطوابع مميزة لها عن باقي الأقطار الإسلامية الأخرى، فضلا عن ذلك فقد أدت هذه الرحلات إلى تقوية أواصر الأخوة الدينية بين الأندلس وباقي أطراف العالم الإسلامي.

" كانت الرحلة بين المغرب (الأندلس) والمشرق تستغرق شهورا عديدة يتم خلالها المسار في جو مفعم بالتلاقح الذي كان يرصص وحدة الفكر والصف".[2]

كان لا بد من الرحلة بالنسبة للأندلسيين من أجل الاستقلالية الثقافية، فقد كانت الثقافة الأندلسية خلال الفتح جنينية، ثم نمت رويدا رويدا، وسارت في طريق التقليد حينا من الزمن، كالكواكب السيارة التي تدور حول المركز ولكنها اكتسبت استقلاليتها منذ عصر الخلافة، وفي عصر ملوك الطوائف، عصر التوهج العلمي والفكري، حينها فقط تصلّب عود الثقافة الأندلسية، وعلا كعبها، وأصبحت قادرة بحكم التراكم الثقافي والمعرفي على بلورة شخصيتها، وتكوين هويتها الخاصة بها فقد أكدت هذه الرحلات" ظاهرة الانصهار الفكري بين العطاءات

([1])أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية(الأنواع والخصائص)، ص 17.

([2])عبد العزيز بن عبد الله: الرحالة العرب والمسلمين من المغرب وإليه، بحث منشور ضمن أعمال ندوة " الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموئلا، منشورات وزارة الثقافة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص 202.

المتواجدة في الأقطار الإسلامية، وفتحت أمام المهاجرين دروبا من المعرفة المتنوعة فدقت مناهجهم وسمت معارفهم".[1]

وكان من أسباب هذه السهولة والسيولة في الرحلة التي تمت بين الأندلس وباقي الأقطار الأخرى، تنوع المواصلات وتوفرها، فقد كانت الرحلات تتم عبر الطرق البرية أو في البحر المتوسط فقد استغل الأندلسيون شبكة الطرقات الأيبيرية التي خلفها الرومان وغيرهم" وعملوا على تغيير مساراتها، كما أنهم شقوا سبلا جديدة تتماشى مع التحول الذي أحدثه انتقال الثقل السياسي والاقتصادي من قرطبة إلى حواضر دول الطوائف، وخاصة إشبيلية."[2] كما أن تطور شبكة الطرق البرية بالأندلس قد عرفت تطور أكبر من الطرق النهرية."[3] وباختصار قد شكلت " الطرق البرية عصب النقل والمواصلات بالأندلس، بخلاف بعض أقطار الإسلام الأخرى مثل مصر والعراق، اللتين اعتمدتا على شريين الملاحة النهرية في النيل بالنسبة للأولى ودجلة والفرات بالثانية".[4]

أضف إلى ذلك أن العالم الإسلامي كله كان يعدّ بلادا واحدة" فدار الإسلام كلها مشرقا أو مغربا معتبرة وطنا واحدا للعلماء، فإذا رحل الأندلسيون إلى المشرق أو رحل المشارقة إلى الأندلس، فإنما يرحلون في دارهم، وتحت جو مشبع بالروح الإسلامية، وسواء من دخل من الفرس والهند في الإسلام، ومن دخل من الإسبان في الإسلام، فهم إنما يستنشقون هواء إسلاميا واحدا، ويتكونون تحت تأثير لغة عربية واحدة"[5]

كانت الرحلة بين الأندلس والمشرق" هي المبلورة لهذه العلاقة، والمؤشرة على الكثير من وجوهها، والتي لم تفتر يوما عن رباط أزلي بين مركز الإسلام وهامشه، هذا الهامش الذي أصبح مركزا بعد القرن الخامس الهجري، وقد كانت الرحلة إضافة إلى تعبيرها عن هذا الحبل المتصل باعتبارها وسيلة المركوب إلى المشرق، من الخصوصيات الأخرى التي طبعت فنون القول"[6] .

([1])مصطفى الزباخ: فنون النشر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص 38.

([2])عبد السلام الجعماطي: النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف، ص 56.

([3])المصدر نفسه، الصفحة نفسها

([4])المصدر نفسه: ص 60.

([5])أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج3، ص 26.

([6])أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، (الأنواع والخصائص)، ص 16.

إن رحلات الأندلسيين خارج قطرهم، هي رحلات دينية ومعرفية بالدرجة الأولى، وحوارية حضارية بالدرجة الثانية، تتم فيها عملية التأثير الثقافي والفكري والحضاري المتبادل ويكفي الدارس المتفحص للخطاب الثقافي في الأندلس في عصر الطوائف أو قبله قليلا، أو بعده اكتشاف كنه الذات الأندلسية معرفيا وثقافيا، واستجلاء سمة الخصوصية التي طبعتها.

ولا يعتقد أحد أن الرحالة الأندلسيين في رحلتهم إلى المشرق بعيدا عن الرحلات الدينية التي تدخل في إطار الواجب أو السفارية (الدبلوماسية) التي تدخل في إطار التكلف الرسمي، قد قام بها أشخاص ذوو مستوى علمي ومعرفي متوسط أو متدني بغية الاستزادة العلمية من المشرق - مع أن الزيادة العلمية حاصلة وأكيدة في كل رحلة نحو المشرق - فقد ارتحل كبار العلماء والفقهاء المحدّثين والأدباء والشعراء، والأطباء والمفكرين، بعد أن تمكنوا من اختصاصاتهم في البلاد الأندلسية، وعلى أيدي علماء أندلسيين.

ونظرا " لتقدم المغرب الإسلامي حضاريا وفكريا نجد أن معظم الرحالة لم يرحلوا إلى المشرق إلا بعد اكتمال ثقافتهم وإلمامهم بفنون مختلفة من العلوم.[1] وقد تركت رحلات المغاربة والأندلسيين" أثرا بالغا في نفوس المشرقيين، فبتأثير الحوار والرحلة انتقل المذهب المالكي إلى الإسكندرية وساد فيها."[2]

نستخلص مما سبق أن المستوى العلمي المتقدم هو الذي جعل المشارقة يلقون المغاربة (الأندلسيين) بكل الاحترام والتقدير حتى في أهم المراكز الثقافية المشهورة، في كبرى حواضر الأمصار المشرقية، مما حدا ببعض الرحالة إلى الإقامة هناك مدة طويلة أو الاستقرار في بعض الأماكن بقية عمرهم.[3]

([1])نواف عبد العزيز الجحمة: رحالة الغرب الإسلامي، وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، ص 31.

([2])المصدر نفسه: ص 30، 31.

([3])المصدر نفسه: ص 31.

وقد حفظت لنا المصادر الأندلسية أمثلة عديدة على هؤلاء، كأبي بكر الطرطوشي الذي ارتحل إلى مصر في عصر الطوائف، وكان له هناك شأن عظيم بين أهلها وحكامها، وأبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي، وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الدّاني وغيرهم.

لقد استثنينا في هذا المبحث كل الرحلات التي تمت خارج إطار العلم والمعرفة لعدم حاجتنا إليها، وإنما أشرنا إلى أنماطها على سبيل التوضيح، وما يهمنا هو الرحلات التي تمت في إطار العلاقات الثقافية بين الأندلس ومختلف المراكز الحضارية والثقافية في عصر الطوائف.

وتعود نشأة الرحلة في طلب العلم إلى "بداية انتشار الإسلام، فهي من الممارسات التي أكد عليها الدين، وطالب بها أفراده، فكان من المعتقد أن اكتمال العلم لا يتم إلا بالرحلة إليه"[1] ومرد هذا أن كثيرا من طلاب العلم وحفاظه، كانوا يعتقدون أن المعرفة العلمية الصحيحة لا تتأتى إلا باللقاء، والاتصال المباشر بين طالب العلم المتعلم، يؤدي إلى رسوخ العلم، في ذهن الطالب، ويفيده في توسيع آفاق معرفته، ويمكنه من الاطلاع على كثير من العلوم والفنون، وطرق دراستها، ومعرفة مصطلحاتها المختلفة"[2]

وقد أكد على ذلك علماء الإسلام قديما، فهذا ابن خلدون قد عقد في مقدمته فصلا بعنوان (فصل في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم)[3].قال فيه: " إن الرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[4].

والسبب في ذلك حسب ابن خلدون، أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما، وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة.[5]

([1]) نواف عبد العزيز الجحمة: رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي السادس الهجري إلى القرن الثامن الهجري، ص 29.

([2])عثمان موافي: لون من أدب الرحلات(دراسة نقدية)، ص 7.

[3]:ابن خلدون :المقدمة، ص578.

([4])المصدر نفسه: ص 579.

([5])المصدر نفسه: ص 578.

كان الأندلسيون المرتحلون إلى مراكز العلم في المشرق، عادة ما يهيجهم الشوق، ويستبد بهم الحنين إلى بلادهم، حيث كانوا يعتزون بها ويفاخرون بها، هذا ما يستدعي حضور الهوية الأندلسية في كل تنقلاتهم ورحلاتهم، حيث كان النظر إلى الآخر من منطلق هذه الهوية.

" كانت الأندلس والمشرق أشبه برقعة واحدة يسير فيها النمل ذهابا وجيئة، وتتقابل النمال فتتسار، علماء يضيق بهم الشرق من الفاقة فيرحلون إلى الغرب، وعلماء يرحلون من الغرب يعوزهم العلم فيرحلون إلى الشرق"[1]

وهم مرتحلون قد حملوا في جعبتهم الإدارة وحب العلم، والتعطش إلى المعرفة بمختلف فروعها كالفقه والحديث والتفسير، واللغة والأدب والفلك والطب وغيرها من التخصصات.

كانت الرحلة، إضافة إلى أنها إحدى المظاهر الحضارية في العالم الإسلامي في العصر الوسيط سبيلا آخر لتقوية أواصر العلاقات الأخوية بين جناحي العالم الإسلامي، المشرق والمغرب وسبيلا مضافا إلى سابقه ألا وهو تعزيز وتقوية أواصر العلاقة بين العلماء وطلبة العلم في مختلف الأقطار الإسلامية.

وقصارى القول حول الرحلة من الأندلس إلى المشرق، أو باقي الأقطار الأخرى، منها المغرب(الأقصى الأوسط، الأدنى أو إفريقية)، وصقلية، أنها أغنت البيئة الأندلسية، من خلال الروافد المختلفة والمعطيات المتعددة، أما خصوصية العلاقة مع المشرق فقد ساعدت وأسهمت في تكوين الثقافية الأندلسية، وأرست دعائم وأسس هذه الهوية ورقيها، فمن التلقي في المراحل الأولى، إلى التقليد للمشرق والسير على نهجه وخطاه في المرحلة الثانية، إلى النضج والاستقلالية في المرحلة الثالثة ابتداء من زمن الخلاصة، وأشد بروزا في عصر ملوك الطوائف.

والنضج والاستقلالية يعني الإنتاج المعرفي، تأليفا وترجمة، وتحريرا وتأريخا وتوثيقا ،مما يكفل لطالب العلم في الأندلس، نوعا من الاستقرار والهدوء، وليس الاستقرار والهدوء هنا انقطاع الاتصال بين الأندلس والمشرق الإسلامي أو الأطراف الأخرى، بقدر ما يعني هدوء الخطاب المعرفي

([1]) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج3، ص 24.

الأندلسي، في ظل الثقة التي أكتسبها هذا المنتج الثقافي المحلي، نتيجة التراكم المعرفي الكبير الذي حازه بعيدا عن المطارحات الفكرية والأدبية والنقدية التي عاشها هذا الخطاب مع نظيره المشرقي في القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت فتح الأندلس.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى الرحلة المعاكسة، والتي تمت من مختلف الأقطار سواء المشرق أو المغرب وصقلية، والتي قام بها علماء وأدباء ومفكرين أجلاّء، حيث قدموا الأندلس، فمنهم من مكث قليلا أو زمنا يسيرا، وارتحل، ومنهم من طاب له المقام في الأندلس فاستقرّ بها، ومات وكان" لهؤلاء العلماء نتاج أضيف إلى نتاج الحضارة فيها، وكانوا ذخرا ثقافيا لأبنائها، ولكثرة هؤلاء العلماء فقد أفردت لهم تراجم مستقلة في عدد من الكتب التي عنيت بتراجم العلماء الوافدين إلى الأندلس والذين عرضوا بالغرباء ولا يعني هذا المصطلح تخرج الأندلسيين من الوافدين، بقدر ما يعني تقسيم ثقافي وضع لأساس ذاتي"[1]

وليس من نافلة القول أن نغفل عن ذكر نوع من الرحالة أو المرتحلين المتميزين الذين لعبوا دورا حيويا واستراتيجيا في الناحيتين الاقتصادية والثقافية، وهم التجار المثقفون" فقد مرت فترات على مجتمعات البحر الأبيض المتوسط بالذات، تضافرت فيها مشاغل الفكر والاهتمام بالعلم مع عموم و احتياجات وضروريات ومتطلبات الحياة الاقتصادية، بل يمكننا أن نلاحظ أن ازدهار العلاقات التجارية كان يمثل في غالب الأحيان، عاملا مؤشرا من أجل التبادل الثقافي وإشاعة المعارف[2]

لذا كانت علاقة التجار بالرحلات علاقة وثيقة، وهذا ما يحذونا أن نوضح عملية الارتباط التي تربط التجار بالبحر... ومهما يكن فإن ارتباط الرحلة البحرية بالتجارة والازدهار الحضاري المصاحب لها نتيجة الاتصال بالأقوام والاحتكاك الفكري والثقافي بهم، أهم ما يتميز به تجار الغرب الإسلامي حيث جعلوا من البحر المتوسط شريانا حيويا في حلقة الاتصال المباشر"[3]

([1])مجيد خلف منشد: حمود الحافظ ابن عبد البر في دراسة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2006م/1427 هـ، ص 41، 42.

([2])حاييم الزعفراني: يهود الأندلس والمغرب، ج1، ص 69.

([3])نواف عبد العزيز الحجمة: رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي ، من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري، ص 39.

لقد كانت العلاقات المعقدة، واللاّمعقولة أحيانا، التي كانت تجمع السياسة والأيديولوجيا والتاريخ العسكري بالثقافة[1] أهم ما يميز العالم الإسلامي في العصر الوسيط، وخاصة في شبه الجزيرة الأيبيرية.

والمعرفة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة، كذلك من الصعب الفصل بين ما هو سياسي، وما هو فكري أ وديني" لقد كان المتأدب رجل الأعمال، أو بالأحرى التاجر المتأدب كان يجري وراء الربح مضاعف هو العلم والمال، وهذا النوع من الرجال هو الذي لعب في واقع الأمر، دورا جوهريا، في تبادل الأفكار والسلع بعد ظهور الإسلام، وكان وسيطا في حمل مظاهر الحضارة والفكر"[2] هذا التاجر المثقف المتجول الذي كان يجوب البلدان يقطع الفيافي والمسافات، ويحتك بمختلف الأجناس، ويطلع على مختلف الثقافات، يقطع البحر المتوسط من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، وخلال كل هذه المجازات والمسارات يتمكن هذا التاجر من نسج علاقات مع النخبة البرجوازية والمثقفة في كل المجتمعات التي يرتحل إليها ويتعامل معها.

" لقد ارتبطت هذه الظاهرة بميلاد ما دعاه (P.S.Goitein) بـ" ثورة البرجوزاية" وهو حدث أساسي في تاريخ العالم المتوسطي، تميّز لقرون طويلة بإشعاع حضارة حديثة العهد.[3]

وتحدّثنا المصادر عن الصلات الفكرية الوثيقة بين أوروبا المسيحية والأندلس الإسلامية عن طريق المهاجرين والتجار والطلبة والأسرى والسفراء.[4]

ويجب التذكير من جهة أخرى، بحرية التنقل والتواصل المنعدمة النظير التي تميزت إذ ذاك عالم البحر الأبيض المتوسط، وكذا بوحدته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الظاهرة، وكلها ظواهر صارت معروفة،[5] حتى سماها ليفي بروفنسال بـ" وحدة البحر الأبيض المتوسط"[6].

([1])ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص 40.

([2])حاييم الزعفراني: يهود الأندلس والمغرب، ج1، ص 69، 70.

([3])المصدر نفسه: ص 69.

([4])محمد الصهدي: تأثير الإسلام في التفكير الديني المسيحي خلال العصور الوسطى، ص 203.

([5])حاييم الزعفراني: يهود الأندلس والمغرب، ج1، ص 75.

([6])حضارة العرب في الأندلس (ترجمة: ذوقان قرطوط)، ص 77.

لذلك فالباحث لا يعجب من موضع أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي" حيث أصبحت مركز للثقافة الإسلامية، من خلال اطلاع الغربيين على الدراسة الإسلامية، ونقلهم لأفكار وآراء مسلمين أندلسيين في اسبانيا المسلمة(الأندلس) وعاصمتها آنذاك قرطبة".[1]

إذن فالتواصل قائم بين الأندلس الإسلامي، بمختلف طوائفها وإثنياتها، وتعدد ديّاناتها، وباقي أطراف العالم، بدءا من العالم الإسلامي بمراكزه الحضارية والفكرية المختلفة، كالمغرب الأقصى، والجزائر وتونس ومصر، والحجاز والشام والعرق وصقلية، وبعض أطراف الشمال المسيحي.

هذا التواصل الثقافي قد ساعدته سهولة الاتصال ووسائل النقل البرية والبحرية أما الخلافات السياسية فلم تكن يوما حائلا في وجه المرتحلين للأغراض المختلفة والدوافع المتعددة، وخاصة الراحلين منهم في سبيل العلم وطلب المعرفة، مما صنع حركية دؤوبة في سبيل تحقيق هذا الهدف، ونشدان هذا المراد، فاستفادت الأندلس من كل ذلك أيما استفادة مما جعلها تلتفت إلى ذاتها وتؤرخ لثقافتها، وتهتم بعلمائها، وتصنفهم وتجعلهم طبقات وتعتز بأعمالهم وتفاخر بأقلامهم.

ولا نغالي إذا قلنا إن الرحلة في طلب العلم والتي أسهم فيها طلبة العلم إلى جانب التجار المثقفين والمتأدبين، كانت من أقوى الأسباب في نهضة الأندلس الثقافية والعلمية والفكرية، إلى جانب أسباب أخرى، أما الغنى الفكري والتعدد الثقافي، فراجع إلى تعدد المصادر، واختلاف الروافد والمعطيات التي كانت حلقة هامة في هذا التنوع الفكري، وتوجت به الهوية الثقافية الأندلسية في عصر الطوائف.

وقد ساعدت الأحداث السياسية المتسارعة في القرن الخامس الهجري على هذا التنقل وهذا التداخل العرقي والفكري، سواء بين المدن الأندلسية ذاتها، أو بينها وبين أطراف العالم الخارجي، وهو سبب يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها حول الهجرة أو الرحلة.

([1])محمد الصهدي: تأثير الإسلام في التفكير المسيحي خلال العصور الوسطى، ص 203.

وكانت دوما كتب التاريخ والتراجم والطبقات والأعلام وما يدور في فلكها معرضا لرحلة العلماء وطلبة العلم ، وما عانوه في أسفارهم، وما حملوه من زاد علمي، وذخر ثقافي، وذكر مشيختهم وعديد تلاميذهم وأسماء مصنفاتهم، يبيّن ما ذكرنا في هذا المقام.

وسنقتصر في حديثنا عن التواصل الثقافي بين الأندلس والعالم الإسلامي على المراكز الحضارية الآتية، الحجاز(مكة والمدينة)، القدس، العراق، صقلية، والمغرب(الأدنى، الأوسط، الأقصى) ومصر، وقد تجاوزنا عن كثير من الحواضر كالشام، إذا كان القدس جزءا منها، وغيرها من بلدان أواسط آسيا، فقد مرّ عليها كثير من الأندلسيين من العلماء وطلبة العلم، ولكنها لم تكن ذي بال عند المؤرخين ، وربما جمع المرتحلون بين أكثر من بلاد وهو حاصل عندهم كلهم تقريبا، وإنما ذكرنا لكل قطر أبرز المرتحلين إليه على سبيل المثال لا الحصر.

III -1-1- المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس والحجاز:

الرحلة من الأندلس إلى الحجاز ليست كغيرها من الرحلات، إنها الرحلة الثابتة عند كل مسلم، فهي رحلة مفروضة، مرغوبة، مطهرة، مباركة، إلى مهبط الوحي ومبعث الدعوة المحمدية ورسالة الإسلام في مكة المكرمة، أما المدينة النبوية الشريفة، فهي مثوى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومركز حكمه ، وحكم الخلفاء من بعده، وموئل المهاجرين وموطن الأنصار. وبالتالي فالارتباط الوجداني الأبدي مع هذا المكان لا شك فيه، وعليه فإنه" لا يوجد في تاريخ البشرية موقع جغرافي حج إليه ملايين البشر في كل جيل مثل الجزيرة العربية ، ولا ويوجد موطن استقطب خمس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها، مثل الحجاز الوطن الروحي الأول لكل مؤمن".[1]

ولا طالما اكتست الرحلة الحجازية طابع" الاستجابة للواجب الديني، وتعبيرا عن الإمّحاء الجمعي داخل خير أمة أخرجت للناس"[2]

أما المرتحلون من الأندلسيون إلى الحجاز، فكان إلى جانب ارتباطهم الوجداني بهذا المكان الذي يحمل طابع القدسية لديهم، يعوزهم العلم والمعرفة من مظانة ومصادره الأولى، " فالرحالة العالم

([1])عبد العزيز بن عبد الله: الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه، ص 201.

([2]) أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، الأنواع والخصائص، ص 17.

عندما يعبر من الهامش إلى المراكز، فإنه لا يقطع حدودا بقدر ما يحسّ أنه أحدث تغييرا جوهريا في دواخله، مردّه إلى كل التجربة الفريدة التي سيخوضها بحثا عن الذات وعن المعنى وعن الكتاب الذي يقطع المسافات الطوال، ويمني النفس بالحصول عليه و تثبيته في الصدور"[1]

ظل الحجاز يستقطب أنظار وأفئدة وعقول المرتحلين إليه من الحجاج وأهل العلم، طلبة وعلماء، وحتى من غير المرتحلين إليه المتشوقين المتطلعين إلى زيارته في يوم ما، وحتى المرتحلون فحينما يعودون إلى ديارهم وأوطانهم، فسرعان ما يهجيهم الشوق مرة ثانية، وثالثة وأكثر لزيارته والتطلع إليه.

ومن هنا فقد شد الأندلسيون من أهل المعرفة، والمنتسبين إلى زمرة العلماء، الرحال إلى لقاء علماء الحجاز وفقهائه ومحدثيه ومقرئيه ، وكان الغالب على علم أهل الحجاز العلوم الدينية أو " الشرعية" ومن بينهم شيوخ وعلماء المدينة ممن جاوروا مصادر الفكر الإسلامي وأصوله الأولى وأخذوا عن صحابة رسول الله – صلى الله عليه واسلم - وتابعيهم الكرام."[2]

وقد يطيب لبعضهم المقام في المدينة المنورة، أو مكة المكرمة، مجاورا لعدد من السنين* وقد يمنح أحدهم إجازة أو أكثر من هؤلاء العلماء الذين يلتقى بهم في هذه المراكز العلمية، أو في غيرها من الأماكن، فيضيف سندا علميا جديدا إلى أسانيده القديمة[3].

وكثيرا ما تتردد عبارة" وجاور مكة أو المدينة كذا سنة" في تراجم هؤلاء، الأعلام، ولا يمكن أن نتصور حجم هذه السفريات أو المسافرين إلى الحج من الأندلسيين القاصدين بيوت الله، وطلب العلم ، وعلى مرّ العصور.

([1])عبد العزيز بن عبد الله: الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه ،ص 39.

([2])سعد البشري: الحياة العلمية في عصره ملوك الطوائف: ج1، ص 186.

*تحدثا المصادر التاريخية عن كثير ممن جاوروا لسنوات، ومنهم عبد الله بن سعد بن لبّاح الأموي الشنتجاني الطويل الجوار بمكة(ت436 هـ)، رحل إلى مكة سنة(391 هـ) نسمع بها من أبي القاسم السقطي وأبي الحسن أحمد بن فراس العبقسي، وأبي الحسن بن جهضم وصحب أباذر الهروي واختص به وأكثر عنه، أقام بالحرم المكي أربعين عاما، وكانت له خمسا وثلاثين حجة./ ابن بشكوال : الصلة (العلمية) ج1، ص 338، 339. رقم (604).

([3])حبيب وداعة الحسناوي: أبو عبد الله الرعيني محمد بن عبد الرحمن الخطاب الكبير، سيرته وبعض مظاهر بيئته الثقافية، ضمن : ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، ص 498.

وفي عصر الطوائف الذي شهد خفوتا طفيفا في الرحلة إلى المراكز العلمية المشرقية، بسبب نضج الشخصية العلمية الأندلسية وغزارة التأليف، فإن الرحلة الأندلسية/ الحجازية قد صنعت الاستثناء، وكانت على النقيض من البلدان والمراكز المشرقية الأخرى، نظرا لما تحمله من طابع القدسية، والخصوصية الدينية والرمزية لدى المسلمين بشكل عام، وخاصة الأندلسيين، نظرا لبعدهم عن مركز الوحي، ومصاقبتهم لطوائف الروم والنصارى، وخاصة في عصر الطوائف الذي شهد تمزقا سياسيا خطيرا، وسقوط بعض المدن في أيدي مسيحيي الشمال، كان نذيرا بسقوط البلاد كلها، فاشرأبت أعناق الأندلسيين إلى البلد الأمين، والوطن الأم لكل مسلم، حينما أسسه نبي الإسلام ليكون وحدة جامعة لكل تفرق على صعيد الدين والبلد والسياسة.

ومن لم تسعفه الرحلة إلى البلد الأمين من الأندلسيين، فقد كانوا يرسلون خطاباتهم ورسائلهم مع إخوانهم القاصدين الحجاز لتأدية الواجب الديني، حتى يضعونها بجوار قبر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وكل في نفسه حاجة وأمنية، وكانت أكبر أمانيهم أن يسألوا الله رد الوحدة الجامعة التي فقدت في بلدهم، وقد شاع ذلك عنهم ذلك في زمن الطوائف والعصور التي تلته. حينما بدأت تتدهور فيها نجوم الأندلس الإسلامي.

وتسعفنا المصادر التاريخية بمعلومات حول حركة التنقل من الغرب الإسلامي إلى الحجاز، فهذا أسامة بن منقذ ينقل في كتابه" الاعتبار" أن سفينة قد نقلت أربعمائة حاج مغربي إلى شرق البحر الأبيض المتوسط في وسط القرن الحادي عشر/ الخامس الهجري[1] ويصف ابن جبير في هذا الزمن تقريبا ، سفينة جنوية تحمل مئتي حاج مغربي إلى بلادهم.[2]

ويحدثنا الحميري في مادة (أيلة) قائلا: "وهي في طريق مكة، حاطها الله من مصر، وهي أول حد الحجاز، وهي مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح، بها يجتمع حاج مصر والمغرب"[3]

وليس المقصود ببلاد المغرب عند هؤلاء الجغرافيين إلا ومعه الأندلس، إذ كانت تعد بلادا واحدة في نظرهم.

([1])أوليفيا ماري كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص 68. (نقلا عن).

([2])المصدر نفسه : ص 38، 69.

([3]) الروض المعطار: ص 70.

من خلال هذه الأمثلة اليسيرة، نرى بوضوح ضخامة الرحلة بين الأندلس والحجاز، ونلاحظ هنا نقطتين هامتين في معرض حديثنا هذا: الأولى، أن هذه الأمثلة متعلقة بالرحلات البحرية فقط، أما المسالك البرية فكانت أوسع وأكثر، والثانية: هي تلك السفينة الإيطالية الجنوبية التي تحمل حجاج بيت الله الحرام، وهي تؤشر على لجوء الحجاج إلى كراء الحجاج المسلمين لهذه المراكب من بعض تجار الشمال المسيحي لتلبية الواجب الديني، وما يصاحبه من استفادة علمية، فالغاية هنا تبرر الوسيلة، لأنها متعلقة بالواجب الديني المقدس، وبالعلم والحكمة التي هي ضالة المؤمن.

أما حصيلة التواصل الثقافي بين الأندلس والحجاز في عصر الطوائف فثقيلة جدا بالعلماء والوفود، والأثير والتبادل العلمي والمعرفي فيه ظاهر وبين قد شهدت بذلك المصادر التاريخية الأندلسية، فهذا محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام الأنصاري(380 هـ/ 455 هـ) وقد كان أديبا شاعرا لغويا مجيدا، فقيها عالما وإماما متكلما حافظا للحديث، فحج ولقي بمكة أبا الحسن بن فراس العبقسي وأبا الحسن علي بن جهضم، وأبا الحسن السقطي، وأبا القاسم عبد الرحمن بن الحسن الشافعي وأبا بكر المطوعي، وأبا أسامة الهروي.[1] وكانوا من أكابر علماء عصرهم في تلك الديار، ومحمد بن إبراهيم بن وهب القيسي(ت453 هـ) من أهل طليطلة، الذي رحل حاجا ولقي أبا ذر الهروي(بر) وقد استفاد أيما استفادة من علمه وزهده وتواضعه.

وحصلت المجاورة بمكة للفقيه المالقي أبي عبد الله محمد بن وليد بن عقيل العكي، الذي خرج من الأندلس في عصر الطوائف، وقدم مكة سنة(452 هـ)، حيث روى بها عن أبي ذر الهروي[3].

ومن أوائل العلماء الذين رحلوا حاجين في عصر الطوائف، وسمعوا على علمائها أبو عمران موسى بن وليد بن عباس الإشبيلي، الذي سمع صحيح البخاري من أبي ذر الهروي سنة(427 هـ).[4]

([1])ابن بشكوال: الصلة (دار الكتب العلمية)، ج2، ص 158، 159، رقم (1194).

([2])المصدر نفسه: ص 156، رقم (1187).

([3])المصدر نفسه: ص 156، رقم (1185).

([4])ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج2، ص 172، 173، رقم (445).

وكانت الفضائل العلمية لعلامة الحجاز أبي ذر الهروي واضحة على الأندلسيين* الذين زاروا الحجاز فقد تتلمذ عليه جيل كبير من الأندلسيين في تلك الفترة، وكان محمد بن علي بن أحمد بن محمود الوراق الأندلسي، واحد منهم حيث سمع منه ومن أبي العباس أحمد بن الحسن الرازي، وجاور بمكة كثيرا، وكان حسن الخط، وقد كتب من صحيح البخاري غير ما نسخة هي بأيدي الناس، ولا نعجب في ذلك حينما نرى الباجي يتتلمذ على محمود الوراق هذا.[1]

ويحدثنا ابن بشكوال عن المقرئ الأندلسي الكبير عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس الأنصاري(403 هـ/ 462 هـ) وكان كما وصف من جلة المقرئين، والخطباء الحفاظ المجودين، حيث كان عارفا بالقراءات، وطرقها وحسن الضبط لها، وكانت الرحلة في وقته إليه، حيث رحل إلى المشرق وحج وسمع بمكة من أبي بكر بن محمد بن علي المطوعي وغيره، ولقي في رحلته أبا العلاء المعري الشاعر.[2]

ولم يكن الأندلسيون الداخلون إلى الحجاز والمنتفعون بعلم علمائه، مستمعين ناقلين فقط، فقد أدخلت طائفة منهم مجموعة من الكتب المختلفة، مما كان له أكبر الأثر على تطور الحياة الفكرية والعلمية في الأندلس في القرن الخامس، وكان إدخال الكتب من الحجاز إما في نسخها الورقية أو رواية، مثال ذلك عبد العزيز بن عبد الوهاب بن أبي غالب القروي(ت 495 هـ) الذي روى بمكة عن أبي غالب القروي فوائده.[3] و أبو عمر الطليطلي، أحمد بن مغيث الصدفي (459 هـ) الذي دخل مكة في رحلته المشرقية، وروى عن أبي ذر الهروي وأجاز له وسمع مع أبي بكر الغازي المطوعي، وجلب كتبا صحاحا رويت عنه.[4]

---

*ما من أندلسي زار الحجاز في هذه الفترة إلا والتقى بأبي ذر الهروي وانتفع بعلمه، وهم خلائق كثر، حتى المشهورين من أعلام الأندلس كالباجي وابن أنس العذري، وإضافة إلى من سنذكرهم في متون هذه الصفحات هناك، عبد الله بن محمد بن ثوابة اللخمي الإشبيلي(ت 442 هـ)، وعبد الله بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري(360 هـ/ 447 هـ)/ تراجمهم على التوالي عند ابن التوالي عند بشكوال: الصلة(طبعة دار الكتب العلمية)، ج1، ص 239. رقم(605)./ و/ ج1، ص 241، 242. رقم(612).

([1])ابن بشكوال: الصلة ج2، ص 153، رقم(1179).

([2])ابن بشكوال: الصلة (دار الكتب العلمية)، ج2، ص 23، رقم(822).

([3])ابن بشكوال: ص 19، رقم(812).

([4])المصدر نفسه: (طبعة المكتبة العصرية)، ص 66، 67، رقم(128).

وكان الفقيه الزاهد أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن الطليطلي(ت 466 هـ) قد رحل إلى المشرق حاجا في عصر الطوائف سنة(452 هـ) حيث لقي بمكة أعلامها وقرأ عليهم، وكان منهم سعد بن علي الزنجاني شيخ الحرم المكي، كما لقي المروزية، وغيرهما، وكان حافظ للفقه على مذهب الإمام مالك، عارفا بالفتوى وعقد الشروط وعللها[1]

والظاهر من استعراض المؤرخين لتراجم علماء الأندلس الذين كان لهم حظ في زيارة الحجاز في هذه الفترة، أنه تتلمذ جيل كامل من هؤلاء على أيدي أعلام الحجاز كأبي ذر الهروي* السابق ذكره، وكريمة المروزية**، وسعد بن علي الزنجاني***، وكان من أشهرهم في هذه الفترة ابن الحصار(511/427 هـ) الخطيب بالمسجد الجامع في قرطبة الذي حج وسمع بمكة من أبي معشر الطبري المقرئ**** وقرأ عليه القراءات، ولقي كذلك كريمة المروزية.[2]

([1])ابن بشكوال: ص 122، 123، رقم(303)

*أبو ذر الهروي(355 هـ/ 435 هـ - 966 م/1044 م) عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري، الحافظ الثقة الفقيه المالكي، نزيل مكة، روى عن أبي الفضل بن حميروية، وأبي عمر بن حيوية وطبقتهما، وروى الصحيح عن ثلاثة من أصحاب الفربوي، وجمع لنفسه معجما، وكان ثقة متدينا، عابدا ورعا، بصيرا بالفقه والأصول، أخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني، وصنف مستخرجا على الصحيحين، وكان شيخ الحرم في عصره، ثم إنه تزوج بالسروات، وبقي يحج كل عام ويرجع، وتوفي بمكة، من آثاره: معجم في مجلد كتاب الخصال في فروع الحنفية، كتاب الدعوات، كتاب فضائل القرآن/ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج3، ص 254/ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج6، ص 32، 33./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 705، البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص 429./ =مخلوف : شجرة النور الزكية، ج1، ص 156، رقم(304)، ذكره المقري في نفح الطيب وأثنى عليه. ج2، ص 70، 71./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص 484 وما بعدها رقم (1258) .

**كرية بنت أحمد بن محمد بن حاتم، أم الكرام المروزية، المجاورة بمكة، روت الصحيح عن الكشميهني، وروت عن زاهر السرخسي، وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها، لها فهم ونباهة، وما تزوجت قط، وقيل، إنها بلغت المائة... وعدّها ابن الأهدل من الحفاظ، توفيت عام(463 هـ)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 314.

***أبو القاسم الزنجاني (471 هـ/ 1079 م) سعد بن علي بن محمد بن علي بن الحسن، شيخ الحرم والحفاظ، كان حافظ قدوة، علما ثقة، زاهدا، نزيل الحرم، وجار بيت الله، روى عن أبي عبد الله بن نظيف الفرّاء، وعبد الرحمن بن ياسر، وقد سئل محمد بن طاهر المقدسي عن أفضل من رأى، فقال : سعد الزنجاني، وشيخ الإسلام الأنصاري، فقيل له: أيهما أفضل؟ فقال: الأنصاري كان متفننا، وأما الزنجاني فكان أعرف بالحديث منه، وسئل أسماعيل التيمي عنه، فقال: إمام كبير عارف كبير بالسنة... وكان صاحب كرامات وآيات يزدحم الناس عليه عند الطواف كازدحامهم على الحجر./ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص 339، 340 .

****

([2])المصدر نفسه: ص 153، 154، رقم(397).

وأما أشهر الشخصيات الأندلسية التي أخذت العلم عن علماء الحجاز في عصر الطوائف أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني(392 هـ/ 460 هـ) الإشبيلي، العالم، السياسي، المثقف الأديب الذي قتله المعتضد بن عباد الإشبيلي أحد ملوك الطوائف، حيث رحل الهوزني إلى المشرق وحج سنة (444 هـ) وأخذ عن أبي محمد بن الوليد وغيره.[1] وأثناء وصوله إلى مكة روى في طريقه كتاب الترمذي في الحديث وعنه أخذه أهل المغرب، ثم رجع إلى الأندلس.[2]

وكان الجغرافي الأندلسي الكبير أبو العبّاس الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري(393 هـ/ 478 هـ) من أهل ألمرية، قد رحل إلى المشرق مع أبويه سنة(407 هـ) وكان وصولهم إلى بيت الله الحرام سنة(408 هـ)، وقد جاور هناك أعواما طويلة، حتى كان منصرفهم عن مكة عام(416 هـ)، وقد تمكن من العلوم والمعارف هناك في الحجاز، حيث سمع سماعا كثيرا من أبي العباس الرازي، وأبي ذر الهروي وطبقته، صحيح البخاري عدة مرات، وسمع هناك بالحجاز أيضا من جماعة غير حجازيين من المحدثين من أهل العراق والشام وخراسان، من الواردين على مكة من أهل الرواية والعلم، ولذلك فلا نعجب من هذه الشخصية المتعددة المرجعيات، أن يتتلمذ عليه كبار العلماء، بالأندلس كابن عبد البر وابن حزم وغيرهما.[3]

وكان العلامة الأندلسي ذائع الصيت، أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني(369 هـ/ 457 هـ) وأصله من الجزائر من طبنة، من عمل إفريقية، أحد أبرز العلماء في الأندلس في عصر الطوائف وينتمي إلى عائلة، احترفت كلها العلم والثقافة، وامتهنت الأدب والشعر والوراقة، له رحلتان إلى المشرق، كتب فيهما عن جماعة من أهل العلم بمكة ومصر والقيروان.[4]

([1])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 322، 323. رقم(866).

([2])ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص 81، 82 . وقد حدد ابن بسام تاريخ استئذان المعتضد للرحلة سنة(440 هـ) ووافقه ابن سعيد في المغرب، حيث ترجمته، ج1، ص 239، وما بعدها، وقال المقري في النفح:" وسمع في طريقه كتاب صحيح البخاري وعنه أخذه أهل الأندلس، " ج1، ص 782، وقد وافق البغدادي ابن بشكوال في تاريخ رحلته(444 هـ/ 1053م)./ وأنظر ترجمته كذلك عند عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: ج7، ص 282./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص 651، 652.رقم(1482).

([3])ابن بشكوال: الصلة، ص 70، 71، رقم(141)./ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص 357.

([4])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 293، 294.رقم(775)./ وأنظر ترجمة عند ابن سعيد في المغرب، ج1، ص 92، 93./ الفتح خاقان: مطمح الأنفس، ص 129، 130./ الحميدي الجذوة، ص 251، 252، رقم(629) وقال عنه: " رأيته بالمدينة في آخر حجة حجها" ./ الطبني: البغية، ص 330، 331. رقم (1065)./ ابن بسام، الذخيرة، ق1/1/ 535 وما بعدها/ المقري: نفح الطيب، ج2 ، ص 496، 497./ السيوطي: بغية الوعاة، ص

ومن أعلام الأندلس الذين قرؤوا على المكيين وتتلمذوا عليهم شيخ القراء في عصر الطوائف، أبي عمرو الداني الذي لقي بمكة أبا الحسن أحمد بن فراس العبقسي فسمع منه ومن غيره[1] ولنا عودة لأبي عمرو الداني في الفصل الموالي من هذا البحث.

وكذا مقرئ الأندلس الكبير في زمانه أبو عبد الله بن محمد بن سريج الرعيني الإشبيلي (476 هـ) المقرئ مصنف كتاب (الكافي) و كتاب (التذكير) الذي حج وسمع بمكة من أبي ذر الهروي وطبقته.[2]

أما على صعيد الهجرة أو الرحلة المعاكسة من الحجاز إلى الأندلس، فموجودة وأكيدة، وقد حفظت لنا كتب التراجم وسجلت حضور أسماء كثيرة من علماء الحجاز على أرض شبه جزيرة أيبيريا، حيث انتفعوا بعلم الأندلسيين، و بثّوه هناك، فكانت الاستفادة مضاعفة والتأثير متبادلا، كأبي البركات محمد بن عبد الواحد الزبيري، الذي ولد بمكة سنة (357 هـ) أو(347 هـ)، ودخل العراق وبغداد والشام ومصر وسمع بها ثم دخل الأندلس وحدث بها عن جماعة، وقد أخذ عنه ابن حزم الأندلسي، وكان حيا سنة(434 هـ).[3]

إذن يمكن القول إن الرحلة إلى الحجاز شرف يتسابق عليه أهل العلم في الأندلس، علماء وطلاب، على طول مسار التاريخ الأندلسي من الفتح إلى السقوط، وحينما خفت حدة الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق قليلا في عصر الطوائف، كما ذكرنا سابقا، بفعل نضج الشخصية العلمية الأندلسية وتطور إنتاجها المعرفي والأدبي ووفرة محصولها الثقافي، صنعت الرحلة الحجازية الاستثناء لأكثر من سبب.

فباستثناء الواجب الديني(الحج والعمرة)، وبعض المزارات التاريخية، وطلب العلم، فإن زيارة الأندلسيين إلى الحجاز، وهو الوطن الأم لكل المسلمين ورمز الوحدة الجامعة التي فقدتها الأندلس في القرن الخامس الهجري، فبفعل التطاحن الداخلي، وحروب الاسترداد التي قادها ملوك الشمال

([1])ابن بشكوال: الصلة، ص 325./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 272.

([2])ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 354.

([3])ابن بشكوال: الصلة(طبعة دار الكتب العلمية، ج2، ص 207، 208، رقم(1317).

المسيحي، فكان توجه الأندلسيين إلى مكة والمدنية بأفئدتهم وقلوبهم قبل أجسادهم وحناجرهم تصدح بالدعاء والابتهال لاسترجاع الوحدة المفقودة إلى أماكن مقدسة تكون فيها الدعوات مقبولة حسب ما بشرت به الآثار والنصوص.

وكان من بين الأسباب القوية والخفية أو غير المباشرة في آن واحد، لجسور التواصل بين الأندلس والحجاز ما هو سياسي واجتماعي وثقافي، أدّت إلى ارتباط القطرين وذلك لتشابه الطبيعتين الأندلسية والحجازية في نواح عديدة، وهو ما يفسر سهولة ويسر الاتصال بين المصرين.

فكل علماء الحجاز الذين درس عليهم الأندلسيون وتتلمذوا لهم في القرن الخامس الهجري، هم مالكيون أو على الأقل في معظمهم، كأبي القاسم الزنجاني، وأبي ذر الهروي، وكريمة المروزية، وأضرابهم حتى وإن كان معظمهم غير حجازيين في أصولهم ومنابتهم، ولكنهم يتبعون إمام دار الهجرة مالك – رحمه الله - إمام الحديث والسنة معا، ومذهبه هو المذهب الفقهي الرسمي والشعبي – إن صح التعبير للأندلسيين.

ولا نريد أن نخرج الدراسة عن إطارها الزمني المخصص لها، ولكن ينبغي الإشارة إلى أن كثيرا من علماء الأندلس كانوا تلاميذا مباشرين للإمام مالك في القرن الثاني الهجري في المدينة النبوية الشريفة حيث أدخلوا مذهبه إلى الأندلس، مثل الفقيه يحي بن يحي(234 هـ) وزياد بن عبد الرحمن شبطون(193 هـ) والغازي بن قيس (ت 199 هـ)، حيث تعزز بالموافقة السياسية والإقرار من طرف أمير الأندلس آنذاك*، بعد أن كان أهل الأندلس يدينون بمذهب الإمام الأوزاعي، كان الأندلسيون على هذا الأساس حريصين على هذا الارتباط مع هذا النبع الصافي الثري، والمورد الوافي الذي يخدم دينهم وعقيدتهم، فارتبطوا بمهبط الوحي الأول، وأخذوا عن علمائه واستفادوا منهم، بسبب حصول التطابق المذهبي الفقهي بين القطرين. يشار في هذا المقام إلى نقطة هامة جدا، وهي أن الفتن السياسية الدينية، والاختلافات الفكرية كانت شبه منعدمة في الأندلس والحجاز، على

*سنفصل الحديث حول هذه النقطة، وحول تلاميذ مالك، وكيفية دخول المذهب المالكي إلى الأندلس في زمن الإمارة في الفصل الثالث من هذا البحث.

الرغم من انبثاق الأزمة السياسية الأولى في الإسلام في المدينة النبوية، مركز حكم النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاته، في حادثة سقيفة بني ساعدة الشهيرة.[1]

ولكن هذا الخلاف السياسي، وما ينجر عنه من اختلاف فكري حول شرعية السلطة، إنما عاشته الحواضر الفكرية (الشام والعراق)، بعيدا عن موطنه الأصلي الذي نشأ فيه، كما هو الحال مع الأندلس التي ضاعت وحدتها السياسية مع هبوب ريح الفتنة القرطبية أو البربرية، وما صاحبها من تجزؤ وانقسام للبلاد إلى دويلات، ولكن هذا التمزق السياسي لم يصاحبه اختلاف فكري أو مذهبي أو عقدي، وهذه مسألة لم يمار فيها أحد من الدارسين، رغم وجود بعض الاختلافات اليسيرة جدا في تاريخ الأندلس السياسي، والتي لم يسمع صداها جيدا في تاريخ الأندلس الفكري و الثقافي.

لقد ظلت أندلس الطوائف المنقسمة سياسيا، متوحدة عقديا ومذهبيا، فكرة أوجزها المفكر محمد عابد الجابري قائلا:" إن الفتح الإسلامي قد مسح الطاولة بالمرة في المغرب والأندلس، حيث لم يكن فيها أي دور لـ(بنية المعتقدات القديمة) في الأحداث السياسية والتيارات الفكرية التي عرفها هذان البلدان بعد استقرار الإسلام فيهما.[2]

وذلك منذ القرن الأول الهجري، حيث أصبح الإسلام السني على صعيد الممارسة، أو على الصعيد الرسمي هو السائد مطلقا.

وقد رأينا في الفصل الأول (السياسي) كيف أن الحكم الشرعي الذي أصدره القضاة، قد سرى على ذلك الملحد الذي التجأ من دولة طائفية إلى أخرى، وبقى الحكم يلاحقه حتى نفذ فيه، فتثبيت الحكم الشرعي وحّد ما فرقته السياسية.

([1])الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثاني، ج3، ص 109 وما بعدها./ ابن الطاهر المطهري المقدسي: البدء والتاريخ: تحقيق لا : كلمان هورت، تقديم ومراجعة التحقيق: بن مزيان شرقي، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، طبع 2011 بمناسبة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، ص 685، 686.

([2])محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، ص 298.

فإذا كان "التماثل والتمايز يشكلان أبرز خصائص المعرفة الإنسانية، مادامت ظاهرة الاختلاف والتمايز تبدو أحد مكونات الرابطة الطبيعية بين الشيء وأيقونه"[1] فإن التماثل بين الأندلس والحجاز على مستوى النقاط التي ذكرنا، يجعلهما متوحدين ومتعالقين في نقاط عديدة ما جعل هذا التماثل أحد أقوى أسباب الارتباط، زاد في ذلك كثرة الرحلات العلمية وعمق العلاقات الثقافية بينهما.

إذن فالظروف المتشابهة والأسباب المتقاربة، شجعت على هذا التقارب بين الأندلس والحجاز على صعيد المذهب الرسمي(الفقهي) المعتمد المتوحد، وعلى صعيد المطابقة في بعد القطرين عن الاختلافات الأخرى الجوهرية.

وقد جرت اتصالات ثقافية بين الأندلس والحجاز من دون حضور الشخصيات العلمية، فالمصادر تحدثنا عن وجود مراسلات إلى الفقيه المحدث ابن عبد البر النمري(ت463 هـ) في عصر الطوائف من المشرق، وخاصة من الحجاز، فقد كتب إليه من طرف أبي القاسم السقطي المكي، وعبد الغني بن سعيد الحافظ وأبي ذر الهروي وغيرهم.[2] وهذا أشبه بالمراسلات الثقافية والفكرية الحاصلة في العصر الحديث، وهي تعتبر أصدق تعبير عن عمق العلاقات الثقافية، كما أنها تشكل حلقة وصل مهمة جدا بين المصرين.

وإذا أردنا أن نستقصي أثر المدرسة الحجازية من الناحية العلمية على علماء الأندلس في عصر ملوك الطوائف، يكفي أن نشير إلى عالمين كبيرين، شهدهما الأندلس في هذه الفترة، وهما: أبو نصر محمد بن فتوح الحميدي(488 هـ)، وأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي(474 هـ)، صاحب " المنتقى" وهما من كبار العلماء المرتحلين إلى المشرق في هذه الفترة، وإن كنا نود الحديث عنهما في المبحث المخصص للحديث عن التواصل الثقافي بين الأندلس والعراق. فالحميدي نزيل العراق، وقد طاب له المقام هناك فتوفي هناك، أما الباجي فقد كانت إقامته بالعراق لأكثر من ثلاثة عشر

([1])عبد الله بنصر العلوي: التماثل الإبداعي في الشعر بين المغرب والأندلس، ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، (الروافد والمعطيات، ص 184).

([2])ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 315.

عاما، ورغم تأثرهما بالمدرسة العراقية في مناحي عديدة، وخاصة الباجي - وهو ما سنذكره لا حقا - إلا أن أثر المدرسة الحجازية عليهما واضح من خلال بعض مؤلفاتهما.

فالباجي قد جاور ثلاثة أعوام في مكة ولا زم أبا ذر الهروي، وقيل كان يمضي معه إلى السراة[1] ولا نستبعد أنه أخذ عنه علم الحديث بطرقه وعلله وشيوخه، فمن الكتب التي ألّفها الباجي في هذا المضمار" التعديل والتجريح فيمن روى عنه البخاري في الصحيح.[2]

وقد ذكر المقري في حديثه عن أبي ذر الهروي أنه خرّج على الصحيحين تخريجا حسنا.[3] ثم أردف قائلا: " وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب، إما من رواية الباجي عن أبي ذر الهروي، وإما من رواية أبي على الصدفي الشهير بابن سكرة بسنده.[4]

ويؤكد ابن الزبير الغرناطي هذه الرواية في ترجمته لعمر بن محمد بن مشرف بن محمد بن أضحى(ت510) الذي روى بالمرية عن أبي القاسم خلف الجراوي القيسي كتاب البخاري عن أبي ذر الهروي[5].

وهو ما يؤكد شيوع صحيح البخاري في الأندلس برواية أبي ذر والتي أدخلها تلامذته من أمثال الباجي وطبقته.

يقول الباحث عبد المجيد تركي عن الباجي:" ومن المرجح أنه أخذ عنه السنة - أي عن أبي ذر - إذا كان هذا الشيخ من قبل تلميذ للدارقطني* (385 هـ - 955م)، إمام الحديث في

([1]) المصدر نفسه، ص 344، 345.

([2])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([3])نفح الطيب: ج2، ص 70.

([4])المصدر نفسه: ص 70، 71.

([5])صلة الصلة: ص 193، 194، ترجمة رقم(562)، وفي هذه النقطة بالذات يذكر ابن العماد الحنبلي في سرده لحوادث عام(523 هـ)، عن يوسف بن عبد العزيز المنور في الفقيه العلامة، نزيل الاسكندرية، الذي روى صحيح البخاري عن واحد عن أبي ذر الهروي، أي عن أحد الرواة أو التلاميذ المباشرين لأبي ذر الهروي إمام الحرمين في وقته./ شذرات الذهب، ج4، ص 63. وهو ما يؤكد مرة أخرى شيوع رواية أبي ذر حتى زمن المرابطين.

*الدار قطني(306 هـ/385هـ - 955/918) أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الإمام الحافظ الكبير شيخ الإسلام، إليه النهاية في معرفة الحديث، وكان إماما في القراءات والنحو كذلك، وقيل كان يحفظ دواوين جماعة، وسمي عند بعض العلماء بأمير المؤمنين في الحديث، ونسب إلى دار القطن محلة ببغداد، من تصانيفه: المؤتلف والمختلف في أسماء الرجال، غريب اللغة، كتاب القراءات، كتاب السنن، المعرفة بمذاهب الفقهاء./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج3، ص 462 وما بعدها./ ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب، ج3، ص 116، 117./ عمر كحالة: معجم المؤلفين،ج7، 157.

زمنه، وهو مؤلف مسندين من مسانيد الحديث"[1]هذا في علم الحديث فقط، أما على صعيد الفقه المالكي والذي يعدّ الباجي أحد أعمدته، وله في ذلك تصانيف عظام حسان جليلة، مثل " المنتقى في شرح الموطأ"[2] وكتاب " اختلاف الموطآت"[3] وغيرها من المؤلفات الفقهية، فقد كان لأبي ذر الهروي كذلك دور في هذا التكوين حيث" تتلمذ أبو ذر الهروي لاثنين من كبار المالكية، هما، أبو بكر الأبهري(ت375/ 985م)، وهو من المتخصصين في أصول الشريعة، وأبوالحسن بن القصار(397 هـ/ 985 م)، وهو من المتخصصين في أصول الشريعة، وأبوالحسن بن القصار(397/ 1007م) الذي علا قدره بالكتابة عن مسائل الخلاف الفقهي."[4]

أما الحميدي فقد ارتحل إلى المشرق عام(448 هـ)، أي بعد وفاة أبي ذر الهروي بثلاثة عشر عاما ولكنه أخذ في الأندلس عن ابن عبد البر النمري(463 هـ)،الذي سبق وأن ذكرنا أنه كتب إليه من أعلام الحجاز كأبي ذر الهروي وغيره، أما الطريق الثاني في تأثره بالمدرسة الحجازية فقد سمع من أحد أعلامها آنذاك وهوالزنجاني السابق ذكره، حيث سمع منه في مكة المكرمة: ولم يصنف المصنفات وخاصة في علم الحديث إلا بعد أن استوعب العلوم جيدا وحصلها واستوطن العراق، ومضى على ذلك سنون، حيث كمل ونضجت التجربة[5].

فقد كان إماما في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته، محققا في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث[6] ومن مشهور مصنفاته في هذا المجال كتاب" الجمع بين الصحيحين"[7] وله كذلك كذلك كتاب" تفسير غريب ما في الصحيحين"[8].

([1])مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي، ترجمة وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، مراجعة محمد عبد الحليم محمود، دار الغرب الإسلامية، بيروت، ط1، 1406 هـ/ 1986، ص 74.

([2])فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي، م1/3/ص 136.

([3])إيضاح المكنون، ج1، ص 48.

([4])عبد المجيد تركي: مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم والباجي، ص 74.

([5])المقري: نفح الطيب: ج2، ص 113.

([6])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([7])المصدر نفسه: ص 114. وعند البغدادي" الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم"ج2، ص 76، 77.

([8])فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي، م1/1/ص 225، 275.

خلاصة القول أن الرحلة الأندلسية نحو الحجاز، ظلّت مستمرة ولم تنقطع يوما، وذلك منذ أن وطأت أرجل المسلمين شبه جزيرة أيبيريا، وكان عصر ملوك الطوائف في الأندلس أشد تمثلا لهذا التواصل المعرفي بين القطرين، حيث ورغم الظروف السياسية المتدهورة التي طبعت المناخ السياسي للأندلس في تلك الفترة، فإن تيار الرحلة لم ينقطع ولم يشهد خفوتا البتة. فقد لمس الأندلسيون في أرض الحجاز الوطن الأم ونشدوا فيه الوحدة المفقودة في أندلسهم . وهو سبب من أسباب زيارة الأندلسيين لتلك الديار المقدسة، منضافا إلى أسباب أخرى ذكرناها قبلا، منها: الواجب الديني المقدس (الحج والعمرة)، وحتى التجارة والسياحة، ومن أهمها الرحلة العلمية التي كان أصحابها يجمعونها مع رحلات الواجب الديني.

وكانت رحلات الأندلسيون موفقة إلى مكة والمدينة، وحصل تدفق كبير للعلوم والمعارف إلى الأندلس عن طريق قوافل العلماء وطلبة العلم العائدين إلى ديارهم، حيث جلبوا معهم الكتب، والمرويات وحملوا في ذواكرهم الأسانيد والمحفوظات التي لُقِنوها في الحجاز وسمعوا من أعلام تلك الفترة مثل أبي ذر الهروي، وكريمة المروزية، والزنجاني وطبقتهم.

وكانت تقاطعات الأندلسيين مع الحجازيين في عدة نقاط ساعدت على سهولة التواصل المعرفي بينهما، منها تشابه الطبيعيتين الحجازية والأندلسية، وكان المذهب الفقهي بينهما واحدا، وهو مذهب إمام دار الهجرة مالك – رحمه الله - حيث كانت الطبقة الأولى من تلامذة مالك من الأندلسيين وهم الذين أدخلوا مذهبه إلى الأندلس، وساعد هذا التواصل كذلك بُعد الأندلس والحجاز عن الاختلافات الفكرية التي عاشتها الأقطار الإسلامية الأخرى كالشام والعراق.

أمّا أهم الاختصاصات التي جرى فيها التواصل الثقافي بين الأندلس والحجاز فهي الحديث والقراءات، والفقه الإسلامي.

III -1-2- المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والقدس:

القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومعراج الرسول الكريم محمد- صلى الله عليه وسلم -وهي بيت الله، وبها المسجد الأقصى الذي بارك الله تعالى حوله.

وكانت مدينة القدس مولد ومدفن عديد الأنبياء - عليهم السلام - وحتى من غاب عنها بجسده، فقد حضرت روحه يوم صلى النبي عليه الصلاة والسلام، بجميع الأنبياء والمرسلين في ليلة الإسراء والمعراج.

والقدس هي المدينة التي لا يختلف حول قدسيتها واحد من أتباع الديانات السماوية الثلاث وعلى هذا الأساس فقد" انفردت القدس على سائر مدن العالم بأهميتها الروحية كمركز لتراث المسلمين والمسيحيين واليهود على سواء، فهي في نظرهم مهبط الوحي ومركز الأديان، والمكان الذي حظي بزيارة معظم الأنبياء والرسل، فالقدس مقدسة لكل الأديان السماوية فهي مدينة الله"[1]

أما فضائل بيت المقدس*فهي أكبر من أن تذكر في هذه الصفحات حتى خصص لها بعضهم قديما وحديثا عناوين كاملة، يقول المقدسي:" وأما فضائل بيت المقدس فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر، وإليها المنشر، وإنما فضّلت مكة والمدينة بالكعبة، والنبي صلى الله عليه وسلم، ويوم القيامة تزفان إليها فتحوي الفضل كلّه".[2]

([1]) أحمد مختار العبادي: نظرة أهل المغرب والأندلس نحو القدس، ندوة الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر المغرب منطلق وموئلا، ص 207.

*حول فضائل بيت المقدس ومزاراته ينظر: البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 36 وما بعدها، والمقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، من ص 168 إلى ص 186./ ابن بطوطة: الرحلة المسماة تحفة النظّار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2007، ص 75، وما بعدها.

وقد ذكر المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عددا من المؤلفات التي عمد أصحابها إلى تخليد تاريخ فلسطين وبيت المقدس وذكر فضائلها: مصنف أبي الحسن علي الربعي الذي تمّ تأليفه حوالي(435 هـ/ 1043م) يحمل عنوان (الإعلام بفضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الإشارات والبقاع الشريفة). تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 551. ثم يقول:" وفي الفترات التالية من تطور هذا الأدب تبدأ القدس في التمتع بحقوقها كاملة من حيث العناوين... وخير مثال لهذا مؤلف نال الصيت فيما بعد وهو أبو المعالي المشرف بن المرحبي بن ابراهيم المقدسي ويحمل مصنف المقدسي عنوان" فضائل البيت المقدس والشام" المصدر نفسه ص 551، 552 وكان أبو المعالي السابق ذكره في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكذلك أبو بكر بن أحمد =الواسطي(500 هـ/1106م) صاحب كتاب (فضائل بيت المقدس)/ المصدر نفسه، ص 552 ، وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي(597 هـ/ 1200م) له فصل(فضائل القدس) في مصنفه الكبير(مثير الغرام إلى ساكني الشام)./ المصدر نفسه، ص 552 . والقاسم بن عساكر(600 هـ/ 1203م صاحب كتاب (الجامع المستقصي في فضائل المسجد الأقصى)./ المصدر نفسه. ص 553./ ومنهم أبو القاسم مكي بن عبد السلام الأنصاري المقدسي الشافعي المتوفى (432 هـ) صنف تاريخ بيت المقدس./ البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 471./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 332 وما بعدها(542)/ ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق : أحمد عمر هاشم، محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، دت، ج2، ص 517، 518.

([2])المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 168.

وفيه من المشاهد محراب مريم وزكريا ويعقوب والخضر ومقام النبي وجبرئيل وموضع النمل والنور والكعبة والصراط متفرقة فيه، وقد كان دار ملك لداوود عليه السلام وولد سليمان من بعده.[1] وفي الخبر المروي أن المسيح - عليه السلام – يقتل المسيح الدجال بباب لدّ.[2]

وقال ابن عطية في تفسيره:" يروى أن النبي – صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى خص فلسطين بالتقديس، وقال الطبري: إن من فلسطين ظهر عيسى عليه السلام.[3]

وبفضل هذا وذاك فقد انطبعت صورة القدس، بملامحها الدينية وقسماتها الحضارية، في وجدان أبناء العدوتين المغرب والأندلس، لتتحول مع مرور الأيام، إلى عنصر بنيوي في هويتهم الإسلامية[4]

وكانت علاقة فلسطين وبيت المقدس بالعدوتين: المغرب والأندلس ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، فالحميري في حديثه في(مادة فلسطين) يقول: وفلسطين كانت ديار البربر في سالف الأزمان، وكان ملكهم جالوت، وهو سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل داوود جالوت فساروا إلى ديار المغرب."[5] وقد ذكر هذه القضية قبل الحميري الرحالة الإدريسي حيث قال بعد أن ذكر بعض المدن الجزائرية والمغربية:" وكانت ديار البربر فلسطين، وكان ملكهم جالوت بن ضريس بن جانا وهو أبو زناتة المغرب".[6]

أما علاقة الأندلس ببيت المقدس فترجع إلى هذه الفترة تقريبا، فالمرويات التاريخية التي صاحبت عملية الفتح الإسلامي للأندلس، تحدّثنا عن عثور طارق بن زياد عن مائدة سليمان عليه السلام في طليطلة عاصمة القوط، والتي زعموا أنها من ذخائر الملك أشبان بن طيطش* التي أخذها من بيت

([1]) البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 37.

([2])

([3]) الحميدي: الروض المعطار، ص 441.

([4]) حسن الوراكلي: مقدمة كتاب: أحمد الطريبق أحمد: القدس بحثا عن معالم الصورة، من خلال الرحلة المغربية، الناشر، سليكي إخوان، طنجة، ط1، 2009م، ص 6.

([5])الحميدي: الروض المعطار، ص 441.

([6]) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص 222.

* راجع قصة إشبان بن طيطش في غزوته إلى إيليا (بيت المقدس) انطلاقا من إشبيلية، حيث جلب رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس، ومنها مائدة سليمان عليه السلام، عند البكري، حيث أورد القصة بطولها في المسالك، ج2، ص390، 391./المقري: نفح الطيب، ج1، ص 161./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 2، حيث تحدث عن إشبان في سياق آخر./ الحميدي: الروض المعطار، الصفحات، 33، 34، 381، 519.

المقدس أثناء خروجه هناك، حتى سميت المنطقة التي وجدت فيها المائدة بـ" مدينة المائدة" وهي في أحواز طليطلة، وكانت فيها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا، وانتهى إليها طارق حتى مضى إلى طليطلة سنة ثلاث وتسعين"[1] ويروى عن محمد بن وضاح أن المرأة التي قتلت يحي بن زكريا عليهما السلام من إشبيلية من قرية طالقة.[2]

كما يرتبط بيت المقدس باسم أحد أساقفته المشهورين وأحد حواريي نبي الله عيسى –عليه السلام -زهر يعقوب بن زبدة، وزبدة أو زبدي هو والد يعقوب ويوحنا وزوج سلومة، وكان يعمل صيادا للسمك في بصرة الجليل، وقد ذهب إلى إسبانيا، ونشر فيها العقيدة المسيحية إلى أن مات ودفن هناك في جليقية (غاليسيا) باسم "santiaco de compostela" أو سان جاك عند الفرنسيين[3] وقد زعم الحميري أن يعقوب الحواري، قد قتل في بيت المقدس، وأدخله تلامذته في مركب فجرى به المركب في البحر الشامي، إلى أن خرج به إلى البحر المحيط، حتى انتهى به إلى موضع الكنيسة بساحل فبنيت الكنيسة عليه وسميت باسمه.[4] وهذه الكنيسة مشهورة مقصود نحوها، محجوج إليها، والروم يأتونها من جميع الأقطار يحجون إليها، وليس بعد كنيسة بيت المقدس* أعظم منها.[5]

([1]) الحميدي: الروض المعطار، ص 530، وقد وردت أخبار المائدة عنده في الصفحات: 34، 381، 393 كما ورد خبر المائدة على سبيل المثال في المصادر الآتية: تاريخ افتتاح الأندلس لمؤلف مجهول، ص 101./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص 536، 552./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص 12، 16، 17. وفيه تفصيل حول كيفية وصول المائدة إلى الأندلس./ المقري: نفح الطيب، ج1، الصفحات، 161، 247، 265 حول كيفية وصول المائدة إلى الأندلس./ المقري: نفح الطيب، ج1، الصفحات، 161، 247، 265، 272، 273، 277، 289./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص 72، 102.

([2]) البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 390./ الحميدي: الروض المعطار، ص 59.

([3]) أحمد مختار العبادي: نظرة أهل المغرب والأندلس إلى القدس، ص 208، ويقول الباحث في هذه القضية:" وكلمة (Compostela) معناها حقل النجمة باللاتينية (compusstella) لأن المطران(tiodomiro d'iria) اهتدى إلى قبره بنجمة أضاءته كما يقولون والإسبان يعتبرون القديس يعقوب، أو شانت ياقب(Santiago) حامي إسبانيا وشفيعها وقت الحروب، حيث كانوا يستغيثون به في وقتالهم مع =المسلمين وطالما رأوه بزعمهم متقلدا سلاحه يقاتل به في صفوفهم على فرسه البيضاء المنيرة، ومازالت إسبانيا إلى اليوم تحتفل بذكرى سانتياغو في 25 يوليو من كل عام"./ المصر نفسه، ص 208.

([4]) الروض المعطار: ص 348، ص 63.

*وهي الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة، ويسميها المسلمون قمامة، وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها" الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1 ص 358./ الحميدي: الروض العطار، ص 68، وذكر ابن بطوطة في رحلته، ص 79. وكذلك ابن خلدون ، عارض أصولها وعلّق حواشيها: محمد بن تاويتالطنجي، حررّها وقدّم لها نوري الجراح المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003م، ص 384.، حيث ذكرها بالاسمين معا، كنيسة القيامة وكنيسة القمامة.

([5]) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص 728./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص 70

ولهذا فإننا لا نعجب أن لا ينقطع التواصل يوما بين الأندلس والقدس بين أتباع الديانة المسيحية، فزيارة كنيسة القيامة أوالقمامة له ما يبرره، وزيارة كنيسة شانت ياقب له ما يبرره كذلك، وإن كانت الأولى أعظم بكثير عند المسيحيين" فالحجاج من جميع أنحاء أوروبا كانوا يجوسون خلال البلاد العربية سعيا وراء زيارة بيت المقدس وكنيسة القيامة بها، ومن الثابت أن الحجاج المسيحيين كانوا يتنقلون في حرية، كما كانوا يقابلون بالترحاب وهم في طريقهم لزيارة الأرض المقدسة.[1]

ويذكر بعض المؤرخين قصة قس يسمى فيليبالدو(san- willibaldo). ذهب للحج إلى الأراضي المقدسة، ووصل إلى الرهاليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربي في أمره وسجنه، ثم أطلق سراحه حين استبان أنه من أهل الذمة في الأندلس[2].

وبلغ ولع نصارى الأندلس بهذا الارتباط العميق بالقدس، أن سموا - لهم أو غيرهم - إحدى مدنهم (شنتمرية) أو (شنت مرية) على القديسة مارية، والاسم نفسه يطلق على أحد أبواب كنيسة القيامة.[3]

أما بالنسبة للمسلمين فالقدس عندهم أعظم قداسة، وقد كانت دائما وأبدا مركز أساسيا من مراكز العلم، يؤمها طلّاب المعرفة، لتقلي مختلف العلوم وفي سائر الفروع، كالحديث والفقه والتفسير وغيرها.

لقد شكّلت القدس قديما وحديثا بمكوناتها الدينية والروحية ومزاراتها المقدسة والتاريخية، بؤرة الوعي لكل مسلم على وجه الأرض، كيف لا ؟ وقد توجه إليها النبي – صلى الله عليه وسلم – بالصلاة ثمانية عشر شهرا من مقدمه، والمسلمون معه. قبل أن تصرف القبلة إلى الكعبة

([1]) جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص 15، وينقل الباحث عن بعض المصادر الغربية أن أحد الحجاج واسمه برنارد الحكيم(wise bernard) قد نقل في مذكراته قائلا:" كان السلام يسود بين المسيحيين والوثينين (يقصد المسلمين)، بحيث إنني لو خرجت في سفرة ونفق حملي او حماري الذي يحمل متاعي، واضطررت أن أترك كل شيء، بلا حارس وذهبت إلى المدينة المجاورة للحصول على دابة أخرى، فإنني عندما أعود أجد ممتلكاتي كما هي ، لم يمسها بشر." المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

([2]) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 530، 531.

([3]) الحميدي: الروض المعطار، ص 68./ الإدريسي: نزهة المشتاق. ج 1، ص 359.

المشرفة.[1] وإليه أسري بنبي الأمة عليه السلام من مكة المكرمة فقد كان هذا المكان إذن" معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل، ولهذا جمعوا كلهم فأمهم في محلتهم."[2] ثم عرج إلى السماء، وقد أوصى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بالصلاة فيه فقال: " لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، ومسجد إيلياء"[3]

ومن ثم فقد كان التقديس، أي زيارة بيت المقدس والصلاة في المسجد الأقصى مزيد كمال للحجيج بعامة، ولطلاّب العلم منهم بخاصة، لما يحققه لهؤلاء في رحاب القدس وما حوله من لقاء الشيوخ والجلوس إليهم والاستوساع والاستكثار من الإجازة."[4]

وقد كانت القيمة الرمزية الكبرى للقدس الشريف، وما مثّله من دلالة روحية ودينية دافعا قويا للأندلسيين لشد الرحال نحو هذا المكان المبارك، فقد شكّل الدين على مدى التاريخ الإنساني كله، وعند المسلمين خصوصا" مهيمنا، وأساسا استراتيجيا يحرّك خلفيات الرحلة...فتصبح المرجعية الدينية حافزا قويا يؤطر المرجعيات الأخرى."[5]

([1]) السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية الابن هشام، قدم له وعلق عليه وضبطه: طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2008/ 1428 هـ - 1429 هـ. ج2، ص 296، 273، 274. وكذلك ج 3، ص 25. وانظر كذلك: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، م1/ج2، ص 525، 526./ وابن الأثير الكامل في التاريخ، ج2، ص 80.

([2]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الرشيد(دار الغد الجديد)، القاهرة، مصر، ط1، 2007م/ 1428 هـ، ج3، ص 3 وكذلك، ج1، ص 177، 178، 147، 148. وفي هذا الجزء، ص وما بعدها تفصيل الحديث عن الإسراء والمعراج./ السهيلي، الروض الأنف. ج2، النفحات: 141، 142، 143، 144، وص 147 وما بعدها./ البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 41. وقد ألف الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي(ت942 هـ) كتابا(الإسراء المعراج) أو (خلاصة الفضل الفائق في معراج حيز الخلائق) فصل فيه قصة الإسراء والمعراج، وحشد أقوال العلماء قبله في هذه القضية، اعتنى به حسن إسبر دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط2، 1430 هـ/ 2009 م. وأنظر في المصدر نفسه تصدير المحقق حول الكتب التي ألفت في هذا الباب، وقد المحقق منها حوال خمسة وأربعين كتابا في مختلف الأعصار، ص 23 وما بعدها.

([3]) المراد بمسجد إيلياء، هو المسجد الأقصى، قال الزمخشري:" والمسجد الأقصى، بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد." الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2001،2م/ 1421 هـ.ج2، ص 606.، وقد جرت حوادث جمة يوم فتح بيت المقدس في السنة السادسة عشر للهجرة./ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، م2/1/ص 304 وما بعدها./ ابن الأثير الكامل، ج2، ص 348، 349./ وقد سماه المؤرخ ابن الطاهر المطهري المقدسي مسجد إيلياء ، البدء والتاريخ، ص 761.

([4]) حسن الوراكلي: مقدمة أحمد الطريق أحمد : القدس بحثا عن معالم الصورة من خلال الرحلة المغربية ص 5.

([5]) شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي(التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، ص 499.

فالمكان المقدس بالنسبة للرحالة ثابت من حيث الجوهر الذي ظل بالنسبة للرحالة محافظا على معماريته ، نقائه، أو دلالته الرمزية القريبة والبعيدة، المتربطة بهذا التطهير، بمختلف أبعاده.[1]

ولما كانت الرحلة مؤطرة بالخطاب التعليمي، فإن هذا الأخير يُعد الوسيلة الرئيسية لتلقي المقدس.[2]

ومن هنا يصبح المقدس مرادفا للهوية الثقافية بعيدا عن الدلالة الدينية الشائعة.[3]

وفي رحلة التقديس فقد سجّل" الأندلسيون نسبة عالية جدا من بين هؤلاء العلماء ولاسيما القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وما بعده، حتى وقوع المدينة تحت ظل الاحتلال الصليبي عام(492 هـ/ 1099 م)، وكان يطغى على علاقات القدس بالعلماء الأندلسيين في هذه المرحلة طابع العطاء، بحيث ظلت هذه المدينة مركزا ينهل منه الواردون من الأندلس ما شاءوا من العلوم الدينية.[4]

وكان حب الأندلسيين للقدس وهجرتهم إليه متواصلة على مدار التاريخ وحتى من لم تسعفه الهجرة أوالرحلة إليه لزيارته فقد كتب عنه بأوصافه المختلفة كأنه ارتحل إليه، كابن عبد ربه الأندلسي(ت 328 هـ) صاحب العقد الفريد الذي ينقل لنا أوصافا للقدس دون أن يراها.[5] وها هو أبو عبيد البكري(487 هـ/ 1094 م) أحد كبار جغرافيي الأندلس في عصر الطوائف، يتحدث عن القدس دون أن يراها، وكذلك من خلال تقسيمه لأقاليم الشام إلى خمسة أقاليم[6].

هؤلاء العلماء الذين كتبوا عن القدس دون زيارتها أو رؤيتها، كتبوا عنها وكأنهم "أرادوا بذلك نقل القدس إلى المغرب والأندلس كي يسعد برؤياها وتصورها مواطنوهم الذين لم يتمكنوا من السفر إليها.[7]

وكثيرا ما عقد جغرافيوا الأندلس ورحالتها مقارنات بين المسجد الأقصى وجامع قرطبة الشهير، وذلك من باب الإعجاب والإكبار، وليس من باب الندية، فالحميري يقول:" فهو معظم في مدة

([1]) عبد الرحيم مؤذن: الرحلة في الأدب المغربي(النص، النوع، السياق) ص19.

([2])المصدر نفسه: ص 149.

([3])المصدر نفسه: ص 148.

([4]) عبد الودود ذنون طه: الرحلات العلمية المتبادلة بين المغرب الإسلامي والمشرق، ص 31، 32.

([5])

([6]) المسالك والممالك، ج2، ص 32 وما بعدها، وقد أشرنا سابقا إلى وصف البكري لبيت المقدس.

([7]) أحمد مختار العبادي: نظرة أهل المغرب والأندلس نحو القدس، ص 211.

الإسلام - أي المسجد الأقصى - وليس في الأرض مسجد على جامع قرطبة، وصحن المسجد الأقصى أكبر من صحن جامع قرطبة."[1]

وبعيدا عن تأثيرات الجوانب الدينية والروحية في الرحلة الأندلسية وسبب الإقامة هناك ما يذكرون عن لين معشر المقدسيين، وطيب أخلاقهم، وهي عوامل محفزة للأندلسيين للاستقرار هناك، فقد ذكر المؤرخون أنه " لا يوجد أعز من أهل البيت المقدس، لأنك لا ترى بها بخسا ولا تطفيفا، ولا شرابا ظاهرا ولا سكران، ولا بها دور فسق سرا ولا إعلانا، مع تعبّد وإخلاص، ولقد بلغهم أن الأمير يشرب فتسوروا عليه داره وفرّقوا أهل محلبسة"[2].

ولهذا فقد كانت رحلة الأندلسيين إلى بيت المقدس، تدفعها دوافع، وتعجّل بها أسباب وتمهّد لها عوامل ومحفّزات، منذ القرن الثاني الهجري.

وفي الفترة الزمنية المخصصة للدراسة، وهي عصر الطوائف، أو القرن الخامس الهجري، فقد بقي تيار الهجرة متواصلا متدفقا متوهجا، وبلا انقطاع ومن الطرفين بحيث كانت الاستفادة متبادلة من القطرين، وشارك في هذا التواصل الثقافي، علماء من خارج القطرين، كالمقرئ البغدادي أبي العباس أحمد بن زيدان(ت914 هـ) الذي أقرأ الناس ببيت المقدس، وقرأ عليه كثير من المغربة.[3]

وكان العلامة القيرواني ثم الأندلسي، مكي بن أبي طالب القيسي(ت437 هـ) قد زار المشرق وطوّف بمختلف مراكزه الحضرية والعلمية، وكان له حضور قوي في الحياة العلمية ببيت المقدس، وصنف هناك كتابه الشهير(مشكل الإعراب)، في الشام ببيت المقدس سنة(391 هـ) كما قال هو عن نفسه.[4]

وكان ابن الفرّاء(ت 406 هـ) أحمد بن سعيد الأموي القرطبي المقرئ، قد ترك قرطبة منبعث الفتنة، فخرج راجلا حيث زار المشرق وحج وسار إلى بيت المقدس فتوفي هناك.[5]

([1]) الروض المعطار: ص 68./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 359، 360.

([2])المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 40.

([3]) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص 69، 70.

([4])المصدر نفسه: ج2، ص 406.

([5]) ابن بشكوال: الصلة(طبعة المكتبة المركزية)، ص 53 رقم (94).

في هذه الفترة بالذات ظهر علماء مقدسيون ممن كان لهم صدى عند المغاربة عموما والأندلسيين خصوصا، نظرا لما خلفوه من آثار علمية مهمة، وسير خلقية طيبة في نفوس تلامذتهم، لعل أبرزهم أبوالفتح نصر بن ابراهيم، المقدسي(ت490 هـ).

وكان أبو نصر المقدسي* أستاذا لجيل كبيرمن العلماء الأندلسيين" ومن الجدير بالذكر أن الأندلسيين نقلوا كتابه الموسوم بـ "(المصباح والراعي إلى الفلاح في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -)" وقد استمرت رواية هذا الكتاب لمدة ليست بالقصيرة في الغرب الإسلامي"[1]

وتحدّثنا المصادر التاريخية عن علي بن خلف بن ذي النون المقرئ القرطبي(417 هـ/ 498 هـ) من جلة المقرئين وفضلائهم، وعلمائهم، وخيارهم، وقد رحل إلى المشرق، وسمع ببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، وكان قد قرأ الناس بجامع قرطبة وأسمعهم الحديث فيه[2]. وحدّد الضبي سنة رحلته عام أربع وأربعين وأربعمائة(444 هـ)، ثم رحلة أخرى قام بها ثانية قبل رجوعه إلى الأندلس[3].

---

* هو العلامة الفقيه نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي(490 هـ/ 1096 – 1097م) شيخ الشافعية بالشام، وصاحب التصانيف كان إماما علامة مفتيا محدثا، حافظا زاهدا، متبتلا ورعا، سمع بدمشق من عبد الرحمن بين الطبير، وأبي الحسن السمسار وطائفة ، وبغرة أبي جعفر الميماشي ، وبآمد وصور القدس، ولما قدم الغزالي دمشق أجتمع به واستفاد منه، من تصانيفه: التهذيب والتقريب) وكتاب (المقصود له). وهو أحكام مجردة، وكتاب (الكافي) مجلّد مختصر وفيه حذو وشيخه أبي الفتح سليم الرازي في كاتبه الكفاية، وله شرح متوسط على كتاب الإشارة لشيخه سليم، وله كتاب (الحجة على تارك المحجة)، وكتاب (الانتخاب الدمشقي في المذهب) نحو بضعة عشر مجلدا، وهو على هيئة تعليق القاضي أبي الطيب الطبري، ويحذو حذوه، وينقل منه كثيرا، وغير ذلك – رحمه الله - ./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 395، 396 ./ ابن الأبار القضاعي: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، طبعة جديدة عن طبعة مجريط (مدريد)، مطابع روفنسي(1885) بعناية فرنشيسكو كويداروزايدين، ص 199، 200./ النووي: تهذيب الأسماء واللغات، علق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 2007، ج1، ص 520، 521. رقم(630)./ الذهبي: مختصر العلو، ص 241./ البغدادي: أيضاح المكنون، ج1، ص 129، ج2، ص 274/ وأضاف البغدادي إلى مؤلفاته كتاب الأربعين في الحديث. و(مناقب الإمام الشافعي هدية العارفين، ج2، ص 490، 491./ حاجب خليفة : كشف الظنون، الصفحات، 58، 98، 518، 1378، 1630، 1807، 1840. وأضاف له كتاب(المقصود في فروع الشافعية./ السبكي: طبقات الشافعية، ج5، ص 351 وما بعدها./ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج13، ص 87./ ابن كثير طبقات الفقهاء الشافعيين، ج2، ص 491، 492.

([1]) عبد الواحد نون طه: الرحلات العلمية المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، ص 32./ ابن خير الإشبيلي، الفهرسة،ص 159، 527.

([2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية، ص 339، ترجمة رقم (912).

([3])بغية الملتمس: ص 370، ترجمة رقم(1217) وقد حدد وفاته سنة (499 هـ).

ويذكر صاحب الصلة في ترجمته لمقرئ مجود شهير من أهل قرطبة، واسمه عبد الرحمن بن الحسن أبوالقاسم(ت446 هـ)، وقد أمضى في رحلته إلى المشرق وتجوّل كثيرا نحوا من عشرين عاما، زار خلالها بيت المقدس، ومصر ومكة والعراق والقيروان، قبل رجوعه إلى الأندلس.[1]

ومثله أبوالحسن صادق بن خلف الطليطلي(ت 470 هـ) الذي رحل إلى المشرق وحج إلى بيت المقدس، وأخذ عن نصر بن ابراهيم المقدسي وأكثر عنه سماعه منه في سنة (452 هـ).[2]

ومن أشهر الداخلين إلى القدس من الأندلسيين في عصر الطوائف، عالمين أندلسيين كبيرين ولدا في عصر الطوائف وارتحلا تقريبا فيه، وتوفيا في زمن المرابطين، وهما: القاضي أبو بكر بن العربي المعارفي الإشبيلي، محمد بن عبد الله(468 هـ/ 540 هـ). وأبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد بن محمد بن خلف المعروف بابن رندقة(451 هـ/ 520 هـ - 1059 م/1127م) صاحب كتاب (سراج الملوك).

أما القاضي أبو بكربن العربي فرحلته شهيرة إلى الشام والمشرق عموما، حيث حرس على كبار العلماء هناك، كأبي حامد الغزالي ، وقد تفقه عليه كثيرا، وكذلك نصر بن إبراهيم المقدسي السابق ذكره، وقد احتفظ لنا المقري، بتقييدات موصوفة بـ" رحلة أبي بكر بن العربي" حيث يقول عن نفسه: تذاكرت مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة المرفوع."[3]

([1])ابن بشكوال: الصلة(طبعة المكتبة العصرية،ص 274، رقم 274 رقم (713)./ الضبي: بغية الملتمس، ص 315، رقم(1007).

([2]) ابن بشكوال: الصلة، ص 202، ترجمة رقم(543).

([3])نفح الطيب: ج2، ص 37، 38، وانظر المصدر نفسه حول رحلته وبعضا من حياته ومؤلفاته، من ص 25 إلى ص 43./ الضبي: البغية، ص 80 وما بعدها. رقم (179)./ ابن بشكوال: الصلة(طبعة المكتبة العصرية).ص 459، وما بعدها، رقم(1300)./ عمر رضا كحالة/ معجم المؤلفين، ج10، ص 242./ البغدادي: هدية العارفين، ج2،ص 90./ : إيضاح المكنون، ج1، الصفحات، 105، 145، 224، 279، 310، 318، 336، 396، 562، 568، وج2، الصفحات: 2، 5، 21، 179، 323، 332، 443، 464، 551./ حاجي خليفة، كشف الضنون، الصفحات، 353، 559، 761، 984، 1315، 1771، 1792، 1919، 1921./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج4 ص 141، 142./ القاضي النبهاني: ص 119 وما بعدها/ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 254، 255./ =الفتح بن خاقان: مطمح النفس، ص 154 وما بعدها./ العماد الأصفهاني: خريدة القصر(قسم شعراء المغرب والأندلس) ج2، رقم الترجمة(85)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 233. وما بعدها رقم (507)./الذهبي: مختصر العلو، ص252، 253. وذكر تاريخ وفاته(543 هـ)./شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه، تاريخه ورجاله، دار السلام، القاهرة، ط1، 1431 هـ، 2010، ص264، 265، رقم(105).

أما الطرطوشي المعروف بابن أبي رندقَة ، فقد رحل إلى المشرق سنة(476 هـ) وهو في السادسة والعشرين، وحج وقصد بغداد ودرس فيها على أبي محمد بن الشاشي وأبي محمد الجرجاني وأبي سعيد المتولي، وهم يومئذ أئمة الفقه الشافعي، ودرس في البصرة والشام ونزل حينا بيت المقدس يقرئ بها.[1]

وفي رحلات الأندلسيين إلى القدس قد يحصل وأن يحدث الوافدون أهل البلاد عن بلادهم ويرغبوهم فيها فتحصل الهجرة أوالرحلة المعاكسة، أي من القدس إلى الأندلس على الرغم من البعد الشاسع بين القطرين، فهذا أبوالعلاء، أيوب بن نصر المقدسي، قد قدم الأندلس تاجرا سنة أربع وعشرين وأربعمائة(424 هـ) - أي في بداية عصر الطوائف - وكان شافعي المذهب ثقة حافظا، وكانت له رواية بالشام.[2]

ومن المتأخرين نسبيا عن دولة الطوائف، والذين أدركوا دولة المرابطين، علي بن أحمد بن علي بن عبد الله الربعي المقدسي الشافعي التاجر(531 هـ)، الذي قدم الأندلس وسكن ألمرية، وقد درس في الشام على إبراهيم بن نصر المقدسي الذي توفي سنة(490 هـ).[3]

نلاحظ من خلال الأمثلة السابقة وجود علاقات ثقافية، وتواصل معرفي كبير بين الأندلس والقدس حيث كانت الرحلة ذهابا وايابا بين القطرين، تدفعها أسباب وعوامل إلى ذلك، منها الدينية الروحية، وتكون هذه الرحلة عادة مؤطرة بالخطاب التعليمي المعرفي، فتكتسي بذلك أهمية خاصة بين كل الرحلات التي تمت انطلاقا من الأندلس إلى باقي الأقطار الأخرى.

([1])ابن بشكوال:الصلة(طبعة المكتبة العصرية، ص 499، رقم 450 ، رقم(1272)، ابن سعيد ، المغرب، ج2، ص 424./ الضبي، بغية الملتمس، ص 117، رقم(259)./ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص 62، وما بعدها./ العماد الأصفهاني: خريدة القصر(قسم شعراء المغرب والأندلس، ج2، رقم الترجمة (83)./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج12، ص 96./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 225. وما بعدها. رقم(504)./ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، نور للدراسات والنشر والترجمة دمشق ، سوريا، 2009، ص 289. وفيه ترجمة وافية./ شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخه ورجاله، ص 252، 253، ترجمة رقم(96).

([2]) ابن بشكوال: الصلة، ص 105، رقم(262) / محمود / محمود سعيد ممدوح: الاحتفال، ج4، ص 93.رقم(1919).

([3]) ابن الزبير الغرناطي: صلة الصلة، ص 256، 257.رقم(757)./ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984. السفر الثامن، ق2، ص 551، 552./ ابن بشكوال: الصلة ص 346، رقم(931).

وكانت هذه العلاقات الثقافية بين البلدين سببا ربما - في دخول المذهب الشافعي إلى الأندلس، حيث تمذهب به كثير من الأندلسيين الذين درسوا على أعلام هذا المذهب في الشام قبل وأثناء عصر ملوك الطوائف كإبراهيم بن نصر المقدسي، الذي كان فقيها شافعيا كبيرا، له شروحات ومؤلفات كثيرة على المذهب، وصاحب التأليف الشهير حول مناقب الإمام الشافعي، ومع تتلمذ جيل كبير من الأندلسيين عليه، وحتى من الشاميين الداخليين إلى الأندلس لا نستبعد أنهم أخذوا عنه أصول المذهب الشافعي وفروعه، وأدخلوا كل ذلك إلى الأندلس ولو من باب المقارنة مع المذهب المالكي السائد في الأندلس.

ومن نافلة القول أن نذكر في هذا المقام أن الصلات بين الأندلس والقدس في عصر الطوائف لم تكن مقتصرة على المسلمين فقط، فالجغرافيين يتحدثون عن صاحب برشلونة راي مند بن بريل، وكان قد خرج يريد بيت المقدس سنة (446 هـ)، وله مغامرات طويلة بعد هذا، حتى وصل إلى بيت المقدس.[1]

([1]) الحميدي: الروض المعطار، هامش ص 87/ البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 397 . حيث ذكر هذا الملك باسم (ريموند بلنقيرين بريل).

III -1-3- المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والعراق.

يمكن وصف العلاقات بين الأندلس والعراق في شقها الثقافي والحضاري بأنها نوعية، متينة ومتميزة، نظرا للأعلام الكبار من كلا القطرين الذين قاموا بتمثيلها وتفعيلها، أما على الصعيد السياسي فكانت متناقضة من حيث مبدأ القيام، إذ أن قيام دولة بني العباس على أنقاض الأمويين في المشرق في سنة (131 هـ) حدث لا يمكن أن يتناساه أمويو الأندلس ابتداء من عبد الرحمن بن معاوية الداخل وبنوه من بعده، حيث كان شاهدا على سقوط دولة أجداده في المشرق، وكان لبعد العاصمتين قرطبة وبغداد دورا كبيرا في تخفيف حدة الصراع بين المركزين، وإلا لكانت الأحداث قد أخذت منعرجا آخر.

كانت رحلات الأندلسيين نحو العراق بحواضره المختلفة كبغداد والبصرة والكوفة والموصل وغيرها من كبريات المراكز العلمية آنذاك ، وخاصة في فترة الولاة وفترة حكم عبد الرحمن الداخل مؤكدة - رغم قلتها - نتيجة للظروف السياسية المتوترة، فمن الطبيعي إذن أن تكون العلاقات على طرفي نقيض بين الخصوم التاريخيين، ولكن لا أحد يستطيع الجزم بانقطاع الرحلات بين البلدين على الصعيد الشعبي، إما للسياحة والتجارة أو طلب العلم فالعلاقات العامة بين الشعوب والأمم كانت ومازالت، تراعي الرسميات، ولكنها لا تعترف بها على صعد الممارسة.

وإذا جاز لنا القول إن فترات الهدوء السياسي أكثر الأوقات ملائمة لتطور الفكر وتحصيل العلوم وازدهار المعارف، فإن الفترة الواقعة بين فتح الأندلس وحكم الولاة وعبد الرحمن الأول وولديه ،قد شهدت اضطرابات سياسية، وضرورة بسط سيطرة الدولة وهيبتها، ونشدان الوحدة الجامعة، ونبذ كل ما يمت للتفرقة وإضعاف الدولة التي كانت في مرحلة التأسيس ومع بداية عصر عبد الرحمن الثاني (الأوسط) الأمير القرطبي الرابع في ترتيب حكامهم الذي تميز عصره" بفترة طويلة من هدنة نسبية، وشهد نشاطا فكريا غذته التأثيرات العباسية غير المباشرة."[1]

فمنذ القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري" امتزج المشرق العباسي قليلا، وبطريقة غير مباشرة في ثقافة إسبانيا (الأندلس) العربية ، دون أن يهدف إلى محو التقاليد السورية (الشامية) على أرضها، وكانت ذات فعالية دائما، وإنما ليدخل فيها الجانب الأكبر من الاتجاهات والمستحدثات

([1]) ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا (ترجمة مكي، ط دار المعارف)، ص 23.

الحضارية البغدادية."[1] والأمثلة كثيرة ومتعددة في هذا الإطار للتدليل على أن " المشرق الإسلامي، بفكره وثقافته، والعراق في القلب منه، كان له دور كبير في تكوين حضارة الأندلس، وتدعيمها على امتداد مراحلها."[2]

وكانت بغداد دوما محط أنظار الأندلسيين وموضع إعجابهم ومحل تقديرهم وإكبارهم ، فهي الحضارة والتاريخ، وبلاد العلم وموئل العلماء ، وموطن الأدباء واللغويين والشعراء والمفكرين والنقاد والفقهاء والمحدثين والمفسّرين والفلاسفة والأطباء، حاول الأمويون إرساء معالم دولتهم في الأندلس، وإعادة بعثها من جديد بعدما انطفأ شعاعها في المشرق، ولذلك فإنه لا سبيل لإعلان ميلاد هذه الدولة السياسي، إذا لم يصاحبه وجود ثقافي ومعرفي وعلمي، يضاهي أو يوازي ما هو موجود عند الخصم التاريخي العباسي في المشرق. وفي هذا الإطار يقول منتصر الريسوني :" إن الأندلس حين استوثق أمرها سياسيا وثقافيا واقتصاديا ، أصبحت تنافس المشرق ، لذلك كانت هناك منافسة بين الدولتين في المشرق والأندلس ، وكذا المغرب، وكانت الوفود العلمية تترى ذاهبة آيبة بين حواضرها، فما يلوح في أفق بغداد حتى يشيع خبره في أفق قرطبة ، وما يلوح في أفق قرطبة جديد، حتى يطير نبؤه إلى بغداد."[3]

ولذلك فإن حكام قرطبة قد أدركوا أنه " ليس من السهل الدخول في حوار مع المشرق العباسي إلا عن طريق المجالات الثقافية والفكرية، وهذا يفسر التدفق الدائم من مسلمي الأندلس الذين كانوا يقصدون إلى الجزيرة العربية والشام والعراق للتوسع في العلم."[4]

وهل يستطيع أحد أن ينكر التحول الكبير الذي شهدته قرطبة مع قدوم تلميذ إسحاق الموصلي الرجل النابه، علي بن نافع المسمى" زرياب" والذي أحدث تحولا كبيرا في حضارة قرطبة الناشئة، عن طريق إدخال بعض المستحدثات الحضارية التي جلبها من بغداد" ذلك أن زرياب لم يستهو أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه، وطريقته في إرسال

([1]) المصدر نفسه: ص 59./ ويتحدث الأستاذ أحمد مختار العبادي عن انتقال الحضارة العراقية إلى الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، والتأثيرات الكبيرة التي انتقلت إلى الأندلس." / في تاريخ المغرب والأندلس، ص 137 وما بعدها.

([2]) طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية ، ج2، ص 478.(بتصرف).

([3]) كتاب ضرائر الشعر لابن عصفور الإشبيلي، مصر العيون مصنفات شرقية، ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية،(الروافد والمعطيات)، ص 274.

([4]) روبرت هيسبراند:" زينة الدنيا" قرطبة القروسطية، مركزا ثقافيا عالميا، ص 189.

شعره، وولائمه البديعة التي كان يتفنن في ترتيبها، فأخذ الناس عنه ذلك كله، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة، وأصبحت ملابسه النموذج الذي يحتذيه القرطبيون في إعداد ملا بسهم."[1] واجتهد زرياب في تكوين مدرسته الموسيقية، مستعينا في ذلك بأبنائه وبناته، وجاريته متعة ، وانتهى الأمر بأن أصبحت الطريقة الأندلسية التقليدية.[2]

بعد الصدى الكبير الذي أحدثته رحلة زرياب إلى قرطبة، والآثار الحضارية والاجتماعية الطيبة التي خلّفها هو وابناؤه وبناته وتلاميذه من بعده، من الطبيعي أن يصبح العراق في نظر الأندلس محط أنظار، وكعبة القصاد، من العلماء والمثقفين، فبغداد هي عاصمة الخلافة السياسية والعلمية، والبصرة والكوفة، وكيف أن الحاجة إليهما ماسّة باعتبارهما مدرستين لغويتين ، نحويتين، فقهيتين، والموصل على خطاهما، فما يمنع الاتصال بكل هذه الحواضر العلمية ياترى؟

ذكر ابن سعيد أن عبد الرحمن الأوسط قد وجه عباس بن ناصح الجزيري إلى العراق في التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها إلى الأندلس وعرّف أهلها بها ، ونظر هو فيها.[3] وكان من أوائل الكتب اللغوية التي هاجرت من العراق إلى الأندلس، كتب كبار العلماء الرواة واللغويين والنحاة الكبار في بغداد والكوفة والبصرة، مثل الكسائي والفرّاء والأخفش وابن السكيت، وابن قتيبة والمبرد والخليل وأضرابهم، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا. وكان العلامة الأندلسي المحدث بقي بن مخلد (ت 273 هـ/ أو / 276 هـ) قد دخل العراق وروى عن أئمة الحديث ، مثل أحمد بن حنبل، وابن أبي شيبة، وأحمد بن إبراهيم الدورقي وجماعة أعلام يزيدون على المائتين.[4] وهو أول من أدخل مصنف أبي بكر بن أبي شيبة إلى الأندلس.[5] وعديد المصنفات ككتاب الفقه (الأم) للإمام الشافعي، وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط، وكذلك كتابه في الطبقات، وكتاب سير عمر بن عبد العزيز للدورقي، وكلّهم عراقيون.[6].

([1]) بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 18/ ابن دحية: المطرب، ص 130.

([2])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 76.

([3]) المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 45.

([4]) الحميدي: الجذوة، ص 156.

([5]) المصدر نفسه: ص 17.

([6]) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 83.

وكان أيوب بن سليمان ، دخل العراق وسمع بها، وعاد ومعه كثير من كتب العراقيين، وكان مائلا في مذهبه إلى مذهب الحجة.[1] وقد برز محمد بن عبدون الجبلي في رحلته التي قادته إلى المشرق عام(347 هـ/ 958م) حيث دخل البصرة ومصر، ودبّر مارستانيهما وتمهّر في الطب ونبل فيه، ثم رجع إلى الأندلس، عام(360 هـ/ 971م).[2]

وقد أمدّت بغداد قرطبة / الأندلس بعدد كبير من كتب التفسير على اختلاف مناهجها، واتجاهاتها، وعن طريقها أتيح للأندلسيين التعرف على مدارس علم التفسير المشرقية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة.[3] كما أدخل علماء قرطبة الأندلس إلى بلادهم تلك الكتب التي صنّفها علماء بغداد في تعليل القراءات والاحتجاج لها بقواعد النحو واللغة وكتب شواذ القراءات.[4]

ولسنا بحاجة إلى التذكير بهجرة علماء بغداد والعراق عامة إلى الأندلس، ويكفي أن نذكر أبا علي القالي(ت366 هـ) حينما دخل الأندلس حاملا معه عدة دواوين لفحول الشعراء، وصاعد البغدادي(413 هـ) صاحب كتاب الفصوص، وقد أشار أحد الدارسين إلى المنهج التعليمي الذي أدخله صاعد إلى الأندلس، حيث أصبح تقليدا علميا منهجيا متوارثا هناك.[5]

هذه خلاصة الاتصال الثقافي بين الأندلس والعراق قبل عصر الطوائف، حيث كان هذا الاتصال عاملا مهما في تحقيق الازدهار العلمي في الأندلس، التي كانت في مرحلة التكوين، تسعى لاكتساب ذاتها ثقافيا وعلميا، فكيف كان حال التواصل الثقافي بين البلدين في عصر ملوك الطوائف؟ يقول المستشرق آنخل بالانثيا: "وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ الأندلسي وما تعاوره من أحداث لرأينا أنه بينما عمل بنو أمية على تحويل الأندلس إلى قطر عربي ووفقوا في ذلك، اجتهد ملوك الطوائف في رد قرطبة الغربية إلى المشرق ثانية، فتحولت عواصمه إلى بغدادات صغيرة كثيرة."[6]

([1])ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ،ص 79، رقم(270)

([2]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 492، 493./ خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص 66، 67.

([3]) طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية ، ج2، ص 497.

([4]) المصدر نفسه: ص 493.

([5]) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص 65،66.

([6]) تاريخ الفكر الأندلسي: ص 100، 101.

كان التواصل الثقافي في عصر الطوائف بين الأندلس والعراق، كبيرا ومثمرا، وازداد التلاقح أكثر من ذي قبل، لأن العراق في هذه الفترة قد بلغ قمة النضج العلمي، فالقرائح متفتحة، والعطاءات غزيرة، والنتاج العلمي لعلماء العراق يعز على الحصر، أما الأندلس فقد صارت أكثر تكورا وتوهجا منها في عصري الخلافة والإمارة، فهي في هذه الفترة تعيش في عصر الكيان المستقل معرفيا، والمبدع ثقافيا، بها أوعية العلم، وجهابذة العلماء، لقد بدا زمن الأندلس في عصر الطوائف، زمن مستقل معرفيا وسياسيا واقتصاديا، فإذا رحل الأندلسيون إلى العراق في هذا العصر، فإنما على سبيل الاستزادة والإضافة، والإفادة والاستفادة، فالحاضرة قرطبة ، لم تعد واحدة، وإنما صارت حواضر، إشبيلية وألمرية ، وبطليوس، وطليطلة، ومرسية ، وغرناطة، وغيرها، فالتأثير هنا متبادل، والتواصل الثقافي يتم على هذا الأساس، لا على أساس الأستاذية والاستعلاء.

يحدثنا ابن الأبار القضاعي عن ابن الحداد البلنسي، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، الذي رحل من الأندلس عام (452 هـ/ 1060م) فحج وطلب العلم، ودخل عدة بلدان منها العراق، حيث طوف بمدنها العديدة مثل: واسط ، بغداد ، الموصل.[1] فاستوسع في العلم واستزاد في المعرفة، وحصل له اتصال مع عدة شيوخ من أهل العلم، وتحقق في المناظرات، ومضى على ذلك سنون.

ومن أشهر الداخلين إلى العراق في هذه الفترة، أبو القاسم عبد الرحمن بن سعيد الخزرجي(446 هـ) المقرئ بجامع قرطبة، والذي قام برحلة طويلة إلى المشرق دامت أكثر من عشرين عاما، تجول خلالها في عدة بلدان، وزار عدة أماكن ، منها الرقة البيضاء من أعمال العراقين ونصيبين.[2]

وقال ابن بسام عن الوزير الفقيه أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني(460 هـ) الذي ارتحل إلى المشرق فتهادى عجائب ذكره الشام والعراق[3] وقال في موضع آخر:" ولم تزل أقطار تلك الآفاق تواصله، وعجائب الشام والعراق تغازله".[4]

([1]) التكملة لكتاب الصلة(تحقيق الهراس)، ج1 ، ص 29، رقم(74).

([2]) ابن بشكوال: الصلة(طبعة المكتبة العصرية)، ص 274 وما بعدها ، رقم(713).

([3]) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق82/1/2.

([4])المصدر نفسه، ص 95.

ويذكر الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي عن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو العباس الأنصاري الشارقي الأندلسي(ت 500 هـ) وكان واعظا دينا بكّاءا للذكر، قد طوّف العراق و فارس، وتفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.[1] ويحدّثنا كذلك عن فقيه آخر و شاعر لطيف الطبع مليح الشعر، واسمه عبد الله بن يحي بن محمد بن بهلول الأندلسي أبو محمد السرقسطي (ت510 هـ) قد ورد بغداد، وأقام بالمدرسة النظامية مدة، وذكر له شيئا من شعره.[2]

أما أشهر العلماء الذين زاروا العراق في هذه الفترة، وكان لهم هناك صوت مسموع، وذكر بعيد ، ثلاثة من أعلام الأندلس في عصر الطوائف، وهم : أبو الحسن العبدري(493 هـ/1100م) علي بن سعيد بن عبد الرحمن، وأبو نصر الحميدي(420 / 488 هـ - 1095/1029) محمد بن فتوح الميورقي، وأبو الوليد الباجي(474 هـ) سليمان بن خلف.

وكان العبدري أولهم رجلا عالما باختلاف العلماء مفتيا، أخذ عن ابن حزم الأندلسي، وأخذ عنه ابن حزم أيضا ، ثم رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد، وترك مذهب ابن حزم، وتفقه للشافعي على أبي اسحاق الشيرازي، وبعده أبي بكر الشاشي، وسمع من الخطيب البغدادي ومن القاضي أبي الطيب الطبري والمارودي وغيرهم من أعلام الأمة الإسلامية في العراق آنذاك وكانت وفاته ببغداد.

وله كتاب تداوله العلماء وتدارسوه وتحدث عنه مطولا كل من ترجم له ، وهو " مختصر الكفاية" في خلافيات العلماء، يقول عنه السبكي:" وقد وقفت عليها – على هذه الخلافيات – بخطه."[3]

كانت منزلة أبي الحسن العبدري كبيرة بين أهل العلم في العراق، فقد كان ناضج العقل والفهم ، واسع التجربة، قد صقلته سعة محفوظاته، وتقدمت به مزلته لكثرة فهمه في المذهب، وصحة استنباطاته، ونظرا لتقدمه في طبقة العلماء، وعلو قدره عند شافعية بغداد، من حيث التفقه، وحجم الأخذ والتنوع المعرفي، حيث نجد كل هذه الصفات عند صديقيه الباجي والحميدي، فقد

([1]) طبقات العلماء الشافعيين، ج2، ص 499.

([2])المصدر نفسه، ص 527.

([3]) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 257، 258./ وانظر حول ترجمته: ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 338. رقم (910)./ ذيل طبقات الشافعية لابن الصلاح، ص 811./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 1499./ عمررضا كحالة، معجم المؤلفين، ج7، ص 100.

كانت منزلته في التحصيل على أعلام العراق، لا تقل عن منزلته وطبقته فيمن أخذ عنه من أعلام ما بين النهرين، فقد أخذ عنه غير واحد من مختلف الأقطار الإسلامية ، في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وانتفعوا بعلمه ، واستفادوا من فقهه، ووثقوا من روايته*، فقد روى عنه مثلا أبو القاسم بن السمرقندي، وأبي الفضل محمد عاطف، وسعد الخير بن محمد الأنصاري وغيرهم.[1]

أما أبو نصر الحميدي، المحدث، الحافظ ، الأصولي، الأديب، فقد سمع بالأندلس من ابن عبد البر، وابن حزم الظاهري وكان على مذهبه، ورحل إلى المشرق وسمع بإفريقية ومكة ومصر والشام والعراق، واستوطن بغداد، وهناك صنف جل كتبه ، مثل: (جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس) و(تسهيل السبيل إلى علم الترسيل) و(الجمع بين الصحيحين للبخاري ومسلم) و (الذهب المسبوك في وعظ الملوك) و(ومخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء)، وغيرها من التصانيف.[2] وقد جعله السبكي ضمن أندلسيين آخرين في طبقاته منهم ابن بشكوال وابن حزم وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي.[3]

أكثر الحميدي الأخذ عن علماء العراق وغيرهم، وأخذ عنه كذلك أهل العلم من العراق وغيرها من الأقطار الإسلامية، وتوجت مجهوداته العلمية والفكرية بعيون التصانيف التي ذكرنا، والتي ألفها الحميدي في عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، وكان من شيوخه في العراق، المحدث و الفقيه

---

*يذكر العلامة الحافظ ابن ماكولا(486 هـ) العبدري في عدة مواضع من كتابه، قال في أحداها:" وعلي بن أبي عثمان هو صديقنا أبواالحسن العبدري الفقيه، رجل من أهل الفضل والمعرفة والأدب، وهو من جزيرة الأندلس فنسب إليها.' الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب./ تحقيق عبد الرحمن بن يحي المعلمي، دار إحياء التراث العربي، وهي طبعة معادة عن الأصلية في حيدر آباد الدكن بالهند (1962)، دت ج2، ص 213.

([1]) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 257، 258.

([2])الضبي: بغية الملتمس، ص 106.رقم(257)./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 438، 439.رقم(1233)./ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 392./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج11، ص 12، 22/ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 252، 385، 581، 599، 601، 1972./ البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص 124، 419، 446، 543، 544، 555./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 95 ./ ابن كثير : البداية والنهاية، ج4، ص 2533.

([3]) طبقات الشافعية الكبرى، ج1، ص 317.

والمؤرخ أبو بكر بن الخطيب* (463 هـ/ 1071م) والحافظ بن ماكولا**(475 هـ/ 1095م)، والقاضي أبي بكر بن إسحاق، وأبي عبد الله القضاعي، وأبي إسحاق الحبّال، وابن بقا الوراق وجماعة يكثر تعدادهم، فقد روى الحميدي عن نصر بن بشر بن علي العراقي.[1]

وإذا روى الحميدي عن القاضي أبي الحسن الخلعي، الموصلي، المصري الدار(ت 492 هـ). فإن هذا العالم الموصلي / المصري، قد سمع من عالم أندلسي قبله وقبل الحميدي وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج الإشبيلي.[2]

وكان شبيب بن عثمان بن صالح الفقيه، أبو المعالي الرحبي، من أهل رحبة الشام، وقد رحل إلى بغداد في طلب العلم، قد سمع من شيوخ كثيرين، ذكر السبكي منهم محمد بن أبي نصر الحميدي.[3]

إما إذا تحدثنا عن أشهر من دخل العراق من الأندلسيين في عصر الطوائف، فأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي،(403 هـ/ 474 هـ) الفقيه الأصولي المتكلم، المحدث، المفسر الأديب، الشاعر. فبعد أن حصل زادا معرفيا كبيرا بتتلمذه على أعلام الأندلس، مثل مكي بن أبي طالب القيسي وطبقته ، رحل إلى المشرق وسمع من أبي ذر الهروي ولازمه في الحجاز ثلاثة أعوام، ثم يمم بوجهه نحو العراق، حيث تتلمذ على أعلام المدرسة العراقية في كل فن وعلم.

كان الباجي وافر العقل صحيح الرأي، عالما باختلاف الآراء وتشعب الأنحاء، كما كان أقوم الناس بالمناظرة، لسنا، لهجا بالجدل والخصام الفكري ، وقد أوتى من العلم وسعة المحفوظ

---

* ذكر الحافظ ابن ماكولا في ترجمته للوزير أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري قوله: " وذكر الخطيب عن محمد بن فتوح الأندلسي." الإكمال، ج2، ص 213، مما يرجح فرضية أن الخطيب قد روى عن الحميدي.

**ذكره الحميدي كثيرا وتتلمذ عليه وأثنى عليه حفظه وقال : " ما راجعت الخطيب في شيء إلا وأحالني على الكتاب وقال : حتى أكشفه، وما راجعت ابن ماكولا في شيء إلى وأجابني حفظا كأنه يقرأ من كتاب " الإكمال: ج1 ، ص 29. وفي مواضع عديدة من مواضع كتبه الإكمال، يعتمد ابن ماكولا على الحميدي، مما يرجح كذلك فرضية أن الحافظ ماكولا قد قرأ وأخذ عن أبي نصر الحميدي، حيث كانت الاستفادة متبادلة ففي حديثه مثلا عن أبي جعفر أحمد بن بقنة وزير دولة العلويين من بني حمود في الأندلس في خبر ذكره ابن حزم وابن شهيد ورواه الحميدي/ج1 ، ص 342. وذكر في ترجمة اسماعيل بن بشير أبو محمد التجيبي، فقال: قال لنا الحميدي... وذكر الخبر"ج1 ، ص 298.

([1])طبقات الشافعية الكبرى ، ج5، ص 354.

([2])المصدر نفسه، ص 253.

([3]) المصدر نفسه، ص 71.

والتوسع في الكلام والفصاحة ما لا يعلمه إلا الله ، وكان السبب الكبير في ثقافته الموسوعية هو السنوات الطوال التي قضاها في العراق، حيث مكث ثلاثة عشر عاما في رحلتين إلى هناك.[1]

فقد سمع من المقرئ أبي علي الحسن بن علي البغدادي ، بمدينة السلام ، كتاب (الإقناع في القراءات) من تأليفه ، كما روى عن أبي الطيب الطبري*.[2]

.

([1]) أحمد بن محمد الأندوي: طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1997، ص 131، 132.، وكان الباجي أستاذا في كل شيء ومؤلفاته العديدة والمتنوعة تدل على سعة علمه وثقوب فهمه، منها: السراج في علم الحجاج، اختلاف الموطآت، شرح فصول الأحكام وبيان ما مضى به العمل من الفقهاء والحكام، فرق الفقهاء،المنتفى في شرح موطأ مالك، شرح المدونة التعديل والتجريح لمن روى عن البخاري في الصحيح، التبيين لمسائل المهتدين، التسديد إلى معرفة التوحيد، وغيرها من المؤلفات.

وحول ترجمة الباجي ينظر المصادرالآتية: الضبي، البغية، ص 261، 262. رقم(777)./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 175 وما بعدها، رقم(453)./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص 94 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 404، 405./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص 599 وما بعدها./ العماد الإصفهاني: الفريدة(قسم شعراء المغرب والأندلس)ج 3، ص 472، 473. رقم(126)./ القاضي النباهي: المرتبة العليا، ص 109./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص 623، 624 .رقم (1455.) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص 330 وما بعدها . رقم(239)/ الحميري: الروض المعطار، ص 75./ المقري: نفح الطيب، ج2، ص 67 وما بعدها./ حاجي خليفة: كسف الظنون، الصفحات: 19، 20، 419، 555، 1907./ البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص 225، 285.../ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 344، 345./ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص 178. رقم(378)/ قاسم علي سعيد/ جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج1، ص 556 وما بعدها رقم(490)./ البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص 397./ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج4، ص 313 وما بعدها./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: ج4، ص 261، 262./ شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخه ورجاله، ص 222. وما بعدها. رقم (77)./ يوسف فرحات، يوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية، ص 96.

* أبو الطيب الطبري(348 هـ/ 450 هـ - 959م/ 1058م) طاهر بن عبد الله بن عمر، فقيه أصولي جدلي كبير ولد بآمل بطبرستان، وسمع الحديث بجرجان ونيسابور وبغداد، وتولى القضاء، وتوفي ببغداد. من تصانيفه: شرح مختصر المزني في فروع الفقه الشافعي، شرح فروع ابن الحداد المصري، كتاب في طبقات الشافعية ، قال عنه السبكي في طبقات الشافعية الكبرى:" هو أحد حملة المذهب ورفعائه، - أي المذهب الشافعي - وعنه أخذ العراقيون العلم، وحملوا المذهب، وصنف في الخلاف والمذهب، والأصول والجدل، كتب كتبا كثيرة ليس لأحد مثلها. "ج5، ص 12 وما بعدها./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 284، 285./ ياسين بن خير الله اليعمري: منهج الثقات في تراجم القضاة، ص 93، رقم(50)/ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج5، ص 37./ ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين، ج1، ص 412 وما بعدها./ شعبان محمد اسماعيل: أصول الفقه: تاريخه ورجاله، ص 208، 209 رقم(70) / ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص 2481.

([2])ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج4، ص 314.

كما درس عن أبي إسحاق الشيرازي* والدامغاني**، وابن عمروس، وأخذ عن الخطيب البغدادي***. وأخذ الخطيب عنه... ودخل الموصل فأخذ بها علم الكلام عن السمناني****.[1]

---

* أبو اسحاق الشيرازي(ت476 هـ/ 1083م) إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي، ولد في بليدة بفارس، وقرأ على عدة شيوخ، ثم دخل بغداد وقرأ على القاضي أبي الطيب الطبري ولا زمه ، واشتهر به، وصار أعظم أصحابه ومعيد دروسه، وكانت الطلبة ترحل من المشرق والمغرب إليه. من كتبه: " التنبيه" و" المذهب" في الفقه، و" النكت" في الخلاف، و" اللمع" وشرحه" و" التبصرة في أصول الفقه و" الملخص" و" المعونة" في الجدل و" طبقات الفقهاء" و" نصح أهل العلم" وغير ذلك./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 215. وما بعدها./ ابن الساعي: الدر الثمين، 248، 249 ./ ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية، ج1، ص 302. وما بعدها. رقم(85)./ ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، ج2، ص 462، ترجمة مقتضبة جدا جاء فيها:" إستقصيت ترجمته في أول شرح التنبيه فليكتب من هناك." ابن الجوزي: مختصرا المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق، أحمد جمعة عبد الحميد، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2011، ص 323./ البغدادي: هدية العرافين، ج1، ص 8./ شعبان محمد إسماعيل، أصول الفقه تاريخه ورجاله، ص 225، 226.رقم(78)./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج1، ص 68، 69./ ج 13، ص 356./ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص 349 وما بعدها، تابع لتجرمة الشيرازي، ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص 2514، وفيه وفاته عام(475 هـ).

** أبو عبد الله الحسين بن محمد بن إبراهيم الدامغاني الحنفي(398هـ/478 هـ / 1085م)، تفقه بخرسان ثم ببغداد على القدوري، وسمع من الصوري وجماعة، وعاش ثمانين سنة، كان نظير القاضي أبي يوسف في الجاه والحشمة والسؤدد، وبقي دهرا، ودفن في القبة إلى جانب الإمام أبي حنيفة، من مؤلفاته :" الزوائد والنظائر" و" فوائد البصائر" و" شوق العروس وأنس النفوس"/ له ذكر في مواضع متفرقة عند ابن الصلاح في كتابه: طبقات الفقهاء الشافعية، ج1 ،ص178 ،268، 306 ،422 491، ج2، ص 561./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 362./ عمر رضا كحالة :معجم المؤلفين ج4 ص 44./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص1067 2001 ،. البغدادي: إيضاح المكنون ج1، ص 615./ ابن كثير البداية والنهاية، ج4، 2517.

*** أبو بكر الخطيب(392 هـ/ 463 هـ - 1071 م) أحمد بن علي ثابت بن أحمد بن مهدي، الحافظ الكبير، أحد أعلام الحفاظ ومهرة الحديث، وصاحب التصانيف الشهيرة، روى عن عديد من العلماء منهم أبي نعيم الإصبهاني، صاحب الحلية وأبي الحسن المحاملي، والقاضي أبي الطيب الطبري، وأبي نصر بن الصباغ، وكان قد رحل إلى البصرة ونيسابور، وإصبهان، ورحل في الكهولة إلى الشام والكوفة والري وهمدان والحجاز، وقدم دمشق، وقرأ صحيح البخاري بمكة في خمسة أيام. قيل بلغت مصنفاته في اللغة مائة مصنف وبرع فيه، ثم غلب عليه التاريخ والحديث، وله كتاب" تاريخ بغداد" و" الكفاية" وغيرها من المؤلفات ./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص 29 وما بعدها./ ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، ج2، ص 441، 442./ ابن الساعي: الدر الثمين، ص 270 وما بعدها./ ابن الجوزي: مختصر المنتظم، ص 319./ حاجب خليفة: كشف الظنون، الصفحات، 135، 1419، 1423، 1812/ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص 3، 4./ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، ج2، ص 33 وما بعدها، رقم(444)./ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص 311، 312 تابع لترجمة الخطيب./ ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص 2497، 2498.

**** أبو جعفر محمد بن أحمد السمناني(361 هـ/ 444 هـ - 972 م/ 1052م) فقيه من أهل سمنان العراق، ولي القضاء بالموصل، وتوفي بها ، له تصانيف في الفقه./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج8، ص 318./ ابن كثير: البداية النهاية،ج4، 2470.

([1]) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج4، ص 314.

كما درس على القاضي أبي عبد الله الصيمري،* إمام أصحاب أبي حنيفة في زمنه، وآخر شافعي هوالفقيه ابن حمامة** عمر بن إبراهيم ، وأخذ عن الفقيه الحنبلي أبي إسحاق إبراهيم بن عمر البرمكي.*** ومن الأعلام الذين درس عنهم الباجي أبي القاسم التنوخي**** في الحديث وأقرانه من طبقته مثل: أبي عبد الله الصوري*****،وأبي الحسن العتيقي******،وابن العشاري.*******

كان الباجي متسع الدائرة، عارفا بمسائل الفقه وعلى المذاهب جميعا، رغم أنه مالكي أشعري محدث ، ولعل المدرسة العراقية بأعلامها الكبار قد أثرت في شخصية الباجي وتكوينه تأثيرا شديدا ومن جميع المناحي، من خلال إقامة قد طالت ومشارب قد تعددت.

---

* أبو عبد الله الصميري(436 هـ/ 1044م) الحسن بن علي، وصفه القاضي عياض بأنه رئيس الحنفية، فقيه عارف بالرجال، أصله من صمير من بلاد خوزستان ولي قضاء المدائن، قم ديع الكرخ إلى أن توفي ببغداد في شوال من السنة المذكورة، من تصانيفه " كتاب ضخم في أخبار أبي حنيفة وأصحابه " و" شرح مختصر الطحاوي في فروع الفقه الحنفي" في عدة مجلدات./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 256./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 1837./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج4، ص 35.

** ابن حمامة(348 هـ/ 434 هـ - 959م/1043) عمر بن إبراهيم بن سعيد بن إبراهيم بن محمد الزهري الشافعي، المعروف بابن حمامة، فقيه من ولد سعد بن أبي وقاص، ولد في ذي القعدة، وتوفي في بغداد في جمادى الآخرة، له مصنفات في المناسك، قال عنه الخطيب البغدادي، كتبنا عنه وكان ثقة. قال عنه ابن الصلاح/ كان من جلّة أئمة أصحابنا العراقيين./ ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية، ج2، ص 649. رقم (246)./ ابن كثير : طبقات الفقهاء، الشافعيين، ج1، ص 395، 396. حيث ذكر باسم (ابن جماعة)، وسنة الميلاد عنده(347 هـ)./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 299، 300./ البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص 781./ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج7، ص 270.

*** أبو اسحاق البرمكي، إبراهيم بن عمر البغدادي الحنبلي (361 هـ/ 444 هـ) قال فيه الخطيب: كان صدوقا دينا فقيها على مذهب الإمام أحمد./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 273.

**** أبو القاسم التنوخي(355 هـ/ 447 هـ - 966م/1055م) علي بن أبي علي المحسن بن علي البغدادي، ولي قضاء المدائن ونحوها، قال ابن حيزون، كان راية الرفض والاعتزال. سمع الحديث الكثير، وصنف الكتب المفيدة./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص 276./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج7، ص 175./ عند ابن كثير علي بن المحسن، وتاريخ ميلاده عام(365 هـ): البداية والنهاية، ج 4، ص 2473.

***** أبو عبد الله الصوري(441 هـ/ 1049م) محمد بن علي بن رحيم الساحلى، أخذ أركان الحديث، توفي ببغداد، وقد نيف على الستين، قال عنه الباجي." أحفظ من رأيناه" كتب الحديث الكثير وصنف./ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص 267./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج11، ص 24./ ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص 2467، 2468.

****** أبو الحسن العتيقي (367 هـ/ 441 هـ - 977م/ 1049 م) أحمد بن محمد البغدادي، العتيقي، محدث جمع وخرّج، وكتب الكثير، وحدث./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج 3، ص 265./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: ج2، ص 77./ ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص 2467.

*******محمد العشاري(441 هـ/ 1049م) محمد بن علي بن الفتح، أبو طالب، محدث، حافظ، سمع علي بن عمر السكري، وعمر بن أحمد بن السكري، وعمر بن أحمد شاهين، وعلي بن عمر الدارقطني، وغيرهم ، له فضائل أبي بكر الصديق./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج11، ص 33.

وإذا أمعنا النظر في هذه الحصيلة المعرفية الثقيلة التي حصّلها الباجي في البيئة العراقية المتنوعة، أمكننا أن نوزع مجهود الرجل العلمي على عدة تخصصات برز فيها، وأدركنا حجم الروافد والتأثيرات المباشرة وغير المباشرة للعقلية العلمية والفكرية العراقية، على العقلية الأندلسية ممثلة في شخصية أبي الوليد الباجي.

وإذا كان أبو الوليد الباجي قد تأثر بعديد الشيوخ والعلماء والفقهاء والمحدثين الذين التقى بهم في العراق، فإن صِلاته بهم تعبر عن الصورة المثلى لرقي العلاقات الثقافية والعلمية بين الأندلس والعراق في عصر الطوائف، وإن درجة تأثير هؤلاء الشيوخ في الباجي كانت تتفاوت من شيخ إلى آخر. وحسب طول أو قصر المدة التي يلازم فيها الباجي هذا العالم أو ذاك.

فإذا أخذ الباجي الفقه المالكي في العراق من خلال أعلامه " أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة التاسعة، آخر الأجيال المهمة في العراق، ومن ثم في المشرق، إذ أن الطبقة العاشرة لا تضم في نظر كتاب التراجم سوى فقيه واحد هو أبو يعلى أحمد بن عبدي (489هـ/1095م) من البصرة."[1] وحتى أبا ذر الهروي الذي صحبه الباجي في الحجاز – وقد أشرنا إلى ذلك سابقا - ثلاثة أعوام فقد كان " في أصله وتعليمه عراقي، وقد تتلمذ لاثنين من كبار المالكية، هما أبو بكر الأبهري*(375 هـ/ 985م). وهو من المتخصصين في أصول الشريعة، وأبو

([1]) عبد المجيد تركي: مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم والباجي، ص 74.

* هو القاضي أبو بكر الأبهري (289/375/هـ - 902/ 986م) محمد بن عبد الله بن محمد التميمي، شيخ المالكية العراقيين، وصاحب التصانيف، توفي في شوال وهو في عشر التسعين، وسمع الكثير بالشام والعراق والجزيرة وامتنع عن منصب قاضي القضاة، وقد جمع بين القراءات وعلو الإسناد. من آثاره:" شرح مختصرات ابن الحكم" الرد على المزني في ثلاثين مسألة". " كتاب في أصول الفقه"." فضل المدينة على مكة"، " كتاب إجماع أهل المدينة"./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص 218 وما بعدها، ترجمة رقم (1010)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 190 وما بعدها، ترجمة رقم (470)./ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص 136، 137، رقم(242)./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص 1124 وما بعدها، رقم، (1118)./ ابن النديم: الفهرس، م2، ج1، ص 12، 13. وقد حدد تاريخ ميلاده سنة(287 هـ)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب. ج3، ص 85، 86./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج10، ص 241./ شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه: تاريخه ورجاله، ص 177، 178.

الحسن بن القصار* (397 هـ/1007م) الذي علا قدره بكتابه عن مسائل الخلاف الفقهي."[1]

كما حضر الباجي دروس أبي الفضل بن عمروس** (452هـ/ 1060م) الذي كان تلميذا لابن القصار، و أيضا للقاضي الشهير عبد الوهاب*** (422هـ/ 1031م).

وكان أبو الفضل من المتخصصين في الأصول والخلاف، و كان الباجي يعتبره " فقيها حسنا عارفا بمناهج الشريعة و مسائلها الخلافية"[2] كل هذه الروفد والمعطيات التي حصلها أبو الوليد من

---

* أبو الحسن بن القصّار(ت397 هـ/ 1007م) علي بن عمر بن أحمد البغدادي، من كبار علماء المالكية، ومن تلامذته الإمام الأبهري، ومن جهابذة النظر المدققين، خلّص المذهب المالكي من التعصب المذهبي إلى التحقيق والإنصاف. من مصنافاته:" عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين علماء الأمصار"." المقدمة في أصول الفقه" لخّص فيه قواعد مذهب الإمام مالك أحسن تلخيص./ القاضي عيّاض: ترتيب المدارك، ج3، ص 375، 376.رقم(1150)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 91.(رقم (384)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 149./ مخلوف : شجرة النور الزكية ، ج1، ص 138. رقم(246)./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج2، ص 856 ، 857، رقم(813)./ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال : ج2، ص 144، رقم(589)/. شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخه ورجاله، ص 185، 186.

([1])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

** أبو الفضل بن عمروس(ت452هـ/ 1060م) محمد بن عبيد الله البغدادي الفقيه المالكي، قال الخطيب: انتهت اليه الفتوى ببغداد، وكان من القراء المجودين، حدث عن ابن شاهين و جماعة و عاش ثمانين سنة/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص290./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص567، 568، رقم (305)./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3 ن ص1140 و ما بعدها. رقم (1137).

*** القاضي عبد الوهاب(362هـ/ 422هـ - 973م/ 1031م) عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي، أبو محمد، قاضي من فقهاء المالكية، له نظم و معرفة بالأدب، ولد ببغداد و ولي القضاء في بعض مدن العراق ، تفقه على الأبهري، و كبار أصحابه كابن القصار، و ابن الجلاب و أبي بكر الباقلاني، من مؤلفاته: " النصر لمذهب مالك"، "المعونة لمذهب عالم المدينة" ، " شرح رسالة ابن أبي زيد "، " المعهد في شرح مختصر ابن أبي زيد" " شرح المدونة"، "التلقين"، " عيون المسائل و البروق" ،" الأدلة في مسائل الخلاف"، و غيرها./ ابن بسام: الذخيرة، ق4/2/515 ، وما بعدها./ القاضي النبهاني: المرقبة العليا، ص56 و ما بعدها./ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص479 و ما بعدها. رقم (1254)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص25 و ما بعدها. رقم(341) ترجمة رقم (11).

- مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص154 و ما بعدها. رقم (302)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص223 و ما بعدها./ ياسين بن خير الله اليعمري: منهج الثقات في تراجم القضاة، ص191 و ما بعدها رقم(179)./ شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخية و رجاله، ص199، 200./ قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج2، ص804 و ما بعدها. رقم (748)./ الباخوزي: دمية القصر و عصرة أهل العصر، قدم له و علق عليه: علي إبراهيم محمود. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م/ 1429هـ، ص116، 117.

([2]) عبد المجيد تركي: مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم و الباجي، ص75. و حول شيوخ الباجي العراقيين ينظر: أبو لبابة الطاهر صالح حسين في مقدمته الضافية على تحقيقه لكتاب (التعديل و التجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح) ، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 1431هـ/ 2010م، ج1، من ص54 إلى ص70.

مشيخة العراق. من أصحاب المذاهب المختلفة ، قد ظهرت جليا من مؤلفات و في مصنفات الباجي، و خاصة في اجتهاداته الفقهية والأصولية في المذهب المالكي، بين الإرث المشرقي والأندلسي، في توظيفه للأقيسة العقلية المستعملة في البيئة العراقية، و محاولة تكييفها مع البيئة الأندلسية.

و لا نعدم – بل نحن متأكدون - من التأثير الكبير الذي مارسه شافعية العراق من الذين كان لهم أثر كبير في تكوين الباجي كأبي الطيب الطبري، و أبي إسحاق الشيرازي، و أبي بكر بن الخطيب. و ابن حمامة بدرجة أقل.

و إننا لنجزم بأن تأثير الشافعية على الباجي كان أكبر من تأثير المالكية، على الرغم من أن الفقيه الباجي مالكي بامتياز، فهذا معاصرة و خصيمه و مناظره ابن حزم الأندلسي يعترف له بسيادته للمذهب حيث يقول: " لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد الباجي"[1] و سنرى لاحقا في الأندلس، الباجي النظار، الجَدِل، كيف يفحم خصومه المتناظرين والمتحاورين من هم على ملته كابن حزم الأندلسي، أو من هم على غير ملته، كالراهب الإفريقي الذي بعث برسالة إلى المقتدر بن هود ملك سرقسطة، و كيف انبرى الباجي للرد عليها، و هي الرسالة المحفوظة بنصها حتى اليوم.[2]

فالجدل الذي مارسه الباجي في الأندلس مع خصومه و مناوئيه من الفقهاء، و غيرهم ممن هم على غير مذهبه، راجع إلى أثر المدرسة العراقية، المعروفة بالجدل الفكري الذي مارسه أصحاب المذاهب المختلفة هناك، فقهية كانت أو فكرية في بغداد والموصل والكوفة والبصرة و غيرها من الحواضر آنذاك. و كان للفقهاء الأحناف الذي درس عليهم الباجي في العراق دور كبير في صقل موهبته الجدلية كالصيمري والدامغاني*

([1]) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2/1/ 96.

([2]) " رسالة الراهب من إفرنسة إلى المقتدر بالله صاحب سرقسطة وجواب أبي الوليد الباجي عليها " نشرها الدكتور عبد المجيد تركي، ضمن مجموعة أبحاث بعنوان" قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، نصوص و دراسات" دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988م/ 1409هـ. من ص11 إلى ص59، مع الفهارس.

*حضور الأحناف قوي و فعال في كل مؤلفات الباجي، مما يؤكد على تأثير الباجي بمنهج الأحناف في الجدل على مالكيته ففي كتاب " التعليقات المختارة على كتاب الإشارة للباجي " تأليف : محمد سكحال المجابي، إعتمد أبو الوليد و استشهد برأي الأحناف في عدة قضايا أصولية و فقهية./ عالم المعرفة، الجزائر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ/2012م. الصفحات، 75؟، 132، 139، 149، 166، 181، 199، 200، 205، 207.

فقد عرف الأحناف جدالين نظارين " قبل أن يستكمل الباجي في الجدل عن فقهاء الشافعية * و شيوخها في العراق."[1]

فقد كان فقهاء المذاهب في تناظر مستمر، و خاصة الأحناف والشافعية، و لا يكاد يذكر الفقه الإسلامي عامة في تاريخيته، دون الإشارة إلى صورة الجدل الفقهي، و تلك المحاورات والمناظرات الشهيرة التي كانت تدور بين الأحناف والشافعية حول الأصول والفروع والاستعمال المفرط للرأي والقياس من قيل الأحناف.

و شيوخ الباجي من شافعية العراق كانوا كذلك من كبار النظارين ،قد درسوا على طبقة قبلهم من نظار الشافعية ، فقد توارثوا الجدل والمناظرة شيخا عن شيخ، فالقاضي أبي الطيب الطبري أستاذ أبي إسحاق الشيرازي، و كان كلاهما أستاذا للباجي.

فأبو الطيب الطبري قد درس علي أبي حامد الإسفرائيني (406هـ/ 1016م) شيخ شافعية العراق في وقته، فقد شهد له خصومه من الحنفية بالجدل و إفحام الخصوم، فقد سئل الصيمري إمام الحنفية، هل رأيت أنظر من الشيخ أبي حامد؟ فقال : ما رأيت أنظر منه."[2] و في نصيحة أبي حامد الإسفرائيني** لتلميذه طاهر العباداني: لا تعليق كثيرا مما تسمع مني في مجالس الجدل."[3] دليل

---

* استشهد الباجي في المصدر نفسه (التعليقات المختارة على كتاب الإشارة) بآراء الشافعية، الصفحات: 81، 131، 132،141، 144، 149، 157، 166، 168، 181، 205، 207.

([1]) عبد المجيد تركي: مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم و الباجي، ص78

([2]) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص63.

** أبو حامد الإسفراييني (344هـ/ 406هـ - 955/ 1016م) أحمد بن محمد بن أحمد. فقيه شافعي قدم بغداد و انتهت إليه رياسة الدنيا و الدين بها. و كان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثمائة فقيه، و توفي ببغداد، من مصنفاته: "شرح المزني في تعليقه" نحوا من خمسين مجلدا. ذكر فيها مذاهب العلماء و بسط أدلتها و الجواب عنها ، و له تعليقة أخرى في أصول الفقه، و "كتاب البستان" / السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص61 و ما بعدها./ ابن الجوزي: مختصر المنتظم، ص290./ ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، ج1، ص373 و ما بعدها ترجمة رقم (120). / ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعين، ج1، ص345./ ابن كثير: البداية و النهاية، ج4، ص2425./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص178./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص65./ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، ج2، ص172، 173، رقم(626)/ شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخية و رجاله، ص193، 194. وقد استشهد الباجي بآرائه و أقواله في مؤلفاته، على سبيل المثال في كتاب التعليقات المختارة على كتاب الإشارة استحضر قوله في باب (فصل الاستدلال بالعكس)، ص214.

([3])السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج4ص62.

على ما أوتيه هذا العالم من قوة الحجة في الجدل، حيث كان يضيق على خصمائه الفضاء الواسع، في مجالس العلم والمناظرات، فكان إذا ناظر قام الحق بحيث يحضر أندية الدين.

كما أن أبا الطيب الطبري أستاذ الباجي نظارا شهيرا، فقد روى السبكي مناظرة شهيرة جرت بينه و بين أبي الحسن الطالقاني قاضي بلخ، وكان إماما كبيرا من أئمة الحنفية، حول قضية تقديم الكفارة على الحنث.[1]

و مناظرة أخرى شهيرة جرت بين القاضي أبي الطيب الطبري، و بين الحسن القدوري*أحد أئمة الحنيفة الكبار، حول المختلعة أنه يلحقها الطلاق بأنها معتدة من طلاق، فجاز ما بقي من عدة الطلاق كالرجعية، على رأي الحنفية، فقال الشافعية غير ذلك على لسان أبي الطيب الطبري، في مناظرة شيقة، و حوار ممتع أوردها السبكي.[2] هذا و قد جرت مناظرة شهيرة بين أبي إسحاق الشيرازي الشافعي، والدامغاني الحنفي، و قد تتلمذ الباجي عليهما، حول الذمي إذا أسم هل تسقط عنه الجزية لما مضى؟ في حوار طويل أورده السبكي.[3]

و ما لنا نذهب بعيدا و قد كان أبو الوليد الباجي نفسه شاهدا على إحدى المناظرات التي جرت بين أستاذيه السابقين، الشيرازي والدامغاني، في يوم وفاة عقلية الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، أوردها السبكي و برواية أبي الوليد الباجي نفسه[4] و إننا لا نعدم من جهة أخرى فن الجدل الذي اشتهر به المعتزلة في مناظراتهم لخصومهم، وقد كان الباجي نفسه لواحد منهم وهو أبو عبد الله الصيمري الذي كان معتزليا قبل أن يتراجع عن مذهب الاعتزال و يسير في طريق الحنفية، و يصبح واحد من

([1])المصدر نفسه: ج5، ص24 و ما بعدها.

*رغم أن أبي الحسين القدوري كان حنيفا، و لكن ذلك لم يمنع الخطيب من الأخذ عنه، وهو المحدث و الفقيه الشافعي وأستاذ أبي الوليد الباجي، و قد ذكر أبو عمر بن الصلاح في غير ما موضع سند الخطيب البغدادي عن شيخه أبي الحسين ابن القدوري./ طبقات الفقهاء الشافعية، ج1، ص374./ج2، ص609.

([2]) طبقات الشافعية الكبرى: ج5، ص36 و ما بعدها.

([3])المصدر نفسه: ج4، ص237 و ما بعدها.

([4])المصدر نفسه: ص245 و ما بعدها.

أكابر علماء المذهب في تلك الفترة، وخاصة بعد أن أصبح كاتب عدل في عام (417هـ) لدى قاضي القضاة ابن أبي الشوارب الذي طلب منه التخلي بالكامل عن مذهب الاعتزال.[1]

أما الحديث تلقى الباجي تكوينه فيه على يد أعلام كأبي ذر الهروي نزيل مكة ذي التكوين العراقي، و أبي بكر الخطيب البغدادي* المحدث ، الذي تحول عن مذهب أهل الحديث واهتم اهتماما شديدا بعلم الكلام و خاصة الأشعرية، فعلل تعاليم الأشعرية قد انتقلت إلى الباجي من طرف هذا العالم الكبير، الذي صحبه الباجي ثلاث سنوات كاملة، و ذلك أمر لا شك فيه.

أو بتأثير أبي القاسم التنوخي والذي محدثا كبيرا، حيث أثنى عليه في الحديث الخطيب البغدادي فقد كان يبدي اتجاه المذهب الرافضي و اتجاه مذهب الاعتزال نوعا من اللامبالاة، أو هو من التسامح.[2] كانت شخصية أبي الوليد الباجي الجدلية، انبثاق لروح الجدل عند شيوخه العراقيين، فعملية التناسب حاصلة بين العقليتين، و معروف أن عملية عدوى الأفكار والمناهج و انتقالها و سيرورتها بشكل أسرع و سلس، تتم في الاتجاه الديني خاصة، و هي عملية طبيعية.

نشر أبو الوليد الباجي معارفه التي تلقاها في المشرق و خاصة في العراق. و من الطبيعي أن ينشأ جيل كبير من التلاميذ و طلبه العلم** يمشون على هدى أستاذهم، كما مشى هو على هدي شيوخه و أساتذته العراقيين، أو من غير العراقيين الذين استوطنوا العراق. و بالتالي فقد أغنت العقلية العراقية، العقلية الأندلسية، و أكسبتها كثيرا من المناحي الفكرية والعلمية، و هو ما يعد تميزا فـي حد ذاته.

([1]) عبد المجيد التركي: مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم و الباجي، ص78.

* ذكر ياقوت الحموي عن الياجي أنه رحل إلى بغداد فأخذ عن الخطيب البغدادي، وأخذ الخطيب عنه." مما يؤكد قيمة الباجي كرجل عالم./معجم الأدباء ،ج4، ص 313

([2]) المصدر نفسه: ص76.

** ذكر ابن بشكوال عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصاري الشارقي (ت456هـ)، و قد سمع من الباجي و رحل إلى المشرق، و سمع من أبي إسحاق الشيرازي أستاذ الباجي./ الصلة (طبعة دار الكتب العلمية)، ج1 ، ص243، 244. رقم (612).

و ينبغي الإشـــارة فـــي هـــذا المقـــام إلـــى أن حضـــور علماء العراق و مؤلفاتهم فـــي المصـــادر والمؤلفات الأندلسية** كـــان قويـــا ولافتا للانتباه، حتى عند الأعلام الكبار ممن لم تثبت زيارتهم إلى العراق كابن حزم الأندلسي،*** مما يؤكد صحة و متانة التواصل الثقافي بين القطرين.

**مثال ذلك حضور القاضي عبد الوهاب البغدادي في مؤلفات الأندلسيين، فقد نقل الباجي عن القاضي عبد الوهاب في عدة مواضع من كتبه، مثل: كتاب " أحكام الفصول في أحكام الأصول" و " المناهج في ترتيب الحجاج" ، و " فصول الأحكام و بيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء و الحكام" ، و " المنتقى" و " الإشارة في معرفة الأصول و الوجازة في معنى الدليل"./ عبد الحكيم الأنيس: القاضي عبد الوهاب البغدادي في آثار القدماء و المحدثين، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، (صدر ضمن سلسلة الدراسات التاريخية ، رقم3، ط1، 1424هـ/ 2003م، ص49، 50، 51.

و كان كتاب الإشراف، و كتاب المعونة للقاضي عبد الوهاب، برواية الباجي عن أبي الفضل عبيد الله بن عمروس عن أبي محمد عبد الوهاب، قد دخل إلى الأندلس./ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص245، 246 . وكتاب الإشراف هذا تلخيص لكتاب ابن القصار الذي يحمل عنوان (عيون المجالس). حيث لخصه القاضي عبد الوهاب، و دافع فيه الحنيفة و الشافعية و غيرهم بأدلة المنقول و المعقول، دمشق، سوريا، ط1، 2009./1430هـ. ص231، 2014.

كما أدخل الباجي كتابه" الملخص في أصول الفقه" حيث تناوله الباجي رواية عن أبي الفضل عبيد الله بن عمروس، عن مؤلفه القاضي عبد الوهاب./ ابن خير: الفهرسة، 256، 257. و كذلك كتابه "المعونة" و"شرح رسالة ابن ابي زيد" / فارق حمادة :أبحاث مالكية مغربية ، ص 214. و كتاب " تلقين المبتدي، و تذكرة المنتهي" للقاضي عبد الوهاب حيث دخل إلى الأندلس عن طريق القاضي أبي بكر بن العربي - رحمه الله - فقد أملاه في مجلس واحد بقرطبة عام (532هـ) في يوم واحد./ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص243.

كما كان حضور القاضي عبد الوهاب البغدادي عند الفقيه ابن رشيد القرطبي الجد(محمد بن أحمد) (450هـ/ 520هـ) في كتابه " البيان و التحصيل و الشرح و التوجيه و التعليل في مسائل المستخرجة) و عبد الحق بن عطية المحاربي الأندلسي (481هـ/ 451هـ) في كتابه " فهرس ابن عطية" و كذا عند ابن بسام الشنتريني في كتابه"الذخيرة" حيث أفرد له ترجمة كاملة وأورد له شيئا من شعره وقد أشرنا إلى ذلك سابقا./ ينظر: عبد الحكيم الأنيس: القاضي عبد الوهاب البغدادي في آثار القدماء و المحدثين، ص59 و ما بعدها.

كما اعتمد أبو بكر بن العربي (468هـ/ 543) في كتابيه " أحكام القرآن" و " المحصول في أصول الفقه" على القاضي عبد الوهاب البغدادي في كثير من آرائه و استنباطاته./ المصدر نفسه، ص87،88. و كان القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المعروف بالباقلاني(؟؟؟) و الملقب بشيخ السنة و لسان الأمة. أستاذ القاضي عبد الوهاب البغدادي، و قد دخلت كتبه الأندلس و كان مصدرا مهما لعلمائها و فقهائها و أدبائها، و كان أبو عمران الفاسي الفقيه المغربي الكبير الذي طوف بالمشرق و المغرب و الأندلس، تلميذا له، في بغداد حيث يقول: " رحلت إلى بغداد و كنت قد تفقهت بالمغرب، و الأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، و كانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر و رأيت كلامه في الأصول والفقه ، مع المؤالف و المخالف، حقرت نفسي و قلت، لا أعلم من العلم شيئا، و رجعت عنده كالمبتدئ ." / القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص360. إذن فقد كان العلامة أبو عمران الفاسي أحد الذين نقلوا مؤلفات و آراء الباقلاني إلى الأندلس.

و ذكر ابن الآبار القضاعي أن كتب أبي الطيب الباقلاني برواية كريمة المروزية قد هاجرت إلى الأندلس./ المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص24. و قد ذكرنا من الأندلسيين الذين تتلمذوا على كريمة المروزية في الحجاز كالباجي و العبدري و العذري. و على ذكر أبي بكر الباقلاني فقد استشهد الباجي بآرائه في كتابة "الإشارة" فقط عديد المرات./ التعليقات المختارة على كتاب الإشارة، الصفحات: 23، 27، 39، 47، 75، 133، 153، 166.

=ومثله أبو بكر الأبهري الفقيه المالكي الكبير، و قد أخذ عنه من أهل الأندلس، أبو عبيد الجبيري ،و الأصيلي، و أبو القاسم الوهراني، و أبي عمر سعد الأندلسي نزيل المهدية./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص191، 193. و كانوا سببا في دخول آرائه و مؤلفاته إلى الأندلس.

و قد أورد آراءه كل فقهاء الأندلس الذين جاءوا من بعده. فقد استشهد الباجي برأيه على سبيل المثال في كتابه "الإشارة" ص222. وكان حضور العالم العراقي خويز منداد المالكي(ت390هـ) صاحب أبي بكر الأبهري، فعالا عند علماء الأندلس وفقهائها وبدون استثناء، فقد استشهد الباجي على سبيل المثال بآرائه في كتابه" الإشارة " فقط أكثر من مرة./ الصفحات :27 -35 -72 -86.

وكان أبو القاسم ابن الجلاب من أحفظ أصحاب أبي بكرالأبهري وأمثلهم، وأستاذ القاضي عبد الوهاب البغدادي، قد ألف كتاب" التفريع " الذي سلك فيه مسلكا جديدا، يقوم على ضبط المذهب وترتيبه، فهو من أوائل الكتب التي سلكت سبيل الاختصار والاقتصار في المذهب المالكي./ ينظر مقدمة :محمد المختار السلامي في تحقيقه لكتاب الغمام المازري : شرح التلقين، درا الغرب الإسلامي، تونس، ط2008،2م،ج1،ص21،22.ولشهرة كتابه "التفريع" وأهميته، فقد دخل الاندلس عن طريق الجغرافي الكبير أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلائي بسنده عن المؤلف نفسه./ابن خير الإشبيلي :الفهرسة، 243.

وكتب أبو عمر الطلمنكي(ت429هـ) المقرئ الأندلسي الكبير، كتاب "علوم الحديث" للحاكم النيسابوري(321هـ/405هـ) نزيل بغداد وصاحب كتاب "المستدرك على الصحيحين" عن شيخ له، سنة تسع وثمانين وثلاثمائة بسماعه عن صاحب الحاكم عن الحاكم./ السبكي :طبقات الشافعية الكبرى،ج4،ص157.

ويحدثنا ابن الأبار القضاعي عن أبي الوليد الباجي أنه كان يجيز كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب لبعض طلبته في الأندلس./المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي،ص79.

وكانت كتب إمام الحرمين أبي المعالي الجويني،(478هـ).مثل :كتاب التلخيص، وكتاب البرهان، وكتاب الشامل، قد دخلت الأندلس عن طريق أبي بكر بن العربي برواية أبي حامد الغزالي، وأبي سعد محمد بن طاهر المقدسي الزنجاني./ابن خير الإشبيلي :الفهرسة، ص259،258.

*** كانت كتب ابن حزم الأندلسي معرضا لآراء و أقول و استشهادات العراقيين و كتبهم، إما قبولا أو رفضا، مما كان له الأثر الكبير في دفع حركة السجالات الفكرية و العلمية، حتى بالنسبة للعراقيين المتأخرين زمنيا.

فعلى سبيل المثال: انتقد ابن حزم فضل الله بن أحمد بن محمد المهيمني، أبو سعيد بن أبي الخير(ت440هـ)، مقدم شيخ الصوفية في وقته و كان من أهل المعرفة، حيث تتلمذ عليه شيخ الحرم الجويني، فقال السبكي (ت771هـ) و هو المتأخر زمنيا مقارنة بزمن ابن حزم: "ومع صحة اعتقاده لم يسلم منه كلام الشيخ ابن حزم ، بل تكلم فيه بغير حق، وتبعه شيخنا الذهبي تقليدا، فقال: في اعتقاده شيء تكلم فيه ابن حزم. قلت: لم يظهر لنا و لم يثبت عنه إلا صحة الاعتقاد، و لكنه أشعري صوفي، فمن ثم نال منه الرجلان ." طبقات الشافعية الكبرى: ج5، ص306، 307.

و في هذا الخبر دلالة واضحة على جسور التواصل الثقافي بين الأندلس و العراق، و كيف أن المعارف تنتقل بكل سهولة و يسر بين الطرفين، عن طريق الطلبة و الشيوخ و أهل العلم بشكل عام، و إلا فكيف نفسر تجريح ابن حزم وهو الأندلسي الذي لم تطأ قدماه أرض العراق يوما، لعراقي معاصر له، و كيف أن رأي ابن حزم لهذا الرجل يبقى متداولا حتى يصل إلى السبكي المتوفي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

و في كتاب ابن حزم " الأصول و الفروع" نجده يستشهد بآراء طائفة من العراقيين، مدعما آراءه بآرائهم، أو منتقدا لهم، مثل القاضي أبي بكر الباقلاني، الذي أورد رأيه في باب (الكلام في خرق العادات) ثم رد عليه قائلا: " فبطل ادعاء محمد بن الطيب في التحدي."/ الأصول و الفروع : تحقيق: عبد الحق تركماني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2011/ 1432هـ. ص265، 266.

و في المصدر نفسه يعتمد على رأي خويز منداد المالكي العراقي صاحب أبي بكر الأبهري./ ص298 .

و إبراهيم بن سيار النظام، ص: 83، 198، 295./ أبو الهذيل العلاف، ص113، 115، 198، 199، 287، 288./ و أبو رجاء العطاردي البصري، ص250./ و أحمد بن حنبل، ص257./ وأبو الحسن الأشعري، ص68، 201./ و أبو محمد بن عبد الوهاب بن سلام البصري المعروف بالجبائي، ص191، 253، و كلهم عراقيون.

و إذا كانت الرحلة الأندلسية إلى العراق أكيدة، فإن الرحلة المعاكسة من العراق إلى الأندلس أوكد. و هو تقدير ثابت تؤيده الشواهد التاريخية عند أصحاب التراجم، ففي هجرة هؤلاء إلى الأندلس، كانت لهم بصمات واضحة على الثقافة الأندلسية في عصر الطوائف. وخاصة ممن كانت لهم قدم راسخة في العلوم والمعارف، أو ممن تتلمذوا على أعلام المدرسة العراقية في تلك الفترة، و حملوا معهم إجازات شيوخهم وعلو إسنادهم.

يحدثنا ابن بشكوال عن عبد العزيز بن علي الشهرزوري (ت427هـ) والذي قدم الأندلس من العراق عام (426هـ) أي في البدايات الأولى لعصر الطوائف، و كان قد أخذ عن أبي زيد المروزي، و أبي بكر الأبهري، و أبي الباقلاني. و أبي تمام صاحب الأصول.[1]

و أبو علي إسماعيل بن عبد الله البزاز، الذي قدم الأندلس تاجرا سنة(430هـ) و كان قد دخل العراق واليمن و خراسان و غيرها، و لقي الأبهري و غيره، و استكثر بالرواية عن العلماء، و كان علم اللغة العربية أغلب عليه.[2]

و مثلهما أبي العباس الشارقي الأنصاري (ت500هـ) الذي دخل الأندلس و توفي بشرقيها بعد أن تفقه في العراق على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.[3]

و يحدثنا دائما صاحب الصلة عن أبي سعيد السبتي، و اسمه الخليل بن أحمد الذي غادر العراق قادما إلى شبه الجزيرة الأيبيرية سنة (422هـ). بعد أن روى عن عديد علماء مصر و أعلام العراق

= و في رسالة " طوق الحمامة " مثلا يستحضر طائفة من علماء العراق مثل: أبي بكر الأبهري./ طوق الحمامة في الألفة و الألاف، تحقيق: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، دت، ص 138./ و في المصدر نفسه: أحمد بن حنبل، ص162، و أبي الفرج الإصفهاني، ص182./ و أبي عبيدة معمر بن المثنى، ص182./ و أبي علي الفارسي، ص103، 166./ و أبي عمرو بن العلاء، ص182. و أبي نواس الحسن بن هاني، ص63، 149، و غيرهم.

و في رسالته " التقريب لحد المنطق " (تحقيق: عبد الحق التركماني) تحضر مؤلفات العراقيين، مثل: كتاب "المقتضب" للمبرد، ص462./ و يذكر ابن حزم في علم الشعر مستندا إلى قول ابن النديم، ص614 و غير ذلك كثير مما هو مثوت في كتب ابن حزم و رسائله.

([1]) الصلة: (طبعة دار الكتب العلمية)، ج2، ص18، 19. رقم(811).

([2]) المصدر نفسه: ص98. رقم(250).

([3])المصدر نفسه: ج1، ص65، 66. رقم(159)/ ذيل طبقات الشافعية لابن الصلاح، ص 718.

في وقته مثل أبي حامد الإسفراييني، شيخ العراق. و إمام الشافعية في وقته، و ابن القصار، و أبي القاسم الجوهري و أضرابهم.[1]

و نحن نطالع الداخلين إلى الأندلس من العراقيين، لا ينبغي أن نفوت ذكر واحد من أهمهم، و هو أبوالفضل محمد عبد الواحد البغدادي الدارمي(388هـ/ 454هـ أو 455هـ) الذي خرج من بغداد دون العشرين، و دخل القيروان سنة(439هـ) و هو أول من أدخل إليها كتاب " يتيمة الدهر" للثعالبي، ثم دخل الجزائر "بجاية" ثم ركب البحر فنزل دانية و بعث إليه أميرها ابن مجاهد، ثم تعجل الارتحال إلى بلنسية فلقي برا، ثم استجلبه المأمون ابن ذي النون فأحسن بطليطلة مثواه. و أجزل قراه، و كان دخوله طليطلة سنة (454هـ).[2]

والأكيد أن الأندلسيين قد تعرفوا على كتاب " يتيمة الدهر" للثعالبي بفضل أبي الفضل الدارمي و ما معارضة ابن بسام بن خيرته للثعالبي في يتيمته إلا دليل على ذلك.

و لسنا بحاجة إلى الرجوع إلى الوراء و ذكر أعلام العراق في القرن الرابع و بداية القرن الخامس ممن أغنوا الحركة الأدبية واللغوية بمؤلفاتهم مثل أبي علي القالي و صاعد البغدادي. و على ضوء ذكر الأديب الدارمي البغدادي، و إدخاله الأندلس كتاب " يتيمة الدهر" لأبي منصور الثعالبي(ت429هـ). نشير إلى أن تدفق الكتب اللغوية والأدبية المتدفقة من العراق إلى الأندلس، والتي بدأت مند عهد الإمارة والخلافة. بقيت مستمرة في عصر الطوائف و شارك فيها حتى الأعلام الفقهاء والمحدثين، حيث أغنوا الحركة اللغوية والأدبية، بفضل ما أدخلوه من عيون التصانيف والمؤلفات والدواوين لعلماء العراق، حيث أخذوا هذه المصنفات إجازة، و أجازوها لطلبتهم و تلاميذهم في الأندلس.*

([1]) ابن بشكوال: الصلة، ج1، ص163. رقم (419).

[2]) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4/ 1/ ص87 و ما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص111./ الشاذلي بويحي: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص263 و ما بعدها./ ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص210. رقم(1320).

*مثال ذلك: كتاب الأمالي للأخفش، دخل الأندلس عن طريق أبي بكر بن العربي بروايته عن أبي الحسين بن الحماحي/ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص376. كما عرف الأندلسيون كتاب ما اتفق لفظه و اختلف معناه للأصمعي برواية أبي بكر بن العربي/ المصدر نفسه، ص375. و كتاب أخبار الأصمعي برواية أبي بكر بن العربي/ المصدر نفسه: ص375. و مسلة سبحان الله لنفطويه برواية ابن العربي دائما./ المصدر نفسه، ص376. و كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري الذي رواه العلامة الأندلسي قاسم بن أصبغ البياني، و وصل رواية في زمن الطوائف عن ابن عبد البر النمري./ المصدر نفسه، ص 377.

و يمكن أن نشيرإلى حدوث التفاعل الثقافي والفكري بين الأندلس والعراق، من خلال تلك السجالات والمطارحات الفكرية، حول أصول الدين و مبادئه، و قضايا أخرى، ففي حديث السبكي عن قضية المعتقد والإيمان، أسهب في شرح هذه القضية، و شنع على ابن حزم الأندلسي. الذي له رأي خاص حولها، و عرض رأيه حول هذه المسألة، فقال: " و هذا ابن حزم رجل جريء بلسانه متسرع إلى النقل بمجرد ظنه.... و كتابه هذا " الملل والنحل" من شر الكتب، و ما برح المحققون من أصحابنا ينهون عن النظر فيه.[1]

و هذه عبارة كافيه للدلالة على هذا التفاعل الفكري الحاصل بين القطرين، من خلال السجلات الفكرية التي كانت تدور بين علمائه. هذا إذا اعتمدنا الفترة التي عاش فيها السبكي (727هـ/ 771هـ) و هو متأخر جدا بالنسبة لزمن ابن حزم/ القرن الخامس الهجري. ولكن الظاهر أن القضية طرحت قلبه بكثير، و ما قوله: " وما برح المحققون من أصحابنا" و هم أعلام المذهب الشافعي الذين ردوا على ابن حزم حول بعض آرائه.

و من مظاهر التفاعل الثقافي بين القطرين كذلك، هو هجرة الكتب من العراق إلى الأندلس و معارضتها، أوالسير على نهجها من طرف بعض الأندلسيين، و مثال ذلك، هجرة كتب أبي بكر

=و كتاب السما، و كتاب اللباء و اللبن، و كتاب فعلت و أفعلت، و كتاب اللغات، و كلها من تأليف أبي زيد الأنصاري، كان الفقيه أبو بكر بن العربي يجيزها لتلاميذه في الأندلس./ المصدر نفسه ص370. و كتاب الميسر لابن قتيبة حيث رواه أبو القاسم بن الإفليلي عن أبي بكر الزبيدي بسنده إلى المؤلف نفسه/ المصدر نفسه، ص 378./ مقصورة ابن دريد و المربعة له كذلك برواية أبي بكر بن العربي/ المصدر نفسه، ص400.

و كان أبو بكر بن العربي قرأ و أدخل قصيدة كعب بن زهير التي مدح بها الرسول – صلى الله عليه و سلم - حيث قرأها في المشرق على يد الخطيب التبريزي بشرحها. و قصيدة الفرزدق كذلك هذا الذي تعرف " البطحا و طاية " والقصيدة اليتيمة " هل بالطول لسائل رد" برواية ابن العربي كذلك./ المصدر نفسه، ص400، 401.

شعران شعر أبي تمام بن أوس الطائي، و شعر أبي الطيب المتنبي برواية الأديب و الشاعر أبي القاسم بن محمد الإفليلي./ المصدر نفسه، ص402، 403، و شعر أبي الحسن بن المعتز و ترسيله و فصوله برواية الوزير أبي بكر بن هشام المصحفي (393هـ/ 481هـ) المصدر نفسه، ص404، 405. و الظاهر أن أبا بكر محمد بن هشام المصحفي كان مختصا بابن المعتز حيث روى له كتاب الآداب/ المصدر نفسه، ص405. كما روى المصحفي نفسه كتاب الأخبار المنثورة للصولي، و كتاب شوال له أيضا. بسنده إلى المؤلف نفسه/ المصدر نفسه، ص407. و كان دور المصحفي عظيما، وسنده من أقوى الأسانيد في كل مؤلف أو كتاب أو ديوان يرويه و له الفضل في التعريف بمجموعة من الدواوين الشعرية، إضافة إلى ما ذكرنا منها : شعر الصنوبري، و كتاب عقلاء المجانين لأبي بشر الدولابي./ المصدر نفسه، ص408. هذا و لم يترك ابن خير الإشبيلي في فهرسته شيئا مما أدخله الأندلسيون رواية أو سماعا من الكتب اللغوية أو الأدبية، و الدواوين الشعرية و القصائد المشروحات كلها، إلا و قد أثبتها في كتابه، مع سلسلة أسانيدها. و هو ما يزيد في علو السند، و قيمة الرواية التوثيقية عند علماء الأندلس.

([1]) طبقات الشافعية الكبرى، ج1، ص90 و ما بعدها.

محمد بن داود الظاهري* (297هـ/ 910م) التي دخلت الأندلس، في وقت مبكر. حيث يعتقد الدارسون المعاصرون أن كتاب الزهرة قد دخل الأندلس في أوائل القرن الرابع الهجري على أكثر تقدير[1] و لذلك فلا عجب أن نجد من عارض هذا الكتاب من الأندلسيين مثل أحمد بن فرج الجياني الذي ألف نسقه كتاب " الحدائق" للحكم المستنصر ولم يورد فيه لغير الأندلسيين شيئا.[2]

حتى و إذا صار الأمر إلى الفقيه أبي محمد بن حزم الأندلسي كتب مؤلفة "طوق الحمامة" و يستطيع الدارس أن يجد بكل سهولة و يسر أثر التقاطعات بين كتاب الزهرة، و كتاب طوق الحمامة، و قد حقق في هذه القضية أكثر من دارس، و قد أحسن التعليق على هذه القضية و جود الأستاذ المرحوم إحسان عباس في مقدمة تحقيقه لطوق الحمامة ضمن مجموع رسائل ابن حزم الأندلسي.[3]

أما الإمام داود الظاهري والد أبي بكر صاحب كتاب " الزهرة " فقد سبقه مذهبه إلى الأندلس و قد تقمصه غير واحد من أعلام الأندلس قبل الطوائف، مثل القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي كان مائلا إلى القول بالظاهر، قويا على الانتصار لذلك.[4]

و كتب للمذهب الظاهري أن يعمر طويلا في الغرب الإسلامي و بالضبط في الأندلس، حيث تلقفه ابن حزم الأندلسي الذي تخلى عن المذهب الشافعي من أجله، فعرف به، فلا يكاد يذكر من دونه، بل لا يمكن لأي باحث أو دارس قديما كان أو حديثا أن يذكر المذهب الظاهري غير مقرون باسم الفقيه أبي محمد، أو مضموما إليه.

---

*داود بن علي الظاهري الفقيه أبو بكر أحد أذكياء زمانه، و صاحب كتاب الزهرة، تصدر للاشتغال و الفتوى ببغداد بعد أبيه، و كان يناظر أبا العباس بن شريج، و له شعرا رائق، و هو ممن قتله الهوى، و له نيف و أربعون سنة./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج2 ص266.

([1]) إحسان عباس: مجموع رسائل ابن حزم الأندلسي، م1/1/ هامش ص 28.

([2]) ابن دحية: المطرب، ص20./ الحميدي: الجذوة، ص92.

([3]) م1/ ج1/ ص23 و ما بعدها.

([4]) الحميدي: الجذوة، ص315.

فإذا كان داود الظاهري قد حاز فضل السبق إليه، فإن الفقيه الأندلسي له فضل اللحاق بركبه، و تبوأ ريادته، بفضل التعقيدات والتأصيلات والزيادات التي خلفها أبو محمد عليه وهذا ما يعبر في رأينا عن تلك الجسور المعرفية المتواصلة بين الأندلس والعراق، و عند مختلف الأجيال في البلدين.

و من ناقلة القول أن نذكر في هذا المقام تلك السجلات والمجادلات الفكرية والردود التي خلفها إمام الحرمين في زمنه أبوالمعالي الجويني*(478هـ) الشافعي ذي التكوين العراقي، حينما وضع كتابة الشهير في أصول الفقه " البرهان" حيث عده السبكي من مفتخرات الشافعية[1] و لم يتسنى أحد من الشافعية نفسه لشرحه والتعليق عليه، فانتدب فقهاء المالكية لشرحه والرد على مؤلفه أبي المعالي، كما شهد بذلك صاحب طبقات الشافعية الكبرى.[2]

و ما يهمنا من شراحه الكثر سوى عالمين جليلين، الأول، هو الإمام المازري**(ت 536هـ)، و آخر مغربي ذكره السبكي باسم "الشريف أبو يحي المغربي" و كلاهما من الغرب الإسلامي الذي كان يضم الأندلس والمغرب و صقلية.

---

*عبد الملك الجويني (419هـ/478هـ- 1028/ 1085م) أبو المعالي، الشافعي، الأشعري، فقيه ، أصولي، متكلم، مفسر، أديب، جاور مكة، و توفي بالمحفة من قرى نيسابور، تصانيفه كثيرة منها :" نهاية المطلب في دراية المذهب"، "الشامل في أصول الدين"، " البرهان في أصول الفقه"، " تفسير القرآن"، " مدارك العقول" لم يتمه، "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد" ، و " التلخيص"، و "الورقات" ،"غياث الأمم" ،وله "ديوان خطب" مشهور، وله "مختصر النهاية" وغيرها من المؤلفات./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص165 و ما بعدها./ ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعين، ج2، ص 466 وما بعدها./، ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية، في مواضع و قد ذكره ابن الصلاح في مواضع متفرقة من كتابه" طبقات الفقهاء الشافعية" ج1، الصفحات ،113، 208، 232، 237، 254، 255، 260، 424، 425، 467، 477، 492، 513، 515، 516، 521، 525، 528، 541، 542، 546، 547./ ج2، الصفحات: 570، 571، 604، 654، 693./ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج3، ص358 و ما بعدها./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج6، ص184، 185.

([1])طبقات الشافعية الكبرى ، ص192.

([2])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

**وقع التباس حول اسم هذا الإمام، و مرد ذلك إلى أن السبكي ذكر رد الإمام أبا عبد الله المازري على كتاب " البرهان" لأبي المعالي الجويني، و لم يزد على كنيته و اسمه، و مع أن بعض كتب التراجم و الطبقات ذكرت رجلين بكنية واحدة (أبو عبد الله) و كلاهما قد رد على الجويني من خلال كتابه البرهان، و هما في عصر واحد و متقاربين زمنيا في الوفاة، و هنا يقع الالتباس، و هذان الرجلان هما: الأول: و هو – في ترجيحنا - المقصود من كلام السبكي، محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المارزي المالكي، أبو عبد الله(543هـ/ 536هـ - 1061م/ 1141م)، نسبة إلى مازر بلدة بجزيرة صقلية، محدث، حافظ، أصولي، فقيه متكلم، أديب، من تصانيفه " المعلم بفوائد مسلم في الحديث"، "إيضاح المحصول في برهان الأصول لأبي المعالي الجويني" ، "نظم الفرائد في علم العقائد" ،" تعليق على المدونة" شرح التلقين للقاضي عبد الوهاب البغدادي" ، " الكشف و الإنباء على المترجم بالإحياء." و قد ذكر ابن الصلاح قبل السبكي في (طبقات الفقهاء الشافعية) (توفي ابن الصلاح عام 643هـ) ما نصه: " و لأبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم الأصولي، و كان إماما محققا بارعا في مذهبي مالك" و الأشعري، و له تصانيف في فنون منها: في شرح

و كان رد الإمامين على الجويني بسبب ما ناله أبوالمعالي من أبي الحسن الأشعري في بعض القضايا، و كذلك بسبب ما ناله الجويني من إمام دار الهجرة مالك بن أنس-رحمه الله - كما فعل في مسألة الاستصلاح والمسائل المرسلة، و قد وردت هذه الردود والشروح مفصلة عند السبكي.[1]

يشار إلى أن السبكي نفسه قد ظلت طبقات مرتعا خصبا لتراجم عديد العلماء المغاربة والأندلسيين سواء قبل عصر الطوائف، أو في زمن الطوائف و بعده، و كانت أقوال أهل العلم في هذين القطرين و مؤلفاتهم، إحدى أهم الموارد الرئيسة لطبقاته، و قد صرح بذلك في أكثر من موضع في كتابه،

="الإرشاد" و "البرهان" لإمام الحرمين، رسالة يذكر فيها حال الغزالي و حال كتابه " الإحياء" أصدرها في حياة الغزالي جوابا لما كوتب به من المغرب و المشرق في سؤاله عن ذلك عند اختلافهم في ذلك. " ج1، ص255. و ظاهر من كلام السبكي أنه اقتبسه من كلام ابن الصلاح، و هو ما يؤكد ترجيحنا.

و ذكره حاجي خليفة بالاسم و الكنية و التاريخ، و ذكر كتابه "المعلم بفوائد كتاب مسلم" / كشف الظنون، ص557. وذكره البغدادي في ذيل كشف الظنون بالاسم و الكنية و التاريخ، و ذكر كتابه " إيضاح المحصول في برهان الأصول"/ ج1، ص156، و ذكره المؤلف نفسه باسمه و كنيته، و تاريخ وفاته و سمى كتابيه: "إيضاح المحصول" و"المعلم بفوائد المسلم" / ج2، ص88./ و ذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في عداد حوادث وفيات ست و ثلاثين وخمسمائة./ ج4، ص114./ و ترجم له عمرو رضا كحالة في معجم المؤلفين، ج11، ص32، و أخطأ حينما جعل مولده بمدينة المهدية من إفريقية. بينما الثابت عند كل من ترجموا له و بدون استثناء أنه توفي بها، أما مولده فكان بمدينة مازر في صقلية.

وقد كتب عنه الأستاذ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب دراسة قيمة بعنوان "الغمام المازري" / أنظر بحث الدكتور عبد المجيد تركي " فتوى الإمام المازري في المسلمين المقيمين بصقلية في حماية النورمان "ضمن كتابه" قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، نصوص و دراسات" من ص 61 إلى 80. حيث كتب تعليقات مهمة حول هذا الإمام و أشار إلى بعض الدراسات التي كتبت حوله في هوامش الصفحات المذكورة. و فتوى الإمام المازري عند الونشريسي في المعيار المعرب، ج2، ص133، 134. حيث ذكره بالاسم و الكنية و لم يزد على ذلك./ وانظر المقدمة الضافية التي كتبها حول حياته محمد المختار السلامي في تحقيقه لكتاب المازري "شرح التلقين"، ج1، ص43 و ما بعدها.

و أما الثاني: فلم يذكره سوى صاحب معجم المؤلفين(ج12، ص22) أبو عبد الله المازري القرشي.... بن أبي بكر (ت530هـ/ 1136م)، أصولي، متكلم، صوفي، نزح إفريقية فأخذ بالقيروان الأصول عن أبي الطيب عبد المنعم وغيره، ثم رحل إلى الحجاز و مصر و استقر أخيرا بالإسكندرية و توفي بها، من تصانيفه: "البيان في شرح البرهان" لأبي المعالي الجويني" "المهاد في شرح الإرشاد إلى تبيين قواعد الاعتقاد للجويني" و لم يشر عمر رضا كحالة إلى مصادر ترجمته للشخصية الثانية عكس الأولى، و إنما أحال على كتاب المرحوم حسن حسني عبد الوهاب (الإمام المازري)، مع أن هذه الدراسة متعلقة بالمازري الأول و قد أشرنا إلى ذلك في ترجمته . فلم يوضح صاحب معجم المؤلفين هل أن حسن حسني عبد الوهاب فرق بين الشخصيتين أم هما واحد، وللأسف لم نحصل على دراسة حسن حسني عبد الوهاب حول المازري، و إنما اكتفينا بتعليقات عبد المجيد تركي في المصدر السابق حول ترجمة المازري الأول، فهو أستاذه المباشر، كذلك لم يشر عبد المجيد إلى وجود شخصين بالاسم نفسه، و إنما صرح مباشرة بالمازري الأول، وهو الأستاذ المحقق، من جهة أخرى بحثنا في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي حول المازري الثاني في وفيات(530هـ) التي أشار إليها صاحب معجم المؤلفين فغاب ذكره.

([1])طبقات الشافعية الكبرى ،من ص 192، إلى ص207.

كقوله: "ووجدت في تاريخ خلف بن شبكوال..."[1] و هو كتابه الصلة و غيرها من المصادر الأخرى في فترات لاحقة عن عصر الطوائف، و هو ما يخرج عن الإطار الزمني لدراستنا.

و خلاصة القول: إن جسور التواصل الثقافي والمعرفي التي وصلت الأندلس بالعراق عن طريق هجرة الأندلسيين إلى العراق، أو الرحلة المعاكسة للعراقيين إلى الأندلس، كانت حلقة وصل مهمة للمثاقفة بين القطرين، و فرصة عظيمة للاحتكاك بين العقليتين.

و كان العراق نقطة مهمة، و مركزا حيويا للتبادل والاتصال الثقافي بالنسبة للأندلس، فعن طريق علمائه و فقهائه و محدثيه و مفسريه، و كذلك أدباءه و شعرائه و نقاده وأطبائه ومفكريه، تتلمذ عديد الأندلسيين، و اكتسبوا طرقا جديدة في النظم والتأليف والحوار والجدل، و عن طريق الراحلين أو الوافدين من الأندلسيين والعراقيين دخلت المذاهب الفقهية والتيارات الفكرية، والتيارات الشعرية المستحدثة آنذاك.

و يمكن القول إن عصر الطوائف هو الوعاء الزمني الأشد تمثلا على نموذجية الصورة التواصلية المعرفية بين الأندلس والعراق - على الرغم من البداية البعيدة للعلاقات الثقافية بين القطرين - خصوصا في القرن الخامس الهجري الذي شهد توهجا ثقافيا غير مسبوق، بظهور أعلام الإسلام الكبار في الدولتين معا سمت معارفهم و دقت مناهجهم. كابن حزم والباجي والحميدي و ابن عبد البر النمري بالنسبة للأندلس، والخطيب البغدادي والجويني والقاضي عبد الوهاب البغدادي و أبي إسحاق الشيرازي بالنسبة للعراق.

و رغم أن جل علماء العراق في القرن الخامس لم يكونوا عراقيين في أصولهم و منابتهم، و لكن يكفي أنهم استوطنوا العراق أو تتلمذوا على عراقيين حتى يحصل التواصل.

و لا يشترط الحضور الشخصي للعالم حتى يحصل التواصل الثقافي، فبعض العلماء كابن حزم لم تطأ قدمه أرض العراق يوما، و لكن عمله سبقه إلى هناك، فتناوله علماء العراق قبولا أو رفضا و حتى عصور متأخرة، و قبله داود الظاهري الذي لم يدخل الأندلس يوما ولكن مذهبه سبقه إلى هناك و أعيد بعثه من جديد من طرف العلامة ابن حزم و تلامذته من بعده.

([1])طبقات الشافعية الكبرى، ج1، ص179.

و قد يأتي التواصل الثقافي بين الأندلس والعراق و لكن خارج القطرين، فقد تتلمذ عديد علماء الأندلس في الحجاز على أبي ذر الهروي و طبقته و كلهم كانوا في تكوينهم عراقيين، و بالتالي فإن مناهج أعلام بلاد الرافدين قد نفذت إلى البيئة العلمية والثقافية الأندلسية بطريقة أو بأخرى.
و قد ساعد على حصول التواصل بين البلدين كذلك تعدد الحواضر العراقية مثل بغداد والكوفة والبصرة والموصل و غيرها، إضافة إلى التدفق الهائل لمؤلفات علماء العراق وفي كل التخصصات إلى الأندلس، حيث تداولها الأندلسيون، فأكسبتهم إضافات نوعية منضافة إلى ما هو عندهم.

و بقدر ما استفاد علماء الأندلس من علماء العراق، استفاد العراقيون كذلك من علم الأندلسيين، حيث ظلت الموارد الأندلسية مادة أصلية في مؤلفات العراقيين، و قد ذكرنا تتلمذ بعض أعلام العراق على الحميدي و كيف أخذ الخطيب البغدادي عن الباجي كما ذكر ياقوت، و كان العلامة الحافظ بن ماكولا* يعتمد في مؤلفاته على آراء الأندلسيين ومؤلفاتهم.

*اعتمد ابن ماكولا في غير ما موضع من موسوعته (الإكمال) على مصادر أندلسية و أعلام أندلسيين، مثلا: ج1، ص31، 344، 345./ ج2، ص186، 212، 213، 264، 331.

الفصل الثاني: التواصل الثقافي الأندلسي/ وحواضر الغرب الإسلامي.

- ✓ **مدخل**

المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس ومصر.

المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والمغرب الأقصى.

المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والجزائر (المغرب الأوسط)

المبحث الرابع: التواصل الثقافي بين الأندلس وإفريقية (تونس).

المبحث الخامس: التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية.

III -2 -الفصل الثاني: التواصل الثقافي الأندلسي/ وحواضر الغرب الإسلامي.

✓ مدخل:

تعود العلاقات بين الأندلس و مصر، من جهة، والأندلس و إفريقية الشمالية من جهة أخرى، إلى أزمنة غابرة، و ذلك قبل ميلاد المسيح عيسى عليه السلام، حيث تعايشت شعوب هذه المناطق، و تكونت فيما بينها علاقات اجتماعية، حيث تداخلت الأجناس والأعراق عن طريق الهجرة والتجارة والمصاهرة، و أحيانا عن طريق الحروب.

كالذي حصل بين شعب أرض لوبيا (مصر) و أ مازيغ الجزائر، في عهد الملك شاشناق، و هجرة الفينيقيين حيث كانوا يمارسون التجارة انطلاقا من سواحل صور و صيدا، و سواحل الشام عموما، مرورا بمرافئ سواحل الشمال إفريقي (قرطاجنة، الجزائر، المغرب الأقصى)، و سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية*.

و معلوم أن العلاقات البشرية غير مفصولة عن بعضها البعض، فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، هي تقريبا أوجه متعددة لجوهر واحد. بينما ازدادت هذه العلاقات قوة و متانة، بعد دخول الإسلام إلى هذه المناطق، حيث كان دخول هذا الدين الوافد الجديد إلى هذه البلدان إيذانا بتحولها إلى عقيدة جديدة و ثقافة جديدة و فكر جديد، بأعراق متنوعة، فأصبحت هذه المناطق تكتسي صبغة "الإسلامية" مما توجب على هذه البلدان إلى التعامل فيما بينها بحكم بعض التقاطعات التاريخية المشتركة، والتداخل العرقي، والمصالح الاقتصادية والتجارية و ما تقتضيه المجاورة الجغرافية من صلات سياسية والأهم من ذلك كله الوحدة العقدية والتي جمعت بين هذه البلدان في عمومها.

لقد كان المغرب الكبير (الأدنى –الأوسط –الأقصى) هوالخزان الأكبر الذي اعتمد عليه قادة الفتح الإسلامي للولوج إلى شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا) كما أوضحناه سلفا (الفصل الأول من

---

* حول صلة المغرب بالأندلس قبل الفتح الإسلامي، ينظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب و الأندلس، ص 25 و ما بعدها. و حول الفينيقيين و هجرتهم إلى حوض البحر المتوسط، ينظر: محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013، ج1، من ص99 إلى ص107.

البحث). حيث تم فتح الأندلس بسواعد بربرية محضة، تحت إمرة عربية لا غير، و ساهمت مصر من قبل في فتوح بلدان المغرب، حيث كانت قاعدة انطلاق للجيوش الإسلامية تجاه بلدان إفريقية الشمالية لقربها من هذه المناطق من جهة، و لدخول الإسلام إليها قبل هذه البلدان من جهة أخرى.

كان إسلام إفريقيا (تونس)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، والمغرب الأقصى على مراحل بلغت في مجموعها حوالي ستين سنة، أي قبل دخول الإسلام إلى شبه جزيرة إيبيريا بسنين عددا.

ولكن وقبل تفصيل الحديث عن علاقة الأندلس الثقافية مع هذه البلدان، نتساءل عن المسوغ الذي جعلنا نذكر هذه الأقاليم مجتمعة (مصر، تونس، الجزائر، المغرب)؟

وراجع ذلك في رأينا لسببين:

أولا: اختصار التفريعات المتعلقة بعلاقة الأندلس الثقافية مع هذه البلدان .

ثانيا: فقد ذكر جغرافيوا العرب ومؤرخوهم من المشارقة والمغاربة، في حديثهم عن حد المغرب، وكيف يتبين عن حد المشرق، ما جعل جمعهم عندنا في هذا المقام، كحال جمعهم عند جغرافي الإسلام في العصر الوسيط. ونحن نتحدث بالأخص عن تلك الفترة، وبالتالي فذكرهم هنا مقترنين له ما يبرره.

وكان المغرب ككل في نظر الجغرافيين المسلمين قديما، يعد بلادا واحدة، منضافا إليه الأندلس. فكثيرا ما جمعوا بين هذه المناطق في حديثهم عن المغرب بشكل عام. فقد ذكر ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ) حول إجماع العلماء قبله في تحديد إقليم المغرب قائلا: " إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية إلى إطرابلس وهو أكبرها، وأقلها عمارة، وقسم من إطرابلس وهي بلاد الجريد، ويقال أيضا بلاد الزاب الأعلى، ويلي هذه البلاد، بلاد الزاب الأسفل، وحدها إلى مدينة تيهرت، ويليها بلاد المغرب. وهي بلاد طنجة، وحدها مدينة

سلا، و هي آخر المغرب"[1] و قال عبد الواحد المراكشي (647هـ): "والأندلس آخر المعمور في المغرب" [2].

ثم يتابع ابن عذاري قائلا في موضع آخر من كتابه: " وصار المغرب كالجزيرة، ودخل فيه بعض أعمال مصر، وإفريقية كلها، والزاب والقيروان، والسوس الأدنى، والسوس الأقصى وبلاد الحبشة، ومنه يتفرع نيل مصر"[3].

فكلمة "مغرب" في نظر هؤلاء الجغرافيين والمؤرخين، إنما كانت تعني الأراضي الإسلامية الممتدة غربي مصر إلى المحيط الأطلسي، وعلى هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية هي الحد الفاصل بين المشرق والمغرب، ولهذا عرفت باسم "باب المغرب"[4].

هذا المغرب الإفريقي، وهناك المغرب الأندلسي، ولهذا فإن كلمة مغرب أو مغاربة قد تعني أيضا الأندلس وأهله[5] .

وبالنسبة للمغرب الأندلسي، فالأمر بسيط ولا يحتاج إلى كثير عناء عندهم، فالمقدسي الجغرافي المشرقي، أحد أعلام القرن الرابع يقول في حديثه عن "إقليم المغرب": " و قد جعلنا المغرب كهيطل و خراسان، غير أنا لم ندخل الأندلس فنكورها"[6]. و قال في موضع آخر:" اعلم ان مثل المغرب كمثل المشرق، لكل واحد منهما جانبان، فكما أن المشرق خراسان و هيطل يفصل بينهما جيحون، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم".[7]

---

(1) البيان المغرب: ج1، ص5.

(2) المعجب: ص 8.

(3) البيان المغرب : ص 6.

(4) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب و الأندلس، ص 12.

(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(6) أيسر التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 208.

(7) المصدر نفسه: ص 219.

ثم يعرف المقدسي بلاد المغرب بكل أريحية قائلا: "هذا إقليم بهي، كبير سري، كثير المدن والقرى، به جزائر عدة، مثل : الأندلس الفاضلة العجيبة و تاهرت الطيبة النزيهة، و طنجة البلدة البعيدة، و سلجماسة المختارة الفريدة، و صقلية الجزيرة المفيدة.[1]

فقد جمع المقدسي في تعريفه المغرب والأندلس باعتبارهما جزءا مشكلا للقطر المغربي و أدخل بلاد صقلية في عموم المغرب.

و يؤكد ابن عذاري ذلك بقوله:" و بلاد الأندلس أيضا من المغرب و داخلة فيه لاتصالها به"[2]. و من قبله الحميدي (ت 488 هـ) حينما أراد أن يعدد فضائل بلاده الأندلس و محاسنها فساق بعض الأقوال والآثار التي قيلت فيها، فقال:" و قد جاء في فضل المغرب غير حديث... و ساق حديث النبي –صلى الله عليه و سلم - بطوله.[3] و صنع الصنيع نفسه الضبي (599هـ) في البغية.[4]

و من قبلهما ابن حزم الأندلسي (456هـ) و قد شكا ظلم الأندلسيين له، فقد حز في نفسه احتقار الأندلسيين لعلماء بلدهم، و إكبارهم لأهل المشرق، فقال:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة❖❖ و لكن عيبي أن مطلعي الغرب[5]

من خلال الأمثلة السابقة يتضح لنا أن المغرب كلمة عامة تطلق في مقابل المشرق، و يمكن أن نعد إقليم الأندلس داخل في هذا المسمى الجغرافي الكبير، فإذا ألحق إضافة أو عين بالتخصيص – أي إقليم الأندلس - تبين إقليم المغرب عنه.

---

(1) أيسر التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 208.

(2) البيان المغرب، ج1، ص6.

(3) جذوة المقتبس، ص14.

(4) بغية الملتمس، ص17.

(5) ابن بسام : الذخيرة، ف1/1/173.

"و كان التعبير السائد أن تذكر هذه الأقاليم والجهات التي تقع إلى جهة الغرب من البلاد الإسلامية في المشرق باسم "المغرب" هكذا مجردا من الصفة، فإذا أريد التدقيق قيل: "المغرب الأدنى" و "المغرب الأوسط" و "المغرب الأقصى" بحسب المسافة من المشرق."[1]

إذن فقد تحدد هذا التقسيم "مشرق" و "مغرب" وفقا لعاصمة دار الإسلام. سواء أكانت المدينة أو دمشق أو بغداد. فالمشرق كان يعني كل ما يقع شرقي العاصمة، والمغرب يشمل الأقاليم الواقعة غربيها، و في كل الأحوال كانت مصر تدخل في إطار المغرب".[2]

والظاهر أن قدر هذه الأقاليم مترابط إلى حد كبير، حتى في زمن الفتوحات الإسلامية. ففتح كل إقليم يؤدي إلى فتح الأقاليم الأخرى، فلا يمكن مثلا الحديث عن فتح البلدان المغاربية دون الحديث عن فتح مصر التي كانت منطلقا للفتوحات باتجاه هذه الأقطار.

و ذلك منذ افتتاحها على يد الصحابي عمرو بن العاص –رضي الله عنه - سنة عشرين للهجرة [3] ثم سار نحو برقة فافتتحها سنة إحدى و عشرين، ثم مضى منها نحو أطرابلس فافتتحها سنة اثنين و عشرين، و في سنة خمس و عشرين، ولى الخليفة عثمان بن عفان عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر، بعد أن عزل عمرو بن العاص، و بأمر من الخليفة عثمان –رضي الله عنه - خرج ابن أبي سرح سنة سبع و عشرين للهجرة إلى غزو إفريقية [4] ثم أخذ الغزو الإسلامي للمغرب يزداد اتساعا، انطلاقا من إفريقية (تونس)، ثم المغرب الأوسط (الجزائر) فالمغرب الأقصى، مع ظهور قادة جدد كان لهم دور كبير في عملية الفتح و انتشار الدين الجديد بين

---

(1) عبد الوهاب حميتو: الصحابة الكرام في المغرب بين الحقيقة التاريخية و الموروث الشعبي، بحث قدم في إطار: الندوة العلمية الدولية التي نظمها مركز الدراسات و الأبحاث و إحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بمدينة طنجة، و المنعقدة بين يومي 10،و11، فبراير،2010، بعنوان: "الصحابة الكرام في تراث المغاربة و الأندلسيين، طبع دار الأمان، الرباط، ط1،2010،ج1،ص38.

(2) محمود إسماعيل: إشكالية المناهج في دراسة التراث، ص150،149. و حول هذه القضية ينظر: المصدر نفسه، ص 145 إلى ص 164.

(3) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك. م362/4/2 و ما بعدها./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص8./ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة: تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة النابضي، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ج1، ص96 و ما بعدها.

(4) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، م437/4/3./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص8.

أهالي المغرب، مثل معاوية بن حديج الكندي، وعقبة بن نافع الفهري، و زهير بن قيس البلوي، و أبي المهاجر دينار، و حسان بن النعمان و غيرهم.

والجدير بالذكر أن الإشراف العام على الفتح كان دائما مركزه الخلافة في المشرق، عن طريق تلك التعيينات والعزل التي تتم في حق الولاة على المغرب و قادته الميدانيين.[1]

و ليس يعنينا هنا من تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب و مراحله، مما هو مبسط في كتب التاريخ، المصادر والمراجع، فيكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق، و إنما أردنا توضيح الصورة حول علاقة المغرب بشكل عام مع الأندلس حتى أثناء عملية الفتح. فباستكمال فتح المغرب ككل، و دخول أهله التوحيد، حتى انتقل الدين الجديد إلى العدوة العليا - الأندلس - في نهاية القرن الأول الهجري.

كانت عملية الفتح الإسلامي للمغرب الكبير متبوعا بالأندلس دلالة على عمق الارتباط، ليس العسكري فحسب، و إنما السياسي والاجتماعي والثقافي، فيما بعد. و إننا لنعجب لسهولة دخول هذه البلدان في الإسلام، و أن يتم فتح هذه المناطق الشاسعة في نحو ستين أو سبعين عاما، أو أكثر من ذلك بقليل*، في حركة مفاجئة و غير متوقعة على شعوب هذه المناطق الشاسعة، في حين عجزت قوافل الجيوش الرومانية والبيزنطية و حتى من كان قبلهما، واللاحقين عليهما من الشعوب الجرمانية، على استمالة سكان هذه البلدان على الرغم من استيطانها

---

(1) حول سير عملية الفتح الإسلامي للمغرب (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، و قادة هذا الفتح من السياسيين و العسكريين، ينظر المصادر الآتية: المالكي: رياض النفوس، ج1، من ص14 إلى ص 57./ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج1، من ص 8 إلى ص 44. إضافة إلى متفرقات عند الطبري في تاريخه، و ابن الأثير في الكامل، و في غيرها من المصادر و المراجع.

* ذكر الأستاذ أحمد مختار العبادي أن فتح المغرب استغرق مدة طويلة تقرب من ثمانين عاما، و هي مدوة طويلة نسبيا –كما يقول – إذا ما قورنت بالفتوحات الإسلامية الأخرى في الأراضي الفارسية و البيزنطية، و يقارن والأستاذ العبادي ، سير الفتوحات في بلاد المغرب ، بمثيلتها في العراق و الشام و مصر التي لم تزد على العشر سنوات. و مهي مقارنة غير وجيهة في اعتقادنا، لاختلاف الظروف و الأحداث و طبيعة الشعوب و المناطق المفتوحة و قربها أو بعدها عن مركز الخلافة في المشرق، و تأثرها بالأحداث السياسية في تلك الفترة، منها: ازمة الخلافة بين علي و معاوية –رضي الله عنهما - و لها من تداعيات على سير الفتوحات./ في تاريخ المغرب و الأندلس، ص 49.

و على عكس العبادي، فإن الأستاذ بروفنسال قد تعجب من السير السريع للفتوحات الإسلامية انطلاقا من المشرق و مرورا بالبلدان المغاربية، حتى الوصول إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، و في ظرف وجيز أصبح البحور المتوسط –كما ذكرنا في المتن - بحيرة إسلامية، و قضى على لاتينية هذه البحيرة./ الحضارة العربية في إسبانيا، ص 108،109. و نحن نميل إلى رأي بروفنسال.

لعقود عديدة، و أحيانا قرونا، كما هو حال احتلال الرومان والبيزنطيين –فيما بعد - لإفريقية الشمالية، و شبه الجزيرة الأيبيرية. لقد أصبح البحر المتوسط –كما يقول بروفنسال، بحيرة إسلامية[1] محضة.

"لقد وجد شمال إفريقيا مدعوّا، منذ أن فتح العرب إسبانيا، لكي يلعب دورا بالغ الأهمية في إعادة تعمير شبه الجزيرة بالسكان، لأن العلاقات التاريخية بين البلدين خلال العصر الإسلامي تعود إلى أيام الإسلام الأولى، و بدأت منذ نهاية القرن الأول للهجرة" و لم ينقطع تيار التعمير من والى الأندلس انطلاقا من جيرانه الأقربين* من أصحاب العدوة، منذ الفتح، و حتى السقوط

---

(1) الحضارة العربية في إسبانيا، ص109.

* ذكرنا في الفصل الأول من البحث أن قوافل التعمير البشرية للأندلس قد بدأت مع الطلائع البشرية البربرية التي كانت في حملة طارق بن زياد، ثم توالت هجرة البربر من سكان إفريقية الشمالية إلى الأندلس طيلة حكم المسلمين للأندلس، سواء أفرادا أو جماعات، حتى ظهرت منهم أسر حاكمة في عصر الطوائف. و كانت موجات الهجرة المعاكسة من الأندلس إلى الشمال الإفريقي لأكثر من سبب، السياسي و التجاري، و لطالما حملت موجات الهجرة بين الطرفين المبادلات الثقافية في طياتها.
يذكر الحميري "أنه لما جرى على أهل الأندلس من الربض أيام الحكم بن هشام الربضي ما جرى، خرج منهم عدد عظيم، فنزل منهم طوائف البربر و استوطنوها" الروض المعطار، ص51. و يؤكد الباحث نجم الدين هنتاني في معرض حديثه عن وقعة الربض في عهد الحكم بن هشام، هجرة حوالي ثمانية آلاف بيت أندلسية إلى فاس وحدها./ حضور القيروان في المدرسة المالكية الفاسية، بحث مقدم ضمن ندوة "إشعاع القيروان عبر العصور. و المنعقدة في القيروان من 20 إلى 25 أفريل 2009 . المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون، بيت الحكمة، تونس، ط1، 2010، ج2، ص 407.
و يذكر الحميري كذلك في معرض حديثه عن بونة (عنابة):"و قد سوّرت بونة بعد الخمسين و الأربعمائة ... و أكثر تجارها أندلسيون." الروض المعطار، ص 115. و التاريخ الذي ذكره الحميري هنا هو ما يوافق القرن الخامس الهجري، أو عصر الطوائف. و حينما عرّج البكري على ذكر الطريق من تنس إلى أشير في الجزائر قال:" و إن أردت طريق الساحل فمن تنس إلى بني جلّيداش، مدينة لطيفة، يسكنها الأندلسيون، و القرويون."المسالك و الممالك. ج2/251.
أما المقدسي فيذكر عن مدينة وهران، أنها بحرية مسورة يقلعون منها إلى الأندلس في يوم و ليلة "أيسر التقاسيم، ص 215. و يضيف الإدريسي عن مدينة وهران: "و مراكب الأندلس إليها مختلفة"نزهة المشتاق،ج1،ص252. و يحدثنا البكري عن مرسى الدجاج في الجزائر بأنه يسكنها الأندلسيون و قبائل من كتامة."/ المسالك و الممالك،ج2/ص246. ثم يقول :" و مدينة تنس الحديثة أسسها و بناها البحريون من أهل الأندلس، منهم الكركدن، و ابن عائشة و الصقر و صهيب و غيرهم. و ذلك سنة (262 هـ)، و يسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل إلبيرة، و أهل تدمير ... و كان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر." المصدر نفسه، ص242،241./ الحميري: الروض المعطار، ص138.
الأمر ليس مقتصرا على البلدان المغاربية فقط، فقد شارك الأندلسيون المصريين في هذه الخلطة الشرية، فالحميري و في حديثه عن وقعة الربض -السابق ذكرها - و كيف خرج كثير من أهل الاندلس إلى سواحل البربر يواصل قائلا:" و ذهبت فرق منهم أيضا نحو المشرق فلحقوا بمدينة الإسكندرية، و هم أزيد من عشرة آلاف، و لهم هناك أثر باق إلى اليوم، فثاروا بالإسكندرانيين ثورة أهلكت منهم خلقا كثيرا، و تملّك الأندلسيون الإسكندرية." المصدر السابق، ص51.
و الأمثلة كثيرة على هذه الوشائج البشرية بين الأندلس و البلدان المغاربية و مصر، هذا الاحتكاك سيتولد عنه تبادل ثقافي و علمي كبير.

الأخير للأندلس، عام (1492م/). حيث نزلت قوافل المهاجرين المضطرين، والهاربين من نيران القشتاليين و محاكم التفتيش، فكانت المنطقة المغاربية موئلا و ملاذا آمنا لهؤلاء النازحين، و ذلك لقرب المسافة بين الضفتين، سواء عبر المضيق، أو عبر الطرق البحرية الآمنة بحكم التماس الجغرافي.

ومن المهم أن نذكر في هذا المقام أن جغرافيي و مؤرخي المغرب والأندلس كثيرا ما ذكروا هذا التقارب الجغرافي حينما ذكروا بعض مدن المغرب في مقابلة بعض المدن الأندلسية، أو مقارنتها بنظيرتها الواقعة على الضفة المغاربية*

كانت العلاقات بين الأندلس والأقطار المغاربية و مصر، إضافة إلى تماسها الجغرافي موجودة كذلك على الصعيد السياسي و بشكل أوسع، فقد كان الأندلس تابعا لسلطة القيروان مباشرة و لعقود بعد الفتح الإسلامي، و كان كلاهما خاضعا لسلطة الأمويين في دمشق، و هذا أو ل ارتباط سياسي بين القطرين. و إن كانت مصر بعيدة عن القيروان من ناحية الارتباط السياسي، على الرغم من خضوعها لسلطان الأمويين في تلك الفترة.

و لسنا بحاجة إلى التذكير بعبد الرحمان بن معاوية الداخل، سليل الأسرة الأموية والذي فرّ من جحافل العباسيين، حيث دخل إلى المغرب، و بنى قاعدته الشعبية هناك، ثم ما لبث أن دخل الأندلس مؤسسا سلطانه هناك[1]. و هذا ما يعبر عن عرى الاتصال بين العدوتين.

و سنرى – فيما بعد - تسارع الأحداث السياسية مع بروز خلفاء بني أمية من أولاد و أحفاد الداخل، و ظهور دويلات جديدة على مسرح التاريخ المغاربي مثل الأغالبة والرستميين والأدارسة العلويين، و كيف أصبحت المنطقة تخضع لتجاذبات السياسة و لعبة المصالح التي تدخل في حسابات الحكام والسياسيين، ما يجعل المنطقة أشد اتصالا، و أوثق ارتباطا من ذي قبل.

---

* كمثال على ذلك، حديث البكري عن ذكر المراسي و اتصالها، قابل مراسي الأندلس بمراسي الجزائر و المغرب/ المسالك و الممالك، ج2، ص266 و ما بعدها. و في مقابلة الإدريسي لمدينة وهران مع ألمرية./ نزهة المشتاق، ج1، ص252. و في حديث المقدسي عن مدينة تيهرت، و بعد أن وصفها قال:" ... يفضلونها على دمشق و قد أخطأوا، و على قرطبة و ما أظنهم أصابوا." أيسر التقاسيم، ص214. كما ذكروا لتيهرت أبوابا شهيرة، منها باب الأندلس./ المسالك و الممالك، ج2، ص248./ الروض المعطار: ص 126./و قابل صاحب الروض المعطار حصن بنشكله « Peniscola » بالأندلس، بجزائر بني مزغناي (الجزائر العاصمة اليوم)، ص104.

(1) ابن عذاري: البيان المغرب،ج2،ص40 و ما بعدها./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص8 و ما بعدها.

فقد كان المغرب الأقصى خاضعا لتأثير الأمويين سواء سياسيا أو ثقافيا و بالتالي مذهبيا لذلك مال المغاربة في عهد الأدارسة إلى الأمويين"[1].

و تذكر كتب التاريخ أن موسى بن أبي العافية بن أبي سبال بن أبي الضحاك المكناسي، مؤسس الإدارة المكناسية في مراكش، و تسمى إمارة آل أبي العافية، كانت له بلدة مكناسة، و عقد له ابن عمه مصالة بن حبوس على سائر ضواحي المغرب و أمصاره سنة (305هـ). و بعد أن أقرّه عبيد الله المهدي الفاطمي، على ذلك و ضم إليه فاس سنة (313 هـ). قاتل الأدارسة و أجلاهم عن بلادهم.[2] و لما صار في ملكه من أحواز تيهرت إلى السوس الأقصى، ملك كذلك تلمسان سنة (319هـ). و انتظم في ملكه المغربان الأوسط والأقصى. نقض حينها دعوة المهدي الفاطمي في هذه السنة. و خطب لعبد الرحمان الناصر الأموي صاحب الأندلس، فظلت الحرب سجالا إلى أن قتل موسى في بعض الصحاري[3]. و لم يكن موسى بن أبي العافية ليكتب للخليفة الأندلسي إلا رغبة في موالاته، والدخول في طاعته، و أن يستميل له أهواء أهل العدوة المجاورين له، فتقبله أمير المؤمنين أحسن قبول، و أمدّه بالخلع والأموال و قوّى أوده.[4]

و معروف عن موسى هذا ميله لصاحب قرطبة من بني أمية[5]، وفيا لهم متبعا لخطّهم، و ما يدل على وفائه و ارتباطه بسلطة الأمويين في الأندلس أنه كتب إليه أهل أصيلا يستنجدون من بني محمد الأدارسة، اعتذر إليهم و قال لهم:" اكتبوا إلى أمير المؤمنين، فأنا و انتم رعيته، و تحت طاعته، فكتبوا إلى أمير المؤمنين عبد الرحمان الناصر، و كانت مدينة سبتة تحت طاعته[6]". كان ذلك سنة (322 هـ) و كانت مدينة أصيلا الساحلية الشهيرة في المغرب قد قدم عليها من الملوك القاسم بن إدريس، الذي ملكها و قامت دعوته بها إلى أن توفي، ثم وليها ابنه إبراهيم،

---

(1) نجم الدين هنتاني: حضور القيروان في المدرسة المالكية الفاسية، ص 404.

(2) البكري: المسالك و الممالك، ج2، هامش،ص261.

(3) المصدر نفسه: ص261، 262.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص199، و الصفحات: 194 ، 201، 202 .

(5) المصدر نفسه: ص 214.

(6) المصدر نفسه: ص 234، 235.

فجرت بينه و بين حفصون الثائر ببشتر من الأندلس مراسلات و مكاتبات في شأن النفاق على الخليفة الأموي بقرطبة[1].

و نلاحظ هنا أن العلاقات السياسية بين العدوتين كانت حتى على مستوى المعارضة والمارقين عن الدولة.

و قبل ذلك بقليل و بالضبط في سنة (319هـ) افتتح الناصر لدين الله مدينة سبتة، بالعدوة، باعتبارها مكانا استراتيجيا، فهي باب المغربين، و مفتاح المشرقين، و قاعدة البر والبحر[2] فدخلها قائده فرج بن عفير في السنة المذكورة، و لم يزل ولاة الناصر يتداولونها إلى سنة (346هـ)[3].

و كان الناصر قد شكّها بالرجال –أي مدينة سبتة - و أتقنها بالبنيان، و بنى سورها بالكدان، و لزم فيها من رضيه من قوّاده و أجناده، و صارت مفتاحا إلى العدوة ... و قامت فيها الخطبة باسم أمير المؤمنين الناصر[4].

و لم يكن الخليفة عبد الرحمان الناصر، بافتتاحه مدينة سبتة، سوى السيطرة على المفتاح الأساسي الذي يربط العدوتين (المغرب والأندلس). لتحصين الخلافة التي كان قد أعلنها لنفسه قبيل دخوله سبتة، و استقلاله الإسمي عن الخلافة المشرقية، و محاصرة المد الشيعي للعبيديين الذي صار يهدد سلطانه، فقد وصلت سيطرة العبيديين إلى المغرب الأقصى، وهو ما كان يهدد الخلافة الأندلسية.

لعبة السياسة بين الخصمين التاريخيين (الأمويون في الأندلس، والعبيديون في المغرب) على مسرح شمال إفريقيا، كانت مغلفة بالثقافة في شقها الفقهي والمذهبي، بين التيار السني المالكي في الأندلس، والتيار الشيعي الإسماعيلي للعبيديين في المغرب ككل.

و بالتالي فالصراع السياسي والثقافي والمذهبي كان على أشده، و كل حاكم يحاول تدعيم أركان حكمه، و توطيد دعائم سياسته، و طُنب دولته، عن طريق تسهيل و تيسير نشر مذهبه.

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1 ،ص 233.

(2) المصدر نفسه: ص 200.

(3) المصدر نفسه: ص 204.

(4) المصدر نفسه:، ص201.

ومن هنا كان لزاما لكل من يتعرض لتاريخ هذه المناطق أو لفهم ثقافة هذه الشعوب ألا يفصل بين الجانبين، الثقافي والسياسي.

و بعد وفاة الناصر و تقلد الحَكم المستنصر عام (350 هـ) الخلافة بعده، طاع له المغرب كله، و تمم بناء سور سبتة في السنة الموالية من حكمه، أي في عام (351 هـ). واتّبع الحَكم المستنصر سياسة رشيدة، ففي سنة (353 هـ) كتب هذا الخليفة سجلا إلى أهل سبتة، رفع عنهم جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية[1] لاستمالة أهل هذه الضفة، و محاصرة المد الشيعي الإسماعيلي، الذي شهد نشاطا متعاظما، وصل إلى أوج قوته في تلك الفترة، وبالتالي الصراع بين قوتين متناقضتين، و مرجعيتين مختلفتين، و هويتين متنافرتين تعملان من أجل كسب موضع قدم على أرض المغرب، على الرغم من انتسابهما إلى شجرة وواحدة.

و في هذا الإطار يقول الأستاذ عبد الهادي التازي: " لقد كان من أبرز ما اعتمد عليه الحكام في الأندلس والمغرب لمقاومة المد العبيدي الفاطمي الشيعي، حمل الناس على اتباع المذهب المالكي في كل أطراف البلاد في الغرب الإسلامي. و لهذا قرأنا في المقتبس لابن حيان حديثه عن الرسائل التي راجت في الأندلس في العشرة الأواخر من شوال سنة (363هـ/974م) والتي تؤكد أداء الطاعة والدخول في الجماعة و اتباع السنة والعمل بمذهب مالك بن أنس إمام أهل المدينة[2].

و قد ذكرنا في بداية الفصل الثاني كتابان للحَكم المستنصر في الحضّ على التمسك بمذهب مالك و زجر مخالفيه، أحدهما إلى الوزير عيسى بن فطيس، يحضه على الأخذ بمذهب مالك والزام الرعية بذلك[3].

لم يكن الخليفة الأموي الحَكم المستنصر ذا شأن في الناحية السياسية، فشأنه العلمي قد طغى على جانبه السياسي، و لكن الدولة آنذاك كانت وثيقة الأركان، و من جميع النواحي، والسياسة العامة للدولة أكبر من شخص واحد.

لقد كان المذهب المالكي هو الوحيد الذي لم يوظف سياسيا في المشرق، كما يقول محمد عابد الجابري، لا عند العباسيين و لا عند الفاطميين. و بالتالي فهو المذهب الذي كان "مؤهلا

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 227.

(2) الدور السياسي لرسالة ابن أبي زيد في توحيد الغرب الإسلامي، ضمن ندوة: إشعاع القيروان عبر العصور، ج2، ص330.

(3) الونشريسي: المعيار المقرب، ج2، ص333.

سياسيا". معناه أن السياسة ستوظفه للتضييق على المذاهب الفقهية الأخرى، التي كانت موظفة بهذا الشكل أو ذاك، من طرف (الآخر) العباسي، والآخر الفاطمي.[1] و بالتالي فالحفاظ على الترابط السياسي بين العدوتين، إنما كان يعني ترابطا ثقافيا، أو العكس. و ما التأسيس الأيديولوجي للدولة الأموية في الأندلس، سوى تأسيس ثقافي وجودي لهذه الدولة، و تثبيت أركانها، في شبه الجزيرة الأيبيرية، و تسويق هذا الخط الأيديولوجي السني/المالكي في المغرب، و هي صورة موجهة للآخر (العباسي/ الفاطمي) المختلف في أناه (و خاصة الفاطمي)، ثقافيا و فكريا عن الدولة الأموية في الأندلس. و لهذا فقد عمل الأمويون في الأندلس" من أجل تأسيس اتجاه أيديولوجي خاص بهم لا بد أن تعمل على تجاوز كل العناصر والاتجاهات الفكرية، الفقهية والعقدية التي يوظفها "الآخر" المزدوج: العباسي -الفاطمي"[2].

و قد بقي بعض حكام المغرب الأقصى مرتبطين بولائهم للسلطة الأموية في الأندلس بما يحمله هذا الولاء من بعد سياسي و معرفي.

" و يذكر ابن أبي زرع أن أبا العيش أحمد بن كنون الإدريسي (ت 343هـ/954م)، الذي ولي المغرب سنة (337هـ/948م) كان عالما فقيها، ورعا حافظا للسيرة و أنه كان مائلا لبني مروان متشيعا فيهم، و تمسك أبا الحسن بن كنون (ت 375هـ/985م) آخر ملوك الأدارسة بدعوة المروانيين، بل إن جميع بلاد العدوة، و جميع من فيها من قبائل زناتة والبربر، دخلوا في بيعة بني أمية[3]".

هذا بالنسبة للمغرب الأقصى، أما بالنسبة للمغرب الأوسط (الجزائر)، فالأمر ليس ببعيد عن هذا الارتباط و عن حسابات السياسيين في الأندلس و نظرائهم في المغرب الأوسط، خاصة مع الارتباط بين حدود المغربين الأقصى والأوسط.

"فالمغرب الأوسط يعرف كذلك بمغرب زناتة التي توزّع ولاؤها السياسي والمذهبي ما بين المذهب الإباضي والأمويين بالأندلس، و هذا ما يفسر الدوافع التي جعلت الأندلسيين يتحملون مسؤولية نشره في الطرف الغربي للمغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لذلك ترجم

---

(1) تكوين العقل العربي، ص 298.

(2) المصدر السابق: ص 299.

(3) نجم الدين هنتاني: حضور القيروان في المدرسة المالكية الفاسية، ص 404.

في بعض مصنفاته لبعض علماء هذه المنطقة ممن دخل الأندلس، و درس بها و أخذ من علمائها، كما دونت أخبار علماء الأندلس الذين دخلوا هذه المنطقة و نشروا بها المذهب المالكي"[1] و سنتحدث لاحقا عن هؤلاء العلماء.

كانت مدن المغرب الأوسط خاصة، مرتعا خصبا للحركات الفكرية، و بعض المذاهب، كالخارجي الإباضي والصّفري. فإذا ذكرنا جبال الأوراس من عمل المسيلة، فيه قلاع كثيرة يسكنها هوارة، وهم على رأي الخوارج[2] و كان الرستميون في القرن الثاني للهجرة، و قد أسس ملكهم عبد الرحمان بن رستم في تيهرت و أحوازها. و كان إباضيا من أصول فارسية[3] و في هذا الإطار يقول بعض الباحثين:" إن تاريخ الفتوحات الإسلامية للمغرب في العصر الوسيط، هو تاريخ عسكري و مذهبي بامتياز"[4]

عرفنا تمكن بعض الآراء المنافية للمذهب السني الرسمي للدولة الأندلسية، و كيف أنه يهدد وجودها و وحدتها المذهبية، نظرا لمجاورة بعض مدن المغرب الأوسط نظيرتها في المغرب الأقصى والتي كانت تحت نفوذ الأندلسيين، أضف إلى ذلك الزحف العبيدي الشيعي الذي تمكن بإحكام من بسط سيطرته على مدن المغرب الأوسط، بعد أن سيطر شبه كليا على المغرب الأدنى(تونس)، قدّرنا حجم الخطر الذي استشعره حكّام الأندلس اتجاه هذه المنطقة، وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي طال حكمه (خمسون سنة)، وابنه الحكم المستنصر من بعده (ستة عشر سنة)، حيث شهد عصرهما خطرا متزايدا على حدود سواحل شبه جزيرة إيبيريا .

فقد أسس الشيعة مدينة المسيلة الجزائرية، عن طريق أبي القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة (313 هـ) وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سمّاك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي، واستعمله عليها فلم يزل عليها إلى أن هلك في

---

(1) بوبة مجاني: القيروان و فقهاء الدولة الحمادية، ضمن ندوة: إشعاع القيروان عبر العصور، ج1، ص132.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 214.

(3) المصدر نفسه: ص 196 وما بعدها/ البكري: المسالك والممالك،ج2، ص 249/ الحميري: الروض المعطار، ص 126.

(4) علي خلامي: القيروان ومدن المغرب الأوسط(50 هـ/170 هـ -671م /800م)، ضمن ندوة: إشعاع القيروان عبر العصور، ج1، ص 51.

فتنة أبي يزيد مخلّد بن كيداد*سنة (326 هـ) والذي قام على أبي القاسم الشيعي[1] وبعد وفاة ابن الأندلسي قام بالأمر من بعده ابنه جعفر، وصار أميرا على الزاب كله إلى أن خرج عنها في سنة (360 هـ)[2]

وقد دخلت الثقافة في لعبة السياسة أنذاك، مما يصعب على الباحث فك الارتباط بين الجانبين في أحداث العصر الوسيط الإسلامي، فها هو ابن هانئ الأندلسي الإشبيلي المتشبع بالعقيدة الشيعية، بخلاف ما دأب عليه الأندلسيون من معانقة المذهب المالكي السني، الرسمي، والشعبي، فقد كان أمير الزاب هذا من ممدوحيه، و" له فيه أمداح حسان[3]" منها قصيدته الشهيرة: - أحبب بتياك القباب قبابا...[4]

وتتدخل الأندلس مرة أخرى في المغرب الأوسط، وتحسم الصراع لصالحها، حيث قتل ابن أبي عامر جعفر علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي[5]، وهذا يعين حصر النفوذ الشيعي القوي في منطقة الزاب التي تجاور نفوذ الأندلسيين السنيين في بر العدوة.

وما يلاحظ هنا ، هو ذكاء المنصور بن أبي عامر وسعة نظرته إلى الأمور، حيث أراد أن يوسع نفوذ الأندلسيين إلى أقصى مدى، فهاهو يوجه رؤاه إلى المغرب الأدنى (تونس). ففي سنة (373 هـ) انتقلت بعض صناهجة من أولاد زيري بن مناد، وهم زاوي وجلالة وماكسن إخوة بلكين،

---

* أخباره عند ابن عذاري في البيان المغرب، ج1، ص 216 وما بعدها، حيث قال بأنه من جبال أوراس في الجزائر، وكان قد تلبس بمذهب أهل السنة والجماعة، ودعا الناس إلى محاربة الشيعة ، فدخل إلى إفريقية وخرّب مدنها واتبعه الناس في ذلك، ولم يعلموا مذهبه، حتى انحسر الشيعة وقوادهم.... وكان دعا الناس إلى جهاد الشيعة، وأمرهم بقراءة مذهب مالك (والظاهر أنه كان يظهر عكس ما يبطن لأغراض سياسية.) ورغم ذلك فإن الواضح من هذه الحوادث هو صراع المذاهب والأفكار عن طريق الحروب بين السنة والشيعة.

(1) البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 239، 240، حيث يذكر أن الشيعة كانت تسمى مدينة المسيلة (المحمدية) / الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 254/ الحميري: الروض المعطار، ص 558/ ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 214، 215. وهناك اختلاف طفيف حول السنة التي قتل فيها ابن الأندلسي بين البكري وابن عذاري.

(2) البكري: المسالك والممالك، ج2/239.

(3) الحميري: الروض المعطار، ص 558.

(4) المصدر نفسه: ص 281، 282، وقد ذكر ابن الأثير قدوم ابن هاني، على صاحب المسيلة/ الكامل في التاريخ، ج7/ص 46.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 231.

إلى الأندلس، حيث توجهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة، فأنزلهم محمد بن أبي عامر وسّر بهم وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم[1].

ولم يكن المنصور صاحب السلطة الفعلية في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيد ليخشى قدوم هذه العائلة الملكية من إفريقية، والتي كانت خاضعة لنفوذ الشيعة العبيديين ، فقد ذكرت الحوليات التاريخية زيري بن مناد بخير، حيث كان له أثر حسن في حادثة أبي يزيد الخارجي، فقد سيّر زيري ولده بلكين للقاء هذا الخارجي في جبال أوراس بما معه من قبيلة هوارة.[2] كما سمع بغمارة وفسادهم واستحلالهم المحرمات، وأنهم قد ظهر فيهم نبي فسار إليهم. وغزاهم، وظفر بهم وأخذ الذي كان يدّعي النبوة أسيرا وأحضر الفقهاء فقتله[3]. وسنرى فيما بعد مساهمة هذه الأسرة القوية في الحياة السياسية الأندلسية وتأسيس أحد أفرادها إمارة في غرناطة في عصر ملوك الطوائف، رغم رجوع بعض أفرادها إلى تونس عام (410 هـ).[4]

ولا بد من الإشارة هنا إلى الدور السياسي والمذهبي الذي لعبته المدن المغاربية منذ دخول الإسلام إليها، فبظهور القيروان بوصفها عاصمة سياسية وعلمية للقطر المغاربي، منذ منتصف القرن الأول الهجري:" حيث أدت القيروان في أثناء عصور ازدهارها، دورا سياسيا بعيد المدى، ويقيت مدة طويلة عاصمة المغرب الموحد، وبلغ نفوذها بلاد الأندلس، وحتى جزر البحر الأبيض المتوسط

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج7، ص 120، وكذلك ، ص 47، 48 .

(2) المصدر نفسه: ص 74.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب.ج1، ص 269. وينظر تفصيل ذلك حول قدومه القيروان في كاتب التبيان، أو مذكرات الأمير الغرناطي، عبد الله بن بلقين، ص 63، 64 (تحقيق الطيبي)، وقد ذكر مشاركته الواسعة في الأحداث السياسية التي كانت في الأندلس منذ زمن المنصور بن أبي عامر، ص 57 وما بعدها، وفي باقي أجزاء الكتاب.

=وقال ابن الأثير:" ووصل من جزيرة الأندلس زاوي بن زيري بن مناد الصناهجي عم أبي المعز، وأهله وولده وحشمه، وكان قد أقام بالأندلس مدة طويلة... وملك بالأندلس غرناطة وقاسى حروبا كثيرة، ووصل معه من الأموال والعدد والجواهر شيء كثير لا يعد، فأكرمهم المعز وحمل لهم شيئا عظيما، وإقامات زائدة وأقام عندهم." الكامل .ج7، ص 279.

والجدير بالذكر ان ابن الأثير ذكر خروجهم إلى إفريقية في حوادث سنة (406 هـ)، وهو مخالف لما ذكره ابن عذاري في حوادث سنة (410 هـ)، وتستقدم هذه الأسرة خدمة جليلة لإفريقية عن طريق المعزبن باديس الصنهاجي(ت 454 هـ) الذي حمل أهل مملكته على الاشتغال بمذهب مالك وخلع طاعة العبيديين. وقتل الشيعة وقطع دعوتهم من إفريقية، ولعن أمراءهم بني عبيد على سائر منابر إفريقية، ووفى لكل واحد من الصحابة حقه، وأقام السنة، وكانت متروكة منذ مائة وأربعين سنة، وكان ذلك سنة (440 هـ) ابن عذاري: البيان المغرب. ج1، ص 273، 274ن 277، 278، 296، 297 /ابن العماد: شذرات الذهب 294/3.

شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا. كما أصبحت مثالا يحتذى في سياسة التمصير التي عرفتها بلاد المغرب"[1] وستصبح في القرون الموالية مركز إشعاع علمي وثقافي كبير، كما ستصبح قطبا للدراسات الفقهية، وخاصة المذهب المالكي.

وستصبح المنطقة المغاربية أكثر خصبا وعطاء وإشعاع معرفيا، وفكريا مع ظهور حواضر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، مثل: تاهرت، فاس، وسجلماسة.

وبسقوط هذه المدن تظهر المهدية في المغرب الأدنى كقطب فكري للعبيديين أصحاب المذهب الإسماعيلي، حيث " دام الصراع الفكري والمسلح بين المذهبين حوالي قرنين كانت الغلبة فيه للمذهب المالكي، فتزعم الفكر الديني في القيروان وفي المغرب كله"[2].

ومع ظهور حواضر القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلادي، كالقلعة وبجاية ومراكش المحمدية وأشير ، سيحسم الصراع في المغرب كله لصالح المذهب المالكي، فحينما أسس الحماديون دولتهم عام (397 هـ/ 1007 م) في منطقة الحضنة على يد حماد بن بلكين، كان هذا الحدث الذي يحمل أكثر من دلالة ." فأهمية الدور الحمادي في حسم الموقف لصالح المذهب المالكي في بلاد المغرب حيث أصبحت سيادته فقهية وسياسية."[3] حيث اضطلع الحماديون بمهام جسام في سبيل تغيير توجه مذهبي وفكري لمنطقة بأكملها" كان يهمين عليها المذهب الخارجي الإباضي"[4].

وهو الموقف الذي أعلنه المعز بن باديس الصنهاجي في منتصف القرن الخامس الهجري، لصالح المذهب المالكي، باعتناقه إياه وإعلانه رسميا وقطع دعوة العبيديين.

ولا يهمنا في انتشار المذهب المالكي وسيادته على الصعيدين الرسمي والشعبي في القطر المغاربي، إلا لأنه سيجعل من القطرين المغربي والأندلسي ميدانا خصبا للتواصل الثقافي بينهما، حيث يعتنقان مذهبا واحدا، فأما المرتحلون ذهابا وإيابا بين المصرين فلم يكونوا فقهاء

---

(1) وسام عبد المولى: الوعي في تقصّي الشخصية الحضارية في فنون القيروان، ضمن ندوة إشعاع القيروان عبر العصور، ج1، ص 30.

(2) منجية السوائحي: الحركة العلمية في القيروان (الفقه المالكي)، ضمن ندوة: إشعاع القيروان عبر العصور: ج 2، ص 667.

(3) بوبة مجاني: القيروان وفقهاء الدولة الحمادية، ص 130.

(4) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

فحسب، وإنما كـانوا محدثين ومفسرين وأصوليين أيضا ، كما كانوا أطباء وأدباء وشعـراء ورياضيين وموسيقيـين، وباختصـار مثقفين، فقد كـانت الثقافة العربيـة الإسلامية تنزع إلـى الشمول فـي تلـك الفتـرة، حيـث يصعـب تحديـد الاختصاصات العلمية والحقـول المعرفية.

وقد ظلّت المنطقة المغاربية والأندلس تتشاركان الأحداث السياسية لتجاورهما، وخاصة في القرن الخامس الهجري، وحتى في القرون الموالية له، والأمثلة على ذلك عديدة *.ليس محلها هذه الدراسة، فكيف كانت صلاتها الثقافية ياترى؟

يقول ليفي بروفنسال:" من الطبيعي أن يرتبط شمال إفريقيا وإسبانيا بعلاقات سياسية وصلات ثقافية، يقتضيها وينميها تجاورهما الجغرافي، وبخاصة عندما أخذت العقيدة الدينية المشتركة توجه، وحتى تؤكد عند الجانبين بعض مطامحهما المشتركة.[1]

---

* مثال ذلك صعود العلويين من بني حمود من المغرب إلى الأندلس، وتأسيس دولتهم هناك في بداية الفتنة وقد ذكرنا ذلك في الفصل، الأول من البحث، ينظر : ابن الأثير: الكامل . ج7، ص 284 وما بعدها. وفي عصر الطوائف كانت مدينة بجاية موئلا وملاذا آمنا لأمير ألمرية المعتصم بن صمادح حين حاصرته جيوش المرابطين بقيادة يحي بن واسنو، الذي تملك حصون المدينة وجهاتها، فاعتل المعتصم ونزل به الموت أثناء حصارها... فأوصى ولده وولى عهده ان يتمسك بقصبة ألمرية ما أقام بن عباد متمسكا بإشبيلية ، فإذا أفضى أمره إلى خلعه فليعبر البحر بأهله وولده غلى الجزائر، جزائر بني مزغنا، وكان قد راسل صاحب الجزائر، ووجه إليه عبد العزيز بن عيشون من أهل بلده فوصل إلى المنصور بن الناصر بن علّناس، وهو يومئذ بالقلعة، وهو يومئذ بالقلعة، يخطب إليه جواره والتحول إليه، فتلقاه بالرحب و السعة، وخيّره في أقطار بلاده./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص191 وفعلا كان له ذلك فقد ذكر ابن الخطيب قائلا:" ولما توفي المعتصم ، أقام معز الدولة ابنه ، يصوب ويصعّد، ويعمل النظر في امتثال وصية أبيه... ونظل بالجزائر على البخت وطائر اليمن وحول سفر عز الدولة ابن المعتصم بن صمادح بعد موت والده إلى بجاية في مركب حيث استقر تحت رعاية المنصور بن الناصر/ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 149. إلى ان هلك بها:" المصدر نفسه ، ص 192. ويقول كذلك: وبقيت الجزائر مرتبطة بالأندلس سياسيا حتى سنة (686 هـ)، جزائر بني مزغنا" ص 277.

وقال الحميري في الروض المعطار أثناء حديثه عن مدينة مليانة الجزائرية: " وعلى مليانة لقى أبو بكر الصابوني في الشاعر السلطان أبا زكريا ملك إفريقية، وكان هاجر إليه من الأندلس ، وركب البحر، ، وخرج في سالح الغرب الوسط، ولقي عسكر السلطان على مليانة فنظم قصيدة وتعرض بها في جهة خيّام خدّام السلطان..." ص 547.

ويقول ابن عذاري المراكسي في البيان المغرب عن يحي بن تميم بن المعز:" وفي سنة 503 هـ فتح يحي بن تميم قلعة أقليبية... وكان لتميم بن المعز من الولد ثلاثمائة، فنفى يحي أكبرهم إلى المشرق والمغرب والأندلس."ج1/ص 304، 305.

[1] الحضارة العربية في إسبانيا(طبعة دار المعارف) ص 10.

ومن المؤكد أن الأندلس قد استفاد من ثقافة الداخليين والفاتحين له* وللمغرب قبله، بحكم المجاورة والقرب، ومن المنطقي كذلك أن يساهم التابعون من أولي العلم في نشر المعارف وتعليم الشعب الجديد، مبادئ الشريعة وقيم الدين الإسلامي الحنيف في أوساط البلاد المفتوحة، أو في طلائع الجيوش التي كانوا في تعدادها. وتاريخ الفتوحات الإسلامية منذ زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم - يشهد أن الجيوش الإسلامية التي فتحت المدائن والأمصار المختلفة، كانت لا تخلو من معلمين وعلماء ، من الصحابة ، وغيرهم من التابعين، وأهل العلم والفضل.

---

* لم يكن حظ الأندلس مثل حظ بلاد المغرب أو الشمال الإفريقي المصاقب له، والتي دخلها أزيد من تسعة وعشرين صحابيا، فيهم من شهد بدرا، وكثير من التابعين كانوا على طبقتين: الطبقة الأولى، وفيها عشرة من كبار التابعين، كعبد الله بن زيد المعافري، وأبي مسعود بن سعيد بن مسعود التجيبي وغيرهما، والطبقة الثانية، تضم أكثر من سبعة عشرة تابعيا./ وحول دخول الصحابة والتابعين إلى المغرب (شمال إفريقيا)، ينظر المصادر الآتية: المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادهم ونسّاكهم. ج1، ص 60 وما بعدها. و ص 99 وما بعدها ، وص119. وما بعدها / أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد بن أبي شنب ، المدرسة الثعالبية. الجزائر. 1332 هـ/ 1914 م، ثم أعيد طبعه في ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2006، ضمن مجموعة تضم ، طبقات علماء إفريقية، لمحمد بن الحارث الخشني، وطبقات علماء تونس، لأبي العرب تميم، بتحقيق محمد بن أبي شنب كذلك ج1 ، ص 11 وما بعدها ، و ص16 وما بعدها في المصدر نفسه / الطبري: تاريخ الأمم والملوك. م2 ج4، ص437، 438./ ابن عذاري: اليان المغرب. ج1، ص 8. وما بعدها/ ابن الأبار: الحلة السيراء (تحقيق مؤنس) . ج1ص 17 وما بعدها ، وفي غيرها من المصادر، وقد حاول كثير من الباحثين المحدثين التحقيق في أسماء الصحابة والتابعين الذين ثبت دخولهم البلاد الإفريقية، مثل : بحث الأستاذ : عبد الهادي حميتو:" الصحابة الكرام في المغرب بين الحقيقة التاريخية والموروث الشعبي" والمنشور ضمن أعمال الندوة الدولية للرابطة المحمدية للعلماء بمدينة طنجة، بعنوان: الصحابة الكرام في تراث المغاربة والأندلسيين" ج1، ص 17 إلى ص 148، وفي المصدر نفسه، قدّم الأستاذ حمزة أبو فارس، بحثا بعنوان: " الصحابة الذين ثبت دخولهم البلاد الليبية في الفتوحات الإسلامية." ج1، ص 153إلى ص 174، وبعض البحوث الأخرى التي ضمتها أعمال الندوة المشار إليها ، وفي غيرها من المصادر والمراجع التي تعرضت لهذه القضية.

تحدثنا كتب التاريخ وكتب التراجم والطبقات عمن دخل الأندلس من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة، رجلا اسمه المنيذر الإفريقي، ويقال له: الأسلمي والثمالي، وكان صحابيا جليلا يروي عن النبي – صلى الله عليه وسلّم -/ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1415/1995 هـ. ج6 ، ص 179، 180، ترجمة رقم (8270)/ المقري: نفح الطيب، ج3، ص 5، 6.

أما التابعين فقد جعلهم عبد الملك بن حبيب الأندلسي عشرين تابعيا، ممن دخل الأندلس وحدها للجهاد/ الضبي: بغية الملتمس، ص 17. ، منهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة ، ومنهم حنش بن عبد الله الصنعاني يروي عن علي بن أبي طالب، وفضالة بن عبيد، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروي عن ابن عمر، ومنهم زيد بن قاصد السكسكي المصري يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وموسى بن نصير صاحب إمرة الفتح يروي عن تميم الداري، وغيرهم / ينظر الحميدي: جذوة المقتبس، ص 14/ الضبي: البغية، ص17 / عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 12، 13 / المقري: نفح الطيب. ج1، ص 277 وما بعدها، وص 287، 288، وج3، ص6 وما بعدها.

فالعلّة الأولى من الفتح، هي نشر الإسلام وتعليم أركان العقيدة، وقد ظلت هذه التقاليد متوارثة في مختلف الفتوحات الإسلامية التي تلت الفتوحات النبوية وحتى القرون الأولى من الإسلام، ولا نظن الأندلس قد شذّ عن هذه القاعدة.*

III -2-1- المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس ومصر.

العلاقات الثقافية بين الأندلس ومصر، قديمة ومؤصلة، تعود إلى البدايات الأولى للقرن الهجري، أي بعد الفتح الإسلامي للأندلس مباشرة، ولا نستبعد دخول عديد المصريين في تعداد الجيش الذي فتح الأندلس، وفي طوالع الجيوش الأخرى، التي جاءت فيما بعد، ودخلت شبه جزيرة أيبيريا، وأوضحنا سابقا دور مصر باعتبارها قاعدة انطلاق للفتوحات المغاربية فالأندلسية، لقربها من هذه المناطق، وبعض من تولى حكم مصر قد تولى حكم هذه المناطق**

ومصر كان العلم بها قديما، وشهدت دخول عدد من الصحابة والتابعين، وتابعيهم من غير المصريين، او من أهل مصر الأوائل، الذين تلقوا العلم من مظانه الأولى، ومن مصادره ومنابعه الأصلية، وعليه فلا نستبعد وجود هؤلاء أو بعضهم في عداد الداخليين، أو من تلاميذهم أو تلاميذ تلاميذهم[1]

---

* لدينا إشارة إلى معاهدة الصلح مع تدمير بعد الفتح الإسلامي للأندلس بعامين (رجب 94) وهي تنص على حرمة الأنفس والأموال والكنائس مقابل دفع الجزية، وقد تمّت بين ملكهم، وبين عبد العزيز بن موسى بن نصير/ الحميري: الروض المعطار، ص 131، 132. وانظر حول صلح تدمير في كتاب " أخبار مجموعة فتح الأندلس " لمؤلف مجهول، ص 100 . وحسين مؤنس: فجر الأندلس. ص 173 وما بعدها وحول الصلح كذلك في بداية الفتح الإسلامي للأندلس، ينظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس.ص23. والمقري: نفح الطيب . ج1، ص270 ويوقل ابن حيان المؤرخ في هذا الشأن واصفا مقدم موسى بن نصير بعد فتح طارق للأندلس:3 وقد ألقى =الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح، وموسى بن يحي على أثر طارق في ذلك كله، ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه: النفح: ج1، ص273.

** مثال ذلك: ابن أبي سرح الذي تولى حكم مصر ، وتولى الفتوحات في إفريقية، وحول علاقة مصر بالفتوحات المغاربية و الأندلسية، ينظر: رجب محمود إبراهيم بخيث: تهذيب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف، تغري بردي (813هـ/ 874 هـ)، مكتبة جزيرة الورد ، القاهرة، مصر، ط1، 2009م/ 1430 هـ، ص 26./ وانظر المالكي: رياض النفوس، ج1، ص14 وما بعدها، وكثير من المصادر التي أشارت إلى فتح مصر، وإفريقية وكذا الأندلس، وقد أشرنا إليه آنفا. وتشير المصادر كذلك إلى شخصية محورية في تاريخ الفتوحات الإسلامية في مصر والمغرب عموما، وهو أبو عبد الرحمن أو أبو نعيم معاوية بن حديج الكندي، وكان معدودا في المصريين فقد غزا إفريقية أميرا ثلاث مرات، وأصيبت عينه فيها/ ، ينظر النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج1، ص 493. رقم (885).

[1] ذكر ابن تغري بردي أن بناء جامع عمرو بن العاص كان في سنة(21 هـ)، ويقال إنه وقف على قبلته ثمانون رجلا من الصحابة ، منهم : الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، رضي الله عنهم وغيرهم./ ينظر :رجب محمود إبراهيم بخيت: تهذيب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ص 24، وفيه أخبار فتح مصر، ص 9 وما بعدها.

تقدّم لنا هجرة هؤلاء الداخليين والوافدين إلى الأندلس خليطا من الفقهاء والمحدثين، ومن الرواة وحملة العلم، وعلماء اللغة، والأدباء والشعراء على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم ولم تكد الدولة الإسلامية الناشئة في الأندلس تعصف بحكم الولاة في الأندلس، وتصبح كيانا مستقلا غير تابع، حتى كانت مصر قد قطعت شوطا كبيرا في عملية التمدّن الإسلامي فقد أصبحت أرض الكنانة مركزا علميا إسلاميا، وقطبا حضاريا مرموقا، يقصدها ابناء الأندلس وغيرهم من مختلف الأقطار الإسلامية الأخرى، وساعد ذلك وقوعها في مركز وسط بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فلا مناص من تمتعها بميزة الطرفين.

وقد ساعد موقعها هذا على استراحة الحجاج القاصدين بيت الله الحرام، أو مختلف الأماكن المقدسة الأخرى، أو الذين أدّوا منا سكهم وقفلوا راجعين، من الأندلسيين، وكذا طلبة العلم، وكانت حركة التجارة فيها نشطة، وقد مرّ الحديث عن دور التاجر المثقف في تفعيل الحركة الثقافية الإسلامية في العصر الوسيط.

ولا ننسى في هذا الإطار الحواضر المصرية الشهيرة كالفسطاط والإسكندرية والقاهرة، فيما بعد، ودور هذه المراكز العلمية في الإشعاع الثقافي، فقد شهدت هذه الحواضر وفود العلماء وطلبة العلم من الأندلس، وكانت قرطبة الغرّاء كذلك بالتوازي مع الحواضر الأندلسية الأخرى، وخاصة في عصر الطوائف، أراضي مضيافة للوافدين من مصر، طلبة وعلماء وتجارا وسيّاحا.

=وذكر السيوطي من دخل الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم، ومن كان بمصر من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث وغيرهم من العلماء/ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تحقيق: علي محمد عمر مكتبة الخانجي: القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ج2، ص 151، إلى ص 256.، وفي صفحات أخرى من الكتاب. وقد ذكر المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي أنه دخل مصر من الصحابة مائة ونيف وأربعين رجلا من الصحابة، ونقل قول السيوطي في كاتبه " در السحابة ممن دخل مصر من الصحابة" أنه دخلها ثلاثمائة صحابي، حيث أورد السيوطي أسماءهم على حروف المعجم وزاد في تراجمهم اسم الأب والجد والسن والوفاة./ بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر ط 1982/ 1402 هـ، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى، ج1/ق1/ ص 33، وفيه ابتداء دولة الإسلام وفتح مصر على يد عمرو بن العاص، والولاة الذين تعاقبوا عليها، ج1/ق1/ص 94 وما بعدها.

وكان من شدّة ارتباط الأندلس ومصر، أن أول من ألّف في تاريخ الفتوحات الإسلامية في الأندلس كان مصريا، وهي لفتة جديرة بالذكر، حيث ألّف عبد الرحمن بن عبد الحكم* (ت 257هـ/ 870 / 871) كتابه" فتوح مصر وإفريقية"**

" كان ابن عبد الحكم في الفسطاط في القرن الثالث الهجري، فهو معاصر للطبري والبلاذري... وقد درس عليه عدد كبير من المغاربة والأندلسيين، وكتابه يعتبر من أحسن ما كتب عن المغرب والأندلس، وأبعدها عن الأساطير، لهذا انتشر في الأندلس وأخذ عنه كثير من المؤرخين الأندلسيين المتأخرين أمثال: ابن الفرضي في كتابه (تاريخ علماء الأندلس)، وابن خير في فهرسته، والحميدي في جذوة المقتبس وغيرهم."[1]

ويعد كتاب ابن عبد الحكم هذا والمسمى" فتوح مصر والمغرب والأندلس" من أوثق ما لدينا من الأصول عن تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الولاة، وكانت مصر هي المركز

---

*أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، روى عن والده المحدث والفقيه، وقد كان أبوه كبير فقهاء المالكية في مصر، وفوق هذا فقد روى عن أسد بن موسى، وسعيد بن عفير، وغيرهم من المؤرخين ومن تلامذته أبو حاتم الرازي والنسائي وغيرهما، توفي بالفسطاط في (257 هـ/ 871 م) / فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/ج2/ 233/ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج5/150 ./ ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، اعتنى به: إبراهيم الزيبق، عادل مرشد ، مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، ط1، 2011م، ج2، ص 522.

**طبع هذا الكتاب بعناوين مختلفة، ومحققين كثر، وطبع مرات كاملا، وفي مرات أخرى أجزاء منه مثل :" فتوح مصر وأخبارها" و" فتوح إفريقية والأندلس" و" تاريخ مصر القديم" و" فتح الأندلس" وقد اهتم المتشرقون بهذا الكتاب:

- نشر المستشرق تشارلز توري CHARLLES Torry » الأستاذ بجامعة ييل " yale" بولاية « NEW HAVEN » بأمريكا، كل أجزاء الكتاب بعنوان: فتوح مصر وأخبارها " سنة 1920 في لندن، وصورته دار المثنى ببغداد.
- =ونشر المستشرق الفرنسي " ألبرت جاتو" « A.GATEAU » الجزء الخاص بفتوح المغرب والأندلس، ومع النص ترجمته الفرنسية ، ومقدمة في المؤلف ودراسة حوالي 55 صفحة، له بعنوان: « CONQUTE De L'Afrique Du Nord Et De Espagne » .
- ونشر المستشرق الفرنسي « HENRI MASSE » الجزء الخاص بمصر فقط في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في جزئين، أو المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة، 1914.
- ونشر الكتاب كاملا بالقاهرة، الأستاذ: عبد المنعم عامر/ ينظر حول هذه التفصيلات وأكثر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 337/ حسين عاصي: عبد الرحمن بن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر وإفريقية، دار الكتب، بيروت ، لبنان، ط1، 1992، ص 48، 49/ وقد فصّل فؤاد سيزكين في طبعات الكتاب، وعناوينه، ومخطوطات الكتاب المنتشرة في مكتبات العالم: تاريخ التراث العربي م1/ج2/ص 234، 235.

(1)أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 336، 337.

الذي صدر منه الفاتحون إلى المغرب والأندلس ، وإليها عاد من عاد منهم ليحدثوا بأخبار ما رأوه، فأصبحت مصر لهذا مصدرا رئيسيا للأخبار الجناح الغربي لمملكة الإسلام"[1].

وأخبار المغرب والأندلس متضمنة في كتاب ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس" ورغم أنه عالج فترة قصيرة فقط ، انتهت بعصر الولاة، ولكنها " تمثل القاعدة الصلبة لأية دراسة لهذه الفترة، فهذه الرواية التي تنساب في نظام دقيق بفضل تواريخها الأكيدة، تجعل دراسة هذه الفترة المضطربة من فتوح المغرب أمرا ممكنا"[2]، وإننا متيقنون من عمق ثقافة عبد الرحمن بن عبد الحكم، فقد نشأ في أسرة ذات علم وجاه. وكان معظم من تلقى عليه العلم بدءا من أسرته، والده وأخوه، ومن " الذين وفدوا إلى الفسطاط من البصرة والكوفة... كما اتصل بعلماء عصره وبالوافدين من طلاّب العلم من المشرق والمغرب و الأندلس"[3].

فقد كان للإمام المجتهد قاسم بن محمد بم قاسم القرطبي الفقيه، محدث الأندلس(ت 276هـ) رحلتان إلى مصر، وهو صديق المحدث الكبير بقي بن مخلد، قال عنه ابن عبد الحكيم المصري:" لم يقدم علينا من الأندلس أعلم من قاسم"[4]

ومن أقدم من سافر إلى مصر من الأندلسيين إبراهيم بن محمد بن مزين(259 هـ أو 260 هـ)، وفي الديباج يحي بن إبراهيم بن مزين ، وكان فقيها مفتيا ، رحل إلى المشرق، فسمع من أصحاب مالك وأصحاب أصحابه بالمدينة والعراق، ومصر، وكانت مصر في تلك الفترة، مرتعا لفقه مالك وأصحابه، وخاصة في الإسكندرية، وهذا ما يفسر – ربّما – الإنتاج الفقهي والعلمي الغزير لهذا العلم حول الفقه المالكي، وحول مالك وأصحابه وكان قد سمع من أصبغ بن الفرج، وله من الكتب :" كتاب تفسير الموطأ" و" كتاب تسمية الرجال المذكورين فيه" " المستقصية (استقصى فيه على الموطأ)" وسماه ابن فرحون " علل حديث الموطأ" وسماه ابن فرحون " علل حديث الموطأ"[5].

---

(1) حسين مؤنس: معالم المغرب والأندلس، ص 17.

(2) حسين عاصي: عبد الرحمن بن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر وإفريقية، ص 195.

(3) المصدر نفسه: ص 10.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 287.

(5) ابن الفرخي: تاريخ العلم والرواة بالأندلس، ص 432، 433، (1558)/ الحميدي: الجذوة ، ص 337 (880) الضبي : البغية، ص 434(1458)/ ابن فرحون : الديباج المذهب، ج2، ص 342، 343(618)/ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1،

ومن أشهر من دخل مصر قديما من الأندلسيين المقامي أبو عمرو ويوسف بن يحي القرطبي، توفي بالقيروان سنة(288 هـ)، شيخ المالكية، سمع من يحي بن يحي وعبد الملك بن حبيب فأكثر عنه، وحمل عنه تصانيفه، وارتحل في الشيخوخة، وسمع وبث علمه بمصر، وكان رأسا في الفقه لا يجارى، مدركا مصنفا، أقام بمكة، وروى بها" الواضحة" لابن حبيب، وعظم قدرة هناك.....

وجاءته كتب كثيرة من أهل مصر يسألونه الإجازة، وبعضهم يسأل منه الرجوع إليهم، ذكر ذلك تميم بن محمد القيرواني عن أبيه، وألّف في الرد على الإمام الشافعي، كتابا في عشرة أجزاء، وصنف " فضائل مالك" قال الحميدي: توفي سنة (283 هـ) وقبل سنة (285 هـ)[1]

وتذكر المصادر أحد أعلام الأندلس في هذه الفترة، من الذين زاروا مصر وهو أبوالقاسم العوفي السرقسطي(217هـ/ 313 هـ - أو 314 هـ) ثابت بن حزم بن عبد الرحمن، فقد روى عن البزار والنسائي ومحمد بن وضاح وغيرهم، سمع بالأندلس ورحل إلى المشرق مع ابنه قاسم، فسمعا بمصر ومكة، وكان عالما متفننا بصيرا بالحديث والفقه والنحو والغريب والشعر، لابنه كتاب " الدلائل" في الغريب، مات قبل إكماله، فأكمله أبوه ثابت[2]

وتشير كتب التراجم إلى ان مؤرخ الأندلس ابن الفرضي(403 هـ) قد تتلمذ وسمع وكتب عن أستاذين كبيرين، كانت لهما رحلة إلى المشرق سنة (302 هـ) فزارا مصر، وكان لهم هناك سماع وكتابة وتحصيل، وهما: أبو عمر ابن العنان (299 هـ/ 383) أحمد بن عبد الله عبد

=ص 112(149) وقد ذكر تاريخ وفاته فقال عام(255هـ) / قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص 1131، 1332،(13391) فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/ ج3/ص 157، وقال عنه :" رحل إلى المشرق فعرف في مصر والعراق عددا كبيرا من العلماء./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: ج13، ص 182/ البغدادي: هدية العارفين، ج2، ص 516 وذكر له من المؤلفات كذلك:" كتاب فضل العلم" و" كتاب فضل القرآن" / محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، استخرج نصوصه: صفاء الدين عبد الحميد، علي بن محمد العيد روس، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2003، ص 177، 178(1266).

[1] سير أعلام النبلاء، (المكتبة التوفيقية) ج10، ص 649، 650،(2373).

[2] ابن الفرضي: تاريخ العلم والرواة بالأندلس، ص 89، (رقم 308)/ الضبي : البغية: ص 216، رقم (603)/ ابن ماكولا: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكتب الأنساب، ج2، ص450/ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص 378، 379، رقم (190)/ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، ج1، ص 367، 368، رقم (273)/ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، ج3، ص 99، 100/ محمود سعيد ممدوح: الاحتقال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، ج4، ص236 ، 237. رقم (193 ح)، وفي غيرها من المصادر.

الرحيم بن كنانة اللخمي، الذي رحل إلى المشرق وزار عدة بلدان، وسمع بمصر من أبي محمد بن الورد، وكان محدثا متقنا، ضابطا لما كتب، جيد التقييد لما روي[1] والثاني أبو جعفر الأندلسي القرطبي(ت 378 هـ) أحمد بن عون الله بن حدير بن يحي الذي روى بقرطبة ، ومكة وبلاد الشام ومصر، وكانت عدة شيوخه اثنين وسبعين رجلا وامرأتين[2] وكان لابن الرسان (403 هـ) أحمد بن فتح بن عبد الله بن علي، سماع بمصر حيث روى عن جماعة منهم : أبا محمد بن عبد الله بن أحمد بن حامد البغدادي نزيل مصر، كما سمع بمصر من حمزة بن محمد الكنانيفي، وأبي العباس أحمد بن الحسن بن عتبة الرازي ، وغيرهم[3]

وغير بعيد عن تاريخ وفاته، يطالعنا أبو العباس الإقليشي القرطبي(363 هـ/ 410 هـ) أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج اللخمي المقرئ، الذي رحل إلى المشرق ودخل مصر وروى عن أن أبي الطيب بن غلبون المقرئ[4]

وقد تبوأ بعض علماء الأندلس بمصر منازل رفيعة، وكانوا أساتذة لأهلها، فالمقرئ أبوالقاسم عبد الرحمن بن الحسن بن سعيد الخزرجي(ت 446 هـ) الذي رحل إلى المشرق عام(380هـ) وبعد تطواف كبير، وتحصيل للمعارف واسع، أقرأ الناس بجماع عمرو بن العاص بمصر، حيث بلغت رحلته إلى المشرق واحدا وعشرين عاما.[5]

وصنوه أبو العباس الإشبيلي الشاهد نزيل مصر، أحمد بن محمد بن الحاج بن يحي، الإمام المحدث الثقة، سكن مصر وحدث بها، وكان مكثرا، حدث عنه بمصر القاضي أبي الحسن

---

(1) ابن الفرضي: تاريخ العلم والرواة بالأندلس، ص 56، 57(187)/ الضبي : البغية، ص 159،(424)/ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، ج1، ص 402، 403(354).

(2) المصادر السابقة على التوالي: ص 55، رقم(183)/ ص 169، رقم (452) /ج2، ص 100، رقم (526).

(3) الحميدي: الجذوة، ص 124، (240)/ الطبني: البغية، ص 170.(455)/ ابن بشكوال: الصلة (العلمية) ج1، ص 24(43)/ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال ج2، ص 110(540).

(4) المصادر السابقة على التوالي: ص 125(242)/ص 172(460)/ج 1، ص29(60)/ ج2، ص 120، 121(553)/ وكذلك عند ابن الجوزي: غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص 126(430).

(5) ابن بشكوال: الصلة: ج1، ص289، 290(718).

علي بن الحسن الفقيه المصري، المعروف بابن الخُلعي، وأبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله الحبّال، حيث توفي بالفسطاط عام (415 هـ)[1]

و كان عصر الطوائف و قبله بقليل من أنشط العصور، و أزهاها و أبهاها، وأشدها تمثلا في تمتين الصلة بين الأندلس ومصر، فقد كان كبار الأعلام بين القطرين، اللذين ربطوا البلدين بصلات بقيت كتب التاريخ والتراجم شاهدة على عديد الأمثلة منها .

و كان أحد جغرافي الأندلس الكبار في عصر الطوائف، و هو أبو العباس اللذري الدلائي (393هـ/ 478هـ) أحمد بن عمر بن أسن، نسبة إلى دلاية قرية من أعمال ألمرية. حج به أبواه بعيد الأربعمائة، فسمع بمصر كما في الأنساب، له مصنفات حسنة منها :" نظام المرجان في المسالك والممالك" و " دلائل النبوة " و غيرها من المصنفات.[2]

و أبو الطاهر بن عمران المالكي (455 هـ) و قد استوطن مصر و حدث بها ، وكان متقنا لفن القراءات، وصنف كتاب " العنوان " في القراءات ، واختصر كتاب "الحجة " لأبي علي الفارسي .[3]

وموسي بن بهيج المغربي الواعظ الأندلسي من أهل ألمرية و نزل مصر، كان من أهل العلم والأدب و له في الزهد و غيره أشعار حملت عنه كان حيا سنة (496هـ).[4]

في هذه الفترة وجدنا محدث الأندلس و عالمها و مفسرها و فقيهها ابن عبد البر النمري يحدث و يثني علي أحد العلماء المصريين الداخلين إلى الأندلس، و اسمه أبو محمد الزمعي العامري .[5]

صورة أخري من صور التواصل الثقافي الرائع الذي عاشته أجيال تلك الفترة من علماء الإسلام فالخطيب البغدادي يحدثنا قائلا:" كتب إليّ أبو ذر الهروي من مكة يخبرني أن أبا العباس

---

(1) الحميدي: الجذوة، ص 95، 96(184)/ الضبي: البغية، ص 134(340)/ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص 344 .محمود سعيد ممدوح: الاحتفال، ج2، ص 196، 197(662).

(2)الحميدي : الجذوة ، ص120، و ما بعدها (236) ./ الضبي :البغية ، ص167، و ما بعدها. (446)./ محمود سعيد ممدوح : الاحتفال ، ج2، ص74، 75.(494). ذكر له البغدادي كتاب " دلائل النبوة " في إيضاح المكنون ،ج3 ، ص104.

(3) ابن شكوال : الصلة (العصرية) ، ص99 (344)

(4)ابن الأبار : التكملة (الهراس)، ج2، ص174(449) حيث ذكر له شعر عنده .

(5) ابن شكوال : الصلة ، ص100

الوليد بن بكر الأندلسي حدثهم لفظا، قال: سمعت عمر بن المؤمل الحافظ بمصر يقول ... وساق الحديث[1]

إننا نرى في هذه الإشارة القصيرة، سمعة وصيت علماء الأندلس في هذه الفترة، وكيف طبقت شهرتهم الآفاق، فقد سمعوا بمصر و حدثوا به، وبلغ من مكانتهم أن استشهد بآرائهم و أحاديثهم من قبل أعلام الإسلام في تلك الفترة، ولما يحدث عنهم محدث الحجاز الهروي، وعلامة العراق و حافظها و محدثها، الخطيب البغدادي صاحب المصنفات الجليلة مثل: "تاريخ بغداد" فالأمر لا يحتمل كثير تفسير عن مكانة أعلام الأندلس في عصر الطوائف، وعبر تاريخهم الطويل و ليت الرحلة كانت مقتصرة على الرجال، فقد أسهمت النساء في هذه المشاركة العملية، وخير من يمثل ذلك ، عتيق الأقوبية (446هـ) زوج الوزراء الأقوبيين، وكانوا قد خلفوا عليها، وكانت امرأة صالحة، وكانت ممن شهر بحفظ العلم والأدب و تفننت و أخذت عن أبيها فائز علم التفسير واللغة العربية والشعر، وعن زوجها الفقه والرقائق، و خرجت من قرطبة إلى دانية للقاء المقرئ أبي عمرو فلقيته قد توفي. و توفيت بمصر منصرفة من حجها إلى الأندلس عام (446هـ).[2]

و كانت رحلة المصريين إلى الأندلس لأكثر من سبب، فمن طلب العلم والسياحة والتجوال إلى التجارة والجهاد، فقد كانت الأندلس و منذ فتحها إلى غاية سقوطها جبهة و ثغرا من ثغور المسلمين، وشهدت في عصر الطوائف حملة استرداد قادها مسيحيوا الشمال. حيث شهدت الأندلس نزوحا لأفراد الأمة الإسلامية و نفيرا عاما، من مشارق أرض الإسلام و مغاربها، وكان المصريون في مقدمتهم . و من هؤلاء الداخلين المقرئ والمحدث والفقيه والأديب والشاعر، ومثال ذلك، المقرئ أبو العباس أحمد بن علي بن هاشم المصري (429هـ).الذي قدم الأندلس في العشرين والأربعمائة، ودخل سرقسطة مجاهدا، وكان أحفظ الناس لاختلاف القراء وأخبارهم

---

[1] الخطيب البغدادي :الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، تحقيق وتعليق :أبي إسحاق إبراهيم بن مصطفى آل الحاج الدمياطي، مكتبة ابن ء س مصر ط 002: م، ج؟؟؟ ،ص24؛ .

[2] ابن الأبار : التكملة ، ج4، ص251.(700).

،أخذ عنه جماعة من أهل الأندلس مثل أبي عمرو الطلمنكي(429 هـ).[1] و على ذكر الطلمنكي المقرئ الأندلسي الكبير أستاذ ابن سيده اللغوي صاحب "المخصص" فقد روى عن علماء مصريين كبار معروفين في مجال القراءات، ومشهود لهم بعلوالإسناد، وصدق الرواية، مثل أبي بكر أحمد بن محمد المهندس و أبي الطيب بن غلبون و غيرهم.[2]

والظاهر أن المدرسة المصرية في مجال القراءات لها بصماتها على الأندلسيين، فقد أنجبت شيوخا و أعلاما كبار، فلا تجد علما مبرزا في هذا التخصص إلا و له مشاركة في هذا المجال مع نظرائه من المصريين، أخذا أو عطاء، ولو كان الأمر مع غير المصريين و لكنهم استوطنوا مصر فعدوا من أهلها. و أكبر من عرف في هذا الفن و كان أستاذا في تخصصه، حيث تتلمذ عليه عديد طلبة العلم من الأندلسيين، هو عبد المنعم بن عبد الله بن غلبون بن المبارك، أبوالطيب الحلبي، المقرئ المحقق، وكان رفيع الشأن في هذا المجال، وله اليد الباسطة، وقد عرف بأنه كان من أقوام الناس بعلم القراءات في القرن الرابع الهجري، مؤلف كتاب " الإرشاد في القراءات" قال عنه الذهبي: عداده في المصريين، سكنها مدة، قرأ عليه مكي بن أبي طالب القيسي، و أبي عمر الطلمنكي .[3] و إذا ذكرنا علم القراءات في الأندلس في عصر الطوائف، عرجنا على أحد أعلامها، وهو أبو عمروالداني (444 هـ)، فقد كان من أساتذته جملة من المصريين، من الذين تتلمذ عليهم مباشرة، أو من الذين ذكرهم، و قرضهم، و أثني عليم. فمحمد بن على بن أحمد الإمام أبو بكر الأدفوي* المصري المقرئ النحوي المفسر (ت 388هـ). قال عنه الداني: "انفرد أبو بكر بالإمامة في وقته في قراءة نافع".[4]

---

(1) ابن بشكوال : الصلة (العصرية)،ج1، ص85. ، رقم (186)./ ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء،ج1، ص115، 116. رقم (394) .

(2) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج1، ص155، وما بعدها . رقم (55). / محمود سعيد ممدوح : الإحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال.ج2، ص278 و ما بعدها . رقم (751).

(3) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج1، ص461، 462.

* ذكر له ابن خير الإشبيلي في فهرسته " أدب القارئ و المقرئ و العالم والمتعلم " حيث قال بعد إيراد السند : و أخبرني به أبو محمد مكي بن أبي طالب المقرئ – رحمه الله - إجازة عن أبي بكر الأذخوي مؤلفه –رحمه الله -"، ص302

(4) المصدر نفسه : ص461.

وأبوالحسن طاهر ابن عبد المنعم بن عبد الله بن غلبون المقرئ الكبير، حيث كان فارسا في مضمار القراءة مثل أبيه، و أحد الحذاق المحققين في هذا الفن، مصنف "التذكرة " في القراءات، و كان من كبار المقرئين في عصره بالديار المصرية، قرأ عليه الداني، و قد مات أبوالحسن طاهر هذا سنة (399 هـ).[1]

و مثله أبوالقاسم المصري، خلف بن إبراهيم بن محمد بن جعفر بن خاقان، (402هـ) أحد الحذاق في قراءة ورش، قرأ عليه الداني، وقال عنه: كان مشهورا بالفضل والنسك، واسع الرواية.[2] كما روى الداني عن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين، أبو مسلم الكاتب البغدادي (399هـ) نزيل مصر.[3]

و قد ذكر السيوطي في "حسن المحاضرة" المقرئ إسماعيل بن خلف بن سعد بن عمران، أبو طاهر الأندلسي، ثم المصري، السابق ذكره، مصنف "العنوان في القراءات " والذي تصدر للإقراء زمانا لتعليم العربية و كان رأسا في ذلك.[4]

و كان الفضل الكبير في جانب التبادل المعرفي بين الأندلس و مصر، إلى علماء لم يكونوا في أصولهم من القطرين، فأبو القاسم بن الفحام الصقلي، عبد الرحمن بن أبي بكر عتيق (422هـ/516هـ) صاحب كتاب " التجريد في القراءات " والذي انتهت إليه رياسة الإقراء بالإسكندرية علوا و معرفة حيث تتلمذ عليه، سليمان بن عبد العزيز الأندلسي، و قال عنه: " ما رأيت أحد أعلم بالقراءات منه، لا بالمشرق و لا بالمغرب "[5]

وقد طاب المقام للفقيه المالكي الأندلسي ، عبد الله بن الوليد بن سعيد، أبو محمد الأنصاري (ت448هـ) بمصر فسكنها مدة، ثم انتقل إلى الشام، حيث توفي هناك.[6]

وكان الفقه قديما في القطرين معا، الأندلس و مصر، وخاصة الفقه المالكي، فقد كان أصحاب مالك – رحمه الله - و تلاميذ أصحابه أندلسيين و مصريين، و كانت حركة

([1]) السيوطي : حسن المحاضرة . ج1، ص462

([2]) المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

([3]) المصر نفسه: الصفحة الرسمية .

([4]) المصر نفسه : ص465

([5]) المصدر نفسه: ص466

([6]) المصدر نفسه: ص421

الدراسات الفقهية المالكية نشطة في الحاضرتين معا، من خلال كثرة العلماء في المذهب و مجتهديهم، و كثرة التصانيف الفقهية المالكية، من حيث الشرح والسعة والإحاطة والشمول، والتدقيق والتمحيص.

ويروي السيوطي في هذا الشأن، أن قاضي مصر المالكي محمد بن يحي مهدي التمار الأسواني* (304هـ) كان تلميذا لمحمد بن عمر الأندلسي، حيث روى عنه.[1]

و كان علماء الحديث من الذين برزوا في ربط الصلات الثقافية بين البلدين ، وكانت جهودهم من أوكد الجهود، كابن الميراقي (365هـ/428 هـ) أحمد بن محمد بن عيسي بن إسماعيل البلوي القرطبي، أحد حفاظ الحديث و أئمتهم بالأندلس، والذي روى عن مجموعة من الأعلام منهم عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري الحافظ و غيرهم.[2]

و نظيره من مصر أبو محمد القرشي الزمعي العامري المصري السابق ذكره،(ت 421هـ) ، الذي روى عن كبار شيوخ مصر، قبل أن يرحل إلى الأندلس، و روايته هناك واسعة، و كان من أهل الدين والتصاون، والعناية بالعلم، قال عنه الذهبي: ثقة، محدث، وقد توفي بإشبيلية.[3] و إذا ذكرنا الحديث، وقفنا جليا عند اهتمام المغاربة والأندلسيين بعلم الحديث و كتب السنن والمسانيد والمصنفات الشهيرة، لفت انتباهنا اهتمام المغاربة والأندلسيين خصوصا بصحيح الإمام مسلم، فرواية الإمام المحدث القلاسني، وهي من أصح الروايات، وسندها من أعلى الأسانيد، قد دخلت الأندلس من جهة أبي عبد الله محمد بن الحذاء القرطبي (410هـ) الحافظ الرحالة، والذي سمعها بمصر و أخذها عن أبي العلاء عبد الوهاب بن عيسى بن ماهان البغدادي. ثم

([1])السيوطي : حسن المحاضرة . ج1 ،ص419.

* أبو الذكر محمد بن يحي التمار الأسواني ، الفقيه المالكي ذو التصانيف أصولا و فروعا ، روى عن أبي مسلم الكجي و نزول مصر و توفي بها سنة (340 هـ) ." أحمد بابا التمبكتي : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تحقيق : علي عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ،ط1، 2004،ج2، ص21 ، رقم (418) .

([2]) الحميدي : الجدوة ، ص 100، رقم (118) / الضبي : البغية ، ص139، رقم (348) . / ابن بشكوال : الصلة (العصرية)، ص51. رقم (89) . / محمود سعيد ممدوح : الاحتفال .ج2 ، ص306، 307. رقم (787) .

([3]) المصادر السابقة على التوالي : ص144، 145، (302)/ص196، (545)/ص100، (246)/ ج3 ، ص3427، 428، (1704).

المصري (ت 388هـ) ، والذي رواها عن أبي بكر بن الأشقر عن القلاسني، عن مسلم ما عدا ثلاثة أجزاء (حديثية) من الكتاب يرويها عن الجلودي .[1]

و بالتالي فلا عجب أن يخبر الرجالُ الرجـال من القطرين، و أن يأخذ بعضهـم عن بعض، وأن ينتقد بعضهم بعضا، في إطار القواعد العلمية، والضوابط المنهجية، على الرغم من المسافة الهائلة التي تبعد مصر عن الأندلس، فالعلم يقرب المسافات، والمعرفة تقلص المساحات. فلا عجب إذن أذا وجدنا ابن حزم الأندلسـي، و قد حط على أحد العلماء المصريين في كتابه " المحلى" و هـو المحدث إسماعيـل بن مـرزوق بن يزيد ، أبو زيـد المـرادي الكعبي، وذلك بسبب إسنـاد لم ينفرد به.[2]

وتتواصل جهود أهل العلم والمعرفة والثقافة والأدب في مد جسور التواصل الثقافي بين الأندلس و مصر، وهم كثر بحيث يعز على كل باحث حصرهم، في صفحات، وحتى في دراسة مستقلة، فقد بلغوا من الكثرة والشيوع، أن احتوتهم مئات المجلدات من كتب التاريخ والتراجم والطبقات. إرتأينا في نهاية هذا المبحث أن تحدث عن أعلام مميزين في حقل التواصل الثقافي الأندلسي المصري، نظرا لما قدموه من إضافات نوعية في هذه العلاقات، و كذا لغزارة إنتاجهم وبعد ذكرهم، فوقع اختيارنا على أبي بكر الطرطوشي، محمد بن الوليد الفهري الأندلسي (450هـ/525هـ) ،وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (460هـ/1067 - 68م/529هـ/1134م). أما الطرطوشي، وكنيته ابن رندقة، فقد كان أحد الأئمة الكبار، و أحد كبار الجوالين في الآفاق، و كان كثير النصب والسهر والتعب، طلب العلم و استوسع في الطلب ، و تفرغ لذلك فجمع و أوعى، ورُبي في حجر العلم رشيدا حتى ربا، و أحكم العربية و ما يتعلق بها من علوم و أداب، و كان متمكنا من التفنن التام في سائر أنواع المعارف.

أخذ بالأندلس عن أبي الوليد الباجي و طبقته، و رحل إلى بغداد، ونزل مصر، وفي الإسكندرية بالضبط استوطنها وقطنها ، وكان له ذكر بعيد هناك، و صوت مسموع، وقد ربطته علاقات

([1]) محمد الشاذلي النيفر : دراسات في علوم الحديث و مناهج المحدثين ، ضبط نصها و علق عليها و قدم لها : طه بن علي بوشريح ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، ط1، 2009، ص21، 22

([2]) محمود سعيد ممدوح : الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال ، ج4 ، ص5. ولأبي يزيد المرادي الكعبي ، ترجمة في المصدرنفسه ، رقم (1750). و قد ذكره الحفاظ ابن ماكولا فقال: "أبو بريد إسماعيل بن مرزوق بن بريد الكعبي ، مصري ، مرادي ". و الأصح هو أبو يزيد./الإكمال ، ج1 ، ص230

وثيقة مع أهل مصر، وذلك لمكانته العلمية الكبيرة التي تبوأها ، وهو صاحب التصانيف الشهيرة. حيث ألف كتابه "سراج الملوك" لحاكم مصر المأمون البطائحي .[1]

و استطاع أبو بكر الطرطوشي، بفضل منزلته العلمية المتميزة التي تبوأها في أرض مصر و بين أهلها ،و بفضل تحصيله العلمي الغزير، وهو البحاثة، الرحالة، الطُلعة، أن يكون مئات التلاميذ و طلبة العلم، والذين سيكون لهم شأن عظيم بعد وفاة الطرطوشي .

مثل: العلامة المالكي المصري، سند بن عنان بن إبراهيم الأزدي (ت541هـ)* ، وصدر الإسلام أبو الطاهر إسماعيل بن مكي بن إسماعيل الإسكندراني. (ت581هـ) ، صاحب المصنفات الكثيرة في المذهب المالكي، وكان جده عوف أستاذا لصلاح الدين الأيوبي.[2]

والشخصية الثانية التي تمثل أرقى صور التواصل المعرفي بين الأندلس و مصر، وهو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، فقد كان بطل علم و فارس بحث، و أجمع كل من ترجم له من القدماء، أنه العالم، الطبيب، الفيلسوف، المهندس ، المعماري، الرياضي، الموسيقي، فضلا عن كونه شاعرا و أديبا.

ولد بدانية من بلاد الأندلس، ولهذا يقال له الداني ثم الإشبيلي ، في عصر الطوائف، وتتلمذ على وجه الخصوص للقاضي الشهير الوقشي (ت489هـ/1095 -96م)، واليه يعود قسط من ثقافته الموسوعية، وكان خروجه من الأندلس في السنة التي توفي فيها شيخه القاضي الوقشي، وبعد سقوط مملكة إشبيلية في يد المرابطين، و انتهاء حكم العبابدة بخمس سنين. رحل إلي

---

(1) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج1، ص421، 422. و قد تحدثنا سابقا مطولا عن مصادر ترجمته .

* قال عنه ابن فرحون في الديباج المذهب : " كنيته أبو علي ، سمع من شيخه أبي بكر الطرطوشي ، و روى عن جماعة من الأعيان : و كان من زهاد العلماء ، وكبار الصالحين ، تفقه فاضلا بالشيخ أبي بكر الطرطوشي و جلس لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبي بكر ، وانتفع الناس به ، و ألف كتابا حسنا في الفقه سماه " الطراز" شرح به المدونة في نحو ثلاثين سفرا ، وتوفي قبل إكماله ، وله تآليف في الجدل و غير ذلك"

ج1 ، ص 349 و ما بعدها ، رقم (253).

و قال ابن فرحون عن الثاني (صدر الإسلام) : " إسماعيل بن مكي بن إسماعيل أحد أحفاد الصحابي الجليل عبد الرحمان بن عوف ، صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أحد العشرة المبشرين بالجنة.

إمام عصره وفقيه دهره في الفقه ، على مذهب الإمام مالك – رحمه الله - و عليه مدار الفتوي ، كان ربيب الإمام أبي بكر الطرطوشي ، و قيل إن خالته كانت تحت الطرطوشي، وعليه تفقه ، و به انتفع ، من مؤلفاته : " تذكرة التفكير في أصول الدين" و له كتاب " الرد على المنتصر". ج1، ص257 و ما بعدها . رقم (169)

2 السيوطي : حسن المحاضرة ، ج1،

إفريقية (المهدية) ، ثم إلى مصر التي سجن بها، ثم عاد إلى إفريقية حيث توفي بالمهدية بالتاريخ المذكور، و عند ابن الأبار أنه اتصل بأمير الصنهاجيين يحي بن تميم بن المعز، ثم بابنه علي بن يحيى، وبعده بالحسن بن علي، آخر ملوك صنهاجة ، وخرج من إشبيلية ابن عشرين سنة، و لزم التعلم بمصر عشرين سنة، ثم أوطن المهدية عشرين سنة.[1]

و زعم محقق كتاب "تحفة القادم" بأن دخوله مصر، في حدود سنة (510هـ) و إقامته فيها لم يكن لطلب العلم، بل حبس فيها مدة.[2]

ولكن الأدلة والشواهد التاريخية التي بحوزتنا تدحض هذا الرأي، رغم ثبوت سجنه أثناء إقامته في مصر، ففي قول ابن الأبار: " و لزم التعلم بمصر عشرين سنة"[3] يضيف قائلا في موضع آخر:" و خرج إلى مصر فأقام بها عشرين سنة يطلب العلم فتفنن في الطب والآداب والعروض والتاريخ .[4] و أكد ذلك ابن سعيد قائلا:" يقال إن عمره كان ستين سنة، عشرون في إشبيلية، و عشرون في المهدية ، وعشرون في مصر محسوبا في خزانة الكتب".[5]

و كان لأبي الصُلت أمية بن عبد العزيز، صيت ذائع في مصر، وفي غيرها من الأماكن التي زارها، من خلال تفننه في مختلف العلوم، وجمعه لعدة معارف، ومن هذه المصنفات:

- الرسالة المصرية .
- كتاب الأدوية المفردة في الطب .
- كتاب الانتصار (يقف موقف المدافع عن كتاب المسائل لحنين بن إسحاق ضد علي بن رضوان).

([1]) ابن الآبار : تحفة القادم ، من ص9إلى ص13. وا نظر ترجمته : ابن أبي أصيبعة : عيون الآباء في طبقات الأطباء ، ص501 و ما بعدها. حيث قال عنه :" و أتى أبو الصلت إلى ديار مصر و أقام بالقاهرة مدة، ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس ، وكان دخول أبي الصلت إلى مصر في حدود 510هـ./ ابن الأبار : التكملة (الهراس) ج1، ص168، 169 . رقم (540)./ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب .ج1، ص261، 262./ ابن دحية : المطرب ، ص107، حيث ذكرله شعرا ./ ابن الساعي : الدر الثمين، ص311، 312. / العماد الأصفهاني : خريدة القصر (قسم شعراء مصر) : نشره: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس. لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دت / ابن خلكان : وفيات الأعيان . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب / الشاذلي بويحيى : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، ج1، من ص358إلى ص374.

([2]) تحفة القادم: حاشية ص10.

([3]) المصدر نفسه ، ص9، 10

([4]) التكملة لكتاب الصلة ،ج1 ،ص168

([5]) المغرب في حلى المغرب ، ج1 ، ص 261

- كتاب " الوجيز في الفلك" ألفه للأفضل حاكم الإسكندرية و وزير الخليفة الفاطمي الآمر .
- رسالة في عمل الإسطرلاب*.
- أجوبة على مسائل .. في الطبيعة ووصف الكون والرياضيات .
- ألف في المنطق رسالة سماها "تقويم الذهن ".
- له في التاريخ كتاب الأخبار، صنفه للحسن آخر ملوك بني زيري، وكان – فيما يبدو - تكملة لتاريخ الرقيق القيرواني الذي قد كان تابع كتابته ابن شرف، وربما أيضا ابنه جعفر بن شرف.
- كتاب المعاني المختلفة للفظة نقطة .
- له مصنفا في شعر عصره سماه "الحديقة" .
- الملح العصرية في شعراء الأندلس .
- الدباجة في مفاخر صنهاجة.

و غيرها من المصنفات** التي حررت بأنامل هذا العلامة الكبير، والتي شهدت بفضله ، ودلت على منزلته في حقل التأليف والتصنيف، وستبقي آراء و مؤلفات أمية بن أبي الصلت صدى لكل علماء مصر و مؤرخيها*** في القرون الموالية لعصر المؤلف.

وخلاصة القول، إن العلاقات الثقافية والتفاعلات المعرفية، والوشائج الحضارية بين الأندلس و مصر، و نتيجة لعمق العلاقات بينهما و أقدميتها، قد شهدت نشاطا متعاظما من الفتح إلى السقوط ، أما القرن الخامس الهجري ، وهو عصر الطوائف في الأندلس ، فقد الصورة التفاعلية الثقافية النموذجية والمثلى بين القطرين، بفعل التواصل الثقافي والمعرفي المطرد بين الضفتين، بفضل جهود أعلام كبار مثلوا بحق هذا التواصل، و نشطوا الحركية الثقافية بين البلدين، و

---

* ذكر حاجي خليفة هذه الرسالة باسم " الإسطرلاب وعمله" / كشف الظنون ، ج1 ، ص845

** وردت هذه المؤلفات مجتمعة أو متفرقة عند كل من ترجموا لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز ، ممن ذكرناهم آنفا ، و في مختلف المصادر و المراجع الأخرى ، فقد جمع الأستاذ محمد المرزوقي ديوان أبي الصلت ، وصنع له مقدمة جميلة ذكر فيها كل هذه الكتب ، وكذلك صنع الأستاذ المرحوم الشاذلي بويحيى في المصدر المشار إليه سابقا.

*** تحدث المؤرخ المصري الكبير، المقريزي (ت 845هـ) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي في كتابه " السلوك لمعرفة دول الملوك " و في " ذكر حدود مصر وجهاتها و أقطارها على سبيل الاختصار "فاستشهد في تحديد حدود مصر بقول أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ./تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط1، 1997 ، 1418 ه، ج1 ، ص66. و المصدر نفسه ، ص83.

أسهموا في نماء هذه الحركية من خلال التلمذة والأستاذية المتبادلة بينهما، أما الاختصاصات فهي متعددة، فمن الفقه و خاصة الفقه المالكي إلى الحديث إلى القراءات، فالأدب والشعر، وكان للعلوم الأخرى حظ و نصيب كذلك، والأمثلة التي ذكرناها لا تساوي شيئا في ميران ما ذكرته كتب التاريخ والتراجم عن هؤلاء الأعلام وأعمالهم .

III -2 -2 -المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والمغرب الأقصى:

التواصل الثقافي بين الأندلس والمغرب الأقصى قديم جدا ، وتاريخ العلاقات الثقافية بين هذين القطرين يشهد بذلك، ويذكر ابن عذاري المراكشي أنه بدخول عقبة بن نافع الفهري إلى سبتة، خرج إليه يليان بتحف وهدايا جميلة، وكان ذا عقل وتجربة، فأقره عقبة على موضعه، ثم دخلها العرب بعد ذلك بالصلح، حتى إذا زحف إليها بربر طنجة فخرّبوها، وبقيت مرتعا للوحوش مدة، فدخلها رجل من غمارة يسمى ماجكس، ثم ابنه مجبر بن عصام، ثم وليّها الرضي بن عصام ، وكان يحكم فيها برأي فقهاء الأندلس.[1]

وهذا ما يدل على تأثير الأندلس الثقافي في المغرب بحكم القرب والمجاورة، حيث لا يفصلهما سوى المضيق، ودام هذا التواصل بين العدوتين واستمر من الفتح إلى السقوط، أما في عصر الطوائف، فقد كان تيار الامتداد المعرفي يأخذ مجراه من الجنوب إلى الشمال والعكس، وقد تشارك أبناء العدوتين في المحصّلة المعرفية التي تمت بين القطرين، في مجالات معرفية متعددة، من خلال رحلات العلماء والتي تتم بشكل يومي وربّما استقر علماء الأندلس في المغرب، أو علماء المغرب في الأندلس. وكانت الظروف الاقتصادية والسياسية أحيانا عاملا موجها ورئيسا لهذه الرحلات أو هذا الاستقرار.

وكانت دوما كتب التراجم والطبقات وما دار في فلكها معرضا لهذه الهجرات أو لهذه الرحلات، وقد أعطتنا نماذج كثيرة ومتعددة، لعلماء قد تخصصوا في مجال معرفي أو في أكثر من مجال، وكانت إسهاما تهم في تنشيط الحياة العلمية في إحدى الضفتين قد صنعت التميز والتفرّد، وكثيرا ما خلّف هؤلاء العلماء أجيالا من العلماء، وأفواجا من طلبة العلم، كانوا ثمرة

---

(1) البيان المغرب: ج1، ص 203.

هذا التواصل بين الضفتين، ولا عجب في ذلك فثقافة العدوتين تخضع لمرجعية واحدة، وتستند إلى أصول مشتركة وهذا عامل آخر مهم جدا ، في تسهيل التواصل بين القطرين.

وليس بإمكاننا ذكر هؤلاء العلماء الذين قاموا بعملية التواصل الثقافي ولا حتى أغلبهم، فكتب التراجم قد ذكرت المئات منهم، ولكننا سنذكر بعضهم فقط، فهذا أبو محمد عبد الله بن إسماعيل الإشبيلي، الذي توفى بالحضرة(المغرب) بعد أن تولى مركزا مرموقا في أغمات، حيث تولى قضاءها سنة (497 هـ) وكان كما وصف من أهل العلم التام، والحفظ بالحديث والفقه، وكان يميل في فقهه إلى النظر واتباع الحديث، وله تصنيفات في شرح المدونة ومختصر ابن أبي زيد[1]

واستهوت الرحلة أبا زيد عبد الرحمن بن أحمد القرطبي ، وكان من أهل العناية بالآداب، حيث انتقل إلى ألمرية فسكنها، قبل أن يرحل إلى المغرب الأقصى أين توفي هناك في سنة (477هـ).[2]

وكان من قبلهما أحمد بن عبد الله بن موسى الكتامي، من أهل أصيله، ويعرف بابن العجوز، من أهل الفقه والشعر، ودخل الأندلس، سمع من وهب بن مشرة الحجازي، وغيره، وبيته في العلم مشهور في المغرب[3]، وقد حالف الحظ عالم القراءات الشهير أبو القاسم خليفة بن تامصلت بن يحيى البرغواطي الذي قدم قرطبة سنة سبع وستين وأربعمائة، في أيام المأمون بن يحي بن ذي النون، بعد أن كان قد روى في هذا الفن عن أبي عبد الله محمد بن عبد الجبار الطرسوسي عن أبيه كتابه في القراءات، وأنه روى أيضا عن أبي العباس المهدوي، وقد أخذ عنه بعض الأندلسيين[4]

ويحدثنا ابن بشكوال عن أستاذ القراءات، سليمان بن أحمد الطنجي (ت قبل 440 هـ) فهو المبرز في هذا الفن، وأستاذه، وله تحقق بهذا العلم، وبعد أن طوف نحو المشرق، وشارك أبا الطيب بن غلبون المقرئ، وقرأ معه على عدة شيوخ، يمّم بوجهه شط الغرب الإسلامي، حيث

---

(1) ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية) ، ج1، ص 254، رقم(643).

(2) المصدر نفسه: ص 297، رقم(740).

(3) ابن بشكوال: الصلة، ص 76، رقم (184).

(4) المصدر نفسه: ص 163، رقم (420).

قدم الأندلس، فأقام بألمرية زمنا، حيث انتفع بعلمه خلق كثير من الأندلسيين الذين قرأوا عليه، حتى توفي هناك عن سن عالية[1]

وكانت مدينة سبتة ونظرا لمصاقبتها شبه جزيرة أيبيريا، مزارا ومستقرا لعلماء الأندلس، فمحمد بن عمر بن قطري، الزبيدي، من أهل إشبيلية، وكان تلميذا لكبار علماء الأندلس مثل أبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري الدلائي، وابن سعدون، قد قام برحلة إلى المشرق، ودرس عن أعلام الثقافة هناك في زمنه مثل أبي بكر الخطيب، ولقي عبد الحق الفقيه، وغيرهما ، وكان عالما بالنحو والأصول. وبعد عودته إلى إشبيلية، انتقل إلى سبتة فسكنها وأُخِذ عنه بها إلى أن توفي سنة (501 هـ).[2] ولنا أن نتصور حجم الروافد الثقافية والمعرفية التي حصّلها هذا الرجل ، الذي تتلمذ على الباجي والخطيب البغدادي وغيرهما، وحجم المعارف التي أدخلها إلى سبتة، وعديد التلاميذ الذين أخذوا عنه.

ومثله محمد بن علي بن محمد الطليطلي المعروف بالريوطي (ت 503 هـ) الذي خرج إلى العدوة، فسكن فاس مدة، ثم سبتة، وولي خطابة الموضعين، حيث توفي بسبتة خطيبا.[3]

وقد شارك بعض العلماء في الحركة العلمية والتواصل الثقافي بين الضفتين، حتى وإن لم يكونوا من العدوتين، وذلك إما بممارسة التدريس، أوالتتلمذ في مراكز العلم في الضفتين معا، طالبين العلم أو متجولين، ناشرين ما أوتوه أو تلقّنوه.

ومن أمثلة هؤلاء ابن سعدون، أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال القروي ، (413 هـ - 485 هـ / 1023 م - 1092 م)، الذي ولد بالقيروان، ورحل إلى المشرق، فأدى فريضة الحج ، وسمع الحديث بمكة، وبمصر ثم عاد إلى القيروان، ولم يلبث أن خرج نهائيا نحو المغرب، وطاف بأنحاء المغرب الإسلامي والأندلس، مشتغلا بالتجارة وتعليم الحديث و قد

---

(1) ابن بشكوال: الصلة، ص 182، رقم (466).

(2) المصدر نفسه: ج2، ص 183. رقم (1256).

(3) المصدر نفسه: ص 184.رقم(1257).

درس على وجه الخصوص بقرطبة وبلنسية، وألمرية، قبل أن يستقر بأغمات، حيث أدركته الوفاة[1].

أما الأقلامي محمد بن سلطان ، والذي ينسب إلى جبل يقع بين فاس وسبتة بالمغرب الأقصى، ويعرف بالأقلام، وهو أصيل تلك الجهة، وقد تأدب بالأندلس، قبل أن يحل بالقيروان، وكان حيا في أوائل القرن الخامس الهجري.[2]

والمتتبع لسير الأعلام الذين تواصلوا ثقافيا، وتشاركوا معرفيا بين الأندلس والمغرب، من ابناء العدوتين، أو من الطارئين عليهما، أو الزائرين لهما، يدرك ذلك التنوع الكبير في ثقافة هؤلاء الرجال الأعلام وتميزهم الذي يحقق الإضافة النوعية للحياة العلمية المتوهجة أصلا في البلدين في تلك الفترة.

وهم مبرزون ليس على الصعيد العلمي فقط، فقد كانوا سياسيين أيضا وأسهموا بشكل فعال في الأحداث السياسية في البلدان التي استوطنوها أو حلّوا بها، ومثل هؤلاء كثر، منهم الفقيه المالكي الكبير، والسياسي ، والمنظر أبو عمران الفاسي(431 هـ) 1038م) " أفلم نسمع أنه كان وراء انتساب الأمير المعز بن باديس لمذهب أهل السنة ،الأمر الذي كان له أثره في انفصاله عن الفاطميين الشيعة، وتأسيس دولة مستقلة"[3] أو لم نسمع عن تأثيره في يحيى الكدالي، الذي ساعد الذين كوّنوا – فيما بعد – دولة سنية عظيمة حملت في التاريخ اسم دولة المرابطين.[4] فجهود هذا الرجل في سبيل توحيد الضفتين المغاربية والأندلسية، عن طريق توطيد أركان المذهب المالكي السني في مقارعة المذاهب الأخرى، الخارجية (الإباضية الصفرية)، والمذهب الشيعي الإسماعيلي، تدل على ذلك تنقلاته المختلفة بين قرطبة، وكل أقطار المغرب بلا استثناء.

---

(1) ابن بشكوال: الصلة (دار الكتب العلمية) ج2، ص 214، 215. رقم (1332)/ مخلوف: شجرة النور الزكية ج1، ص 174، رقم (364)/ الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، نقله إلى العربية، محمد العربي عبد الرزاق، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس ط1، 1999. ج1/ص 342، 343.

(2) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 62، 63.

(3) عبد الهادي التازي: الدور السياسي لرسالة ابن أبي زيد في توحيد الغرب الإسلامي، ج2، ص 328، وإن كنا نميل إلى رأي ابن عذارى الذي ذكرناه سابقا في تأثير الفقيه ابن أبي الرحال على المعز وتحويله إلى المذهب المالكي.

(4) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

وحسبنا أن يكون أسْرُ بعض ملوك طوائف الأندلس من قبيل التواصل العلمي والثقافي بين الأندلس والمغرب، فقد ذكرنا في الفصل الأول، أسر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية من طرف المرابطين ونفيه إلى أغمات. والأشعار التي قالها في منفاه، والتي تدخل في باب أشعار السجن، وزيارة الشاعر ابن اللبّانة له في أسره، وإنشاده الشعر تحسرا على حاله وكان الأمير الغرناطي عبد الله بن بلقين قد نُفي كذلك إلى المغرب من طرف قوات المرابطين، وهو صاحب المذكرات الشهيرة الموسومة بـ " التبيان" والتي تعد من أولى المذكرات في الأدب العربي.

III -2-3- المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والجزائر (المغرب الأوسط)

كانت العلاقات الثقافية بين الأندلس والجزائر خصيبة ومثمرة، وكان التواصل المعرفي بينهما على أشده، من خلال أعلام القطرين، الذين تبادلوا الأدوار طلبة وشيوخا، عالمين ومتعلمين، في المراكز الحضارية لإحدى الضفتين.

وتحفل كتب التاريخ والتراجم بذكر غير يسير لطائفة من علماء القطرين الذين أضاءوا سماء العلم والمعرفة، وكانت أياديهم بيضاء على الثقافة الإسلامية أنذاك، وكان لخصوبة الثقافة بين الجزائر والأندلس أكثر من سبب، لعل أولاها، هو أن الحواضر الجزائرية أو حواضر المغرب الأوسط كما كان يسمّى قديما، قديمة ومتعدّدة، فلا يكاد يمرّ قرن من القرون، -وخاصة القرون الهجرية الأربعة الأولى -إلاّ وظهرت مدن جديدة لعبت دورا هاما في عملية التواصل الثقافي والإشعاع الحضاري في حوض البحر المتوسط.

وكانت هذه المدن مراكز إشعاع ثقافي ومعرفي كبيرين، ومن نافله القول أن نذكر في هذا المقام أن أول دولة مستقلة ظهرت في المغرب الإسلامي هي الدولة الرستمية التي قامت في تيهرت وأحوازها، حيث أسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، وكان مولى عثمان بن عفان – رضي الله عنه - وكان خليفة لأبي الخطاب أيام تغلبه على إفريقية، ولما دخل ابن الأشعث القيروان، فرّ عبد الرحمن بما خفّ من أهله وماله، فاجتمعت إليه الإباضية، وعزموا على بناء مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تيهرت... فبنوا مسجدا من أربع بلاطات، وأختطّ الناس مساكنهم،

وذلك في سنة(161 هـ)... وبقي كذلك إلى أن مات عبد الرحمن سنة (168).[1] ، ثم واصل ابناء عبد الرحمن بن رستم هذه المسيرة الثقافية والحضارية المظفرة، وأحفاده من بعدهم، إلى أن سقط حكم هذه الأسرة سنة (296 هـ) بمقتل يقظان بن أبي اليقظان، الذي قتله أبو عبد الله الشيعي مع جماعة من أهل بيته في التاريخ المذكور.[2]

وكانت تيهرت بوصفها مركز إشعاع ثقافي وحضاري كبير، قد عرفت عند المشارقة والمغاربة والأندلسيين وذاع صيتها عند المؤرخين والجغرافيين[3] مدحها الشعراء قديما وتأسفوا وتحسروا على فراقها وخرابها[4].

وستنجب هذه المدينة أجيالا من العلماء، ممن كان لهم صيت ذائع وطبقت شهرتهم الآفاق وكانت لهم اليد الطولى على المعرفة الإسلامية في العصر الوسيط، واشتهروا وذكروا في كتب التراجم والطبقات الأندلسية، وفي سائر الحوليات التاريخية.

وكان لظهور تيهرت على مسرح التاريخ السياسي والثقافي والحضاري للجزائر، وللأمة الإسلامية جمعاء دور في ظهور حواضر أخرى فيما بعد، مثل: أشير ، القلعة، المسيلة، بجاية، تلمسان، تنس، جزائر بني مزغنا (العاصمة الجزائرية اليوم). وعديد الحواضر التي ألهبت جذوة الثقافة الإسلامية في تلك العصور، حتى ليمكن القول، إن منطقة المغرب الأوسط قد اقترن ذكرها في العصر الإسلامي الوسيط ، بذكر هذه الحواضر العلمية والفكرية المرموقة، وهذه أولى الأسباب وأقوالها لتوهج التواصل الثقافي فيما بعد بين الأندلس والجزائر .

وثاني هذه الأسباب، العمق الجغرافي منضافا إلى العمق التارخي والحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر)، فقد كان المغرب الأوسط شاسع المساحة مترامي الأطراف، حدّدوه قديما فقالوا:" إن تلمسان هي قفل المغرب الأوسط "[5] أما الجهة الشرقية فهي تمتد إلى تخوم إفريقية (تونس)، فلا

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب.ج1، ص 196.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب.ج1، ص 197.

(3) على سبيل المثال: البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 248 وما بعدها/ الحميري: الروض المعطار.ص 126/ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 255، 256/ المقدسي أيسر التقاسيم، ص 214.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 198، 199.

(5): الإدريسي: نزهة المشتاق.ج

يمكن لأي كان أن يعبر من الأندلس أو المغرب إلى المشرق إلاّ العبور عبر أراضيه، ولا من أراد أن يفد على الأندلس من المشرق كذلك.

ويمكن أن نتخيل هذه المسافة الهائلة، وكيف كانت تقطع بوسائل تلك الفترة، لافترضنا أن المسافر لابد له من شهر كامل في أقل تقدير لعبور كل تلك المسافة. ولنتخيل آلاف المسافرين، وهم يقطعون هذه المسافة الطويلة، وهم يقيمون في تلك المدن والمراكز الحضارية أو يعبرونها للاستراحة، و كان في عبورهم لكل تلك المدن والحواضر التي حازها المغرب الأوسط في تلك الفترة، وهم يأخذون ويعطون من البضائع الثقافية ويتبادلون الكنوز المعرفية التي تساعدهم على شحن أذهانهم، والاستزادة في معارفهم.

والحديث عن الطرق البرية ليس بأكثر أهمية من الحديث عن الطرق البحرية، فالساحل الجزائري كان المعبر البحري الوحيد لمن أراد أن يعبر المضيق من الأندلسيين باتجاه المشرق أو العكس، وليس الوحيد فقط، بل والآمن أيضا، خصوصا بعد الحوادث السياسية الكبيرة التي عرفها المغرب الأوسط، وكذلك المغرب الأدنى(تونس)، وما انجر عنه من قيام دويلات في الجزائر وتهاوي أخرى، وما تبعه من فوضى سياسية وأمنية واضطرابات اجتماعية كبيرة، مع دول الشيعة العبيديين، ومع زحفة بني هلال الشهيرة على تونس في منتصف القرن الخامس الهجري، حيث لم يعد الطريق البري آمنا للحجاج والتجار وطلبة العلم القاصدين الأندلس أو المشرق من الطرفين، أو بقاع أخرى.

ولنا أن نتصور أيضا طول الشريط الساحلي للمغرب الأوسط ، وكيف أن عبوره بسفن تلك الفترة يتطلب أياما معدودات، تتيح للمسافرين والمرتحلين التوقف بالمدن والحواضر الساحلية ، مثل: تلمسان، وهران، تنس، جزائر بني مزغنا، بجاية ، بونة(عنابة حاليا)، للاستراحة والتزود بالمؤن وكل ما يحتاجه المسافرون، ويتيح هذا الاحتكاك نشوء تواصلا ثقافيا بين الجزائر والأندلس، مازالت آثاره قائمة في هذه المدن، وفي غيرها من مدن المغرب الأوسط، إلى حد اليوم.

" و المصادر الأندلسية قد ترجمت لفقهاء المدن الساحلية المقابلة لمدن الأندلس أو المدن التي أسسها أندلسيون وسكنتها جالية أندلسية تجارية مثل مدينتي وهران وتنس"[1] وكانت مدينة بونة (عنابة حاليا)" بموقعها الاستراتيجي وأهميتها الاقتصادية أن قصدها علماء الأندلس، واستقر البعض منهم بها، وهو ما يبرر الجهود الأندلسية في نشر المذهب السني المالكي في المغرب الأوسط "[2]

وحينما أفرد الحميري لجزائر بني مزغنا مادة في روضه قال:" ولها أسواق ومسجد جامع، ... ومرساها مأمون به عين عذبة يقصدها أصحاب الفن من إفريقية والأندلس و غيرها."[3] وحتى عندما تدهور الوضع في الأندلس مع نشوب الفتنة القرطبية أو البربرية، وظهور دويلات الطوائف فيما بعد كانت الجزائر وكثير من حواضرها ومدنها ملجأ لعديد الأندلسيين الفارين من جحيم هذه الفتنة، والفارين بدينهم من الفتن.

وممكن أن نضيف سببا آخر من أسباب سهولة الاتصال الثقافي بين الأندلس والجزائر، وهو عدم حصول مشاحنات سياسية بين حكام القطرين في أغلب فترات التاريخ السياسي بينهما - مع عدم إنكار حصول بعضها - وخاصة في القرنيين الرابع والخامس الهجريين.
فحينما أتى لسان الدين بن الخطيب على ذكر عبد الرحمن الناصر :" وقدمت عليه رسل الملوك بالعودة الغربية من زناتة والأدارسة والقيروان وجزائر بني مزغنا"[4].

وظلّت هذه المهادنات على طول التاريخ السياسي بين الضفتين، مما شجع على حصول تبادل ثقافي ومعرفي كبير.

وكان لهذا الود السياسي، دور كبير في تشجيع الإقامة في إحدى الضفتين، وذلك منذ فجر العلاقات بينهما.

---

(1) بوبة مجاني: القيروان وفقهاء الدولة الحمادية، ص 133.

(2) بوبة مجاني: القيروان وفقهاء الدولة الحمادية ،ص 133، 134، وينظر البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 234/ الحميري: الروض المعطار، ص 115/ وانظر مادة(بونة) عند الإدريسي في نزهة المشتاق، ج1، ص 291.

(3) الحميري: الروض المعطار، ص 163.

(4) أعمال الأعلام: ص 37.

تذكر كتب الطبقات أبا صفوان هذيل بن نافع (ت 285 هـ) من إلبيرة، كان زاهدا عابدا وتوفي ببجاية[1] ويحدثنا الخشني أثناء ذكره للقاضي مهدي بن مسلم، عن خبر رواه أحمد بن فرج بن منتيل(ت 344 هـ) عن أحد علماء مدينة تنس الجزائرية الساحلية، واسمه أبو العباس أحمد بن عيسى بن محمد المقرئ.[2] وكان عالما مقرئا مجوّدا، حافظا ذائع الصيت، حتى إن ابن منتيل قد تعجب من حفظه وسعة روايته، وغزارة علمه، فقال له بعد ما سمعه: لقد عظمت همتك إذ حفظت هذا وشبهه من الأخبار القديمة.[3] وكانت مدينة تنس الساحلية تفرخ العلماء إفراخا، ولهم باع طويل في ربوع الدنيا.

و كان ابن ميمون الطليطلي (ت 400هـ) أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي، صاحب أبي إسحاق بن شنظير و نظيره في الجمع والإكثار والملازمة معا والسماع جميعا، من أهل العلم والفهم، راوية للحديث، حافظا لرأي مالك و أصحابه، قد سافر إلى عدة أصقاع للسماع، و منها المسيلة، حيث أخذ من أبي عبد الله محمد بن أبي زيد و أبي جعفر الداودي و بتنس من أبي القاسم سوار بن كيسان.[4]

و من أشهر علماء الجزائر في هذه الفترة ابن الأشبح أبو يحي زكرياء بن بكر بن أحمد الغساني، (310هـ/393هـ) من أهل تيهرت و بها وُلد، دخل الأندلس مع أبيه سنة (326هـ) فسمع بقرطبة من محمد بن عبد الملك بن أيمن المدونة، ومن قاسم بن أصبغ البياني، ورحل إلى المشرق وسمع بمصر، ولقي المتنبي الشاعر، وأخذ عنه ديوان شعره رواية، وسمع بتنس من أبي الخصيب، وانحرف إلى الأندلس فلم يزل مقيما بقرطبة إلى أن توفي بها، وحدث بكتاب البخاري وغير ذلك من روايته، وسمعنا عنه كثيرا وكتب عنه غير واحد، كما يقول ابن الفرضي[5] و على ذكر تيهرت، فقد كانت منارا للعلم و كعبة القصّاد في الأدب والشعر و سائر العلوم والفنون،

---

(1) ابن الزبير الغرناطي: صلة الصلة، ص 309، رقم(895).

(2) قضاة قرطبة : ص 95.

(3) قضاة قرطبة : ص 100.

(4) ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية)، ج1،ص33 و ما بعدها. رقم (37)./ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص158،159./ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، ج2، ص322،323. (806).

(5) تاريخ علماء الأندلس، ص 130، رقم (455). و وردت له ترجمة قصيرة جدا عند الضبي في البغية، ص 253، رقم (744). و يبدو تاريخ ووفاته مغلوطا إذ جعله عام (524هـ).

و كانت محط أنظار، و محج الوافدين عليها من مختلف الأصقاع الإسلامية و خاصة الأندلس. فقد كان أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الأندلسي المالكي قبل رحلته إلى المشرق، و تتلمذه على يد الأعلام هناك، و سمع بالجزائر من بكر بن حماد التاهرتي، و كان محمد بن صالح القحطاني هذا عالما فقيها، حافظا، و كان من أفاضل الناس و ثقاتهم، و قد جمع تاريخا لأهل الأندلس.[1] يشار في هذا المقام إلى رحلة ابن هانئ الأندلسي الإشبيلي (ت 362 هـ/972 م)، الذي ولد و ترعرع في إشبيلية، و خرج منها و هو صاحب اثنين و عشرين سنة، و دخل المسيلة مادحا جعفر القائد المعروف بابن الأندلسية، أو ابن الأندلسي بأبيات شهيرة منها:

- **المدنفات من البرية كلها جسمي و طرف بابلي أحور**
- **والمشرقات النيرات ثلاثة الشمس والبدر المنير و جعفر**[2]

قبل أن يعرّج على المعز أبا تميم معد بن إسماعيل صاحب المغرب قبل وصوله إلى مصر[3] و كان لدخول ابن هانئ الأندلسي إلى الجزائر والمنطقة المغاربية عموما تأثير كبير على شعراء إفريقية والمغرب عامة، فقد سن لهم طريقة جديدة، و أسلوبا مغايرا من الشعر. "و سيكون لذيوع صيته دور العامل الحافز بالنسبة إلى الإنتاج الشعري، كما سيساعد كتاب المغرب الإسلامي على التخلص من مركب النقص حيال المشرق، فقد أصبح بإمكان المغرب أن ينجب شاعرا بمنزلة المتنبي."[4]

و من يعرج على ذكر تيهرت في هذه الفترة، لابد أن يتحدث عن عالمين جزائريين جليلين، كان لهما دور كبير و سمة بارزة في عملية التواصل الثقافي بين الجزائر والأندلس، وهما: قاسم بن عبد الرحمان بن محمد التميمي التاهرتي البزاز، و ابنه أبو الفضل أحمد بن قاسم.

أما قاسم بن عبد الرحمن(الأب)، من أهل تاهرت، نشأ بها، وطلب العلم عند بكر بن حماد التاهرتي، و كان من جلسائه، و ممن أخذوا عنه، و كان الأغلب عليه مع الفقه النحو والشعر،

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج2، ص 142. 152، 153. و قال في سنة وفاته، إنها سنة (383هـ) أو (378هـ) أو (379 هـ). و له ذكر عند ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص365، 366، رقم (1355) و ذكر وفاته (378 هـ).

(2) الحميدي: الجذوة، ص85، 86. رقم (157)./ الضبي: البغية، ص 121، 122،(301)./ابن دحية: المطرب، ص166 و ما بعدها./ ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج1، ص 295، 296. (1021)/ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص41 و ما بعدها.

(3) الحميدي: الجذوة، ص 85.

(4) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص52.

و كان بكر بن حماد[1] أستاذه يكتب في كل يوم أربعة أحاديث و يقول:" لا تأتيني إلا وقد حفظتها، حكى ذلك ابنه الفضل، دخل الأندلس سنة (318 هـ) و جاء بابنه أبي الفضل و هو ابن تسع سنين.[2] و كان ابنه الفضل أحمد بن قاسم هذا قد ولد بتاهرت، وأتى مع أبيه صغيرا إلى الأندلس، و قد تتلمذ لأعلام الأندلس مثل: قاسم بن أصبغ البياني ووهب بن مسرة و محمد بن معاوية القرشي و أبي بكر الدينوري، و اختص بالمنذر بن سعيد البلوطي قاضي القضاة الشهير في عصر الخلافة.

كان أبو الفضل أحمد بن قاسم أستاذا لجيل كبير من العلماء ممن كان لهم دور كبير في الحركة العلمية والسياسية في المغرب والأندلس كأبي عمران الفاسي فقيه القيروان الشهير، والسياسي النحرير، و أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري، فقيه الأندلس في عصر الطوائف، الذي أخذ عن فقيه الجزائر كتاب "صريح السنة" لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، والتي بعثها إلى أهل طبرستان.[3]

و كان علماء الجزائر أساتذة لأعلام الأندلس الكبار خلال مراحل مهمة من عمر الأندلس الإسلامي و خاصة في عصري الخلافة والطوائف. فبالإضافة إلى ابن عبد البر الذي أخذ العلم عن أبي الفضل أحمد بن قاسم التيهرتي، فقد روى أبو محمد عبد الله بن محمد بن هذيل الفهري، عن أبي حفص عمر بن مالك المعروف بالتاهرتي، فقد سمع منه في سنة (446هـ)[4].

---

1 قال فيه البكري:" كان ثقة مأمونا حافظا للحديث، سمع بالمشرق من ابن مسدد و عمر بن مرزوق، و بشر بن حجر، و بإفريقية من سحنون و غيرهم، و سكن بتيهرت و بها توفي. "المسالك و الممالك، ج2/248.

وقد ذكر ابن عبد البر في التمهيد في مسألة معينة ... وفي حديث شريف حدّث قاسم بن أصبغ البياني عن شيخه بكر بن حماد./ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: أسامة بن إبراهيم، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ، ط 4، 2010، ج6، ص387./ المالكي: رياض النفوس، ج2، ص 21 و ما بعدها.

2 الحميدي: الجذوة، ص299، رقم (775)./الضبي: البغية، ص393 ،394، رقم (1306)./ ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج4، ص80، رقم (235).

(3) الحميدي: الجذوة، ص124، 125، 316 رقم (241)./ الضبي: البغية، ص 171، 172، رقم (459)./ ابن بشكوال: الصلة (العصرية)، ج1، ص83، 84، رقم (182)، و ذكر تاريخ وفاته و ميلاده (309هـ/ 395هـ).

(4) ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج2، ص 242، رقم (683).

و محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن غلبون الخولاني (448هـ) أبو عبد الله، حيث كانت له عناية كثيرة بتقييد الحديث، وجمعه و روايته و نقله، قد أخذ عن كثير من علماء الجزائر مثل: أحمد بن قاسم التاهرتي و أبي القاسم الوهراني و غيرهما.[1]

و مازالت تاهرت خزّان العلم والعلماء فعبد الله بن حمود بن هلوب بن داود بن هلوب بن داود بن سليمان (أبو محمد) الفقيه الطنجي، موضعه و أهله من تاهرت، أخذ بقرطبة قديما عن أبي محمد الأصيلي، و ابن الهندي و طبقتهما، و له شعر في مناسك الحج.[2]

والظاهر مما سبق أن حاضرة تيهرت قد مارست دورها الحضاري والعلمي والفكري بامتياز، ليس في المنطقة المغاربية فحسب، بل حتى فيما وراء البحار، هذا الدور شاركتها فيه مدينة أخرى وهي مدينة المسيلة التي أنجبت نخبة متميزة من العلماء والفقهاء والمحدثين، وكان دورها الريادي في المغرب الأوسط يشمل إضافة إلى الريادة السيادة، الريادة العلمية والفكرية. من خلال نوابغ صُدِّروا إلى مختلف الحواضر، مثل الأندلس والقيروان و غيرها.

وكان موقعها فاعلا أساسيا في ريادتها الإقليمية فقد" كانت المسيلة مدينة محصنة وسط منطقة زراعية خصبة، تحكمها منذ تأسيسها أسرة بني حمدون القادمين من الأندلس، وتقطنها مجموعة من السكان تتميز بالتطور ونعومة العيش، نظرا إلى أن جُلّ أهلها متحولون إليها... وكانت بها نخبة من الشعراء والأدباء القائمين بحركة أدبية مزدهرة"[3] وعندما أسس حماد مدينة القلعة التي تحمل اسمه، عمّرها جزئيا بأهالي المسيلة.

وقد كان دمّرها، ومن المرجح أن هذا الحدث قد عجّل بهجرة النخبة الفكرية الأرستقراطية من سكان المسيلة إلى القيروان.[4] وسيكون لهذه النخبة الجزائرية الأصيلة سليلة بيوتات العلم في المسيلة باع طويل في القيروان، والأندلس كذلك.

---

(1) ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ج2، ص 154، 155، رقم (1183).

(2) ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ج1، ص 262، رقم (667).

(3) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج2، ص 461.

(4) المصدر نفسه: ص 460.

ولنا أن نتذكر في هذا المقام الحسين بن سلمون المسيلي(ت 431 هـ) القرطبي المفتي، فقد كان أحد الفقهاء المشاورين في عهد سليمان بن حكم، حيث ولاّه الشورى بقرطبة، حتى إذا جاء علي بن حمود، أمر بتأخيرهم، ثم أعاده إلى الشورى.

دخل الأندلس فقطن قرطبة بعهد الجماعة فلم يرمها، وشهر بها علمه وفضله، فكان أحد جلة مفتيها إلى أن مات، وكان حافظا للمسائل، وقد نوظر عليه فيها، واقفا على الأصول، وكان عفيفا متواضعا كما وصف[1]

وكان الحسين بن سلمون المسيلي في سعة علمه وفهمه وحسن حديثه أن أثار إعجاب علامة الأندلس في عصر الطوائف، ابن حزم الأندلسي، بحديث تحدّث به استحسنه ابن حزم[2] ومن هذه النخبة المتميزة أبو الطيب أحمد بن الحسين بن محمد المهدوي المسيلي، حيث يقول عنه المرحون الشاذلي بويحي:" ويبدو أن أصله من المهدية، ثم إنه أوطن المسيلة هو وأسرته[3] ولا دليل يستند عليه الباحث سوى نسبته المهدوي" الذي ذكره ابن دحية الكلبي ولم يزد على هذا النسب شيئا، سوى قوله: "وله مقطّعات غزل أحسن من قطع الرياض، وأغزل من العيون المراض"[4].

وصلة هذا الشاعر الجزائري بالأندلس ، هو ذلك السيد الذي روي به في سرقسطة في الثغر الأعلى، حيث انفرد بروايته عالم سرقسطة وحسيبها، الفقيه، النحوي، الأصولي ، المتكلم، أبو جعفر محمد بن حكم بن باق السرقسطي المتوفى عام(538 هـ/ 1143م – 1144).[5] حيث يتيح لنا تحد العصر الذي عاش فيه بمنتصف القرن الخامس الهجري.[6]

وهذا أبو حبيب عبد الرحمن بن أحمد بن حبيب قد ولد بالمحمدية (المسيلة). ودخل الأندلس صغيرا مع أبيه، ولم يزل يخالط أهل الأقدار، حتى برز في الأدب وصناعة الشعر وعلم الشرع،

---

(1) ابن بشكوال: الصلة (العلمية) ج1، ص 132.رقم (355)/ ابن الأبار: التكملة، (الهراس) ج1، ص 219، 220 رقم (728)./ قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص 1425، رقم (1442).

(2) ابن حزم : رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ضمن مجموع الرسائل: م2/ج1، ص 155.

(3) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 318.

(4) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 49.

(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(6) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية في عهد بني زيري، ج1، ص 318.

فصار صدرا في كل واحد منها يصلح للفتيا، ولم يكن متكسبا بالشعر، ولا طالبا ثوابا عليه، إلا ما وصله به محمد بن عبد الجبار المهدي القائم بقرطبة على هشام المؤيد[1]

وذكر لنا ابن بشكوال في صلته أحد العلماء الأندلسيين واسمه عبد الله بن حمّو(أبو محمد) أصله من المسيلة كانت له معرفة بالأصول والفروع واستوطن ألمرية وقرئ عليه بها ، وكانت وفاته عام(473 هـ)[2]

ونستطيع أن نطمئن إلى حصول التواصل الثقافي بين الأندلس والجزائر، حتى من دون الحضور الجسدي، فهذا ابن رشيق المسيلي القيرواني (390 هـ / 456 هـ) أبو علي حسن أحد أعلام الأدب العربي ونقاده، وصاحب التواليف الكثيرة، مثل: "العمدة " و" أنموذج الزمان في أشعار القيروان" و" قراصنة الذهب في نقد أشعار العرب" وغيرها من المصنفات. قد هاجر من المسيلة إلى القيروان ثم صقلية، حيث كان في ضيافة الأمير الكلبي ابن متكود، الذي أجزل له العطايا، ونال عنده الحظوة الواسعة، قد استقدمه المعتضد بن عباد ملك إشبيلية هو ورفيقه ابن شرف القيرواني الشاعر الشهير، ولكنه لم يلحق بالأندلس لأسباب خاصة.

وذكر ابن بسام أن ابن رشيق كثيرا ما يسمع بذكر عبّاد (المعتضد) فيرتاح إلى جنابه ارتياح الكبير إلى شبابه، وكان المعتضد قد بعث بعض التجار إلى صقلية لبعض شأنه ، فلما سمع ابن رشيق بمقدم ذلك التاجر يعده ويمنيه، ثم سافر التاجر دون أن يعرّج على ابن رشيق، وأخبر التاجر عبادا بذلك، فبالغ عباد في نكاله، وأمر باستصفاء أكثر ماله، ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوب البحر فخشن له مسّه، ولم تساعده على ركوبه نفسه، وذكر له أبياتا في ذلك.[3]

وذكر له ابن دحية كذلك أبياتا في ذم ركوب البحر بعد أن خاطبه بعض الملوك بالإتيان إليه. ولم يسمه، ويبدو أنه المعتضد.[4]

---

(1) ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج3، ص 50. رقم (123)/ الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 98، 99، وترجمة والده في التكملة، ج1، ص 112.رقم (319).

(2) الصلة (العلمية)، ج1، ص 261، رقم(664).

(3) الذخيرة: ق4/2/610، 611. وله عنده ذكر طويل. المصدر نفسه، ص 597 وما بعدها.

(4) المطرب: ص 68، وله ترجمة مطولة عنده، في المصدر نفسه، ص 62، وما بعدها./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 297، 298/ السيوطي: بغية الوعاة، ص 408، 409 رقم (1043) وقد أخطأ السيوطي في مكان وفاته إذ جعله القيروان، بينما توفي ابن رشيق في مازار بصقلية، وله ترجمة مطولة عند الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية في عهد بني زيري، ج1، من ص 191إلى ص 211.

والحضور الفني والشعري لابن رشيق في الأندلس يشكّل صورة ثقافية تواصلية كبرى، وكان هذا التواصل الثقافي بين الأندلس وابن رشيق المسيلي قبلا من خلال استفادة صاحب العمدة من ابن عبد ربه الأندلسي صاحب : "العقد الفريد" فقد لاحظ أحد الباحثين وجود تسابه مهم بين الكتابين منهجا ومادة فيما يزيد على واحد وثمانين وثلاث مائة موضع قد أحصاها الباحث.[1]

فهناك تشابه كبير بين المنهجيين والمادتين عند المؤلفين، ورغم أن ابن رشيق قد توفي بمازر بصقلية عام (456 هـ)، أي بعد وفاة ابن عبد ربه بنحو تسع وعشرين ومائة سنة، إلا أن ابن رشيق قد استفاد من أبي عمر بطريقة مباشرة عن مشايخه المتأثرين بعقده وكتبهم أو مباشرة رأسا عن كتاب العقد.[2]

والظاهر أن شاعرية ابن رشيق قد سبقته إلى الأندلس، ولهذا فقد دُعي هناك من قبل بعض ملوكها، فقد ذكر أن ابن جحافة الشاعر الأندلسي تذاكر مع أديب أندلسي آخر شيئا من شعر ابن رشيق، ولم يكد يمضي على وفاته سوى ربع قرن، وقد صنع الفيلسوف الأندلسي ابن باجة لحنا على أبيات لابن رشيق، وهذّب تلحين ذلك الصوت، فيما بعد ، ابن حاسب، وهو مغن أندلسي آخر.[3]

وغير بعيد عن المسيلة وأحوازها تطالعنا مدينة طبنة (بريكة حاليا) بعلمائها النحارير والذين كانت لهم صولات علمية، وجولات معرفية في ربوع الأندلس، فالضبي يحدثنا عن محمد بن الحسين بن محمد (ت 394 هـ) التميمي الحصاني الطُبني، الزابي، وطبنة بلد من أرض الزاب في عدوة الأندلس، كما يقول صاحب البغية، وهو شاعر مكثر أديب مفتن كان في أيام الحكم المستنصر، قدم الأندلس سنة(331 هـ) ، وكان حافظا للأخبار عالما بالأنساب[4].

ولكل من تعرض لطبنة وعلمائها قديما، لا بد وأن يأتي إلى ذكر علاّمة كبيرا كان له ذكر في أغلب المصادر والمراجع الأندلسية لعلو كعبه في مختلف العلوم والفنون، وخاصة العلوم

---

(1) محمد قرقزان: تأثر ابن رشيق في كتاب "العمدة" بابن عبد ربه في كتاب " العقد" المنهج البلاغي وأبواب تعين على فهم الشعر./ ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، ص 478.

(2) محمد قرقزان: تأثر ابن رشيق في كتاب " العمدة " بابن ربه في كتاب " العقد" ، ص 478.

(3) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، هامش الصفحة 196.

(4) بغية الملتمس، ص 58، 59، رقم (84).

الشرعية، وهو أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني.(457 هـ) العالم المبرز في قرطبة، وصاحب الرحلات الشهيرة إلى المشرق، وزيارة حواضره المتعددة مثل مكة ومصر، وحتى حاضرة القيروان في إفريقية (تونس)[1]

كانت الحواضر الجزائرية كلها قد تشاركت ثقافيا، وتواصلت معرفيا مع الأندلس فبالإضافة إلى تنس وتيهرت، والمحمدية (المسيلة)، هناك حاضرة بجاية منارة العلم وقبلة المعرفة في التاريخ الإسلامي الوسيط. فقد شهدت شوارعها وأزقتها، مدارس، ومساجد جوامع ضمت علماء كبار وقد تخصصوا في كل علم وفن، فلا تجد طلبة العلم إلا حالّين ومرتحلين عنها، يشهدون حلقات شيوخها وعلمائها وأهل الفضل فيها، ولا عجب أن يعرج عليها أحد كبار علماء الأندلس، في عصري الطوائف والمرابطين قبل رحلته إلى المشرق، وهو أبو بكر بن العربي الإشبيلي المعافري، الذي أخذ ببجاية عن أبي عبد الله الكلاعي.[2] وكان أحمد بن خصيب بن أحمد الأنصاري القرطبي(ت450 هـ)، قد نشأ بقرطبة، وسكن القيروان وكان له علم بعبارة الرؤيا، ثم استوطن دانية ، وتوفي بقلعة بني حماد(بجاية).[3]

ومن أشهر الذين زاروا بجاية في هذه الفترة أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر محمد بن حمديس الصقلي(447هـ/ 1055 – 527 هـ/ 1133م)، رغم أنه صقليا ولكنه عاش وهو دهوا طويلا في الأندلس، وحمل معه التأثيرات الصقلية إلى شبه الجزيرة الأيبيرية.

ولكن تأثيرات صقلية الفنية عليه، قد ذابت في حجم التأثيرات الأندلسية، حتى إن شعره أصبح محسوبا على الأندلس، التي صقلت موهبته الشعرية، وبعد نفي المعتمد بن عباد من طرف المرابطين، دخل ابن حمديس إفريقية وأصبح شاعر أمراء بني زيري تميم. يحيى وعلي وحسن... واتصل بصاحب بجاية من بني حماد متغنيا بمفاخرهم في مدائحه وتوفي ابن حمديس كفيفا ببجاية، وبعض المصادر تقول بميورقة[4] .

---

(1) الحميري: الروض المعطار، ص 387/ ابن بسام: الدخيرة، ق1 /2/52 ./ المقري: النفخ، ج7 ص 48، 49، وقد أشارنا سابقا إلى مصادر ترجمته.

(2) المقري: نفح الطيب، ج2، ص 28.

(3) ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ج1، ص53، رقم (122).

(4) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، ج1، ص 336، وله عنده ترجمة مفصلة من ص 335 إلى ص 339، وقد ذكرنا أخباره ومصادر ترجمته في حديثنا عن العلاقات الثقافية بين الأندلس وصقلية.

وقد كان للجزائر حظ في آل بيت النبي– صلى الله عليه وسلم– من خلال أحد أحفاد علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو أبو البسّام موسى بن عبد الله بن الحسين، حيث كان أصله من الكوفة وصار إلى صقلية، ودخل الأندلس مجاهدا، وكان ذا علم وأدب بارع ومعرفة بالكلام على طريقة الأشعرية، وكان شاعرا وله شعر بديع، وقد أخذ عنه في الأندلس وفي ميورقة بالضبط، ونزل إلى الجزائر زمنا يسيرا، حيث قتل ذبحا في بجاية عام (486 هـ).[1]

ومن الجزائريين الذين زاروا الأندلس في بداية عصر الطوائف، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الوهراني، فقد قدم الأندلس تاجرا سنة(429هـ)، وسكن إشبيلية، وكان من الثقات كما وصف، وله رواية واسعة عن شيوخ إفريقية، أبي محمد بن أبي زيد ونظرائه، ولم يكن عبد الله بن يوسف فقيها فحسب، بل كان له علم بالحساب والطب وكان نافذا فيهما[2]

وعلى ذكر الحواضر الجزائرية التي كانت ميادين للتباري والعطاء المعرفي والفكري، مع مختلف الحواضر الأندلسية، وجب التذكير بمدينة بونة (عنابة) والتي كانت حلقة وصل مهمة جدا، من الناحيتين الاقتصادية والمعرفية، وقد أوضحنا سلفا بأن الشريط الساحلي الجزائري، كان مرتعا خصبا لعديد الأندلسيين الذين استوطنوه، إما لغرض التجارة أو تعاطي المعرفة، أخذا أو تلقينا، وحاضرة بونة واحدة من المدن الجزائرية المهمة بالنسبة للأندلسيين، والأمثلة على ذلك كثيرة.

فابن الفرضي يحدثنا عن أبي سهل علاء بن محمد، وهو أندلسي من أهل تدمير، سكن مدينة بونة فأوطنها، وكان رجلا صالحا فاضلا فقيها، سمع من عدة علماء بمصر وإفريقية في تونس والقيروان وغيرها من الحواضر، وكان كثير الكتب حسن التقييد، حيث توفي بمدينة بونة في ذي الحجة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة.[3]

وتزدحم كتب تراجم الرجال بعلماء نعتوا بالبوني، لم نتحقق من نسبتهم، ولكن الظاهر أنهم ولدوا في بونة (عنابة) أو أن أصولهم ترجع إليها، فبقيت نسبة " البوني" لصيقة بأنسابهم وكناهم

---

(1) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، س8/ 2/ 592، رقم (30).

(2) ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ج1، ص 261، رقم (622).

(3) تاريخ علماء الأندلس، ص 262، رقم(973).

من هؤلاء أحمد بن الحنفي أبو العباس(ت 280 هـ/ 893م) محدث فقيه، تولى القضاء، له مسند وعند اليافعي في " مرآة الجنان " أحمد بن محمد بن عيسى البوني.[1]

وكذلك الوليد الأصبهاني (ت 310 هـ/ 922م) الوليد بن أبان بن بونة الأصبهاني البوني، أبو العباس، مفسر حافظ، محدث، ارتحل رحلات كثيرة، وسمع الكثير وحدث عن أحمد بن الفرات الرازي وطبقته، وعنه أبو الشيخ الطبراني، وغيرهما من أهل أصبهان من آثاره : تفسيره القرآن، والمسند المعلل في الحديث.[2]

ومن هنا يتضح دور بونة قديما في تخريج وإنجاب، علماء وفقهاء ومحدثين، وأدباء وشعراء، كانت لهم أصداء كبيرة في المعرفة الإسلامية في العصر الوسيط، فلطالما كانت هذه الحاضرة الساحلية الجزائرية، منار إشعاع معرفي كبير، وموئلا وموطنا ومستقرا لعلماء، أعوزتهم الحاجة في بلدنهم فلجأوا إليها، أو ضاقت بهم السبل في أوطانهم، فكانت بونة وطنا لهم، أو أعجبتهم هذه المدينة فكانت راحة ومستطابا لهم، من هؤلاء، أندلسي قرطبي في عصر الطوائف، استهوته حاضرة عنابة، و طاب مقامه بها، وكان قطبا فقهيا كبيرا، في المذهب المالكي، من خلال الشروحات الكبيرة التي خلفها على موطأ الإمام مالك، ولا تجد أندلسيا أو مغاربيا، ولا حتى مشرفيا، إلاّ وقد تتلمذ عليه، أو نهل من علمه، وتشرف بالجلوس إلى جواره، واستفاد من حلقاته، فلا يذكر هذا العالم إلا مقرنا بالمدينة التي آوته، ولا تذكر مدينة بونة في القرن الخامس الهجري في الجانب الثقافي والمعرفي، إلا احتل قائمتها وصدراتها، أبو عبد الملك مروان بن محمد الأسدي، الأندلسي البوني المالكي(ت 440 هـ/ 1048م)، يكنى أبا عبد الملك، ويعرف بالبوني وهو خال أبي عمر بن القطان الفقيه، الحافظ المحدث، من أهل قرطبة، روى بها عن عبد الرحمن بن محمد بن فطيس، والأصيلي، ورحل إلى القيروان، وطلب العلم بها، وأخذ العلم كذلك عن القابسي، وأبي جعفر أحمد الداودي، وصحبه، وأخذ عنه معظم ما عنده من روايته وتآليفه ، وروى عنه حاتم بن محمد ، وقال: لقيته بالقيروان وشهد معنا المجالس عن أهل العلم بها، وكان رجلا حافظا نافذا في الفقه والحديث، ويقول عنه كذلك حاتم بن محمد: قرأت عليه تفسيره في الموطأ بعضه، وأجاز لي سائره، وسائر ما رواه، وقال عنه القاضي عياض:

---

(1) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص 87.

(2) المصدر نفسه: ج13، ص 169.

كان من الفقهاء المتفنّنين، وألّف في الموطأ كتابا مشهورا حسنا رواه عنه الناس. وقال الضبي: وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ، وقال غيره: ألّف مختصرا في تفسير الموطأ لعلهما كتابا واحدا، وإن كنا نعتقد بوجود كتابين، الأول: شرح كبير على الموطأ، والثاني: مختصرا لهذا الشرح.[1]

فقد كان أبو عبد الملك دائما منقحا، شارحا، مختصرا لما يؤلف ، يدل على ذلك قول الفقيه القاضي أبي عمر بن الحذّاء، وقد تتلمذ عليه واستفاد من علمه:" كان رجلا عاقلا حسن اللسان والبيان، لقيته ببونة سنة خمس وأربعمائة، وناولني كتابه في شرح الموطأ، ثم خاطبته من طليطلة، فوجّه إليّ الديوان، وأجازه لي ثانية، وكان قد زاد فيه بعد لقائي له."[2]

وهو ما يؤكد من جهة المراجعات الدقيقة التي قام بها أبو عبد الملك البوني حول شروحاته للموطأ، تبعا للمستجدات العلمية التي حصّلها، ومن جهة ثانية تؤكد هذه المراسلات حصول ،التواصل الثقافي بين الجزائر والأندلس، ولنا أن نتخيل المسافة بين مدينة بونة الجزائرية وطليطلة الأندلسية، وكيف كانت المراسلات تتم من خلال الأسئلة والأجوبة العلمية، والردود، وردود الردود، والطرق التي تتم عبرها هذه المراسلات، وهي مظهر آخر من مظاهر التواصل الثقافي.

وترجع أهمية هذه الشخصية المحورية المتمثلة في شخصية أبي عبد الملك البونيِ، إلى الدور الكبير، الذي لعبه في نشر الدراسات الفقهية المتعلقة بالمذهب المالكي السني، من خلال تلاميذه المباشرين، أو غير المباشرين، وكانت هذه الجهود الحثيثة مركزة على تثبيت المذهب المالكي السني، في سبيل توحيد العدوتين الأندلسية والمغربية (بأقطارها الثلاثة) خاصة وأنه جاء في وقت عصيب، هدد الوحدة الأندلسية سياسيا، وهدد الوحدة المغاربية مذهبيا من خلال

([1])الحميدي: الجذوة، ص 307، 308(رقم (798)/ الضبي: البغية: ص 402، رقم (341)./ ابن بشكوال:الصلة (العلمية)، ج2، ص 225، 226، رقم (1361)/ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص 170، رقم(349) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج12، ص 221/ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 320، رقم (590)/ قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص 1245، 1246، رقم(1255)/ البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، ص 130، حيث ذكر كتابه باسم (تفسير الموطأ)وذكر المؤلف نفسه في هدية العارفين لأنه شرح الموطأ ، وقال: توفي بالقيروان، ج2، ص 427، حيث خالف كل من سبقوه وأجمعوا على وفاته ببونة.

([2])ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص 226/ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص 1246.

انتشار المذهب الشيعي الإسماعيلي، بفعل سيطرة العبيديين على المغرب الإسلامي، وخاصة إفريقية(تونس) حيث عاصمتهم السياسية (المهدية)، وفي أجزاء واسعة من المغرب الأوسط (الجزائر) وبالضبط في نواحيه الشرقية، وكان الفقيه البوني مستقرا في مدينة بونة القريبة من مقر حكم العبيديين في تونس وهو ما سيكلل بالنجاح مع سنة وفاة البوني تقريبا، حينما أعلن المعز سيادة المذهب المالكي في مواجهة المد الشيعي، كما ذكرنا سابقا، وهو ما جنى على القيروان، وآذن بخرابها بعد زحفة بني هلال الشهيرة، وحتى على المذاهب الأخرى، فقد ذكر ابن الأثير أن المعز أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك، وإن كان الأغلب عليهم مذهب أبي حنيفة.[1]

أما أهمية الرجل وقيمته العلمية فتتجلى من خلال عديد التلاميذ الأعلام الذين تتلمذوا عليه أو رووا عنه.

فقد تتلمذ محمد بن إسماعيل بن خورتش(381 هـ/ 453 هـ) على أبي عبد الله البوني أثناء رحلته إلى المشرق، كان بن خورتش نفسه أستاذا لفقيه الأندلس الكبير أبي الوليد الباجي[2]

وكان أبو حفص عمر بن عبيد الله بن زاهر الأندلسي، قد استوطن بونة، وروى عن أبي عمران الفاسي الفقيه، وأبي عبد الملك البوني، فقد ذكره أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني في شيوخه الذين لقيهم بالمشرق وأثنى عليه، وقد توفي بعد سنة (440 هـ).[3]

وكان عمر بن سهل بن مسعود اللخمي، من أهل طليطلة، قد رحل إلى المشرق وروى عن كثير، منهم القابسي، وأبي عبد الملك البوني، وكان إماما في كتاب الله تعالى، حافظ لحديث البني– صلى الله عليه وسلّم – عالما بطرقة لسنا ، حافظا لأسماء الرجال،و أنسابهم. خفيف الحال، قليل المال، قانعا، راضيا، توفي بعد سنة (442 هـ)[4]

---

(1) الكامل في التاريخ: ج7، ص 278.

(2) ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص 155، 156، رقم (1186).

(3) المصدر نفسه: ص 35، 36، رقم (865).

(4) ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ج2، ص 35، 36، رقم (866).

هذه أمثلة يسيرة من العلماء الفقهاء المحدثين، الذين تفاعلت العلاقات الثقافية بين الأندلس والجزائر بفضل مجهوداتهم، أما في الناحية الأدبية، فقد أنجبت الجزائر شاعرا كبيرا في هذه الفترة كان له الصيت الذائع، والثناء الحسن عند من ترجم له من العلماء، وهو أبو عبد الله محمد، أو أبو محمد عبد الله التميمي، والمسمى ابن قاضي ميلة، وكان في أواخر القرن الرابع الهجري، وأوائل القرن الخامس الهجري، قال فيه ابن بسام:" وهو ممن طرأ ذكره، وانتهى إليّ شعره، إذ ضرب في الأدب بأعلى قدح، وافتر عنه على أوضح صبح، وأقام دوحه على سوقه، وبنى المنازل على سواء طريقه[1] وقال عنه ابن دحية الكلبي:" أشعر من دب بميله ودرج، ودخل بها وخرج".[2]

وقد أغفلت المصادر التي ترجمت له تاريخ حياته ووفاته، ولكننا نعلم من خلال بعض الإشارات أنه كان في صدر المائة الخامسة للهجرة، فقد وردت إشارة من ابن بسام حينما علّق على ذكر ابن رشيق لابن قاضي ميلة في كاتبه(أنموذج الزمان)." إن شعراء الأنموذج مائة شاعر وشاعرة وأكثرهم كان في المائة الخامسة من الهجرة وتقاربت موالدهم، وتشابهت مصادرهم و مواردهم"[3]

والإشارة الثانية أنه رافق والده إلى صقلية، حيث مدح الأمير الكلبي ، ثقة الدولة يوسف بن عبد الله القضاعي من قبل الخليفة الفاطمي بمصر، الذي حكم في النصف الأول من القرن الخامس بقصيدة بلغت واحدا وستين بيتا أوردها ابن خلكان.[4]

وقد علّق المرحوم الشاذلي بويحي على هذه القصيدة قائلا: " إنها سبب ذيوع الشاعر حتى بلاد والأندلس"[5]

---

(1) الذخيرة: ق4/2/ص 529.

(2) المطرب: ص 55.

(3) الذخيرة: ق4/2/529.

(4) وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تقديم: محمد عبد الرحمن مرعشلي، وضع فهارسه: عبد الله الهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 2009، ج3، ص 282، وما بعدها.

(5) الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 93.

وإننا على ثقة أن شعر ابن قاضي ميلة قد بلغ الأندلس، و تداوله الناس والرواة وأثبتوه ، ولهذا فقد حصل لأبي عبد الله ذكر عند ابن بسام في الذخيرة، وهو الذي أورد شيئا يسيرا من شعره، وبعضا من طرفه وأخباره، وقال: " وانتهى إليّ شعره".[1]

وقال في موضع آخر:" ولأبي عبد الله أشعار شاردة، سارت على ألسنة الأنام، وكُتبت في جبهات الأيام، غير أنه لم يقع إلي منها عند تحرير هذه النسخة إلا ما أثبتُّ"[2] كما أوردا ابن دحية وابن خلكان شيئا من شعره.

من خلال النماذج السالفة الذكر، تتضح لنا الصورة المثلى ، من صور التواصل الثقافي بين الأندلس والجزائر، في عصر الطوائف، حيث كانت سببا في حصول اتصال ثقافي بين القطرين، حيث دفع هذا التواصل المثمر والفعّال، الحركة الثقافية في البلدين معا إلى الازدهار والنماء مع تعدّد الروافد، وتنوّع المعطيات

---

(1) الذخيرة: ق4/2/529.

(2) المصدر نفسه ، ص 530.

III -2-4- المبحث الرابع: التواصل الثقافي بين الأندلس وإفريقية (تونس).

العلاقات الثقافية بين الأندلس والمغرب الأدنى، أو إفريقية كما كانت تسمى من أقدم العلاقات وأوثقها وأخصبها وذلك لوجود الروابط السياسية بينهما، فعلى الرغم من بعد المسافة بينهما، ولكن الأندلس كان شديد الاتصال بالمغرب الأدنى، وكان هذا الاتصال ما يزال يزداد على الأيام وثاقة وقوة، باستقرار الأمور في المغرب الإسلامي والأندلس، بعد دخول الإسلام إلى هذين الضفتين واستعرابهما، وظهور الحواضر المختلفة على أراضيهما، مما شكل أكبر الأثر على وجود علاقات محورية تجمع القطرين معا.

وما زاد في غنى هذه العلاقات هو أن إفريقية والأندلس قد بدأتا تمارسان دورهما الحضاري منذ منتصف القرن الأول الهجري وآخره على التوالي.

لقد كان التواصل القيروان والأندلس في البدء دينيا سياسيا، حين كان عامل الأندلس يعين في كثير من الأحيان من قبل عامل القيروان، ثم بدأ هذا التواصل يتخذ شيئا فشيئا صبغة علمية أدبية."[1] و" يعتبر بناء مدينة القيروان سنة 51هـ ،من الأعلام البارزة في تعرب الشمال الإفريقي، فقد بنيت لتكون مدينة إسلامية عربية، تجتمع فيها وجوه النشاط الإسلامي[2]

وكانت حاضرة القيروان أسبق للعلم والمعرفة والتمدن من قرطبة الغراء حاضرة الأندلس ، فقد وصفت من قبل الجغرافيين بأنها "أم أمصار، و قاعدة أقطار، و كانت أعظم مدن الغرب قطرا، و أكثرها بشرا، و أيسرها أموالا، و أوسعها أحوالا ...والغالب على فضلائهم التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلي عن الشبهات، و اجتناب المحارم ، والتفنن في محاسن العلوم".[3]

و قال المقدسي عنها:" القيروان مصر الإقليم (أي المغرب) ،بهي عظيم ...هي فرضة المغربين و متجر البحرين،لا ترى أكثر من مدنها، ولا أرفق من أهلها، ليس غير حنفي و ما لكي، مع ألفة عجيبة، لا شغب بينهم، ولا عصيبة، لا جرم أنهم على نور من ربهم قد أقبلوا على ما يعينهم".[4]

---

(1) حسناء بوزويلة الطرابلسي: القيروان مركزا ثقافيا في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ضمن ندوة: إشعاع القيروان عبر العصور، ج3، ص 778.

(2) محمد طه الحاجري: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، ط1، 1983، ص 36، 37.

(3) الإدريسي :نزهة المشتاق ، ج1، ص484 . و الصف نفسه تقريبا عند ابن عذاري في بيان المغرب .ج1، ص208.

(4) أحسن التقاسم ، ص211، 212.

وللدارس أن يتخيل قطرا قد دخله الإسلام منذ حداثته، و حواضر قد أسست، و مدن قد شُيدت، و جسدت معالم هذا الدين الجديد كيف اكتنفها العلم من كل جانب، واعتورتها الثقافة من جميع نواحيها، وأشع عليها نور العلم، وولى ظلام الجهل إلى غير رجعة .

و يمكن للباحث أن يتمعن في قول المقدسي عن شعب هذا الإقليم، و كيف أنهم جمعوا في ديانتهم الواحدة بين مذهبين فقهيين، فلا عصبية و لا غلو من أتباع هذا المذهب على ذاك أو العكس، و ما وصلوا إليه من تنوع مذهبي، و تسامح فكري ، جعل هذا الإقليم قطبا فكريا كبيرا، على الرغم من وجود شواهد تاريخية تضعف رأى المقدسي قليلا من خلال النزاعات التي حصلت بين أتباع المذهبيين، فما يمنع المغرب الأدنى، وقد وصل إلى مستوى محمود من الرقي العلمي، والازدهار الفكري و الأدبى، أن تصل بباقي الأقطار الإسلامية الأخرى، و خاصة الأندلس.

وفي هذا التواصل اكتساب للذات الثقافية، و إخصاب للهوية المعرفية، لقطبين كبيرين في الغرب الإسلامي.

كانت النواة الأولى، للثقافة الإسلامية في إفريقية التونسية، المسجد الجامع في القيروان، حيث شيد بتشييد المدينة من قبل عقبة بن نافع الفهري، فهو الذي "اختط مدينة" قيروان إفريقية " و بنى دار الإمارة التي في قبلي الجامع".[1] ثم جدد بناء المسجد الجامع في القيروان حسان بن النعمان في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وبناه بناء حسنا.[2]

و بتأسس هذه المدينة، النواة، وحاضرة العلم والمعرفة في المغرب الأدنى، سيغدو مسجدها الجامع ملتقى آلاف الطلبة والعلماء من المشارقة والمغاربة والأندلسيين، و لقرون عديدة، و سيكون محطة تلاقي و تعارف الأندلسيين والإفريقيين على حد سواء، و هو الدور الذي سيشاركه فيه المسجد الجامع في قرطبة فيما بعد.

" كانت القيروان عاصمة إفريقية منذ تأسيسها سنة (50هـ/670م) ، قبل إتمام عملية فتح البلاد بزمن طويل، فقد ظلت طيلة أربعة قرون، و حتى أوان سقوطها سنة (449هـ/1057 - 58م) حاضرة البلاد، رغم تأسيس الفاطميين مدينة المهدية في سنة (303هـ/916م) ثم صبرة المنصورية

---

[1] المالكي : رياض النفوس ،ج1،ص97، و المصدر نفسه/ص10 و مابعدها.

[2] المصدر نفسه: ص56.

،في سنة (337هـ/950م)، وقد رفعت الأولى إلى مقر ملكي للفاطميين، ثم لبني زيري من الصنهاجيين ".[1]

وهم الذين عاصروا حقبة ملوك الطوائف في الأندلس، حين كان التواصل الثقافي على أشده.

أما حول أقدمية العلاقات الثقافية بين المصرين ، فترجع في اعتقادنا إلى البدايات الأولى للفتح الإسلامي للأندلس، و مشاركة بعض الأفارقة في ذلك، ثم إن بعض الأفارقة التونسيين، أو الأندلسيين قد اختار نهائيا الاستقرار في أحد الإقليميين، و بعضهم الآخر قد أعوزته الظروف سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية إلى تغيير إقليميه ، وكان الدافع العلمي من أقوى الأسباب في نشوء هذا التواصل بين شعبي البلدين.

و لدينا صورة مشرقة حول أقدمية التواصل الثقافي بين البلدين، متمثلة في شخصية أبي محمد عبد الله بن فروخ الأندلسي، الفارسي الأصل الذي ولد بالأندلس سنة (115هـ/730م) ، ثم انتقل إلى إفريقية حيث استقر بالقيروان، و كان رجلا عالما حافظا للحديث والفقه، رحل إلى المشرق فروى عن جماعة يتقدمهم التابعي زكريا بن أبي زائدة، ومالك و سفيان الثوري، وكان مالك يكرمه و يرى له فضلا و يقول لأصحابه:" هذا فقيه أهل المغرب"[2]

كما اجتمع في رحلة إلي المشرق مع أبي حنيفة، و ذاكره و كتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة، يذكر أنها نحو عشرة آلاف مسألة، وقد لقيه قبل أن يدون كتبه.[3]

و تتحدث المصادر عن العلامة الضليع. أبو عبد الله بن عمر بن خيرون (306هـ أو 305هـ). مؤسس أسرة كبيرة، اشتهرت في العلم والفقه والقراءات، قد انتقل من الأندلس إلى القيروان، وكان هذا العالم الكبير في السر من أهل الأندلس والقيروان (أي من خيارهم) ، قد جمع بين العلوم المختلفة،

---

1 الشادلي بويحيى : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، ج2، ص452.

(2) المالكي : رياض النفوس .ج1، ص177، 179. و ترجمته هناك كاملة ، ص176 و ما بعدها. رقم (77) ./ أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ص34 و ما بعدها ./ مخلوف : شجرة النور الزكية . ج1، ص91 . رقم (77) و فيه تاريخ ميلاده و وفاته (110هـ/6176 - 792م)./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية. ج2 ، ص735، رقم (672) ./ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين .ج6 ، 10200 . و فيه تاريخ ميلاده و وفاته (115هـ/176هـ -792/733)و في غيرها من المصادر.

(3) المالكي : رياض النفوس . ج1، ص180.

والفنون المؤتلفة، و قد برز في علم القراءات و فن التجويد، فالأخبار له متفقه على ريادته هذا المضمار، و هو صاحب المسجد المنسوب إليه بالقيروان.[1]

و تكمن أهمية الرجل في هذا الفن، في أنه أول من قدم بتحقيق قراءة نافع.[2] فقد قال عنه ابن الجزري :"و هو الذي قدم بقراءة نافع على تلك البلاد -أي المغرب - فإنه كان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، و لم يكن يقرأ لنافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون القيروان اجتمع عليه النـاس، و رحل إليه القراء من الآفاق، وألّـف كتـاب " الابتداء والتمـام" و كتاب " الألفات واللامـات".[3]

و قد سرى مذهبه في قراءة نافع و فشا، ما أصاب هذه القراءة في أهل المغرب من التوسعة والاضطراد، ما طفي على قراءة أهل المغرب بحرف حمزة، و من جهة أخرى فقد كانت مؤلفاته قد جُليت للرائين والدارسين، و أبانت عن جودة قريحته و علو كعبه، في هذا المضمار النبيل والفن المبارك.

و كل الأخبار التي تناولت حياة و سيرة الرجل المبثوثة في مطاوي و سجلات كتب التراجم والطبقات، والتي تعرضت لتاريخ فن القراءات في إفريقية التونسية والمغرب بشكل عام، قد شهدت له بحيازته قصبات السبق في هذا الفن، و ريادته، و جودته فيه و حسن صنيعه، كيف لا و قد وصف قديما بأنه:" شيخ القراء بالقيروان"[4]

أما نموذجية الصورة الثقافية المتقاطعة، بين الأندلس و إفريقية، والتي شكلها أبو عبد الله محمد بن عمر بن خيرون، هو نشره قراءة نافع في ربوع المغرب ككل، والمغرب الأدنى بشكل خاص، وذلك من خلال كتبه، وحلقاته و دروسه، حيث تتلمذ عليه مئات من طلبة العلم من أهل البلاد و من

---

(1) المالكي : رياض النفوس ، ج2 ،ص52، و الكلام للمحقق، و ترجمته في المصدر نفسه .ج2،ص135و ما بعدها . رقم (184)./الضبي : بغية الملتمس ، ص96، رقم (226)./ابن الأبار :التكملة ،(الهراس)،ج1، ص289،288.رقم (991)./ ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء،ج2، ص289،288، رقم (3268).

(2) ابن الأبار: التكملة ، ج1، ص289

(3) ابن الجزري : طبقات القراء ، ص289

(4) المصدر نفسه:ص288

الوافدين، وكل من قدم عليه و استمع إليه و تأثربه ، من تلامذته المباشرين و على رأسهم ابنيه أبي جعفر محمد بن خيرون الأندلسي المعافري و علي .[1] وهذا قمة التماس الثقافي .

و من أعلام الأندلس القدماء المستوطنين إفريقية، والناشرين في ربوعها العلم والمعرفة، العلامة، البحاثة، الرحالة، الطُلعة، يحي بن عمر الأندلسي، (هـ) ، صاحب كتاب (أحكام السوق)، و هو من أوائل ما أُلف في هذا الموضوع (موضوع الحسبة) .

كان يحي بن عمر، متقد الذهن، متقدما في الحفظ، و كان تلميذا لسحنون، أصيلا متفقها على مذهب مالك، و كان لا يكاد يخرج عن مذهب مالك و أصحابه، كثير النهي عن كل محدثة و بدعة .[2]

و بلغ من مكانة يحي بن عمر أنه كان يوضع له كرسي في الجامع (المسجد الجامع في القيروان)، للسماع، فيجلس عليه، ويسمع عليه الناس، حتى قال أبو بكر الزويلي:"ما علمتُ أنه عمل ذلك لغيره."[3] وذلك لمكانته العلمية. " فقد رحل الناس إليه لا يروون المدونة والموطأ إلا عنه"[4]

و كانت ليحي بن عمر أوضاع كثيرة في أصول السنن، على معاني الآثار و ما تأتي فيها من الأخبار ككتاب " الصراط " و كتاب " الميزان" و كتاب " النظر إلى الله تبارك و تعالى يوم القيامة" و له كتاب رد فيه على الشافعي.[5] و كتاب " اختلاف بن القاسم و أشهب" و كتاب "المنتخبة" (اختصار المستخرجة).[6]

---

(1) ترجمة ابنه أبي جعفر محمد ، عند المالكي في رياض النفوس ،ج2، ص52 و ما بعدها . رقم (175). و هناك خلط في بعض أوصاف الابن التي هي لأبيه ، في بعض المصادر التي ترجمت له ، و قد فصل محققا الكتاب في ذلك ، وأثبتا شجرة العائلة./ المصدر نفسه، هامش ، ص53.

(2) المالكي : رياض النفوس ، ج1 ، ص495. و له ترجمة مطولة عنده ، من ص 490 إلى ص504. رقم (160).
الخشني : طبقات علماء إفريقية، ص135 و ما بعدها./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص435. رقم (1568)./ الحميدي :الجذوة، ص431 ،432. رقم(900)./الضبي :البغية ،ص440، 441 . رقم(1485)./ مخلوف: شجرة النور الزكية ، ج1، ص109، رقم (141) ./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج13. ص217./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3 ، ص1354 و مابعدها . رقم (1369)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص335 و ما بعدها . رقم (607).

(3) المالكي : رياض النفوس ، ص 493

(4) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص336

(5) الخشني: طبقات علماء إفريقية، ص135

(6) ابن فرحون : الديباج المذهب، ص336. حيث ذكر له مؤلفات أخري

في هذه الفترة كانت إفريقية بحواضرها المختلفة، تسير نحوالنمو والاضطراد،فقد امتدت روح العمران، والتمدن في ربوع إفريقية التونسية، و إذا بالحاضرة، تصير حواضر، فقد صار للقيروان شقائق و ضرائر، تنافسها علميا و فكريا و معرفيا، و هي ظاهرة أخرى تسترعي الانتباه حول ازدهار النشاط العلمي في المغرب الأدني في تلك الفترة ، أعني "ظاهرة تعدد البيئات العلمية، بعد انفراد القيروان بالنشاط العلمي "[1] ولئن فقدت القيروان بعض إشراقها السياسي كعاصمة في خضم تلك الأحداث التي أفضت إلى تأسيس عواصم جديدة مع انفصال الأندلس والمغربين الأوسط والأقصي عنها، إلا أنها ما فقدت يوما مكانتها كعاصمة ثقافية و مركز علمي رئيسي في بلاد المغرب كلها .[2]

كانت إفريقية بحواضرها المتعددة، و بخاصة في القرنين الرابع والخامس، مركز للدراسات الفقهية، و خاصة المذهب المالكي. و خير من يمثل التواصل بين الأندلس و إفريقية، أبو الحسن القابسي (324هـ/ 403هـ - 935م/ - 1012م) علي بن محمد بن خلف المعافري، وكان من جلة العلماء المشار إليهم، في طلب العلم و درسه والسعي في تحصيله، فقد قرأ الكثير و سمع، فعرف بالعلم و اشتهر بالمعرفة، وقد حصلت له معارف جمة، و رزق القبول بين أهل العلم طلبة و طلابا، و كان قد كتب و استكتب، و جمع نفسه على أشتات العلوم، لا يتخذ غير العلوم والمعرفة صاحبين، هما غاية طلبه و منتهي أربه.

كان أبو الحسن القابسي" من أصحاب ابن أبي زيد بل وابن خالته - فيما بعد - و كان يعد بمثابة الرئيس للمدرسة المالكية بالقيروان، ولا سيما بعد موت ابن أبي زيد، فقد سمع من عدة علماء منهم الأصيلي الأندلسي، و خرج إلى الحج برفقته، و برفقة دراس الفاسي (357هـ/ 967م) وذلك سنة (352هـ / 963م) فأدى فريضة الحج ".[3]

و يروي لنا صاحب الصلة خبرا حول اجتماع نحوا من ثمانين طالبا من أهل القيروان والأندلس والمغاربة في بيت أبي الحسن القابسي يطلبون عنه العلم، و يتذاكرون في بيته.[4] و كان أبوالحسن

---

(1) محمد طه الحاجري : دراسات و صور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، ص63.

(2) يوسف بن أحمد حوالة: الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) . منذ إتمام الفتح ، وحتى منتصف القرن الخامس الهجري.

(3) الشادلي بويحيى : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري ، ج1 ، ص135 و ما بعدها.

(4) ابن بشكوال : الصلة (العصرية) ، ص143. و الخبر أورده ابن بشكوال في ترجمة تلميذه حاتم بن محمد الأطرابلسي (ت469هـ) .ص 141. و ما بعدها . رقم (355) .

قد خلف تآليف بديعة، سارت ركائبها نحو أقطار المشرق والمغرب والأندلس، مثل كتاب "المعهد" في الفقه، و كتاب "أحكام الديانة" وكتاب "المنقذ من شبه التأويل" وكتاب "المنبه للفطن من غوائل الفتن" وكتاب " الرسالة المفصلة لأحوال المتقين" و كتاب " المعلمين والمتعلمين" و كتاب " الاعتقادات" و غيرها من الكتب التي ذكرها صاحب الديباج.[1] وغيره ممن ترجم لأبي الحسن القابسي، و خلف عديد التلاميذ من مختلف الأصقاع الإسلامية، منهم علماء أندلسيون، أو ممن كان لهم باع في الأندلس في المجال العلمي، كالأصيلي و أبي عمرو الداني، و أبي عمران الفاسي و غيرهم.[2]

هذا ومن الثابت دخول أعلام الفقه الحديث، وعلوم القرآن والقراءات من الأفارقة التونسيين إلى الأندلس في هذه الفترة، وقد كان دخولهم بمثابة البشير لازدهار الدراسات في هذا المضمار.

---

(1) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج2، ص 92،93، رقم (386).

(2) مخلوف : شجرة النور الزكية ، ج1، ص145. رقم (286). و قال عنه الذهبي :" كان عارفا بالعلل و الرجال ، والفقه و الأصول و الكلام ، مصنفا ، يقضا ، دينا ، تقيا ،و كان ضريرا، و هو من أصح العلماء كتبا ، كتب له ثقات أصحابه ، وضبط له بمكة صحيح البخاري ،و حوره و أتقنه رفيقه الإمام أبو محمد الأصيلي ، أثنى عليه الداني و قال : كتبنا عنه شيئا كثيرا_ "سير أعلام النبلاء" (المكتبة التوفيقية) ، ج13، ص86 و ما بعدها ، رقم (3713) . وفي كلام الذهبي ما يشير إلى تتلمذ أبي عمرو الداني عليه ، و هو شيخ القراء بالأندلس في عصر الطوائف.

و إياه عن النووي في " التقريب و التسيير " في صفة رواية الحديث ، حينما قال : " الضرير إذا لم يحفظ ما سمعه ، فاستعان بثقة في ضبطه ، و حفظ كتابه ، و احتاط عند القراءة عليه ، بحيث يغلب على ظنه سلامته من التغيير، صحت روايته ،و هو أولى بالمنع من مثله في البصير ، قال الخطيب : "و البصير الأمي كالضرير". و يقصد به أبا الحسن القابسي صاحب الرواية المشهورة عن أبي زيد المروزي سمع منه صحيح البخاري بمكة سنة (353هـ) برواية أبي زيد عن العزبري عن البخاري و نسخته من أحسن النسخ و أتقنها و قد كان ضريرا ، و لكن جود نسخته و ضبطها له صاحبة في الرحلة الإمام أبو محمد الأصيلي صاحب النسخة المشهورة من صحيح البخاري كذلك ./ التقريب و التسيير لأحاديث البشير النذير (صلى الله عليه وسلم) . شرح و تحقيق: أحمد بن فارس السلوم . مكتبة المعارف .الرياض ،ط1، 2010 / 1431هـ ص293 و حاشيتها.

و قد اعتمد النووي في المصدر نفسه ، ص 118 وحاشيتها على رأى عمرو الداني في مسألة ما ، من دون أن يصرح باسمه فقال :" و منهم من شرط معرفته بالرواية عنه (في باب الحديث المعضل ...باب الإسناد المعنعن) و ذكر المحقق فقال في هامش الصفحة (118) ما نصه : " و هو أبو عمرو الداني ذكر ذلك في جزء صغير له في علوم الحديث ، و نقله المصنف عنه في شرح مسلم ، وهو شيخ الداني و أحد رواة البخاري عن أبي زيد المروزي ، أن يكون قد أدرك المنقول عنه ، إدراكا بينا و هذه الشروط الثلاثة تعنت من أصحابها ، و قد يتعذر إثباتها في كثير من أسانيد الصحيحين. "

و هو ما يؤكد مرة أخرى حصول هذا التواصل الثقافي بين الأندلس وإفريقية التونسية في عصر الطوائف، من خلال اتصال سند الرواية بين تلاميذ البخاري في نقلهم للصحيح ، و بين أبي الحسن القابسي من جهة و بين القابسي و تلاميذه من الأندلسيين كالأصيلي و الداني من جهة أخري ، وهي االرواية التي ستظل معتمدة فيما بعد في الأندلس و المغرب عموما.

والتأليف فيها، وتخريج التلاميذ الذين سيصيرون فيما بعد من أقطاب العلم والمعرفة في سائر الغرب الإسلامي، والعالم الإسلامي كله.

من هؤلاء أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي من أهل القيروار، (440 هـ / 1048 م) حيث دخل الأندلس في حدود(430 هـ)، وكان عالما بالقراءات والآداب، وألف كتبا كثيرة، مثل : "التيسير في القراءات" وكتاب" التفصيل الجامع لعلوم التنزيل" وغيرها من المؤلفات[1] ومكي بن أبي طالب القيسي، حموش (355 هـ/ 437 هـ)، وأصله من القيروان وسكن قرطبة، بعد أن طوف بأقطار الشرق ومدنه، بدءا من الحجاز ومصر والقدس وغيرها من الحواضر، قبل أن يستقر بقرطبة ويقرئ بجامعها، ويكون الخطيب الأول في المسجد الجماع هناك، حيث انتفع به خلق عظيم، وكان قد صنف معظم كتبه في الأندلس، وفي قرطبة بالذات، بعد أن خلف مدرسة أندلسية كبيرة في التفسير والقراءات، من الطلبة والأعلام الذين تتلمذوا عليه. وكانت كتبه ومصنفاته القيمة محظ استفادة أجيال عديدة و حتى وقتنا الحاضر. منها : "الموجز في القراءات" و"الهداية في التفسير" و"الإبانة في معاني القراءة " وغيرها من المصنفات التي أتحف بها مكي بن أبي طالب الثقافة الإسلامية.

بل إن كتبه تعد عمدة في كل ما ألف في مضمار القراءات والتفسير، فلا تجد أندلسيا من أهل الاختصاص من الذين جاءوا من بعده، إلا وقد ضمن أقواله وآراءه واستشهاداته وتعليقاته في كتبه.[2].

---

[1] ابن بشكوال: الصلة (العصرية) ص 85، 86 رقم(188)/ الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 233، 234/ ابن الساعي: الدرالثمين في أسماء المصنفين، ص 289، وذكر من كتبه: كتاب "التحصيل في التفسير" وكتاب التفصيل في تفسيره، وذكر اسمه بـ أحمد بن محمد بن عمار، وله كتاب صدره مؤخرا وقع في أيدينا بعنوان: " هجاء مصاحف الأمصار" تحقيق، حاتم صالح الضامن، دار ابن الجوزي. المملكة العربية السعودية، ط1، 1430 هـ ، ويرجع محقق الكتاب أن أحدا لم يشر إليه ممن ترجموا للمهدوي، ويغلب على الظن أنه فصل أو باب من أحد كتبه التي لم تنشر بعد ، إذ فيه ما يؤكد ذلك، ص 7، وذكر المحقق كذلك من كتبه المنشورة" بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات" و "شرح الهداية" المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[2] السيوطي: بغية الوعاة، ص 722(2018) ابن الجوزي: غاية النهاية في طبقات القراء ج2، ص 405 ، 406 (3597)، ولنا عودة بالتفصيل إلى مكي بن أبي طالب، وإلى المصادر التي ترجمت له وذكرت مؤلفاته، في الفصل الثالث، إن شاء الله تعالى.

ومن كبار علماء تونس الذين دخلوا الأندلس في هذه الفترة، وأسهموا في الحياة العلمية لها، أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود بن أحمد المعروف بابن الضابط الصفاقسي (توفي بعد سنة 444 هـ/ 1052 – 1053م) بعد رحلة علمية طويلة قام بها إلى المشرق، حيث حصل علما غزيرا، وخاصة علم الحديث.

وكان تلميذا مباشرا لأبي نعيم الإصبهاني، صاحب الحلية، حيث أخذ عنه مائة ألف حديث. مكتوبة بخط يده، وبعد أن عاد إلى إفريقية، طاف بعد ذلك بكامل أنحاء الأندلس بين سنتي(436 و 438 هـ/1044 و 1046 م) مدرسا العلوم في كل مكان، وخاصة علم الحديث برواته وأسانيده، وكان له تلاميذ أندلسيين مبرزين في عصر الطوائف ، لعل أشهرهم الحميدي (488 هـ) صاحب "جذوة المقتبس"، حيث صار الحميدي محدثا كبيرا فيما بعد، وألف في هذا المجال كتابه القيم"الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم".[1]

وكان ابن الضابط أول من أدخل الأندلس"غريب الحديث" للحطابي، وله تأليف تضمن عوالي كتبها لأبي محمد بن عتاب، تعرف بعوالي الصفاقسي، وله فهرسة* .[2]

---

(1) الحميدي: الجذوة. ص 271 ، رقم (697)/ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج2، ص 162.رقم(322)./ الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 229 ، 230، ولنا عودة إلى ما ترجمته في لاحقا، إن شاء الله تعالى.

* - ذكر الأستاذ المحقق محمد بن شريفة، أن ابن الضابط في رحلته إلى المشرق، لقي أعلام الأدب هناك ومنهم أبا العلاء المعري، حيث روى عنه كتاب " خطبة الفصيح" للمعري، في قرطبة، الشيخ أبو محمد بن عتاب./ شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، قام بإخراجها والتقديم لها: محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011م / 1432 هـ ص 12.

- وحول علاقة القيروان بالأندلس علميا وفقهيا في عصر الطوائف، كتب الباحث أنس العلاني مقالا بعنوان " الأجوبة القيروانية للأندلس" من خلال كتاب النوازل للقاضي عيسى بن سهل الأندلسي(413 هـ/ 486 هـ - 1022 م /1093 م): ضمن ندوة، إشعاع القيروان عبر العصور. ج2 ، من ص 415 إلى 448 وعنوان كتاب القاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الجياني الأندلسي" الإعلام بنوازل الأحكام" ويطلق على هذا الكتاب" أحكام بن سهل" يقول الباحث: "وبتصفح هذا الكتاب وجدت مراسلات من الأندلس إلى القيروان، تضمنت أسئلة لنوازل أفتى فيها الفقيهان: أبو بكر بن عبد الرحمن وأبو عمران الفاسي". / ج2، ص 416، ويقول الباحث بأنه أحصى هذه المسائل في نوازل ابن سهل فوجدها ثمانية ./ المصدر نفسه، الصفحة نفسها. منها المسألة السابعة حيث ذكر ابن سهل، إسم المستفتي وهو قاضي إشبيلية، أبو عبد الله أحمد بن شريعة اللخمي الباجي (ت 433 هـ)./ المصدر نفسه، ص 420.

وحول كتاب ابن سهل المذكور يقول الأستاذ قطب الريسوني في مقدمة تحقيقه لكتاب" نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغيراللورقي المالكي(ت516هـ)." أن الأستاذ أنس العلائي حقق جزءا من نوازل ابن سهل في رسالة دكتوراه السلك الثالث في الفقه والسياسة الشرعية سنة (1402 هـ)، بجامعة الزيتونة بتونس. وعني بتحقيقه كذلك الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف في أعمال مجزأة صدرت في القاهرة والكويت ، وطبع كاملا بتحقيق الدكتورة نورة التويجري سنة (1415 هـ)./ ينظر كلام قطب الرسيوني في مقدمة تحقيقه لكتاب" نوزل بن بشتغير" دار ابن حزم: بيروت، ط1، 2008 / 1429، ص 75.

(2) مخلوف: شجرة النور الزكية، ص 162.

وبلغ شهرته ومكانته العلمية أن ذكر أبو عمر بن عبد البر في أسماء الرجال الذين لقيهم.[1] وبعد جيل ابن الضابط الصفاقسي وأقرانه من طبقته، تحدثنا المصادر عن استمرار تدفق العطاء الثقافي والعلمي القيرواني والإفريقي وتدفقه إلى الأندلس في هذه الفترة أو بعدها بقليل، كمثال على ذلك القاضي الحسن أبو علي بن خلف القيرواني (ت 519 هـ) الإمام النحرير الفهامة، قاضي الأندلس وعالم الوقت. صاحب التصانيف العديدة، والمحاسن المفيدة، وكان شيخ القراء في عصره، حيث أخذ عنه كثير من الناس ومن مؤلفاته" تلخيص العبارة في القراءة"[2].

وكأنما الأقدار لم تشأ إلا أن يتبادل الأندلسيون والأفارقة التونسيون ، الأدوار طلبة وشيوخا في العلم والمعرفة، حيث كان الحوار الثقافي بين البلدين يشمل كل الاختصاصات المعرفية، وقد ضرب الأدب والشعر بسهم في هذه المشاركة المعرفية المثمرة، فمن حظ القطرين أن مثّلهما أعلام الأدب والنقد في تلك الفترة. فقد أسس هذا الرحيل لحياة أدبية معذقة، وحوارات نقدية ومناظرات، ومعارضات وسجالات كانت مجدية على الحركة الأدبية والشعرية في الأندلس وإفريقية، والتي كانت متقدة أصلا ومزدهرة القرن الخامس الهجري.

والجدير بالذكر، أن هذه المشاركة الأدبية لم تكن آخذة في الصعود من إفريقية التونسية إلى الأندلس، في منحى تصاعدي أو تنازلي فقط، دون أي تأثير، بل العكس، فقد حملت معها هذه المشاركة تأثيرات متبادلة بين الضفتين، على مستوى الموضوعات والمضامين والأساليب، من خلال المؤلفات والمصنفات التي أحدثها أعلام الأدب والنقد، وشعراء تلك الفترة في كلا المصرين.

ومثال ذلك: أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني النحوي، المعروف بالقزّاز (412 هـ/1021 -1022) صاحب المصنفات اللغوية والنحوية والنقدية . وكان القزاز هذا من جياد الأدباء المتصاونين، وجلة الفضلاء المتورعين ، فصيح اللسان، قوي الجنان، قال عنه علي ابن أنجب المعروف بابن الساعي: " كان إماما علامة لعلوم العربية"[3] وذكر من مصنفاته الشيء الكثير.[4]

---

(1) مخلوف: شجرة النور الزكية، ص 162.

(2) ابن خير الله اليعمري: منهج الثقات في تراجم القضاة، ص 125، رقم (100)

(3) ابن الساعي: الدّر الثمين في أسماء المصنفين، ص 197، وله ترجمة عنده، ص 197، 198.

(4) المصدر نفسه، ص 197، 198.

كان أبو عبد الله القزّاز القيرواني أستاذا لعديد العلماء الإفريقيين والأندلسيين على حد سواء، فمن تلامذته ابن الربيب الذي رد عليه أبوالمغيرة عبد الوهاب بن حزم وابن عمه الفقيه ابن حزم الأندلسي فيما بعد، برسالتين في فضل الأندلس وذكر رجاله، بعد أن اتهم أهل الأندلس بتقصيرهم في تخليد مآثر علمائهم. ومن تلامذته الشهيرين ، مكي ابن أبي طالب القيسي، حموش (ت 437 هـ) المفسر المقرئ صاحب التصانيف الكثيرة والمتنوعة، والذي سيكون له شأن عظيم في أندلس عصر الطوائف ، في مجال القراءة والتفسير ، وكذلك من تلامذته اللغوي الكبير ، ابن البر التميمي الذي سوف يخرج إلى الأندلس ليدرس علوم اللغة والنحو، وكذلك ابن رشيق* المسيلي ثم القيرواني، صاحب" العمدة".

وقد دخلت آراء، وتصانيف هذا العالم اللغوي إلى الأندلس عن طريق تلاميذه المباشرين من الأفارقة الذين زروا الأندلس أو استقروا فيها مثل: مكي بن أبي طالب، أو ابن البر التميمي" أو عن طريق الأندلسيين أنفسهم، ممن درس عنه مباشرة.

أما مصنفاته التي حفظت أسماؤها، والتي كانت مادة للدرس عند الأندلسيين فهي:

- الجامع في الحروف وكتاب العشرات.
- كتاب الحلي والشيات.
- كتاب المثلث أو المثلثات.
- كتاب الضاد والظاء(3 مجلدات).
- متاب التعريض والتصريح، ويذكر أيضا بعنوان: التعريض فيما يدور بين الناس في كلامهم من المعاريض.
- ما يجوز للشاعر في الضرورة.
- إعراب الدريدية (شرح نحوي لقصيدة ابن دريد المعروفة بـ (المقصورة).

---

*يشير ابن رشيق في عدة مواضع من العمدة إلى شيخه القزّاز، ويوثق بعض المعلومات اللغوية والشعرية والرواية بشكل عام، التي كان يحوزها أستاذه، إذ أنه روى مباشرة عن أعلام المشارقة كالآمدي، وغيره. وهو في نظرنا يمثل حلقة اتصال الرواية بين المشارقة والمغاربة والأندلسيين.

ينظر: ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: توفيق النيفر، مختار العبيدي، جمال حماده، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 2009 م. ج1، ص 303، حيث يشير ابن رشيق إلى سند الرواية كاملا عن شيخه القزاز عن الآمدي عن ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني، عن أبي زيد الأنصاري، وروى كذلك ابن رشيق في موضع آخر من العمدة خبرا عن شيخه القزّار عن الآمدي عن علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد المبرد، ج2، ص 883، وله ذكر في عدة مواضع من الكتاب، مثلا: ج1، الصفحات 141، 195، 232، 265، 281، 304، وج 2، ص 812.

- شرح رسالة البلاغة في عدة مجلدات.
- شرح أبيات المعاني في شعر المتنبي.
- كتاب ما أخذ عن المتنبي من اللحن والغلط.
- كتاب أدب السلطان والتأدب له.[1]

وكان مخلوف بن علي القيرواني شاعرا من شعراء القيروان في أواخر القرن الرابع / العاشر، ومنطلق القرن الخامس / الحادي عشر، قد خرج إلى الأندلس، فقد ذكر في عداد نفر من الشعراء كانوا مجتمعين في ندوة، وكان من بينهم الشاعر الأندلسي ابن دراج القسطلّي (ت 421 هـ / 1030م).[2]

وفي هذه الفترة برز نجم إبراهيم الحصري(ت 413 هـ/ 1022 م) إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني، صاحب " زهر الآداب وثمار الألباب" و" جمع الجواهر في الملح والنوادر " وكتاب "نور الطرف ونور الظرف" وكتاب " المصون في سر الهوى المكنون" وكان مصنفه " زهر الآداب" قد أهمل في بلاده، ولكنه كان معروفا في البلاد الأندلسية، حيث جرى تقليده، وكان مدرجا ضمن برنامج الدراسات الأدبية.[3]

---

(1) أورد هذه القائمة مفصلة، الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 140 وما بعدها، وذكر ابن خير الأشبيلي في فهرسته كتابه" الحروف في النحو" ص 488، 363، وذكر كتابه " الظاء" في ثلاثة أجزاء، ص 362، 363، 504 . وذكر السيوطي في بغية الوعاة أثناء ترجمته للقزاز عديد مؤلفاته، ص 84، رقم (120). وذكر ابن الساعي عدة مؤلفات للقزاز مع اختلاف طفيف في عناوينها./ ينظر: الدر الثمين في أسماء المصنفين، ص 197، 198، وذكر أن وفاته سنة (422 هـ).

2 - الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري. ج1، ص 157.

3 - الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 108 وما بعدها. وقد ذكر المستشرق هنري بيريس، هذه الفكرة، في كتابه: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة، وموضوعاته الرئيسية، وقيمته التوثيقية، ص 35، حيث قال إن كتابه" زهر الآداب" كان مدرجا ضمن برنامج الدراسات الأدبية، وذكر له بيريس أبياتا تضايق فيها من بعوض بلنسية ، ص 139. وهي عند المقري في النفح، ج3، ص 330، وعند ابن دحية في المطرب، ص 90. والظاهر أن الأستاذ بيريس قد خلط في نسبة هذه الأبيات بينه وبين أبي الحسن الحصري الضرير المقرئ، صاحب الموشح الشهير" ياليل الصب متى غده".

فابن دحية يكني عن صاحب هذه الأبيات باسم أبى الحسن الحصري، ولم يذكر المقري في النفح هذه الكنية، وإنما اكتفى بذكر الحصري فقط وساق الأبيات.

فأبو إسحاق إبراهيم الحصري هو خال الحصري الضرير أو ابن خالته، ينظر: مقدمة كتاب " الحصري القيراوني وهو مجموعة أعمال الحصري الشعرية، وبعض رسائله النثرية، للأستاذين: محمد المرزوقي، والجيلالي بن الحاج يحي. ط. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 2009 م، ص 40. والأبيات مبثوثة هناك في الديوان، ص 234. أما بخصوص كتابه " زهر الآداب" وكيف عرفه الأندلسيون فلدينا عدة إشارات، أورد إحداها ابن خير الإشبيلي في فهرسته، (ص380) حيث يذكر أنه حدّث بهذا الكتاب وساق السند إلى أن وصل إلى أحد علماء الأندلس وهو أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني، الذي روى الكتاب سندا عن سند حتى وصل إلى أبي إسحاق الحصري، صاحب الكتاب وهو كلام له دلالتين:

ولم يكن حظ الشاعر أبي الطاهر الجبنياني (ت 415 هـ /1024 م – 1025 م) سعيدا، فقد أخرجته ديون استغرقت ذمته من صفاقس إلى القيروان، ثم هاجر إلى الأندلس حيث نزل ببلاط الموفق مجاهد العامري، أمير دانية وجزر البليار، فأكرمه وعظّمه وأدناه وقربه لما وجد فيه من جليل الخصال، وحسد على مكانه منه، فوجد مذبوحا في منزله بميورقة.[1]

وكانت حظوظ شعراء إفريقية التونسية مع مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية فقد مدحه الشاعر الجبنياني الصفاقسي ، وقبله بقليل، ابن الصفار السوسي، علي بن أحمد (406 هـ/ 1015 – 1016م) بقصيدة تقليدية المنحى نجح فيها إلى حد بعيد في تجديد الغرض – الوهمي في أغلب الأحيان - المتعلق بعبور الشاعر العربي غمار الصحراء قصد لقاء ممدوحه الواسع الكرم.[2]

وتطالعنا قائمة الأدباء والنقاد الأفارقة الذين تواصلوا مع الأندلس ثقافيا، وإذا بها تضم واحدا من النقاد والأدباء الكبار الذين كان لهم دور بالغ الأهمية في إثراء الحياة الأدبية والنقدية التونسية والأندلسية والعربية بشكل عام، من خلال مصنفاته ، أو مصنفات غيره التي أدخلها هوالى شبه جزيرة أيبيريا، وهو أبوالطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي(ت 441 هـ/ 1049 م – 50) يعرف بالبرقي.

أصله من القيروان وبها تعلم وتأدب، ثم سكن المهدية، وسافر إلى عدة بلدان، فمن الأندلس حيث كان موجودا على وجه الخصوص سنة (406 هـ / 1024 -25) ارتحل إلى عدة بلدان منها مصر وصقلية.

=الأولى: وصول الكتاب إلى الأندلس رواية عن طريق الإسناد المعنعن المثبت، وذلك عن طريق تلاميذ أبي إسحاق الحصري مباشرة أو تلامذتهم، ونستطيع أن نطمئن إلى حضور هذا الكتاب في عصر الطوائف، بدليل روايته من طرف الطبني القرطبي(ت 456 هـ) الذي درس في القيروان قبل أن يعود بأدراجه إلى قرطبة في الأندلس.

كما نطمئن إلى حضور الكتاب حتى في زمن متأخر نسبيا بدليل أن ابن خير الإشبيلي صاحب الفهرسة المتوفى عام (575 هـ/ 1179م) كان ضمن السلسلة الإسنادية التي روت هذا الكتاب - على الأقل - حتى زمنه (عصر المرابطين والموحدين).

[1] الشاذلي بويحيى: الحياة الدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 104 وما بعدها، والمصدر نفسه ج2، ص 494. وله ترجمة عند ابن الأبار في التكملة (الهراس) ج2، ص 302، رقم 871.

[2] الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 86، 87.

وواضح من سيرة هذا الرجل، الشاعر، الناقد، الأديب، أنه كان متنوع الثقافة، غزير المعارف، فقد قرأ على أبي إسحاق الحصري صاحب زهر الآداب، وأخذ عنه جميع تواليفه، ولا نستبعد أنه من تلاميذه المباشرين الذين أدخلوا مصنفاته إلى الأندلس، فقد ذكرنا من قبل أن كتاب " زهر الآداب " للحصري كان مدرجا ضمن قائمة الكتب التي تدرس في الأندلس في عصر الطوائف.

وروى عن أبي يعقوب النجيرمي" أدب الكاتب" لابن قتيبة، وقد ساق لنا ابن الأبار في ترجمته للرجل، السلسلة الإسنادية التي روى بها البرقي كتاب ابن قتيبة حيث وصلت إلى المؤلف نفسه.[1]

وروى ديوان الشاعر المتبني عن الحسين بن حاتم الأزدي، الذي أخذه عن ابن جني عن الشاعر نفسه.[2]

ومن يطالع كتابه " المختار من شعر بشار" يدرك مدى براعة الرجل اللغوية، ومقدرته في التصرف في أفانين القول وضروب الكلام* .

---

[1] -ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج1، ص 159: رقم (501)، وله ترجمة عند السيوطي في بغية الوعاة، ص 363، رقم (907)/ الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 248 ، 249، (وله عنده ترجمة مستفيضة)./ وقد كتب العلامة عبد العزيز الميمني ترجمة ضافية لحياة أبي الطاهر التجيبي، في تقديمه لكتابة "المختار من شعر بشار اختيار الخالديين" بتحقيق، السيد محمد بدر الدين العلوي، مكتبة: الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ط1، 2005/ / 1425 هـ (ينظر الصفحات الأولى من التقديم).

[2] -الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، 249.

* -كان كتاب التجيبي هذا المذكور درة يتيمة، وفريدة عجيبة، أوشك أن يصيبها البلي، ويتجيفها النسيان، وكادت هذه المعلمة الثقافية أن تحجب عن العيون، وتطالها يد السنون لو لا أن قيض الله له من الباحثين المحققين، من نقض عنها الغبار، وبعثها تترى من سالف الأعصار، حيث أفاق الدهر فيه عن رقدته، ولولاه لبقيت أقفال الكتاب متصونة عن ودائعها، حيث قام محمد بدر الدين العلوي أحد معلمي اللغة العربية بالهند، من تحقيقه وتصحيحه والتعليق عليه ووضع فهارسته عام (1934 م)، وقدم له العلامة عبد العزيز الميمني.

رغم أن المرحوم الشاذلي بويحيى قد أشار إلى الكتاب في عنوانه الأصلي يحمل اسم "الاختيار من شعر بشار للأخوين الخالدين"ولكنه نشر بعنوان مخطئ وهو " المختار من شعر بشار، اختيار الخالديين، وشرحه لأبي الطاهر إسماعيل بن زيادة الله التجيبي البرقي." /الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري .ج1.ص 250.

وفي كتاب أبي الطاهر إسماعيل بن زيادة الله التجيبي " المختار من شعر بشار" ما يشير إلى وجوده بالأندلس وإلى تواصله مع الأندلسيين، فقال في أحد مواضع الكتاب بعد أن أنشد شعرا: " وعلى ذكر هذا الشعر، فقد كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ./ ص 14. وقال في موضع آخر من الكتاب بعد أن وصف مرضا شديدا ألم له:

" ثم انصرفت في صباح تلك الليلة، فلقيت صديقا لي من أهل العلم قرطبيا، سكن مالقة فأخبرته الخبر وأنشدته الشعر"ص16.

وذكر في موضع آخر من الكتاب ما يفيد أن له أصدقاء أندلسيين قد تواصل معهم، خارج الأندلس فقال:" مشيت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يونس الأنصاري الإشبيلي رحمه الله تعالى – إلى ناحية وسيم، قرية تشرف على جيزة مصر." ص 126.

ومرة أخرى يتبين لنا أهمية السند عند علماء القيروان في جميع مروياتهم الأدبية والشعرية، فضلا عن المعارف الفقهية، وسنرى عند من ترجم لحياة التجيبي: أنه تتلمذ عليه أحد كبار علماء الأندلس في عصر الطوائف، وهو أبو مروان الطبني، الذي لقيه بالإسكندرية في رحلته لأداء الفريضة[1].

وربما كان هذا – في نظرنا -من أهم الأسباب في دخول علم هذا الرجل ومصنفاته ومصنفات شيوخه القيروانيين كالحصري (أبو إسحاق) ، وعبد الكريم النهشلي ، إلى الأندلس، وشيوعها على نحو واسع، إذا عرفنا مكانة العلاّمة الطبني ، وسعة روايته وكثرة تلاميذه.

وقد ذكره ابن الأبار قائلا: "وذكر في الرائق بأخبار الحدائق من تأليفه، وقرأت ذلك بخطه"[2] مما يوحي بأن له مؤلفا آخر.

وكان حظ مملكة بني ذي النون في طليطلة من شعر شعراء إفريقية التونسية مثبت كذلك ، حيث تذكر لنا المصادر الأندلسية الشاعر عبد العزيز بن محمد السويسي، حيث ذكره ابن بسام في ذخيرته في عداد الشعراء الذين احتفلوا بصنيع الإعذار الذي أقامه ذو النون صاحب طليطلة لحفيده، حيث أنشده السوسي قصيدة سنة (455 هـ/ 1063 م) أورد منها ابن بسام سبعة أبيات فقط منها:

- لما بنيت من المكارم والعلا ما جاوز الجوزاء في الإجلال
- أعملت رأيك في بناء مكرم ما دار قط لآملٍ في بال
- لو زاره كسرى أنو شروان لم يصرف إلى الإيوان لحظ مبال[3]

وتستمر جهود الأفارقة التونسيون وإسهاماتهم في الحياة العلمية، ومشاركتهم في الحياة الأدبية والنقدية في أندلس عصر الطوائف، وتطالعنا المصادر هذه المرة على اسم أبي القاسم عبد الدائم بن مرزوق المعروف باسم ابن خير، والذي توفي بطليطلة عام (472 هـ/ 1079 م - 1080م) حيث قام بنشر عدد هام من كتب اللغة والأدب بإفريقية والأندلس، فقد أخذ تلك العلوم من مصادرها الأولى، ومنابعها الأصلية في المشرق. وأسهم في نشرها عن طريق التدريس، وكان قد روى شعر أبي العلاء المعري عن الشاعر نفسه، وهو أول من أدخله إلى إفريقية والأندلس، واستمع إلى دروس ابن

---

[1] - ابن الأبار: التكملة، ص 159.

[2] - التكملة ، ج1، ص 159.

[3] - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق126/1/4، 127. الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 283،284.

عبد البر. كما تتلمذ له عدة طلاب من بينهم اللغوي الكبير ابن السيد البطليوسي ،وقد وضع شرحا على ديوان المتنبي سماه "المكتفي"، كما ألف معجما استعمله أبو حيان في الارتشاف.[1]

وإذا استثنينا الداخلين إلى الأندلس من العلماء والأدباء والشعراء من الإفريقيين التونسيين ، والذين دخلوا شبه الجزيرة بداعي التجوال الطوعي، أو بسبب دعوات بعض حكام أو ملوك الطوائف، أو بسبب ضيق العيش وغلبة الدين، وجدنا طائفة أخرى من الأفارقة ممن اضطرتهم الظروف السياسية إلى الهجرة نحو الأندلس، وخاصة مع زحف الهلاليين وخراب القيروان في منتصف القرن الخامس الهجري.

فقد هاجر العشرات من أولي العلم والنباهة والفهم، علماء وأدباء وشعراء إلى الأندلس التي احتضنتهم من خلال حواضرها الشهيرة في تلك الفترة، مثل، قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن، ولأنها كذلك أكثر أمنا واستقرارا وازدهارا، على الرغم من التناحر القائم بين ملوك

---

[1] -الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 339، 340، وذكره السيوطي في بغية الوعاة، وهو الذي ذكر قضية استفادة أبي حيان في " الارتشاف" من عبد الدائم بن مرزوق القيرواني، ص 546، رقم (1474). وذكره ابن بشكوال كذلك، وذكر استفادة أبي حيان منه، في الصلة (العلمية) . ج2، ص 30. رقم (849). وذكر تاريخ وفاته الضبي في البغية ، ص 348 . رقم (1128)، وذكره ابن دحية الكلبي بإجلال وقال : " لقي المقري سنة 423 هـ. وقرأ عليه " المطرب. ص 50 .

ويقول عنه الأستاذ محمد بن شريفة:" ولعبد الدايم مصنفاته لغوية وأدبية منها: معجم لغوي ، سماه (حلى العلى) ينقل عنه اللبلي في شرح الفصيح، وأبوحيان في ارتشاف الضرب، والسيوطي في جمع الجوامع. ومنها شرح لشعر المتنبي أسماه بالمكتفي، نقل عنه ابن الأبار في التكملة ، وله شرح لسقط الزند، ولم يذكر هذا الشرح أحد من الأقدمين، ولا من المحدثين" شرح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، ص 16، 17. وقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة

(القسم السادس) في ترجمة ابن الحداد القيسي أنه روى شعر أبي العلاء المعري عن عبد الدائم القيرواني" المصدر نفسه، ص 18.

ويذكر الأستاذ بن شريفة نقلا عن مخطوط قرأه، وهو من مخطوطات الزاوية الناصرية، والمحفوظ في الخزانة العامة بالرباط، ما نصه في البداية: " قال أبو القاسم عبد الدايم بن مرزوق، وقد قرأت على أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، بمعرّة النعمان في شهور سنة (423 هـ)".

شرح أندلسية غير معروفة، ص 13.

ويقول الأستاذ بن شريفة في السياق نفسه تقريبا، بعد أن أورد مجموعة من الأسانيد ممن رووا ديوان " سقط الزند" للمعري: "ولعل عبد الدايم القيرواني كان أبعد المذكورين أثرا في نشر سقط الزند وضوئه في جهات مختلفة من الأندلس، ومنها ألمرية وطليطلة وسرقسطة ، فقد روى عنه أبو الحسن علي بن محمد بن السيد، وهو أخو أبي محمد ابن السيد المشهور، وكبيره وأستاذه، وأبو الحسن الوقشي، وأبو عبد الله بن الحداد الشاعر المعروف، وأبو بكر بن أغلب المعروف بابن أبي الدّوس." المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

ويذكر كذلك المحقق في المصدر نفسه سند أبي بكر بن أغلب المعروف بابن الدوس (ت 511 هـ) في روايته لسقط الزند اتصالا بسند عبد الدايم بن مرزوق – ص 22. وسند أبي جعفر الوقّشي في روايته لسقط الزند اتصالا بسند عبد الدايم بن مرزوق، ص 24، 25.

طوائفها، أو بينهم وبين ممالك الشمال المسيحي. وقد استفادت الأندلس من ثقافة وعلم هؤلاء الداخلين إليها والمتحولين عن أوطانهم، هربا من جحيم الزحفة الهلالية الشهيرة، باعتبارهم نماذج مثقفة ورفيعة، وإن شئت قلت إن هذه النخبة العلمية الممتازة من أحسن النخب العلمية التي أنجبتها إفريقية التونسية عبر تاريخها الثقافي الطويل.

لقد مكنت فترة حكم المعز بن باديس الصنهاجي (من 398 هـ إلى 454 هـ/ 1008 م – 1062م) الطويلة، إذ تعد من أطول فترات حكم الصنهاجيين ومن أغزرها علما وإنتاجا ثقافيا، حيث أنجبت هذه الفترة الأفداد من العلماء الأفارقة، استفادت منهم الثقافة العربية والإسلامية، وخاصة في الأندلس، وذلك لنفاسة ما أدخلوه إليها من علوم وفنون ومؤلفات شيوخهم، أو شيوخ شيوخهم.

ومثال ذلك، الأديب الشاعر الحلواني، أبوالحسن عبد الكريم بن فضّال القيرواني، الذي اضطر إلى الخروج من القيروان بعد دخول الهلاليين في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وبعد أن أقام فترة بصقلية، دخل الأندلس وعاش بها، على ما يظهر حتى وفاته عن سن تربو عن السبعين سنة.[1]

ويبدو أن أثر هذا الشاعر قد بقي حتى زمن ابن بسام الأندلسي الذي نقل من خطه مباشرة كما ذكر[2] ومدحه قائلا:" وله كلام في النسيب رائق، ومتأخر سابق، ومديحه أيضا عليه طلاوة، وبالجملة ففي ألفاظ الحلواني حلاوة"[3].

وفحص دقيق لمحتوى الأبيات الشعرية التي ذكرها ابن بسام للشاعر الحلواني تجعلنا نقر بأن الحلواني أديب محترم جدا في فنه.

ومثله ابن الطلاء الشاعر، أبو محمد المهدوي، الذي هاجر إلى الأندلس من زمن غير محدد، وقد يكون ذلك مع زحفه بني هلال ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري.[4]

---

[1] - الشاذلي بو يحي: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1 ،ص258 وما بعدها/ ابن بسام، الذخيرة، ق 1/4/ من ص 284، إلى ص 300 . وقد قال عنه ابن بسام في موضع آخر من الكتاب: " الحلواني تلميذ ابن رشيق" ق1/2/914 حيث ذكر له بيتين من الشعر، وكذلك عنده في الذخيرة ، ق1/1/506 وذكره، ابن دحية الكلبي في المطرب، ص 64، 75.

[2] - الذخيرة : ق4/1/284.

[3] - المصدر نفسه: الصفحة نفسها

[4] - الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري: ج1، ص 232، 233.

وقد قال عنه ابن بسام " أحد الشعراء الطارئين على الأندلس[1] وأحد أضياف المعتمد أضاف في موضع آخر.[2]

ويلتحق بالشاعرين السابقين أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم القرشي الخطيب، النقيب المسمى ابن الفكّاه، الذي كان حيا بعد سنة (460 هـ/1067م)، والذي غادر إفريقية، حيث أصبحت الحياة في نظره لا تطاق، بسبب أعمال التخريب التي كان يقوم البدو من بني هلال، وذهب يمدح أمراء بني حماد وهو الناصر بن علّناس، صاحب بجاية قبل الهجرة إلى الأندلس، إذن فقد كان حيا بعد سنة (460 هـ) وهو العام الذي أسس فيه الناصر مدينة بجاية.[3]

ولا يحسن بنا الحديث عن الداخلين من الأفارقة التونسيين إلى الأندلس في هذه الفترة، دون أن نذكر علمين كبيرين في سماء الإبداع الأدبي في القرن الخامس، وهما: ابن شرف القيرواني، والحصري الضرير، لما لهما من وزن كبير في حقل الأدب والشعر والنقد، وتميز الحصري الضرير على ابن شرف بتخصيصه في حقل الدراسات القرآنية والقراءات، وله فيه باع طويل وتآليف وكان دخول هذين الرجلين إلى الأندلس، إيذانا بتميز العلاقات الثقافية، بين القطرين لما لهما من وزن، ولما حملاه من تأثيرات شتى إلى الأندلس، جعلت من ترجموا لهما يتغنون بفضلهما طويلا، ويشيدون بنتاج الرجلين وشهرتهما التي طبقت الآفاق، ومكانتيهما التي تبوّءاها في مسقط رأسيهما وفي الأندلس.

أما ابن شرف(390/460هـ - 1000 م – 1067م) فكان من ألمع رجال الأدب ومن الشعراء الفحول المقدمين، ومن أبرز نقاد الغرب الإسلامي في تلك الحقبة. من أسرة عربية استقرت بإفريقية منذ الفتح الإسلامي.

تلقى ابن شرف دعوات بعض ملوك الطوائف في الأندلس، والظاهر أن خراب القيروان من بين أهم الأسباب لهجرته، وهجرة أقرانه من العلماء والأدباء ، وهو ما زاد من توهج الثقافة الأندلسية التي كانت متوجهة أصلا في تلك الفترة ، ونستطيع أن نؤكد ذلك من خلال كلام ابن بشكوال بأن

---

[1] - الذخيرة: ق 4/1/288، وله ترجمة عنده في المصدر نفسه، ق4/1/ص 360 وما بعدها / وقد ذكره في موضع آخر من ذخيرته ، ق1/2/842.

[2] - المصدر نفسه: ق 4/1/360.

[3] - الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1 ، ص 235، 236/ المقري: نفح الطيب ج3، ص 64، 65.

ابن شرف خرج عن القيروان عند اشتداد فتنة العرب عليها سنة (447هـ) ، وقدم الأندلس وسكن ألمرية ، بعد أن تتلمذ في القيروان على كبار أعلامها كأبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي.[1]

أما ما يدعم قولنا بأنه دعي إلى الأندلس من قبل بعض ملوك طوائفها، خاصة ابن عباد، فقد ذكرنا رحلته إلى جانب ابن رشيق صاحب العمدة ، الذي بقي حبيس صقلية لم يفارقها إلى أن مات بها ،أما ابن شرف فقد قدم الأندلس وطرز تأليفه " أبكار الأفكار" باسم عباد وبعث به إليه على البعاد.[2] وكان لعبّاد همة في اصطحاب الأحرار، واستجلاب ذوي الأفطار ينصب لذلك الحبائل ، ويعمل فيه الحق والباطل ، كما قال صاحب الذخيرة.[3]

وإنه لمن الصعب أن نحدّد بالتفصيل نشأة كتابه " أبكار الأفكار" ومراحل تأليفه فقد يكون كاتبه أهداه إلى ابن أبي الرجال* [4] المتوفى بالقيروان سنة (426 هـ/ 1034 – 1035) وإننا نعلم من جانب آخر أنه كان ينوي إهداءه منذ دخوله الأندلس قبيل (456 هـ/ 1063 -64) إلى باديس بن حبّوس أمير غرناطة، وأن رأيه قد استقر في خاتمة الأمر على إرساله إلى المعتضد الذي لم ينجح في استجلاب الشاعر الإفريقي إلى بلاطه في إشبيلية.[5]

وأخيرا فإن ابن شرف كان فقيها مشهورا، وبهذه الصفة استقبله علماء الأندلس ، في حين كان الأمراء يعنون به كشاعر مديح.[6]

---

[1] ابن بشكوال: الصلة ، ص 215.

[2] ابن بسام: الذخيرة، ق4/1/177.

[3] المصدر نفسه : ص 170.

* ابن أبي الرجال الكاتب، أبو الحسن علي بن أبي الرجال (ت 426 هـ/ 1034 م) ، تولى ديوان الإنشاء زمن حكم باديس (386 هـ / 406 هـ - 996 م/ 1016) ثم استوزره المعز بن باديس سنة (406 هـ/ 1016م) أحد كبار القيروان في العصر الصنهاجي، وقد أهداه ابن رشيق كتابه " العمدة " كما دل على ذلك في فاتحة الكتاب / العمدة ، ج1، ص 55، 56. وينظر هامش الصفحتين والكلام للمحققين. وقال عنه في موضع آخر للاستشهاد:" كما قال واحد دهرنا وسيّد كتاب عصرنا أبو الحسن" ج1 ص 93. وله ذكر عنده في أكثر من موضع ، على سبيل المثال : ج1، الصفحات، 155، 388، 516، 544، 539.

4 الشادلي بويحيى : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج،1 ص 222.

5 المصدر نفسه: ص 225.

6 ترجمته عند ابن دحية :المطرب، ص68 ومابعدها./ابن بسام، ق4/1/169 ومابعدها، وفي المصدر نفسه، ق/1/1/ص91 وهامشها./ابن بشكوال: الصلة (العلمية)، ج، ص215،رقم(1334)./السيوطي:البغية، ص،116 ،رقم(190).حيث خالف ما أجمع عليه من ترجموا له بأن وفاته سنة(460هـ) وذكر السيوطي بأنه توفي سنة(518هـ)./وله متفرقات عند المقري في النفح، ج3 ،ص329 ،وص393 وما بعدها./ الشادلي بويحي: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص 213، إلى 228.

ويذكر ابن سعيد في ترجمة ابنه أبي الفضل جعفر بن أبي عبد الله بن شرف(ت 534 هـ) أنه دخل الأندلس صغيرا مع أبيه[1] مما يجعلنا نرجح فرضية هجرة كل العائلة بعد خراب القيروان. ولم لا وقد تهيأت الأسباب لذلك، فمن دمار القيروان بعد دخول الهلاليين إليها، إلى استدعائه من قبل بعض ملوك الطوائف وخاصة ابن عباد.

ومن جهة أخرى ذكر ابن سعيد أنه اجتمع في مجلس المأمون بن يحي بن إسماعيل ابن شرف حسنة القيروان، وعبد الله بن خليفة المصري الحكيم، وأبو الفضل البغدادي الأديب.[2] مما يؤكد فرضية شهرته في بلاطات ملوك الطوائف جميعا.

وما يهمنا من شهرة ابن شرف ليس في شيوع أدبه فقط (شعره ونثره)، وإنما مصنفاته التي هاجرت معه إلى الأندلس على كثرتها، فقد كان ابن شرف من المؤلفين المكثرين والمجوّدين، يدل على ذلك قول ابن دحية:" ولابن شرف مصنفات عديدة وأوضاع مفيدة منها:" أبكار الأفكار " في سفرين، اختراع كله في الحكم والأمثال، والنظم والنثر، وكتاب
" أعلام الكلام " مخترع أيضا، وكتابه المسمى أيضا بـ " لُمح الملح " إلى غير ذلك.[3] ومنها كتاب " الزمان " عارض به كتاب " كليلة ودمنة " و كتابه "عقيل وعليم" وكتابه في " النحو" على طريق البرهان، وكتابه في " العروض" كشف به عن دقائق لم يسبق إليها العروضيون، ومن النوادر جدا جدول جعله صفحة واحدة، كأنه صفحة من الزيج، يتضمن استخراج ما سئل عنه من أبيات الأعاريض كلها، سهلة كانت أو صعبة، وكذلك له رسالة في اللعب التي تسمى " فريسيا" أي ملكة اللعب.[4]

ومرة أخرى يتدخل السند ليوثق رواية العلماء التونسيين والقيروانيين خاصة الداخلين إلى الأندلس، مما يثبت صحة ما نسب إليهم من أشعار ومقطعات نثرية ومؤلفات، ففي حديث ابن دحية عن

---

[1] - المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 230. وانظر ترجمته في المصادر الآتية، الضبي: البغية، ص 218، رقم (610)./ ابن بشكوال: الصلة، ج1، ص 117، 118، رقم (302). حيث ذكر عنه معلومات مهمة .وذكر تاريخ ميلاده ووفاته (444 هـ / 534 هـ) (طبعة دار الكتب العلمية)./ ابن خاقان قلائد العقيان ، ص 791، وما بعدها./ وله شعر عند المقري في النفح. ج3، ص 371، و 393 وما بعدها.

[2] - المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 12.

[3] - المطرب، ص 69.

[4] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مؤلفات ابن شرف قال: حدّثني بها جماعة لا أحصيهم كثرة. منهم :الوزير الفقيه المقرئ المحدث الشاعر اللغوي، النحوي، المهندس الطبيب، واحد عصره، وفريد دهره، أبو بكر محمد بن الطفيل القيسي، عن ولده العالم الرباني روضة العلم الأنف أبي الفضل جعفر بن محمد بن شرف.[1] و يقول في موضع آخر:" وسندنا إلى عبد أبي محمد بن شرف.[2]

ويبدو أن الأندلسيين قد صنعوا محاكاة ساخرة لهذا الكتاب(أو لعنوانه فقط) في صيغة (أفكارالأبكار)، أي تأملات العذارى .[3]

أما الحصري القيرواني الضرير، فقد ولد بالقيروان حوالي سنة (420 هـ/ 1029 م) كان ابن أخت إبراهيم الحصري صاحب " زهر الآداب" وهذا أرجح من أن يكون ابن خالته.[4]

وقد خرج من مسقط رأسه سنة (499 هـ/ 1057 -1058) إبان زحفة بني هلال، فأقام زمن بسبتة قبل أن يدخل الأندلس حوالي سنة (462 هـ / 1069 م) ملبيا دعوة قديمة من المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وأقام بهذه المدينة إلى حدود سنة (468 هـ، 1075 -76) ثم إنه طاف

---

[1] - المطرب، ص 69.

[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون . كتابه " سر البر" وقال: لابن شرف الإشبيلي القيرواني، (ت 960 هـ) ورجزه المسمى بنجح النصح، **ص 986**.، وذكر الكتاب نفسه البغدادي في إيضاح المكنون، ج1 ، ص10. وقال البغدادي في هدية العارفين: " ابن شرف القيرواني ، له " أبكار الأفكار" نظما ونثرا ، حجج النصح، سر البر، ج2، ص 72، وقد اشتبه الأمر على الفتح بن خاقان في القلائد، فنسب بعض مؤلفات ابن شرف (الأب) إلى ابنه أبي الفضل، مثل كتابي "سر البرء" و"نجح النصح" ص 792.

[3] - الشاذلي بويحيى :" الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1 ، ص 222.

[4] - المصدر نفسه: ص 390 ، وحول حياته ومصادر ترجمته: ينظر المصدر السابق (بويحيى)، ج1 ، من ص 390 إلى ص 398./ وانظر مقدمة ديوانه التي صنعها المحققان، محمد المرزوقي، الجيلاني ابن الحاج يحي، وفيه تفصيل كبير في حياته وعصره، ونسبته، ونقد كبير لمن ترجموا له من أصحاب التراجم والطبقات، وأخلطوا بينه وبين إبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب، من ص 37 إلى ص 140.

الحميدي: جذوة المقتبس، ص 282، 283، رقم (716)/ الضبي: بغية الملتمس، ص 372/، 373، (1229) ابن بسام: الدخيرة، ق1/4/ص 245 وما بعدها./ ابن بشكوال: الصلة ، (العصرية) ص 345، 346(930)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 385، 386/ . ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء. ج1 ، ص 764، 765، (2211).وقد ذكر ابن الجزري أن وفاته سنة (468 هـ)، وهو خطأ والثابت عند جميع من ترجموا له أنه توفي سنة (488 هـ)./ وله كذلك في الذخيرة، ق 66/1/2 وما بعدها. وقد ذكره ابن الأبار في الحلة السيراء(دار الكتب العلمية)، ص 211، 2012./ وله بعض الأشعار عند ابن دحية في المطرب: الصفحات، 27، 32، 74، 78، 82./ حاجب خليفة: كشف الظنون، ج2، ص 1337./ البغدادي: إيضاح المكنون، ج1 ، ص 110./ البغدادي : هدية العارفين: ج1 ، ص 693، وفي غيرها من المصادر والمراجع./ كذلك ، عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 101، 102 .

بأنحاء الأندلس وقد تسابق إلى دعوته ملوك الطوائف الذين تنافسوا في إكرامه.[1] وقد قال ابن بسام في ذلك:" طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان ، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض النسيم وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم.[2]

وقد أقام على وجه الخصوص بمالقة ودانية وبلنسية وألمرية ومرسية قبل النزول في سنة (483 هـ/ 1090 – 91) بطنجة حيث أدركته الوفاة سنة (488 هـ/ 1095 م)." وهو من أبرز وجوه النهضة الأدبية التي شهدها عهد بن زيري ، وقد أسهم إلى جانب غيره من المغتربين الأفارقة ، ونشر أنوارها الباهرة بالأندلس، حيث كان يعد زعيم جماعة، على حد قول ابن بسام"[3].

ورغم تقليل عبد الواحد المراكشي من شاعرية الحصري القيرواني الضرير، قائلا: كان هذا الرجل - أعني الحصري الأعمى - أسرع الناس في الشعر خاطرا، إلا أنه كان قليل الجيد منه"[4] إلا أن حكمه هذا لا ينقص من قيمة هذا الشاعر العالم في شيء، بل إننا نثق في حكم صاحب الذخيرة عليه بأنه: " بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة."[5] ، حمل الحصري معه إلى الأندلس مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة منها:

- قصيدة تعليمية تقع في أكثر من 200 بيت في قراءة نافع*.

---

[1] الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، ج1، ص 391.

[2] الدخيرة: ق 4/1/246.

[3] الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، ج1، ص391. وقول ابن بسام الذي أشار إليه المرحوم بويحيى في الذخيرة: ق4/1/245، 246.

[4] - المعجب: ص 101.

[5] - الذخيرة: ق4/1/245، 246.

* - الرائية وهي منظومة في قراءة نافع، عارض بها قصيدة أبي مزاحم موسى بن عبد الله بن يحي بن خاقان الخاقاني البغدادي(248 هـ/ 325 هـ - 862 م/ 937 م) وقد قال الحصري في نظمه لها : إنها بلغت (209) بيتا -

على مائتي بيت تُنيف بتسعة❖❖❖ وقد نظمت نظم الجمان على النحر.

ينظر: محمد المرزوقي، الجيلاني بن الحاج يحي: علي الحصري القيرواني، هامش ص 99، و ص 100 وهامشها. وذكرها البغدادي في هدية العارفين، /1/ 693./ ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء 1/ 764 وأضاف : وهو ناظم السؤالي الدالي ملغزا: - سألتكم يأهل المغرب كله. والذي أجابه عنه الشاطبي./ ابن بشكوال: الصلة، ص 346، وقد أكد بأن هذه القصيدة مائتان وتسعة أبيات./ ذكرها حاجب خليفة في كشف الظنون ،وقال : وهو صاحب القصيدة الحصرية في قراءة نافع وهي مائة بيت وتسعة أبيات /2/1337.

وهو أخطأ في عدها كما هو مثبت عند غيره من المحققين: علي الحصري القيرواني، من ص219 إلى ص224./ وذكره بتيين منه ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء/1/765.

- المستحسن من الأشعار[**] ، وهو مجموع من القصائد التي قالها في مدح المعتمد بن عباد .
- المعشرات[***] : وهي معشرات من الأبيات يستعمل فيها كل حرف من حروف المعجم رويا في القافية، وحرف ابتداء في الأبيات العشرة التي تتألف منها كل واحدة من القصائد، التسع والعشرين، مع اعتبار لام الألف (لا) بمثابة حرف.
- اقتراح القريح واجتراح الجريح[****] وهذا المصنف الذي ألفه عند موت ابنه المفضل عبد الغني في سنة (475 هـ/ 1082 - 83 م) على الأرجح إثر مرض رهيب أصابه ، وبعد نشوز امه الخائنة وهربها.
- وهو صاحب الموشح الشهير (ياليل الصب متى غده) وهو قصيدة مدح تعد (99) بيتا في الثناء على محمد بن طاهر أمير مرسية.[1]

طاف الحصري الأندلس، وكانت له مشاهد في بلاطات عديد من ملوك طوائفها، حيث وجدها في أوج نضجها، وقمة تطورها، وكانت بصماته على العلم والأدب، عند أكثر من رئيس من رؤساء الطوائف، فمن بلاط المعتمد بن عباد في إشبيلية، إلى الجزائر الشرقية للأندلس(ميورقة، ومنورقة، وياسبة) عند علي بن مجاهد العامري، إلى مملكة سرقسطة، حيث خلع عليه الصلات السنية، والأعطيات المجزلة للمقتدر بالله أحمد بن هود ، ثم مملكة ألمرية عند صاحبها المعتصم بن صمادح ، حيث وجد عنده كل تقدير وترحيب، ثم إلى إمارة

[**] ذكره المراكشي في المعجب وقال: إن الحصري لا قى المعتمد أيام سقوط دولته، فرفع إليه أشعارا قديمة قد كان مدحه بها وأضاف قصيدة استجدها عند وصوله إليه/ ص 101/. كلام المحققين المرزوقي، الجيلاني ابن الحاج يحي: علي الحصري القيرواني، ص 101.

[***]تحدث عنها المحققان المرزوقي والجيلاني: علي الحصري القيرواني، ص 103 وأوردها كاملة في المصدر نفسه، من ص 239 إلى ص 278.

[****] المصدر نفسه: ص 103 وما بعدها، وهو كاملا في المصدر نفسه، من ص 281 إلى ص 252، وقد ذكر المحققان بعده " ذيل اقتراح القريح واجتراح الجريح" وانفردا بذلك، من ص 453 إلى ص 482 وذكر البغدادي "اقتراح القريح" دون ذكر الذيل في الإيضاح المكنون.1/110 / وله ذكر عنده في هدية العارفين /1/693، وقد ذكر المحققان المرزوقي والجيلاني" رسائل الحصري" ص 104، وهي كاملة: من ص 131 غلى ص 140 وهذه الرسائل في ذخيرة ابن بسام في ترجمته للحصري وقد أحلنا عليها سابقا.عند المحققين علي الحصري القيرواني ، من ص 219 إلى ص224./ وذكره بيتين منه ابن الجزري.غاية النهاية في طبقات القراء، /1/765

[1] - أورد هذه القائمة الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، ج1، ص 392 وما بعدها. وتفصيل هذه المؤلفات والتعليق عليها عند الأستاذين: محمد المرزوقي، الجيلاني بن الحاج يحي، على الحصري القيرواني، من ص 99 إلى 104.

مرسية وصاحبها أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر، حيث مدحه بموشحه الشهير (ياليل الصب متى غده).[1]

وتستمر المدرسة الحصرية في الأندلس من خلال تلاميذ أبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري الأندلسيين، الذين أخذوا عنه مباشرة، حيث كانت لهم مشاركة واسعة في مختلف فنون المعرفة، وخاصة في علم القراءات، مثل آدم بن الخير أو ابن خير السرقسطي أحد المتصدرين للقراءة والذي سمع من الحصري هذا الفن، بدانية كما سمع من أبي داود الصغير تلميذ الحصري[2] وأبو داود الصغير سليمان بن يحي بن سعيد بن داود القرطبي (ت بعد سنة 540 هـ/ 1145 م). المقرئ المجود الذي أخذ فن القراءات عن أبي الحسن[3] وأبو عبد الله البزار، محمد بن الفرج بن عبد الله، الذي سمع من الحصري بدانية منظومته في الإقراء، قبل أن يرتحل إلى المشرق[4] وأبو القاسم بن صواب، خلف بن محمد بن عبد الله ، الذي أخذ عن الحصري القراءات بمدينة مرسية سنة (481 هـ/ 1088م)[5]

هذا في مجال القراءات، أما في مجال الأدب والشعر وروايته ، فخرّج الحصري عديد التلاميذ الرواة ، الذين تأثروا به ، أو مشوا على هديه في هذا المجال، كأبي إسحاق الأديب[6] وبقي بن عبد الله بن إسماعيل الأسلمي[7] وأبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الخزرجي[8] وغيرهم كثير.

---

[1] - ينظر في مصادر ترجمته المذكورة سابقا حول تنقلاته بين ملوك الطوائف./ كذلك عند المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحي: علي الحصري القيرواني، من ص 68 إلى ص 81.

[2] - ابن الأبار: التكملة (الهراس) ، ج1 ص 174، رقم (569).

[3] - المصدر نفسه، ج4 ، ص 93، 94 ،(272)./ ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1/441 رقم (1357)، وقال عنه: " مات بعد الأربعين وخمسمائة" / ابن الزبير: صلة الصلة، ص 290، 291(842).

[4] - ابن الأبار: التكملة: ج1، ص 354(1260)

[5] - المرزوقي والجيلاني: علي الحصري القيرواني، ص 96، 97، وترجمة أبي القاسم بن صواب عند ابن بشكوال في الصلة (العصرية) ص 154، 155، رقم (400).

[6] - ابن الأبار: التكملة: ج1، ص 162(517) .

[7] - المصدر نفسه، ص 186 (616).

[8] - المقري: نفح الطيب ، 2/ 154، وينبغي التفرقة بينه وبين رجلا آخر يحمل اسمه وكنيته أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الخزرجي، (512 هـ/ 619 هـ) / المقري / النفح 3/ 142، 143.

ويستمر تيار الهجرة بين الإفريقيين التونسيين حتى في السَوْق الأخير، من عمر دويلات الطوائف ، فالمرادي أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي(ت 489 هـ/ 1095 م) ،فقيه قيرواني عالم بالتوحيد، ألّف فيه مصنفات شهيرة مذكورة، وكان فصيحا متضلعا معلوم اللغة ، وقد هاجر إلى الأندلس حيث أشير إلى وجوده بقرطبة في سنة (487 هـ/ 1094م) وكان متصلا بعلماء الدين واللغة هناك.[1]

والحداد الخولاني أبو الحسن علي بن محمد (المتوفى بعد سنة 485 هـ/ 1092 م - 1093م) المعروف أيضا بالحداد المهدوي، من شعراء المهدية ، حينما كان يحكمها الأمير تميم بن المعز، وكان من حاشيته، وكان قارئا للقرآن وأديبا ، وكان متضلعا من علوم الدين واللغة ، من حديث وفقه ونحو وغير ذلك ، وقد أخذ عنه فيمن أخذ من التلاميذ ، قاضي إشبيلية الشهير، أبو بكر بن العربي (543 هـ) الذي يذكر انه حضر بالمهدية حلقة دروس الحداد الخولاني ، الذي كان يدرس هناك مصنفاته.[2]

وابن أبي كدية، محمد بن عتيق بن أبي بكر بن أبي نصر التميمي، القيرواني، الأشعري، فقيه طويل الباع في الأصول ، مشهور بصلابته وتشدده في عقيدته السنية ، وعرف بانتمائه إلى أهل السنة، ومهاجمة من قد يحيد عن منهجها، وقد تعلّم بالقيروان وسمع الحديث بالأندلس، وكان يحفظ عن ظهر قلب كتاب سيبويه.[3]

وهناك من القيروانيين في هذه الفترة من هاجر إلى الأندلس ، على الرغم مماّ شاب وضعها السياسي الممزق ، ودافع عنها ونافح عن هويتها، وخير مثال على ذلك ابن من الله أبو الطيب عبد المنعم بن من الله بن أبي بكر الهواري القيرواني، الذي ولد بالقيروان وهاجر إلى الأندلس، فاستقر بالمنطقة الشرقية منها وروى الحديث عن محمد بن عبد البر التميمي، وغيره من علماء الأندلس، وهو الذي رد على رسالة الشعوبي ابن غرسية برسالة شهيرة بعنوان: " حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة

---

[1] - ابن بشكوال: الصلة، ص 469، 470 ، (1329) / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج9، ص 188.

[2] - بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، ج1، ص 387، 388/ ابن خير : الفهرسة، ص 319، 320، وقد أشار إلى كتابة (الإشارة في النحو)، و(شرح الإشارة)، ص 417.

[3] - بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، ج1 ، ص 330،331/ ابن الجزري: طبقات القراء: 261/2 (3182). وقد ذكر تاريخ ميلاده بسنة (6420).

أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية، والرد على ابن غريسة فيه ادّعاه للأمم الأعجمية.)[1]

كانت إفريقية التونسية ومنذ الفتح الإسلامي لها، خزانا للعلم والمعرفة، فقد أمدّت الأندلس بعديد علمائها وأدباءها وشعرائها، ونقادها، وحفاظها ومحدّثيها، مما أسهم في تنوع التيارات الفكرية والإبداعية الأندلسية، ورسم خارطة ثقافية للأندلس، انتماؤها واحد في الدين واللغة، ولكن حجم الروافد والمعطيات التي التقت على أرضها، شكلت ذلك التنوع والغزارة التي عرفت بها الثقافة الإيبيرية في عهدها الإسلامي.

كما شكلت الحواضر التونسية، حلقة مهمة من حلقات الوصل الثقافي بين الضفتين ،من خلال القيروان، والمهدية، وصبرة المنصورية وغيرها، وشهدت حلقات العلم في مساجد هذه الحواضر وغيرها نزول كثير من علماء الأندلس وطلبة العلم ، وقصّاد المعرفة ، من القرن الثاني الهجري، وازدادت هذه الحركية توهجا في القرنيين الرابع والخامس الهجريين، وقد لعبت بعض الأحداث السياسية دورا كبيرا في الدفع بحركة التنقل بين الأندلس وتونس ،مثل الفتنة القرطبية ، وزحفة بني هلال الشهيرة على القيروان في منتصف القرن الخامس. أضف إلى ذلك أن البلاد التونسية كانت ملتقى للطرق بين المشرق والمغرب والأندلس ، فكان لزاما على الأندلسيين المتوجهين إلى المشرق للحجج أو طلب العلم النزول في تونس، ولنا أن نتذكر في هذا المقام، ابن الفرضي(403 هـ)، والحميدي

(488 هـ) ، وأبو بكر بن العربي(543 هـ) وغيرهم من أعلام الأندلس الذين حلّوا بتونس وحواضرها.

كما كان الأندلسيون كذلك أساتذة للأفارقة التونسيين ، سواء في البلاد التونسية أو في الأندلس ، والأمثلة على ذلك عديدة.

---

[1] - بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية ، ج1 من ص 348، إلى ص 354، وترجمته عند ابن بشكوال في الصلة (العصرية). ص 315(841)، وترجمة ابنه محمد عبد المنعم المعروف بابن الكماد عند ابن الأبار في التكملة (الهراس)، 2/ 157(404)./ ابن عاصم الغرناطي: صلة الصلة، 7(7) ./ المراكشي: الذيل والتكملة.8/1/321، 322 (119)، وكذلك عنده في : 8 /2/ ص 502.

ورسالته المذكورة – وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول - عند ابن بسام في الذخيرة، ق 3/2/ 722 وما بعدها. حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 644، 645.

وبناء على ما سبق ذكره، نستطيع أن نستخلص أنماط العلاقات الثقافية بين الأندلس وإفريقية (تونس) ونحدّدها في النقاط الآتية:

- الأنشطة العلمية المتبادلة بين الحالّين والمرتحلين، من الضفتين والتي كانت تتم عن طريق الحضور الشخصي (الذاتي) للطالب التونسي أو الأندلسيين في هذا القطر أو ذاك.
- التواصل الثقافي بين الأندلسيين والتونسيين، خارج القطرين، في المشرق مثلا، وخاصة في المناسبات الدينية كالحج أو مصادفة في الحواضر العلمية المشرقية، حيث كان الأندلسيون و الأفارقة يلتقون هناك في طلب العلم.
- الأنشطة الثقافية والمعرفية، الموازية للتعليم، والتي كان لها دور في تبادل المعارف، والاستزادة الثقافية، وصقل الذهنيات، وتطوير المستوى العلمي، وخلق جو تنافسي بين النخبة في القطرين معا.

مثل المراسلات والمكاتبات التي كانت تتم بين أهل العلم من البلدين من خلال الأسئلة الفقهية والعلمية والردود عليها، والمناظرات والمحاورات المختلفة ، وقد ذكر سابقا ابن أبي زيد القيرواني الذي تمكن من الاطلاع على معارف شيوخ الأندلس، بفضل مناظرته مع العالم الأندلسي المالكي عبد الله الأصيلي. أو المراسلات التي حصلت بين ابن زيد القيرواني مع القاضي ابن أفطس، قاضي الجماعة بقرطبة فقد بعث ابن أبي زيد برسالتين: الأولى إلى الأبهري المالكي قاضي بغداد، والثانية إلى قاضي قرطبة.[1] كما بعث بالنسختين الأوليين من " الرسالة " موجها بإحداهما إلى الأبهري، قاضي بغداد، وبالثانية إلى ابن أبي زيد بقرطبة، وقد أدى ذلك إلى تبادل الرسائل والأشعار، مما شكل في حدّ ذاته حدثا أدبيا.[2] وفي عصر الطوائف كان أبوالطاهر التجيبي – السالف ذكره – الشاعر والكاتب، قد سافر إلى الأندلس ومصرو صقلية ، وارتبط بصلات ودية مع أدباء من هذه البلدان ظل يراسلهم.[3]

– دخول الكتب الأندلسية إلى القيروان، أو هجرة الكتب والمصنفات لعلماء إفريقية إلى الأندلس، وقد ذكرنا سابقا بعض المؤلفات التي هاجرت مع أصحابها أو التي هاجرت

---

[1] - بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، 2/550، يقول بن مخلوف عن القاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس (ت 402 هـ/ 1011م)." وكتب له الجوهري الدارقطني والأبهري، وابن أبي زيد" شجرة النور الزكية، 1 /152(295)./ وانظر ترجمته عند ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/421، 422 (314).

[2] - بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، 2/550، 551.

[3] - المصدر نفسه: ص 514.

بطريق آخر، مثل كتب القزّاز القيرواني(412 هـ) أبو عبد الله بن جعفر التميمي، أو مؤلفات ابن شرف القيرواني، وإبراهيم الحصري، وقد كان كتابه " زهر الآداب" مدرجا ضمن الدراسات الأدبية في الأندلس، وغيرها. ويدخل في هذا النمط كذلك الإهداءات التي تتم بين أهل العلم أو بين أهل العلم وأهل الوجاهة، وقد تحدثنا عن القصائد التي بعث بها ابن رشيق إلى إشبيلية، أو المختار من الشعر الذي صنفه الحصري الضرير إلى بن عبّاد صاحب إشبيلية،أو كتاب " أبكار الأفكار" لابن شرف الذي كان ينوي إهداده إلى أمير غرناطة كما يقول الشاذلي بويحي.[1]

- المطارحات والمجادلات التي كانت تتم أحيانا بين علماء الأندلس ونظرائهم القيروانيين أو التونسيين ، مثل ردود الأندلسيين بكتاب" أفكار الأبكار" أي العذارى على كتاب ابن شرف "أبكار الأفكار"، وأحيانا أخرى تكون السجالات الحادة بين الإقليمين، ويهمنا في هذه النقطة أن نذكر تلك الرسالة الشهيرة التي بعثها ابن الربيب المعروف بالقاضي التاهرتي القيرواني (ت 420 هـ / 1029م) أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد التميمي المشهور باسم ابن الربيب، الأديب اللغوي، الشاعر ، الكاتب ، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم* (438 هـ) حيث ضمنها لوما

---

[1] - بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية، ج2: ص 552.

*ترجمته عند ابن بسام في الذخيرة، ق1/1/132 وما بعدها / الحميدي : الجذوة، ص 259، (658). وقال " مات قريبا من العشرين وأربعمائة." / الضبي: البغية، ص 343(1110)/ المقري: النفح، ج1ن ص 616، 617، 620/618، 621 / ابن بشكوال: الصلة (العصرية). ص 306 (816)./ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين. ج6/ 218.

يقول الأستاذ المرحوم الشاذلي بويحيى حول الردود الثلاثة (أبو المغيرة عبد الوهاب ، وابن حزم الأندلسي، وابن سعيد)." ولا يتضمن أي واحد من هذه الردود الثلاثة إجابة مدققة عن المسائل المحددة التي أثارها ابن الربيب " ج2/554 ، ثم يضيف: "وقد اتسم رد كل من ابن حزم القرطبي، وابن سعيد بقدر كبير من عدم اللباقة وقلة المهارة. مما هو ناشئ، على الأرجح عن اهتياج العاطفة الوطنية عندهما إلى أقصى حد." المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

الردود الثلاثة التي ذكرها الشاذلي بويحيى والتي ادّعى على أصحابها بأنهم لم يجيبوا على جوهر القضية التي أثارها ابن الربيب، أو مرسل الخطاب، إنما هي ردود ابن حزم وابن سعيد منضافة إلى رد المتلقي الأول لهذه الرسالة وهو عبد الوهاب أبو المغيرة بن حزم، حيث يرى المرحوم بويحيى إجابة غير مقنعة أو أنها غير ذي بال، فلم يوردها ابن بسام في ذخيرته " سوى العبارات الأولى التي جرت على سنة اللياقة والأدب" . الحياة الأدبية بإفريقية ، ج2/553 ، وكأن الأستاذ قد انتقص من قيمة رسالة أبي المغيرة، أو أن خطاب الجواب لم يكن في مستوى تساؤل المرسل وهو تفسير غير حقيقي، فمن عادة ابن بسام حذف التطويل، أو التكرار، ومن السهل على كل باحث أن يرى بوضوح منهجه هذا في الكتاب، وقد صرح به أكثر من مرة، وهذا ظاهر من عبارة ابن بسام في تعليقه على رسالة أبي المغيرة حيث قال:" إنما أضربنا عن تسميتها لشهرتها." الذخيرة ق1/1/ص وقال كذلك ابن بسام في هذه الرسالة :" فراجعه أبو المغيرة برقعة حذفت أكثر فصولها لطولها" المصدر نفسه، ص 136 ، ثم يعقب ابن بسام في ختام ما أورده مقتطفا من رسالة أبي المغيرة." وخرج أبو المغيرة في رسالته هذه إلى التطويل، وبالغ في الاحتجاج بفصول هي عادلة عن هذه السبيل، وختمها بجملة من تواليف أهل الأندلس، أضربت عن تسميتها لشهرتها " المصدر نفسه ص 139 ، ورغم الحذف والاختصار الذي يميز مختارات ابن

=بسام، والذي يبدو أنه تقليد فني اشتهر به صاحب الذخيرة، فإنه ذكر أربع صفحات من رسالة عبد الوهاب، تبين مقدرته على النظم والنثر الذي يجمع بين روعة الأسلوب وجمال العبارة ، وقد قال فيه ابن بسام بأنه لو طال مداه، لم يذكر معه سواه، ولاعترف بتفضيله أحبته و عداه."الذخيرة، ف 1/1/132 و هي أبلغ عبارة حول منزلة الرجل العلمية، و مكانته الإبداعية و الأدبية، و قد أورد له عدة مقطعات شعرية، و قطع نثرية في المصدرنفسه، ص 132 و ما بعدها. منها رقعة في معارضة كبار فحول أدباء المشرق، مثل بديع الزمان الهمداني، =المصدر نفسه، ص 140، و هي حقيقة تخالف ما ذهب إليه المرحوم الشاذلي إذ قال: "و قد ردّ متلقي هذا الخطاب برسالة يظهر أن ابن بسام لم يستحسنها." (بويحيى: ج2/553).

أما الرسالة الثانية التي كتبها ابن حزم الأندلسي حيث يقول عنها الباحث: "و قد كتب ابن حزم القرطبي ابن عم متلقي الرسالة ، بعد وفاة ابن الربيب ردّا على هذه الرسالة." ج2، ص553، 554. فإن خطاب ابن حزم هو ردّ فعل على هذه الرسالة التي لم توجه له أصلا ، و لكن الفقيه، أجاب عليها بخطاب موجه إلى صديقه أبي بكر محمد بن إسحاق، صديقه و المعتقل معه على يد خيران العامري./ ينظر: ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس و ذكر رجالها ، ضمن مجموع الرسائل، م1/2/ ص171 إلى ص 188./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص 156 و ما بعدها. و لا نعتقد أن الأستاذ بويحيى قد وضع عبارته في ابن حزم موضعا حسنا، فقد قسا حكمه فيه إذ قال: "و قد اتسم رد كل من ابن حزم القرطبي و ابن سعيد بقدر كبير من عدم اللباقة، وقلة المهارة مما هو ناشئ، على الأرجح، عن اهتياج العاطفة الوطنية إلى أقصى حد." و إذ نخرج ابن سعيد الأندلسي من هذا النقاش لبعد عصره عن الإطار الزمني لبحثنا. فإننا نعيب على الأستاذ قوله (عدم اللباقة)، فإننا تفحصنا رسالة ابن حزم القرطبي، فلم نجد فيها ما يشين القول أو ما يطعن فيه على ابن الربيب أو غيره. و هو ما نعدّه تجنّ على فقيه كبير و عالم بحجم ابن حزم. فكلام الباحث المحقق الشاذلي بويحيى باطل من وجهين:

أولا: إن رسالة ابن حزم جاءت إجابة عن رسالة لم توجه له أصلا، كما أنها جاءت بعد سنوات من خطاب ابن الربيب المتوفى عام (420 هـ)، و أبي المغيرة عبد الوهاب المتوفى عام (437هـ). علما أن ابن حزم قد توفي عام (456هـ). و هي فترة طويلة في الرد على الخطاب القادم من إفريقية. مما يجعل هذا الخطاب يحمل طابع العقلانية والهدوء ، عكس ما ادّعاه الباحث.

ثانيا: حديث الباحث عن اهتياج العاطفة الوطنية لدى ابن حزم، فينبغي أن تقرأ رسالة الفقيه أبي محمد ضمن سياقها العام الثقافي و السياسي و الحضاري، فقد كرس ابن حزم مشروعه الثقافي بشكل عام (المذهب الظاهري في الفقه، الأصول، التاريخ، فلسفة، ...) من أجل خدمة الدولة الإسلامية في الأندلس، و حفظها من الضياع الذي عانت منه في زمن الفتنة القرطبية و عصر الطوائف، حيث عاش الفقيه الأحداث، حيث توفي مكلوما مهموما في مدينة لاردة الإسبانية. بعد أن شهد لحظات إشعاع هذه الدولة على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية،(مولده كان سنة 362هـ) و لحظات التمزق و التشرذم. فقد كان أبوه وزيرا لهذه الدولة و استوزر هو نفسه أكثر من مرة في هذه الدولة التي خشي عليها الأفول بعد الإشراق، و بالتالي فقد كرس جهوده المعرفية لخدمة المشروع الوحدوي، النهضوي، من أجل استمرارية الدولة التي تصدعت وحدتها السياسية، و بالتالي فالمحافظة على وحدتها الثقافية من باب أولى، و ذلك من خلال النبش في أعلامها ، وفي تاريخ رجالها و أعمالهم ومؤلفاتهم. هذا الدفاع غالبا ما يصاحب بعاطفة وطنية دفاعية بريئة، و هو الذي عاش التهميش في بلده، فأعلن عن ذلك قائلا:

- **أنا الشمس في جو العلوم منيرة و لكن عيبي أن مطلعيَ الغرب**

- **و لو أنني من جانب الشرق طالع لجدّ على ما ضاع من ذكري النهب** / الذخيرة، ف1/1/173. و على هذا الأساس فإن رسالة ابن حزم الأندلسي، إنما كانت خطابا هادئا يستهدف الداخل و الخارج، خطاب وحدوي، تأصيلي، يستهدف النبش في أصول و منابت الأمة الأندلسية، من خلال ذكر الأعلام و الأعمال لعل هذه المآثر الماضية تكون محفزا لمن هو حاضر في عمق الأزمة.

و لهذا فقد ازدهرت كتب التاريخ و التراجم و الطبقات بشكل عام، في هذه الفترة بالذات في الأندلس و حتى كتب الموسوعات التي عرفت في التاريخ الإسلامي – خاصة في عصر ما يسمى بعصر الضعف - و الذي صاحبه ظهور كبرى الموسوعات في شتى الاختصاصات،(مؤلفات ابن تيمية و الذهبي و ابن كثير، و السبكي و ابن منظور و القلقشندي و أضرابهم.)

وعلى هذا الأساس ينبغي أن تقرأ رسالة ابن حزم ضمن مشروعه العام، الثقافي/ الفكري، الحضاري، الوحدوي، و الذي يستهدف نهضة الأمة الإسلامية في الأندلس.

=ثم يقول الأستاذ الشاذلي في موضع آخر عن ابن حزم: "إنه أراد بواسطة استدلال مموّه، أن يقيم الحجة على أن كل مهاجر يصبح ملكا للبلد الذي يستقبله، و من هذا الوجه فإن عددا من الغرباء النازلين بالأندلس و حتى من الأفارقة يعدون في نظره من ابناء هذا البلد." ج2/ص554. ثم يقول معلقا على هامش هذه الصفحة." و بذلك يستأثر ابن حزم الأندلسي بأبي علي القالي البغدادي، المتوفى بالأندلس سنة (356هـ/966 -67 م).

ثم يتابع الأستاذ متأسفا أن ابن سعيد يتبع مقتفيا أثر ابن حزم إذ جعل مكي بن أبي طالب الإفريقي، قرطبيا، حيث أضاف له النسبة لوفاته هنالك./ج2، ص555. مضيفا في الصفحة نفسها." أن الأندلسيين من المدافعين عن بلدهم لا يراعون أصول اللعبة أبدا، فكيف لابن سعيد أن يجعل من ابن الأبارالقضاعي البلنسي الذي هاجر إلى مدينة تونس و توفي بها سنة (658هـ/1260م) أن يكون أندلسيا."

و الجواب على كلام المرحوم المحقق يكون من عدة أوجه:

- حكم الأستاذ على الردود الثلاثة بأنها إجابات غير مدققة، أي لا تتضمن إجابات مقنعة عن القضية الجوهرية التي أثارها ابن الربيب. مع أنه لم يقرأ الجواب الأول لأبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم، لسبب بسيط، فالرسالة لم تذكر إلا مقتطفة و في مصدر وحيد هو الذخيرة لابن بسام. فهي إذن مفقودة فكيف يمكن الحكم عليها؟، أما رسالة ابن حزم فقد حفظت كاملة غير منقوصة و قد ردّ فيها على جوهر الإشكالية المثارة، و ذلك بسرد مؤلفات الأندلسيين و علماء الأندلس و أدبائها و شعرائها و فقهائها، و محدثيها و مؤرخيها و جغرافييها التي كتبت في زمن ابن حزم و قبل عصره. و لا نظن أن الأستاذ يعوزه شيء من الإشارة إلى ذلك، و هو المحقق الحصيف، فردّ الأولين يصلح للآخرين، فكيف غابت عليه هذه الفكرة يا ترى؟
- هل يعوز ابن حزم الأندلسي الرد المنطقي و الحجة الدامغة، كي يرد "بمنطق مموّه" كما قال الأستاذ، و أبو محمد و من هو في علمه و فهمه، و هو الفيلسوف المنطق و صاحب رسالة "التقريب إلى حدالمنطق" / مجموع الرسائل، م2/2/ص29 إلى ص 50.و" كتاب في الرد على الكندي"/المصدر نفسه، ص51 ومابعدها. /و" كتاب الأخبار" و هو الأسماء المجموعة إلى غيرها و تسمى "المركبة" و هو المسمى في اللغة اليونانية (باري أرمينياس)./ المصدر نفسه: ص 187 إلى ص 217. و أخيرا و ليس آخرا " كتاب البرهان" حول كتاب أرسطاطاليس في المنطق./ المصدر نفسه: ص 218 و ما بعدها.
- أما قضية الأندلسية أو "صفة الأندلسية" التي طرحها ابن حزم و التي أعابها عليه الأستاذ الشاذلي حينما قال أبو محمد:" و ذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين و الباقين، دون محاشاة أحد، بل تيقنا إجماعهم على ذلك، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها، و لم يرحل عنها، رحيل ترك سكناها إلى أن مات... فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به، و هو منا بحكم جميع أولي الأمر منا، و من هاجر منا إلى غيرنا، فلا حظّ لنا فيه، و المكان الذي اختاره أسعد به." / مجموع الرسائل: م1/175، 176. فقد أخرج ابن حزم، ابن هانئ الأندلسي من دائرة الأندلسية ، لهجرته إلى إفريقية و استيطانه بها. و قد ذكر بويحيى مساهمته في تفتق قريحة الأفارقة الشعرية، و أدخل ابن حزم إلى هذه الدائرة أبا علي القالي البغدادي إلى دائرة الأندلسية، لهجرته إلى الأندلس و استيطانه بها، و حصول تآليفه - كلها تقريبا - هناك.
- و قد حصل عتاب رقيق من طرف المرحوم حول هذا المقياس، رغم أنه استعمله بحذافيره في رسالته القيمة "الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري" حيث ذكر ازدهار الحياة الثقافية الأدبية بإفريقية الصنهاجية ،والتي أسهم فيها أعلام جزائريون، دائما ما نسبوا إلى الوطن الذي حلوا به (القيروان)، و إنما يكتفي بالإشارة إلى مكان ميلادهم، أو إلى أصولهم فقط من طرف الباحثين، كابن رشيق المسيلي، و عبد الكريم النهشلي و غيرهما. بل إن صاحب الرسالة ابن الربيب، جزائري، أصله من تاهرت، و تولى خطة القضاء فيها، فلماذا يلوم الباحث ابن حزم على مقياس طبقه هو بحذافيره.

=و قد انزعج الأستاذ من ابن سعيد الأندلسي الذي ذكر ابن الأبارالقضاعي البلنسي بأندلسيته، رغم أنه توفي بتونس، و ينكر على بعض أصحاب التراجم الأندلسية الذين ذكروا مكي بن أبي طالب القيسي بصفة القرطبي، رغم أنه قيرواني الميلاد و المنشأ / الحياة الأدبية،2/555 و نحن نعتقد اعتقادا جازما لا لجلجة فيه، أن كل من ترجم للعلامة مكي بن أبي طالب (حمّوش) قد أكد ذكر مولده و نشأته و أصوله الإفريقية التونسية، وأولهم أصحاب التراجم الأندلسية، و إنما استوطن قرطبة بعد عودته من رحلته المشرقية، و أصبح إمام جامعها وخطيبه و أستاذ القراءات في قرطبة لا ينازعه أحد. فلم يذكر بصفته (القرطبي) إلا لذلك.

بل إن ابن الجزري حينما يترجم له يعطينا تفصيلات أكثر دقة عن حياته و مؤلفاته، و تاريخ تأليف كل كتاب من كتبه، و مكان التأليف و باستثناء بعض الكتب في القيروان أو في المشرق، يقول مكي بن أبي طالب: "وألّفت باقي تواليفي بقرطبة سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة (395هـ)./ غاية النهاية في طبقات القراء./2/406. (3597). و تؤكد الباحثة التونسية سعاد كوريم قائلة :" إن مكي بن أبي طالب قد تأثر في تكوينه بالمشرق و الأندلس، أكثر من تأثره بالقيروان والتي غادرها لطلب العلم، و هو في الثالثة عشرة من عمره، و معنى ذلك أن المنطقة لم تساهم في اكتمال نضجه العقلي الذي مكنه فيما بعد من ولوج عالم التفسير."التفسير و المفسرون بالقيروان، رصد ونقد ضمن ندوة: إشعاع القيروان عبر العصور، ج2/ص 358.

و تبلغ مرارة الأستاذ بويحيى مداها مع مؤرخ عصر الطوائف، ابن حيان القرطبي (ت 469هـ/ 1076 -1077م) في مؤاخذته لإحدى قصائد ابن شرف القيرواني لعدم التأليف بين عناصرها، كما سخر ابن حيان القرطبي من المحاولات الفاشلة لكل من ابن شرف و ابن رشيق في مضاهاة المتنبي، و من سعي الحصري إلى مجاراة المعري./الحياة الأدبية، ج2/557، 558).

و في اعتقاد الباحث بويحيى أن هذا الموقف من ابن حيان يندرج بدون شك في سياق ما عرف به من جفاء القول حيال الجميع. و هذه الميزة في طبعه و خلقه تلمس من خلال الترجمة التي خصه بها ابن بسام الذي يثبت مع ذلك لغاية في نفسه مطاعن ابن بلده على ابن شرف، و الكلام للشاذلي بويحيى./ المصدر نفسه: هامش، ص558.

و الملاحظ على كلام الباحث أنه يتحامل على مؤرخ الأندلس الأول من الفتح إلى السقوط، و هو أمر غير ممكن و غير جائز، فقد أبا ابن حيان عن قريحة نقدية، و حس أدبي و تمييزي كبير، حتى ظاهرت معارفه النقدية على معارفه التاريخية أحيانا، حتى إنه من الجائز تصنيفه مؤرخا، ناقدا، و يبدو ذلك ظاهر من خلال أحكامه النقدية الدقيقة التي صدرت في شعراء الأندلس و أدبائها. – من دون أن يعني ذلك أنه مصيب في كل أحكامه، أو أننا نوافقه في كل ما قال - فتعليقاته على قصائد ابن شرف و ابن رشيق و غيرهما، لا تصبغه تلك الصفات التي ذكرها الشاذلي بويحيى، كما أنها لا تنقص من قيمة الشاعرين الكبيرين ابن شرف و ابن رشيق، و هل النقد إلا كلام عن كلام كما قال التوحيدي.

أما قوله بتثبيت ابن بسام لكلام ابن بلده ابن حيان لحاجة في نفسه – كما يقول الأستاذ - فتراجم الشاعرين الحصري و ابن رشيق، في الذخيرة تبطل صحة ما اعتقده الباحث بشأنه ، و كذلك ابن شرف القيرواني، ففي صدر ترجمته لابن رشيق يخصه بعنوان كبير قائلا: (فصل في ذكر الأديب الكامل أبي علي بن رشيق المسيلي) و أي صفة أبلغ من هذه. ثم يسترسل في مديحه قائلا:" و كان أبو علي ربوة لا يبلغها الماء، و غاية لا ينالها الشد و الإرخاء ... إن نظم طاف الأدب و استسلم أو نثر هلل العلم و كبّر..." ثم يسترسل في ترجمته و ذكر شيئا من إبداعاته."الذخيرة،ق4/2/597 و ما بعدها. و كذلك صنع ابن بسام في ترجمته للحصريين (إبراهيم صاحب زهر الآداب و علي الضرير صاحب الموشح)على الرغم من أنه يخلط أحيانا بين الرجلين، وصنع الصنيع نفسه مع ابن شرف في صفحات عديدة ، لم يخصصها لهم المغاربة قديما، من حيث السعة والشمول و الثناء الحسن، فأي تثبيت للتحامل الذي قصده الباحث في تعليقه على إيراد ابن بسام للحكم النقدي الذي أقرّه ابن حيان في الشاعرين.

و أخيرا يأتي الأستاذ الشاذلي بويحيى إلى ذكر العلاقة بين إفريقية الصنهاجية و المشرق بخلافها مع الأندلس، فيقول: "أما فيما يتعلق بالمشرق فإن المشاعر المتبادلة هي في الغالب على نقيض ما كان سائدا بين الأفارقة والأندلسيين، بعضهم إزاء

وعتابا على تقصير أهل الأندلس في تخليد مآثر بلادهم، وأعمال أعلامهم، فرد عليه أبو المغيرة عبد الوهاب، بن حزم برسالة ذكر ابن بسام بعضا منها ، وقد كتب ابن حزم الأندلسي القرطبي (456 هـ/ 1063 م) ابن عم أبي المغيرة عبد الوهاب، بعد وفاة ابن الربيب برسالة ، ردّا على هذه الرسالة ،مما دفع بأدباء وكتاب أندلسيين آخرين بالرد على رسالة ابن الربيب على الرغم من تأخرهم زمنيا عنه، منهم ابن سعيد (ت 673 هـ/ 1275 – أو سنة 685 هـ /1286م)

III -5-2- المبحث الخامس: التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية:

شكلت صقلية إحدى أروع حلقات الفتح الإسلامي التي مست حوض المتوسط كالأندلس ومالطة و سردينية والمغرب الكبير قبلها، و كان فتحها عظيما و نصرا مؤزرا، و قد ذكرت من قبل المؤرخين والجغرافيين قديما، و أفرد لها الدارسون المحدثون آلاف الصفحات.

فقد وصفها ابن دحية الكلبي قائلا: " صقلية جزيرة كبيرة طولها مسيرة سبعة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام، و هذا الاسم لأحد مدنها، فنسبت الجزيرة كلها إليها".[1]

=بعض، فمن جهة الأفارقة كان يسود شعور بهيبة المشرق، مع إحساس بالمرارة بسبب إنكاره القيم الخاصة بالمغرب الإسلامي ... في حين كان المشرق يتجاهل المغرب."ج2، /558. ولانعتقد - في حدود علمنا - أنه قامت مطارحات بين الأفارقة و الأندلسيين أو خصومات في هذا الشأن – ما عدا رسالة ابن الربيب و الردود التي صدرت إزاءها - و أن كل المساجلات و المطارحات كانت تقوم بين المغاربة عموما (الأندلس و كل البلدان المغاربية) و المشرق. و قد أوضحنا سابقا أن المغرب كان يطلق في اصطلاح مؤرخي و جغرافيي الإسلام في العصر الوسيط، على الأقاليم التي ذكرنا، فلم تذكر هذه الأقاليم إلا مترادفة. و رغم ذلك يشيد الأستاذ بهيبة المشارقة في نفوس الأندلسيين، و هذا ما يحيلنا على قول ابن حزم الذي ذكرناه:

- أنا الشمس في جو العلوم منيرة و لكن عيبي أن مطلعي الغرب

أو قوله: " و إن كانت الأنوار لا تأتينا إلا معزبة عن مطالعها على الجزء المعمور."

مجموع الرسائل 1/2/174.

([1]) المطرب: ص59، و انظر مادة صقلية في المصدر نفسه، الصفحات: 58، 59، 60/ و عند الحميري في الروض المعطار (مادة صقلية)، الصفحات: 101، 102، 366، 367، 368./ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص588. وما بعدها. و حول صقلية و مدنها ينظر كذلك المقدسي: أيسر التقاسم، ص210./ و حول بلرم و صقلية عند المقدسي، ص210، 216، 217. حيث يقول عنها المقدسي : " و صقلية جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجل و لا أعْمَر و لا أكثر مدنا منها." ص117، و حول صقلية، طبيعتها و تاريخها و قصة الفتح الإسلامي لها على يد أسد بن الفرات ينظر: البكري، المسالك، و الممالك، ج2، ص52، و ما بعدها.

ويرتبط الفتح العربي لصقلية باتخاذها قاعدة للبيزنطيين يغيرون مهنا على العرب الذين فتحوا إفريقية، مما دفع قادة العرب إلى العمل على حماية ثغورهم في إفريقية بمحاولة فتح هذه الجزيرة.[1]

و تمت عدة محاولات من قبل المسلمين لفتحها، فمحمد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام، و هو ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري -رضى الله عنه - الصحابي الشاعر، حيث غزا محمد هذا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير سنة (73هـ)، و غزا صقلية سنة (102هـ)، و غنم منها ، و كان يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج و هوالذي أغزاه صقلية واليا على افريقية.[2]

و في سنة اثنتي عشرة و مائتين، جهز زيادة الله الأغلبي جيشا في البحر و سيرهم إلى جزيرة صقلية، و استعمل عليهم أسد بن الفرات* قاضي القيروان، و هو من أصحاب مالك و هو مصنف الأسدية في

([1])أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية و تراجم شعرائها(212هـ/674هـ) منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2008م، ص14.

[2]) ابن عبد المالك المراكشي: الذيل و التكملة، 8/1/ ص282، 283. رقم(78).

*أسد بن الفرات بن سنان (أبو عبد الله) مولى سليم بن قيس، أوله من ينسابور، و ولد بحران من ديار بكر سنة(145هـ) وقيل سنة (143هـ) وقيل (142هـ/759م) ، قدم أبوه وأمه حامل به، ثم تعلم القرآن، ثم اختلف إلى علي بن زياد بتونس فلزمه و تعلم منه و تفقه به، ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك موطأه و غيره، ثم ذهب إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة أبا يوسف و محمد بن الحسن. فأخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك، و كان أسد ثقة لم يزن(يتهم)، و كانت وفاته في حصار سرقوسة من غزوة صقلية سنة(213هـ) و قيل (214هـ)، و قيل (217هـ) و قبره و مسجده بصقلية./ حول ترجمته ينظر المصادر الآتية: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج1، ص608 و ما بعدها، ترجمة رقم (86) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج1، ص97./ أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، ص81 و ما بعدها. المالكي: رياض النفوس، ج1، ص254 إلى 373/ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص267، 268. رقم (178)./ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص231./ الذهبي: سير أعلام النبلاء، (طبعة و مؤسسة الرسالة)، بيروت، لبنان، ط2، 2011/ 1432هـ. ج10 ، ص225 و ما بعدها. حقق هذا الجزء: محمد نعيم العرقسوسي، خرج أحاديثه، شعيب الأرناؤوط./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج2، ص28، 29 ./ مخلوف: شجرو النور الزكية، ج1، ص93.رقم (82)./ فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/ 3/ 145، 146./ محمود سعيد ممدوح: الاحتفال، ج3، ص355 و ما بعدها، رقم(1594)./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج1، ص318 و ما بعدها. رقم(230)./ ابن الآبار: الحلة السيراء، طبعة دار الكتب العلمية، ص106./ القاضي النبهاني: المرقبة العليا.

ابن ماكولا: الإكمال، ج4، ص454، 455./ البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص203./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص240، 241./ و يرجح الدكتور حسين مؤنس وفاته عام (212هـ/ 828 م) كتابه: فجر الأندلس، ص101، 102./ و حول فقه أسد بن الفرات ينظر : أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج1، ص 220./ و المؤلف نفسه: ضحى الإسلام، ج2، ص166، 167./ و تعليق طفيف على آرائه الفقهية عند الونشريسي في المعيار المعرب، ج6، ص359./ و قد عقد له الأستاذ: محمد عنان، ترجمة قيمة في كتابه: تراجم إسلامية شرقية و أندلسية، من ص 152 إلى 157./ الخشني: طبقات علماء إفريقية، ص235.

الفقه على مذهب مالك.[1] و كان أسد بن الفرات قد تقلد إمارة جيش إفريقية المتشكل من قريش والعرب والبربر وغيرهم، بعد أن ولاه زيادة الله الأغلبي ذلك، و أقره على القضاء مع القيادة.[2] فمشى في مراكبه إلى سرقوسة، مدينة من مدن الجزيرة، فنزل بمرساها، و قاتل البطريق الذي كان بها حتى قتلة.[3]

أما بلرم (PALERMO) و هي عاصمة صقلية، و دار ملكها في مدة الإسلام و مدة الروم كما يقول الحميري، حيث كانت تخرج مهنا الأساطيل للغزو، فلم تفتح إلا عام (287هـ) على يد إبراهيم بن أحمد بن الأغلب أمير إفريقية الذي نزلها حينما توجه إلى صقلية غازيا.[4]

ونظرة تاريخية سريعة حول الفتح الإسلامي لصقلية الذي طال نوعا ما، يمكن القول إنه ومع مطلع القرن العاشر الميلادي أصبحت صقلية كلها بيد المسلمين. و مدينة بالرمو أصبحت عاصمة العرب الفاتحين في صقلية كلها منذ سنة (831م)، كما فتح المسلمون مدينة مسينا (MESSINA) سنة (843م) و قصر يانة (CASTROGIO JANNI) سنة (859م) كما سقطت كل من مدينتي: سرقوسة (SYRACUSE) سنة (878م)، وطبرمين(TAORMINA) سنة (902م).[5] و عليه فإن الفتح الإسلامي للجزيرة استغرق قرابة سبعين سنة من (826م/ 216هـ/ إلى 289هـ).[6] و بحكم الحضارات التي تعاقبت و تجاورت على أراضيها، فإن صقلية كانت دوما ملتقى للشعوب، حيث صمدت اللاتينية والإغريقية كلتاهما و تعايشتا، و كانت هذه الجزيرة تقع في طريق مسلمي شمال إفريقيا الذين خرجوا في القرن الثامن لغزو إيبرييا فكانت تحت سيطرتهم منذ ذلك الحين.[7]

([1]) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص،168 ، و فيه خبر الفتح بطوله، ص186 و ما بعدها.

([2]) الحميري: الروض المعطار، ص366.

([3]) المصدر نفسه: ص367.

([4])المصدر نفسه: ص 102.

([5]) عبد العزيز بوكنة: "علاقة حاضرة القيروان مع جزيرة صقلية من الفتح الإسلامي إلى العصر النرمندي" ضمن أعمال الندوة التي انعقدت بالقيروان من 20 إلى 25 أفريل 2009 ، بعنوان " إشعاع القيروان عبر العصور" المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون (بيت الحكمة)، قرطاج، تونس، ط1، 2010، ج1، ص110، 111.

([6])المصدر نفسه: ص111.

([7]) ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة و ثقافة التسامح، ص98.

كما سكنها أثناء حكم الأغالبة عدة أجناس و أعراق، من مسيحيين و مسلمين و يهود، إلى جانب العرب والبربر والفرس والأتراك، و حتى الأفارقة، و شكل العنصر العربي الطبقة الحاكمة والنخبة داخل المجتمع الصقلي.[1] و هو وضع يشبه إلى حد كبير الأندلس الإسلامية التي تجاوزت فيها عدة حضارات و أعراق، و كان العنصر العربي بها الطبقة الحاكمة والنخبة كذلك، و على هذا الأساس " فإن القرون الوسطى الصقلية يمكن أن ينظر إليها بوصفها مثالا لإمكانية تعايش أناس ينتمون إلى أجناس و ديانات مختلفة كما يقول ريزينانو.[2]

فكل هذه العناصر المكونة للتركيبة العرقية المتعددة قد نجحت "في تكوين وجود حقيقي سياسي و اجتماعي و ثقافي".[3]

فتاريخ صقلية إذن هو تاريخ الشعوب ذات الحضارات في حوض المتوسط، فهو جزء من تاريخ اليونان و الفينيقيين والرومان والقوط والبيزنطيين والعرب.[4]

و كان قدر صقلية أن تعيش الأحداث والاضطرابات السياسية التي عاشتها الأندلس و في الوقت نفسه تقريبا، فقد عرفت صقلية في عهدها الأول بعد الفتح الإسلامي، سيادة الحكم العربي فيها والذي يمتد من عام (212هـ إلى عام 444هـ). و مع تضعضع الحكم العربي في صقلية بانتهاء حكم الكلبيين فيها، وإخراج آخر ملوكها صمصام بن يوسف ثقة الدولة، الذي تولى بعد أخيه الأكحل تأييد الدولة سنة (427هـ)، و لم تطل أيامه، بل ثار عليه أهل بلرم و أخرجوه واستقل كل قائد في جزيرة صقلية بمنطقة.[5]

و من هنا بدأ عهد جديد في جزيرة صقلية، و هو عصر الطوائف، و هم " جماعة من الزعماء الطامعين، يحققون لأنفسهم شيئا من السلطة، و يحققون للمدن المتنافسة شيئا، من الاستقلال، أما مازر وطربنش والشاقة ومرسى علي، فاستقل فيها القائد ابن منكود،ووقعت قصريانة وجوجنت

([1]) عبد العزيز بو كنة: علاقة حاضرة القيروان مع جزيرة صقلية من الفتح الإسلامي إلى العصر النرمندي، ص 112، و حول الأجناس التي استوطنت صقلية، ينظر إحسان عباس: العرب في صقلية، دراسة في التاريخ و الأدب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص61 إلى 68. و من ص 25 إلى ص 31.

([2]) ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى، ص207.

([3])المصدر نفسه : الصفحة نفسها.

([4])إحسان عباس : العرب في صقلية، ص25.

([5])ابن بسام: الذخيرة ، ق1/4/ هامش، ص318. و الكلام للمحقق إحسان عباس.

من نصيب القائد ابن الحواس علي بن نعمة، ثم ثار طامع يسمى محمد بن إبراهيم بن الثقة فاستولى على سرقوسة و تلقب بالقادر بالله.[1]

و بعد حكم الطوائف تأتي مرحلة أخرى، و هي مرحلة التعايش العربي النورماندي في ظل حكم النورمان الذين استولوا على السلطة (444هـ/ 951م)، ثم السيادة الجرمانية المطلقة على الجزيرة و إنهاء الوجود العربي والإسلامي بها (591هـ/ 647م).[2]

و هذا تاريخ موجز لصقلية و هو يشبه إلى حد كبير تاريخ الأندلس، حيث بدء الحكم فيهما معا عربيا، ثم انتزى الملك و تفرق على جماعة الطامعين في الملك والذين عرفوا في المصرين معا باسم " ملوك الطوائف".

هذا التشابه بين الأندلس و صقلية سيحمل معه تواصلا معرفيا و ترابطا ثقافيا سيعذو ممكنا بعد أن دخلتا إلى حج الاستعراب في شتى مظاهر الحياة، سواء على المستوى اللساني أو في أساليب الحياة. و مع سيطرة الإسلام على مناحي الحياة الدينية والفكرية، سيصبح الوضع أكثر ترابطا و أشد تعقيدا بين الجزيرة و شبه الجزيرة ، فكيف كان هذا التواصل الثقافي و العلمي بينهما يا ترى؟

تقول المستشرقة ماريا روزا مينوكال: " كانت صقلية ثقافيا و فكريا شديدة الاستعراب، إلى درجة أنها ستصبح من أكثر مراكز العلوم العربية أهمية في أي مكان."[3] ثم تكمل حديثها في السياق نفسه، و في موضع آخر من الكتاب: "و ماذا عن الأندلس، إسبانيا ذاتها، و عن صقلية التي خسرها العرب لصالح النورمانديين في القرن الحادي عشر ميلادي، و لكنها ظلت بعد ذلك مركزا أكثر حيوية للعلوم العربية؟ إن كلتيهما لم تكونا... جزأين من أروبا ذاتها فحسب، بل كانتا بطرق متعددة و في أوقات كثيرة، مركزين، كان المرء يذهب إليهما ، و يضعهما نصب عينه طبقا لعدد من اللطائف المادية والفكرية."[4]

([1])إحسان عباس: العرب في صقلية، ص48.

([2])أسامة اختيار: الشعر العربي في جزيرة صقلية (اتجاهاته و خصائصه الفنية) من الفتح حتى نهاية الوجود العربي فيها (212هـ/ 647هـ) ص11./ وحول الحياة السياسية في صقلية الإسلامية ينظر المصدر نفسه، من ص13 إلى ص32./ إحسان عباس: العرب في صقلية، ص31 وما بعدها / و انظر (ليبيا - تونس - صقلية). دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 2009، ص331 و ما بعدها.

([3]) الدور العربي في التاريخ الأدبي في القرون الوسطى، ص98.

([4])الدور العربي في التاريخ الأدبي في القرون الوسطى ، ص117.

فالروافد المعرفية، والمرجعيات الثقافية لكلا القطرين غنية، و يكمن غناها في تعددها، وتنوع أنساقها، بحكم الأعراق التي استوطنتهما، إذا أخذنا في الحسبان كل جنس و ما يحمله من أفكار و معارف و رؤى اتجاه النفس والحياة.

أما صقلية فقد قال عنها الحميري:" كان فيها من العلماء والعباد والفقهاء والشعراء و أعيان الناس ما لا يأخذه عدٌ و لا يأتي عليه إحصاء."[1]

و من هنا نتبين عظمة صقلية العلمية، و تظهر جليا للرؤى هامتها المعرفية، و تتضح لنا جليا خصوبة قاعدتها الثقافية، إلا أنها مقارنة مع الأندلس، فهي كالشقيقة الصغرى، التي شكلت مع شقيقتها الكبرى(الأندلس) مركزين علميين هامين للثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإسلامي و على ضفة المتوسط.

ولكن الحقيقة التي لا تمارى" أن الأندلس كانت متقدمة في ميدان العلوم إلى حد لم يكن متوفرا لصقلية."[2]

مارست الأندلس منذ افتتاحها غواية فكرية وثقافية على صقلية، إلى حد استحالة أن تسْلم الجزيرة من تأثيرات شبه الجزيرة. حتى غالى أحد الدارسين(غابريلي) حينما تحدث عن التبعية الثقافية، والصلة التي ربطت هذه بتلك ، بقوله:" وباختصار فإن صقلية ما هي إلا مقاطعة أدبية من مقاطعات إسبانيا"[3]

---

[1] الروض المعطار: ص366.

[2] علي أحمد: المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية المغربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى، ص 212. ضمن أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى. ووجب التنويه في هذا المقام ببعض الدراسات التي كتبت حول صقلية حول التاريخ السياسي والثقافي وهم كثر لعل أبرزهم على الإطلاق، المستشرق ، ميشال أماري "Amari michele" في "المكتبة الصقلية" و" تاريخ مسلمي صقلية" وكذلك كتب المستشرق الألماني أولف فريدريتش فون شاك" A.FR.V.SCHACK" عن الشعر الصقلي في كاتبه :

"poesi und kunst der araber inspanienund sicilien" فصلان أحدهما للشعر والثاني للفن، أما الكتاب الثاني فقد قام بترجمته: الطاهر أحمد مكي بعنوان" الفن العربي في إسبانيا وصقلية"، صدر عن دار المعارف بالقاهرة، في طبعته الأولى عام (1980) والثانية التي بحوزتنا عام(1985). وهناك دراستان قيمتان، الأولى لعبد المنعم رسلان بعنوان" الحضارة العربية في صقلية وجنوب إيطاليا" والثانية: لعلي بن محمد بن سعيد الزهراني:" الحياة العلمية في صقلية الإسلامية، 212 هـ - 484 هـ/ 826 - 1091) وعديد الدراسات التي كتبت حول تاريخ صقلية الإسلامية وحضارتها وثقافتها في المصادر العربية التاريخية والمراجع الحديثة، وحتى بالأجنبية.

([3]) ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى، ص 207.

كانت شرايين الثقافة تغذي صقلية من جميع الأقطار الإسلامية، المشرق والمغرب والأندلس، ولا تجد كل قطر إلا وقد انتفعت منه الجزيرة، مع اعترافنا أن إفريقية قد أمدت الثقافة الصقلية بكل مواد بنائها ومكوناتها من خلال معروضاتها المتنوعة في كل الاختصاصات، ولعديد الأسباب، منها، قرب المأخذ، والتأثير السياسي الكبير الذي مارسته إفريقية الأغلبية وحتى الفاطمية، حيث كانت صقلية تابعة لها مباشرة، ومن هنا ندرك حجم التأثير.

ولكن ما يهمنا في هذا المقام، هو علاقتها مع الأندلس، وخاصة في عصر الطوائف، وهوالإطار الزمني للبحث." فصقلية كثيرا ما كانت تحت وطأة التأثير الثقافي للأندلس، خاصة خلال العصر الذهبي للأندلس وأوج تفوقها الثقافي، حين كانت تلك المنطقتين ماتزال تحت السيطرة العربية."[1]

ولم نعتقد سوى مقصدية الباحثة بعصر الطوائف والقرن الذي قبله، ففي هذه الفترة حصل تواصل كبير بين القطرين، وكانت عديد الأسباب وراء ذلك.

فبالإضافة إلى رقي الأندلس الثقافي، إذ كانت كعبة القصاد وطالبي المعرفة من كل صوب، وإذا استثنينا الأسباب التجارية والسياحية والسفارية بدرجة أقل، فإن الأسباب السياسية كذلك كانت من بين الأسباب التي أدت بالهجرات من الطرفين، فقد عاشت الأندلس الأزمة القرطبية زهاء ربع قرن، وعاشت فترة الاضطرابات السياسية في عصر الطوائف، قبل أن تستقر في بعض الممالك ولفترات متقطعة.

عاشت صقلية كذلك اضطرابات سياسية وفي الوقت نفسه تقريبا، وكثيرا ما كان المرتحلون من هذا القطر أو ذاك، إنما يرتحلون بحثا عن الهدوء والاستقرار، أو لكسب معيشة أو ما شابه ذلك.

كان أبو الفتح الصقلي محمد بن الحسين المعروف بابن القرقوري، والذي عاصر الأمير ثقة الدولة يوسف بن عبد الله بن أبي الحسين الكلبي، الذي ولي صقلية بين (379 هـ/ 388هـ)، قد خرج من صقلية بعدما حلت بها الفتن ونزل في الأندلس وصحب أمرائها.[2]

([1]) ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى، ص 188.

([2]) أسامة اختيار: الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص 333 وما بعدها.

ويطالعنا كذلك ابن الوداني علي بن عبد الجبار(أبو الحسن) الذي غادر صقلية بعدما حلت بها الفتن ووطن الأندلس.[1] ومثلهما الأديب الشاعر سليمان بن محمد المهري الصقلي الذي قدم الأندلس بعد سنة(440 هـ).[2]

والظاهر كما أسلفنا الذكر أن الفتن والاضطرابات قد أدت بكثير إلى الهجرة ، فبالإضافة إلى من ذكرنا، يحدثنا ابن الأبار عن أبي بكر الصقلي المكتب، الذي سكن قرطبة، وكان من كبار النساك والفضلاء، الفارين بدينهم قدام الفتنة، ومن أجلها فارق صقلية وطنه، وجال بلاد الأندلس فنزل قرطبة، وقعد يعلم الصبية بأجر زهيد، وخرج من قرطبة في منتصف (460 هـ) لشيء أصابه.[3]

وكان صاعد البغدادي اللغوي أثير المنصور بن أبي عامر قد فارق الأندلس لأزمة ألمت به وبأهله، حيث غلا السعر، ورخص شعر حتى اختل وعجز عن شر ولده وأهله، ولم يؤذن له في الخروج من الأندلس من قبل هشام، فخرج مستخفيا وجاز بشلطيش على يد أبي بكر البكري رئيسها سنة (403 هـ) فاتصل بصاحب صقلية وفارق البؤس وراجع النعمة، ثم رجع إلى الأندلس.[4]

وذكر صاعد الطليطلي(463 هـ) أبا عثمان سعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالحماد السرقسطي، الذي كان متحققا بعلم الهندسة والمنطق والموسيقى، متصرفا في سائر علوم الفلسفة وكان إمام في علم النحو واللغة، وله تأليف في علم الموسيقى، ورسالة حسنة في المدخل إلى علم الفلسفة، سماها " شجرة الحكمة". و" رسالة في تعديل العلوم" وكيف درجت إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض، ونالته في أيام المنصور بن أبي عامر منحة شديدة مشهورة السبب، أدته بعد انطلاقه من السجن إلى الخروج عن الأندلس، فتوفي في جزيرة صقلية.[5]

([1]) أسامة اختيار: الشعر العربي في جزيرة صقلية،ص 449، 450.

([2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العربية)، ص 179، رقم(463).

([3]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق، عبد السلام الهرّاس)، ج1، ص 181، 182، رقم(601).

([4]) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1/4/55.

([5]) طبقات الأمم (تحقيق:حسين مؤنس) ص 90. وعند الحميدي في جذوة المقتبس" أبو عثمان السرقسطي سعيد بن فتحون المعروف بالحمار، وهو مشهور." ص 205. رقم(478). الضبي: بغية الملتمس، ص 270، رقم(813)./ ابن بسام: الذخيرة، 1/1/282، 692.، حيث ذكره ابن بسام باسم (الحمار).

ولا يتحرج كثير ممن جمع بين الوظيفتين، العلم والتجارة، فعلى بن عثمان الربعي الصقلي، قدم قرطبة تاجرا، حيث روى عنه أبو علي الغساني كتاب" اللمع" في أصول الفقه لأبي عبد الله الحسن بن حاتم الأزدي.[1]

وعلي بن حمزة الصقلي وكان متصرفا في علوم شتى، وأقام في الأندلس قبل الأربعين وأربعمائة للهجرة.[2]

كان الوضع الراهن في إسبانيا(الأندلس) ما يزال متسما بالإنتاج الثقافي الغزير، وبحياة البلاط المترفة.[3] وهذا أكثر ما دفع الصقليين إلى الأندلس، وإن لم يكونوا كلهم في مستوى واحد، وغير متكافئين في الحظوظ، فقد كان غير واحد من مثقفي صقلية أثيرا عند أولى الأمر في الأندلس. ففي زمن الخلافة القرطبية غادر صقلية أبو المظفر الصقلي الوزير عبد الرحمن بن بدر بن أحمد، ودخل الأندلس، وولي الوزارة والعرض والخزانة للناصر(ت350 هـ) في إشبيلية وبه يعرف العصر الذي عاش فيه.[4]

وفي عصر الطوائف وفد سليمان بن محمد الصقلي الشاعر، وكان من أهل العلم والأدب والشعر، الأندلس في سنة(440 هـ) وقصد بمديحه عدة من الرؤساء، وتقدم بفضل أدبه عند الكبراء.[5] وكان ابن الصفار الصقلي(أبو سعيد) عثمان بن عتيق، وفد على الأمير المعتصم أبي يحي محمد معن بن صمادح(484 هـ) في الأندلس وله شعر في مدحه.[6]

([1]) ابن بشكوال: الصلة(طبعة دار الكتب العلمية)ج2، ص 63. رقم(933).

([2]) المصدر نفسه، ص62، رقم (931).

([3]) ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي القروسطي، ص 75.

([4]) ابن الأبار: الحلة السيراء(تحقيق مؤنس)، ج1، ص 252 وما بعدها، رقم(97)، وللمحقق تعليق قيم عليه في هامش الصفحات./ أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية ص 425 وما بعدها.

([5]) ابن بسام: الذخيرة، ق4/1/119 وما بعدها، وقال الحميدي عنه:" قدم الأندلس بعد الأربعين و أربعمائة". الجذوة، 4/1/119 وما بعدها، وقال الحميدي عنه:" قدم الأندلس بعد الأربعين وأربعمائة". الجذوة، ص 195 وما بعدها، رقم (449)/ الضبي: البغية، ص 257، 258، رقم(764)./ أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص 142. وما بعدها.

([6]) العماد الأصفهاني: الفريدة، (قسم شعراء المغرب والأندلس) ج، ص؟؟؟ / أسامة اختيار : ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص 161 وما بعدها.

ونظرا لكثرة الرحلات بين الجزيرة وشبه الجزيرة، فقد استوطن بعض المرتحلين من هذا القطر أو ذاك، وخلّفوا أجيالا نسبت إلى القطرين معا، وهي أشبه بالرحلات الاستيطانية، فابن الكلاعي محمد بن أحمد الكلاعي بن عبد الرحمن الصقلي، وإنما اتخذ هذه النسبة، إلى كلاع وهو إقليم بالأندلس من نواحي بطليوس، وقد عاصر هذا الشاعر الامير عبد الله بن المعز بن باديس وكان حيا سنة (427 هـ).[1]

وموسى بن أصبغ المرادي القرطبي الذي طلب علم اللغة في المشرق، ودخل العراق، ولقي ابن دريد ثم اتخذ صقلية وطنا له، وفيها نظم المبتدأ في ثمانية ألاف بيت.[2]

وقد شارك في الهجرة إلى الإقليمين معا، من غير سكان القطرين، وأسهموا في إثراء الحياة الثقافية والعلمية والفكرية فيهما معا، نظرا لما حمله هؤلاء الوافدون من متاع فكري وعلمي ثري وخصيب نظرا لتعدد مرجعياتهم وكثرة روافدهم، والأمثلة كثيرة في هذه القضية، ولا يسعنا إلا ذكر بعضا منهم. فالعلامة محمد بن علي بن الحسين بن علي التميمي الغوثي من أهل القيروان، كان يجمع بين اللغة والفقه، فقد سكن صقلية ، ثم دخل الأندلس في عصر الطوائف عام (462 هـ)، بعد أن أخذ عن الأئمة الأعلام في المشرق، فقد كان متحققا بعلم اللغة والأدب ، محكم الضبط مقيدا، مفيدا.

ومن العلماء الذين شكّلوا جسرا تواصليا معرفيا بين القطرين الصقلّي والأندلسي على الرغم من عدم انتسابهما إليهما ميلادا وأصلا، نذكر خلف بن علي بن ناصر البلوي السبتي (400هـ)، من سبتة، قد ارتحل إلى المشرق في طلب العلم ودرس على عديد الفقهاء والعلماء هناك. ومن محاسن الصدف أن يلتقي هناك أحد علماء صقلية واسمه أبو محمد عبد الملك بن الحسن الصقلّي، حيث أخذ عنه وتتلمذ له، قبل عودته إلى قرطبة حيث استوطنها ودرس عليه وعلماءها كأبي عمرو الطلمنكي، وكانت وفاة ابن الناصر البلوي هذا في صدر الفتنة البربرية.[3]

([1]) أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، 360 وما بعدها.

([2]) السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص 728، رقم (2029)/ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص 408، رقم (1464).

([3]) ابن بشكوال: الصلة (دار الكتب العلمي)، ج1، ص160، 161. رقم (408).

ومن هذه الفئة أيضا نذكر عبد الرحمن بن محمد المعافري (ت502هـ) من أهل سبتة، ويعرف بابن الفلو ويكنّى أبا القاسم الذي كان من المرتحلين في طلب العلم، ومن أهل العناية بتحصيله، سمع بالأندلس من أبي الوليد الباجي، كما سمع بإفريقية وصقلية ومصر والحجاز من جماعة، ولقي بمكة أبا المعالي الجويني، وأبا محمد عبد الحق بن هارون الصقلّي وغيرهما، ودرس هناك الأصول وناظر عليه الناس بعد أن قفل إلى بلده.[1]

لقد استرقّت الثقافة عقول الأندلسيين، ودقّت المعارف على أفهام الصقليّين حيث تنوعت الثقافة واختلفت وتولّدت وأنتجت، ولم لا، فقد صارا القطبان حرما الدين وموئلا علومه، ومعقلا فنونه وآدابه، إليهما يجأر الشعر، ويهتدي كل متعطش للمعرفة.

وكأن الأقدار كانت تهيئ هذا أن القطبين ليكونا مهمين في سبيل إشعاعٍ ثقافي عربي إسلامي في الغرب من هذا العالم. فالحصيلة المعرفية الثقيلة، والأثر الضخم للأدب والشعر واللغة والتاريخ الحافل بمختلف العلوم والفنون كلها آثار لم يستطع الزمن أن يُعفّي عليها.

كانت الحركة العلمية والثقافية عموما والأدبية خصوصا في أوجّ ازدهارها في المِصرين معا، فقد شهدت توهجّا امتدّ إشعاعه إلى خارج القطرين، فإذا كانت الأندلس في عصر الطوائف قد شهدت رقيا معرفيا بفضل حكام – على الرغم من تنافسهم السياسي وتطاحنهم – فقد أشربوا حبَّ المعرفة والعلوم، وأسهموا في النهضة الأدبية، إذ كانوا هم أحد أعلامها المبرّزين كالمعتمد بن عباد، وابن الأفطس، والمعتصم بن صمادح وغيرهم. من خلال الإسهام فيها والإغداق على أهلها، فقد كان من قبيل الصدف أن تعيش صقلية الوضع نفسه وفي الوقت نفسه كذلك.

" فقد أولى الكلبيّون أهمية خاصة للعلم والعلماء، وكانت صقلية مقصد العلماء من نواح مختلفة".[2] وكان معظم أفراد هذه الأسرة المالكية من أعلام الأدب والشعر، حتى إذا كان عصر الطوائف في صقلية، كان بعض أصحاب الأسر الحاكمة كذلك من أرباب الحركة العلمية

([1]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج3، ص50. رقم (124).

([2]) أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص18.

والأدبية، مثل ملوك طوائف الأندلس، لعل أبرزهم ابن منكود الشاعر أحد رؤساء الطوائف بصقلية.[1]

كانت كثرة علماء صقلية قد أقامت الدليل على الشأو البعيد الذي حصّلته هذه الجزيرة في مجال المعرفة بشكل عام. "حتى أضحى لديها يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال إفريقيا."[2] بل وإلى المشرق وسائر أقطار العالم.

من هؤلاء ابن الصفار الصقلي (أبو سعيد) عثمان بن عتيق. وفد على الأمير المعتصم أبي يحيى محمد معن بن صمادح (ت484هـ) في الأندلس وله شعر في مدحه.[3]

ونظرا لكثرة الرحلات بين الجزيرة وشبه الجزيرة، فقد استوطن بعض المرتحلين من هذا القطر أو ذاك، وخلّفوا أجيالا نسبت إلى القطرين معا. وهي أشبه بالرحلات الاستيطانية، فابن الكلاعي محمد بن أحمد الكلاعي بن عبد الرحمن الصقلّي، وإنما اتخذ هذه النسبة إلى كلاع، وهو إقليم بالأندلس من نواحي بطليوس، وقد عاصر هذا الشاعر الأمير عبد الرحمن بن المعز بن باديس، وكان حيا لسنة (427هـ).[4]

والعلامة – السابق ذكره – محمد بن علي بن الحسن بن علي التميمي الغوثي المعروف بابن البر " كان ابن البر على وجه الخصوص العالم اللغوي الذي تغذّى بما أخذه عن الأعلام من شيوخ القيروان والقاهرة، ثم أسهم بما تولاه من تدريس في نهضة علوم العربية بصقليّة أولا، ثم بالأندلس عن طريق تلاميذه. وهما البلدان اللذان كانت الثقافة العربية فيهما تتألق بالبقية الباقية من أنواعها قبل استرجاعهما من أيدي المسلمين."[5]

---

(1) أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية ،ص436، 437.

(2) إحسان عباس: العرب في صقلية، ص85.

(3) العماد الأصفهاني: خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج1، ص..../ أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص161 وما بعدها.

(4) أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص360 وما بعدها.

(5) الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص180. حيث ذكر الأستاذ بويحيى وفاته بعد (459هـ). في حين ذكر صاحب التكملة أنه دخل الأندلس عام (460هـ) وما حولها.

كان ابن البر صاحب الرأي الأجمع، والحكم الأقطع والبلاغ الأعم، فقد جمع بين اللغة والفقه، حيث سكن صقلية، ثم دخل الأندلس في عصر الطوائف (460هـ)، بعد أن أخذ عن الأئمة الأعلام في المشرق. فقد كان متحققا بعلم اللغة والأدب، محكم الضبط مقيدا، مفيدا، أكثر من ضمّ الأصول وعنيَ بالبحث عنها، حتى جمع منها ما لم يجمعه غيره.

فقد روَى عن جماعة من الصقليين منهم، أبو بكر محمد بن سابق الصقلّي، وأبو العرب الصقلي، وعن أعلام المشرق كأبي منصور الثعالبي صاحب " يتيمة الدهر" و "فقه اللغة"، وأحد أصحاب أبي محمد الهروي، ولقي القاضي عبد الوهاب بن علي البغدادي شيخ المذهب المالكي في العراق في زمنه.[1]

من هنا تتضح مصادر الرجل ومراجعه ومعَينُه الذي كان ينهل منه، فإذا تخيّلنا حجم العلوم والمعارف التي أدخلها إلى القطرين وخاصة الأندلس، وأدركنا حجم الروافد والعطاءات والإضافات المقدمة منه.

ولنا أن نُذكِّر بأبي البسام موسى بن عبد الله بن الحسين حفيد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وقد ذكرناه في المبحث الخاص بالعلاقات بين الجزائر والأندلس. كان أصله من الكوفه وصار إلى صقلية، ودخل الأندلس مجاهدا، وكان ذا علم وأدب بارع ومعرفة بالكلام على طريقة الأشعرية، وكان شاعرا، وله شعر بديع، وقد أخذ عنه في الأندلس وبالضبط في ميورقة.[2]

كانت الآداب الأندلسية قد نالت حظا كبيرا من الاحترام والتبجيل لدى الصقليين عامتهم وخاصتهم. كما كانت مختلف فنون القوم (الأندلسيون) قد لاقت قبولا في البيئة الصقلية، وارتضاها الذوق الأدبي والفني هناك.

([1])ابن الأبار: التكملة (الهراس)، ج2، ص155 وما بعدها. رقم (403). / ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج8 /1/ 328 وما بعدها. رقم (124) وقد استشهد ابن دحية في المطرب برأيه في مادة (صقلية)، ص58. / السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص163. رقم (299). / الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ج1، ص180. وقد ذكر الباحث أنه توفي بعد (459هـ/ 1066م). في حين ذكر صاحب التكملة أنه دخل الأندلس عام (460هـ) وما حولها. وذكر الفيروزآبادي أن وفاته عام (459هـ): البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق: محمد المصري، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، ط1، 1421هـ/ 2000م، ص278. رقم (344).

([2])ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج8/ 2/ ص524. رقم (30).

وكان من ثمرة هذا الازدهار الأدبي والفني أن حصلت مراسلات بين أدباء الجزيرة وشبه الجزيرة في عصر الطوائف. فقد كتب الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن الصباغ الصقلي إلى بعض أدباء الأندلس، ففي رسالة بليغة مجودّة خاطب بها أبا حفص بن القعيني الأندلسي، يعزّيه في هرّه نفقت له، أوردها ابن بسام الشنتريني، كما أورد له مكاتبات ومراسلات أخرى.[1] بأسلوب بليغ رفيع دلّ على علو طبقة هذا الكتاب الصقلي.

وإذا أردنا التمثّل الصحيح للتواصل الثقافي، ولتلك الصورة المشرقة بين الأندلس وصقلية، وخاصة التأثير الذي مارسته الأندلس على صقلية من الناحية الثقافية وخاصة الأدبية؛ حيث أرسى الأندلسيون تقاليد فنية سار على هديها بعض أعلام صقلية من خلال بعض المرتحلين أو الوافدين الصقليين على شبه الجزيرة الأيبيرية.

فهي تتجلى عند اثنين من كبار شعراء صقلية، الأول أبو العرب الصقليّ مصعب بن أبي الفرات (423هـ/506هـ)، والثاني ابن حمديس الصقلي، أبو محمد عبد الجبّار (447هـ/527هـ-1055م /1132م). فأما أبو العرب الصقلي فقد كان شاعرا مغلقا، حافظا للغات والآداب، قدم الأندلس وحدَّث بها عن أبي بكر بن البر التميمي، وأكثر من مدح رؤساء صقلية وغيرهم، وقد وقف ابن عبد الملك المراكشي على ما دوّن من شعره في مجلدين متوسطين.

وكان لما غلب الروم على صقلية خرج منها سنة (474هـ) وورد على إشبيلية وقصد المعتمد بن عباد، ولحق بسرقسطة في جناب المقتدر بالله أحمد بن المستعين، ثم ابنه الحاجب أبي عامر يوسف، ثم ابنه المستعين أبي جعفر أحمد. وله فيهم أمداح كثيرة، دُوِّنت في مجلد متوسط، ثم صار إلى ميورقة في كنف صاحبها ناصر الدولة مُبشر بن سليمان، وأقام بميورقة حتى توفي بها.[2]

([1])الذخيرة: ق4/ 1/ص308 وما بعدها.

([2]) ابن عبد الله المراكشي: الذيل والتكملة، ج8 /2/ ص374 وما بعدها. رقم (165). / وقال محقق الذخيرة إحسان عباس، مخالفا صاحب الذيل، إن خروجه من صقلية كان سنة (464هـ). وروى عنه بعض الأندلسيين كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة. وله ترجمة موسعة عند ابن بسام في الذخيرة، ق1/4/ ص301 وما بعدها/وذكره ابن الأبار في التكملة وقال أن خروجه من صقلية كان عام(464هـ) في أيام تغلّب الروم عليها، وقال إن له ديوان شعر بأيدي الناس./ التكملة (الهراس)، ج2، ص189. رقم (494)./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص569، 570./ العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس، ج2. رقم (64). / أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جريدة صقلية، ص373 وما بعدها.

ومن شعره في المعتمد بن عباد وصاحب إشبيلية، وقد أهداه صورة جمل مرصع بنفيس الجوهر فقال على البديهة:

- أَجْدَيتني جَمَلاً جوناً شفعتَ به❖❖❖حِمْلاً من الفضة البيضاءِ لو حَمِلا
- سماحُ جودِكَ في أعطانِ مكرمةٍ❖❖❖لا قِدَّ يَعْرفُ من منعٍ ولا عُقِلا
- فاعجبْ لشاني فشاني كلُّهُ عَجَبٌ❖❖❖رفَّهْتني فحملتُ الحملَ والجملا.[1]

وكان ممّا قال أبو العرب من شعر في المعتمد بن عباد قصيدة أولها:

- لولا السَّرى في ذمام الصارم الذكر❖❖❖ لم أطرقِ الحي في أمر على خطرِ
- ما الباردُ العذبُ موروداً على ظمإ❖❖❖ أشهى إلى الصب من وصلٍ على حذرِ
- قالت تجشَّمت في سُبل الهوى غررا❖❖❖ قلت المتيَّم مقدام على الغررِ
- لا كالهَيُوب حماهُ الخوف بغيتَهُ ❖❖❖ تهَيَّب الورد حتى عاد بالصَّدَرِ
- توقَّ رقبة أعداء عيونُهُمُ❖❖❖أذكى من الزُّرق في الخَطيّة السَّمرِ
- قلتُ اليماني حليفي ما يفارقني❖❖❖ إنّي بغَير اليمَاني غيرُ مُنتصرِ
- رضيته دون إخوان الصفاء أخا ❖❖❖ ما غيَّرتهُ صرُوفٌ جمة الغيرِ
- لاح السّنا فابنرتْ من ساعدي فَرَقا ❖❖❖ تجرُّ ذيلاً يُعفي شَاهد الأثرِ
- صدَّ كوحشيةٍ همّ الأنيس بها ❖❖❖ إلاّ التفاتا بجيدِ الخائفِ الحذرِ
- تكف بالفرع من لألاء غرتها❖❖❖ كي لا تمدَّ بياض الصُّبح بالقمرِ
- حثوا المطي... إن لها❖❖❖ عُقبى الإقالةِ من أينٍ ومن ضمرِ
- حتّى تُنيخ بربِّ المجد من يمنٍ❖❖❖ في قُبّة الملك رب الشعرِ من مضر.[2]

وأما ابن حميدس فقد فُجع بدخول الروم إلى صقلية، فقال من قصيدة إلى تميم أمير المهدية أولها:

- تدرَّعتُ صبري جنّة للنوائبِ ❖❖❖ فإن لم تُسالم يا زمانُ فحاربِ.[3]

([1]) ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ ص301، 302.

([2])ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ ص302، 303.

([3]) المصدر نفسه، ص326. وترجمته في المصدر نفسه، ص320 وما بعدها.

وقال عنه ابن دحية الكلبي إنه دخل الأندلس وافدا على المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد بإشبيلية فمدحه بأشعاره البديعة.[1]

والظاهر أن خروج ابن حمديس من صقلية كان لأكثر من سبب، لعلَّ أقواها دخول الروم إلى صقلية، ورغم أن نتاجه الشعري في أجزاء كثيرة منه كان في الأندلس لكنه. " ظل يتردد ما بقي من عمره الطويل بين المهدية وبونة وبجاية وميورقة، وقد فقد بصره في آخر حياته، ومرة نراة يدخل على كرامة بن المنصور صاحب بونة، وهو كفيف البصر."[2]

غذّى الشعراء الصقليون الحياة الأدبية في الأندلس وهي في أوجّ تطورها وازدهارها، وخاصة بعد سقوط الجزيرة. " فإذا بكثير من شعرائها ينتقلون إلى الأندلس، ويزيدون فيها من نشاط الحياة الأدبية، وهذه الصورة من التنقل هي القاعدة التي تفسر الشعر في المغرب أثناء القرن الخامس، وعلى هذا الاعتبار تكون صقلية الأدبية حلقة في سلسلة كبرى، أما مادة هذه الحلقة – حديدية كانت تلك المادة أو ذهبية – ففيها أكثر من الصياغة المشرقية، والشيء الغامض في هذه الحياة الأدبية بصقلية هو مدى تأثرها بالأندلس نفسها."[3]

أما هذا الأثر وخاصة في الشعر ووصف الطبيعة والخمريات وهما ميزتان أندلسيتان بتفوق، " فالطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما في النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس."[4]

ولا يمكن لنا بأي من الأحوال أن نسلب صقلية جمال الطبيعة، فقد وصفها الجغرافيون مطولا وأثنى عليها الرحالة والمرتحلون، وعلى جمال طبيعتها الفاتنة.

وكانت لحياة المدنية الصقلية أثرا في تهذيب الذوق العام، حيث شهدت مدنها وباحاتها مجالس للطرب والغناء، وما يُصاحب ذلك من خمريات وغيرها*، مما كان متاحا للأندلس أيضا، ورغم

([1]) المطرب: ص60 وما بعدها. / أسامة اختيار: ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية، ص81 وما بعدها.

([2])إحسان عباس: العرب في صقلية، ص239.

([3])إحسان عباس: العرب في صقلية، ص230.

([4]) أحمد حسن الزيات: وحي الرسالة. فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع والقصص، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط10، 1985م / 1405هـ، ج1، ص7.

* راجع ما كتبه شوقي ضيف حول صقلية في كتابه " تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ليبيا، تونس، صقلية. " دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 2009م، من ص331، إلى 428.

ذلك فقد مارست الأندلس إغواءها على شعراء صقلية وخاصة الوافدين إليها. وذلك من خلال اتحاد مواضيع الخمر والطبيعة أو المزج بينهما.

وبإمكاننا أن نرصد " هذه الظاهرة بوضوح في نماذج من شعر ابن حميدس، إذ كان شعره خير مثال لتبادل الثقافة الأدبية بين المدرستين الصقلية والأندلسية، نتيجة وفادته على أمراء الأندلس."[1]

مثال ذلك ما قاله من قصيدة:

- إني امرؤ لا أرى خلع العذارِ على ❖❖❖ من لا يقوم عليه في الهوى عُذُري
- فما فتنتُ بردف غير مرتدف❖❖❖ ولا حننت لخصر غير مختصرِ
- ورُبَّ صفراء لم تترك بسورتها❖❖❖ لصولةِ الهَمِّ من عين ولا أثرِ
- تزدادُ ضعفًا قواها كُلّما خلقت❖❖❖ بها اللّيالي حدود الضعف والكِبرِ
- لا يعرف الشرب ضعفا في مناقبها❖❖❖ إلا دعاويَ بين المسك والزهرِ
- يُصافح الراح من كاساتها شُعلٌ ❖❖❖ ترمي مخافة لمس الماء بالشررِ
- إذا النديمُ حساها خِلْتَ جريتها ❖❖❖ نجمًا تصوَّب حتى غاب في قمر[2]

ويبدو ظاهرا أن البيئتين الصقلية والأندلسية قد أظهرتا" أثر الطابع المدني الرقيقَ الحواشي في مقدمات المدح، وجاء مزج الطبيعة بالغزل في مقدمات مدائحهم استجابة للذوق الأدبي العام في البيئتين المذكورتين."[3]

وحتى على صعيد الموشحات التي نبتت وازدهرت أندلسيا، قد هاجرت موطنها شبه الجزيرة إلى الجزيرة، فقد احتذى كثير من وشّاحي صقلية على خطى نظرائهم من الأندلس." فالتمازج المحلي للعناصر العربية والرومانثية الذي سمح للخرجة بالوجود في المقام الأول، لم يكن أقل قوة منه في الأندلس، بل بلغ في الواقع مكانة خاصة تحت حكم النورمانديين... ومن الواضح أن الشعراء الصقليين أنهم احتفوا بالأدب الأندلسي وأعجبُوا به، سيفهمونها ويتذوقونها".[4] والفهم والذوق المراد

([1]) أسامة اختيار: الشعر العربي في جزيرة صقلية اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص77.

([2]) ابن بسام: الذخيرة ، ق4 /1/ ص321.

([3]) أسامة اختيار: الشعر العربي في جزيرة صقلية، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص324، 325. وقد عالج الباحث هذه القضية على طول مسار البحث مع إعطاء عديد الأمثلة.

([4]) ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي القروسطي، ص188.

به من كلام الباحثة، هو تعدّد الأجناس المتشاكل في البيئتين، والطابع الحضاري الذي مسّ القطرين معا.

والظاهر من خلال النصوص والشواهد التاريخية أن الشعر العربي الصقلّي كان معروفا في الأندلس وعلى نطاق واسع، كمعرفة الصقليين بالشعر الأندلسي، وما النماذج التي ذكرنا إلا نزرا قليلا من هذا الشيء الكثير. فابن حزم الفقيه يحدثنا قائلا:" وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى سهل الحاجب بجزيرة صقلية."[1]

وأبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي القيرواني (ت بعد441هـ)، الداخل إلى الأندلس في عصر الطوائف وكان صديقا للشاعر الصقلي ابن الخياط، والذي عاش هو الآخر في عصر الطوائف بصقلية. وكان شاعرا مدّاحا لأمراء صقلية مثل الأكحل الملقب بمؤيد الدولة (410هـ -427هـ)، وأخيه صمصام الدولة (427هـ -431هـ).

وكان شعر الشاعر ابن الخياط قد دخل الأندلس في هذه الحقبة عن طريق صديقه ابن زيادة الله التجيبي، دلّ على ذلك وُروده في مواضيع عدّة من كتابه "المختار من شعر بشار"[2]
وكثير هم شعراء صقلية ممّن تخصصوا في علم اللغة. فتميزوا بالصِّفتين، نظم الشعر والبراعة في اللغة، حيث شهدت هذه الحقبة بروز عديد من هؤلاء، مثل محمد أبو بكر علي بن الحسن بن البر اللغوي الصقلي التميمي الغوثي السابق ذكره.[3]
ويعقوب بن علي الزبيدي الصقلي اللغوي من أهل صقلية المقيمين بها، من أئمة اللغويين والعلماء المدرسين، كان حافظا لأشعار العرب، شارحا لغريبها ومبانيها، وله شعر يمدح فيه الأمير عز الدولة ثقة الدولة الكلبي.[4]

([1]) رسالة طوق الحمامة / ضمن مجموع الرسائل. م1/1/ ص232.

([2]) ابن زيادة الله التجيبي: المختار من شعر بشار، انظر مثلا الصفحات: 46، 60، 75، 76، 77، 79، 80، 126 وغيرها. / وراجع ما كتبه عنه شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية)، ص376، 377. / إحسان عباس: العرب في صقلية.

([3]) راجع ترجمته إضافة إلى ما ذكرنا سابقا عند القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1424هـ / 2004م، ج3، ص190، 191. ترجمته رقم (689).

([4]) المصدر نفسه: ج4، ص63. ترجمته رقم (827).

وما ينبغي الإشارة إليه أن المراسلات والمساجلات والمطارحات قد تمّت بين هذه الفئة من الشعراء اللغويين الصقليين وأمثالهم من شعراء الأندلس، وخير من يمثل ذلك ابن القطّاع الصقلي (ت515هـ) علي بن جعفر علي السعدي النحوي الكاتب، أعظم كُتَّاب ولُغَويي صقلية على الإطلاق وفي شتى الأعصار.

وكان ابن القطّاع قد ولد بصقلية في سنة (433هـ) وقرأ الأدب على فضلائها كابن البر اللغوي وأمثاله، وأجاد النحو غاية الإجادة، ورحل عن صقلية لمّا تملّكَها الفرنج ووصل إلى مصر نحو (500هـ)، وتصدَّر للإفادة والاستفادة.

ومن تصانيفه "تهذيب أفعال ابن القوطية" في اللغة، وهو ما يدلّ على أنّ مؤلفات الأندلسيين كانت منتشرة ومعروفة في الأوساط الثقافية الصقلية.

ويحدثنا القِفطي في السياق ذاته ما يفيد حصول مراسلات بين ابن القطّاع الصقلّي وأبي الفضل يوسف بن حساي الوزير الهاروني بسرقسطة من مدن الأندلس.[1]

وما دام الحديث عن اللغة والأدب والشعر في الأندلس وصقلية وازدهار كل ذلك في عصر الطوائف، وسبل التأثير والتأثر، مع انتشار طرائق الشعراء، وتيار التجديد الشعري هنا وهناك، وجب علينا الحديث عن جانب فني مهم ارتبط بالشعر، وخاصة بالموشحات في هذه الفترة، وهو عنصر الموسيقى، لما له من دور كبير في الإسهام في ربط علاقات ثقافية متميزة وفعاله بين القطرين معا، حيث زادت الموسيقى من حدّة الإشعاع الثقافي والفني بينهما.

ولا يحتاج المرء إلى عناء تفسير " فالموسيقى – بحكم طبيعتها – من أكثر الظواهر الثقافية والفنية قدرة على خلق أجواء التعايش بين الحضارات الإنسانية وتلاقح المجتمعات البشرية مهما تعدّدت أجناسها واختلفت معتقداتها."[2] كما أن " الموسيقى باعتبارها لغة سريعة الانتقال، لا تعرف الحدود

([1]) المصدر نفسه: ج2، ص236 وما بعدها، ترجمة رقم (441). وكتب عنه البغدادي ترجمة مهمة في هدية العارفين، ج1، ص695.

([2]) عبد العزيز عبد الجليل: الموسيقى الأندلسية العربية، مظهر من مظاهر التسامح في المجتمع الأندلسي، ص237، ضمن أعمال ندوة: الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح.

ولا تحتاج إلى ترجمة لفهمها والتخاطب بها."[1] ولطالما حلفت دور الطرب في الأندلس وصقلية بأشهر المغنيين والمغنيات، وعزفت فيها أروع الألحان.

ولم يكن كل من نظمناهم في سلك المغنيين – في الحقيقة – سوى شعراء من ذوي القدرة على النظم، والأقاويل الشعرية، بل هم شعراء أجلاّء القدر، كبراء المحل، وقد يكونون من شيوخ اللغة والشعر وأرباب النظم والنثر، رؤساء مقدّمون في فنون هذه الصناعة ارتفعوا بهذا الفن جملة.

ولنا أن نقول – مطمئنين – في هذا المضمار " إن التداخل الثقافي الذي كان يعمل في الأساس على مستوى الغناء، حيث تقوم الموسيقى بدورِ عامل موصل في نقل المؤثرات الأدبية"[2] هذا وإن أكّدت الأندلس سبقها وأحقيتها بالريادة في الجانب الموسيقي مقارنة مع صقلية، إلا أن لصقلية كذلك تميُّزها في هذا الميدان.

يحدثنا ابن الأبار القضاعي عن المعتضد بن عباد وقد أرسل في طلب الصقلّي المغنّي، وكان قد قدم عهده به، فأجلسه وأسنّه، وأمره بالغناء فغنّى.[3]

ولا بد أن بعض الأحداث التاريخية قد فعلت فعلتها في انتشار الموسيقى وما يتعلق بها من المؤثرات الحضارية بين الأندلس وصقلية، مثل غزوة النورمانديين الشهيرة لبربشتر الأندلسية عام(454هـ/ 1064م). وهي الحادثة الشهيرة التي دوت الأندلس في وقتها، وقد تحدثنا عنها في الفصل الأول من البحث، وما يهمنا هنا هو نتائجها وتباعتها.

ففي قفولهم إلى بلادهم – أي النورمانديين– بعد غزوتهم هذه، يحدثنا ابن بسام قائلا وقد سماهم (الأردمانيين):[4]

([1]) يونس الشامي/ مظاهر التعايش والتسامح في الأندلس عبر الموسيقى والغناء، ص273، ضمن أعمال ندوة الحضارة الإسلامية ومظاهر التسامح.

([2]) أوين رايت (Owen Wright): الموسيقى في الأندلس (دراسة شاملة)، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، ضمن كتاب: سلمى الخضراء الجيوسي "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج1، ص822.

([3]) الحلة السيراء (طبعة دار الكتب العلمية)، ص204.

([4]) الذخيرة: ق1/3/ ص185، 168. وحادثة بربشتر عنده من ص179 إلى ص189.

" ولما عزم ملك الروم القفول من بربشتر إلى بلده، تخيّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار، والثيبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم الأيفاع الحزاور الحسان ألوفا عديدة، كلمّهم معهم ليهديهم إلى فوقه"*. حيث كان لقائدِ خيل رومة ألف وخمسمائة جارية.[1] إذْ عُدّت "من الكنوز الثمينة التي جلبها النورمان من الجانب الآخر للبراسن القيان، وهن النساء اللائي يغنين وكنّ يعشن من غنائهن، فنانات شابات وجميلات، ولهن مكانة كبيرة بخاصة في البلاطات الأندلسية."[2]

ويحدثنا ابن حيان في إطار واقعة بربشتر التاريخية عن ذلك اليهودي التاجر، والذي كان صديقا لمسلم أندلسي أحد أعيان بربشتر أو حاكمها، وكانت له ابنة أسرت وحُملت من طرف النورمان، فطلب منه أن يسعى لدى النورمان في افتدائها وبذل النفيس في ذلك، فسعى ذلك اليهودي في طلبه، ولكنه أصيب بخيبة، برفض ذلك النورماندي الذي دخلت في ملكه هذا الطلب، بل وطلب من جارية قائمة إلى ناحية، وكانت مغنية لوالد التي أراد اليهودي افتدائها. فناداها مالكها، خذي عودك، فغنّي لزائرنا بشجوك، فأخذت العود وقعدت سوية، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن ذلك العلج.[3]

وإذا كان من المفترض في القيان خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي. أن تروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، فإن المرء قادر على تخيّل الأثر الذي مارسته آلاف من القيان.[4]

---

* وفي هذا الإطار يذكر الباحث روجر بواز (Roger – Boase) أن بعض فرسان حملة النورمان على بربشتر غيوم الثامن والد أول الشعراء التروبادور، أما قائد حملة رومية، الذي ذكره ابن بسام نقلا عن ابن حيان فكان غيوم دومونتروي (Guillame de Montruil) الذي كان يعمل في خدمة ألكسندر الثاني. أما أماتوس ذي مونت كاسينو (Amatus de Monte Cssino) فيذكر في كتابه (تاريخ النورمانديين. Historia Normannorum) الذي كتب ما بين عامي (1080م/ 1083م). أن قائد الحملة كان (روبرت كريسبان R. Crespin) وهو سيد نورماندي ومقامر. / ينظر: روجر بواز: التأثير العربي في الشعر الغربي الأوربي، ضمن كتاب سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ص671.

([1]) ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ ص182.

([2]) ماريا روز مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص100.

([3]) ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ ص188.

([4]) روجر بواز: التأثير العربي في الشعر الغربي الأوربي، ص673.

ومهنة تثقيف الجواري وتعليمهن وتأديبهن معروفة ومنتشرة في شبه الجزيرة الأيبرية، حيث كان يُشرف عليها مختصون من ذوي المهرة والدربة والخبرة بذلك. مثال ذلك ما رُوي عن محمد بن الكتاني المتطبب الشهير في الأندلس بهذه الحرفة فقد كان " منفقا لسوق قيانه، يُعلمهن الكتاب والإعراب وغير ذلك من فنون الآداب."[1]

ها هو يقول في رقعة احتفظ لنا بها صاحب الذخيرة: " واعتبر ذلك في ملكي الآن أربع روميات كنّ بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات، حكيمات، منطقيات، فلسفيات، هندسيات، موسيقيات..."[2]

بل إن ابن الكتاني نفسه كان شاهدا يوما وفي زمن الفتنة في مجلس من مجالس العلجة بنت شانجة ملك البشكنس أيام تردده على الثغور، وفي المجلس عدة قينات مسلمات من اللواتي وهبهن له سليمان بن الحكم المستعين... فأومأت العلجة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنت بأبيات ذكرت عند ابن بسام، فأحسنت وجوّدت، وعلى رأس العلجة جاريات من القوّامات أسيرات كأنهن فلقات قمر.[3]

والظاهر أن أساليب الموسيقى العربية التي تبناها المسيحيون النورمان، والذين ازدهرت بلاطاتهم بكل ما هو عربي وإسلامي وخاصة في القرن الموالي للإطار الزمني لدراستنا، وذلك من خلال "أخبار القيان اللواتي كنّ زيَّنَ البلاطات والقصور المسيحية، يشير إلى أن أرقى أساليب الغناء العربي كانت موضع قبول كبير."[4]

فقد أخذ النورمان على عاتقهم، منذ وصولهم إلى صقلية، معظم المكتسبات المؤسسية والعلمية والفنية للمجتمع الإسلامي لكونهم فهموا سريعا جدًّا أن ذلك في مصلحتهم الكلية،[5] وكان للنورمان خاصية إذ كانوا يتعجّلون الاستقرار ويتكيفون بسهولة.[6]

([1]) ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ ص319، 320.

([2]) المصدر نفسه: ص320.

([3]) ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ ص318.

([4]) أوين وايت: الموسيقى في الأندلس (دراسة شاملة)، ص815، 816.

([5]) تيري هنتش: الشرق المتخيل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، ترجمة: غازي برّو، خليل أحمد خليل، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص91.

([6]) ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص97.

وكأنّ النورمان كانوا يعيدون حكاية بربشتر، فقد غذوا بصقلية خلال مدة القرن والنصف التي تلت، معربين بشكل كبير، وأخذوا دورهم الراعي للثقافة العربية على محمل الجِد، فعرفت صقلية عصرا ذهبيا، إذ صارت عاصمة لثقافة شبيهة بالثقافة الأندلسية إلى حد بعيد،[1] فقد سما الشعر، وارتقت الفنون في بلدين كانت الآداب والفنون بهما نافقة السوق وفي هذه الفترة بالضبط. ولم يكن شعراء وأدباء صقلية في نظمهم للشعر والموشحات سوى سائرين على الدرب الذي اختطّه الأندلسيون في مناحٍ كثيرة. فقد مرّوا في ذلك السبيل، وعلموا منه الدبير والقبيل، واقتبسوا جذوة من طرائق النظم والشعر الأندلسي.

وخير ما يمثل هذه المرحلة، هو عصر فردريك الثاني*، ملك النورمان المصقول بثقافة عربية، والمطبوع بكل ما يمت بصلة إلى الثقافة الإسلامية – على نصرانيته – التي شكّ فيها بعض من أتباع ديانته ممن كانوا في زمنه. فقد كان بلاطه مصدرا للإشعاع الثقافي والمعرفي وفي كل التخصصات.

كما ضم بلاطه علماء من مختلف الديانات (مسلمون، يهود، مسيحيون)، وكأنه أراد استنساخ التجربة الأندلسية، فجاءت تجربة ناجحة ومتجانسة مع تجربة المسلمين في شبه الجزيرة ومفيدة إلى حد بعيد. حتى إن رجاله المثقفين، كانت ثقافتهم العربية والأندلسية مصادر جميع أوجه التنوير..وعندما كانوا يجلسون معا للسماع، فلا بد أن الأغاني قد كانت تؤدى بالعربية.[2]

وحقيق علينا في هذا المقام المذكور، وهو التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية، وخاصة في جانب الموسيقى وما أمدّته من عُرى التواصل بين الضفتين، أن نذكر الآلات الموسيقية وأدوات الطرب التي بدونها لن تؤدى الموسيقى على أكمل وجه، فإذا انتقلت القيان والمغنيات والمغنيين من الأندلس إلى صقلية، فهذا الانتقال لن يكون من دون أدوات تُعين على الأداء، وهذا الانتقال لا ينحصر في ميدان

([1])ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص99.

* فردريك الثاني دو هو هنستافن، كان قد عيّن ملكا على صقلية في (1197م). وهو إمبراطور الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة من عام (1212م إلى 1250). وقد لقب في وقته بآية العالم(Stupor Mundi). / تيري هنتش: الشرق المتخيل (رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي)، ص90. / ماريا روزا مينوكال: الأندلس العربية، إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص99.

([2]) ماريا روزا مينوكال: الدور العربي في التاريخ الأدبي القروسطي، ص190، 191.

الأداء فقط، ولا يبقى على مستوى المفاهيم الموسيقية التي حملها الأندلسيون، بل تعدّاها إلى مختلف الآلات اشتهر بها الأندلسيون.

"ومعلوم أن الآلات الموسيقية لا تنتقل من ثقافة موسيقية إلى أخرى، إلا ومعها قدر من تقنيات العزف عليها*، ومن الموسيقى الخاصة بها والتي صمّمت تلك الآلات أصلا لأدائها"[1]

وقد لاحظنا في حديثنا عن واقعة بربشتر أن الجارية التي أمرها مالكها بأن تطرب اليهودي، كيف أخذت العود وغنّت بشجوها، ومعروف عن البيئة الأندلسية بكل مدنها، وخاصة إشبيلية، كيف كانت تصنع فيها مختلف الآلات الموسيقية، حيث كان الإشبيليون يحكمون إتقانها ويتفننون في صنعتها.

وقد أورد أبو الوليد الشقندي في رسالته في فضل الأندلس قائلا: " وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال والكريج والعدد والروطة والرباب والقانون والمؤنس..."[2] وعدّد أصناف آلات الطرب والآلات الموسيقية في الأندلس.

وتأتي النصوص الشعرية في مقدمة مكونات الموسيقى الأندلسية باعتبارها مطية لألحان هذه الموسيقى.[3] وقد مر بنا من قبل العالم الأندلسي ابن فتحون السرقسطي الذي توفي بصقلية بسبب محنة أصابته في الأندلس في زمن المنصور بن أبي عامر، فبالإضافة إلى تخصصاته المختلفة فقد ألّف في الموسيقى.

والحقيقة أن التفاعل الثقافي بين الأندلس وصقلية ممثّلا في الجانب الموسيقي والذي حصل بشكل أكيد وبطرق مختلفة قد عبّر عن عُرى التواصل الثقافي والفني بين القطرين، ولكنّه لا يكاد يذكر إلى جانب حقل ثقافي آخر اشتهر به القطران معا، وهو الترجمة.

---

* لم نشأ أن نتدخل في النص الأصلي للباحث، فعبارة (العزف عليها) مغلوطة، وصوابها (العزف فيها).

([1]) يوسف الشامي: مظاهر التعايش والتسامح في الأندلس عبر الموسيقى والغناء، ص276.

([2]) المقري: نفح الطيب، ج3، ص213.

([3]) عبد العزيز بن عبد الجليل: الموسيقى الأندلسية العربية، مظهر من مظاهر التسامح في المجتمع الأندلسي، ص248.

حازت الترجمة في الأندلس* قصب السبق من خلال مترجمي الأمراء والخلفاء في قرطبة، وفي طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري، وخاصة بعد سقوط طليطلة عام (478هـ/ 1085م) وفي القرن الموالي. ومدرسة الترجمة في طليطلة غنية عن كل تذكير، فقد ضمت مترجمين من جنسيات مختلفة، عملوا على نقل العلوم في شتى الاختصاصات.

والوضع نفسه في صقلية، وهو أمر طبيعي في مجتمع متعدّد الألسن، ورثه حكام قشتالة والنرمان في الأندلس وصقلية بعد سقوط دويلات الطوائف واختفاء الحكم الإسلامي، ولكنّ الثقافة الإسلامية أبت أن تنطفئ جذوتها على مرّ القرون.

والأكيد أن الترجمة التي قامت في طليطلة وصقلية في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس والقرن السادس الهجري، قد جمعت علماء مختصين في هذا المجال (مسلمون، يهود ومسيحيون)، عملوا جنبا إلى جنب في سبيل تحويل التراث العربي والإسلامي، وضخه في خزائن ملوك الشمال المسيحي وأوربا بشكل عام.

ولا شك أن تجربة شبه الجزيرة الأيبيرية في هذا المجال كانت أسبق وأخصب من تجربة صقلية، وبالتالي فلا عجب أن يستفيد صاحب التجربة الفنية من عتيد التجربة. وهو ما يعبر عن أوثق عرى التواصل الفكري بين المِصرين، وأي باحث متخصص سيتعرف بسرعة على أهم المترجمين في هذين القطرين، وسيدرك ضخامة أعمالهم ومجهوداتهم في سبيل عملية النقل، كما سيقدر رعاية الملوك والأمراء لهم وتشجيعهم وتقدير مجهودهم مثل الأسقف رودريغو خيمنيث دي رادا، وملك قشتالة وليون، ألفونسوا العاشر الملقب بالحكيم، وجيراردي كريمونا، روبرت دي شستر، وأدلاردي بات، ومايكل سكوت وغيرهم.

---

* كُتبت دراسات وبحوث حول مدرسة المترجمين في طليطلة وأعمال مدرسة بالرمو منها: بحث لـ:شارلز بيرينث (CHARES BURNETT) بعنوان "حركة الترجمة من العربية في القرون الوسطى في إسبانيا" ترجمة: عمران أبو حجلة. ضمن كتاب سلمى الخضراء الجيوسي (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)، ج2، من ص 1439، إلى ص1475. / وفي المصدر نفسه بحث لـ: مارغريتا لوبيز غوميز، بعنوان: "إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوروبا عبر الأندلس." ج2 من ص1477 إلى ص1481.
وكتاب الأستاذة ماريا روزا مينوكال (الأندلس العربية، إسلام الحضارة، وثقافة التسامح) و (الدور العربي في التاريخ الأدبي القروسطي). وقد تحدثت الكتابة في مؤلفاها الثاني، من خلال فصوله المتنوعة عن هذه القضية، وخاصة في الفصل الثاني منه والمعنون ب " إعادة النظر في الخلفية التاريخية" من ص71 إلى ص124. حول التأثيرات المتبادلة بين الأندلس وصقلية في مجال الترجمة.

ورغم أن كثيرا من هؤلاء قد تأخروا عن عصر الطوائف الأندلسية والصقلية، إلا أن إرهاصات أعمالهم قد بدأت في القرن الخامس الهجري.

وفي حديثنا عن التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية، من جهة العلوم الدينية (الشرعية)، والذي يمثل الوجه الصحيح والأمتن لهذا التواصل وذلك منذ عصر الإمارة في الأندلس.

فيحيى بن عمر الأندلسي (213هـ/ 289هـ – 828م /902م) كان قد ألّف كتابا في الفقه المالكي بصقلية، وأن كتابه هذا كان منتشرا في صقلية كانتشاره في إفريقية، كما يقول الباحث عزيز أحمد في كتابه "تاريخ صقلية الإسلامية"[1] مع العلم أن هذا الأندلسي قد عاش معظم حياته بإفريقية (تونس)، في مدينة سوسة وبها توفي.

وكان أبو القاسم بن الحصّار، خلف بن إبراهيم (427هـ/ 511هـ). قد لقي بصقلية أحد كبار مقرئيها، أبا بكر ابن نبت العروق وجالس عبد الحق بن هارون الفقيه بصقلية.[2]*

وعلى ذكر الفقيه عبد الحق بن محمد بن هارون، المكنى أبا محمد القرشي الصقلّي (ت466هـ/ 1074م). فقد كان من أشهر الفقهاء الصقليين الذي مثّلوا حلقة الوصل الثقافي بين الأندلس وصقلية في عصر الطوائف.[3]

([1]) نقلا عن محمد الزوين: ابن يونس الصقلي (451هـ) وأثره في الفقه المالكي، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب/ ط1، 2009م، ص47. وحول ترجمته ينظر المصادر الآتية: المالكي: رياض النفوس، ج1، ص490 وما بعدها. / ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ص435. رقم (1568). / الحميدي: جذوة المقتبس: ص341، 342. رقم (900). / الضبّي: بغية الملتمس، ص440، 441. رقم (1485). / القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2، ص354، 355. رقم (359). / الذهبي: سير أعلام النبلاء (طبعة المكتبة التوفيقية)، ج11، ص29، 30. رقم (2447). / قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص1354. رقم (1369). / فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1 / ج3/ ص161. وقد ذكر ليحيى بن عمر الأندلسي كتاب (أحكام السوق) وهو أقدم كتاب في الحسبة.

([2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية)، ج1، ص156، 157. رقم (400).

*: ترجمته عند ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء،ج2، ص174، 175، رقم (2911) وفي غيره من المصادر.

([3]) تفقه بشيوخ القيروان وصقلية وحج مرتين ولقي القاضي عبد الوهاب، وأبا ذر الهروي، وإمام الحرمين الجويني، وتوفي بالإسكندرية، وألّف كتاب (النكت والفروق لمسائل المدونة). وألف أيضا كتابه الكبير في شرح المدونة سماه (تهذيب الطالب). ونبّه فيه على كتاب النكت، وله استدراك على مختصر البرادعي، وكان له حظ في الفروع والأصول، وله عقيدة رويت عنه، وله جزء في ضبط ألفاظ المدونة. / القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص585، 586. رقم (1385). / وقد ذكره ابن حزم الأندلسي في (رسالتين له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف) في آخر الرسالة. / مجموع الرسائل، م2/1/ ص116.

ومنهم كذلك الفقيه ابن يونس الصقلي (ت451هـ) وهو من أكابر الفقهاء المالكية الذين عرفتهم صقلية في عصره. فهو يمثل في نظرنا حلقة وصل مهمة في الفقه المالكي بين صقلية والأندلس. فقد كانت آراؤه الفقهية في المذهب المالكي مستمدة من آراء فقهاء الأندلس المبرزين في المذهب، كما كانت آراؤه هو واستنباطاته مصدرا لآراء الأندلسيين واستشهاداتهم، وكان الفقيه الأندلسي ابن الحصار السابق ذكره أحد تلامذته.[1]

وكان علامة الفقه المالكي في صقلية والعالم الإسلامي ككل، الإمام المازري (453هـ/ 536هـ – 1061م/ 1141م). قد نقل عن كثير من علماء الأندلس في عصر الطوائف كأبي الوليد الباجي وغيره من العلماء.[2] وصنوه أبو بكر محمد بن سابق الصقلّي (ت493هـ). الفقيه، الأصولي، المتكلم.[3]

ومن أوجب التواكيد في هذا المقام ذكر المقرئ الصقلّي الكبير ابن الفحّام الصقلّي (516هـ)، عبد الرحمن بن عتيق بن خلف المقرئ، من كبار القُرّاء، وممن رحل من المغرب إلى المشرق في طلب

=وانظر ترجمته للمحقق إحسان عباس في هامش الصفحة. / مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص173. رقم (360). / حاجي خليفة: كشف الظنون، ج1، ص515. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج5، ص94. / قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج2، ص610، 611. رقم (534). وقد طبع كتابه (النكت والفروق) بعناية أبي الفضل الدمياطي. / دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1430/2009هـ بالاشتراك مع مركز التراث المغربي، الدار البيضاء. حيث أشار المحقق إلى كثير من مصادره الأندلسية في الفقه المالكي، ج1، ص7، 8. وإلى بعض تلامذته الأندلسيين مثل ابن الحشا قاضي طليطلة، وكذلك محمد بن عمر بن أبي العصافير الجيّاني. / ج1، ص5.

([1]) حول ترجمة ينظر المصادر الآتية: ابن فرحون الديباج المذهب، ج2، ص222. رقم (500). / مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص164، 165. رقم (330). / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج10، ص252. / قاسم علي سعيد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص1132، 1133. رقم (1125). / وقد جمع الباحث محمد الزوين في كتابه (ابن يونس الصقلي وأثره في الفقه المالكي) وهو في أصله أطروحة دكتوراه قدّمت إلى دار الحديث الحسنية بالرباط (2002). وقد حاول الباحث أن يجمع مصادر الآراء الفقهية المالكية لابن يونس الصقلي، ومن الأندلسيين المتأثرين الذين اعتمدوا على آراء ابن يونس، من ص155 إلى ص 188.

([2]) ذكرنا فيما سبق بعض مصادر ترجمة الإمام المازري، وإضافة إلى ذلك ينظر ابن الصلاح": طبقات الفقهاء الشافعية، ج1، ص255. / ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، ج2، ص466 وما بعدها. وفي كتابه "شرح التلقين " يعتمد الإمام المازري على آراء الأندلسيين قبل الطوائف مثل عبد الملك بن حبيب، ج1، الصفحات، 165، 166، 300، 371، 372، 389، 393، 399، 414. وعلماء آخرين في عصر الطوائف مثل أبي الوليد الباجي، ج1، ص377 وكثيرا ما ردّد عبارة "بعض حذّاق الأندلسيين"، ج1، ص165.

([3]) كمثال على ذلك فقد ذكر ابن سابق الصقلي في كتابه " الكتاب المجموع في الأصول والفروع" قائلا: " وشيخنا القاضي أبو الوليد الباجي" / تحقيق/ محمد الطبراني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008، ص87. فقد كان تلميذا للباجي، وقال في موضع آخر من الكتاب حول مسألة معينة": ... فلما لقيت القاضي أبا الوليد أبطله بالإخبار عن اجتماع الضدين." ص176.

القراءة على الشيوخ، فأدرك بمصر ابن الهاشمي وابن نفيس وعبد الباقي بن فارس وأبا الحسن الوازي (ت438هـ). وله تأليف حسن سماه (التجريد في بغية المريد)، وكان حافظا للقراءات، صدوقا، متقنا، عالما كبير السن. أقام بالإسكندرية على قدم الإفادة.

قال عنه أحد علماء الأندلس واسمه أبو الربيع سليمان بن عبد العزيز المقري الحِمصي، حمص الأندلس: ما رأيتني أعلم بالقراءات ووُجودهما منه لا بالمغرب ولا بالمشرق، وإنه ليحفظ القراءات كما نحفظ نحن القرآن، وكان قد بقي بمص للقراءة وطلب العلم من سنة (438هـ) إلى سنة أربع وخمسين.[1]

وفي نهاية المطاف وفي ختام هذا المبحث الخاص بالعلاقات الثقافية، الأندلسية الصقلية، يمكن لنا أن نقول: إن الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس وصقلية كانت تستند إلى المرجعيات نفسها في كليهما، فروح التشابه بادٍ، أما قيامها في كليهما إنما كانت تقوم على الدين والعلم والمدنية، وتقبل التعدّد والتنوّع، وتمثّل التيارات الوافدة، وهذا ما خلق التميز في كيلهما.

وإن ثقافة يكون عنوانها الأصول والمنابع العربية والإسلامية التي تستند إليها، وطالعها التعدد والتنوع، واستهلالها الحضارات السابقة، لحقيق علينا أن نشهد لها بالتميز.

ومن المؤكد أن التيار الفكري والعلمي الصقلّي كان قد أخصبه إلى جانب عديد التيارات الفكرية التي أخصبته، التيار الفكري الأندلسي، نظرا لقوة هذا التيار الفاتنة وحجم بضاعته المعروضة، وذلك لعدة أسباب ذكرناها في مقدمة هذا المبحث، منها: تشابه الظروف السياسية، وتشاكل الأحداث التاريخية، فتيار شبه الجزيرة هو الأقرب لتيار الجزيرة مأخذا ومسافة فهما في خندق واحد. (الغرب الإسلامي).

فهما المركزان الإسلاميان الواقعان في قلب أوربا المسيحية، أو العالم الغربي " رغم أن أوربا لم يكن لها إذ ذاك وجود بالفعل، اللهم إلا تعيينا جغرافيا."[2]

([1]) القفطي: إنباه الرواة، ج2، ص164، 165. رقم (380)

([2]) تيري هنتش: الشرق المتخيل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، ص90.

وإذا كانت الأندلس موضوع الدراسة، معروفة بإشعاعها الثقافي عبر تاريخها الممتد لثمانية قرون، وخاصة في القرن الخامس الهجري، - الإطار الزمني للبحث – فإن صقلية كذلك قد اختطّت نهضتها الثقافية والعلمية منذ البدايات الأولى لدخول الإسلام إليها، فإن التواصل الثقافي بين المركزين، والتأثير الحضاري المتبادل بينهما قد أكسبهما ثقلا ثقافيا إضافيا، يُضاف إلى باقي الأقطار الإسلامية، والمراكز العلمية المنتشرة في ربوع الأراضي الإسلامية.

أما مجالات التبادل الثقافي بين هذين القطرين فعديدة وفي كل التخصصات، وكانت الرحلة بينهما هي السبيل الأهم في تحقيق هذا التواصل بينهما.

ففي مجال العلوم الدينية وبفروعها المختلفة كالفقه والتفسير والحديث والقراءات كان التأثير متبادلاً بين القطرين، وخاصة من الأندلسيين، ولطالما كانت أقوال وآراء أعلام الأندلس في عصر الطوائف كابن حزم وابن عبد البر والباجي وغيرهم مَعينا يصدر منه الصقليون، ومصدرا من مصادرهم، كابن يونس الصقلي وعبد الحق بن هارون وابن سابق والإمام أبي عبد الله المازري وطبقته. حيث كانت أقوالهم وآراؤهم حجة عند هؤلاء.

كما كان الصقليون كذلك أساتذة للأندلسيين في كثير من فروع العلوم الدينية، ويمكن لنا أن ندلل على ذلك بعلماء القراءات مثل أبي بكر بن نبت العروق، والمقرئ ابن الفحّام الصقلي.

وفي مجال الأدب والشعر خلقت الطبيعتان الجميلتان في الأندلس وصقلية وضعا متشابها، مشبعا بروح الإبداع والتميّز من طرف الشعراء. زاده تمدن القطرين بفعل اختلاف الأجناس، وتعدد الروافد والمعطيات الثقافية، وانتشار دور الطرب في الدولتين وما صاحبه من موسيقى، مما كان له أكبر الأثر على ازدهار الشعر، واتحاد المواضيع، وتداخل الأغراض، كاتحاد شعر الطبيعة والخمر، وكانت البدايات الأولى لهذا التداخل عند الأندلسيين وانتقاله إلى الصقليين، حيث تأثروا به، ولعلّ أشهرهم في ذلك ابن حمديس الصقلّي الداخل إلى الأندلس.

وقد عزّز من منَعة الثقافة ومتانة الفكر، وبالتالي التواصل الثقافي الأندلسي الصقلي، ازدهار الترجمة فيهما، باعتبارها أداة فعالة في نقل الأفكار والثقافات، مما كان له عظيم الأثر على القطرين معا.

IV - الباب الرابع: تعدد الحواضر الأندلسية ودور الأسر الحاكمة في الحركة العلمية:

الفصل الأول: حواضر الموالي:

المبحث الأول: بنو جهور وحاضرة قرطبة.

المبحث الثاني: مجاهد العامري وحاضرة دانية والجزائر الشرقية.

الفصل الثاني: الحواضر العربية:

المبحث الأول: بنو حمّود وحاضرة مالقة.

المبحث الثاني: بنو عبّاد اللخميون وحاضرة إشبيلية.

المبحث الثالث: بنو هود الجذاميون وحاضرة سرقسطة.

المبحث الرابع: بنو صُمادح وحاضرة ألمرية.

المبحث الخامس: بنو قاسم الفهريون وحاضرة ألبونت.

المبحث السادس: بنو طاهر وحاضرة مرسية.

الفصل الثالث: الحواضر البربرية:

المبحث الأول: بنو زيري وحاضرة غرناطة ومالقة.

المبحث الثاني: بنو ذي النون وحاضرة طليطلة.

المبحث الثالث: بنو رزين وحاضرة السهلة (شنتمرية الشرق).

IV - الباب الرابع: تعدد الحواضر الأندلسية ودور الأسر الحاكمة في الحركة العلمية:

✓ تعدد الحواضر الأندلسية ودور الأسر الحاكمة في الحركة العلمية

خلقت التعددية السياسية في القرن الخامس الهجري، تعددية حضارية، وجيوبا ثقافية، وذلك بتعدد المراكز العلمية بالموازاة مع تعدد العواصم السياسية.

وكان العلم في الأندلس دوما يسير جنبا إلى جنب مع السياسة، فتفاعلهما أمر معروف في التاريخ السياسي والثقافي الأندلسي.

وهذه شهادة من أحد رؤساء الطوائف وهو الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الذي يقول في مذكراته:" ولم تزل الأندلس قديما وحديثا عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور مصروفة، إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحد ودفعه لآخر."[1]

وعلى الرغم من التطاحن العسكري الذي عاشه عصر الطوائف من حيث تنافس الأمراء والملوك فيما بينهم، أو بينهم وبين ملوك الشمال المسيحي، إلا أن هذا القرن قد شهد تطورا معرفيا قلما نجد له نظيرا في القرون الأخرى من عمر الأندلس الإسلامي.

ورب ضارة نافعة، فإن هذا القرن، وإن اسود من وجه، فقد أشرقت الثقافة بنورها عليه من وجه آخر، فأهلّ بدر العلم، وتأتت سعادات المعرفة.

ويمكن القول: إنه رغم الصراع السياسي والتطاحن العسكري، فإن تلك البرجوازية التي أقامها ملوك الطوائف، قد صنعت أو كانت سببا في صناعة الفكر وإنتاج المعرفة والفنون، وهذا ما لم يعرفه التاريخ الإسلامي بهذا القدر. (ملوك علماء، وأدباء وشعراء وكتاب)

وحسبنا أن نذكر من هذه الدوحة الجليلة التي أخذت على عاتقها رعاية العلوم والمعارف، وأنيطت بها خدمة الثقافة العربية حيث خدموها علما وعملا، وإسهاما وصنيعة، وتسهيلا وتشجيعا، بنو الأفطس، بنو ذي النون، بنو هود، بنو عباد، بنو زيري، بنو صمادح، بنو طاهر، وغيرهم من الأسر العظيمة التي ذللت المعرفة تذليلا، وأغدقت على أهلها والمنتسبين إليها، وسهلت عليهم، فمحى ذلك

---

[1]) المذكرات (تحقيق ليفي بروفنسال)، ص20

– ولو بجزء قليل -تلك الصفحات السوداء التي عاشتها الأندلس في زمن الشتات أو فترة الفتنة المبيرة.

✓ **التنافس العلمي بين رؤساء الطوائف، وأثر ذلك على الناحية الثقافية:**

كان التنافس بين ملوك الطوائف السمة الأبرز لسلوكاتهم في الحكم والتسيير. أما تبيان الكيان الطائفي السياسي، والأنا الثقافي، فمن أوكد الجهود الحثيثة التي سعوا إليها، وبذلوا في سبيلها كل غال ونفيس، وسيرهم وتراجمهم تشهد بذلك.

إذن فقد أوقد التنافس وأحيانا التفاخر جذوة العلوم والمعارف، وهي سبيل أكيدة للمدنية الخصبة والحضارة المزدهرة. يقول ابن الخطيب في هذا الصدد واصفا أحوالهم: " هؤلاء الرؤساء أشهر ممن كان على إثر انقراض الدولة الأموية من رؤساء الطوائف بالأندلس، ما بين متناهي الخلافة، مجاري كبار الملوك في اتساع الخطة، وكثر الجباية، وتوفر الجيش، وانتشار الشهرة، واحتفال المباني والآثار، واستخدام الكتاب والشعراء، ومحاورة العلماء واختيار القضاة الفضلاء"[1] ويؤكد المقري ذلك بقوله: " وكان أكثرهم –أي ملوك الطوائف - يحاضر العلماء والأدباء، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباريه في الرياسة"[2]

وبالتالي فليس عجيبا أن يسعى الملوك والرؤساء في اجتلاب العلماء والأدباء والشعراء، وأولى النباهة والعلم وأصحاب الفضيلة والفهم، وكل ما من شأنه أن يرفع الإمارة أو المملكة، أو يعلي من شأن الدولة والبلاط " فلم تزل الرغبة ترتفع من حينئذ في طلب العلم القديم شيئا فشيئا وقواعد الطوائف تتمصر قليلا إلى وقتنا هذا كما يقول صاعد الأندلس."[3]

أما شأنهم في ذلك فقد كان " إعزاز العلم وإكرام العلماء، متنافسين في الفضل قاصدين إلى إرضاء العامة، مقدرين ما للعلم من أثر في حفظ ممالكهم."[4]

([1])أعمال الأعلام: ص 209.

([2])نفح الطيب: 1، ص 215.

([3]) طبقات الأمم: (تحقيق حسين مؤنس)، ص 88

([4])محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، دار الجبل، بيروت، ، د ا 1412هـ/ 1992: 211.

ومدركين أهمية أهل العلم في صناعة الشهرة العلمية للإمارة والمجد الأثيل للدولة. حيث دعوا العلماء على اختلاف طبقاتهم وتخصصاتهم إلى مختلف بلاطاتهم، وأغدقوا عليهم الصلات وأجزلوا لهم العطايا، والهدايا السنية، فالحاجة أكيدة، وتوطيد أركان الحكم، وتثبيت طنب الدولة من المسلمات التي يعتقدها كل حاكم أو أمير في أهل العلم، لما لهم من القدرة على السيطرة على عقول العامة وأهواء الشعوب. قلما خلا عصر، أو شذ مصر عن هذه القاعدة الثابتة في الأدبيات السياسية والثقافية في التاريخ الإسلامي.

كانت المنافسة على أشدها بين رؤساء الطوائف في استحلاب مواد البناء الحضاري، وكل ما من شأنه أن يخدم الممالك الصغيرة حتى تصبح كبيرة ويعلو شأنها، وإن شئت قلت بذل المساعي في سبيل التأسيس لصورة مثلى لحاكم يجمع إلى جانب أبهة الرياسة والحكم خلال العلم والفهم، ويكون بلاطه بذلك موئل العلم والعلماء وميدانه حلبة للشعر والشعراء.

فأما الشعر والأدب فقد نفق سوقهما وارتفع شأنهما، وبلغ من كثرة الشعراء والأدباء والكتاب مالا يستطاع عده، ولا يوصف حده، وحسبنا أن نستطلع ذخيرة ابن بسام أو نفح التلمساني حتى نؤكد ما نقول.

لقد كان هذا " الزمان عصرا عظيما للشعر والشعراء، إذ تنافس ملوك الطوائف في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم."[1] فقد مضى الشعراء يقطعون الأندلس طولا وعرضا، ينتجعون قصور الأمراء، حيث يظفرون بالمأوى والصلات، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين، أو تقرر لهم الأرزاق وتخلع عليهم وظائف التدريس، ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة.[2]

لقد خلف السخاء الوفير، والأعطيات السنية وغير المحدودة للأمراء والملوك على الشعراء، أن بالغ الأستاذ غومس قائلا: " لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء."[3] فلا نجد عبارة أبلغ من عبارة ابن بسام الشنتريني في وصفه لتنافس هؤلاء الملوك حينما دخل الجزيرة من صقلية الحصري القيرواني

([1])إيميليو غارسيا غومس: الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ص34.

([2])المصدر نفسه: ص35.

([3])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

الضرير، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض النسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم."[1]

أو عبارة الفتح بن خاقان في الكاتب الوزير الأديب الفقيه أبي عمر الباجي حين تهادته الرياسات وقادته السياسات، فانتقل لديهم انتقال الشمس في مطالع السعود.[2]

وإذا كان التنافس قد خلق سباقا محموما لفضيلة العلم وقيم المعرفة، حتى كان أحد الملوك يربي على آخرين في هذه الخلال، فمن مشهور الفضل في هذا، ما روى عن مجاهد العامري أمير دانية أنه يباين سائر الملوك في زمانه بخلال الفضل من أشفها العلم والمعرفة، اللذان لم يكن في الأحرار ولا الموالي أثبت قدما منه فيها. [3]

فإن نوعا آخر من المنافسة الذي شاع في الأندلس وسرى بين ملوك طوائفها، فيما يتعلق بأبهة الملك، وجلال الرياسة، ورغم ذلك فهو وجه من أوجه المدنية، ومظهر من مظاهر الحضارة. من ذلك ما رواه مؤرخ الأندلس ابن حيان القرطبي عن أحد ملوك بني رزين أصحاب سهلة، واسعة حسام الدولة، حيث كثر ماله إذ ناغى جاره وشبيهه إسماعيل بن ذي النون في جمع المال...وكان حسام الدولة هذا أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات، وهو أول من بالغ في الأندلس في شراء القيان المشهورات، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس.[4]

فقد اشترى جارية أبي عبد الله المتطبب ابن الكتاني، بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها، فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار فملكها.[5]

وقال عنه ابن حيان:" وحدثت عنه أنه اجتمع عنده مائة وخمسون حظية، ومن الصقلب المجابيب ستون وصيفا، لم تجتمع عند أحد من نظرائه."[6]

([1])الذخيرة: ق4/1/ص246

([2]) قلائد العقيان: ص300

([3])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص217.

([4])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 206

([5])ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ ص 112

([6])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

فقد شملت المنافسة كل مظاهر الحضارة، وكل ما يمت بصلة إلى المدنية، وازدهار الممالك المختلفة، من بناء القصور واتخاذ الخدم، والوصائف، وجلب كل نفيسة ونادرة.

تميز مملكة عن أخرى، وترفع من شأن أسرة حاكمة على نظيرتها في الدولة الأخرى، وما يصاحب ذلك من ظهور للقصور والرياض والمنتديات، والموسيقى والشعر وظهور المتنافسين والمتناغين والمتبارين في ذلك، والسعي الحثيث والدؤوب من أجل الحصول على هذه المترفات والمقتنيات.

وظهور التيارات المختلفة وكل المتناقضات في المدنيات القديمة والحديثة أمر معروف وشائع، كل ذلك كان له أثر واضح على ازدهار الحياة الثقافية والعلمية وخاصة الأدبية.

كان هذا دأب وديدن كل الطوائف ورؤساء الدول وأمرائها بلا استثناء، حيث أذكت المنافسة حمية العلوم، وألهبت جذوة المعارف، فنفقت الآداب وازدهر الشعر، وحظي أهل الثقافة بكل عناية وتقدير، ولم تكن هذه المنافسة مقصورة على أمرائهم فقط، فقد فشا الأمر في وزرائهم وكتابهم وحتى مواليهم وعبيدهم كلهم أسهموا في صنع الملحمة الثقافية الأندلسية في القرن الخامس الهجري.

✓ **دور الوزراء في النهضة العلمية في عصر الطوائف:**

لم تكن المنافسة بين رؤساء الممالك وحدها من ألهب نار العلوم في الأندلس في القرن الخامس الهجري، بل اتبعهم في ذلك وزرائهم، وتلك الطبقة العلية من القوم، التي ظفرت بالمسؤولية، وتقلدت المناصب لسبب من الأسباب، فهي تمثل في نظرنا تلك " البرجوازية" المثقفة التي أسهمت في تنشيط الحركة المعرفية في العالم الإسلامي في القرون الوسطى.

وعادة ما كان أصحاب هذه الطبقة من الكتاب، الوزراء، الأدباء، فهم بذلك قد جمعوا بين وظيفتين أو منصبين، فأطلق على كثير منهم اسم " صاحب الرياستين".

ولا نستثني منهم أحدا في ذلك، فقد كانوا كلهم ممن يجالسون الأمراء والملوك، وينادمونهم، ويشتغلون في دواوينهم، وربما يثقفون أنجالهم وأحفادهم، ويصنفون الكتب، كما كانوا يتناشدون الأشعار في بلاطاتهم.

وكانوا إلى جانب ذلك كله وبحكم المناصب التي تقلدوها، والأموال التي كانت تجري على أيديهم من كبار عشاق الكتب وجامعيها والحريصين عليها، وربما كانوا صرعى لدفاترهم وسجلاتهم التي جمعوها في مكتباتهم الخاصة، وكانت هذه المكتبات بكل تأكيد تحوي مؤلفات جمة جديرة بكل ثناء واعتبار.

إذن فقد أنعشت هذه الطبقة النهضة العلمية في أندلس الطوائف وأسهمت في تنشيطها وتطويرها، كما عزز هؤلاء الوزراء والكتاب من دور بلاط أميري قوي في ناحيتيه السياسية والثقافية، مما يضمن وجوده وحضوره، ولم لا استمراريته في مواجهته الخصوم والمناوئين.

وتذكر لهم كتب التاريخ والطبقات وتشيد بفضلهم حتى في تنشيط مجالس الأمراء والملوك ومنتدياتهم، وذلك بمجاوراتهم ومسامراتهم ومناظراتهم.

فقد كان أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذو الوزارتين، وهو أول من ثنيت بالأندلس.[1] وكان ابن شهيد قد عاش طيلة حياته في عصر الخلافة وزمن الفتنة، وأدرك حوالي أربع سنوات فقط من عصر الطوائف حيث توفي سنة (426هـ)

وكان أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد من الكتاب الأعيان، وممن شهر بالإحسان في صناعة النظم والنثر، وكان من أهل الرواية والعلم، وذوي الدراية والفهم. [2]

ولنا أن نذكر في هذا المقام، الشاعر والأديب والكاتب والوزير ابن زيدون، (394ه/4636هـ) وكان من وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفتنة فبرع أدبه وجاد شعره، وعلا شأنه وانطلق

([1])ابن الأبار: إعتاب الكتاب، حققه وعلق عليه وقدم له: صالح الأشتر، دار الأوزاعي، بيروت، لبنان، ط2. 1986م/1406ه، ص188، وترجمته عنده، ص201 وما بعدها، رقم (62)./ وراجع ترجمته عند ابن خلكان في وفيات الأعيان، ج2، ص65، 66./ الثعالبي: يتيمة الدهر:ج8، ص760 وما بعدها./ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ ص191 وما بعدها./ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص81 وما بعدها./ الحميدي: جذوة المقتبس، ص117وما بعدها (232)./ الضبي: البغية، ص164، 165. رقم (440)./ابن دحية: المطرب، ص وما بعدها./ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص634 وما بعدها./ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 7 ، ص96 وما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج1،ص621 - 623 ./ العماد الإصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس) ق3 ، ص555 وما بعدها./ حاجي خليفة: كشف الظنون(503، 624، 1490).

([2])ابن بسام: الذخيرة، ق2/1/ ص112، 113.

لسانه.[1] فاجتذبه المعتضد بن عباد، فهاجر عن وطنه إليه، ونزل في كنفه، وصار من خواصه، يجالسه في خلواته، ويسفر له في مهم رسائله، لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة، ثم كتب له بعد أبي محمد بن عبد البر، فكانت الكتب تفد من إنشائه إلى شرق الأندلس، فيقال، تأتي من إشبيلية كتب هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور.[2]

والظاهر أن دولة العبابيد في إشبيلية وقرطبة قد اجتذبت عدة وزراء وكتاب، بدءا من منشئ دولتهم، ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد المتغلب على إشبيلية في بداية الفتنة، حتى زمن حفيده المعتمد بن عباد ومن نافلة القول أن نذكر الشاعر والوزير أبا بكر بن عمار، صاحب الطموح الكبير، وأحد متقدمي الشعراء في عصر الطوائف.

ومثله الوزير ابن القصيرة (ت508هـ) والذي وزر لدولتين مختلفتين، العبابدة في إشبيلية والمرابطين بعد حكم الطوائف فقد كان ابن القصيرة بغرفة القصر المكرم، مقيما لرسوم المعتمد وحدوده ومنشئا لمخطباته وعهوده، في اليوم الذي خرج فيه ابن عمار إلى شلب.[3]

وقد وصف ابن القصيرة بالعفاف وشهر به، فلزمه، ويسر للعلم فعلمه وعلمه، وكانت له نفس تأبى إلا مزاحمة الأعلام، والخروج على الأيام.[4]

وإذا سايرنا هذا النمط من العلماء، وهم الوزراء والكتاب، نجدهم في كل مملكة ودويلة. إلا وقد أغنوها معرفيا، وأشهروها ثقافيا، ومن الصعب ذكرهم جميعا، وإن وجب ذكر بعضهم في كبريات ممالك الطوائف. والشيء اللافت للانتباه، أن الواحد منهم قد يكتب لأكثر من حاكم أو ملك أو رئيس، واستوزر في أكثر من دويلة كابن القصيرة السابق ذكره.

وأبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى الذي كتب للمنصور أبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر صاحب بلنسية، وكان معه على بلاغته وبيانه وتقدمه في غير ذلك من

([1])ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، ص205، وترجمته في المصدر نفسه، ص205 وما بعدها.

([2])المصدر نفسه: ص210، 211.

([3])الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص210، 211

([4])ابن الأبار: إعتاب الكتاب، ص219، 220. رقم (69).

العلوم.[1] حتى إذا ارتحل من بلنسية إلى طليطلة. فاستوزره المأمون بن يحي بن ذي النون، وألقى إليه بأموره كلها، فأعقبه المنصور في بنيه، فلحقوا به على ما أحب، وتزايدت حظوته عند ابن ذي النون، وظهرت كفايته. [2]

وعلى ذكر أسرة بني ذي النون في طليطلة، فقد استوزر لهذه الأسرة العديد من الكتبة والشعراء، أعلى طبقة من أبي المطرف بن مثنى السابق ذكره، كأبي سفيان بن أبي عامر بن فرج.[3]وأعلى طبقة منه أبو عيسى بن لبون.[4]

وضم بلاط بني هود في سرقسطة جملة من الوزراء والكتاب، أعلوا شأنه، وقووا أوده، وقد ذكرنا منهم قبلا أبا عمر الباجي الذي استدعاه المقتدر بالله فعرف محله، وأحله من الحظوة لديه ما أحله، فاستحسن ملكه واستطابه، وملأ بعوارفه عيابه ووطابه، ولقي من أهل سرقسطة كل ضاحك بسام.(سمه)فقد كان ابن الباجي هذا من بلغاء الكتاب.[6]

ومنهم الكاتب الوزير أبو الفضل بن حسداي السابق المبرز في البلاغة والكتابة، وآثاره تدل على أنه قد تبوأ الوزارة فأحسن تقلدها. [7]

وكان وزراء مملكة بني زيري في غرناطة يتبوؤون مراتب رفيعة، ويشيرون على حاكمها فيما أشكل عليه من أمور السياسة والملك والتدبير، ويبصرونه بالقضايا ذات الشأن، مما دل على رفعة أقدارهم، فها هو آخر ملوكهم في غرناطة قبل دخول المرابطين، يقول عن نفسه: " وما كنت أجهله من الأشياء، أجد له أعوانا من الوزراء، يعلمونني بالصواب فيه لقلة خلافي عليهم وتري بهم."[8]

([1])ابن الأبار: إعتاب الكتاب ،ص212. وترجمته في المصدر نفسه، ص212 وما بعدها. رقم (66).

([2])المصدر نفسه: ص214.

([3])إبن السعيد: المغرب، ج2، ص12

([4])المصدر نفسه: ص376. / الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص289 وما بعدها. / المقري: النفح، ج1، ص373، 672.

([5])الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 301 وما بعدها

([6])ابن بسام: الذخيرة، ق2/1/ص186 وما بعدها.

([7])ابن بسام: الذخيرة، ق3/1/ص458 وما بعدها

([8])عبد الله بن بلقين: المذكرات (تحقيق بروفنسال)، ص17.

وبلغ من ترف بعض وزراء ملوك الطوائف، وبذخهم أنه جرى في دواخلهم تيه وعجب وتجبر، وهذا ما يعطينا صورة واضحة عن حجم البذخ الذي كانوا يعيشونه، والترف الذي يحيونه، ومثال ذلك ما روي عن الوزير أبي الوليد بن الحضرمي، وقد وزر للمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، فداخله تيه وعجب، كرهه من أجلها أصحاب الدولة فعزله المتوكل، ومن شعره:

- كيف لا أعشق الملاح إذا ما ❖❖❖❖ كان عشق الملاح يحيي السرورا
- وأحث الكؤوس بين البسات ❖❖❖❖ ين وأدعو هناك بما وزيرا.[1]

وله في رثاء غلام وسيم اسمة(فعال) كان المتوكل يهواه ومات الغلام فرثاه:

- أودى فعال فلهفي ❖❖❖❖ له ولهفي عليه
- غالته أيدي المنايا ❖❖❖❖ وكن في مقلتيه
- وكان يسقي الندامى ❖❖❖❖ بطرفه ويديه
- غصن ذوى وهلال ❖❖❖❖ جار الكسوف عليه.[2]

أما أشهر الوزراء في عصر الطوائف فهو أحمد بن عباس كاتب زهير العامري (429هـ). الذي بذ أهل زمانه في أربعة أشياء: المال أولا: لم تجتمع – زعموا – عند أحد من نظرائه ما اجتمع عنده من عين وورق، ودفاتر وخرق، وآنية ومتاع وكراع.[3] فقد كان أغنى ملوك الأندلس، ولا يعلم ابن ورث عن أبيه ما ورثه أحمد هذا.[4]

وقد بلغ بأحمد هذا العجب والخيلاء أن قال:

- لي نفس لا ترتضي الدهر عبدا ❖❖❖❖ وجميع الأنام طرا عبيدا.
- لو ترقت فوق السماكين يوما ❖❖❖❖ لم تزل تبتغي هناك صعودا
- أنا من تعلمون شيدت مجدي ❖❖❖❖ ومكاني ما بين قومي وليدا.[5]

([1])ابن سعيد: المغرب، ج1، ص365.
([2])ابن بسام: الذخيرة، ق2/1/ص391.
([3])ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ ص643.
([4])المصدر نفسه: ص665.
([5])ابن سعيد: المغرب، ج2، ص206.

وكان رغم ذلك أديبا شاعرا، فقد عرف بالكتابة، فله بها يد، ونفس ممتد، وفيها يوم وغد وعدة وعدد. [1] قال عنه ابن بسام: " كان أحمد بن عباس كاتبا حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، غزير الأدب، قوي المعرفة، شارعا في الفقه، مشاركا في العلوم، مقتبسا للشعر من غير طبع فيه.[2]

والشيء المؤكد الذي حفظ عن هذا الوزير هو مكتبته العامرة، إذ كان كلفا بالأدب مؤثرا له على سائر لذاته، جماعا للدفاتر مقتنيا للجيد منها، مغاليا فيها، نفاعا من خصه بشيء منها، لا يستخرج منه شيء للؤمه إلا في سبيلها، فقد جمع منها ما لم يكن عند ملك. حكى وراقه أنه حصلها قبل مقتله بسنة، فبلغت المجلدات في التحصيل أربعمائة ألف، وأما الدفاتر المخرومة فلم يقف على عددها لكثرتها.[3]

هذه الأمثلة المنتقاة قد بينت لنا شغف الطبقة الحاكمة بالعلوم والمعارف، والطبقة التي تليها مباشرة، من الوزراء والكتاب، وعلية القوم، ممن عرفوا بخدمتهم للثقافة والمعرفة بشكل عام.

ولم تقتصر هذه الإنتاجية المعرفية – إن صح التعبير -على الرؤساء وملوك الطوائف، والطبقة البرجوازية، من الوزراء والكتاب وكبار القوم، فالطبقة الوسطى أيضا، كان حضورها قويا، وفاعلا وأكيدا. في تقوية الثقافة الأندلسية وبروزها وتميزها.

وفي هذا الإطار يقول أحد الباحثين: " لقد ارتبط الفكر الإسلامي في مده وجزره بحركية الواقع السوسيو -تاريخي، بحيث يمكن اعتبار الطبقة الوسطى في المجتمع الإسلامي القروسطي هي المسؤولة عن صناعة وصياغة الفكر." [4]

ونستطيع أن نطمئن إلى الحضور القوي لهذه الطبقة على طول مسار التاريخ الثقافي الأندلسي، وفاعلية إنتاجها المعرفي، مما يصعب علينا إعطاء أمثلة ونماذج، فهي حاضرة في كل البحث من أوله إلى آخره وفي شتى فروع المعرفة وكل التخصصات.

([1])ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ ص645.

([2])المصدر نفسه: ص664.

([3])

([4])محمد إسماعيل: إشكالية المنهاج في دراسة التراث، ص12

✓ **دور الموالي في النهضة العلمية:**

أسهمت هذه الطبقة بشكل كبير في رقي الثقافة الأندلسية في عصر الطوائف، وكان حضورها في المشهد الثقافي كبيرا، وفي صناعة الفكر والمعرفة، حيث ظهر منهم نوابغ، خلدوا أسماءهم في التاريخ الثقافي الأندلسي، وهي طبقة الموالي والعبيد، رغم أن هذه الطبقة قد أهملت، فلا تكاد تذكر إلا قليلا.

" وتبقى كتب التراجم والطبقات أهم المصادر التي وفرت لنا، بخصوص ثقافة الرقيق / الموالي. شذرات متفرقة، تقدم بصيصا من الضوء عن المجالس الأدبية والعلمية التي استفادوا منها، وشكلت رافدا غير مباشر في تلقيه العلم والأفكار." [1]

ويمكن إبراز طبيعة التجربة الثقافية لهؤلاء، حتى نكتشف مجموعة من الخصوصيات المميزة لإبداعهم من خلال أعلامهم الكبار وآثارهم الخالدة. وكثير منهم قد انقلب من حال إلى حال أخرى مناقضة لها تماما.

ولسنا بحاجة إلى التذكير بالفتيان العامريين الذين أقاموا دولة في شرق الأندلس، وصار بلاطهم من أعظم بلاطات ملوك الطوائف، ثم عدوا فيها بعد ضمن الطبقة الحاكمة في أندلس الطوائف.

وكان منهم أبو الجيش مجاهد العامري أمير دانية من أكابر العلماء في وقته، لاسيما علم العربية، فإنه تحقق به، إلى ما يتصرف من علم القرآن، قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره، قد عني بطلب ذلك من صباه إلى اكتهاله، فكان من النهاية من التجربة. [2]

وكان من عناية مجاهد العامري أمير دانية والجزائر الشرقية أن نفقت بإمارته " سوق القراءة، لما كان هو من أئمتها، ولما كان له من العناية بسائر العلوم عموما، وبالقراءات خصوصا، وتوافد

([1])عبد الإله بنمليح: حضور الموالي في المشهد الثقافي الأندلسي، نماذج من القرنين 5 -6هـ /11 -12م، ضمن كتاب: محمد العربي المساري: كراسات أندلسية، ص61، 62.

([2])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص217، 218.

على بلاطه أشهر القراء، وتكونت منهم في إسبانيا مدرسة عظيمة، ذات قواعد راسخة جليلة، ونالت شهرة واسعة عريضة، وامتدت تعاليمها إلى أطراف العالم الإسلامي كله فيما بعد." [1]

وبلغت شهرة إمارته أن "أتت إليه العلماء من كل صقع، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم، كأبي عمرو المقرئ، وابن عبد البر، وابن معمر اللغوي، وابن سيده فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه."[2]واشتهر في بلاط الموفق مجاهد العامري خادمه، وخادم ابنه الفيلسوف والطبيب اليهودي إسحاق بن قسطار الذي كان بصيرا بأصول الطب، مشاركا في علم المنطق، مشرفا على آراء الفلاسفة، وكان حميد المذهب، جميل الأخلاق، يقول عنه صاعد الطليطلي:" جالسته كثيرا فما رأيت يهوديا مثله في رجاحته وصدقه وكمال مروءته، وكان متقدما في علم اللغة العبرانية بارعا في فقه اليهود خبيرا في أخبارهم وكانت وفاته في طليطلة عام (448هـ/ 1056م)./ طبقات الأمم (تحقيق حسين مؤنس)، ص111

وعبارة ابن الخطيب" حتى فشا في جواريه وغلمانه " واضحة الدلالة ولا تحتاج إلى تفسير، ويذكر ابن الجزري واحدا من كبار قراء الأندلس في عصر الطوائف واسمه أبو الذواد مفرج فتى إقبال الدولة. [3]

وذكر ابن بسام أن عبد الله بن حكم حينما دخل لقتل ابن عمه منذر بن يحيى في سنة (403هـ) وجده في نفر من خواص خدمه الصقلبي، قد أكب على كتاب يقرؤه.[4]

ويحدثنا ابن الأبار القضاعي عن بشري مولى أبي بكر بن العربي من أهل إشبيلية يكنى أبا الخير، ويروي عن مولاه أبي بكر. [5]وأبو عبد الله الفهري غلام أبي علي القالي كان من أهل الأدب واللغة لازم أبا علي القالي حتى نسب إليه لطول ملازمته له وانتفاعه به./ السيوطي: بغية الوعاة ص543. رقم (1461).

([1])خوليا ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ص52.

([2])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص218.

([3])غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص701

([4])ابن بسام: الذخيرة: ق1/1/ ص185.

([5])التكملة لكتاب الصلة (تحقيق الهراس)، ج1، ص183. رقم (606).

وكان مؤمل من عبيد باديس جد عبد الله بن بلقين أمير غرناطة في عصر الطوائف موصوفا بالدهاء والفطنة، وسداد الرأي وبعد النظر، ولم يكن في وزراء مملكة عبد الله بن بلقين أصيل الرأي جزل الكلمة، إلا ابن أبي خيثمة من كتبته، ومؤمل من عبيد جده وجعفر من فتيانه. [1]حتى إن مؤملا قد أشار على أمير غرناطة بعد دخول المرابطين إلى إمارته، بنصائح تدفع عنه أذى اللمتونيين. [2]

والمتأمل في هذا الخبر الذي أورده ابن الخطيب يستشف الحظوة التي بلغها هذا الفتى مؤمل في دولة الجد والحفيد، هذه المكانة لم يكن ليتبوأها إلا بعد أن حصل العلم وأصاب الحكمة، حتى أصبح يستشار في القرارات المصيرية للدولة من طرف حاكمها ومثله جعفر وهو من فتيانه وعبيده ومواليه.

وكان الكاتب الشهير أبو عامر أحمد بن غرسية صاحب الرسالة الشهيرة في الشعوبية وكان من نصارى البشنكس ، سبي صغيرا، وأدبه مجاهد مولاه ملك الجزر ودانية.[3]

أما المجالات الثقافية التي حضر فيها الموالي والعبيد، وأسهموا فيها تعليما وتعلما، فهي بالأخص العلوم الدينية بفروعها المختلفة، كالفقه وأصوله، والحديث، وعلوم القرآن والقراءات، وعلم التصوف والمواريث، والآداب، من لغة وشعر وكتابة وعروض ولا نستبعد مشاركة هذه الطبقة في علوم أخرى كالتطبيقية والتجريبية.

بيد أن الحديث عن ثقافة الموالي في هذه الفترة لا يستقيم له معنى، ولا يطرد له سياق، دون إعطاء أمثلة إيضاحية أخرى، وخاصة من المبرزين، فقد اشتهر في هذه الفترة الأديب أبو الحسن حكم بن محمد غلام أبي عبيد البكري (ت487هـ) الجغرافي واللغوي الأندلسي الكبير. وقد وصف هذا

([1])ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص252.

([2])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([3])ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص406، 407.

الأديب بأنه " مولى البكريين"[1]وقال عنه ابن بسام: "واشتمل عليه البكريون لكونه إحدى ذرى بنيانهم، وأحد دعائم أركانهم، ولتعويله عليهم، وانقطاعه بالولاء إليهم، فأتحفوه نعماهم، وأغنوه عن سواهم."[2]

وكل من ترجم للأديب أبي الحسن غلام البكري أكد شاعريته وأنه صاحب " الخاطر المولد المخترع المفتض عذرة المعاني المفترع."[3]

ومن هؤلاء الموالي المقرئ الأندلسي الكبير في عصر الطوائف. أبو داود سيمان بن أبي القاسم نجاح (ت496هـ/ 1103م) مولى هشام المؤيد بالله ابن الحكم المنتصر بالله.[4]

وفي وقته كان أبو حامد شاكر بن خيرة العامري (توفي بعد 470هـ) مقرئا مجودا. نشأ بشاطبة، وعني بالقراءات والآثار، وكان تلميذا لأبي عمرو الداني المقرئ الكبير.[5]وقد شاركت النساء مع الأعلام الذين ذكرنا، في الحلقة الثقافية. رغم اتحادهن مع الرجال في هذه الصفة، فقد كانت إشراق السويداء مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي الكاتب، والتي سكنت بلنسية، حيث أخذت عن مولاها أبي المطرف العربية واللغة والآداب، أيام إقامته بقرطبة، ثم انتقلت بانتقاله عنها. وكانت قد فاقته في كثير مما أخذته عنه، وأحسنت في كل ما تناولته، وكان لها باع في العلم بالعروض، وبالعروضية كانت تشتهر.[6]

([1])ابن سعيد: المغرب، ج1، ص348، 349/ المقري: النفح، ج1، ص657./ العماد الإصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج3، 530، 532, رقم (143)./ الضبي: بغية الملتمس، ص240. رقم (692)./ يوسف فرحات، يوسف عبيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص71.

([2])ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ص563. وترجمته عنده، ص563، 573./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 902، 907./ الضبي: البغية، ص240. رقم (692)./ العماد الإصفهاني: خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والأندلس) ، ج، ص530 وما بعدها. رقم (143).

([3])العماد الإصفهاني: خريدة القصر، ص530.

([4])ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج2/8/ ص478.

([5])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، 198. رقم (535).

([6])ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج2/8/ 480. رقم (240)./ ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس، ج4، ص250، 251. رقم(699)./ المقري: النفح ، ج4، ص171.

ومن أشهر الجواري الشاعرات اللائي عرفن في هذه الفترة غاية المنى جارية المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وكانت جارية متأدبة تقول الشعر، وقد مثلت مرة بين يديه فقال لها: كيف اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزي:

- سهل هوى غاية المنى

فقالت:

- من كسا جسمي الضنا
- وأراني مدلها
- سيقول الهوى أنا

كما وصفت غاية المنى بأنها الشاعرة التي " تقول الشعر وتحسن المحاضرة" [1]

وكان في تلك الفترة شاعرة أخرى شهيرة من جواري المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية وإلى مولاها نسبت. وهي الشاعرة العبادية. والتي أهداها مجاهد العامري، صاحب دانية والجزائر الشرقية إلى المعتضد.

وقد عرف عن العبادية بأنها أديبة طريفة، كاتبة شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة.[2] هذه النماذج اليسيرة – وهي بلا شك - جزء من كثير من النماذج التي حفظتها لنا كتب التراجم والتاريخ، قد كشفت عن أهمية هذه الشريحة الاجتماعية، والتي عادة ما تصنف في ذيل الترتيب الاجتماعي. عند ذكر طبقات المجتمع ومكوناته في أية أمة من الأمم، أو أية حضارة عبر التاريخ.

([1])ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج8/2/ ص488، 489. رقم (266)./ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة (تحقيق الهراس)، ج4، ص252، 253 رقم (702)./ المقري: نفح الطيب، ج4، ص286./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص100./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص253، 254./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص95، 96./ أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ط1، 2001 م، 1421هت، ص333 – 336./ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص146، 147./ محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص271.

([2])ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج8/2/494. رقم (287)./ ابن الأبار: التكملة، ج4، ص251، 252. رقم (701)./ المقري: النفح ج4، 283./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص96، 97./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص200./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص96.

وترجع هذه الأهمية بالدرجة الأولى إلى التحول الخطير عند موالي ورقيق الأندلس حيث العلم والثقافة هي الفيصل الأساس الذي يحد طبقات المجتمع، فقد ظهر من هذه الطبقة علماء كبار في مجال العلوم الدينية والعقلية، وفي الأدب واللغة ونظم الشعر، حيث شاركت النساء الرجال في الحقل الثقافي، تلقينا وتعليما، تأليفا وتصنيفا.

هذه القضية وإن كشفت عن " حضور ثقافي فاعل وملموس لتراث الموالي، وباعتبار كونه أيضا تتويجا للمسار الفكري لشريحة اجتماعية، استطاعت تجاوز المعاناة النفسية والجسدية، ورفعت شعار التحدي والدونية التي طبعت نظرة المجتمع إليها." [1]

فإنها كشفت من جهة أخرى درجة الوعي التي تحلى بها المجتمع الأندلسي اتجاه هذه الطبقة، حتى أصبح أفرادها يشاركون سادتهم في صنع الثقافة، ويسامرونهم ويجالسونهم، ويتفوقون عليهم في أحيان أخرى، وهو ما يؤكد الحس الحضاري الذي تميز به المجتمع الأندلسي في تلك الفترة.

([1])عبد الإله بنمليح: حضور الموالي في المشهد الثقافي الأندلسي، نماذج من القرنين 5 -6 هـ/ 11 -12 م، ص76، 77.

الفصل الأول: حواضر الموالي:

المبحث الأول: بنو جهور وحاضرة قرطبة.

أ - العلوم الدينية (الفقه، الحديث، القراءات، علوم القرآن)

ب - التاريخ والجغرافية.

ج - الفلسفة والعلوم الطبية والرياضية.

المبحث الثاني: مجاهد العامري وحاضرة دانية والجزائر الشرقية.

IV -1- الفصل الأول: حواضر الموالي:

IV -1-1- المبحث الأول: بنو جهور وحاضرة قرطبة.

ليس في وسعنا أن ننسى ثابتة الازدهار الحضاري الأندلسي، ممثلا في عاصمة الخلافة قرطبة، فقد كانت هذه الحاضرة ومنذ أن دخل الإسلام شبه الجزيرة الأيبيرية، وحتى الربع الأول من القرن الهجري عاصمة العالم والفكر، ومركز الثقافة الإسلامية الحية في العالم الإسلامي، وفي الغرب منه بدرجة أخص.

وقد وسمت قرطبة عند المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين وغيرهم بالحضرة، بل هي أم الحواضر؛ لما لها من المحلّ الوافر وعلو الرتبة في شبه الجزيرة.

فهي في نظر الأندلسيين "منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أهل العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجّر العلوم."[1]

وبعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس عام 422هـ/ 1031م)، وذلك بخلع هشام المعتد، ومقتل وزيرة حكم الحائك، اجتمع الملأ من أهل قرطبة على تقليد أمرهم وتأميرهم للشيخ أبي الحزم بن جهور، وعدّدوا من خصاله ما لم يختلف فيه أحد منهم"[2]

وأبو الحزم بن جهور 364هـ - 435هـ / 1044م) والذي حكم قرطبة منذ عام 422هـ) حتى وفاته في التاريخ المذكور " قديم الرياسة شريف البيت. كان آباؤه وزراء الدولة الحَكمية والعامرية، وهو موصوف بالدهاء وبعد الغور، وحصافة العقل وحسن التدبير".[3]

---

[1])ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 33

[2])المصدر نفسه: 1 2/ ص 602

[3])عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 45. / وانظر ترجمته عند الحميدي: الجذوة، ص 165. رقم 358). وترجم له أخرى في المصدر نفسه، ص 166. رقم 360). / الضبّي: البغية ص 221. 222 رقم 623) وترجم له أخرى في المصدر نفسه، ص 222. رقم 625). / الثعالبي: يتيمة الدهر، 8 2/ص 757،758. /ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 602 - 614. / ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 121، 122. رقم 301). / الفتح بن خاقان: مطمع الأنفس، ص 77 - 79. / ابن حزم الأندلسي: مجموع الرسائل 1 2/ ص 107، 203، 204. / المقري: نفح الطيب، 1، ص 302، 304. / العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 255. / ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، 1، ص 56. / القلقشندي: صبح الأعشى، 5، ص 241. وحول أسرة بني جهور بشكل عام ينظر في بعض المصادر السابقة، مثل القلقشندي: صبح الأعشى، 5، ص 241. / الفتح بن خاقان: مطمع الأنفس:ص 77.وفيه:"من أهل البيت وزار،كاشتهار ابن هبيرة في فزارة."/ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 604، 605. وفيه بعد أن ساق النسب بطوله: " جهور بن محمد بن جهور ابن عبيد الله السّر من آل عبدة، نهاية بيوت الشرف الأثيل بقرطبة. "وجدهم أبو عبيدة الكلبي هوالداخل إلى الأندلس، وقد دخلوا إليها قبل عبد الرحمن الداخل،يقال إن أصلهم من الفرس، وقيل بل هم كلبيون. /الثعالبي: يتيمة الدهر، 8 2/ ص 709. /ابن الآبار: الحلة السيراء. (طبعة دار الكتب العلمية)، ص 141.

كان أبو الحزم بن جهور قد ضبط قرطبة بع أن توثّب على الخلافة، حيث كان أحد أعضاء هيئة الشورى التي ضبطت إدارة شؤون العاصمة بعد أزمة الخلافة.

وكان أبو الحزم قد أوفى الشطارة حقها، وأظهر لرعيته المشورة والمحبّة، ففشا العدل بين الناس، فاستوفى سعادات الحظوظ وسهّل ما استصعب على الرعية من الأمور في زمن الفتنة المبيرة، فلاح في مملكته من تباشير الخير والصلاح، وأمارات البركة والفلاح. ما أومأ في تاريخ الأندلس في عصر الطوائف، بازدهار عاصمة ملك المسلمين لتكون دولة مستقلة كاملة الأركان تحت حكم بني جهور.

وصفه ابن بسام فقال: " جليس كتاب منذ دَرج، ونجيّ نظر منذ فَهِم، مشاهدا للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة من تخلفوا عنه، حافظا لكتاب الله قائما به في سره وجهره، متقنا للتلاوة"[1]

وحينما ذكر الفتح بن خاقان أسرته قال: " وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمّات، ركب متون الفنون فراضها، ووقع في بحور الفن فخاضها"[2] وقد كان في وزراء الدولة العامرية فشرفت بجلاله واعترفت باستقلاله."[3]

ولم يشكّ أحد في المنزلة الرفيعة التي تبوأها أبو الحزم بن جهور بين أهل قرطبة وسراتهم، ومقدرته العلمية، ومكانته الأدبية، وقد ذكر ابن بشكوال مجموعة كبيرة من شيوخه الذين أخذ عنهم، كما ذكر مجموعة ممّن رووا عنه[4] وهذا يدل على مكانته في التحصيل بين أقرانه من ملوك الطوائف.

---

[1] الذخيرة: 1 2/ ص 603. وقال ابن بسام فيه وفي سني حكمه: " أثمر الثمرة الزكية، ودب وبين الشفاء في السقام، فنعش منها الرفات وألحفها رداء الأمن" ص 604.

[2] مطمح الأنفس: ص 77

[3] المصدر نفسه: ص 78. وقال فيه الفتح كذلك: " وكان لأبي الحزم أدب وقار وحلم سارت به الأمثال، وعدم فيه المثال." ص 78.

[4] الصلة: ص 121، 122. وقال فيه ابن حزم: " كان يؤم بجيرانه في مسجده في رمضان وهو وزير." مجموع الرسائل 1/ 2/ ص 107.

وقال فيه ابن سعيد في المغرب:" قديم الرئاسة، موصوفا بالدهاء والسياسة، ولم يغير أمرا توجبه المملكة، حتى إنه بقي يؤذن على باب مسجده ولم يتحول عن داره وأحسن ترتيب الجند فتمشت دولته، وكان حرما يلجأ إليه كل فائق ومخلوع عن ملكه." 1، ص 56.

ولا شك أن ملكا يتوفر على خلال أهل العلم والفضل والأدب، ستزهر مملكته وتورقُ أغصانها، فقد جعل ما هيّأ له من مؤتنف الكرامة أيمن الأمور وأيسرها، فاتحة لدار ملكه وعاقبة سعدي لدار قراره.

واشتهر أبو الحزم بمحبته للعلم ورعايته للعلماء، فقد أجزل من غضّ العطايا على أهل العلم والفضل والنهى، وأفاض عليهم من المبرّات، وضاعف لهم من الإحسان ما جعل مملكته موئلا وملجأ لأهل العلم والفن وهي قديما كذلك.

وكانت عطاياه ومنحه لأهل العلم قد اشترك الناس فيها اشتراك العموم، وحلت بنفعها على العلماء والأدباء محل الخصوص، وهذه صورة مُثلى للنعمة والفضل والتكرم في حاضرة بني جهور.

وحينما توفي ابن شهيد عام 426هـ) دفن في مقبرة أم سلمة ،صلى عليه أبو الحزم جهور بن محمد.[1]

وكان أبو حزم كذلك شاعرا مجيدا، شهد بشاعريته معا صرره، وكل من كتب عنه من ذلك ما أورده الحميدي في تفضيل الورد قوله:

- الوردُ أحسن ما رأتْ عين وأز ❖❖❖ كى ما سقى ماء السحاب الجائدُ
- خضعت نواوير الرياض لحسنه ❖❖❖ فتذللت تنقاد وهي شواردُ
- وإذا تبدى الورد في أغصانه ❖❖❖ ذل فذا ميت وهذا جاحدُ
- وإذا أتى وفد الربيع مبشرا ❖❖❖ بطلوع صفحته فنعم الوافدُ
- ليس المبشر كالمبشر باسمه❖❖❖ خبر عليه من النبوة شاهدُ
- وإذا تعرى الورد من أوراقه ❖❖❖ بقيت عوارفه فهن خوالدُ.[2]

وذكر له الثعالبي أبياتا جميلة وهي قوله:

- يا عائبا لي بالصّدو❖❖❖ دِ وإذا ذكرتُ قبيحَ عُذرِك

---

[1])ابن حزم: مجموع الرسائل، 1 2/ ص 299.

[2])جذوة المقتبس، ص 166. / الفتح بن خاقان: مطمع الأنفس، ص 79. / الضبّي: البغية ص 322. / المقري: نفح الطيب، 1، ص 304. وقال في تعليقه على الأبيات: " وكأنه عارض بهذه الأبيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل النرجس عليه من قصيدة:

- للنرجس الفضل المبين وإن أبى ❖❖❖ آب وحاد عن الحقيقة حائدُ

- أخيلت من قلبي مكا ❖❖❖ نا كان معمورا بذكرك
- وأنَا أحبك لو وثقـــ ❖❖❖ ت وأستديمُ بقَاء عُمرك.[1]

ووقف أبوالحزم يوما على قصور الأمويين وقد تعرضت ابنيتها وعوضت من أنيسها الوحوش أفنيتها:

- قلت يوما لدار قوم تفانوا ❖❖❖ أين سكانك العِزاز علينا
- فأجابت هنا أقاموا قليلا ❖❖❖ ثم ساروا ولست أعلم أينا.[2]

وكان أخوه محمد بن عبيد الله شاعرا، وهو أسنُّ من أخيه جهور، وجهور أشهر منه، وقد أثبت له المؤرخون قطعا من شعره.[3]

وكان حفيد أبي الحزم جهور بن محمد، عبد الملك بن محمد بن جهور الذي حكم 457هـ / 1064م - 463هـ/ 1070م)، شاعرا مجيدا وله شعر كثير برّز في أكثره وأجاد من ذلك قوله:

- أقسمت قلبي فكن أنت الدواء له ❖❖❖ ولا تدعه بأيدي الشوق محترَما
- عيناي أورَثَتَاه سُقْمَهُ نظرا ❖❖❖ رضيتُ دمعي من عينيّ مُنتقما[4]

وقوله:

- أملح ما تنظر عيناك ❖❖❖ شاكٍ شكَا الحُبَّ إلى شاكي
- يقصرُ ذكراك ليلي على ❖❖❖ أني فيه ساهرٌ باكي
- ولي فؤادي يستجير من الشـ❖❖❖ وق إلى برد ثناياكِ
- سيدتي لو كنتِ أبصرتِ ما ❖❖❖ يصنعُ بي حبك أبكاكِ.[5]

وذكر الأديب أبوالوليد إسماعيل بن عامر الحميري (ت 444هـ/ 1048م)، أبياتا لأبي مروان عبد الملك بن جهور في صفة النرجس الأصفر دلّت مقدرة أمير قرطبة على النظم.[6]

---

[1] يتيمة الدهر: 8 2/ ص 757 758.

[2] الحميدي: الجذوة، ص 166. الضبّي: البغية، ص 222. / الفتح بن خاقان: المطمح، ص 79. / ابن الأبار: الحلة، ص 143. وقد أورده له مجموعة من الأبيات الشعرية، ص 142 143.

[3] ابن الأبار: الحلة السيراء (طبعة دار الكتب العلمية)، ص 144. / الحميدي: الجذوة، ص 42. رقم 33).

[4] الثعالبي: يتيمة الدهر، 2 2/ ص 709.

[5] المصدر نفسه: ص 710.

[6] البديع في وصف الربيع، ص 115

وحينما أتى ابن بسام على ذكر أبي الوليد محمد بن جهور 435هـ / 1044 - 457هـ 1064) والد عبد الملك قال: " شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمح أنبوبا على أنبوب، هم ما هم، تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه وبين خامسهم عبيد الله ذي المنقبة الزائدة"[1]

وفي هذا دلالة على باع الأسرة العلمي والأدبي، وعلو منزلتهم في الثقافة والفنون، حتى إن حاضرتهم ومن خلال ملوك بني جهور استقطبت أشهر الكتاب، وأعظم الشعراء.

والحقيقة الجلية الساطعة أن الإرث العظيم لعصري الإمارة والخلافة إضافة إلى العهد العامري، كان المرتكز الكبير لنهضة قرطبة في زمن الطوائف، وتحت حكم بني جهور فقد كان " الأفق القرطبي لم يشتمل قط إلا على أهل البحث والطلب لأنواع العلم والأدب"[2] كما كان بقرطبة " أعلام البلاد وأعيان الناس"[3]

ومن أفق قرطبة الغراء " طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصُنّفت التصنيفات الفائقة."[4]

وفي طليعة فرسان النظم والنثر الذين خيّموا في ظل بني جهور، الوزير الأجل ذوالرئاستين أبوالوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون 394هـ / 1003م - 463هـ/ 1070م). ذوالأدب البارع، والشعر الرائع، أحد شعراء الأندلس المجيدين، من أهل قرطبة.

قال فيه الفتح بن خاقان: " زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجهورية، الذي بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه... وكلفت به تلك الدولة حتى صار يلهج بلسانها ،وحلّ من عينها مكان إنسانها، وكان له مع أبي الوليد جهور تألّف أحرم بكعبته وطافتا، وسقياه من تصافيهما نطافا."[5]

---

[1]) الذخيرة، 1 2/ ص 604 605.

[2]) الذخيرة: 1 1/ ص 33.

[3]) الحميري: الروض المعطار، ص 456.

[4]) ابن بسام: الذخيرة، 1 1 ص 33.

[5]) قلائد العقيان، ص 209 248. وانظر ترجمته عند الحميدي في الجذوة، ص 115 116. رقم 224). وفيه:" من أهل قرطبة شاعر مقدّم، وبليغ مجوّد، كثير الشعر، قبيح الهجاء. / الضبّي: البغية، ص 160. رقم 426). / ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 336 وما بعدها. وفيه: " كان أبوالوليد صاحب منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء مخزوم، أحد من جرّ الأيام جرا، وفات الأنام طرا، وصرف السلطان نفعا وضرا." ص 336. / المراكشي: المعجب، ص 75 80 وفيه: " كان إذا نسب أنساك كُثّيرا، وإذا مدح

وكان ابن زيدون قد وزر لبني جهور قبل وزارته للمعتمد لأن أصله من مدينة قرطبة، و اعتمد عليه ابن جهور في السفارة بينه و بين ملوك الأندلس فأعجب به القوم و تمنوا ميله إليهم لبراعته و حسن سيرته، فأحسن التصرف في ذلك وغلب على قلوب الملوك[1] و كان له في بني جهور أمداح بهرت بنظامها وظهرت كالبدور عند تمامها[2]. فاتفق أن نقم عليه ابن جهور فحبسه واستعطفه ابن زيدون بفنون النظم والنثر[3]. من ذلك قوله مستعطفا:

- إيهٍ أبـا الحـزم اهتبـلْ غِـرّةً ❖❖❖ ألسـنة الشُّكـر عليهـا فصـاحْ
- لا طـار بي حظ إلـى غـايـة ❖❖❖ إن لم أكن منك مريش الجنـاحْ
- عُتبـاك –بعد العتـب -أمنيـةٌ ❖❖❖ ما لي على الدهر سواها اقتراحْ
- لـم ينثني عن أمـل مـا جرى ❖❖❖ قد يُرقعُ الخرقُ وتوسَى الجراحْ
- فاشحذ بحُسن الرأي عزمي يرُعْ❖❖❖ منه العدا أليسُ شاكي السلاحْ

=أزرى بزهير، وإذا فخر أناف على امرئ القيس." / ابن سعيد: المغرب، 1، ص 63 69. / ابن دحية: المطرب، ص 143 147. وفيه: " كان ابن زيدون زعيم الوزراء القرطبية. ونشأة دولتها السنية، حتى صار ملهج لسانها، وحل من عينها مكان إنسانها، وكان بينه وبين رئيسها الحسيب أبي الحزم بن جهور، ائتلاف الفرقدين، واتصال الأذن بالعين." / العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، 2، ترجمة رقم 4 127). / الصفدي: الوافي بالوفيات، 7، ص 56 62. رقم 686). / ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 5، ص 88.

المقري التلمساني: نفح الطيب، 1، ص 290 332 473 627 631 632 668 669 670، 3، ص 46 182، 194 242 243 271 274 275 278 286 565 566، 4، ص 23 52 90 94 99 205 206، 208 209 210 264 267 269 270 272، 7، ص 49. / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 278، 841. /البغدادي: إيضاح المكنون، 1، ص 485. / ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 312. / بلانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 104، 111. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 1، ص 284. / جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، 2 3/ ص 55، 65. / عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 150، 151. / محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد (ص 70 501)، 618 630)

يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان 2006، (ص 123 179). / كتب عنه مصطفى الشكعة فصلا بعنوان (قراءة متأنية لنثر ابن زيدون)، ضمن كتابه: المغرب والأندلس، آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية. (ص 381 415).

[1] ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 337. / الصفدي: الوافي بالوفيات، 7، ص 56.

[2] ابن دحية: المطرب، ص 146.

[3] الصفدي: الوافي بالوفيات، ص 56.

- واشفع فللشافع نعمى بما❖❖❖ ثناه من عقد وثيق النُّواحْ
- إن سحَاب الأفق منها الحيا❖❖❖ والحمدُ في تأليفها للرياحْ[1]

وغيرها من الاستعطافات الجميلة الشعرية منها[2] والنثرية[3] والتي ذكرها من ترجموا له.

أما مدائحه في بني جهور فقد عجّت بها كتب الأدب قديما وحديثا[4] حتى لا يكاد ابن زيدون يُذكر إلا مقرونة مدائحه بعائلة بني جهور أصحاب قرطبة، من ذلك قوله:

- بني جهورٍ سماءُ رياسَة❖❖❖ مناقبكم في أفقهَا أنجمٌ زُهرُ
- طريقتُكُم مثلى وهديُكُم رضًا❖❖❖ ومذهبكُم قصدٌ ونائلُكم غمرُ
- عطاء ولا من و حكم ولا هوى❖❖❖وحلمٌ ولا عجزٌ وعزٌّ ولا كبرُ[5]

كان ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون نجما من نجوم قرطبة المضيئة في عالم الشعر والنثر، وشمسا مشرقة من شموس الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف وثمرة من ثمرات الفن الزكية، قد تألفت عنده المعاني، وارتصفت الكلمات، وآثاره الخالدة تشهد بنبوغه وتميزه في هذا الفن حتى إنه ارتاد الوزارة حقيقا بها مستحقا نعتها.

وكان يمكن" أن نعدّه من الشعراء لولا اشتهاره بالإنشاء والأدب، له رسالة هزلية كتبها إلى الوزير أبي عامر بن عبدوس، يتهكّم به فيها على لسان ولادة بنت المستكفي بالله، و قد شرحها جمال الدين بن نباتة المصري شرحا سماه سرح العيون، و له رسالة أخرى تسمّى الجدّية كتبها لابن جهور، شرحها الصفدي"[6] و غيرها من الكتابات النثرية.

ويسير في ركب ابن زيدون الشاعرة الأديبة ولادة بنت المستكفي بالله أمير المؤمنين محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد المرواني، المتوفى عام 414هـ "أديبة

---

[1] الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص210.

[2] انظر مثلا المصدر نفسه: ص 211. / ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ص 346، 347، 348، 351 وما بعدها، وفي غيرها من المصادر.

[3] ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ص 340 وما بعدها. / الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 212 وما بعدها.

[4] المصدران السابقان على التوالي: ص 380 381 384 389. / ص 216 و ما بعدها، و في غيرهما من المصادر.

[5] : ابن دحية: المطرب، ص146.

[6] جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، 2 3/ص 55 56./ المقري: النفح، 4، ص 207.

شـاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، كـانت تخـالط الشعراء، و تساجل الأدباء، و تفوق البرعـاء."[1]

وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المِصر، و فناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرّتها و يتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها.[2]

كانت ولاّدة بنت المستكفي باللّه نموذج المرأة الأندلسية المثقفة، والشاعرة المتحضرة سليلة البيت الصالحي الكريم، الذي تآلف في حضرته الميامن والسعود. وحينما يذكر الشاعر ابن زيدون في حضرة قرطبة، فإنه يذكر مقرونا إلى جانب ولادة الأموية وبجانب ذلك كله " فإن ما وصلنا من إنتاجها الشعري –على قلته - ينم عن ثقافة متينة واستظهار وتذوق الأدب العربي القديم، تلك هي شاعرية ولاّدة."[3]

ولم تنجب حاضرة قرطبة في ظل حكم بني جهور ولادة فقط، فقد كانت مهجة بنت التياني شاعرة قرطبية وسميت كذلك لأن أباها كان يبيع التين، وكانت هي تدخل عند ولادة بنت المستكفي الشاعرة، وكانت من أجمل نساء زمانها، وأخفّهن روحا، فعلقت بها ولاّدة ولزمت تأديبها إلى أن صارت شاعرة.[4]

قال ابن سعيد معلقا على بعض شعرها:" ومما تقدمت به فحول الذكران قولها:

---

[1] ابن دحية: المطرب، ص 22.

[2] المصدر نفسه: ص 23./ وترجمتها عند ابن بسام في الذخيرة، 1 1/ ص 429 433./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 255. وفيه: "كانت من الأدب والظرف وتتييم المسمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب."/ ابن سعيد: المغرب، 1، ص 65، 66./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 534،رقم 1543)./ الضبّي: البغية، ص 477، رقم 1598)./ المقري: نفح الطيب، 4، ص 205 211./ الصفدي: الوافي بالوفيات، 27، ص 262 264./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص 73 87./ عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص 714 717./ فوزي عيسى: شاعرات الأندلس والمغرب، ص 95 112./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس ص 344، 345./ أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص 403 451./ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته و فنونه، ص 177 201./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 107.

[3] محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص 80.

[4] ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، 1، ص 143./ المقري: نفح الطيب، 4،ص 293./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي النسوي في الأندلس، ص 88، 89./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 106./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس ص 372، 376./فوزي عيسى: شاعرات الأندلس والمغرب، ص 220./ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص 213 215.

- لئن حلّأت عن ثغرها كلَّ حائِمٍ❖❖❖ فمازال يحمي عن مطالبه الثغرُ
- فذلك تحميه القواضبُ والقنا❖❖❖وهذا حماه من لواحظها السّحرُ[1]

ومن قرطبة الغراء خرج الأديب أبو محمد بن مالك القرطبي، أحد وزراء الأندلس ، كان أديبا بارعا وشاعرا مجيدا ومحدثا وفقيها.[2]

وابن عامر السكسكي القرطبي، صاحب ابن الإفليلي والحرّاني، و كان من أهل الأدب ،حسن الحظ جيد الضبط، راوية للأشعار معدودا في النبهاء.[3]

وكان من أدباء قرطبة الكبار وفضلائهم أبوالقاسم الأسعد بن إبراهيم بن بلّيطة (توفي في حدود 440هـ). شاعر مذكور في شعراء الطوائف، قال فيه ابن بسام:" و أصله كان من حضرة قرطبة وتردد بأقطار الجزيرة شرقا وغربا... كان بعيد الهمم، بليغا بالسيف والقلم، تردد على ملوك الطوائف بالأندلس."[4]

---

[1] : المغرب، ج1، ص143.

[2] ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 739 754./الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 500 504. وفيه:" ورد نهر المجرّة علاءً، و قلّد فخر الزمان ولاء". / ابن سعيد: المغرب، 2، ص 117./ العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس) ، 3، رقم 240)./ المقري: النفح، 1، ص 674 675، 3، ص 232 233. و قد ذكر العماد في الخريدة أن سنة وفاته 518هـ) أو 530 هـ). وهو تاريخ بعيد نسبيا عن الفترة الزمنية لبحثنا، ولكنه أدرك عصر الطوائف ومدح أمير ألمرية ابن صمادح، وإنما ذكرناه هنا لأنه ينتسب إلى قرطبة، وفي حضرتها عاش وتلقى تعليمه على أيدي شيوخها الذين أدركوا حكم بني جهور.

[3] ابن الأبار القضاعي: التكملة (تحقيق عبد السلام الهراس)، 1،ص 24، رقم 51)، وفي هذا الجزء ذكر ابن الأبار أديبا آخر اسمه محمد بن قاسم الشبانيسي 447 هـ) حيث كان عالما بالآداب متقدما في البلاغة والكتابة، قرطبي مرواني./ ص 314، رقم 1109)./ ومحمد بن عبد الله القرطبي (ت 448هـ)، مولى الوزير ابن طملس من أهل قرطبة، وكان كاتبا كامل الصناعة يجمع إلى ذلك الشروع في علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة، ويحفظ الأشعار والأخبار./ ص 314 315، 1110)./ وفي المصدر نفسه، محمد بن أحمد بن إسحاق القرطبي (ت 450هـ)، من أهل الكتابة والبلاغة، ضابطا مقيدا شديد العناية بالرواية وله تعليق على تاريخ ابن الفرضي واستلحاق يشهد بنباهته ومعرفته، وهو من بيت وزارة وجلالة و كانت له عند ملوك الأندلس في عمره حظوة ومكانة./ ص 315، رقم 1111).

[4] ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ص 791، وترجمته عنده 790 801)، وفيه:" سرَد المعاني أحسن السرد، و افترس المعاني كالأسد الورد، فأبرز درر المحاسن من صدفها، وأحرز ما شاء من فخر الإجادة وشرفها."/ الحميدي: الجذوة، ص 155 156، رقم 330)./ الضبّي: البغية، ص 207 208، رقم 581)./ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص 183 184. وفي هامش ص 183 من المطمح:" وقال دوزي إن بليطة هي الكلمة الإسبانية BILLETE) ومعناها البطاقة."/ ابن سعيد: المغرب، 2، ص 17./ ابن دحية: المطرب، ص 114، 115./ العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، 2، رقم 131)./ ابن خلكّان: وفيات الأعيان، 3، ص 23./ المقري: نفح الطيب، 4، ص 51 52./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 54./ يوسف عيد، يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية،ص 90.

وتذكر كتب التراجم شخصية أدبية ولغوية كبيرة كان لها وزنها في حضرة قرطبة في تلك الفترة وهو ابن المعلّم، محمد بن عبد العزيز الخشني 351هـ 430هـ). كان إماما في فنون الآداب، وصياغة الشعر وفك المعنى، مقدّما في الشعراء المطبوعين ثاقب الذهن في كل ما يعكس عليه ذهنه، وله تواليف في الأدب حسان.[1]

ويفخر أهل قرطبة في ظل بني جهور باللغوي الكبير ابن الزيات إسحاق بن الحسن القرطبي (توفي نحو 440هـ). قرأ العربية وتحقق بها، له آثار طيبة جليلة منها: شرح في كتاب الجمل للزجّاجي أحسن فيه وجوّد، وكتاب في المعرب والمبني احتج لذلك وعلّل ونبّه على أغلاط وقعت في الكتاب.[2]

وذكر ابن بشكوال من أعلام قرطبة اللغويين والنحويين، خلف بن رزق الأموي القرطبي 407هـ / 485هـ). تلميذ مكي بن أبي طالب القيسي، وغيره من الأعلام، وكان كما وصف، أدبيا نحويا، لغويا، إمام بمسجد الزجّاجين بقرطبة، وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة وكان يقرِئ القرآن ويعلّم العربية.[3]

وكان الأديب واللغوي الكبير الإفليلي 437هـ) قد عُقد له من ألوية الملك، ورُكّب من شعار السلطنة ما جعله مكينا عند ابن جهور حاكم مملكة قرطبة في عصر الطوائف، وبعد وفاته، صلى عليه أبوالوليد محمد بن جهور (د 462هـ / 1070م).[4]

---

[1] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 410، رقم 1143)./ الحميدي: جذوة المقتبس، ص 63، رقم 101)./ الضبّي: البغية، ص 89، رقم 203)./ البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 69./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 10، ص 173./ يوسف عيد، يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية، ص 103.

[2] ابن الأبار: التكملة (تحقيق عبد السلام الهراس)، 1، ص 161، رقم 510)./الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 66، رقم 21). وفيه "مات بعد أربعين وأربعمائة"./ السيوطي: بغية الوعاة، ص 359، رقم 893)./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 2، ص 232./ يوسف عيد، يوسف فرحات: معجم الحضارة الأندلسية، ص 287./ رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص 88، رقم 155).

([3]) ابن بشكوال: الصلة(طبعة المكتبة العصرية)، ص152. رقم (392). / القفطي: إنباه الرواة، ج1، ص352. / يوسف فرحات: يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص326.

([4]) ابن بشكوال: الصلة، ص91.

وأبرز اللغويين والنحويين القرطبيين، عبد الملك بن سراج، أبو مروان 400هـ ' 489هـ) إمام اللغة بالأندلس غير مدافع، عالما بضروب الآداب ومعاني القرآن، والحديث، وكانت الرحلة في وقته إليه، ومدار أصحاب الآداب واللغات عليه.[1]

ويذكر ابن بشكوال أنّ اللغوي والنحوي القرطبي ابن أفلح، أبو بكر مسلم بن أحمد 376هـ 433هـ) أستاذ الأعلم الشنتمري، وكان أديبا ونحويا كبيرا، ومع نبله وتقدمه في علم العربية، فقد كان راوية للشعر وكتب الآداب.[2]

ووجب التنبيه هنا إلى طائفة من اللغويين والنحويين القرطبيين الجمّاعين للكتب والدفاتر في مختلف التخصصات، حيث شارك هؤلاء في إثراء المكتبة اللغوية والنحوية الأندلسية في العاصمة قرطبة، وغيرها من المدن. من خلال جلب كل كتاب ذي صلة بالمادة اللغوية، والإسهام بقدر من ترويج هذه المادة بين الطلبة والأساتيذ.

من هؤلاء محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي من أهل قرطبة وصاحب التاريخ في الدولة العامرية، وكان حافظا للغة مشاركا في الأدب، من أعلم الناس بالكتب وعللها وألهجَهم بجمعها وأفرزهم لخطوطها، وأنسبهم لها إلى ورّاقها. كان يقابل كتب محمد بن أبي عامر المنصور، وولده من بعده مثقفا لخزانتهم الرفيعة مع تقييده لتاريخهم، وأدرك عصر الطوائف، حيث أوطن

([1]) ابن بشكوال:الصلة، ص294، 295. رقم (777). / الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، (605، 607). وفيه "أحد أعيان البيان، وخاتم أعلام الكلام، ومُعين الانتخاب والانتداب على هوس رسم اللفات والآداب، وكان بالأندلس كعمرو بن بحر، وذكر له أبياتا في مدح المظفر بن جهور آخر حكام قرطبة". / ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ ص808 وما بعدها وفيه:" كان أبو مروان عبد الملك بن سراج، فذّ العصر. وعلم الفخر، وبقية حسنات الدهر... من نسل سراج ابن قرة الكلابي صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم...". / الضبّي: البغية، ص331. رقم (1068). /ابن سعيد :المغرب في حلي المغرب،ج1،ص115، 116.وفيه" محيي اللسان بجزيرة الأندلس"./القاضي عياض: ترتيب المدارك(الطبعة المغربية)ج8،ص141، 142./ القفطي: إنباه الرواة، ج2، ص207، 208. / ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص16، 17. رقم (327). وفيه: " إمام الأندلس في وقته، كانت الرحلة إليه من جميع جهات الأندلس وغيرها، وكان إمام وقته في علم لسان العرب، وضبط لفاتها، وأذكرهم لشواذ أشعارهم." / السيوطي: بغية الوعاة، ص575. رقم (1567). وفيه "إمام أهل قرطبة َبرِع في علم اللسان وارتقى ذروته، واعتلى درجته، عكف على كتاب سيبويه ثمانية عشر عاما لا يعرف سواه. ثم درس الجمهرة فاستظهرها، واستدرك الأوهام على المؤلفين". / العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج3، ص474، 475. رقم (127). / الوافي بالوفيات، ج19، ص111، 112. رقم (7277). / العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص292، 293. / رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص267. رقم (438)

ونظرا لقيمة عبد الملك بن سراج، فقد رثاه بعد موته كبار الأعلام أنداك منهم الفقيه أبو بكر بن خازم، وأبو جعفر بن عبد الله المعروف بابن شانجه والفقيه مكي بن أبي طالب القيسي. / ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ ص813، 814.

([2]) الصلة :(طبعة المكتبة العصرية)، ص485. رقم (1381).

الجزائر الشرقية، قبل وفاته عام 423هـ).[1] ومنهم ابن الموصول 433هـ) محمد بن يحيى الغافقي القرطبي. كان أديبا كاتبا جمّاعا لدفاتر العلم من لدن صباه منتقيا لكرائمها بصيرا بخيارها، عارفا بخطوطها يُحتكَم إليه في ذلك مؤثرا لها على كل لذة، حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعد الخليفة الحكم المستنصر، وكان عنده إصلاح المنطق لابن السِّكيت بخط أبي علي القالي، والعزيب المصنف لأبي القاسم بن سلام الهروي، ونوادر ابن الأعرابي، وتاريخ أبي جعفر الطبري بصلة الفرغاني.[2]

وزار قرطبة في عهد أبي حزم بن جهور، سيد اللغويين والنحويين الأندلسيين في عصر الطوائف، الأعلم الشنتمري 410هـ 1019م / 476هـ 1083م) أبو الحجاج يوسف بن سليمان النحوي، الأديب اللغوي، وكان عالما بالعربية واللغة ومعاني الأشعار، حافظا لها، حسنَ الضبط لها، مشهورا بإتقانها، رحل إلى قرطبة وأخذ عن أبي القاسم الإفليلي بقل وفاته بأربع سنوات، فقد توفي الإفليلي عام 437هـ).[3]

وقد أجمعت كل المصادر التي عرضت لحياة اللغوي والنحوي الكبير الأعلم الشنتمري على علوّ قدره في هذا الاختصاص. فقد نشأ في التحصيل من صباه، وكان ذلك همُّه وهواه، حيث حظي من العربية والأدب والنحو، وثمرتها، تأليفًا وتعليقًا وشرحًا ونقدًا بأعلى المراتب، وآثاره ومؤلفاته* شاهدة على ذلك.

([1])ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص310. رقم (1089).

([2]) المصدر نفسه: ص312. رقم (1099).

([3]) ابن بشكوال: الصلة، ص524. رقم (1509). / السيوطي: بغية الوعاة، ص770. رقم (2178). /ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج8، ص278، 279. / القفطي: إنباه الرواة، ج4، ص59، 61. / الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص422. رقم (419). وقد أخطأ في سنة وفاته إذ جعلها (446هـ). / المقري: نفح الطيب، ج3، ص184، ج4، ص32، 75، 77، 79. / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص604، 692، 791. / العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص403. وعند وفاته (495هـ). وقد أخطأ./البغدادي: هدية العارفين، ج2، 551. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج13، ص302. / يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص316. /رجب عبد الجواد إبراهيم:معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس،ص521، 522،رقم(886)./ وينظر حول حياته ما كتبه الأستاذ رشيد بلحبيب في مقدمة تحقيقه لكتاب الأعلام (النُّكَت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفي لفظه وشرح أبياته وغريبة)، ج1، ص3، 139. وانظر كذلك ما كتبه الأستاذ إبراهيم نادن في تحقيقه لشرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، للأعلم الشنتمري/ . قدم له وراجعه الدكتور محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1425هـ / 2004م، ج1، ص41 وما بعدها.

* ذكر أصحاب المصادر والمراجع الذين عرضوا لحياة الأعلم الشنتمري، مجموعة من المؤلفات منها:

- شرح ديوان زهير.
- شرح ديوان علقمة.

ونحن إذ نتبيّن القيمة الكشفية لأدباء وشعراء ونحاة قرطبة تحت حكم بني جهور وجب علينا التنبيه على أننا لم نعرض منهم إلا لمن بلغ من الشهرة مبلغا لا يستطيع أحد تجاهله، ورغم ذلك فإننا لم نحط بهم علما وما أكثرهم** في كل فن.

- شرح ديوان طرفة.
- شرح ديوان أبي تمام.
- المخترع في النحو.
- تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب.
- شرح ديوان المتنبي.
- النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه.
- شرح حماسة أبي تمام.
- ديوان الحماسة. حيث رتب الأعلم حماسة أبي تمام على حروف المعجم، وهو غير شرح الحماسة.
- شرح أشعار الشعراء الستة الجاهليين.
- شرح كتاب الجمل في النحو.
- شرح أبيات الإيضاح.
- شرح شواهد الجمل.

** من هؤلاء الأعلام الكبار ابن شهيد(426هـ) أبو عامر أحمد بن عبد الملك الذي قضى أربع سنوات تحت حكم بني جهور وقد ذكرناه سابقا، مع تذييل لمصادر ترجمته.

وكان أسرة الطبابنة القرطبية، ذات الأصول الجزائرية العريقة (مدينة طبنة/ بريكة حاليا) ذات الإسهامات العلمية والأدبية الكبيرة وفي قرطبة بالذات، حيث شيّد أفرادها أركان وصرح هذا البيت الكريم المعتد، مشوا على هذه السيرة، وتوارثوا ذلك كابرا عن كابر وهذا ديدن نسبهم الصريح.

وكان الوافد منهم على الأندلس في أيام بن أبي عامر أبو مضر محمد بن يحيى بن أبي مضر الطبني وقد وصفه الحجاري بالأدب والشعر، ومجالسة الملوك، وكان ممن يجالس أبا الحزم بن جهور وابنه أبا الوليد، وصحب ابن شهيد الشاعر وأنشد له أبياتا من الشعر كما أنشد شعرا يخاطب أبا محمد بن حزم. / ابن سعيد المغرب، ج1، ص92.

وكان ابنه أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني(ت457هـ) أحد حماة سرح الكلام وحملة ألوية الأقلام، وكان من أهل الحديث والأدب إمام في اللغة. / الحميدي: جذوة المقتبس، ص251، 252.

وذكر ابن سعيد في المغرب أبا علي الحسن بن مضاء القرطبي، وكان مختصا بعبد الملك بن أبي جهور وله فيه أمداح كثيرة، ج1، ص96.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني القرطبي (ت430هـ). الأديب الشاعر والفيلسوف وكان الغالب عليه المنطق حتى اتّهم في دينه ونفي عن قرطبة، حيث فر إلى الجزيرة الخضراء واستقر تحت كنف أميرها محمد بن القاسم بن حمّود، وقد ذكرناه في دولة بني حمّود وحضرة مالقة والجزيرة الخضراء/ . ينظر ابن سعيد: المغرب، ج1، ص121.

وممن ضمتهم حاضرة قرطبة في عهد بني جهور، عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبي أبو شاكر، يعرف بابن القبري (377هـ /456هـ). فقيه، محدث، خطيب، شاعر، نشأ بقرطبة وسمع من أعلامها، وعاصر أبا عمر بن عبد البر، وقد سكن شاطبة زمانا وولي الأحكام بها/ .الحميدي: الجذوة، ص258. رقم (655). / الضبّي: البغية، ص342. رقم (1107). / ابن بشكوال: الصلة: (طبعة المكتبة العصرية)، ص308، 309. رقم (825). وأضاف "سكن بلنسية". / ابن سعيد: المغرب، ج1، ص234.

أ -العلوم الدينية (الفقه - الحديث -القراءات -علوم القرآن):

تعد قرطبة مركزا علميا ونموذجا حضاريا مرموقا في تاريخ الأندلس الثقافي، ومن ذا الذي يتحدث عن الغرب الإسلامي ولا يذكر قرطبة "قبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام".[1]

وأي دارس ينقب عن معالم الثقافة الأندلسية ويغفل عاصمة الأندلس قرطبة؟ فقد كانت "الرحلة إليها في الرواية إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء" . فقد أنجبت هذه الحاضرة خيرة العلماء والفقهاء وأكبر المقرئين وأشهر المحدثين وجلة الأصوليين والمفسرين منذ افتتاحها وإلى غاية سقوطها.

وكان عصر الطوائف قد عرف أعلام الفقه والحديث والتفسير والقراءات من ابناء قرطبة ومن النازحين إليها من مختلف الحواضر الأندلسية، أو من الطائرين عليها من غير الأندلسيين، ممن وفدوا من أقطار العالم الإسلامي المتعددة، مثل شمال إفريقية والمشرق بشكل عام.

هذا ويستحيل على الدارس مهما كانت صفته أن يحصي عدد علماء قرطبة وفقهائها وقضاتها ومفسريها ومحدثيها، فقد عجّت بذكر أسمائهم كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ وتوزعوا على آلاف الصفحات مشرقا ومغربا وإنما سنكتفي بذكر أشهرهم وأبرزهم و مع ذلك فلا يدركهم عدّ ولا تحصيل.

والحقيقة أن حديثنا عن قرطبة في عصر الطوائف يتجاوز حكم أسرة بني جهور الذي دام من عام 422هـ) إلى عام 454 هـ)، حيث شهد عصرهم أعظم علماء الأندلس في هذا المجال فقد استفادت هذه الحاضرة من الإرث العلمي والثقافي لعصري الإمارة والخلافة. وسيتعزز إرث هذه

=ومحمد بن حمدون من أهل قرطبة (ت450هـ) وكان معلما بالأدب وتصرف فيه. / ابن الآبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص315. رقم (1113).

وفي المصدر نفسه، محمد بن الدباغ من أهل واد الجارة وبينه وبين أبي محمد بن حزم في مسائل وجوابات كانت بينهما، وكان أبرع أهل وقته في النحو والأدب. / ج1، ص321. رقم (1136)

وفي المصدر نفسه دائما إسحاق بن الحسن القرطبي، أبوالحسن المعروف بابن الزيات (ت440هـ) وكان نحويا متقنا، روى عن أبي عثمان سعيد بن محمد المعروف بنافع، أخذ عنه العربية وتحقق بها، وخرج من قرطبة في الفتنة، فأقرأ العربية بسرقسطة. وله شرح في كتاب الجمل للزجّاجي أحسن فيه وجوّد. وكتاب في المعرب والمبني/ . ج1، ص161. رقم (510) وترجمته كذلك عند السيوطي في بغية الوعاة، ص359. رقم (893). / الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص66. رقم (21). / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص232. / رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص88. رقم (155).

[1] المقري: نفح الطيب، 1،ص 153.

[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الحاضرة بعد سقوط حكم بني جهور وتغلب إسماعيل بن ذي النون عليها، قبل أن تدخل في ملك بني عباد، وهذه الأسر كلها في عصر الطوائف.

وكان جامع قرطبة الشهير منبرا للعلم والمعرفة تخرّج منه آلاف الطلبة والتلاميذ فصاروا شيوخا للأندلسيين وللأمة الإسلامية جمعاء. هذا بالنسبة للمسجد الجامع فقط فما بالك بمئات المساجد الأخرى المتوزعة في ضواحي قرطبة وأرباضها ونواحيها.

وقد ذُكر القرطبيون بسمة العلم والملك المتوارثة فيهم[1] شأنهم في ذلك شأن جميع الأندلسيين.

قال المقري: "وأما حال الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز".[2] وأضاف في موضع آخر:" وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووَجاهة."[3]

إذن نحن أمام مدرسة عظيمة للعلوم الدينية هي المدرسة القرطبية و أمام مجتمع قرطبي، نموذج يحتذى به في هذا المجال، فما يمنع من قيام ثقافة دينية وطيدة الأركان شعارها الأصالة والتميز.

ووجب التنبيه هنا إلى صعوبة الفصل بين التخصصات (فقه، أصول، حديث، تفسير وغيرها). فالأكيد أن كل الأعلام سيعاد ذكرهم عند كل تخصص حيث تجد الفقيه محدثا وأصوليا ومفسرا ومحدثا ومقرئا.

وعليه فذكر الأعلام بتخصصاتهم وأعمالهم أولى من ذكر التخصصات الفرعية حتى نتجنب الوقوع في فخ التكرار إلا إذا غلب على أحدهم تخصص معلوم.

ولا تتم فائدة الحديث عن العلوم الشرعية في قرطبة في هذه الفترة دون الحديث عن عالمين كبيرين طَبقت شهرتهما الآفاق بما بلغاه من منزلة عالية في هذا المجال، وهما ابن حزم الأندلسي وابن عبد البر النمري.

أما أبو محمد علي بن سعيد بن حزم فقد كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة متفننا في علوم جمة عاملا بعلمه، وكان صاحب تواليف كثيرة في

---

[1] المقري: نفح الطيب، 1، ص 154.

[2] نفح الطيب، 1، ص 220.

[3] المصدر نفسه: ص 221.

كل ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا وسمع سماعا جما.[1]

---

[1] الحميدي: الجذوة، ص 277. وترجمته عنده (ص 277 279)، رقم 708). وفيه: "وكان له في الآداب والشعر نفس واسع و باع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه."/ الضبّي: بغية الملتمس، ص 364 - 365، رقم 1205)./ صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص 97 98، وفيه:" أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعني بعلم المنطق وألف فيه كتابا"./ابن بسام: الذخيرة، ق 1 م1/ص 167 180، وفيه:" كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة."/ ابن بشكوال: الصلة، (طبعة دار الكتب العصرية)، ص 433 434، رقم 895) وفيه:" كان أبو محمد بن حزم، أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار."/ ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 354 357./ابن دحية: المطرب، ص 66، 68، 89، 135، 137، 140 ./ المراكشي: المعجب، ص 34 37./ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 226 410 417 418 429 486 492 512 517./ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص 138 140. وفيه: "فقيه مستنبط، ونبيه بقياسه مرتبط، ما تكلم تقليدا ولا تعدى اختراعا وتوليدا، ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق، ولا حنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق."/ ياقوت: معجم الأدباء، ج4، ص 479 491./ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص 76، 77./ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص 87 92./ المقري: نفح الطيب، ج2، ص 77 وما بعدها. وفي مواضع متفرقة من الكتاب./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، في عدة مواضع من الكتاب، وقد أثبت له قصيدة طويلة 117) بيتا في الرد على قصيدة نقفور التي بعثها إلى جند خراسان من المسلمين الذين غزوا أرض الروم، ج3، ص 214 222./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 21، 118، 466، 605، 704، 1384، 1410، 1411، 1617، 1641، 1650، 1747، 1820، 1914، 1975./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص 299./ البغدادي: إيضاح المكنون، ج1، 319، 356، ج2، ص 62، 272، 319، 357، 444، 569، 615، 675./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج7، ص 16./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 288./ بالانثيا: تاريخ الفكر الإسلامي، ص 24، 29، 30، 64، 80، 83، 251 278). وفي غيرها من الصفحات./ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، ج2، ص 100 101.

وقد كتب عنه غير واحد من المعاصرين، دراسات متخصصة أو فصولا مطولة ضمن دراسات منها: دراسة الإمام أبو زهرة: ابن حزم، حياته وعصره، آراؤه الفقهية./ دار الفكر العربي، القاهرة، مصر 1997.(مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر). والدراسة تقع في 449) صفحة. والمؤلف نفسه في كتابه: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد والتاريخ، المذاهب الفقهية، ص 551 597./ عبد المجيد تركي: مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم والباجي./ وكتب الدكتور حسان محمد حسان: ابن حزم الأندلسي، عصره ومنهجه وفكره التربوي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ت.

وانظر ما كتبه عنه إحسان عباس في مقدمته لتحقيق رسائل ابن حزم الأندلسي، ق 1 م1/ص 5 83. والمؤلف نفسه في كتابه: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة).

ومقدمة الطاهر أحمد مكي في تحقيقه لكتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، ص 3 10. وكتاب الأستاذ عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، دار الصحوة، القاهرة، مصر، ط 1 1431هـ 2010م. وتقع هذه الدراسة في 392) صفحة. ودراسة أنور الزعبي: ظاهرية ابن حزم الأندلسي، نظرية المعرفة ومناهج البحث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة، ط 2 1429هـ 2009م. والدراسة تقع في 221) صفحة. ودراسة الأستاذ محمد

وكل من عرض لابن حزم من القدماء والمحدثين نوّه بهذه الشخصية العلمية العظيمة. فقد كان أبو محمد طفرة متميزة في التاريخ الثقافي الإسلامي عموما، والأندلسي خصوصا، "فأنت تجده في الأدب ناثرا فنيا ممتازا، لا يقل عن أي كاتب من كتاب عصره وبلده. وربما امتاز عليهم بجودة الفكر مع جزالة الديباجة وجمال الصورة البيانية، وهو فوق ذلك السياسي الذي نشأ في بيت الوزارة، ثم هو المحدث والفقيه والمؤرخ وكل تلك نواح في صميم نفسه. وإن كانت المقادير مختلفة وهي متمازجة، تعاونت فكونت تلك الشخصية العبقرية."[1]

ففي مجال العلوم الشرعية يطالعنا ابن حزم المحدث، المسند، العالي الإسناد. فقد كان "حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه"[2] حيث قيّد الآثار والسنن[3]. وقد ذكر ابن بسام عن أبي محمد أنه كان حامل فنون من حديث وغيرها.[4]

وقد ذكر تلميذ الحميدي أنه ألّف في فقه الحديث كتابا كبيرا أسماه "الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام، في الواجب والحلال والحرام، وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع."[5]

و ذكر ابن بسام بعض مؤلفات ابن حزم في الحديث، منها: "كتاب شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله"[6] وكتاب " الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد، والاقتصار على أصحها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها."[7]

ومن المعروف أن ابن حزم صاحب إسناد خاص، سواء إلى كتب السنة المشهورة مثل: البخاري، مسلم وسنن أبي داوود، وسنن النسائي ومسانيد أحمد والطيالسي، والبزار وإسحاق بن راهويه وابن سنجر، وعلي بن المديني وغيرها. كما له سند خاص إلى مصنف بن أبي شيبة ومصنف عبد

=أحلوش أهامي: الترجمة الذاتية في الأدب الأندلسي من خلال أعمال ابن حزم، وهي أطروحة دكتوراه، نوقشت في المغرب، د 1، 1428هـ 2007م. والدراسة تقع في 359) صفحة وغيرها من الدراسات المختلفة التي عرضت لابن حزم، حياته وفكره.

[1] أبو زهرة: ابن حزم، حياته وعصره، آراؤه الفقهية، ص 8.

[2] الحميدي: جذوة المقتبس، ص 277.

[3] صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص 98.

[4] الذخيرة، 1 1/ ص 167.

[5] جذوة المقتبس، ص 277.

[6] الذخيرة: 1 1/ ص 170.

[7] المصدر نفسه: ص 170 171.

الرزاق وغيرها من كتب الحديث. وله بعض الأفراد مما اعتنى بذكره في مصنفاته، خاصة في كتابه الموسوعي (المحلى).[1]

وفي مجال الفقه، فقد كان أبو محمد من أفقه أهل الأندلس قاطبة."ومال به النظر في الفقه إلى رأي أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وناضل عن مذهبه، وانحرف عن مذهب غيره حتى وسم به، ونسب إليه، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء."[2] ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر، مذهب داود بن علي ومن اتبعه من فقهاء الأمصار فنقحه ونهّجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه.[3]

ويذكر القاضي صاعد الأندلسي أن مؤلفات* ابن حزم في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمائة مجلد، تشتمل على

---

[1] مجيد الخليفة: في مقدمته لكتاب سنن ابن حزم الظاهري، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ، 1 2012، 1433هـ، 1، ص 7. وقد صنع عظيما الأستاذ مجيد الخليفة عندما جمع أحاديث ابن حزم من جميع مؤلفاته، وكان عدد هذه الأحاديث 3354).
وأشار المحقق في مقدمة هذا المنجز العلمي إلى مجموعة دراسات تناولت جانب الحديث عند ابن حزم، وهي كالآتي:

- طه بوسريح: المنهج الحديثي عند الإمام ابن حزم الأندلسي.
- المكي قلاينية: ابن حزم الأندلسي، وأثره في الدراسات الحديثية.
- عبد الكريم خليفة: مسند ابن حوم الأندلسي، جمعا ودراسة وتخريجا.
- عمر بن محمد أبو عمر، حسن محمد أبو هنية: تجريد أسماء الرواة الذين تكلم فيهم ابن حزم جرحا وتعديلا.
- إبراهيم فارح عبد الله القاعود: منهج ابن حزم في الجرح والتعديل (دراسة مقارنة تطبيقية).
- سلمان باشاران: ابن حزم ومنهجه في الحديث.
- إبراهيم بن محمد الصبيحي: نقد ابن حزم للرواة في المحلى.
- صالح عومار: منهج ابن حزم في تصحيح الأحاديث وتعليلها.
- أحمد أشرف عمر لبي: القواعد الحديثية من كتاب الإحكام في أصول الأحكام للإمام ابن حزم، عرض ونقد.
- ينظر: مقدمة مجيد الخليفة لسنن ابن حزم الظاهري، ص 7 8. يشار إلى أن المحقق رتب أحاديث السنن على حسب الأبواب والمواضيع الفقهية، مخالفا لما قام به بعض العلماء من جمع مسند الإمام الشافعي ومسند أبي حنيفة.

[2] ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ص 167.

[3] المصدر نفسه: ص 167 168.

* ذكر الذين ترجموا لابن حزم مجموعة من المؤلفات منها:

- الإحكام لأصول الأحكام.
- كتاب في الإجماع ومسائله.
- إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما يحتمل التأويل.
- كتاب الصادع والرادع في الرد على كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد.
- كتاب منتقى الإجماع وبيانه من جملة مالا يعرف فيه اختلاف.

قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علمناه في أحد ممن كان قبله إلا أبا جعفر بن جرير الطبري الكبير فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفا".[1]

والحقيقة أن ابن حزم يمثل النموذج المتميز للثقافة الأندلسية في عصر الطوائف، فقد كانت الأندلس تبحث عن ذاتها ثقافيا وسياسيا، وتحاول التأصيل لهذا الكيان الذي يعتوره التمزق السياسي فهل عسى الثقافة أن تجمع ما فرقته أهواء ومصالح رؤساء الطوائف؟ ولن يتم استرجاع هيبة الأندلس ووحدتها التي تناثرت إلى شتات إلا عن طريق النخبة المثقفة التي كان ابن حزم يمثلها وأضرابه.

ويكفي الباحث أن يعود إلى تاريخ 319هـ) حيث أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة الأندلسية معلنا استقلاله عن الخلافة العباسية في المشرق، ولم يكن هذا الإعلان سوى إعلان رمزي إذ أن الأمويين قد استقلوا بالفعل بعاصمتهم قرطبة منذ قيام دولتهم في الأندلس عام 138 هـ) فسكّوا عملتهم وأعلنوا –فيما بعد - اتخاذ مذهب الإمام مالك مذهبا رسميا لدولتهم في مقابل مذهب أبي حنيفة، مذهب خصومهم العباسيين في بغداد.

- الإيصال إلى فهم كتاب الخصال.
- كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس.
- الفِصَل بين أهل الآراء والنحل أو الفصل في الملل والأهواء والنحل.
- كتاب "المجلى" في الفقه وهوالمتن الذي عمل عليه شرحا سماه بالمحلى.
- كتاب المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار.
- كتاب حجة الوداع.
- كتاب الإملاء في شرح الموطأ.
- كتاب الإملاء في قواعد الفقه.
- كتاب أسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد من العدد.
- كتاب جمهرة أسباب العرب.
- كتاب جوامع السيرة النبوية.
- كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف.
- كتاب النبذة الكافية في أحكام أصول الدين.
- كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم.
- كتاب الأصول والفروع.
- رسالة في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة ومن جاء بعدهم.

وقد جمع المرحوم إحسان عباس رسائل ابن حزم الأندلسي وطبعت في مجلدين كبيرين.

[1] طبقات الأمم، ص98.

ولا عجب في أن ينافح ابن حزم ويدافع عن دولة الأمويين في الأندلس، حيث وزر لها كما وزر أبوه من قبل الأمويين إذ كانوا في اعتقاده رمزا للوحدة الجامعة.

ولهذا نجده ساخطا على ملوك الطوائف، ناقما متذمرا فقد أطلق تلك الزفرة الشهيرة قائلا: "اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة في معادهم ودار قرارهم وبجمع أموال ربما كانت سببا إلى انقراض أعمارهم وعونا لأعدائهم عليهم."[1]

لقد كانت مؤلفات ابن حزم الأندلسي كلها موجهة لمشروع حضاري كبير أراد به صاحبه إصلاح حال الراعي والرعية، والاستقلال بالشخصية الأندلسية عن المشرق ومحاولة النهوض بها ضد المتشككين بها، إذ كانت تعيش أسوأ فتراتها في عصر الطوائف مع انهيار الخلافة وظهور حركة الاسترداد المسيحية.

لقد قام ابن حزم بدور المثقف الملتزم بقضايا وطنه وعصره، وحدد أهدافه مسبقا من خلال مشروعه العلمي الحضاري النهضي ومثل هذه المنطلقات الحزمية، إنما نمت وتفاعلت في جو علمي ومناخ ثقافي وفكري خصيب ومثمر على الرغم من اضطراب الوضع السياسي وتردي الوضع الاجتماعي وبالتالي فالمشرع الفقهي الحزمي (المذهب الظاهري) ليس دعوة فقهية مجردة بل هو نمط تجديدي استهدف به نهضة الأندلس وإعادة بعث الحياة في أوصال الدولة التي أصبحت دويلات متجزئة. ومحاولة بعث المجتمع الأندلسي وإعادة هيكلته وتخليصه من نير التقليد للمذاهب الفقهية السائدة.

وأكثر من ذلك فقد أراد به موضعة التجربة الأندلسية المتميزة وتخليصها من الارتباطات المشرقية.

"ويمكن القول إن رغبة الأندلس في الاستقلال أسهم فيها ابن حزم بصورة واضحة وجهد كبير ولم يقتصر ذلك على منهجه وفكره بل امتد إلى شخصيته وحياته فابن حزم رفع شعارا في غاية الحسم والوضوح (المجتهد المخطئ، أفضل عند الله من المقلد المصيب)"[2] ولا شك أن الجو العلمي في قرطبة والإرث الثقافي الكبير والغزير والمتنوع المتجانس والمتناقض قد انعكس على شخصية ابن حزم الأندلسي وأثر في فكره، وتوجهاته حتى وسمه العصر بميسمه.

---

[1] رسالة في الرد على ابن النغريلي: ضمن مجموع الرسائل، 2 1/ ص 41.

[2] حسان محمد حسان: ابن حزم الأندلسي، عصره و منهجه وفكره التربوي، ص28.

ولا شك أن قرطبة الجامعة لكل أطياف المجتمع الأندلسي من خلال التركيبة البشرية مختلفة الأصول المتباينة المحاتد والجذور، والتي تخضع لمرجعيات مختلفة وأحيانا متناقضة قد أنبأت بميلاد مثل هذه الشخصيات المتميزة. "وفي الحق أن كل شيء في الأندلس كان يتجه إلى تكوين عالم جليل وإمام كالإمام ابن حزم، إن توافرت المواهب والتي تكون كمواهبه، والمنزع القوي الذي يكون كمنزعه، وقد توافرت تلك العناصر فكان إمام الأندلس وفقيهها ومحيي الكتاب والسنة فيها."[1]

أما الإمام الحافظ ابن عبد البر النمري، أبو عمر يوسف بن عبد الله 368هـ 978 م/ 463هـ- 1071 م) فهو شيخ علماء الأندلس، وكبير محدثيها في وقته وأحفظ من كان فيها لسنة مأثورة.

فقيه حافظ، مكثر، عالم بالقراءات وبالخلاف في الفقه وعلوم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ، على أنه لم يخرج من الأندلس، لكنه سمع من أكابر علماء الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القادمين إليها.[2]

---

(1) أبو زهرة: ابن حزم، حياته وعصره – آراؤه الفقهية، ص99.

(2)الحميدي: جذوة المقتبس، ص332، 333، رقم (874)./ الضبّي: بغية الملتمس، ص427، 428، رقم (1443)./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 521، 523، رقم (1504)، وفيه:"إمام عصره وواحد دهره"./ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص151 -153، وفيه " إمام الأندلس وعالمها الذي التاحت به معالمها، وصحح المتن والسند، وميز المرسل من المسند، وفرق بين الموصول والمنقطع."/ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 302./ القاضي عياض: ترتيب المدارك (الطبعة المغربية)، ج8، ص 127 -130./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/3/ ص 125. قال فيه وفي ابنه الأديب أبي محمد عبد الله:" وله ولأبيه قبله لواء سبق، ولسان صدق، وكفى بأبيه علما لا يخفى، ورحما من العلم لا تُجفى، وتواليفه اليوم تيجان رؤوس العظماء وأسوة العلم والعلماء."/ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص 349 -352، رقم (624)./ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص 445 وما بعدما، رقم (837). وفيه: "لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث، وقال الباجي: أبو عمر أحفظ أهل المغرب."/ الذهبي: مختصر العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها، ص233 وما بعدها. وفيه: "كان أبو عمر بن عبد البر من بحور العلم ومن أئمة الأثر، قلَّ أن ترى العيون مثله، وكان عالي الإسناد ولقي أصحاب ابن الأعرابي وإبراهيم الصفار وروى المصنفات الكبار، واشتهر فضله في الأقطار."/ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 407، 408. و فيه: "إمام الأندلس في علم الشريعة ورواية الحديث لا أستثني من أحد، وحافظهما الذي حاز خصل السبق واستولى على غاية الأمد."/ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج29، ص 99، 100، رقم (97). وفيه: "العلم المشهور، محدث قرطبة، كان في أول أمره ظاهري المذهب، ثم رجع إلى القول بالقياس من غير تقليد أحد إلا أنه كان يميل إلى مذهب الشافعي."/ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص72، 86، 91، 214، 215، 232، 251، 281./المقري: نفح الطيب، ج5، ص176، 177./ ج6،ص 98./ حاجي ليفة: كشف الظنون، ج1،ص 12، 43، 78، 81، 142./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج5،ص 266 -269./ البغدادي: إيضاح المكنون، ج2، ص266./ البغدادي: هدية العارفين، ج2، ص 550، 551./ ياسين بن خير الله اليعمري: منهج الثقات في أخبار القضاة، ص 324، 325، رقم (369). وفيه:" صاحب العلوم الوافرة، والتصانيف الجليلة المتكاثرة."/ جرجي زيدان: تاريخ آداب العربية، ج2، ص69، 70./ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص 176، 177، رقم (373).

كان الفقيه ابن عبد البر دؤوبا على طلب العلم منقطعا إليه، صارفا نظره عن مغريات الدنيا من أفاضل أهل العلم في الأندلس، صدوقا، ثقة، بحّاثا، منقرا، فرغ إلى التقييد والتأليف. قال فيه ابن فرحون: " كان أبو عمر موفقا في التأليف، معانا عليه، ونفع الله بتآليفه، فكان مع تقدمه في علم الأثر وتبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيرة في علم النسب."[1]

=وفيه:" الحافظ النظار، شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها الشهير الذكر في الأقطار، شهرته تغني عن التعريف به."/ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص447، 448./ قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، ج3، ص 1387 -1389، رقم (1404)./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص108./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج13، ص 315، 316. وينظر ما كتبه محمد مرسي الخولي في تحقيقه لكتاب ابن عبد البر: بهجة المجالس وأنس المجالس، ج1، ص 7 - 31./ ينظر ما كتبه الأستاذ أسامة بن إبراهيم في مقدمته لتحقيق كتاب ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ج1، ص 19 -63./ ينظر كذلك الدراسة القيمة التي قدمها الباحث مجيد خلف منشد بعنوان: جهود الحافظ ابن عبد البر في دراسة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م./ فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م3/1/ ص131، 134، 135/ طاش كبري زاده: مفتاح السعادة، ج2، ص 126.

(1) الديباج المذهب، ج2، ص 351.

ذكر المؤرخون وأصحاب التراجم الذين عرضوا لابن عبد البر بعض مؤلفات الحافظ ابن عبد البر منها:

- الشواهد في إثبات خبر الواحد.
- أخبار أئمة الأمصار.
- البيان عن تلاوة الأقطار.
- التجويد والمدخل إلى العلم بالتحديد.
- الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء بتوجيه ما اختلفا فيه.
- الكافي في الفقه على مذهب أهل المدينة.
- اختلاف أصحاب مالك بن أنس واختلاف رواياتهم عنه.
- العقل والعقلاء وما جاء في أوصافهم عن الحكماء والعلماء.
- سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - (طبع بعنوان: الدرر في اختصار المغازي والسير).
- الاستيعاب، ذكر فيه الصحابة - رضي الله عنهم - وأنسابهم.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم.
- الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، شرح فيه الموطأ على وجهه ونسّق أبوابه.
- جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله.
- كتاب جمهرة الأنساب.
- بهجة المجالس، و أنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجن.
- كتاب الإنباه عن قبائل الرواة.
- كتاب التقصي لحديث الموطأ لمالك.
- كتاب الانتقاء لمذاهب الثلاثة العلماء، مالك وأبي حنيفة والشافعي.
- الأجوبة الموعبة.
- المعروفين بالكنى.

ومن الأمور التي رفعت مكانة الحافظ ابن عبر البر النمري في عالمي الفقه والحديث إدراكه للأسانيد العالية، وتقدمه في حفظ الحديث ومعرفته الواسعة بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها، فقد كان بحرا من بحور هذه العلوم رأسا فيها.

هذا كله جعله يتمتع بشخصية علمية فذة ومتميزة في جانب الفقه والحديث. ففي مجال الفقه فإننا نلاحظ " طريقته في الجمع بين النصوص التي ظاهرها التعارض والاستنباطات الجديدة التي ربما لم يسبق إليها لترجيح رأي فقهي معين."[1]

أما في مجال الحديث فسعة حفظه وكثرة محصوله من السنن، فلم "يكن ابن عبد البر مجرد خازن أو ناقل للحديث والأثر بل كانت له بسطة كبيرة بتمييز صحيح الآثار من ضعيفها وشاذها ومنكرها محيطا بأقوال أئمة الحديث في تصحيح وتضعيف وإعلال الأحاديث."[2]

- القصد والأمم في أنساب العرب والعجم، وأول من نطق بالغريب من الأمم، (ولعله كتاب جمهرة الأنساب السابق ذكره).
- كتاب فرحة الأنفس في أخبار الأندلس.
- كتاب الفرائض.
- رسالة أدب المجالسة وخوض اللسان.
- شرح زهديات أبي العتاهية.
- نزهة المستعين، وروضة الخائفين.
- البستان في الأخدان.
- فهرسة شيوخه.

وله غير ذلك من المؤلفات المتنوعة والمختلفة، وفي شتى فروع العلوم الدينية والأدب والتاريخ والأنساب (المطبوع منها والمخطوط). راجع كل المصادر التي ترجمت للحافظ ابن عبد البر النمري، وخاصة مقدمة أسامة بن إبراهيم محقق كتاب التمهيد، ج1، ص51 -54./ و مقدمة الأستاذ محمد مرسي الخولي، محقق كتابه "بهجة المجالس وأنس المجالس"،ج1، ص 24 -27. راجع كتاب الأستاذ: محمد بن عبد الله التليدي: تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1،1416هـ/1995م، الصفحات 37، 48، 54،56 ،57، 67، 68،69 ،70،75 ،76،93 ،94، 95،119 ،135، 150،151 ،196، 211،259، 279،300، حيث ذكر المؤلف في هذه الصفحات مؤلفات ابن عبد البر التي تخص علم الحديث.

وراجع كتاب محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص78، 195، 196، 203، 204، 268، 424، حيث ذكر المؤلف مؤلفات ابن عبد البر التي تخص الفقه.

(1) مقدمة أسامة بن إبراهيم لكتاب التمهيد لابن عبد البر، ص30.

(2) المصدر نفسه: ص31.

هذا الحس النقدي الذي تميز به ابن عبد البر النمري، قد تميز به مواطنه ابن حزم الظاهري وهي سمة عامة للشخصية العلمية الأندلسية.

ولم تتح لابن عبد البر فرصة الخروج من الأندلس لأسباب لم يفصح عنها من عرضوا لحياته، ورغم ذلك فإن بروز شخصيته العلمية والفكرية وظهوره عالما أندلسيا كبيرا دلت عليه عبقريته وسعة اطلاعه، وضخامة تأليفاته.

وقد كان مواطنه ابن حزم كذلك لم يبرح بلده قطّ، وكانت أقصى حدود سافر إليها القيروان الإفريقية وقد حاجج علماؤها وناظرهم هناك، ولم تثبت له رحلة إلى المشرق.

وكان مواطنهما القرطبي من قبل ابن عبد ربه الأندلسي، صاحب العقد الفريد لم يفارق قرطبة وهو من هو في كثرة اطلاعه وغزارة تأليفه وهي أمور لا تخفى على الباحث الحصيف في كون الأندلس تبحث عن ذاتها، وتستغني بعلمائها عن مركز الثقافة الإسلامية في المشرق وإن ظل الارتباط بين المشرق العالم الإسلامي ومغربه أبديا.

لم تنطفئ شعلة ابن عبد البر النمري في الحديث بعد موته، فقد حملها عِدله وتلميذه الحسين بن محمد بن أحمد الغساني 427هـ 1035م 498هـ 1104م) المكنى أبا علي رئيس المحدثين بقرطبة، إمام، محدث، حافظ، عالم بالرجال.

كان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين وقد عني بالحديث وكتبه وروايته وضبطه، رحل الناس إليه وعوّلوا في الرواية عليه، وجلس لذلك بالمسجد الجامع بقرطبة وسمع منه أعلام قرطبة وكبارها وفقهاؤها وجلتها.

وكان من شيوخه، إضافة إلى ابن عبد البر، الباجيُّ سليمان بن خلف، وحكم الجذامي وحاتم بن محمد والعذري و غيرهم.

قال عنه القاضي عياض:" إن انفراد أبي علي الصدفي بالإمامة في الحديث بالأندلس لم يكن إلا بعد وفاة أبي علي الغساني هذا، آخر المسندين بقرطبة.[1]

---

[1] ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصفدي، ص77، 78. وأضاف:" وأضبط الناس لكتاب، فكثر الراحلون إليه وغص مجلسه." وانظر المصدر نفسه: الصفحات: 24، 25، 97، 114، 206.

وانظر ترجمته في المصادر الآتية: ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص130، 131، رقم (330)./ الضبّي: البغية، ص227، رقم (643)./ القاضي عياض: ترتيب المدارك (الطبعة المغربية)، ج8، ص191، 192، وفيه:" ولم يكن في كثير من

خلف أبو علي الغساني بقرطبة مدرسة حديثية كبيرة وطيدة الأركان على رأسها القاضي أبي علي الصفدي، ابن سكرة. وكانت الدروس التي يلقيها في المسجد الجامع بقرطبة وحلقات العلم التي يعقدها مع طلبته هي النواة الأولى لهذه المدرسة.

وكانت تواليف أبي علي الغساني شاهدة على مقدرة الرجل في فن الحديث وعلومه، ومعرفة صحيحه من سقيمه وضبط رجاله، من هذه المؤلفات:

- تقييد المهمل وتمييز المشكل (شيوخ البخاري المهملون).[1]
- فهرسة أبي علي حسين بن محمد بن أحمد الغساني، ثم الجياني.[2]
- فوائد في مسائل الحديث.[3]
- تسمية شيوخ أبي داود السجستاني في مصنفه.[4]

=منتحلي الحديث أضبط منه لكتبه وعليه في وقته كانت العمدة في الحديث بالأندلس."/ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص290، رقم (200)، وفيه:" إمام عصره في الحديث، رأس فيه أهل عصره وحاز السبق بمعرفته برجاله وصحيحه وسقيمه، ولغته وبرع في إتقانه وضبطه حتى لم يكن في عصره أضبط منه."/ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص189.ذكره في وفيات سنة (498هـ)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص408، 409، وفيه:" أحد أركان الحديث بقرطبة، وكان كامل الأدوات في الحديث."/ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص88، 470./ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص 182، رقم (392)، وفيه:" الفقيه الحافظ، إمام المحدثين في وقته وكبير العلماء العاملين."/ وفي صفحات عديدة من كتاب الفهرست لابن خير الإشبيلي، سنذكرها في مؤلفاته./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج4، ص44./ فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، 1/1/ ص254، 274./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص78.

وقد ذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى، واستشهد ببعض آرائه مثلا، ج10، ص 106، وذكره في بعض المسائل وقال:" وذكرهما الحافظ أبو علي الغساني في تقييده."، وص411، حينما استشهد برأيه في توثيق بعض الأنساب./ ويراجع ما كتبه الأستاذ محمد أبو الفضل في مقدمة تحقيقه لكتاب الحافظ أبي علي الغساني: تقييد المهمل، وتمييز المشكل(شيوخ البخاري المهملون)، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1418هـ/1997م، الجزء الأول كله حيث أفرده المحقق لسيرة أبي علي الغساني ومنهجه.

(1)ابن بشكوال: الصلة، ص 131./ ابن خير الإشبيلي: الفهرست، ص 222، 480./ الضبّي: البغية، ص 227./ ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصفدي، ص 24./ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج10، 106./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 470./ التليدي: تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، ص 113./ سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/1/ ص 254.

(2)ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 425، 510. و قد ذكر عنده باسم آخر وهو (برنامج أبي علي الغساني)، ص 477.

(3)المصدر نفسه، ص415. وهو شرح لحديث النبي – صلى الله عليه و سلم - "لا تزال طائفة من أمتي على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"./ المصدر نفسه، ص 198، 199./ التليدي: تراث المغاربة في الحديث النيوي وعلومه، ص 122.

4ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 221، 480./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج1، ص 88. وقد ذكره باسم (أسماء رجال سنن أبي داود)./ التليدي: تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، ص 198.

- جزء منتخب من تاريخ علماء الأندلس، تصنيف أبي الوليد بن الفرضي، انتخاب أبي علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني.[1]
- التنبيه على الأوهام الواقعة في الصحيحين، (وهو نقد للرواية والرواة).[2]
- الاستدراك على الاستيعاب لابن عبد البر، أنجزه تلبية لرغبة شيخه ابن عبد البر الذي أوصاه أن يلحق بالاستيعاب كل ما فاته.[3]

وغير ذلك من المصنفات التي أثرى بها أبو علي المكتبة الحديثية في الأندلس* والعالم الإسلامي.

وعرفت حاضرة قرطبة في ظل حكم بني جهور محدثا آخرا لا يقل شأنا عمن ذكرنا. وكان أسبقهم وفاة، وهو ابن اللحام، علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبي يكنى أبا الحسن (ت 449هـ/ 1057م). أصلهم من قرطبة، وأخرجتهم الفتنة إلى بلنسية.[4]

كان من أهل العلم والمعرفة والفهم، عني بالحديث العناية التامة، وأتقن ما قيد منه وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار.[5]

ومثله أبو الحسن طاهر بن مفوز المعافري (427هـ 484هـ) من أهل شاطبة، لكنه تتلمذ قي قرطبة على يد أعلامها المحدثين، مثل ابن عبد البر النمري، وحاتم بن محمد، وأبي مروان بن حيان وغيرهم، وقد أكثر عن ابن عبد البر واختص به.

---

[1] ابن خير الإشبيلي، الفهرسة، ص478. وفيه: "يتضمن أسماء الحفاظ للحديث المعتنيين بالسنن، و من برع منهم في الأدب و من مال إلى النظر والاختيار، و ترك التعليم."، ص 220./ التليدي: تراث المغاربة في الحديث و علومه، ص 278.

[2] فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، م1/1/ ص 254./ التليدي: تراث المغاربة في الحيث و علومه، ص95.

[3] التليدي:تراث المغاربة في الحيث و علومه، ص66. نقلا عن الذهبي في تذكرة الحفاظ.

* يراجع كل المصادر التي ذكرناها في ترجمة أبي علي الغساني الجياني، و مقدمة الأستاذ محمد أبوالفضل لكتاب تقييد المهمل و تمييز المشكل، ج1، ص 173، 174.

[4] ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 96. رقم 392).

[5] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 332. رقم 892)./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 564. وقال في شرحه للصحيح الجامع: " وغالبه فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب غالبا." / وانظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 7، ص 87. وذكر من مؤلفاته (الاعتصام في الحديث)

وكان من أهل العلم مقدما في المعرفة والفهم، عني بالحديث العناية الكاملة، وشهر بحفظه وإتقانه، وكان منسوبا إلى فهمه ومعرفته.[1]

ولا ينتهي جرد أسماء المحدثين القرطبيين، أو غير القرطبيين الذين مروا بهذه الحاضرة العظيمة، وتركوا آثارا طيبة في هذا الفرع الزكي من العلم الشرعي.

فمن شيوخ هذا العلم بحضرة قرطبة، حاتم بن محمد، ابن الطرابلسي 469هـ). أبو القاسم التميمي القرطبي، والذي حمل صحيح مسلم عن أبي سعيد السجزي.[2] وأحمد بن يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصاري 480هـ) الطليطلي، المتوفي بقرطبة فقد "كان يبصر الحديث بصرا جيدا"[3]

وألف القاضي محمد بن حمد بن مفرج القرطبي، كتابا في الحروف التي أخطأ فيها الدبّري في منصف عبد الرزاق.[4]

وكل من ذكرنا من أعلام الحديث في قرطبة، هو قليل من كثير، أما إدراكهم كلهم، أو حتى المشهورين منهم بمصنفاتهم فليس من سبيل إلى ذلك.

وفي هذا الجو الثقافي الحديثي المتنوع والمتقاطع في قرطبة، التقت طرائف الأندلسيين مع غيرهم. ولم يكن حضور الأندلسيين في مجال الحديث وعلومه حضورا نقليا باهتا، فكل مصنفاتهم في هذا الفن، كانت رواية ودراية.

---

[1] ابن بشكوال: الصلة، ص 204 205. رقم 547).

[2] محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، 4، 390، 391. رقم 2471). وقد ذكرناه من قبل.

[3] ابن بشكوال: الصلة، ص 72. رقم 145). / الأدنروي: طبقات المفسرين، ص 147. رقم 184) وقد أخطأ في تحديد تاريخ وفاته، حيث جعلها سنة 499هـ).

[4] محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات، الذين ليسوا في تهذيب الكمال، 3، ص 274. ولم نتحقق من تاريخ وفاته.

ففي مجال الرواية، كانت تصنيفات المحدثين نقدية بالدرجة الأولى، (في الجرح والتعديل).أي نقد السند (الرواة والرجال)، كما صنع أبو علي الغساني الجياني في كتابه (تقييد المهمل وتمييز المشكل)، أو في كتابيه (التنبيه على الأوهام الواقعة في الصحيحين).

(وتسمية شيوخ أبي داود السجستاني في مصنفه)، أو كما صنع أستاذه قبله أبو الوليد الباجي في كتابه (التعديل والتجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصحيح).

أو قد تكون هذه المصنفات الحديثة استدراكات (تكميلات وتتمات) على رجال الأسانيد وقد تكون هذه التصنيفات شروحا على المتن، كما صنع ابن اللحام في شرحه لصحيح البخاري كل هذه الأضرب، هي العناصر الأساسية التي يقوم عليها علم الحديث.

وفي خضم ذلك كله – وهو الأهم – فقد أسس الأندلسيون سندا خاصا بهم في مجال الحديث، حتى أصبح جزءا مؤسسا لهويتهم الثقافية في هذا المجال.

فعلى سبيل المثال وفي صحيح البخاري فقد كان سند أبي الوليد الباجي 747هـ) عن شيخه أبي ذر الهروي 434هـ). وأبي الحسن الداودي (ت 467هـ) كلاهما عن أبي محمد عبد الله بن حمويه الحموي السرخسي (ت 381هـ). وأبي إسحاق البلخي المستملي 376هـ). وأبي الهيثم محمد بن زراع الكشميهني 389هـ) كلهم عن أبي عبد الله محمد بن يوسف ابن مطر الفربري 320هـ) عن أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256).[1]

وفي سند الإمام مسلم فقد ارتبط المشارقة والمغاربة بسند أبي أحمد بن عيسى الجلودي 368هـ) الراوية لكتاب مسلم، والذي عليه اعتماد أهل المشرق في نقل الصحيح والذي سمعه من تلميذ الإمام مسلم المباشر، أبي إسحاق إبراهيم بن سفيان المروزي (ت 308هـ).[2]

---

[1] جعفر بن إدريس الكتاني: الفهرسة المسماة، إعلام أئمة الأعلام وأساتيذها بما لنا من المرويات وأسانيدها، دراسة وتحقيق: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1 2004، ص 203.

[2] محمد الشاذلي النيفر: دراسات في علوم الحديث ومناهج المحدثين، ضبط نصها وعلق عليها وقدم لها: طه بن علي بوسريح، دار الغرب الإسلامي، تونس 2009، ص 21.

ونظرا لارتباط المغاربة والأندلسيين بصحيح مسلم فقد انفردوا برواية القلانسي تلميذ الإمام مسلم، ولا توجد هذه الرواية عند سواهم ويلاحظ أن هذه النسخة قد انفردت بألفاظ وزيادات لا توجد في نسخة الجلودي عن ابن سفيان.[1]

وأكد النفير أن رواية القلانسي دخلت من جهة أبي عبد الله محمد بن الحذاء القرطبي 410هـ) الحافظ الرحالة الذي سمعها بمصر، عن أبي العلاء عبد الوهاب بن عيسى بن ماهان البغدادي، ثم المصري 388هـ). والذي رواها عن أبي بكر بن الأشقر عن القلانسي عن مسلم، ما عدا ثلاثة أجزاء حديثية من الكتاب يرويها عن الجلودي.[2]

وللفقه في قرطبة تاريخ مجيد، فحينما ظهرت أولى الدراسات الفقهية بالأندلس، ابتدرها القرطبيون، وفقهاء حاضرة قرطبة في عهد بني جهور وبعده بعقود من الزمن يمثلون أهم حلقة بين فقهاء الأندلس.

وليس من السهل الحديث عن الفقه وأصوله في قرطبة في هذه الفترة، وعن أعلام هذا العلم، ومصنفاتهم وأنت محاط بمئات الفقهاء وآلاف المصنفات.

فالأمثلة كثيرة لمن شاء أن يتبعها من المتخصصين، وهي حقيقة بالجمع والدرس والتقييد.

وقد ذكر ابن بشكوال أبا مروان القرطبي (ا 460هـ). عبيد الله بن محمد بن مالك، وهو عالم فاضل وكان حافظا للمسائل والحديث ومعاني القرآن وتفاسيره، عالما بالاختلاف بين فقهاء الأمصار والمذاهب، وله "مختصر حسن في الفقه" حكم له فيه بالبراعة. وله كتاب " ساطع البرهان" في سفر.[3]

---

[1] محمد الشاذلي النيفر: دراسات في علوم الحديث ومناهج المحدثين ، ص 21.

[2] المصدر نفسه، ص 21 22.

[3] الصلة: (طبعة المكتبة العصرية)، ص 251. رقم 673). /الأدنروي: طبقات المفسرين، ص 124، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 4، ص 245. /قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، 2، ص 913 وما بعدها. رقم 758). وذكر له "مختصر المدونة" فلعله المختصر المقصود عند ابن بشكوال، كما ذكر له "كتابا في عقيدة أهل السنة والكلام عليها"

وصنوه عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن معمر القرشي 365هـ 444هـ). الفقيه القرطبي، كان عالما بمذاهب المالكيين، قائما بالحجج عنهم، ثابت الفهم، حسن الاستنباط، وله تأليف في " أوقات الصلاة على مذاهب العلماء".[1]

وازدان الفقه بقرطبة مع بروز محمد أبي عبد الله بن فرج (ت 479هـ). مولى ابن الطلاع شيخ الفقهاء في عصره، أسدُّ من بقي في وقته، سمع منه عالَم عظيم، ورحل إليه الناس من كل قطر، لسماع المؤطأ والمدونة، لعلوه في ذلك، كما سمع منه كبار شيوخ وفقهاء قرطبة، وألّف كتاب أحكام النبي – صلى الله عليه وسلم - وكتاب "كتاب الشروط" وأخرج زوائد أبي محمد في المختصر، وألف مختصر أبي محمد على الولاء[2]

ومن جلة فقهاء قرطبة في هذه الفترة محمد أبو عبد الله بن عتاب القرطبي (ت 462هـ) الذي تفقه به الأندلسيون وسمعوا منه، وكان من جلة العلماء الأثبات، وممن عني بسماع الحديث دهره فقيده وأثبته، وتقدم في المعرفة بالأحكام، وعقد الشروط وعللها، وكان لعلمه وفضله قد طلب لقضاء أمصار فامتنع، ورامه ابن جهور على قضاء قرطبة فأبى وحلف.[3]

وحتى ابن حزم الأندلسي، وابن عبد البر النمري كانا علمين كبيرين في الفقه ولا حاجة بنا إلى التذكير بمؤلفاتهما واختياراتهما الفقهية فهما مثال للشخصية الأندلسية العلمية المتميزة.

وكان أستاذهما أبو عمر الطلمنكي 340هـ 956م 429هـ 1038م) أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى بن يحي المعافري الأندلسي، على مبلغ عظيم من العلم بالفقه فوق ما اشتهر

---

[1] ابن بشكوال: الصلة، ص 250. رقم 670). / قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، 2، ص 808. رقم 751).

[2] ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 224. رقم 502). / القاضي عياض: ترتيب المدارك (الطبعة المغربية)، 8، ص 180، 181. / الصفدي: الوافي بالوفيات، 4، ص 226. رقم 1866). وفيه " مفتي الأندلس ومسندها في الحديث". / مخلوف: شجرة النور الزكية، 1، ص 181 182 391)

[3] ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 222، 223. رقم 501). / القاضي عياض: ترتيب المدارك (الطبعة المغربية)، 8، ص 131، 134. / مخلوف: شجرة النور الزكية: 1، ص 176. رقم 372). / الصفدي: الوافي بالوفيات، 4، ص 58. رقم 1539)، وقد أخطأ في تحديد تاريخ الوفاة إذ جعلها 362هـ).

به في مجال القراءات والتفسير، كما سنبينه فيما بعد. أخذ عن جيل كبير من علماء قرطبة والأندلس جمعاء، وأخذ عنه خلق كثير من أفاضل علماء الأندلس وغيرهم.[1]

خلّف الطلمنكي تراثا ضخما تتنازعه تخصصات شرعية مختلفة، ففي مجال الفقه له (فضائل مالك ورجال الموطأ) وكتاب (الدليل إلى طاعة الجليل، فيما تنطوي عليه الجوانح وتباشره بالعمل الجوارح) وهو كتاب يوم وليلة، وغيرها من الكتب الفقهية والعقدية.[2]

وتشاء الأقدار أن يفد إلى قرطبة فقهاء ومفسرون أفارقة، فزاد هذه الحاضرة ثراء وغنى، وفي عصر الطوائف وفي زمن حكم بني جهور بالضبط، وفد علامة القيروان مكي بن أبي طالب القيسي، المسمى حموش 355هـ 437هـ). وأصله من القيروان وسكن قرطبة بعد سماعه من شيوخ مكة ومصر وغيرهم.

---

[1] الحميدي: جذوة المقتبس، ص 100. رقم 187). /الضبّي: بغية الملتمس، ص 139. رقم 347). / ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 52 53. رقم 92). / القاضي عياض: ترتيب المدارك (الطبعة المغربية)، 8، ص 32 33. / ابن فرحون: الديباج المذهب، 1، ص 155 وما بعدها. رقم 55). / الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق، الدكتور طيار آلتي غولاج، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، 1224هـ/ 2003م، 2، ص 733، 734. رقم 455). / الذهبي: مختصر العلو للعلي العظيم، ص 229. 230. / ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1، ص 157. 158. رقم 539). / الأدنروي: طبقات المفسرينّ، ص 107 108. رقم 141). / ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 243 244. / مخلوف: شجرة النور الزكية، 1، ص 168. رقم 342). / ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 5، ص 31 ./ الصفدي: الوافي بالوفيات، 8، ص 23. رقم 1087). / ابن خير الإشبيلي: الفهرست، ص 259، 288، 430، 490، 493، 510، 537. /عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 2، ص 123. / قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، 1، صر 255 257. رقم 146). / محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، 2، ص 278 وما بعدها. رقم 751). / محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص 203 226 268.

[2] حول "فضائل مالك ورجال الموطأ" ينظر: مخلوف: شجرة النور الزكية، 1، ص 168. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 2، ص 124. / قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، 1، ص 256، حيث ذكر الكتاب بعنوانين منفصلين "كتاب رجال الموطأ" و"كتاب فضائل مالك"

وكتبه الأخرى في مجال العقيدة والفقه: " الدليل إلى معرفة الجليل". "الوصول إلى معرفة الأصول في مسائل العقود في السنة". "الرسالة المختصرة في مذاهب أهل السنة، وما درج عليه الصحابة والتابعون وخيار الأمة". / ينظر ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 288 259. / مخلوف: شجرة النور الزكية، 1، ص 168. / قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، 1، ص، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 2، ص 123.

وأقرأ بجامع قرطبة وخطب به، وانتفع به جمع وعظم اسمه، واشتهر بالصلاح وإجابة الدعوة، وهو صاحب التصانيف الكثيرة في شتى فروع العلوم الشرعية، وكذلك في اللغة والأدب.[1]

أما مؤلفاته الفقهية فهي عديدة منها "الاختلاف في عدد الأعشار". "إيجاز الجزاء على قاتل الصيد في الحرم". "بيان العمل في الحج والإحرام"، "الرياض". "كتاب الصغائر والكبائر"[2] "مناسك الحج"، "منتخب كتاب الإخوان لابن وكيع"[3] وغيرها.

وستنجب قرطبة أعظم فقهائها على الإطلاق، مع ظهور أبي الوليد بن رشد الجد، محمد بن أحمد بن محمد 450هـ 520هـ · 1126م). الذي ولد في قرطبة قبل انقضاء حكم بني جهور باثنتي عشر سنة.

---

[1] الحميدي: جذوة المقتبس، ص 318. رقم 820). / الضبّي: بغية الملتمس، ص 410. رقم 1368). وفيه: "سكن قربطة وأقرأ بها، وكان إماما في ذلك مشهورا، نحويا، أديبا، حافظا تواليفه كثيرة مشهورة، رأيت بعض أشياخي، قد جمع ذكر أسماء تواليفه في جزء وقال مبلغ تواليفه خمسة وثمانون تأليفا."/ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 488. رقم 1393). / الدباغ: معالم الإيمان، 2/ 1/ صر 174، 175. رقم 291) طاش كبري زاده: مفتاح السعادة، 2، ص 74. / ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 465، 475، 477، 479، 480، 481، 483، 493، 506، 513، 519، 524، 527، 532، 534، 536. / السيوطي: بغية الوعاة، ص 722. رقم 2018). / ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 2، ص 405، 406. رقم 3597). / الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، 2، ص 751، 752. رقم 473). / ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 5، ص 41. / ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3، ص 138 وما بعدها. رقم 737). / أبو البركات الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأطباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د 1، 2003م/ 1424هـ، ص 300./ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 7، ص 124، 126. / القفطي: إنباه الرواة، 3، ص 313، 319. / المقري: نفح الطيب، 3، ص 179. / ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 260 261. / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 33، 121، 174، 206، 210، 339، 393، 404، 459، 495، 660، 908، 909، 938، 1388، 1432، 1448، 1470، 1491، 1695، 1730، 1851، 1899، 1920، 2024، 2041، 2048، البغدادي: هدية العارفين، = 2، ص 470 741. / البغدادي: إيضاح المكنون، 3، ص 85. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 13، ص 3. / وله ترجمة مطولة عند الشاذلي بويحيى في كتابه: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، 1، ص 323 324. / محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص 77، 195، 196، 199، 241، 345، 356، 362، 366، 369، 413، 424./ وانظر المقدمة التي كتبها الأستاذ محي الدين رمضان في تحقيقه لكتاب مكي بن أبي طالب: الكشف على وجوه القراءات السبع وعللها وحججها مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د 4 1407هـ 1987م، 1، ص 5 38.

[2] حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 938 1432.

[3] البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 470 471.

ولم يكن ظهور الفقيه ابن رشد سوى محصلة لأعلام الفقه والحديث والأصول الذين ذكرناهم من قبل، حيث تتلمذ لأشهر علماء قرطبة وفقهائها ومحدثيها، وامتد به العمر حتى أدرك دهرا من عصر المرابطين.

كان أبو الوليد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بالمسجد الجامع بها. فقيها عالما حافظا للفقه، مقدما فيه على جميع أهل عصره، عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيرا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم، نافذا في علم الفرائض والأصول من أهل الرياسة في العلم والبراعة.[1]

ومازالت فتاواه شاهدة على براعته في الفقه والأحكام من خلال مصنفيه العظيمين: "البيان والتحصيل*" و" المقدمات الممهدات**".

---

[1] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 450، 451. رقم 1273). / الضبّي: بغية الملتمس، ص 43. رقم 24). وفيه: "وكان أوحد زمانه في طريقة الفقه" وقد أخطأ في تحديد تاريخ وفاته، إذ جعلها سنة 530هـ). / ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 229 230. رقم 505). وفيه: "زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب، ومقدمهم المعترف له بصحة النظر، وجودة التأليف، ودقة الفقه، وكان إليه المفزع في المشكلات، بصيرا بالأصول، والفروع والفرائض"، وقد أخطأ إذ جعل مولده سنة 405هـ). / ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 243،200، 266، 477، 487، 520، 527. / المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (الطبعة المغربية)، 3، ص 59، 61 وفيه: "ونشر كتبه وتواليفه، ومسائله وتصانيفه". / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 361. / البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 85. / ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 4، ص 62. / مخلوف: شجرة النور الزكية، 1، ص 190. رقم 413)،وقد أخطأ في تحديد تاريخ ميلاده إذ جعلها 455هـ)./ياسين بن خير الله اليعمري: منهج الثقات في تراجم القضاة، ص 270. رقم 297) / القاضي النباهي: المرقبة العليا، ص 112، 114./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 8، ص 228. / محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المالكين،ص 80 114 122 125 268، 69! 316 354 378 411 421 424.

* موسوعة فقهية ضخمة، والعنوان الكامل للكتاب هو: " البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل العتبية.". / الضبّي: البغية، ص 43. / ابن خير: الفهرسة، ص 243 477. / ابن بشكوال: الصلة، ص 451. وقد قام بتحقيق هذه الموسوعة الضخمة، مجموعة من الأساتذة الأفاضل: محمد العرايشي، أحمد الحبابي، عبد الفتاح محمد الحلو، سعيد أحمد أعراب، محمد حجي، أحمد الشرقاوي إقبال وغيرهم وطبع كاملا بعنوان "البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، وضمنه: المستخرجة من الأسمعة المعروفة بالعتبية لمحمد العتبي القرطبي المتوفى 255هـ). / دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د 2، 1408هـ 1988م.

** ورد عنوان الكتاب في المصادر الأندلسية بالصيغة الآتية: "كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة". / ابن خير: الفهرسة، ص 243./ ابن بشكوال: الصلة، ص 451. وهو كتاب في الفقه المالكي، قام بتحقيقه الأستاذ محمد حجي، وطبع كاملا في ثلاثة مجلدات

إضافة إلى مصنفيه العظيمين، فقد أثرى الفقيه أبو الوليد المكتبة الفقهية المالكية بكتب أخرى، منها كتاب "اختصار المبسوطة"[1] و" حجب المواريث"[2] و" اختصار مشكل الآثار للطحاوي"[3] وله كتب فقهية جمعها تلامذته بعد وفاته.[4]

يشار إلى أن أبا الوليد بن رشد هو قاضي قضاة قرطبة، وقد تقلد هذا المنصب الفترة الزمنية نفسها تقريبا مثل القاضي أبي عبد الله محمد بن الحاج* 458هـ 529هـ). والقاضي أبي القاسم بن حمدين** (، 521هـ).

فلا يخفي على الدارسين الدور الخطير الذي يؤديه قاضي القضاة (في الأندلس يسمى قاضي الجماعة). فهو يمثل السلطة القضائية والشرعية (الدينية). وبالتالي فهو يلعب دورا كبيرا في ترسيخ المذهب الديني الفقهي عن طريق فرض الأحكام القضائية، وفقا للمذهب الفقهي رسميا من طرف الدولة، وهو جزء من هويتها الثقافية.

وقد كان تقليد قاضي القضاة يتم في احتفال يقرأ فيه عهد الخليفة، وبعد ذلك يباشر سلطته القضائية، هذه السلطة التي أضيف إليها وظائف أخرى غير قضائية، مثل إمارة الحج والخطابة

=بعنوان " المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات". / دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ، 1 1408هـ 1988م.

[1]ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 243 520. / ابن بشكوال: الصلة، ص 450.

[2]ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 266 487.

[3]المصدر نفسه: ص 200 243 527.

[4]مثل كتاب "مسائل الفقيه أبي الوليد بن رشد القرطبي "جمعها تلميذاه الفقيهان القرطبيان: أبو الحسن محمد بن الوزان، وأبو مروان عبد الملك بن مسرة، وهو تحتوي على 559) فتوى صدرت عن ابن رشد، ما عدا ثلاثا... وجميع فتاوي ابن رشد في الفقه سوى إحدى عشرة فتوى، بعضها أجوبة عن مسائل في الكلام، وبعضها في اللغة، وبعضها في معاني جملة من الأحاديث النبوية".
وكذلك كتاب "فوائد الدارس المشرفة على عيون المجالس لابن خيرة الإشبيلي "وهي أمال ومجالس لابن رشد الجد، علقها ورتبها وشرحها تلميذه ابن خيرة الاشبيلي". / ينظر محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص 316. وراجع آثار ابن رشد في المصادر التي ترجمت له.

*قاضي الجماعة بقرطبة، تفقه وقيد اللغة والغريب والأدب، وكان من جلة الفقهاء وكبار العلماء، معدودا في المحدثين والأدباء. قتل ظلما بالمسجد الجامع بقرطبة. بعد أن تقلد القضاء بقرطبة مرتين، وألف كتاب النوازل المشهور". / القاضي النباهي: المرقبة العليا، ص 116 117. / ابن بشكوال: الصلة، ص 453. رقم 1281)

**أحمد بن محمد بن علي: من صدور القضاة، قاضي الجماعة بقرطبة، تقلد القضاء كذلك مرتين، وكان نافذا في أحكامه، جزلا في أفعاله، وهو من بيت علم ودين وفضل." المصدران السابقان على التوالي، ص 117. / وص 79 80. رقم 172).

والنظـر فـي الجوامع والتدريس، ووكالة بيت المال والحسبة، ومشيخة الشيوخ ودار الضـرب والأسـوار."[1]

ورغم أن القاضي لا يملك سلطة تنفيذ الحكم، إلا أنه مخول بسلطة يشرف بموجبها على جميع القضايا التي تؤثر في حياة الجماعة والتي نظمتها الشريعة كالزواج والطلاق والعناية بالأيتام والمواريث وغيرها.[2]

والملاحظ لآثاره ومؤلفاته هؤلاء القضاة، أنهم صنفوا في القضايا الفقهية التي تؤثر في حياة الجماعة.

وفي مجال القرآن الكريم، علومه، وتفسيره، وإعرابه، وناسخه، ومنسوخه، وكذا في مجال القراءات والدراسات القرآنية، فلا مزايدة على وصف قرطبة بأنها أم الحواضر الأندلسية في ذلك، بل إن إنتاجها في هذا الشأن يفوق ما أنتجته بعض الحواضر الإسلامية.

ومن ذا الذي يستطيع تعداد علماء قرطبة المقرئين المجودين، والمفسرين وأصحاب الشأن في هذا الفن.

وأبو عمر الطلمنكي المعافري 429هـ) سابقهم في عصر الطوائف، ومتقدمهم في ذلك. فقد كان أحد الأئمة الأعلام في القرآن العظيم قراءته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه."[3] وكان أساسا في القراءات مذكورا[4] سكن قرطبة وأقرأ الناس بها وكان أول من أدخل القراءات إليها[5] بعد رحلته الطويلة إلى المشرق والقيروان، حيث أخذ عن أعلامهما، له كتاب "الروضة"[6] وكتاب في تفسير القرآن نحو مئة جزء[7]

---

[1] عصام محمد شبارو: قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د 2 1992، ص 15.

[2] المصدر نفسه: ص 17.

[3] ابن بشكوال: الصلة، ص 52.

[4] الضبّي: البغية، ص 139.

[5] ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1، ص 158.

[6] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[7] القاضي عياض: ترتيب المدارك،(الطبعة المغربية)، 8، ص 33. / مخلوف: شجرة النور الزكية، 1، ص 168 / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 2، ص 123.

ومن جلة المقرئين في قرطبة في ظل حكم بني جهور أبو مروان القرطبي، عبيد الله بن محمد بن مالك 400هـ 1010م - 460هـ 1068م) المحدث، المفسر، كان حافظا للمسائل والحديث، ومعاني القرآن وتفاسيره.[1]

وحتى الأديب أحمد بن محمد بن برد الأندلسي (ت بعد 440هـ)، صاحب ابن حزم الأندلسي القرطبي كان مفسرا للقرآن الكريم، وله مؤلفات حفظت في ذلك منها كتاب " التحصيل في تفسير القرآن" وكتاب "التفصيل في تفسير القرآن" أيضا.[2]

وكان أستاذ القراءات القرطبي أبو القاسم بن النخاس المعروف بالحصار 427هـ 511هـ) من أبرز من أنجبت حاضرة قرطبة في علم القراءات، رحّال ثقة، قرأ بمكة على أبي معشر الطبري، وبمصر على نصر بن عبد العزيز الشيرازي، وبقرطبة على أبي المطرف عبد الرحمن بن خلف، ومعاوية بن محمد العقيلي، ورجع إلى قرطبة وولي خطابتها وكان مدارُ الإقراء عليه بها.[3]

والحقيقة التي ينبغي أن نذكر في هذا الباب هي الإضافة الكبيرة التي قدمها الوافدون على قرطبة من علماء إفريقية والقيروان، والإسهامات العظيمة التي خلفوها في هذا المجال، سواء بالتأليف أو الإقراء.

لعل أبرزهم في ذلك مكي بن أبي طالب القيسي حموش 437هـ) الذي انتقل من القيروان إلى الأندلس وسكن بقرطبة، وهو من أهل التبحر في العلوم خصوصا القرآن، كثير التصنيف وقد قصده الناس من النواحي لعلمه ودينه، وولي خطابة قرطبة لأبي الحزم بن جهور.

---

[1] ابن بشكوال: الصلة، ص 251. رقم 673). / الأدنروي: طبقات المفسرين، ص 124. رقم 161) وفيه: "وكان ماهرا ومؤلفا في التفسير". / قاسم علي سعد: جمهرة تراجم فقهاء المالكية، 2، ص 813. رقم 758). / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 6، ص 245.

[2] الأدنروي: طبقات المفسرين، ص 116. رقم 151).

[3] ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1، ص 370 371. رقم 1193). / الضبّي: البغية، ص 248. رقم 718). / ابن ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية)، 1، ص 156 157. رقم 400). وفيه: " ولقي بصقلية أبا بكر بن بنت العروق المقرئ، وجالس عبد الحق بن هارون الفقيه بصقلية، وطال عمره، وكانت الرحلة إليه في وقته." / الذهبي: معرفة القراء الكبار، 2، ص 894 895. رقم 605).

ومن مؤلفاته في هذا الفن "الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه وهو سبعون جزءا، وكتاب "المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره عشرة أجزاء[1] وكتاب "مشكل المعاني والتفسير خمسة عشر جزءا."[2] وله كتاب آخر بعنوان " الإشارة في تعبير الرؤيا"[3] و "الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه"[4] وغيرها من المؤلفات.*

ومن هؤلاء الأعلام الأفارقة الداخلين إلى قرطبة في عهد بني جهور، والمتخصصين في القراءات أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي 440هـ 1048) الذي دخل الأندلس في حدود 430هـ) وكان عالما بالقراءات وله اليد الطولى في ذلك. وخلف آثارا طيبة تشهد بفضله في هذا المجال منها:" التيسير في القراءات" وكتاب " التفصيل الجامع لعلوم التنزيل"،و "التحصيل في التفسير"،و "هجاء مصاحف الأمصار".[5]

وقد ذكرناه من قبل كما ذكرنا أبا عمرو الصفاقسي، المعروف بابن الضابط (، 442هـ 1050م) الذي دخل الأندلس، وسمع منه بها، وكان قدومه الأندلس ودخوله قرطبة

---

[1] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 260 261. / السيوطي: بغية الوعاة، ص 722. وقال في ذلك ابن الجزري: "ومن تأليفه، تفسيره الجليل". / غاية النهاية في طبقات القراء، 2، ص 406. / البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 471.

[2] راجع ابن العماد: شذرات الذهب، 3، ص 261. والبغدادي: هدية العارفين، 2، ص 471.

[3] البغدادي: إيضاح المكنون، 3، ص 85، 4، ص 554. وقد ذكره المؤلف نفسه في كتابه هدية العارفين، 2، ص 471 بعنوان "الممتع في تعبير الرؤيا".

[4] حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 206. وقد ذكر في المصدر نفسه، ص 210. بعنوان "الإيضاح في ناسخ القرآن ومنسوخه".

* قال ابن الجزري: " وتواليفه تنيف عن ثمانين تأليفا ... منها، (المعجز في القراءات)، (التبصرة)، (مشكل الغريب)، (الانتصاف فيما رد على أبي بكر الأدفوي في الإمالة)، (تنبيه على أصول قراءة نافع)، (الحروف المدغمة)، (الرعاية لتجويد القرآن الكريم وتحقيق لفظ التلاوة)، (شرح الوقف التام)، (كتاب الوقف في كلا وبلى والجواب بنعم)، (موجز في القراءات)، (هجاء المصاحف)، (الياءات المشددة في القرآن الكريم)، (الإبانة في معاني القراءة)... "غاية النهاية في طبقات القراء، 2، ص 405، 406. وراجع في كشف الظنون في الصفحات التي ذكرناها في ترجمته. / وكل المصادر التي ذكرت في ترجمته. وكذا في مقدمة المحقق محيي الدين رمضان لكتاب مكي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، 1، ص 23 29.

[5] ابن بشكوال: الصلة، ص 85 86. / الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، 2، ص 761. رقم 485)./ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 43. وذكر له كتاب "الكفاية في شرح مقاري الهداية" وص 44 وذكر له "التحصيل لفوائد كتاب التفصيل، الجامع لعلوم التنزيل"./وص 31، وذكر له كتاب الهداية إلى مذاهب القراء السبعة – رحمهم الله - ./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 462.

بالتحديد سنة ستة وثلاثين 436هـ) في عهد بني جهور، وقد أسمع الناس بها، وحدث عن مشيختها وأعلامها، وتطوف بسائر الأندلس نحو العامين، وقدم أيضا قرطبة عام 438هـ) فسُمع منه أيضا. وإن كان ابن الضابط يغلب عليه صفة الحديث، فقد ألف كتاب "الاقتصاد في القراءات السبع"[1]

وستنجب الأندلس واحدة من كبار قرائها والذي سيتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص بمصر، وهو أبو الطاهر النحوي المقرئ الأنصاري الأندلسي، إسماعيل بن خلف (، 455هـ)، وهو صاحب مجموعة من المؤلفات القيمة في هذا المجال منها كتاب "العنوان في القراءة" و"الاكتفاء" كما اختصر كتاب الحجة لأبي على الفارسي.[2]

ب- التاريخ والجغرافية:

تكتسي المؤلفات التاريخية والجغرافية الأندلسية صبغة خاصة وأهمية كبيرة في عصر الطوائف ومردّ ذلك إلى الظروف السياسة المتدهورة، والاجتماعية والاقتصادية كذلك.

فالوحدة الجامعة قد انفرط عقدها، والوطن قاب قوسين أو أدنى من الضياع بسبب التناحر الداخلي، وحركة الاسترداد المسيحية، فكان لزاما على طائفة من علماء البلد أن تنبري لتسجيل الحوادث، وكتابة الوقائع والتأريخ للأعلام والأعمال، وذكر المدن وصفتها، علها تكون شاهدة على حضارة عظيمة كانت تقوم ذات زمن على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية.

فقد بذل المؤرخون الأندلسيون أقصى الجهود، وسلكوا أوعر الطرق وأشقها وسخروا كل معارفهم وطاقاتهم لتحقيق هذا المشروع الثقافي والحضاري النفيس والذي هو جزء من هويتهم وكيانهم.

---

[1] ابن بشكوال: الصلة، ص 327 وما بعدها. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 6، ص 251. / ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 374 وما بعدها. رقم 374). / ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 435، 512، حيث ذكر له كتابا باسم (فهرسة أبي عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود الصفاقسي).

[2] ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية) ص 96، 97.رقم 246)./ ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 417، 497./ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1، ص 214، 215. رقم 739) / السيوطي: حسن المحاضرة، 1، ص 465.

ولسنا بحاجة إلى التذكير باجتماع علمي التاريخ والجغرافية، فالجغرافية هي توأم التاريخ في طبيعتها وتاريخها"[1]

وليس في مقدورنا مهما اجتهدنا في البحث أن نخرج عن نطاق ما هو مدون ومثبت في المصادر والحوليات، من تبوأ قرطبة الريادة في هذين العلمين منذ فترتي الإمارة والخلافة.

وقد ذكرنا آنفا بأن أقدم مؤرخ أندلسي هو عبد الملك بن حبيب(ت 238هـ 852م) وكان فقيها مالكيا، بل إنه من الأعلام الذين رسّخوا المذهب المالكي في الأندلس إلى جانب آخرين، وفضلا عن ذلك فإن مؤلفاته "سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم، "تاريخ قريش" قد رسّخت قدمه في فن التاريخ، وجعلته عميد مؤرخي الأندلس.

ولا ننسى أنه كتب في "طبقات الفقهاء والتابعين" و"سيرة الإمام في الملحدين"، ولم يكن عبد الملك بن حبيب سوى صنيع قرطبة، فبها تعلم ودرّس وألف ودرس رغم أنه من إلبيرة [2]

ومع ظهور أسرة آل الرازي في قرطبة خطت مدرسة التاريخ والجغرافية الأندلسية، خطوات كبيرة نحو البروز والتميز، نظرا لما قدمته هذه الأسرة من خدمات جليلة في هذا المجال.

وكان قاسم بن أصبغ البياني 340هـ) أستاذا لأحد أفراد هذه الأسرة، وهو أحمد بن محمد الرازي، وقد اشترك قاسم هذا مع الوليد بن خيزران في ترجمة كتاب هيروشيش كما ذكرنا سابقا[3] وقاسم هذا هو خريج مدرسة قرطبة كذلك.

وتشاء الأقدار أن يخرج أندلسي آخر من وادي الحجارة، ويتغرب زمن طويلا في القيروان وإفريقية عموما وهو محمد بن يوسف الوراق التاريخي 362هـ/ 973م). الذي ألّف للحكم المستنصر

---

[1] حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 1، ص 2 (المقدمة.)

[2] ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 221.

[3] ينظر كذلك السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2008، ص 201.

بالأندلس بعد عودته إليها كتابا ضخما في "مسالك إفريقية وممالكها" وكذلك في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة.[1]

وعرفت قرطبة في هذه الفترة مؤرخا كبيرا هو عريب بن سعد القرطبي 370هـ/ 980م). الذي قام باختصار تاريخ الطبري والتذييل عليه حتى أيامه محتفظا بالمعالجة الكاملة للأندلس.[2]

إذن نحن بإزاء مدرسة تاريخي قرطبية أندلسية وطيدة الأركان، ثابتة الدعائم، كاملة الأدوات، فما يمنع من ظهور أمثالهم من تلاميذهم ممن يجرون على هديهم في هذا الفن وتكون لهم بصمتهم وتميزهم هم الآخرون.

ونظرا للنقلة الأندلسية من الحكم المركزي في فترتي الإمارة والخلافة، إلى الحكم اللامركزي في فترة الطوائف، وكذا التحول الخطير للأندلس على جميع المستويات، الاجتماعية، الحضارية وبطبيعة الحال السياسية، جاءت النصوص التاريخية الأندلسية عاكسة لكل هذه المستويات، متميزة عن النصوص التاريخية التي كتبت في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

وهذا أمر طبيعي، فالكتابة التاريخية الصادقة هي التي تؤرخ للحوادث والوقائع بصدق وأمانة وتصور الواقع، وهي في كل الأحوال تعبير عن المواقف والميول الاجتماعية والفكرية لصاحبها.

لقد تطور التدوين التاريخي تدريجيا وتم على فترات ومراحل وشمل كل الحواضر الأندلسية، وبرز كبار المؤرخين في حاضرة قرطبة عاصمة الخلافة، المدينة الرمزية الجامعة للأندلسيين، حتى في فترة حكم بني جهور.

ويمكن أن نقرر أنّ مؤرخي الأندلس وقرطبة بالذات " كانت لديهم ثقافة إسلامية أساسية، وكان كثير من كتاب التراجم فقهاء أو قضاة، بينما بدا أن مؤرخي الأحداث بشكل عام كانوا أكثر ميلا نحو ثقافة أدبية أوسع، وكان عدد منهم بين القدامى على الأقل مؤرخين رسميين"[3]

---

[1] الحميدي: الجذوة، ص 86.

[2] شارل بيلا (Charles Peblat): أعمال التاريخ في الأندلس، أصلها وتطورها، بحث نشر ضمن كتاب الأستاذين، برنارد لويس Bernard Lewis) وب.م. هولت P.M.Holt): مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث، نقله إلى العربية وقدم له الدكتور سهيل زكار، دار التلوين، دمشق، سوريا، د 2008، ص 190.

[3] شارل بيلا : أعمال التاريخ في الأندلس، أصلها وتطورها ، ص 196.

ورغم ذلك فإن الثقافة الدينية أو الشرعية وخاصة الحديثية هي ما يطبع أعمال الفريقين معا سواء كتاب التراجم والطبقات أو مؤرخي الحوادث والوقائع.

وفي هذا الصدد نذكّر بابن الفرضي 403هـ) باعتبره مؤرخا قرطبيا كبيرا وقد كتب مؤلفه القيّم (تاريخ علماء الأندلس) أو (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس)

وسيصبح هذا الكتاب مصدرا أساسيا للدراسة الأندلسية بالنسبة لعلماء الغرب الإسلامي وخاصة الأندلسيين وكذلك المشارقة، أو لكل من عرض للأعلام والرواة من فتح الأندلس إلى زمن الفتنة القرطبية.

وله كتاب آخر في " الألقاب" انتخبه أبو القاسم ابن حبيش الأندلسي، وذيله أبو عبد الله محمد بن رافع القيسي صاحب ابن حبيش بأسماء استدركها على ابن الفرضي.[1]

وظاهر في كتاب ابن الفرضي هذا أثر الجانب الحديثي فيمن ذكرهم أو ترجم لهم، وهو ما سيظهر عند جل مؤرخي قرطبة فيما بعد.

وظهر بقرطبة في ظل حكم بني جهور المؤرخ القُبّشي، الحسن بن محمد بن مفرج القرطبي 348هـ/ توفي بعد 430هـ) الذي جمع كتابا سماه "الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال" في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء[2]

كان القبشي محدثا، فقد عني بالحديث وروايته عن الشيوخ وسماعه منهم وتقييد أخبارهم وكان تلميذا لمحدّثي قرطبة وفقهائها، مثل أبي عبد الله بن زمنين والقاضي عبد الرحمن بن فطيس[3] وعاصر ابن الفرضي وإن كان أبو الوليد أسبق منه زمنا في الوفاة.

---

[1] طبع الكتاب كاملا بعنوان "كتاب الألقاب للحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الأندلسي، المعروف بابن الفرضي، انتخاب أبي القاسم بن حبيش الأندلسي، ويليه ممن لم يذكره ابن الفرضي من الألقاب لأبي عبد الله محمد بن رافع القيسي صاحب ابن حبيش" تحقيق: محمود بن عبد الفتاح النحال، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، ط 1 1432هـ 2011

[2] ابن بشكوال: الصلة(طبعة المكتبة العصرية)، ص 126. رقم 312).

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وفي الفترة نفسها تقريبا ألّف عبادة بن عبد الله بن ماء السماء وكان حيا في سنة 421هـ) كتابا في أخبار شعراء الأندلس.[1]

ولكن علم التاريخ في قرطبة قد علا شأنه مع أعلام قرطبة في عصر الطوائف، مثل ابن حيان، وابن حزم، وابن عبد البر النمري. وهم أصحاب مشاريع حضارية استهدفوا من كتاباتهم النهوض بالأندلس الجريح، المفكك، فاستأنسوا بالكتابة التاريخية، وسردوا أحداث الماضي، وأرّخوا للأعلام من القضاة والفقهاء والشعراء والكتاب والأطباء والفلاسفة والموسيقيين، علهم يجدون في الماضي دواء أو عزاء للحاضر.

" لقد كانت الأندلس هي الشغل الشاغل لهؤلاء، ولكن الأندلس المسلمة فقط هي التي كانت موضوع بحوث العلماء"[2]

ولا ضير إذ قلنا إن الكتابة التاريخية لهؤلاء الأعلام قد تميزت بالسمو، وعبرت عن موسوعية أصحابها الذين جمعوا إلى جانب الفقه والحديث والأصول والأدب علم التاريخ، بل إنهم سخّروا كل معارفهم ووظفوها في التاريخ خدمة للمشروع النهضي للأندلس الذي راموه وتطلبوه، وكانوا محظوظين حيث لم يفجعوا بسقوطه النهائي عام 1492م). بعد أن فجعوا ببداية تصدّعه في عصر الطوائف.

وواضح من سير هؤلاء الأعلام، ومن خلال مؤلفاتهم في التاريخ أن المرجعية الدينية والثقافة الإسلامية، الفقهية والعقدية، وخاصة الحديثة، هي الموجة لأعمالهم جميعا وقد طغت على مناهجهم في التأليف.

هذا وإن كانت متفاوتة فيما بينهم فقد كانت السمة الأبرز في مؤلفاتهم جميعا هي "أن قيمتها كمنت في كتلة المعلومات وعلى المهارة في العرض"[3]

---

[1] الحميدي: الجذوة، ص 260 261. رقم 662).

[2] شارل بيلا: أعمال التاريخ في الأندلس، أصلها وتطورها، ص 197.

[3] شارل بيلا: أعمال التاريخ في الأندلس، أصلها وتطورها ،ص 190.

وأول هؤلاء الأعلام والمقدّم في هذا الفن، هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي 377هـ 987 - 469هـ 1076م)، "صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس وملوكها"[1]

ذكره أبو علي الغسّاني المحدث 498هـ) في شيوخه وقال: كان عالي السّن، قوي المعرفة مستبحرا في الآداب، بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه ، وأحسنهم نظاما له.[2]

لزم أبا عمر بن أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي القالي، ولا نستبعد أنه أخذ عنه كل مؤلفاته بدءا من الأمالي والنوادر، ودواوين الشعر الجاهلي التي جعلها القالي من المشرق، كما لزم أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي اللغوي، وأخذ عنه كتاب "الفصوص" وسمع الحديث على أبي حفص عمر بن حسين بن نابل وغيره.[3]

وقد أثّرت المعارف اللغوية والأدبية في نصوص ابن حيان التاريخية وفي "أسلوبه وطريقة كتابته، ونحن نعرف أنه لم يكن مجرد مؤرخ يكتفي بسرد الأحداث، وإنما كان إلى جانب هذه الصفة، صاحب أسلوب أدبي متفرد، وكتابته تعد طرازا من النثر الفني يُلحقه بأعظم كتاب النثر الفني"[4]

---

[1] الحميدي: الجذوة، ص 196. رقم 397).

[2] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 138 139. رقم 346).

[3] المصدر نفسه: ص 139. وينظر ترجمته عند ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 573 602. / الضبّي: البغية ص 236. رقم 679). /حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 1456. / ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 333. / البغدادي: هدية العارفين، 5، ص 341. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 4، ص 88. / آنخل بالاثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 245، 249. / حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 1، ص 101 - 103. / وراجع مقدمة محمود مكي في تحقيقه للسفر الثالث من كتاب ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص 15 - 20. / وراجع ما كتبه مصطفى الشكعة حول ابن حيان في كتابه "المغرب والأندلس"، آفاق إسلامية، وحضارة إنسانية ومباحث أدبية, دار الكتب الإسلامية.، مصر ، لبنان، د 1، 1407 1987م، ص 343 380. والفصل بعنوان (أبو مروان بن حيان بين الأدب الإبداعي وأدب كتابه التاريخ). / وقد كتب عنه أنور محمود زناتي كتابا قيما بعنوان" ابن حيان القرطبي مؤرخا"، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، د 1 2011م./ المؤلف نفسه: مصادر تاريخ المغرب والأندلس، ص 38 41.

[4] محمود مكي: مقدمة السفر الثالث من كتاب المقتبس لابن حيان، ص 29.

ولا عجب فهو خريج المدرسة العراقية والتي لم يرحل إليها، من خلال تلاميذ القالي البغدادي، وأستاذه المباشر صاعد البغدادي، كما أن " الأدب والتاريخ مادتين متلازمتين متكاملتين منذ أن عرف المسلمون علم التاريخ، وظل هذا الترابط قائما إلى عهد زمني غير بعيد، فما من كتاب تاريخ خلا من نصوص أدبية نثرية أو شعرية، وما من كتاب إلا وهو مترع بالأخبار التاريخية مليء بالوثائق التي تؤكد واقعة، وتثبت موقفا وتوثق حادثة من أحداث التاريخ الإسلامي."[1]

وحينما ترجم ابن بسام لابن حيان، قال "فصل في ذكر الشيخ الأديب الكامل أبي مروان بن حيان"[2]

ولا شك أن العوامل السياسية إضافة إلى البيئة العلمية والمحيط الثقافي قد أثر على فكر ابن حيان التاريخي، فجاءت نصوصه التاريخية معبرة عن ميوله الفكري وتكوينه الثقافي، عاكسة لعصره.

هذا وإن شهد له الأقدمون بأنه فصيحا فيما يكتبه بيده إلا أنه كان " لا يعتمد كذبا فيما يحكيه في تاريخه من القصص والأخبار"[3] "صدق الإيراد"[4]

ولا شك أن مرجعيات ابن حيان في كتابته التاريخية، وصدق نقولاته، مردها إلى المشاهدات العيانية، إضافة إلى النقولات الشفهية التي كان يتلقاها من شيوخه ومعارفه، وكثيرا من المكاتبات الرسمية كانت تجري بين يديه، وخاصة بعض وثائق الدولة الرسمية المكتوبة، حيث كان مقربا من مراكز الحكم في دول الطوائف، كما كان والده من قبل كاتبا عند المنصور بن أبي عامر.[5]

---

[1] مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس، ص 573.

[2] الذخيرة: 1 2/ص 573

[3] ابن بشكوال: الصلة، ص 139.

[4] الحميدي: الجذوة، ص 176.

[5] ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، 1، ص 241. رقم ترجمة والد أبي حيان 821). وفيه: "خلف بن حسين وهو والد أبي مروان صاحب التاريخ، قرأ القرآن على أبي الحسن الأنطاكي مع أبي مروان الجزيري الوزير وطبقته وأحد من عين الأنطاكي للقراءة يوم زاره الحكم المستنصر بالله، وكتب خلف هذا للمنصور بن أبي عامر وصحبه في مغازيه وكان ماهرا في الحساب بصيرا بالمساحة، محمود الطريقة، توفي سنة 427هـ)" / وينظر حول ذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 70 وما بعدها.

وأما هذه العوامل لم يكن ابن حيان إلا وحرفة التاريخ تلح عليه، وفن التوثيق قد أخذ بمجامع مواهبه، فلجأ إلى هذا الفن والصنيع الذي أجاده وبلغ الغاية في إتقانه.

وقد كان مفسرا للتاريخ محاولا "اكتشاف الأحداث الماضية أو سببها، أي الإجابة عن السؤال: لماذا وقعت حادثة ما؟ أو اتخذت شكلها المعين، بالمعنى الواسع الذي يقصد إليه بتعليل التاريخ"[1]

وكان همّ أبي حيان القرطبي من كل هذه الاستفسارات هو الإجابة عن أسئلة مستعصية، أو معضلة قومه وبلده، وقد حاول طرحها أو الإجابة عليها من خلال مؤلفاته* الآتية:

"المقتبس من أنباء أهل الأندلس"، المتين" وعرف بالتاريخ الكبير، "أخبار الدولة العامرية"، و كتاب "البطشة الكبرى".

هذا بالنسبة لابن حيان، أما ابن حزم وابن عبد البر، فهما مؤرخان من طراز آخر، فقد غلبت عليهما صبغة الفقه والحديث مقارنة بمعاصرهما أبي مروان.

و "من المسلّم به أن المؤرخ في الماضي لم تكن تستقيم له الأدوات في فنه ما لم يكن قد درس الحديث الشريف وبرع فيه لفضل علم الحديث على المؤرخ في تقويم منهجه وتمهيد سبيله"[2]

---

[1] أنور محمود زناتي: ابن حيان القرطبي مؤرخا، ص 184 185.

* وردت هذه المؤلفات بهذه الصيغة أو بصيغة أخرى في المصادر التي ترجمت لابن حيان، وبعض هذه المؤلفات مطبوع والبعض الآخر مفقود.

فكتاب المقتبس من أشمل الكتب في تاريخ الأندلس خلال الثلاثة قرون الأولى من الفتح الإسلامي للأندلس ويغطي الأحداث الممتدة من 93 هـ إلى 366هـ.

أما كتابه "المتين" فقد عرف بالتاريخ الكبير ويشمل عصر ابن حيان كله وقبله بقليل وقد أهداه إلى المأمون يحيى بن ذي النون. / ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 578.

وأما كتابه "أخبار الدولة العامرية "فهو حكم المفقود، وكذلك كتابه "البطشة الكبرى"، وموضوعه هو غدر المعتمد بن عباد واستيلاؤه على قرطبة وبطشه ببني جهور وملوكها ونفيه لهم 462هـ/ 1070م). / ينظر هامش ص 573. 1 2/ من الذخيرة (تعليقات المحقق). / مقدمة مكي للسفر الثالث من كتاب المقتبس لابن حيان./ تعليقات الأستاذ أنور محمود زناتي: ابن حيان القرطبي مؤرخا، ص 70 82.

[2] مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس، ص 353.

وقد ارتبطت "الكتابة التاريخية منذ بدايتها في صدر الإسلام بالعلوم الدينية ارتباطا وثيقا، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية وفي المغازي وفي نسب قريش، وفي الطبقات وفي التراجم لرجال العلم والفقه والحديث"[1]

وقد لاحظنا أن جل مؤرخي الأندلس إما محدثون وفقهاء، بدءً من عبد الملك بن حبيب، وابن الفرضي كان محدثا، وابن حيان الذي درس الحديث على ابن نابل وغيره، وتتلمذ له رئيس المحدثين بقرطبة الغساني الجياني أبو علي، صاحب كتاب "تقييد المهمل وتمييز المشكل".

أما ابن حزم وابن عبد البر فقد فصلنا في نبوغهما في هذا الجانب وذكرنا مؤلفاتهما في ذلك.

ونجد في قرطبة في هذه الفترة نشاطا في الكتابة التاريخية، وأعمالا في التدوين من الواضح" أنها تنتمي للتقاليد الشرقية، ربما أكثرها تلك التي كتبها العالم الشهير أبو عمر بن عبد البر، وقد عدّ ابن حزم كتابه في التراجم، أعنى كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب على الرغم من ضآلة الروايات التي يعطيها أنه يفوق أي مؤلف آخر من النوعية نفسها"[2]

وقد ذكرنا من قبل كتابه "الإنباه عن قبائل الرواة". وله كتاب آخر في هذا الفن مطرزا باسم "الدرر في اختصار المغازي والسير"[3]

ولم يكن ابن عبد البر مؤلفا تاريخيا فحسب، فقد كان راوية لكتب تاريخية شهيرة منها " تاريخ سعيد بن عفير"[4] وكتاب التاريخ المعروف بذيل المذيل لمحمد بن جرير الطبري[5] وكتاب التاريخ لأبي بكر محمد بن علي بن مروان البغدادي في ستة أجزاء.[6]

والميزة التي تميز الكتابة التاريخية في سيرة ابن عبد البر "الدرر في اختصار المغازي والسير" " أن الأسلوب الذي عرض فيه ابن عبد البر سيرة ابن إسحاق، أسلوب متميز فهو لم يكتف بهذه السيرة

---

[1] السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخين العرب، ص 26.

[2] شارل بيلا: أعمال التأريخ في الأندلس، أصلها وتطويرها، ص 189.

[3] ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 332.

[4] ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 228.

[5] المصدر نفسه، ص 227.

[6] المصدر نفسه، ص 229.

بل أضاف لها مغازي موسى بن عقبة 141هـ 758م). ونقل أيضا من مؤلفات الواقدي، وأحمد بن زهير 279هـ 892). وغيرها من المصادر كما أنه أضاف لها مصادر حديثية موثقة عن طريق شيوخه"[1]

أما ابن حزم فله أكثر من مؤلف تاريخي، فابن خير الإشبيلي يحدثنا عن "التاريخ لأحمد بن سعيد، وهو كتاب كبير بلغ فيه الغاية من الإتقان، وهو خمسة وثمانون جزءا"[2]

ورسالته في فضل الأندلس وذكر رجالها[3] هي تاريخ لعلماء الأندلس وفضلائها.

وفي مجموع رسائله ما يفيد بنباهته في هذا المجال؛ فقد كتب رسالته القيمة "نقط العروس في تواريخ الخلفاء"[4] و"رسالة في أمهات الخلفاء"[5] و"رسالة في جمل فتوح الإسلام".[6] وأخرى في أسماء الخلفاء والولاة وذِكر مددهم.[7]

ومن هذه الرسائل كذلك التي كتبها أبو محمد بن حزم في مجال التاريخ "الخلفاء بعده عليه السلام"[8] و رسالة في "ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس"[9]

حتى إنه كتب رسالة صغيرة في "ذكر أوقات الحكام من بني إسرائيل "[10] وأضاف الأستاذ إحسان عباس ملحقا في شذرات من الروايات التاريخية التي أوردها ابن حزم.[11]

---

[1] مجيد خلف منشد: جهود الحافظ ابن عبد البر في دراسة الصحابة، ص 141. والكلام لشوقي ضيف في مقدمته لكتاب الدرر.

[2] الفهرسة: ص 227 478.

[3] المصدر نفسه: ص 226. / مجموع الرسائل، 1 2/ ص 171 188.

[4] مجموع الرسائل: 1 2/ ص 41 116.

[5] المصدر نفسه: ص 119 122.

[6] المصدر نفسه: ص 125 133.

[7] المصدر نفسه: ص 137 157

[8] مجموع الرسائل ، 1 2/ ص 161 167

[9] المصدر نفسه،ص 191 208

[10] المصدر نفسه، ص 209 218

[11] المصدر نفسه،ص 219 230

ويعقد ابن حزم مقارنة بين الصحابة ومن جاء بعدهم في رسالة قيمة نشرت حديثا بعنوان " رسالة في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة ومن جاء بعدهم.[1] أما كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" والنحل" فهو تأريخ مقارن للعقائد والأديان والمذاهب.

وفي هذا الصدد يمكن أن نعد رسالته "طوق الحمامة في الألفة والألاّف" كتابة تاريخية من وجه، فهي تأريخ للحياة الاجتماعية في الأندلس في عصر الطوائف، أو هي نوع من السيرة الذاتية للمؤلف كتبها بطريقة غير مباشرة.

والمتفحص لكتابات ابن حزم التاريخية يجدها تتنزع على محاور مختلفة، فمن سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم – وصحابته من بعده –رضى الله عنهم – إلى تاريخ بني مروان في الأندلس، حيث انتقل من العموم إلى الخصوص أي من عموم تاريخ الإسلام إلى تاريخ الأندلس.

ثم تاريخ بني إسرائيل، حيث ذكر ذلك على سبيل المقارنة، حتى يبين أثر اختلاف الأمم فيما بينها كسبب للتعجيل بانهيارها، ويعزز نظريته تلك برسالة في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة ومن جاء بعدهم، مع إثارته بطريق غير صريح لأزمة الخلافة، وهو نوع آخر من المقارنة بين الدولة الأموية التي وزر لها هو وأبوه من قبل وهي رمز الوحدة الجامعة وبين حكم الطوائف رمز الفرقة والتشتت.

وما يلاحظ على كتابات ابن حزم الأندلسي في مجال السيرة "هو الاختصار والتركيز على أبرز الأحداث والمشاهد"[2] وهو يشترك في هذه الخاصية مع ابن عبد البر حيث استطاعا " تطوير أسلوب خاص للكتابة في السير والمغازي"[3]

والعلة الأساسية لإعادة كتابة السير والمغازي، وخاصة سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، هو النكبة التي أصابت الأندلس فالتمزق السياسي من جهة، وحركة الاسترداد المسيحي من جهة

---

[1] قام بتحقيق هذه الرسالة: ياسر محمد ياسين البدري الحسيني، وقدم لها: عبد الحق تركماني ونشرتها دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1 1433هـ 2012م

[2] مجيد خلف منشد: جهود الحافظ ابن عبد البر في دراسة الصحابة، ص 141.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أخرى؛ لعل الماضي الجميل الحافل بالرجال والبطولات يكون في خدمة الحاضر الأليم، رمز التناحر والتطاحن، الأمر الذي دفع هؤلاء الأعلام إلى " تذكير أهلها بسيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وجهاده مع صحابته وصبرهم وتحملهم الأذى في سبيل إعلاء كلمة الله."[1]

أو تأسيا بالنبي الكريم مؤسس وطن الإسلام ومواطن المسلمين، لعل ما يشفع في التذكير بسيرته حفظ وطن الإسلام وموطن المسلمين في الغرب الإسلامي من الضياع.

"وفي هذا الإطار يدخل مؤلفه عن (جمهرة أنساب العرب) حيث يعكس تأثير السخائم العنصرية فيما آل إليه مصير الأندلس من تشرذم سياسي، وحزازات عصبية"[2]

ويرى الباحث محمود إسماعيل أن اهتمامه بالعنصر العربي خصوصا يشي بموقفه الموالي للخلافة الأموية التي رأى فيها المخلص من التجزئة والفرقة وإعادة الأندلس إلى الوحدة.[3]

وقد عرض ابن حزم في جمهرته كذلك للقبائل العربية، أصولها وفروعها، بطونها وأفخادها. وميز بين أسمائها وما تشابه منها، وربطها بفروعها التي استوطنت الأندلس مع تحديد مواقعها وسكانها في شبه الجزيرة، وهي دراسة مهمة لنمو الجنس العربي وتطوره في الأندلس دون إهمال بقية مكونات الشعب الأندلسي الأخرى كاليهود والبربر والفرس وكذا المولدين.

إذن فالمدرسة التاريخية الحزمية لها رؤيتها في هذا المجال، فقد "واءمت بين الفقه والتاريخ، تأسيسا على حقيقة وحدة المقاصد فإذا كان الفقه تقنينا لمبادئ العدالة نظريا فإن التاريخ يمثل حقل التطبيق العملي لتلك المبادئ النظرية"[4]

بقي أن نشير إلى نقطة أساسية في هذا المجال، وهي الفرق بين الكتابة التاريخية لابن حيان الذي قصرها على الأندلس وحده، وإن اشترك أبو محمد مع ابن عبد البر في تناول بعض النصوص من

---

[1] مجيد خلف منشد: جهود الحافظ ابن عبد البر في دراسة الصحابة، ص 142.

[2] محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث، ص 28.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] محمود إسماعيل: إشكالية المنهج في دراسة التراث، ص 35.

الكتابة التاريخية المشرقية كالسير ونقد الرجال والأنساب، فقد تميز ابن حزم على الحافظ ابن عبد البر بتناوله لقضايا تاريخية أندلسية.

وظهرت التأليفات الموسوعية عند الأندلسيين في هذه الفترة وهو ما يمكن أن نعده ضربا من التدوين التاريخي حتى ولو كانت المادة المدونة غير ذلك.

وهي ظاهرة صاحبت الأزمنة الإسلامية والفترات التي شهدت فيها الدول الإسلامية مرحلة التمزق التي تسبق مرحلة الانهيار أو الأفول، حيث يجنح المؤلفون إلى تدوين العلوم والفنون في كل التخصصات والاستفاضة في ذلك وعزاؤهم هو عظمة الأعلام وضخامة الأعمال، التي تستحث الأجيال المعاصرة لهذه الحقبة، أو التالية لها لإدراك ما يمكن إدراكه، ولتقييد كل المعلومات خوفا عليها من الضياع.

ففي عصور المماليك والأيوبيين والزنكيين، ظهرت موسوعات كبرى مثل المسالك والممالك لابن فضل الله العمري، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني، ولسان العرب لابن منظور ومؤلفات ابن تيمية وابن القيم الجوزية والإمام الذهبي وغيرهم.

ونظرة سريعة على مؤلفات ابن عبر البر مثل الاستذكار والتمهيد، أو مصنفات ابن حزم كالمحلى بالآثار ،أو منتقى الباجي، والبيان والتحصيل لابن رشد الجد، حتى يتأكد الدارس مما نقول.

وأحسبني، وبعد أن قطعت شوطا في تقديم المادة التاريخية في عصر الطوائف أن أشير إلى ظاهرة ميّزت التدوين التاريخي ليس في قرطبة فحسب وإنما في الأندلس جمعاء، وهي فهرسة الشيوخ حيث يقوم كل شيخ أو عالم بسرده موسع بأسماء شيوخه المباشرين، أو أعضاء في السلسلة الإسنادية لأخذ مؤلف معين أو مصنف أو مجموعة مصنفات.

ولا يخفى على الدارس أهمية هذه الفهارس في حفظ أسماء العلماء والشيوخ المسندين وعناوين المصنفات، وطرق انتقالها بين الطلبة والشيوخ، وبين الأماكن والأقطار.

وفي هذا الإطار يذكر ابن خير فهرسة قاضي الجماعة بقرطبة ابن الحاج حيث رواه عنه مباشرة.[1]

وفهرسة الشيخ الفقيه ابن الحذاء التميمي، التي قرئت بعد طول سند على القاضي أبي عمر بن الحذاء في منزله بقرطبة سنة 465هـ)[2] وذكر أبو عمر بن الحذاء في كتاب رجاله الذين لقيهم ابن الضابط الصفاقسي.[3] وفهرسة الشيخ أبي عمرو عثمان بن أبي بكر الصفاقسي والتي انتقلت إلى ابن خير الاشبيلي بطريق الشيخ أبي محمد بن عتاب القرطبي الذي كان في عصر الطوائف.[4]

وكان دور بن عتاب القرطبي هذا في نقل ورواية كثير من المدونات والفهارس والمصنفات.[5] وغير ذلك من الفهارس التي كانت في هذه الحقبة*.

ج -الفلسفة والعلوم الطبية والرياضية:

كانت حضرة قرطبة منبع العلم والدين بالنسبة لكافة الأندلسيين، أما مجالسها فقد كانت عامرة بالعلماء وأعلام الدين، مأهولة الفِناء بالأدباء والشعراء والفقهاء والمحدثين، امتلأت أفنيتها بالمدارس والربط، وكل ما فيها يرغب في العلم والطلب والتحصيل، وكان المنتسبون إلى قرطبة من العلماء والوافدين قد صنعوا في أساليب الفنون والعلوم باسمها، فأتقنوا وجودوا وأحسنوا وتأنقوا، فما يمنع هذه الحاضرة أن تخرج من أصلاب كل هؤلاء الأعلام فلاسفة ومتكلمين وأطباء ورياضيين.

وحينما نجمع الفلسفة والطب والرياضيات والفلك في دفة واحدة، فإن منشأ هذه العلوم كان من رحم واحد، ويندر أن تجد في الأندلس فيلسوفا ليس رياضيا، وفلكيا ليس طبيبا أو موسيقيا فقد وسمت الفلسفة منذ البدء بأنها أم العلوم.

---

[1] الفهرسة: ص 434.

[2] المصدر نفسه، ص 435.

[3] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 327 وما بعدها.

[4] ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 435.

[5] المصدر نفسه: ص 200 201، وانظر كذلك محمد بن شريفة: شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، ص 12

*أنظر الفهارس والأسانيد بشكل عام عند ابن خير في الفهرسة، ص 434 435.

ويلاحظ "أن الفلسفة دخلت هذا القطر بقناع ساتر وبرفقة العلوم التطبيقية كالطب والفلك والرياضيات، أو دخلت متخفية في ثنايا علم الكلام وفكر اتباع الباطنية الذين كانوا يتظاهرون بالنسك والتصوف"[1]

وقبل هذا وجب التذكير بأن الفضاء الحضاري للثقافة الأندلسية متنوع، يجمع بين مكونات مختلفة داخل الثقافة الواحدة، وبين مكونات خارجة عن الإطار المرجعي للثقافة الأندلسية وهو الإسلام.

ولا ننسى أن الشعب الأندلسي مجموعة أخلاط عرقية مختلفة كما ذكرنا سابقا، فقد ضم العرب والبربر واليهود والمسيحيين وغيرها من الشعوب المختلفة المرجعيات والأصول الفكرية والثقافية والدينية.

وكانت قرطبة العاصمة بالذات ملتقى لهذه الأخلاط جميعا، ما جعلها مرفأ لعديد التقاطعات الثقافية والفكرية والحضارية الحاصلة بين هذه المكونات.

أما الاحتكاك الشديد فقد كان السمة الأبرز بين مختلف هذه المكونات الثقافية، وفي هذا الإطار يجري التفاعل بين هذه الأطراف، ومن الطبيعي وفي ظل هذه الأصول والمحاتد جميعا أن تتسرب أفكار هذا الشعب إلى ذاك، وبمفهوم آخر أن تتسرب أوعية الثقافة بمفهومها الواسع والآداب والفنون والعادات والتقاليد والأعراف والقوانين والرؤى والتصورات التي تشكل البنية الفكرية لأية أمة من الأمم، وحاضرة قرطبة لا تبتعد كثيرا عن هذا الطرح وحكمه الله تعالى قد اقتضت هذا الاختلاف، قال تعالى: (**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين**).[2]

غير أن الإسلام قد طغى على هذه المكونات جميعا – وإن احتفظ كل مكون بخصوصيته - وأصبح عنوان الثقافة الأندلسية التي تتحرك وتنمو وتزدهر وتتفاعل في إطاره العام، فهو الذي يحدد نسقها ومجراها، وكانت العربية الأداة الأبرز للتعبير عن مكنونات هذه الثقافة وأسرار هذا الفكر.

([1]) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص529.

([2]) سورة هود: الآية 118.

ولا نعتقد بخلو قرطبة عاصمة الخلافة وقبة الفكر من الدراسات الفكرية ومن جملة المفكرين والفلاسفة في عصر الطوائف أو في غيره من العصور، ولو على نطاق محتشم.

ذكر المقري عن الفلسفة في الأندلس قائلا: " وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، فلذلك تخفى تصانيفه"[1]

ولا يخفي على الدارس المتفحص للتراث الأندلسي زيغ هذا الرأي وبطلانه، فالشواهد والأمثلة تدحضه، وتذهب به كل مذهب، وإن كان المقري قد قصد به العموم.

وكيف تنعدم الفلسفة في عاصمة الخلافة، وملتقى التقاطعات الفكرية، ورافد الفكر الأندلسي، إضافة إلى أنها القناة الرئيسية للعلوم والثقافات، كما أن طبيعة الحياة الفكرية البشرية قد احتاجت لهذا العلم، والشيء المؤكد أنه "كلما خطا الإنسان خطوات في سبيل المدنية اتسعت فجوات الخلاف، حتى تولدت المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة"[2] والفلسفة تقدم اقتراحات وحلولا للمشكلات الإنسانية.

إذن فليس " ثمة شك أن الفلسفة الإسلامية هي التعبير النهائي المتجدد للأمة الإسلامية، والانقداح المنصهر السيال لتطور هذه الأمة الخلاّق خلال الدهور"[3]

وكانت الفلسفة الإسلامية بدء عصر تنويري مبدع نفاذ، إنها أتت بخلق جديد وألقت بتصورات كبرى في تاريخ الفكر الإنساني، وحولت هذا الفكر من طور إلى طور"[4]

وعرفها ابن حزم فقيه ومحدث وفيلسوف عصر الطوائف بقوله:" الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئا غير إصلاح النفس، بأن يستعمل في دينها

([1]) نفح الطيب: ج3، ص186.

([2]) أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، ص7.

([3]) سامي علي النشار: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 1429ه/ 2008م، ج1، ص9.

([4]) المصدر نفسه، ص10.

الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن السياسة والرعية، وهذا نفسه لا غيره، الغرض من الشريعة."[1]

ثم يؤكد ابن حزم دور الفلسفة وأهميتها متسائلا:" أليست الفلسفة بإجماع من الفلاسفة مبينّة للفضائل من الرذائل؟ موقفة على البراهين المفرقة بين الحق والباطل؟"[2]

ويربط صاعد الأندلسي وجود الفلسفة في الأندلس بوجود دولة بني أمية على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية حيث يقول:" وأما الأندلس فكان فيها أيضا بعد تغلب بني أمية عليها جماعة عنيت بطلب الفلسفة، ونالت أجزاء كثيرة منها، وكانت الأندلس قبل ذلك في الزمان القديم خالية من العلم، لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به إلا أنه يوجد فيها طلسمات قديمة في مواضيع مختلفة."[3]

إذن فتاريخ الفلسفة في الأندلس حسب صاعد يبدأ مع ظهور الإسلام وبالتحديد مع دولة بني أمية.

وكان نشوء الحركة الفلسفية في الأندلس في القرن الثالث الهجري، أي في عصر الإمارة ، وقد ذكرنا ذلك في مبحث الحياة العلمية في عصري الإمارة والخلافة إجمالا.

ثم قويت هذه الحركة ونشطت مع الخليفة الحكم المستنصر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، الذي كان صاحب مكتبة عظيمة حوت من كل أصناف العلوم والمعارف والفنون، وكانت هذه المكتبة فيما بعد سببا في انتشار هذه العلوم في قرطبة كلها وفي الأندلس جمعاء

وهذا ابن أبي أصيبعة يقول في ترجمته الفيلسوف الأندلسي ابن باجة:" إن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكم مستجلبها ومتسجلب غرائب ما صنف بالمشرق"[4]

ولا شك أن الفلسفة الأندلسية في هذه الفترة كانت مغلفة بالدين؛ ومعنى ذلك أنها ارتبطت بحركة الاعتزال وعلم الكلام وبعض عقائد الشيعة من الباطنية وغيرها.

([1]) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص113.

([2]) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص113.

([3]) طبقات الأمم، (تحقيق مؤنس)، ص84.

([4]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص515.

وهي اختلافات فكرية وجوهرية بين الفرق الإسلامية، التي عرضت للمسائل العقدية الكبرى مثل القضاء والقدر والإرادة والاختيار والجبر، والنبوة والألوهية، ومشكلة الخلافة والإمامة وهي مسائل طرحت في الأصل في بيئتها الأولى في المشرق.

ولا مناص من وجود هذه الاختلافات الفكرية في الأصول والفروع، بغض النظر عن صواب رأي أي فريق من أصحاب النحل والملل المختلفة. وفي كتاب الله تعالى ما يشير إلى وجود هذه الاختلافات بين المسلمين، يقول الله تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.)[1]

وبغض النظر عن الاختلافات الجوهرية، "فكثيرا ما يكون الاختلاف لا لغموض الموضوع في ذاته، بل يكون لأن كلا المختلفين لم يعرف وجهة نظر الآخر."[2]

وقد ذكرنا أمثلة عن هؤلاء مثل خليل الغفلة الذي كان يعلن بالاستطاعة مشهورا بالقدر لا يتستر به.[3] ويذكر عن خليل الغفلة هذا أنه روى "التفسير" المنسوب للحسن البصري من طريق عمرو بن فائد البصري المعتزلي، وهو كذلك من القائلين بالقدر، وقد تتلمذ بن فائد على أحد رؤوس الاعتزال، بل أحد مؤسسي فرقة المعتزلة وهو عمرو بن عبيد (144هـ) فلا غرو أنه تأثر بالأفكار الاعتزالية أثناء إقامته بالعراق قبل عودته إلى قرطبة أين صرّح بذلك.

ومثله يحيى بن السمينة (315هـ/927م) الذي كان نافذا في معاني الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب ورحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة، ومذهب المتكلمين وكان يعلن بالاستطاعة"[4]

ومن أقدم رؤوس الاعتزال في قرطبة والأندلس، عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى (ت261هـ/ أو 262هـ) فقد كان ينسب إلى القدر، وكان قد طالع كتب المعتزلة ونظر المتكلمين وكان يقول

([1]) سورة البقرة: الآية، ص213.

([2]) أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، ص8.

([3]) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص120.

([4]) المصدر نفسه: ص438، 439./ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص482.

بفناء الأرواح[1] ومعلوم أن فناء الأرواح مصطلح اعتزالي كان يقول به أبو الهذيل العلاّف (ت226هـ /840م) أحد رؤوس الاعتزال.

ويذكر كذلك أن الأفكار الاعتزالية دخلت مع تلاميذ الجاحظ من الأندلسيين الذين أخذوا عنه أو أدخلوا كتبه، فقد دخلت مؤلفات أبي عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ/868م) في هذه الفترة عن طريق أبي بكر فرج بن سلاّم.[2]

إذن فمن حلال الاحتكاك الثقافي والفكري بين الأندلس والمشرق وخاصة الحواضر العراقية مثل بغداد والكوفة والبصرة، بدأت الأفكار الاعتزالية والمذاهب الكلامية والعقلية التي ظهرت في البيئة العراقية تتسرب تدريجيا إلى الأندلس، وإلى قرطبة بالذات.

ولكن "مذهب المعتزلة الذي تسرب إلى قرطبة لم يأخذ طريقه مباشرة إلى عامة الناس وإنما ظل تأثيره محدودا ومقصورا على عدد قليل من المثقفين، ويرجع السبب في ذلك إلى تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المالكي جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية نظرة تتشدد"[3]

وقد اعترف ابن حزم الأندلسي بذلك في قوله: "وأما علم الكلام فإنّ بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب، فهي على كل حال غير عريه عنه، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال نظّار على أصوله ولهم فيه تواليف."[4]

إذن فلا يستقيم الحديث عن الفكر والفلسفة والتيارات الفكرية عموما، وحتى في "ميادين الفقه وأصول الفقه والجدل الكلامي في الغرب الإسلامي إلا من خلال ربطها بأمثالها في المشرق الإسلامي، إذ أن جل الفاعلين في الحياة الفقهية والفكرية في الغرب الإسلامي نهلوا مبادئ أفكارهم من المشرق أو تتلمذوا عمن درسوا هناك"[5]

([1]) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص228، 229.

([2]) المصدر نفسه، ص276. رقم (1037).

([3])طه عبد المقصود أبو عبية: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، ج2، ص618.

([4])مجموع الرسائل، م1/2/ ص186. / المقري: نفح الطيب، ج3، ص176.

([5]) بناصر البعزاتي: مآل علم الكلام عند ابن حزم والباجي، ضمن كتاب: الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات. رقم (118)، ط1، 2005، ص170.

وقد فصلنا القول في التواصل الثقافي بين الأندلس والمشرق بمختلف حواضره وخاصة الحواضر العراقية التي كان لها دور كبير تشكيل المناخ الفكري للأندلس.

" ولم يعد الإيمان بالدين الإسلامي ساذجا عاطفيا، أو بسيطا يعتمد على التقليد، بل أصبحت تهب عليه رياح جديدة من العقلنة والتفكير بحيث أصبحنا نلاحظ في الأندلس القناعات الفكرية، ورواج وشيوع الآراء."[1]

وحتى فقهاء المالكية في الأندلس ورغم ما وصفوا به من تشدد حيال المذاهب الفقهية الأخرى، فضلا عن المذاهب الفلسفية والآراء الكلامية، فقد لعبوا دورا كبيرا في تشكيل الأرضية الخصبة للفكر الأندلسي عن طريق المحاورات والمناظرات وخاصة في القرن الخامس الهجري، بتأثير من مالكية المشرق الذين "لم يتأخروا في التعامل إيجابيا مع المناظرة الكلامية، كما مثّل ذلك أبو بكر الباقلاني الذي إليه يرجع الفضل في تكوين بعض تلامذته في الغرب الإسلامي."[2] سواء المغاربة أو الأندلسيين.

وسوف " يمثل الباقلاني ما يمكننا تسميته بالمسند المذهبي المالكي الذي يتكئ عليه المغاربة للدفاع عن مشروعية الممارسة المالكية."[3]

وبالتالي ينبغي التنبيه على تلك الصورة المغلوطة التي ألصقت عرضا بمالكية الأندلس من تعصبهم الأعمى للمذهب المالكي على ما سواه من المذاهب الأخرى، وحينما يذكر المقدسي المشرقي عن أهل الأندلس قائلا:" وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، فإن ظهروا على شافعي أو حنفي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه."[4] فإن قوله هذا يحمل مغالطة كبيرة، ونوعا من الصورة النمطية المتداولة عن فقهاء الأندلس.

---

(1) محمد آيت حمو: علم الكلام في الغرب الإسلامي بين الاقتباس والخصوصية، ضمن كتاب: الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، ص55.

(2) عبد المجيد الصغير: في الحاجة إلى تاريخ نقدي لعلم الكلام بالمغرب، ضمن كتاب " الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، ص19.

(3) المصدر نفسه، ص20.

(4) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، ص219.

فقد دخل أبو الطيب محمد بن أحمد بن إبراهيم بن بردة الشافعي البغدادي الأندلس سنة (361ه).وكان معاصرا للمقدسي الرحالة، واستقبله الحكم المستنصر بحفاوة كبيرة، وقضى في قرطبة زهاء اثنتي عشرة سنة، قبل أن يبعده الحَكَم سنة (373هـ/ 983) لما علم أنه من المعتزلة. وقد توفي أبو الطيب هذا في الجزائر وبالضبط في مدينة تيهرت.[1]

وكان القاضي منذر بن سعيد اللوطي يميل في مذهب النّظار والاحتجاج وترك التقليد، عالما باختلاف العلماء، بصيرا بالجدل منصرفا إلى مذهب أهل الكلام، لهجا بالاحتجاج، وكان ظاهريا يميل إلى رأي داود بن علي بن خلف العباسي ويحتج له.[2]

وقال القاضي منذر منتقد فقهاء عصره.

- عذيري من قوم إذا ما سألتهم ❖❖❖ دليلا يقولوا هكذا قال مالكُ
- فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ❖❖❖ وقد كان لا تخفى عليه المسالكُ
- فإن قلت قال اللّه ضجوا وأعوَلوا ❖❖❖ علي وقالوا أنت خصم مماحكُ[3]

ونحن ذكرنا القاضي منذر بن سعيد البلوطي (355هـ) الذي عينه الخليفة عبد الرحمن الناصر قاضيا للجماعة بقرطبة مع ما يعينه هذا المنصب من الناحيتين السياسية والدينية، وبقي كذلك حتى شهد خمس سنوات من حكم ابنه الحكم الثاني المستنصر، وعلى الرغم من إعلانه تقلد المذهب الظاهري بشكل صريح إلا أنه لم يزحزح عن منصبه.

وفي هذه الفترة ما يشير إلى وجود مناخ فكري متنوع، إضافة إلى اختلاف العقائد مع تنوع الأخلاط العرقية، وحتى الإلحاد كان موجودا في هذه الفترة ففي عهد الحكم المستنصر كان رجلا زنديقا ملحدا يسمى أبا الخير شهد عليه أربعة وأربعون شاهدا بصنوف من الكفر وأنواع من

---

(1) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص384، 385. رقم (1403).

(2) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص404، 405. / وينظر المقري: أزهار الرياض (الطبعة المغربية)، ج2، ص294 وما بعدها.

(3) الحميري: الروض المعطار، ص95، 96.

الإلحاد فأفتى القاضي منذر بن سعيد وصاحب الصلاة أحمد بن مطرف بقتله، فأمر الحكم بصلبه.[1]

ولكن أعظم فيلسوف أنجبته قرطبة في هذه الفترة هو محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (269هـ /883 -318هـ /931). قال فيه بالانثيا إنه حامل لواء " الأفلاطونية الحديثة"[2]

فأثناء رحلته إلى المشرق كان ابن مسرة قد خضع لتأثير من سوف يشكلون "إخوان الصفا" في المستقبل، ويؤلفون إينسيكلوبيديا شعبية حددّ صدقها على النحو التالي "تأليف كافة العلوم مع الدين.[3]

وقد خلط ابن مسرة بعض عقائد الشيعة الباطنية وأفكار أخرى "فالقاسم المشترك لجميع التجارب الفلسفية التي بنى ابن مسرة فكره الخاص انطلاقا منها النسك، سواء أكان المقصود منه ميراث بريسلليان أو البصرة وبغداد أو تركة مصر "[4]

هذا ورغم محاولة بعض الباحثين* الزج بفلسفة ابن مسرة وإرجاعها إلى بعض الآراء الفلسفية الإغريقية، إلا أن الفلسفة المسرية لها منبتها الإسلامي الخاص بها رغم محاولة تطعيمها ببعض آراء الباطنية وفلسفات أخرى.

ومن الخطأ كما يقول بعض الباحثين أن الفلسفات تتشابه في جوهر مذاهبها إنها تختلف طبقا للانبعاث الداخلي والخارجي للأمم.[5]

---

(1) الونشريسي: المعيار المعرب، ج2، ص331، 332.

(2) تاريخ الفكر الأندلسي: ص371.

(3) روجيه غارودي: الإسلام في الغرب، قرطبة عاصمة العالم والفكر، ص58.

(4) المصدر نفسه: ص60.

* راجع المصدر نفسه: الفصل الذي كتبه روجيه غارودي، ص49 -65./بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص371 -377. / وراجع الفصل الذي كتبه عنه المستشرق هنري كوربان في كتابه: تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد (1198). ترجمة: نصير مروة، حسن قبيسي ، راجعه وقدم له: الإمام موسى الصدر، الأمير عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1983، ص323 -335.

(5) سامي علي النشار: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص9.

إن رعاية أمراء بني أمية أنفسهم لزعماء الحركة التجديدية الدينية في الأندلس ليحمل أكثر من معنى، فهي تعبير عن نيتهم الوطيدة في إبراز الشخصية الأندلسية المتميزة ثقافيا، وهذا ما سيتوّج مع عبد الرحمن الناصر الذي وضع الركائز الأولى لاستراتيجية العمل الثقافي الكفيلة ببناء المشروع الثقافي في الدولة الأموية، وهو سيظهر مع ابن حزم وظاهريته"[1]

فالأمويون قد حققوا لأنفسهم الاستمرار على المستوى الفكري عن طريق استعادة الأيديولوجيا نفسها التي كانت لدولتهم في المشرق.[2]

وفي قرطبة بني جهور في عصر الطوائف استمر ظهور المتكلمين وكان منهم من شهر بذلك، مثل يحي بن عبد الملك بن قيس (ت436ه)، القرطبي وكان متكلما حاذقا، متبحرا، ما يعلم بالأندلس – في وقته – أبصر منه بالكلام والجدل ونحو ذلك.[3]

ومثله عبد الوهاب بن منذر القرطبي (ت436ه) أبو عاصم كان قد نظر في شيء من علم الكلام، فاتهم بالاعتزال، ونسب إلى مذهب ابن مسرة الجبلي وانصرف عنه الفقهاء فتكلموا فيه.[4]

وكان يحي بن عبد الملك، وعبد الوهاب بن منذر قد عاصر سعيد بن منذر بن سعيد (ت406ه) الذي توفي قبلها، وقد قال ابن حزم عن أخيه حكم: " هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم، وكان أخوه عبد الملك بن منذر متهما بهذا المذهب أيضا"[5]

---

(1) سالم يفوت: المناخ الفكري بالأندلس ودور المالكية في تشكيله، ضمن كتاب: الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، ص84، 85.

(2) محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص87.

(3) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص513. رقم (1470). / ابن الزبير الغرناطي: صلة الصلة، ص320. رقم (930). / الضبي: البغية، ص440. رقم (1484).

(4) ابن بشكوال: الصلة، ص306. رقم (815). /ابن الزبير: صلة الصلة، ص166. رقم (479).

(5) ابن حزم: مجموع الرسائل م1/1/ ص157.

وأشهر الشخصيات الظاهرية في هذه الفترة، أبو الخيار مسعود بن مفلت الشنتريني القرطبي (ت426هـ) أحد شيوخ ابن حزم وكان فقيها عالما زاهدا يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر"[1]

وكان أستاذ ابن حزم الآخر في الفلسفة محمد بن الحسن المذحجي الذي يقول فيه: " وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن، فائقة الجودة عظيمة المنفعة"[2]

وكان أثر المدرسة العراقية كبيرا على أعلام الأندلس في هذه الفترة، وخاصة من المرتحلين إليها، ففي القرنين الرابع والخامس الهجريين "نضج علم أصول الفقه من خلال الصراع المذهبي والعقائدي نضوجا كبيرا، واتسع اتساعا لا مزيد عنه عند جميع الفرق، وكان عمل اللاحقين بعد هذه الفترة هو الترتيب والتنظيم، والتحسين والتجميل وأئمته الكبار المبدعون كانوا في هذا القرن"[3]

والمدرسة العراقية التي أثرت في الأندلسيين كانت بفرعيها: الشافعية والمالكية. فمن فقهاء الشافعية الكبار في هذه الفترة الخطيب البغدادي (ت463هـ/1071م)، وأبو إسحاق الشيرازي (476هـ /1083م)، وأبو المعالي الجويني (478هـ /1085م) إمام الحرمين، والفقيه ابن حمامة (434هـ/1043م)، وأبو الطيب الطبري (450هـ/ 1058) وغيرهم من الأعلام.

أما المدرسة المالكية فقد كانت تضم أعلاما بارزين كذلك مثل أبي ذر الهروي (ت435هـ/1043م)، ورغم أنه استوطن مكة كثيرا، إلا أنه في أصله وتكوينه عراقي، وكذا أستاذيه أبي بكر الأبهري (375هـ/985م) وأبي الحسن بن القصار (ت397هـ/1007م). ومن

---

(1) الحميدي: الجذوة، ص316. رقم (814). / الضبّي: البغية، ص408. رقم (1361). وقال فيه ابن حيان "كان داودي المذهب لا يرى التقليد" / ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية). م2/2/ ص226، 227. رقم (1365). / ذكره ابن حزم في رسالته "التخليص لوجوه التلخيص" وأثنى عليه، ينظر مجموع الرسائل م1/2/ ص144.

(2) مجموع الرسائل: م1/2/ ص185. / المقري: النفح، ج3، ص175.

(3) فاروق حمادة: أبحاث مالكية مغربية، ص206.

مشهوريهم كذلك أبو الفضل بن عمروس (ت452هـ/1060م) وأبو بكر الباقلاني (ت403هـ/1013م) والقاضي الشهير عبد الوهاب البغدادي (ت422هـ/1031م).

فعن طريق هؤلاء الأعلام دخلت طرائق الجدل والحجاج إلى الأندلس بفضل تلاميذهم المباشرين أو غير المباشرين، حيث كان أعلام العراق جدالين نظارين.

وحينما نقول دخلت طرائف الجدل والحجاج إلى الأندلس فالمقصود بذلك أن فن الجدل قد استكمل حلقته الفكرية عند الأندلسيين في القرن الخامس، وإلا فهو موجود من قبل.

وإذا كان فقهاء الشافعية عراقيين كانوا أو أندلسيين أصوليين ونظارين، فإن علماء المالكية الذين جانبوا هذا الطريق، قد سلكوه مرغمين في هذه الفترة، كي يدافعوا وينافحوا عن أصول مذهبهم أمام فقهاء نظارين من المذاهب الأخرى.

وأبو الوليد الباجي الفقيه الأندلسي المالكي خير مثال على ذلك فقد كان " يسيطر وحده تقريبا على الحياة الفكرية في بلده، فلقد برز بين مواطنيه الذين ظلوا أوفياء لهذا التراث من الفقه والتأليف في الإجراءات"[1]

كل هذا أثر في البناء الفكري والمنهجي لفقهاء الأندلس وعلمائها، وشكل مناخا فكريا عظيما لأندلس الطوائف، حتى إن بعض الفقهاء في هذه الفترة قد تحول عن المذهب الفقهي الذي يعتنقه بتأثير أعلام المدرسة العراقية.

وفي هذا الإطار يذكر عن الفقيه العبدري علي بن سعيد (ت493هـ/1100م) في رحلته إلى المشرق وحجه ودخوله بغداد، أنه قد ترك مذهب ابن حزم وتفقه عند أبي بكر الشاشي إمام الشافعية ما وراء النهر والذي كان معتزليا في البداية ثم صار أشعريا.[2]

---

(1) عبد المجدي تركي: مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم والباجي، ص67.

(2) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج3، ص200 وما بعدها. ج5، ص257، 258 (وفيهما ترجمة الفقهيين معا).

والحديث عن الفلسفة في عصر ملوك الطوائف بالأندلس وفي قرطبة بالذات، لا يستقيم له معنى ولا يطرد له سياق دون التعريج على " شخصية متشابكة النشاطات وتتجلى مظاهر هذا التشابك في آثارها، تلك هي شخصية ابن حزم"[1]

فقد مر بنا فقيها ومحدثا وأصوليا ومؤرخا. وهو إضافة إلى ذلك "تارة شاعر، وطورا مفكر لاهوتي، ومؤرخ ناقد للمذاهب الدينية والمدارس الفلسفية واللاهوتية، كما أنه يبحث في الأخلاقيات والتشريع"[2]

لقد وصفه معاصره ومواطنه ابن حيان القرطبي قائلا: " كان أبو محمد حامل فنون من حديث... مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة"[3]

ويرى ابن حزم في فضل تعلم المنطق الضرورة عند كل عاقل فيقول:" إن هذا العلم مستقر في نفس كل ذي لب، فالذهن الذكي واصل بما مكنه الله – تعالى فيه -من سعة الفهم، إلى فوائد هذا العلم، والجاهل متسكع كالأعمى حتى ينبه عليه وهكذا سائر العلوم"[4]

ويرى ابن حزم أن كتب المنطق "كالدواء القوي، إن تناوله ذو الصحة المستحكمة والطبيعة السالمة، والتركيب الوثيق، والمزاج الجيد، انتفع به وصفىّ بنيته وأذهب أخلاطه، وقوّى حواسه، وعدّل كيفياته، وإن تناوله العليل المضطرب المزاج، الواهي التركيب أتى عليه وزاده بلاء وربما أهلكه وقتله"[5]

إذن فهو يرى تعلم المنطق بالنسبة لكل مسلم عاقل، حتى يستفيد بهذا العلم الجليل، ويحرص في كل هذا على "ربط المنطق بالشريعة ربطا محكما لازما فيقرر مبدئيا أن منفعته إن تخطت علما

---

(1) هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص336.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ ص167.

(4) التقريب لحد المنطق (تحقيق تركماني)، ص312. / ابن حزم: مجموع الرسائل، م2/2/ ص94.

(5) المصدران السابقان على التوالي، ص321./ م2/2/ ص101

واحدا فشملت كل علم، فقد أصبحت أكيدة لكتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وللفتيا في الحلال والحرام"[1]

وحينما تصدى ابن حزم لدراسة المنطق، تلقى خصومة عنيفة من قبل فقهاء عصره، نقصد بهم المالكية خصوصا فألف في ذلك كتابه الشهير" التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية"[2]

وكان غرضه من كل ذلك هو الرد على حملة الفقهاء الشعواء وإبراز "ارتكاز الشريعة إلى أصول منطقية"[3]

والظاهر أن الخصومة كانت مستشرية بين أهل الفلسفة والمنطق وخصومهم من الفقهاء وأهل الحديث والمعركة محتدمة، وهذا دليل آخر على وجود التيارات الفكرية المختلفة في هذه الفترة وابن حزم نفسه قسم أهل عصره من حيث نظرهم إلى كتب الأوائل أربعة أقسام[4]:

أ/ فريق حكموا على تلك الكتب بأنها محتوية على الكفر وناصرة للإلحاد دون أن يقفوا على معانيها أو يطالعوها.

ب/ قوم يعدون تلك الكتب هذيانا وهذرا وهؤلاء يحتاجون من يفهمهم أنهم على خطأ.

ج/ قوم قرؤوا هذه الكتب بعقول مدخولة وأهواء مؤوفة وبصائر غير سليمة، ولا بد من هدايتهم إلى وجه حق.

د/ قوم نظروا بأذهان صافية، وأفكار نقية من الميل فاستناروا بتلك الكتب ووقفوا على أغراضها.

---

(1) عبد المجدي تركي: موقف ابن حزم الأصولي من منطق أرسطو، ضمن كتابه: قضايا ثقافية من الغرب الإسلامي، ص201.

(2) ينظر مجموع الرسائل م2/2/ 29 -48.

(3) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص63

(4) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص64. والفكرة في رسالته "التقريب لحد المنطق" (تحقيق تركماني)، ص317 -319. / مجموع الرسائل: م2/2/ 98 -100.

وله نظرات فلسفية حول الاستدلال في رسالته القيمة "البيان عن حقيقة الإيمان"[1] وإتماما للاتجاه الفكري الفلسفي لدى ابن حزم يحسن أن يرجع الدارس إلى رسالته في (مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق) ففيها مسحة فلسفية تخالط نظراته النفسية العميقة، وفيها دعوة إلى العزلة، تعد إرهاصا بنظرات ابن باجة في التوحّد رغم المعايشة[2]

ويبدو أن ابن حزم قد كتب رسالته هذه في أخريات عمره، ها هو يقول في مدخلها: " فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الأيام وتعاقب الأحوال، بما منحني –عز وجل – من التهمم بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري"[3]

ويمكن أن ندرج هذا الكتاب ضمن ما يسمى "المذكرات الشخصية" فيذكر فيه المؤلف ملاحظاته وتأملاته وآرائه في الناس والحياة... وهو كتاب يفصح بشكل مفصل عن حياة الإنسان والمجتمع الأندلسي في غضون القرن الخامس للهجرة.[4]

والحكم التي يوردها ابن حزم في هذه الرسالة تنمّ عن دربة كبير وخبرة بالحياة البشرية وهي في اعتقادنا دراسة عميقة في النفس والحياة، وإذا كانت "لابن حزم نظرات اجتماعية صادقة أو فلسفة أخلاقية موضحة الحدود فلا بد أن تدرس هذه النواحي عنده في ظل فكرته الدينية"[5]

أما فلسفة الحب التي حاول ابن حزم تفتيتها، وإبراز وجهة نظره الخاصة من خلال مؤلفه القيم "طوق الحمامة في الألفة والألاّف" والذي عارض به كتاب "الزهرة" لداود الأصبهاني، فقد كشف فيه عن عمق نظرته اتجاه هذا الموضوع الشائك، وإن كان تركيزه منصبا على تشريح المجتمع الأندلسي وإعطاء أمثلة عن واقعه.

---

(1) مجموع الرسائل: م2/1/ ص185 -203.

(2) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص64.

(3) كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة وتهذيب الأخلاق والزهد والرذائل (تحقيق: إيفا رياض)، ص73. / وانظر مجموع الرسائل، م1/1/ ص333. وفي مجموع الرسائل ورد عنوانها كالآتي "رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل". م1/ 1/ ص321 -415.

(4) هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص339.

(5) إحسان عباس: مقدمة رسالة مداواة النفوس. / مجموع الرسائل، م1/1/ ص330.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن ابن حزم في كتابه "طوق اليمامة" في عداد أتباع الأفلاطونية في الإسلام، وقد اشتهر ممن سبقوه إلى ذلك، محمد بن داود الأصبهاني (297هـ/909م) إلى مؤلفه القيم كتاب الزهرة، ولعل ابن حزم قد اطلع على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة قصر شاطبة.[1]

كما يرى الباحث نفسه أن التحليل يعطيه ابن حزم، بشأن السبب الذي غالبا ما يعود إليه تفتح الحب، يذكرنا بشكل واضح بمحاورة أفلاطون لوفيدر (Le phédre)[2]

ولكن أعظم مشروع قدمه ابن حزم إلى الفلسفة الأندلسية والإسلامية بشكل عام، هو الظاهرية، أو المذهب الظاهري.

فهو يحاول "عبر أدواته العلمية المستمدة من منجزات العلوم الإسلامية (النحو، البلاغة، اللغة) والعلوم الإغريقية المترجمة (المنطق، الفلسفة) الإسهام في تأسيس علم مستقل في موضوعه ومنهجه وأدواته، وفق رؤية أصولية اتخذت لنفسها تسمية أهل الظاهر تمييزا لنفسها في الرؤى الأخرى التي أنتجت أدواتها المختلفة التي تتسق مع رؤيتها الأصولية"[3]

إن القراءة المتصفحة للبنية العميقة للمذهب الظاهري، تجعل الباحث يدرك أنه بإزاء مشروع حزمي فقهي وفلسفي، كان "بمثابة إعلان عن المشروع الأيدولوجيي الذي يختمر في الأندلس ليكون السلاح النظري الذي تواجه به الدولة الأموية هناك خصميها التاريخيين، الفاطميين في مصر، والعباسيين في بغداد"[4]

---

(1) هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص337.

(2) المصدر نسفه، ص338.

(3) علي أحمد الديري: طوق الخطاب، دراسة في ظاهرية ابن حزم، مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة للثقافة والبحوث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص16، 17.

(4) محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص88.

هذا المشروع "سيغدو أساسا للثقافة الأندلسية بمختلف فروعها، مما سيعطي للفكر العربي في الأندلس خصوصية متميزة، إنه المشروع الرشدي هو الذي كانت ظاهرية ابن حزم حبلي به ومتعلقة بكل مضامينه العقلانية والنقدية".[1]

وقد يتساءل الباحث عن أية دولة أموية نتحدث، ونحن في عصر الطوائف؟ أما ابن حزم فقد عاش في أزهى فترة في الخلافة الأموية، ثم شهد انحدارها، وحتى أفولها، وقيام ممالك الطوائف، وقد سبق وذكرنا بأن أبا محمد يريد إحياء الوحدة الجامعة للأندلس تحت راية الأمويين الذين حكموا شبه جزيرة أيبيريا أكثر من ثلاثة قرون كاملة.

ولن يتم لابن حزم ذلك إلا عن طريق اتخاذ المعارف التي كان يحوزها سلاحا نظريا، جسد فيه البعد الحضاري والثقافي والفكري والاجتماعي للأندلس، أو بالأحرى هي "محاولة لتجسيد الشخصانية الأندلسية التي حاول ابن حزم استعادة ملامحها بعد أن تعرضت للمسخ والتشويه في عصر الفتنة وملوك الطوائف"[2]

والجدير بالذكر في هذا المقام شيوع المناظرات الفقهية والسجالات الفكرية في الأندلس في هذه الفترة " فقد توزعت مفاخرات الأندلسيين ومناظراتهم على محورين كبيرين:

الأول: يتناول قضايا فكرية على جانب كبير من الخطورة في حياة الأندلس انتماءًا وتاريخا ثقافيا وعلميا، والثاني يمثل طفرة نوعية في مسار نضج النثر، حيث لم يكتف بوصف الأشياء والحديث عنها، بل يصبح لسانها الذي تتحدث به، وتتفاخر وتتباهى من خلاله"[3]

أما الأدب فقد ألحقناه عرضا بالفلسفة التي أثرت فيه عن طريق أدواتها الحوارية والسجالية ولم يكن هذا النوع معروفا من قبل في الأندلس، حيث "تهذبت الفنون وبدأت الحكمة تدخل في الشعر وزادت دقة التفكير"[4]

---

(1) المصدر نفسه: ص90.

(2) محمود إسماعيل: إشكالية المنهاج في دراسة التراث، ص28.

(3) أيمن محمد ميدان: دراسات في الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004م، ص76.

(4) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص299.

وقد كان الحِجَاج من الأدوات الأساسية للمناظرات في المجال الفقهي والأصولي والفكري.

وقد بين أبو الوليد الباجي مكانه هذا الفن قائلا: " وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم."[1]

وعقد فقهاؤهم فصولا عديدة من مؤلفاتهم للتعرف بالمناظرة وآدابها وما ينبغي أن يكون من سلوك المتناظرين، ومختلف القواعد والشروط المتعلقة بذلك.[2]

أما طبيعة المناظرات الفقهية والدينية والسجالات الفكرية التي كانت تجري بين علماء الأندلس، فقد كانت بينهم في مناوئة خصومهم من أصحاب المذاهب الدينية والفكرية.

ولا يشترط تقابل المتناظرين حتى تقرع الحجج وتتأتى البراهين، فقد تكون الردود والسجالات قد طرحت قبل عصر المتناظرين، فقد ألف أبو عمر الطلمنكي (ت429هـ) كتابا في الرد على ابن مسرة القرطبي.[3]

وألف زياد بن عبد العزيز بن أحمد بن زياد الجذامي الأديب الشاعر (كان حيا سنة 430ه) مصنفات في الاعتقادات، وله كتاب (منار السراج في الرد على القبّري)، كما رد على القاضي منذر بن سعيد البلوطي بأرجوزة مطولة نقص فيها مذهبه.[4]

وعرف عن الفقيه القرطبي ابن بلاط، أحمد بن سعيد (441هـ) أنه مناظر بارع في الفقه وكان فهما يقظا شديد العارضة، وقد حمل قطعة من العلم.[5]

---

(1) المنهاج في ترتيب الحِجاج ومعه السراج على المنهاج لأبي عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1425ه /2004م، ص15.

(2) المصدر نفسه: ص17 وما بعدها.

(3) مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص168.

(4) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص164. رقم (431). / البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص376.

(5) ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص24. رقم (54)

ومناظرة ابن حزم الأندلسي مع أبي الوليد الباجي، أشهر المناظرات التي جرت بين عالمين مسلمين في الأندلس.

ويحدثنا ابن الأبار القضاعي عن مناظرة أخرى جرت بين ابن حزم وأبي الوليد بن بارله من أهل ميورقة، وكان فقيها على مذهب مالك ومن أحفظ أقرانه للمسائل وأفهمهم لها، ولما دخل ابن حزم جزيرة ميورقة بعد الثلاثين وأربعمائة ونشر فيها علمه. دارت فيما بينه وبين أبي الوليد مناظرة زلّ فيها وعظم ابن حزم عليه القول، وكان ذلك في مجلس أبي العباس أحمد بن رشيق وبمحضره.[1]

ومناظرة الأندلسيين لبعضهم البعض أمام الملوك والأمراء وعليه القوم ليست جديدة أو وليدة عصر الطوائف، فالمقدسي يحدثنا عن فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوما بين يدي الأمير هشام.[2]

ومع الزمن تعدى الجدل أهل المذاهب الإسلامية وأصبح يقوم بين علماء المسلمين ورجال الدين من الملل الأخرى.[3] ومن أمثلة ذلك رسالة الراهب الإفرنجي إلى المقتدر بن هود ملك سرقسطة والتي دعاه فيها إلى الدخول إلى المسيحية، وقد انبرى الباجي في الرد عليها.[4]

وردود ابن حزم الأندلسي مشهورة في ذلك، بل إنها تكاد تربي على الردود المعروفة في هذا المجال، حيث انتقد القياس الذي أفرط الفقهاء الشافعية في استخدامه، وطورًا ينتقد آراء السوفسطائية.[5]

وله رسالة قيمة في الرد على الكندي الفيلسوف.[6] وردوده العامة في كتابة "الفصل في الملل والأهواء والنحل" تشهد له بطول باعه في هذا المجال. وهو صاحب أسلوب مميز ، من حيث دحض

---

(1) المصدر نفسه: ج4، ص154، 155. رقم (450)

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص220.

(3) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص31.

(4) حققها وعلق عليها عبد المجيد تركي في كتابه (قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي) نصوص ودراسات، ص11 -52.

(5) الفصل: ج1، ص18، 19.

(6) مجموع الرسائل: م2/2/ ص361 -403.

شبه وأغاليط المذاهب الدينية من الملل الأخرى، محاولا تبيان زيغ وزيف آراءهم، مبينا تناقض نصوصهم المحرفة للكتاب المقدس.

" وينفرد ابن حزم بكونه شاملا في الرد، فقد يورد الروايات التي تصادم مقررات العلوم المختلفة من الحساب والهندسة والجغرافية والحيوان والمعادن، وهذا الأسلوب لم يطرقه أحد من العلماء القدامى، وقد فتح بذلك الباب لعلماء العصر الحديث لنقد نصوص (الكتاب المقدس) وفق هذا المنهج البديع"[1]

وقد استفاد من هذا المنهج كل الأندلسيين الذين جاءوا بعد بن حزم وخاصة النّظار، منهم أبو محمد عبد الله الترجمان الميورقي (ت832ه) الذي كان نصرانيا وأسلم وكان قبل إسلامه يسمى بالقسيس أنسيلمو دي تورميدا (Anselmo De Turmeda)[2]

وذلك في كتابه (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب)، حيث يصرح في إحدى فقرات كتابه قائلا: " وكان أبو محمد بن حزم قد رد عليهم بالمعقول والمنقول، خصوصا ما في كتبهم"[3]

وحتى الإمام أبي حامد الغزّالي (ت505ه) قد استفاد من كتب أبي محمد بن حزم في مجال النقد والردود، والغزالي هو صاحب الكتاب الشهير (تهافت الفلاسفة).

ولا يستبعد البعض من أن الإمام الغزالي قد استفاد من كتاب ابن حزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل) الذي انتقل إلى المشرق عن طريق تلاميذ ابن حزم، حيث وصل مبكرا إلى هناك، ولا ننسى أن من بين أهم تلاميذ أبي حامد الغزالي القاضي ابن العربي المعافري الإشبيلي.

---

(1) عمر وفيق الداعوق، مقدمة كتاب: عبد الله الترجمان الميورقي: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1408ه/ 1988م، ص36.

(2) أنخل بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص587.

(3) عبد الله الترجمان الميورقي: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ص55، 56. / ويراجع النقاط المشتركة بين عبد الله الترجمان وابن حزم عند المحقق، ص36، 37.

هذا ويثبت بلاثيوس اتفاق ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزّالي في أكثر من عشرين مسألة، أوردها في كتابه الشهير "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة"[1]

إذن فقد كان ابن حزم القرطبي فيلسوفا كبيرا، ومفكرا رفيع القدر، ونستطيع أن نطمئن إلى أنه كان بفكره وآرائه ممهدا لظهور فلاسفة كبار سيأتون من بعده، منهم ابن باجة الفيلسوف وابن رشد الحفيد وعبد الله الترجمان وغيرهم.

وكانت مدرسة إمام الرياضيين الأندلسيين، أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي في وقته، قد خرجت عديد العلماء الرياضيين والفلكيين والفلاسفة في عصر الطوائف منهم ابن الصفار أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر، وكان متحققا بعلم العدد والهندسية والنجوم، وقعد في قرطبة لتعليم ذلك، وله زيج مختصر على مذهب السندهند، وكتاب في العمل بالإسطرلاب وقد استهوته دانية قاعدة مجاهد العامري، فخرج تاركا قرطبة بعد مضي صدر من الفتنة.[2]

وكذلك الكرماني (458هـ/1066م) أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن، من أهل قرطبة، وأحد الراسخين في علم العدد والهندسة، وكان طبيا وفيلسوفا، وهو الذي أدخل معه من المشرق رسائل إخوان الصفاء لا أن أحدا أدخلها إلى الأندلس قبله[3]

ومن أشهر الرياضيين في قرطبة في هذه الفترة الواسطي أبو الأصبع عيسى بن أحمد، أحد المحنكين بعلم العدد والهندسة والفرائض وقد قعد بقرطبة لتعليم ذلك كما كان فلكيا عظيما، له بصر بجمل من علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم.[4]

وكان قاضي قرطبة في زمن بني جهور واسمه ابن شهر (435ه/1043م) أبو الحسن مختار عبد الرحمن الرعيني بصيرا بالهندسة في النجوم، متقدما في غيرهما من العلوم.[5]

---

(1) مجيد خلف منشد: ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد والفرق الإسلامية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/ 2002م، ص106، 107.

(2) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص91، 92.

(3) المصدر نفسه: ص92.

(4) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص93.

(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

وابن العطار، محمد بن خيرة من تلاميذ ابن الصفار وعرف ببراعته في علم العدد والهندسة والفرائض وكان معلم ذلك في قرطبة.[1]

هذه أمثلة صغيرة عن أطباء ورياضييها وفلكييها، حيث تزدحم بهم كتب التراجم والطبقات.[2]

وخلاصة القول، إن حاضرة قرطبة في عصر الطوائف وفي ظل حكم بني جهور ورغم التدهور السياسي الذي عاشته بين سنتي (399هـ) و(422هـ)، فقد شهدت استقرارا نسبيا بعد هذه السنوات، فقد ملك أبو الحزم جهور أزمة الأمور، واقتدر على سياسة رعيته أحسن اقتدار، مطاعا متبعا، وكان لثقافته أن زادت الإمارة أو المملكة أبّهة وجلالا ذلك لأن صاحبها متصف بصفات العالم المثقف والسياسي المحنك، فقد جمع بين الصفتين، وقليل هم الذين جمعوهما، فقد أفاض على أولي النهى وأهل العلم من الأنعم الغزار وورّث هذه الصفات لابنه بعده.

كما استفادت قرطبة من إرث الأمويين في عصري الإمارة والِخلافة، فكانت النتيجة ن ظهرت بها طلائع العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمفكرين والأطباء والرياضيين.

IV -1 -2 -المبحث الثاني: مجاهد العامري وحاضرة دانية والجزائر الشرقية.

تعد مملكة دانية والجزائر الشرقية أم المدائن الأيبيرية، وأزهى الحواضر الأندلسية في عصر الطوائف، فقد أنجبت هذه الحاضرة – على صغر حجمها – فطاحل العلماء والأدباء، والكتّاب.

وقد وصفها الحجاري قائلا: " مدينة عظيمة مشهورة الذكر، جليلة القدر. متوارثة المملكة في مدة ملوك الطوائف، وكثرت إليها الأسفار، وشدت نحوها الرحال من الأقطار، وامتلأت من العلماء والكتّاب والشعراء"[3]

ولم يكن ذلك ليتأتّى إلا بحكم ملك مثقف جليل القدر، مثل مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة. حيث قام بإحياء العلوم والزيادة عليها وتحسينها، فكانوا بذلك أحسن راع للعلوم والآداب والثقافة

---

(1) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص94.

(2) أنظر مثلا، ابن سعيد: المغرب، ج1، ص128 / ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص314، 314.

(3) ابن سعيد: المغرب، 2، ص 400.

بشكل عام، وكانت دولتهم تقوم على أمتن الدعائم، فقد أدركوا في الثقافة شأوا بعيدا، خطوا فيه الخطى الطوال. ويسَّروا دواعي التعليم والتثقيف والتهذيب للعامة والخاصة.

أما الجزائر الشرقية أو جزر البليار، والملحقة بدانية، والتي تتبع هذه الحاضرة، فهي مكونة من أربع جزر وهي: منورقة، وميورقة، وهي أكبرها، ويابسة وفرمنتيرا .وقد ساعد دانية وهذه الجزر على تبوّؤ هذه المكانة العظيمة، هو وقوعها على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الأيبرية. فقد كانت دانية " عاصمة لدولة أندلسية بحرية كبيرة".[1] وغدت هذه الحاضرة في عصر مجاهد وعصر ولده علي " أعظم مركز للأساطيل الأندلسية"[2]

وكان مجاهد العامري عند اضطرام الفتنة واليا على الجزائر الشرقية. وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبي عامر، فلما تمخضت الفتنة عن تمزّق الأندلس، سار من الجزائر إلى دانية، وتملّكها وأقام بها دولة.[3]

توفي مجاهد العامري عام 436هـ / 1044م) بعد أن حكم هذه المملكة زهاء ثلاثين عاما ساد فيها الأمن والرخاء، وفشا فيها العلم، وتربعَت الثقافة وتوسطَت حضرته، وبعد وفاة مجاهد، تقلد إقبال الدولة علي بن مجاهد حكم مملكة دانية والجزائر بعد أبيه حتى وفاته سنة 468هـ/ م). " فكانت مدته ومدة أبيه في ملك دانية ستين سنة"[4]

كانت حاضرة دانية والجزائر تزداد نموا بتوالي الأيام والسنين، بفضل مجاهد وابنه إقبال الدولة، حيث كانت أياديهما بيضاء على العلم والعلماء. وفضائلهم ومجهوداتهم معلومة غير منكورة، وكانت فترة حكمهما حقبة ميمونة تبلّج فجرها الزاهر.

---

[1]) عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص 187.

[2]) المصدر نفسه،ص 190.

[3]) المصدر نفسه، ص 189. وانظر ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، 3، ص 155.

[4])ابن سعيد: المغرب، 2، ص 402.

وقد وصف مجاهد العامري وابنه علي إقبال الدولة بخلال الفضل وأثنى عليهما المؤرخون طويلا. وأشادوا بأعمالهما السياسية ومآثرها العلمية والأدبية والثقافية. وكانت" غزوة سودانية أعظم أعمال مجاهد العامري، وهي ألمع صفحة في تاريخه"[1]

وقد وصفه معاصره الحميدي قائلا: " كان مجاهد من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم وأهلها... وكان من الكرماء على العلماء باذلا للرغائب في استمالة الأدباء"[2]

وأسهب ابن بسام في ذكر هذه الخلال حين قال: " كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عيني بذلك منذ صباه وابتداء حاله إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن التزيّد عظيمُ ما مارسه من الحروب برا وبحرا، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من خزائن العلوم خزائن جمة، وكانت دولته أكثر الدول خاصة، وأسراها صاحبة لانتحاله العلم والفهم".[3]

وأضاف ابن الخطيب:" كان أبو الجيش مجاهد يُباين سائر الملوك في زمانه بخلال الفضل، من أشفها العلم والمعرفة، اللذان لم يكن في الأحرار ولا في الموالي أثبتُ قدما منه فيهما، يكاد يربي على متقلّديها من أكابر العلماء في وقته، لاسيما علم العربية فإنه تحقق به."[4] وقد ذكر له الحميدي تأليفا في العروض يدل على قوته فيه.[5]

وقد تخصص مجاهد العامري واشتهرت حاضرته بالقرآن وعلومه وقراءاته، فكانت دولته لا تبارز في هذا المجال.

---

[1]) عنان: دوله الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص 195.

[2]) الجذوة، ص 320. رقد 829)./ الضبيّ: البغية، ص 412. رقم 1380).

[3]) الذخيرة، 3 1/ ص 23./ والنص نفسه عند ابن عذاري في البيان المغرب، 3، ص 156.

[4]) أعمال الأعلام: ص 218.

[5]) الجذوة، ص 320.

وكان مجاهد نفسه مختصا بعلم القرآن، قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره، قد عني بطلب ذلك من صباه إلى اكتهاله، فكان في النهاية من البصر به."[1]

وحسبك بملك " لا يستريح إلا إلى جزء يقرأه، ودفتر يطالعه أو عالم يذاكره."[2] والأمر سيان مع ابنه علي إقبال الدولة الذي ولي الأمر بعد أبيه. وقد " بدت لمجاهد فيه مخايلُ الشجاعة، فتوكل بإرهاقه وتأديبه."[3] ولهذا فقد " حذا إقبال الدولة حذو أبيه في الإقبال على العلماء."[4]

كانت حاضرة مجاهد وابنه علي تزداد نموا بتوالي الأيام والسنين، لشدة تزاحم العلماء على ورود مناهلها، فضمت هذه الحضرة العلمية صدر البلغاء، وأعلام العلماء، وكثيرا من الشرفاء والكبراء. فقد" أمّ مجاهد جملة من العلماء، أنِسوا بمكانه وخيّموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة وحلبة ظاهرة."[5]

وعرفت دانية والجزر الشرقية جملة من الأسباب والعوامل كانت مؤثرا فاعلا وحاسما في نهضتها العلمية، وازدهارها المعرفي. إضافة إلى انتساب حكمها إلى الزمرة العالمة والطليعة المثقفة، وتشجيع أهل العلم والحدب عليهم. فقد استفادت دانية وجزر البليار من الفتنة القرطبية، وسقوط الخلافة. حيث توزّع الأعلام على كل المدن والحواضر الأندلسية، فاستفادت هذه الحاضرة من النصيب الأوفر من العلم والأعلام، منذ سنة 405هـ) تاريخ انتزاء مجاهد بالساحل الشرقي للأندلس، ولطبيعة مجاهد العامري المسالمة، حيث كان شخصا وادعا.

ففي مجال الأدب، فقد عرفت هذه المملكة أشهر الكتّاب والأدباء والشعراء بدءا من الكاتب أبي محمد عبد الله بن العالم أبي عمر بن عبد البر النمري.

---

[1]) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 218. وقال عنه ابن سعيد في هذا الشأن: " كان محبا في العلماء محسنا لهم، كثير التولّع بالمقرئين للكتاب العزيز، حتى عرف بذلك بلده، وقصد من كل مكان، وشكر في الأقطار بكل لسان، وقد أثنى عليه ابن حيان في كتاب المتين بهذا الشأن. " / المغرب، 2، ص 401

[2]) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 219.

[3]) المصدر نفسه: ص 221.

[4]) ابن سعيد: المغرب، 2، ص 401.

[5]) ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 23.

وكان أبو محمد هذا " قد حلّ من كتّاب الإقليم محلّ القمر من النجوم، وتصرّف في التأخير والتقديم، تصرف الشفرة في الأديم، وله ولأبيه قبله لواء سبق، ولسان صدق."[1]

وقد وصفه الفتح بن خاقان بقوله:" بحر البيان الزاخر، وفخر الأوائل والأواخر، وواحدُ الأندلس الذي فاز فيها، بحظ الظهور، وحاز قصب السبق بين ذلك الجمهور".[2]

والظاهر عند كل من ترجموا لهذا الأديب الكبير أنه توفي في حياة والده الفقيه الكبير ابن عبد البر النمري.

كما ضمّت حاضرة دانية أيضا الكاتب الشهير، والوزير أحمد بن رشيق ، المكنى أبا العباس الذي نشأ بمرسية، وانتقل إلى قرطبة، وطلب الأدب فبرز فيه، وبسق في صناعة الرسائل مع حسن الخط المتفق على نهايته، وشارك في سائر العلوم ومال إلى الفقه والحديث، وبلغ من رياسة الدنيا أعظم منزلة، وقدّمه الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري على كل من في دولته، وولاّهُ جزيرة ميورقة، فكان ينظر فيها نظر العدل والسياسة، ويشتغل بالفقه والحديث، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم، ويصلح الأمور جهده، وهو آوى الفقيه أبا محمد بن حزم، حين نُعي عليه بقرطبة وغيرها خلافة مذهب، وبين يديه تناظر هو والقاضي أبو الوليد الباجي.[3]

وعرفت هذه الحاضرة أيضا كتّابا آخرين إضافة إلى ما سبق، منهم أبو جعفر أحمد بن أحمد الداني الذي كان شرطيا بدانية فتميز هو بالأدب[4] وقد ذكره ابن بسام فقال:" من مدينة دانية قدمته إذ كان أنبههم موضعا وأوسعهم عند ملوك الطوائف بأفقنا مطارا وموقعا، وله إحسان كثير، منظوم ومنثور، بين قلب ذكي، ولسان غير بكي، شهد له بفضل براعة، وتقدم في هذه الصناعة."[5]

---

[1]) ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 125.

[2]) قلائد العقيان: ص 538.

[3]) ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دار الكتب العلمية)، ص 241 242.

[4]) ابن سعيد : المغرب، 2، ص 404

[5]) ابن بسام: الذخيرة، 3 2/ص 757، وما بعدها

ومثله الكاتب أبو عبد الله بن مسلم الداني، وقد كان " كاتبا بليغ الكتابة، كثير الإصابة"[1] وقد وصفه صاحب الذخيرة بأنه" آية الزمن، ونهاية الفطنة واللسن، نفث بالسحر، واغترف من البحر، ونظم الدرر بلألاء من الدر، له رسائل سماها (طي المراحل).[2]

ومن أشهر الكتّاب الذين عرفتهم مملكة مجاهد العامري، أبو عامر أحمد بن غرسية، والذي يرجع إلى أصل نصراني بشكنسي، وسبي من ماردة صغيرا، ونشأ في بلاط دانية، في كنف مجاهد العامري 436 هـ) وولده علي إقبال الدول 436هـ 468 هـ 1076 م).[3] وخاطب الأديب أبا جعفر بن الخراز معاتبا له لتركه مدح مجاهد، واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبي."[4] وهو صاحب الرسالة الشهيرة ، حيث اتّهم بسببها بانتسابه إلى الشعوبية، ممّا جر عليه سيلا من الردود، وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول من البحث.

أما الشعراء الذين ضمّتهم مملكة مجاهد وابنه علي فلا يحصيهم عدٌّ في هذه الحاضرة، يستوي في ذلك المشهور منهم والمغمور، منهم الشاعر ابن هندو الداني.[5] وأبو القاسم بن خيرون الذي سكن دانية، وكان من شعراء إقبال الدولة، ولما دخل المقتدر بن هود دانية أنشده.[6]

والشاعر أبو علي إدريس بن اليمان، وهو شاعر جليل عالم، ينتجع الملوك فينفق عليهم، وله قصيدة طويلة مدح بها إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري:

- ثقلت زجاجات أتتنا فرغا ❖❖❖ حتى إذا ملئت بحرف الراح
- خفت فكادت تستطير بما حوت ❖❖❖ إن الجسوم تخف بالأرواح.[7]

---

[1]) ابن سعيد : المغرب، 2، ص 405.

[2]) ابن بسام: الذخيرة ، ق 3 1/ص 427. وترجمته عنده(ص 427 448) وفي هامش ص 427. من كلام المحقق: أنه كان رسولا إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدولة بن مجاهد حين نازعه المقتدر أحد حصونه."

[3]) ابن سعيد: المغرب، 2، ص 406 407.

[4]) ابن بسام: الذخيرة، 3 2/ص 704. ورسالته، ص 704 وما بعدها.

[5]) ابن بسام: الذخيرة، 3 2 896 وما بعدها، وقد جاء اسمه (ابن هند)./ ابن سعيد: المغرب 2، ص 408 409/ المقري: النفح، 3، ص 265، وله عنده ثلاثة أبيات من الشعر.

[6]) ابن سعيد: المغرب، 2، ص 419. وذكر له الأبيات.

[7]) الحميدي ، الجذوة، ص 149 150، رقم 313)، وله شعر عنده في ص 72./ الضبيّ: البغية، ص 201 202،رقم 560).

وكان الشاعر الكبير ابن اللبّانة، من مدنية ومن حاضرتها، وهو أعظم شاعر أنجبته هذه الحاضرة في عصر الطوائف، ورغم أنه كان مختصا بمديح بني عباد أصحاب إشبيلية ،ولكنّ حظ مملكته من شعره، تجسد في أكثر من مرة، فقد قدم ميورقة، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بأبيات أولها:

- ملك يروعك في حلب ريعانه ❖❖❖ راقت برونقه صفات زمانه.

وكان ذلك آخر شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة[1]

واستحكمت الدراسات اللغوية والنحوية في دانية وتمكّنت، لجملة من الأسباب والعوامل لعل أهمها وأقواها، كثرة العلماء من ذوي الشأن والاختصاص في دولة مجاهد وابنه علي، من أئمة النحويين واللغويين، وأعلام الأعلام، وأرباب المحابر والأقلام، قد بذروا التأليف في أرض هذه الحاضرة، ومهروا في هذا الفن وبرعوا، حتى تمت الغاية المطلوبة من ذلك. ومنهم حتى من صحب السلطان في غزواته وجهاده، فجمع إلى شرف العلم، فضيلة الجهاد. من هؤلاء العالم اللغوي أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، الذي قدم الأندلس سنة 406 هـ) وكان مع الموفق مجاهد العامرة في غزوته سردينية، هذا العالم اللغوي هو الذي أملى بالأندلس، كتاب الجمل للزجّاجي (ت 337 هـ).[2]

وكانت صلات مجاهد العامري حاكم دانية مع علماء اللغة مثبتة في كتب التراجم الأندلسية. من ذلك ما أورده الحميدي في ترجمته للعالم الغوي تمام بن غالب المعروف بابن التياني، أبو غالب المرسي، وكان إماما في اللغة، ثقة في إيرادها، وله كتاب مشهور جمعه في اللغة لم يؤلف مثله اختصارا وإكثارا، وله فيه قصة تدل على فضله مضافا إلى علمه. فقد وجّه مجاهد العامري إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، و - أبو غالب ساكن بها - ألف دينار أندلسية، على أن

---

[1]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3، ص 21.

[2]) الحميدي: الجذوة، ص 161 162.رقد 344)./ الضبيّ: البغية، ص 215 216. رقم 602)./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية). ص 114 115، رقم 290)./ السيوطي: بغية الوعاة، ص 392، رقم 992)./ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 3، ص 86. وما بعدها./ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1، ص 253 وما بعدها./ رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس ، ص 110، رقم 184).

يزيد في ترجمة هذا الكتاب (ومما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد) فردّ الدنانير وأبى من ذلك.[1]

وحفظت لنا المصادر الأندلسية اسما كبيرا من النحويين، وعلما شهيرا من اللغويين وهو بشار الأعمى النحوي أستاذ العربية، وكان في ناحية الموفق مجاهد العامري منقطعا إليه، وقد ذكرناه أثناء حديثنا عن حاضرة ألمرية[2]

وإفادتنا عن الجانب اللغوي والنحوي في دولة مجاهد وابنه علي دون ذكر اسمين بارزين في هذا المجال، وهما: محمد بن خلصة الأعمى، وابن سيده المرسي الأندلسي. أما أبو عبد الله بن خلصة فقد كان " أحد العلماء بالكلام، وله حظ من النثر والنظام، لكنه بالأئمة العلماء أشبه منه بالكتاب الشعراء، وقد بدرت له أشعار يسير بها إلى البديع، ويذهب فيها إلى التصنيع، وكتب عند إقبال الدولة بن مجاهد ملك دانية والجزائر، ومن شعره قوله من قصيدة في مدحه:

- خدمتكم ليكون الدهر من خدمي❖❖❖ فما أحالته عن أحواله حيلِي
- إن لم تكن بكمُ حالي مبدلة ❖❖❖ فما انتفاعي بعلم الحال والبدلِ[3]

---

[1]) الحميدي: الجذوة، ص 161. رقم 342)، وترجم له في المصدر نفسه، ص 366. رقم 962).باسم (ابن التياني)، وقال عنه:" من أهل الأدب والشعر... ولعله تمام اللغوي المذكور في بابه". وذكره كذلك في ترجمة مجاهد العامري ملك دانية، ص 320./ الضبيّ: البغية، ص 214 215.رقم 600)، وص 413. وذكره الفيروزآبادي في كتابه: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 97، رقم 78)، وقال: " تمام بن غالب بن عمر اللغوي، المعروف بابن التيان القرطبي، ثم المرسي سكنا، كتابه (المواهب) لم يؤلف مثله، اختصار وإكثارا، وله(التلقيح)، توفي سنة 436 هـ) / السيوطي: بغية الوعاة، ص 389، رقم 983). وعنده وفاته عام 433 هـ). وقد ذكر له كتاب (تلقيح العين في اللغة) ولعله هو الكتاب المقصود عند كل من ترجموا له . ابن بشكوال: الصلة (المكتبة العصرية،) ص 112 113،رقم 284) وقد ذكر كتابه (تلقيح العين) وذكر سنة وفاته 436 هـ)./ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 3، ص 80 83./ القفطي: إنباه الرواة، 1، ص 259./ حاجي خليفة: كشف الظنون، 1،ص 481./ البغدادي : هدية العارفين، 3، ص 256./ رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص 105، رقم 181).

[2]) ابن الأبار : التكملة ، 1، ص 186.

[3]) ابن سعيد المغرب، 2، ص 293 294.

زيادة على ذلك فقد كان أبو عبد الله " من النحويين المتصدرين والأساتيذ المشهورين، والشعراء المجودين، وقد ذكر الحميدي أنه رآه بدانية فيما بعد الأربعين وأربعمائة."[1]

وأما سيد اللغويين الذين جلبهم بلاط دانية فهو ابن سيده المرسي(ت 458 هـ) وكان ناظما ناثرا قليل النظر، قرأ الغريب المصنف على أبي عمرو الطمنكي، فما أخلّ بلفظ، وكان منقطعا إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، ثم حدثت له نبوة بعد وفاته في أيام ابن الموفق، فخافه فهرب إلى بعض الأعمال المجاورة لأعماله، وبقي بها مدة واستعطفه بقصيدة أولها:

- ألا هلْ إلى تقبيل راحتك اليمنى ❖❖❖ سبيل فإن الأمن في ذاك واليمنا

وفصل الرضى عنه عند وصولها إليه.[2]

وكل ما ذكرنا من أمثلة إنما هي نزر قليل فيما يتعلق بالبيئتين الأدبية واللغوية في حاضرة دانية والجزائر الشرقية، حيث عرصات الأدب والشعر، ولبنات اللغة والنحو. وكان لهذا كله أثر في التخصصات العلمية الأخرى، وخاصة الدراسات الشرعية التي سمت في هذه المملكة وبلغت مبلغا عظيما شهد له المعاصرون لتلك الفترة .وكان مجاهد العامري منذ درج على وجه البسيطة محببة إليه العلوم الدينية بفروعها المختلفة، قال عنه المراكشي:" لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس، أصون منه نفسا، ولا أطهر عرضا، ولا أنقى سماحة، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها، وكان مؤثرا للعلوم الشرعية مكرما لأهلها."[3]

والذي يجب أن نقوله في هذا الصدد هو اشتهار مملكة دانية وجزر البليار بعلم القراءات، بل هي عاصمة القراءات القرآنية في القرن الخامس الهجري، قد أربت على الحواضر الأندلسية الأخرى في هذا المجال.

---

[1]) الجذوة: ص 49، رقم 49)، ولنا دعوة إلى مصادر ترجمته.

[2]) الفيروز آبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 202 203.رقم 228)./ الحميدي: الجذوة ، ص 279 280. رقم 709)، ولنا عودة إلى مصادر ترجمته.

[3]) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 56.

وكان عصر أبي الجيش مجاهد خاصة، ثم ابنه إقبال الدولة، أزهى العصور في ذلك فقد " توافد على بلاطه أشهر القراء، وتكونت منهم في إسبانيا (الأندلس) مدرسة عظيمة، ذات قواعد راسخة جليلة، ونالت شهرة واسعة عريضة، وامتدت تعاليمها إلى أطراف العالم الإسلامي كله فيما بعد"[1]

وعندما نتحدث عن القراءات في دانية والأندلس ككل، فإننا ملزمون بذكر أبي عمرو الداني (371هـ/444هـ-981م/1053م)،شيخ هذه المدرسة الذي بلغ الغاية في علم القراءات وانتهت إلى روايته أسانيدها، وتعددت تآليفه فيها، وعوّل الناس عليها، وأرسلت بما عداها إلى زوايا النسيان"[2]

وأبو عمرو الداني(ابن الصيرفي)، هو عثمان بن سعيد الأموي القرطبي، أصله من قرطبة وسكن دانية، فنسب إليها، وقد استوطنها سنة 417 هـ)، حتى مات بها.

وهو إمام في علم القرآن، ورواياته وتفسيره ومعانيه، وطرُق إعرابه، عارفا بالحديث وأسماء رجاله، كان إليه المنتهى في علم القرآن وقراءاته، قام برحلات طويلة إلى المشرق، فزار مكة ومصر والقيروان، وغيرها من الحواضر الإسلامية، وسمع من علماء كثر، وعاد إلى الأندلس فتصدّر بالقراءات، وألف فيها تواليف معروفة، ونظمها في أرجوزة معروفة، كما ألف في طبقات رجالها، تواليف مشهورة كثيرة ، حتى إن بعضهم جمع ذِكْر تواليفه في جزء نحو مائة تأليف، منها: (المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار)، (التيسير في القراءات السبع)، (الموضح في الفتح والإمالة).(التجديد في الإتقان والتجويد) وغيرها من المصنفات*.[3]

---

[1]) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ص 52.

[2]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

* من كتبه كذلك (كتاب طبقات القراء في أربعة أسفار وهو عظيم في بابه).(كتاب التمهيد لاختلاف القراء)، (كتاب المفردات)، (كتاب اللاّمات). كتاب الراءات لورش) (كتاب مذاهب القراء في الهمزتين)(كتاب شرح قصيدة الخاقاني في التجويد)، (كاتب الأرجوزة في أصول السنة) (مفردة يعقوب في القراءة). المكتفى في الوقف والابتداء).

[3]الحميدي: الجذوة، ص 372،رقم 702)./ الضبيّ: البغية،ص 361.رقم 1186)./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية). ص 325؛ 326.رقم 879)./ ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1، ص 700 وما بعدها 2052)./ الذهبي مختصر العلو للعلي العظيم، وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها،ص 233./العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 272./مخلوف:شجرة النور الزكية، 1؛ 170؛ 171،رقم 351)./عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 5، ص 255./ البغدادي: هدية العارفين. 1، ص 653./ الحميري الروض المعطار، ص 232./ عادل نويهض: معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، د 3؛ 1409 هـ/ 1988م. 1، ص 342.

خلَّف ابن الصيرفِيّ مدرسة أندلسية كبيرة في فن القراءات، تخرج منها عديد الطلبة والأساتذة والشيوخ في هذا الفن، منهم محمد بن أحمد بن سعود الأنصاري المقرئ. وكان من كبار أصحابه وتلاميذه، وتصدّر في حياته للإقراء، وعنه أخذ أبو داوود سليمان بن نجاح قراءة نافع عن طريق قالون عند قدومه دانية للأخذ عن أبي عمرو من بلنسية في سنة 432 هـ) وحكي أنه ساكنه ونسخ الأصول منه وهو غلام دون العشرين.[1]

ومن يطّلع على صفحات من تاريخ علم القراءات في الأندلس، وخاصة في دانية في عصر الطوائف لتذهله تراجم المئات من العلماء في هذه الفترة، والذين تخصصوا في هذا الفن، وخاصة من تلاميذ أبي عمرو الداني وحده، وهذا ما يؤكد استحكام علم القراءات في مملكة دانية وتمكّنها، حتى بلوغ الغاية المطلوبة من ذلك.

وبرز محمد بن سعيد الميورقي كذلك في مجال العلوم الشرعية والإقراء، وهو الذي رحل حاجّا عا، 452 هـ) وأخذ عن أبي المعالي الجويني شيخ الحرمين في وقته، وعن غيره من الأعلام، فسمع منه جميع تواليفه، وصدر إلى ميورقة وقعد لإقراء الفقه والأصول وهو الذي اتصل بالفقيه أبي الوليد من أجل مناظرة ابن حزم الأندلسي.[2]

واشتهر في جزيرة ميورقة محمد بن عمار الكلاعي الميورقي، أستاذ أبي بكر بن العربي المعارفي الإشبيلي، ونزيل مدينة بجاية الجزائرية، وكان عالما متفننا، وله قصيدة طويلة على روي النون من وافر الأعاريض في السنّة والآداب الشرعية والديانات.[3]

وتستطيع ميورقة وهي إحدى جزر البليار التي تتبع مملكة دانية، أن تفخر بواحد من أعلامها وأعلام الأندلس ككل، وهو صاحب المصنفات الشهيرة في كل فن، وتخصص، مثل الحديث

---

[1]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، 1، ص 319.رقم 1129).

[2]) ابن الأبار : التكملة(الهراس)، 1، ص 316.رقم 1115).

[3]) المصدر نفسه، ص 326 327.رقم 1156).

والتاريخ وغيرها، حتى ليصعب على الدارس حصره في تخصص معين.[1] وكان أبو نصر محمد بن فتوح الحميدي مرجعا لكثير من أعلام المشرق العربي الكبار مثل الخطيب البغدادي، والحافظ ابن ماكولا اللذان أخذا عنه مباشرة، وغيرهما فيما بعد، مثل الحافظ أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي (676 هـ)*

أما في مجال العلوم العقلية فكانت مملكة دانية كذلك من الحواضر التي تفخر بأعلامها، حيث كان لها باع طويل في هذه العلوم كالهندسة والطب والرياضيات والفلك والفسلفة وغيرها.

فقد استقرّ فيها أبو القاسم ابن الصفّار، وكان متحققا بعلم الهندسة والنجوم وقعد في قرطبة للتعليم، وله زيج مختصر على مذهب السند هند، وكتاب في العمل بالإسطرلاب، موجز حسن العبارة قريب المأخذ، وخرج من قرطبة بعد مُضي صدر الفتنة، واستقر بمدينة دانية قاعدة الأمير مجاهد العامري، من ساحل البحر الأندلسي الشرقي وتوفي بها.[2]

وكان الطبيب الأندلسي الشهير ابن زهر، أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان من الذين احتضنتهم حاضرة دانية بعد رحلته إلى المشرق ودخوله مصر والقيروان، وتطبّبه هناك طويلا، حيث استوطن مدينة دانية، واشتهر بها زمانا بالتقدّم في صناعة الطب وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس.[3]

---

[1]) ذكرنا في موضع سابق من هذا البحث مصادر ترجمة الحميدي، وإضافة إلى ذلك ينظر: ابن خلكّان: وفيات الأعيان، 2، ص 364 - 366./ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية. 2، ص 79./ وأما مؤلفاته فهي: (بلغة المستعجل في التاريخ).(جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس).(جمل تاريخ الإسلام).(الأماني الصادقة).(تسهيل السبيل إلى علم الترسيل).(ذم النميمة).(الذهب المسبوك في وعظ الملوك).(الفوائد المنتقاة).(ما جاء في النصوص والأخبار في حفظ الجار).(مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء).(من ادّعى الأمان من أهل الإيمان)./ البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 76 77./ وله كذلك (الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم) .(تفسير غريب ما في الصحيحين)./فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي، 1 1/ص 255 275.

* مثال ذلك اعتماد النووي في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات). على أراء الإمام الحميدي من خلال كتابه (الجمع بين الصحيحين). في أكثر من صفحة، 2، ص 145 237.

[2]) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم(تحقيق حسين مؤنس)، ص 91 92.

[3]) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس) ص 106.

ويذكر صاعد الأندلسي واحد من الأطباء اليهود الذين خدموا الموفق مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة عليّ، واسمه إسحاق بن قسطار، وقد كان بصيرا بأصول الطب، مشاركا في علم المنطق، مشرفا على آراء الفلاسفة، وقد توفي سنة 448 هـ 1056 م).[1]

ويذكر ابن سيده الأندلسي اللغوي مع هؤلاء الأعلام الذين تخصصّوا في الفلسفة والمنطق، فقد عني بعلوم المنطق عناية طويلة، وألّف فيها تأليفا كبيرا مبسوطا، ذهب فيه إلى مذهب متيّ بن يونس.[2]

وستظل دانية تذكر وتفخر بأنجب أعلامها في عصر الطوائف وهو الأديب الشاعر الطبيب، الرياضي، الموسيقي، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني، وهو إلى كونه شاعرا أديبا." من أكابر الفضلاء، في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم.. وقد بلغ في صناعة الطب مبلغا لم يصل إليه غيره من الأطباء، وكان أوحد في العلم الرياضي".[3]

وأخيرا نقول إن مملكة دانية والجزائر الشرقية قد عرفت ازدهارا معرفيا كبيرا في عصر الطوائف، منذ انتزائها من طرف أبي الجيش مجاهد العامري، وابنه إقبال الدولة عليّ، حيث عمرت بهما هذه الحاضرة وازدهرت، فاستحكم العلم بها، وفشا في سادتها وكبرائها، وعبيدها وغلمانها، وكان مجاهد نفسه من أهل العلم، قد آثر طريق المعرفة مقرونا إلى جانب السياسة والملك، واتبعه ابنه عليّ في ذلك، فكانا صاحبا المجد الأثيل، حيث عقد حكّام هذه المملكة مع العلم عقدا صحيحا، ودأبوا يحصلون في مسنوناته ومفترضاته، فاستطال جهدهم في ذلك. وبالتالي فلا عجب من أن تستقطب هذه المدينة، ويستجلب بلاط مجاهد وابنه عليّ خيرة العلماء من المحققين النظّار، الذين صنعوا التأليف وحذقوا في التصنيف.

---

[1]) المصدر نفسه: ص 111./ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 498.

[2]) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 99.

[3]) ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 501./ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1، ص 130 131./ العماد الأصفهاني، خريدة القصر(قسم شعراء مصر)./ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخانقين 2، ص 728 729.

كما غصّت هذه الحاضرة وجزائرها الملحقة بها، بالمشيخة والعليّة، فآلى أهل العلم ألّا يختاروا إلا هذا البلاط على سائر البلاطات فلم يعدلوا عنه، فظهر منهم المبرّزون في علم القراءات كابن الصيرفي المقرئ صاحب مدرسة القراءات في الأندلس، والحميديّ المحدِّث والمؤرّخ، كما نبغ أعلام اللغة والنحو في هذه المملكة مثل ابن سيده صاحب المخصص.

أما في ميدان الأدب فقد نبع الأعلام في هذه الحاضرة ما بين شاعر مفلق، حامل لواء الشعر، عاقد بناصيته في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة، كابن اللبانة، أو كاتب محسن الصناعة مجوّد مثل أحمد بن رشيق، والكاتب أحمد بن غرسية وغيرهما.

الفصل الثاني: الحواضر العربية:

المبحث الأول: بنو حمّود وحاضرة مالقة.

المبحث الثاني: بنو عبّاد اللخميون وحاضرة إشبيلية.

المبحث الثالث: بنو هود الجذاميون وحاضرة سرقسطة.

المبحث الرابع: بنو صُمادح وحاضرة ألمرية.

المبحث الخامس: بنو قاسم الفهريون وحاضرة ألبونت.

المبحث السادس: بنو طاهر وحاضرة مرسية.

IV -2- الفصل الثاني: الحواضر العربية:

IV -2-1- المبحث الأول: بنو حمّود وحاضرة مالقة.

جارت أيام السعود بني حمود العلويين في شمال المغرب والأندلس، فطلعت أنجمهم في سماء السياسة، وقوى سعدهم في حقل الثقافة والأدب.

وقد صادفتهم في ذلك عوامل قوّت أودهم، منها انتسابهم إلى البيت العلوي الشريف، وثانيا، وقوع الفتنة القرطبية، واستغلالهم للأحداث في شبه الجزيرة في بداية القرن الخامس الهجري.

وكانوا قد ملكوا إضافة إلى سبتة، مالقة، ودخلوا قرطبة زمنا، فنظرت بهم روضة العلم، وزهت بهم رياض الأدب.

غير أن مالقة هي الحاضرة لدولتهم، والحاضنة لملكهم، فلا تكاد تذكر هذه المدينة في النصف الأول من القرن الخامس، إلا منسوبة إليهم. ومالقة كما يقول المؤرخون، هي إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر.[1]

وقد ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث النشأة السياسية في الأندلس، لهذا الفرع العلوي، حيث " تخللت دولة بني حمود العلويين، وأولهم الناصر بن حمود العلوي الحسني الإدريسي، ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود، ثم المعتلي يحيى بن الناصر علي بن حمود".[2] وكان انتهاء الحسنيين بمالقة سنة 445هـ). مع محمد بن إدريس المهدي.[3]

1: المقري: نفح الطيب، 1، ص 152.

2: المصدر نفسه، ص 300 301.

3) المراكشي: المعجب، ص 51/ وقد ذكرنا سابقا التاريخ السياسي لأسرة بني حمود العلويين في الأندلس، وتفصيل ذلك في المصادر والمراجع الآتية: الحميدي: جذوة المقتبس، ص 23، 26 30، 33. /الضبي: بغية الملتمس، ص 25، 29 32 وما بعدها. / المراكشي: المعجب، ص 37، 40،وص 46، 52. / ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 96 103 وص 316 وما بعدها. وص 481 وما بعدها. / ابن الخطيب: أعمال الأعلام، الصفحات 128 130 137 وص 140 143. / القلقشندي: صبح الأعشى، 5، ص 237، 239. / السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ص 358، 363. / ابن عسكر، ابن خميس: أعلام مالقة، ص 361، 362. / ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 4، ص 43 44. / ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص 48 وما بعدها. حيث يذكر نسب الحموديين مفصلا في ذلك. / وانظر كذلك رسالته: نقط العروس في مجموع الرسائل، 1 2/ الصفحات 50 62 80 91 92 98. / محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (الخلافة الأموية والدولة العامرية) 1 2/ ص 656 وما بعدها. / شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 1، ص 248 249 292.

وقد شهدت هذه الفترة أو بعدها بقليل بروز أسماء عدة في البيت العلوي حكموا سبتة ومالقة، والجزيرة الخضراء مع بروز سلسلة أحداث طويلة ومتشبعة، ليس مجال ذكرها هنا.

وبعد أن وطد بنو حمود أركان دولتهم في شمال المغرب وبعض أطراف الأندلس، وسكّنوا الفتنة قليلا في المناطق التي ملكوها، واستظهروا الرعية بحسن السيرة، ومساعدة الأيام، وكان قد ساعدهم في اكتساب شرعية الحكم، انتسابهم إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وبذلك قالت شعراؤهم.

ولم تكن أسرة بني حمود سوى فرعا زكيا من أصل ثابت، حيث أقبلوا على كل عظيمة، فوَرد على حضرتهم أكابر الشعراء، وفطاحل الكتاب والوزراء.

وأما حبّهم للعلم، وتشجيعهم للأدب والثقافة، فقد بثّوه في رعيتهم، وأثبتوه في نفوسهم، فظهر عندهم من شيوخ الكتّاب، وصدور الوزراء والأدباء المبرزين في علوم الآداب، وسائر الفنون الأخرى.

ويمكن القول، إن حضرة بني حمّود، قد بلغت في الازدهار منتهاها، وأدركت مع ملوكها جناها، وعظم المصر في زمنهم حتى أربى على كثير من الأمصار والحواضر الأندلسية.

وكان من صدور الأدباء والكتاب الذين انتسبوا إلى دولة بني حمود، أبو جعفر أحمد أيوب ابن اللمائي الكاتب (ت 465هـ). الذي عمل كاتبا لدى الناصر لدين الله على بن حمّود وتولى تدبير ملكه، وأحرز لذلك صيتا شهيرا وجلالة عظيمة، وعرض له داء النسمة (ضيق النفس) وتمادت علّته، ولم ينجح شيء في علاجها، ثم لم تفارقه حتى كانت سبب وفاته.[1]

([1])ينظر ترجمته في المصادر الآتية: الحميدي: الجذوة، ص356. رقم (929). / ابن بسام: الذخيرة في محاسن الجزيرة، ق1/2/ (617، 624). وفيه: " أحد الأئمة الكتاب وشُهب الآداب، ممن سُخرت له فنون البيان، تسخير الجن لسليمان، وتصرّف في محاسن الكلام، تصرف الرياح بالغمام... وله إنشاءات سرية في الدولة الحمودية، إذ كان عَلَمَ أدباءها، والمضطلع بأعبائها. " وانظر كذلك في هامش، ص617. والكلام للمحقق. / الضبّي: بغية الملتمس، ص453. رقم (1521). / الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص94. وفيه: "إمام من أئمة الكتابة ومفجر ينبوعها. والظاهر على مصنوعها بمطبوعها إذ كتب نثر الدرر في المهارق... وكان كاتب علي بن حمود العلوي، وذكر أنه كان يرتجل بين يديه فيأتي عن البدية، مما يتقبله المروي ويفيده". / ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج1، ص446، 447 وفيه: " كان أحد الأئمة الكتاب وشهب الآداب، وكان في زمان ملوك الطوائف"
ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج1، ص101، 104: " كان أديبا ماهرا، وشاعرا جليلا وكاتبا نبيلا، كتب عن أول الخلفاء الهاشميين بالأندلس علي بن حمود، ثم عن غيره من أهل ستبة، وتولّى تدبير أمرهم، فحاز لذلك صيتا شهيرا وجلالة عظيمة". / المقري: نفح الطيب، ج3، ص547. / ج4، ص172.

ومن أشهر شعراء الدولة الحمودية بالأندلس، الشاعر الكبير، عبد الرحمن بن مُقانا الأشبوني القِبذاني، فقد أوتي الأدب الغض، وحسن التعبير، وكان في أدباء مالقة في دولة بني حمّود، مقدّم القافلة، التي سارت في مديح هذه العائلة أحسن مسير.

وفي إدريس بن يحيى العلوي الحمودي(446هـ أو 447هـ) أبو رافع، سارت مدائحه، وقد حفظت كتب الأدب والتاريخ " قصيدته الشهيرة التي يتداولها القوالون لعذوبة ألفاظها وسلاستها:

- وكأن الشمس لمّا أشرقت ❖❖❖ وانثنت عنها عيون الناظرين
- وجه إدريس بن يحيى بن علي ❖❖❖ بن حمود أمير المؤمنين
- خط بالمسك على أبوابه ❖❖❖ أدخلوها بسلام آمنين
- ملك ذو هيبة لكنه ❖❖❖ خاشع لله رب العالمين
- وإذا ما رفعت راياته❖❖❖ خفقت بين جناحي جبرئين[1]

وأول هذه القصيدة:

- أ لبرق لائح من أندرين ❖❖❖ ذرفت عيناك بالدمع المعين
- لعبت أسيافه عارية ❖❖❖ كمخاريق بأيدي اللاعبين[2]

وقال الحجاري: " لقد أنشده هذه القصيدة خلف حجاب على عادتهم في ذلك، فلما بلغ إلى قوله:

- كتب الجود على أبوابه ❖❖❖ أدخلوها بسلام آمنين
- أنظرونا نقتبس من نوركم ❖❖❖ إنه من نور رب العالمين

أمر برفع الحجاب، حتى نظر إليه وأفرغ سابغ إحسانه عليه.[3]

---

[1])ابن الأبار: الحلة السيراء. (طبعة دار الكتب العلمية)، ص 187، 188. / الحميدي: الجذوة، ص 247. رقم 618). / الضبّي: البغية، ص 324. رقم 1044). وقد ذكره الحميدي والضبّي باسم (عبد الرحمن بن مقاناة البطليوسي. / ابن سعيد: المغرب، 1، ص 413 414. / ابن بسام: الذخيرة، 2.

[2])ابن الآبار: الحلة، ص 188.

[3]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وكان إدريس هذا ملك بني حمّود، يرحل إليه من أطراف البلاد، وتناديه سؤالات الشعراء والأدباء، وأهل العلم فيستجيب لها، ومازال يخدم أهل العلم، وكل من انتسب إلى الثقافة إلى أن رسخت في ذلك قدمه، وكان كما وُصِف " أديب اللقاء، حسن المجلس، يقول من الشعر الأبيات الحسان"[1]

وهوالقائل بديها، وقد غنّى ما لم يرضه في مدحه، فقال للمغني أعد الصوت وقل:

- إذا أضاقت بك الدنيا ❖❖❖ ففرّج نحو إدريسا
- إذا لاقيته تلقى ❖❖❖ رئيسا ليس مرءوسا
- إمام ماجد ملك ❖❖❖ يزيل الغم والبوسا.[2]

وقد سما في سماء دولة بني حمود من الأدباء والشعراء، غير واحد من المجوّدين، منهم أبو عبد الله محمد بن السراج المالقي، شاعر بني حمّود، وله فيهم غيرُما قصيد.[3] وكان ملازما للخليفة يحيى المعتلي بالله، حتى إنه شهد معه إحدى غوزاته، وذلك في سنة 424هـ).[4]

وحينما يُذكر ابن السراج المالقي، عادة ما يُقرن مع أديب آخر من مالقة حيث كان صاحبه ومنادمه، وهو أبوالحسن علي بن الغليظ، صاحبه الكثير الاتصال به، وبينهما مخاطبات كثيرة بالشعر، وهما شعراء من ملوك الطوائف.[5]

وقد شهدت الدولة الحمّودية نشاطا أدبيا وثقافيا متعاظما أسهم فيه أعلام هذا الفن آنذاك، يأتي في طليعتهم ابن شهيد الأندلسي الذي كان ملازما ليحيى بن حمود،وقد شهد ابن شهيد يوما عند ابن حمّود في مجلس وقد مدحه عدة شعراء في مجلس واحد، ومدحه ابن شهيد نفسه بقصيدة أولها:

---

[1]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[2]) المصدر نفسه، ص 188 189.

[3]) ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 870، 871. وترجمته عنده 870 - 882). / الحميدي: الجذوة، ص 54. رقم 72). / الضبّي، البغية، ص 70. رقم 144). / ابن سعيد: المغرب، 1، ص 434 435.

[4])ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 877.

[5]) المصدر نفسه: ص 871. /ابن سعيد: المغرب، 1، ص 435 436.

- فريقُ العدا من حدّ عزمك يرفقُ ❖❖❖ وبالدهر مما خاق بطشك أوْلقُ
- عجبتُ لمن يعتدُّ دونك جُنّة ❖❖❖ وسهمكَ سعدٌ والقضاء مفوّقُ[1]

وله قصيدة وقد أزمع على الخروج من قرطبة إلى مالقه لاحقا بيحيى بن علي:

- أرى أعينًا ترنوا إلىّ تأنّما❖❖❖ تساور منها جانبيّ أراقمُ
- أدورُ فلا أعتامُ غير محارب❖❖❖ وأسعى فلا ألقى امرءًا لي يسالمُ.[2]

ومن الحقائق المعروفة أن ملوك وأمراء بني حمّود قد تشرّبوا حب الثقافة والعلم، ولهذا فقد التجأ كثير من أهل العلم والفن إلى حاضرتهم، فكانوا سببا في رقي وازدهار هذه المملكة.

ويذكر ابن بسام أن " يحيى قد أقرّ أصحاب الخطط على مراتبهم، وحسن رأيه في أحمد بن برد وعوّل عليه في كتابته، واستخلص من الأندلسيين صحبه، جعفر بن محمد بن فتح، والفقيه الأديب أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الورّاق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني وولاّه خطة الوزارة... وقدّم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب... ووصل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، وسما في أيامه أبو بكر بن ذكوان وأبوالعباس أحمد بن أبي حاتم وأخوه وأنهضهما إلى الوزارة"[3]

ويذكر ابن سعيد أن العالم الزاهد والفقيه عبد الرحمن بن مروان القنازعي القرطبي 413هـ) قد ندبه الخليفة علي بن حمّود إلى الشورى فلم يعرج عليه.[4]

وفي هذا كلّه دلالة على الحس المعرفي والثقافي عند هذا الفرع من البيت العلوي الشريف، وهو – بلا شك -عامل حاسم في رقي الدولة وازدهارها.

وفي دولة الحمّوديين بالأندلس ظهر الأديب الكبير واللغوي أبوالقاسم إبراهيم ابن الإفليلي 352هـ/ 441هـ). وكان حافظا للأشعار واللغة قائما عليهما، عظيم السلطان على شعر حبيب الطائي،

---

[1]) ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 319. /ابن شهيد: ديوانه، ص 97 وما بعدها.

[2]) المصدران السابقان على التوالي، ق1/1/ ص321، 322. / ص 117، 119.

[3]) ابن بسام، الذخيرة، 1 1/ ص 483.

[4]) المغرب في حلي المغرب، 1، ص 166 167.

وأبي الطيب المتنبي، كثير العناية بهما خاصة على عنايته الأكيدة لسائر كتبه، وكان ذاكرا للأيام وأخبار الناس، وكان عنده من أشعار أهل بلده قطعة صالحة، وكان أشد الناس انتقاء للكلام ومعرفة برائعه. وعني بكتب جمة كالغريب المصنف، والألفاظ وغيرها.[1] وقد شرح ديوان المتنبي شرحا نفسيا.[2] وإليه عنى ابن شهيد رسالته في التوابع والزوابع.[3]

وهو القائل في يحيى بن حمّود من قصيدة يكفي منها ما يكفي من الترياق، كما يقول ابن سعيد منها:

- أنت خير الناس كلّهم ❖❖❖ يا ابن من مثله بشرُ
- فإذا ما لحتَ بينهم ❖❖❖ قيل هذا البدو والخضرُ.[4]

ولم ينته الأمر في شقه اللغوي والأدبي عند الإفليلي، حيث نجد لغويا آخر يماثله في علوالطبقة وربما زاد عليه، وهوالأديب العالم، الناثر، الناظم أبي محمد غانم بن وليد بن عبد الرحمن المخزومي (ت 470هـ 1078م).

---

[1] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 90 91. رقم 206). / الحميدي: الجذوة، ص 133، 262). وفيه: " كان متصدرا في علم الأدب يقرأ عليه، ويختلف فيه إليه، وكان مع علمه بالنحو واللغة، يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد عليهما". / الضبّي: البغية، ص 181. 485). / ابن سعيد: المغرب، 1، ص 72، 74. / الفيروزآباي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 63. رقم 15). / القفطي: إنباه الرواة، 1، ص 183. / السيوطي: بغية الوعاة، ص 349، 350. 863). / ياقوت: معجم الأدباء، 1، ص 252، 256. وفيه: " فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمّود، ومن تلاهُم إلى أن نال الجاه". / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 811. / الحنبلي: شذرات الذهب، 3، ص 266. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 1، ص 94. / ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 281 283. / رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص 30. رقم 22).

[2] الفيروزآبادي: البلغة، ص 63. وذكر محقق البلغة نسخة بعنوان (شرح على شعر المتنبي في مدح سيف الدولة). مخطوط بالخزانة العامة في الرباط. رقم 1803).

[3] ابن سعيد: المغرب، 1، ص 73.

[4] المصدر نفسه، الصفحو نفسها.

كان أحد أفراد أهل الأدب والمحققين به، وكان أهل الأندلس يعدّون الأدباء في ذلك الوقت ثلاثة، أبو مروان بن سراج بقرطبة، والأعلم بإشبيلية، وغانم هذا بمقالة وزاد عليهم غانم بالفقه والحديث والطب والكلام.[1]

وقد توثّقت عرى الصلة بين الأديب غانم بن وليد وبين أمراء بني حمّود، وجرى بينه وبينهم من الودّ والصلة ما كان كافيا للشاعر أن يمدح أحد أمراء بني حمّود وهو العالي بالله إدريس بن يحيى بن علي بن حمّود بقصيدة أوّلها:

- لولا التحرّج لم يُحجبْ محياكِ ❖❖❖ حُيّيتِ عنّا وحيينا بمحياك
- هذا الثام غمام ما يبين هدى❖❖❖ حطّي اللثام فليس البدرُ إلاكِ
- أو يمّمي حضرة العالي بما احتملت ❖❖❖ منّي الضّلوع فثمّ البرءُ للشّاكي.[2]

وفي إدريس العلوي هذا يقول كذلك:

- واستقبل الملك إمام الهدى ❖❖❖ في أربع بعد ثلاثينا
- خلافة الله سمت نحوه ❖❖❖ وهو ابن خمس بعد عشرينا
- إني لأرجو يا إمام الهدى ❖❖❖ أن تملك الدنيا ثمانينا
- لا رحم الله امرأ لم يقل ❖❖❖ عند دعائي لك آمينا.[3]

وقال ابن الأبار بع أن ذكر أبا محمد غانم بن وليد، وأبا زيد عبد الرحمن بن مقانا:" هؤلاء خاتمة الأدباء من الملوك العلوية، والمروانية، لذهاب سلطانهم، وانقراض ملكهم بالأندلس والمغرب في هذه المائة الخامسة " (ير)

---

[1])السيوطي: بغية الوعاة، ص 678. رقم 1889). / ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 365. رقم 985). / ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 853 870. / الحميدي: جذوة المقتبس ص 293. رقم 754). / الضبّي: البغية، ص 386 387. رقم 1280). / ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، 1، ص 317، 318 وفيه: " عالم جليل مذكور في المائة الخامسة". / الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص 150. / ابن دحية: المطرب، ص 187. / ابن الأبار: الحلة السيراء (طبعة دار الكتب العلمية)، ص 187. / =الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 229 230. رقم 266). / بن عسكر، بن خميس: أعلام مالقة، ص 332، 335. رقم 152). / ياقوت: معجم الأدباء، 6، ص 122، 124. / القفطي: إنباه الرواة، 2، ص 389. / رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص 327. رقم 542).

[2])ابن بسام: الذخيرة، 1 2/ ص 860 861. وله قطعة نثرية جميلة أنشأها في العالي. / المصدر نفسه، ص 861 862.

[3]) ابن الآبار: الحلة، ص 187.

[4]):الحلة السيراء، ص 189.

ويمكن أن نضيف أسماء أخرى لامعة في حقل الأدب وعالم الشعر كان حضورها أكيدا في دولة بني حمّود، منها عمر بن الشهيد أبو حفص(كان حياسنا 440 هـ).فقد عّه ابن عسكر وابن خميس من فقهاء مالقة وأدباءها وكتّابها وشعرائها، وقال فيه أبوالعباس: كبير مالقة المعظّم في النفوس قدرا، واللائح في سماء الأدباء بدرا".[1]

ولجأ الشاعر والفقيه والمحدث أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني الأعمى القرطبي (مات قريبا من الثلاثين وأربعمائة). وقد بلغ غاية من العلم الحديث والعلم القديم، وكان بنو ذكران هم الذين كفوه مؤونة الدهر وفرّغوه للاشتغال بالعلم، وكان الغالب عليه المنطق حتى اتّهم في دينه، ونُفي عن قرطبة، وله في فراره واستقراره بالجزيرة الخضراء تحت أميرها محمد بن القاسم بن حمّود قصيدة منها:

- تفرّغتُ من شُغلِ العداوة والظعن ❖❖❖ وصرت إلى دار الإقامة والأمنِ
- أمقتولة الأجفان من دمع حزنها ❖❖❖ أفيقي فإني قد أفقت من الحرنِ
- وما عن قلى فارقت تربة أرضكم ❖❖❖ ولكنني أشفقتُ فيها من الدفن.[2]

ومدح علي بن حمّود العلوي بقصيدة شهيرة أثنى عليه صاحب المسهب:

- راحت تذكر بالنسيم الراحا❖❖❖ وطفاء تكسر للجنوح جناحا
- مرت على التلعات فاكتست الربى ❖❖❖ يبكي الغوادي ضاحكا مرتاحا
- والنور يبسط نحو ديمتها يدا ❖❖❖ أهدى لها ساقي الندا أقداحا
- وتخاله حي الحيا من عرفه ❖❖❖ بذكيّه فإذا سقاهُ فاحا
- روض يحاكي الفاطميّ شمائلا ❖❖❖ طيبا ومزنٌ قد حكاه سماحا.[3]

---

[1]) أعلام مالقة، ص 326 327. رقم 145). / وينظر ترجمته عند ابن بسام: الذخيرة 1 2/ ص 670 691. / الضبّي: البغية، ص 356 357. رقم 1166). / ابن سعيد: المغرب، 2، ص 209 210. / ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، 3، ص 175. في معرض ذكره للمعتصم بن صمادح. / وقد ذكره ابن الخطيب عرضا أثناء حديثة عن المعتصم. أعمال الأعلام، ص 190. /المقري:نفح الطيب، 3،ص 413./يوسف فرحات،يوسف عيد،معجم الحضارة الأندلسية، ص 74./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 98 99.

[2]) ابن سعيد: المغرب، 1، ص 121، 122، وانظر ترجمته عند الحميدي: الجذوة، ص 51، 52. رقم 60). / الضبّي: البغية، ص 66 67. رقم 125). / ابن الأبار: التكملة (طبعة دار الكتب العلمية)، 3 1/ ص 263. 1100). وحدد تاريخ وفاته بسنة 437ه). / ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 313 وما بعدها. وصر 437، 453. / الصفدي: الوافي بالوفيات، 3، ص 104 1066). / الحميري: البديع في وصف الربيع ص 18 20.

[3]) ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 445.

وله في علي بن حمود من قصيدة أخرى:

- شقي بعدنا بالبعد من نعم نعمان ❖❖❖ وأوحش من لبنى على البعد لبنان
- سقي القطر ما بين العقيق وضارج ❖❖❖ معارف فيها للأحبة عرفان[1]

وله غيرها من القصائد والأبيات في علي بن حمّود.[2]

ونحن إذ نذكر ابن الحناط، فلا نذكر فيه صفة الشاعر فقط، فقد كان " من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية"[3]

ويحسن بنا أن نختم حديثنا عن أدباء وكتّاب مالقة، أو الذين خدموا في دولة بني حمّود بذكر الوزير الكاتب أبي حفص بن برد الأكبر 418هـ) الذي قُلّد ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري ثم كتب عن سليمان بن المتسعين وغيره من أمراء الفتنة حتى عهد يحيى بن علي بن حمود[4] وقد حفظ لنا ابن بسام فصولا من بعض أدبه، منها رقعة عن علي بن حمّود إلى منذر بن يحيى.[5]

إذن فقد ضمّت دولة الحموديين بالأندلس بين دفتيها من الأعلام الأدباء والكتاب الوزراء من خيرة ابناء الأندلس، ما وسم هذه الحاضرة بأنها أعجوبة نادرة في هذا الفن.

هذا من ناحية الأدب والشعر، أما في مجال العلوم الدينية، فإننا نؤكد أن الفقه والحديث ومختلف العلوم الشرعية قديمة في مالقة، التي عرفت جلّة الفقهاء ونبهائهم وكبرائهم. ومن ذوي بيوتاتهم النبهية، ممن صنعوا في هذه الحاضرة مقاماتهم ولم يزالوا يتوارثون في العلم والجاه وعلو الطبقة.

---

[1] ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 446

[2] المصدر نفسه: ص 446 447 452 453.

[3] المصدر نفسه: ص 438.

[4] المصدر نفسه، ص 103، 123. / الحميدي: جذوة المقتبس، ص 106. رقم 199). / الضبّي: بغية الملتمس، ص 148. رقم 387). / ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 47. رقم 74). / ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 2، ص 201، 203. / الصفدي: الوافي بالوفيات، 7، ص 228 229 997). / البغدادي: هدية العارفين، 5، ص 72. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 2، ص 65. / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 1758.

[5] ابن بسام: الذخيرة، 1 1/ ص 117 118.

وقد حوت قصبة مالقة قديما المسجد الجامع الذي بناه الفقيه، المحدث، معاوية بن صالح الحمصي، العالم صاحب الروايات في السنة والعلم.[1]

فقد نبغ في دولة بني حمود الفقيه أبوالمطرف الشقي المالقي، عبد الرحمن بن قاسم 405هـ 497هـ). وكان من فضلاء مالقة وخيارها، وأحد علمائها، وكبير المفتين بها، فقيه عالم مشاور، نشأ صلاح وفضل، وأفتى في بلده منفردا برئاسة الفتوى نحوا من ستين سنة.[2]

ونحن إذ نذكر أبا المطرف الشقي المالقي، فإن حاضرة بني حمود لم تبَاهِ به إلا كبار فقهاء الحواضر الأندلسية الأخرى.

ومن علماء الدولة الحمودية بمالقة، العلامة الفقيه أبو علي الحسن بن حسون الذي وُصف بأنه من أئمة العلماء، وقد ولي القضاء على مالقة في حكم العالي بن يحيى بن حمّود.[3] والقاضي محمد بن سليمان بن خليفة المالقي، (، 499هـ)، الفقيه والقاضي الشهير.[4]

وفي عهد الحمود بمالقة ظهر الفقيه والمقرئ والمفسر عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السداد، الشهير بالمالقي (ت507هـ). وكان فقيها نحويا أصوليا حسن التعليم، نافعا منقطع القرين في الدين المتين والصلاح والتواضع وحسن الخلق، له تآليف في القراءات و (شرح التيسير).[5]

وزار مالقة الفقيه والقاضي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن علي الأنصاري (، 498هـ). وكان عالما بالرأي والوثائق، وبعد أن تولى أحكام القضاء بغرناطة، توفي بمالقة وفي أرضها دفن.[6]

---

[1]) الحميري: الروض المعطار، ص 518.

[2])الضبّي: بغية الملتمس، ص 323. رقم 1038).

[3])ابن سعيد: المغرب، 1، ص 430.

[4])الضبّي: البغية، ص 67. رقم 127). / ابن بشكوال: الصلة، (طبعة المكتبية العصرية)، ص 443. رقم 1245). وعنده الوفاة سنة 500هـ).

[5])ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 58 59. رقم 359). / ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، 1، ص 663 664. 664. رقم 1946). / لسان الدين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 3، ص 424 425. / السيوطي: بغية الوعاة، ص 584، 585. رقم 1595)

[6])شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 2، ص 44.

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا العرض التاريخي على اختصاره دور أسرة بني حمود العلويين في الأندلس، وبالضبط في مالقة والجزيرة الخضراء وقليلا قرطبة، في التأسيس الثقافي لهذه المملكة التي عمرت حوالي خمسين سنة.

كما نستطيع أن نلتمس من خلال الشواهد والأمثلة التي ذكرناها العوامل والأسباب التي أدت إلى قيام نهضة أدبية وعلمية شاملة ومتينة في دولة الحموديين بالأندلس. حيث شملت مختلف نواحي النشاط الحضاري المختلفة، وقد تعاظم هذا النشاط تعاظما كبيرا مما كان له أكبر الأثر على ازدهار هذه المملكة.

IV -2-2- المبحث الثاني: بنو عبّاد اللخميون وحاضرة إشبيلية:

حينما كانت الأندلس تضطرم بنيران الفتنة الداخلية في بداية القرن الخامس الهجري، وتصطلي بصراعاتها السياسية، تشيّأت إلى كيانات، عرفت في التاريخ الأندلسي باسم دول الطوائف.

كانت هذه الدول – كما ذكرنا –تتفاوت فيما بينها صغرا وكبرا، قوة وضعفا، إلا أن الأندلس قد ضمّت بين دفتيها حواضر كبرى لا يمكن أن يغفلها التاريخ، أو يزدريها النسيان.

وتأتي حاضرة إشبيلية في ظل حكم بني عبّاد، كإحدى كبريات ممالك الطوائف، بل هي في طليعة الحواضر العظيمة، لا لشيء سوى أنها قد بلغت من الرخاء والنعمة وأسلوب الحضارة، ما كان مجلبا للناس وأمنا ومرتغبا.

وكان علماؤها وفضلاؤها وأدباؤها وشعراؤها وأطباؤها من الوفرة والنضوج بحيث شكّل ملمحا بارزا من ملامح الثقافة الأندلسية في عصر الطوائف.

وقد غدت حاضرة إشبيلية في ظل حكم بني عباد مسرح منافسة شديدة بين أصحاب المعارف وذوي العلوم والآداب، يلقون في حلبتها كل فضيلة، حتى أصبحت عاصمة العلم والثقافة في عصر الطوائف، وإذا قلنا إن إشبيلية هي الحاضرة الوحيدة التي نافست قرطبة في هذه الفترة أو تفوقت عليها أحيانا، لم نكن مغالين في حكمنا أو مشتطين في التقدير.

ويرجع الفضل الكبير في تبوّؤ هذه الحاضرة صدارة الحواضر الأندلسية في عصر الطوائف إلى أسرة بني عباد العربية الأصيلة. "وبنو عباد من العرب الداخلين إلى الأندلس من لخم".[1]

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص152./ وحول هذه الأسرة ينظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص55 ،67 -73. وفي غيرها من الصفحات./ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص240 وما بعدها، ص314 -316 وفي غيرها

وكان صدر بيتهم – كما ذكرنا في الفصل الأول – ومؤسس مجدهم إسماعيل بن عباد الذي قدّمه المنصور بن أبي عامر إلى خطة القضاء، فسار في ذلك أحسن سيرة، وكان نسيج وحده علما ومعرفة وأدبا وحكمة[1]، حتى هلك سنة (414 هـ).

ثم ولي ابنه القاضي أبو القاسم محمد بن عباد وهو أول ملوكهم بإشبيلية (434 هـ/1042) الذي استولى على زمام الملك، وحاز التدبير في هذه الحاضرة، فانقادت له الرعية، وسيطر على أحوال البلاد، وسعى إلى تثبيت أركان الدولة، قد تم على يديه بعد أن مهّدت الأقدار ووطأت الأمر لوالده من قبله.[2]

وكان المعتضد بن عباد (403 هـ/012 – 462 هـ/1069م) الذي تولّى الملك بعد أبيه، من أشهر الشخصيات العبّادية التي حكمت هذه الحاضرة، وأقوى رجل في هذه السلالة العربية، وكان إضافة إلى ذلك قد" نظر في الأدب أدنى نظر بأذكى طبع، فحصل منه على قطعة وافرة"[3] ومع جوده وبسالته وعلوّ همته "يقرض الشعر، ويصدر عنه المقطعات الرائقة، والمعاني الفائقة".[4]

وقال فيه ابن حيان: "كان معلوما بوفور العقل وسبوغ العلم."[5] وممّن له في العلم و الأدب باع، ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع."[6]

وثاني أشهر شخصية في أسرة العبابدة، هو المعتمد بن عباد (432 هـ/040 – 489 هـ/1095م) الذي تولى الملك بعد أبيه "فذّ في البلاغة، طرف في الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب جزل الألفاظ، كثير المعاني، حرّ المآخذ، لدن معاطف الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المتن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة، حسن الإشارة، جمّ التوليد، لم ينشده من

=من الصفحات./المقري: نفح الطيب، ج1، ص438./ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص12 وما بعدها./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص122 -132./محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)...../عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص532 -567.

[1] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص152

[2] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص153-155.

[3] المصدر نفسه، ص155

[4] المصدر نفسه، ص157

[5] ابن بسام: الذخيرة، ق/1/ص13.

[6] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الوزراء والشعراء أشعر منه، على كثرة ما اجتلب إليه من أعلاق الثناء، ونثر عليه من درّ الحمد."[1] إلى أن توفي بأغمات.

أما أشعاره فقد كانت ترفدها المعاني، وتوشّيها الألفاظ، وهو نفسه كان شاعر الملوك وملك شعراء الأندلس، لم ير في الأندلس أشعر منه.

IV -2-3- المبحث الثالث: بنو هود الجذاميون وحاضرة سرقسطة:

تعد حاضرة سرقسطة من الحواضر الأندلسية الكبرى في عصر الطوائف، ومن أكبر المراكز العلمية في الغرب الإسلامي في هذه الفترة، فقد اشتهرت بالعلوم البحتة، أو العلوم التقنية والتطبيقية إلى جانب الدراسات الإنسانية كالفلسفة والعلوم الأخرى.

وكانت أسرة بني هود ممن أكسب هذه الحاضرة شهرتها العلمية. فقد شهدت سرقسطة في ظل حكمهم نهضة علمية كبيرة تحدث عنها المؤرخون طويلا، وأشادوا بذكرهم، لما لهم من فضل في إحيائها، والدفع بها في الاتجاه الصحيح.

وقبل مجيء بني هود كان حاكم سرقسطة منذر بن يحي التجيبي(431 هـ) ، ممن مدت له في الآداب يد، فقد جرى على هدي المعرفة والآداب. فقد كان كريما ، سخي النفس، وهب لقصاده مالا عظيما، فوفدوا عليه وتطارحت الآمال إليه، واتفق على تفضله، وعمرت بذلك حضرته سرقسطة، حتى أشبهت الحضرة الكبرى قرطبة أيام الجماعة، فحسنت أيامه، وهتف المداح

---

[1] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص157، وقال فيه ابن بسام: " فقد كان متمسكا من الأدب بسبب، وضاربا في العلم بسهم، وبه شعر كما انشق التمام عن الزهر،لو صدر مثله عمّن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة،لكان رائعا معجبا،ونادرا مستغربا"/الذخيرة، ق2/1/ص41./وانظر الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص51-109./ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص164-170./ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص12 وما بعدها.رقم (686)./ ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص155، 156./العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج2.رقم (124)./المراكشي: المعجب، ص72، 73، 82 وما بعدها، وص96 وما بعدها.ابن دحية: المطرب، ص22./ابن الأبار: الحلة (طبعة دار الكتب العلمية)، ص202 وما بعدها./عنان: تراجم إسلامية، ص212-224.

بذكره.[1] وفيه يقول أبو عمرو بن دراج القسطلي قصيدته المشهورة، حين صرف إليه وجهه، وقدم عليه سنة (428 هـ):

بشراك من طول الترحل والسرى ❖❖❖ صبح بروح السفر لاح فأسفرا.[2]

وكانت أيام منذر بن يحي أعيادا ومواسم" عمر به الثغر إلى أن أودت به المنية. وقد اعترف له الناس بالرأي والسياسة"[3] ومن كتابه: ابن المدور، وابن أزرق، وابن واجب[4] وبعد منذر بن يحي جاء بنو هود الذين ملكوا من " مدن ...الجهة الشرقية ، طرطوشة وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفراغة، ولاردة، وقلعة أيوب"[5]

وقد عرف عن ملوك بني هود شغفهم بالعلوم، ومن أشهرهم المقتدر بن هود وابنه يوسف المؤتمن، وقد كانا "من أنصار العلوم ومن المتجردين لرعايتها في تحمس وخاصة الفلسفة والرياضات والفلك"[6]

أما المقتدر بن هود أحمد بن سليمان(438 هـ / 1047 م – 473 /1081م) " عميد بني هود وعظيمهم ورئيسهم وكريمهم"[7] فقد تعاطى الفلسفة والرياضات والفلك.

وحينما فاخر به أبو الوليد الشقندي غيره في رسالته الذائعة الصيت في فضل الأندلس قال:

" وهل لكم في علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة فإنه كان في ذلك آية"[8]

([1]) ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ص 181./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 196./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 196./ ابن الخطيب: الإحاطة، ج3 ص 211 وما بعدها.

([2]) ابن الخطيب: الإحاطة ، ج 3، ص 211.

([3])المصدر نفسه: ص 215.

([4])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([5])عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 54.

([6])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 32.

([7])ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 436.

([8]) المقري: النفح، ج3، ص 193.

وعرف عن المقتدر بن هود محبته الشديدة للعلم والعلماء، وتقديره اللامتناهي لرجال المعرفة، والتهمم بهم، فقد كان يجل الفقيه أبا عمرو الباجي، حيث حظي هذا الفقيه من المقتدر بكل معروف وقدر، وتمكن منه تمكن القلب من الصدر، ولقي من أهل سرقسطة ما أبرز من كل عارفة سقطة"[1]

وحينما عاد أبو الوليد الباجي من رحلته الشهيرة إلى المشرق، وتهادته الدول، وتنافس في حلبة ملوكها" استدعاه المقتدر بالله ، فصار إليه مرتاحا، وبدا بأفقه ملتاحا، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه، وبدا وخده في سبل العلم، وإيضاعه، وكان المقتدر يباهي بانحياشه إلى سلطانه، وإيثاره لحضرته باستيطانه، ويحتفل فيما يرتبه له ويجريه وينزله في مكانه متى كان يوافيه"[2]

وكان المقتدر نفسه شاعرا، فمن شعره في مبانيه:

قصر السرور ومجلس الذهب ❖❖❖ بكما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملكي خلافكما ❖❖❖ كانت لدي كفاية الطلب[3]

لم يكن هذا شأن المقتدر بن هود وحده في أسرة بني هود، فقد كان ذلك الصنيع دأب وديدن كل حكام سرقسطة من هذه الأسرة، فقد كانوا ذوي شأن عظيم في رعاية العلوم وأهلها، وكانوا هم أحد صناعها، شهد لهم بذلك القاصي والداني ، حتى خصومهم، فهذا الأمير الغرناطي عبد الله بن بلقين يقول عن خصميه المؤتمن بن المقتدر بن هود صاحب سرقسطة،" وكان المؤتمن رجلا عالما قد طالع الكتب، مع ما كان عنده من الآثار."[4]

([1]) العماد الأصفهاني: خريدة القصر(قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج3، ص 350.

([2]) المقري: نفح الطيب، ج2، ص 74./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 600.

([3]) المقري: نفح الطيب، ج2، ص 441، 442.

([4]) المذكرات(تحقيق ليفي بروفنسال)، ص 56.

كان يوسف المؤتمن هذا (473 هـ/ 1081 م – 477 هـ / 1085 م) من أكبر المعنيين بالعلوم المشاركين فيها حيث" كان خير خلف عن أبيه، حاميا لملكه، مجاهدا لعدوه، مألفا للأدباء والعلماء، والشعراء، وبه استجار ابن عمار من ابن عباد."[1]

وكان المؤتمن نفسه عالما كبيرا ورياضيا متميزا، وكان يزجي وقت فراغه بالمفيد المجدي. حشرت إلى بلاطه العلماء حشرا، ومشى الباحثون والفلاسفة والرياضيون والموسيقيون في بلاطه عرضا ونشرا.

وقد اختص يوسف المؤتمن بالعلوم التطبيقية – كما أوضحنا – حيث" كان قائما على العلوم الرياضية، وله فيها تآليف، ومنها كتاب(الاستكمال والمناظر)"[2]

وبلغ من رصافة التأليف وحسن ودقة التصنيف والتبويب في كتاب المؤتمن هذا، أن علق عليه الفيلسوف اليهودي ميمون بن موسى كما قال بالانثيا.[3]

كما بلغت حضرة سرقسطة في حكم بني هود ترفا منقطع النظير، فبين القصور المنيفة، والرياض المنعشة، والأزاهر، صنفت التصانيف، ورصفت التآليف، وأبدع الكتاب، ونظم الشعراء، وغنى الموسيقيون طويلا. كانت حصيلة الحاضرة ثقافيا كبيرة، استجاشت المؤرخين فذكروا ذلك طويلا.

وذكر الفتح بن خاقان أنه لما نهضت بنت الوزير الأجل أبي بكر بن عبد العزيز إلى سرقسطة، لتزف إلى المستعين بالله أحمد بن سليمان بن هود(478 هـ/ 501 هـ). استدعى المؤتمن بالله أعيان الأندلس وأمجادها وأبطالها وأنجادها، وكتابها ووزراءها، وحجابها وأمراءها لمشاهدة زفافها، وكان عرسا لم تكتحل مدته بسرقسطة عين بوسن.[4]

([1]) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 437.

([2])المقري: النفح، ج1، ص 441.

([3])تاريخ الفكر الأندلسي: ص 32. ويقول بالانثيا في المصدر نفسه ما نصه: وهو ما دفع الغلام اليهودي، موسى بن عبيد الله بن ميمون القرطبي(559 هـ/ 600 هـ/ 1135 – 1204 م) إلى دراسة كتابة الاستكمال، دراسة عميقة ، ثم وضع له شرحا وافيا لمسائله، وقال: إنه جدير بنفس العناية التي تدرس بها كتابات إقليدس، وكاتب المجسطي لبطليموس." ص 509.

([4]) قلائد العقيان : ص 198.

ولم يكن المستعين أقل شأنا من أبيه وجده، وهو آخر شخص حكم هذه المملكة قبل أن تنطفئ جذوة هذه الأسرة إلى الأبد. وقد دخل سرقسطة في زمن المستعين، الفقيه واللغوي الجليل، ابن السيد البطليوسي، وكانت هذه الحاضرة حينها" زهرة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف، وموقف السرور والقصف، وله فيهم أمداح كثيرة"[1]

ومن هذه الدوحة العلمية الوارفة الظلال كان أحد أفراد أسرة بني هود، واسمه أبو محمد بن هود الجذامي، ماهرا في الآداب، بارعا في فنونها، وكان أبو محمد هذا قد تحول عن مملكة الأسرة، بعد حصول اضطرابات فيها، وحل ضيفا على المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس الذي ولاه مدينة الأشبونة، وهو" أحد النجباء الأدباء" وله شعر يدل على مكانته[2].

كانت حاضرة سرقسطة إذن، من خلال علمائها ورياضييها وفلكييها وموسيقييها ساطعة متلألئة في سماء المعرفة الأندلسية، وكان أدباؤها وشعراؤها نجوم علم ومصابيح معرفة أهل بدر الثقافة باسمهم في سرقسطة ومدنها وقراها وأرباضها.

ورغم الصبغة العلمية التي تلبست بدراسات المقتدر بن هود وأسرته، ادعى بعض الباحثين* عدم ازدهار الآداب والشعر في حضرتهم، والحقائق تؤكد عكس ذلك وهذا ما سنبينه في هذه المبحث.

ففي حاضرة سرقسطة وفي بلاط بني هود، لمع نجم أبي عثمان سعيد بن محمد بن البغونش، وقد حظي عند يحي المأمون أميرها بمكان عظيم، وكان ابن البغونش فيلسوفا رياضيا، وكان تلميذا لمسلمة المجريطي وابن جلجل، وانصرف إلى دراسة الطب في آخر أيامه.[3]

وعرفت هذه الحاضرة كذلك بروز عبد الله بن أحمد السرقسطي(448 هـ/ 1056م) وكان نافذا في علم العدد والهندسة والنجوم، وقعد لتعليم ذلك في بلده، وله رسالة رآها صاعد كتبها إلى

([1]) المصدر نفسه : ص 711.

([2]) ابن الأبار: الحلة السيراء(طبعة دار الكتب العلمية). ص 262.

*ذهب إلى ذلك بالانثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي، حينما قال بازدهار الدراسات العلمية والفلسفية في بلاط بني هود، وخفوت الأدب والشعر، ص 151./ وابتعه في ذلك الباحث سعد البشري في كتابه الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص 146 والباحثة سهى بعيون في كتابها، إسهام العلماء المسلمين في العلوم في عصر الطوائف. ص 144.

([3]) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم(تحقيق مؤنس)، ص 89./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 508.

أبي مسلم بن خلدون الإشبيلي يذكر فيها فساد مذهب السند هند ، في حركات الكواكب وتعديلها.[1]

وسرقسطة هي المدينة التي أنجبت ابن الحمّار السرقسطي سعيد بن فتحون، أحد الذين عنوا بالمنطق والفلسفة والموسيقى[2] وقال في ذلك ابن حزم:" وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمّار."[3]

ومادام الحديث عن المنطق والفلسفة في حاضرة سرقسطة فقد وجدنا نصا مهما لصاعد يقول فيه:" وفي زماننا هذا أفراد من الأحداث منتدبون بعلم الفلسفة ذوو أفهام صحيحة... منهم من أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر ابن الأمير المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود الجذامي، وأبو جعفر أحمد بن جوشن بن عبد العزيز بن جوشن"[4] وهو ما يؤكد بروز الاتجاه إلى علوم المنطق في سرقسطة في القرنين العاشر والحادي عشر، الذي اكتمل في صورة أبي سلط الدنيوي(1067 – 1134 م) الذي ألف كتابا هاما في المنطق عنوانه تقديم الذهن الذي يستلهم أفكاره من كتب بورفيريو وأرسطو في هذا الشأن على وجه الخصوص.[5]

وأسهم في هذه النهضة العلمية في سرقسطة، وخاصة في مجال العلوم البحتة والفلسفة من غير السرقسطيين، علماء جلة مشهورون، منهم أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن المعروف بالكرماني (458 هـ) من أهل قرطبة، وهو أحد الراسخين في علم العدد والهندسة.

([1]) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص 94.

([2]) المصدر نفسه : ص 104.

([3]) المقري: النفح. ج3، ص 175/ مجموع الرسائل ، م1/2/ص 185.

([4]) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص 96، 97.

([5]) إبراهيم الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1997 م/ 1417 هـ .ص 271.

رحل إلى ديار المشرق، وانتهى منها إلى حران من بلاد الجزيرة، وعني هناك بعلم الهندسة والطب، ثم رجع إلى بلاد الأندلس، واستوطن مدينة سرقسطة ، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل (إخوان الصفاء)، لا أحد أدخلها قبله الأندلس ، وله عناية بالطب وله مجربات فاضلة فيه.[1]

وفي هذه الحاضرة نبغ أبو عبد الله أحمد بن الحسين ، وكان أخذ الطب عن عمه محمد بن الحسين وطبقته، وخدم به المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر، وانتقل في صدر الفتنة إلى مدينة سرقسطة واستوطنها، وكان بصيرا بالطب متقدما فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثيرا من علوم الفلسفة.[2]

ولا يحسن الحديث عن الفلسفة في أندلس الطوائف" وخاصة في تلك السنوات التي ارتفع فيها شأن الفكر والفلسفة في سرقسطة"[3] دون الحديث عن ابن باجة(462 هـ / 1070 م – 523 هـ/ 1138 م).

ولد ابن باجة في سرقسطة قريبا من نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، واشتغل طبيبا في بلدته، ولكنه نزح إلى إشبيلية وشاطبة بعد سقوط مدينته في يد النصارى عام(1118 م). ثم ذهب إلى فاس بالمغرب، وصار وزيرا في البلاط المرابطي، فكاد له أحد أعدائه و دس له السم[4] .

([1]) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم(تحقيق حسين مؤنس)، ص 92./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 509، 510.

([2]) صاعد الطليلطي: طبقات الأمم، ص 104.

([3]) محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 271.

([4]) حول ترجمة ابن باجة ينظر: الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 931 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب ج2.ص 119. وقد ذكره باسم محمد بن الحسين./ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ص 515 وما بعدها./ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص 432، 433./ المقري، نفح الطيب، ج7.ص 17 وما بعدها وقد عده المقري بالمغرب كأبي نصر الفارابي بالمشرق، وله عنده شعر في المصدر نفسه، ج3، ص 467. وقد جعله المقري كذلك" آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس." أزهار الرياض ج5، ص 98./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج4، ص 103./ وكتب عنه بالانثيا في تاريخ الفكر الأندلسي، ص 181 - 394. ومتفرقات ، ص 32، 38، 39، 151، 341./ وعقد له المستشرق الهولندي دي بور فصلا في كتابه : تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص 300 وما بعدها./ وخوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية، وتأثيراتها الغربية، ص78، 79 ميغيل كروز هرناندیس: الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية.(دراسة شاملة) ج2، ص 1101 وما بعدها./ روجي غارودي: الإسلام في الغرب قرطبة عاصمة العالم والفكر . ترجمة، ذوقان قرقوط، دار دمشق، ط1، 1995.، 86 - 99./ جوجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، م2، ص 108، 109./ وكتب عنه محمد عابد الجابري في كتابه: نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص 237 وما بعدها/ وكتب عنه إبراهيم الفيومي فصلا مطولا في كتابه " تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس. "ص 296 – 406.

يعد ابن باجة أحدا الشخصيات المهمة في الأندلس، حيث عاش عصر الطوائف والمرابطين، وعاش طفولته وشبابه وسني تحصيله في فترة حكم أسرة بني هود في سرقسطة، وخاصة في زمن المستعين بن المؤتمن بن هود. وإلى كونه فيلسوفا رياضيا وطبيبا، فقد كان موسيقيا، أقام سوق الموسيقى بالأندلس، متقنا لصناعتها، جيد اللعب بالعود، وإلى جنب ذلك كله فقد كان مؤلف موشحات وآثار شعرية أخرى.

كتب ابن باجة(AVEMPACE) عدة مؤلفات بقي منها قرابة سبعة وثلاثين مؤلفا لعل أشهرها رسالته القيمة المسماة (تدبير المتوحد) (ورسالة في اتصال العقول بالإنسان) و(رسالة الوداع).

" لقد شيد ابن باجة آثاره العظيمة في قلب الأزمة الاجتماعية والأخلاقية في الأندلس بعد سقوط الخلافة عام(1031 م) وتقسيم دولة الإسلام في شبه الجزيرة إلى ممالك صغيرة مستقلة (ممالك الطوائف)."[1] فقد جعل فلسفته في خدمة مشروع نهضة ووحدة بلاده الأندلس، المتمزقة سياسيا، واجتماعيا، كما فعل سلفه ابن حزم الظاهري قبله." هذا ما يدعو إلى الظن بأن المناخ السائد في سرقسطة قد أتاح لمثل هذه الشخصية للظهور"[2]

أما الشيء الجدير بالذكر فيما يخص ابن باجة، فهو كونه أحد المؤثرين الفاعلين في كل الفلاسفة الذين جاؤوا بعده، وخاصة الفيلسوف ابن رشد(الحفيد).

" ويؤكد ابن طفيل نفسه على أنه لم يكن هناك أي فيلسوف يطاول فيلسوف سرقسطة ابن باجة."[3] حيث بدأ أبو بكر بن الصائغ(" ابن باجة) بدراسات ارستطاليس"[4] فهو من هذه الناحية" يعطي انطباعا بمعرفته معرفة مباشرة بما كتبه أرسطو عن الطبيعة"[5].

([1])روجي غارودي: الإسلام في الغرب، قرطبة عاصمة العالم والفكر، ص 86.

([2])محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 271.

([3])المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

([4])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 38.

([5])الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 272.

وهو ما يؤكد من جانب آخر سمو الدراسات الفكرية والفلسفية في حاضرة سرقسطة وهي ثغر من ثغور الأندلس، مع ما تحمله كلمة" ثغر" من التماس الواقع بين حضارتين مختلفتين في أصولهما ومرجعياتهما الفكرية والعقدية، واحتمالات التأثير الحضاري بين الجهتين.

وليس الأمر مقصورا على ابن باجة عند ذكر الفلسفة في حاضرة سرقسطة، فقد وفد على هذه الحاضرة الفيلسوف اليهودي ابن جبريول(AVENCEBROL) (1020م/ 1070م).

و" كان شاعرا فيلسوفا يهوديا لجأ فترة من الوقت إلى بلاط سرقسطة".[1] ونحن نعتقد جازمين بأن ابن جبريول قد استفاد من الإرث الفكري والفلسفي والأدبي الكبير الذي خلفه الأندلسيون، ومادام قد لجأ إلى سرقسطة فمن المؤكد أنه استفاد من الإرث الفكري التليد الذي خلفه أبناء هذه الحاضرة.

" ولسوف يكون إسقاطا لحلقة هامة في الإثراء، الأخذ في التقدم في الفكر الأندلسي من ابن مسرة إلى ابن عربي، عدم ذكر إسهام هذا الشاعر الكبير والفيلسوف سليمان بن جبيرول"[2]

ويذهب روجي غارودي إلى أبعد من ذلك ، حينما جعل " مؤلفه الأساسي(ينبوع الحياة)(FONS VIACE) تركيبا من الاعتقاد اليهودي ومن فلسفة ابن مسرة التي يلخصها ويمنهجها، وبالطبع من الأرسطاطالية"[3]

وكان أخوه في الديانة ابن بكلارش يهوديا من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب، وله خبرة واعتناء بالغ بالأدوية المفردة، وخدم بصناعة الطب بني هود، ولابن بكلارش من الكتب، كتاب

([1])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 151 ، وراجع ما كتبه عنه روجي غارودي في كتابه : الإسلام في الغرب، قرطبة عاصمة العالم والفكر، ص 81 - 85. وقال عنه صاعد الأندلسي:" وكان منهم – أي اليهود – من أهل الاعتناء ببعض علوم الفلسفة، سليمان بن يحيى المعروف بابن جبروال من ساكني مدينة سرقسطة، وكان مولعا بصناعة المنطق ، لطيف الذهن، حسن النظر: احتضر وتوفي وقد أربى على الثلاثين، قريبا من سنة خمسين وأربعمائة./ 1085 م)." طبقات الأمم (تحقيق مؤنس) ص 11.

([2]) روجي غارودي: الإسلام في الغرب، قرطبة عاصمة العالم والفكر، ص 81.

([3]) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

المجدولة في الأدوية المفردة، وضعه مجدولا، وألفه بمدينة ألمرية للمستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بالله بن هود.[1]

ونبغ في سرقسطة أيام بني هود ، وفي عهد المستعين بالضبط، الأديب الفيلسوف، الكاتب المفكر، أبو بكر الطرطوشي(451 هـ / 520 هـ - 1059 – 1127 م)، وطرطوشة التي ينسب إليها إحدى الثغور التي تلحق بسرقسطة، وقد ذكرناه قبلا، واشتهر بكتابه (سراج الملوك) الذي يعد" بموضوعه ونظرياته المتبكرة من الكتب التي وصفت أسس السياسة الملوكية في التفكير الملوكي"[2]

وقد عرفت سرقسطة في هذه الفترة إلى جانب الفلسفة والمنطق ونحوهما، لونا آخر من التفكير الفلسفي، ألا وهو علم الكلام على الطريقة الأشعرية، من خلال يوسف بن موسى الأزدي الكفيف الأشعري السرقسطي، سكن إشبيلية وكان متكلما حاذقا، من تآليفه (الفصول والمقدمات في أصول الديانات) و (رسالة التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد) وقال عنه ابن بشكوال" كان من أهل التبحر والتقدم في علم التوحيد والاعتقادات. وهو آخر الأئمة العرب فيه، توفي فجأة سنة عشرين وخمسمائة"[3]

ونحن ندين بالاعتراف بالدور الحضاري الكبير الذي لعبته ثغور الأندلس التي كانت تقع على التماس مع ممالك الشمال المسيحي، ومنها " سرقسطة بالأخص، التي كان لها دور كبير في التبادل الثقافي والحضاري بين الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة، والدول الفرنجية الشمالية،

([1]) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص501.

([2]) الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 299./بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص 32./ وراجع ما كتبه عنه عنان في كتابه: تراجم إسلامية، شرقية وأندلسية، ص 289 وما بعدها. وقدر ذكرنا سابقا مصادر ترجمة الطرطوشي، إضافة إلى ذلك ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2 ص 355 – 357 ./ المقري: أزهار الرياض ، ج3، ص 162 – 165. / ج 4 ص 324./ طاش كبري زاده: مفتاح السعادة، ج1، ص 391، 392./ محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص 277. وعنوان الكتاب عنده .(كتاب نظم السلوك في وعظ الملوك ويعرف بسراج الملوك)./ وانظر المصدر نفسه ص 375، حيث أورد له رسالة في(تحريم جبن النصارى)، (رسالة في تحريم جبن الروم). نقلا عن مخلوف في شجرة النور الزكية./ وانظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، م 2/ص 114. وقد ذكر كتابيه(سراج الملوك)، و(تحريم الاستماع).

([3]) الصلة (طبعة دار الكتب العلمية) . ج 2ن ص 279. رقم (1523). الضبي: البغية، ص 429، 430 رقم (1448)./ ابن الزبير: صلة الصلة ص 342، 343. رقم(994).

وقد هيأ لها موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البيرنيه، أن تضطلع بهذا الدور الحضاري الخطير ".[1]

وهذا ما قد يفسر انتشار الفلسفة والمنطق والعلوم الرياضية والطبية، والتيارات الفكرية المختلفة، والحاملة للتأثيرات الحضارية المتنوعة.

أما في ميدان الأدب والشعر، فقد نالت حاضرة سرقسطة ومختلف المدن المحيطة بها، والتابعة لها، منهما حظا كبيرا، عكس ما ادعاه بعض الباحثين، من خفوت الصوت الأدبي مقارنة بالصوت العلمي والفلسفي في هذه الحاضرة، فإننا نرى الأمر عكس ذلك فقد كان الأدب والشعر في حاضرة سرقسطة، نافقي السوق، معموري الطريق، قد ضرب فيهما كثير من السرقسطيين بسهم. فكان حظهم فيهما وافرا.

كما أنجبت هذه الحاضرة شعراء كثرا، وأدباء لا يحصيهم عد كانوا من أهل التقدمة وذوي الحظوة والرتبة والمنزلة العالية عند حكام هذه المملكة.

وكثيرة هي المنتديات التي كانت تعقد في حاضرة سرقسطة وأرباضها، وحدائقها وبساتينها، وقصورها ومنتزهاتها، حيث تجري المبارزات الشعرية، وتعقد المجالس الأدبية والنقدية، والمعارضات، بين الشعراء والأدباء والنقاد، وحتى بين الملوك والوزراء.

ويروي ابن بسام خبرا عن المستعين بالله أنه ركب يوما بسرقسطة، يريد اطراد لذته، وارتياد نزهته، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلبته، واجتمع له من أصحابه من اختصه لاستصحابه، وفيهم أبو الفضل بن حسداي الوزير، فذكر الوزير أبو الفضل أبياتا شعرية جميلة في ذلك.[2] ثم أجابه نثرا بن هود عند فراره عنه.[3]

وبلغ ممن اعتناء أهل سرقسطة بالأدباء والشعراء، أن جلبت حاضرتهم الشعراء المفالق، والكتاب الفطاحل، والخطباء المصاقع.

([1])محمد ابراهيم الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 301.

([2]) الذخيرة : ق 1/3/ص 493، 494.

([3]) المصدر نفسه، ص 494.

وحتى من زار حاضرتهم وغادرها حن إليها، كشأن الوزير الكاتب أبي عمر الباجي، الذي استضافه ملك سرقسطة المقتدربن هود " فلما رحل عنهم، حن إليهم أي حنين، وقال في ذلك شعرا:

سلام على صفحات الكرم❖❖❖ على الغرر الفارجات العمم

على الهمم الفارعات النجوم ❖❖❖ على الأيمن الغامرات الديم

سلام شج لانقلاب المزار❖❖❖ نوى عزبة عن جوار أمم

شجي عن نزاع يذيب الدموع❖❖❖ بنار الجوانح لا عن ندم

وأي الندامة من مجمع ❖❖❖ على ما نوى همه أي هم

وهل يتلون رأي اللبيب ❖❖❖ إذا جد في أمره واعتزم[1]

وله قطعة أخرى وجهها إلى المقتدر بن هود بعد خروجه عنه ، عبر فيها عما يكنه لحاكم سرقسطة من جليل المشاعر، وفيض التقدير منها:" كتب مملوكه الملتحف في نعمائه، المتقلب في آلائه...[2]

ومن محبة الشاعر الكاتب أبي عمر الباجي لابن هود أن كتب له رسالة أخرى على لسان البهار إليه.[3] وبعد وفاة المقتدر بن هود، قال في تأبينه أبياتا جاء فيها:

كأنك ما اتخذت القصر دارا❖❖❖ولا أوقدت بالعلياء نارا

ولا غدت الجموع عليك خرسا❖❖❖ يهابون السكينة والوقارا

سكينة ألمعي في حباها ❖❖❖ شمائل تكسب الأنس النوارا

خلائق يستنير الفضل منها ❖❖❖ رياض حزن سامرت القطارا[4]

([1]) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان. ص 300، 301./ وترجمته عند ابن بسان في الذخيرة، ق 2/ ج1/ ص 186. وما بعدها.

([2]) ابن بسام : الذخيرة، ق 1/2/ ص 191.

([3]) المصدر نفسه: ص 194.

([4]) المصدر نفسه، ص 199 وما بعدها، وانظر ترجمته عند ابن سعيد في المغرب حيث يقول عنه " فقيه " جليل القدر رحل إلى المشرق، وحج وولي قضاء حلب وعاد إلى الأندلس ، فجل قدره عند المقتدر بن هود". ج1، ص 405.

ولم يكن الباجي وحده من نال عطايا حكام سرقسطة، فقد كان كثير من الشعراء يحظون بصلاتهم، ولأن هذه الحاضرة، هي زهرة الدنيا وفتنة المحيا، وعروس الثغور الأندلسية، وحاضرة الدهور الأيبيرية، فقد كانت ملجأ ومأوى وملاذ آمنا للعديد من الشعراء والأدباء الأندلسيين، ولا شك أن السبل الميسرة أمام الشعراء، والطرق المذللة وسخاء أهلها، وكرم حاكميها، من أسباب انجفال الشعراء إليها، والتنعم بخيراتها.

إضافة إلى أبي عمر الباجي السابق ذكره، فقد لحق بهذا الثغر الشاعر ابن الحداد القيسي، وحل ضيفا مبجلا مكرما عند بني هود و" له فيهم أيضا غير ما قصيد"[1]

ويحدد ابن بسام تاريخ دخوله سرقسطة بسنة إحدى وستين ، حيث أكثر المقتدر من بره وعلم أنه متشوق إلى شعره، فمدحه بقصيدة أولها:

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفان ❖❖❖ وأجرت عقيق الدمع في صحن عقيان

وألقت حلاها من أسى فكأنما ❖❖❖ أطارت شوادي الورق عن فنن البان

وأذهلها داعي النوى عن تنقب ❖❖❖ فحيا محياها بتفاح لبنان

وقد أطبقت فوق الأقاحي بنفسجا ❖❖❖ كما خمشت وردا بعناب سوسان[2]

ولابن الحداد القيسي قصائد في تهنئة المقتدر بن هود حينما هزم ابن ردمير الطاغية الذي بنى على حصون سرقسطة.[3]

ونظرا للعلاقة الوطيدة والقوية التي ربطت شاعر واد آش بحكام سرقسطة حتى بعد وفاة ملكها المقتدر بن هود، نجده يهنئ المؤتمن بن هود بمولود من جملة قصيدة أثبتها ابن بسام في ذخيرته[4]

([1])ابن بسام : الذخيرة، ق 2/1/ص 692.

([2]) المصدر نفسه، ص 725 وما بعدها ، وانظر القصيدة في ديوانه، ص 298 وما بعدها.

([3]) ابن بسام: الذخيرة ، ق 2/1/ص 726. 727.

([4]) المصدر نفسه: ص 727.

وأشهره من استقطبه الثغر الأعلى، الشاعر الكبير ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار، بعد خروجه من مرسية، فلم يشأ اللحاق إلا بثغر سرقسطة ، حيث لجأ إلى المؤتمن يوسف بن أحمد بن هود.[1] ولابن عمار قصة طريفة مع غلام المؤتمن بن هود، ذكرها صاحب الذخيرة[2] وهو ما يؤكد الصلة الوثيقة التي عقدها الشاعر ابن عمار مع ملوك بني هود.

وقد تعزز بلاط سرقسطة في عصر الطوائف بغير الأندلسيين الوافدين إلى شبه الجزيرة، منهم شاعر القيروان الكبير الحصري الضرير أبو الحسن علي بن عبد الغني(420 هـ/ 488 هـ - 1029 م / 1095 م) صاحب الموشح الشهير" ياليل الصب من غده" الذي دخل الأندلس بعد الخمسين وأربعمائة[3].

والظاهر من تاريخ دخول الحصري القيرواني الضرير إلى شبه الجزيرة الأيبيرية والتحاقه ببلاط بني هود في سرقسطة، أن ذلك كان في فترة حكم المقتدر بن هود حيث نجده يشارك في أحداث عصره، وينشئ قصيدة جميلة في مدح المقتدر، حين غلب علي بن مجاهد على دانية جاء فيها:

كذا تفتض أبكار البلاد ❖❖❖ ولا مهر سوى البيض الحداد

هديت العسكر الجرار ليلا❖❖❖ فأهديت الظباة إلى الهوادي

مـلأت بـه الفضـاء ليـلا❖❖❖محت فيه الظبا شكل السواد[4]

وبعد وفاة المقتدر ملك سرقسطة، قام الحصري مرات يتحسر على ذلك الزمن الجميل في ظل حكم بني هود[5] مما يدل على عمق الصلة بين الشاعر وحكام سرقسطة.

والأندلس كلها تدين للحصري القيرواني بالإضافة النوعية التي أسهم بها في الحياة الثقافية، ليس من باب الأدب والشعر فقط، والذي نالت حاضرة سرقسطة نصيبها منه. وإنما في مجال آخر اشتهر

([1])المصدر نفسه: ق1/2/ص 371، 410، 415.

([2]) المصدر نفسه، ص 388.

([3])الحميدي: جذوة المقتبس، ص 382.

([4])ابن بسام الذخيرة، ق1/4/ص 263 وما بعدها.

([5])المصدر نفسه، ص 670، مابعدها.

به، وهو (فن القراءات)، فقد كان " عالما بالقراءات وطرقها"[1] وقال عنه ابن الجزري:" أستاذ ماهر، أديب حاذق، صاحب القصيدة الرائية في قراءة نافع، وناظم السؤوال الدالي ملغزا: سألتكم يا مقرئي الغرب كله، والذي أجابه عنه الشاطبي"[2]

ولسنا نعلم على وجه الدقة في أي مكان كتب فيه الحصري مؤلفاته في القراءة، ولكن الشيء الأكيد، هو إقامته بسرقسطة مدة طويلة، فلعله يكون قد كتب هناك هذه المؤلفات.

وإذا أضاف الوافدون على حاضرة سرقسطة من الأندلسيين ومن غير الأندلسيين في مجال العلم والأدب والشعر، فغن أبناء هذه الحاضرة قد جعلوها ثنية غذيت بالأدب، فأربوا بها في سماء الرتب، فما من هذه الحاضرة أو أرباضها وضواحيها إلا شاعر أو أديب أو كاتب بلغوا في ذلك شأوا بعيدا.

فقد ضمت هذه الحاضرة الوزير الأديب أبا الفضل بن حسداي، الذي سابق فبرز، وأحرز من البلاغة ما أحرز ، وجرى في ميدانها إلى أبعد أمد وبنى أغراضها بالصفاح، والعمد .[3]

وكان أبو الفصل هذا الوزير المقرب في بلاط بني هود، والكاتب الأبرز بين أقرانه في هذه الحاضرة.

كما ضمت هذه الحاضرة الشاعر الكبير يحيى بن الجزار السرقسطي، ويظهر من خلال آثاره أنه شاعر مجود، وله شعر غزير يدل على انتمائه إلى طبقة الشعراء المفالق.[4]

([1])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 345.

([2])غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص 764، وقصيدة الحصري في قراءة نافع بلغت مائتا وتسعة أبيات وهي رائية عارض بها قصيدة أبي مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني البغدادي (248 هـ/ 325 هـ - 862 م/ 937م).

وللحصري القيرواني ديوان شعر وكتاب (اقتراح القريح واجتراح الجريح). وقد ذكرنا مصادر ترجمته في المبحث المتعلق بالتواصل الثقافي بين تونس والأندلس، إضافة إلى ذلك ينظر، الدباغ: معالم الإيمان، م2/3/ ص 203. رقم (320)./ السلفي: المعجم، ص 63، 64، 65، 110، 111./ ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج2، ص 158، 159.

([3]) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ، ص 545، وترجمته في المصدر نفسه، ص 542 - 551./ ابن بسام: الذخيرة ، ق 1/3/ص 457 وما بعدها./ ابن دحية: المطرب، ص 170. 171./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 441./ أبن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 499./ العماد الأصفهاني: خريدة القصر(قسم شعراء المغرب والأندلس) ج3، ص 460 وما بعدها، ترجمة رقم(120)./ المقري: نفح الطيب، ج1، الصفحات، 640 - 642. وفي مواضع متفرقة من الكتاب./ إحسان عباس، أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السفر للسلفي، ص 129، 130.

([4])انظر ترجمته عند ابن بسام: الذخيرة، ق 2/3/ص 905 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب ج2، ص 444./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص 464، 598./ وله شعر عند ابن الأبار في التكملة (تحقيق عبد السلام الهراس) ج2، ص 25.

وقد جمع شعره، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مطروح التجيبي(540هـ / 606 هـ) في كتاب سماه(روضة المحاسن، وعمدة المحاسن).[1]

وكان عريب بن عبد الرحمن بن عريب القيسي(ت 513 هـ) السرقسطي الذي استقر بمرسية وكان من أهل العربية والأدب.[2] وإذا انتقلنا إلى العلوم الدينية بفروعها المختلفة، كالتفسير والقراءات والفقه والحديث، عز علينا حصر أو ذكر العلماء المبرزين في هذا المجال لكثرتهم، فقد اصطنعت سرقسطة أجيالا في هذا الاختصاص، وتهيأ لها بما اجتمع في حاضرتها من أبنائها والوافدين، إليها أسباب النضج والارتقاء إلى الممالك المزدهرة والمحترمة في هذا الاختصاص.

وكان في طليعة العلماء المقرئين الأفذاذ الذين دخلوا إلى هذه الحاضرة في هذه الفترة أبو العباس أحمد بن علي بن هاشم المصري(ت 370 هـ/ 445 هـ)، وهو تاج الأئمة، وهو مقرئ حافظ ومسند كبير، قدم الأندلس ودخل سرقسطة مجاهدا سنة (420 هـ) وكان أحفظ الناس لاختلاف القراء وأخبارهم، وقد تتلمذ عليه في الأندلس، أبو عمرو الطلمنكي، وأبو عمر بن الحذّاء وغيرهما[3]

وقد أنجبت حاضرة سرقسطة الفقيه عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن فورتس(424 هـ / 495هـ) تلميذ الأعلام الكبار أبي الوليد الباجي، وأبي عمر الطلمنكي وأبي عمرو السفاقسي، وأبي الفتح السمرقندي، كان وقورا مهيبا فاضلا، وقد نوظر عليه في المسائل، قال عنه القاضي ابن سكرة: كان أفهم من يحضر عنده، واستقضي ببلده، وكان محمود السيرة في قضائه.[4]

كما أنجبت حاضرة سرقسطة من خلال إحدى أعمالها المعروفة بركلة، الفقيه عبد الله بن محمد بن دري التجيبي، تلميذ أبي الوليد الباجي وأبي مروان ابن حيان وغيرهما. وكان من أهل الأدب أيضا، توفي سنة (513 هـ)[5]

([1]) ابن الأبار: التكملة، ج2، ص 95، رقم(254).

([2]) ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص 293.

([3]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية). ص 85، رقم (186).

([4]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 241. رقم (637).

([5]) المصدر نفسه: ص 242، 243، رقم(642).

وهل يمكن أن نضرب صفحا عن المقرئ الكبير، عبد الله بن إدريس السرقسطي (515 هـ) الذي كان من أهل الضبط والأداء، وسكن سبتة وتصدر في جامعها للإقراء.[1]

وكانت هذه الزمرة الفاضلة من العلماء لها نظائرها كذلك من أهل هذه الحاضرة، ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن عمر (ت468 هـ). وكان فقيها أديبا دينا عاقلا من أخط الناس.[2]

وكثير هم العلماء والقضاة والفقهاء المتعففون الذين عاشوا في سرقسطة في ظل حكم بني هود، منهم أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن عقبة(ت468 هـ)، الفقيه العالم، الزاهد، الورع، حيث أراد المقتدر بالله أن يوليه الأحكام بسرقسطة، فأبى عليه وحلف ألا يقبلها، فأعفاه منها.[3]

ويذكر ابن بشكوال فقيها، من أكابر فقهاء سرقسطة في عصر الطوائف، وهو إبراهيم بن جعفر الزهري(371 هـ / 435 هـ - 981 م / 1044 م)، ويعرف بابن الأشيري، الفقيه العالم، الحافظ للرأي، وقد اختصر كتاب (المدونة).[4]

وقد ضمت حاضرة سرقسطة كذلك محمد بن وهب(ت 458 هـ) المعروف بنوح الغافقي، حيث كان معدودا في فقهاء بلده، وكان من نبهائهم.[5]

وعندما يذكر علماء سرقسطة في عصر الطوائف، تتجه الأذهان إلى الفقيه الكبير عبد الله بن يحيى السرقسطي أبي محمد(ت510 هـ)، وكان فقيها فاضلا بارعا لطيف الطبع مليح الشعر، ورد بغداد فأقام بها مدة في النظامية في حدود سنة خمسمائة. ونحن نعلم أن أبا حامد الغزالي كان حيا في هذه السنة، وكان أستاذا في المدرسة النظامية، ولا نستبعد أن أبا محمد السرقسطي قد درس عليه ، وتتلمذ له هناك ثم خرج إلى خراسان وورد مرو، ثم عطف منها إلى مرو الروذ، وسكنها حتى توفي بها. وقد حفظت له أبيات شعرية يخاطب بها ممدوحه.

([1])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 243، رقم (644).

([2]) المصدر نفسه: ص 278 .رقم(725).

([3]) المصدر نفسه: الصفحة نفسها ، رقم(724).

([4]) المصدر نفسه، ص 92، رقم(212)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص 221، 222 رقم(136)./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج1، ص 18.

([5]) ابن الأبار: التكملة(تحقيق الهراس). ج1، ص 317.رقم(1121).

أيا شمس إني إن أتتك مدائحي ❖❖❖ وهن لآل نظمت وقلائد.

فلست بمن يبغي على الشعر رشوة ❖❖❖ أبى ذاك لي جد كريم ووالد

وإني من قوم قديما ومحدثا ❖❖❖ تباع عليهم بالألوف القصائد[1]

وهذه طائفة يسيرة من علماء حاضرة سرقسطة، ممن عمرت بهم هذه الحاضرة، وممن كانت بهم حياة معالم العلم والدرس. ولا غرو ، فقد دخل العلم إلى سرقسطة قديما مع الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية، حيث دفن بها التابعيان حنش بن عبد الله الصنعاني(ت100 هـ / 718 – 719) الذي بنى مسجد قرطبة ، وعلي بن رباح الخمي(ت 114 هـ/ 732 م). في مقبرة الباب الجنوبي[2]

أخيرا وفي ختام هذا المبحث نقول ، إن حاضرة سرقسطة قد احتفلت في أيام بني هود وعظمت بين دول الطوائف، وفي أيامهم شهدت هذه المملكة أزهى عصورها وأبهى دهورها، حيث برز حكام بني هود في العلوم، وتخصصوا في المعارف.

فعاشت الثقافة في أكنافهم أرقى صورها، من مفتتح حكمهم إلى غاية انطفاء جذوة هذه الأسرة، وفي حضرتهم ظهر أعلام الأدب والشعر والبلاغة والنقد، وجمع غفير من الفقهاء والمحدثين، والرؤساء المقرئين، والمفسرين المجودين، والأصوليين الكبار. وقد شارك أفراد هذه الأسرة وأسهموا في صنع الثقافة في هذه الحاضرة ، وأبدعوا فيها، وتنافسوا في ذلك.

وقد حل بظاهر حضرتهم وبرزت في ثغرهم الدراسات الفلكية والرياضية والفلسفية والمنطقية وهي ميزة اختصت بها ممالك الثغور مثل بطليوس وطليطلة وغيرهما، حيث نشطت الدراسات الفلسفية والفكرية، بحكم تجاور الممالك الإسلامية والممالك المسيحية، وكانت هذه الدراسات إيذانا بحوار حضاري فكري بين الثقافات المتناقضة والمتجاورة، وقد رأينا أعلاما من الفلاسفة اليهود الذين عاشوا في هذه الحاضرة مثل ابن جبريول وابن بكلارش.

([1]) العماد الأصفهاني: الخريدة(قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج 1. ترجمة رقم(103)./ المقري : النفح ، ج2، ص 110.

([2]) الحميري : الروض المعطار، ص 33، 317. وقال عنهما: " وهما من جلة التابعين بمدينة سرقسطة وقبراهما بها معروفان بمقبرة باب القبلة." ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص 111/ الحميدي: جذوة المقتبس، ص 178./ الضبي: بغية الملتمس، ص 240./ راجع ما كتبه المستشرق ليوبولد تورس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص 385.

IV -4-2- المبحث الرابع: بنو صُمادح وحاضرة ألمرية:

ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث، والمتعلق بالحياة السياسية ، أصول هذه الأسرة العربية، وبينا محاتدها ، إذ تعد أعرق البيوتات العربية في الأندلس، من أبعدها ذكرا.

ورغم صغر حجم مملكة آل صمادح ، إلا أن التاريخ الثقافي، والمجد العلمي والأدبي لهذه المملكة، طغى على الجوانب الأخرى، فلا تكاد تذكر إلا مقرونة بهذا المجد الأثيل، ومقروءة مع هذه الحضارة الزاهية، وهذا الإرث الثقافي السامق الذي رفع علاه بنو صمادح أصحاب ألمرية، فقد وصفهم ابن دحية بقوله:" وبنو صمادح بيت العلوم الفائقة والآداب الرائقة"[1]

ونستثني في حديثنا عن الثقافة في هذه الحاضرة الصغيرة، الكبيرة، حكم الفتيين العامريين لألمرية، خيران ومجاهد، وسنأتي إلى ذكرهما أثناء حديثنا عن دانية والجزائر الشرقية، كما نستثني الحكم القصير لعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية الذي كتب له سكان ألمرية يستدعونه لحكمها، بعد أن استولى باديس على الجزء الشمالي الغربي من أراضي ألمرية، فقد عفى حكم بني صمادح على من سبقهم في حكم هذه المملكة الصغيرة.

وتبدأ شؤون هذه الأسرة، ويبدأ تاريخها في حكم المدينة مع الوزير أبي الأحوص معن بن صمادح ، صهر عبد العزيزر بن أبي عامر صاحب بلنسية؛ حيث تركه عبد العزيز ليرعى شؤون المدينة، وخرج لقتال مجاهد العامري صاحب دانية وجزر البليار؛ فاستأثر معن بالسلطة واستولى على هذه المملكة، وجاهر بخلع الطاعة، فاستولى على ألمرية وأعمالها وذلك سنة(433 هـ/ 1041 م) .[2]

و معن هو ابن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ابن صمادح، وبه عرف بيتهم، وصمادح هذا هو ولد عبد الرحمن بن عبد الله ابن المهاجر بن عميرة، وهو جدهم الداخل إلى الأندلس.([3])

([1]) المطرب: ص 44، وانظر المقري، النفح ، ج3، ص 366 وما بعدها./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 30، 31.

([2]) ابن بسام: الذخيرة، ق 2/1/ ص 730، 731./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 195./ ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص 167./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 190.

([3])محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (عصر الطوائف)، ص 164، 165.، وانظر النسب كاملا عند لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص 189.

وكان والد معن ، وهو محمد ابن أحمد بن صمادح المكتني بأبي يحيى صاحب مدينة وشقة وعملها" رجل الثغر رأيا ومعرفة، ودهاء ولسانا وعارضة.[1]

قال عنه ابن الأبار:" محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبي من أهل سرقسطة، وكان واليا على وشقة، ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى.

يكنى أبا يحيى ، كان مع رياسته من أهل العلم و الأدب والفضل، وله اختصار في غريب القرآن، استخرجه من تفسير الطبري ورواه عنه ابنه أبو الأحوص معن بن محمد أمير ألمرية (ت 419 هـ)".[2]

وأما معن فقد جنى عليه استبداده بحكم ألمرية، وغدره بصهره عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، فوصفه بعض المؤرخين بأشنع الصفات.[3]

إلا أن فريقا آخر من المؤرخين قد أثنوا عليه، وكان عندهم وجيها. فقد وصفه ابن عذارى المراكشي بأنه" من كبراء العرب"[4] وقال عنه العذري:" إنه من أهل الدهاء والعلم والأدب"[5]

وذكر عنه ابن الأبار أنه كان مرضي السيرة عدلا باسطا للحق مبرأ من الدماء والهوادة في الأموال، وكان ذا حظ من الأدب، وقد روى عن أبيه مختصره لغريب القرآن الواقع في تفسير الطبري .[6]

وبعد وفاته في ثلاث وأربعين وأربعمائة، خلفه ابنه أبو يحيى محمد بن معن وتلقب بالمعتصم.[7] مشى المعتصم (ت484 هـ / 1091 م) على سيرة الملوك المثقفين ، فقد نعمت الرعية بحضرته، وصارت حاضرته مرتعا خصبا للعلوم والمعارف والآداب والشعر، وموطنا آمنا تجبى إليه خيرات شبه الجزيرة، فضلا عن علمائها وشعرائها والنابهين فيها.

([1])ابن بسام: اذخيرة، ق 2/1/ص 730.

([2]) التكملة لكتاب الصلة(تحقيق عبد السلام الهراس)، ج1، ص 308، رقم (1081).

([3]) ابن بسام: الذخيرة، ق 2/1/ص 730، 731.

([4]) البيان المغرب.ج3، ص 197.

([5]) نقلا عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الطوائف)، ص 164.

([6]) التكملة: ج2، ص 202، رقم(551).

([7]) ابن الخطيب: أعمال الإعلام، ص 190./ ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص 167، 168.

وكان المعتصم كما وصف" من أهل الأدب والمعارف، فاضلا، عاقلا."[1] رحب الفناء جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال.[2] وقال عنه الفتح بن خاقان:" ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظامها في مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أوانه وسمها، ولم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة.[3]

وكانت همة المعتصم بن صمادح كبيرة في طلب العلم، وتحصيل الثقافات، والتهمم بشتى الاختصاصات، وأثر عنه من ذلك شيء كثير وقد روى عن أبيه عن جده مختصره لغريب القرآن الواقع في تفسير الطبري.[4]

وكل من كتب عنه قال بأنه مقصد للشعراء، حيث كان " لأهل الشعر عنده سوق نافقة، فقصده منهم."[5] ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت كأبي عبد بن الحداد وأبي الفضل بن شرف، وابن عبادة وابن الشهيد وغيرهم[6].

وكان المعتصم يجل العلماء والفقهاء ويعرف أقدار أهل العلم والفضل، فحينما توفي العالم والمحدث أبو العباس ابن الدلائي(ت478 هـ) مشى في جنازته.[7]

([1]) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص 168.

([2]) ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص733.

([3])قلائد العقيان: ص 146، وترجمته عنده، ص 146 وما بعدها./ ابن بسام: الذخيرة، ق 1/2/ص 729 وما بعدها./ ابن دحية: المطرب، ص 44 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 159.وما بعدها./ ابن الأبار: الحلة السيراء(طبعة دار الكتب العلمية) ص 218 وما بعدها./المراكشي: المعجب، ص 56 ن 96، 97./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 190 وما بعدها./ المقري: نفح الطيب، ج1، ص 666، 667. وله شعر عنده في المصدر نفسه، ج3، ص 328.، 329./ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص 21. وما بعدها. رقم(687)./ العماد الأصفهاني: خريدة القصر(قسم شعراء المغرب والأندلس). ج2، ترجمة رقم(129)./ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3ن ص 372، 373./ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الطوائف).ص 166. وما بعدها.

([4])ابن الأبار: التكملة، ج2، ص 202.

([5]) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص 168.

([6])ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ ص 733. والوصف عند ابن عذارى في البيان المغرب، ج3، ص 175.

([7])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية).ص 71.

غلى جانب ذلك كله كان المعتصم شاعرا، وقد حفظت لنا المصادر وكتب التاريخ كثيرا من شعره، من ذلك ما رواه ابن دحية الكلبي:

يامن بجسمي لبعده سقم ❖❖❖ ما منه غير الدنو يبريني

بين جفوني والنوم معترك❖❖❖ تصغر عنه حروب صفين

إن كان صرف الزمان أبعدني ❖❖❖ عنك فطيف الخيال يدنيني[1]

ومن شعر المعتصم وقد توفيت إحدى كرائمه فركب من قصره وأمر بمواراتها:

لما غدا القلب مفجوعا بأسوده ❖❖❖ وفض كل ختام من عزائمه

ركبت ظهر جوادي كي أسليه❖❖❖ وقلت للسيف كن لي من تمائمه[2]

وله وكتب به إلى بعض حرمه في رقعة طيرها إليها في جناح حمامة:

وحملت ذات الطوق مني تحية ❖❖❖ تكون على أفق المرية مجمرا.

تبلغ من ودي إليكم رسائلا ❖❖❖ بأعبق من نشر العبير وأعطرا [3]

وفي إحدى القطع الشعرية كتب إليه ابن عمار يسأله السراح، وهو ضيف عنده، فرد عليه المعتصم بأبيات شعرية جميلة، فعلق ابن الأبار على هذا المقام قائلا:" فراجعه المعتصم وهو أشعر منه في الجواب".[4]

وقال عنه ابن خلكان: "و له أشعار حسنة فمن ذلك ما كتبه إلى أبي بكر بن عمار الأندلسي يعاتبه:

وزهدني في الناس معرفتي بهم ❖❖❖ وطول اختباري صاحبا بعد صاحب.

([1]) ابن دحية: المطرب، ص 45.

[2])ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 220.

([3]) ابن الأبار: الحلة السيراء(طبعة دار الكتب العلمية).ص 220.

([4]) المصدر نفسه: ص 221.

فلم ترني الأيام خلا تسرني❖❖❖ بواديه إلا ساءني في العواقب.

ولا صرت أرجوه لدفع ملمة ❖❖❖ من الدهر إلا كان إحدى النوائب[1]

ورث المعتصم بن صمادح موهبته الشعرية، وحب العلم والمعرفة إلى أبنائه من بعده، فقد كان" بنوه معز الدولة، ورفيع الدولة، ورشيد الدولة، من شعراء العصر، ولهم جميعا آثار شعرية انتهى إلينا الكثير منها، وكانت أم الكرام بنت المعتصم كذلك شاعرة عصرها"[2]

أما الواثق عز الدولة، أبو محمد عبد الله، فقد كان شاعرا كبيرا كما ذكر عنه المؤرخون، وذكر المقري في خبر عن ابن اللبانة الشاعر قال:" ما علمت حقيقة جور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة ابن المعتصم بن صمادح فإني رأيت منه خير من يجتمع به، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإحياء الفضائل... مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه، ورقة طباعه ولطافة ذهنه"[3]

وبلغ من جودة شعر عز الدولة هذا ، أن ذكره الشقندي فقال:" إن عز الدولة أشعر من أبيه"[4] أما شعره وما أثر عنه، فمبسوط عند من ترجموا له، من ذلك قصيدة قالها بعد حلوله بمدينة بجاية الجزائرية عاصمة بني حماد، وذلك بعد زوال ملك أبيه في ألمرية.

- لك الحمد بعد الملك أصبح خاملا ❖❖❖ بأرض اغتراب ، لا أمر ولا أحلي.
- وقد أصدأت فيها الهوادة منصلي ❖❖❖ كما نسيت ركض الجياد بها رجلي.
- ولا مسمعي يصغي لنغمة شاعر❖❖❖ وكفي لا تمتد يوما إلى بذل.

([1]) وفيات الأعيان: ج3، ص 22./ والأبيات عند الفتح بن خاقان في القلائد ، ص 152 وما بعدها .

([2]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الطوائف).ص 170.

([3]) نفح الطيب، ج3، ص 368.

([4]) المصدر نفسه، ص 369. وله شعر في الصفحة نفسها، وانظر المؤلف نفسه: أزهار الرياض ج5، ص 139 –173./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 201، 202./ ابن الأبار الحلة السيراء(طبعة دار الكتب العلمية)، ص 222.. وما بعدها، وسماه" عبيد الله عز الدولة أبو مروان".

طريدا شريد لا أؤمل رجعة❖❖❖ إلى موطن بوعدت عنه ولا أهل[1]، وله أشعار أخرى تنبئ عن قريحته، وعن جودة إبداعه. أما أخوه أبو يحيى رفيع الدولة بن صمادح" فلم يكن في بني صمادح أشعر منه"[2]

وقال عنه الفتح بن خاقان:" وله أدب كالروض إذا زهر، والصبح إذا شهر، وقفه على النيسب، وصرفه إلى المحبوب والحبيب"[3]

ومن أشعاره في النسيب قوله:

- يا عابد الرحمن ليلة ❖❖❖ أرقتني وجدا ولم تشعر
- إذا كنت كالغصن ثنته الصبا ❖❖❖ وصحن ذلك الخد لم يشعر.

وقوله أيضا:

- مالي وللبدر لم يسمح بذروته❖❖❖ لعله ترك الإجمال أو هجرا.
- إذ كان ذاك لذنب ما شعرت به❖❖❖ فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا.[4]

وأما أخوهما أبو جعفر ابن المعتصم، فقد كان شاعرا مفلقا أيضا " جرى في طلق أبيه وإخوته، فأحسن في النظام إحسانا أوجب أن ينبه عليه، ومن ذلك قوله:

- أتى بالبدر من فوق القضيب❖❖❖ فطارت نحوه طير القلوب
- وأشرق ما بأفق من ظلام ❖❖❖ لنور منه في أفق الجيوب.
- وولى بعد تأنيس وبر ❖❖❖ كمثل الشمس ولت للمغيب[5]

وتشارك أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح إخوتها وأباها في نظم الشعر، وإنشاء الموشحات، وكان المعتصم والدها قد اعتنى بتأديبها لما رآه من ذكائها، وقد أثر عنها أنها أديبة شاعرة سريعة

([1])ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 201

([2])ابن الأبار: الحلة (طبعة دار الكتب العلمية).ص 244، وترجمته في المصدر نفسه، ص 224 وما بعدها .

([3])مطمح الأنفس : ص 102.

([4])المصدر نفسه: الصفحة نفسها./ وانظر ترجمته عند ابن بسام في الذخيرة، ق 2/1/ص 137 وما بعدها./ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 199.200./ المقري: نفح الطيب، ج3 . ص 396، 387./ ج7، ص 43، وهو عنده" أبو زكريا يحيى بن المعتصم." وانظر المؤلف: أزهار الرياض، ج5، ص 143 -146.

([5]) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 200.201./ المقري: نفح الطيب، ج3، ص 370، 371./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 141.

الجواب، صاحبة فكاهة ودعابة، وعشقت الفتى المشهور بالسمار، وكان جميلا حسن الخلقة، وقالت فيه أبياتا شعرية منها:

- يا معشر الناس ألا فاعجبوا ❖❖❖ مما جنته لوعة الحب
- لولاه لم ينزل ببدر الدجى ❖❖❖ من أفقه العلوي للترب
- حسبي بمن أهواه لو أنّه ❖❖❖ فارقني تابعه قلبي[1]

وقد أصاب الأدب والشعر في حاضرة ألمرية ما أصاب باقي العلوم من الرفعة والسمو في هذا العصر، وظهر المجيدون منهم وبرز المعلقون من الشعراء والأدباء، وظهرت ثمار ذلك كله في ألمعية الأسماء، وثقل الأعلام الذين مثّلوها، وذلك منذ عصر زهير وخيران. منهم أبو الحسن مختار ابن عبد الرحمن الرعيني.[2] والوزير الشهير أحمد بن عباس الشهير الذي سبق ذكره. "ومن ذا الذي يستطيع إحصاء مئات الشعراء الآخرين الذين يندرجون في طبقات تلي طبقات" [3] في فترة حكم زهير وخيران فقط. منهم حتى الشاعرات مثل الغسّانة البجانية الشاعرة ذائعة الصيت التي كانت تمدح الملوك، وقد مدحت خيران العامري نفسه.[4]

---

[1] ابن سعيد: المغرب، 2، ص 202./ المقري: نفح الطيب، 4،ص 170./ بلالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 41./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي الأندلسي، ص 97./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 279./ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 147 149./ أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ، 1 2001. 1421هـ، ص 122 143./ يوسف فرحات، يوسف عيد/معجم الحضارة الأندلسية.

[2] ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، 2، ص 207 208. وقال عنه: " قاضي ألمريّة وعالمها ورئيسها في الأمور الشرعية وحاكمها، قدّمه عليها زهير العامري. " وقال عنه ابن بشكوال: " كان جامعا لفنون من العلم والمعرفة واستقضي بالمرية فأحسن السيرة واستقلّ بالحكم، وتوفي بقرطبة، وقد قدمها من ألمرية زائرا لبعض أهله سنة خمس وثلاثين وأربعمائة. "/ الصلة (طبعة المكتبة العصرية، ص 484. رقم 1377)./ المقري: النفح ج ، ص / صاعد الطليطلي: طبقات الأمم. (تحقيق حسين مؤنس)، ص 93.

[3] إيمليوا غارسيا غومس: الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ص 53.

[4] الحميدي: الجذوة، ص 373 374. رقم 987)./ الضبيّ: البغية، ص 474 475.رقم 1588)./ابن باشكوال:الصلة،ص 534، رقم 1541)./المقري: النفح، 4، ص 170 171. وقال عنها: " بالنون نسبة إلى بجانة وهي كورة عظيمة، وتشتهر بإقليم ألمرية. "./الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس ص 62 63./ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص 144 145./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 100./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 257، 258./ أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص 337 343.

ويقال بالإجمال إنّ الشعر والأدب في حاضرة ألمرية في فترة حكم زهير خيران فقط قد سما إلى أعلى الرتب وظهر غير واحد من الأدباء والشعراء. كما تبوّأت ألمرية " مركز العاصمة منذ سنة خمس وأربعمائة للهجرة 1014م) على يد خيران العامري ومنذ بداية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي والوفود ترد إليها من مدن الأندلس. ولاسيما من قرطبة التي طحنتها الفتنة البربرية ومن بجانة التي بدأت تخرب بعمارة ألمرية."[1]

أما حاضرة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح. فقد كانت يومئذ في نهضة علمية، بدأت تسمو وتربو في ظل حكم هذه الأسرة، حيث بذل أفرادها كلّ غالٍ ونفيس في استجلاب الشعراء والأدباء وأهل العلم والفكر. وكان القائمون على شؤون هذه المملكة يبذلون الأموال في تقريب أهل العلم، واستجلابهم والحدب عليهم، حتى أدخلوهم في حاضرتهم وانتدبوهم بحوزتهم.

" وقد نوّهت الرّوايات المعاصرة والقريبة من العصر بحماية المعتصم لدولة الشعر والأدب"[2] وكان بلاط المعتصم منتدى لطائفه من أكابر شعراء العصر"[3] ولا عجب في ذلك فقد كانت حاضرة ألمرية بجمالها تستحث خواطر الشعراء. وتسمو بمداركهم، وتشحذ قرائحهم وأذهانهم. وسنتكلّم على أمثلة يسيرة من كل لون وفن على ما يأذن به المقام، فقد ضمّ بلاط بني صمادح أشهر شعراء عصر الطوائف، مثل الشاعر ابن الحداد القيسي الوادي آشي 480هـ). وهو صاحب القصيدة البديعة في مدح المعتصم بن صمادح:

- لعلّك بالوادي المقدس شاطئُ ❖❖❖ فكالعنبر الهندي ما أنا واطئُ
- وإنيَ من ريّاك واجدُ ريحهم❖❖❖فروحُ الهوى بين الجوانح ناشئ
- ولي في السُّرى من نارهم ومنارهم❖❖❖حداة هداة والنجوم طوافئ[4]

---

[1] مريم قاسم طويل: مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص 24.

[2] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص 169.

[3] المصدر نفسه: ص 168.

[4] ابن خلكّان: وفيات الأعيان، 3، ص 22./ ديوانه: ص 140 141.

"وقصده من شعراء الأندلس، أبو القاسم أسعد بن بليطة وهو من فحول شعرائهم ومدحه بقصيدته الطائية التي أولها:

- برامة ريم زارني بعدما شطَّا❖❖❖تقنصْته في الحلم بالشطّ فاشتطا
- رعى من أناس في الحشا ثمر الهوى❖❖❖جنيّا ولم يرع العراز ولا الخمطا"[1]

كما كان وزيره أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم شاعرا مقتدرا، أقام بدانية مدة عند إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، ثم صار إلى المعتصم بن صمادح، وكان من وجوه رجاله ونبهاء أصحابه.[2]

وكان من شعرائه المختصين به، أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، إمام الموشحات في الأندلس. ومن أكبر القائمين على هذا الفن في أندلس عصر الطوائف[3]

كما ضمّ بلاط المعتصم، الشاعر الفيلسوف، أبا الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي البرجي القيرواني 444هـ/ 1052م - 534هـ/ ؟) الذي خرج عن القيروان سنة 447هـ) واستوطن برجة من ناحية ألمرية، وكان شاعر وقته غير مدافع[4] ،وأبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالسُّميسر. (ت 480هـ/ 1087م) وكان من شعراء إلبيرة (غرناطة)، ثم غادرها لأنه لم يطق العيش في ظل أمرائها بني زيري، ولجأ إلى بلاط المعتصم بن صمادح بألمرية.[5]

وكان كثير من" هؤلاء الشعراء يؤثرون بلاطه – أي المعتصم بن صمادح – على بلاط المعتمد بن عباد نفسه".[6] منهم حتى كبار شعراء المعتمد والمختصّين به كابنِ اللبّانة الداني. " وساعد المعتصم على دفع النشاط الأدبي من خلال المجالس الأدبية التي كان يعقدها و يرعاها بقصره".[7] حيث كان

---

[1]) ابن خلكّان: وفيات الأعيان، 3، ص 23.

[2]) المقري: النفح 3، ص 498 499. وستأتي مصادر ترجمته مفصلة في الفصل الموالي.

[3]) المقري: أزهار الرياض، 2، ص 207 208. وستأتي مصادر ترجمته مفصلة في الفصل الموالي.

[4]) ابن بسام: الذخيرة، 3 2 867 - 886. ولنا عودة مفصلة إلى مصادر ترجمته في الفصل الموالي.

[5]) المصدر نفسه: 1 2/ ص 882 904

[6]) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس، ص 176.

[7]) مريم قاسم طويل: مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص 105.

كان يؤثر العيش الهادئ بقصره الأنيق المشرف على البحر والمسمّى (الصُّمادحية) و يُنفق كثيرا من وقته في المجالس الشعرية والأدبية".[1]

من ذلك ما ذكره الفتح بن خاقان عن أحد الوزراء أنه حضر مجلسه بالصُّمادحية، في يوم غيمٍ وفيه أعيان الوزراء، ونبهاء الشعراء، فقعد على موضع يتداخلُ الماءُ فيه، ويلتوي في نواحيه، والمعتصم منشرح النفس مجتمعُ الأُنس فقال:

- وانظر إلى حسن هذا الماء في صببه❖❖❖ كأنه أرقم جد في هربه

فاستبدعوه، وتيّموه وأولعُوهُ، فأسكب عليهم شآبيب نداهُ، وأغرب بما أظهره من بشره وأبداهُ.[2]

وظهر في حاضرة ألمرية، الكاتب الأديب القاسم بن أيوب الطائي، وكان كاتبا أديبا جليل القدر، ألّف للمعتصم بن صمادح كتابا سماه (بستان الكتابة وريحان الخطابة). وكان صاحب شرطته."[3]

شرطته."[3]

والقائمة تطول إذا أردنا إحصاء الشعراء والأدباء الذين جلبهم بلاط المعتصم، وحاضرة ألمرية ككل. هذا بالنسبة للأعلم المبرزين، فما بالك ببقية الشعراء الذين هم أدنى طبقة أو منزلة.

فمن الفحول كذلك أبو حفص عمر بن الشهيد التجيبي الذي قال فيه الحميدي: " رئيس شاعر، مشهور بالأدب، كثير الشعر، متصرف في القول، مقدم عند أمراء بلده. وقد شاهدته في حدود الأربعين وأربعمائة بألمرية، وكتبت من أشعاره طرفا."[4]

وأبو محمد بن مالك القرطبي وكان فردا من أفراد الشعراء والكتّاب، وبحرا من بحور المعارف والآداب، وقد أقام بألمرية مدة تحت ضنك معيشة مع عدة مدائح، رفعها لأميرها ابن صمادح[5]

---

[1]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص 169.

[2]) قلائد العقيان، ص 150 151.

[3])ابن الزبير: صلة الصلة، ص 282. رقم 822).

[4]) جذوة المقتبس: ص 269. رقم 689). ولنا عودة مفصلة إلى مصادر ترجمته.

[5])ابن بسام: الذخيرة، 1 2 739.

كما قصد ألمرية ابن الحاج اللورقي. أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن أحمد بن الحسن (كان حيا سنة 494هـ/ 1101م). ورغم أنه كان منقطعا إلى بني عباد مختصا بمديحهم، ولكنه عاش زمنا في حاضرة بني صمادح. وكان كما وصفه الفتح بن خاقان: " شيخ الجلالة وفتاها، ومبدأ الفضائل ومنتهاها."[1]

وأخيرا وليس آخرا، من الذين زاروا حاضرة ألمرية في هذه الفترة أبو جعفر أحمد بن الجزار البطرني، وينسب إلى بطرنة، من قرى بلنسية، وقد اقتصر على مدائح المعتصم.[2]

ولم يكن الأدب والشعر في حاضرة ألمرية من اختصاص الرجال فقط، فقد كانت شاعرات هذه الحاضرة كثيرات متقلدات بالإحسان. وقد أثبتت المصادر من شعرهن ما يعذب جنًى وقطافا، ويستعذب استنزالا واستلطافا. وقد ذكرت منهن أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح والغسانة البجانية. ومنهن كذلك غاية المنى.[3] وزينب المرية.[4]

كما شهدت ألمرية نشاطا لغويا كبيرا موازيا للنشاط الأدبي، في القرن الخامس للهجرة وفي فترة حكم المعتصم بن صمادح بالضبط، دلت على المكانة الكبيرة التي تبوّأتها هذه الحاضرة في هذا المجال.

---

[1]) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 400.

[2])ابن سعيد: المغرب، 2، ص 355 356. ولنا عودة مفصلة إلى مصادر ترجمته.

[3]) المقري: نفح الطيب، 4، ص 286 287. وقال عنها: " جارية أندلسية متأدبة قدمت إلى المعتصم بن صمادح." / مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص 146 147./ محمد منتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص 95، 96./ يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 100./ عبد الحكيم الوائلي: معجم شعراء الأندلس، ص 253، 254./ أحمد خليل جمعة: نساء من الأندلس، ص 333 336./ فوزي عيسى: شاعرات الأندلس والمغرب، ص 130 131.

[4]) المقري: النفح، 4، ص 286. ولم يحدد تاريخ ميلادها ووفاتها./ مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ص 145 146./ محمد المنتصر الريسوني: الشعر النسوي في الأندلس، ص 145./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 151./ فوزي عيسى: شاعرات الأندلس والمغرب، ص 74 وما بعدها./ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة./ 8 2/ ص 487، رقم 259).

وكان بشار الأعمى النحوي، أستاذ العربية، وشيخا من شيوخ الأدب، وقد أدّب بشار هذا أبا جعفر بن عباس الوزير بألمرية جلبه أبوه إليها[1]

وأبو القاسم عبد الرحمن بن الطيّب (، 470هـ) وكان مُكثرا للآداب وقعد للأخذ منه.[2] ومن اللغويين الكبار الذين عرفتهم حاضرة ألمرية أبي عبيد البكري الأندلسي. وقد كان نحويا ولغويا ممتازا. وصاحب مؤلفات جمة في هذا الاختصاص منها: " شرح الأمثال السائرة سماه فصل المقال "و" التنبيه على أغلاط علي في أمالية " وغيرها من المؤلفات.[3]

ولم تقتصر حماية المعتصم ورعايته على دولة الشعر والأدب. ولكن بلاطه كان في الوقت نفسه مقصد المفكرين والعلماء من كل ضرب.[4]

مثال ذلك علم التاريخ والجغرافيا، حيث أنجبت هذه الحاضرة كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين، سواء من أبنائها. أو من الطارئين والوافدين عليها. و أبو عبيد البكري نفسه اللغوي الكبير كان جغرافيا كبيرا. وهو صاحب مجموعة من المؤلفات في هذا الشأن مثل " معجم ما استعجم من البلدان والأماكن" وكتاب " المسالك والممالك " و " المغرب في ذكر أفريقية والمغرب"*، وإذا ذكرت الجغرافيا والتاريخ في الأندلس. فلا يمكن أن نضرب صفحا عن أحد أعلامها الكبار وهو أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بالدُّلائي 393هـ 1062م –

---

[1]) ابن الآبار: التكملة (تحقيق الهراس)، 1، ص 186. رقم 615)./ الحميدي: الجذوة، ص 160 161، رقم 341)./ الضبيّ: البغية، ص 213 214. رقم 597)./ المقري: النفح، 3، ص 84.

[2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 279./ رقم 728).

[3]) المصدر نفسه: ص 240. رقم 634). ولنا عودة إلى مصادر ترجمته في الفصل الموالي.

[4]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الطوائف)، ص 170.

* وردت أسماء هذه المؤلفات في كل المصادر التي ترجمت للبكري. وانظر: أنور محمود زناتي: مصادر تاريخ المغرب والأندلس (المصادر ، المراجع، الدوريات). دار سحر للنشر ، ، 1 2008، ص 22 23. وقد فصل الباحث في تحقيقات كتب البكري وطبعاتها وسنوات نشرها، وقد اعتمدنا في هذا البحث على بعض كتب البكري بتحقيقات أخرى لم يذكرها الباحث. مثل كتابه " المسالك والممالك" وكتابه الآخر " المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب " الذي حققه الدكتور، حماه الله ولد السّالم، من جامعة نواقشوط ،طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ، 1 2013م 1434هـ. والكتاب بفهارسة يقع في 285) صفحة.

478هـ 1085م) نسبة إلى دلاية من حاضرة ألمرية، مؤلف عدة كتب منها. " نظام المرجان في المسالك والممالك."[1]

وبرز في ألمرية في هذه الفترة المؤرخ الكبير والجغرافي الشهير ابن أبي فياض، أبو بكر أحمد بن سعيد 375هـ 986م – أو - 379هـ 990م) وتوفي سنة 459هـ 1066م). ويعرف أيضا بابن الغشّاء. وقد ولد ابن أبي الفياض في إستجة، ولكنه عاش وعمل في ألمرية أي في البلد نفسه الذي ولد وعاش فيه أحمد بن أنس العذري. ولعل لذلك أثرا في اتجاهه نحو التاريخ والجغرافية.

ولابن أبي الفياض هذا كتاب في التاريخ أشار إليه المؤرخون بأسماء عديدة منها (العبر) أو (العبرة)، وقال ابن بشكوال: " له تأليف في الخبر والتاريخ"[2] وقد اعتمد كبار مؤرخي المغرب والأندلس* ونقلوا كثيرا من نصوص ابن أبي الفياض مما يدل على مكانة الرجل في هذا الفن.

كما كان ابن المرابط الأموي (ا 485هـ) محمد بن خلف بن سعيد بن وهب الصوفي من أهل ألمرية مؤرخا بارزا. وله من الكتب (تاريخ بلنسية).[3]

وهذه الأمثلة التي أوردنا دليل بارز على النواة الحقيقية للتاريخ والجغرافية في عصر الطوائف والتي استوعبتها حاضرة ألمرية.

أما في ميدان الفقه والعلوم الدينية والشرعية بشكل عام. فقد ظهر أنشاء حضرة ألمرية الناهضين بأعباء هذا العلم الجليل. وأحرزوا منه أوفر سهم. فراجعوا فصوله، وأبدعوا في أصوله وفروعه.

---

[1]) حققه الدكتور: عبد العزيز الأهواني. ينظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 578 579./ أنور محمود زناتي: مصادر تاريخ المغرب والأندلس، ص 89 90. والعنوان الأصلي للكتاب هو (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك) وللعذري كتاب آخر بعنوان (أعلام النبوة)./ وترجمته عند الحميدي في الجذوة، ص 120 122. رقم 236)./ الضبيّ البغية، ص 167 168. رقم 446). وقد كتب حسين مؤنس فصلا مطولا عنه، وعن خصائص الكتابة الجغرافية عنده. في كتابه: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 1، ص 81 وما يليها.

[2]) الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 66. رقم 126). ونظر تفصيلات الكتاب عند أنور محمود زناتي: مصادر تاريخ المغرب والأندلس، ص 20 وما بعدها./ وانظر حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 1، ص 106 107.

* مثال ذلك، اعتماد لسان الدين بن الخطيب على نقولات ابن أبي الفياض في كتابه (أعمال الأعلام)، ص 7 77 193.

[3])ابن بشكوال: الصلة، ص 436 437. رقم 1227)./ البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 77.

والمؤرخ ابن المرابط نفسه صاحب كتاب (تاريخ بلنسية). كان محدثا وفقيها ، وله مدونات في ذلك منها : (مختصر شرح البخاري لمهلب بن أبي صفرة) وزاد عليه. وله كذلك (تعليقة على المدونة في الفقه).[1]

وإذا ذكر الفقه في حاضرة ألمرية ، ذكرت إحدى حسناته ، وهو الفقيه ابن ورد (، 465هـ/ 540هـ) أحمد بن محمد عمر التميمي، يُكنى أبا القاسم، كان فقيها حافظا ، عالما متفننا ، أخذ العلم عن أبي علي الغسّاني و أبي محمد بن العسّال وغيرهما.

وناظر عند الفقيهين أبو الوليد بن رشد ، وابن العواد. وشهر بالعلم والحفظ والإتقان، والفقه في العلوم، وقد أخذ الناس عنه، واستقضي بغير موضع من المدن الكبار.[2]

وازدانت الدراسات الفقهية في ألمرية بظهور الفقيه أبي عثمان طاهر بن هشام، وكان من كبار فقهائها ، وسمع منه خلق كثير، وحج ولقي جماعة ، وسمع أبا ذر الهروي، وأبا مروان البوني وغيرهم كثير.[3]

وبرز في ألمرية الفقيه الكبير ابن الماموني، قاسم بن محمد بن هشام الرعيني. قال ابن بشكوال إنه من أهل ألمرية ، وذكر أنه توفي سنة 448هـ)، وقد نيّف على السبعين، ثم عاد وقال: إن القاضي عياض كتب إليه بأنه أصله من سبتة وبها ولد ، فيجب ذكره في الغرباء.[4] وقال القاضي عياض: سبتي شهير أخذ عن علماء سبتة ورحل إلى الأندلس. فسمع عن ابن الدباغ وأبي عمر الباجي، ورحل

---

[1]) المصدران السابقان: الصفحات نفسها./ القاضي عياض: ترتيب المدارك (الطبعة المغربية)، 8، ص 184./ ابن فرحون: الديباج المذهب، 2، ص 291. رقم 499).

[2])ابن بشكوال: الصلة، ص 82. رقم 177)./ ابن فرحون: الديباج المذهب، 1، ص 161. رقم 61)./ ابن الخطيب: الإحاطة، 1، ص 60. وقال عنه: " من جلّة الفقهاء المحدثين..موفور الحظ من الأدب والنحو والتاريخ".

[3]) القاضي عياض: ترتيب المدارك(الطبعة المغربية)، 8، ص 184./ ابن بشكوال: الصلة، ص 204 رقم 546) وفيه " توفي سنة (477هـ). وله ست وثمانون سنة"

[4]) الصلة: ص 373.

إلى المشرق فحج. وسمع من أعلام كُثُر، ثم انصرف فسكن ألمرية. وبقي بها إلى أن مات. وقد أخذ عنه جلّة مشيختها وغيرهم. وله كتاب في المناسك رواه عنه ابنه.[1]

وعرفت ألمرية أشهر القرّاء في عصر الطوائف، منهم عبد الله بن سهل بن يوسف المقرئ (ت 480هـ). إمام في الإقراء والتجويد، فاضل، له تواليف في القراءات تدل على معرفته، وكان يقرئ بألمرية. وكان معظما عند أهلها.[2]

وذكرنا من قبل ريحانة العالمة الزاهدة المتبتلة، والمقرئة الكبيرة، التي أخذت بألمرية القراءات كلها عن أبي عمرو الداني، ثم قرأت عليه خارج السبع وأجازها.[3]

وأخيرا وليس آخرا محمد بن يحي بن الغراء. قاضي ألمرية وكان من أهل الفقه والفضل والزهد والورع، كان مجاب الدعوة متقللا من الدنيا، توفي شهيدا سنة 514هـ)[4]

وعاش في بلاط ألمرية غير قليل من علماء الفلك والهندسة والرياضيات، والفلسفة والمنطق، وغيرها من العلوم العقلية، منهم ابن الجلاّب، الحسن بن عبد الرحمن، أحد المتحققين بعلم الهندسة، وهيئة الأفلاك، وحركات النجوم، وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعي، ذكره صاعد وقال: " وهو في وقتنا هذا مستوطن مدينة ألمرية قاعدة الأمير محمد بن معن بن محمد بن صمادح التيجيبي.[5]

وأبو الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعيني الأديب السابق ذكره. وكان ماهرا في الهندسة والفلك إلى جانب مشاركته في الأدب واللغة، والشعر وعلوم الدين والتاريخ والأنساب وغيرها.[6]

---

[1]) ترتيب المدارك: 8، ص 36.

[2])الضبيّ: البغية، ص 299 300. رقم 928)./ ابن بشكوال: الصلة، ص 239. رقم 631)

[3])الضبيّ: البغية، ص 476. رقم 1595).

[4]) المصدر نفسه: ص 126. رقم 320).

[5]) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص 95.

[6]) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص 93.

ولطالما وُصف الشاعر ابن شرف البرجي بالفيلسوف الحكيم عند من ترجموا له. وقد صنّف كتابين في الحكم والأمثال، أحدهما شعرا، والآخر نثرا. تنم عن فكر قويم، ونظر ثاقب وفلسفة سامية.[1]

ويمكن القول بالإجمال إن حال حاضرة ألمرية لم تزل تعلو في العلوم منذ أن تبوّأ حكمها بنو صمادح. وساعدتها المقادير في كون حكامها من المثقفين الكبار، ومن أهل العلم والزمرة العالمة المثقفة.

وعليه فقد حازت هذه الحاضرة صفقة معقودة مع العلم والأدب، برزت كحاضرة ذات شأن وجلال في هذا المجال، وكانت على صغر حجمها، الإمارة التي نالت شهرة واسعة، حيث أشرقت شمس المعارف في سماها، واتصل ذلك كله بجملة من الأسباب أهمها:

- أسرة بني صمادح الحاكمة، وهي أسرة مثقفة، وقد لعبت دروا كبيرا في ازدهار الحركة العلمية والإغداق عليها والإسهام فيها، وقد مرّ بنا أن كل أفراد عائلة بني صمادح إما أدباء شعراء، أو مفسرين ولغويين، وفيهم حتى الشاعرات الأدبيات.
- استفادة حاضرة ألمرية من الفتنة القرطبية، حيث هاجر إليها كثير من القرطبيين وغيرهم، وخيّموا في ظل سلطان بني صمادح، حيث الأمن والدعة.
- التواصل الثقافي البيني، بين مدينة ألمرية، ومختلف الحواضر الأندلسية الأخرى، حيث استفادت هذه الحاضرة من الوافدين والطارئين عليها، فقد دخلها أشهر الشعراء، وخيرة الكتاب والأدباء، وكبار العلماء والمؤرخين والجغرافيين، وكذلك الشاعرات والمقرئات الفضليات.
- المجالس الأدبية والمنتديات الفكرية التي كان يعقدها حكّام ألمرية، وخاصة المعتصم، في كل أرجاء هذه الحاضرة، وخاصة في مجلسه بالصُّمادحية، وكان يضمُّ أشهر الشعراء المبدعين والكتاب المهرة، حيث كانت تدور السجالات والمعارضات في هذه المجالس.

---

[1]) أنخل بلانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 138.

وكانت هذه الأسباب عاملا مؤثرا ومباشرا في ازدهار الثقافة والعلوم في حاضرة بني صمادح، وتميزها، وخاصة في الأدب والشعر حيث ظهر فيها أئمة البيان، ورؤوس هذه الصناعة وفرسان حلبة النثر والنظم.

كما تميزت بظهور الدراسات التاريخية والجغرافية، وكانت حاضرة ألمرية هي النواة الأبرز لهذين العلمين في عصر الطوائف، مع بروز أسماء لامعة في هذا المجال كالعذري وابن أبي الفياض وغيرهما.

IV -2- 5- المبحث الخامس: بنو قاسم الفهريون وحاضرة ألبونت:

الحديث عن سهلة بني رزين، يجرّنا إلى الحديث عن مملكة بني قاسم في ألبونت فعلى " مقربة من شنتمرية الشرق، وإلى الجنوب الشرقيّ منها كانت تقع هذه الإمارة الصغيرة من إمارات الطوائف هي إمارة ألبونت أو ألبنت. "[1]

وألبونت (ALPUENTE) هي قرية من أعمال بلنسية.[2] وقال المقري: "حصن ألبونت شمال غرب بلنسية."[3] وتقع في وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة على مقربة من نهر طورية في حمى الجبال."[4]

وهي كما قال ابن سعيد: " معقل من المعاقل الرفيعة والشواهد المنيعة. "[5] وقد قام بها وانتزى بأعمالها منذ مبتعث الفتنة القائد أبو محمد عبد الله بن القاسم الفهري، وهو من زعماء البيوت العربية، فضبطها أشد الضبط، فحكمها واستقل بها من الأراضي، وكان يلقب بنظام الدولة.[6]

---

[1]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص 260.

[2]) الحميري: الروض المعطار، ص 115.

[3]) نفح الطيب: 1، ص 142.

[4]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، ص 260.

[5]) المغرب في حلي المغرب، 2، ص 395.

[6]) المصدر نفسه: الصفحة نفسها. /ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 215 وفيه " ولم تزل بأيدي بني قاسم من أول الفتنة، وأول من مَلكها منهم نظام الدولة عبد الله بن قاسم إلى أن هلك سنة 421هـ)./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 138. وفيه:" بنو قاسم

وكان بنو القاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن الفهري* الذي ولي إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقي سنة 114هـ).

كان بنو قاسم من أعظم ملوك الطوائف كما ذكر صاحب النفح.[1] واستمرت دولتهم زهاء مائة عام.

وبعد وفاة مؤسس هذه المملكة، نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري، سنة 421هـ). ولي بعده ابنه محمد الملقب بيمن الدولة واستمرت أيامه فيها في جملة ثوار الأندلس. وأولي طوائفها إلى سنة 434هـ). ثم ولي بعده ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة.[2] فلم يزالوا يتعاقبون فيها إلى سنة خمسمائة.[3]

لعبت إمارة ألبونت على صغر مساحتها دورا حضاريا كبيرا في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وقام أصحابها بنو قاسم بدور سياسي خطير منذ بداية الفتنة القرطبية. فقد كانت مملكة ألبونت

أصحاب مدينة ألبونت منهم نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري، ولم تزل في أيديهم من أول الفتنة وكان أول من تأثّل بها ، وبنى الرياسة لقومه بسببها، عبد الله هذا المذكور إلى أن هلك سنة 421هـ)". وراجع أخبارهم على العموم عند عنان: عصر الطوائف، ص 260 262.

*عبد الملك بن قطن الفهري(ت 125هـ). أمير الأندلس، قدمها سنة 114هـ)، فكانت مدة ولايته عامين، وقيل أربع سنين، ثم عزل عنها سنة 116هـ). وقتل بالأندلس سنة خمس وعشرين ومائة. فهو من قريش، وكان ممن يجاهدون العدو، ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا فرنجة، وحتى افتتحت عامة الأندلس. من نسله بنو الفهري أصحاب ألبونت." ./ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 27؛ 107؛ 109؛ 110./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص 220. رقم ت 814)./ الحميدي: جذوة المقتبس، ص 254. رقم 638)./الضبيّ: البغية، ص 333. رقم 1078)./ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص 179./ المقري: نفح الطيب، 1، ص 440./ القلقشندي: صبح الأعشى، 5، ص 234.

[1])المقري: 1، ص 440

[2])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 208.

[3])ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 215. ويرجِّح عبد الله عنان سقوط دولتهم قبل هذا التاريخ وتعليله لذلك أنه لما استولى المرابطون على بلنسية في سنة 495هـ/ 1102م) استولوا بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة في تلك المنطقة ومنها ألبونت./ دولة الإسلام (عصر الطوائف)، ص 262.

شجىً في حلق صاحب بلنسية.[1] وعند ملكها عبد الله بن القاسم أطال المكثَ هشام المعتد المرواني الذي صار خليفة بقرطبة، ومن عنده استُدعي للخلافة.[2]

وإننا نأسف لقلّة المادة التاريخية المتعلقة بهذه الإمارة وبأصحابها والقائمين على شأنها، على الرغم من أنها عُمّرت حوالي مائة عام، إذ كانت من الدويلات الأولى التي قامت، وقد تأخر سقوطها، حتى بعد كبريات ممالك الطوائف، مثل إشبيلية، وطليطلة، وبطليوس، وغرناطة، وهذا ما يجعل من مهمة الباحث صعبة في استقصاء كل ما يمت بصلة لهذه الإمارة.

ورغم ذلك فما بين أيدينا من الإشارات والدلائل، تجعلنا نقرّ جازين بالدور العظيم الذي تبنّاه وقادهُ بنو قاسم في عملية البناء الحضاري للأندلس، وبالتالي فلا ينبغي للدارس أو الباحث أن يتجاوز عن الثروة الثقافية والعلمية، والإرث الأدبي الذي خلفته هذه العائلة.

فقد شهد لها الأقدمون بكبير الفضل وطيّب الجهد في تنمية وازدهار الثقافة الأندلسية في عصر الطوائف.

وكان عبد الله بن قاسم وأبناؤه من بعده لا يفتأون يبذلون قصارى جهودهم المرموقة، وبذل أعطياتهم السنية، والإسهام بقدر كبير في اصطناع المعروف لأهل العلم والمعرفة، وآثارهم في ذلك جلية القسمات واضحة المعالم.

ولا يقف فضل هذه الأسرة العريقة عند تشجيع أهل العلم ومعرفة أقدارهم ومراتبهم، وإنما يمتدّ ذلك ليشمل عطاءاتهم وإسهاماتهم الدءوبة والمتواصلة في ميدان العلم والمعرفة واستئنافا لأمجادهم البطولية، ومنزلتهم الثقافية.

تلك المجهودات العظيمة والمجد الأثيل الذي بناه جدهم الأول الداخل إلى الأندلس، عبد الملك بن قطن الفهري، حيث حصل اتحاد البطولة والشجاعة بالعلم، فكانت اليقظة الفكرية والفنية، والازدهار المعرفي، وإذا بهذه الإمارة الصغيرة تخطو سراعا نحو الرفعة والشموخ.

---

[1]) ابن سعيد: المغرب، 2، ص 395.

[2])المصدر نفسه: الصفحة نفسها. /ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 138. / المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 43.

وكان يمن الدولة محمد بن عبد الله بن قاسم المُكنى أبا عبد الله قد استوفى صفات الحاكم المثقف، ولهذا نراه مَكينا مبجّلا عند ابن حزم الأندلسي، فقد أثنى عليه في رسالته في (فضل الأندلس). وقال: " فحسبي على ذنيك العلمين دليلا على سعيه المشكور، وفضله المشهور، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب ألبونت أطال الله بقاءه، وأدام اعتلاءه، ولا عطّل الحامدين من تحميدهم بحُلاه، ولا أخلى الأيام من تزينها بعُلاه."[1]

ويقول عنه ابن الآبار:" أنه كان رئيسا بقلعة ألبونت من أعمال بلنسية، مقر آبائه الرؤساء، وبها أخذ عن أبي الحسن علي بن إبراهيم التبريزي وغيره، وقال أبو بكر المصحفي في برنامجه وذكر الإقناع للسيرافي... وله صنع أبو محمد بن حزم، وهو كنّاه، رسالته في فصل الأندلس، وأطال الثناء عليه وعلى سلفه".[2]

وكان الحاكم الأخير لهذه الإمارة الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الملقب بجماح الدولة، رجل زهت به الرياسة والتدبير، وقرطستْ أفئدة المعاني نزعته ... وقد أنِسَ بنتائج أفكاره، وهام بعيون العلم وأبكاره.[3]

وقد كان جماع الدولة هذا شاعرا كبيرا، وكاتبا مجوّدا، ومن شعره قوله:

- خلعتُ عَن الملك لكنّني❖❖❖ عن الصبر والمجد لا أخلعُ
- رمانِي الزمان بأرزائهِ ❖❖❖ وغيريَ من خطبه يجزعُ
- فليس فؤاديَ بالملتظى ❖❖❖ ولا مقلتي حسرة تدمعُ
- ولي أمل ليتَه لم يكنْ❖❖❖ فكم ذا يغرُّ وكم يخدعُ[4]

وقد عرج على هذه الحاضرة غير واحد من الأدباء والشعراء، والكتّاب والوزراء، والعلماء وأهل الفضل والصلاح، وخُوطب حكّامها غير ما مرة، وهو دليل على المكانة العلمية الطيبة التي تبوأتها هذه المملكة.

---

[1]) مجموع الرسائل: 1 2/ ص 172. / المقري:النفح، 3، ص 160.

[2]) ابن الآبار: التكملة (طبعة دار الكتب العلمية)، 3 1/ ص 264. رقم 1103).

[3]) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، 2، ص 396.

[4]) المصدر نفسه: ص 398.

فقد كتب إلى الوزير أبي بكر بن عبد العزيز مجاوبا عن كتاب خاطبه به مسليا نكبته.[1] ويقول الفتح بن خاقان:" ولما نُكِب الوزير أبو محمد بن القاسم، النكبة التي أنبأت بتعذُّر الأوطار... خاطبه كلُّ زعيم مسليا عن نكبته، وانتقاله من رتبته."[2]

منهم ذو الوزراتين الكتاب أبو عبد الله بن أبي الخصال (ت 539هـ).[3] رغم أن ابن أبي الخصال قد وزر للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، الذين أزالوا حكم بني قاسم في ألبونت، وهو دليل على العلاقات الجيدة التي يتمتع بها حُكام ألبونت مع باقي رؤساء وأعيان الطوائف.

وفي مجال الفقه والعلوم الشرعية، عرفت مملكة ألبونت الفقيه الكبير عبد الله بن فتوح بن موسى بن أبي الفتح الفهري (ت 462هـ)، وكان من أهل المعرفة والعلم والحفظ والفهم، وله كتاب حسن مفيد، واختصر أيضا (المستخرجة) وغيرها، وله أيضا كتاب في (المؤتلف).[4] ويكفي مملكة بني قاسم شرفا وفخرا أن زارها علامة الأندلس ابن حزم الأندلسي.

إذن، فعلى الرغم من صغر حجم مملكة ألبونت، ولكنها من أعظم ممالك الطوائف، بفضل عائلة عربية عريقة، وبيت من أشرف البيوتات الأندلسية، حيث أرست عائلة بني قاسم دعائم وأسس

---

[1]) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، 2، ص 397.

[2]) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 527.

[3]) المصدر نفسه: ص 528 وما بعدها وترجمته في المصدر نفسه، ص 518 537. / ابن دحية: المطرب، ص 162 164./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 458. رقم 1297). /الضبيّ: بغية الملتمس، ص 113. رقم 282). /ابن الآبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص 144 145. / المراكشي: المعجب، ص 123 وما بعدها. /ابن بسام: الذخيرة، 3 2/ ص 786 809. /ابن سعيد: المغرب، 2، ص 66، 67. /ابن خير الإشبيلي: الفهرسة، ص 386، 420، 422. / =العماد الأصفهاني: خريدة القصر، (قسم شعراء المغرب والأندلس)، 3، ص 449 459. رقم 119). / المقري، نفح الطيب، 3، ص 268، 466، 519، 602. / السيوطي: بغية الوعاة، ص 211، 212. رقم 445). / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 716. / البغدادي: هدية العارفين، 2، ص 89. / البغدادي: إيضاح المكنون، 2، ص 6. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 1، ص 18 19. / عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص 113 114. / رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 461. رقم 780). وقد ذكر الذين ترجموا له بعض مؤلفاته منها: (سراج الأدب)، (ظل الغمامة وطوق الحمامة من مناقب من خصه رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بالكرامة). (منظومة معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب)، في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم.) (خطف البارق وقذف المارق). (مناقب العشرة وعمّي رسول الله – صلى الله عليه وسلم -).

[4]) ابن بشكوال: الصلة، ص235، 236. رقم (617). / الحميري: الروض المعطار، ص115. / البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص452. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج6، ص101.

مملكة عُمرت حوالي مائة عام، وكانت لها بصمات في الناحية الثقافية الأندلسية في القرن الخامس الهجري.

IV - 2- 6- المبحث السادس: بنو طاهر وحاضرة مرسية:

تعدّ مرسية من الحواضر الأندلسية الجليلة في عصر الطوائف، نظرا للدور الحضاري الكبير الذي لعبته في مجال الثقافة والعلوم والآداب.

وتشتمل حاضرة مرسية على مدن أخرى تابعة لها مثل أريولة وإلش وكتندة. وكانت مرسية قديما" قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دار العمال، وقرار القواد."[1] وبقيت خاضعة لحكم الأمويين في الأندلس، إلى أن تفرقت الجماعة بقرطبة، وجرت الحادثة على الدولة العامرية، لجأ فتيانها إلى شرق الأندلس، استقل منهم خيران العامري وزهير بمرسية وأريولة وألمرية في نهاية المئة الرابعة.

وكان أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر حاكما لمرسية من قبل زهير العامري، ثم استقلّ بها فيما بعد، فملكها وضبط أعمالها وسار في أهلها سيرة حسنة، حتى صارت مرسية في عصر الطوائف" دار ملك بني طاهر"[2]

وبنو طاهر في الأندلس هم أشهر من نار على علم. وقد تصرّفوا في الملك والسياسة والقلم، وكانوا أصحاب فضائل كثيرة، فقد كانوا فضلاء أهل الأندلس ونبهائهم. مشاركون في كثير من العلوم والفنون والآداب.

كان بنو طاهر هؤلاء من أعيان ولاية تدمير وسراتها، وينتمون إلى قيس، وكان منزلهم بمرسية، وقد اشتهروا بالعلم والوجاهة[3].

وقال عنهم ابن الخطيب:" كان هذا البيت بمرسية بيت أعلام، وحملة سيوف وأقلام"[4]، ساس أبو بكر بن طاهر أهل مرسية سياسة رشيدة، وسار في حكم أهلها سيرة حسنة وكان" فضلا عن

---

[1]) الحميري: الروض المعطار، ص 539.

[2]) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 87.

[3]) عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الطوائف)، ص 176.

[4]) أعمال الأعلام: ص 201.

عراقة بيته وأرومته العربية المؤثلة، وتراثه الواسع، من أكابر علماء عصره ومن أغرزهم أدبا، وأبلغهم بيانا"[1]

توفي ابن طاهر سنة 455 هـ 1063) فخلفه في حكم مرسية ولده أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر الذي استمرّ أميرا على مرسية زهاء خمسة عشر عاما، وقد اتسمت فترة حكمه بالأمن والسلام والرخاء والازدهار.

وسقطت عام 471 هـ 1078 م)، أما ابن طاهر فقد تقلّب في عدة ولايات حتى أثقلته السنون وتوفي سنة 507 هـ 1113م). وقد أربى على التسعين.[2]

كان أبو طاهر أديبا ماهرا، خبيرا بطرق المعارف السديدة، اعترف المؤرخون ببراعته الأدبية واستحسنوها، فقد كان" صدر زمانه، والمثل السائر في بلاغته وبيانه"[3]، توغّل في شعاب البلاغة وطرقها، وهو عالم بفنونها وأقسامها ومعانيها.

وقال عنه ابن بسام:" كان أبو عبد الرحمن بن طاهر أحد من جمع الحديث إلى القديم، وارتقى من سياسة الأقلام إلى سياسة الأقاليم"[4] وله رسائل تشهد بفضله وتدل على نبله"[5]

وقد احتفظ المؤرخون بفصول طويلة من رسائله ونظمه ومكاتباته، وبلغ من إعجاب ابن بسام بكتاباته أن جمعها في كتاب بعنوان" سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر"[6]

---

[1]) عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الطوائف)، ص 176. وراجع الحوادث السياسية التي وقعت في هذه الفترة، وأدت بانتزاء بني طاهر بمرسية، عنان: المصدر نفسه، ص 175 وما بعدها./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 201 وما بعدها./ابن الأبار: الحلة السيراء(طبقة دار الكتب العلمية)، ص 236 وما بعدها. وفي غيرها من المصادر.

[2]) ابن الأبار: الحلة السيراء(طبعة دار الكتب العلمية)، ص 240 ./ ابن سعيد: المغرب. 2، ص 247./ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 202.

[3]) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص 201.

[4]) الذخيرة: ق 3 1/ص 24 25.

[5]) المصدر نفسه، ص 25.

[6])الذخيرة: ق 3 1/ص 25، وترجمته كاملة في الذخيرة ق 1/ص 24 - 40./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 170 - 206./ ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 236 وما بعدها./العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ص 363 وما بعدها./المقري: نفح الطيب، 1، ص 657 - 659./ ابن سعيد: المغرب، 2، ص

استوعبت حاضرة بني طاهر أكثر شعراء الأندلس شهرة، وحتى من غير أهل مرسية، كما سمعوا بأميرها ابن طاهر، وعزموا الوفادة إليه والرحيل إلى حضرته ، كما قصد حضرته زمرة الفقهاء، وأسلسوا للتحرك إليه.

وكان على ذلك " جوادا ممدّحا، ينتجعه الشعراء ويقصده الأدباء".[1] وقد ازدهرت أحوال مرسية وعمّها الأمن والرخاء، وصارت مقصدا للعلماء والأدباء والشعراء، وذاعت بها العلوم والآداب وسمَتْ بها الفنون والمعارف، وكانت الثقافة بها إذ ذلك أحسن أحوالها.

كل ذلك يجعلنا نسلّم بهذا التطور المعرفي والازدهار الثقافي الذي مسّ جميع التخصصات العلمية كالآداب، واللغة والنحو، والعلوم الشرعية، والعقلية وغيرها، فقد أنجبت حاضرة مرسية المشاهير، بل وصدّرتهم إلى مختلف الحواضر الأخرى، وكانت حاضرة المعتصم بن صمادح ألمرية أكثر من استفاد من أعلام مرسية وأدبائها وشعرائها.

ويتقدم هؤلاء أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب، وكان أبوه من موالي بني شهيد، ونشأ هو بمرسية، وانتقل إلى قرطبة، وطلب الأدب فبرز فيه، وبسق في صناعة الرسائل مع حسن الخط إلى النهاية، قال الحميدي: "وما رأينا من أهل العلم والرئاسة من يجري مجراه، مع هيبة مفرطة، وتواضع وحلم عرف به مع القدرة، مات بعد الأربعين وأربعمائة عن سن عالية".[2]

ويلحق بالكاتب ابن رشيق، ابن التياني أبو غالب تمام بن غالب المرسي، صاحب الموعب كان إماما في اللغة وثقة فيها، مذكورا بالديانة والعفة والورع، وقد لحق بدانية.[3]

وأشهر هؤلاء جميعا ابن سيده اللغوي، أبو الحسن علي بن إسماعيل، لا يُعلم بالأندلس أشدّ اعتناء من هذا الرجل باللغة، ولا أعظم تواليف، تفخر مرسية به أعظم فخر، طرّزت به برد الدهر.[4]

---

[1]) ابن الأبار: الحلة ، ص 237.

[2] شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 454، وقد ذكرناه أثناء حديثنا عن دانية.

[3] المصدر نفسه: ص 459./القفطي: إنباه الرواة، 1، ص 294 295./ الحميري: الروض المعطار، ص 539.

[4] ابن سعيد المغرب، 2 .ص 259.

وحاضرة مرسية التي أنجبت ابن رشيق، وابن التياني، وابن سيدة، هي حاضرة معطاءة، قادرة على إنجاب المزيد من أمثال هؤلاء الأعلام.

ويلحق بهذه الزمرة المثقفة أبو العلاء بن صهيب الشاعر، وقد وصفه العماد الأصفهاني بالاستيلاء في حلبة الذكاء على السباق، والاعتلاء على رتبة الأكفاء والاستحقاق، وإصابة سهم الفهم إلى المرئي الخفي.[1]

وحتى قضاة مرسية كانوا موصفين بالبلاغة والأدب، لعلّ أشهرهم قاضي قضاة المشرق أبو أمية إبراهيم بن عصام (ت 516 هـ)، القاضي الأديب الكاتب، الشهير الذكر ذائع الصيت، فقيه أديب شاعر، من أهل بيت جلالة وَوزارة، وكان بليغا متصرفا في أنواع البلاغة.[2]

ومرسية هي التي أنجبت الشاعر واللغوي والنحوي الكبير، الحسن بن علي بن محمد الطائي(412هـ 1021 م - 497هـ 1105 م) وعلى ترابها نشأ وترعرع، ويعرف بالفقيه الشاعر لغلبة الشعر عليه. وهو صاحب كتاب قيّم في النحو سمّاه (المقنع في شرح كتاب ابن جنّي).[3]

ولا تحصل فائدة في ذكر مرسية، دون ذكر أحد أكبر شعراء الأندلس في عصر الطوائف من المنتسبين إلى هذه الحاضرة، وهو عبد الجليل بن وهبون المرسي(ت 480 هـ) أحد الشعراء الفحول

---

[1] العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ص 521 523. رقم 140)./ ابن سعيد: المغرب، 2، ص 257. /الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 876 879 .وفيه " نبيل المنازع، جميل التنازع، كريم العهد، ذو خلائق كالشهد، كثير الافتنان." وله عنده شعر جميل، ص 877 وما بعدها.

[2] الضبيّ: البغية، ص198، 190، رقم(515)./ابن سعيد: المغرب، ج2، ص228./الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص629 – 635 وفيه: " هضبةُ علاءٍ لا تفرعها الأوهام، وجملةُ ذكاءٍ، لا تشرحها الأفهام، هزم الكتائب بمضائه، ونظم الرياسة في سلك قضائه ." ص 629. =وقد ذكره ابن الأبار في كتابه: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص 55./ العماد الأصفهاني: الخريدة(قسم شعراء المغرب والأندلس) .ص 486 488.رقم 132). وقال عنه :" قاضي قضاة المشرق، ووصفه بالمهابة التي يطرق الدهر لها توقيرا، ويشرق السعد لبهائها منيرا."

[3])ابن بشكوال : الصلة (طبعة المكتبة العصرية). ص 127 128.رقم 318)./ القفطي: إنباه الرواة، 1. ص 317./ السيوطي: بغية الوعاة، ص 418.رقم 1063)./ البغدادي: إيضاح المكنون/ 2، ص 548./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 462./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 3، ص 262./ رجب عبد الجواد ابراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، ص 129. رقم 214).

من أهل مدينة مرسية رغم أنه أختص بمديح المعتمد بن عبّاد وكان " منطقا بما يقولُ، يجري على لسانه المقول"[1]

وقد زار مرسية الشاعر الأندلسي الكبير أبو بكر بن عمار، وله مع حاكمها نوادر مذكورة ذكرها أكثر من مؤرخ.[2]

كما ضمّت حاضرة مرسية أبا الحسن راشد بن سلمان، أصله من بليانة، وله فيها مال موروث، وقد سكن مرسية، وجلّ قدره، وكتب عن صاحب أمرها أبي عبد الرحمن بن طاهر.[3] واشتهرت مرسية بفقهائها ومقرئيها إلى جانب أدباءها وشعرائها وكتّابها، ففي مجال القراءات برز أبو محمد عبد الله بن سهل بن يوسف الأنصاري المرسي، الذي أخذ عن أبي عمرو المقرئ، وأبي عمر الطلمنكي، ومكي بن أبي طالب القيسي، ورحل إلى لمشرق والقيروان وأخذ عن علماء تلك الأمصار وكان ضابطا للقراءات عارفا بطرقها أخذ الناس عنه كثيرا، وانتفعوا بعلمه. وكانت وفاته سنة 480 هـ).[4]

والمقرئ عيسى بن عبد الرحمن السالمي 498 هـ) الذي أقرأ الناس كثيرا بحاضرة مرسية.[5]

وكان من جلّة فقهاء مرسية عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني ، 447 هـ/ 526هـ)، واحدُ وقته بشرق الأندلس حفظا ومعرفة وعلما بالفروع، وسبقا فيها، غير منازع. مشهور بالفضل. محافظ على نشر العلم وصونه، تعظّمه الأمراء وتعرف له حقه. ولم يزل يقرئ الحديث والفقه بمرسية إلى أن توفي بها.[6]

---

[1]) ابن دحية: المطرب، ص 111.

[2])ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 237.

[3]) ابن سعيد : المغرب، 2، ص 272.

[4]) ابن بشكوال: الصلة، ص 239 .رقم 631).شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 463.

[5]) الضبيّ: البغية، ص 353.رقم 1149)./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 461.

[6])الضبيّ: البغية، ص 292 293. رقم 893)./ أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 460.

واشتهر كذلك بالفقه في حاضرة مرسية ابن الحلاّل علي بن محمد بن زيادة الله الثقفي، وكان من أعيان مرسية ونبهائها وكبرائها، ومن أهل بيت وجلالة وفقه وفضل،فقيه عارف كان يقرئ المدوّنة في هذه الحاضرة وقد توفي بعد الخمسمائة.[1]

وأبو القاسم المرسي أحمد بن إبراهيم بن أحمد الذي روى عن الفقيهين أبي العباس العذري، وأبي الوليد الباجي، وكان فقيها حافظا، وقد استُقضي بشلب، وتوفي قاضيا بها سنة 514هـ). (بن)

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بيبش المفتي (، 484هـ). وكان من المبرّزين في الفقه والأحكام[3] وأبو عبد الله الحسن بن إسماعيل المعروف بابن خيزران وكان من فقهاء أهل مرسية وأهل العلم والفضل فيها.[4]

وأبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني (، 494هـ) المرسى الفقيه العارف تلميذ الفقيه الكبير أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني وغيره من علماء الأندلس وشيوخها وكان عارفا مفتيا في الأحكام، وقد أخذ عنه غير واحد من الأندلسيين.[5]

وفي مجال العلوم الزراعية والطبية برز اسم أبي عبيد البكري اللغوي والجغرافي الكبير فكان من أعيان أهل الأندلس وأكابرهم فاضل في معرفة الأدوية وقواها ومنافعها وأسمائها ونعوتها وما يتعلق بها، وله من الكتب: كتاب أعيان النبات والشجريات الأندلسية.[6]

والذي نخلص إليه بعد سوق هذه الشواهد أن حاضرة مرسية قد عرفت ازدهارا علميا وأدبيا كبيرا فقد نبغ فيها " من العلماء والأدباء والمتصوفة والأولياء ما يجعل هذه المدينة في الدرجة العليا من الترقي الفكري لا في العالم الإسلامي وحده، بل في العالم كله على الإطلاق، وإذا قيل إن مرسية كانت أول بلدة علمية وأول بلدة زراعية في الغرب، لم يكن في هذا القول شيء من المبالغة."[7]

---

[1]) المصدران السابقان على التوالي، ص 363. رقم 1199)./ 3، ص 461.

[2]) ابن فرحون: الديباج المذهب، 1، ص 173. رقم 76).

[3]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 436. رقم 1225). أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 471.

[4]) المصدران السابقان على التوالي: ص 125. رقم 308)/ 3، ص 462.

[5]) المصدران السابقان على التوالي، ص 441. رقم 1239)./ 3، ص 471.

[6]) ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص 500.

7): شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 3، ص 452.

الفصل الثالث: الحواضر البربرية:

المبحث الأول: بنو زيري وحاضرة غرناطة ومالقة.

المبحث الثاني: بنو ذي النون وحاضرة طليطلة.

المبحث الثالث: بنو رزين وحاضرة السهلة (شنتمرية الشرق).

المبحث الرابع: بنو الأفطس وحاضره بطليوس.

IV -3 -الفصل الثالث: الحواضر البربرية:

IV -3 -1 -المبحث الأول: بنو زيري وحاضرة غرناطة ومالقة.

هذه حاضرة عظيمة من حواضر الأندلس، و قاعدة جليلة من قواعدها، اكتسبت شهرة خاصة في مدة ملوك الطوائف، وقد تقلّد حكمها أمراء بني زيري الصنهاجيون، فوسّعوا قواعدها، وجعلوها من كبريات ممالك الطوائف.

وكان ميراث هذه الحاضرة عظيما في الناحية العلمية والأدبية، إذ كانت آخر معقل للإسلام والمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا.

وحينما عرض لها ابن سعيد قال:" غرناطة وما أدراك ما غرناطة، حيث أدارت الجوزاء وشاحها، وعلّق النجم أقراطه، عُقاب الجزيرة، وغرة وجهها المنيرة... وأنا أقول وإن سمّيت دمشق الأندلس، أحسن من دمشق، لأن مدينتها مُطلّة على بسيطها، فسبحان مبديها في أحسن حلة، لا يأخذها وصف، ولا ينصف في ذكرها إلا الرؤية."[1]

ويدخل في أحوازها إلبيرة ومالقة وريّة وغيرها من الأرباض والضواحي.

أما مالقة فهي بين مملكتي إشبيلية وغرناطة على بحر الزقاق[2]، ومنها رية التي تعرف بمالقة وفي القديم بريّة، وهي بحرية برية[3]، وأول من ثار بها في مدة ملوك الطوائف عامر بن الفتوح، وخدعه علي بن حمودّ فأخذها منه، فصارت قطبا لخلافة ولده حين أُخرجوا من قرطبة، وأشهرهم إدريس بن يحيى الملقّب بالعالي، وصارت إلى باديس بن حبّوس صاحب غرناطة[4].

أما إلبيرة فهي مملكة جليلة بين مملكتي قرطبة والمرية، ومملكتي جيان ومالقة[5]، وقد كانت قاعدة المملكة في القديم، ولها ذكر شهير ومحل عظيم، إلا أنّ رسمها قد طُمس، ولم يبق منها إلا بعض أثر، وصارت غرناطة كرسيا".[6]

---

1 : المغرب في حلى المغرب، ج2، ص102، 103.

2 : المصدر نفسه، ج1، ص422.

3 : المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4 : المصدر نفسه، ص425.

5 : المصدر نفسه، ج2، ص91.

6 : المصدر نفسه، ج2، ص93.

وكانت قاعدة المملكة ألبيرة، فلما وقع ما بين العرب والعجم في مدة عبد الله المرواني سلطان الأندلس، انحاز العرب إلى غرناطة، وقام بملكهم سوار بن أحمد الغرناطي، فقتله أهل إلبيرة.[1] وقام بالأمر بعده جماعة.

أما دولة صنهاجة التي قامت بالأندلس في القرن الخامس الهجري، فكان أول ملوكهم بغرناطة زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، وكان داهية البربر وقد عظُم قدره في إلبيرة، بعد أن خرّبها أصحابه وأظهر هو الإنكار لذلك، حيث أظهر العدل وقام بالمملكة واقتعد مدينة غرناطة وهزم المرتضى المرواني، وقد استمر بإلبيرة حتى سنة(240 هـ) ثم رحل عن الأندلس إلى إفريقية بما حازه من الذخائر العظيمة.[2]

وبقي بغرناطة ابن أخيه حبُّوس بن ماكسن بن زيري، الذي حكم من سنة (240 هـ إلى سنة 429 هـ) فاستبدّ بملكها، وساس الإمارة سياسة رجل دولة، مقتدرا على شؤون تدبيرها.[3] ثم خلفه ابنه باديس بن حبّوس الذي حكم بين سنتي (429 هـ إلى سنة 467 هـ)، وكان من أبطال الحروب وشجعانها، و كان على ما فيه من السياسة منصفا حتى من أقاربه".[4]

وقد قضى باديس بن حبوس على بني حمّود في مالقة، وضم مملكتهم إلى غرناطة سنة (449 هـ) وبقيت هذه المدينة في حوزة بني زيري من أهم حواضرهم ومدنهم، حتى سقوط دولة بني زيري في سنة (483 هـ) على يد الملثمين.

---

1 : المغرب في حلى المغرب، ج2، ص105

2 : ابن سعيد: المغرب، ج2، ص106./ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص264./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص227-229./المؤلِف نفسه: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص293-296، وراجع الأحداث المفصلة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة عند أحد أبنائها، الأمير عبد الله بن بلقّين: المذكرات (تحقيق بروفنسال)، ص19-25.

3 : ابن سعيد: المغرب، ج2، ص107./ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص264./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص229./عبد الله بن بلقين: المذكرات، ص24.

4 : ابن سعيد: المغرب، ج2، ص107./ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص262-264./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص330-333./ المؤلِف نفسه: الإحاطة ، ج1، ص204-243 ./ عبد الله بن بلقين: المذكرات، ص27.

وكان المرابطون قد انتزعوا ملك الصنهاجيين من يد آخر ملوكهم في غرناطة، عبد الله بن بُلقّين بن حبوس وهو بن أخ باديس.[1]

شهدت حاضرة غرناطة في ظل حكم بني زيري الصنهاجيين الذين ملكوها أكثر من ستين عاما تقدما كبيرا في بُناها التحتية، وازدهارا فكريا وثقافيا وحضاريا كبيرا، وكانت من كبريات ممالك الطوائف وأقواها، وسجّلت في التاريخ الأندلسي حضورها الواسع في الأصعدة السياسية والثقافية والدينية، وحتى في التاريخ الإفريقي، فقد كانت أسرة كثيرة العدد واسعة النفوذ، وزعماؤها لا يحصيهم عدّ من كثرتهم.

وزعماء صنهاجة الذين أسسوا ملكهم في غرناطة وأحوازها وكذا في إفريقية الشمالية، كانوا ضمن كوكبة من الأسرة البربرية التي أقامت ممالك وإمارات في القرن الخامس، وقد ذكرنا هذه الأسر في مبحث الحياة السياسية في عصر الطوائف.

والظهور القوي للبربر في الأندلس، وبروزهم اللافت والمتعاظم في الحياة السياسية، يقابله بروز آخر في الحياة الثقافية والعلمية، حيث" لم يبق البربر في معزل عن الميدان العلمي، فقد وردت أسماء كثير من رجالاتهم ضمن النخبة الأندلسية التي تعاطت العلوم، وخصصت حياته لجمعه داخل وخارج الأندلس وكذلك لنشره وتطويره."[2] وذلك منذ القرن الثاني الهجري، وحتى سقوط الأندلس.

وكان بنو زيري من الذين صنعوا وأسهموا في الملحمة الثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، وكان بلاطهم مرتعا خصبا للآداب والشعر واللغة والعلوم الشرعية.

وقد حاول كثير من الباحثين جهلا أو تجاهلا لحقائق الأمور، قصدا أو عن غير قصد، تقزيم الدور العلمي والثقافي الكبير لهذه الأسرة، ولا حجة لهم في ذلك غير النسب البربري الذي ينتمون إليه، ومتى كان النسب عائقا عن الإبداع الأدبي واللغوي والديني؟، رغم أن تاريخ الأدب العربي في

---

[1] : ابن سعيد: المغرب، ج2، ص108./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص268. وراجع ترجمة والده عند ابن الخطيب في الإحاطة، ج1، ص238.

[2] : محمد حقي : البربر في الأندلس، ص41؛ .

الأندلس يبدأ مع خطبة طارق بن زياد البربري وتلك الأبيات الشعرية الثلاثة التي قالها أثناء عبوره المضيق.[1]

ولكن إزاء ما يدّعيه أصحاب هذا الرأي الجائر*، الذي ينحرف عن الجادة بفعل تلك النظرة الضيقة التي يرفضها الطرح الأكاديمي الجاد، نجد أنفسنا مضطرين إلى استخراج الدلائل البيّنة

---

[1] : المقري نفح الطيب، ج1، ص240، 241.

* : يقول بالانثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي:" ولم يُتح للأدب أن يصل إلى متسوى رفيع في غرناطة لأن أصحاب الأمر فيها كانوا من طوائف البربر" ص30 . ويؤكد ذلك في موضع آخر من الكتاب قائلا : " لم يتقدم الأدب العربي تقدّما محسوسا في غرناطة التي سيطرت عليها الطوائف البربرية ." ص135، ثم يجمل الطوائف البربرية كلها ويضعها في خانة واحدة، حيث يقول:" وأما بقية دول البربر التي قامت في ذلك الحين، في مالقة والجزيرة الخضراء، وقرمونة وإستجة والمدوّر، ورندة وأركش وموروز وشريش، فلم تنفق للأدب فيها سوقا." ص136. ولم يشر أبدا بالانثيا ولا من اتبعه من الدارسين، إلى الإمارات البربرية الكبيرة، والأسر العظيمة، التي نفق فيها الأدب والعلم، مثل بني ذي النون في طليطلة، وبني الأفطس في بطليوس، وحتى بنو حمود من العلويين يقولون بأنهم عرب تبربروا فقط.

وها هو الأستاذ الطاهر أحمد مكي في كتابه "دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة" يقول عن أحد مؤسسي الدولة الصنهاجية في الأندلس، حبّوس بن ماكسن:" أصعب ما واجه أمير غرناطة أن يجد وزيرا أول صالحا، في مستوى وزراء جيرانه من الأمراء، أديبا قادرا على تحرير الرسائل التي يبعث بها الأمير في لغة عربية راقية، مسجوعة وذات أسلوب بليغ، ولم يكن يثق في قومه البربر، فهم يعرفون جيدا كيف يقاتلون، وبستولون على المدن، وينهبونها أو يحرقونها عند الضرورة، ولكنهم عاجزون عن الكتابة في لغة عربية فصيحة." ص 54.

وتصل نغمة الباحث مكّي صداها، و تبرز معه تلك النظرة الضيقة المقيتة مداها، حينما يؤكدها بقوله" " إنّ غرناطة تحت حكم بني زيري كانت إفريقية أكثر منها أندلسية، تشبه أن تكون جزيرة بربرية تطوقها بحار من الإمارات العربية، مدينة جافية لمّا تنضج، أبعد ما تكون عمّا ستصبح عليه حين ينتهي بها المآل أخيرا إلى أيدي العرب." المصدر نفسه، ص64. ثم يتابع قائلا: " وامتدّ الجدب إلى الحياة الأدبية نفسها، فعلى امتداد نصف قرن، وفي بلد يرتوي بالشعر و يتغذى بالغناء، بقيت غرناطة على امتداد القرن الحادي عشر خارج المهابط التي يتردد عليها الشعراء، ولم يحدث أبدا أن أيا من كبار الشعراء خارجها فكّر أن يرتحل إليها، ليمدح عبثا أمراءها البربر، أو وزراءها اليهود، وأما الشعراء الذين فيها فكان عليهم إماّ أن يخضعوا أو يرحلوا." ص64.

ويستشهد برأي المستشرق طورس بالباس(TORRES BALBAS) على غيبة الفن التشكيلي والمعماري في المدينة، لأن صغار ملوك البربر وهم جبناء وبخلاء، لم يشيدوا غير سور متين باق حتى أيامنا هذه، كهيكل عظمي للمدينة، و آثروا أن يكدّسوا الأموال التي استولى عليها المرابطون فيما بعد." نقلا عن المصدر نفسه ص64.

وكأنّ بني زيري قد أحسّوا بظلم المؤرّخين والباحثين لدولتهم، ها هو آخر أمرائهم في غرناطة يقول في مذكراته: " إن الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا في مدّتها وأيام سعادتها، ولو كانت ظالمة، فلا يقع فيها الذم إلا بعد تولّيها، ولو كانت عادلة، والناس مع من سبق إلا من نظر بعين العدل لا بعين الهوى، و قليل ما هم ! " ص17 (طبعة بروفنسال).

أمّا قول الباحث مكي بأن قوم حبوس عاجزون عن الكتابة بلغة عربية فصيحة، فما سنذكره في متن الصفحات التالية كفيل بأن يبطل رأي الباحث جملة وتفصيلا.

بل إن بني زيري الصنهاجيين قد نشأوا في حجر العربية والقرآن الكريم، ورثوا ذلك كابرا عن كابر، فقد عقد الأمير عبد الله بن بلقين الغرناطي في مذكراته فصلا بعنوان " التعليم والتجربة " ص15، 16، وقال عن أهل عشيرته: " وقد كنّا -معشر أهل المملكة - نرى من آكد ما نتأدب به ، إعمال السياسة في طلب الرياسة، و السعي لها بكل الوجوه، وإحضار الأذهان، ما لو أن

=المُفرط في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرها من العلوم، لكان عندنا ناقصا، لا يصلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافس على ذلك وقتلناها نحن علما لرياضة أنفسنا لها، وما أجرانا عليه آباؤنا، وبصّرونا فيه من أول نشأتنا." ص16.

وهل تصلح السياسة السياسة بغير علم في التاريخ السياسي الإسلامي في القرون الوسطى ؟

وقد وَصفَ الأمير الغرناطي ملوك بني زيري الصنهاجيين كلّهم بمحبي العلم والأدب والشعر، وسائر ألوان الثقافة، فقد ذكر ابن سعيد عن زاوي بن زيري أنه "داهية البربر" ج2، ص106،وقال عنه ابن الخطيب في الإحاطة:" أول من مدّن غرناطة، وبناها، وزادها تشييدا ومنعة..." ج1، ص294. وانظر الوصف عند المؤلف نفسه في أعمال الأعلام، ص228، وراجع أوصافه كذلك عبد الله بن بلقين في المذكرات، ص19.

أما ابن أخيه حبّوس بن ماكسن " فقد كان فارسا شجاعا يصغي الأدب" ابن سعيد: المغرب، ج2، ص107. وقال عنه عبد الله بن بلقين في المذكرات: وسار بأجمل سيرة وأعدل طريقة، وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد، وتعفّف عن كل شيء، وجمدت يده على الحرام والأموال، فأحبّه الناس، وأمنت معه السبل، وقلّ الفساد وارتفع الجور." ص24، وراجع ص19 من المصدر نفسه. وكان ولد حبوس يُقبل على قراءة الكتب ومجالسة الفقهاء" المصدر نفسه، ص25.

ويحدثنا عبد الله بن بلقين عن جدّه المظفر في نصيحته له قائلا: " معك من الكتاب وتلاوة القرآن ما يكفيك وهذا أولى ما تتعلم." المذكرات، ص16، 17.

وكان ابن شرف القيرواني يؤلف كتابه "أبكار الأفكار" باسم عبّاد ... وقد كان وسمه قبل باسم باديس بن حبّوس في خطبة طويلة."/ بن بسام: الذخيرة، ق/4/1/ص177.

وكان عبد الله بن بلقين يقول شعرا فينشده الكتبة في مجالس الاحتفال للراحات./ المذكرات، ص115.

وكفى البربر في المغرب والأندلس فخرا أنهم وطّدوا أركان المذهب المالكي السني الذي لم يكتب له النجاح في أرض الحجاز، فقد كان الفقيه يحيى بن يحيى الليثي المصمودي تلميذ مالك وأحد الذين أدخلوا الموطأ إلى الأندلس، وإليه ينسب انتشار المذهب بالأندلس./ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص431، 432.رقم (1556).

وفي إفريقية (تونس) وفي منتصف القرن الخامس الهجري، أعلن المعز بن باديس الصنهاجي تثبيت المذهب السني المالكي في مقابل المذهب الشيعي الذي أدخله الفاطميون إلى شمال إفريقية أكثر من ثلاثة قرون، وقد ذكرنا ذلك في المبحث المتعلق بالتواصل الثقافي بين الأندلس وتونس.

وقد جعل الطاهر مكي مدينة غرناطة " مدينة جافية لمّا تنضج، أبعد ما تكون عما ستصبح عليه حين ينتهي بها المآل أخيرا إلى أيدي العرب." ولا يسعنا إلا أن نذكر الباحث بالمآل الأخير لغرناطة على أيدي العرب، ولكن من الناحية السلبية.

أما اعتماد الباحث مكي على قول المستشرق ليوبولد طورس بالباس حول انعدام الفن المعماري في غرناطة في عهد بني زيري الصنهاجيين، فإننا نحيله على قول المقري في النفح، ج1، ص196، " ورأيت في بعض كتب تاريخ الأندلس في ترجمة السلطان باديس الصنهاجي صاحب غرناطة، ما نصه : وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالقة، وكان أفرس الناس وأنبلهم... وقصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام والكفر مثله، فيما قيل، وهذا القصر هو الذي عناه لسان الدين بن الخطيب في قصيدته السينية المذكورة في الباب الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب."/ وانظر بن الخطيب: الإحاطة، ج1 ص244.

وقد اتبع نظرة بالانثيا من الباحثين العرب إضافة إلى الطاهر مكي، سعد عبد الله البشري في رسالته "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف"، ص176، حيث يقول: " لم يقدم بنو مناد من البربر في غرناطة شيئا مهما للحركة العلمية والأدبية فقد كانت هذه الأسرة تفتقد إلى رهافة الحس الأدبي والذوق الرفيع الذي كان يتمتع به غيرها من الأسر الآنفة الذكر."

ولا يخفى على الباحث الدارس خطورة هذا الحكم الذي اتبع فيه الباحث رأي من سبقه لا أكثر، والدليل على ذلك أنه حاول جاهدا أن يدعم حكمه هذا بقول المستشرق غارسيا غومس في كتابه: مع شعراء الأندلس والمتنبي، حيث يقول:" وفي بلد يرتوي بالشعر ويتغذى بالغناء بقيت طوال القرن الحادي عشر الميلادي خارج المرابط التي يتردد عليها الشعراء..." وهو الكلام نفسه الذي اعتمده مكي.

القاطعة والشواهد النيّرة الساطعة، لكبح جماح هذا الرأي الذي استشرى إزاء هذه الإمارة وأصحابها عند بعض الباحثين الذين أعابوا على هذه الأسرة الجليلة يرومون إزالتها عن رتبتها الرفيعة في حقل العلم والأدب، ويقزّمُون دورها العلمي والثقافي في الأندلس، ولا دليل يستندون إليه -بزعمهم -سوى حديثهم عن الأصول البربرية لهذه الأسرة العريقة التي حازت شرف العلم وسؤدد السياسة في الأندلس وشمال إفريقية.

ضمّت حاضرة غرناطة في عهد بني زيري أشهر الشعراء في عصر الطوائف، وأعلاهم مقاما في ميدان النظم والنثر، منهم أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري، المعروف بالسُّميسر(ت480هـ/1087م) الذي ذكرناه آنفا، حيث كان من شعراء إلبيرة (غرناطة) ثم غادرها نحو بلاط المعتصم، قال فيه بن بسام:" كان باقعة عصره، وأعجوبة دهره، وهو صاحب منزدوج كأنه حذا فيه حذو منصور الفقيه، وله طبع حسن، وتصرّف مستحسن في مقطوعات الأبيات."[1]

ومن هؤلاء الشعراء الكبار الذين ضمّتهم حاضرة غرناطة وانتجعوا ملوكها بمدائحهم، هشام بن عبد الله بن أصبغ بن أحمد بن أبي العباس، وهو جد الفقيه الأديب أبي العباس أصبغ، وكان جليل

=واتبعت الباحثة سهى بعيون في كتابها" إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس، عصر ملوك الطوائف" من سبقها في الحكم على هذه الأسرة، ونقلت حرفيا كلام سعد البشري السابق ذكره من دون أن تشير إليه أو توثقه.

ويحمل محمد شهاب العاني في كتابه : الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، دار دجلة، عمان، الأردن، ط1، 2010م، ص156 ، وما بعدها، العنصر البربري مسؤولية تدهور الحياة السياسية في الأندلس في بداية القرن الخامس الهجري، ويستلّ حادثة محاولة فتك باديس بن حبوس بجماعة من العرب ويجعلها في غير سياقها التاريخي، مكرّسا برؤيته تلك الصراع الإثني، ناسيا أو متناسيا أن الأزمة القرطبية، التي اصطلح عليها تجوزا " الفتنة البربرية " سنة (403هـ) نتيجة دخول عناصر البربر قرطبة وتخريبها، إنما كانوا تحت إمرة عربية بقيادة محمد بن عبد الجبار المهدي الذي يسميه ابن عذاري المراكشي بالسفيه قائلا: " فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سمّوها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى." البيان المغرب، ج3، ص76. وينظر كلام ابن الأبار في الحلة السيراء (طبعة دار الكتب العلمية) عن ابن عمه سليمان بن حكم المستعين، ص175 ، وكلاهما من رؤوس الفتنة.

[1] : ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص882، 883، وترجمته عنده (882-904)./ابن سعيد: المغرب، ج2، ص100، 101./ ابن دحية: المطرب، ص89، 90./ العماد الأصفهاني: خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، ج2، (148) ./المقري: نفح الطيب، ج1، ص527، 528./ج3، ص320، 321، 412، 413./يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص95، 96./ إحسان عباس: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلفي، ص28، 83، 84./ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شعراء الأندلس، ص163.

المقدار، فقيها نبيها حسيبا، كاتبا بليغا شاعرا مجيدا، قال عنه حفيده: ناظم،ناثر، وحامل علوم ومآثر، وخطيب محافل ومنابر، وله أشعار كثيرة في مدح باديس بن حبّوس منها:

- تمسّك أيهـا المولـى بحـزمٍ ❖❖❖ فأنت الحارسُ البطلُ النجيدُ
- وصِل بالله صبرك تلق خيرا❖❖❖ فغِبُّ الصبـر مغتبطٌ حميـدُ
- وكـم من معشر قلّوا دفاعـا ❖❖❖ وما جبنوا وإن كثر العديدُ

وفيها أيضا:

- ليهنِك يـا مظفـر نيل ملك ❖❖❖ حبـاك ببـّره البـرُّ الـودود
- فلا عريت منه ودمت فينـا ❖❖❖ تُبيـدُ الحادثـات ولا تبيـدُ[1]

وكان أخوه أيضا شاعرا يكنّى أبا عبد الله، محمد بن عبد الله بن أصبغ، ومن جلّة أعيان مالقة، ويذكر ابن عسر أنه فرّ إلى ابن عباد بإشبيلية في الفتنة التي كانت بمالقة أيام بني بلقين حيث وفدَ عليه ومدحه قبل أن يعود إلى بلده.[2]

وكان عبد الرحيم بن عبد الرزاق من وزراء عبد الله بن بُلُقين ملك غرناطة[3]،كاتبا ناثرا، ناظما شاعرا مجودا، وأديبا بليغا.

ويمكن أن نضيف اسما آخر لامعا في دنيا الأدب، ذكرناه من قبل في حاضرة مالقة، في دولة بني حمود، ولكن صلته ببني زيري في غرناطة قطعية الثبوت، وهو أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني الكاتب، وكان في ذلك الأوان أحد شيوخ الكتاب، وجهابذة أهل الآداب، وكان أديبا طوّافا كثير الترحال، حيث استقر به المقام في دولة بني عبّاد، وله رقعة خاطب بها ابن عبد الله صاحب قرمونة عن حبوس ملك غرناطة.[4]

---

[1] : ابن عسكر، ابن خميس: أعلام مالقة، ص 356، 357. رقم (167).

[2] : المصدر نفسه، ص77، 80.رقم (3).

[3] : ابن سعيد : المغرب، ج2، ص115.

[4] : المصدر نفسه، ج1، ص444، 445./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص624 وما بعدها.

وإلى حضرة غرناطة قدم الشاعر الكبير ابن سارة الشنتريني ومدح أبا يحيى أبا بكر بن إبراهيم.[1]

ويحدثنا السيوطي وغيره عن الحسن بن محمد بن سليمان المالقي أبو علي(ت500هـ/1107م) ويعرف بابن عامل، فاره من جلة الأدباء وذوي النباهة، أقرأ العربية والأدب واللغة، وكان له تصرف في العلوم القديمة، وألف في العربية، و له نظم ونثر.[2]

وقد كانت مجالس أمراء غرناطة حافلة بأهل العلم والأدب والشعر، حيث أجزل ملوك هذه الحاضرة العطايا لأهل النهى، ووسّعوا عليهم، و في هذا كله إشارة حسنة على محبتهم للعلم والثقافة، وها هو الشاعر أبو محمد غانم بن وليد يدخل مجلس باديس بن حبّوس حيث وسّع عليه على ضيق فقال شعرا.[3]

ومن المعدودين النبهاء من أهل غرناطة، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري(ت518 هـ)، كان شاعر مجيدا، وكاتبا بليغا، حلو الكتابة والشعر، وكان مع هذا آخر وزراء الأندلس، ذاكرا للفقه والحديث فارعا في ذلك، و يوم موته تفجّع الناس عليه، ورثاه ابن أبي الخصال.[4]

ومن النابهين المعدودين في اللغويين والنحويين المنتمين إلى هذه الحاضرة، أبو عبد الله محمد بن معمر اللغوي المعروف بابن أخت غانم، وهو متفنن في علوم شتى، إلا أن الأغلب عليه علم اللغة وفيه أكثر تواليفه، وكان قد وصل من مالقة إلى المرية فحلّ عند ملكها المعتصم بن صمادح، وله تآليف منها: شرح كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري في ستين مجلدا وغير ذلك.[5]

---

[1] : الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص834.

[2] : بغية الوعاة، ص423.رقم (1078)

[3] : المقري: النفح، ج3، ص595، 596./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص853.

[4] : ابن الزبير: صلة الصلة، ص104.رقم (301)./ ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج3، ص18، 19.رقم (57)./ ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص400 وما بعدها.

[5] : ابن سعيد : المغرب، ج1، ص433./ السيوطي: بغية الوعاة...../ابن عسكر، ابن خميس: أعلام مالقة ص80، 81.رقم(5).

ومن أعلام اللغويين والنحويين في عصر ملوك الطوائف، ومن خيرة هذا الجيل الذي أنجبته حضرة مالقة، غانم بن الوليد بن عمر بن عبد الرحمن المخزومي المالقي النحوي (ت470 هـ)،[1] وعبد الله العبلي وقد جاء ذكره في كتاب المقتبس لابن حيان، حيث كان شاعرا، وكان يناضل أهل غرناطة عن شعراء إلبيرة في تلك الفتن.[2]

وفي غرناطة الحاضرة وبعض مدنها انتعش الاتجاه الزهدي في الشعر ونما وازدهر على نحو واسع، حتى أصبح بضاعة القوم الأثيرة، وشكّل ظاهرة ملفتة الانتباه، تحتاج إلى دراسات مستقلة ومستفيضة في هذا الجانب، فقد كان لشعرائهم في هذا الاتجاه الحظ الأوفر والنصيب الأكبر بين شعراء الأندلس.

ولقد تغلغل هذا الاتجاه الزهدي الذي يميل إلى ذم الدنيا والتفكر في الآخرة في نفوس الغرناطيين والإلبيريين، وملأ عليهم حياتهم، وغشّى شعراء حاضرتهم حتى مسّ أرباضهم وقراهم. وقد عُرف منهم في هذا الفن مجموعة من الأدباء والشعراء، وهناك نماذج أخرى والصلحاء والمجاذيب ورفيعي المقام ممن كانوا يكابدون النفس ويقومون على رياضتها ومجاهدتها، وينشغلون بأمور آخرتهم على أمور دنياهم، ويحثون الناس والعامة على ذلك.

فإذا ذكرنا منهم مجموعة من الأعلام، فلا نعلم من ذكرنا الفقهاء العلماء أم الشعراء الأدباء. من هذه الكوكبة أبو عمر أحمد بن عيسى الإلبيري، وكان أمر إلبيرة دائرا عليه، مع زهده وورعه، وقد وصف بالأدب والنظم والنثر.[3] وقال فيه ابن بسام:" إني وجدته خالص الأدب، ذهب بفصوصه وعيونه، وتلاعب بمنثوره وموزونه، وتصرّف بين مذاله ومصونه"[4]

وقد شهر بذلك أبو علي الحسن بن حسون، عين مالقة وربُّ حلها وعقدها، وعلم بردها وواسطة عقدها، وكان من أئمة العلماء، وُلي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي

---

[1] : الفيروزآبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص229، 230.رقم(266).

[2] : ابن سعيد : المغرب، ج2، ص125.

[3] : المصدر نفسه، ص95، 96./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ص847.

[4] : الذخيرة، ص847، 848.

(434هـ -438هـ)، وقاسى من شدة اختلاف الفقهاء على بلده، وله شعر ذكره ابن سعيد وغيره.[1]

وأبو عبد الله بن حسون، محمد بن عبيد(ت519هـ)، من أهل مالقة، كان فاضلا خيّرا من أهل العلم والفقه، ولي قضاء غرناطة، وله تأليف حسن في الزهد سمّاه كتاب المونس[2]، وقال فيه ابن الأبار: " قاضي ملقة ورئيسها في الفتنة، وكان فقيها مشاورا وله رواية.[3]

وقد نحا شعر شعر الزهد منحى جديدا مغايرا في أفقه، لما عرف من الزهديات في المغرب والأندلس أو في المشرق، وذلك بظهور الشاعر أبي إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود(456هـ/1067م)، وأصله من حصن العُقاب، وكان قد اشتهر في غرناطة اسمه وشاع علمه، وارتسم بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغرله اليهودي وعلى أهل غرناطة انقيادهم له، فسعى في نفيه إلى إلبيرة، فقال شعره المشهور:

- ألا قل لصنهاجة أجمعين ❖❖❖ بدور الزمان وأسد العرين
- لقد زلّ سيّدكم زلة ❖❖❖ أقرّ بها أعين الشامتين
- تخيّر كاتبه كافرا❖❖❖ ولو شاء كان من المسلمين
- فعزّ اليهود به وانتخوا ❖❖❖ وكانوا من العترة الأرذلين[4]

رفع أبو إسحاق قصيدته إلى باديس فلم يرتح منها، وكانت ثقته في يوسف لا حدّ لها، ولكنها أثارت عاصفة من الحماس بين البربر، فأقسموا على القضاء على الوزير اليهودي، وحملت الريح أبيات أبي إسحاق إلى كل أركان المدينة، وعكف عليها الناس ينسخونها، وينشدونها ويترنمون بها، ويتحينون الفرصة ليجعلوا من أفكارها واقعا.[5]

---

[1] : المغرب، ج1، ص430، 431.

[2] : ابن عسكر، ابن خميس: أعلام مالقة، ص80.رقم (4)

[3] : ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص227.

[4] : ابن سعيد : المغرب، ج2، ص132، 133./ ابن الأبار: التكملة، ج1، ص118، 119. وعنده وفاته سنة (460هـ)./ ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص231/ الضبّي: البغية، ص191.رقم(520)./ إحسان عباس: أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلفي، ص135، 136./ الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص66 -76./ إميليو غرسيا غومز: مع شعراء الأندلس والمتنبي، ص117 -161.

[5] الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص74.

ولأبي إسحاق الإلبيري "أشعار ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس عزائم بحفظها".[1]

هذا ويمثل شعر أبي إسحاق خطوة أخرى في مسيرة شعر الزهر، أو الاتجاه الزهدي، من خلال تدعيمه وتنويعه، وتداخل الأغراض أحيانا أخرى، وهنا تبرز شخصية الزاهد السياسي. وقد مضى شعراء إلبيرة سيرا على هذا النهج مشاركة مباركة في هذا اللون الشعري، حتى يصح لنا أن نقول: إن زهديات الغرناطيين والإلبيريين وفي مقدمتهم أبو إسحاق الإلبيري، قد نشأت وترعرعت نضالا أدبيا، دينيا، سياسيا أثيرا لدى الأندلسيين.

وليس القصد من إيراد هذه المسرد لشعراء وأدباء حاضرة غرناطة سوى تبيان كثرة أدبائها والمهتمين بهذا الشأن عكس ما ادعاه البعض وروّجوه، فقد أصبحت غرناطة حلبة يتبارى فيها الشعراء والأدباء وتبرز فيها المواهب الشعرية والقرائح الأدبية.

وتعددت في حاضرة بني زيري شخصيات مشتركة على الصعيد العلمي والأسياسي والأدبي منهم إسماعيل بن يوسف بن نغرله اليهودي ، الذي آل أمره إلى أن استوزره باديس بن حبّوس ملك غرناطة.[2]

اسمه صمويل هاليفي، وينادونه إسماعيل أو صموئيل و يعرف بإبراهيم، وقد خلطت المصادر الأندلسية بينه وبين ابنه يوسف وقد فصلنا ذلك سابقا. وكان شخصية يهودية رفيعة في النواحي السياسية والعلمية والدينية، وينتمي إلى طبقة غنية حيث كان من علية القوم.

وكلى من كتب عنه تحدث عن هذه الشخصية الفذة في مناحيها السياسية، وهذا ما يدل على تلك المكانة التي تبوأها عند ملوك بني زيري، وكذا المناحي الثقافية والعلمية التي اكتسبها صمويل نتيجة إتقانه لعدة لغات حيث "تعلم من اللغات العبرية والكلدية واللاتينية إلى جانب العربية لغته الأولى".[3] مع تخصصه من صغره "في الدراسات التلموذية على يد أبي حنوك بن موسى الرئيس

---

[1] : ابن سعيد : المغرب، ج2، ص133.

[2] ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 114./ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 264./ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 239، 240./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 230 وما بعدها.

[3] الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص 55.

الروحي للطائفة اليهودية في عاصمة الخلافة، ثم توجهه إلى دراسة الأدب العربي وكل ألوان الثقافة الأخرى."[1]

وقد كان صمويل هذا شاعرا مجيدا ينظم بالعربية ويعرف دقائقها ومعانيها، وكذلك ابنه يوسف.[2]

ونظرا للمكانة السياسية الرفيعة والحظوة المتميزة التي بلغها صمويل وابنه يوسف عند ملك غرناطة، حيث استأثرا بكل شيء واحتكارا كل الامتيازات لهما وللطائفة اليهودية التي كانت ضاربة الجذور في غرناطة، فقد جنت عليهما قصيدة أبي إسحاق الإلبيري، حيث خرجت جموع برابرة صنهاجة لتصحيح المسار الذي خطه حكّامها. وقد ذكر عن صمويل هذا أنه نظم شعرا استهزأ فيه بالمسلمين وشعائرهم، وهذا سبب آخر كافيا لإزالتهم عن مسرح الحياة السياسية في غرناطة.

ولم يكن صموئيل و ابنه يوسف ليسيرا بعيدا في مشوارهما السياسي في غرناطة دون أن يجدا لهما ناصرين خارج أسرة بني زيري الصنهاجيين الحاكمين لغرناطة، ومن دون وجود بعض الهاتفين باسمهما، الداعمين لهما، المنتفعين من عطاياهما.

فقد ظهر في غرناطة في هذه الفترة الأديب أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف بالمنفتل وكان أديبا كبيرا، ذكره ابن بسام وأثنى على شاعريته بقوله: "المنفتل ممن نثر الذر المفصل، وطبق ما نظم المفصَّل"[3]

كما أورد له فصولا من شعره ونثره، ما يشهد برفعته في هذا الفن، وذكره ابن سعيد وقال: "إنه نابه الذكر".[4]

---

(1) المصدر نفسه: ص 54. وراجع ما كتبه عنه إميليو غارسيا غومز في كتابه : مع شعراء الأندلس والمتنبي، في الفصل الذي تحدث فيه عن أبي إسحاق الإلبيري، ص 117 -161./ بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 135، 136.

(2) أنظر مثلا: ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 114، 115.

(3) ابن بسام" الذخيرة، 1 2/ ص 754 765./ ابن سعيد: المغرب، 2، ص 115.

(4) المغرب: ص 99.

وقف المنفتل جلّ مدائحه -تقريبا -على مدح صموئيل وابنه يوسف بعده، وغالى في مديحهم، وارتفع بهم إلى مرتبة الأنبياء وهو ما جنى عليه من طرف المؤرخين الذين وصفوه بأشنع الصفات.[1] وكأن مدائح المنفتل في صموئيل وابنه تذكرنا بمدائح ابن هاني الأندلسي في المعز لدين الله الفاطمي.

وإضافة إلى كل الأدباء والشعراء المذكورين في حاضرة بني زيري، يهمنا أن نتوقف على نحو خاص بإزاء أديبين مميزين برزا في هذا الحقل الثقافي، وهما: أبو الفتوح الجرجاني (431 هـ/1040م)، وآخر أمراء بني زيري في غرناطة، الأمير عبد الله بن بلقين الغرناطي.

أما أبو الفتوح الجرجاني، ثابت بن محمد فهو مشرقي قدم الأندلس سنة (406هـ) وجَالَ في أقطارها وبلغ ثغورها ولقي ملوكها، وكان إماما في العربية متمكنا في علم الأدب، مذكورا بالتقدم في علم المنطق، دخل بغداد وأقام فيها في الطلب، وأملى بالأندلس، كتاب (شرح الجمل) للزجاجي المتوفى سنة (437هـ).[2]

واستقر أبو الفتوح أخيرا في غرناطة حيث ألقى دروسا عن الشعر القديم و كتاب "الحماسة" خاصة، وقد اتهم في مؤامرة دبرت على باديس بن حبوس صاحب غرناطة، فقبض عليه وحبسه ثم قتله.[3]

وعبد الله بن بلقين الصنهاجي على نحو خاص، والذي لم يكن أعظم ملك من ملوك الطوائف فحسب، فقد برز أديبا، مؤرخا، وسياسيا قديرا، ودليلنا في ذلك هو تلك المذكرات التي كتبها في منفاه بأغمات بعد أن عزله المرابطون.

وفي عهد عبد الله بن بلقين كانت الدولة الصنهاجية في حاضرة غرناطة في أخرياتها تعاني السّوْق الأخير، فقدر لها أن تكتب أيامها من طرف آخر أمرائها، حتى تكون مذكرات شاهدة على كثير من الحقائق التي ربما كانت ستزيّف و يتحيّفها النسيان. وكأن الأمير عبد الله كان

---

[1] أنظر مثلا: كلام ابن بسام عنه في الذخيرة، 1 2/ ص 764 765.

[2] الحميدي: الجذوة، ص 161 162./ الصبني: البغية، ص 215 216./ ابن بشكوال: الصلة، ص 114 115

[3] بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 135. وقد جعل وفاته سنة 421هـ).

مدركا لذلك ولهذا " لجأ إلى هذا الصنيع لإحساسه بأن ظلما تاريخيا سوف يقع عليه -أو في عهده - دولة بني زيري في غرناطة".[1]

وقد قصد إلى ذلك قصدا وأحاط القارئ بمنهجه في صفحات مذكراته المسماة "التبيان" والتي تعدّ من أقدم الوثائق وأصدقها في عصر ملوك الطوائف، إضافة إلى أنها صادرة عن أمير كان شاهدا على أحداث عصره.

وفي مذكراته كثير من الحقائق التاريخية التي يعزّ علينا الحصول عليها من مصدر آخر غير تلك المذكرات. وخاصة ما تعلق بصراعات ملوك الطوائف فيما بينهم.

فمذكرات الأمير عبد الله الغرناطي "قد كشفت لنا عن دخيلة نفسه مثلما كشفت عن كثير من المواقف والأحداث، وهذه قيمة سوف تظل مرتبطة بها إلى أبد الآبدين، خاصة وأنها كانت سابقة في عصرها فريدة في بابها."[2]

أما تجنيس هذه المذكرات فمن الصعب حصرها في نوع معين، فكل التخصصات تطلبها، فمن منازعة التاريخ إلى مراودة الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ويمكن أن نقول عنها إنها لون من ألوان "الأدب السياسي"، وإذا قلنا إن الأمير عبد الله بن بلقين الغرناطي كان أول من كتب في هذا اللون، لم نكن مجانبين الصواب.

ويتناول الأمير عبد الله في مذكراته هذه "موضوعات ثقافية عامة، مثل كتابته للشعر، وآراؤه في التنجيم وفي الأغذية، وذكر لمسائل فلكية، كلامه في علوم الطب والطبيعة، ونقضه قول من ينكر أن الجن تتكلم، وكلامه في الزهد والتوكل على الله."[3]

وفي فصول عديدة من مذكراته يبين عن ثقافة موسوعية، فهو يتحدث عن آراء أهل الطبيعة في مسائل معينة[4] ويستشهد بأقوال سقراط الفيلسوف اليوناني[1] وغيره من الفلاسفة. وهو في كل هذا

---

(1) حامد أبو أحمد: غرناطة في ذاكرة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2007، ص 14.

(2) المصدر نفسه: ص 66.

(3) المصدر نفسه: ص 49.

(4) المذكرات (طبعة بروفنسال)، ص14.

كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم، وبالحديث الشريف، وبأقوال وآراء السلف الصالحين، وهو ما يؤكد شمولية ثقافة الأمير الغرناطي.

أما أسلوبه الأدبي المتين ففي غاية الروعة والإتقان، من ترصيف الكلمات وتنميق العبارات ويكفي القارئ أن يتمعن لسطور مذكراته حتى يصاب بالدهشة لجمال التعبير وبلاغة المعاني التي اختطها، وسيكتشف أن الأمير متمكن من أفانين القول وضروب الكلام.

هذا وتنهض شهرة أعلام غرناطة ومدنها وأرباضها على كثرة علمائها وفقهائها ومحدثيها وزهادها، ومن الجلي أن عددا كبيرا من الشعراء الزهاد كانوا فقهاء ودعاة وحائزين على جانب كبير من العلوم الشرعية، وقد عاشوا دائما في حاضرة غرناطة وليس شرطا في بلاط أمرائها، لتواضع طبقتهم في الدنيا ورفعتها في ميزان العلم والثقافة.

وما أعظم ما تدين به الأندلس لعلماء غرناطة و فقهائها في تاريخ الثقافة الشرعية، وما من شك أن العشرات بل المئات من هؤلاء الأعلام قد كتبوا أسماءهم وأعمالهم في السجل التاريخي الثقافي الأندلسي بماء التبر لا بما الحبر.

والحق أن ما ذكرنا وما سنذكر منهم سيكون إجحافا ونقيصة، فهذه الأسطر المعدودات لا تؤرخ لجحافل عديدة من أمثالهم ونظرائهم، ولكن عزاؤنا في تقيدنا بالتخصص وبالإطار الزمني للبحث، وهو ما يشفع لنا إهمالنا لكثير من شرفائهم ومتعلميهم. ولا أودّ على أيّ نحو أن أورد قائمة باسم تخصصاتهم (فقه، حديث، أصول، قراءات وغيرها) وإنما سأكتفي بذكرهم إجمالا.

فقد كان أبو عمر أحمد بن يحيى الإلبيري (ت 429هـ) الأصولي، من ساكني غرناطة متكلما دقيق النظر، عارفا بالاعتقادات على مذاهب آهل السنة، وله جملة من التواليف قرأها عليه غير واحد. كما كان أديبا شاعرا، وكان يعرف بابن المحتسب.[2]

---

[1] المصدر نفسه: ص15.

[2] ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص 51،52، رقم (91).

وكان ابن أبي الربيع الإلبيري (432هـ) أحمد بن أيوب من العلماء الجلّة، رجلا فاضلا واعظا سنيا، ورعا أديبا شاعرا، رحل إلى قرطبة ودرس بجامعها الشهير.[1]

و مثلهما أبو عمر، ابن مسعود الجذامي البزلياني (360هـ/461هـ) وكان مخلفا للقضاة بإلبيرة وبجّانة. وكان من أهل العلم والفضل، فقيها، محدثا.[2]

ومن آهل غرناطة ومن أعلامها ابن القليعي (ت 498هـ) حمد بن خلف بن عبد الملك الغساني وكان محدثا، ثقة صدوقا.[3]

ومن المعدودين في علوم الشريعة إبراهيم بن مخلد (ت بعد 470هـ) المالقي، تلميذ الفقيهين والمحدثين ابن أبي زمنين المري وابن عبد البر النمري، وكان أديبا خطيبا فصيحا[4]. وحسين بن محمد بن غسان الإلبيري (ت 435هـ) الفقيه والمحدث الكبير.[5]

ومن أشهرهم في ذلك قاضي مالقة حسون، حسين بن عيسى (453هـ)، فقيه مالقة وكبيرها. وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظائرها.[6]

ومن يراجع كتب التراجم مثل ترتيب المدارك للقاضي عياض، وجذوة المقتبس وبغية الملتمس، والديباج المذهب وغيرها، ليعجزه حصرهم جميعا. وسيكون إرث حاضرة غرناطة العظيمة حافلا لبروز عديد الأعلام في العصر المرابطي مثل المفسر الكبير ابن عطية (ت 541هـ أو 542هـ)، أبو محمد عبد الحق صاحب التفسير الشهير (المحرر الوجيز)، قاضي غرناطة، وقد ولي أبوه كذلك قضاء غرناطة في عصر الطوائف.[7]

---

(1) المصدر نفسه، ص 55، 56، رقم (100).
(2) المصدر نفسه، ص 67، رقم (131).
(3) المصدر نفسه:،ص 75، رقم (157).
4 المصدر نفسه:،ص 93، 94.رقم(219)
(5) المصدر نفسه، ص 130، رقم (327).
(6) المصدر نفسه: ص 130، رقم (328).
(7) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 117، 118.

وكذلك ابن العريف الصنهاجي (481هـ/1088م - 535هـ/1141م)، أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الدين، الذي ولد عامين قبل سقوط دولة الصنهاجيين عام (483هـ/1090م)، الزاهد، الشاعر المتصوف الشهير، صاحب الكتاب الغريب المسمى (محاسن المجالس)، وهو يبين فيه أصول طريقة صوفية جديدة كان لها أثر ظاهر في طريقة الشاذلية وبصورة أوضح في مذهب ابن عباد الرندي.[1]

وإن فخرت غرناطة بأعلامها في مجال العلوم الرياضية والعقلية، فحقّ لها ذلك؛ حيث ذكر المؤرخون ابن السمح الغرناطي (426هـ/1035م)، أبو القاسم أصبغ بن محمد، وكان متحققا بعلم العدد والهندسة، متقدما في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم. وكانت له مع ذلك عناية بالطب، وله تواليف حسنة، منها كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب أوقليدس، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات، ومنها كتاب طبيعة العدد، ومنها كتابه الكبير في الهندسة تقصّى فيه أجزاء من الخط المستقيم والقوس والمنحنى، ومنها كتاباه في الآلة المسماة الإسطرلاب، وغيره.

وقد توفي ابن السمح هذا في غرناطة قاعدة الأمير حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي.[2] بعد أن خلّف أشهر تلاميذه في هذا المجال أبا مروان سليمان بن محمد بن عيسى الناشئ المهندس.[3]

إذن فقد كانت حاضرة غرناطة في عهد بني زيري الصنهاجيين قاعدة للعلم والمعرفة، برزت بها مدينة الأندلس في عصر ملوك الطوائف من خلال كثرة الأعلام والتخصصات.

IV - 3-2- المبحث الثاني: بنو ذي النون وحاضرة طليطلة.

تعد طليطلة من الحواضر الكبرى لشبه الجزيرة الأيبرية، سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعد ذلك، قال عنها ابن سعيد: " إنها إحدى المدن الأربع التي بنيت في مدة قيصر أكتبيان."[1] ووصفها صاعد

---

(1) بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 416 وما بعدها.

(2) صاعد الطليطلي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص91.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بالمدينة العتيقة التي تقع وسط الأندلس، حيث كانت قاعدة للقوط."[2] ثم كانت بعد فتح المسلمين للأندلس من أعظم وأهم القواعد الأندلسية[3] إذن فطليطلة مؤهلة لأن تصير حاضرة إسلامية مهمة، مادامت تحتوي على كل مقومات البناء الحضاري، وفي مقدمتها التاريخ العريق، والإرث الحضاري المهم والكبير للأمم السالفة، والإضافات النوعية والمهمة للمسلمين الذين استوطنوها، وعمروها أكثر مما عمرها السابقون.

وكانت في عصر الطوائف كما قال عنها عالمها ومؤرخها صاعد الطليطلي: "... وهي في وقتنا هذا الذي هو سنة ستين وأربعمائة (1068م) قاعدة الأمير أبي الحسن يحيى بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون عظيم ملوك الأندلس"[4]

وكلمة "قاعدة" عند القدماء لم تكن تعني سوى الحاضرة، والمدينة العظيمة وعاصمة الملك.

" أما المدن التي دخلت في أعمال طليطلة وكانت من أحواز الثغر الأوسط، فمنها طلبيرة (Talavera) قشبرة، أقليش (Acle's) وقونكة (cennca)، البسيطة (Albaceta) شنتجالة (chinchilla) مكادة، وقلعة عبد السلام. "[5]وغيرها من المدن الأخرى وبقيت كذلك حتى القرن الخامس الهجري حيث كانت " هذه المنطقة الشاسعة الهامة وقت الفتنة غنما لبني ذي النون، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ولكن سيئة الطالع قصيرة الأمد."[6] فقد كانت أول قاعدة أندلسية هامة سقطت في أيدي النصارى، فكان سقوطها في شهر صفر سنة (487هـ/ مايو 1085م) في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان هذا السقوط نذيرا، خطيرا، يتصدع صروح الدولة الإسلامية[7]

([1])المغرب في حلى المغرب: ج2، ص8. / شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص 263 وما بعدها.

([2])صاعد الطليطلي: طبقات الأمم (تحقيق مؤنس)، ص85

([3])محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية أدبية) مكتبة الخانجي، القاهرة، ، ط3، 1434هـ / 2013م، 80.

([4])طبقات الأمم، ص85.

([5])شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج2، ص43 وما بعدها. / محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني (دول الطوائف)، ص95.

([6])محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني (دولة الطوائف)، ص95.

([7])محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص80، 82. / شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج1، ص443 وما بعدها.

وكان أول أمر هذه الأسرة. أو اسم جدهم الذي ينسبون إليه هو زنون – وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول -فغير بالذال بطول المدة، ولم يبتدئ أمرهم إلا مع دولة المنصور بن أبي عامر، وكان جدهم إسماعيل بن ذي النون ساس أهل مملكة طليطلة، سياسة استقاموا عليها، واستنام في أموره إلى شيخ البلدة أبي بكر بن الحديدي، وكان من أهل العلم والدهاء فكان إسماعيل لا يقطع أمرا دونه.[1]

ولما ملك ابنه يحي بن إسماعيل طليطلة، جرى على سبيل أبيه في استعمال قانون العدل وأجرى أموره مع ابن الحديدي على سنن أبيه، فاستقامت طاعته واتسق ملكه.[2] وقال عنه عبد الواحد المراكشي:" وأبو الحسن هذا (المأمون) أقدم ملوك الأندلس رئاسة وأشرفهم بيتا، وأحقهم بالتقدم."[3]

وكان العلم والأدب والشعر إحدى السمات البارزة لبني ذي النون ورثوا ذلك كابر عن كابر. وكان منهم ابن المضراس الشاعر، الأمير أرقم بن عبد الرحمن بن إسماعيل ... ابن موسى بن ذي النون، وكان المأمون بن أخيه ينفيه ويبغضه ويحسده على أدبه، ففر منه إلى الثغر الأعلى لمملكته.[4]

وكان عهد المأمون الذي طالت سنو حكمه حتى بلغت ثلاثا وثلاثين سنة، من أجل الفترات التي عرفتها طليطلة، ففي عهده " اتسعت حدود المملكة، وترامت شرقا حتى بلنسية وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد، وساد بها الأمن والرخاء.[5]

وكان ملوكها من بني ذي النون قد " بلغوا في البذخ والترف إلى الغاية"[6] وحينما عدد الباحث إميليو غارسيا غومس خصال ملوك الطوائف، وميزة كل واحد من هؤلاء الرؤساء قال: " وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ"[7]

([1])إبن الخطيب: أعمال الأعلام، ص177. / ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص276، 277.

([2])المصدران السابقان على التوالي: ص 178. /ج3، ص277.

([3])المعجب: ص55. وراجع ما قاله المقري في النفح، ج1؟، ص440.

([4])إبن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج2، ص 14

([5])محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الطوائف)، 98.

([6])المقري: نفح الطيب، ج1، ص440.

([7])الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ص34.

كما اشتهر ملوك بني ذي النون بقصورهم المنيفة التي هي أشد منها منعةً وجمالا من سائر قصور ممالك الطوائف جميعا، وهي سمة فارقة بين أبهة هذه الأسرة وغيرها من الأسر الأخرى الحاكمة.

قال المقري: " وقصور بني ذي النون مشهورة، من ذلك القصر العظيم الذي شاده ملك طليطلة المأمون بن ذي النون بها. وذلك أنه أتقنه إلى الغاية، وأنفق عليه أموالا طائلة. وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون" منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون."[1]

وقال في ذلك الشاعر أبو محمد المصري:

- قصر يقصر عن مداه الفرقد ❖❖❖❖ عذبت مصادره وطاب المورد
- نشر الصباح عليه ثوب مكارم ❖❖❖❖ فعليه ألوية السعادة تعقد
- وكأنما المأمون في أرجائه ❖❖❖❖ بدر التمام قابلته أسعد
- وكأنما الأقداح في راحاته ❖❖❖❖ در جمان ذاب فيه العسجد[2]

وله في صفة البركة والقبة عليها:

- شمسية الأنساب بدرية ❖❖❖❖ يحار في تشبيهها الخاطر
- كأنما المأمون بدر الدجى ❖❖❖❖ وهي عليه الفلك الدائر.[3]

وللدارس أن يدرك حجم الترف والبذخ الذي عاشته هذه الأسرة، والمملكة ككل، من خلال الاطلاع على ما ذكره المؤرخون حول الإعذار المشهور، الذي يقال له (الإعذار الذنوني) والذي يضرب به المثل عند أهل المغرب والأندلس.[4]

([1])نفح الطيب: ج1، ص528. / ابن سعيد: المغرب، ج2، ص9.

([2])المقري: نفح الطيب، ج1، ص529. /ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ ص355.

([3])المصدران السابقان على التوالي: ج1، ص529. / ق1/4/ ص355.

([4])ابن بسام: الذخيرة، ق1/4/ ص128 وما بعدها. / المقري: نفح الطيب، ج1، ص440.

ولا شك أن هذه المظاهر الحضارية الرائعة، واللذائذ الكريمة، لها أثر فعال في خصوبة الفكر، وإثراء الثقافة، ولا شك أن أسرة حاكمة مثل أسرة بني ذي النون في طليطلة، بثقافتها وعراقتها، والبحبوحة التي عاشتها، قد كانت أياديها بيضاء على العلم والثقافة والفن.

ومما هو مسلم به في اعتقادنا، وبديهي في تصورنا، اقتران الحضارة بالعلم والثقافة في صعودها وانحدارها، فكيف كانت الثقافة في حاضرة طليطلة؟ ومن هم الأعلام الذين أنجبتهم هذه الحاضرة؟ وفي أي اختصاص كانوا؟

ففي مجال العلوم الدينية، كانت طليطلة من الحواضر الأندلسية التي أنجبت العشرات من الفقهاء والمحدثين والمقرئين والمفسرين والأصوليين، وممن جمعوا أكثر من فن وحصلوا أكثر من تخصص.

فمن جلة علماء طليطلة حاضرة بني ذي النون، وأكابرهم في عصر الطوائف. الفقيه والمحدث، أبو جعفر، أو أبو عمر، أحمد بن مغيث الصدفي الطليطلي (406ه/ 457ه أو 459ه – 1015م/ 1065 – أو 1067م)، وكان من أهل البراعة والفهم، والرياسة في العلم. متفننا عالما بالحديث وعلله، وبالفرائض والحساب واللغة والإعراب والتفسير وعقد الشروط، وله كتاب حسن سماه (المقنع في علم الشروط).

وكان أبو عمر هذا قد رحل إلى المشرق وسمع من أبي ذر الهروي، وأجاز له، وكان يحفظ صحيح البخاري، ويعرف رجاله، ويذكر من الحديث كثيرا.[1]

وفي حاضرة طليطلة كذلك عاش أبو عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموي (ت448هـ) الذي روى عن الصاحبين ابن شنظير وابن ميمون، وكان فاضلا ثقة عفيفا.[2]

([1])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص66، 67, رقم (128). / القفطي: إنباه الرواة، ج1، ص170. / حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 1809. / عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص181. / محمود سعيد ممدوح: الاحتفال، ج2، ص328. رقم (813). / محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، مركز البحث والدراسات في الفقه المالكي، الرابطة المحمدية للعلماء، سلسلة دلائل ومعاجم وموسوعات. (1). المغرب، ط1، 1433ه/ 2012م، ص306.

([2])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ج2،ص196. رقم (510).

ومن فقهاء طليطلة في هذه الفترة، أحمد بن خلف بن وصول الطليطلي، صاحب كتاب " منتخب الأحكام وبيان ما عمل به من سير الحكام."[1]

وابن صهيبة – سليمان بن عمر بن محمد الأموي (440هـ). الذي روى عن محمد بن إبراهيم الخشني، وأبي إسحاق بن شنظير، وصاحبه أبي جعفر، وكانت له رحلة إلى المشرق لقي فيها ابن الوشاء وغيره، وكان ابن صهيبة هذا مقرئا للقرآن في المسجد الجامع بطليطلة وولاه ابن يعيش القضاء، وكان نحويا شاعرا خطاطا.[2]

والفقيه سعيد بن يحيى بن سعيد الحديدي التجيبي، المكنى أبا الطيب (ت 472هـ) والذي كان من أهل العلم والذكاء والفهم، وقد تولى خطة القضاء بطليطلة بتقديم المأمون يحيى بن ذي النون، وكان أبو الطيب الفقيه هذا حسن السيرة، جميل الأخلاق، دربا بالأحكام ثقة فيها مبلو السداد، ولم يزل يتولاها مدة المأمون إلى أن توفي.[3]

وأبو الحسن صادق بن خلف بن صادق بن كتيل الأنصاري (ت 470هـ). الذي رحل إلى المشرق. فحج ودخل بيت المقدس. وأخذ عن نصر بن إبراهيم المقدسي. وأخذ عن أبي الخطاب العلاء بن حزم وكتب بخطه علما كثيرا.[4]

وقد نبغ في هذه الحاضرة كذلك قاضي طليطلة الشهير ابن الحشاء. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن. وأصله من قرطبة. فقد روى بالمشرق عن أبي ذر الهروي بمكة، وغيره من العلماء، كما روى بمصر والقيروان وغيرهما من الحواضر الإسلامية الشهيرة في تلك الفترة. كان القاضي ابن الحشاء من أهل العلم والنباهة والفهم ومن بيت علم وفضل. وهذا ما جعل المأمون بن يحيى بن ذي النون يوليه قضاء طليطلة بعد أبي الوليد بن صاعد في الخمسين والأربعمائة، وحمده أهل طليطلة في أحكامه، وحسنت سيرته. وتوفي سنة (473هـ)[5]

([1])محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص286.

([2])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ج1ص197، 198. رقم (515).

([3]): المصدر نفسه، ص176. رقم (452).

([4])المصدر نفسه ، ص211. رقم (547).

([5])المصدر نفسه: ص295، 296. رقم (736)

وبلغ من كثرة علماء وفقهاء طليطلة وأحوازها في هذه الفترة ما لا يدركهم عد ولا تحصيل، ومن المقرئين والمفسرين والمجودين مثل ذلك.[1]

وفي بلاط بني ذي النون حاضرة طليطلة، عاش المؤرخ والعالم الكبير أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الطليطلي (420ه / 1029م /462ه / 1070م) قاضي طليطلة وعالمها ومؤرخها. أصله من قرطبة، وولد في ألمرية ولكنه لا يكاد يذكر إلا بالمدينة التي انتسب إليها. بدأ دروسه في قرطبة وأكملها في طليطلة، حيث توجت مسيرته العلمية المظفرة بعالم مؤرخ متضلع في الفقه والأدب والقرآن وعلوم اللسان.

والظاهر من سيرته العلمية أنه تتلمذ على ابن حزم الأندلسي، كما تتلمذ على العالم الطليطلي هشام بن أحمد الكناني المعروف بالوقشي. وعلى غيرهما من العلماء.

وكانت لصاعد مكانه عظيمة في طليطلة وعند ملوكها بالضبط، حيث استقضاه المأمون يحيى بن ذي النون بطليطلة، وكان كما وصف، متحريا في أموره، حيث اختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق، وبالشهادة على الخط وقضى بذلك أيام نظره.[2]

وصاعد الأندلسي هو صاحب التأليف الشهير " طبقات الأمم" وغيره من التآليف الرائقة* وعرفت طليطلة في هذه الفترة أيضا مؤرخا آخر، لا يقل شأنا عن سابقه صاعد، إنه أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الطليطلي، أبو جعفر الأنصاري (ت 489هـ). الذي عني بسماع العلم، ولقاء الشيوخ منذ حداثة

([1])انظر مثلا: المصدر نفسه، ج1، ص297. رقم (740). / المصدر نفسه: ص297، 298. رقم (741). / المصدر نفسه: ص11، 112. رقم (727. / ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص371، 372. رقم (1195).

([2])ابن بشكوال: الصلة، ج1، ص209، 210. رقم (545). وانظر كذلك حول ترجمته: ابن الساعي: الدر الثمين، ص395. / البغدادي: ذيل كشف الظنون، ج3، ص291. / جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، م2، ص83. / وانظر ما كتبته حياة بوعلوان في مقدمتها لتحقيق كتاب صاعد (طبقات الأمم). ص11 وما بعدها.

*من تآليف صاعد الطليطلي والتي ذكرها من ترجموا له: " التشويق الطبي" " تاريخ الأندلس"، تاريخ الإسلام"، " جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم"، " المقالات الفروقية في مباحث الألفاظ من أصول الفقه"، " رسالة في المشتق"، " شرح التبصرة في الفقه"، " كتاب الصلاة"، "" رسالة في شرائط العوضين وانتصاف المهر بالموت"، " صوان الحكم في طبقات الحكماء"، " مقالات أهل الملل والنحل"، " إصلاح حركات النجوم".

سنه، وكان له بصر بالمسائل، وميل إلى الأثر وتقييد الخبر، وله كتاب في تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها.[1]

ولم تشتهر طليطلة بعلمائها وفقهائها ومحدثيها فقط، فقد اشتهر بلاط بني ذي النون بالعلوم البحتة أو التطبيقية، كالرياضيات والفلك والطب والعلوم الزراعية والصيدلانية.

وكان أستاذ صاعد الطليطلي، أبو الوليد هشام بن أحمد الكناني المعروف بابن الوقشي من هذه الزمرة، حيث كان أحد المتفننين في العلوم، المتوسعين في ضروب المعارف، من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد، والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق، والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة والأحكام والأثر والكلام. وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالأنساب والأخبار والسير، مشرف على جمل سائر العلوم.[2] ومن جلة علماء طليطلة الذين اشتهروا بالعلوم البحتة، أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح (ت 454هـ / 1062م). أحد المعتنين بعلم الهندسية والنجوم والطب، وكان بن خميس هذا من قلعة أيوب، ثم خرج عنها واستوطن طليطلة. وتأدب فيها، وبرع في علوم العدد والهندسة والفرائض، وقعد لتعليم ذلك زمنا طويلا، وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وكان له مع ذلك نفوذ في علم العربية، وقد أدب بها زمانا بطليطلة.[3]

وواضح من خلال سير أعلام طليطلة، وخاصة ممن تخصصوا في العلوم التطبيقية، أنهم جمعوا إلى جانب ذلك، علم الفلسفة، وكانت عصابة منهم قد اشتهرت بذلك في بلاط بني ذي النون، وفي ذلك يقول صاعد الطليطلي: " وفي زماننا هذا أفراد من الأحداث منتدبون لعلم الفلسفة، ذوو أفهام صحيحة، وهمم رفيعة، قد أحرزوا من أجزائها، فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها، أبو الحسن علي بن خلف بن أحمر الصيدلاني، وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال، وأبو

([1])ابن بشكوال: الصلة (طبعة المكتبة العصرية)، ص73. رقم (151). / محمود سعيد ممدوح: الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، ج1، ص374. رقم (319).

([2])صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق حسين مؤنس)، ص96.

([3])المصدر نفسه: الصفحة نفسها. / ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص497.

مروان عبد الله بن خلف الإستجي، وأبو جعفر أحمد بن يوسف التملاكي وعيسى بن أحمد بن العالم وإبراهيم بن سعيد السهيلي الإسطرلابي."[1]

على أن أبرع هؤلاء في الهندسة علي بن خلف بن أحمر الصيدلاني، وأعلمهم بحركة النجوم وهيئة الأفلاك، الزرقيال(ت 493هـ / 1100م)، الذي قال عنه صاعد" إنه أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك، وحساب حركاتها، وأعلمهم بعلم الأزياج، واستنباط الآلات النجومية."[2]

وهل يمكن لأي دراس أن يغفل أو يتجاهل أبا عثمان سعيد بن محمد بن البغونش الطليطلي (ت 444هـ / 1052م). الرياضي والفيلسوف الذي أخذ عن مسلمة بن أحمد المجريطي إمام الرياضيين الأندلسيين علم العدد والهندسة، كما أخذ عن محمد بن عبدون الجبلي، وسليمان بن جلجل وابن الشناعة ونظرائهم، علم الطب. وكان له اتصال بأمير طليطلة، الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون، وحظي عنده وكان أحد مديري دولته، قال صاعد: " ولقيته أنا فيها بعد ذلك في صدر دولة المأمون بن ذي النون، وقد ترك قراءة العلوم وأقبل على قراءة القرآن، وعنده كتب جليلة في أنواع الفلسفة، وضروب الحكمة وقد تشاغل بكتب جالينوس وجمعها، وتناولها بتصحيحه ومعاناته..."[3]

وفي كلام ابن أبي أصيبعة ما يدل على ازدهار بلاط طليطلة بمختلف العلوم، وخاصة التطبيقية والفلسفية، والفكرية كذلك. وهو ما يفسر ازدهار الترجمة في هذه الحاضرة في القرن الحادي عشر، والقرون الموالية، وما قراءة ابن البغونش لكتب جالينوس وجمعها وانتساخها إلا دليل على ذلك.

([1])صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص97.

([2])صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (تحقيق حسين مؤنس)، ص97, ويقول عنه الأستاذ خوليو سامسو: " وشهدت هذه الفترة أيضا النشاط العلمي، في طليطلة وقرطبة، لأبي إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش، المعروف بالزرقالي، الذي أصبح دون أدنى ريب، أكثر علماء الفلك أصالة ونفوذا في الأندلس." / العلوم الدقيقة في الأندلس، ص 1315. وانظر المصدر نفسه، ص1324، 1325. حيث ذكر الباحث عن الزرقالي أنه كان أول من صمم آلة كونية إذ كتب عام (440ه / 1048م – 49) رسالته المقسمة إلى مئة فصل حول الآلة المسماة (الصفيحة العبادية) وذلك لأنه أهداها إلى المعتمد بن عباد ملك إشبيلية المنتظر الذي كان عمره آنذاك ثماني أو تسع سنوات.

([3])ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص495، 496. / وله ذكر عند صاعد في طبقات الأمم (تحقيق حياة بوعلوان)، ص194، 195.

وفي بلاط طليطلة عاش عالما جليلان كبيران، بحاثان، منقران، الصيدلي الكبير عبد الرحمن بن وافد (398هـ/ 467هـ – 1007م / 1074م)، وعالم الزراعة الكبير ابن بصال.

أما ابن وافد الزراعي والصيدلي، فممن تؤرخ الزراعة الأندلسية باسمهم، لأنه أقدم زمنا ضمن علماء الزراعة، ويسميه صيادلة القرون الوسطى الأوربيون باسم (ABENGUE FITH)، وهو صاحب كتاب " المجموع في الفلاحة" الذي حظي بشهرة وذيوع كبيرين، رغم الشكوك التي حامت حول نسبة الكتاب إليه.[1]

أما ابن بصال الطليطلي فقد خلف ابن وافد في الإشراف على حديقة النباتات في بستان المأمون وله رسالة مهمة وقيمة عن الزراعة.[2]

وتتضح الصورة المشرقة لحكام طليطلة، وفضلهم على العلم والعلماء، حتى إن مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان القرطبي، قد أهدى كتابه (المتين) إلى المأمون بن ذي النون كما ذكر هو ذلك.[3] وصنف الأديب عبد الرحمن بن فتوح باسم المأمون كتابه (الإغراب في رقائق الآداب).[4]

وهذه الأمثلة اليسيرة تدل على ما تميزت به حاضرة طليطلة من ازدهار علمي، وخاصة في مجال العلوم التطبيقية، وفي " حقول العلم إلى درجة الريادة، وهذه الريادة لما كان عليه علماء طليطلة من شغف بالعلم وصبر على مشاقه، ويظهر ذلك في رحلاتهم العلمية وأماكن تعلمهم وكتبهم ومكتباتهم. "[5] كما يؤكد من جهة أخرى المرونة والتيسير الكبيرين من طرف حكام طليطلة اتجاه هذه الدراسات، وتوفير المناخ الملائم لها، وتشجيعها والحث عليها.

وكما ازدهرت العلوم التطبيقية في حاضرة طليطلة، ازدهرت الآداب وسما الشعر، وعاش الشعراء والأدباء في أكناف بني ذي النون طويلا فأصابهم من خيراتهم الشيء الكبير.

([1])إكسبراثيون غارثيا سانشيز: الزراعة في إسبانيا المسلمة، ص1371، 1372. / ولابن وافد ذكر عند صاعد في طبقات الأمم (تحقيق حياة بعلوان)، ص193.

([2])إكسبراثيون غارثيا سانشيز: الزراعة في إسبانيا المسلمة، ص1372، 1373.

([3])ابن بسام: الذخيرة، ق1/2/ ص 578.

([4])المصدر نفسه: ص770.

([5])إبراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي (دراسة تاريخية حضارية – 29ه لا478)، ص167.

ولهذا فلا نعجب من قول ابن سعيد في حاكم طليطلة المأمون بن ذي النون: " لم يكن فيهم أعظم قدرا، ولا أشهر ذكرا منه: اجتمع في مجلسه أبو عبد الله محمد بن شرف حسنة القيروان وعبد الله بن خليفة المصري الحكيم، وأبو الفضل البغدادي* الأديب، ولم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الجلة: منهم أبو عيسى بن لبون، وابن سفيان، وأبو عامر بن الفرج وأبو المطرف بن مثنى. "[1]

وكان أبو بكر محمد بن إرفع رأسه من شعراء طليطلة، وأن المأمون بن ذي النون قد اشتمل عليه، وشهر عنده ذكره، وكان وشاحا كبيرا وله موشحات يغنى بها في بلاد المغرب، منها في مدح المأمون بن ذي النون.[2]

وكثيرا ما كان المأمون يجتمع بالشعراء ويتذاكر معهم " فقد سأل ابن شرف المأمون بن ذي المأمون في مجلسه وقد أتوا على ذكر المتبني فقال: إن رأى المأمون – لا فارق العزة والعلاء -أن يشير إلى أي قصيدة شاء من شعر أبي الطيب حتى أعارضه بقصيدة تنسي اسمه، وتعفي رسمه..."[3]

وكان زاهد طليطلة أبو محمد عبد الله العسال. من شعراء طليطلة المعدودين ومن أدبائها المبجلين أحد المشهورين بالكرامات. وإجابة الدعوات، وهو صاحب الأبيات الشهيرة التي قالها بعد دخول قوات الأذفونش إلى طليطلة، وقد أوردناها في الفصل الأول من البحث، ومنها:

- يا أهل الأندلس حثوا مطيكم*** فما المقام بها إلا من الغلط
- الثوب ينسل من أطرافه وأرى *** ثوب الجزيرة منسولا من الوسط[4]

---

*يقول المقري في النفح عن أبي الفضل الدارمي: " وخيم عند المأمون بن ذي النون، وله فيه أمداح كثيرة". ج3، ص111، 112. وانظر كذلك: الدباغ: معالم الإيمان، م2/ج3/ص 197.

([1])المغرب في حلى المغرب، ج2، ص12

([2])المصدر نفسه: ص18.

([3])ابن بسام: الذخيرة، ق4/1/ ص24.

([4])ابن سعيد: المغرب، ج2، ص21. / وله ترجمة عند المقري في النفح، ج3، ص208، 228. / المقري: أزهار الرياض، ج1، ص46.

والشاعر الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن وزمر الصنهاجي الحجاري، وكان ممن أولع بعلوم التواريخ والآداب، وتنبه في خدمة المأمون بن ذي النون.[1]

وفي حاضرة طليطلة نبغ الشاعر أحمد بن عائش، وكان من أعيان وادي الحجارة، وممن تحلوا بالأدب.[2]

وبلغ من محبة أولي الأمر في طليطلة للشعر والشعراء أن عفوا عن بعض الشعراء ممن تخطوا هوامش الحرية الممنوحة لهم، فتجاوزوا عن زلاتهم وأبدلوا خيرهم بشرهم، ومن هؤلاء أبو مروان عبد الملك بن حصن، الذي كان من أعيان الوزراء وأعلام الكتاب، وكان قد تجرأ وهجا المأمون بن ذي النون، فنكبه المأمون فبقي يستعطفه حتى عفا عنه.[3]

وخلاصة القول، إن حاضرة طليطلة قد عرفت ازدهارا علميا وأدبيا كبيرا في عصر الطوائف من خلال خيرة العلماء والأدباء الذين أنجبتهم، أو من الوافدين إليها من الحواضر الأندلسية الأخرى، أو من غير الأندلسيين أصلا، حيث وجدوا مناخا فكريا ممتازا وملائما أقامه حكام طليطلة من أسرة بني ذي النون، والشيء اللافت في هذه الحاضرة هو ازدهار العلوم التطبيقية مثل الرياضيات والفلك وغيرها.

([1])ابن سعيد: المغرب، ج2، ص33، 34.

([2])المصدر نفسه: ص27.

([3])المصدر نفسه: ص30. وقد وقع خلط في المصادر التي ترجمت لهذا الشاعر، ومرد هذا الخلط إلى تشابه في الأسماء والكنى بينه وبين شاعر آخر كان في زمنه وفي الحاضرة نفسها. وهو أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري. وكان هذا الأخير (غير المعني بالترجمة). والذي قال عنه ابن سعيد في المغرب: " هذا الرجل يفخر به إقليم لا بلد، ويقوم بانفراده مقام الكثير من العدد... وكان ملوك الطوائف يتهادونه"، ج2، ص33. وانظر كلام المحقق في هامش الصفحتين. 30، 33. وقد ذكره الحميدي في الجنوة باسم" أبو مروان بن غصن الحجاري"، ص364، 365. رقم (956). وهو بالاسم نفسه عند الضبي في البغية، ص462. رقم (1549). وسار ابن بسام في الذخيرة في طريق خلط بينه وبين الثاني فقال: " أبو مروان بن غصن الحجاري، وقال إن وفاته سنة (454ه). وذكر أن المأمون نكبه. على أساس أنه (ابن حصن)." /ق3/1/ ص331 وما بعدها. واتبعه المقري في نفح الطيب في هذا الزعم. / ج3، ص363، 364. وأخطأ كذلك ابن الأبار في اسمه حينما جعل عبد الملك بن غصن هو من نكبه المأمون، مكان (ابن حصن). / التكملة (تحقيق الهراس)، ج3، ص69، 70. رقم (167). وقال عنه: " كان فقيها أديبا شاعرا، صاحب منظوم ومنثور، وامتحن بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة. فحبسه بسجن وبذة مدة. هو وجماعة معه، وألف حينئذ كتابه المعروف (السجن والمسجون والحزن والمحزون) ضمنه ألف بيت من شعره، ورأيته في موضع آخر (رسالة السر المكنون في عيون الأخبار وتسلية المحزون). وذكره ابن الأبار كذلك في كتابه الآخر (إعتاب الكتاب) بالاسم نفسه (ابن غصن). وبالخطأ نفسه، ص215 وما بعدها. رقم (67).

IV - 3- 3 -المبحث الثالث: بنو رزين وحاضرة السهلة (شنتمرية الشرق):

سهلة بني رزين إمارة جليلة بشرق الأندلس، كانت في عصر الطوائف دار مُلك بني رزين. وهي " بين مملكة بلنسية وجهات ثغر سرقسطة وحضرتها مدينة شنتمرية . "[1] وقد سميت بشنتمرية الشرق تمييزا لها عن شنتمرية الغرب وهي" مدينة عظيمة بشرق الأندلس."[2]

أما بنو رزين أصحاب هذه المملكة فيعرفون ببني الأصلع وكان جد ابن رزين الأول من كبار الجند، وأعلام الوفد. واسمه أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع. من أكابر برابر الثغر،ورث ذلك عن سلفه، ولما ثارت الفتنة القرطبية، وثار كل رئيس بموضع، ثار ابن الأصلع بشنتمرية ويقال لها السهلة، وبُويع له سنة ثلاث وأربعمائة.[3]

فلما سما إلى اقتطاع عمله والإمارة لجماعته، استوى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتزى في الأطراف غربا وشرقا وقبلة وجوفا.[4] فاستقام أمره، وعمّر بلده[5] وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين سلفه لاتصال عمارتها.[6]

ولم ير في الأمراء أبهى منه منظرا مع طلاقه لسانه وإدراك حوائجه ببيانه[7] وكان مع هذه الأوصاف الأوصاف كنفا للقصّاد.ومنهلا عذبا معينا للورّاد، سهل المأخذ لم يزل على أحسن حالاته إلى أن أدركته منيته، فمات بالسهلة سنة 436هـ/) فكانت دولته، ثلاثة وثلاثين سنة كلها آمنة

---

[1])ابن سعيد: المغرب، 2، ص 427.

[2])ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 307.

[3])المصدر نفسه، ص 307 308./ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ص 109./ ابن سعيد: المغرب، 2، ص 427./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 205./ وقال ابن الأبار في الحلة السيراء: " ولي بعد أبيه الحاجب عز الدولة شنتمرية الشرق، موضع إمارة سلفه، وكان ظهورهم في سنة إحدى وأربعمائة أول افتراق الجماعة وانبعاث الفتنة، ويعرفون ببني الأصلع، وانتمائهم في هوارة." ص 232. (طبعة دار الكتب العلمية).

[4])ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 109 110.

[5])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 205.

[6])المصدر نفسه، ص 206./ والوصف نفسه عند ابن بسام في الذخيرة، 3 1/ ص 11.

[7])ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 308.

هادئة وولي بعده ابنه عبد الملك[1] ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين الذي بويع له يقوم موت أبيه سنة ست وثلاثين وأربعمائة.[2]

وكان ذو الرياستين منتهى فخارهم - أي بني رزين– وقطب مدارهم، شيد بناءهم وتقيّل غنائهم، وكانت دولته موقف البيان ومقذف الأعيان.[3]

وقد وصفه العماد الأصفهاني "بالجلالة والأصالة والبسالة، وموروث المجد التالد، ومكتسبه الطارف، وترويجه سوق أولى المعارف بإيلاء العوارف ، وهو واسطه عقدهم، ورابطه عقدهم، وأسد خيسهم، وهزبر عرّيسهم، وكانت دولته حافلة الأخلاف كافلة بالإنصاف، رافلة بالإنصاف."[4]

مات أبو مروان عبد الملك بن رزين بحصن السهلة سنة ست وتسعين وأربعمائة 496هـ/ 1103م). فكانت دولته ثلاث وستين سنة.[5] حيث خلفه ابنه حسام الدولة يحيى بن عبد الملك الذي خلعه المرابطون سنة 497هـ/ 1104م) بعد سنة واحدة من تقلّده الحكم.[6]

وانتهت بذلك دولة بني رزين في السهلة بعد أن عاشت حوالي تسعين عاما من نشوئها، وكانت هذه المملكة جليلة بعلمائها هائلة بأدبائها وشعرائها، وهي بذلك تعبر عن الحالة الاعتيادية من الصحة الثقافية لأندلس عصر الطوائف.

أما الثقافة في سهلة بني رزين فقد كانت في ريعانها، واندفاع موجتها واحتدامها، وفي جو علمي رحيب مثمر عرفت حاضرة السهلة أشهر العلماء والأدباء والنقاد، وما ظننا بإمارة ملكَها أصحابها

---

[1])ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 308.

[2])المصدر نفسه ، 3، ص 309

[3])الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 157 وترجمته عنده (ص 157 169)./ ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 109 124)./ ابن دحية: المطرب، ص 47 وما بعدها./ العماد الأصفهاني: الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس)، 3، ص 360 وما بعدها. رقم(99)./ ابن سعيد: المغرب، 2، ص 428 429./ ابن الأبار: الحلة السيراء (ص 232 - 236)./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 206 207./ ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 309 310./ المقري: النفح، 1، ص 667 وما بعدها./ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (عصر الطوائف)، ص 255 وما بعدها.

[4])العماد الأصفهاني: الخريدة، ص 360.

[5])ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 310.

[6])المصدر نفسه: ص 310 311./ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر الطوائف، ص 259.

أكثر من تسعين سنة، ستون منها كانت بيد ملك شاعر ناقد متفنن، قد أبى إلا أن يرتدي الثقافة سربالا، ويعتقد للأدب مجالسه ومنتدياته فكانت حضرته وسهلته تبشر دولة الأدب والعلم والثقافة بالسمو والارتفاع وأبو مروان عبد الملك بن رزين هو القائل:

- أنـا ملك تجمـع فيّ خمـسٌ *** هي للأنـام محيـى ومميتُ
- هـي ذهن وحكمة ومضـاءٌ*** وكـلامٌ في وقته وسكوتُ[1]

وأبو مروان عبد الملك بن رزين هو القائل مفتخرا بنسبة وقومه:

- شـأوتُ آل رزيـن غيـر محتفـلٍ *** وهـم على مـا علمتُـم أفضـلُ الأمـمِ
- قوم إذا سُئلوا أغنوا، وإن حدبوا ***أفنوا وإن سوبقوا جازوا مدى الكرمِ
- جادوا فما يتعاطى جود أنملهم *** مَـدُّ البحـــار ولا هطـــالـــة الديّـمِ
- وما ارتقيتُ إلى العليـا بلا سببٍ *** هيهـات هـل أحـدٌ يسعـى بلا قـدمِ
- فمن يرُم جاهدا إدراك منزلتي *** فليحكني في الندى والسيف والقلم.[2]

وحينما ذكر ابن دحية ملوك بني رزين أصحاب السهلة قال:" وذو الرياستين زاد عليهم بأدب أبهى من الروض الأريض، ومنظوم بديع من القريض."[3]

وذكر ابن حيان أنه لم يُر في الأمراء أبهى منه منظرا مع طلاقة لسانه، وحسن توصُّله بالكلام إلى حاجته دون معرفة، وكان مع ذلك أرفع الملوك همّة في اكتساب الآلات والكسوة ، وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء الفتيات، اشترى جارية أبي عبد الله المتطبب ابن الكتاني بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها."[4]

---

[1]) ابن الأبار: الحلة السيراء، ص 233./ ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 310.

[2]) ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 119.

[3]) المطرب، ص 47.

[4]) ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 112.

هذه الحظية قد وصفت بالعلم والأدب وجودة الكتابة وحسن الخط، وعلم صالح من الطب بالإضافة إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك من العلوم.[1] وإذا تصورنا أن أبا مروان قد اجتمع عنده مائة وخمسون حظية.[2] كلهن مثقفات أدبيات حكيمات، شاعرات، عرفن القيمة المثلى لقصور بني رزين، باعتبارها مجالس أدبية ومنتديات فكرية.

ولطالما وُصف عبد الملك بن رزين بالشاعر الكاتب، واسمع إلى قول ابن عذاري فيه: " إذا ذكرت الشعراء فجرولها وأُسيدها، أو الكتّاب فيه فبديع همدان، أو الخطابة فقس سحبان، أو النقد فقدامة العلم، أو العلم فليس منه ولا كرامة خلّي من المعارف، وشعره أهتف من كل هاتف."[3]

وحينما أتى ابن بسام على ذكر منزلته بين الشعراء، وأحوال شعره، قال: " وعوّل في أكثر ما يقرأ على تعاليقه وصحفه، وكثيرا ما رأيت في شعره، وشعر غيره ممّن سك هذا المسلك."[4]

كان أبو مروان عبد الملك بن رزين شاعرا كبيرا وشعره من أخاير الشعر الأندلسي في عصر الطوائف يبين منه فجر البيان، وسحر اللّسان، وكلما سّرح فيه القارئ ناظره، تبيّن فيه مواطن الإبداع والجمال الفني.

ومن اللافت في النتاج الأدبي لأمير السهلة، عبد الملك بن رزين أنه إنما صدر عن ذوق فني، ودُربه وتمرّس، ونظرا لأهمية ذلك الشعر وتنوعه ورقته وغزارته، ولبلاغة تلك الرقع والرسائل الأدبية وروعتها، فقد انتخب المؤرخون جملة من ذلك النتائج ونثلوا نزرا من ذلك المحصول الفني والأدبي الوفير، من ذلك ما ذكره ابن بسام:" وقد أخرجت من نظمه ونثره، ما هو الشاهدُ على ما أدّيتُ من ذكره."[5]

---

[1]) ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ ص 112.

[2]) المصدر نفسه: الصفحة نفسها

[3]) البيان المغرب، 3، ص 309.

[4]) الذخيرة، 3 1/ ص 113.

[5]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ويجدر بنا الإلماح هنا من دون إطالة في حشد الأمثله واجتلاب الدلائل على شاعرية ابن رزين وغزارة اطلاعه على التراث العربي، وملاحة ذوقه في انتقاء الألفاظ والعبارات، وتمثُّلِ شعر من قبله تمثّلا صحيحا. من ذلك قوله:

- أدرْهـا مُداما كالغـزالة مُـزّةً *** تلينُ لرائيها وتأبى على اللّمسِ
- وتبدو إلى الأبصـــار دون تجسم***على أنها تخي على الذهن والحسِ
- إذا شعشعت في الكاس خِلْت حبابها *** لآلئَ قد رُفِّعن في لبّة الشمسِ
- موكـلة بالهـم تهـزم جـيشـه*** بجيش الأماني والمسرة والأُنسِ
- فإن شئت قلْ فيها أرق من الهوا*** وإن شئت قل فيها أرقُّ من النفسِ[1]

وقوله أيضا:

- أقسمت بالورد الجني *** ورنتيْ ناي وعودِ
- لأواصلنكِ بالرضـى*** أو تأنفنّ من الصدودِ
- ولأشربنـك بالمنـى *** ولألثمنك من بعيدِ
- ولأرضينك إن سخط *** تِ بذلّة الدّنِق العميد
- فبحق ما في فيكِ من *** لعس ومن ثغر برود
- أدمي يضيعُ وشاهدا *** خديك في عقد الشهود[2]

وأشعاره الكثيرة والمتنوعة في شتى الأغراض، آيات شاهدات، وبينّات قائمات على المكانة السامية التي تبوّأها أبو مروان عبد الملك بن رزين في هذا الحقل الثقافي.[3]

ولا يفوتنا أن نشير في هذا المقام إلى أن عبد الملك بن رزين كان معدودا في الكتّاب الكبار، والنثّار العظام، وقد خلّف لنا عديد الرسائل النثرية والرقع التي كان يبعث بها إلى أقرانه من ملوك

---

[1]) الذخيرة، 3 1/ ص 114.

[2]) الذخيرة، 3 1/ ص 116.

[3]) انظر مثلا المصدر نفسه، ص 114 124./ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 207./ ابن سعيد المغرب، 2، ص 248 249./ المقري: النفح، 3، ص 246 247 267 291. وفي كل المصادر التي تعرضت لحياته.

الطوائف، وهي كما يدل عليها ما بين أيدينا منها، من الطراز الرفيع أبَانت عن تمكّن الأمير من بلوغ بيان لسانه، وبلاغة قلمه، وبروز شخصيته الفنية في هذا المجال، وأسلوب يميز صاحبه في هذا الفن.

وأما تمكنّه من الكتابة، وحسن تعاطيه لهذه الصنعة فظاهر فيما بعث به إلى طاهر صاحب مرسية أوردها صاحب الذخيرة.[1]

وإننا نهيب بالذائقة الفنية والحس النقدي الذي يحوزه أمير السهلة أبو مروان وذلك من خلال الآراء التي يبديها حول أبيات شعرية، أو قطعة نثرية معينة وقد تحلّق حوله الأدباء والشعراء واللغويون وكل واحد منهم قد أدلى بدلوه حول إحدى القضايا الفنية.

وإننا نملك كثيرا من الدلائل والقرائن على أن مجالس ابن رزين ومنتدياته قد كان يغشاها كثير من الشعراء والأدباء، وأهل العلم، حيث العلوم والآداب يومئذ تزخر بها معاهد العلم في سائر حواضر الأندلس كما في سائر حواضر العالم الإسلامي.

هذا اللون من النشاط الأدبي والنقدي أثار اهتماما كبيرا بصناعة القول وإنتاجيته وازدهار هذا الفن على العموم.

وقد ذكر المقري أنه كان يُقرأ في مجلس ملك السهلة أبي مروان ابن رزين ذي الرياستين ديوان شعر محمد بن هانئ، وقد علّق ملك السهلة في إحدى المرات على القارئ لهذا الديوان لبله كان فيه.[2]

وذكر كذلك صاحب النفح قال: " دخل الوزير أبو العلاء زُهْر ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن زهر على الأمير عبد الملك بن رزين في مجلس أنس، وبين يديه ساق يسقي خمرين من كأسه ولحظه... ودارت في هذا المجلس أبيات شعرية بين الملك والوزير.[3]

---

[1]) ابن بسام: 3 1/ ص 113 114./ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 165 166.

2: نفح الطيب، 3، ص 407.

[3]) المصدر نفسه: ص 246 247.

ومن ثمَّ فلا نستغرب أن يعقد ملك السهلة صلات مع أكبر شعراء الأندلس وأدباءها وكتابها وملوكها في تلك الفترة، فقد كان يكاتبهم ويكاتبونه، ويراسلهم ويراسلونه، فقد كتب إلى الوزير ابن عمار:

- ضمان على الأيام أن أبلغ المُنَى *** إذا كنت في ودي مُسِرًّا ومعلنا
- فلو تسأل الأيّام من هو مفرد *** بودِّ ابن عمَّارٍ لقلت لها أنَا
- فإن حالت الأيام بيني وبينه*** فكيف يطيبُ العيش أو تحسنُ المُنى.[1]

والظاهر من سيرة ملك السهلة أن علاقته بالشاعر الأندلسي الكبير ابن عمّار، كانت قوية ومتينة، فقد كتب ابن عمّار إلى ابن رزين وقد عتب عليه أن اجتاز ببلده ولم يلقه:

- لم تثن عنك عناني سلوة خطرتْ ❖❖❖ ولا فؤادي ولا سمعي ولا بصري
- لكن عدتني عنكم خجلة خطرت❖❖❖ كفاني العذر منها بيت معتذرِ
- لو اختصرتم من الإحسان زرتكُم❖❖❖ والعذبُ يُهجر للإفراط في الخصرِ"[2]

وهذه الأبيات إنما تدل على بصر بالشعر وحذق بهذا الفن من العناية التامة بانتقاء الألفاظ والإحاطة التامة باختيار المعاني والعبارات.

وخاطبه الكاتب أبو جعفر بن سعدون بأبيات شعرية جميلة وقد بسط الربيع رداءه منها قوله:

- فديناك لا يسطيعُكَ النظم والنثرُ❖❖❖ فأنت مليك الأرض وانفصل الأمرُ
- مرينا نداك العمرُ فانهلَّ صيِّبًا❖❖❖ كما سكبت وطفاء أوفتق الزهرُ.[3]

فأجابه ملك السهلة معارضا:

---

[1]) ابن سعيد: المغرب، 2، ص 428./ والأبيات عند الفتح في القلائد، ص 158 159.

[2]) المقري: النفح، 3، ص 444. والبيت الأخير المضمّن لأبي العلاء المعري في ديوانه (سقط الزند)، دار صادر، بيروت، لبنان، 1383هـ 1963م، ص 56.

[3]) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 206 207، والأدبيات عند الفتح في القلائد، ص 160.

- إليكَ فلـو لا أنت لـم ينظـم الـدرُّ *** ولا التـامَ فـي مدح نظامٌ ولا نثرُ
- إذا قلت لـم ينطـق فصيـحٌ مدربٌ *** ولا سـاع فـي سمع غنـاء ولا زمْرُ
- لك السَّبقُ كم روّضت من عاطِل الربَى*** وحلّلت من سحرٍ وقد حرِّم السِّحرُ
- ولمـا ملكتَ القـول قسـرا و عنـوة *** أطاعك جيش النظم، وائتمر النثرُ
- فـلا نقـل إلا مـا تقـول بديهـة *** ولا خمرَ ما لم تأت من فمك الخمرُ.[1]

وقد ذكر الفتح بن خاقان أبياتا جميلة لابن رزين بعث بها إلى الكتاب الوزير أبي عيسى بن لبّون[2]

وأخرى جرت بينه وبين الوزير أبي عامر بن سنون في جوّ ربيعي حافل، ومجلس أنس رحيب[3]

كل هذا الحشد من الوزراء والكتّاب والشعراء الذين كاتبوا ملك السهلة عبد الملك بن رزين وراسلوه، وعارضوه، بدءا من الشاعر ابن عمّار إلى الوزيرين أبي عيسى بن لبّون وأبي عامر بن سُنون وغيرهما، ولسنا بحاجة إلى التذكير بمكاتباته مع أمير حضرة مرسية ابن طاهر وقد ذكرناه قبلا، كل ذلك يوحي بذلك الجو الثقافي والأدبي والعلمي المفعم والذي عاشته سهلة بني رزين في عصر الطوائف وفي ظل ملكها أبي مروان عبد الملك.

وكان حسام الدولة ابن ملك السهلة، عبد الملك بن رزين – ورغم وصفه بأشنع الصفات من قبل بعض المؤرخين – أديبا، كاتبا، مطرزا ومجوّدا، فقد كان له في عالم الكتابة والأدب قيمة كبيرة.

كيف لا وهو سليل ملك أديب عالم، وأسرة احترفت السياسة والملك والعلم كابرا عن كابر، ويحق لنا أن نقول ذلك، وبين أيدينا من الشواهد ما يشفع لهذا الحكم ويبرر رأينا فيه.

فقد خاطب ذو الرياستين هذا ابن طاهر برقعة يخطب فيها وداده، ويستميل فؤاده فراجعه ابن طاهر برقعة أخرى تجري على نسقها.[4]

---

[1]) المصدران السابقان على التوالي: ص 207./ ص 161

[2])الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص 164.

[3])المصدر نفسه، ص 166 167.

[4])ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ص 47 وما بعدها، وقد وقع خلط عند ابن بسام في كنيته (حسام الدولة) وهي كنية أطلقت عليه وعلى أبيه من قبله، راجع ابن عذاري: البيان المغرب، 3، ص 310./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 2، ص 105، وظاهر من هذه الرسالة أنها لحسام الدولة يحيى بن عبد الملك(الابن)، لأنها كتبت بعد أن دخل المرابطون بقيادة محمد بن عائشة فسلبوا أملاك بني طاهر، فطلب منهم حسام الدولة من قائد المرابطين أن يرد عليه أملاكه، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس الهجري.

وكتب إليه ابن طاهر رقعة يعزيه في وفاة أبيه عبد الملك بن رزين سنة ١ 496هـ).[1] مما دل على مكانة المخاطب ومنزلته في حقل العلم والأدب ووثيق الصلة التي جمعت حسام الدولة يحيى بن عبد الملك مع كتّاب عصره وأمراء دهره.

ولا سبيل إلى إنكار الدور الحضاري الكبير الذي لعبته أسرة بني رزين في سبيل إرساء مدينة مزدهرة، وحاضرة تبوأت مكانة رفيعة بين حواضر الأندلس في عصر الطوائف.ومن ثم فلا نعجب من أن ينقطع إليها تيجان الكتاب، ورؤوس الوزراء والشعراء إضافة إلى من ذكرنا.

فقد كان الوزير الكاتب أبو بكر بن سُرّاري وزيرُ ذي الرياستين وكتابه، وقد وُصف في المصادر بأنه وزير من أعاجيب الدهر، وقال الحجاري في المسهب: "إن له شعرا أرقّ من نسيم السَّحر، وأندى من الطلّ على الزهر".[2]

والمقرئ الشاعر، أبو جعفر أحمد بن سعدون المُولي، وقد قال عنه ابن سعيد: " لموله أن تفخر بانتسابه، وتشمخ بما بهر من آدابه، وكانت قراءته بمرسية وبلنسية، وتردّدَ على ملوك الطوائف، فأُنهي مكانه معظّما شأنه، وأكثر إقامته عند ابن رزين ملك السهلة."[3]

وكانت شنتمرية الشرق عاصمة لحضرة بني رزين." ولما كانت شنتمرية ابن رزين معمورة بالعرب، خرج منها عدد من أهل العلم، لأنهم أينما حلوا كانوا يقيمون سوق المعارف على ساقها."[4]

من هؤلاء العلماء، عبد الملك بن عبد العزيز بن خيرة بن وهب بن غردي 453هـ 524هـ) من أهل مرسية، وأصله من شنتمرية، سمع كثيرا من علماء بلده قبل أن يتوجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج، ودخول بعض الحواضر الشهيرة، مثل بغداد ودمشق وغيرهما،وكان حافظا للرأي، ذاكرا للمسائل، وذلك كان الأغلب عليه مع خير وصلاح.[5]

---

[1])ابن بسام: الذخيرة، 3 1/ص 75 76.

[2])المقري: النفح، 3، ص 407 408. /ابن سعيد: المغرب، 2، ص 430.

[3])ابن سعيد: المغرب، 2، ص 271.

[4])شكيب أرسلان: الحلل السندسية، 2، ص 103.

[5])ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية)، م2/2/ ص10. رقم (783)./ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج2، ص104.

ومسرة بن خلف بن فرج بن عزيز بن عبيد الله اليحصبي، المحدث الكبير، من أهل شنتمرية الشرق، ونزيل قرطبة.[1] وأعلام كُثر ذكرهم المؤرخون، وأصحاب الطبقات.[2]

وبالإجمال نقول، لقد أيعنت سهلة بني رزين في عصر الطوائف في ظل حكم آل رزين الذين ملكوها أكثر من تسعين سنة، فاستبان الدور الحضاري لهذه الأسرة، و ذلك من خلال قيام مملكة في سهلة الشرق، عاصمتها شنتمرية، حيث كانت هذه الدولة عتيدة الأوتاد و الطنب، على الرغم من التدهور السياسي، و عدم الاستقرار الذي عَمّ كامل أرجاء الأندلس في تلك الفترة.

لقد سارت عائلة بني رزين مسارا صحيحا من الناحية الثقافية، من خلال تمكين كل ذي موهبة وقريحة وعلم، من الانقطاع إليهم، والتخييم في ظل حاضرتهم، والذود عنهم وإكرامهم، وتسيير السبل لاستقطابهم واستضافتهم. ولذلك فلا نعجب من اجتلاب حاضرتهم لصدور الأدباء، ومشاهير الكتّاب وأعلام الشعراء والبلغاء والنقاد. حتى إننا إذا أردنا أن نعدّد أدباء وشعراء وكتاب السهلة، أعيانا الأمراء وانقطع بنا السبيل لكثرتهم.

وكان نصيب عائلة بني رزين وحظّها من ثقافة السهلة كبيرا، خاصة عبد الملك بن رزين الذي حكم ستين سنة، وكان شاعرا وأديبا وبليغا مُفوّها. وقد ذكرت له كتب الأدب والتاريخ كثيرا من نظمه ونثره مما دلّ على براعته ورسوخ قدمه في صناعة النظم والنثر،وما المكاتبات والمراسلات والمجالس والمنتديات التي كانت تعقدُ بحضرته، وكان هو نفسه يشارك فيها إلا دليلا على ازدهار العلوم والفنون و الآداب في حضرة سهلة بني رزين.

---

[1])ابن الأبار: التكملة (طبعة دار الكتب العلمية). 4 2/ ص 180. رقم 1885).

[2])أنظر مثلا الفصل الذي عقده شكيب أرسلان في كتابه: الحلل السندسية، بعنوان (مَن نبغ مِن أهل العلم في شنتمرية، 2، ص 104 108.

IV - 3- 4- المبحث الرابع: بنو الأفطس وحاضرة بطليوس:

قال ابن سعيد عن مدينة بطليوس: " إنها مملكة جليلة في شمال الأندلس"[1] ثم أضاف " إنها إحدى القواعد التي بنتها ملوك العجم للقرار، وقد اتخذها سلاطين الأندلس قبل الإسلام سريرا لسلطنة الأندلس. وكانت في دولة بني أمية وما يليها عظماء بيتهم"[2]

تأهلت بطليوس وتمصرت بتعاقب الدهور وتوالي العصور، فمارست ريادتها الحضارية، وتبوأت مكانة علية في سماء الفكر والأدب والثقافة بشكل عام فكانت بذلك كما قال صاحب المغرب: " حاضرة بلاد الجوف التي تمصرت فيها، وتأهلت بتوارث المملكة الأفطسية على جميع ما يليها، وبنى فيها المتوكل بن الأفطس المباني الطيبة، والمصانع الجليلة."[3]

كانت حاضرة مملكة بطليوس تتوسط عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين، وشنترة، وقلمرية، وبازو وغيرها.[4]

وكان بنو مسلمة أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، سادة هذه المملكة الشاسعة، حكموها نيفا وسبعين عاما. وسطع بلاطهم أيام الطوائف.[5]

كان ملوك بني الأفطس من أعظم ملوك الأندلس وأكثرهم وجاهة، وكانت حاضرتهم بطليوس من المراكز العلمية الجادة، الوطيدة الأركان التي خلفت أجيالا كبيرة من العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء. وكان عصر الطوائف السمة البارزة لهذه الحاضرة ومدنها المختلفة في الناحية العلمية والمعرفية، بفضل هذه العائلة الكبيرة، فقد استطاع " بنو الأفطس أن يرتفعوا بالثقافة في قطرهم إلى أوج رفيع. "[6]

([1])المغرب في حلي المغرب، ج1، ص360.

([2])المصدر نفسه: ص361.

([3])المصدر نفسه: ص363.

([4])محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف، ص81.

([5])المصدر نفسه: الصفحة نفسها. / وانظر حول بني الأفطس المقري في النفح، ج1، ص442.

([6])بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص31.

وكان جد بني الأفطس عبد الله بن محمد بن مسلمة (ت 437هـ) – فيما ذكره ابن حيان – من أهل المعرفة والدهاء والسياسة.[1]

وبعد وفاته خلفه ابنه المقلب بالمظفر، وكان أديبا وعالما، وأقام ملكا عظيما ضاهى فيه ملك العبابدة في إشبيلية، وملك بني ذي النون في طليطلة، وبقي المظفر هذا في حكمه حتى سنة (456هـ). وكانت وفاته سنة (461هـ / 1068م).

ورغم الجانب المظلم من حياة المظفر بن الأفطس، شأنه شأن ملوك الطوائف من حيث الحروب البينية، ودفع الإتاوة للأذفونش، كل هذا لم يكن ليخفي الجانب الوضاء في حياة المظفر، فقد احتل مكانة سامقة في حقل الثقافة والتأليف، ومنزلة سامية في قول الشعر ونظمه حيث كان رجلا عالما، مثقفا ناقدا، بحاثا منقرا، وصاحب مكتبة عظيمة، حتى إنه يمكن أن يطلق عليه لقب عالم الملوك، وملك العلماء في عصر الطوائف.

فقد وصفه ابن بسام بقوله: " أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع"[2]

وقال عنه عبد الواحد المراكشي:" كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار، وعيون التواريخ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتابا كبيرا ترجمه باسمه على نحو " الاختيارات" للروحي، و" عيون الأخبار" لأبي محمد بن قتيبة، جاء هذا الكتاب في نحو عشرة أجزاء ضخمة، وقفت على أكثره، ترجمته " المظفري".[3]

([1])ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ هامش ص640. والوصف نفسه عند ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام، ص182. مع اختلاف طفيف.

([2])الذخيرة ق2/2/ ص640

([3])المعجب: ص56.

وقال عنه ابن الخطيب: " كان المظفر محمد بن عبد الله فاضلا عالما شجاعا فارسا، وله التأليف الكبير المسمى بالمظفري* في نحو خمسين مجلدا. "[1]

وقد وصفه أبو الوليد بن زيدون في رقعة كتبها إليه (إلى المظفر بن الأفطس) وضمنها قصيدة أولها:

- لبيض الطلى ولسود اللمم **** بعقلي – مذ بن عني -لم

قال فيها: "... وشهرت محاسنه على كل لسان، وسارت مآثره مسير الشمس بكل مكان لما سوغ من كرمه، وأسبغ من نعمه، ووطأ للآملين من أكنافه، وهز إلى الراغبين من أعطافه."[2]

وقال فيه الأديب أبو عبد الله محمد بن سليمان الحناط الكفيف من رقعة طويلة:"أندى من الغيث كفا، وأحمى من الليث، وأسخى من البحر بنانا، وأمضى من النصل لسانا، وأنجبه المنصور فجرى على سننه، وأدبه فأخذ بسننه."[3]

وكان المظفر بن الأفطس إلى كونه عالما مصنفا، ناقدا حصيفا، يتذوق الشعر، ولا يرضى بغير النظم المحلى، والشعر المجلى، وكان " ينكر الشعر على قائله في زمانه، ويفيل رأي من ارتسم في ديوانه، وكان يقول: " من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعري فليسكت لا يرضى بدون ذلك."[4] وهذا هو السبب الذي جعله ينكر الشعر على قائله، وليس لكرهه الشعر.[5]

---

*هو مؤلف واحد وإن اختلفت أسماؤه عند المؤرخين قال ابن بسام: " وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق، المترجم بالتذكرة، والمشتهر أيضا ب (كتاب المظفر) في خمسين مجلدة، يشتمل على علوم وفنون من مغاز وسير، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب، أبقاه في الناس خالدا. " / الذخيرة ق2/2/ ص640. / وقال ابن عذاري: " المشهور فيه المظفري وكذلك هو التكملة، ويقال: إنه لم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة. " / البيان المغرب، ج3، ص236. وقال ابن سعيد في المغرب: "وهو الذي صنف كتاب المظفري في الأدب والتاريخ فهو مائة مجلد"، ج1، ص364. / وسماه ابن الأبار في الحلة السيراء، ص227 (طبعة دار الكتب العلمية). وهو عنده في التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص317، 318. رقم (1123). / المقري: نفح الطيب، ج3، ص380، 381. / البغدادي: هدية العارفين، ج2، ص72. وسماه " المظفري في التاريخ" . / بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص146. / محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني (عصر الطوائف)، ص84 وما بعدها.

([1])أعمال الأعلام: ص183. / ابن دحية: المطرب، ص33.

([2])ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ ص397.

([3])ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ ص443.

([4])المصدر نفسه: ص641.

([5])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص184.

وقد ضرب المظفر بسهم، وكان له شعر وترسيل ونظم، فكان صاحب الحظ الأوفر في ذلك، وآثاره ماثلة شاهدة تصدق هذه الأحكام.

وذكر عن المظفر أنه كان جماعا للكتب ذا خزانه عظيمة، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة.[1] ومن محبة المظفر للعلم وشغفه بالمعرفة قد استأدب لبنية أبا عبد الله بن يونس، وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة، والمباحثة فيفيد ويستفيد.[2]

وعموما فقد " كانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعيادا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم.[3] خلف المظهر بعد وفاته ابنه المتوكل على الله، أبو محمد عمر بن المظفر بن الأفطس (ت 488هـ / 1095م) وسار على درب أبيه في السياسة والعلوم والمعارف ورعايتها والاهتمام بأهلها، والتفرغ لذلك، شهر بذلك، وحمل عنه في الآفاق.

قال عنه ابن سعيد: " كان المتوكل* عمر بن الأفطس في حضرة بطليوس، كالمعتمد بن عباد في حضرة إشبيلية، فكم أحييت الآمال بحضرتهما، وشدت الرحال إلى ساحتهما."[4] وكان هو نفسه " من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم."[5] وكانت له " قدم راسخة في النظم والنثر"[6]

كيف لا " ونظمه يزري بالدر النظيم، ونثره تسري رقته سرى النسيم"[7]

([1])ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس)، ج1، ص317، 318. / المقري: النفح، ج3، ص380.

([2])المصدران السابقان على التوالي: ص318. / وص 380، 381.

([3])عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص57.

*وصفه إميليو غارسيا غومس بقوله: " وامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير". الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، ص35. والوصف نفسه عند بالانثيا في تاريخ الفكر الأندلسي، ص101.

([4])المغرب في حلى المغرب، ج1، ص364.

([5])ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص185. / ابن دحية: المطرب، ص33 وما بعدها.

([6])المراكشي: المعجب، ص56.

([7])الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص120. وله عنده ترجمة مطولة، من ص 120 إلى ص 145 وله أخرى مطولة عند ابن الأبار في في الحلة السيراء (طبعة دار الكتب العلمية) ص 227 وما بعدها. وعند المقري في النفح، ج1، ص663 وما بعدها. وفي غيرها من المصادر.

وقد أجمعت كل المصادر التي ترجمت للمتوكل. عمر بن المظفر بن الأفطس على علو همته في طلب العلم والمعرفة، وعلى علو كعبه في صناعة النظم والنثر، وقرض الشعر، وإجادة البيان، وتجويد الكتابة، وأن حضرته بطليوس في زمنه، وفي مدة أبيه المظفر، كانت من أزهى الحواضر وأبهاها، وأكثرها تقدما في مجال العلوم، وازدهار الثقافة.

وفي النصوص التي أوردها ابن بسام وابن الأبار، ما يدل على تمكنه من صناعة النظم والنثر، من ذلك رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن الحضرمي وقد صرفه عن خدمته.[1] وله رقعة أخرى، وقد علم أنه قدح فيه بمجلس أخيه المنصور بن يحيى، فكتب إليه رسالة مجودة، ضمنها أربعة عشر بيتا من الشعر منها قوله:

- فما بالهم لا أنعم الله بالهم **** ينيطون بي ذما وقد علموا فضلي
- يسيؤون في القول جهلا وضلة **** وإني لأرجو أن يسوءهم فعلي
- طغام لئام أو كرام بزعمهم **** سواسية ما أشبه الحول بالقبل
- لئن كان حقا ما أذاعوا فلا خطت **** إلى غاية العلياء من بعدها رجلي
- ولم ألق أضيافي بوجه طلاقة **** ولم أمنح العافين في زمن المحل.[2]

وفي خبر أورده ابن بسام قال: " أخبر الوزير أبو طالب بن غانم قال، لا أنسى والله خط المتوكل بهذين البيتين في ورقة بقلة الكرنب، وقد كتب إلي بهما من بعض البساتين:

- انهض أبا طالب إلينا **** واسقط سقوط الندى علينا
- فنحن عقد بغير وسطى **** ما لم تكن حاضرا لدينا.[3]

ويمكن القول إن " بلاط المتوكل الزاهر، كان جامعة أدبية أكثر منه قصرا ملوكيا"[4]

([1])ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ ص 646، 647.

([2])المصدر نفسه: ص647، وما بعدها. وانظر ابن الأبار: الحلة السيراء. (طبعة دار الكتب العلمية)، ص 230، 231

([3])المصدران السابقان على التوالي: ق2/2/ ص652. / وص 232

([4])محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (عصر الطوائف)، ص88.

كانت حاضرة بطليوس وأرباضها رياضا للعلم وأزاهر للمعرفة، قد لجأ إليها العلم منذ دخول الإسلام إليها، وزاد في عصر الطوائف، وتحت حكم بني الأفطس ، وخاصة في زمن حكم المظفر وابنه المتوكل، جلبت هذه الحاضرة أكابر الأدب، وجلة الشعراء، وصفوة الفقهاء والعلماء.

قد ضم بلاط المظفر بن الأفطس مثلا : حسنة القيروان محمد بن شرف الذي مدحه بقصائد كثيرة منها رائيته الشهيرة وأولها:

زار وقد شمر فضل الإزار *** جنح ظلام جانح للفرار

وروضة الأنجم قد صوحت *** والفجر قد فجر نهر النهار

قلت له: أهلا بطيف دنا *** من نازح الدار بعيد المزار

ومنها:

سيري فلم نقذفك في مجهل *** ولا ضربنا بك ضرب القمار

حيث علوق العلم مطلوبة *** يوافق السوق كرام التجار

ومنها في مدح صاحب بطليوس:

أقمت للعلم منارا وما *** أظن في الدنيا لعلم منار

فما نداماك سوى أهله *** وكلهم بين ندامى العقار[1]

ولابن شرف مجموعة من التراسيل التي خاطب بها المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس[2]

وكان أبو محمد عبد الله بن البنت الترجلي في جملة شعراء المظفر بن الأفطس ملك بطليوس وله فيه شعر[3].

([1])ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ص 642، وما بعدها / ق1/4/ص193.

([2])المصدر نفسه: ق 1/4/ص193 وما بعدها.

([3])ابن سعيد : المغرب: ج1، ص 377.

وكان من سماحة المظفر وندى كفيه، أن جلب لحضرته أكابر الشعراء وأفاضل العلماء من الأندلس أو من خارجها، من هؤلاء الفقيه المحدث أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري(368 هـ / 463 هـ - 978م /1070م)، فقد ولي قضاء أشبونة وشنترين وصنف لمالكها المظفر بن الأفطس بهجة المجالس في ثلاثة أسفار، وفيه محاسن تصلح للمناظرة[1]

وإليه أهدى ابن الحناط محمد بن سليمان الرعيني(ت437 هـ) الكفيف، وكان عالما بالأدب قائما على اللغة العربية، وكان طبيبا وشاعرا ، الرسالة المهرجانية التي سماها بوشي القلم وحلي الكرم، وهي من الرسائل البديعة، بعث بها إلى الحاجب المظفر أبي بكر بن الأفطس.(بر) وله أبيات بديعة فيه منها:

كتبت على البعد مستجديا ❖❖❖ لعلمي بأنك لا تبخل

فجاء الرسول كما أشتهي ❖❖❖ وقد ساق فوق الذي آمل

وما كان وجهك ذاك الجميل ❖❖❖ ليفعل غير الذي يجمل[3]

وضمت حضرة بطليوس الأديب أبا عبد الله محمد بن البين الذي كان أحد المجيدين بها. مستطرف الألفاظ والمعاني، ومن شعر أبي عبد الله قصائده التي على حروف المعجم في أبي الأصبغ بن المنخر أيام استوزره المنصور يحي بن المظفر ووصله عليها بمائة مثقال[4]

([1]) ياسين بن خير الله اليعمري: منهج الثقات في أخبار القضاة، ص 324.، 325. رقم (369).

قال بالانثيا في كتابة (تاريخ الفكر الأندلسي):" فقد أهدى للمظفر مجموع مختاراته الفريدة المسمى (زينة المجالس) في مجلدات ثلاثة." ص 146. وقد أخطأ بالانثيا في تحديد عنوان الكتاب والعنوان كاملا هو(بهجة المجالس ، وأنس المجالس. وشحذ الذاهن والهاجن). والكتاب يقع في مجلدين ثلاثة ." ص 146 .وقد أخطأ بالانثيا في تحديد عنوان الكتاب والعنوان كاملا هو (بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجن).

والكتاب يقع في مجلدين كبيرين بمجموع (1494) صفحة وقد قام بتحقيقه الأستاذ محمد مرسي الخولي ، وراجعه الدكتور عبد القادر القط، وطبع بمطابع الدار المصرية للتأليف والترجمة دار الجبل، مصر، دت. والكتاب في حقيقته معلمة أدبية ثقافية شاملة، عبرت عن الحس النقدي للمؤلف حيث اختار موضوعاته، ومختاراته بعناية فائقة.

([2]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس). ج1، ص 312. رقم(1101). الحميدي: الجذوة، ص 51، 52. رقم(60)./ ابن بسام: الذخيرة، ق1/1/ص437 وما بعدها./ الضبي: البغية، ص 66، 67. رقم (125). ابن سعيد: المغرب ، ج، ص وما بعده.

([3]) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 123.

([4]) المصدر نفسه: ص 370./ ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ص 799.

وكان من كرم بني الأفطس على الشعراء والأدباء والعلماء والحدب عليهم أن استجلبوا إلى حاضرتهم العديد من أعلام تلك الفترة من غير القاطنين في بطليوس وأحوازها وأرباضها. فمن طليطلة وفد الكاتب أبو الخطاب عمر بن أحمد بن عبد الله بن عيطون التجيبي الطليطلي. وكان شاعرا جيد الصناعة، وأحد بحور البراعة، ومن جلة الفضلاء الذين وفدوا على المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وكان المتوكل قد اعتل، ومع ذلك فقد خرجت منه جوائز للشعراء فقال:

وما اعتل عنا جوده باعتلاله ❖❖❖ ولكن وجدنا بره لا يهنأ

تنغص شكواه بجدواه عندنا ❖❖❖كأنا عطاش البحر في الماء نظمأ[1]

وقد حفظ لنا ابن بسام جملة من شعره، ومن غرر قصائده التي قالها في مدح المتوكل بن الأفطس منها:

عاكف جفني على سهره ❖❖❖ سيف جفن سل من حوره

نفحت بالسحر هبته ❖❖❖ فانثنى والصبر من جزره.[2]

وفيها يقول:

قد بنى ملكا مظفره ❖❖❖ باسمه المشتق من ظفره

ثم سماه له عمرا ❖❖❖ كي يكون الدهر من عمره

يا مليكا كل شاردة ❖❖❖ سقتها في الشعر من فقره

ليس لي فضل بمدحته ❖❖❖ سلكه أدرجت في درره.

إنني في ما أجيء به ❖❖❖ جالب تمرا إلى هجره.[3]

([1])ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 16./ ابن بسام: الذخيرة، ق2/3/ص 373 وما بعدها.

([2]) الذخيرة: ق2/3/ص 744.

([3]) ابن بسام: الذخيرة، ق775/2/3.

وغيرها من الأبيات التي قالها هذا الشاعر في مدح المتوكل عمر بن الأفطس ومن هؤلاء الذين اجتلبتهم حاضرة بطليوس، الشاعر ابن اللبانة الداني، حيث نجده يمدح المتوكل عند قدومه من بلاد الجوف، وقد أوقع بقوم من الجناة، بقصيدة أولها:

مضيت حساما لا يفل له غرب ❖❖❖ وأبت غماما لا يحد له كسب.

وأصبحت من حاليك تقسم في الورى ❖❖❖ هبات وهبات هي الأمن والرعب.

رغا فوقهم سقب العقاب فأصبحوا ❖❖❖ نشاوى من البلوى كأنهم شرب[1]

إلى آخر القصيدة. وعندما فارق المتوكل ببطليوس قال:

رضى المتوكل فارقته ❖❖❖ فلم يرضني بعده العالم.

وكانت بطليوس لي جنة ❖❖❖ فجئت بما جاءه آدم[2]

وفي هذه الأبيات دلالة على ما كان ينعم به ابن اللبانة في حاضرة المتوكل. ومثله الوزير الكاتب أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بالباغ، لما هرب من سرقسطة بعد استيحاشه من أميرها المقتدر بن هود، فر إلى المعتمد بن عباد، ثم لحق بالمتوكل فآواه، وأجزل قراه، وخاطب المعتمد فيه، ورحب به في بطليوس مثواه.[3]

ومن غير الأندلسيين أصلا، الذين وفدوا على حاضرة بني الأفطس في عصر الطوائف إضافة إلى ابن شرف القيرواني، هناك إفريقي آخر يسمى أبا محمد ابن الطلاء المهدوي وهو أحد أضياف المعتمد بن عباد أساسا والقادم من إفريقية، وقد حفظت له المصادر شعرا أنشده للمتوكل قال فيه:

أفاقت بك الأقطار من برص البلوى[4]

([1])المصدر نفسه: ص 670 وما بعدها./ ديوانه ، ص 55 وما بعدها.

([2])الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 790 والأبيات عند ابن بسام في الذخيرة.ق3/2/ص673.

([3])ابن بسام : الذخيرة، ق3/1/ص 253.

([4]) المصدر نفسه.ق4/1/ص360 ./ الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري .ج1، ص 232، 233.

وإلى جانب كل هؤلاء الوافدين على حاضرة بطليوس من الحواضر الأندلسية الأخرى، أو من خارج شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد عرفت من أبنائها كتابا وأدباء وشعراء كبارا وعلماء أجلة. منهم الكاتب أبو بكر عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي(ت بعد 520 هـ) وهو أحد الأخوة الثلاثة (ابن القبطورنة) الذين مر ذكرهم، وكان أبو بكر هذا من جلة الأدباء ورؤسائهم كاتبا مترسلا وشاعرا مجودا، وكتب للمتوكل بن الأفطس ولابن تاشفين من بعده[1]

ومن الوزراء والكتاب الجلة الذين وزروا أو كتبوا للمتوكل أو كانوا في بلاطه، أبو الوليد بن الحضرمي[2] وأبو عبد الله محمد بن أيمن[3]، والوزير الكاتب أبو الوليد عبد الرحمن بن مولود، وقد علا إلى درجات الوزراء والكتاب عند المتوكل بن الأفطس، وهو صاحب شعر يدل على مكانته السامية في مجال القول والنظم والكتابة.[4]

ولا يحسن الحديث عن حاضرة بطليوس دون الحديث عن ثلاثة أعلام كبار، خلدتهم أعمالهم (أشعارهم ومؤلفاتهم)، حيث كانوا من الأعلام النجباء، ومن نوادر الوقت والمبرزين في تلك الفترة، طلعت أنجمهم في أفق السماء: شاعران ولغوي كبير، وهم عبد المجيد بن عبدون، وابن سارة الشنتريني، وابن السيد البطليوسي. وأولهم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون" الوزير العالم المستبحر في جميع الفنون"[5]

وصفه ابن بسام قائلا:" وأبو محمد في وقتنا سر الدهر المكتوم، وشرف فهر الحديث والقديم، لسان صدقها في الآخرين، وقمر أفقها الذي ملأ الصدور والعيون وديوان علمها المذال والمصون"[6]

كان ابن عبدون شاعر بني الأفطس الأول، ومنشد مملكتهم، وصاحب الرائية الشهيرة التي رثاهم بعدما نكبتهم قوات المرابطين الذين أنهوا حكم هذه الأسرة لهذه المملكة، ومنها:

([1])ابن بسام: الذخيرة، ق2/2/ص753. وما بعدها./ ابن الأبار: التكملة (تحقيق الهراس) ج3، ص 90.رقم(220).

([2])ابن سعيد: المغرب، ج1، ص 372.

[3] : المصدر، نفسه، ص 366./ابن بسام: الذخيرة، ق/2/2/ص 652 وما بعدها.

([4])ابن دحية: المطرب، ص 37، ولنا عودة إلى مصادر ترجمته بالتفصيل في الفصل الموالي من البحث – إن شاء الله.

([5])الذخيرة : ق 2/2/668، 669.

([6])المصدر نفسه: ص 721 وما بعدها/ ابن دحية: المطرب، ص 37 وما بعدها./ ابن الأبار الحلة السيراء(طبعة دار الكتب العلمية)، العلمية)، ص 230 وقد أورد أبياتا منها./ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 186 وما بعدها

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ❖❖❖ فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ❖❖❖ عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ❖❖❖ والبيض والسود مثل البيض والسمر

ولا هوادة بين الرأس تأخذه ❖❖❖ أي الضراب وبين الصارم الذكر.

إلى آخر القصيدة الشهيرة. كما حفظت كتب التاريخ والتراجم بعض المكاتبات والمراسلات بين الشاعر عبد المجيد بن عبدون وبين ملكها المتوكل بن الأفطس[1]

ولم يكن ابن عبدون شاعرا وأديبا فحسب، فهو عالم ومؤلف كذلك، وصاحب " ثلاث رسائل في الحسبة"*.

أما الشاعر الثاني فهو أبو محمد عبد الله بن محمد ابن سارة البكري الشنتريني(ت 517هـ / 1123م)، فقد ضمته حاضرة بطليوس، حيث عاش في بلاط بني الأفطس مدة من الزمن.[2] على الرغم من تنقلاته المتعددة بين مختلف الحواضر الأندلسية.

أما اللغوي والنحوي الكبير، أبو محمد عبد الله بن محمد ابن السيد البطليوسي (ت521 هـ) فهو أشهر من أنجبته بطليوس، وغرب شبه الجزيرة بشكل عام. وصفه الفتح بن خاقان فقال:" إمام الأوان، ومعلم النحو، وعلم الإثبات فيه والمحو، به يدرك غامضه، ويستثار رابضه، وهو بالأندلس في الأدب كالجاحظ بل أرفع درجة، ونسب إلى بطليوس لتردده بها، ولمولده في تربها"[3]

([1]) مثال ذلك عند ابن الأبار في الحلة ، ص 231./ ابن بسام، الذخيرة، ق 2/2/ص 710، 711. وغيرها. الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص 422. (شعر مشترك مع المتوكل)

*حققها المرحوم الأستاذ إحسان عباس، وطبعت بعنوان (رسالة في القضاء والحسبة) لابن عبدون محمد بن أحمد بن عبدون القاضي بإشبيلية./ طبعت باعتناء ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة(1955 م). ينظر: محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، ص 281. وله كتاب آخر في نصرة أبي عبيد على ابن قتيبة./ ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية).ج2، ص 29./ ابن الزبير: صلة الصلة. ص 177.

([2]) آنخل بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 150، ولنا عودة مفصلة حول مصادر ترجمته في الفصل الموالي، إنشاء الله تعالى.

([3]) قلائد العقيان، ص 708. ولنا كذلك عودة إلى مصادر ترجمته في الفصل المقبل بحول الله.

وما أعظم ما أنجبت حاضرة بطليوس من اللغويين، والنحاة الجهابذة، غير ابن السيد البطليوسي السابق ذكره.

منهم عبد الله بن خطاب بن يوسف بن هلال، ويقال فيه المرادي، من أهل بطليوس، أخذ العربية عن أبيه خطاب، وقعد للتعليم، ثم نزع إلى خدمة السلطان، فكتب للمظفر أبي بكر محمد بن عبد الله بن الأفطس، ثم كتب للمعتضد بن عباد بإشبيلية، ولابنه المعتمد[1] . وأبو بكر النحوي، عاصم بن أيوب البطليوسي(ت 494 هـ / 100م) كان إماما في اللغة، وله شرح على الأشعار والمعلقات[2] . وصنوهما، أو هو أرفع طبقة، خطاب بن يوسف بن هلال المازري القرطبي البطليوسي(ت450 هـ) كان متقدما في علوم اللسان، وتصدر لإقراء العربية طويلا وصنف فيها، متحقق بالنحو يؤخذ عنه ويرغب فيه، له نظم فيما يذكر ويؤنث، وكتاب " الترشيح" في النحو كبير واختصر (الزاهر) لابن الأنباري، ومع ذلك فقد كان له حظ في قرض الشعر، واقف على كتب الأخبار والأشعار، وكان مؤلفه السابق (الترشيح) معينا نهل منه، ونقل عنه أبو حيان، وابن هشام كثيرا، وقد توفي في آخر أيام المظفر بن الأفطس.[3]

وهكذا نلحظ عناية هذه الأسرة الكبيرة (بني الأفطس) التي حكمت مملكة بطليوس في دفع عجلة التقدم الحضاري والازدهار الفكري الذي عاشته حاضرتها في عصر الطوائف. ومدى إسهاماتها الكبيرة في كشف الحجب عن أنوار المعرفة، وتيسير السبل للوصول إلى معين العلوم

([1]) ابن الأبار: التكملة (تحقيق عبد السلام الهراس). ج2، ص 244. رقم(694)./ رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، من الفتح إلى سقوط الخلافة (92 هـ / 989 هـ). دار الآفاق العربية القاهرة، مصر، ط1، 1424 هـ/ 2004 م، ص 226. رقم (360) . وذكر سنة وفاته (480 هـ).

([2]) ابن بشكوال: الصلة (طبعة دار الكتب العلمية) ج2، ص 79، رقم(978)./ الفيروز آبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة. ص 507(1335)./ البغدادي: هدية العارفين، ج1، ص 435./ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص 1740./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج5، ص 15./ رجب عبد الجواد إبراهيم: معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 205، رقم(315)./ القفطي: إنباه الرواة، ج2، ص 384. رقم(533).

([3]) ابن الأبار: التكملة(تحقيق الهراس). ج1، ص 238.رقم (806)./ الفيروز آبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 131. رقم (122)./ السيوطي: بغية الوعاة، ص 447.(1161)./ حاجي خليفة، كشف الظنون، ص 507، 948./ البغدادي: إيضاح المكنون . ج 1ص 821./ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج4، ص 103./ رجب عبد الجواد إبراهيم : معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس، من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 144، رقم (240)./ ذكره ابن خير الإشبيلي في الفهرسة، ص 319. وذكر مجموعة مؤلفاته.

والثقافة، وقد بلغت في ذلك شأوا عظيما في منافسة ملوك الحواضر الأخرى، وذلك في اجتلاب العلماء والأدباء والشعراء، وأصحاب الفضيلة والفهم، حيث لقي منها أهل العلم كل فضيلة وإحسان ومعروف.

وخاصة عند المظفر بن الأفطس، وابنه المتوكل عمر، وقد أسهموا هم أنفسهم في هذه النهضة المعرفية، من خلال التأليف وقرض الشعر، وأنواع التراسيل التي خلفوها، ومن خلال تشجيع أهل العلم والمعرفة والإغداق عليهم، وتعظيم صنائعهم، مما جعل حاضرة بطليوس في تلك الفترة من أقوى ممالك الطوائف وأزهاها ، معرفيا، وثقافيا، وحضاريا.

الخاتمة:

النفوس في طبيعتها تشرئبّ إلى النتائج وتصبو إلى النهايات، وتطمئن إلى الهدف المنشود، وتتطلع إلى الغرض المقصود -كما ذكر علماؤنا -دون التذييل في الكلمات والتطويل في العبارات، ونحن أردناها كذلك.

رسمت في الصفحات السابقة من هذا البحث صورة للثقافة الأندلسية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، أو ما يعرف بعصر الطوائف.

والثقافة هي رمز هوية الأمة و شعارها وعنوانها الأول، فكل هوية تستند إلى ثقافة، وكل ثقافة تستند إلى مرجعيات وأصول ومنطلقات، بل ثوابت تحدد ملاحمها وتشكّل بنيتها، وتؤثر فيها، كذا هو الشأن بالنسبة للثقافة الأندلسية بشكل عام. فقد نشأت الثقافة الأندلسية مع الفتح الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، وخطت خطوات وئيدة، ولكنها ثابتة لأنها في طور التشكل والتأسيس.

وكان عهد الإمارة هو الزمن الفعلي لهذه الثقافة وخاصة في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط)، حيث تميّزت الثقافة الأندلسية في هذه الفترة بطابع التشريق، فقد مارس المشرق عن طريق أعلامه وتياراته تأثيرا كبيرا في هذه الثقافة، نظرا لكون الفاعلين في الحياة العلمية الأندلسية من المرتحلين إلى المشرق، الطائفين بمختلف مدنه وحواضره، خاصة الحواضر العراقية، بغداد، البصرة، الكوفة، حيث كانت المدنية في قمة نضجها، وأوج تطورها ورقيها.

ولم يكد يهلُّ عصر الخلافة حتى أشعّ نور التميز على الثقافة الأندلسية التي وسمت بطابع الخصوصية، و قد أريد لهذه الثقافة أن تستقل بشخصيتها عن الثقافة المشرقية، وقد صاحب ذلك دخول الحياة السياسية للأندلس في مفترق خطير؛ حيث خضع لأزمة هيكلية كبيرة، تمثلت في إعلان الخليفة عبد الرحمن الناصر استقلال الخلافة الأندلسية عن الخلافة العباسية في المشرق.

فقد كان الخليفة الناصر أن الاستقلال برسم الخلافة و في رمز الوحدة الجامعة للمسلمين، يتطلب منه الاستقلال من الناحية الثقافية، فاستعد لذلك طويلا فكان العلماء والأدباء

والشعراء والأطباء يتبارون في ميادين قرطبة ومساجدها وقصورها وجوامعها ومكتباتها، فظهر النتاج الثقافي الأندلسي المتميز، وظهرت معه جيوش العلماء وطلائع التآليف. ويمكن أن نقرر دون مغالاة في الحكم أن عصر الخلافة، هو العصر الذهبي للثقافة الأندلسية وعنوان استقلالها وشعار تميزها.

ولقد سارت هذه الثقافة في العهد العامري على هذا النهج، أما في القرن الخامس (الإطار الزمني لهذا البحث) فقد عرفت فيه الأندلس انهيار الحكم المركزي رمزا للوحدة، وانتثر عقد البلاد، حيث تشكّلت كيانات متفاوتة فيما بينها، صغرا وكبرا، قوة وضعفا، عرفت تاريخيا باسم ممالك الطوائف، بعد أن مرت البلاد بأزمة خلافة دامت أكثر من ربع قرن، عرفت باسم الفتنة القرطبية.

وقد كان لهذه الأزمات السياسية صدى كبيرا في مؤلفات العلماء وفي قصائد الشعراء، وفي نتاج المؤرخين و الأدباء.

أما التشرذم السياسي فقد كان يقابله ويوازيه ازدهار ثقافي كبير عرفته الأندلس في هذه الفترة، مما اضطرنا إلى أن نقف مطولا حول هذه الظاهرة محاولين فهم هذه المفارقة المتميزة في التاريخ الثقافي للأندلس.

وكان روّاد هذه المسيرة العلمية المظفرة هم الملوك أنفسهم، والأمراء المتناحرون فيما بينهم، منهم ملوك العبابدة في إشبيلية وبنو ذو النون في طليطلة وبنو هود أصحاب سرقسطة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس، وبنو زيري الصنهاجيون أصحاب غرناطة، دون أن ننسى الجهاورة أصحاب قرطبة، وبني طاهر أصحاب مرسية، وبني حمود أصحاب مالقة وبني صمادح ملوك ألمرية، وبني رزين أصحاب السهلة، وغيرهم من ملوك ورؤساء الطوائف الذين كانوا كلهم إما شعراء أو علماء أو أدباء.

فقد انتسبوا للعلم والثقافة، وشجّعوا أهلها وأغدقوا عليهم من عطاياهم السنيّة بعدما كانوا سببا في تفرق كلمتهم وضياع البلاد، كانوا كذلك سببا في الازدهار العلمي والثقافي للأندلس، إضافة إلى جملة من الأسباب منها: الإرث الثقافي والحضاري العظيم الذي خلفته عصور الإمارة والخلافة والعهد العامري وعوامل كثيرة.

أما الشخصية العلمية الأندلسية، فقد اكتسبت قوتها وتنوعها وتميزها من خلال التواصل الثقافي للأندلس مع باقي حواضر العالم الإسلامي، وقد قسمنا هذه الحواضر التي تواصل عها الأندلس ثقافيا إلى حواضر الشرق الإسلامي، وحواضر الغرب الإسلامي.

وكانت أهم الحواضر المشرقية، الحجاز (مكة والمدينة)، والعراق،(بغداد، البصرة، الكوفة، الموصل)، والقدس الشريف.

أما حواضر الغرب الإسلامي التي تواصل الأندلسيون مع علمائها فقد كانت حواضر مصر التي ألحقها الجغرافيون القدماء بالغرب الإسلامي، وكذا المراكز العلمية والفكرية المنتشرة في ربوع شمال إفريقية مثل: فاس وتلمسان وبونة وبجابة والمسيلة والقيروان والمهدية، كما كان التواصل مع جزيرة صقلية المتوسطية.

وكان لكل حاضرة من هذه الحواضر، أو قطر من الأقطار طابعه الخاص في هذا التواصل المعرفي من ناحية التميّز؛ ففي حواضر الحجاز، كان علم الحديث السمة الأبرز في الدراسات الشرعية، أما في العراق فقد استفاد الأندلسيون من التيارات الفكرية والفلسفية التي كانت سائدة في البيئة العراقية، وكذا التيارات الجديدة في الشعر العربي هناك.

أما حواضر مصر فالأغلب عليها القراءات القرآنية، كما اشتهرت حواضر شمال إفريقية وبخاصة الشرقية منها بالدراسات الفقهية المالكية.

ونظرا لتشابه الوضع بين حاضرتي صقلية والأندلس فقد كان التأثير متبادلا، وإن تشاركت هذه الحواضر كلها في مختلف العلوم و الفنون، وكان أثر ذلك كله في النتاج الثقافي الأندلسي المتميز في مختلف فروع المعرفة.

وقد شهدت كل حاضرة ألوانا من المعرفة و ضروبا من العلم و الثقافة، وتميّزت كلها أو بعضها في تخصصات معينة ذكرناها في صفحات البحث.

ومنه فليس عجيبا أن يطلع من الأفق الغربي للعالم الإسلامي (الأندلس) علماء وفقهاء كبار وأدباء وشعراء ومؤرخون وجغرافيون ورياضيون، وفلكيون وموسيقيون، حملوا مشعل الثقافة الأندلسية التي كان شعارها الخصوصية والتميز.

ثبت المصادر و المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش.

أولا: المصادر

- **ابن الأبار القضاعي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر (ت 658هـ) :**

- إعتاب الكتّاب، حققه وعلّق عليه و قدّم له : الدكتور صالح الأشتر، دار الأوزاعي، بيروت، ط2، 1986م/ 1406هـ.
- تحفة القادم، أعاد بناءه وعلّق عليه: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986م/1406هـ.
- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق الدكتور: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995م/1415هـ.
- التكملة لكتاب الصلة، ضبط نصّه وعلّق عليه: جلال الأسيوطي، طبع ضمن مجموعة تضم : الصلة لابن بشكوال، وصلة الصلة لابن الزبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1429هـ/2008م.
- الحلّة السِّيراء، حققه وعلّق حواشيه: الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985م، الجزء الأول.
- الحلة السِّيراء ، وضع حواشيه وعلّق عليه: علي إبراهيم محمود ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م/1429هـ.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، طبع في مدينة مجريط بمطبعة روخس، 1885م.

- **ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ):**

- الكامل في التاريخ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه: نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1980م/1400هـ.

- **الإدريسي الشريف، أبو عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الله (ق6هـ):**

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1989م/ 1409هـ.

- **الأدنروي، أحمد بن محمد(ق11هـ):**

- طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1997م/ 1417هـ.

- **ابن أبي أصيبعة، موفّق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي (ت668هـ):**

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.

- **أرسلان، شكيب الأمير (ت1366):**

- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،دار مكتبة الحياة، لبنان، دت.

- **الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت476هـ):**

- شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، دراسة وتحقيق: إبراهيم نادن، قدّم له وراجعه: الدكتور محمد بنشريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 2004م/1425هـ.

- النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه، دراسة وتحقيق: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 1999م/1420هـ.

- **ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين بن محمد(ت577هـ):**

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م.

- **ابن إياس ، محمد بن أحمد الحنفي :**

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م/ 1402هـ، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى.

- **الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف (ت474هـ):**

- كتاب التعديل والتجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصحيح، تقديم وتحقيق: أبو لبابة الطاهر صالح حسين، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 2010م/1431هـ.

- المنهاج في ترتيب الحِجاج ومعه السراج على المنهاج لأبي عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ط1، 1425هـ/2004م.

- **الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب (ت467هـ):**

- دمية القصر وعصرة أهل العصر، قدّم له وعلّق عليه: علي إبراهيم محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م/1429هـ.

- **ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي الأندلسي(ت542هـ):**

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997م/ 1417هـ.

- **ابن بشتغير اللورقي، أحمد بن سعيد (ت516هـ):**

- نوازل بن بشتغير، تحقيق: قطب الريسوني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2008م/1429هـ.

- **ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود الخزرجي الأنصاري(ت578هـ):**

- كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، ضبط نصّه وعلّق عليه: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م/1429هـ.

- كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، عني به: صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م.

- **البغدادي إسماعيل، باشا بن محمد لمين بن منير سليم (ت1339هـ):**

- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، أعادت طبعه بالأوفست، دار إحياء التراث العربي، بيروت، عن طبعة وزارة المعارف التركية بإسطنبول، 1951م.

- **البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ):**

- المسالك والممالك، حقّقه ووضع فهارسه: الدكتور جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م/ 1424هـ.

- المُغرب في ذكر بلاد أَفريقية والمغرب، تحرير وتقديم وتعليق: حماهُ الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013م.

- **ابن بلقين، عبد الله (ت488هـ):**

- كتاب التبيان، تحقيق: الدكتور أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، 2011م.
- مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق: ليفي بروفنسال، تقديم: سليمان العطار، ضبطه ووضع فهارسه: الدكتور محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، ط2، 2008م.

- **الترجمان الميورقي، أبو محمد عبد الله بن عبد الله(ت832هـ):**

- تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب، دراسة وتحقيق وتعليق: عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.

- **ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي(ت874هـ):**

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدّم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ، بيروت، ط1، 1413هـ/1992م.

- **التنبكتي، أحمد بابا (ت1036هـ):**

- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004م/1425هـ.

- **الثعالبي، أبو منصور(ت 429هـ):**

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: إيليا الحاوي، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، ط1 ، دت.

- **ابن الجزري، أبو الخير شمس الدين محمد بن محمد(ت833هـ):**

- غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2010م/ 1431هـ.

- **ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن(ت597هـ):**

- مختصر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حققه وقدّم له ووضع فهارسه: أحمد جمعة عبد الحميد، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2011م/ 1432هـ.

- **الجياني، أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغسّاني(ت498هـ):**

تقييد المهمل وتمييز المشكل (شيوخ البخاري المهملون) دراسة وتحقيق: محمد أبو الفضل، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1997م/ 1418هـ.

- **حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله :**

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة إستنبول، 1941م.

- **ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي الحافظ (ت852هـ):**

- الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، قدّم له وقرّظه: محمد عبد المنعم البري، عبد الفتاح أبو سنة، جمعة طاهر النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م/1415هـ.

- تقريب التهذيب مع التوضيح والإضافة من كلام الحافظين المزي وابن حجر أو من مآخذهما، حققه وعلق عليه ووضحه و أضاف إليه: أبو الأشبال صغير أحمد شاعق الباكستاني، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1423هـ.

- تهذيب التهذيب، اعتنى به: إبراهيم الزيبق، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، دمشق، 2011م.

- **ابن الحداد، القيسي الوادي آشي(ت480هـ):**

- ديوانه، جمع وتحقيق: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م.

- **ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن أحمد الظاهري (ت456هـ):**

- الأصول والفروع، دراسة وتحقيق: عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، بيروت، ، 1، 2011م/ 1432هـ.

- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق: عبد الحق بن ملاحقي التركماني، دراسة و تقديم: أبي عبد الرحمن بن عقل الظاهري، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427هـ/2007م.
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 1430هـ/2009م.
- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط2، 2007م.
- رسالة في وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة ومن جاء بعدهم، دراسة وتحقيق: ياسر محمد ياسين البدري الحسني، تقديم: عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1433هـ/2012م.
- طوق الحمامة في الألفة والألاّف، عني به: الدكتور إبراهيم أعرابي آغا، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، دت.
- طوق الحمامة في الألفة الألاّف، تحقيق: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط6، 2001م.
- الفصل في الملل والأهواء و النحل، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1999م/ 1420هـ.
- كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد والرذائل، تحقيق: إيفا رياض، راجعه وقدّم له وعلّق عليه: عبد الحق بن ملاحقي التركماني، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 2009م/ 1430هـ.
- سنن ابن حزم الظاهري، جمع وعناية وتخريج: مجيد الخليفة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1012/ 1433هـ.

- **الحصري ، أبو الحسن علي بن عبد الغني القيرواني (ت488هـ):**

- علي الحصري القيرواني (الأعمال الكاملة) ، دراسة وتحقيق: محمد المرزوقي، الجيلاني ابن الحاج يحيى، تقديم: محمد اليعلاوي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون(بيت الحكمة)، طبعة خاصة بمناسبة احتفالات القيروان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2009م.

- **الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله (ت488هـ):**

- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م/1417هـ.

- **الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت866هـ):**

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

- **الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن عامر (ت440هـ):**

- البديع في وصف الربيع، تحقيق: هنري بيريس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002م/1423هـ.

- **ابن حيان القرطبي، حيان بن خلف أبو مروان (ت469هـ):**

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس (السفر الثالث)، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: الدكتور محمود علي مكي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 2009م/1430هـ.

- **ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن عبد الله القيسي(ت529هـ):**

- تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس أو مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس، تقديم وتحقيق وتعليق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 2007م/1428هـ.

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حقّقه وعلّق عليه: حسين يوسف خريوش، عالم الكتب الحديث، عمّان، ط1، 2010م/1431هـ.

- **الخشني، أبو عبد الله محمد بن الحارث القيرواني ثم الأندلسي، (ت 361هـ):**

- قضاة قرطبة، تحقيق ودراسة: ياسر سلامة أبو طعمة، دار الصميعي، الرياض، ط1، 2008م/1429هـ.
- كتاب طبقات علماء إفريقية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2006م.

- **الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت463هـ):**

- الكفاية في معرفة أصول الرواية، تحقيق و تعليق: أبي إسحاق إبراهيم بن مصطفى آل بحبح الدمياطي، مكتبة أبن العباس، مصر، 2002م.

- **ابن الخطيب السلماني، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (ت776هـ):**

- الإحاطة في أخبار غرناطة، شرحه وضبطه وقدّم له: الدكتور يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م/1424هـ.
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، أو تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م/1426هـ.

- **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ):**

- رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلّق حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، حرّرها وقدّم لها ، نوري الجراح، دار السويدي، الإمارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003م.
- المقدمة، مراجعة: هيثم جمعة هلال، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 2007م.
- المقدمة: تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.

- **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد البرمكي (ت681هـ):**

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، وضع فهارسه: عبد الله عبد الهادي، تقديم: محمد عبد الرحمن مرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 2009م.

- **ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير عمر بن خليفة الأموي (ت 575هـ):**

- فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، تحقيق: فرانشيسكو كوديرا، و خوليان ريبيرا، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997م/1417هـ. عن الأصل المطبوع في مطبعة قومش بسرقسطة سنة 1893م.

- **ابن خير الله، ياسين العمري(ت بعد سنة 1235هـ/ 1818م):**

- منهج الثقات في تراجم القضاة، تحقيق: بدري محمد فهد، مراجعة: ابتسام مرهون الصفار، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010م.

- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت696هـ):

- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق : عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م/1426هـ.

- **ابن دريد، أبو بكر محمد بن حسين:**

- جمهرة اللغة، علق عليه ووضع حواشيه وضبطه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ، 1، 2005م/ 1426هـ

- **ابن دحية ، أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبي الأندلسي(ت633هـ):**

- المطرب من أشعار أهل المغرب، ضبطه وشرحه: صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2008م/1429هـ.

- **الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الحافظ (ت748هـ):**

- سير أعلام النبلاء، وبهامشه إحكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال كلاهما للذهبي، حققه وخرّج أحاديثه: خيري سعيد، قدّم له دكتور: سيد حسين العفاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2008م.

- سير أعلام النبلاء، تحقيق: نخبة من العلماء، خرج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2011م.

- (مختصر) العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها ، اختصره وحققّه وعلّق عليه وخرّج آثاره: محمد ناصر الدين الألباني، بإشراف: زهير الشاويش: المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 2010م/ 1431هـ.
- معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار عالم الكتب، الرياض، 1424هـ/2003م.

- **الرازي:**

- مختار الصحاح، اعتنى به: أيمن عبد الرزاق الشوا ، دار الفيحاء، دار المنهل ناشرون، دمشق، ط1، 2010م/ 1431هـ

- **ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمود(الجد) (ت520هـ):**

- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة ، وضمنه: المستخرجة من الأسمعة ، المعروفة بالعتبية ، لمحمد العتبي القرطبي (ت255هـ).تحقيق: نخبة من الأساتذة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م.
- المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمّهات مسائلها المشكلات، تحقيق: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.

- **ابن رشيق، أبو علي الحسن المسيلي القيرواني (ت456هـ):**

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: توفيق النيفر، مختار العبيدي، جمال حمادى، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، (2009م).

- **زادة، طاش كبري:**

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1422هـ/2002م.

- **ابن الزبير ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي الغرناطي (ت 708هـ):**

- صلة الصلة، ضبط نصّه وعلّق عليه: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م/ 1429هـ.

- **ابن زيادة الله، أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي(ت403هـ):**

- المختار من شعر بشار، اختيار الخالدين، تحقيق: محمد بدر الدين العلوي، تقديم: عبد العزيز الميمني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2005م/ 1425هـ، عن الطبعة الأصلية لجامعة عليكرة، الهند، 1934م/ 1353هـ.

- **ابن سابق ، أبو بكر محمد الصقلي (ت493هـ):**

- كتاب الحدود الكلامية و الفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية ومعه مسألة الشارع في القرآن، تحقيق: محمد الطراني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008م.

- **ابن الساعي، علي بن أنجب (ت674هـ):**

- الدّر الثمين في أسماء المصنفين، تحقيق: أحمد شوقي بنبين، محمد سعيد حبشي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009م/1430هـ.

- **السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت771هـ):**

- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطنّاحي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، دت.

- **ابن سعيد ، علي بن موسى الأندلسي (ت673هـ):**

- المغرب في حلى المغرب، حققه وعلّق عليه: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1993م.

- **السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد (ت هـ):**

- كتاب في آداب الحسبة، أعده للنشر: جورج كولان وليفي بروفنسال، تقديم: حسن حافظ علوي، مطبعة الأمنية، الرباط، ط2، 2011م/1432هـ.

- **ابن السيد البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد :(ت520هـ)**

- التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين المسلمين، قرأه و علق عليه: الدكتور يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م/1424هـ

- **السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن الحافظ(911هـ):**

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد عبد الرحيم، دار الفكر، بيروت، ط1، 2005م/1425هـ، 1426هـ.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م.

- **ابن شريح ، أبو عبد الله محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي (ت476هـ):**

- الكافي في القراءات السبع، تحقيق: جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، 2006م/ 1427هـ.

- **ابن شهيد ، أبو عامر أحمد بن عبد الملك الأندلسي (ت426هـ):**

- ديوانه ورسائله، جمعه وحقّقه وشرحه: الدكتور محي الدين ديب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002م/1422هـ.

- **صاعد البغدادي ، أبو العلاء بن الحسن الربعي اللغوي (ت419هـ):**

- كتاب الفصوص، تحقيق: عبد الوهاب التازي سعود، 1413هـ/1993م.

- **صاعد الطليطلي ، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت462هـ):**

- طبقات الأمم، تحقيق الدكتور: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، دت.
- طبقات الأمم، تحقيق: حياة بوعلوان، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1985م.

- **الصفدي، صلاح خليل بن أبيك (ت764هـ):**

- كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، تزكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- **ابن الصلاح، تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري(ت643هـ):**

- طبقات الفقهاء الشافعية، وبآخره الذيل على طبقات الشافعية، هذبّه ورتّبه واستدرك عليه: الإمام النووي، بيّض أصوله ونقّحه: الإمام عبد الرحمن المزّي، حقّقه وعلّق عليه: محي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1992م/1413هـ.

- **الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت599هـ):**

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م/1417هـ.

- **الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت321هـ):**

- تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1987م/ 1407هـ.

- **ابن عبد البر النمري، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي(ت463هـ):**

- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجن، تحقيق: محمد مرسي الخولي، مراجعة: الدكتور عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دت.

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط4، 2010م/1431هـ.

- **ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت328هـ):**

- العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، دت.

- **أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم المغربي القيرواني (ت333هـ):**

- طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد بن أبي شنب، طبع ضمن مجموعة تضم، طبقات علماء تونس للمؤلف نفسه، وطبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث الخشني، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2006م، عن الطبعة الأصلية للمدرسة الثعالبية، الجزائر، 1914م/ 1332هـ.

- كتاب طبقات علماء تونس، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2006م.

- **أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد (ت444هـ):**

- جامع البيان في القراءات السبع، تحقيق: عبد الرحيم الطرهوني، يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، 2006م/ 1427هـ.

- **ابن عسكر، أبو عبد الله محمد بن علي بن عبيد الله(ت636هـ)، وأبو بكر بن خميس، محمد بن محمد بت علي (توفي بعد سنة 638هـ):**

- أعلام مالقة، تقديم وتخريج وتعليق: الدكتور عبد الله المرابط النزعي، دار الأمان، دار الغرب الإسلامي، الرباط ، بيروت، ط1، 1999م/1420هـ.

- **العماد الأصفهاني، أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الكاتب(ت597هـ) :**

- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) : نشره: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دت.

- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، نقّحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، 1972م.

- **ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت1089هـ):**

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، دت.

- **ابن عمار ، أبو بكر محمد المهري الأندلسي (ت477هـ):**

- ديوانه، قراءة وتوثيق وتعليق: مصطفى الغديري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، دت.

- **عياض، القاضي بن موسى اليحصبي(ت544هـ):**

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق الدكتور: علي عمر، شركة النشر والتوزيع، القاهرة، دت.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الجزء الأول: محمد بن تاويت الطنجي، الأجزاء(2، 3، 4) عبد القادر الصحراوي، الجزء 5 محمد بن شريفة، الأجزاء(6، 7، 8) سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، 1403هـ/1983م.

- **ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد(ت799هـ):**

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2003م/1423هـ.

- **ابن الفرضي: أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت403هـ):**

- تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.

- كتاب الألقاب، انتخاب أبي القاسم حبيش الأندلسي، ويليه: ممن لم يذكره ابن الفرضي من الألقاب، لأبي عبد الله محمد بن رافع القيسي صاحب ابن حبيش، تحقيق: محمود عبد الفتاح النحّال، دار الفاروق الحديثية، القاهرة، ط1، 1432هـ/2011م.

- **الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ):**

- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق: محمد المصري، دار سعد الدين، دطشق، ط1، 1421هـ/2000م.

- **أبو القاسم ، عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب القرطبي (ت461هـ):**

- الموضح في التجويد، تحقيق: الشيخ جمال محمد شرف، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 2005م/ 1416هـ.

- **ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ):**

الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط1، 1966م.

- **القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي(ت821هـ):**

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، دت، نسخة مصورة على طبعة دار الكتب المصرية.

- **ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز(ت367هـ):**

- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

- **الكتاني، جعفر بن إدريس(ت1323هـ):**

- الفهرسة المسماة، إعلام أئمة الأعلام وأسانيدها بما لنا من المرويات والأسانيد، دراسة وتحقيق: محمد بن عزوز، مركز التراث المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2004م.

- **الكتاني، محمد عبد الحي بن عبد الكبير(ت1382هـ):**

- تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألّف في الكتب، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنبين، عبد القادر سعود، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ط1، 1434هـ/2013م.

- **ابن كثير، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(ت774هـ):**

- البداية والنهاية، مؤسسة المعارف، بيروت، 2009م/1430هـ.
- تفسير القرآن العظيم، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2007م/1428هـ.
- طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق وتعليق وتقديم: الدكتور أحمد عمر هاشم، الدكتور محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت.

- **ابن اللبانة ، أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني (ت507هـ):**

- ديوانه (ابن اللبانة الأندلسي، حياته وآثاره)، تقديم وتحقيق، حمدان حجاجي، منشورات، " نشرات الثقافات" الجزائر، 1998م.

- **المازري الإمام، أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي (ت536هـ):**

- شرح التلقين، تحقيق: محمد المختار السّلاّمي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 2008م.

- **ابن ماكولا ، أبو نصر علي هبة الله الحافظ (ت475هـ):**

- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي، حيدر آباد، الهند، 1962م، أعادت طبعه مؤسسة التاريخ العربي.

- **المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد(ت بعد 449هـ):**

رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضلائهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م/1414هـ.

- **مؤلف مجهول:**

- كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

- **مؤلف مجهول:**

كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققّه:الدكتور سهيل زكّار، الأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1399هـ/1979م.

- **ابن مخلوف، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم(ت1360هـ):**

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرّج حواشيه وعلّق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م/ 1424هـ.

- **المراكشي، ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي:**

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن(القسم الأول والثاني)، تحقيق: الدكتور محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984م.

- **المراكشي، ابن عذاري (ت بعد سنة 712هـ):**

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال وبذيله تاريخ مبتور الأول والآخر ومجهول الاسم والمؤلف في أخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس، المجلد الرابع، تحقيق: الدكتور عبد الله محمد علي: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2009م.

- **المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت647هـ):**

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2005م/1426هـ.

- **المقدسي، محمد بن أحمد (ت375هـ):**

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدّم لها : شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003م.

- **المقدسي، ابن الطاهر المطهري (ت هـ):**

- البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هورت، تقديم ومراجعة التحقيق: الدكتور بن مزيان شرقي، ابن النديم، وهران، 2011م.

- **المقرّي ، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني (ت1041هـ):**

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: علي عمر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة بمناسبة تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م.

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الأجزاء(1، 2، 3) مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، الجزء الرابع، سعيد أحمد أعراب، محمد بن تاويت الطنجي، الجزء الخامس، عبد السلام الهرّاس، سعيد أحمد أعراب./أعيد طبع الكتاب بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات، مطبعة فضالة المحمدية، 1978م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط2، 2004م.

- **المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ):**

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م/ 1418هـ.

- **المعري، أبو العلاء:**

- سقط الزند، دار صادر، بيروت، 1383هـ/1963م.

- **مكي بن أبي طالب، أبو محمد القيسي حموش (ت 437هـ):**

- الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحُجَجها، تحقيق: الدكتور محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1987م/1407هـ.

- **المهدوي، أبو العباس أحمد بن عمار (ت440هـ):**

- هجاء مصاحف الأمصار، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1430هـ.

- **الناصري السلاوي، أبو العباس شهاب الدين أحمد خالد(ت1315هـ):**

- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، اعتنى به: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م/1428هـ.

- **النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي القاضي(ق 8هـ):**

- تاريخ قضاة الأندلس، أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و لفتيا، قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه: صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1426/2006هـ.

- **ابن نجاح، أبو داود سليمان الإمام(ت764هـ):**

مختصر التبيين لهجاء التنزيل،دراسة وتحقيق: أحمد بن محمد بن معمّر شرشال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1421هـ

- **ابن النديم، أبو الفتح محمد بن إسحاق(ت380هـ):**

- الفهرست، قابلة على أصوله وعلق عليه وقدّم له: الدكتور أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2009م/1430هـ

- **النووي، أبي زكريا محي الدين بن شرف الحافظ (ت676هـ):**

- تهذيب الأسماء والصفات، علّق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م/1428هـ.

- التقريب والتسيير لأحاديث البشير النذير، شرح وتحقيق: أحمد بن فارس السلوم، مكتبة المعارف ، الرياض، ط1، 2010م/1431هـ.

- **ابن هارون ، أبو محمد عبد الحق بن محمد القرشي الصقلي (ت466هـ):**

- النكت والفروق لمسائل المدونة والمختلطة، عني به: أبو الفضل الدمياطي، دار ابن حزم، بيروت، بالاشتراك مع مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1، 2009م/ 1430هـ.

- **الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت914هـ):**

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت.

- **ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ):**

- معجم الأدباء المسمى (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق: عمر فاروق الطبّاع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1999م/1420هـ.

ثانيا: المراجع

- **إبراهيم، عبد الله:**

- موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2008م.

- **إسماعيل، محمود:**

- إشكالية المنهاج في دراسة التراث، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004 .

- **أحمد، أحمد الطريبق:**

- القدس بحثا عن معالم الصورة من خلال الرحلة المغربية، الناشر، سليكي إخوان، طنجة، ط1، 2009م.

- **أمين، أحمد:**

- ضحى الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م/ 1425هـ.

- ظهر الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م.

- **أهامي، محمد أحلوش:**

- الترجمة الذاتية في الأدب الأندلسي من خلال أعمال بن حزم، دار القلم، ط1، 1428هـ/2007م.

- **باديس، نور الهدى:**

- دراسات في الخطاب، المؤسسة العربية والنشر، بيروت، ط1، 2008م.

- **بالباس، ليوبولد تورّس:**

- المدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة: إليودورو دي لابنيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 2005م.

- **بروفنسال ليفي:**

- حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.

- الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1994م.

- **البشري، سعد عبد الله:**

- الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس(316هـ -422هـ/928م -1030م)، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، 1417هـ/1997م.
الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس(422هـ -488هـ/1030م -1095م)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1405هـ -1406هـ/1985م -1986م.

- **بعيون، سهى:**

- إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس في عصر الطوائف، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1429هـ/2008م.

- **بنشريفة، محمد:**

- شروح أندلسية غير معروفة لسقط الزند، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1432هـ/2001م.

- **بنمليح، عبد الإلَه:**

- الرق في بلاد المغرب والأندلس، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2004م.

- **بويحيى، الشاذلي:**

- الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، الدولة الصنهاجية (555-362هـ/972-1160م)، نقله إلى العربية: محمد العربي عبد الرزاق، منشورات وزارة الثقافة التونسية، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، 1999م.

- **بويكا، ك:**

- المصادر التاريخية العربية في لأندلس، القرن السابع وحتى الثلث الأول من القرن الحادي عشر نقله إلى العربية: نايف أبو كرم، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1999م.

- **بيريس، هنري:**

- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحة العامة وموضوعاته الرئيسية و قيمته التوثيقية، ترجمة: الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1988م/ 1408هـ.

- **بيضون، إبراهيم:**

- الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس (دراسة في أدب السلطة)، دار النهضة، بيروت، دت.
- الدولة العربية في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1986م.

• التازي، عبد الوهاب سعود:

- صاعد البغدادي، حياته و آثاره، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط1 1993 م/1413هـ.

• **تركي، عبد المجيد:**

- قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي (نصوص ودراسات)، دارا لغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1409هـ/1988م.
- مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي، ترجمة وتحقيق وتعليق:عبد الصبور شاهين، مراجعة محمد عبد الحليم محمود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1406هـ/1986م.

• **الجابري، محمد عابد:**

- تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1982م.
- نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006م.

• **جبرون، محمد:**

- الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري (في تشكيل الهوية السياسية في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري)، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2008م.

الجحمة، نواف عبد العزيز:

رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري(12-14 م) دار السويدي، أبو ظبي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008م.

- **الجعماطي، عبد السلام:**

- النقل والمواصلات بالأندلس عصري الخلافة والطوائف (316هـ -483هـ)، دار ابن حزم، بالاشتراك مع دار الأمان، بيروت/ الرباط، ط1، 1431هـ/2010م.

- **الجيوسي، سلمى الخضراء:**

- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، (مجموعة مقالات وبحوث مترجمة لبعض المستشرقين المتخصصين في الدراسات الأندلسية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، نوفمبر1999م.

- **الحاجري، محمد طه:**

- دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.

- **حامد، أبو أحمد:**

- غرناطة في ذاكرة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م.

- **الحجي، عبد الرحمن علي:**

- الكتب والمكتبات في الأندلس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2007م.

- **حسان، محمد حسان:**

- ابن حزم الأندلسي، عصره ومنهجه وفكره التربوي، دار الفكر العربي، القاهرة، دت.

- **حسن، إبراهيم حسن:**

- تاريخ الإسلام السياسي والديني و الثقافي و الاجتماعي، دار الأندلس، بيروت، ط7، 1967م.

- **حقي، محمد:**

- البربر في الأندلس، دراسة لتاريخ مجموعة إثنية، من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (92هـ/711م -422هـ/1031م)، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط1، 1422هـ/2001م.

- **حليفي، شعيب:**

- الرحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

- **حمادة، فاروق:**

- أبحاث مالكية مغربية، دار القلم، دمشق، ط1، 1430هـ/2009م.

- **حميتو، عبد الهادي:**

- حياة الكُتّاب وأدبيات المحضرة، صورة من عناية المغاربة بالكتاتيب والمدارس القرآنية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 1427هـ/2006م.

- **حوالة، يوسف بن أحمد:**

الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، (90هـ -450هـ)، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1419هـ.

- **اختيار، أسامة:**

- ديوان الشعر العربي في جزيرة صقلية وتراجم شعرائها (212هـ-674هـ)، منشورات وزارة الثقافة السورية، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2008م.

- الشعر العربي في جزيرة صقلية، اتجاهاته وخصائصه الفنية، منذ الفتح حتى نهاية الوجود العربي فيها (212هـ-647هـ)، منشورات وزارة الثقافة السورية، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2008م.

- **خفاجي، محمد عبد المنعم:**

- الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، دار الجيل، ، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م.

- **دندش، عصمت عبد اللطيف:**

- دراسات أندلسية في السياسة والاجتماع، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1430هـ/2009م.

- **دي طرازي، فيليب الفيكنت:**

- خـزائن الكتـب العربيـة في الخـافقين، منشـورات وزارة التربيـة الوطنيـة والفنـون الجميلـة اللبنانية، دت.

- **ذنون، طه عبد الواحد:**

- دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م.

- **ريبيرا، خوليان:**

- التربيـة الإسـلامية في الأنـدلس أصـولها المشـرقية وتأثيراتهـا الغربيـة، ترجمـة: دكتـور الطـاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط2/ 1994م.

- **الريسوني، محمد المنتصر:**

- الشعر النسوي في الأندلس، قدّم له: عبد الله كنّون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978م.

- **زناتي، أنور محمود:**

- ابن حيان القرطبي مؤرّخا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1432هـ/2011م.

- مصـادر تـاريخ المغـرب والأنـدلس(المصـادر، المراجـع، الـدوريات)، دار سـحر للنشـر، المغـرب، ط1، 2008م.

- **أبو زهرة، محمد الإمام:**

- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكـر العربـي، القاهرة، دت.

- ابن حزم، حياته وعصره، آراؤه الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

- **الزوين، محمد:**

- ابن بونس الصقليّ(451هـ) وأثره في الفقه المالكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، الدار البيضاء، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2009م.

- **زيدان، جرجي:**

- تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، 1992م.

- **سالم، السيد عبد العزيز:**

- بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1411هـ/1991 م.
- تاريخ المسلمين وآثارهم (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2001م.
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1969م.
- التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2008م.

• **السحيباني، حمد بن صالح:**

- الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، عصر ملوك الطوائف في الأندلس أنموذجا، صدر ضمن سلسلة المنتدى الإسلامي، رقم (39)، وطبع بمطابع الأهرام، مصر.

• سعد، قاسم علي:

- جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارت العربية المتحدة، ط1، 1423هـ/2002م.

• سزكين، فؤاد:

- تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، راجعه: عرفة مصطفى، سعيد عبد الرحيم، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، إيران، ،د 2، 1403هـ/1983م.

• **شاك، فون:**

- الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985/1406م.

• **شبارو، محمد عصام:**

- قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1992م.

الشريف، خالد بن عبد الله:

مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها (دراسة سياسية اقتصادية، 422هـ/892م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، د 1، 1430هـ/2009م.

- **الشكعة، مصطفى:**

- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 2005م.
- المغرب والأندلس (آفاق إسلامية وحضارة إنسانية، ومباحث أدبية)، دار الكتب الإسلامية، القاهرة/ بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.

- **الشيال، جمال الدين:**

- التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة، دار الثقافة، بيروت، دت.

- **ضيف، شوقي:**

- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ليبيا، تونس، صقلية، دار المعارف، القاهرة، د 2،2009م.

- **أبو الصبر، عبد الرزاق:**

- تاريخ الغرب الإسلامي من خلال جغرافيات مشرقية مؤلفة قبل نهاية القرن الخامس للهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013م/1434هـ

- **الطاهري، أحمد:**

- عامة قرطبة في عهد الخلافة، دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، منشورات عكاظ، الرباط، 1989م.

- **طويل، مريم قاسم:**

- مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح (443هـ-484هـ/1051م-1091م) دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1414هـ/1994م.

- **عباس، إحسان:**

- أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلفي (576هـ)، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1963م.

- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، ط8، دت.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر لطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ط8، دت.
- العرب في صقلية، دراسة في التاريخ والأدب، دار الثقافة بيروت، 1999م.

- **عاصي، حسين:**

- عبد الرحمن بن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر وإفريقية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/1992م.

- **العاني، محمد شهاب:**

- الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، دار دجلة، عمّان، ط1، 2010م.

- **عبد الله، نافع:**

- الأعياد والمهرجانات في الشعر الأندلسي، دار الوسام، بيروت، ط1، 2003م.

- **بن عبّود، أمحمد:**

- جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، جمعية تطوان أسمير، مطابع الشويخ، تطوان، المغرب، ط2، 1999.

- **أبو عبيّة، طه عبد المقصود عبد الحميد:**

- الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، نشأتها في المشرق، انتقالها إلى الأندلس، دعم الأندلسيين لها، تأثيرها على أروبا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م/ 1424هـ.

- **العتيبي، فوزي عناد القبوري:**

- فقهاء الأندلس والمشروع العامري(367هـ-399هـ/978م-1009م)، دار كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، ط1، 1431هـ/2010م.

- **العلمي، محمد:**

- الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان، الرباط، ط1، 1433هـ/2012م.

- **علوش، سعيد:**

- مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1987م.

- **عنان، محمد عبد الله:**

- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1434هـ/2013م.

- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، نور للدراسات والنشر والترجمة، دمشق، 2009م.

- دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م.

- **عيد، كمال:**

- الثقافة رهان حضاري، دار الوفاء لدينا الطباعة و النشر، الإسكندرية، ط1، 2007م.

- **عيد، يوسف:**

- دفاتر أندلسية في الشعر و النثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، 2006م.

- **عيد، يوسف/ فرحات، يوسف:**

- معجم الحضارة الأندلسية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2000م.

- **عيسى، فوزي:**

- شاعرات الأندلس والمغرب

- **غوتاس، ديمتري:**

- الفكر اليوناني والثقافة العربي، حركة الترجمة اليونانية، العربي في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، ترجمة وتقديم: الدكتور نيقولا زيادة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2003م.

- **غومس، إميليو غارسيا:**

- الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة: الدكتور حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط4، 2008م/ 1429هـ.

- مع شعراء الأندلس والمتبني، نقله إلى العربية: الدكتور الطاهر أحمد مكي، مكتبة وهبة عابدين، مصر، ط1، 1974م/ 1394هـ.

- **الفيومي، محمد إبراهيم:**

- تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م.

- **قبّاني، وسام:**

- عامريات ابن درّاج القسطلي(347هـ-421هـ)، منشورات وزارة الثقافة السورية، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2011م.

- **كحالة، عمر رضا:**

- معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربية، بيروت، دت.

- **كراتشكوفسكي، إغناطيوس:**

- تاريخ الأدب الجغرافي، نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 1987، سحب (2008).

- **كمال، عبد المجيد:**

- الفكر الأندلسي بين الطموح والانتكاسة، قراءة في الفعل السياسي و الاجتماعي والاقتصادي بالأندلس خلال القرن الخامس الهجري، مجموعة البحث المتعددة الاختصاصات، مطبعة أركزاف، الدار البيضاء، ط1، 2008.

- **كنون، عبد الله:**

- النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الثقافة، دت.

- **كوربان، هنري:**

- تاريخ الفلسفة الإسلامية، منذ البنابيع حتى وفاة ابن رشد (1198م)، بالتعاون مع السيد حسين نصر وعثمان يحيى، ترجمة: نصير مروة، حسن قبيسي، راجعه وقدّم له: الإمام موسى الصدر، الأمير عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ، 3، 1983م.

- **كولان، ج. س:**

الأندلس، تعريب : لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني/ دار الكتاب المصري، ط1، 1980م.

- **كونستبل، أوليفيا ريمي:**

- التجـــارة والتجـــار في الأنـــدلس، تعريـــب: فيصـــل عبـــد الله، مكتبـــة العبيكـــان، الرياض، 1423هـ/2002م.

- **لويس، برنارد/ ب، م، هولت:**

- مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث، نقله إلى العربية، وقدّم له: سهيل زكّار، دار التلوين، دمشق، 2008م.

- **ماك كيب، جوزيف:**

- مدنية المسلمين في إسبانيا، ترجمه من الإنجليزية: محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة المعارف، الرباط، ط2، 1405هـ/1985م.

- **مؤذن، عبد الرحيم:**

- الرحلة في الأدب المغربي (النص، النوع، السياق)، مؤسسة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006م.

- **مؤنس، حسين:**

- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1986م.

- فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م)، دار المناهل، بيروت، ط1، 2002م/1423هـ.

- معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، ط10، 2008م/ 1429هـ.

- **مبارك، زكي:**

- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م.

- محمد شعبان، إسماعيل:

- أصول الفقه، تاريخه ورجاله، دار السلام، القاهرة، ط1، 2010م/ 1431 هـ.

- **المساري، محمد العربي:**

- كرّاسات أندلسية (يضم أبحاثا مختلفة لمجموعة من الأساتذة)، تقديم محمد العربي المساري، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008م.

- ممدوح، محمود سعيد:

الاحتفال بمعرفة الرواة الثقات الذين ليسوا في تهذيب الكمال، استخرج نصوصه: صفاء الدين عبد الرحمن، علي بن محمد العيدروس، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1424هـ/2003م.

- **منشد، مجيد خلف:**

- جهود الحافظ ابن عبد البر في دراسة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م.
- ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد والفرق الإسلامية، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1422هـ/2002م.

- **موافي، عثمان :**

- لون من أدب الرحلات (دراسة نقدية)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1973م

- **ميدان، أحمد محمد:**

- دراسات في الأدب الأندلسي، دار الوفاء ، الإسكندرية، ط1، 2004م.

- **مينوكال، ماريا روزا:**

- الأندلس العربية، إسلام الحضارة، وثقافة التسامح، ترجمة: عبد المجيد جحفة، ومصطفى جباري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2006م.
- الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي)، ترجمة : صالح بن معيض الغامدي، دار الانتشار العربي، بيروت، ط2، 2009م.

- **النشار، علي سامي:**

- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط1، 1429هـ/2008م.

- **نويهض، عادل:**

- معجم المفسرين في صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، قدّم له مفتي الجمهورية اللبنانية حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط3، 1409هـ/1988م.

- **النيفر، محمد الشاذلي:**

- دراسات في علوم الحديث ومناهج المحدثين، ضبط نصها وعلّق عليها: طه بن علي بوسريح التونسي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009م.

- **وات، مونتوغومري :**

- فضل الإسلام على الحضارة الغربية، نقله إلى العربية: حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1983م، 1403هـ.

- في تاريخ إسبانية الإسلامية مع فصل في الأدب بقلم: بيركاكيا، ترجمة: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت، ط2، 1988م.

- **الورّاكلي، حسن:**

- وهج وأرج، مراجعات في التراث الأندلسي.

- ياقوتة الأندلس، دراسات في التراث الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م.

- **وزّاني، خالد:**

- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، و تأصيله الفقهي للمذهب المالكي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م.

- **ابن هلال السلمي، إبراهيم بن عطية الله:**

- تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي، دراسة تاريخية حضارية (29هـ-487هـ)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 1430هـ/2009م.

- **هنتش، تيري:**

- الشرق المتخيل، رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، ترجمة : غازي برو وخليل أحمد خليل، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2004م.

- **هيكل، أحمد:**

- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، ط16، 2008م.

ثالثا: الملتقيات والندوات:

- **الاتجاهات الكلامية في الغرب** الإسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم: 118، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005م.
- **الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى،** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم: 48، مطبعة الهلال العربية، الرباط، ط1، 1995م.
- **ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس (الروافد والمعطيات)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ندوة رقم: 5 (26-27-28 أفريل 1993).**
- **الصحابة الكرام في تراث المغاربة والأندلسيين، بحوث الندوة العلمية الدولية التي نظمها مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بمدينة طنجة، يومي (25-26 صفر 1431هـ/10-11 فبراير 2010م)، ندوة رقم: 3، ط1، 1431هـ/2010م.**
- **التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس " الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح" ندوة الرباط (1)، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط1، 2003م.**
- **الرحالة العرب والمسلمين من المغرب وإليه، ندوة " الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموئلا، منشورات وزارة الثقافة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003.**
- **ندوة إشعاع القيروان عبر العصور المنعقدة بالقيروان من 20 إلى 25 أفريل 2009، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون (بيت الحكمة)، قرطاج، تونس، ط1، 2010.**

رابعا : المجلات والدوريات

- محمد مفتاح: مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني عشر، العدد الأول (أفريل -ماي - جوان) 1981م.
- عصمت دندش :: " دراسة حول رسائل ابن العربي مجلة المناهل المغربية، 9، السنة الرابعة، جوا 1977م

خامسا : المراجع الأجنبية

- ✓ EVARISTE LEVI-PROVENÇAL (1894-1956): Histoir DE L'Espagne Musulmane, Paris, 1953
- ✓ Pierre Guichard: Structures Sociales « Orientales » Et « Occidentales » Dans L'espagne Musulmane, Paris1977 .

خطة البحث:

مقدمة

تمهيد

I -الباب الأول: الأندلس جغرافيا، تاريخيا وسياسيا، اجتماعيا واقتصاديا

I -1 -الفصل الأول: الجغرافيا والتاريخ السياسي.

I -1 -1 - المبحث الأول: الجغرافيا ودلالة الاسم.

I -1 -2 -المبحث الثاني: التاريخ السياسي:

أ - الفتح الإسلامي وعصر الولاة:

ب - حكم الأمويين في الأندلس حتى انتفاء رسم الخلافة:

ج - أسباب الفتنة القرطبية (البربرية) وانهيار الخلافة:

- سبب عرقي (إثني):

- سبب جغرافي:

- أسباب اقتصادية واجتماعية:

- الديكتاتورية "العامرية ومحاولة التوريث":

I -2 -الفصل الثاني: الأندلس: تفكك الوحدة وقيام ممالك الطوائف:

I -2 -1 - المبحث الأول: عصر الطوائف.

أ - كلمة عامة في عصر الطوائف:

ب - أساس قيام ممالك الطوائف (قضية العرقية والعصبية ؟؟):

I -2 -2 - المبحث الثاني: ممالك الطوائف:

أ - العرب:

- بنو عباد اللخميون في إشبيلية وقرطبة:

- بنو هود(الجذاميون)، أصحاب سرقسطة (الثغر الأعلى):

- بنو القاسم الفهريين (في البونت)"

- بنو حمود (الحسنيون، العلويون):

ب - موالي بني أمية في الأندلس:

- دولة الجهاورة (بنو جهور) بقرطبة:

ج -البربر:

- بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة ومالقة.

- بنو الأفطس أصحاب مملكة بطليوس.

- مملكة بني ذي النون في طليطلة.
- مملكة بني رزين في السهلة.

د - الفتيان العامريون

- مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية.
- مبارك ومظفر العامريان وحكم بلنسية.
- الفتيان خيران وزهير العامريان" وحكم ألمرية".

هـ - دويلات أخرى صغيرة.

I -2 -3 - المبحث الثالث: مواقف العلماء والفقهاء والشعراء من تصدع الأندلس السياسي في عصر الطوائف.

I -3 -الفصل الثالث: الشعب الأندلسي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

I -3 -1 - المبحث الأول: الاختلاط السكاني وأثره في تشكيل الهوية.

أ - قبل الفتح الإسلامي:

- الأيبيريون.
- الرومان.
- القوط الشرقيون والغربيون.

ب -بعد الفتح الإسلامي:

- البربر.
- العرب.
- المستعربون.
- اليهود.
- الصقالبة.
- الموالي.
- المولودون.

I -3 -2 - المبحث الثاني: مظاهر الحياة الاقتصادية

أ -الزراعة:

ب -الصناعة:

ج -التجارة:

I -3 -3 - المبحث الثالث: مظاهر الحياة الاجتماعية.

II - الباب الثاني: الازدهار الثقافي في عصر الطوائف (الأسباب والعوامل):

II -1 -الفصل الأول: أسباب وعوامل تاريخية:

IV -1 -1 -المبحث الأول: إرث الإمارة والخلافة والعهد العامري:

أ - اهتمام الحكام بالعلوم والمعارف والحث عليها و تشجيع أهلها:

ب - شغف الأندلسيين بالعلم و ظهور أماكن العلم والتعليم

ج - الكتب والمكتبات والوراقة والوراقون و دورهم في تطور الحياة العلمية

II -1 -2 -المبحث الثاني: الحياة العلمية في الأندلس (عصر الإمارة والخلافة) إجمالا:

أ -الأدب واللغة:

- الأدب:

- اللغة:

ب -العلوم الدينية: **(علوم القرآن - القراءات -التفسير -الحديث)**

ج -التاريخ والجغرافية:

د - الفلسفة:

هـ - العلوم التجريبية(التطبيقية):

- الطب والصيدلية

- الفلك والرياضيات

II -2 - الفصل الثاني: عوامل أخرى موضوعية

II -2 -1 -المبحث الأول: الرحلات العلمية:

II -2 -2 -المبحث الثاني: وسائط الثقافة الأندلسية و دورها في عملية التوهج الثقافي

أ - المساجد، المدارس، الكتاتيب، بيوت الأساتذة.

ب - المكتبات وهواة جمع الكتب.

ج - المرأة الأندلسية والتعليم في عصر الطوائف:

III - الباب الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس ومختلف الأقطار الإسلامية، أثره في تشكيل الهوية الثقافية للأندلس.

III -1 -الفصل الأول: التواصل الثقافي الأندلسي/ المشرقي.

- ✓ كلمة عامة في الرحلة
- ✓ الرحلات الأندلسية والتواصل الثقافي:

III -1 -1 -المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس والحجاز.

III -1 -2 -المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والقدس.

III -1 -3 -المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والعراق.

III -2 -الفصل الثاني: التواصل الثقافي الأندلسي/ وحواضر الغرب الإسلامي.

- ✓ مدخل

III -2 -1 -المبحث الأول: التواصل الثقافي بين الأندلس ومصر.

III -2 -2 -المبحث الثاني: التواصل الثقافي بين الأندلس والمغرب الأقصى.

III -2 -3 -المبحث الثالث: التواصل الثقافي بين الأندلس والجزائر (المغرب الأوسط)

III -2 -4 -المبحث الرابع: التواصل الثقافي بين الأندلس وإفريقية (تونس).

III -2 -5 -المبحث الخامس: التواصل الثقافي بين الأندلس وصقلية.

IV - الباب الرابع: تعدد الحواضر الأندلسية ودور الأسر الحاكمة في الحركة العلمية:

- ✓ تعدد الحواضر الأندلسية ودور الأسر الحاكمة في الحركة العلمية
- ✓ التنافس العلمي بين رؤساء الطوائف، وأثر ذلك على الناحية الثقافية:
- ✓ دور الوزراء في النهضة العلمية في عصر الطوائف:
- ✓ دور الموالي في النهضة العلمية:

IV -1 -الفصل الأول: حواضر الموالي:

IV -1 -1 -المبحث الأول: بنو جهور وحاضرة قرطبة.

أ - العلوم الدينية (الفقه، الحديث، القراءات، علوم القرآن)

ب - التاريخ والجغرافية.

ج - الفلسفة والعلوم الطبية والرياضية.

IV -1 -2 -المبحث الثاني: مجاهد العامري وحاضرة دانية والجزائر الشرقية.
IV -2 -الفصل الثاني: الحواضر العربية:
IV -2 -1 -المبحث الأول: بنو حمّود وحاضرة مالقة.
IV -2 -2 -المبحث الثاني: بنو عبّاد اللخميون وحاضرة إشبيلية.
IV -2 -3 -المبحث الثالث: بنو هود الجذاميون وحاضرة سرقسطة.
IV -2 -4 -المبحث الرابع: بنو صُمادح وحاضرة ألمرية.
IV -2 -5 -المبحث الخامس: بنو قاسم الفهريون وحاضرة ألبونت.
IV -2 -6 -المبحث السادس: بنو طاهر وحاضرة مرسية.
IV -3 -الفصل الثالث: الحواضر البربرية:
IV -3 -1 -المبحث الأول: بنو زيري وحاضرة غرناطة ومالقة.
IV -3 -2 -المبحث الثاني: بنو ذي النون وحاضرة طليطلة.
IV -3 -3 -المبحث الثالث: بنو رزين وحاضرة السهلة (شنتمرية الشرق).
IV -3 -4 -المبحث الرابع: بنو الأفطس وحاضرة بطليوس.

خاتمة

ثبت المصادر والمراجع